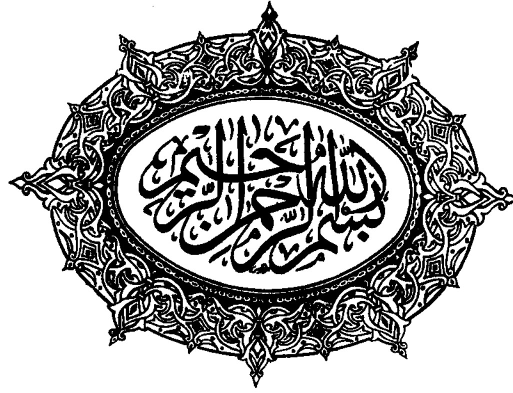
ايمن خليفه عليوى
خريج جامعة الأزهر الشريف

جامع النقول في أسباب النزول

وشرح آياتها

الجزء الأول

الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

الجُزءُ الأوَّلُ

بسم الله الرحمن الرحيم

((المقـــدمة))

الحمد لله الملك القدوس السلام، ذى الجلال والإكرام، وذى الطول والانعام. لا إلـه إلاّ هو المتعالى العلاَّم. الذي أنزل القرآن الكريم نوراً وهدى ورحمة بحسب الوقائع والمصالح منجَّماً، وجعله بالتحميد مفتتحاً و بالاستعاذة مختتماً، وأوحاه على قسمين متشابهاً ومحكماً. نزل به جبريل الأمين على قلب سيد المرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الصادق الوعد الأمين. صلى الله عليه وعلى آله وخلفائه وجميع المهاجرين والأنصار، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعـد :

فيقول العبد الفقير إلى ر به القدير (عليوى خليفه عليوى) القلعه حى مولداً: قلعة المضيق. محافظة حماه. الشافعى مذهباً. السوريُّ موطناً. لقد رأيت من تمام الفائدة لطلاب العلوم الشرعية أن أجمع لهم في كتاب واحد أقوال العلماء سلفاً وخلفاً في أسباب النزول إذ أن الجمع ذاته هو من مقاصد التأليف ولأنَّ من الواجب على كل مؤلف كتاباً ما في فن قد سُبق إليه أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد:

أولاهـا : استنباط شيىء كان مُعضلاً.

ثانيتها : أو جمعه إن كان متفرقاً.

ثالثتها : أو شرحُه إن كان غامضاً.

رابعتُها : أو حُسنُ نظم وتأليف.

خامستُها : أو إسقاط حشو وتطو يل.

وإني لأ رجو العليَّ القدير أن لا يخلو كتابي هذا من هذه المقاصد التي ذكرتُ.

هذا : وقد ألَّف أئمة الإسلام الأعلام في هذا الفن كُتباً كثيرة في معرفة أحكام القرآن وسبب نزوله. وكل بحسب ما قسم الله لهُ من العلم والفهم والمعرفة، وقد يسَّر الله لى أن أقتفي أثرهم، وأسلك طريقهم في نقل الأخبار الواردة في نزول القرآن الكريم رجاء أن يُضَمَّ اسمي إلى عقد ديوان أسمائهم، وأنال ثوابه في دار النعيم بما يُنعم به عليهم. وإني

لمتأكد أن الخوض في مثل هذا الشأن خطره كبير إذا لم أحسن التدبير والتعبير، كيف لا وقد قال البشير النذير صلى الله عليه وسلم: [من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ]* وقال: [من قال بالقرآن بغير علم فليتبوَّأ مقعده من النار]* وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حينما سُئل عن قوله تعالى: «وَفَاكِهَةً وأَبًّا» أيُّ سماء تظلني، وأي أرض تُقلُّني إذا قلت في كتاب الله تعالى مالا أعلم.

لذا فإني سأبتعد في كتابي هذا — إن شاء الله تعالى — عن كل قول لم يكن متابعاً، وسأبتعد مهما أمكنني — إن شاء الله تعالى — عن التفرُّد في المقال مهما كان راو يه عدلاً، لأنَّ التفرُّد لا يخلو من مقال، وسأترك التطو يل مهما أمكنني في الأسباب الواضحة، إلا أني قد أُطنب أحياناً في الروايات إن كان ما فيها مشوّقاً للأعمال والاقبال على الله تعالى، أو قد أذكر أقوالاً كثيرة إيضاحاً للمعنى المراد من نزول الآية* واقتداءً بسلفنا الأبرار من العلماء الأخيار، وتجديداً لما طال عهده وكاد يدرس رسمه، لقلّة التأليف فيه قمت بهذا الجهد المتواضع تنبيهاً للهمم وتحريضاً على العمل للمقصّرين من أمثالي عن بلوغ الأمل، والله تعالى أسأل التوفيق لإتمام ما قصدت، وإليه أرغب في تيسير ما أردت، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، و يتقبّله مني قبولاً حسناً، وهو حسبي ونعم الوكيل عليه توكلت وإليه المصير.

المؤلف

((معنى سبب النزول))

القرآن الكريم قسمان:

قسم نزل من الله تعالى ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصّة، وإنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق جلَّ جلاله. وهذا ظاهر لا يحتاج إلى بيان. والآيات في هذا الموضوع كثيرة مثل آيات النظر في النفس وفي الكون للوصول إلى إثبات وجود الخالق جل جلاله.

وقسم نزل مرتبطاً بأسباب خاصة — وهو موضوع بحث كتابي هذا الذي سميته (جامع النقول في أسباب النزول) وهو بيان ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه، أو مبينة لحكمة أيام وقوعه، وذلك بأن تقع حادثة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، أو سؤال وجه إليه، فينزّل المولى جل جلاله الآية أو الآيات لتبين ما يتصل بتلك الحادثة، أو بجواب ذلك السؤال، سواء أكانت تلك الحادثة خصومة وقعت بين المسلمين، كالتي وقعت بين الأوس والخزرج بتحريض من اليهود حتى تنادوا: السّلاح السّلاح، فأنزل الله تعالى في ذلك الآيات الحكيمة في سورة آل عمران من قوله تعالى: **«يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا إنْ تُطيعُوا فَريقاً مِنَ الّذينَ أُوتوا الكتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمَانِكُمْ كَافِرينَ*...»** إلى غيرها من الآيات بعدها وهي من أبلغ ما يُنَفِّرُ المؤمنين من طاعة أهل الكتاب فيما يأمرونهم من الانقسام والشقاق، وتدعوهم إلى المحبّة والوحدة والاتفاق* أم كانت تلك الحادثة خطأ فاحشاً ارتكب وذلك كالسكران الّذي أمَّ الناس وهو في نشوة سكره لا يدري ولا يعي مايقول فقرأ بعد الفاتحة (قل يا أيُّها الكافرون أعْبُدُ ما تَعْبُدُن) وحذف لفظ (لا) من **«لاَ أعْبُدُ»** فنزلت الآية الكريمة في تلك الحادثة تنهى عن قربان الصلاة في حال السكر فقال تعالى: **«يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأنْتُمْ سُكَارىَ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُون..»*** وسواء أكان ذلك السؤال المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم يتعلّقُ بأمر مضى مثل قوله تعالى: **«وَيَسْألُونَكَ عَنْ ذي الْقَرْنَيْنِ...»** الآيات* أم يتعلّق بحاضر مثل قوله تعالى: **«وَيَسْألُونك عَنِ الرُّوح قُل الرُّوحُ مِنْ أمْرِ رَبّي ومَا أُوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَليلاً.»*** أم يتعلّقُ بمستقبل مثل قوله تعالى: **«يَسْألُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أيَّانَ مُرْساها..»** وسيأتيك بيان هذا مفصلاً في حينه إن شاء الله تعالى.

((فوائد معرفة أسْباب النزول))

لأسباب النزول فوائد كثيرة أجملها فيما يلي:

الفائدة الأولى :

معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل، وهذه فائدة عظمى لأن فيها نفعاً عاماً للمؤمن وغير المؤمن، أمَّا المؤمنُ فيزداد إيمانه، ويحرصُ على تنفيذ أحكام الله تعالى في الأرض. والعمل بكتابه لما ينكشف له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام التي نزل من أجلها القرآن، وذلك كقوله تعالى: **«إنَّ اللهَ يَأمُرُ بالْعَدْلِ والإحْسَانِ وإيتَاءِ ذي الْقُربى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنْكَرِ والبَغي يَعِظُكَمْ لَعلَّكُمْ تَذَكَّرُون»** وأمَّا الكافر فتهديه تلك الحكم الباهرة إلى الايمان بالله تعالى لما يعلم من أسرار التشريع الإسلاميَّ أنَّه قائمٌ على أساس رعاية مصالح الإنسان لا على الإستبداد والتَّحكُّم والطغيان، وَحَسْبُكَ شاهداً على ذلك تحريم الربا والخمر والرشوة ونحوها من المفاسد لما فيها من ظلم الإنسان لنفسه، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

الفائدة الثانية :

القدرة على فهم الآية، ودفع الغموض عنها لأنه لا يمكن معرفة تفسير الآية تفسيراً صحيحاً إلاَّ بالْوقوف على قصّتها، و بيان نزولها، وفي هذا المعنى قال ابن تيميّه رحمه الله: (معرفة سبب النزول يُعين على فهم الآية، فإن العلم بالسّبب يورث العلم بالمسبب) وذلك كقوله تعالى: **«ولله الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ فَأيْنَما تُوَلّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله إنَّ الله واسِعٌ عَليمٌ»** فظاهر اللفظ الكريم يدلُّ على أنَّ للإنسان أن يُصَلِّيَ إلى أيَّةَ جهة شاء، ولا يجب عليه التوجُّه شطر البيْت الحرام لا في السفر ولا في الحضر. ولكن حينما يعلم أنَّ هذه الآية نازلة في نافلة السفر خاصة، أو فيمن صلَّى باجتهاده، ثم بان له خطَؤه تبيَّنَ له أن الظاهر غير مُراد، إنما المراد التَّخفيف على خصوص المسافر في صلاة النافلة، أو على المجتهد في القبلة إذا صلَّى وتبينَ له خطؤه. عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: [إن هذه الآية نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجّهتْ] وقيل: عميت القبلةُ على قوم فصلُّوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبيَّنوا خطأهم فَعُذِرُوا.. إلى آخر ما فيها من أقوال ستأتيك مفصلّة في حينها إن شاء الله تعالى.

الفائـدة الثالثة :

دفـع تـوهـم الحصر عما يفيد ظاهره الحصر، وذلـك كقوله تعالى: «﴿قُلْ لاَ أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يكون مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ..﴾» فذهب الشافعي رضي الله عنه إلى أن الحصر في هذه المحرمات غير مراد بعينها ـ لأنها نزلت بسبب أولئك الكفار الذين أبوْا إلاَّ أن يُحرِّموا ما أحلَّ الله و يُحِلُّوا ما حرَّم الله عناداً منهم ومُحادّه لله ورسُوله. فنزلت الآية بهذا الحصر* نقل السبكي عن الشافعي قوله: إن الكفار لمّا حرَّموا ما أحلَّ الله، وأحلُّوا ما حرَّم الله، وكانوا على المضادّة والمخادعة جاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلاّ ما أحللتموه، نازلاً منزلة من يقول لك: لا تأكل اليومَ حلاوة فتقول: لا آكل اليوم إلا حلاوة، والغرض المضادةُ لا النّفي والا ثبات على الحقيقة، فكأنه قال تعالى: لا حرامَ إلا ما أحْلَلْتُموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حِلَّ ما وراءه إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحلَّ* قال إمام الحرمين: وهذا في غاية الحسن. ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية.

الفائـدة الرابعة :

تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، وذلك كنزول أول سورة المجادلة، إذ أنَّ أوْس بنَ الصّامتِ ظاهَرَ من زوجته خَوْلَةَ بنت حكيم بن ثعلبة، والحكم الذي تضمَّنته الآياتُ خاصٌ بها وحدهما (على هذا الرأى) أمّا غيرهما فيعلم بدليل آخر قياساً أو سواه.

الفائـدة الخامسة :

معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصِّصٌ لها، وذلك لقيام الإجماع على أن حكم السبب باق قطعاً، فيكون التخصيص قاصراً على ما سواه، فلو لم يعرف سبب النزول لجاز أن يفهم أنَّه ممَّا خرج بالتخصيص مع أنّه لا يجوز إخراجه قطعاً للإجماع المذكور.

قال الغزالى في المستصفى: (ولذلك يشير إلى امتناع إخراج السبب بحكم التخصيص بالاجتهاد) غلط أبوحنيفة رحمه الله في إخراج الأمَةِ المستفرشة من قوله عليه الصلاة

والسلام: [الولدُ لِلْفِراشِ] والخبر إنما في وليدة زَمْعَةَ إذْ قال عبدالله بن زمعة: هو أخي وابن وليـدةِ أبي وُلِـدَ على فراشه. فقال عليه الصلاة والسلام: [الْوَلَدُ لِلْفِراشِ ولِلْعَاهِـرِ الْحَجَرُ] فأثبت للأمَة فراشاً، وأبوحنيفة لم يبلغه السّبب فأخرج الأمَة من العموم.

الفائـدة السادسة :

معـرفـة مـن نـزلـت فـيـه الآيـة على التّعيين حتى لا يشتبه بغيره فَيُتَّهم البرىء و يُبرَّأ المُـريـب، ولهـذا [ردّت عـائشة على مروان حين اتَّهم أخاها عبدالرحمن بن أبي بكر بأنَّهُ نزلت فيه آية: «**وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْه أُفٍّ لَكُمَا..**» وقالت: والله ما هو به ولو شئْتُ أنْ أُسَميه لَسَمَّيتُه..].

الفائـدة السابعة :

تـيسير الحفظ، وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحى في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سـبـب نـزولهـا وذلـك لأن ربـط الأسـبـاب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بـالأشـخـاص، والأزمـنـة والأمـكـنـة كُلُّ أولئك من دواعى تقرُّر الأشياء، وانتقاشها في الذهن، وهذه فوائد عظيمة نص عليها الأئمة في كتبهم.

((طريق معرفة سبب النزول))

لا طـريـق لـذلـك إلا الـنقلُ الصحيح إذ لا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والـسـمـاع ممّـنِ شـاهـدوا التنزيل لِلْوعيد في ذلك، وعلى هذا فإذا رُوى سبب النزول عن صـحـابىّ فـهـو مـقـبـول، وإن لم يُـعـزّز بـروايـة أخرى تُقَوِّيه إذ قول الصحابى فيما لا مجال لـلإجتهـاد فـيـه، فهو في حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما يبعد كل البعد أن يـكـون الـصـحـابي قـال ذلـك بـرأيـه، أو مـن تلقاء نفسه، فخبر الصحابي لا مستند له إلاَّ السماع والنقل، أو المشاهدة والرؤية.

أمـا إذا رُوى سبب النزول بحديث مرسل، أي سقط من سنده الصحابيُّ، وانتهى إلى الـتـابـعـى، فحكمه أنّه لا يقبل إلاَّ إذا صحّ واعْتَضَدَّ بمرسل آخر، وكان الراوى له من أئمة التّفسير الآخذين عن الصحابة، كمجاهدٍ وعكرِمَةَ وسعيد بن جبير.

((التّعبيرُ عَنْ سَبب النُّزول))

قال الزرقاني: تختلف عبارات القوم في التّعبير عن سبب النزول، فتارة يُصرَّح فيها بلفظ السبب فيقال: (سبب نزول الآية كذا وكذا)، وهذه العبارة نصٌّ في السببيّة لا تحتمل غيرها، وتارةً لا يُصرَّحُ بلفظ السبب، ولكن يُؤتى بفاء داخلة على مادة نزول الآية عقب سرْد حادثة، وهذه العبارة مثل تلك في الدلالة على السببيّة أيضاً.

قال : مثل ما أخرجه مسلم عن جابر قال: [كانت اليهود تقول: (مَنْ أتى امرأةً مِنْ دُبُرها (في قُبُلِها) جاء الولد أحْوَلَ) **فأنزل الله: «نِسَاؤكم حَرْثٌ لَكُمْ فأتُوا حَرثَكُمْ أنَّى شِئتُم وَقَدِّمُوا لأنْفُسِكُمْ واتّقُوا الله واعلَمُوا أنكُم مُلا قُوهُ وَبَشِّرِ المؤْمِنِين»**]* وما أخرجه البخاري عن ابن عمر قال: [أنزلت : **«نِسَاؤُكُمْ حَرثٌ لَكُمْ»** في إتيان النساء في أدْبارهن أى على الكيفية التي تقدّمت.* وقال الزرقانيُّ: ومرّةً يُسْألُ الرّسُول فيُوحى إليه و يُجيب بما نزل عليه ولا يكون تعبيراً بلفظ سبب النزول. ولا تعبيراً بتلك الفاء ولكن السببية تفهم قطعاً من المقام كرواية ابن مسعود عندما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح* فأنزل الله تعالى: **«يَسْألُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ من أمْرِ رَبِّى..»*** قال: وحكم هذه أيضاً حكم ما هو نصٌّ في السببيّة* ومرّةً أخرى لا يُصرح بلفظ السبب ولا يؤتى بتلك الفاء، ولا بذلك الجواب المبنى على السؤال بل يُقال: نزلت هذه الآية في كذا (مثلاً)، وهذه العبارة ليست نصّاً في السببيّة، بل تحتملها وتحتمل أمراً آخر هو بيان ما تضمَّنتْهُ الآية من الأحكام، والقرائنُ وحدها هي التي تُعيّن أحد هذين الاحتمالين أو تُرجحه. ومن هنا نعلم أنّه إذا وردت عبارتان في موضوع واحد، إحداهما نصٌّ في السببية لنزول آية أو آيات، والثانية ليست نصاً في السببية لنزول تلك الآية أو الآيات، هنالك نأخذ في السببية بما هو نصٌّ، ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية لأنَّ النّص أقوى في الدلالة من المحتمل.

((تعدُّد الأسبابِ والنازلُ واحدُ))

إذا وردت روايتان في نازل واحد من القرآن، وكانت كُلُّ رواية منها ذكرت سبباً صريحاً غير ما ذكرته الأخرى. فهنا ينظر فيهما، فإمَّا أن تكون إحداهما صحيحة والأخرى غير صحيحة، وإما أن تكون كلتاهما صحيحة ولكن لأحدهما مُرَجِّحٌ دون الأخرى،

وإمّا أن تكون كلتاهما صحيحة ولا مرجّح لإحداهما على الأخرى، ولكن يمكن الأخذ بهما معاً. وإما أن تكون كلتاهما صحيحة ولا مرجّح، ولا يمكن الأخذ بهما معاً، فتلك صور أربع لكل منها حكم خاصٌّ نسوقُه إليك.

الصورة الأولى :

وهي ما صحت فيه إحدى الروايتين دون الأخرى، فحكمها الاعتماد على الصحيحة في بيان السبب، وردُّ الأخرى غير الصحيحة، مثال ذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جُنْدُب|قال: [اشتكى النبيُّ صلى الله عليه وسلم فلم يَقُمْ ليلةً أو ليْلتين، فأتته امرأة فقالت: (يامحمد، ما أرى شيطانك إلاّ قد تركك) فأنزل الله: «**والضُّحَىٰ واللَّيْلِ إذَا سَجَى مَا ودَّعَكَ رَبُّكَ ومَا قلىٰ**»]ء وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمّه عن أمّها، وكانت خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أنَّ جَرْواً دخل بيتَ النبي صلى الله عليه وسلم فدخل تحت السَّرير فمات، فمكث النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أيام لا ينزل عليه الوحيُ، فقال: يا خوْلَةُ ما حَدَثَ في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ جبريل لا يأتيني! فقلتُ في نفسي، لو هَيَأتِ البيتَ وكَنَستِهِ فأهويتُ بالمِكنَسَةِ تحتَ السَّرير فأخرجت الجرْوَ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم تَرْعُدُ لحيتُهُ، وكان إذا نزل عليه أخَذَتْه الرِّعْدة فأنزل الله: «**والضُّحَىٰ**» إلى قوله فترضى]ء قال الزرقاني: فنحن بين هاتين الروايتين نُقدّم الرواية الأولى في بيان السبب لصحتها دون الثانية لأن في إسنادها من لا يُعرَفء قال ابن حجر: قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة. لكن كونها سبب نزل الآية غريب. وفي إسناده من لا يُعرف. فالمعتمد ما في الصحيح.

وأما الصورة الثانية :

وهي صحّة الروايتين كلتيْهما ولإحداهما مُرجِّح ــ فحكمها أن نأخذ في بيان السبب بالرَّاجحة دون المرجوحة. والمرجِّح أن تكون إحداهما أصح من الأخرى، أو أن يكون راوى إحداهما مشاهداً للقصة دون راوى الأخرى. مثال ذلك: ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال: [كنت أمشى مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهويتوكّأ على عَسِيبٍ، فمرَّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه، فقالوا: حدّثنا عن الرُّوح، فقام ساعةً ورفع رأسَهُ فعرفت أنَّهُ يُوحىٰ إليه، حتى صَعِد الوحى، ثمّ قال: «**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أمْرِ**

رَبِّي ومـا أُوتيتم مِنَ الْعِلْمِ إلاّ قَليلاً»]. وما أخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس قـال: [قالت قريشُ لليهودِ أعطونا شيئاً نسألُ هذا الرجل، فقالوا اسألوه عن الروح فسألوه فـأنزل الله: «و يَسْألونَكَ عن الرُّوح» الآية]. فهذا الخبر الثاني يدل على أنّها بمكة، وأن سبـب نـزولها سؤال قريش إيّاهُ، أما الأ ول فصريح أنها نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود إيّاه. وهو أرجح من وجهين:

احـداهما : أنـه روايـة الـبـخـاري. (أمّـا الثاني) فإنه رواية الترمذي. ومن المقرر أن مارواه البخاري أصح مما رواه غيره.

ثـانيهما : أن راوى الخبر الأ ول وهو ابن مسعود كان مشاهداً القصة من أولها إلى آخرها كما تدل على ذلك الرواية الأ ولى، بخلاف الخبر الثاني فإن راو ية ابن عباس، لا تدلُّ على أنـه كـان حـاضر الـقـصّة، ولا ريب أن للمشاهدة قوّةً في التّحمّل وفي الأداء وفي الاستيثاق لغير المشاهدة، ومن هنا أعملنا الرواية الأ ولى، وأهملنا الثانية.

وأمّا الصورة الثالثة :

وهـي مـا اسـتوت فيه الروايتان في الصّحة ولا مرجح لأحدهما لكن يمكن الجمع بأن كـلاً مـن السببيْن حصل. ونزلت الآية عقب حصُولهما معاً لتقارب زمنيْهما ــ فحكم هذه الـصورة أن نحمل الأمر على تعدُّد السبب لأنه الظّاهر، ولا مانع يمنعه. قال ابن حجر: [لا مـانـع مـن تعدّد الأسباب] وقد مثل لذلك بما أخرجه البخاري من طريق عكرِمة عن ابن عـبـاس: [أن هِـلال بـن أُمـيّـةَ قـذف امـرأتـه عند النبي صلى الله عليه وسلم بِشَرِيكِ بن سَـمْـحاءَ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (البيّنَةُ أوْحدٌّ في ظَهْـرِكَ) فقال يا رسول الله: إذا وجـدَ أحـدُنَـا مـعَ امرأته رجلاً ينطلقُ يلتمسُ البيِّنَةَ ـ وفي رواية أنه قال: والذي بعثك بـالحقّ نـبـيـاً إنى لـصادقٌ وليُنْزلنَّ الله تعالى ما يُبرّئُ ظهرى من الحدِّ، فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه: «والّـذينَ يَرْمُونَ أزْواجَهُمْ وَلمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إلاّ أنْفُسُهُمْ..» حتى بـلـغ «إنْ كَـانَ من الصَّادِقِينَ»]. وأخرج الشيخان (واللفظ للبخاري) عن سهل بـن سـعـد: [أن عُـو يْـمـراً أتى عـاصـمَ بْنَ عدِيٍّ ـ وكان سيد بنى عجلان ـ فقال: كيف تـقُـولون في رَجُلٍ وجَدَ معَ امرأته رجُلاً أيَقْتُلُهُ فتقتُلُونَهُ، أم كيف يصنع؟ سلْ لى رسول الله صلى الله عـلـيـه وسلم عن ذلك، فأتى عاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله: (في روايـة مـسلم) فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم: فكره رسول الله صلى الله

عليه وسلم المسائلَ وعَابَها، فقال عويْمرٌ: والله لا أنتهي حتَّى أسألَ رسُول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فجاءَه عُويمرٌ فقال يا رسول الله: رجلٌ وجَدَ معَ امرأتِه رجُلاً أيقتله فتقتلونَه، أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحِبتِكَ، فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملاعنة بما سَمَّى الله في كتابِهِ فلاعَنَها]. فهاتان الروايتان صحيحتان، ولا مرجّح لأحدهما على الأخرى. ومن السَّهل أن نأخذ بكلتيْهما لقرب زمانيْهما على اعتبار أن أوَّل من سأل هو هلال بنُ أُميّة، ثم قفاه عُوَيْمرٌ قبل إجابته، فسأل بواسطة عاصم مرَّة، و بنفسه مرة أخرى، فأنزل الله الآية إجابة للحادثتين معاً. ولا ريب أن إعمال الروايتين بهذا الجمع أولى من إعمال احداهما وإهمال الأخرى، إذ لا مانع يَمْنَعُ الأخذ بهما على ذلك الوجه، ثم لا جائز أن نردَّهما معاً لأنهما صحيحتان، ولا تعارض بيْنهما، ولا جائز أيضاً أن نأخذ بواحدة ونردَّ الأخرى لأن ذلك ترجيح بلا مرجِّح، فتعيّن المصير إلى أن نأخذ بهما معاً، وإليه جنح النوويُّ وسبقه إليه الخطيب. فقال: (لعلَّهما اتَّفَق لهما ذلك في وقتٍ واحدٍ).

وأما الصورة الرابعة :

وهي استواء الروايتين في الصحة دون مرجّح لأحدهما، ودون إمكان للأخذ بهما معاً لبعد الزمان بين الأسباب ــ فحكمها أن نحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعدد أسباب النزول التي تحدثت عنها هاتان الروايتان، أو تلك الروايات ــ لأنه إعمال لكل رواية. ولا مانع منه. قال الزركشي في البرهان: وقد ينزل الشَّيء تعظيماً لشأنه، وتذكيراً عند حدوث سببه خوفَ نسيانه. وقد مثل لذلك الزرقاني بما أخرجه البيهقي والبزَّار عن أبي هريرة [أن النبي صلى الله عليه وسلم وقفَ على حمزةَ حينَ اسْتُشهد وقد مُثِّلَ بِهِ فقال: (لأمَثِّلَنَّ بسبعينَ منْهم مكانَك) فنزل جبريل ــ والنبي صلى الله عليه وسلم واقف ــ بخواتم سورةِ النَّحل: «**وَإِنْ عَاقَبْتُم فعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ**» إلى آخر السورة، وهن ثلاث آيات. وأخرج الترمذي والحاكم عن أُبيٍّ بن كعب قال: [لمَّا كانَ يومُ أُحدٍ أُصيبَ منَ الأنْصارِ أرْبَعةٌ وستُّون، ومن المهاجرين ستةٌ منهم حمزةُ، فَمَثَّلوا به، فقالت الأنصار: لئنْ أصبنا منهم يوماً مثل هذا لَنَرْبِيَنَّ (أي لنزيدَنَّ) عليهم، فلما كان يومُ فتح مكّة أنزل الله: «**وإنْ عَاقَبْتُمْ..**» الآية.

فالرواية الأولى تفيد أن الآية نزلت في غزوة أحد، والثانية تفيد أنها نزلت يوم فتح مكة على حين أنَّ بين غزوة أُحد وغزوة الفتح الأعظم بضع سنين، فبَعُدَ أن يكون نزول الآية كان مرَّة واحدة عقبهما معاً. وإذن لا مناص لنا من القول بتعدُّد نزولها. مرَّة في أُحد ومرة يوم الفتح.

((تعدد النازلِ والسَّببُ واحدٌ))

قد يكون الأمر الواحد سبباً لنزول آيتين أو آيات متعدّدة: على عكس ما سبق. ولا مانع من ذلك عقلاً ولا شرعاً، لأنه لا ينافى الحكمة في اقناع الناس، وهداية الخلق، و بيان الحق عند الحاجة بل إنه قد يكون أبلغ في الاقناع وأظهر في البيان.

مثال السبب الواحد تنزل فيه آيتان ما أخرجه ابن جرير وابن مرْدَو يه عن ابن عباس قال [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في ظلّ شجرةٍ فقال: (إنَّهُ سيأتيكمْ إنسانٌ ينظرُ إليكمْ بِعَيْنَيْ شيْطانٍ فإذا جاءَ فلا تكلِّموهُ، فَلَمْ يَلْبَثوا أَن طَلعَ رجُلٌ أزرق العينين، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: عَلامَ تَشْتُمُني أنْتَ وأصْحابُكَ؟ فانطلق الرَّجلُ فجاءَ بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله: **«يَحْلِفُونَ بالله ما قَالُوا ولَقَدْ قالُوا كَلِمةَ الكُفْرِ وكَفَروا بعْدَ إسْلامِهِمْ وهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنالُوا وما نَقَمُوا إلاّ أنْ أغْناهُمُ الله ورَسُولُه من فَضْلِهِ فإنْ يتوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وإنْ يتوَلَّوْا يُعَذِّبْهم الله عَذاباً أَليماً في الدُّنيا والآخِرةِ ومالَهُمْ في الأرض مِنْ وليٍّ ولاَ نَصيرٍ»** وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ وقالا: فأنزل الله: **«يَومَ يَبْعَثُهُمُ الله جَميعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلاَ إنَّهُمْ هُمُ الكاذِبُونَ* اسْتَحْوذَ عَلَيْهِمُ الشّيْطَانُ فَأنْسَاهُمْ ذِكْرَ الله أُولَئكَ حِزْبُ الشّيطَانِ ألا إنَّ حِزْبَ الشّيطانِ هُمُ الْخاسِرُون»**

ومثال السبب الواحد ينزل فيه أكثر من آيتين ما أخرجه الحاكم والترمذي [عن أمّ سلمةَ أنّها قالت: يا رسول الله: لاَ أسمعُ الله ذَكَرَ النّساءَ في الهجْرَةِ بشيء فأنزل الله: **«فَاسْتجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أنّي لا أُضيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أوْ أُنثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فالَّذينَ هَاجَرُوا وأُخرجُوا مِنْ دِيارِهِم وأُوذُوا في سَبيلِي وقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِرنَّ عَنْهُمْ سَيِّآتِهِمْ ولأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ الله**

والله عِنْدَهُ حُسْنُ الثواب»* وأخرج الحاكم أيضاً عنها أنها قالت: قُلتُ يارسول الله: تذكُرُ الرجال ولا تذكر النساءَ فأنزلت: «إنَّ الْمُسْلِمِينَ والْمُسْلِمَاتِ» وأُنزلت: «أنِّي لا أُضيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أوْ أُنثى»* وأخرج الحاكم أيضاً أنها قالت: تغْزُو الرِّجال ولا تغزُو النساءُ. وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: «ولاَ تتمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ» وأنزل: «إنَّ الْمُسْلِمينَ والْمُسْلِمَاتِ».

((القول في أوّل ما نزل من القرآن الكريم))

ورد في ذلك أقوال أربعـة :

القول الأول :

وهو أصحها، أنه صدْرُ سورة «اقْرَأ باسْمِ رَبِّكَ الّذي خَلَقَ» إلى قوله تعالى: «عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» وهو قول ابن عباس ومجاهد كما ذكره صاحب الكشاف (جـ ٤ ص ٢٧٠) وذكر أن أكثر المفسرين على أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب كذا قال* والذي ذهب أكثر الأئمة إليه هو الأول وأمّا الذي نسبه إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقلُّ من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول* ودليل القول الأول.

أولاً : روى البخاري ومسلم (واللفظ للبخاري) عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: [أَوّلُ مَا بُدِىءَ بِهِ رسول الله صلى الله عليه وسلم مِنَ الْوَحْيِ الرؤيا الصَّالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فَلَقِ الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغار حِرَاءٍ فَيَتَحنَّثُ فيهِ (وهو التعبد) اللّيالي ذوات الْعَدَدِ قبل أن يَنْزِعَ إلى أهله، و يَتزَوّدُ لذلك، ثم يَرْجِعُ إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى جاءَهُ الحقُّ، وهو في غار حراء، فجاءَهُ الملك فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فَغَطَّنِي حتى بَلَغَ منيَّ الجَهدُ، ثم أرْسَلنِي، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارىء، فأخذنى الثانية حتى بلغ منيّ الجهدُ، ثم أرسلنى فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطنى الثالثة، ثم أرسلنى فقال: «اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقرأ وربُّكَ الأكْرَمُ...»* وفي بعض الروايات حتى بلغ «مَا لَمْ يعْلَمْ» فرجَعَ بها إلى خديجة يَرْجُفُ فؤادُهُ.. الحديث...] رواه البخاري عن يحيى بن بكير ومسلم عن محمد بن رافع كلاهما عن عبدالرزاق.

ثانياً : وصحح الحاكم في مستدركه، والبيهقي في دلائله عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: [أوَّلُ سورة نزلت من القرآن: **«اقرأ باسم ربك الّـذى خَلَقَ»**].

ثـالـثـاً : وصحـح الطبراني في الكبير بسنده عن رجاء العطارديّ قال: [كَانَ أبو موسى يـقـرئـنـا فـيُجلِسُنَا حِلَقاً، وعليه ثوبانِ أبيضان، فإذا تلا هذه السورة: **«اقْرأ باسْمِ ربّك الّـذى خَلَقَ»** قال: هذه أول سورة نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم].

القول الثاني :

أنَّ أول مـا نزل إطلاقاً **«يا أيُّها الْمُدَّثِّرُ»** قاله أبو سلمة بن عبدالرحمن فقد سُئل عن أيِّ الـقـرآن أنـزل قبلُ؟ قال: **«يا أيها الْمُدَّثِرُ»** (قلت) أيْ يحيى بن أبي كثير: أو **«اقرأ بـاسـم ربـك»**؟ قـال: سـألت جابر بن عبدالله الأنْصاريّ. أيُّ القرآن أنزل قبلُ؟ قال: **«يـا أيـهـا المـدَّثـر»** قـال: قلت: أو **«اقرأ باسم ربك»**؟ قال جابر: أحدثكم ما حدَّثنا رسـول الله صلى الله عـلـيـه وسلم قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم [إني جاورت بحراء شـهْـراً فلمّا قضيت جِوَارى نزلت فاسْتَبْطَنْتُ بطنَ الوادِى، فنوديتُ فنظرت أمامي وخلفي وعـن يميني وعن شمالي. ثم نظرتُ إلى السماء، فإذا هو على العرش في الهواء ـــ وفي رواية على عـرش بين الـسماء والأرض ـــ يـعنى جـبريل، فأخذتنى رجْفَةٌ فأتيت خديجة فأمرتُهم فَدَثَّرونى، ثم صبوا عليَّ الماءَ فأنزل الله عليَّ: **«يا أيُّها الْمُدَّثـِّرُ. قُمْ فَأنْذِرْ»**] رواه مسلم عـن زهير بـن حـرب عـن الـوليد بن مسلم عن الأوزعي* **والصحيح** أن المدثر نزلت بعد سـورة اقرأ لأنَّ جابر رضي الله عنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم القصّة الأخيرة، ولم يـسـمـع أوَّلهـا وهـي التي في غـار حـراء، فتوهم أن سورة المدثر أول ما نزل بدليل أنّه عليه الـصـلاة والـسـلام بـعد خروجه من غار حراء، و بعد فترة الوحى قال: [فبينمَا أنَا أمْشِي سَـمِعْتُ صَـوْتاً مِنَ السَّماءِ فَرفَعْت رأسى فإذا الْمَلَكُ الذي جاءنى بحراء جالساً على كُرْسِيٍّ بين الـسماء والأرض، فَـجَـثَـثْـت مِنْهُ رُعْباً فرجَعْتُ، فقُلت زمِّلُونى زمّلونى، فدثّرُونى فأنزل الله: **«يـا أيُّـهـا الْمُدَّثِرُ»** رواه البخاري عن عبدالله بن محمد* وهذا مما يدل على أن هذه الـقـصّة كانت بعد نزول **«اقْرأ»** قلت: وجَثِثْتُ على وزن فَرِحْتُ، معناه ثَقُلَ جسمى عن القيام، وسببه فزع الرسول وخوفه عليه الصلاة والسلام.

القول الثالث :

أن أول ما نزل هو سورة الفاتحة، وقد استدل أصحابه بحديث مرسل سقط من سنده الصحابيّ، فلا يقوى على معارضة حديث عائشة السابق في بدء الوحي. وهو مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ورواه الشيخان، إذن فبطل هذا القول الثالث كما بطل القول الثاني، وثبت الأول. والله أعلم.

القول الرابع :

أنَّ أول ما نزل هو «**بسم الله الرحمن الرحيم**» واستدل قائلوه بما أخرجه الواحديُّ بسنده عن عكرمة والحسن قالا: [أوّل ما نزل من القرآن «**بسم الله الرحمن الرحيم**» وأوّل سورة «**اقرأ**»]* وهذا الاستدلال مردود لسببين: **إحداهما :** أن الحديث مرسل فلا يناهض المرفوع **الثاني** أن البسملة كانت تنزل دائماً صدراً لكل سورة إلا ما استُثْنَى في سورة براءة. إذن فهي نازلة مع ما نزل من صدر سورة اقرأ فلا يستقيم اعتبار الأولّية في نزولها قولاً مستقلاً برأسه.

((القولُ في آخر ما نزل من القرآن الكريم))

كثرت أقوال العلماء واختلفت في تعيين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، واستند كل منهم إلى آثار ليس فيها حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وأصحها مايلي:

١ ــ آخر آية نزلت: «**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الكلالة..**» الآية. قال البخاري في كتاب التفسير: حدّثنا سليمانُ بنُ حرْبٍ حدَّثنا شعبة عن أبي اسحاق، سمعت البراءَ رضي الله تعالى عنه قال: [آخر سُورةٍ نَزَلتْ براءَةٌ وآخر آية نَزَلَتْ يَسْتَفْتونَكَ..]* وأخرجه مسلم في الفرائض عن أبي موسى و بندار، وأخرجه أبو داود فيه عن مسلم بن إبراهيم، وأخرجه النسائي فيها عن بندار وغيره* قُلت: وذكر البخاري في باب: «**واتَّقُوا يوْماً تُرجَعُون فيه إلى الله**» حدَّثَنا قَبيصَةُ بنُ عُقْبة حدَّثنا سفيانُ عَنْ عاصم عن الشّعبيِّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [آخر آيةٍ نَزَلَتْ على النبي صلى الله عليه وسلم آيةُ الرِّبَا] وروى عن ابن عباس أيضاً من وجه آخر أنَّ آخر آية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم: «**واتَّقوا يَوْماً تُرجَعُونَ فِيهِ إلى الله**»] أخرجه الطبريُّ من طُرُقٍ عنهُ* قلت: ولعل البخاري أراد أن يجمع بين قولى ابن عباس فبوّب بها إشارةً

إليهما، فافهم هذا* ولفظ الطبرى: كان من آخر ما نزل من القرآن آيات الربا* هذا منقطع، لأنه مروى عن الشعبي عن عمر رضي الله تعالى عنه، والشعبي لم يلق عمر.

٢ ــ قوله تعالى: «**واتّقوا يوْماً تُرجَعُونَ فيهِ إلى الله**» منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول الضحاك أيضاً كما في تفسير عبد بن حميد عن الضحاك. آخر آية نزلت «**واتَّقُوا يَوْماً تُرْجُعُونَ فيه إلى الله**»* وفي رواية أبي صالح عنه نزلت بمكة، وتوفى النبي صلى الله عليه وسلم بعدها بأحد وثمانين يوماً* وقيل: نزلت يوم النحر بمنًى في حجّة الوداع* وفي تفسير ابن أبى حاتم من حديث ابن لهيعة. حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال: [عاشَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية الكريمة تسع ليال]* وعند مقاتل سبع ليال، وهي آخر آية نزلت* وعند القرطبي ثلاث ليال* وقيل: ثلاث ساعات، وقال صلى الله عليه وسلم: [اجعلوها بين آية الربا وآية الدّين]* وقيل: إنَّه صلى الله عليه وسلم عاش بعدها أحد وعشرين يوماً* (فإن قلت) ما التوفيق بين قولَيْ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما؟ قُلت: طريق الجمع بينهما أنَّ هذه الآية هي ختام الآيات المنزلة في الربا، لأنها معطوفة عليها فتدخل في حكمها. (فإن قلت) رُوى عن البراء أنَّ آخر آية نزلت: «**يسْتَفْتُونَكَ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فى الْكَلاَله**» كما تقدّم في القول الأول فما الجمع بينهما؟ قُلتُ: قيل بأن الآيتين نزلتا جميعاً، فيصدق أن كُلاً منهما آخر بالنسبة لما عداهما وفيه تأمُّل* قُلت: إن الآخرية أمر نسبي كالأ وليّة فلا يخفى صدق الآخريّة على شيء بالنسبة إلى ما قبله. وكذا يُجاب عما قال ابىُّ بن كعب رضي الله عنه: آخر آية نزلت: «**لَقَدْ جَاءَكُمْ رسُولٌ مِنْ أنْفُسِكُمْ..**» الآية وهو القول الثالث. رواه الحاكم أبو عبدالله في صحيحه عن الأصمّ بن بكّار بن قُتيبة عن أبي عامر العقدىّ عن شعبة.

وفي بقية الأقوال قال القاضي أبو بكر في الانتصار: (هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكُلٌ قال بضربٍ من الإجتهاد وغلبة الظن، ويحتمل أنَّ كُلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه، أو قبل مرضه بقليل، وغيرهُ سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو* قُلتُ: وكأنه يشير إلى الجمع بين هذه الأقوال المتشعبة وهي:

القول الأول : أنَّ آخر ما نزل قول الله تعالى في سورة البقرة: «**واتّقُوا يوماً تُرجَعون فيه إلى الله ثمّ تُوفّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**» أخرجه النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس.

القول الثاني : أنَّ آخر ما نزل قول الله تعالى في سورة البقرة: «**يا أيها الذين آمَنُوا اتّقُوا الله وذَرُوا ما بَقِيَ من الرِّبا إنْ كُنْتُمْ مُؤمنين**» أخرجه البخاري عن ابن عباس والبيهقي عن ابن عمر.

القول الثالث : أن آخر ما نزل قول الله تعالى في سورة البقرة: «**يا أيها الذين آمَنُوا إذَا تدايَنْتُم بِدَيْنٍ إلى أجلٍ مُسَمًّى فاكْتُبُوهُ**» إلى قوله سبحانه «**والله بِكُلِّ شيءٍ عَليمٌ**».

القول الرابع : أنَّ آخر القرآن نزولاً قول الله تعالى في سورة آل عمران: «**فاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهم أنّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ**» إلى آخرها.

القول الخامس : أنّه آية: «**ومَنْ يَقْتُلْ مُؤمِناً مُتعمِّداً فَجَزَاؤهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وغَضِبَ الله عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وأعَدَّ لَهُ عَذَاباً عظيماً**».

القول السادس : أن آخر آية نزلت: «**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ**».

القول السابع : «**لَقَدْ جاءَكُم رسُولٌ مِنْ أنْفُسِكُمْ**» إلى آخر السورة.

القول الثامن : آخر ما نزل سورة المائدة.

القول التاسع : آخر سورة الكهف: «**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَل عَمَلاً صَالِحاً ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ ربِّهِ أَحَداً**».

القول العاشر : آخر ما نزل هو سورة: «**إذَا جَاءَ نَصْرُ الله والْفَتْحُ**» رواهُ مسلمٌ عن ابن عباس* قال الزرقاني في مناهل العرفان: ولكنك تستطيع أن تحمل هذا الخبر على أنَّ هذه السورة آخر ما نزل مُشعراً بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم و يؤيده ما روى من أنّه صلى الله عليه وسلم قال: [حين نزلت: (نُعيَتْ إليَّ نَفْسي)] وكذلك فهم بعض كبار الصحابة كما ورد أنّ عمر رضي الله عنه بكى حين سمعها وقال: [الكمال دليل الزوال]* ويحتمل أيضاً أنّها آخر ما نزل من السور فقط، و يدل عليه رواية ابن عبّاس: [آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً «**إذَا جَاءَ نَصْرُ الله والْفَتْحُ**».

((اليوم الذي أنزل فيه القرآن))

هو يوم الإثنين، سئل رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: أرأيْتَ صَوْمَ يَومِ الا ثنين؟ قال: [فيه أنزل عليَّ القرآن]* وأول شهر أنزل فيه القرآن شهر رمضان. قال الله تعالى: «شَهْرُ رَمضانَ الّذي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرآنُ»* وجاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نَزَلَتْ صُحُفُ إبراهِيمَ أوّلَ لَيْلَةٍ من رَمَضَانَ، وأُنْزِلَت التّوارة لستٍّ مَضيْن من رَمَضَانَ وأُنْزِلَ الإنْجيلُ لثلاث عشرة خَلَتْ مِنْ رمضان. وأنزل الزّبُور لثمان عشرة خلت من رمضان. وأُنزل القرآن لأربعة وعشرين خلت من رمضان].

((بيان ما نزل بمكّة وبالمدينة))

قال الإمام علاء الدين عليّ بن محمّد بن إبراهيم البغدادى المعروف بالخازن في تفسيره (جـ ١ ص ٨):

واعلم أنَّ الله تعالى أنزل القرآن المجيد من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى سماء الدنيا في شهر رمضان في ليلة القدر، ثم كان ينزله مفرقاً على لسان جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم مُدَّة رسالته نجوماً عند الحاجة، وحدوث ما يحدث على ما شاء الله تعالى. وترتيب نزول القرآن غير ترتيبه في التّلاوة والمصحف. فأما ترتيب نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأول ما نزل من القرآن بمكة: اقرأ باسم ربّك الّذي خَلَقَ* ثم نون والقلم* ثم يا أيها المزمّل* ثُمَّ المدّثر* ثُمَّ تبَّتْ يَدا أبِي لَهَبٍ* ثُمَّ إذا الشمس كوّرت * ثُمَّ سبح اسْمَ ربك الأعلى * ثُمَّ والليل إذا يغشى * ثُمَّ والفجر * ثُمَّ والضحى * ثُمَّ ألم نشرح * ثُمَّ والعصر * ثُمَّ والعاديات * ثُمَّ إنَّا أعطيناك الكوثر * ثُمَّ الهاكم التكاثر * ثُمَّ أرأيت الذى * ثُمَّ قُل يا أيها الكافرون * ثُمَّ الفيل * ثُمَّ قُل هو الله أحد * ثُمَّ والنجم * ثُمَّ عبسَ * ثُمَّ سورة القدر * ثُمَّ سورة البروج * ثُمَّ التين * ثُمَّ لإيلاف قريش * ثُمَّ القارعة * ثُمَّ القيامة * ثُمَّ الهمزة * ثُمَّ المرسلات * ثُمَّ ق * ثُمَّ سورة البلد * ثُمَّ الطارق * ثُمَّ اقتربت الساعة * ثُمَّ ص * ثُمَّ الأعراف * ثُمَّ الجنّ * ثُمَّ يٰس * ثُمَّ الفرقان * ثُمَّ فاطر * ثُمَّ مريم * ثُمَّ طٰه * ثُمَّ الواقعة * ثُمَّ الشعراء * ثُمَّ النمل * ثُمَّ القصص * ثُمَّ سورة بنى اسرائيل * ثُمَّ يونس * ثُمَّ هود * ثُمَّ يوسف * ثُمَّ الحجر * ثُمَّ الأنعام * ثُمَّ والصافات * ثُمَّ لقمان * ثُمَّ سبأ * ثُمَّ الزمر * ثُمَّ المؤمن * ثُمَّ السجدة * ثُمَّ حٰم عسق

* ثُـمَّ الـزخرف * ثُمَّ الدخان * ثُمَّ الجاثية * ثُمَّ الأحقاف * ثُمَّ الذاريات * ثُمَّ الغاشية * ثُـمَّ الكهف * ثُمَّ النّحل * ثُمَّ نوح * ثُمَّ ابراهيم * ثُمَّ الأنبياء * ثُمَّ قد أفلح المؤمنون * ثُمَّ تنزيل السجدة * ثُمَّ الطور * ثُمَّ الملك * ثُمَّ الحاقة * ثُمَّ سأل سائل * ثُمَّ عم يتساءلون * ثُمَّ النازعات * ثُمَّ إذا السماء انفطرت * ثُمَّ إذا السماء انشقت * ثُمَّ الروم * ثُمَّ العنكبوت.

قـال الخـازن : واختـلـفـوا في آخر ما نزل بمكة: فقال ابن عباس: العنكبوت. وقال الـضحاك وعطاء: المؤمنون. وقال مجاهد: و يل للمطففين: فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة فذلك ثلاث وثمانون سورة على ما استقرّت عليه روايات الثقات.

وأمـا ما نزل بالمدينة فأحد وثلا ثون سورة، فأول ما نزل بها سورة البقرة * ثُمَّ الأنفال * ثُـمَّ آل عـمـران * ثُـمَّ الأحـزاب * ثُـمَّ المـمتحنة * ثُمَّ النساء * ثُمَّ إذا زلزلت الأ رض * ثُمَّ الحديد * ثُمَّ سورة محمد صلى الله عليه وسلم * ثُمَّ الرعد * ثُمَّ سورة الرحمن * ثُمَّ هل أتى على الإنـسـان * ثُـمَّ الطلاق * ثُمَّ لم يكن * ثُمَّ الحشر * ثُمَّ الفلق * ثُمَّ النّاس * ثُمَّ إذا جاء نصر الله والـفتح * ثُمَّ النُّور * ثُمَّ الحج * ثُمَّ إذا جاءك المنافقون * ثُمَّ المجادلة * ثُمَّ الحجرات * ثُمَّ الـتّـحـريم * ثُـمَّ الـصّف * ثُمَّ الجمعة * ثُمَّ التّغابن * ثُمَّ الفتح * ثُمَّ التوبة * ثُمَّ المائدة. قال الخـازن: ومنهـم مـن يـقـدّم المـائـدة على الـتـوبة. فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بالمدينة. واختلفوا في الشورى، فقيل نزلت بمكّة وقيل نزلت بالمدينة * (من الخازن وغيره).

((القول في التَّسْمية))

«بسم الله الرحمن الرحيم»

أدبٌ حـسـنٌ أدَّب الله بـه نبيَّهُ الكريم محمداً عليه الصلاة والسلام بتعليمه تقديم ذكر اسـمـائـه الحـسنى أمـام جمـيـع أفعاله، وجعل ذلك سنةً حسنةً يَسْتَنُّ بها المسلمون، وسبيلاً يـتّـبـعونه عليها في افتتاح أوائل منطقهم، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنت دلالـة مـا ظـهر من قول القائل «بسم الله الرحمن الرحيم» على ما بطن من مراده فالتّالى للـقرآن الكريم يفتتح: «بسم الله الرحمن الرحيم» أي أبدأ (بسم الله) أو (بسم الله) أبدأ أو أقـرأ، وعـنـد النهوض إلى القيام أنهض قائماً (بسم الله) أو (بسم الله) أنهض قائماً. وكذا عند قعوده وسائر أفعاله يُنبىء عن مراده. وهو معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه أبـو روق عـن الـضـحـاك عـنـه [قال: إنَّ أوَّل ما نزل به جبْريل على محمد صلى الله عليه

وسلم قال: يا محمد قل أستعيذُ بالسّميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم. قال: قال له جبريلُ: قُل بسم الله يامحمد. يقولُ اقرأ بذكر الله رَبّك، وقُمْ واقْعُدْ بذكر الله].

وقد اختلف العلماء في كون البسملة من الفاتحة وغيرها من السور سوى سورة براءة أم لا* فذهب الشافعي وجماعة من العلماء إلى أنها آية من الفاتحة، ومن كُلّ سورة ذكرت في أوّلها سوى براءة* وهو قول ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة وسعيد بن جبير وعطاء وابن المبارك وأحمد في إحدى الروايتين عنه* و يدل على ما ذهب إليه هؤلاء الأعلام:

١ ــ اجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها في المصحف أوّل كل سورة سوى سورة براءة مع الأمر بتجريد القرآن من كل ما ليس منه، ومن ثمَّ لم يكتبوا (آمين) في آخر الفاتحة.

٢ ــ أخرج مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أنه قال: [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أُنزلت عليَّ آنفاً سُورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم]* وروى أبو داود والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف انقضاء السُّورة حتى ينزل عليه «**بسم الله الرحمن الرحيم**»* وروى الدارقطني عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [إذا قرأتم الحمد لله فاقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها أمُّ القرآن والسبع المثاني، و بسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها].

٣ ــ أجمع المسلمون على أنّ ما بين الدفتين كلام الله تعالى. والبسملة بينهما فوجب جعلها منه* ولهم أدلة كثيرة غير ما ذكرت.

وذهب الأوزاعيُّ ومالك وأبوحنيفة إلى أن البسملة ليست بآية من الفاتحة. زاد أبو داود: ولا من غيرها من السُّور، وإنما هي بعض آية في سورة النمل، وإنما كتبت للفصل والتبرك. قال مالك: ولا يستفتح بها في الصلاة المفروضة.

وللشافعي قول أنها ليست من أوائل السور مع القطع بأنها من الفاتحة* وحجة من منع كون البسملة آية من الفاتحة ومن غيرها:

١ ــ حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين.

٢ ــ وأن أول ما نزل به جبريل اقرأ بسم ربّك الذي خلق، ولم يذكر البسملة في أوّلها

فدلَّ على أنها ليست منها.

٣ ـ وأن محل القرآن لا يثبت إلا بالتواتر والاستفاضة، ولأن الصحابة أجمعوا على عدد كثير من السور منها سورة الملك ثلاثون آية، وسورة الكوثر ثلاث آيات، وسورة الإخلاص أربع آيات، فلو كانت البسملة منها لكانت خمساً.

و يرجح ما ذهب إليه أصحاب القول الأول بما أخرج مسلم في افراده عن أنس قال: [بَيْنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بَيْنَ أظهرنا إذ غَفَا غفوة، ثُمَّ رفع رأسَهُ مبتسّماً فقُلنا: ما أضحك يا رسول الله؟ قال: (أُنْزلتْ عليَّ آنفاً سورة فقرأ: «**بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر..**»] الحديث.

من أجل هذا الحديثء قال البيهقيُّ: هذا أحسن ما احتج به أصحابنا في أن بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن، وأنها من فواتح السُّور سوى براءة. ما رو يناهُ في جمع الصحابة كتاب الله عز وجل في المصاحف، وأنهم كتبوا فيها «**بسم الله الرحمن الرحيم**» على رأس كل سورة سوى سورة براءة، فكيف يتوهم متوهم أنهم كتبوا فيها مائة وثلاث عشرة آية ليست من القرآنء قال: وقد علمنا بالروايات الصحيحة عن ابن عباس أنّه كان يعدُّ «**بسم الله الرحمن الرحيم**» آية من الفاتحةء وروى الشافعي بسنده عن ابن عمر أنّه كان لا يدع «**بسم الله الرحمن الرحيم**» لام القرآن، والسورة التي بعدها، زاد غيره عنه: أنه كان يقول: لمّا كُتبت في المصحف لِمَ لَمْ تُقرأ!ء وروى الشافعي عن ابن عبّاس أنّه كان يفعله و يقول انتزع الشيطان منهم خير آية في القرآنء وفي افراد البخاري من حديث أنس أنه سئل كيف كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ [قال: كانت مدّاً. ثم قرأ «**بسم الله الرحمن الرحيم**» يمدُّ الله، ويمدُّ الرحمن، ويمد الرحيم]ء فقد ثبت بهذه الأدلة الصحيحة الواضحة أن البسملة من الفاتحة، ومن كل موضع ذكرت فيهء وانظر في هذا الشأن تفسير الخازن (جـ ١ ص ١٣) وتفسير المراغي (جـ ١ ص ٢٦) وتفسير الطبري (جـ ١ ص ٣٨) وتفسير الكشاف للزمخشري (جـ ١ ص ٢٤) وفيه عن ابن عباس: [من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى]ء والظاهر ثلاث عشرة لخلو براءة عن التسمية. أو أنه كان يعتقد بوجود التسمية في براءة، أو أنه أضاف (٣٠)
إليها التي في النحل في قوله تعالى: «**إنَّه من سُليمان وإنَّهُ بسم الله الرحمن الرحيم**» والله أعلم. النمل ٦

((القوْلُ في سورة الفاتحة))

ذهب أكثر العلماء إلى أنها مكيّة، ومن أوائل ما نزل من القرآن لما روى البيهقي في دلائله بسنده عن أبي ميسرة: عمر بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة: [(إنّي إذا خلوْتُ وَحْدِي سمعتُ نِداءً فقدْ والله خشيتُ على نفسي أن يكون هذا أمْراً) قالت: معاذَ الله، ما كانَ الله ليفعلَ بك، إنّكَ لتؤدّى الأمانةَ وتصلُ الرَّحمَ، وتصدق] الحديث، فلمّا دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه لَهُ، وقالت: إذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا فقصّا عليه فقال: [إذا خلوْتُ وحدِي سمعتُ نِداءً خلفي يا مُحمَّدُ يا مُحمَّدُ، فأنْطَلِقُ هارباً في الأفق] فقال: لا تفعل إذا أتاك فاثبُتْ حتى تسمعَ ما يقولُ، ثم ائتني فأخبرْني، فلمّا خلا ناداهُ يا مُحمَّدُ قل: «**بِسْم الله الرحْمنِ الرّحِيمِ* الْحَمْدُ لله ربِّ الْعَالمين**» حتى بلغ «**ولاَ الضَّالِّينَ**»* وهذا دليل على أنّها مكيّةٌ، ومن أوائل ما نزل من القرآن، إلا أنّه لا يصلح للاحتجاج به على أوليّة ما نزل مطلقاً وذلك من وجهين:

الوجه الأول :

أنه لا يفهم من هذه الرواية أنّ الفاتحة التي سمعها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت في فجر النبوّة: أوّلُ عهده بالوحى الجليّ وهو في غار حراء. بل يفهم منها أنّ الفاتحة كان نزولها بعد ذلك العهد، و بعد أن أتى الرسول إلى ورقة. وذلك بعد نزول سورة (اقرأ) في غار حراء.

الوجه الثاني :

أن الحديث مرسل سقط من سنده الصحابي، فلا يقوى على معارضة حديث عائشة في بدء الوحي، وهو مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدّم* وليس كلامنا فيه هنا إنما كلامنا هنا في إثبات أن الفاتحة مكيّة. وهو منقول عن ابن عباس قال: [قام النبيُّ صلى الله عليه وسلم بمكّة فقال: «**بسم الله الرحمن الرحيم* الحمد لله ربّ العالمين**» فقالت قريش: رضّ الله فاك* وقاله الحسن وقتادة.

وقال مجاهد: إن الفاتحة مدنيّةٌ. وعدَّها الحسن بن الفضل من هفوات مجاهد* فقال: لكل عالم هفوة، وهذه بادرة من مجاهد لأنّه تفرّد في هذا القول. وللتفرّد مقال* وقطعاً أن الفاتحة مكيّة لقوله تعالى: «**وَلَقَدْ آتيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمثَاني والْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [والذي نفسى بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيتُه] وهذه

الآيـة مـن سـورة الحـجر، وهي مكيّة بلا خلاف، والمقصود بالسّبع المثاني: الفاتحة، فدل على ما قُلناهُ. والله أعلم.

((القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:))
« الـم * ذلك الكتابُ... »

قال الواحدي في أسباب النزول: (ص ١٢) أخبرنا أبوعثمان الزعفراني قال: أخبرنا أبوعمر بن مطر قال: أخبرنا جعفر بن محمد بن الليث قال أخبرنا أبوحذيفة قال: حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: أربع آيات من أوّل هذه السورة ــ أي البقرة ــ نزلت في المؤمنين ــ أي قوله تعالى: «**الـم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيه هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّـذِينَ يُؤمِنُونَ بِالْغَيْبِ ويُقِيمُونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * والَّـذِينَ يُؤمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وأولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ***» قال: وآيتان بَعْدَهَا نزلتا في الكافرين ــ أي: «**إنَّ الَّـذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أأنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ * خَتَمَ الله على قُـلُوبِهِمْ وعَلَى سَمْعِهِمْ وعَلَى أبْصارِهِمْ غِشَاوَةٌ ولَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمْ**» قال: وثلاثَ عشرة بعدها نَزَلَتْ في المنَافقين. أي من قوله تعالى: «**وَمِنَ النّاسِ من يَقُولُ آمَنَّا بالله وَبالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَاهُمْ بِمُؤمِنِينَ * يُخَادِعُونَ الله والّذِينَ آمَنُوا ومَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أنْفُسَهُمْ وما يَشْعُرُون * في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ ألِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُون * وَإذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إنَّمَا نحْنُ مُصْلِحُونَ * ألا إنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُنَ * وإذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قالُوا أنُؤمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ألا إنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ولَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ * وإذَا لَقُوا الَّذينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وإذَا خَلَوْا إلَى شَيَاطِينهِمْ قَالُوا إنَّا مَعَكُمْ إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤنَ * الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الذين اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بالهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * أوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيه ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ والله مُحِيطٌ بالْكَافِرِينَ ***» إلى قوله تعالى: «**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أضَاءَ**

لَهُمْ مَشَوْ فيهِ وإذَا أظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأبْصَارِهِمْ إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» صدق الله العظيم* ولكن قال الضحاك في قوله تعالى: «إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا..» الآية نزلت في أبي جهل، وخمسة من أهل بيته* وقال الكلبي: يعني اليهود. (من الواحدى صـ١٣)* وفي القرطبي(١): وقال ابن عباس والكلبي: نزلت في رؤساء اليهود: منهم حُيَيُّ بن أخطب وكعب ابن الأشرف ونظراؤهما* وقال الربيع بن أنس نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب. وصحح القرطبيُّ ما قالَهُ ابن عباس والكلبيّ.

وفي الطبرى(٢) (جـ ١ ص ٨٤) وكان ابن عباس يرى أن هذه الآية نزلت في اليهود الذين كانُوا بنواحي المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم توبيخاً لَهُمْ في جحودهم نبوّة محمد صلى الله عليه وسلَّم وتكذيبهم به مع علمهم به ومعرفتهم بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وإلى الناس كافةً* قال أبو جعفر: وروى عن ابن عبّاس في تأويل ذلك قول آخر وهو ما حدَّثنا به المثنّى بن ابراهيم قال: حدَّثنا عبدالله بن صالح عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس — في — قوله: «إنّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أأنْذَرْتَهُمْ أمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُون» قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يؤمن جميع النّاس و يُتَابعوه على الهدى فأخبره جلّ ثناؤه أنّه لا يُؤمنُ إلاَّ مَنْ سَبَقَ لَهُ من الله السعادة في الذكر الأ وّل، ولا يضلُ إلا منْ سبق له من الله الشقاء في الذكر الأ وّل* قال أبو جعفر وأولى هذه التأو يلات تأو يل ابن عباس رضي الله عنهما وسيأتيك المزيد من الايضاح فيما بعد إن شاء الله تعالى.

---

(١) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح الأنصارىّ الخزرجي الأندلسّي. المفسّر العالم العابد العارف المتوفي في التاسع من شوال سنة ٦٧١هـ.

(٢) هو إمام المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠هـ.

((تفسير الآيات))

« ألــم » قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السُّور، فمنهم من قال: هي ممّا اسْتأثر الله بعلمه: فردُّوا علمها إلى الله تعالى حكاه القرطبي في تفسيره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم أجمعين. وقاله أيضاً عامر الشعبي وسفيان الثورى والربيع بن خيثم. واختاره أبو حاتم بن حبان* ومنهم من فسّرها* واختلف هؤلاء في معناها* فقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: إنما هي أسماء للسُّوَر* قال أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره الكشاف (جـ١ ص٨٣): وعليه إطباق الأكثر* ونُقِلَ عن سيبويه أنّه نص عليه. و يعتضد لهذا بما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ألم* السجدة. وهل أتى على الإنسان]* وقال سفيان الثورىّ عن ابن أبى نجيح عن مجاهد أنه قال: ألم * وحم * وألمص * وص . فواتح افتتح الله بها القرآن.

قلت : والقول الذي ترتاح إليه النفس أن حروف الهجاء في أوائل السُّور هي من المتشابه الذي استأثره الله بعلمه. وهي سرُّ الله في القرآن. فنحن نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله تعالى. وفائدة ذكرها طلب الايمان بها* قال أبوبكر الصديق رضي الله عنه: [في كل كتاب سرٌّ وسرُّ الله في القرآن أوائل السُّور]* وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: [إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التّهجّى]* وأورد على هذا القول بأنه لا يجوز أن يخاطب الله عباده بما لا يعلمون* وأجيب عنه: بأنّه يجوز أن يكلف الله عباده بما لا يعقل معناه كرمى الجمار فإنّه مما لا يعقل معناهُ. والحكمة فيه هو كمال الإنقياد والطاعة، فكذلك هذه الحروف يجب الايمان بها ولا يلزم البحث عنها.

وقال آخرون من أهل العلم: هي معروفةُ المعانى. ثم اختلفوا فيها* فقيل: كل حرف منها مفتاح اسم من أسماء الله تعالى. فالألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد* وقيل الألف آلاءُ الله. واللام لُطْفُه. والميم ملكه. و يؤيد هذا أن العرب تذكر حرفاً تريد كلها، قال الراجز:

قُلتُ لها قِفِي فقَالَتْ قاف   لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف

قولها قاف أي وقفتُ، فاكتفت بجزء الكلمة. عن كلها. والايجاف الإسراع في السير* قال ابن عباس: [الٓمٓ. أنا الله أعلم]* وقيل: هي أسماء مقطّعة لو علم الناسُ

تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم. ألا ترى أنك تقول: الر، وحم، ون، فيكون مجموعها الرحمن وكذلك سائرها ولكن لم يتهيأ تأليفها جميعاً، وقال ابن عباس: [هي أقسام فقيل أقْسَمَ الله بهذه الحروف لشرفها وفضلها. لأنها مباني كتبه المنزلة، وأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وإنما اقتصر على بعضها. وإن كان المراد كلها. فهو كما تقول: قرأتُ الْحَمْدَ لله. وتريد أنك قرأتَ السورة بكمالها. فكأنه تعالى أقسم بهذه الحروف أن هذا الكتاب هو الكتاب المثبت في اللوح المحفوظ.

وقيل إنَّ الله تعالى لما تحدّاهم بقوله: «**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**» وفي آية بعشر سور مثله فعجزوا عنه. أنزل هذه الأحرف. ومعناه أن القرآن ليس هو إلا من هذه الحروف وأنْتُم قادرون عليها فكان يجب أن تأتوا بمثله، فلمَّا عجزتُم عنه دلَّ ذلك على أنّه من عند الله لا من عند البشر»(١) وقيل: إنهم لمَّا أعرضوا عن سماع القرآن، وأراد الله صلاح بعضهم أنزل هذه الأحرف. فكانُوا إذا سمعوها قالوا: كالمتعجّبين اسمعوا إلى ما يجيء به محمد فإذا أصغوا إليه وسمعوه، رسخ في قلوبهم، فكان ذلك سبباً لإيمانهم، وقيل: إن الله تعالى حيّر عقول الخلق في ابتداء خطابه ليعلموا أن لا سبيل لأحد إلى معرفة خطابه إلا باعترافهم بالعجز عن معرفة كنه حقيقة خطابه.

واعلم أن مجموع الأحرف المنزل في أوائل السور. أربعة عشر حرفاً في تسع وعشرين سورة. وهي الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون، وهي نصف حروف المعجم [الخازن (جـ١ ص١٩)].

قوله تعالى: «**ذَٰلِكَ الْكِتَابُ**» أي هذا الكتاب هو القرآن، وقيل: فيه إضمار. والمعنى هذا الكتاب الذي وعدتك به، وكان الله قد وعد نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم أن ينزّل عليه كتاباً لا يمحوه الماء، ولا يخلق على كثرة الرّد، فلما نزل القرآن قال هذا: ذلك الكتاب الذي وعدتُكَ به، وقيل: إن الله وعد بني إسرائيل أن ينزل كتاباً و يرسل رسولاً من ولد إسماعيل، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وبها من اليهود خلق كثير أنزل الله تعالى هذه الآية: «**الم، ذَٰلِكَ الْكِتَابُ**» أي هذا الكتاب الذي وعدتُ به على لسان موسى أن أنزله على النبيِّ الذي هو من ولد إسماعيل، «**ذلك**»

(١) انظر تفسير الخازن (جـ١ ص١٩) وتفسير ابن كثير (جـ١ ص٣٦) وتفسير الطبري (جـ١ ص٧٢) والكشاف (جـ١ ص٧٦) وتفسير المراغي (ج١ ص٣٩)

بمعنى هذا قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن جبير وغيرهم والكتاب: مصدر بمعنى المكتوب. وهو النقوش والرقوم الدالة على المعاني. والمراد به الكتاب المعروف الذي سمَّاه الله قرآناً، وأنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم للتّعبد بتلاوته، والعمل بأحكامه، وللإعجاز بسورة منه* وفي أبي السعود: «**ذَٰلِكَ الْكِتَابُ**» ذا اسم اشارة، واللام عماد جيء به للدلالة على بُعْد المشار إليه، والكاف للخطاب. والمشار إليه هو المسمّى، فإنّه منزّل منزلة المشاهد بالحسّ البصرى. وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو شأنه، وكونه في الغاية القاصية من الفضل، والشرف إثْرَ تنويهه بذكر اسمه* أي هذا بيان لحاله في نفس الأمر، وأنه قريب لحضوره. وهذا لا ينافي بعده رتبةً «**لاَ رَيْبَ فِيهِ**» الريب: الشك مع تهمة وحقيقتهُ على ما قاله الزمخشري في الكشاف (جـ١ ص١١٣)* قلق النفس، واضطرابها. ومنه الحديث: دع ما يريبك: أي ذاهباً إلى ما يطمئن به قلبك، فإن كون الشيء في نفسه مشكوكاً فيه غير صحيح مما تقلق له النفس الزكية وتضطرب معه. وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له، أي إذا وجدت نفسك مضطربة في أمر فدعه، وإذا وجدتها مطمئنة فيه فاستمتسك به لأن اضطراب قلب المؤمن في شيء علامة كونه باطلاً محلاً لأن يشك فيه، وطمأنينتُه فيه علامة كونه حقاً وصدقاً* أي لا شك فيه أنه من عند الله، وأنّه الحق والصدق* وقيل هو خبر بمعنى النهي. أي لا ترتابوا فيه. وفي الخازن: فإن قُلتَ قد ارتاب فيه قوم فما معنى لا ريب فيه؟ قلتُ: معناه أنّه في نفسه حقٌ وصدق فمن حقق النظر عرف حقيقة ذلك.

والمعنى: إنّ هذا الكتاب لا يعتريه ريب في كونه من عند الله، ولا في هدايته وإرشاده، ولا في أسلوبه وبلاغته، فلا يستطيع أحدٌ أن يأتي بكلام يقرب منه بلاغة وفصاحة ــ وإلى هذا أشار بقوله: «**وإنْ كُنْتُم في رَيْبٍ مِمَّا نزَّلنَا على عَبْدِنَا فَأتُوا بِسُورةٍ مِنْ مِثْلِهِ**» وارتياب كثير من النّاس فيه إنما نشأ عن جهل بحقيقته، أو عن عمى بصيرتهم، أو عن التّعنّت عناداً واستكباراً، واتبّاعاً للهوى، أو تقليداً لسواهم. كذا ذكره المراغي في تفسيره (جـ١ ص٤٠).

«**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**» الهُدى عبارة عن الدلالة* وقيل: دلالة بلطف، وقيل: الهدايةُ: الإرشاد* والمعنى: هو هدى للمتقين إلى الصراط المستقيم، مع المعونة والتوفيق للعمل بأحكامه، إذ هم قد اقتبسوا من أنواره، وجنَوْا من ثماره، وهو لغيرهم هُدى، ودلالة على الخير، وإن لم يأخذوا بهديه، وينتفعوا بإرشاده، وكون بعض النّاس لم يهتدُوا بهديه لا

يخرجه عن كونه هُدى، فالشّمسُ وإن لم يرها الأعمى، والعسل عسلٌ وإن لم يجد طعمه ذو الْمِرَّة٭ والمتقى: اسم فاعل من وقاه فاتّقى، والتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف٭ وقيل: التقوى في عرف الشرع حفظ النفس مما يؤثم، وذلك بترك المحظور، و بعض المباحات٭ قال ابن عباس رضي الله عنهما: [المتقى من يتقى الشرك والكبائر والفواحش]٭ وهو مأخوذ من الإتقاء، وأصله الحجز بين الشّيْئيْن، يقال اتقى بترسه إذا جعله حاجزاً بينه و بيْن ما يقصده٭ وفي الحديث: [كنا إذا اشتد البأس اتقيْنا برسول الله صلى الله عليه وسلم]٭ معناه: إنا كنا إذا اشتد الحربُ جعلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجزاً بيننا و بين العدوّ، فكأنَّ المتقي يجعل امتثال أوامر الله وإجتناب نواهيه حاجزاً بينه و بين النار٭ وقيل: المتقي هو من لا يرى نفسه خيْراً من أحد٭ وقيل التقوى ترك ما حرّم الله وأداء ما افترض٭ وقيل: التقوى ترك الإصرار على المعصية وترك الإغترار بالطاعة٭ وقيل التقوى: أن لا يراك مولاك حيث نهاك٭ وقيل: التقوى الاقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه٭ وفي الحديث: [جماع التقوى في قوله تعالى: **«إنّ اللّٰه يَأمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإحْسَانِ وَإيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى و يَنْهىَ عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكرِ»**]..٭ وخص المتقين بالذكر تشريفاً لهم، لأن مقام التقوى مقام شريف عزيز، ولأنهم هم المنتفعون بالهداية، ولو لم يكن للمتقين فضل إلا قوله تعالى: **«هُدًى لِلْمُتَّقِينَ»** لكفاهم٭ قال الخازن: فإن قُلت كيف قال هدى للمتقين، والمتقون هم المهتدون؟ قُلتُ: هو كقولك للعزيز الكريم: أعزّك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة له إلى ما هو ثابت فيه كقوله تعالى: **«اهْدِنَا الصّراط الْمُسْتَقِيمَ»**٭ أي أن المتقين في هذه الآية هُمُ الذين سَمَتْ نفوسهم فأصابت ضرباً من الهداية، واستعداداً لتلقى نور الحقّ، والسعى في مرضاة الله بقدر ما يتّصل إليه إدراكهم و يبلغ إليه اجتهادهم، ولأنهم اتقوا الشرك و برؤا من النفاق، وركوب الفواحش التي حرَّمها الله جلَّ ثناؤه٭ روى الترمذي وابن ماجه من رواية أبى عقيل عبدالله بن عقيل عن عبدالله بن يزيد، عن ربيعة بن يزيد وعطية بن قيس، عن عطية السعدى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا يبلغ الْعَبْدُ أن يكون من المتقين حتى يدع ما لاَ بأسَ به حذراً ممّا به بأسٌ] ثم قال الترمذي حَسَنٌ غريب٭ وقال ابن أبى حاتم: حدَّثنا أبى، حدَّثنا عبدالله بن عمران، عن إسحاق بن سليمان، يعنى الرازى، عن المغيرة بن مسلم عن ميمون أبى حمزة قال: كنتُ جالساً عند أبى وائل فدخل علينا رجل يقال له: أبوعفيف من أصحاب معاذ، فقال له شقيقُ بنُ سلمة: يا أبا عفيف، ألا تحدّثنا عن معاذ

بن جبل؟ قال: بلَى. سمعتُه يقول: يُحبسُ النّاسُ يوم القيامة في بقيعٍ واحدٍ، فينادى منادٍ أين المتَّقُون؟ فيقومون في كَنَفٍ منَ الرحْمٰنِ لا يحتجب الله منهم ولا يستتر، قُلتُ: مَنِ المتقون؟ قال قوم اتقوا الشرك وعبادةَ الأ وثان وأخلصوا لله العبادةَ فيمرُّون إلى الجنة* (انظر تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٠) والطبري (جـ ١ ص ٧٧) والخازن (جـ ١ ص ٢١) والمراغى (جـ ١ ص ٤٠) والكشاف (جـ ١ ص ١١٦) والفتوحات الإلٰهية لعمر العجيلى الشافعي الشهير بالجمل (جـ ١ ص ١١).

«الذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْب» أي الذين يصدّقون قاله ابن عباس: فقد فسّر الإيمان بالتصديق* وقال الربيع: يؤمنون: يخشون* ومعنى الإيمان عند العرب التصديق فيدعى المصدق بالشيء قولاً مؤمناً به كما تقول: أنا مؤمنٌ بقولك أي مصدق بقولك، وعليه قول الله تعالى: **«ومَا أنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ولَوْ كُنَّا صَادِقِينَ»** يعني: وما أنت بمصدق لنا في قولنا، وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل* والإيمان في لسان الشرع: عبارة عن التصديق بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالأ ركان، و يصدّقه قوله عليه الصلاة والسلام: [ليس الإيمانُ بالتّمنّي ولا بالتحلي ولكنْ ما وقَرَ بالْقَلْبِ وصدَّقَهُ العملُ]* وإذا فسر الإيمان بما ذكرتُ في لسان الشرع. فإنه يزيد و ينقص، وهو مذهب أهل السنة من أهل الحديث وغيرهم. وعلى الأ ول لا يزيد ولا ينقص لأن التصديق لا يتجزّأ حتى يتصوّر كماله مرّة ونقصانه أخرى، وفائدة هذا الخلاف تظهر في مسألة، وهى أنّ المصدّق بقلبه إذا لم يجمع إلى تصديقه العمل بموجب الإيمان من الصّلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك من أركان الدين، هل يُسمّى مؤمناً أم لا؟ فيه خلاف. والمختار عند أهل السنة لا يُسمّى مؤمناً لقوله عليه الصلاة والسلام: [لا يزنى الزاني حين يزني وهو مؤمن] فنفى عنه اسم الإيمان، أو كمال الإيمان* وأنكر أكثر المتكلمين زيادة الإيمان ونقصانه. وقالُوا متى قبل الزيادة والنقص كان ذلك شكاً وكفراً.

وقال المحققون من متكلّمى أهل السنّة: أنَّ نفس التّصديق لا يزيد ولا ينقص. والإيمانُ الشرعى يزيد و ينقُص بزيادة الأعمال ونقصانها* قال الخازن: وبهذا أمكن الجمع بين ظواهر نصوص الكتاب والسنّة التي جاءت بزيادة الإيمان ونقصانه، و بين أصله من اللغة* وقال بعض المحققّين: إنّ نفس التصديق قد يزيد و ينقص بكثرة النظر في الأدلَة والبراهين، وقلّة إمعان النظر في ذلك، ولهذا يكون إيمان الصدّيقين أقوى وأثبت من إيمان غيرهم، لأنهم لا تعتريهم شبهة في إيمانهم ولا تُزلزل، وأما غيرهم من آحاد النّاس

فليس كذلك إذ لا يشك عاقل أن نفس تصديق أبي بكر رضي الله عنه لا يساو يه تصديق غيره من آحاد الأمة* والدليل على أن الأعمال من الإيمان ما روى عن أبي هريرة قال: [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإيمانُ بِضْعٌ وسبعُونَ شعبةً أفضلها قول لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريقِ والحياءُ شعبةٌ من الإيمان] أخرجاه في الصحيحين.

(البِضْعُ) بكسر الباء ما بيْن الثلاثة إلى العشرة، (والشُعبة) القطعة من الشيء. (وإماطة الأذى عن الطريق) هو عزل الحجر والشوك ونحو ذلك عنه. (والحياء) بالمدّ: هو انقباضُ النفس عن فعل القبيح، وإنما جعل الحياء من الإيمان، وهو اكتسابٌ لأن المستحى ينزجر باستحيائه عن المعاصي، فصار من الإيمان.

قوله تعالى: «**بِالْغَيْبِ**» (الغيب) هنا مصدر وضع موضع الاسم. فقيل للغائب غيْب. وهو ما كان مغيباً عن العيون* قال ابن عباس: الغيب هنا كل ما أُمرتَ بالإيمان به ممَّا غابَ عن بصرك من الملائكة والبعث والجنّةِ والنّار والصراط والميزان* وقال عبدالرحمن بن يزيد عند عبدالله بن مسعود، فذكرنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما سبقونا به: فقال عبدالله بن مسعود: إنّ أمر محمد صلى الله عليه وسلم كان بْيننا لمنْ رآهُ، والذى لا إلٰه غيره: ما آمنَ أحَدٌ قطّ أفضل مِنْ إيمانٍ بغيْب، ثُمَّ قرأ: «**الم * ذلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ**» إلى قوله: «**وأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**»* وقال قتادة: في قوله تعالى: «**الّذينَ يُؤْمِنُونَ بالْغَيْبِ**» اقال: آمنوا بالجنّة والنّار، والبعث بعد الموت، و بيوم القيامة وكل هذا غيب* وقال الربيع بن أنس: الذين يؤمنون بالغيب، آمنوا بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وجنّته وناره ولقائه، وآمنوا بالحياة بعد الموت فهذا كله غيب* «**وَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**» يقيمون الصّلاة: أي يداومون عليها في مواقيتها بحدودها وإتمام أركانها، وحفظها من أن يقع فيها خلل في فرائضها، وسننها وآدابها، يقال قام بالأمر، وأقام الأمر إذا أتى به معطى حقوقه، والمراد به الصلوات الخمس* والصلاة في اللغة: الدعاء والرحمة، ومنه قوله تعالى: «**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ**» أي أدعُ لهم، وأصله من صليتُ العودَ إذا ليّنْته. فكأن المصلى يَلين ويخشَع* وفي الشرع: اسمٌ لأفعال مخصوصة من قيام وركوع وسُجودٍ وقعود ودعاء مع النيّة* قال ابن عبَّاس: «**و يقيمون الصَّلاةَ**» أي يقيمون الصلاة بفروضها* وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظةُ على مواقيتها، و وضوئها وركوعها وسجودها* وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على

مـواقيتها وإسباغ الطهور بها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها والتّشهد والصلاة على النـبيِّ صلى الله عـليـه وسلم فهذا إقامتها. (الخازن جـ١ ص ٢٣) و(ابن كثير جـ١ ص ٤٢) و(الطبرى جـ١ ص ٨٠)* وقال: وأرى أنّ الصلاة المفروضة سُمّيت صلاةَ لأن المصلى مـتـعرّض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله مع ما يَسْأل ربَّهُ فيها من حاجاته، تَـعَـرُّضُ الـداعـى بـدعـائه ربَّهُ استنجاح حاجاته وسؤله* ولما للصلاة من خطر في تهذيب الـنفوس والسُّموِّ بها إلى الملكوت الأعْلىَ أبانَ الله تعالى عظيم آثارها بقوله: «**إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنْكَرِ**» وجعلها النبيُّ صلى الله عليه وسلم عماد الدِّين فقال: [الـصـلاةُ عـمـادُ الـدِّيـنِ والزَّكَاةُ قَنْطرةُ الإسْلامِ]* وقد أمر الله بإقامتها بقوله: «**وأقِيمُوا الـصَّـلاةَ**»، و بـالمحـافـظـة عـليها وإدامتها بقوله: «**الَّـذينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ**» و بـأدائها في أوقاتها بقوله: «**إنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤمِنِينَ كتاباً مَوْقُوتاً**» و بأدائها في جماعـة بـقـولـه: «**وَارْكَـعُـوا مَـعَ الـرَّاكِعِينَ**» و بالخشوع فيها بقوله: «**الَّـذينَ هُمْ فى صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ**»* قوله تعالى: «**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**» الرزق في اللغة العطاء، ثم شـاع استعماله فيما ينتفع به الحيوان، وجمهرة المسلمين على أنّ كل ما يُنْتَفَعُ به حلالاً كانَ أو حـرامـاً فـهـو رزق، وخصـه جماعـة بـالحـلال فقط، كما هومذهب القدرية، ولذا قال الـزمخـشريُّ في الـكـشـاف (جـ١ ص ١٣٢): أضاف الرزق إلى نفسه للإعلام بأنّهم إنما ينفقُون من الحلال الطلق... الخ* وقد ردّ عليه الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد ابن المنيّر الإسـكـنـدري المـالـكي في كتاب (الإنصاف فيما تضمنَّه الكشاف من الإعتزال) بقوله: فـهذه بدعة قدرية، فإنهم يرون أنّ الله تعالى لا يرزق إلا الحلال، وأمَّا الحرام فالعبدُ يرزقه لـنفسه، حتى يقسِّمُوا الأ رزاق قسمين: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائه، وإذا أثبتُوا خالقاً غير الله فـلا يـأنـفون عن إثبات رازق غيرهُ، أمَّا أهْلُ السُّنَّةِ فلاَ خالق ولا رازق في عقدهم إلاَّ الله سـبـحـانـه تـصـديقاً بقوله تعالى: «**هَلْ مِنْ خالِقٍ غيرُ الله يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ لاَ إلَهَ إلاَّ هُـوَ فَـأنَّـى تُـؤفـكُـونَ**» أيـها القدرية* وقوْلُه (يُنفقُونَ) أي يخرجون و يـتـصَـدَّقُـون في طـاعـة الله تـعـالى وسبيله، و يدخُل فيه انفاق الواجب كالزكاة والنذر والإنـفـاق على الـنـفـس، وعلى من تجب نفقتُه عليه، والإنفاق في الجهاد إذا وجب عليه، والإنـفـاق في المـنـدوب. وهـو صـدقة التطوّع، ومواساة الفقراء، وهذه كلها مما يُمدحُ بها. وأصـل «مِمَّا» من ما. ومن للتبعيض فأدخلها على الإنفاق صيانةً لهم وكفاً عن السّرف والتبذير المنهيّ عنها في الانفاق.

وفي الطبرى عن الضحاك في قوله: «**وَممّا رزقْنَاهُمْ ينفقون**» قال: كانت النفقات قربات يتقرَّبون بها إلى الله تعالى على قدر ميسورهم وجهدهم حتّى نزلت فرائض الصدقات سبع آيات في سورة براءة مما يذكر فيهنّ الصدقات، هنّ المثبتات النّاسخات* وفيه عن ابن مسعود. وعن ناس من أصْحَاب النبي صلى الله عليه وسلم «**ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون**» هي نفقة الرجل على أهله، وهذا قبل أن تنزل الزكاة* والأ وْلى أن تكون الآية عامة في الصدقات الواجبة والمندوبة لورود النفقة بصيغة المضارع دلالة على دوام استمرارها في كل وقت الحصاد وفي كل عام، في الأموال الزكويّة، وفي النفقات الواجبة، والمندوبة، وهو اختيار ابن جرير الطبرى فإنه قال: وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم أن يكونُوا لجميع اللاّزم لهم في أمْوالهم مؤدين ـ زكاةً كانت ذلك أو نفقة مَــنْ لزمتْهُ نفقته من أهل أوْ عيال، وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك، لأن الله تعالى عمَّ وصفهم ومدحهم بذلك، وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه* وقال ابن كثير تعقيباً على الطبرى بقوله: كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والانفاق من الأموال، فإن الصلاة حقٌ الله تعالى وعبادته، وهي مشتملةٌ على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدّى إليهم، وأولى النّاس بذلك القربات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة، والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: «**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**»* وقوله تعالى: «**والّـذِينَ يُؤمِنُونَ بِمَا أُنْزلَ إلَيْكَ وَمَا أُنْزلَ مِنْ قبْلِكَ**» أي يصدقون بالقرآن المنزل عليك، و بالكتب المنزلة على الأنبياء من قبل كالتَّوراة والإنجيل والزَّبور وصُحُف الأنبياء كلها فيجب الإيمان بذلك كله* قال ابن عباس: «**والذين يُؤمنون بما أُنْزل إليْك وَمَا أُنْـزلَ مِنْ قَبْلِكَ**» أي يُصدّقون بما جئتَ بهِ من الله، وما جاء به منْ قبلك من المرسلين، لا يُفرقون بينهم ولا يجحَدُونَ ما جَاؤهم بهِ من ربهم* وفي الطبرى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم «**والّـذِينَ يُؤمِنُون بِمَا أُنْزلَ إلَيْكُ وما أُنْزلَ مِنْ قَبْلِكَ وبالآخرَةِ هُمْ يُوقنُون**» هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب* ونقله السُّدى في تفسيره عن ابن عباس، وابن مسعود وأناس من الصحابة، واختاره ابن جرير رحمه الله* و يُستشهد لما قاله بقوله تعالى: «**وإنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤمِنُ باللهِ وَمَا أُنْزلَ إليْكَ ومَا أُنْزِلَ إلَيْهِمْ خاشِعِينَ للهِ**» الآية و بقوله تعالى: «**الّـذِينَ آتيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قبْلِهِ هُمْ بهِ يُؤمِنُون * وإذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ**

قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ»* وبما ثبت في الصحيحين من حديث الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [ثَلاثةٌ يُؤتَوْنَ أجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أهْلِ الكتاب آمن بنبيّه وآمنَ بي. ورَجُلٌ مملوكٌ أدَّى حقَّ الله، وحقَّ مواليه. ورَجُلٌ أدَّبَ جاريتَه فأحسن تأديبها، ثُمَّ أعْتَقَها وتزوَّجها]* وقوله تعالى: «وبالآخِرَةِ» يعني: و بالدَّار الآخرة. سُمّيتْ آخرة لتأخرُّها عن الدنيا وكونها بعدها* قال أبوجعفر: أمَّا الآخرة فإنها صفة للدار كما قال جلَّ ثناؤه «وَإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» وإنما وصفت بذلك لمصيرها آخرة لأ ولى كانت قبلها كما تقول للرجل أنعمتُ عليكَ مرَّةً بعْدَ أخرى فلم تشكر لي الأ ولى ولا الآخرة، وإنما صارت الآخرة آخرة للأولى لتقدم الأ ولى أمامها فكذلك الآخرة سُمِّيتْ آخرةً لتقدّم الدار الأ ولى أمامها، فصارت التاليةُ لها آخرةً. قال: وقدْ يجوز أن تكون سمِّيتْ آخرة لتأخرها عن الخلق كما سُمّيت الدنيا دنيا لدنوها من الخلق* وقوله تعالى: «هُمْ يُوقِنُونَ» من الإيقان واليقين: هو التّصديق الجازم الذي لا شبهة فيه ولا تردّد، و يعرف اليقين بالله واليوم الآخر بآثاره في الأعمال، فمن يشهد الزور، أو يشرب الخمر، أو يأكل حقوق النّاس يكنْ إيمانه بهما خيالاً يلوح في الذهن لا إيماناً يقوم على اليقين. والمعنى أنهم يسْتيْقِنون و يعلمون علم اليقين أنها كائنة* وفى الطبرى عن ابن عبّاس: و بالآخرة هُمْ يُوقنون. أي بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان. أي لا هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان قبلك، و يكفرون بما جاءك من ربّكَ* قال أبو جعفر الطبرى: وهذا التأو يل من ابن عبّاس. قد صرّح عن أن السورة من أوّلها وإن كانت الآيات التي في أوّلها من نعت المؤمنين تعريض من الله عز وجل بذم الكفّار أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم بما جاءت به رسُل الله عز وجل الذين كانُوا قبل محمد صلوات الله وسلامه عليهم وعليه مصدقون. وهم بمحمّد عليه السلام مكذبون، ولمّا جاء به من التوحيد جاحدون. و يدّعون مع جحودهم ذلك أنهم مهتدون، وأنه لن يدخل الجنة إلاَّ من كانَ هوداً أو نصارى. فأكذب الله جلَّ ثنَاؤهُ ذلك من قبلهم بقوله: «ألم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالْغَيْبِ و يُقيمُونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بمَا أُنْزلَ إليْكَ ومَا أُنْزِلَ مِنْ قبْلِكَ وبِالآخرةِ هُمْ يُوقِنُون» وأخبر جلَّ ثناؤه عبَادَهُ أنَّ هذا الكتاب هُدى لأهل الإيمان

بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به المصدّيقين بما أُنزل إليه، وإلى من قبله من رسله من البينات والهدى خاصةً دون من كذّب بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به. وادَّعى أنَّه مصدّق بمن قبل محمد عليه السلام من الرسل. وبما جاء به من الكتب، ثم أكّد جلّ ثناؤه أمر المؤمنين من العرب، ومن أهل الكتاب المصدقين بمحمد عليه السلام، وبما أنزل إليه، وإلى من قبله من الرسل بقوله: «**أُولَئِكَ عَلَى هُدَى مِنْ رَبِّهِمْ وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُون**» أولئك: أي الذين هذه صفتهم «**علَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ**» أي على رشاد ونور من ربّهم، وقيل على استقامة «**وأولئك هُمْ الْمُفْلِحُونَ**» أي الناجحون الفائزون. نجوْا من النار. وفازوا بالجنة. والمفلح الظافر بالمطلوب أي الذي انفتحت لَهَ وجوه الظفر، ولم تستغلق عليه. وعن ابن عبّاس: «**وأُولئِكَ هُمُ الْمفلِحُون**» أي الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هر بوا* وفي تفسير ابن كثير (جـ ١ ص ٤٤) وقد نقل عن مجاهد وأبي العالية والربيع بن أنس، وقتادة رحمهم الله. وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى. حدَّثنا أبي حدَّثنا ابن لهيعة، حدَّثنى عبيد الله بن المغيرة عن أبي الهيثم ــ واسمه سليمان بن عبدالله عن عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قيل لهُ يا رسول الله: إنّا نقرأ من القرآن فنرجو، ونقرأ من القرآن فنكادُ أنْ نيأس، أو كما قال؟ قال: [أفلاَ أُخبرُكُمْ عنْ أهل الجنة وأهل النار؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: «**ألــم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فيهِ هدى للمتقين**» إلى قوله تعالى: «**المفلحون**» هؤلاء أهلُ الجنَّة. قالوا إنَّا نرجو أن نكون هؤلاء. ثم قال: «**إنّ الذينَ كفَروا سَواءٌ عَلَيْهِمْ**» إلى قوله: «**عظيم**» هؤلاء أهل النار. قالوا لسنا هم يا رسولَ الله؟ قال: أجل]* وقوله تعالى: «**إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أأنْذَرْتَهُمْ أمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ**» تقدم معنا أنَّ الله عزّ وجل صدَّر هذه السُّورة بأربع آيات أنزلها في المؤمنين. و بآيتين أنزلها في الكافرين. و بثلاث عشرة آية أنزلها في المنافقين. فأما التي في الكفار فقوله تعالى: «**إنَّ الّــذِين كَفَرُوا**» أي جحدوا وأنكروا، وأصل الكفر في اللغة الستر والتغطية، ومنه سميّ الليل كافراً لأنه يستر الأشياء بظلمته .قال الشاعر: في ليلة كفر النجومَ غَمَامُها. (أي سترها)* وقال الخازن في تفسيره (جـ ١ ص ٢٤) والكفر على أربعة أضرب. كفر إنكار: وهو أن لا يعرف الله أصلاً ككفر فرعون وهو قوله: «**مَاعَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلــٰه غيْرى**»* وكفر جحود: وهو أن يعرف الله بقلبه ولا يقرّ بلسانه ككفر إبليس* وكفر عنادٍ: وهو أن يعرف الله بقلبة و يقرّ بلسانه ولا يدين به ككفر أُميَّة بن أبي الصلت وأبي طالب حيث يقول في شعر لَهُ:

ولقد علمتُ بأنّ دينَ محمّدٍ من خيرِ أديانِ البريّة دينا
لولا الملامةُ أو حذار مسبّة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

وكفر نفاق: وهو أن يقرَّ بلسانه ولا يعتقد صحة ذلك بقلبه. فجميع هذه الأنواع كفر. وحاصله أن من جحد الله، أو أنكر وحدانيته، أو أنكر شيئاً ممَّا أنزله على رسوله. أو أنكر نبوَّة محمد صلى الله عليه وسلم. أو أحداً من الرسل فهو كافر. فإن مات على ذلك فهو في النار خالداً فيها، ولا مفرَّ لَهُ.

وقال الخازن: نزلت في مشركي العرب. وقيل في اليهود. والمعنى «**إنّ الّذِينَ كَفَرُوا**» أي غطوا الحقَّ وستروه بما كتب عليهم في الأزل أنهم «**سَوَاءٌ عليهم أأنذرتَهم**» أي سواء عليهم إنذارك وعدمه «**أمْ لَمْ تُنْذِرْهم لاَ يؤمنونَ**» بما جئتهم به، كما قال تعالى: «**إنّ الّذينَ حَقّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤمِنُون ولَو جَاءتْهُم كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوا الْعَذَابَ الأليمَ**» وقال تعالى في حق المعاندين من أهل الكتاب: «**وَلَئِنْ أتَيْتَ الّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلّ آيةٍ ما تَبِعُوا قِبلتَكَ**» الآية. قال ابن كثير في التفسير (جـ ١ ص ٤٥): أي إنّ من كتب الله عليه الشقاوة فلا مسعد له ومن أضله فلا هاديَ له، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبلغهم الرسالة، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولى فلا تحزنْ عليهم ولا يهمنك ذلك: «**فَإنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وعَلَيْنَا الْحِسَابُ * إنَّمَا أنت نَذِيرٌ والله على كُلِّ شيءٍ وَكِيلٌ**» وقال عليُّ بنُ أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: «**إنّ الّذينَ كفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِم أأنْذَرتَهُمْ أمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤمِنُون**» قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص أن يؤمن جميع النّاس ويُتابعوه على الهدى فأخبره الله تعالى أنّه لا يؤمن إلاَّ من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضلُّ إلاَّ من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول. وبذا يعلم أنّ هذه الآية في أقوام حقّتْ عليهم كلمة العذاب في سابق علم الله الأزليّ أنّهم لا يؤمنون. ثم ذكر سبب تركهم الايمان: فقال تعالى: «**خَتَمَ الله على قُلُوبُهم**» أي طبع الله عليها، فلا تعي خيراً ولا تفهمه، وأصل الختم التغطية، وحقيقتُه الاستيثاقُ من الشيءِ لكي لا يخرجُ منه ما حصل فيه، ولا يدخله ماخرج منه، ومنه ختم الكتاب. قال أهل السنّة: ختم الله على قلوبهم بالكفر لما سبق في علمه الأزلي فيهم، وإنما خص القلب بالختم لأنه محل الفهم والعلم. «**وَعَلَى سَمْعِهِمْ**» أي وختم على موضع سمعهم، فلا يسمعون الحقَّ ولا ينتفعون به لأنها تمجُّه وتَنْبُو عن الاصغاء إليه كأنها مستوثق منها بالختم أيضاً. وذكر السمع بلفظ التوحيد،

ومعناهُ الجمع، قيل إنما وحد السمع لأنه مصدر والمصدر لايُثَنّى ولا يجمع * «**وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**» الغشاوة: الغطاء، ومنه غاشية السَّرْج. أي وجعل على أبصارهم غشاوة، فلا يرون الحق، وهي غطاء التعامي عن آيات الله ودلائل توحيده * «**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**» يعني في الآخرة. وقيل الأسر والقتل في الدنيا. والعذاب الدائم في العقبى، وحقيقة العذاب هو كل ما يؤلم الإنسانَ و يُعيبُه و يُشقُ عليه * وقيل: هو الإيجاع الشديد * وقيل: هو ما يمنع الإنسان من مراده، ومنه الماء العذب لأنه يمنع العطش، والعظيم ضد الحقير. (ذكره الخازن في تفسيره جـ ١ ص ٢٥) * وقال السدى: ختم الله: أي طبع الله * وقال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه، فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون هدى، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون * وقال الأعمش: أرانا مجاهد بيده فقال: كانو يروْن أنَّ القلب في مثل هذه، يعني الكف، فإذا أذنب العبد ذنباً ضُم منه، وقال بأصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنب ضم، وقال بإصبع أخرى، فإذا أذنب ضم، وقال بإصبع أخرى هكذا حتى ضم أصابعه كلها، ثم قال: يطبع بطابع * قال القرطبيُّ: وأجمعت الأمَّةُ على أنّ الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال: «**بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ**».

وفي الطبري قال مجاهد: نُبِّئْتُ أنّ الذنوب على القلب تُحفُّ به من نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه. الطبع والطبع الختم * وفيه عن الربيع بن أنس قال: هاتان الآيتان إلى «**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**» هُمُ الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلُّوا قومهم دار البوار، وهم الذين قُتلوا يوم بدر، فلم يدخل من القادة أحدٌ في الإسلام إلا رجلان أبوسفيان بن حرب وأحكم بن أبي العاص * وَمِنْ قوله عز وجلّ: «**وَمِنَ النَّاسِ من يقُول آمَنَّا باللهِ**» إلى قوله تعالى: «**إنَّ اللهَ على كُلّ شيء قديرٌ**» نزلت في المنافقين عبدالله بن أُبيّ ابن سلول، ومعتب بن قشير، وَجَدُّ بن قيس وأصحابهم، وذلك أنهم أظهروا كلمة الإسلام ليَسْلَمُوا بها من النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وَأَسَرُّوا الكفر واعتقدوه، وأكثرهُمْ من اليهود * وفي الخازن: وصفةُ المنافق. أن يعترف بلسانه بالإيمان و يُقرُّ به، و ينكره بقلبه، و يصبح على حال ويمسى على غيرها * وقد علمت أن الله سبحانه وتعالى افتتح سورة البقرة بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم أَلْسِنَتَهُمْ، ووافق سرُّهم علنهم، وفعلهم قولهم، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً و باطناً قلوباً وألسنةً، ثم ثلَّث بالذين آمنوا

بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وبطنوا خلاف ما أظهروا، وهم الذين قال فيهم: «مُذَبْذَبِينَ بيْنَ ذَلِكَ لاَ إلىَ هَؤُلاَءِ ولاَ إلىَ هَؤُلاَءِ» وسمَّاهُم المنافقين، وكانوا أخبث الكفرة، وأبغضهم إليه، وأمقتهم عنده لأنهم خلَطُوا بالكفر تموهاً وتدليساً. وبالشرك استهزاءً وخداعاً. ولذلك أنزل فيهم: «إنَّ الْمنَافقينَ فى الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النَّار» ووصف حال الذين كفروا في آيتين، وحال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خُبثهم ومكرهم وفضحهم وسفّههم واستجهلهم. واستهزأ بهم وتهكم بفعلهم، وسجَّل بطغيانهم وعمههم. ودعاهم صماً بكماً عمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة.

والناس : جمع إنسان سُمّي به لأنه عُهدَ إليه فنسى قال الشاعر: وسُمِّيتَ إنساناً لأنَكَ ناسي* وقيل: سمي إنساناً لأنه يستأنس بمثله. (الكشّاف جـ ١ ص ١٦٥) والمراغى (جـ ١ ص ٤٨) والخازن (جـ ١ ص ٢٥) وفي الطبري (جـ ١ ص ٩٠)* وأجمع أهل التأويل على أنَّ الآية نزلت في قوم من أهل النفاق. وأن هذه الصفة صفتهم* وروى عن ابن عباس: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَا بالله وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وما هُمْ بِمُؤمِنينَ» يعنى المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم* وعن قتادة في قوله: «وَمِنَ النّاسِ مَنْ يقُول آمنَّا بالله وبِالْيَوْمِ الآخِرِ وما هُمْ بِمُؤمِنينَ» حتى بلغ: «فَما رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» قال: هذه في المنافقين* وعن مجاهد قال: هذه الآية إلى ثلاث عشرة في نعت المنافقين* وعن ابن جريج في قوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولَ آمَنَّا بالله...» الآية قال: هذا المنافق يخالف قوله فعله. وسِرُّهُ علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه* قال الطبرى: وتأويل ذلك أنَّ الله جلَّ ثناؤه لما جمع لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أمره في دار هجرته، واستقرَّ بها قراره، وأظهر الله بها كلمته، وفشا فى دور أهلها الإسلام، قهر بها المسلمون من فيها من أهل الشرك من عبدة الأوثان، وذلَّ بها من فيها من أهل الكتاب أظهر أحبار يهودها لرسول الله صلى الله عليه وسلم الضغائن، وأبدُوا له العداوة والشنآن حسداً وبغياً، إلاَّ نفراً منهم هداهم الله للإسلام فأسلموا كما قال جل ثناؤه: «ودَّ كثيرٌ من أهْلِ الْكِتَابِ لَوْيَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْد أنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحقُّ» وطابقهم سرّاً على معادة النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه. وبغيهم الغوائلَ قوم من أراهط الأنصار الذين آووا رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم ونصروه، كانوا قد عتوا في شركهم وجاهليتهم قد سُمُّوا لنا بأسمائهم كرهنا تطويل الكتاب بذكر أسمائهم، وركوناً إلى اليهود لما هم عليه من الشرك، وسوء البصيرة

بـالـلإسـلام، فكانُوا إذا لقوا رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم وأهل الإيمان به من أصحابه، قـالـوا لهـم: حـذراً على أنـفـسـهم إنا مؤمنون بالله و برسوله و بالبعث، وأعطوهم بألسنتهم كـلـمة الحق ليدرؤا عن أنفسهم حكم الله فيمن اعتقد ما هم عليه، مقيمون من الشرك لو أظهـروا بـألـسنتهم ما هُم معتقدوه من شركهم، وإذا لقوا إخوانهم من اليهود وأهل الشرك والـتكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به فَخَلَوْا بهم قالوا: «**إنا معكم إنما نحن مستهزؤن**» فـإيـاهـم عنَى جلَّ ذكره بقوله: «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بالله وبِالْيَومِ الآخـرِ وَمـا هُـمْ بِـمُـؤمـنِـيـنَ**»، نفى عنهم الإيمان بالكليَّة. أي وما هم بداخلين في عداد المؤمـنين الـصـادقين الـذي يـشـعـرون بعظيم سلطان الله، و يعلمون أنّه مطلع على سرّهم ونجواهم، إذْ هم كانُوا يكتفُون ببعض ظواهر العبادات ظنًّا منهم أن ذلك يرضى ربهم، ثم هم بعد ذلك منغمسون في الشرور والمآثم من كذب وغشّ ومراء ومخاتلة وخيانة وطمع إلى غير ذلـك مـن صـفاتهم البشعة التي نقلها عنهم الرواة. «**يُخَادِعُونَ الله والَّـذِينَ آمَنُوا**» أي يخالفون الله. والخديعة: الحيلة والمكر، وأصله في اللغة: الإخفاء. والمخادع يظهر ضد ما يـضـمـر لـيتخلَّص، فهو بمنزلة المنافق. و يقال: خدع الضَّبُّ إذا توارى في جحره، وضبٌّ خـادع إذا أوهـم حـارسـه الإقـبـال عـليه، ثم خرج من باب آخر. والخدع هنا من جانب المـنـافـقين لله والمؤمنين، والتّعبير بصيغة المخادعة للدلالة على المبالغة في حصول الفعل وهو الخـدع، أو للـدلالـة على حـصـولـه مـــرَّة بعد أخرى، وخداعهم للمؤمنين بإظهار الإيمان، وإخـفـاء الـكفر للإطلاع على أسرارهم، وإذاعتها إلى أعدائهم من المشركين واليهود، والله خادعهم أي يظهر لهم نعيم الدنيا و يُعجّله لهم بخلاف ما يغيب عنهم من عذاب الآخرة، والمخـادعـة هنا عبارة عن فعل الواحد، والله تعالى منزّه عن أن يكون منه خِداع. وإنما ذكر الله نـفـسـه وأراد بـه رسُولَه صلى الله عليه وسلم، وذلك تفخيم لأمره وتعظيم لشأنه. وقيل: أراد بـه المـؤمـنين، وإذا خـادعـوا المـؤمـنين فكأنهم خادعوا الله تعالى، وذلك أنهم ظنُّوا أنَّ الـنـبـيَّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لم يعلموا حالهم، ولتجرى عليهم أحكام الإسلام في الـظـاهـر، وهم على خلافه في الباطن، و بذا يعلم أن الخداع مذموم إلا أنّه يكون حسناً إذا كـان الـغـرض مـنـه اسـتـدارج الـغـيـر من الضلال إلى الرشد حُسْبةً لله تعالى ومن ذلك اسـتـدراجـات الـتـنـزيل ولطائفه على لسان الرسل في دعوة الأمم، كذا ما معناه في تفسير الكرخي قاله الطيبي. وقوله تعالى: «**وَمَا يخْدَعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ**» أي ضرر عملهم لاحقٌ

بهم، فهم يَغرُّون أنفسهم بالأكاذيب والرياء و يلقونها في مهاوى الهلاك والردى، وسيجازيهم على ذلك و يعاقبهم عليه، فلا يكونون في الحقيقة إلاّ خادعين أنفسهم* **«وَمَا يَشْعُرُونَ»** أي لا يعلمون أنَّ و بال خداعهم راجع عليهم غير شاعرين بذلك، والشعُورُ إدراك الشيء من وجه يدق ويختفي. مشتق من الشّعْر لدقته* وقيل: هو الادراك بالحاسّة. مشتقّ من الشّعار، وهو ثوب يلي الجسد، ومنه مشاعر الإنسان؟ أي حواسه الخمس التي يشعر بها* وقد نفى الله عزّ وجلّ الشعور عنهم في مخادعتهم لله، لأنهم لم يحاسبُوا أنفسهم على أقوالهم، ولم يراقبوه في أفعالهم، ولم يفكروا فيما يرضيه، بل جروْا في ريائهم على ما أَلِفوا، وتعوّدُوا فهم يعملون عمل المخادعين. وما يشعرون. فإذا عرض لهم زاجر من الدين يحول بينهم و بين ما يشتهون وجدوا لهم من المعاذير ما يسهل أمره، إما بأمل في المغفرة، أو تحريف في أوامر الكتاب، لما رسخ في نفوسهم من عقائد الزيغ التي يُسمّونها إيماناً، وهم في الحقيقة مخدوعون، وعن الصراط السويّ ناكبون. ذكره المراغي في تفسيره (جـ ١ ص ٥٠)* وقوله تعالى: **«فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»** هذه الجملة مقررة لما يفيده قوله: **«ومَا هُمْ بِمُؤْمنينَ»** من استمرار عدم إيمانهم، أو تعليل لَهُ كأنّه قيل: ما لهم لا يؤمنون؟ فقيل: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يمنعه. والمرض حقيقة فيما يعرض للبدن فيخرجه عن الإعتدال اللائق به. و يوجب الخلل في أفعاله، وقد يؤدّى إلى الموت. استعير هنا لما في قلوبهم من الجهل وسوء العقيدة، وعداوة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك من فنون الكفر المؤدية إلى الهلاك الروحاني، والآية تحتملها، فإنّ قلوبهم كانت متألمة تحرُّقاً على ما فاتهم من الرياسة، وحسداً على ما يرون من ثبات أمر الرسول واستعلاء شأنه يوماً فيوماً، والتّنكير **«مَرَضٌ»** للدلالة على كونه نوعاً مبهماً غير ما يتعارفه النّاس من الأمراض* نقله الْجَمَلُ من البيضاوى وأبي السعود (جـ ١ ص ١٧)* وقال الجلال: مَرَضٌ . شُكٌّ ونفاقٌ فهو يمرض قلوبهم. أي يُضعفها* هذا إشارة إلى المعنى المجازى. وقوله: فهو يمرض قلوبهم..الخ.. هذا إشارة إلى المعنى الحقيقي، وسُمى الشّكُ في الدين والنفاق مرضاً لأنه يضعف الدين كالمرض يضعف البدن* وعن ابن عباس: **«فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»** قال: شكٌّ. وهو قول مجاهد وعكرمة والحسن البصرى وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة* وعن عكرمة وطاوس: **«فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»** يعنى الرياء* **«فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً»** يعنى أن الآيات كانت تنزل تترى. أيْ آية بعد آية، فكلما كفروا بآياته إزدادوا بعد ذلك كفراً

ونفاقاً، أو بأن طبع على قلوبهم لعلمه تعالى بأنه لا يؤثر فيهم التذكير والإنذار* وقيل: زادهم كفراً بزيادة التكاليف الشرعية لأنهم كانُوا كلما إزدادت التكاليف بنزول الوحي يزدادون كفراً، كالذي قال جلَّ جلاله في تنزيله: «**وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادتْهُ هَذِهِ إيماناً فأمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادتْهُمْ إيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وأمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىَ رِجْسِهِمْ وماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ**»* فالزيادة التي زيدها المنافقون من الرجاسة إلى رجاستهم، هوما وُصفوا به من النفاق والرياء والمخادعة..الخ. وفي رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ هنا قال ابن زيد: شرًّا إلى إلى شرِّهم، وضلالةً إلى ضلالتهم* قوله تعالى: «**وَلَهُمْ عذابٌ أليمٌ**» أي مؤلَمٌ. بفتح اللاَّم على طريق الإسناد المجازى حيث أسند الألم للعذاب. وهو في الحقيقة إنما يسند إلى الشخص المعذَّب* وعن الضحاك قال: هو العذاب الموجع، وكل شيء في القرآن من الأليم فهو الموجع* والمراد أنه مُؤْلِمٌ يخلُص وجعه إلى قلوبهم* «**بِمَا كَانُوا يكْذِبُونَ**» أي بتكذيبهم الله ورسُولَهُ في السِّرِّ، فإنهم كان كذبةً ما كرين مخادعينَ* سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفِّه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم؟* ذكروا أجوبةً عن ذلك، منها ما ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضي الله عنه: [أَكْرَهُ أَنْ يَتَحدَّثَ الْعَرَبُ أَنَّ مُحمَّداً يَقْتُلُ أصحابَه]* ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تأخير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام، ولا يعلمون حكمة قتله لهم، وأنّ قتله إيَّاهم إنما هو على الكفر فإنهم إنما يأخذونه بمجرّد ما يظهر لهم. فيقولون: إن محمداً يقتُل أصحابه* قال القرطبي: وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يُعطى المؤلفة مع علمه بسوء اعتقادهم* قال ابن عطية: وهي طريقة أصحاب مالك نص عليه محمد بن الجهم والقاضي اسماعيل والأبهرى* وعن ابن الماجشون. ومنها: ما قال مالك إنما كف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليُبيِّن لأمّته أن الحاكم لا يحكم بعلمه* قال القرطبيّ: وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضي لا يقتل بعلمه وإن اختلفوا في سائر الأحكام، قال: ومنها ما قال الشافعي: إنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانُوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم لأن ما يُظهرونه يجبُّ ما قبله* و يؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين وغيرهما: [أُمِرْتُ أنْ أُقاتلَ النَّاسَ حتّى يقُولوا لا إلهَ إلاَّ الله،

فـإذا قـالـوهـا عَصَمُوا مِنّي دماءَهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عزّ وجلّ]. ومعنى هـذا أنّ مـن قـالها جَرتْ عليه أحكام الإسلام ظاهراً، فإن كان يعتقدُها وجد ثواب ذلك في الدار الآخرة، وإن لم يعتقدها لم ينفعه جريان الحكم عليه في الدنيا، وكونه كان خليط أهـل الايمـان: «يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ» الآية. فهم يخالطونهم في بـعض المحشر، فإذا حقت المحقوقيّة تميّزُوا منهم وتخلّفُوا بعدهم: «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ» ولم يمكنهم أن يَسْجُدُوا معهم كما نطقت بذلك الأحاديث. ومنها ما قاله بعضهم: أنّه إنما لم يقتلهم لأنه كان يخاف من شرِّهم مع وجوده عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم يتلو عليهم آيات الله مبينات فأمّا بعده فَيُقتلون إذا أظهرُوا النفاق، وعلمه المسلمون. قال مالك: المنافِقُ في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزنديق اليوم. قال ابن كثير: وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لاَ؟ أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا؟ أو يتكرّر منه ارتداده أم لا؟ أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه، أو بعد أن ظهر عليه؟ على أقوال متعدّدة موضع بحثها وتقريرها وعزوها كتاب الأحكام. قُلتُ: الزنديق في اللغة القائل ببقاء الدهر. فارسي معرّب، وهو بالفارسيّة: زَنْدِكِرايْ. يقول بدوام بقاء الدهر. والزندقة الضيق. وقيل: الزنديق منه لأنّه ضيّق على نفسه. (التهذيب) الزنديق معروف وزنْدَقَتُهُ أنَّهُ لا يؤمنُ بالآخرة ووَحْدانية الخالق. وليس في كلام العرب زِنْدِيقٌ، وإنَّما تقول العرب رَجُلٌ زَنْدَقَ وَزَنْدَقيّ إذا كان شديد البخل، فإذا أرادت العرب معنًى ما تقول العامةُ قالوا: مُلْحِدٌ ودهريٌّ، فإذا أرادُوا معنى السِّنِّ قالُوا: دهْرِيٌّ (اللسان جـ ١٠ ص ١٤٧). وقول من قال كانَ عليه الصلاة والسَّلام يعلم أعيان بعض المنافقين إنَّما مستنده حديث حذيفة بن اليمان في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقاً في غزوة تبوك الذين هَمُّوا أن يفتكُوا برسُول الله صلى الله عليه وسلم في ظلماءِ الليل عند عقبة هناك عزموا على أن يُنفّرُوا به النّاقة ليسقط عنها، فأوحى الله إليه أمرهم، فاطلع على ذلك حذيفة. قال ابن كثير: ولعلَّ الكف عن قتلهم كان لمدرك من هذه المدارك أو لغيرها. وقوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ» يعني المنافقين. وقيل اليهود، والمعنى إذا قال لَهُم المؤمنُون: «لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ» أي بالكفر وتعويق النَّاس عن الايمان بالله تعالى، وعن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم و بالقرآن «قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ

مُـصْلِـحُونَ» يعني يقولونه كذباً، لأنّ الفساد نقيض الصلاح والمفسدة خلاف المصلحة.

«وَاللهُ لاَ يُـحِـبُّ الْـفَـسَادَ»ء قال السُّدىُّ في تفسيره عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابـن عـبّـاس، وعـن مُرَّة الطيب الهمداني عن ابن مسعود، وعن أُناس من أصحاب النبيِّ صلى الله عـلـيـه وسـلـم: **«وإذَا قِيـلَ لَـهُـمْ لاَ تُـفْـسِـدُوا فى الأ رْضِ قَـالُوا إنَّـمَا نَحْنُ مُـصْلِحُونَ»** قال: هُم المنافقون. أمَّا لا تُفسِدُوا في الأ رْضِ قال الفساد هو الكفر والعمل بـالـمـعـصـيـة‌ء وقـال أبو جعفر في تفسيره (جـ ١ ص ٩٧) عن الربيع: **«وَإذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُـفْـسِدُوا فى الأ رْضِ»** يقول لا تعصوا في الأ رض. قال فكان فسادهم على أنفسهم ذلك معصية الله جلَّ ثَناؤه لأنَّ من عصى الله في الأ رض، أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأ رض لأن إصلاح الأ رض والسماء بالطاعة‌ء قال: وأولى التأو يلين بالآية من قال: إن قول الله تـبـارك اسـمـه: **«وَإذَا قِـيلَ لَهُمْ لاَ تُفسِدُوا فِى الأ رْضِ قَالُوا إنَّـمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ»** نـزلـت في المنافقين الذين كانُوا على عهْدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإن كان معنياً بهـا كـل مـن كـان يمـثـل صفتهـم من المنافقين بعدهم إلى يوم القيامة‌ء قال: هذا لاجماع الحجة من أهل التأو يل على أنّ ذلك صفة من كان بيْن ظهراني أصحاب رسول الله صلى الله عـلـيـه وسـلـم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين، وإنَّ هذه الآيات فيهـم نزلت‌ء وما ذكر شاهده قول الله جلَّ ثناؤه في كتابه مخبراً عن قيل ملائكته: **«قَالُوا أَتَجْـعَـلُ فِـيـهَـا مَـنْ يُـفْـسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدّماءَ»** يعنُونَ بذلك أتجعل في الأ رض من يـعـصـيـك ويخـالـف أمـرك، فكذلك صفة أهل النفاق مفسدون في الأ رض بمعصيتهم فيها وركـوبهـم فيها ما نهاهم عن ركو به، وتضييعهم فرائضه وشكهم في دين الله الذي لا يقبل مـن أحـد عـمـلاً إلاَّ بالتصديق به والايقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشّك والريب، وبمظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجـدوا إلى ذلـك سـبـيـلاً. فذلك إفساد المنافقين في أرض الله، وهم يحسبُون أنّهم بـفـعـلـهـم ذلـك مـصلحون فيها، فلم يسقط الله جلَّ ثناؤهُ عنهم عقوبتَه في الدنيا، وهم في الآخـرة في الـدرك الأسـفـل مـن الـنّـار، ولـن تجد لهم نصيراً‌ء (ألاَ) كلمة تنبيه ينبّه بها المخاطب **«إنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ»** يعنى في الأ رض بالكفر، وهو أشدُّ الفساد **«وَلَكِنْ لاَ يَـشْعُرُنَ»** وهذا القول من الله جلَّ ثناؤه تكذيب للمنافقين في دعواهم إذْ أُمِرُوا بطاعة الله فيما أمـرهـم الله بـه، ونهـوا عـن مـعـصية الله فيما نهاهم الله عنه. قالوا إنما نَحْنُ مصلحون لا

مفسدون، ونحن على رشد وهُدًى فيما أنكرتموهُ علينا دونكم لا ضالون، فكذبهم الله عزّ وجلّ في ذلك من قيلهم، فقال ألا إنّهم هم المفسدون المخالفون أمر الله عز وجلّ المتعدُّون حدوده الراكبون معصيته. التاركون فروضه وهم لا يشعرُون. وذلك لأنهم يظنون أنّ ما هُم عليه من النفاق وإبطان الكفر صلاح، وهو عين الفساد. وقيل: لا يشعُرُونَ ما أعدّ الله لهم من العذاب، أو لأن الإفساد أصبح غريزة في طباعهم بما تمكّن فيها من الشبه بتقليدهم أحبارهم الذين أُشْرِبتْ قُلُوبُهم تعظيمهم والثقة بآرائهم. وقد بين سبحانه وتعالى حالهم بقوله: «**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**» يعنى المنافقين وقيل اليهود «**آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ**» يعنى المهاجرين والأنصار، وقيل عبدالله بن سلام وأصحابه من مؤمنى أهل الكتاب. والمعنى أخْلِصُوا في إيمانكم كما أخلص هؤلاء في إيمانهم لأن المنافقين كانُوا يُظهِرُون الإيمان «**قَالُوا أَنُؤْمِنُ كما آمَنَ السُّفَهَاءُ**» أي الجهال. وفي الخازن (جـ ١ ص ٢٧) فإن قلت كيف يصح النفاق مع المجاهرة بقولهم: «**أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ**» قُلتُ: كانوا يُظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين، فأخبر الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم بذلك فردَّ الله ذلك عليهم بقوله: «**أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفهاءُ**» يعنى الجهال. وأصل السفه خفة العقل. ورقة العلم، وإنما سمى الله المنافقين سفهاء لأنهم كانُوا عند أنفسهم عقلاء رؤساء، فقلب ذلك عليهم وسمَّاهم سفهاء «**وَلَكِنْ لاَ يعْلَمُونَ**» يعنى إنهم كذلك. قلتُ: والسَّفَهُ في اللغة: خِفَّة الحِلْمِ. وأصله الخفة والحركة. وقيل: الجهل وهو قريبٌ بعضه من بعض. وفي التنزيل: «**إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ**» أي إلاَّ من سَفِهَ الحقَّ. وقال أبوعبيد: معنى سَفِهَ نَفْسه. أهلك نفسه وأو بقها. وفي الحديث الثابت المرفوع حين سُئل النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن الكِبْرِ فقال: [الْكِبْرُ أنْ تَسْفَهَ الحقَّ، وتغْمِطَ النَّاس] فجعل سفه واقعاً معناهُ أنْ تجْهَلَ الحقَّ فلا تراهُ حقاً. وقال بعض أهل اللغة: والسَّفَهُ في الأصل الخِفَّةُ والطيْشُ. وفي قوله تعالى: «**وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُم قِيَاماً**» قال اللحياني: بلغنا أنّهم النّساءُ والصبيانُ الصّغار، لأنهم جُهَالٌ بموضع النفقة. وروى عن ابن عباس أنّه قال: النّساءُ أسْفَهُ السُّفهاء. والأنثى سفيهة، والجمع سفيهات وسفائه وسُفَّهٌ وسِفَاهٌ. وفي التهذيب: «**ولا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أمْوالَكُمْ**» يعنى المرأة والولد، وسمّيتْ سفيهةً لضعف عقلها، ولأنها لا تُحْسِنُ سياسة مالها، وكذلك الأولاد ما لم يُؤنس رُشْدُهُم. وقوله تعالى: «**فإن كان الّذي عليْه الحقُّ سَفِيهاً أو ضَعيفاً**»

السفيه: الخفيف العقل من قولهم: تَسَفَّهَتِ الرِّياحُ الشيء إذا استخفّتهُ فحركتْهُ. وقال مجاهد: السفيهُ الجاهل والضّعيف الأحمق* وفي أبى السعود «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا...» أي قيل لهم من قبل المؤمنين بطريق الأمر بالمعروف إثر نهيهم عن المنكر إتماماً للنصح وإكمالاً للإرشادِ.

الخلاصـــة :

إنَّ الـمـؤمنين نَصَحُوا المنافقين من وجْهين: **أحدهما** : النهيُ عن الإفساد، وهو عبارة عن التخلّي عن الرذائل. **وثانيها** : الأمر بالإيمان، وهو عبارة عن التحلي بالفضائل* ولا يخفى أن اللام في الناس للجنس. والمراد به الكاملون في الإنسانيّة العاملون بقضيّة العقل. أو للعهد الخارجى العلميّ. والمراد به الرسُولُ ومن معه. والمعنى آمنوا إيماناً مقروناً بالإخلاص متمحّضاً عن شوائب النفاق مماثلاً لإيمانهم. وقد أشار الجلال إلى الإحتمال الثاني بقوله: أصحاب النبيِّ. على تفسير من قال «**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ**» أرادوا بالسفهاء أتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم. أمّا المهاجرون منهم فلأنّهم عادَوْا قوْمَهم وأقَاربهم وهجروا أوطانهم وتركوُا ديارهم ليتّبعُوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم و يسيروا على هديه. وأما الأنصار فلأنهم شاركُوا المهاجرينَ في ديارهم وأموالهم. وهذا لا يُستبعد ممن استباح المحرمات وانهمك في الصفاهات والغوايات والضلالات أن يسمى الهدى سفهاً وضلالاً* «**أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفهاءُ**» وحدهم دون من عرّضُوا بهم ونسبوهم إلى السفه* «**وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ**» ما الإيمان وما حقيقته، حتّى يعلموا أن المؤمنين سفهاء أو عقلاء، وقد ختمت هذه الآية بـ(لا يعلمون) وسابقتها بـ(لا يشعُرُونَ) لأن الإيمان لا يتمُّ إلاّ بالعلم اليقيني. والفائدةُ المرجوّةُ منه. وهي السعادة في المعاش والمعاد لا يدركها إلا من يعلم حقيقتَه، و يدرك كنهه، فهم أخطأوا في إدْراك مصلحتهم ومصلحة غيرهم، أما نفاقهم وإفسادهم في الأرض فقد بلغ من الوضوح مبلغ الأمور المحسوسة. التي تصل إلى الحواس والمشاعر، ولكن لا حسَّ لهم حتى يُدركوه* (اقتباساً من المراغى تارة ونصاً أحياناً وذلك في جـ ١ ص ٥٤)* قوله تعالى: «**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا**» يعنى هؤلاء المنافقين إذا لقُوا المهاجرينَ والأنصار (قالُوا آمَنَّا) كإيمانكم «**وإِذَا خَلَوْا**» أي رجعوا، وقيل هو من الخلوة «**إِلَىٰ**» قيل بمعنى الباء أي بـ«**شَيَاطِينِهِمْ**» وقيل بمعنى مع أي مع شياطِينهم، والمراد بشياطينهم رؤساؤهم وكهنتُهم*

قال ابن عباس: وهم خمسة نفر: كعب بن الأشرف من اليهود بالمدينة، وأبو بردة في بني أسلم، وعبدالدّار في جهيْنَةَ، وعوف بن عامر في بنى أسد، وعبدالله بن السّواد بالشأم ولا يكون كاهن إلا ومعَه شيطان تابع له* وقيل: هُم رؤساؤهم الذين شابهُوا الشّياطينَ في تمردهم. كذا ذكره الخازن في تفسيره (جـ ١ ص ٢٧)* «**قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ**» أي عَلَى دينكم «**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**» أي بمحمد وأصحابه بما نظهر لهم من الإسلام لنأمن من شرِّهم، ونقف على سِرِّهم ونأخذ من غنائمهم وصدقاتهم* قال ابن عبّاس: نزلت هذه الآية في عبدالله بن أُبيّ وأصْحابه. وذلك أنّهم خرجُوا ذات يوم فاستقبلهم نفرٌ من أصحاب رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، فقال عبدالله بن أبيٍّ لأصحابه: انْظروا كيف أردُّ هؤلاء السفهاء عنكم فذهب فأخَذَ بيد أبي بكر الصدّيق فقال: مرحباً بالصديق سيّد بنى تيمْ وشيخ الإسلام، وثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار. الباذل نفسه ومالَهُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ بيد عمر فقال: مَرْحباً بسيِّد بنى عديِّ بن كعب الفاروق القويّ في دين الله الباذل نفسه ومالَهُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ أخذ بيد عليٍّ فقال: مرحباً بابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه وسيِّد بنى هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له علىٌّ: اتّقِ الله ياعبدالله ولاَ تُنافق، فإنَّ المنافقين شرُّ خليقة الله تعالى، فقال: مهلاً يا أبا الحسن إنى لا أقول هذا نفاقاً، والله إن إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم، ثم تفرَّقُوا، فقال عبدالله لأصحابه: كيف رأيتُموني فعلت؟ فأثنوا عليه خيراً* وفي رواية زيادة بعد فأثْنُوا عليه خيراً، وقالوا: لم نزل بخير ما عِشْتَ فينا. فرجع المسلمون إلى النبي وأخبروه بذلك فنزلت* قال السدّى عن أبى مالك : خَلَوْا: يعنى مَضَوا. وشياطِينهم سَادَتُهم وكبراؤهم ورؤساؤهم من أحبار اليهود. ورؤس المشركين والمنافقين* وقال الضحاك عن ابن عباس: وإذا خلوا إلى أصحابهم، وهم شياطينهم* وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس: «**وإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ**» من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب، وخلاف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم* وقال مجاهد: «**وإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ**» إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين* وقال قتادة: «**وإِذَا خَلَوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ**» إلى رؤسهم وقادتهم في الشرك والشرّ* و بنحو ذلك فسّرهُ أبومالك وأبوالعالية والسدّى والربيع بن أنس* قال ابن جرير: وشياطين كُلّ شيء مردتُه، و يكون الشيطانُ من الإنس والجنّ كما قال تعالى: «**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ**

«عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنْسِ والْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُروراً» كذا في ابن كثير (جـ ١ ص ٥١) وأورد ما في المسند عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نَعُوذُ بالله مِنْ شياطين الإِنْسِ والجنّ، فَقُلْتُ يارسول الله، أوَ للإنس شياطين؟ قال: نعم]* **«الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ»** أي يجازيهم جزاء استهزائهم بالمؤمنين، فسمّى الجزاء باسمه لأنه في مقابلته* قال ابن عباس: يفتح لهم باب الجنّة، فإذا انتهوا إليه سُدَّ عنهم، وَرُدوا إلى النار* **«وَيَمُدُّهُمْ»** أي يتركهم ويمهلهم. والمدّ والإمداد واحد. وأصله الزيادة. وأكثر ما يأتي المدُّ في الشرِّ، والإمداد في الخير* **«في طغيانِهِمْ»** أي في ضلالهم. وأصل الطغيان مجاوزة الحد* **«يَعْمَهُونَ»** أي يتردّدون في الضلالة متحيرين* وفي الكرخي تعليقاً على قول الجلال: **«الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ»** يجازيهم باستهزائهم. أي عليه وهذا جواب عما يقال كيف وُصِف الله تعالى بأنه يستهزئُ، وقد ثبت أن الاستهزاء من باب العبث والسخرية وذلك قبيح على الله تعالى ومنزَّهٌ عنه. وإيضاً فيه أنّه سمَّى جزاء الاستهزاء استهزاء مشاكلة في اللفظ، ومنه **«وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثْلُها»**، **«فمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُم فاعْتَدُوا عَلَيْهِ»** ولم يقل الله مستهزىء بهم قصداً إلى استمرار الاستهزاء وتجدّده وقتاً فوقتاً كما كانت نكايات الله فيهم، ومنه: **«أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فى كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أو مرّتَيْنِ»** ولأن التعبير بالفعل المضارع يفيد التكرير والإستمرار* وقال آخرون: قوله تعالى: **«إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئون * الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ»** وقوله: **«يُخادِعُونَ الله وهُوَ خَادِعُهُمْ»** وقوله: **«فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ الله مِنْهُمْ»** وقوله: **«نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ»** وما أشبه ذلك إخبارٌ من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ، وإن اختلف المعنيان كما قال تعالى: **«وجَزَاءُ سيئةٍ سيّئةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وأصْلَحَ فأجَرُهُ عَلى الله»** وقوله تعالى: **«فَمَنِ اعْتَدىَ عَلَيْكُمْ فاعْتَدُوا عَلَيه»** فالأول ظلم، والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظهما فقد اختلف معناها* وإلى هذا المعنى وجّهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك. لأن الاستهزاء والمكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله تعالى بالإجماع. وأما على وجه الإنتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك* وروى الضحاك عن ابن عبّاس في قوله تعالى: **«الله يسْتَهْزِئُ بِهِمْ»** قال: يسخر بهم للنقمة منهم* فقد أَوّلَ الاستهزاء بالسخرية التي عبّرعنها بالنقمة

منهم، والنقمة في اللغة: المكافأة بالعقوبة* قال الليث: يقال لَمْ أرْضَ مِنْهُ حتّى نَعِمْتَ وانْتَقَمْتَ إذا كافأهُ عُقوبةً بما صنع* وفي قوله تعالى: «وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يعْمَهُونَ» قال السدى: عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرّة الهدانى عن ابن مسعودٍ وعن أناسٍ من أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم: يَمُدُّهُمْ: يُملى لهم* وقال مجاهد: يزيدهم* وقال الضحاك: عن ابن عباس: «في طغيانهم يَعْمَهُونَ» في كفرهم يترَدَّدُونَ* وكذا فسّره السُّدى بسنده عن الصحابة، وبه يقول أبوالعالية وقتادة والربيع بن أنس ومجاهد وأبومالك وعبدالرحمن بن زيد: في كفرهم وضلالتهم* وفي (اللسان) قال ابن سيده: طَغَى يطغى طغياً ويطْغُو طغياناً جاوز القدْرَ وارتفع وغلا في الكفر* وفي حديث وَهْبٍ: [إنَّ لِلْعِلْمِ طُغياناً كطُغْيانِ المال] أي يحمل صاحِبَهُ على التَرَخُّصِ بما اشتُبِه مِنْهُ إلى مَالا يَحِلُّ لَهُ، ويترفّعُ بِهِ على مَنْ دُونَهُ، ولا يُعْطى حَقَّهُ بالعملِ بِهِ كما يَفْعَلُ ربُّ المال. وَكُلُّ مُجاوزٍ حدَّهُ في العصيانِ طاغٍ* وباختصار: كلُّ شيءٍ جَاوَزَ الْقَدْر فَقَدْ طَغَى كما طغى الماءُ على قوم نوحٍ، وكما طغتِ الصيحةُ على ثمود. كما في قوله تعالى: «فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بالطَّاغية» قال الزجاج: الطاغية طُغْيانُهم، وقال قتادة: بعث الله عليهم صيْحةً. وقيل: أُهْلِكُوا بالطاغية أي بصيحة العذاب* والْعَمَهُ في اللغة: التَّحَيُّرَ والتَّرَدُّدُ* وقيل: العمهُ التَرَدُّدُ في الضلالة والتحيّر في منازعة أو طريق* قال ثعلب: هو أن لا يعرف الحجَّة* وقال اللحياني: هو تردّده لا يدرى أين يتوجّه* وقال ابن الأثير: الْعَمَهُ في البصيرة كالعمى في البصر* وقال بعضهم: العمى في العين، والْعَمَه في القلب، وقد يُستعْملُ العمى في القلب أيضاً قال الله تعالى: «فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلِكنْ تَعْمَى الْقُلوبُ التِى فِى الصُّدُورِ».

وإذا كان الْعَمَه التردُّد. فهذا يعنى أنهم يترددون في البقاء على الكفر وتركه إلى الإيمان، وترددهم في الكفر لا ينافي كونهم في الباطن عليه المقتضى لجزمهم به لأن بعضهم كان شاكاً في حقيقة الإسلام، وباقيهم كان عليه أمارة الشك لما يشاهده من الآيات الباهرة، فهم وإن أصرُّوا على الكفر إنما إصراراهم تجلُّدٌ وعناد* وقوله تعالى: «أُولئكَ» يعنى المنافقين الموصوفين بالصفات السابقة من قوله: «وَمِنَ النَّاس مَنْ يقُولُ..» إلى هنا: «الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى» أي استبدلوا الكفر بالإيمان. وإنما أخرجه بلفظ الشراء والتجارة توسعاً على سبيل الاستعارة لأن الشراء فيه إعطاءُ بدلٍ وأخذ آخر*

في الخازن: فإن قُلتَ كيف قال اشتروا الضلالة بالهدى. وما كانوا على هدى؟ قُلت: جعلوا لتمكنهم منه كأنه في أيديهم، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلُّوه، واستبدلوه بها. والضلالة الجور عن القصد وفقد الاهتداء* قلت: كل إنسان مفطورٌ على الهدى أصلاً لقوله عليه الصلاة والسلام: [(كل مَولُودٍ يولد على الفطرة) أي على الإسلام (فأبواه يهودانه، أو يمصرانه أو يمجسانه)] فكانت الهداية في أيديهم حقاً، فاختاروا الضلالة بدل الهدى الذي كله نورٌ وخير و بركة. و باختيارهم الضلالة «**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ**» أي ماربحوا في تجارتهم، والربح الفضل عن رأس المال، وأضاف الربح إلى التجارة لأن الربح فيها يكون* «**وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**» أي مصيبين في تجارتهم لأن رأس المال هو الإيمان، فلمَّا أضاعُوه، واعتقدُوا الضلالة فقد ضَلُّوا عن الهدى* قيل: وما كانوا مهتدين في ضلالتهم* كذا في الخازن (جـ ١ ص ٢٨)* وعبارة السمين «**اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى**» الشراء هنا مجاز عن الاستبدال بمعنى أنّهم لمّا تركوا الهدى. وآثروا الضّلالة جُعلوا بمنزلة المشترين لها بالهدى، ثم رشح هذا المجاز بقوله: «**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ**» فأسند الربح إلى التجارة. والمعنى فما ربحوا في تجارتهم* والباء هنا: «**بِالْهُدَى**» للعوض والمقابلة وهي تدخُل على المتروك أبداً كما هنا، والتجارة صناعة التجّار، وهى التّصدّى للبيع والشراء لتحصيل الربح، وهو الفضل على رأس المال. وهؤلاء ما كانوا مهتدين لطرق التجارة، فإن المقصود منها سلامة رأس المال والربح، وهؤلاء قد أضاعوا الطلبَين لأن رأس مالهم الفطرة السليمة، والعقل الصرف، وهما قيمة الإنسانية في الحياة، فلما دنّسُوهما باتباع الأهواء والشهوات، واعتقدوا هذه الضلالات بطل استعدادهم واختل عقلهم، ولم يبق لهم رأس مال يتوصلون به إلى إدْراك الحقّ ونيل الكمال، فبقوا خاسرين من الربح فاقدين للأصل* والضلال والضلالةُ في اللغة: ضدُّ الهدى والرشاد* وقال أبو منصور: والإضلالُ في كلام العرب ضد الهداية والإرشاد يقال: أضْلَلْتَ فلاناً إذا وجّهته للضلال عن الطريق. وإياه أراد لبيد:

مَنْ هَدَاه سبل الخير اهتدى   ناعِمَ البالِ، ومن شاءَ أضلّ

قال لبيد: هذا في جاهليته. فوافق التنزيل العزيز: «**يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**»* وضللت الدار، والمسجد والطريق وكلَّ شيء مقيم ثابت لا تهتدى له، يعنى أن المكان لا يضلُّ وإنما أنت تضلُّ عنه.

ومن رحمة الله بهم أن بعث النبي محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً لهم إلى الصراط

المستقيم فلم يهتدوا باقتفاء أثره فأضلوا السبيل. فاشتروا الضَّلالة بالهُدى: **«وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إلاَّ فِي ضَلاَلٍ»** أي يذهب كيدهم باطلاً ويحيق بهم ما يريده الله تعالى، وضلَّ الشيء يضِلُّ ضلالاً أي ضاع وهَلَكَ* والهدى في اللغة: ضد الضلال. وهو الرشادُ والدلالة. ولفظه يذكر و يؤنث فيقال: هذه هدى مستقيمة وذُكِّرَ في قوله تعالى: **«قُلْ إنَّ هُدَى الله هُوَ الْهُدَى»** أي الصراط المستقيم الذي دعا إليه، هو طريق الحق. وقوله تعالى: **«إنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى»** أي إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال كما في قوله تعالى: **«وأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ»** أي بينا لهم طريق الهدى وطريق الضلالة **«فَاسْتَحَبُّوا»** أي آثروا الضلالة على الهدى. وقوله تعالى: **«أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ»** أي أو لم يبين لهم* وفي الحديث: [أنّه قال لعليٍّ (سَلِ الله الْهُدَى) وفي رواية: (قل اللهم اهْدني وسَدِّدني واذكر بالهدى هدايتك الطريق و بالسداد تسديدك السَّهم]* والمعنى إذا سألت الله الهدى فأخطر بقلبك هداية الطريق، وسلِ الله الاستقامة فيه كما تتحرَّاه في سلوك الطريق، لأن سالك الفلاة يلزم الجادة، ولا يُفارِقُها خوفاً من الضلال، وكذلك الرامى إذا رمى شيئاً سدد السهم نحوه ليصيبه، فأخطر ذلك بقلبك ليكون ما تنو يه من الدعاء على شاكلة ما تستعمله في الرمى* ومن أسماء الله تعالى (الهادي) أي الذي بصَّر عباده، وعرفهم طريق معرفته حتى أقروا بر بو بيته وهدى كل مخلوق إلا ما لابُدَّ له منه في بقائه، ودوام وجوده فمن أقام على الإيمان فقد اهتدى. ومن ضلَّ فلا هادى له من دون الله قال الله تعالى: **«إنَّ الله لاَ يَهْدِى مَنْ يُضِلُّ»** أي يريد لا يهتدى* وهَدَى: بمعنى بَيَّنَ في لغة أهل الغورْ. يقولون: هديت لك بمعنى بَيَّنْتُ لك. و يقال بلغتهم نزلت (أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ) ومن معاني الهدى: النهار قال ابن مقبل:

حتى استبنت الهدى والبيد هاجمة   يخشعن فى الآلِ غُلْفاً أويُصلِّينا

والهدى أيضاً الطاعة والورع واتباع السيرة* في الحديث: [واهدوا بِهَدْيِ عمَّار] أي سيروا بسيرته في طاعته وورعه وتهيأوا بهيئته، وما أحسن هديه. أي سمته وسكونه، وفلان حسنُ الهدى والهدية أي الطريقة والسيرة* وفي حديث عبدالله بن مسعود: [إنَّ أحسن الهدى هديُ محمدٍ] أي أحسن الطريق والهداية والطريقة والنحو والهيئة* وفي حديثه الآخر: [كُنَّا ننظر إلى هَدْيِهِ ودَلِّهِ]* وفي الحديث: [الهدى الصالحُ والسَّمتُ الصالح جزءٌ من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة] ومعنى الحديث: أن هذه الحال من شمائل الأنبياء، من جملة خصالهم وأنها جزء معلوم من أجزاء أفعالهم، وليس المعنى أن

النبوة تتجزأ، ولا أنَّ من جمع هذه الخِلال كان فيه جزء من النبوة، فإن النبوة غير مكتسبة ولا مجتلبة بالأسباب، وإنما هى كرامة من الله تعالى، والمراد جزء من خمسة وعشرين جزءاً مما جاءت به النبوة ودعت إليه، وتخصيص هذا العدد مما يستأثر النبي صلى الله عليه وسلم بمعرفته. وفي الطبرى (جـ ١ ص ١٧) والذى هو أولى عندى بتأويل الآية ما روينا عن ابن عباس وابن مسعود من تأويلهما قوله: «**اشْتَرَوا الضَّلالَةَ بالْهُدَى**» أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، وذلك أنَّ كل كافر بالله فإنه مستبدل بالإيمان كفراً باكتسابه الكفر الذي وجد منه بدلاً من الإيمان الذي أمر به، أوَمَا تسمعُ الله جلّ ثناؤه يقولُ فيمن اكتسب كفراً به مكان الإيمان به وبرسوله: «**وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بالإيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيل**» وذلك هو معنى الشراء لأنَّ كل مُشترٍ شيئاً فإنما يستبدل مكان الذى يؤخذ منه من البدل آخر بدلاً منه. فكذلك المنافق والكافر استبدلا بالهدى الضلالة، والنفاق، فأضلهما الله وسلبهما نور الهدى، فترك جميعهم في ظلمات لا يبصرون. وقال أبوجعفر في تأويل قوله: «**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ**» وتأويل ذلك أن المنافقين بشرائهم الضلالة بالهدى خسروا ولم يربحوا لأن الرابح من التجار المستبدل من سلعته المملوكة عليه بدلاً هو أنفس من سلعته أو أفضل من ثمنها الذي يبتاعها به، فأما المستبدل من سلعته بدلاً دونها ودون الثمن الذي يبتاعها به فهو الخاسر في تجارته لا شك. فكذلك الكافر والمنافق لأنَّهما اختارا الحيرة والعمى على الرشاد والهدى. والخوف والرعب على الحفظ والأمن فاستبدلا في العاجل بالرشاد الحيرة، وبالهدى الضلالة، وبالحفظ الخوف، وبالأمن الرعب، مع ما قد أعدَّ لهما في الآجل من أليم العقاب، وشديد العذاب، فخابا وخسرا ذلك هو الخسران المبين. وروى عن قتادة: «**فما رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ومَا كانُوا مُهْتَدِينَ**» قد والله رأيتُموهُم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنّة إلى البدعة. وقوله تعالى: «**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ ناراً**» المثل عبارة عن قول يشبه ذلك القول قولاً آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويُصوِّره، ولهذا ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه وهو أحد أقسام القرآن السبعة، ولما ذكر الله تعالى حقيقة وصف المنافقين عقبه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان لأنّه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه ولأن المثل تشبيه الشيء الخفيّ بالجليّ، فيتأكد الوقوف على ما هيته، وذلك هو النهاية في الإيضاح، وشرطه أن يكون قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه كمثل الذى استوقد ناراً لينتفع بها. «**فَلَمَّا أَضَاءَتْ**» يعنى النار «**ما حَوْلَهُ**»

يعنى حول المستوقد «ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ» قال الخازن: فإن قُلت كيف وحَّدَ أولاً (الَّذِى) ثم جمع ثانياً؟ قُلتُ: يجوز وضع الذى موضع الذين كقوله: «وَخُضْتُمْ كالَّذِى خَاضُوا» وقيل إنما شبَّه قصتهم بقصة المستوقد، وقيل: معناه مثل الواحد منهم كمثل الذى استوقد ناراً «وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ» قال ابن عباس نزلت في المنافقين. يقول مثلهم في نفاقهم كمثل رَجُلٍ أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة، فاستدفأ ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك أذ طفئتْ ناره فبقى في ظلمة حائراً متخوفاً، فكذلك حال المنافقين أظهروا كلمة الايمان فأمَّنوا بها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وتزوّجوا من المسلمين(١) وقاسمُوهم في الغنائم، فذلك نورهم، فلما ماتوا عادوا إلى الظُّلمة والخوف» الخازن (جـ ١ ص ٢٩) وقال: فإن قُلتَ ما وجه تشبيه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة؟ قُلتُ: وجه تشبيه الإيمان بالنور أن النور أبلغ الأشياء في الهداية إلى المحجة القُصوى، وإلى الطريق المستقيم وإزالة الحيرة، وكذلك الايمان هو الطريق الواضح إلى الله تعالى، وإلى جنابه، وشبَّه الكفر بالظلمة لأن الضّال عن الطريق المسلوكة في الظلمة لا يزدادُ إلا حيرةً وكذلك الكفر لا يزداد صاحبه في الآخرة إلاَّ حيرةً» وقال: وفي ضرب المثل للمنافقين بالنَّار ثلاث حِكَم:

احداها: أن المستضيء بالنار مُستضيء بنور غيره، فإذا ذهب ذلك بقى هو في ظلمته، فكأنهم لمَّا أقروا بالإيمان من غير اعتقاد قلوبهم كان إيمانهم كالمستعار.

الثانية: أنّ النار تحتاج في دوامها إلى مادة الحطب لتدوم فكذلك الإيمان يحتاج إلى مادة الاعتقاد ليدوم.

الثالثة: أن الظلمة الحادثة بعد الضوء أشد على الإنسان من ظلمة لم يجد قبلها ضياًء، فشبّه حالهم بذلك.

ثمَّ وصفهم الله تعالى فقال: «صُمٌّ» أي عن سماع الحق لأنهم لا يقبلونه، وإذا لم يقبلوه فكأنهم لم يسمعوه «بُكْمٌ» أي خرس عن النطق بالحق فهم لا يقولونه «عُمْيٌ» أي لا بصائر لهم يميزون بها بين الحق والباطل ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له فهو أعمى»

---

(١) عبارة الخازن: ونا كحوا المسلمون فالتعيين بما ذكرتُ أبلغ في المعنى، ولعلها فيناكحهم المسلمون كما في الطبرى (جـ ١ ص ١١٠) وسيأتى ذكرها فيا بعد إن شاء الله تعالى.

«**فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ**» أي عن ضلالتهم ونفاقهم* وقال ابن كثير في التفسير (جـ ١ ص ٣٥) نقلاً عن الرازى: «**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذى اسْتَوْقَدَ نَاراً..**» الآية. يقال: مَثَلٌ ومِثْلٌ ومثيل أيضاً والجمع أمثال قال الله تعالى: «**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ**» وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى وصيرورتهم بعد البصيرة العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياءً لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى واستحبابهم الغيَّ على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنَّهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم فى غير هذا الموضع* أي قوله تعالى: «**ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ**» وهو الصواب، لا فتتاح ضرب المثل بالاضاءة المقابلة للإيمان، واختتامه بالظلمة المقابلة للكفر، وهو خلاف ما ذهب إليه ابن جرير رحمه الله إذ زعم أن المضروب لهم المثل ههُنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات، واحتج بقوله تعالى: «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ**»* قال ابن كثير: والصواب أن هذه الآية إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم وهذا لا ينفى أنَّه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثم سُلبوه، وطبع على قلوبهم، ولم يستحضر ابن جرير هذه الآية ههُنا، وهي قوله تعالى: «**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا..**» وقد استدل لما ذهب إليه بما رواه السُّديُّ في تفسيره عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة في قوله تعالى: «**فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ**» زعم أنَّ ناساً دخلوا في الإسلام مقدم نبي الله صلى الله عليه وسلم المدينة، ثم إنهم نافقوا، وكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة فأوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله من قذى، أو أذى فأبصر حتى عرف ما يتقى منه فبينما هو كذلك إذ كفر فصار لا يعرف الحلال من الحرام، ولا الخير من الشر* وقال العوفى عن ابن عباس في هذه الآية قال: أمَّا النور فهو إيمانهم الذي كانوا يتكلمون به، وأما الظلمة فهي ضلالتهم وكفرهم الذي كانُوا يتكلمون به وهم قوم كانوا على هدى ثم نُزع منهم فعتوا بعد ذلك* وهذان الدليلان يؤيدان ما ذهب إليه وكذا ما روى الطبرى في تفسيره (جـ ١ ص ١١٠) عن ابن عباس قال: ضرب الله للمنافقين مثلاً فقال:

«مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الّـذى اسْتَوْقَدَ ناراً فَلمّا أضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وتَرَكَهُمْ فِى ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ» أي يُبصرون الحقّ و يقولونَ به حتى إذا خرجُوا به من ظلمة الكفر أطفؤه بِكُفْرِهِمْ به، ونفاقهم فيه، فتركهم في ظلمات الكفر، فهم لا يبصرون هدى ولا يستقيمون على حق* وعنه أيضاً قال: هذا مثل ضرب به الله للمنافقين أنّهم كانُوا يغترُّون بالإسلام، فيناكحهم المسلمون، و يوارثونهم، و يقاسمونهم الفيء، فلما ماتُوا سلبهم الله ذلك العزّ كما سلب صاحب النار ضوْأهُ، وتركهم في ظلمات يقول في عذاب* وقال قتادة: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الّذى اسْتَوْقَدَ ناراً فَلمّا أضَاءتْ ما حَوْلَهُ» هي لا إله إلاّ الله أضاءت لهم فأكلُوا بها وشربُوا، وآمنُوا في الدنيا ونكحوا النساء، وحقنُوا بها دماءهم حتى إذا ماتُوا ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون* وقال مجاهد: أمّا إضاءة النار فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى، وذهاب نورهم إقبالهم إلى الكافرين والضلالة* وأعجبني قول الربيع بن أنس قال: ضرب مثل أهل النفاق فقال: «مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً» قال: إنما ضوء النار ونورها ما أوقدتها، فإذا خمدت ذهب نورها، كذلك المنافق كلما تكلّم بكلمة الإخلاص أضاء له فإذا شكّ وقع في الظلمة* وهذا يفيد أن الإخلاص نور والشك ظلمة، بل هو أشدُّ الكفر* قال عبدالرحمن بن زيد: هذه صفة المنافقين كانوا قد آمنُوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم كما أضاءت النّار لهؤلاء الذين استوقدوا، ثم كفرُوا، فذهب الله بنورهم، فانتزعه كما ذُهِبَ بضوء هذه النار، فتركُهُمْ في ظلماتٍ لا يُبصرونَ* والصَّم في اللغة: انسداد الأذن وثقلُ السّمع. وفي حديث الإيمان: [الصُّمَّ الْبُكْمَ رُؤوسَ النّاس] الصمَّ البكمَ بالنصب مفعول بالفعل قبله، وهو كما في النهاية:: [وأن تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الصُّمَّ البكْمَ..]..الخ* جمع الأصم وهو الذى لا يسمع، وأراد به الذي لا يهتدى، ولا يقبل الحق. وهنا من صمم العقل لا صمم الأذن، أنشد ثعلب:

قُلْ مابَدا لكَ من زورٍ ومن كذِبٍ   حلمي أصمُّ وأذْنى غير صمَّاءِ

استعار الصَّم للحلم، وليس بحقيقة* وقال الليث: الصمم في الأذن ذهاب سمعها، وفي القناة اكتناز جوفها، وفي الحجر صلابته، وفي الأمر شدّته* والبكمُ : الخرسُ مع عى و بَلَه، وقيل: هو الخرس ما كان* وقال ثعلب: البكم: أن يولد الإنسان لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر* وقال الأزهرى: بين الأخرس والأبكم فرق في كلام العرب.

فالأخرس الذي خُلقَ ولا نطقَ له كالبهيمة العجماءِ، والأ بكم الذي للسانه نطقٌ وهو لا يعقل الجواب، ولا يُحسنُ وجه الكلام. والعمى معروف* قوله تعالى في صفة الكفار: «**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ..**» كانُوا يسمعون و ينطقون و يُبصرون. ولكنهم لا يعون ما أنزل الله، ولا يتكلمون بما أُمروا به، فهم بمنزلة الصم البكم العمى* و يقال: إنَّ سمعهم لما لم ينفعهم لأنهم لم يعُوا به ما سَمِعوا، و بَصَرَهُم لما لم يجد عليهم لأنهم لم يعتبروا بما عاينوه من قدرة الله وخلقه الدَّال على أنه واحد لا شريك له، ونطقهم لمّا لم يُغن عنهم شيئاً إذ لم يؤمنوا به إيماناً ينفعهم. كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يُبصر ولا يعى ونحو منه قول الشاعر: أصمُّ عمَّا ساءَهُ سميعُ* يقول: يتصامم عما يسُوءُهُ وإنْ سمعه فكان كأنه لم يسمع فهو سميع ذو سمعٍ، أصمُّ في تغابيه عمَّا أريد به. ورفعت الثلاثة (صمٌّ بكمٌ عمىٌ) على إضمار مبتدأ. وهى أخبار متباينة لفظاً ومعنى، لكنها في معنى خبر واحد، لأن مالها إلى عدم قبول الحق. مع كونهم سمع الآذان صماءُ الألسُن. بُصَراءُ الأعين، فليس المراد نفى الحواس الظاهرة* وقوله تعالى: «**أَوْ كَصَيِّبٍ**» أي كأصحاب صيّب وهو المطر وكل مانزل من الأعلى إلى الأسفل فهو صيِّبٌ: «**مِنَ السَّمَاءِ**» أي من السَّحاب. لأنَّ كُلِ ما علاك فأظلَّكَ فهو سماء. ومنه قيل لسقف البيت سماء. وقيل: من السماء بعينها، وإنما ذكر الله تعالى السماء وإن كان المطر لا ينزل إلا منها ليرد على من زعم أن المطر ينعقد من أبخرة الأ رض، فأبطل مذهب الحكماء بقوله من السماء ليعلم أن المطر ليس من أبخرة الأ رض بطبعها كما زعم الحكماء، وإنما هو بتأليف الله عزَّ وجلَّ «**فِيهِ**» أي الصَّيب «**ظُلُمَاتٌ**» جمع ظلمة «**وَرَعْدٌ**» هو الصوتُ الذي يسمع من السحاب «**وبَرْقٌ**» يعنى النّار التي تخرج من السحاب، وقد أوضحت هذه الآثار الإلٰهية في كتابى (سبعون برهاناً علميًّا على وجود الذات الإلٰهية) وأقمتها دلائل علمية على وجود الصانع جلّ وعلا. وهى مما ينبغى على كل مسلم الوقوف على ما فيها لمقارعة الخصم بالحجة البيّنة* «**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ**» جمع صاعقة، وهي الصيحة التي يموت كل من يسمعها، أو يُغشى عليه «**حَذَرَ الْمَوْتِ**» أي مخافة الهلاك «**واللهُ مُحيطٌ بالْكَافِرِينَ**» أي عالم بحالهم. في كلمة (أو) في قوله تعالى: «**أَوْ كَصَيِّبٍ**» خمسةُ أقوال أظهرها أنها للتفصيل بمعنى أنّ النّاظرين في حال هؤلاء منهم من يشبّههم بحال المستوقد الذي هذه صفته، ومنهم من يشبههم بأصحاب صيّب هذه صفته* والثاني: أنها للإبهام أي إن الله

تعالى أبهم على عباده تشبيههم بهؤلاء وبهؤلاء* الثالث: أنها للشك بمعنى أنَّ الناظر يشكُّ في تشبيههم* الرابع: أنهاللإباحة في تطبيق أي المثلين عليهم فهو أبلغ في البيان، وكاف في وصف حالهم ومآلهم* والخامس: أنها للتَّخيير. أي أبيح للناس أن يشبهوهم بكذا أو كذا، أو خُيّروا في ذلك* وزاد الكوفيون فيها معنيين آخرين: أحدهما: بمعنى الواو* والثاني: كونها بمعنى بل* والصّيبُ في اللغة: نزول المطر. قال أبو اسحاق «**أو كصيّبٍ مِنَ السَّماءِ**» الصيّب هنا المطر. وهذا مثل ضرب به الله تعالى للمنافقين. كأنّ المعنى: أو كأصحاب صيِّب، فجعل دين الإسلام لهم مثلاً فيما ينالهم فيه من الخوفِ والشدائد، وجَعَلَ ما يستضيئُون به من البرق مثلاً لما يستضيئون به من الإسلام، وما ينالهم من الخوف في البرق، بمنزلة ما يخافونه من القتل. قال: والدليل على ذلك قوله تعالى: «**يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ**» وكُلُّ نازلٍ من عُلوٍ إلى سُفلٍ فقد صاب يصُوب وأنشد:

كأنهم صابتْ عليهم سحابةٌ صواعقها لطيرهن دَبيبُ

وقال الليث: الصَّوبُ: المطر. وصاب الغيث بمكان كذا وكذا، وصابت السَّماءُ الأرضَ: جادتْها* والرَّعْدُ: الصوت الذى يسمع من السحاب. وأرعَدَ القوم وأبرقوا أصابهم رعدٌ وبرقٌ* وفي المثل: (رُبَّ صَلَفٍ تحت الراعِدَة) يضرب للذى يكثر الكلام ولا خير عنده. وسحابة رعادة: كثيرة الرّعد وقوله تعالى: «**ويُسبّحُ الرّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْملائكةُ مِنْ خِيفَتِهِ**»* قال الزجّاج: جاء في التفسير أنَّه مَلَكٌ يَزْجُر السَّحابَ* وقال ابن عباس: الرعْدُ مَلَكٌ يُسُوق السَّحاب كما يَسُوق الحادى الإبل بحدائه* وسئل وهب بن منبّه عن الرعد، فقال: الله أعلم* وقيل: الرعد صوت السَّحاب، والبرق ضوءٌ ونورٌ يكونان مع السَّحاب. قالوا: وذكر الملائكة بعد الرعد في قوله عز وجلّ: «**ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ والملائكةُ مِنْ خِيفَتِهِ**» يدل على أن الرعد ليس بملك. وقال الذين قالُوا الرعد ملك: ذكر الملائكة بعد الرعد، وهو من الملائكة كما يذكر الجنس بعد النوع* وسُئل عليٌّ رضي الله عنه عن الرعد، فقال: مَلَكٌ. وعن البرق فقال: مخاريقٌ بأيدى الملائكة من حديد* وقال الليث: الرعد ملك اسمه الرعد يسوق السحاب بالتّسبيح، قال: ومن صوته اشتق فعل رَعَدَ يَرْعُدُ، ومنه الرِّعْدَة والارتعاد* وقال الأخفش: أهل البادية يزعمون أنّ الرعد هو صوتُ السَّحاب، والفقهاء يزعمون أنَّه ملك* قلتُ: وأحيل القارىء الكريم إلى كتابى (سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلهية) الجزء الأول البرهان الخامس

والعشرون: [إرسال الصواعق من السَّحاب تبصرة لأولى الألباب (ص ٢٠٩)] إذ ستجد فيه ما يشرح صدرك للإسلام، و يُطمئن نفسك بالإيمان* وفي البرق قال ابن عباس: البرق سُوط من نور يَزْجرُ به الْمَلَكُ السَّحاب* والبرق الذي يلمع في الغيم، وجمعه بُروق (والبرق) هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الايمان: ولهذا قال تعالى: «**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذانِهِم مِنَ الصواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللهُ مُحيطٌ بالكافِرِينَ**» أي ولا يُجدى عنهم حذر شيئاً لأنَّ الله محيطٌ بهم بقدرته، وهم تحت مشيئته، وإرادته كما قال: «**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وثمودَ بل الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تكْذِيبٍ وَاللهُ مِنْ ورائِهِمْ مُحيطٌ**» بهم، ثم قال: «**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أبْصَارَهُمْ**» أي لشدته وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان* قال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس: «**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أبْصَارَهُمْ**» يقول: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين* وفي رواية عنه: لشدَّة ضوء الحق كلما أضاء لهُم مشوْا فيه، وإذا أظلم عليهم قامُوا، أي كلما ظهر لهم من الايمان شيء استأنَسُوا به واتَّبعُوهُ وتارة تُعرض لهم الشكوك، أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين* وعنه أيضاً: «**كُلَّمَا أضاءَ لَهُمْ مَشُوْا فيهِ**» يقول: كُلَّمَا أصَابَ المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه، وإذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر كقوله تعالى: «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ فإن أصَابَهُ خَيْرٌ اطْمأنَّ به**» وروى عن ابن عمر أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع صوتَ الرعد والصواعق. قال: [اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك] أخرجه الترمذي وقال حديث غريب. «**حَذَرَ الْمَوتِ**» أي مخافة الهلاك «**واللهُ مُحيطٌ بالْكافِرِينَ**» أي عالم بحالهم* وقيل يجمعهم و يعذبهم «**يكَادُ الْبَرْقُ**» أي يقربُ، يقال كاد يفعل ولم يفعل «**يَخْطَفُ أبْصَارَهُمْ**» أي يختلسها، والخطف استلاب الشيء بسرعة. «**كُلَّمَا**» أي متى جاء «**أضاءَ لَهُمْ**» يعنى البرق «**مَشَوْا فِيهِ**» أي في إضاءته ونُوره «**وإذَا أظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا**» أي وقفوا متحيرينَ* قال الخازن: وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى للمنافقين، ووجه التمثيل أنَّ الله عز وجلَّ شبههم في كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا في مفازة في ليلة مظلمة أصابهم مطر فيه ظلمات، وهي ظلمة الليل وظلمة المطر، وظلمة السحاب، من صفة تلك الظلمات، أنَّ السارى لا يمكنه المشي فيها، ورعدٌ من صفته أن يضم سامعوه أصابعهم إلى آذانهم من

هوله. و برق من صفته أن يخطف أبصارهم، و يعميها من شدته، فهذا مثل ضرب به الله تعالى للقرآن، وصنيع الكافرين والمنافقين مَعَهُ، فالمطر هو القرآن لأنه حياة القلوب، كما أنَّ المطر حياة الأرض، والظلمات ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك والنفاق، والرعد ما خوّفوا به من الوعيد، وذكر النّار والبرق ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنّة. فالكافرون والمنافقون يسُدُّون آذانهم عند قراءة القرآن وسماعه مخافة أن تميل قلوبهم إليه. لأن الإيمان به عندهم كفرٌ والكفر موت.

وقيل : **هذا مثلٌ ضرب به الله تعالى للإسلام، فالمطر هو الإسلام، والظلمات ما فيه من** البلاء والمحن، والرعد ما فيه من ذكر الوعيد والمخاوف في الآخرة، والبرق ما فيه من الوعد. يجعلون أصابعهم في آذانهم. يعنى المنافقين إذا رأوْا في الإسلام بلاءً وشدّةً هربُوا حذاراً من الهلاك «**والله مُحيطٌ بالكافرين**» يعنى لا ينفعهم الهرب لأنَّ الله من ورائهم يجمعُهم و يعذّبهم «**يكاد البرق**» يعنى دلائل الإسلام تزعجهم إلى النظر لولا ما سبق لهم من الشقاوة، كلَّمَا أضاء لَهُمْ يعنى المنافقين، وإضاءته لهم هو تركهم بلا ابتلاء ولا امتحان مشوا فيه، يعنى على المسالمة بإظهار كلمة الإيمان؛ وقيل: كلما نالُوا غنيمة وراحةً في الإسلام ثبتُوا، وقالُوا إنا معكم، وإذا أظلم عليهم قامُوا يعنى إذا رأوْا شدّةً و بلاءً تأخروا «**وَلَوْ شَاءَ الله لذهب بسَمْعِهِم**» أي بصوت الرعد «**وأبْصَارِهِم**» بوميض البرق، وقيل: لذهب بأسماعهم وأبصارهم الظاهرة كما أذهب أسماعهم وأبصارهم الباطنة؛ «**إن الله عَلى كل شَيءٍ قَدِيرٌ**» أي هو الفاعل لما يشاء لا منازع لَهُ فيه. (الخازن جـ١ ص ٣١) وقوله تعالى: «**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم**» أي أناملها فهو من أنواع المجاز اللغوى، وهو إطلاق الكل على الجزء، ونكتته التَّعبير عنها بالأصابع، الإشارة إلى إدخالها على غير المعتاد مبالغة في الفرار من شدّة الصوت، فكأنهم جعلُوا الأصابع جميعها، والظاهر أن التَمْثيلين من جملة التمثيلات المؤلفة وهو أن تشبّه كيفيّةً منتزعةً من مجموعٍ تضامَنَتْ أجزاؤه وتلاصقت حتّى صارتْ شيْئاً واحداً بأخرى مثلها، فالغرض تمثيل حال المنافقين في ضلالتهم وما خبّطوا فيه من الحيرة والدهشة، شُبِّهت حيرتهم، وشدّة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت نارُهُ بعد إيقاعها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السّماء في الليلة المظلمة مع رعد و برق وخوف من الصواعق.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«يا أيها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذى خَلَقَكُمْ والَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّــذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً والسَّماءَ بِنَاءً وأَنْزَلَ من السَّماءِ مَاءً فأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمراتِ رِزقاً لَكُمْ فَلاَ تجْعَلُوا لله أَنْدَاداً وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» سورة البقرة (آية: ٢١، ٢٢) إلى قوله: **«وبَشر الذين آمنوا..»** العبادة: الطاعة(١). أو قل: خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود. أوْ وَحِّدُوا ربّكم الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً* والربُّ: هو الذي يسُوسُ من يُربّيهِ و يُدبّر شئونه* والنّد: الشريك والكفء، يقال فلان ندُّ فلان إذا كان مماثلاً له في بعض الشئون. وسيأتيك المزيد من الإيضاح فيما بعد إن شاء الله تعالى* قال الواحدي في أسباب نزوله(ص ١٣) أخبرنا سعيد بن محمد الزاهد، قال أخبرنا أبوعلى بن أحمد الفقيه، قال أخبرنا أبوذر القهستانى، قال حدثنا عبدالرحمن بن بشر قال: حدَّثنا روح قال حدَّثنا شعبة عن سفيان الثورى عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال: كل شيء نزل فيه **«يا أيُّها النَّاسُ»** فهو مكيٌّ، و**«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا»** فهو مدنيٌّ* يعنى أن يا أيها الناس خطاب لأهل مكة، و يا أيها الذين آمنوا خطاب لأهل المدينة حيثما ورد الخطابان. وقوله: **«يا أيُّها النّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ..»** خطاب لمشركي مكة إلى قوله: **«وبشِّر الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»** وهذه الآية نزلت في المؤمنين، وذلك أن الله تعالى لمَّا ذكر جزاء الكافرين بقوله: **«فاتَّقُوا النَّار الّتى وقُودُهَا النَّاسُ والْحِجَارةُ أُعِدَّتْ للكافِرِينَ»** ذكر خبر المؤمنين **«وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات..»*** قال القرطبيُّ: وهذا يردُّهُ. أي ما ذكر من الخطابين أن هذه السورة والنساء والحجرات مدنيّتان باتفاق، وفيها **«يا أيها النَّاسُ»** وأمَّا قوله: أي مجاهد وعلقمة في **«يا أيُّها الَّــذِينَ آمَنُوا»** فصحيح* وقال عروة بن الزبير: ما كانَ من حدٍّ، أو فريضةٍ فإنّه نزل في المدينة، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة* قلتُ: ولعل هذا التعريف أوضح من (يا أيها الناس ــ و ــ يا أيها الَّذِينَ آمنوا) لأنه ليس كل آية فيها كذلك* ونقل القرطبي في تفسيره عن ابن عباس: **«اعْبُدُوا رَبَّكُمْ»** وحدوا ربكم. أي أفردوا

---

(١) أصل العبادة الخضوع والتذلّل والطاعة. والتعبُّد التَّنَسُّكُ. والمقصود بها توحيد الله تعالى. والتزام شرائع دينه، والعمل بها أو الخضوع لله تعالى بالطاعة، والتَّذَلُّلِ له بالاستكانة. (المؤلف).

الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه. ونقل عنه أيضاً «**يا أَيُّها النَّاسُ أعبُدُوا رَبَّكُمْ**» للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين، أي وحدُوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم* وفي معنى «**اعْبُدُوا رَبَّكُمْ**» قال الخطيب الشربيني في تفسيره: تحريكاً للسَّامع، وتنشيطاً له، واهتماماً بأمر العبادة، وتفخيماً لشأنها، وجبراً لمشقَّة العبادة بلذة المخاطبة* والصحيح أن لفظ الخطاب* بصيغة (النّاس) يعم جميع الموجودين وقت النزول لفظاً، ومن سيوجد بعدهم إلى يوم القيامة، تنزيلاً للمعدوم منزلة الموجود.

قال الخطيب: وذلك لما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام أنَّ مقتضى خطابه وأحكامه شامل للقبيلين، ثابت إلى قيام السَّاعة إلا ما خصّه الدليل* وفي الخازن (جـ ١ ص ٣١) «**يا أيها النّاسُ اعْبُدُوا ربّكم**» قال ابن عباس: (يا أيها الناس) خطاب لأهل مكة و(يا أيها الذين آمنوا) خطاب لأهل المدينة. قال الخازن: وهو هنا خطاب عام لسائر المكلفين. (اعبدوا ربكم) قال ابن عباس: وحدوا ربكم... وكل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد، وأصل العبودية التذلل، والعبادة غاية التذلل ولا يستحقها إلاّ من له غاية الافضال والإنعام، وهو الله تعالى: «**الَّذِى خَلَقَكُمْ**» أي ابتدع خلقكم على غير مثال سبق. «**والَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**» أي وخلق الذين من قبلكم. «**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**» لعلَّ وعسى حرفا ترجٍّ، وهما أي كل منهما من الله واجب «**تَتَّقُونَ**» أي لكي تنجوا من العذاب، وقيل: معناه تكونُوا على رجاء التقوى بأن تصيروا في ستر ووقاية من عذاب الله، وحكم الله من ورائكم يفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد «**الَّذِى جَعَلَ لكُم الأرض فِراشاً**» أي خلق لكم الأرض بساطاً ووطاءً مذللةً، ولم يجعلها حزنةً لا يمكن القرار عليها، والحزن ما غلظ من الأرض «**والسَّماء بِنَاءً**» أي سقفاً مُرْفوعاً، والمتفكر في العالم يجده كالبَيْتِ المعمور فيه كل ما يحتاج إليه، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض مفروشة كالبساط، والنجوم كالمصابيح، والإنسان كمالك البيت وفيه ضروب النبات المهيأة لمنافعه، وأصناف الحيوان مصروفة في مصالحه، فيجب على الإنسان المسخر له هذه الأشياء شكر الله تعالى عليها «**وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ**» يعني السحاب «**مَاءً**» يعني المطر «**فأَخْرَجَ بهِ**» أي بذلك الماء «**مِنَ الثَّمراتِ**» يعني من ألوان الثمرات، وأصناف النبات «**رِزْقاً لَكُمْ**» أي وعلفاً لدوابكم «**فَلاَ تَجْعَلُوا لله أَنْدَاداً**» يعني أمثالاً تعبدونهم كعبادته، والنّد المثل «**وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**» أي بعقولكم أن هذه

الأشياء والأمثال لا يصح جعلها أنداداً لله. وأنه واحدٌ خالق لجميع الأشياء. وأنَّهُ لا مثل له ولا ضدّ له...

واعلم أنَّ النداء في اللغة على سبع مراتب:

الأول : نداء مدح كقوله تعالى: «يا أيُّها النبى» «يا أيها الرسول».

الثاني : نداء ذمّ كقوله تعالى: «يا أيها الذين هادُوا» «يا أيها الذين كفروا».

الثالث : نداء تنبيه كقوله تعالى: «يا أيها الإنسان» «يا أيها الناس».

الرابع : نداء إضافة كقوله تعالى: «ياعبادى».

الخامس: نداء نسبة كقوله تعالى: «يا بنى آدم» «يا بنى إسرائيل».

السادس: نداء تسمية كقوله تعالى: «يا داود» «يا إبراهيم».

السابع : نداء تضْييف كقوله تعالى: «يا أهل الكتاب».

و يـا حـرف وُضع في أصله لنداء البعيد، صوتٌ يهتف به الرجل بمن يناديه. والنداء في الأصـل طـلـب الإقـبـال، والمراد به هنا التنبيه، وأي مبنيٌّ على الضمّ في محل نصب، والهـاء للـتـنبيه، والناس نعت لأى على اللفظ، وحركته اعرابية، وحركة أي بنائية* وفي قـولـه تعالى: «**فلاَ تجْعَلُوا لله أنْداداً وأنْتُمْ تُعْلَمُونَ**» جاء في الصحيحين عن ابن مسعود قـال: [قُـلـتُ يارسول الله: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل له نداً وهو خلقك] الحـديـث* وروى يـزيـد بن الأصم عن ابن عباس قال: [قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلَّـم: مـا شـاء الله ومـا شئت، فقال: أجعلتني لله نداً؟ قُلْ ما شاء الله وحده] رواه بن مـردو يـه. وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح به* وهذا كـله صيانة وحماية لجناب التوحيد والعقيدة من الشرك الأكبر والعياذ بالله، أي لا تشركوا بـالله غـيـره مـن الأنداد التي لا تنفع ولا تضرُّوأنتم تعلمون أنه لا ربَّ لكم يرزقكم غيره، وقد علمتُم أن الذى يدعوكم إليه الرسول صلى الله عليه وسلَّم من التوحيد هو الحق الذي لا شـكَّ فـيـه، هـكـذا قـالـه قـتـادة وابـن عباس رضي الله عنهم* وروى عكرمة عن ابن عـبـاس: «**فَـلاَ تَـجْـعَـلُوا لله أنْدَاداً**» قال الأنداد: هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صـفـاة سـوداء في ظـلـمـة الليل، وهو أن يقول والله وحياتك يافلان وحياتي، و يقول لولا كَـلْـبَـتُهُ هـذا لأتـانـا اللـصوص البارحة، ولولا البط في الدّار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل لولا الله وفلان لا تجعل فيها فلان. هذا كله به

شرك* وفي الحديث: [نِعمَ القومُ أنتمُ لولا أنكم تُنَدِّدون. تقولون ما شاء الله وشاء فلان]* وقال أبو العيالة: فلا تجعلوا لله أنداداً أي عدلاء. شركاء، وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدى وأبومالك وإسماعيل بن أبي خالد* وقال مجاهد: (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) قال تعلمون أنَّه إلٰهٌ واحدٌ في التوارة والإنجيل كذا في ابن كثير في التفسير (جـ ١ ص ٥٧)* وقال أبوجعفر في تفسيره (جـ ١ ص ١٢٦) والأنداد جمع ند. والند العدل والمِثْل، كما قال حسان بن ثابت:

اتَهْجُوهُ ولستَ له بندٍ فَشَرُّكما لخيركما الفداء

يعني بقوله: ولست له بندٍّ. لست له بمثل. ولا عدل، وكل شيء كان نظيراً لشيء وشبيهاً فهو له ندٌّ* قال تعالى: «**ليس كمثلِهِ شيءٌ**»* وعن ابن مسعود: (فلا تجعلوا لله أنداداً) قال: أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله* وقال ابن زيد: الأنداد: الآلهة التى جعلوها معه، وجعلوا لها مِثْلَ ما جعَلُوا له* وعن عكرمة (فلا تجعلوا لله أنداداً) أي تقولوا لولاَ كلبنا لدخل علينا اللصُّ الدَّار، لولا كلبنا صاح في الدار، ونحو ذلك، فنهاهم الله تعالى أن يشركوا به شيئاً، وأن يعبدوا غيره، أو يتخذوا له نداً وعدلاً في الطاعة، فقال: كما لا شريك لى في خلقكم وفي رزقكم الذي أرزقكم، وملكى إيَّاكم، ونعمتى التي أنعمتها عليكم فكذلك، فأفردوا إلىّ الطاعة وأخلصوا لى العبادة، ولا تجعلوا لى شريكاً ونداً من خلق، فإنكم تعملون أنَّ كل نعمة عليكم منّى* وقوله تعالى: «**وَإنْ كُنْتُمْ فى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ التى وقُودُها النَّاسُ والحِجَارةُ أُعِدَّتْ للكافرين**» (آية ٢٣، ٢٤)* قال القتيبي: الريبة والريب الشك. وقوله تعالى: (لا ريب فيه) لا شك فيه. والسورة: قطعة من القرآن الكريم لها أوَّلٌ وآخر. أقلها ثلاث آيات كما في الكوثر، والآية طائفة من السورة، متميّزة بفصل، يسمى الفاصلة، والسورة إن جَعَلْتَ واوها أصلية منقولة من سور المدينة، لأنها محيطة بطائفة من القرآن معززة محوزة على حيالها، أو محتوية على أنواع من العلم، أو من السورة التى هي الرتبة. لأنّ السور كالمنازل والمراتب يرتقى فيها القارىء. أُولاها: مراتب الطول والقصر والفضل والشرف، وثواب القراءة... وإن جعلت الواو مبدلة من الهمزة: فمن السؤرة التي هي البقية، والقطعة من الشيء، والحكمة في تقطيع القرآن سوراً لإفراد الأنواع، وتلاحق

الأشكال، وتناسب النظم، وتنشيط القارىء، وتسهيل الحفظ والتّرغيب فيه، فإنه إذا ختَمَ سورة نفَّسَ ذلك عنه بعض كربة، كالمسافر إذا علم أنّه قطع ميلاً، أو طوى بريداً، والحافظ متى حفظها اعتقد أنه أخذ من القرآن حظاً تاماً، وفاز بطائفة محدودة مستقلة، فَعَظُمَ ذلك عنده، وابتهج به إلى غير ذلك من الفوائد، أي وإن كنتم في شك، لأن الله تعالى عليمٌ أنهم شاكون **«مما نزلنا على عبدنا»** أي محمد صلى الله عليه وسلّم لما تقرّر إثبات الربوبية لله سبحانه وتعالى. وأنّه الواحد الخالق، وأنه لا ضد له ولا ند، أتْبَعه بإقامة الحجة على إثبات نبوَّة نبينا محمد صلى الله عليه وسلَّم، وما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة، وأنّه من عند الله تعالى لا من عند نفسه، كما تدّعون فيه، وقوله: **«على عبدنا»** إضافة تشريف لمحمد صلى الله عليه وسلَّم، وأن القرآن مُنَزَّل عليه من عند الله سبحانه وتعالى. **«فأتوا»** أمر تعجيز **«بسورةٍ من مِثْلِهِ»** أي من مثل نظم القرآن. ومن حيث الفصاحة والبلاغة، والايجاز والإطالة والأحكام التشريعية والأخبار المغيبة، وهذا مما يدل على كون القرآن معجز، فتارة يأتي القصَّة باللفظ الطّويل، ثم يعيدها باللفظ الوجيز، ولا يخلُّ بالمقصود الأوّل، وأنه فارقت أساليبه أساليب الكلام، وأوزانه أوزان الأشعار، والخطب والرسائل، ولهذا تحدَّى العرب به فعجزوا عنه، وتحيَّروا فيه، واعترفوا بفضله، وهم معدن البلاغة، وفرسان الفصاحة، ولهم النَّظم من النثر ومن الأشعار، والخطب والرسائل، حتى قال الوليد بن المغيرة في وصف القرآن: والله إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوةً، وإنَّ أصله لمغدق وأنَّ أعلاه لمثمر* فإن قلتَ: وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المِثْل؟ معناه فأتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب، وعلوِّ الطبقة في حسن النظم، أو فأتوا ممن هو على حاله من كونه بشراً عربياًو أو أُمِّياً لم يقرأ الكتب، ولم يأخذ من العلماء، ولا قصدَ إلى مثلٍ ونظير هنالك. **«وادعوا شهداءكم من دون الله»** أي استعينوا بآلهتكم التي تعبدونها من دون الله، والمعنى أن الأمر كما تقولون أنها تستحقُّ العبادة. فاجعلوا الاستعانة بها في دفع ما نزل بكم من أمر محمد صلى الله عليه وسلَّم، وإلا فاعلمُوا أنكم مبطلون في دعواكم أنها آلهة* وقيل معناه وادعوا أناساً يشهدون لكم **«إن كنتم صادقين»** أن محمداً صلى الله عليه وسلَّم يقُولُه من تلقاء نفسه* **«فإن لم تفعلوا»** أي فيما مضى **«ولن تفعلوا»** فيما بقي، وهذه الآية دالة على عجزهم، وأنّهم لم يأتوا بمثله ولا بمثل شيء منه أبداً، وذلك أنّ النفوس الأ بيّة إذا قُرعت بمثل هذا التقريع استفرغت

الوسع في الإتيان بمثل القرآن، أو بمثل سورة منه، ولو قدروا على ذلك لأ توا به، فحيث لم يأتُوا بشيء ظهرت المعجزة للنبيِّ صلى الله عليه وسلَّم، و بان عجزهم، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، والقرآن من جنس كلامهم، وكانُوا حُرّاصاً على إطفاء نوره، وإبطال أمره، ثم مع هذا الحرص الشديد لم تُوجد المعارضة من أحدهم، ورضوا بسبي الذراري وأخذ الأموال والقتل، وإذا ظهر عجزهم عن المعارضة صحَّ صدق رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وإذا كان الأمر كذلك، وجب ترك العناد وهو قوله تعالى: «**فاتقوا النار**» أي فآمنوا واتقوا بالإيمان النار «**التي وقودها**» أي حطبها «**الناس والحجارة**»* قال ابن عباس: يعني حجارة الكبريت، لأنها أكثر التهاباً* وقيل جميع الحجارة، وقيل الأصنام لقوله تعالى: «**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**» أي حطبها، ولذا قرن الناس مع الحجارة لأنهم كانوا يعبدونها معتقدين فيها النفع والضرّ والشفاعة لهم، فجعلها الله عذابهم في نار جهنّم التي «**أُعِدَّتْ**» أي هُيِّئتْ «**للكافرين**» خالدين فيها، أبداً و بئس المصير. وفي البيضاوي: «**وادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ**» الشهداء جميع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة أو الناصر، أو الإمام، وكأنه سُمِّي به لأنَّه يحضر المجالس، وتُبرم بمحضره الأمور. ومعنى «**دون**» أدنى مكان من الشيء، ومنه تدو ين الكتب لأنَّه أدناه البعض من البعض، ودونك هذا أي خذه من أدنى مكان منك، ثم استعير للتفاوت في الرتب، فقيل زيد دون عمرو أي في الشرف، ومنه الشيء الدون، ثم اتّسع فيه فاستعمل في كُلِّ تجاوز حدٍّ إلى حدٍّ، وتخطى أمر إلى أمر. قال الله تعالى: «**لا يَتَّخِذ المؤْمنُونَ الكافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمنينَ**» أي لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين، «**ومن**» متعلقة بادعو، والمعنى: وادعوا إلى المعارضة من حضركم، أو رجوتم معونته من إنسكم وجنّكم وآلهتكم غير الله، فإنه لا يقدر على أنْ يأتى بمثله إلاَّ الله* «**إن كنتم صادقين**» شرط حُذفَ جوابه. وقدره الجلال: في أنَّ محمداً قاله من عند نفسه فافعلوا ذلك، فإنكم عرب فصحاء مثله، وكذلك نصَّ غيره كالسمين والبيضاوى على أنه شرط حذف جوابه، لكن يعكر عليه القاعدة المشهورة من أنه إذا اجتمع شرطان، وتوسَّط الجزاء بينهما يكون الأول قيد في الثاني، و يكون الجواب المذكور جواباً عنه* ويمكن تصو يب ما ذكروه من أن معنى الجوابين مُتّحدٌ لأن فأتوا بسورة أو فافعلوا إن كنتم صادقين، كالجواب الواحد* وقوله: «**فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا**» إنْ الشرطية داخلة على

جملة لم تفعلوا. وتفعلوا مجزور بلم فتكون في محلّ جزم بها، وقوله: «**فاتقوا**» جواب الشرط، و يكون قوله: «**ولن تفعلوا**» جملة معترضة بين الشرط وجزائه، ومعنى الاعتراض في الغالب التوكيد ويجيء لغيره، بحسب المقام، وعبر (بِلَنْ) دون لا لأنها أبلغ منها في نفي المستقبل واستمراره. «**فاتقوا النار**» جواب الشرط على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من الفساد، إذ بذلك يتحقق تسببه عنه، وترتب عليه، كأنه قيل فإذا عجزتُم عن الإتيان بمثله كما هو المقرّر، فاحترزوا من إنكار كونه منزلاً من عند الله سبحانه، فإنه مستوجب للعقاب بالنار* (والوقود) بفتح الواو أي ما توقد به، وأمَّا بضمها فهو المصدر، هذه التفرقة على المشهور في أن المفتوح اسم للآلة، والمضموم مصدر، و بعضهم قال: كل من الفتح والضمِّ يجرى في الآلة والمصدر، فما توقد به النار يقال له وُقُود بالفتح والضمّ، وإيقادها كذلك، وكذا يقال في الوضوء والسحور والطهور، ونحو ذلك* وقوله: «**أُعدتْ للكافرين**» أُعدتْ: يقال أعد له كذا هيَّأهُ له فدل على أنها مخلوقة إذ الأخبار عن اعدادها للكافرين، والاخبار عن ذلك بلفظ الماضى دليل على وجودها، ودل على ذلك قوله تعالى في حق آل فرعون: «**النَّارُيُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وعَشِيّاً وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ادْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أشَدَّ العذابِ**» فما زعمته المعتزلة من أنها تُخلَقُ يوم الجزاء افتراء وهُزاء، وما أوهى حجتُهم إذ قالوا: إن خلقها قبله عبث لا فائة فيه، فلا يليق بالحكيم* وهو مردود بالضرورة لما تقرر عند أهل السنَّة والجماعة من بطلان القول بتعليل أفعاله تعالى بالفوائد لا يسئل عما يفعل سبحانه. وتأو يلهم بأنه يعبر عن المستقبل بالماضى لتحقق الوقوع، ومثله كثير في القرآن. وهو مدفوع بأنه خلاف الظاهر، ولا يصار إليه إلا بقرينة، وهي غير موجودة، ومخالف للدّلائل القاطعة من القرآن والسنَّة كقوله تعالى: «**وسَارِعُوا إلى مَغْفِرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰواتُ والأ رْضُ أُعِدَّت للمُتَّقِين**» وقوله عليه الصلاة والسلام في أرواح الشهداء: [بأنها في حواصل طير خُضْرٍ تسرح في الجنَّة» وفي قوله تعالى: «**فَأتُوا بسُورةٍ مِنْ مثْلِه**» يعنى مثل القرآن، قاله مجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير والطبرى والزمخشرى والرازى ونقله عن عمر وابن مسعود وابن عباس والحسن البصرى، وأكثر المحققين، ورجح ذلك بوجوه من أحسنها أنَّه تحدّاهم كلهم متفرقين ومجتمعين، سواء في ذلك أميُّهم وكتابيهم، وذلك أكمل في التَّحدّى، وأشمل من أن يتحدّى آحادهم الأميين ممن لا يكتب، ولا يُعانى شيئاً من العلوم. و بدليل قوله تعالى:

«**فـأْتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِه**» وقوله تعالى: «**قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والْجِنُّ على أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرآنِ لا يأْتُونَ بِمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بعضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً**»٭ وقال بعضهم: من مـثـل محمد صلى الله عليه وسلّم. يعنى من رجل أمى مثله، والصحيح الأ ول لأن التحدى عـام لهم كلهم مع أنّهم أفصح الأمم، وقد تحدّاهم بهذا في مكة، والمدينة مرّات عديدة مع شـدة عـداوتهـم لـه. و بغضهم لدينه، ومع هذا عجزُوا عن ذلك ولهذا قال تعالى: «**فإن لم تـفـعـلوا ولن تفعلوا**» لن لنفى التأبيد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً، وهذه أيضاً مـعـجـزة أخـرى، وهـو أنـه أخبر خـبراً جازماً قاطعاً مقدّماً غير خائف. ولا مُشْفقٍ أن هذا الـقـرآن لا يـعـارض بمثله أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وكـذلك وقع الأمر لم يعارض من لـدنـه إلى زمـانـنـا هـذا، ولا يمـكـن وأنى يتأتى ذلك لأحد! والقرآن كلام الله خالق كُلّ شيء، وكـيـف يـشـبـه كلام الخالق كلام المخلوقين، ومن تدبّر القرآن وجد فيه من وجوه الإعـجـاز فـنـوناً ظاهرةً وخَفيّة من حيْث اللفظ، ومن جهة المعنى قال الله تعالى: «**ألـر٭ كِتَابٌ أُحْكِمتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**» (ابن كثير جـ١ ص ٦٠)٭ وفي الـطـبـرى (جـ١ ص١٢٨)عـن قـتـادة: «**فأتوا بسورة من مثله**» يعنى من مثل هذا الـقـرآن حـقـاً وصدقاً لا بـاطل فيه ولا كذب٭ وكذا عن مجاهد قال أبوجعفر: وما قاله مجـاهـد وقـتـادة هو التأو يل الصحيح لأن الله جل ثناؤه قال في سورة أخرى: «**أمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورةٍ مِثْلِه**» ومعلوم أن السورة ليست لمحمد بنظير ولا شبيه٭ فلا يجوز أن يـقال فأتوا بسورة من مثل محمد٭ وفي قوله: «**وادعوا شهداؤكم من دون الله**» قال ابن عبـاس: يعنى أعـوانـكـم على مـا أنتم عـلـيـه إن كـنـتُم صادقين٭ وعن مجاهد «**وادعوا شـهـداءَكُمْ**» نـاس يـشـهـدون، وفي روايـة قـال: قـومٌ يشهدون لكم٭ وفي قوله تعالى: «**فـاتـقـوا الـنار التي وقودها الناسُ والحجارة**» فعن عبدالله ابن عمر قال: هي حجارة مـن كـبـيـرت خلقها الله يوم خَلَقَ السموات والأ رض في السماء الدنيا يُعدّها للكافرين٭ ولـعـلـه يـقـصـد بـذلـك حـجارة تشبه الشهب، والله أعلم٭ وعن ابن مسعود قال: حجارة الـكـبـريـت جعلها الله كما شاء٭ وعنه وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم (اتّقـوا الـنـار التى وقودها الناسُ والحجارة» أمّا الحجارة فهى حجارة في النار من كبريت أسـود يُعـذّبـون به مع النار٭ وكذا عن ابن جريج قال: وقال لى عمرو بن دينار: حجارة أصـلـب مـن هـذه وأعـظم٭ وعن ابن مسعود قال أيضاً: حجارة من الكبريت خلقها الله

عنده كيف شاء كما شاء* الطبرى (جـ ١ ص ١٣١).

والخلاصـــة :

فـإن لم تفعلوا ما أمرتم به من الإتيان بالمثل بعد أن بذلتُم الجهد، ولن تفعلوه فليس في استطاعتكم إذن فاحذروا من العناد، واعترفوا بكونه منزلاً من عند الله لئلا تكونُوا أنتُمْ وأصنامكم وقوداً للنار التي أعدت لأمثالكم من الكافرين.

((القول في تأويل قوله تعالى :))

«إنَّ اللهَ لاَ يَستَحيِي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أنَّهُ الحقُّ مِنْ ربِّهِمْ وأمَّا الَّذِينَ كفَرُوا فيَقُولُونَ مَاذَا أرَادَ اللهُ بِهذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاّ الفاسقينَ» سورة البقرة آية (٢٦)

ذكر الواحدى في أسباب النزول (ص ١٤):

عن ابن عباس من رواية ابى صالح قال: لمَّا ضرب الله سبحانه وتعالى هذين المثلْين للمنافقين، يعنى قوله: «**مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً**» وقوله: «**أو كصيبٍ من السماء**» قالوا: الله أجلُّ وأعلى من أن يضرب الأمثال، فأنزل الله هذه الآية* وقال الحسن وقتادة: لما ذكر الله الذُّباب والعنكبوت في كتابه وضرب للمشركين المثل، ضحكت اليهود، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله الآية* وعن ابن عباس في قوله: «**إنَّ الله لا يستحى أن يضرب مثلاً**» قال: وذلك أنَّ الله ذكر آلهة المشركين فقال: «**وإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُبابُ شيئاً**» وذكر كيد الآلهة، فجعله كبيت العنكبوت، فقالوا: أرأيْتُم حيْثُ ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد، أيُّ شيء يصنع بهذا؟ فأنزل الله الآية* وفي الطبرى (جـ ١ ص ١٣٨) عن الربيع بن أنس في قوله: «**إنَّ اللهَ لا يَسْتَحِي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**» قال: هذا مثل ضربه الله للدنيا أنَّ البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سمنت ماتت، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل في القرآن إذا امتلؤا من الدنيا يأخُذْهُمْ الله عند ذلك، قال ثم تلا «**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أبوابَ كُلِّ شيء**» الآية* وفي رواية زاد: فإذا خلَى آجالُهُم، وانقطعت مدتُهم صاروا كالبعوضة تحيا ما جاعت، وتموتُ إذا

رُو يت، فكذلك هؤلاء الذين ضرب الله لهم هذا المثل إذا امتلؤا من الدّنيا يأخُذْهُمُ الله، فأهلكهم، فذلك قولُه: «**حتَّى إذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فإذَا هُمْ مُبْلِسُونَ**»* وقد رجّح الطبرى ما ذهب إليه ابن مسعود وابن عبّاس. وذلك أنَّ الله جلَّ ذكره أخبر عباده أنّه لا يستحيى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها عقيب أمثال قد تقدّمت في هذ السورة ضربها للمنافقين دون الأمثال التى ضربها في سائر السور غيرها* والأولى أن يقال إنّه تعالى لا يستحى أن يضرب في الحقّ من الأمثال صغيرها وكبيرها ابتلاءً بذلك عباده، واختباراً منه لهم ليميّزَ به أهل الإيمان والتّصديق به من أهل الضلال، والكفر به، إضلالاً منه به لقوم، وهدايةً منه به لآخرين كما نقل الطبرى عن مجاهد في قوله: «**مَثَلاً مَا بَعُوضَةً**» يعنى الأمثالُ صغيرها وكبيرها يؤمنُ بها المؤمنون، و يعلمون أنها الحق من ربِّهم، ويهديهم الله بها، و يُضلُّ بها الفاسقين، يقولُ يعرفُه المؤمنون، فيؤمنون به، و يعرفه الفاسقون فيكفرون به* ونقل عن مجاهد مثله. ونقل عن ابن جريج بنحوه، خصها الله بالذكر في القلّة، فأخبر أنّه لا يستحى أن يضرب أقلَّ الأمثالِ في الحق، وأحقرها، وأعلاها، إلى غير نهاية في الإرتفاع جواباً منه جل ذكره لمنْ أنكر من منافق خلقه ما ضرب لهم من المثل بموقد النار والصيب من السماء على ما نعتها به من نعمتها* ودليل ما ذكر عجز الآية «**فأمَّا الّذِينَ آمَنُوا فيَعْلَمُونَ أنَّهُ الحقُّ مِنْ رَبِّهِمْ * وأمّا الّذِينَ كَفَرُوا فيَقُولُونَ مَاذا أرادَ الله بِهَذَا مَثَلاً**»* وقوله تعالى: «**إنَّ الله لا يَسْتَحي أن يَضْرِبَ مَثَلاً...**»* الحياء تغير وانكسار يعترى الإنسان من خوف ما يُعاب به و يذمُّ عليه* وقيل: هو انقباض النفس عن القبائح. هذا أصله في وصف الإنسان، والله تعالى منزه عن ذلك كله، فإذا وُصف الله تعالى به يكون معناه الترك، وذلك لأن لكل فعْلٍ بدايةً، فبداية الحياء هو التغير الذي يلحق الإنسان من خوف أن ينسب إليه ذلك الفعل القبيح، ونهايته ترك ذلك الفعل القبيح، فإذا ورد وصف الحياء في حقِّ الله تعالى، فليس المراد منه بدايته وهو التغير والخوف، بل المراد منه ترك الفعل الذي هو نهاية الحياء وغايته، فيكون معنى «**إنَّ الله لا يَسْتَحْيِ أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً**» أي لا يترك المثل لقول الكفار واليهود ما قيل* و(ما) صِلَة فيكون المعنى أن يضرب مثلاً بعوضة، وقيل: ليس هي بصلة بل هي للإبهام* والبعوض: صغار البق، و يطلق بالاشتراك على شيْئيْن أحدهما البقُّ المعروف بمصر، وهو حيوان صغير شديد اللّسْع منتن الرائحة، والآخر النّاموس الذي

يطير، وعبارة القاموس: البقّةُ البعوضة دو يبة حمراء منتنة، والمراد به هنا الناموس كما ذكره المفسرون* وعبارة الخازن (جـ ١ ص ٣٦) والبعوض صغار البقّ، وهو من عجيب خلق الله تعالى، فإنه في غاية الصغر، وله خرطوم مجوّف، وهو مع صغره (وهو أضعف الخلق) يغُوص خرطومه في جلد الفيل والجاموس والجمل، فيبلغُ مِنْهُ الغاية، حتّى إن الجمل يموت من قرصة* **«مَا بَعُوضَة فمَا فَوْقَهَا»** يعنى الذباب والعنكبوت، وما هو أعظمُ منها في الجثة* وقيل: معناهُ فادونها وأصغر منها. وهذا القول أشبه بالآية لأنَّ الغرض بيان أنَّ الله تعالى لا يمتنع من التمثيل بالشيء الصغير الحقير، وقد ضرب النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم مثلاً للدنيا بجناح البعوضة، وهو أصغر منها، وقد ضربت العرب المثل بالمحقرات، فقيل هو أحقر من ذرةٍ، وأجمع من نملة، وأطيش من ذبابة.

«فأمَّا الَّذِينَ آمَنُوا» يَعْني بمحمد صلى الله عليه وسلَّم والقرآن **«فَيَعْلَمُونَ أنَّه»** يعنى ضرب المثل **«الْحَقُّ»** يعنى الصدق، **«مِنْ رَبِّهِمْ»** الثابت الذي لا يجوز إنكاره. لأن ضرب المثل من الأمور المستحسنة في العقل وعند العرب* **«وأمَّا الَّذِينَ كفروا فيقُولونَ ماذَا أرَادَ الله بِهذَا مَثَلاً»** أي بهذا المثل **«يُضلُّ بهِ كثيراً»** أي من الكفار، وذلك أنهم يكذبونه فيزدادون به ضلالاً **«وَيَهْدِى بِهِ كثيراً»** يعنى المؤمنين، يُصدقونه و يعلمون أنه الحق، **وما يُضِلُّ به إلاَّ الْفَاسِقينَ** يعنى الكافرين. وقيل المنافقين: وقيل: اليهود* والفسق الخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله، والفاسقين مفعول ليضل، وإلاَّ استثناء مفرغ، ويجوز عند الفراء أن يكون منصوباً على الإستثناء، والمستثنى منه محذوف. تقدير وما يُضِلُّ به أحداً إلا الفاسقين* وقد وصفهم الله بقوله: **«الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله»** صفة للفاسقين ذكرت للذم وتقرير للفسق. والنقض فك التركيب، وأصله فك طاقات الحبل، واستعماله في إبطال العهد من حيث أن العهد يستعار لَهُ الحبل لما فيه من ربط أحد المتعاهدين بالآخر، فإنْ أطلق مع لفظ الحبل كان ترشيحاً للمجاز، وإن ذكر مع العهد كان رمزاً إلى شيء هو من روادفه، وهو أن العهد حبل في إثبات الوصلة بين المتعاهدين، والعهد الموثق، ووصفه لما من شأنه أن يُراعى و يتعهد كالوصيّة واليمين، وهذا العهد إما العهد المأخوذ بالعقل وهو الحجج القائمة على عباده الدّالة على توحيده، ووجوب وجوده وصدق رسله، وعليه حُمل قوله تعالى: **«وأشْهَدهم عَلَى أنفُسِهِمْ»** أو المأخوذ من الرُّسل على الأمم إذا بعث إليهم رسولُ مُصدّق بالمعجزات صدقُوهُ واتَّبعُوهُ ولم يكتموا أمره

ولم يخالفوا حكمه، وإليه أشار بقوله تعالى: «**وإذْ أخَذَ اللهُ ميثَاقَ الَّذِينَ أوْتُوا الْكِتَابَ**» ونظائره* وقيل: عهودُ الله ثلاثة: عهدٌ أخَذَهُ على جميع ذرّية آدم بأن يُقرُّوا بربوبيته* وعهدٌ أخَذَهُ عَلى النبيِّنَ بأن يقيمُوا الدِّينَ ولا يتفرَّقوا فيهِ* وعَهْدٌ أخذَهُ على العلماء بأن يُبيِّنُوا الحقَّ ولا يكتموه (البيضاوى)* «**من بَعْدِ ميثاقِهِ و يقْطَعُونَ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ**» وفي البيضاوى: أي من كل قطيعة لا يرضاها الله كقطع الرحم والاعراض عن موالاة المؤمنين، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام، والكتب في التصديق، وترك الجماعات المفروضة، وسائر ما فيه رفض خير، أو تعاطي شرّ، فإنَّه يقطع الوصلة بين الله و بين العبد المقصود بالذات من كل وصل وفصل* والأمْرُ: هو القولُ الطالب للفعل وقيل مع العلو، وقيل: مع الاستعلاء و به سمى الأمر الذي هو أحدُ الأمور تسمية للمفعول به بالمصدر، فإنَّه مما يؤمَر به* «**وَ يُفْسِدُونَ فِي الأرْضِ**» بالمعاصى والتعويق عن الإيمان* «**أولَـئِكَ**» الموصوفون بما ذكر «**هُمُ الْخَاسِرُونَ**» لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم، أي بإهمال العقل عن النظر في المخلوقات المؤدية إلى الإيمان به تعالى* والخاسر من خسر أحد أمور ثلاث (المال، والبدن، والعقل) وهؤلاء من الثالث* وفي الخازن «**من بَعْدِ ميثَاقِهِ**» أي من بعد عقده وتوكيده، وفي معنى هذا العهد. أقوال:

أحدها : أنَّه الذي أخذه عليهم يوم الميثاق وهو قوله تعالى: «**ألستُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى**».

الثاني : المراد به الذي أخذه على أحبار اليهود في التوراة أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلَّم، و يبيِّنوا نعتَهُ وصفته.

الثالث : المراد به الكفار والمنافقون الذين نقضوا عهداً أبرمه الله تعالى، وأحكمه بما أنزل في كتابه من الآيات الدالة على توحيده.

وذكر ابن كثير في التفسير (جـ ١ ص ٦٤) قال السُّدى في تفسيره عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مُرَّةَ عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: لمَّا ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعنى قوله تعالى: «**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً**» وقوله: «**أوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ**» الآيات الثلاث. قال المنافقون: الله أعْلَى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال فأنزل الله هذه الآية إلى قوله هم الخاسرون* ونقل السُّدىُّ في تفسيره عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة «**يضلُّ به كثيراً**» يعنى به المنافقين

«ويهدي به كثيراً» يعنى به المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالةً إلى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموهُ حقاً يقيناً من المثل الذي ضربه الله بما ضربهم، وأنّه لِمَا ضُرب له موافق، فذلك إضلال الله إيّاهم به، ويهدي به يعنى المثل كثيراً من أهل الإيمان والتّصديق، فيزيدهم هُدًى إلى هُداهم، وإيماناً إلى إيمانهم لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنّه موافق لما ضربه الله له مثلاً، وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به* **«وَمَا يُضِلُّ به إلا الْفَاسِقينَ»** قال: هم المنافقون وكذا أبوالعالية، والربيع بن أنس* وعن سعد **«يُضلُّ بِهِ كَثِيراً»** يعنى الخوارج* وعن مصعب بن سعد قال: سألتُ أبى: فقُلْت قوله تعالى: **«الَّذِينَ ينقضُون عَهْدَ الله مِنْ بعْدِ ميثاقِهِ»** إلى آخر الآية، فقال: هم الحروريّة* قال ابن كثير: وهذا الاسناد وإن صح عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه فهو تفسير على المعنى. لا أنَّ الآية أريد منها التّنصيص على الخوارج الذين خرجُوا على عليٍّ بالنهروان فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية، وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل لأنهم سُمُّوا خوارج لخروجهم عن طاعة الإمام، والقائم بشرائع الإسلام* وفي قوله تعالى: **«الَّذِينَ ينقضُونَ عَهْدَ الله مِنْ بَعْدِ ميثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أمَرَ الله بِهِ أنْ يُوصَلَ..»** الآية* قال ابن كثير: اختلف أهْلُ التفسير في معنى العهد. الذى وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصيّة الله إلى خلقه، وأمره إياهُم بما أمرهم به من طاعته ونهيه إيَّاهُمْ عمَّا نهاهم عنه من معصيته في كتبه، وعلى لسان رُسُلِه ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به* وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق، وعَهْدُه إلى جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الأدلَّة الدَّالة على ربُوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحدٌ من الناس غيرهم أن يأتى بمثله، الشاهدة لهم على صِدْقهِمْ* قالوا: ونقضهم ذلك تركهم الاقرار بما قد تبيَّنَتْ لهم صحته بالأدلة وتكذيبهم الرُّسُل والكتب مع علمهم أنّ ما أتوْا به حق* وقال ابن كثير: وروى عن مقاتل بن حيان أيضاً نحو هذا. وهو حسن* وقال أبوجعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية في قوله تعالى: **«الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله مِنْ بعد ميثاقه»** إلى قوله: **«أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون»** قال: هي ستُّ خصال من المنافقين إذا كانت فيهم، الظهرة على النَّاس، أظهروا هذه الخصال: إذا حدَّثُوا كذَّبُوا، وإذا وعدُوا أخلفوا، وإذَا اؤتمنُوا خانُوا، ونقضُوا عَهْدَ الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمَرَ الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض* وإذا

كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث: إذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وعَدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا* وفي قوله تعالى: «**ويَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**» قيل المراد به صلة الأرحام والقرابات كما فسّره قتادة كقوله تعالى: «**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**» ورجحه ابن جرير* وفي قوله تعالى: «**أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**» قال مقاتل بن حيان: في الآخرة وهذا كما قال تعالى: «**أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ولَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**)* وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسرٍ، فإنما يعني به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذنب.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ»

سورة البقرة (آية : ٤٤) جاء في أسباب النزول للواحدى (ص ١٤) قال ابن عباس في رواية الكلبي عن أبي حاتم: نزلت في يهود المدينة، كان الرجل منهم يقول لصهره ولذوى قرابته، ولمن بينهم رضاع، و بين رضاع من المسلمين. أثبت على الدين الذي أنت عليه، وما يأمرك به، وهذا الرجل يعنون محمداً صلى الله عليه وسلّم فإنّ أمره حق، فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلون* وفي القرطبي: وعن ابن عباس أيضاً: كان الأحبار يأمرون مقلديهم وأتباعهم باتباع التوراة، وكانوا يخالفونها* وقال فرقة: كانُوا يحضون على الصدقة و يبخلُون* قُلتُ وفي حديث الإسراء: روى حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم ليلةَ أُسريَ بي: [مررتُ على ناسٍ تقرضُ شِفَاهُهُمْ بمقاريض من نار، فقلت ياجبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا يأمرون الناس بالبر و ينسون أنفسهم، وهُمْ يتلُون الكتاب فلا يعقلون]* رواه الإمام أحمد في مسنده (جـ١ ص ١٢٠) ورواه الرازي في تفسيره (جـ١ ص ٤٩٦)* وفي صحيح مسلم عن أسامة بن زيد قال: [سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: يؤتى بالرّجل يوم القيامة فيُلق في النار فتندلق أقتابُ بطنِهِ، فيدور بها كما يدور الْحِمارُ بالرحى، فيجتمعُ إليه الناسُ، فيقولون يا فلان: مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟! فيقول: بَلَى، كنت آمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتيه]* وفي تفسير الطبري (جـ١ ص ٢٠٤) قال ابن جريج: «**أتأمرون النَّاسَ بالبّرِ**» أهل الكتاب

والمنافقون، كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، و يدعون العمل بما يأمرون به النَّاسَ، فعيَّرهم الله بذلك، فمَنْ أمر بخير فليكن أشدُّ النّاسِ فيه مُسَارعةً* وقال ابن زيد: هؤلاء اليهود كان إذا جاء الرجل يَسألُهُمْ ما ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق. فقال الله لهم: «**أتَأمُــرُونَ النَّاسَ بالبرِّ وتنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ وأنْتُم تتْلُونَ الكتابَ أفَلاَ تعْقِلونَ**»* يقول الله تعالى فيما معناه: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبِّر (وهو جماع الخير)، أن تنْسَوْا أنفسكم، فلا تأمرونها بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه على من قصَّرَ في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفُسِكم؟ فَتنتبهوا من رقدتكم، وتتبصَّروا من عمايتكم، والغرض أنَّ الله تعالى ذمَّهم على هذا الصنيع، ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له فإنَّ الأمر بالمعروف وهو واجب على العَالِمْ، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلَّف عنهم كما قال شعيب عليه السلام: «**ومَا أُرِيدُ أنْ أُخَالِفَكُمْ إلى مَا أنْهَاكُمْ عنْهُ إنْ أرِيدُ إلاّ الإصْلاَحَ مـا اسْتَطَعْتُ ومَا توفيقي إلاّ بالله عَلَيْهِ تَوكَّلْتُ وإليْهِ أُنِيبُ**» فكلٌّ من الأمر بالمعروف وفعله واجبٌ، ولا يَسْقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف* روى أبوالقاسم الطبراني في المعجم الكبير عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: [مثلُ العَالِمِ الَّذِى يُعلِّم الناس الخير لا يعمل به كمثل السِّراج يُضيءُ للنَّاس ويحرق نفسه»)* قال ابن كثير: هذا حديث غريب من هذا الوجه* وقد ورد في بعض الآثار (أنَّه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ليس من يعلم كمن لا يعلم)* وروى الضحاك عن ابن عباس: [قال: جاءه رجلٌ فقال يا ابن عباس: إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، قال: أبلغتَ ذلك؟ قال: أرجو، قال: إن لم تخش أن تفضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل، قال: وما هُنَّ؟ قال: قوله تعالى: «**أتَأمُرُونَ النَّاسَ بالْبرِّ وتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ**» أحكمتَ هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثاني؟ قال: قوله تعالى: «**لِمَ تَقُولُونَ مـا لا تفْعَلُون * كَبُرَ مقْتاً عِنْدَ الله أنْ تقُولُوا مـا لاَ تَفْعَلُونَ**» أحكمتَ هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثالث؟ قال قول العبد الصالح: شعيب عليه السلام: «**وَمَا أُرِيدُ أنْ أُخَالِفَكُمْ إلى مـا أنْهَاكُمْ عنه إنْ أُرِيدُ إلاّ الإصْلاَحَ**» أحكمت هذه؟ قال: لا، قال:

فابدأ بنفسك] رواه ابن مردو يه في تفسيره* وقال الخطيب الشر بيني في تفسيره: والآية ناعية على من يعظ غيره ولا يتّعظ بنفسه بسوء صنيعه، وخبث نفْسه، وإنَّ فعله فعل الجاهل بالشَّرع، أو الأحمق الخالى عن العقل، فإن الجامع بين العلم والعقل يأبى عن كونه واعظاً غير متعظ نفسه* والمراد بها حثُّ الواعظ على تزكية النفس والإقبال عليها. بالتكميل لها ليقوِّم نَفْسَه، ثم يُقوِّم غيره، لا منع الفاسق عن الوعظ، فإن الإخلال بأحدِ الأمرين المأمور بهما لا يوجب الإخلال بالآخر* وقوله تعالى: «بِالْبِرِّ» هو اسم جامع لجميع أنواع الخير والطاعات، وتفسيره بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلّم لأنَّه المراد في هذا المقام، ولأن الإيمان بنبيِّنَا محمد صلى الله عليه وسلّم أصلُ كلّ برٍّ* والبر أيضاً سعة الخير من الصلة والطاعة، والفعل منه برَّيبرُّ كعلم يعْلَمُ. والبَرُّ بالفتح الاجلال والتعظيم، ومنه ولدٌ بَرٌّ بوالديه أي يُعظمهما، والله تعالى بَرٌّ لسعة خيره على خلقه* وفي البيضاوى: البِرُّ: بالكسر التَّوسُّع في الخير مأخُوذ من البَرّ بالفتح وهو الفضاءُ الواسع، والبِرُّ بالكسر ثلاثة أقسام* برٌّ في عبادة الله* و برٌّ في مراعاة الأقارب* و برٌّ في معاملة الأجانب* وقوله تعالى: «وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» أي تتركونها بالنسيان لأن نسيان الشيء يلزمه تركُهُ، فهو من استعمال الملزوم في اللازم، أو السبب في المسبَّب، وسرُّ هذا التجوُّز الإشارة إلى أن ترك ما ذكر لا ينبغى أن يصدر عن العاقل إلا نسياناً* قوله: «وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ» التوراة حال والعامل فيها تنسون، تبكيت وتقريع كقوله: «وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» وكذا الإستفهام في قوله: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ» فهو للتقرير مع التقريع والتّعجب من حالهم.

وفي الخازن (جـ ١ ص ٤٦) **في سبب النزول:** وقيل إن جماعة من اليهود قالُوا لمشركى العرب: إنَّ رسُولاً سيظهر منكم، و يدعوكم إلى الحقّ، وكانُوا يُرغبونهم في اتباعه، فلمَّا بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلَّم حَسَدُوهُ وكفروا به، فبكّتهم الله، وو بخهم بذلك حيث إنهم كانُوا يأمرون الناس باتباعه قبل ظهوره فلما ظهر تركوهُ وأعرضوا عنه، فنزلت الآية* وقوله تعالى: «أَفَلاَ تَعْقِلُونَ» ما ذكر في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلّم فتتبعُونَهُ؟* والعقل قُوة تُهيء قبول العلم، و يقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل، ومنه قول عليٍّ بن أبى طالب رضي الله عنه:

وإنَّ العقلَ عقلان فمطبوعٌ ومَسموعٌ

ولا ينفعُ مَطبوعٌ إذا لم يكُ مسموعٌ
كما لا تنفَعُ الشَّمس وضوءُ الْعَينِ ممنوعٌ

وأصل العقل الإمساك لأنه مأخوذ من عقال الدابة، كعقل البعير بالعقال ليمنعه من الشُّرودِ، فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود، والأفعال القبيحة، قيل: من وعظ بقوله أي بدون فعله ضاع كلامه، ومن وعظ بفعله نفذت سهامُه، وقال بعضهم:

ابدأ بنفسِكَ فانهها عن غيِّها فإذا انتهت عنهُ فأنت حَكيمُ
فهناكَ يُسمعُ ما تقول ويُقتدى بالقول منكَ ويُنفَعُ التَّعْلِيمُ

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«واسْتَعِينُوا بَالصَّبْرِ والصَّلاَةِ وَإنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلاّ عَلَى الْخَاشِعِينَ * الّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وأَنَّهُمْ إلَيْهِ رَاجِعُونَ» سورة البقرة (آية: ٤٥، ٤٦)

قال الواحدى في أسباب النزول (ص ١٤): عند أكثر أهل العلم أنَّ هذا الخطاب لأهل الكتاب، وهو مع ذلك أدبٌ لجميع العباد. وقال بعضهم: هو خطاب للمسلمين قال: والأول أظْهَرُ* ومعنى الآية على ما ذكر: واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس انفسكم على طاعة الله وكفها عن معاصى الله، و باقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من مرضاة الله العظيمة إقامتها* والأولى أن يقال إن الخطاب للمسلمين لا الكافرين لأنَّ من ينكر الصلاة والصبر على دين محمدٍ صلى الله عليه وسلَّم لا يُقالُ له: اسْتَعِنْ بالصبر والصلاة، فوجب صرفه إلى من صدَّق محمداً صلى الله عليه وسلَّم وآمن به* قال الخازن في تفسيره (جـ١ ص٤٧) وقيل يحتمل أن يكون الخطاب لبنى إسرائيل لأنَّ صرف الخطاب إلى غيرهم يوجب تفكيك نظم القرآن، ولأنَّ اليهود لم ينكروا أصْل الصلاة والصبر لكن صلاتهم غير صلاة المؤمنين، فعلى هذا القول: إنَّ الله تعالى لمَّا أمرهم بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلَّم والتزام شريعته، وترك الرياسة، وحب الجاه والمال قال لهم: استعينوا بالصبر: أي بحبس النفس عن اللذات، وإن صمَّمْتُم إلى إقام الصلاة هان عليكم ترك ما أنتُم فيه من حبّ الرياسة والجاه والمال* وعلى القول الأول يكون معنى الآية: واستعينوا على حوائجكم إلى الله، وقيل: على ما يشغلكم من أنواع البلاء، وقيل: على طلب الآخرة بالصبر، وهو حبس النفس عن اللذات وترك المعاصى، وقيل: بالصبر على أداء الفرائض، وقيل: الصبر هو الصوم، لأن

فيه حبس النفس عن المفطرات وعن سائر اللذات، وفيه انكسار النفس بالصلاة، أي إجمعوا بين الصبر والصلاة، وقيل: معناه واستعينوا بالصبر على الصلاة وعلى ما يجب فيها من تصحيح النيّة، وإحضار القلب، ومراعاة الأركان والآداب مع الخشوع والخشية، فإنَّ من اشتغل بالصلاة ترك ما سِوَاها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلَّم إذا حزَّبه أمرٌ فزع إلى الصلاة. أي إذا أهمَّه أمرٌ لجأ إلى الصلاة* وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه نُعي له أخوه قُثم وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحَّى عن الطريق فصلى ركعتين أطال فيهما السجود، ثم قام إلى راحلته، وهو يقول: استعينوا بالصبر والصَّلاة* وهذا يدل على أن الخطاب للمسلمين لا إلى اليهود كما ذهب إليه الواحدى، والصبر الحقيقيُّ إنما يكون بتذكر وعد الله بحسن الجزاء لمن صبر عن الشهوات المحرمة التي تميل إليها النفس، وعمل أنواع الطاعات التي تشق عليها، والتفكر في أن المصاب بقضاء الله وقدره، فيجب الخضوع له والتسليم لأمره، والاستعانة بالصبر تكون باتباع الأوامر واجتناب النواهى بقمع النفس عن شهواتها، وحرمانها لذاتها، وتكون بالصلاة لما فيها من النهى عن الفحشاء والمنكر، ولما فيها من مراقبة الله في السّر والنجوى، وناهيك بعبادة يناجي فيها العبد ربَّهُ في اليوم خمس مرات* **«وإنَّهَا»** يعنى الصلاة، وقيل الاستعانة والأول أظهر ذكره الجلال. جرياً على قاعدة عود الضمير للأقرب* وقيل: للأمور التي أُمر بها بنو اسرائيل، ونُهوا عنها من قوله: **«اذكُروا نعمتى»** إلى قوله: **«واستعينوا»*** **«لكبيرَةٌ»** أي ثقيلة، شاقة كقوله تعالى: **«كَبُرَ عَلى الْمُشْرِكينَ ما تَدْعُوهُمْ إلَيهِ»*** **«إلاَّ عَلى الْخَاشِعِينَ»** يعنى المؤمنين، ولم تثقل عليهم كثقلها على غيرهم لأنَّ نُفوسَهم مُرْتاضة بأمثالها متوقعة في مقابلتها الثواب الذي يستحقر لأجله مشاقّها، و يستلذُّ بسببه متاعبها، ومن ثمَّ قال صلى الله عليه وسلَّم: [وجُعلتُ قُرَّة عينى في الصلاةِ] * البيضاوى.

وقيل: الخاشعين: الخائفين، وقيل: المطيعين المتواضعين لله، وأصل الخشوع السكون. فالخاشع ساكن إلى الطاعة، وقيل الخشوع الضراعة، وأكثر ما تستعمل في الجوارح. والاستثناء **«إلاَّ على الخاشِعين»** مفرَّغ وشرطه أن يُسبق بنفى فيؤوّل الكلام هنا بالنفى أي وإنها لا تُخفَّفُ ولا تُسهّل إلاَّ على الخاشعين* **«الَّذِينَ يَظُنُّونَ»** أي يسْتَيقِنُونَ وقيل يعلمون **«أنَّهُمْ مُلاقُوا ربِّهِمْ»** يعنى في الآخرة ــ وفيه دليل على ثبوت رؤية الله تعالى في الآخرة، لأن اللّقاء لا يتحقق إلا بالرؤية إنها رؤية تليق به جل جلاله.

وقيل: ملاقوا ثواب ربِّهم* «**وأَنَّهُمْ إلَيْهِ راجِعُونَ**» يعني بعد الموت فيجازيهم بأعمالهم* وفي الصحيح: [أنَّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: أَلَمْ أُزَوِّجْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أسخر لك الخيل والإبل وأَذَرُكَ ترأسَ وترتع؟ فيقول: بَلَى، فيقول الله تعالى: أَظَنَنْتَ أنك مُلاَقيَّ؟ فيقول: لا، فيقول الله: اليوم أنساك كما نَسِيتني] وهذا كقوله تعالى: «**نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ**»* وفي الخطيب: «**واستعينوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ**» أفردها بالذكر ـــ أي دون غيرها من الأركان ـــ تعظيماً لشأنها، فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية من الطهارة وستر العورة، وصرف المال فيها، والتوجّه إلى الكعبة، والعكوف للعبادة، وإظهار الخشوع بالجوارح، وإخلاص النيّة بالقلب، ومجاهدة الشيطان، ومناجات الرحمن، وقراءة القرآن، والتّكلم بالشهادتين، وكف النفس عن الأطيبيْنِ (وهما الأكل والجماع)* وعن الضحاك في قوله تعالى: «**وإنَّها لَكَبِيرةٌ إلاَّ عَلى الخاشعينَ**» قال: إنها لثقيلة، و يعني بقوله: «**إلاَّ عَلى الْخَاشِعِينَ**» إلا على الخاضعين لطاعته. الخائفين سطواته المصدقين بوعده ووعيده* وعن مجاهد قال: «**إلاَّ عَلى الخاشِعينَ**» المؤمنين حقّاً* وقال ابن زيد: الخشوع الخوف والخشية لله. وقرأ قول الله: «**خاشِعينَ مِنْ الذُّل**» قال: قد أذلَّهُم الخوف الذي نزل بهم وخشعُوا له* وإن قال قائل: وكيف أخبر الله جلَّ ثناؤه عمَّن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة أنّه يظنُّ أنَّهُ ملاقيه أي «**الّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمُ**» والظنُّ شك. والشاك في لقاء الله كافر؟ قيل له: إن العرب قد تُسمِّي اليقين ظنًّا، والشَّك ظنًّا، نظير تسميتهم الظلمة سدفة والضياء سدفة، والمغيث صارخاً والمستغيث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تُسمّى بها الشيء وضدّهُ، ومما يدل على أنّهُ يُسمى به اليقين قول دريد بن الصمّة:

فَقُلتُ لَهُمْ ظُنُّوا بألفَى مُدَجَّجٍ   سُراتُهم في الفارسِّ المسردِّ

يعني بذلك تَيَقَّنُوا ألفيْ مدجّج تأتيكم* وقول عمير بن طارق:

بأن يعْتزُّوا قومي وأقْعُدُ فيكُمْ   وأجْعَلُ منى الظَّنَّ غَيْباً مُرَجَّماً

يعني وأجعل مني اليقين غيباً مرجماً، ومما يدل عليه قوله تعالى: «**ورأى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مواقِعُوها**» أي فتيقَّنُواأنهم واقعون فيها.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«إِنَّ الَّـذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا والنَّصَارَىٰ والصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ولاَ خَوْفٌ عَلَيهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» سورة البقرة (آية: ٦٢).

ذكر الواحدى في أسباب النزول (ص ١٥) عن مجاهد قوله: لمَّا قصَّ سلمان ـــ أي الفارسُ ـــ على النبي صلى الله عليه وسلَّم قصة أصحاب الديْر. قال: هم في النّار، قال سلمان: فأظلمتْ على الأرض. فنزلت **«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هادُوا»** إلى قوله: **«يَحْزَنُونَ»** قال: فكأنما كشف عنى جبل؛ وعن السُّدىّ قال: نزلت في أصحاب سلمان الفارسّ لمَّا قدم سلمان على رسول الله صلى الله عليه وسلَّم جعل يخبر عن عبادة أصحابه، واجتهادهم، وقال يارسول الله كان يُصلُّون، و يؤمنون بك، و يَشْهَدُونَ أَنَّكَ تبعث نبياً، فلَّما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال: رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: [يا سَلْمَانُ هم من أهل النار] فأنزل الله: **«إِنَّ الَّـذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا»** الآية نزلت في سلمان الفارسى، وكان من أهل جندى سابور من أشرافهم، وما بعد هذه الآية نزلت في اليهود؛ والمراد بالذين آمنوا هم المصدقون رسول الله فيا أتاهُمْ به من الحقّ من عند الله **«والَّذِينَ هَادُوا»** يعنى اليهود، سُمُّوا بذلك لقولهم **«إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ»** أي ملنا إليك؛ وقيل: هادوا أي تابُوا عن عبادة العجل؛ وقيل: إنَّهم مالُوا عن دين الإسلام ودين موسى عليه السلام (الخازن جـ ١ ص ٥٤)؛ و يقال هادُوا وتهَوَّدُوا إذَا دخَلَ في اليهوديّة، ويهود إمَّا عربّى من هاد إذا تاب سُمُّوا بذلك لمَّا تابوا من عبادة العجل، وإما معرب يهوذا، وكأنَّهم سُمُّوا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام (البيضاوى)؛ **«والنَّصَارَىٰ»** جمع نصرانى كالندمى والياء في النصرانى للمبالغة كما في أحمر سمُّوا بذلك لأنهم نصروا المسيح أو لأنهم كانُوا مَعَهُ في قرية يقال لها نصران، فسمُّوا باسمها، أو باسم من أسسها (البيضاوى)؛ **«والصَّابِئِينَ»** أصله من صبأ إذا خرج من دين إلى دين آخر سُمُّوا بذلك لخروجهم من الدين؛ قال عمر وابن عباس: هُمْ قوم من أهل الكتاب. قال عمر: ذبائحهم ذبائح أهل الكتاب؛ وقال ابن عباس: لا تحلُّ ذَبَائِحهُمْ ولاَ مُنَاكحتهم؛ وقيل: هم قوم بيْن اليهود والمجوس لا تحلُّ ذبائحهم ولا مناكحتهم، وقيل: هُمْ بين اليهود والنّصارى يحلقُون أوساط رؤسهم، وقيل: هُمْ قومٌ يقرُّون بالله، و يقرؤن الزَّبُور، و يعبدُون الملائكة، و يُصلُّون إلى

الكعبة، أخذُوا من كل دين شيئاً* والأقرب أنهم قوم يعبُدُون الكواكب، وذلك أنهم يعتقدون أنَّ الله تعالى خلق هذا العالم، وجعل الكواكب مدبِّرة له فيجب على البشر عبادتُها وتعظيمها، وأنها هي التي تقرب إلى الله* و يقال إنهم على دين صابىء بن شيص بن آدم* وقال مجاهد: الصابئون: قوم بيْنَ المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين* وعن اسحاق بن راهو يه: الصابئون: فرقة من أهل الكتاب يقرؤن الزَّبُور، ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم* وكان الحسن يقول: في الصابئين إنهم كالمجوس* وروى عنه أنهم قوم يعبدون الملائكة* وعن الحسن قال: أخبر زياد أن الصابئين يصلُّون إلى القبلة، و يصلون الخمس، قال: فأراد أن يضع عنهم الجزية قال: فأخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة، وقال أبو جعفر الرازى: بلغنى أنَّ الصابئين قوم يعبدون الملائكة و يقرؤن الزبور، و يُصلُّون للقبلة، وكذا قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. وأخبر ابن أبي الزناد عن أبيه قال: الصَّابئُونَ قوم مما يلي العراق وهم بكوثَى، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم و يصومون من كل سنة ثلاثين يوماً، و يصلُّون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات* وسئل وهب بن منبّه عن الصابئين: فقال: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً* وقال عبدالرحمن بن زيد: الصابئون: أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب، ولا نبيٌّ إلا قول لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسولٍ، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولن للنبيِّ صلى الله عليه وسلَّم وأصحابه هؤلاء الصابئون يشبِّهونهم بهم يعني في قول: لا إله إلا الله* وقال الخليل: هم قوم يشبه دينهم دين النصارى، إلاَّ أن قبلتهم نحو مهبِّ الجنوب، يزعمون أنَّهم على دين نوح عليه السلام* وحكى القرطبيُّ عن مجاهد والحسن وابن أبي نجيح: أنهم قوم تركَّبَ دينهم بين اليهود والمجوس ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم* قال القرطبيُّ: والذى تحصَّل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنَّهم موحدون و يعتقدون تأثير النجوم وأنها فاعلة، ولهذا أفتى أبو سعيد الاصطخرى: بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم* واختار الرازى: أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى أن الله جعلها قبلة للعباد والدعاء، أو بمعنى أنَّ الله فوَّض تدبير أمر هذا العالم إليها، قال: وهذا القول هو المنسوب إلى الكشرانيين الذين جاءهم إبراهيم عليه السلام، ردًّا عليهم ومبطلاً لقولهم* قال ابن كثير: وأظهر الأقوال ـــ والله أعلم ـــ قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبّه، أنهم قوم

ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقُون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتّبعونه و يقتفونه، ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابىء، أي أنّه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك* وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبيّ* قلتُ: وصبأ في اللغة: تطلق على الذي خرج من الدين، و يُتَحَتَّم أنهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة* **«مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيوم الآخرِ»** من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً، ودخل في ملّة الإسلام دخولاً أصْليًّا **«وعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أجْرُهُمْ»** الذي يستوجبونه بإيمانهم وعملهم* قال الخازن (في جـ١ ص ٥٤) فإن قُلتَ: كيف قال في أوّل الآية **«إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا»** وقال في آخرها **«مَنْ آمَنَ باللهِ»** فما فائدة التعميم، أولاً، ثم التخصيص آخراً؟ قُلتُ: اختلف العلماء في حكم الآية فلهم فيه طريقان:

أحدهما : إنه أراد أن الذين آمنوا على التحقيق، ثم اختلفوا فيهم، فقيل هم الذين آمنو في زمن الفترة وهم طلاب الدين مثل حبيب النّجار، وقس بن ساعدة و ورقة بن نوفل، وبحيرا الراهب، وأبي ذرّ الغفارى، وسلمان الفارسى، فمنهم من أدرك النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم وتابعه، ومنهم من لم يدركه، فكأنه تعالى قال: إنَّ الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وبمحمد صلى الله عليه وسلَّم فلهم أجرهم عند ربهم* وقيل: هم المؤمنون من الأمم الماضية* وقيل: هم المؤمنون من هذه الأمة **«والذين هادُوا»** يعنى الذين كانوا على دين موسى ولم يبدّلوا **«والنَّصارى»** الذين كانوا على دين عيسى، ولم يُغيّروا **«والصابئين»** يعنى في زمن استقامة أمرهم* من آمن منهم» ومات وهو مؤمن. لأن حقيقة الإيمان تكون بالوفاة.

وأمّا الطريقة الثانية: فقالُوا إن المذكورين بالإيمان في أول الآية إنما على طريق المجاز دون الحقيقة، وهم الذين آمنوا بالأنبياء الماضين ولم يؤمنوا بك* وقيل: هم المنافقون الذين آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم، واليهود والنصارى والصابئين، فكأنه تعالى قال: هؤلاء المبطلون. كل من آمن منهم الإيمان الحقيقيَّ صار مؤمناً عند الله* وقيل: إن المراد من قوله: **«إنَّ الَّذِينَ»** يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلَّم في الحقيقة حين الماضى، وثبتُوا على ذلك في المستقبل وهو المراد من قوله تعالى: **«مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخر وَعَمِلَ صَالِحاً»** أي في إيمانه **«فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ولا خَوْف عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحزنُون»**

أي في الآخرة أي حين يخاف الكفار من العقاب ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب* الأجر في الأصل مصدر. يقال أجره الله يأجره أجراً من بابى ضرب وقتل، وقد يعبّر به عن نفس الشيء الْمُجَازَىَ به، والآية الكريمة تحتمل المعنيين. أي فلهم أجرهم ثابتاً عند ربهم، والعندية مجاز لتعاليه جلّ جلاله عن الجهة، وقد تخرج إلى ظرف الزمان إذا كان مظروفها معنى، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: [إنَّما الصبرُ عند الصَّدمة الأولى]* (قصة سلمان) ذكر الطبريُّ في تفسيره (جـ ١ ص ٥٤) عن السُّدِّى «**إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا..**» الآية قال نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان الفارسي. وكان سلمان من جند يسابور، وكان من أشرافهم، وكانَ ابن الملك صَديقاً له مؤاخياً، لا يقضي واحد منهما أمْراً دون صاحبه، وكانا يركبان إلى الصيد جميعاً فبينما هما في الصيد إذ رفع لهما بيْتٌ من خَباء فأتياه فإذا هما فيه برجل بين يديه مصحف يقرأ فيه. وهو يبكى فسألاه ما هذا؟ فقال الذي يريد أن يعلم هذا لا يقف موقفكما فإن كنتما تُريدان أن تعلما ما فيه فانزلا حتى أعلمكما، فنزلا إليه، فقال لهما: هذا كتابٌ جاء من عند الله أمر فيه بطاعته ونهى عن معصيته، فيه ألاَّ تزنى ولا تسرق، ولا تأخذ أموال النّاس بالباطل فقصَّ عليهما ما فيه، وهو الانجيل الذي أنزلَهُ الله على عيسى، فوقع في قلوبهما وتابعاه فأسلما، وقال لهما: إن ذبيحة قومكما عليكما حرام، فلم يزالا معهُ كذلك يتعلّمان منه حتى كان عيدٌ للملك فجعل طعاماً، ثم جمع الناس والأشراف، وأرسل إلى ابن الملك، فدعاه إلى صنيعه ليأكل مع الناس، فأبى الفتى، وقال: إنى عنك مشغول. فكُلْ أنْتَ وأصحابك، فلمَّا أكثر عليه من الرسل أخبرهم أنَّه لا يأكل من طعامهم، فبعث الْمِلِكُ إلى ابنه فدعاهُ، وقال: ما أمرك هذا؟ قال: إنَّا لا نأكل من ذبائحكم إنكم كُفَّارٌ لا تحلُّ ذبائحكم. فقال له الملك: من أمرك بهذا، فأخبره أنَّ الراهب أمره بذلك، فدعا الراهب، فقال: ماذا يقول ابنى؟ قال: صدق ابنك، قال له: لولا أن الدم فينا عظيم لقتلتُك، ولكن اخرج من أرضنا، فأجّلَه أجلاً فقال سلمان: فقمنا نبكى عليه، فقال لهما: إن كنتما صادقين، فأنا في بيعة بالموصل مع ستين رجلاً نعبُد الله فيها فأتُونا فيها، فخرج الراهب، و بقى سلمان وابن الملك، فجعل يقول لابن عبدالملك: انطلق بنا وابن الملك يقول نعم، وجعل ابن الملك يبيع متاعه يريد الجهاز، فلمَّا أبطأ على سلمان خرج سلمانُ حتى أتاهم، فنزل على صاحبه وهو ربُّ البيعة، وكان أهْلُ تلك البيعة من أفضل الرهبان، فكان

سلمان معهم يجتهد في العبادة و يتعب نفسه، فقال له الشيخ: إنك غلام حدث تتكلف من العبادة ما لا تطيق، وأنا خائف أن تفتر وتعجز فارفق بنفسك وخفف عليها، فقال له سلمان: أرأيت الذي تأمرني به أهو أفضل، أو الذي أصنع؟ قال: بل الذي تصنع، قال: فخلِّ عنِّي، ثم إنَّ صاحب البيعة دعاه، فقال: أتعلمُ أنّ هذه البيعة لي، وأنا أحقُّ الناس بها، ولو شئت أن أخرج هؤلاء منها لفعلت ولكني رجُلٌ أضعف عن عبادة هؤلاء، وأنا أريد أن أتحوَّل من هذه البيعة إلى بيعة أخرى هم أهون عبادة من هؤلاء، فإن شئت أن تقيم ههنا فأقمْ، وإن شئت أن تنطلق معي فانطلق. قال له سلمان: أيُّ البيْعَتينِ أفضَلُ أهلاً؟ قال: هذه. قال سلمانُ: فأنا أكون في هذه، فأقام سلمان بها، وأوصى صاحب البيعة عالم البيعة بسلمان، فكان سلمان يتعبَّدُ معهم، ثم إنَّ الشيخ العالم أراد أن يأتي بيت المقدس فقال لسلمان: إن أردت أن تنطلق معي فانطلق، وإن شئت أن تقيم فأقم، فقال له سلمان: أيهما أفضل أنطلق معك أم أقيم؟ قال: لا، بل تنطلق معي، فانطلق معَهُ، فمرُّوا بمُقْعَدٍ على ظهر الطريق ملق، فلمَّا رآهما نادى: يا سيِّد الرهبان. ارحمني يرحمْك الله، فلم يكلِّمه، ولم ينظر إليه، وانطلقا حتى أتيا بيت المقدس، فقال الشيخ لسلمان: اخرج فاطلب العلم، فإنَّه يحضرُ هذا المسجد علماءُ أهل الأرض، فخرج سلمان يسمع منهم، فرجع يوماً حزيناً، فقال له الشيخ: مالك يا سلمان؟ قال: أرى الخير كله قد ذهب به من كان قبلنا من الأنبياء وأتباعهم، فقال له الشيخ: يا سلمانُ. لا تحزن فإنه قد بقي نبيٌّ ليس من نبيٍّ بأفضل تبعاً منه، وهذا زمانه الذي يخرج فيه، ولا أراني أن أدركه، وأما أنت فشابٌّ لعلك أن تدركه، وهو يخرج في أرض العرب، فإن أدركته فآمن به واتبعه، فقال له سلمان: فأخبرني عن علامته بشيء؟ قال: نعم، هو مختم في ظهره بخاتم النبوَّة، وهو يأكل الهديّة ولا يأكل الصَّدقة، ثم رجعا حتى بلغا مكان الْمُقْعَد، فناداهما فقال: يا سيد الرُّهبان ارحمني يرحمك الله، فعطف إليه حماره، فأخذ بيده فرفعه فضرب به الأرض ودعا له، وقال: قُمْ بإذن الله، فقام صحيحاً يشتدُّ، فجعل سلمان يتعجب وهو ينظر إليه يشتدُّ، وسارَ الرَّاهب فتغيب عن سلمان، ولا يعلم سلمانُ، ثم إن سلمان فزع، فطلب الراهب، فلقيه رجلان من العرب من كلب فسألهما: هل رأيْتما الرَّاهب؟ فأناخ أحدهما راحلته: قال: نعم، راعي الصرمة هذا، فحمله فانطلق به إلى المدينة، قال سلمان: فأصابني من الحزن شيء لم يصبني مثله قطُّ، فاشترته امرأة من جهينة، فكان

يـرعى عليها هو وغلامٌ لها يتراوحان الغنم هذا يوماً وهذا يوماً، فكان سلمان يجمع الدراهم ينـتـظر خروج محمد صلى الله عليه وسلَّم، فبينما هو يوماً يرعى إذ أتاهُ صاحبه الذي يعْقُبُه، فـقال: أشعرت أنَّه قد قدم اليوم المدينة رجلٌ يزعم أنَّه نبيٌّ، فقال له سلمان: أقم في الغنم حتى آتـيك، فهبط سلمانُ المدينة، فنظر إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم ودار حوْلَهْ، فلما رآه الـنبـيُّ صلى الله عـلـيه وسلَّم عرف ما يريد، فأرسل ثوبه حتى خرج خاتمَهُ، فلما رآه أتاهُ وكلَّمه، ثم انطلق، فاشترى بدينار، ببعضه شاة، و ببعضه خبزاً، ثُمَّ أتاهُ به فقال ما هذا؟ قـال سـلمان: هذه صدقة، قال لا حاجة لى بها، فاخرجْهَا فليأكلها المسلمون، ثُمَّ انطلق، فـاشتر بـديـنـار آخـر خبزاً ولحماً، فأتى به النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم فقال: ما هذا؟ قال: هـذه هـدِّية، قال: فاقعُد، فقعد فأكلا جميعاً منها، فبينا هو يحدّثه إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصومون و يُصلُّون و يؤمنون بك، و يشهدون أنك ستُبعثُ نبياً، فلمَّا فـرغ سـلـمان من ثنائه عليهم، قال له النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم: يا سلمان، هم من أهل الـنّـار فـاشـتـد ذلـك على سلمان. وقد كان قال له سلمان: لوْ أدركوك صدّقوك واتّبَعُوك، فـأنـزل الله هـذه الآيـة: «**إنَّ الَّـــذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا والنَّصَارَى والصَّابئِينَ مَنْ آمَـنَ بـالله والـيـوم الآخر..**» الآية. فكان إيمان اليهود أنَّه من تمسّك بالتوارة وسنة موسى حتى جاء عيسى، فلما جاء عيسى كان من تمسَّك بالتوراة، وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكاً، وإيمان النصارى أنَّه من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمـنـاً مـقـبـولاً منه، حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلَّم فمن لم يتبع محمداً صلى الله عليه وسلَّـم منهـم، و يـدع ما كان عليه من سُنَّة عيسى والإنجيل كان هالكاً. وروى الطبرى عـن مجاهد قوله: «**إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا..**» الآية قال سلمان الفارسى للنبيِّ صلى الله عـلـيـه وسلَّـم عـن أولـئـك الـنَّـصـارى وما رأى من أعمالهم: قال: لم يموتوا على الإسـلام، قـال سـلمانُ: فأظْلَمْت على الأ رْض، وذكر اجتهادهم فنزلت هذه الآية، فدعا سـلـمـان، فـقـال: نـزلت هذ الآية في أصحابك، ثم قال النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم: [من مـات على ديـن عـيسى، ومات على الإسلام قبل أن يسمع بى فهوعلى خير، ومن سمع بي اليوم ولَم يؤمن بى فقدْ هلك] وروى ابن عبّاس قوله: «**إنَّ الَّـذِينَ آمَنُوا والَّـذِينَ هَادُوا والـنَّصارى والصَّابئِينَ**» إلى قوله: «**ولا هُمْ يَحْزَنُون**» فأنزل الله تعالى بعد هذا: «**ومَنْ يَـبـتَّـغ غَـيْرَ الإسْلامِ ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**» وفي الطبرى

(جـ ١ ص ٢٥٤): وهذا الخبر يدلُّ على أنَّ ابن عباس كان يَرَى أن الله جلَّ ثناؤهُ كان قد وعَدَ من عمل صالحاً من اليهود والنصارى والصابئين على عمله في الآخرة الجنَّة، ثم نُسخ ذلك بقوله: «**وَمَنْ يبتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ**» الآية* وقد صرَّح ابن عباس بالنسخ فيما رواه القرطبيُّ في تفسيره عنه قال: «**إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا..**» الآية منسوخٌ بقوله تعالى: «**وَمَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**»* وقال غيره: ليست بمنسوخة وهي فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلَّم* وفي تفسير الخطيب: وقال أبو عمرو بن العلاء: سُمُّوا اليهود يهوداً لأنَّهم يتهَّودون. أي يتحرَّكُونَ عند قراءة التوْراةِ، و يقولونَ: إن السَّمٰوات والأرض تحرّكتْ حين أتى الله موسى التوراة.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بأيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثمناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» سورة البقرة (آية: ٧٩)

ذكر الواحدى في أسباب النزول (ص ١٥) قوله: نزلت هذه الآية في الذين غيّرُوا صفة النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم، و بدَّلُوا نعمته* وقال الكلبيُّ: إنهم غيَّروا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في كتابهم، وجعلوه آدَمَ سَبْطاً طويلاً، وكان ربعة أسْمَرَ صلى الله عليه وسلَّم، وقالُوا لأصحابهم وأتباعهم: انظروا إلى صفة النبيِّ الذي يُبعثُ في آخر الزمان ليس يُشبه نعت هذا، وكانت للأحبار والعلماء مأكلة من سائر اليهود، فخافوا أن يُذْهبُوا مأكلتَهم إن بيَّنُوا الصِّفة، فمن ثم غيَّروا* وفي لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي: وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: نزلت في أحبار اليهود، وجَدُوا صفة النبيّ صلى الله عليه وسلَّم مكتوبة في التَّوراة: أكحل أعينَ ربعة جعْدَ الشَّعر حسنَ الوجه، فمَحوه حَسَداً وبغياً، وقالُوا: نجدهُ طويلاً أزرق سبطَ الشَّعر* وهذه الآية تحدَّثت عن صنف آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال بالزُّور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل* «**فَوَيْلٌ**» الهلاك والدَّمار: وهى كلمة تقولها العرب لكل من وقع في هلكة. وأصلها في اللغة: العذاب والهلاك، وحلول الشرِّ، والويلةُ: الفضيحة والبليَّةُ. وقيل: هو تفجُّعٌ، وإذا قال القائل: واو يْلتاهُ! فإنَّما يعنى وافضيحتاهُ، وفي حديث

أبي هريرة: [إذا قرأ ابن آدم السَّجدةَ فَسَجَدَ اعتزل الشيطن يبكى يقول: يا و يْلَهُ] الْوَيْلُ: الحُزنُ والهلاك والمشقة من العذاب. وكل من وقع في هلكة دعا بالويل* وفي الحديث عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: [الوْيل وادٍ في جهنَّم يهوى فيه الكافرُ أربعين خريفاً لو أرسلت فيه الجبال لَمَاعَتْ من حره قبل أن تبلغ قعره، والصُّعُودُ جبلٌ من نار يصَّعَّدُ فيه سبعين خريفاً ثم يهوى كذلك] أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن غريب. الخريف سنة. والرواية التي ذكرتها من (اللّسان) (جـ ١١ ص ٧٣٨)* قوله: «لِلَّـذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ» تأكيد للكتابة لأنه يحتمل أن يأمر غيره بأن يكتب فقال: بأيديهم لنفى هذ الشُّبهة، والمراد بالذين يكتبون الكتاب. اليهود وذلك أن رؤساء اليهود خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم حين قدم النبي صلى الله عليه وسلَّم المدينة، فاحتالُوا في تعويق سِفْلَتِهم عن الإيمان به، فعمدوا إلى صفته في التوارة، فغيَّروها، وكانت صفتُه فيها (حسنَ الوجه حسنَ الشعر أكحل العينين ربعة) كما تقدم وإنما أعدتُها تلذذاً بذكر هذ الصفات الْخَلْقية النبوَّية المباركة — وكتبوا مكانه — عليهم اللَّعنة — طوال أزرق العينين سسبط الشعر* وليس من سلالة العرب من هو أزرق العينين. قاتلهم الله أنى يؤفكون. فكانوا إذا سألتهم سفلتهم عن ذلك قرأوا عليهم ما كتبُوا «ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ» يعنى هذه الصفة التى كتبوها، فإذا نظروا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلَّم وإلى تلك الصفة وجدوه مخالفاً لها، فيكذبونه، و يقولون إنَّه ليس به* ذكر ابن كثير في التفسير(جـ ١ ص ١١٧). قال السُّديُّ: كان ناسٌ من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم يبيعونه من العرب، ويحدِّثونهم أنَّه من عند الله، فيأخذوا به ثمناً قليلاً* وفيه. قال الزُّهريُّ: أخبرنى عبيد الله بن عبدالله عن ابن عباس أنَّه قال: [يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابُ الله الذي أنزله علي نبيِّه أحدث أخبار الله تقرؤنه غضاً لم يشب، وقد حدَّثكم الله تعالى أنَّ أهل الكتاب قد بدلُّوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله مارأينا منهم أحداً قطُّ سألكم عن الذي أنزل عليكم] رواه البخاريُّ من طريق عن الزُّهرى* وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: الثَّمنُ القليل: الدنيا بحذافيرها: أي فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السُّحت* «لِيَشْتَرُوا بِهِ» أي بما كتبوا

«ثمناً قَلِيلاً» أي المآكل والرشا التي كانوا يأخذونها من سفلتهم، قال الله تعالى: «فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» من الرُّشا، أو من المعاصي* وإنما كرر الويل ليفيد أن الهلاك مرتّب على كل واحد من الفعلين على حدته لا على مجموع الأمرين، والرُّشا بضم الراء وكسرها جمع رشوة بتثليثها: وهي ما يدفع إلى الحاكم ليحكم بحقٍ، أو ليمتنع من ظلم* وفي الطبرى (جـ ١ ص ٢٩٩) «فَوَيْلٌ لَهُمْ» قال ابن عباس: فالعذاب عليهم* فقد أوّل الويل بالعذاب، وذكر عن زياد بن فياض قال سمعتُ أبا عياض يقول: الويل: ما يسيل من صديد في أصل جهنّم* وروى عن عثمان بن عفان عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: [الويْلُ جبلٌ في النار]* قال أبوجعفر فمعنى الآية على ما روى عمن ذكرت قوله في تأويل «وَيْلٌ» فالعذاب الذي هو شراب صديد أهل جهنّم في أسفل الجحيم لليهود الذين يكتبون الباطل بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله* وفي قوله تعالى: «لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثمناً قَلِيلاً» قال: يعنى بذلك الذين حرَّفوا كتاب الله من يهود بنى اسرائيل، وكتبوا كتاباً على ما تأوّلوه من تأويلاتهم مخالفاً لما أنزل الله على نبيّه موسى عليه السلام، ثم باعُوه من قوم لا علم لهم بها، ولا بما في التوراة، جهال بما في كتب الله لطلب عرض من الدنيا خسيس، فقال الله لهم: «فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ»* عن ابن عباس قال: الأميُّون قوم لم يصدّقوا رسولاً أرسله الله، ولا كتاباً أنزله الله، فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثم قالوا لقوم سفلة جهال: هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، قال عرضاً من عرض الدنيا، وعن مجاهد قال: هؤلاء الذين عرفوا أنّه من عند الله يحرّفونه.

القول في تأويل قوله تعالى:

«وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أيَّاماً مَعْدُودةً قُلْ أتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أمْ تَقُولُونَ عَلى اللهِ مَا لا تعلمون * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيّئَةً وأحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فأولئكَ أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُنَ» سورة البقرة (آية ٨٠، ٨١)

جاء في أسباب النزول في الواحدى (ص ١٦) قدم رسول الله صلى الله عليه وسلّم المدينة، ويهود تقول: إنما هذه الدنيا سبعة آلاف سنة إنما يُعذَّبُ الناس في النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم واحدٌ في النار من أيام الآخرة، وإنما هي سبعة أيام، ثم ينقطع

العذاب فأنزل الله تعالى في ذلك: «وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً...»
وروى الضحاك عن ابن عبَّاس أنَّه قال: وجد أهل الكتاب في التوراة مابين طرفي جهنم مسيرة أربعين، قالوا: لن نعذب في النار إلاَّ ما وجدناه في التوراة، فإذا كان يوم القيامة اقتحموا في النار فساروا في العذاب حتى انتهوا إلى سقر، وفيها شجرة الزقوم، إلى آخر يوم من الأيام المعدودة، فقال لهم خزنة النار: يا أعداء الله زعمتم أنكم لن تُعذَّبوا في النار إلاَّ أياماً معدودات، فقد انقطع العدد و بقي الأمد* وفي لباب السيوطي: وأخرج ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس أن اليهود قالوا: لن ندخل النار إلا تحلّة القسم: الأيام التي عبدنا فيها العجل أربعين ليلة، فإذا انقضت انقطع العذاب، فنزلت الآية* وفي تفسير الطبرى (جـ١ ص ٣٠) حدَّث أسباط عن السُّدى «وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً...» قال: قالت اليهود: إن الله يُدخلنا النار فنمكث فيها أربعين ليلةً حتى إذا أكلت النَّارُ خطايانا واسْتَنْقَتْنَا نادى مُناد: أخرجوا كل مختون من ولد بني إسرائيل: فلذلك أُمرنا أن نختتن. قالوا: فلا يدعونَ منا في النار أحداً إلاَّ أخرجوه* وعن أبي العالية قال: قالت اليهود: إن ربنا عقب علينا في أمرنا، فأقسم ليعذبنا أربعين ليلة، ثم يخرجنا فأكذبهم الله* وقال عكرمة: خاصمت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلَّم فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا فيها قوم آخرون يعنون محمداً وأصحابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم بيده على رؤوسهم [بل أنتُم فيها خالدون لا يخلفكم فيها أحدٌ] فأنزل الله جل ثناؤه: «وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً»* وقال عكرمة: اجتمعت يهود يوماً تخاصم النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم فقالوا «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً» وسمُّوا أربعين يوماً، ثم يخلفنا أو يلحقنا فيها أناسٌ، فأشاروا إلى النبي صلى الله عليه وسلَّم وأصحابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: [كذبتم، بل فيها خالدون مخلدون، لا نلحقكم ولا نخلفكم فيها إن شاء الله أبداً]* وقال الطبرى: حدَّثني يونس، قال أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم قال لهم [أنشُدُكم بالله، و بالتوارة التي أنزلها الله على موسى يوم طور سيناء، مَنْ أَهْلُ النار الذين أنزل الله في التوراة؟] قالوا: إن ربَّهم غضب عليهم غضبة فنمكث في النار أربعين ليلة، ثم نخرج فتخلفوننا فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: [كذبتم، والله لا نخلفكم فيها أبداً] فنزل القرآن تصديقاً لقول النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم وتكذيباً لهم

«**وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أيَّاماً مَعْدُودةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً**» إلى قوله: «**هُمْ فيها خالِدُونَ**» «**وَقَالُوا**» أي اليهود «**لَنْ تَمَسَّنَا**» أي لن تُصيب أجسامنا «**النَّارُ إلاَّ أيَّاماً مَعْدُودةً**» أي قدراً ثم يزول عنّا العذاب و«**إلاَّ أيَّاماً**» استثناء مفرغ، وأياماً منصوب على الظرف بالفعل قبله، والتقدير لن تمسّنا النار أبداً إلاَّ في أيام قلائل يحصرها العدُّ، لأن العدَّ يحصر القليل. ومعدودة يضبطها العدُّ، و يلزمها في العادة القلّة فهي قليلة من باب التفسير باللازم «**قُلْ**» يا محمد لليهود «**اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً**» أي مَوْثقاً أن لا يعذبكم إلا هذه المدة. «**فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ**» أي وعده، هذا جواب الاستفهام المتقدّم في قوله: «**اتَّخَذْتُمْ**» وهل هذا بطريق تضمين الاستفهام معنى الشرط، أو بطريق إضمار الشرط بعد الاستفهام وأخواته؟ قولان، واختار الزمخشرى القول الثاني فإنه قال: لن يخلف متعلق بمحذوف تقديره إن اتخذتُم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده* وقال ابن عطية: فلن يخلف الله عهده، اعتراض بين أثناء الكلام. كأنه يعنى بذلك أن قوله: أم تقولون معادل لقوله: «**اتَّخذتُمْ**» فوقعت هذ الجملة بين المتعادلين معترضة. والتقدير أيُّ هذين واقعٌ؟ اتخاذكم العهد، أم قولكم بغير علم. فعلى هذا لا محلَّ لها من الاعراب وعلى الأ ول محلها الجزم «**أمْ تقُولُونَ على اللهِ مَا لاَ تَعْلَمونَ * بَلَى**» تمسكم وتخلدون فيها. وهو إثبات لما بعد حرف النفي وهوقوله: «**لَنْ تمسَّنا النَّارُ**» والجواب: بَلَى تمسُّكُم النَّارُ أبداً، وأم هنا يحتمل أن تكون متصلةً، وهي التي يطلب بها. و بالهمزة التَّعيين، وحينئذٍ فالاستفهام للتقرير المؤدى إلى التبكيت لتحقّق العلم بالشق الأخير، كأنه قيل: أم لم تتخذوه بل تقولون..الخ* ويحتمل أن تكون منقطعة، وهي التي بمعنى بل، والاستفهام لإنكار الإتخاذ ونفيه، ومعنى «**بل**» الاضراب والانتقال من التوبيخ بالإنكار على اتخاذ العهد إلى ما تفيدُهُ همزتها من التّوبيخ على القول* وقوله: «**بَلَى**» حرف جواب كنعم وجير وأجل وأى، إلاَّ أنَّ بَلَى جواب لنفي متقدم أي إبطال ونقض وإيجاب له، سواء دخله استفهام أم لا، فتكون إيجاباً له نحو قول القائل. ما قام زيد؟ فتقول: بَلَى. أي قدم قام، وقوله أليس زيدٌ قائماً؟ فتقول: بَلَى. أي هو قائم. قال تعالى: «**ألَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى**»* و يروى عن ابن عباس أنّهم لو قالُوا نعم لكفروا* «**مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً**» في الطبرى (جـ١ ص ٣٠٤) عن ابن عباس: «**بَلَى مَنْ كَسَبَ سيِّئةً وأحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**» أي من عَمِلَ مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتُم به حتى يُحيط كفره بمَالَهُ من

حسنة، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون* قال: وأمّا «**بَلَى**» فإنها اقرار في كل كلام في أوله جحد، كما نعم اقرار في الاستفهام الذي لا جحد فيه، وأصلها بل التي هى رجوع عن الجحد المحض في قولك: ما قام عمرو بلْ زيْدٌ، فزيدتْ فيها الياء ليصلح عليها الوقُوف إذا كانت بل لا يصلح عليها الوقوف إذ كانت عطفاً ورجوعاً عن الجحد، ولتكون أعنى «**بَلَى**» رجوعاً عن الجحد فقط، واقرار بالفعل الذي بعد الجحد، فدلّت الياء منها على معنى الاقرار والانعام ـــ أي الزيادة والمبالغة يُقالُ فعل كذا، ونعم أي زاد و بالغ، ودلّ لفظ بل على الرجوع عن الجحد* وقال السّديُّ: «**بَلَى مَنْ كَسَبَ سيّئَةً**» أمّا السيّئة فهى الذنوب التي وعد عليها النار «**وَأحَاطتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**» اجتمعت عليه فمات عليها، قبل الانابة والتوبة منها* وأصل الاحاطة بالشيء الاحداقُ به بمنزلة الحائط الذي تحاط به الدار، فَـتُحدّق به، ومنه قول الله جلّ ثناؤه «**نَاراً أحَاطَ بِهِمْ سُرادِقُها**» فتأو يل الآية* من أشرك بالله واقترف ذنوباً جمّةً فمات عليها قبل الإنابة والتوبة، فأولئك أصحاب النّار هُمْ فيها مخلّدون أبداً، و بنحوما قال الطبرى قال الضحاك في «**وَأحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**» مات بذنبه* وعن ابن عباس: «**وأحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**» قال يُحيط كفرُهُ بمَالَهُ منْ حسنةٍ* وعن مجاهد: «**وأحَاطَتْ بِهِ خطَيئَتُهُ**» قال: ما أوْجَبَ الله فيه النّار* وعن قتادة «**وأحَاطَتْ به خَطِيئَتُهُ**» قال أمّا الخطيئة، فالكبيرة الموجبة* وعن قتادة: قال: الخطيئة الكبائر* وسأل رجُلٌ الحسن عن قوله: «**وأحَاطَتْ بهِ خطِيئَتُهُ**» فقال: ما ندرى ما الخطيئة يا بنيَّ، اتْلُ القرآن فكُلُّ آية وعَدَ الله عليها النار فهي الخطيئة* وعن ابن جريج قال: قلتُ لعطاء «**وأحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**» قال الشرك، ثم تلا «**وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ فكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ في النار**» أخذه مما بعده، وقد صرّح به الجلال في تقريره، وهذا ما عليه إجماع المفسرين من أنَّ السيئة الشرك كما قاله الواحدى* قُلتُ: وهومذهب أهل السُّنة لقوله: «**فأولئكَ أصحابُ النَّارِ هُمْ فيهَا خَالِدُون**» فإنّ الخلود في النار هو للكفار والمشركين. وأيضاً قوله تعالى: «**مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً..**» فى معنى التّعليل لما أفادته بل. ومَنْ تحتمل الشرطية والموصوليّة، والأنسب بقوله في الآية التى تليها «**والّذِينَ آمَنُوا وعَمَلوا الصَّالِحاتِ..**» هو الثاني: وأتى بالفاء في الشق الأ ول دون الثاني إيذاناً بتسبب الخلود في النار عن الشرك، وعدم تسبب الخلود في الجنة عن الإيمان بل هو بمحض فضل الله تعالى، وسمى جلّ جلاله أهل النار. أصحاب النار لمصاحبتهم الذنوب في

الدنيا، وهى التى أوردتهم النار، والمراد بالخلود الإقامة الدائمة التى لا نهاية لها. لقوله تعالى: «**خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً**».

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» سورة البقرة (آية: ٧٥).

ذكر الواحدى في أسباب النزول (ص ١٦) عن ابن عباس ومقاتل قالا: نزلت في السبعين الذين اختارهم موسى ليذهبُوا معه إلى الله تعالى، فلمَّا ذهبوا معه سمعوا كلام الله تعالى، وهو يأمر و ينهى، ثم رجعُوا إلى قومهم، فأمَّا الصادقون فأدُّوا ما سمعوا، وقالت طائفة منهم: سمعنا الله من لفظ كلامهم يقول: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا، ولا بأس* وعند أكثر المفسرين نزلت الآية في الذين غيروا آية الرجم، وصفة النبىّ محمد صلى الله عليه وسلَّم* وكذا في البيضاوى، وفي الطبرى (جـ١ ص ٢٩١) قال حدَّثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمةُ عن ابن اسحق في قوله: «**وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ..**» الآية قال: ليس قوله يسمعون كلام الله. يسمعون التوراة، كلهم قد سمعها، ولكنّهم الذين سألوا موسى رؤية ربِّهم، فأخذتهم الصاعقة فيها* وذكر عن محمد بن اسحاق قال: بلغنى عن بعض أهل العلم أنَّهم قالوا لموسى: ياموسى، قد حيل بيننا و بين رؤية الله عز وجل، فأسمعنا كلامه حين يكلمك، فطلب ذلك موسى إلى ربه، فقال: نعم ، فأمرهم، فليتطهروا وليطهروا ثيابهم، و يصوموا، ففعلوا، ثم خرج بهم حتى أتى الطور، فلمَّا غشيتهم الغمام أمرهم موسى عليه السلام فوقعوا سجوداً، وكلمه ربُّه، فسمعوا كلامه يأمرهم و ينهاهم حتى عقلوا ما سمعوا، ثم انصرف بهم إلى بنى إسرائيل، فلمَّا جاؤهم حرَّف فريق منهم ما أمرهم به، وقالوا حين قال موسى لبنى إسرائيل إن الله قد أمركم بكذا وكذا، قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله إنما قال كذا وكذا خلافاً لما قال الله عزّ وجلَّ لهم فهم الذين عنى الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلَّم* قال أبو جعفر الطبرى: وأولى التأو يلين اللذين ذكرت بالآية وأشبههما بما دلَّ عليه ظاهر التلاوة، ما قاله الربيع بن أنس، والذي حكاه ابن اسحاق عن بعض أهل العلم من أن الله تعالى ذكره، إنَّما عنى بذلك من سمع كلامه من بنى إسرائيل سماع موسى إيَّاه منه، ثم حرَّف ذلك و بدَّل من بعد سماعه وعلمه به وفهمه إيَّاه، وذلك أنَّ الله جل ثناؤه

إنما أخبر أن التحريف كان من فريق منهم كانو يسمعون كلام الله عز وجل استعظاماً من الله لِـمَا كانوا من البهتان بعد توكيد الحجّة عليهم والبرهان، وإيذاناً منه تعالى ذكره عباده المؤمنين. وقطع أطماعهم من إيمان بقايا نسلهم بما أتاهم به محمدٌ من الحق والنور والهدى، فقال لهم: كيف تطمعون في تصديق هؤلاء اليهود إياكم، وإنما تخبرونهم بالذي تخبرونهم من الأنبياء عن الله عز وجل عن غيب لم يشاهدوه، ولم يعاينوه، وقد كان بعضهم يسمع من الله كلامه، وأمره ونهيه، ثم يبدله ويحرّفه ويجحده، فهؤلاء الذين بين أظهركم من بقايا نسلهم أحرى أن يجحدوا ما أتيتموهم به من الحق، وهم لا يسمعونَه من الله وإنما يسمعونه منكم، وأقرب إلى أن يحرّفوا ما في كتبهم من صفة نبيكُمْ محمد صلى الله عليه وسلّم ونعته، و يبدِّلُوهُ وهم به عالمون فيجحدوه، و يكذبوا من أوائلهم الذين باشروا كلام الله من الله جلَّ ثناؤه ثم حرفوهُ من بعد ما عقلوهُ وعلموه متعمدّين التحريف.

وقوله تعالى: «**أفَتَطْمَعُونَ**» خطاب للنبي صلى الله عليه وسلّم لأنه هو الدَّاعي إلى الإيمان، وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له* وقيل: هو خطاب للنبيِّ صلى الله عليه وسلَّم وأصحابه لأنهم كانوا يدعونهم إلى الإيمان أيضاً، ومعنى أفتطمعون: أفترجون، الهمزة للاستفهام، وتدخل على ثلاثة من حروف العطف، الفاء كما هنا، والواو كقوله تعالى: «**أولا يعلمون**» وثم كقوله: «**اثُمَّ إذا ما وقع آمنتُم به**» واختلف في مثل هذه التراكيب، فذهب الجمهور إلى أن الهمزة مقدمة من تأخير لأنَّ لها الصَّدر. ولا حذف في الكلام والتقدير: فأتطمعون. وألا تعلمون. وثم أإذا ما وقع* وذهب الزمخشري إلى أنها داخلة على محذوف دل عليه سياق الكلام. والتقدير هنا: أتسمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم فتطمعون «**أنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ**» أي يصدِّقكم اليهود بما تخبرونهم* وقيل: معناه أفتطمعون أن يؤمنوا لكم أي ينقادوا لكم مع أنهم لم يؤمنوا بموسى عليه السلام، وكان هو السبب في خلاصهم من الذُّلِّ، وظهور المعجزات على يده «**وَقَدْ كَانَ فَرِيق مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كلامَ الله**» وقد كان. الواو للحال. والتقدير أفتطمعون في إيمانهم، والحال أنهم كاذبون مُحرّفون لكلام الله تعالى، وقد مقرّبة للماضي من الاستقبال سوّغت وقوعه حالاً، و يسمعون خبر كان. والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه كرهط وقوم* قيل: المراد بالفريق هم الذين كانوا مع موسى يوم الميقات، وهم الذين سمعوا كلام الله تعالى* وقيل: المراد بهم الذين كانوا في زمن النبيِّ صلى الله عليه وسلّم وهو الأقرب لأن الضمير

راجع إليهم في أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، فعلى هذا يكون معنى يسمعون كلام الله يعنى التوراة، لأنه يصح أن يقال لمن سمع التوراة يسمع كلام الله* ولم يرض الطبرى هذا القول من الخازن فقال: ولو كان تأويل الآية على ما قاله الذين زعموا أنَّه عنى بقوله يسمعون كلام الله يسمعون التوراة، لم يكن لذكر قوله: يسمعون كلام الله معنًى مفهوم لأن ذلك قد سمعه المحرِّف منهم وغير المحرّف، فخصوص المحرّف منهم بأنّه كان يسمع كلام الله إن كان التأويل على ما قاله الذين ذكرنا قولهم دون غيرهم ممن كان يسمع ذلك سماعهم لا معنى لَهُ، فإن ظنَّ ظانٌّ إنما صلح أن يقال ذلك لقوله يُحرِّفونه فقد أغفل وجه الصَّواب في ذلك، وذلك أنَّ ذلك لو كان كذلك لقيل أفتطمعُون أن يؤمِنُوا لكم، وقد كان فريق منهم يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، ولكنه جلَّ ثناؤه أخبر عن خاصٍّ من اليهود كانُوا أعطوا من مباشرتهم سماع كلام الله ما لم يعطه أحد غير الأنبياء والرسل، ثم بدَّلوا وتحرَّفوا ما سمعوا من ذلك، فلذلك وصفهم بما وصفهم به للخصوص الذي كان خُصَّ به هؤلاء الفريق الذي ذكرهم في كتابه تعالى ذكره... وذلك إخبار من الله جلَّ ثناؤه عن اقدامهم على البهت ومناجتهم العداوة لَهُ ولرسوله موسى عليه السلام، وأن بقاياهم من مناجتهم العداوة لله ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلَّم بغياً وحسداً على مثل الذي كان عليه أوائلهم من ذلك في عصر موسى عليه الصلاة والسلام*

«يُحرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ» (من بعد ما عقلوه) متعلق بيحرِّفونه. والتحريف الإمالة والتحويل، والضمير في عقلوه يعود على الكلام، أي من بعد تعقلهم إيَّاهُ. وعقلوه: فهموه بعقولهم، ولم يبق لهم في مضمونه، ولا في كونه كلام ربّ العزة ريبة أصلاً. **«وَهُمْ يعْلَمُونَ»** جملة حالية، وفي العامل فيها قولان: أحدهما عقلوه، ولكن يلزم منه أن تكون حالاً مؤكدة لأن معناها قد فهم من قوله عقلُوهُ، والثاني وهو الظاهر أنَّه حال علمهم بذلك. أي فساد مخالفته، و يعلمون أيضاً أنهم كاذبون.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصدِّق لِمَا مَعَهُمْ وكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ على الكافرينَ»
سورة البقرة (آية: ٨٩)

ذكر الوحدى في أسباب النزول قال ابن عباس: كان يهود خيبر تقاتلُ غطفان، فكلما

الـتـقـوا هزمت يهود خيبر، فعاذت اليهود بهذا الدعاء. وقالتْ: اللهمَّ إنّا نسألك بحقِّ النبيِّ الأمّـي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم، قال: فكانُوا إذا التقوا دعـوا بهـذا الـدُّعاء فهَزمُوا غطفان، فلمَّا بعث النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم كفروا به، فأنزل الله تعالى: «**وكانُوا مِنْ قبْلُ يستفتحونَ عَلى الّذِينَ كفَـرُوا**» أي بك يا محمد إلى قوله: «**فـلعنـةُ الله عَلَى الكافرينَ**» ومثل هذا في القرطبي* وقال السُّدىّ: كانت العرب تمرُّ بيهـود، فـتـلقى اليهـود منهـم أذىً، وكـانـت اليهـود تجـد نـعت محمد في التوراة أن يبعثه الله فـيقاتلون معه العرب. فلمَّا جاءهم محمدٌ صلى الله عليه وسلَّم كفَـرُوا به حسداً وقالوا: إنما كـانـت الرسـلُ مـن بنى إسـرائـيل، فما بال هذا من بنى إسماعيل* وفي لباب السيوطي: وأخـرج ابـن أبى حـاتم، مـن طـريـق سـعـيـد، أو عـكـرمـة عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلَّم قبل مبعثه. فلمَّا بعثه الله مـن الـعـرب كـفـروا بـه وجحدوا ما كانُوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل و بِشر بن الـبراء وداود بن سلمة: يا معشر يهود اتَّقوا الله وأسلمُوا، فقد كنتُم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم: أحد بنى الـنـضير مـا جـاءنـا بشيء نـعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله تعالى: «**وَلَمَّا جَـاءَهُـمْ كِـتَـابٌ مِـنْ عِـنْـدِ الله مُـصَـدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قبْلُ يستفتحون على الّـَـذِيـنَ كـفَـرُوا..**» الآية* وفي الطبرى (جـ ١ ص ٣٢٥) حدّث عن قتادة الأنصارى عـن أشـيـاخ منهم، قالوا: فينا والله وفيهم يعنى في الأنصار وفي اليهود الذين كانُوا جيرانهم نـزلت هذه القصّة، يعنى «**ولمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وكَانُوا مِنْ قَـبْـلُ يَـسْـتَـفْـتِحونَ عَلَى الَّذِينَ كفَـرُوا**» قالوا: كنا قد علوناهم دهراً في الجاهلية ونحـن أهـل الـشـرك. وهم أهل الكتاب. فكانوا يقولون إنَّ نبيًّا الآن مبعثه قد أظلَّ زمانه يقـتـلكم قتل عادٍ وإرم، فلمَّا بعث الله تعالى ذكره رسُولَه من قريش، واتبعنّاه كفروا به، يقول الله: «**فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرفوُا كفَـرُوا به..**»* وعن ابن عباس «**وكانُوا من قبل يَـسْـتـفـتِـحُونَ عَلَى الَّذِينَ كفَرُوا**» يقول يستنصرون بخروج محمد صلى الله عليه وسلَّم على مـشـركـى العرب يعنى بذلك أهل الكتاب، فلمَّا بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلَّم ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه* وعن على الأزدى في قوله تعالى: «**وكانُوا مِنْ قبل يستفـتـحون على الذين كفَرُوا**» قال: اليهود كانوا يقولون: اللهمَّ ابعث لنا هذا النبيَّ

يحكم بيننا و بين النّاس، يستفتحون: يستنصرون به على الناس* «**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ**» يعنى القرآن «**مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ**» يعنى التوراة، وهذا التصديق في صحة نبوَّة محمد صلى الله عليه وسلَّم لأن نبوّته وصفته ثابتة في التوراة «**وَكَانُوا**» يعنى اليهود «**مِنْ قَبْلُ**» أي من قبل مبعث النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم «**يَسْتَفْتِحُونَ**» أي يستنصرون به «**على الَّذِينَ كَفَرُوا**» يعنى مشركى العرب، وذلك أنّهم كانوا إذا أحزنهم أمرٌ ودهمهم عدوٌّ يقولون: اللهمَّ انصرنا بالنبىّ المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة، فكانوا يُنصرون، وكانُوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظَّل زمان نبيٍّ يخرج بتصديق ما قُلنا فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرم، الخازن (جـ ١ ص ٦٤)* وفي المصباح: فتح الله على نبيّه: نصره، واستفتحت: استنصرت* وفي المختار: والاستفتاح: الاستنصار، والفتح: النصر* «**فَلَماَّ جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا**» أي الذي عرفوه، يعنى محمداً صلى الله عليه وسلَّم عرفوا نعته وصفته وأنّه من غير بنى اسرائيل «**كَفَرُوا بِهِ**» أي جحدوه وأنكروه بغياً وحسداً* «**فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافرين**» جملة من مبتدأ وخبر، متسببة عما تقدَّم والمصدر هنا مضاف للفاعل، وأتى بعلى تنبيهاً على أنَّ اللعنة قد استعلت عليهم وشملتهم، وقال على الكافرين، ولم يقل عليهم إقامة للظاهر مقام المضمر لينبّه على السبب المقتضى لذلك وهو الكفر* قال الضحاك عن ابن عباس في قوله: «**وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا**» قال: يستنصرون يقُولون نحنُ نُعين محمداً عليهم، وليسُوا كذلك بل يكذبون* والآية التي تليها تتعلّق بها وهي قولُهُ تعالى: «**بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وللْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ**» سورة البقرة (آية: ٩٠) أي بئس شيء اشتروا به أنفسهم حين استبدلُوا الباطل بالحقِّ، واشتروا بمعنى باعُوا، والباء في به داخله على المأخوذ والمعنى: بئس ما باعُوا به حظّ أنفسهم «**أن يكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ**» يعنى القرآن «**بغياً**» أي حسداً، مفعول لهُ ليكفروا أي حسداً على «**أن يُنَزِّلَ اللهُ**» وقدّرتُ على ليفيد أنّه على إسقاط الخافض لا أنّه مفعول من أجله «**مِنْ فَضْلِهِ**» يعنى الكتاب والنبوَّة «**عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**» يعنى محمداً صلى الله عليه وسلَّم «**فَبَاؤا**» أي فرجعوا «**بِغَضَبٍ على غَضَبٍ**» أي مع غضب قال ابن عباس: الغضب الأول بتضييعهم التَّوراة وتبديلها، والثاني: بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلَّم* وقيل الأول:

بكفرهم بعيسى والإنجيل، والثاني: بمحمد صلى الله عليه وسلّم والقرآن* وقيل الأول بعبادتهم العجل. والثاني بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلّم* فيكون معنى **«بَاؤُا»** هنا استوجبوا واستحقُّوا واستقرُّوا بغضب على غضب، وقال أبو العالية: غضبُ الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلّم وبالقرآن* وعن عكرمة وقتادة مثله، قال السّدىّ: أمَّا الغضبُ الأوّل فهو حين غضب عليهم حين كفرُوا بمحمد صلى الله عليه وسلّم* وعن ابن عباس مثله* **«وَلِلْكَافِرِينَ»** يعنى الجاحدين بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلّم من النّاس كلهم* والكفر في اللغة نقيض الإيمان، آمنَّا بالله وكفرنا بالطاغوت. والكُفْرُ: كُفْرُ النعمة، وهو نقيض الشكر، والكفر: جُحودُ النعمة، وهو ضدُّ الشّكرِ، وقوله تعالى: **«إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ»** أي جاحدون. وكافره حَقَّهُ: جحده، ورَجُلٌ مُكَفَّرٌ مجحود النعمة مع إحسانه، ورجل كافر: جاحِدٌ لأنْعُمِ الله، مشتق من السَّتْرِ، وقيل: لأنَّه مُغَطًّى على قلبه* قال بعض أهل العلم: الكفر على أربعة أنحاء* كفر إنكار بأن لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به* والعياذ بالله وكفر جحود* والعياذ بالله وكفر معاندة* والعياذ بالله - وكفر نفاق* والعياذ بالله من لق ربَّهُ بشيء من ذلك لم يغفر له، و يغفر ما دون ذلك لمن يشاءُ. فأما كفر الإنكار، فهو أن يكفرَ بقلبه ولسانه، ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد، وكذلك روى في قوله تعالى: **«سَوَاءٌ عَلَيْهِم أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يؤمِنُون»** أي وهم هؤلاء الذين كفروا بتوحيد الله، وأما كفر الجحود فأن يعترف بقلبه ولا يقرُّ بلسانه فهو كافرجاحدٌ ككفرإبليس، وكفر أُمَيَّة بن أبى الصَّلتِ، ومنه قوله تعالى: **«فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَاعَرَفُوا كفَرُوا بِهِ»** يعنى كفر الجحود: وأما كفر المعاندة فهو أن يعرف الله بقلبه، و يُقرُّ بلسانه ولا يدين به، حسداً و بغياً ككفر أبى جهل وأضرابه* وفي التهذيب: يعترف بقلبه، و يُقِرُّ بلسانه و يأبى أن يقبل كأبى طالب حيث يقول:

وَلَقد عَلِمتُ بأنَّ دين محمدٍ من خير أديان البريَّة دِينَا
لولا الملامةُ أوْ حِذارُ مَسَبَّةٍ لَوَجَدْتَنى سَمْحاً بذاك مُبينَا

وأمَّا كفْرُ النِّفاقِ، فأن يُقرَّ بلسانه، و يكْفُرَ بقلبه ولا يعتقد بقلبه* قال الهرويُّ: سئل الأزهريُّ عمن يقُول بخلق القرآن أنسَمِّيه كافراً؟ فقال: الذي يقوله كفْرٌ، فأعيد عليه السؤال ثلاثاً، و يقولُ ما قال: ثم قال في الآخر: قد يقولُ المسلمُ كفراً* روى عن النبيّ

صلى الله عليه وسلّم أنه قال: [قِتَالُ الْمُسْلِمِ كَفْرٌ، وسِبَابُهُ فِسْق، ومن رَغِبَ عَنْ أبيهِ فقدْ كَفَرَ]* قال شُمّر: والكفر أيضاً بمعنى البراءة كقوله تعالى حكاية عن الشيطان في خطيئته إذا دخل النار: «إنّي كَفَرْتُ بِمَا أشْرَكْتُمونِي مِنْ قَبْلُ» أي تبرأتُ* وكتب عبدالملك إلى سعيد بن جُبيْر يسأله عن الكفر فقال: الكفر على وجوه: فكفرٌ هو شرك يتّخذ مع الله إلهاً آخر، وكفرٌ بكتاب الله ورسُوله: وكفرٌ بادّعاء ولدٍ لله، وكفر مدعى الإسلام، وهو أن يعمل أعمالاً بغير ما أنزل الله و يسعى في الأرض فساداً، و يقتل نفساً محرَّمةً بغير حقٍّ، ثم نحو ذلك من الأعمال كفرانِ: أحدهما: كفر نعمة الله، والآخر: التكذيب بالله* وفي التنزيل العزيز: «إنَّ الّذِينَ آمَنُوا ثُمّ كَفَرُوا، ثم ازدادُوا كفراً لَمْ يكُنِ الله ليغْفِرَ لَهُمْ» قال بعضهم: يعني اليهود لأنّهم آمنوا بموسى عليه السلام، ثم كفروا بعزير، ثم ازدادُوا كفراً بمحمد صلى الله عليه وسلّم* وقال تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أنْزَلَ الله فأولئكَ هُمُ الكافِرُونَ» معناه أنَّ من زعم أن حكماً من أحكام الله الذي أتت به الأنبياء عليه السلام باطل فهو كافر، وفي حديث ابن عبّاس: قيل له: «وَمَنْ لَمْ يحكُمْ بما أنزل الله فأولئكُ هُمُ الكافرون» وليسوا كمن كفر بالله واليوم الآخر* وقد أجمع الفقهاء أنَّ من قال: إنَّ المحصَنَيْن لا يجب أنْ يرجما إذا زنيا وكانا حريْن، كافر، وإنما كفر من ردَّ حكماً من أحكام النبيِّ صلى الله عليه وسلّم، لأنّه مكذّبٌ لَهُ، ومن كذَّب بالنبيِّ صلى الله عليه وسلّم فهو كافرٌ* وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: [إذا قال الرَّجُلُ للرجل أنت لى عدُوٌ، فقدْ كفر أحدهما باللإسلام]* أراد كفر النعمة لأن الله عزّ وجلّ ألّف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً، فمن لم يعرفها فقد كفرها* وفي الحديث: [من ترك قَتْلَ الحيّاتِ خشية النّار فقد كَفَر» أي كفر النعمة. وكذلك حكم الحديث الآخر: [مَنْ أتى حائضاً فقد كفر] وحديث الأنواء [إن الله لينزّلُ الغيْثَ فيُصْبِحُ قوْمٌ بِهِ كافِرينَ، يقولُونَ: مُطرنا بنَوْءِ كذا وكذا] أي كافرين بذلك دون غيره حيث ينسبون المطر إلى النوْء دون الله* ومنه الحديث: [فرأيْتُ أكثر أهلها النّساءُ لكفرهنّ. قيل أيكفرن بالله؟ قال: لا ولكن يكفرن الإحسانَ و يكفرنَ العشير]* أي يجحدن إحسان أزواجهن. وفي الحديث الآخر: [سباب المسلم فسوق وقتالُهُ كفرٌ] والأحاديث من هذا النوع كثيرة تحتاج إلى جمع في مؤلّف ولا تخلو من فوائد كثيرة* والكفر في اللغة أيضاً: التغطية، والكافر ذو كفر. أي ذو تغطية لقلبه بكفره، كما يقال للابس السّلاح كافر، وهو الذي غطّاه السلاح، وذلك

أن الكافر لمّا دعاه الله إلى توحيده فقد دعاه إلى نعمة، وأحبُّها لَهُ إذا أجابَهُ إلى ما دعاه إليه، فلمّا أبى ما دعاه إليه من توحيده كان كافراً نعمة الله، أي مغطياً لها بإبائه، حاجباً له عنه. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال في حجة الوداع: [ألا لا تَرْجِعُنَّ بَعْدي كفَّاراً يضرِبُ بعضكم رقاب بعض]* وفي قوله عليه الصلاة والسلام كفَّاراً قولان: أحدهما: لابسين السِّلاح متُهيئين للقتال. كأنه أراد بذلك النهى عن الحرب، والقول الثاني: أنّه يُكفِّرُ النَّاسَ فَيَكْفُرُ كما تَفْعَلُ الخوارجُ إذا استعرضوا الناس فيكفرونهم، وهو كقوله عليه الصلاة والسلام: [من قال لأخيه ياكافر فقد باء به أحدهما» لأنَّه إمَّا أن يَصْدُقَ عليه أو يكذب، فإن صدقه فهو كافر، وإن كذب عاد الكفر إليه بتكفيره أخاهُ المسلم* وكفَّرَ الرَّجلَ: نَسَبَهُ إلى الكفر. وكل من ستر شيئاً فقد كفرهُ وكفَّرَهُ، والكافِرُ: الزرَّاعُ لسترهالبذور بالتُّراب، والكفَّارُ: الزُّراعُ ومنه قوله تعالى: «**كَمَثَلِ غَيْثٍ أعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ**» أي أعجب الزُّراع نباتُه* وقد قيل: الكفار في هذه الآية الكفار بالله، وهم أشدُّ إعجاباً بزينة الدنيا وحرثها من المؤمنين، والكافِر: اللّيل. وفي الصحاح: الليل المظلم لأنه يستر بظلمته كل شيء.. والبحث يطول شرحه جداً وتقدم طرفاً منه قوله: «**عَذَابٌ مُهِينٌ**» أي يهانون فيه. وهو صفة لعذاب، وأصله مهون لأنه من الهوان، وهو اسم فاعل من أهان يهين إهانةً، مثل أقام يقيم إقامة. فنقلت كسرة الواو إلى الساكن قبلها، فسكنت الواو بعد كسرة فقلبت ياءً، والإهانة الإذلالُ والخزىُ، وقال: وللكافرين. ولم يقل ولهم تنبيهاً على الْعِلَّة المقتضية للعذاب المهين* قال الجلال: ذو إهانة. أي وإذلال لَهُم لما أنَّ كفرهم بما أنزل عليه صلى الله عليه وسلّم، بخلاف عذاب العاصى إذ هو مطهر له فقط، ولما كان كفرهم سببه البغى والحسد ومنشأ ذلك التكبر قوبلُوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: «**إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخرِينَ**» أي صاغرين حقيرين ذليلين راغمين* أخرج الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلّم قال: [يُحشَرُ المتكبِّرونَ يَوْمَ القيامة أمْثَالَ الذَّر في صور النَّاس يعْلُوهم كل شيء من الصغار حتّى يَدْخُلُوا سِجْناً في جَهَنَّمَ يُقالُ لَهُ بُولس تعْلُوهُمْ نارُ الأنيارِ يُسْقَوْن من طينة الخبال، عُصَارةُ أهل النّار.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدَىً وبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلائكتِهِ ورُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فإنَّ اللهَ عَدُوٌّ للْكَافِرِينَ» سورة البقرة (آية: ٩٧، ٩٨)

جاء في أسباب النزول للواحدى (ص ١٧) عن ابن عباس قال: أقبلت اليهودُ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم فقالوا: يا أبا القاسم، نسْأَلُكَ عَنْ أشْياءَ فإن أجبتنا فيها اتبعناك، أخبرنا من الذى يأتيك من الملائكة؟ قال: جبريل، قالوا: ذاك الذي ينزل بالحروب والقتال، ذاك عدُّونا، لو قُلتَ ميكائيل الذي ينزل بالمطر والرحمة اتّبعناك، فأنزل الله تعالى: **«قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لجبْريلَ فإنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ..»** إلى قوله: **«فإنَّ اللهَ عَدُوٌّ للكافرينَ»*** وفي لباب السيوطي وأخرج ابن اسحاق بن راهو يه في مسنده، وابن جرير من طريق الشّعْبي أنَّ عمر كانَ يأتي اليهودَ فيسْمَعُ من التَّوراة، فيتعجَّب كيف تُصدِّقُ ما في القرآن، قال: فمرَّ بهم النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم، فقلت: نشدتكُم بالله أتعلمون أنَّهُ رسُولُ الله؟ فقال عالمهم: نعم، نعلم أنَّه رسول الله، قُلتُ: فَلِمَ لا تتَّبعونه؟ قالوا: سألناه من يأتيه بنُبوَّته، فقال: عدوُّنا جبريل لأنَّه ينزل بالغلظة والشدَّة والحروب والهلاك، قُلتُ: فمن رُسُلكم من الملائكة؟ قالوا: ميكائيل ينزل بالقطر والرحمة، قُلتُ: وكيف منزلتها من ربِّهما؟ قالوا: أحدهما عن يمينه، والآخر عن الجانب الآخر، قلتُ: فإنَّه لا يحلُّ لجبريل أن يعادى ميكائيل، ولا يحلُّ لميكائيل أن يُسالم عدوَّ الله جبريل، وإنى أشهدُ أنَّهما وربَّهما سلْم لمن سالموا، وحرب لمن حاربُوا، ثُمَّ أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم، وأنا أريدُ أن أخبره، فلما لقيته قال: ألا أخبرك بآيات نزلت عليَّ؟ فقُلتُ: بَلَى يا رسول الله فقرأ: **«مَنْ كَانَ عَدُوًّا لجبْريل»** حتى بلغ **«للكَافِرِينَ»** قُلتُ يا رسول الله: والله ما قُمتُ من عند اليهود إلاَّ إليك لأخبرك بما قالوا لى، وقُلْتُ لهم: فوجدت الله سبقني* وإسناده صحيح إلى الشعبىّ، لكنه لم يدرك عمر، إنّ الحديث منقطع، وله طرق أخرى عن الشعبي والسّدى عن عمر وهما منقطعان، وكذا رواه القرطبيُّ في تفسيره* قال الطبرى في تفسيره (جـ١ ص ٣٤١) أجمع أهل العلم بالتأو يل جميعاً على أنَّ هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بنى إسرائيل إذْ زعموا أنّ جبريل عدوٌّ لهم، وأنَّ ميكائيل وليٌّ لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك، فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك

من أجل مناظرة جرت بيْنهم و بينَ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في أمر نُبوَّته، ثم ذكر عن ابن عباس أنَّه قال: [حضرت عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، فقالوا يا أبا القاسم: حدثنا عن خلال نسألك عنهنَّ لا يعلمهُنَّ إلاَّ نبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: سلوني عمَّا شئتُم فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهُنَّ، أخبرنا عن أيِّ الطعام حرَّم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزَّل التوارة، وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل، وكيف يكون الذكر منه والأنثى، وأخبرنا بهذا النبيِّ الأميِّ في النوم ومن وليّه من الملائكة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعنّي، فأعطوه ماشاء من عهد وميثاق، فقال نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً، فطال سقمه منْهُ فنذر نذراً لئن عافاهُ الله من سقمه ليُحرِّمنَّ أحبَّ الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل (قال أبو جعفر فيما أرى) وأحبّ ألبانها؟ فقالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: أشهد الله عليكم وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق؟ فأيها علا كان له الولد والشبه بإذن الله، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهمَّ اشهد، قال: وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أنَّ هذا النبيَّ الأمّيَّ تنام عيناهُ ولا ينامُ قلبه؟ قالُوا: اللهمَّ نعم، قال: اللهمَّ اشهد. قالوا: أنت الآن تحدثنا عن وليُّك من الملائكة، فعندها نتبعك، أو نفارقك، قال فإنَّ وليّ جبريلُ، ولم يبعث الله نبيًّا قط إلاَّ وهو وليُّه، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليُّك سواهُ من الملائكة تابعناك وصدّقناك، قال: فما يمنعكم أن تُصدِّقوه؟ قالوا: إنَّه عدوُّنا فأنزل الله عزّ وجلَّ: **«مَنْ كان عدُوًّا لجبريل فإنَّه نَزَّلَهُ على قلبك بإذن الله»** إلى قوله: **«كأنَّهم لا يَعْلمون»** فعندها بأوُا بغَضَب على غضب و بقيّة الآيات على هذا القول هي: **«وَلَقَدْ أنْزَلْنَا إليْكَ آياتٍ بَيِّنَاتٍ وما يكْفُرُ بها إلاَّ الْفَاسِقُونَ * أوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * ولَمَّا جَاءَهُمْ رسُولٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيق مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ كتابَ الله وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كأنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ*»** سورة البقرة (آية: ٩٩، ١٠٠، ١٠١).

ذكر عن الشعبيّ: قال: نزل عمر الروحاء، فرأى رجالاً يبتدرون أحجاراً يُصلّون إليها، فقال: ما هؤلاء؟ قالُوا: يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلَّى ههنا، فكرّه ذلك، وقال: إنما رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أدركته الصلاة بوادٍ، فصَلى، ثم ارتحل فتركه، ثم أنشأ يحدثهم، فقال: كنت أشهد اليهود يوم مدارسهم، فأعجب من التوراة كيف تُصدّق الفرقان، ومن الفرقان كيف يصدّق التوراة، فبينا أنا عندهم ذات يوم، قالوا: يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك، قلتُ: وَلِمَ ذلك؟ قالوا: إنك تغشانا وتأتينا، قال: قلتُ: إني آتيكم، فأعجب من الفرقان كيف يُصدّق التوراة ومن التوراة كيف تُصدّق الفرقان، قال: ومرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا ابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به، قال فقلت لهم عند ذلك أنشدكم بالله الذي لا إلـٰـه إلاّ هو، وما استرعاكم من حقّه واسْتودعكم من كتابه، أتعلمون أنّهُ رسولُ الله؟ قال: فَسَكتوا قال: فقال عالمهم وكبيرهم: إنَّهُ قد عظم عليكم فأجيبُوهُ، قالوا أنت عالمنا وسيّدنا فأجبه أنت، قال: أمَّا إذا أنشدتنا به، فإنا نعلم أنّهُ رسُولُ الله، قال: قلتُ ويحكم أي هلكتم، قالوا: إنا لم نهلك، قال: قلتُ كيف ذلك، وأنتُم تعلمون أنّهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لا تتبعونه ولا تُصدّقونه، قالوا: إن لنا عدُواً من الملائكة وسلماً من الملائكة، وأنّه قرن به عدوّنا من الملائكة، قال: قلتُ ومن عدّوكم؟ ومن سلمكم؟ قالُوا: عدُّونا جبريل، وسلمنا ميكائيل. قال: قلت وفيمَ عاديتُم جبريل، وفيمَ سالمتُم ميكائيل؟ قالوا: إنَّ جبريلَ مَلَكُ الفظاظة والغلظة والاعسار الشّديد، والعذاب ونحو هذا، وإن ميكائيل مَلَكُ الرأفة والرحمة والتّخفيف ونحو هذا، قال: قلتُ وما منزلتهما من ربّهما؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. قال: قُلتُ فوالله الذي لا إله إلاّ هو إنهما والذي بينهما لعدوٌّ لمن عاداهما، وسلمٌ لمن سالمهما. ماينبغي لجبريل أن يُسالم عدوَّ ميكائيل، ولا لميكائيل أن يسالم عدوَّ جبريل، قال: ثم قمتُ فاتبعت النبيَّ صلى الله عليه وسلم فلحقتُه، وهو خارج من خرفة لبني فلان، فقال لي: يا ابن الخطاب ألا أُقرئك آياتٍ نزلن فقرأ عليَّ: «**قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لجبريل فإنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بإذنِ الله مُصدِّقاً لما بيْن يديْه**» حتى قرأ الآيات. قال: قلتُ بأبي وأمي يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لَقدْ جئتُ، وأنا أريد أن أخبرك الخبر، فأسمع اللّطيف الخبير، قد سبقني إليك بالخبر. والأقرب في سبب عداوة اليهود لجبريل عليه السلام لأنّه كان ينزل بالقرآن على محمد

صلى الله عليه وسلم كما يشعر بذلك قولُه «**فإنَّهُ نَزَّلَهُ..**» أي إن عاداهُ أحد، فالسبب في عداوته أنَّهُ نزل عليك القرآن مُصدِّقاً لكتابهم وموافقاً له، وهم كارهون للقرآن ولموافقته لكتابهم، ولذلك كانُوا يُحرفونه ويجحدون موافقته له، كقولك إن عاداك فلانٌ فقد آذنتُه وأسأتُ إليه، وإن عادى جبريل أحدٌ من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتاباً مُصدِّقاً للكتب بين يديه، فلو أنصفوا لأحبُّوه وشكروا له صنيعَهُ في النزول بما ينفعهم و يصحح المنَّزل عليهم، ويمكن أن يتوجَّه الجزاء إلى قوله: «**بإذن الله**» إلى آخره. أي إن عاداهُ أحدٌ فلا وجه لعداوته لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه، و باختياره، وإنما جاء بإذن الله، وأمره الذي لا محيص عنْهُ، ولا سبيل إلى مخالفته، وجاء به مُصدِّقاً هادياً مُبشراً، فهو من حيث إنه مأمور وجب أن يكون معذوراً، ومن حيث أنه أتى بالهداية والبشارة يلزم أن يكون مشكوراً، فعداوته من هذا السبيل عداوة لله تعالى، ولو أنَّه تعالى أمر ميكائيل بذلك لانقاد لأمره أيضاً لا محالة، ولتوجه الإشكال عليه، فما الوجه في تخصيص جبريل بالعداوة* روى الطبرى عن قتادة قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود، فلما ابصروه رحبوا به، فقال لهم عمر أما والله ما جئتُ لحبكم ولا للرغبة فيكم، ولكن جئت لأسمع منكم فسألهم وسألوه، فقالوا: من صاحب صاحبكم؟ فقال لهم جبريل، فقالوا: ذاك عدونا من أهل السماء، يُطلِعُ محمداً على سرنا، وإذا جاء جاء بالحرب والسَّنَة، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل، وكان إذا جاء جاء بالخصب و بالسِّلم، فقال لهم عمر: أفتعرفون جبريل، وتنكرون محمداً، ففارقهم عمر عند ذلك، وتوجَّه نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحدثه حديثهم، فوجده قد أنزل عليه هذه الآية: «**قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لجبريلَ فإنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بإذْنِ الله**»* وروى عن السَّدىّ: «**قُلْ مَنْ كانَ عَدُواً لجبريلَ فإنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بإذْنِ الله مُصَدِّقاً لِمَا بيْنَ يَدَيْهِ**» قال: كان لعمر بن الخطاب أرض بأعلى المدينة، فكان يأتيها، وكان ممّره على طريق مدارس اليهود، وكان كلما دخل عليهم سمع منهم، وأنه دخل عليهم ذات يوم، فقالوا يا عمر: ما في أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم أحدٌ أحبُّ إلينا منك إنَّهم يمرون بنا، فيؤذوننا، وتمرُّ بنا فلا تؤذينا، وإنَّا لنطمعُ فيك، فقال لهم عمر: أيُّ يمينٍ فيكم أعظم؟ قالوا: الرحمـٰنُ الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء، فقال لهم عمر: فأنشدكم بالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أتجدون محمداً صلى الله عليه وسلم

عـنـدكم؟ فأسْكِـتُوا! فقال: تكلموا، ما شأنكم؟ فوالله ما سألتكم وأنا شاكٌّ في شيء من ديني، فـنـظـر بـعـضـهـم إلى بـعـض، فـقـام رجـلٌ منهـم، فـقـال: أخبروا الرجل لتخبرنَّه أولأخبـرنَّـهُ؟ قـالـوا: نـعم إنَّا نجده مكتوباً عندنا، ولكن صاحبه من الملائكة الذي يأتيه بـالـوحي هـو جبريل، وجبريل عدوُّنا، وهو صاحب كل عذاب أو قتال، أو خسف، ولو أنّـه كـان ولـيُّـه ميكائيل إذاً لآمنَّا به، فإنَّ ميكائيل صاحب كل رحمة وكل غيث، فقال لهـم عـمر: فأنشدكم بالرَّحمٰن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أين مكان جبريل مـن الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيلُ عن يساره، قال عمر: فأشهدكم أنَّ الذي هو عَـدوٌّ للـذي عـن يمـيـنـه عدوٌّ للذي هو عن يساره، والذي هو عَدو للذي هو عن يساره عدو للـذي هو عن يمينه، وأنَّه من كان عدوهما فإنه عدو لله، ثم رجع عمر ليخبر النبيَّ صلى الله عـليه وسلم، فوجد جبريل قد سبقه بالوحى، فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقرأهُ عليه، فـقـال عـمر: والذي بعثك بالحق لقد جئتُكَ وما أريد إلاَّ أن أخبرك. وكذا رواية الشعبي وفي آخرهـا: وقـد أنـزل عليه **«من كانَ عدُوًّا لجبريل فإنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بإذْنِ الله»** إلى قـولـه: **«فـإنَّ الله عَـدوٌّ للـكـافـرين»**. وفي الخازن (جـ ١ ص ٦٦) **«قُلْ من كَانَ عَـدُوًّا لجـبـريـلَ»** قال ابن عباس: نزول هذه الآية أن عبدالله بن صوريا: حبر من أحبار اليهـود، قـال للـنبيِّ صلى الله عليه وسلم أي مَلَكٍ يأتيك من السماء؟ قال: جبريل. قال: ذلـك عـدونـا، ولـو كان ميكائيل لآمنا بك، إنَّ جبريل ينزل بالعذاب والشدة والخسف، وأنّـه عادانا مراراً، وأشد ذلك علينا، إنَّ الله أنزل على نبيِّنا أن بيت المقدس سيخرب على يـد رَجـلٍ يـقـال لـه: بختنصّر، فلمَّا كان زمنه بعثنا من يقتله، فلقيه ببابل غلاماً مسكيناً فـأخـذه لـيـقـتله، فدفع عنه جبريل، وقال: إن الله أمره بهلاككم فلن تُسلط عليه، وإن لم يـكـن هـو فعلى أيِّ حق تقتُلُه، فلمَّا كبر ذلك الغلام، وقوى غزانا، وخرب بيْت المقدس، فـلـهـذا نـتَّـخـذُه عدواً، فأنزل الله هذه الآية. وقيل: قالوا إن الله أمره أنْ يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا فاتّخذناه عدواً. وأخرج الإمام أحمد عن ابن عبَّاس قال: أقبلت يهود على رسـول الله صلى الله عـلـيه وسلم، فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن خمسة أشياء فإن أنبأتنا بهـنَّ عـرفنا أنَّك نبيٌّ واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ اسرائيل على بنيه إذ قال: والله على ما نـقـول وكيل. قال هاتُوا، قالوا: فأخبرنا عن علامة النبي؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه، قـالـوا: أخـبـرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكَّرُ؟ قال: يلتقى الماءان فإذا علا ماء الرجل

مـاء المرأة أذكرت، وإذا علا ماءُ المرأة ماء الرجل أنثت قالوا: أخبرنا ما حرَّم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يشتكي عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا ــ قال أحمد: قال بعضهم: يعنى الإبل ــ فحرَّم لحومها. قالوا: صَدَقت، قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة الله عزَّ وجل موكل بالسحاب بيده مخراقٌ من نار يزجر به السَّحاب، يسوقه حيث أمره الله تعالى، قالوا: فما هذا الصوت الذي نَسْمَعُ؟ قال: صوته. قالوا: صدقت. قالوا: إنما بقيت واحدة، وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها. إنَّه ليس من نبي إلاَّ وله ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل عليه السلام. قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب، والقتال والعذاب عدوُّنا، لو قُلتَ ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان. فأنزل الله تعالى: **«قُلْ من كانَ عَدُواً لجبْريلَ فإنَّهُ نزَّلَهُ على قلبك بإذن الله»** إلى آخر الآية« ورواه الترمذي والنسائي من حديث عبدالله بن الوليد. وقال الترمذي حسن غريب« قال البخاري قوله تعالى: **«مَنْ كَانَ عَدُواً لجبريل»** قال عكرمة: جبراً وميكا وإسراف عبد. وإيل: الله« وعن أنس بن مالك قال: سمع عبدالله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو في أرض يخترف فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يَعْلَمهن إلاَّ نبيٌّ: ما أول أشراط الساعة؟ وما أوَّل طعام أهل الجنَّة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمِّه؟ قال: أخبرني بهذا جبرائيل آنفاً. قال: جبريل؟ قال: نعم، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية **«مَنْ كانَ عدواً لجبْريلَ فإنَّهُ نزَّلَهُ عَلَى قلبك»** وأما أول أشراط الساعة فنارٌ تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأمَّا أول طعام يأكله أهلُ الجنَّة، فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماءُ المرأة نزعتْ. قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّك رسول الله. يا رسول الله إنَّ اليهود قوم بهت، وإنَّهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءتِ اليهود، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي رجلٍ عبدالله بن سلام فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيّدنا. قال: أرأيتم إن أسلَمَ؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبدالله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله، فقالوا: هو شرُّنا وابن شرِّنا، وانتقصوه، فقال: هذا الذي كنتُ أخاف يا رسول الله« انفرد به البخاري من هذا الوجه وليس فيه ذكر جبريل عليه السلام« وقوله تعالى: **«فإنَّهُ نزَّلَهُ»** يعنى جبريل نزل بالقرآن **«عَلَى قَلْبِكَ»**

يا محمد، وإنما خصَّه بالذكر لأنه خزانة الحفظ، وأضافه إلى ضمير المخاطب دون ياء المتكلم، وإن كانَ ظاهر الكلام، يقتضي أن يكون على قلبي، إما مراعاة لحال الآمر بالقول فيردُّ لفظه بالخطاب، وإما لأنَّ ثم قولاً آخر مضمراً بعد قل: والتَّقدير: قل يا محمد قال الله من كان عدواً لجبريل «بِإِذْنِ اللهِ» أي بأمره، فيه تلويح بكمال توجه جبريل عليه السلام إلى تنزيله وصدق عزيمته عليه، وهو حال من فاعل نزَّله قال ابن الخطيب: تفسير الإذن هنا بالأمر أي بأمر الله أولى من تفسيره بالعلم لأن الإذن حقيقة في الأمر مجاز في العلم، ويجب الحمل على الحقيقة ما أمكن. «مُصَدِّقاً» أي موافقاً. أحوال من مفعول نزَّله، وفي ذكر الأخيرين تنبيه على أن القرآن مشتمل على بيان ما وقع به التّكليف من أفعال القُلوب والجوارح «لِمَا بيْنَ يَدَيْهِ» أي لما قبله من الكتب السمٰوية السابقة المنزلة: «وَهُدَى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ» أي في القرآن هداية للمؤمنين إلى الأعمال الصالحة التي يترتب عليها الثَّواب، و بشرى لهم بثوابها إذا أتوابها، والمفهوم المخالف، أي وعذاباً وشدَّةً على الكافرين «مَنْ كَانَ عَدُواً لله وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وجِبْرِيلَ وَمِيكال» قال الخازن في تفسيره (جـ١ ص ٦٦) لمَّا بيَّن في الآية الأولى أنَّ من كان عدوَّاً لجبريل لأجل أنَّه نزل بالقرآن على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، وجب أن يكون عدواً لله، لأنَّ الله تعالى هو الذي نزَّله على محمد، بيَّن في هذه الآية أنَّ كل من كان عدواً لأحد هؤلاء، فإنَّه عدوٌّ لجميعهم، و بيَّن أنَّ الله عَدُوَّهُ بقوله: «فإنَّ الله عَدُوٌّ للكافرين» وعبارة البيضاوى: وأفرد المكان بالذكر للتنبيه على أن معاداة الواحد، والكل سواء في الكفر، واستجلاب العداوة من الله تعالى، وأن من عادى أحدهم، فكأنَّه عادى الجميع، إذ الموجب لمحبتهم وعداوتهم على الحقيقة واحد. ولأنَّ المحاجة كانت فيهما وأمَّا عداوتهم لله فإنها لا تضُرهُ ولا تؤثر، وعداوته لهم تؤديهم إلى العذاب الدائم الذي لا ضرر أعظم منه وقيل: المراد من عداوتهم لله عداوتهم لأ وليائه، وأهل طاعته فهو كقوله: «إنَّما جَزَاءُ الَّذِينَ يُحاربُونَ الله ورسُولَهُ» أي يحاربون أولياء الله، وأهل طاعته وقدّم جبريل على ميكائيل لفضله عليه، لأنَّ جبريل ينزل بالوحى الذي هو غذاء الأ رواح، وميكائيل ينزل بالمطر الذي هو سبب غذاء الأ بدان، وجبريل وميكائيل اسمان أعجميان. ومعناهما عَبْدُ الله، لأنَّ جبر وميك بالسريانيّة هو العبد وإيل هو الله وقوله: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إلَيْكَ آياتٍ بيِّناتٍ» في الخازن. قال ابن عباس: هذا جواب لابن صوريا حيث قال لرسول الله صلى

الله عليه وسلم: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية بيِّنه فنتّبعك بها، فأنزل الله هذه الآيات* ومعنى بيِّنات واضحات مفصلات بالحلال والحرام والحدود والأحكام* «**وَمَا يَكْفُرُ بِهَا**» أي وما يجحدُ بهذه الآيات «**إلاَّ الْفَاسِقُونَ**» أي الخارجون عن طاعتنا وما أمروا به، واللام للعهد، أي الفاسقون المعهودون، وهم أهل الكتاب المحرفون لكتابهم الخارجون عن دينهم، أو للجنس، وهم داخلون فيه دخولاً أوليًا.

القــول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ»

سورة البقرة (آية: ١٠١)

في الخازن (جـ١ ص٦٧) قال ابن عباس لما ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أخذ عليهم من العهود في محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يؤمنوا به قال مالك بن الصيف: والله ما عُهد إلينا في محمدٍ عهداً، فأنزل الله هذه الآية* أوكلما: استفهام إنكاري، عاهدوا عهداً: هو قولهم: إنَّه قد أظل زمان نبي مبعوث، وأنَّه في كتابنا، وقيل: إنهم عاهدوا الله عهوداً كثيرة ثم نقضوها. «**نَبَذَهُ**» أي طرح العهد ونقضه «**فَرِيقٌ مِنْهُمْ**» يعنى اليهود «**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**» يعنى كفر فريق منهم بنقض العهد، وكفر فريق منهم بالجحد للحق* قال الحسن البصرى: في قوله تعالى: «**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**» قال: نعم ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلاَّ نقضوه، ونبذوه يُعاهدون اليوم و ينقضون غداً* وقال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم* وقال ابن جرير: أصل النبذ الطّرح والإلقاء، ومنه سُمى اللقيط منبوذاً، ومنه سُمى النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طُرحا في الماء* وقال ابن كثير في التفسير (جـ١ ص١٣٤): فالقوم ذمَّهم الله بنبذهم العهود التي تقدَّم الله إليهم في التَّمسك بها، والقيام بحقّها، ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسُول المبعوث إليهم وإلى النَّاس كافة الذي في كتبهم نعْتُه وصفته، وأخبارُهُ، وقد أمروا فيها باتباعه وموازرته ونصرته كما قال تعالى: «**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النبيَّ الأمِيَّ الَّذِى يجدُونَهُ مكْتُوباً عِنْدَهُمْ في التوْراةِ والإنجيل..**» الآية وقال ههنا: «**وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ**» الآية. أي طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم ممَّا فيه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم، أي تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلمّ

السحر واتباعه، ولهذا أرادوا كيداً برسول الله صلى الله عليه وسلم وسحروه في مشط ومشاقة وجف طلعة. ذكر تحت راعونة ببئر أرْوان، وكان الذي تولّى ذلك منهم رجل يقال له لبيد بن الأعصم لعنه الله وقبحّه، فأطلع الله على ذلك رسوله صلى الله عليه وسلم، وشفاهُ منْهُ، وأنقذه كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. وقال السدى: **«وَلَمَّا جَاءَهُمْ رسُولٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ»** قال: لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوا بالتوراة، فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن. فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن، فذلك قوله: **«كأنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»**. قال قتادة: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم وكتموه وجحدوا به. وإنما حملهم على ذلك عداوة النبيّ صلى الله عليه وسلم وهم علماء اليهود الذين كانُوا في زمن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وكتموا أمره، وكان أولئك النفرُ قليلاً. وهي جملة في محل نصب على الحال، وصاحبها فريق. وإن كان نكرة لتخصيصه بالوصف، والعامل فيها نبذ. والتقدير مشبَّهينَ بالجهال، ومتعلق العلم محذوف تقديره إنَّه كتاب الله مع أنَّهم لا يُداخلهم فيه شك، والمعنى أنهم كفروا عناداً. واعلم أنَّه تعالى دلَّ بالآيتين على أن حال اليهود أربــع:

فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب، وهم الأقلون المدلول عليهم بمفهوم قوله: **«بل أكثرهم لا يؤمنون»**.

وفرقة جاهروا بنبذ عهودها وتخطّى حدودها تمرداً وفسوقاً، وهم المعنيون بقوله: **«نبذه فريق منهم»**.

وفرقة لم يجاهروا بنبذها ولكن نبذوا لجهلهم، وهم الأكثرون المدلول عليهم بمنطوق قوله: **«بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يؤمِنُونَ»**.

وفرقة تمسكون بها ظاهراً ونبذوها خفية عالمين بالحال بغياً وعناداً، وهم المتجاهلون المدلول عليهم بقوله: **«كأنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»** (البيضاوي).

القــول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ وما كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَروا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ ومارُوتَ وما يُعَلِّمَانِ مِنْ أحَدٍ حتَّى يقُولاَ إنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ما يُفَرِّقُونَ بِهِ

بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجه وما هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ بإذْنِ الله و يتعلّمونَ ما يضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فى الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» سورة البقرة (آية: ١٠٢)

جاء في أسباب النزول للواحدى (ص ٢٠) عن عمران بن الحارث قال: بينا نحن عند ابن عبّاس إذ قال: إن الشياطين كانُوا يسترقون السمع من السماء، فيجيء أحدهم بكلمة حق فإذا جُرِّب من أحدهم الصدق كذب معها سبعين، فيُشربها قلوب النَّاس، فأطلع على ذلك سليمان، فأخذها فدفنها تحت الكرسي، فلمَّا مات سليمان، قام شيطان في الطريق، فقال: ألا أدلكم على كنزسليمان المنيع الذي لا كنزمثله؟ قالوا: نعم، قال: تحت الكرسي، فأخرجوه، فقالوا: هذا سحر سليمان سحر به الأمم. فأنزل الله **«واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ..»** الآية* وقال الكلبيُّ: إن الشياطن كتبوا السحر والنار نيجات على لسانِ آصف. هذا ما علَّمَ آصف بن برخيا الملكَ، ثم دفنوها تحت مصلاه حين نزع الله ملكه، ولم يشعر بذلك سليمان، ولما مات سليمان استخرجوه من تحت مصلاّه، وقالوا للناس: إنما ملككم سليمان بهذا فتعلموه، فلمّا علم علماء بنى اسرائيل قالوا: معاذ الله أن يكون هذا علم عَلِمَ سليمان، وإنما القلّة، فقالوا: هذا عِلْمُ سليمان، وأقبلوا علي تعلُّمه، ورفضوا كتب أنبيائهم ففشت الملامة لسليمان، فلم تزل هذه حالهم حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عذر سليمان على لسانه، ونزل براءته ممارُمى به، فقال: **«واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ»** الآية* وقال السرىُّ: إن الناس في زمن سليمان كتبوا السحر فاشتغلوا بتعلُّمه، فأخذ سليمان تلك الكتب فدفنها تحت كرسيِّه ونهاهم عن ذلك. ولما مات سليمان، وذهب به كانُوا يعرفون دفن الكتب، فتمثَّل شيطان على صورة إنسان، فأتى نفراً من بنى اسرائيل وقال: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسي فحفروا فوجدوا تلك الكتب، فلمَّا أخرجوها قال الشيطان: إنَّ سليمان ضبط الجن والإنس والشياطين والطيور بهذا، فأخذ بنو اسرائيل تلك الكتب، فلذلك أكثر ما يوجد السحر في اليهود، فبرَّأَ الله عزَّ وجل سليمانَ من ذلك، وأنزل الآية: **«واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ..»*** وفي لباب السيوطى: أخرج ابن جرير عن شهر ابن حوشب قال: قالت اليهود: انظروا محمداً يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، أفما كان ساحراً

يركب الريح؟!! فأنزل الله تعالى: «**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ..**» الآية» وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية أنَّ اليهود سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم زماناً عن أمور من التوراة لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله عليه ما سألوه عنه فيخصمهم، فلمَّا رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أُنزل إلينا منَّا، وأنهم سألوه عن السِّحر وخاصموه به، فأنزل الله «**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ..**»» وفي الخطيب: قال السدى: كانت الشياطين تسترق السمع فيستمعون كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت وغيره، فيأتون الكهنة، ويخلطون بما يسمعون في كل كلمة سبعين كذبة، ويخبرونهم بها، فاكتتب الناس ذلك، وفشا في بنى اسرائيل أنَّ الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان في الناس، وجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق، ودفنها تحت كرسيِّه، وقال: لا أسمع أن أحداً يقول إنَّ الشياطين تعلم الغيب إلا ضربت عنقه، فلمَّا مات سليمان، وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، ودفنه الكتب، وخلف من بعدهم خلف تمثَّل الشيطان على صورة إنسان، فأتى نفراً من بنى اسرائيل، فقال: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسي وذهب معهم، فأراهم المكان. وأقام ناحيةً، فقال: ادن، فقال: لا، ولكنّى هَهُنا، فإن لم تجدوه فاقتلوني، وذلك أنَّه لم يكن أحدٌ من الشياطين يدنو من الكرسي إلا احترق، فحفروا وأخرجوا تلك الكتب، وقال الشيطان: إن سليمان كان يضبط الجنَّ والإنس والشياطين والطير بهذا، ثم طار الشيطان، وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً، وأخذ بنو اسرائيل تلك الكتب فلذلك أكثر ما يوجد السحر في اليهود، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم برَّأ الله سليمان من ذلك وأنزل تكذيباً لمن زعم ذلك «**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ...**»» قال أبو جعفر الطبرى في تفسيره (جـ ١ ص ٣٥٢) يعنى بقوله: «**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ**» الفريق أحبار اليهود وعلمائها الذين وصفهم جلَّ ثناؤه بأنهم نبذوا كتابه الذي أنزله على موسى وراء ظهورهم تجاهلاً منهم، وكفراً بما هم به عالمون كأنهم لا يعلمون، فأخبر عنهم أنهم رفضوا كتابه الذي يعلمون أنَّه منزل من عنده على نبيه صلى الله عليه وسلم، ونقضوا عهده الذي أخذه عليهم في العمل بما فيه، وآثروا السِّحر الذي تلته الشياطين في ملك سليمان بن داود، فاتبعوه وذلك هو الخسران والضلال المبين» وفي ابن كثير (جـ ١ ص ١٣٤) وكان حين ذهب ملك سليمان ارتدَّ فئام من الجن والانس، واتبعوا الشهوات، فلما أرجع الله إلى

سليمان ملكه، وقام الناس على الدين كما كان، وإن سليمان ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيِّه، وتوفي سليمان عليه السلام، فظهر الانس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان، وقالوا: هذا كتاب من الله نزل على سليمان، فأخفاه عنَّا، فأخذوا به فجعلوه ديناً فأنزل الله تعالى: «**وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ**» الآية، واتبعوا الشهوات التي كانت تتلو الشياطين، وهي المعازف واللعب وكل شيء يصد عن ذكر الله* وذكر ابن كثير عن ابن عباس قال: كانَ آصفُ كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان، و يدفنه تحت كرسيّه، فلمَّا مات سليمان أخرجته الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها، قال: فأكفره جهال النَّاس وسبُّوه، ووقف علماء النَّاس. فلم يزل جهال الناس يسبُّونه حتى أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم: «**واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ وما كَفَرَ سُلَيْمَانَ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَروا..**»* أي يعني اليهود نبذوا كتاب الله، واتبعوا كتب السحر. والأ ولى أن تكون هذه الجملة معطوفة على مجموع الجملة السابقة من قوله: «**وَلَمَّا جاءَهُمْ..**» إلى آخرها لأن عطفها على نبذ يقتضي كونها جواباً لقوله: «**وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ**» واتّباعهم لما تتلو الشياطين ليس مترتباً على مجيء الرسُولِ، بل كان اتباعهم لذلك قبله. وما موصولة، وعائدُها محذُوف. التقدير تتلُوهُ* ومعنى تتلوا تقرأ من التلاوة، وقيل معناه تفترى وتكذب، أي تلت. أي قرأت، أو افترت وكذبت* «**عَلَى مُلْكِ سُليمانَ**» فيه قولان: **أحدهما**: أن على بمعنى في أي في زمن ملكه، **والثاني**: أن يُضمنّ تتلو معنى تتقوَّل. أي فتتقوَّلُ على ملك سليمان، وتقوَّل يتعدَّى بعلى قال تعالى: «**وَلَو تقوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاويلِ**» وهذا الثاني أولى، فإن التجوز في الأفعال أولى من التجوز في الحروف وهومذهب البصريين، وإنما أحوج إلى هذين التأويلين، أن تلا إذا تعدى بعلى كان المجرور بعلى شيئاً يصح أن يتلى عليه، نحو تلوتُ على زيد القرآن، والملك ليس كذلك. والتلاوة الاتباع أو القراءة وهو قريب منه، وسليمان، علمٌ أعجمى فذلك لم ينصرف* وقال أبو البقاء: فيه ثلاثة أسباب (العجمة والتعريف والألف والنون) وهذا إنما يثبتُ بعد دخول الاشتقاق فيه والتصريف حتى تعرف زيادتها، وأنها لا يدخلان في الأسماء الأعجمية* وكرر جلَّ جلاله «**وما كَفَرَ سُلَيْمَانُ**» فذكره ظاهراً تفخيماً له وتعظيماً* يعنى بالسحر، ولم يعمل

به، وفيه تنزيه سليمان عليه السلام عن السحر، وذلك أنَّ اليهود أنكروا نبوة سليمان. قالوا: إنما حصل له ذلك الملك وسخرت الجن والإنس له بسبب السحر.. الخ. ما تقدم* «وَلَكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَروا» يعني الذين اتخذوا السحر لأنفسهم هم الذين كفروا، ثم بين سبب كفرهم فقال تعالى: «يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ» يعني ما كتب لهم الشياطين من كتب السحر، وقيل: يحتمل أن يكون يُعَلِّمُونَ. اليهود الذين عُنُوا بقوله «واتَّبَعُوا»* وسمي السحر سحراً لخفاء سببه، فلا يفعل إلا في خفية، وقيل: معنى السحر الإزالة وصرف الشيء عن وجهه تقول العرب ما أسحرك عن كذا! أي ما صرفك عنه، فكأن الساحر لمَّا رأى الباطل في صورة الحق فقد سحر الشيء عن وجهه، أي صرفه. هذا أصله في اللغة، وأما حقيقته فقد قيل: إنَّه عبارة عن التمو يه والتَّخييل.

ومذهب أهل السنة أنَّ له وجوداً وحقيقة، والعمل به كفر، وذلك إذا اعتقد أن الكواكب هي المؤثرة في قلب الأعيان* وروى عن الشافعي أنَّه قال: السحر يخبل ويمرض، وقد يقتل، حتى أوجب القصاصا على من قَتَلَ به* وقيل: إن السحر يؤثر في قلب الأعيان، فيجعل الإنسان على صورة حمار، والحمار على صورة الكلب، وقد يطير الساحر في الهواء، وهذا القول ضعيف (عند أهل السنة) لأنهم قالوا: إنَّ الله تعالى هو الخالق الفاعلُ لهذه الأشياء عند عمل الساحر لذلك، لا أنَّ الساحر هو الفاعل لها المؤثر فيها (الخازن جـ ١ ص ٦٨)* وقال: والأصح أن السحر يخبل و يؤثر في الأ بدان بالأمراض والجنون والموت. يدل على ذلك أنَّ للكلام تأثيراً في الطباع. فقد يسمع الإنسان ما يكره فيُحَمُّ، وقد مات قوم بكلام سِمعوه. فالسحر بمنزلة العلل في الأ بدان* وقال الخازن: وأما حكمه فإنه من الكبائر التي نهى عنها، ويحرم تعلُّمه لما روى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [اجتنبوا السبع الْمُوبقات. قيل يا رسول الله، وما هُنَّ؟ قال: الإشراكُ بالله والسحر، وقتلُ النفسِ التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، والزّنا والتَّولي يومَ الزَّحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات] أخرجاه في الصحيحين* فعدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم السِّحر من الكبائر، وثناه بالشرك، وأمرنا باجتنابه* وقوله: [الموبقات] يعنى: المهلكات. والسِّحر على قسمين:

أحدهما: يكفر به صاحبه، وهو أن يعتقد أن القدرة لنفسه في ذلك وهو المؤثر، أو يعتقد أن الكواكب هي المؤثرة الفعَّالة، فإذا انتهى به السِّحر إلى هذه الغاية صار كافراً

بالله تعالى ويجب قتله، لما روى عن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [حدُّ السَّاحِرِ ضَربُهُ بالسَّيف] أخرجه الترمذي.

والقسم الثاني من السحر: وهو التخييل الذي يشاكل اليرنجيات والشعبذة، ولا يعتقد صاحبه لنفسه فيه قدرة، ولا أنَّ الكواب هي المؤثرة، و يعتقد أن القدرة لله تعالى، وأنَّهُ سبحانه هو المؤثر فهذا القدر لا يكفَّرُ به صاحبه، ولكنه معصية وهو من الكبائر ويحرم فعله، فإن قتل بسحره قُتل قصاصاً لما روى عن مالك أنَّه بلغه أن حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قتلت جاريةً لها سحرتها، وقد كانت دبَّرتْها، فأمرت بها فقُتلت. أخرجه في الموطأ* وفي المراغى (جـ ١ ص ١٨٠) وقد روى المؤرخون أن سحرة فرعون استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصى بصور الحيَّات والثَّعابين حتى خُيّلَ إلى الناس أنها تسعى، وقد اعتاد الذين اتخذوه صناعة للمعاش أن يتكلّموا بأسماءٍ غريبة وألفاظ مبهمة، اشتهر بها الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجنّ، ليوهموا أنّ الجنَّ يستجيبُون دعاءهم، و يُسخّرُون لهم، وهذا هو منشأ اعتقاد العامة أن السِّحر عمل يُستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب، ولمثل هذا تأثير في إثارة الوهم، دلَّتْ التجربة على وجوده، وهو يُغنى منتحل السِّحر عن توجيه همّته وتأثير إرادته فيمن يُعمل لَهُ السحر* وقال الغزالى في الإحياء مَا نصه: السحر نوع يستفاد من العلم بخواصّ الجواهر، و بأمور حسابيّة في مطالع النجوم، فيُتَّخذ من تلك الخواص هيكل على صورة الشخص المسحور و يترصَّدُ له وقت مخصوص من المطالع، وتقرن به كلمات يتلفَّظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع. و يتوصل بسببها إلى الإستعانة بالشياطين، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور* وفي تفسير ابن كثير (جـ ١ ص ١٣٦) وقول الحسن البصرى رحمه الله: وكان السّحر قبل زمان سليمان بن داود صحيح لا شكَّ فيه لأن السحرة كانوا في زمان موسى عليه السلام، وسليمان بن داود بعده كما قال تعالى: «**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأ من بَنِى إِسْرائيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى**» الآية، ثم ذكر القصّة بعدها وفيها «**إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ**» أي المسحورين على المشهور* وفي تفسير غرائب القرآن ورغائب العرفان لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسابورى (جـ ١ ص ٣٤٨) الموضوع على هامش تفسير الطبرى قال: ثم السحرُ على أقسام: منها سحر الكلدانيين الذين كانوا في قديم الدهر، وهم قوم يعبدون الكواكب، و يزعمون أنها هي

المدبرة لهذا العالم، ومنها تصدُرُ الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة، و يستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السّماو ية بالقوى الأ رضيّة، وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام مبطلاً لمقالتهم ورداً عليهم مذاهبهم* ومنها سحر أصحاب الأ وهام والنفوس القو ية بدليل أن الجذع الذي يتمكن الإنسان من المشي عليه لو كان موضوعاً على الأ رض لا يمكنه المشي عليه لو كان كالجسر، وما ذلك إلاّ لأنّ تخيُّل السقوط متى قوىَ أوجبه، وقد أجمعت الأطباء على نهى المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر، والمصروع عن النظر إلى الأشياء القو يّة اللمعان، أو الدوران، وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام* وحكى في الشفاء عن أرسطو. أن الدّجاجة إذا تشبّهت كثيراً بالديكة في الصوت وفي الحراب مع الديكة نبت علي ساقها مثل الشيء النّابت على ساق الديك* وهذا يدلُّ على أنَّ الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسانية* وأجمعت الأمم على أن الدعاء مظنّة الإجابة، وأن الدعاء باللسان من غير طلب نفساني قليلُ الأ ثر* يحكى أن بعض الملوك عرض له فالج، فدخل عليه بعض الحذاق من الأطباء على حين غفلة منه، وشافهه بالشّتم والقدح في العرض، فاشتد غضب الملك، وقفز من مرقده قفزة اضطرارية وزالت تلك العلّة المزمنةُ* والاصابةُ بالعين مما اتفق عليه العقلاء. والتّحقيق فيه أنَّ النفسَ إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السموات كانت كأنها روح من الأ رواح السماو يّة، وكانت قو ية التأثير في مواد هذا العالم، أمّا إذا كانت ضعيفة شديدة التّعلّق بهذه اللذات البدنية فحينئذٍ لا يكون لها تصّرف البتّة إلا في هذا البدن، فإذا أراد أن يتعدى تأثيرها إلى بدن آخر اتّخذ تمثال ذلك الغير، ووضعه عند الحسّ، فاشتغل الحسُّ به، وتبعه الخيال عليه، وأقلبت النفس الناطقة بالكلّية على ذلك فقو يت التأثيرات النفسانية والتصرُّفات الروحانية، و يعضدُهُ الانقطاع عن المألوفات والمشتهيات، وتقليل الغذاء والاعتزال عن النّاس، ثم إن كانت النفس مناسبة لهذا الأمر بحسب ما هيتها وخاصّيتها عظم التأثير* وأما الرُّقَىَ فإن كانت بألفاظ معلومةٍ فالأمر فيها ظاهر لأنَّ الغرض منها أن حسَّ البصر كما اشتغل بالأمور المناسبة للغرَض، فحسُّ السّمع أيضاً يشتغل بها، فإنَّ الحواس متى تطابقت متوجهة إلى الغرض الواحد كان توجّه النفس إليه أقوى، وإن كانت بألفاظ غير معلومة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدّهشة، ويحصل لها إذ ذاك انجذاب وانقطاع عن المحسوسات وإقبال على ذلك الفعل

فيقوى التأثير النفساني فيحصل الغرض. وهكذا القول في الدخن. قالوا: فثبت أن هذا القدر من القوّة النفسانيّة مستقل بالتأثير، فإن انضم إليه الاستعانة بالقسم الأول. وهو تأثيرات الكواكب قوى الأثر جدًّا لا سيما إن حصل لهذه النفس مدد من النفوس المفارقة المشابهة لها، أو من الأنوار الفائضة من النفوس الفلكية* ومنها سحر من يستعين بالأرواح الأرضية وهو المسمَّى بالعزائم وتسخير الجنّ، ومنها التخييلات الآخذه بالعيون وتسمَّى الشعوذة، وذلك أنَّ أغلاط البصر كثيرة فإن راكب السفينة إذا نظر إلى الشط رأى السفينة واقفة، والشطَّ متحركاً، والقطرة النازلة ترى خطاً مستقيماً، والعنبة ترى في الماء كالزجاجة، و يرى العظيم من البعيد صغيراً، وقد لا تقف القوة الباصرة على المحسوس وقوفاً تاماً إذا أدركت المحسوس في زمان صغير جداً، فيخلط البعض بالبعض، ولا يتميّز، فإنَّ الرحى إذا أخرجت من مركزها إلى محيطها خطوطاً كثيرة بألوان مختلفة، ثُمَّ أديرت فإن البصر يرى لوناً واحداً كأنَّه مركب من كل تلك الألوان* وأيضاً النفس إذا كانت مشغولة بشيء فربما حضر عند الحسّ شيء آخر، فلا يشعرُ الحسُّ به البتة، كما أن الإنسان عند دخوله على السلطان قد يلقاه إنسان و يتكلم معه فلا يعرفه، ولا يفهم كلامه لما أن قلبه مشغول بشيء آخر، وكذا الناظر في المرآة ربما قصد أن يرى سطح المرآة، هل هو مستوٍ أم لا، فلا يرى شيئاً مما في المرآة، فالمشعوذ الحاذق يُظهر عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به، و يأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استقربهم الشغل بذلك الشيء والتحديق نحوه عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة، فيبقى ذلك العمل خفياً لتعاون الشيْئين اشتغالهم بالأول، وسرعة إتيانه بالثاني* ومنْها الأعمال العجيبة التي تظهر من الآلات المركبة على النّسب الهندسية، أو لضروب الخيلاء كفارسين يقتتلان، فَيقتل أحدهما الآخر* ومنه الصُّور التي يُصورها الروم والهند، حتى لا يفرق النَّاظر بينها و بين الإنسان، وقد يُصورنها ضاحكة أو باكية، وقد يُفرق بين ضحك السرور وضحك الخجل، ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات، وعلم جرّ الأثقال، وهذا لا يعد من السحر عرفاً لأن لها أسباباً معلومة يقينية* ومنها الاستعانة بخواص الأدو ية والأحجار* ومنها تعليق القلب وهو أن يدعى الساحر أنَّه قد عرف الاسم الأعظم، وأنَّ الجنَّ ينقادون له في أكثر الأمور، فإذا اتفق أن كان السامع ضعيف القلب قليل التميز اعتقد أنَّه حقٌ وتعلّق قلبه بذلك، وحصل في قلبه نوع من الرعب، وحينئذٍ تضعف القوى الحسّاسة، فيتمكن الساحر من أن يفعل فيه ما شاء، وإن

من جــرّب الأمـور وعـرف أحـوال النّـاس عـلـم أن لتعليق القلب أثراً عظيماً في تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار، ومنها السعى بالنّميمة والتضريب من وجه خفيّة لطيفة، وذلك شـائع في النّاس فهذه جملة الكلام في أقسام السحر، وعند المسلمين كلها مستندة إلى قدرة الله تـعـالى، فـإنه لا يمتنع وقوع هذه الخوارق بإجراء العادة عند سحر السحرة، واتّفقوا على أن العـلم به ليس بقبيح ولا محظور لأنَّ العلم لذاته شريف ولعموم قوله تعالى: «**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّـذِينَ يَعْلَمُونَ والَّـذِينَ لا يعْلَمُونَ**» ولأن الفرق بينه و بين المعجزة يمكن به، إلاَّ أنَّ اجـتـنـابه أقرب إلى السَّلامة، واتفقت المعتزلة على تكفير من يجوِّز ذلك، قالوا: لأنه مع هذا الاعتقاد لا يمكنه أن يعرف الأنبياء والرسل، وزُيِّف بأنَّ الانسان لو ادعى النبوّة وكـان كـاذبـاً في دعـواه فـإنـه لا يجـوز مـن الله تـعـالى اظهار الخوارق على يده لئلا يحصل التَّـلـبيس، أمَّا إذا لم يدع النبوّة فظهرت الخوارق على يده لم يفض ذلك إلى التّلبيس، فإن المحق يـتـميز عـن المـبـطل بما أنَّ المحق تحصل له هذه الأشياء مع ادعاء النبوة، والمبطل لا تحـصل له هذه الأشياء مع ادعاء النبوة، وإن حصلت لم يتم، فصولة الباطل كنار العرفج، وعن أبي حنيفة أنَّه قال: يقتل الساحر إذا علم أنَّه ساحر ولا يستتاب، ولا يقبل قوله: إني أتـرك الـسـحـر، وأتـوب منه، فإذا أقرَّ أنه ساحر فقد حلَّ دمه، وإن شهد شاهدان على أنَّه سـاحر، أو وصفوه بصفة يعلم أنَّه ساحر قُتل، ولا يستتاب، وإن أقرَّ بأني كنت أسحر مرَّة وقـد تـركـت ذلك منذ زمان قبل منه ولم يقتل، قوله تعالى: «**وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ**» قـال الخـازن: (جـ١ ص٦٨) أي و يـعلمون الذي أنزل على الملكين، والإنزال هنا بمعنى الإلهـام والـتـعليم، أي مـا أُلهما وعُـلِّـمَا، وقرىء في الشَّاذ المِلكيْن بكسر اللام. قال: هما رجـلان سـاحـران كـانـا بـبـابـل، وقـيـل عـلـجـان. ووجـهـه أن المـلائـكـة لا يعلمون السحر، والقراءة المشهورة بفتح اللام، فإن قُلتَ كيف يجوز أن يضاف إلى الله تـعـالى إنـزال ذلـك على المـلائـكـة، وكيف يجوز للملائكة تعليم السحر؟ قال ابن جرير الـطـبـرى: إنَّ الله تـعـالى عـرَّف عباده جميع ما أمرهم به، وجميع ما نهاهم عنه، ثم أمرهم ونـهـاهـم بـعد العلم منهم بما يؤمرون به، و ينهون عنه، ولو كان الأمر على غير ذلك لما كان للأمر والنهى معنًى مفهوم، والسحر مما نهى عباده من بنى آدم عنه، فغير منكر أن يكون الله تـعـالى عـلَّـمَـهُ المـلكين اللذين سمَّاهما في تنزيله وجعلهما فتنة لعباده من بنى آدم كما أخبر عنهما أنهما يقولان لمن جاء يتعلَّمُ ذلك منهما: إنما نحن فتنةٌ فلا تكفر، ليختبر بهما عبادَهُ الذين نهاهـم عـن الـسحر وعن التفريق بين المرء وزوجه، فيتمحض المؤمن بتركه التعليم منهما،

ويجرى للكافر بتعلمه الكفر والسحر منها، و يكون الملكان في تعليمهما ما علما من ذلك مطيعين لله تعالى. إذ كان عن إذن الله تعالى لهما بتعليم ذلك، وغير ضارهما سحر من سحر ممن تعلم ذلك منها بعد نهيها إياهُ عنه بقولهما «**إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ**» إذا كانا قد أديا ما أُمرا به* وقال غيره: إنها لا يتعمَّدان ذلك بل يصفان السحرة و يذكران بطلانه. و يأمران باجتنابه، فالشقيُّ من ترك نصحها وتعلم السحر من وصفها، والسعيد من قبل نصحها، وترك تعلم السحر منها* وقيل إن الله تعالى امتحن الناس بها في ذلك الزمان، فالشقيُّ من تعلم السحر منها، فيكفر به، والسعيد من تركه فيبقى على إيمانه، ولله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء، كما امتحن بني إسرائيل بنهر طالوت بقوله: «**فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فإِنَّهُ مِنِّي**» وقوله: «**يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**» الناس مفعول أول والسحر مفعول ثان. واختلفوا في هذه الجملة على خمسة أقوال:

أحدها : أنها حال من فاعل كفروا، أي كفروا معلمين.

الثاني : أنها حال من الشياطين. وردَّه أبو البقاء، بأن لكنَّ لا تعمل في الحال، وليس بشيء. فإن لكنَّ فيها رائحة الفعل.

الثالث : أنها في محل رفع على أنها خبر ثانٍ للشياطين.

الرابع : أنها بدل من كفروا، أبدل الفعل من الفعل.

الخامس : أنها استئنافيةٌ أخبر عنهم بذلك، هذا إذا أعدنا الضمير من يعلمون على الشياطين. أما إذا أعدناهُ على الذين اتبعوا ما تتلوا الشياطين فتكون حالاً من فاعل اتبعوا، أو استئنافية فقط.

قوله: «**بِبَابِلَ**» قيل: هي بابل العراق بأرض الكوفة، سميت بذلك لتبلبل الألسنة بها عند سقوط صرح نمرود* وقيل: إنها بابل نهاوند. والأول أصح وأشهر* و بابل متعلق بأنزل، والباء بمعنى في أي في بابل ويجوز أن تكون في محل نصف على الحال من الملكين، أو من الضمير في «**أُنْزِلَ**» فيتعلّق بمحذوف ذكر هذين الوجهين أبو البقاء* و بابل لا ينصرف للعجمة والعلميّة، فإنها اسم أرض، وإن شئتَ قلت للتأنيث والعلمية* قوله: «**هَارُوتَ ومَارُوتَ**» اسمان سريانيان.

قصّة الآية على ما ذكر ابن عباس وغيره، قالوا: إنَّ الملائكة لما رأوْا ما يصعد إلى السماء من أعمال بنى آدم الخبيثة في زمن إدريس عليه السلام عيَّروهم، وقالوا: هؤلاء

الذين جعلتهم في الأرض، واخترتهم وهم يعصونك، فقال الله تعالى: لَوْ أنزلتكم إلى الأرض وركّبْتُ فيكم ما ركبتُ فيهم لركبتُم مثل ما ركبُوا. قالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك، قال الله تعالى: فاختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض، فأختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة، وأعبدهم، وكان اسم هاروت عزا، وماروت عزايا فَغُيِّر اسمهما لمَّا قارفا الذنب، ورَكَّب الله فيهما الشهوة وأهبطهما إلى الأرض، وأمرهما أن يحكما بين الناس بالحق، ونهاهما عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر فكانا يقضيان بين النَّاس يومهما فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء فما مرَّ عليهما شهر حتَّى افتتنا، وقيل: بل افتتنا في أول يوم، وذلك أنَّه اختصم إليهما امرأة يقال لها الزُّهرة، وكانت من أجمل أهل فارس، وقيل: كانت ملكة، فلمَّا رأياها أخذت بقلوبهما، فقال أحدهما لصاحبه، هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي؟ قال: نعم، فراوداها عن نفسها، فأبت وانصرفت، ثم عادت في اليوم الثاني ففعلا مثل ذلك فأبت وقالت: لا، إلا أن تعبدا هذا الصَّنم وتقتلا النَّفس وتشربا الخمر، فقالا: لا سبيل إلى هذه الأشياء، فإن الله تعالى قد نهانا عنها، فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح خمر، وفي أنفسهما من الميل إليها ما فيها، فراوداها عن نفسها، فعرضت عليهما ما قالت بالأمس. فقالا: الصَّلاةُ لغير الله عظيم، وقتل النَّفس عظيم، وأهون الثلاث شرب الخمر فشربا، فلمَّا انتشيا وقعا بالمرأة فزنيا بها فرآهما إنسان فقتلاهُ خوف الفضيحة٭ وقيل إنهما سجدا للصنم، وقيل: جاءتْهما امرأة من أحسن الناس تخاصم زوجها، فقال أحدهما للآخر: هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي؟ قال: نعم، قال: هل لك أن تقضي على زوجها؟ فقال له صاحبُه: أما تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب؟ فقال له صاحبه: أما تعلم ما عند الله من العفو والرحمة فسألاها نفسها فقالت: لا، إلا أن تقضيا لى على زوجى، فقضيا، ثم سألاها نفسها، فقالت: لا، إلا أن تقتلاهُ، فقال أحدهما لصاحبه: أما تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب؟ فقال له صاحبه: أما تعلم ما عند الله من العفو والرحمة. فقتلاه، ثم سألاها نفسها. فقالت: لا، إلا أن لى صنماً أعبده. إن أنتُما صلَّيتما معى عنده فعلتُ، فقال أحدهما لصاحبه: مثل القول الأول فردّ عليه مثله. فصليا معها عنده فسخت شهاباً٭ والحق أنه لا تعويل على مثل هذه الروايات لما أن مدارها على روايات اليهود مع ما فيها من المخالفة لأدلة العقل

والنقل (من أبي السعود والخازن جـ ١ ص ٦٩)* وفيه روايات أخرى أضربتُ عن ذكرها للعلة التي ذكرت* وقد قام إجماع المسلمين على أنَّ الملائكة معصومون، فضلاء أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون ولا يتناسلون ... وأن حكم الرسل من الملائكة حكم النبيّين في العصمة في باب البلاغ عن الله عز وجل، وفي كل شيء ثبتت فيه عصمة الأنبياء فكذلك الملائكة، وأنهم مع الأنبياء في التّبليغ إليهم كالأنبياء مع أممهم، وقد كان أشدُّ الناس افتراء على الملائكة والأنبياء بنى اسرائيل، وقد ذكر الله عز وجل في هذه الآيات افتراء اليهود على سليمان أولاً، ثم عطف على ذلك قصة هاروت وماروت ثانياً. لأن معنى الآية، وما كفر سليمان، يعنى بالسحر الذي افتعله عليه الشياطين، واتّبعتهم في ذلك اليهود، فأخبرعن افترائهم وكذبهم* وقد ذكر المعتزلة وغيرهم في إبطال هذه القصة وجوهاً :

الوجه الأول : أنَّ في القصة أن الله تعالى، قال للملائكة: لو ابتليتم بما ابتليتُ به بنوا آدم لعصيتمونى، قالوا: سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نعصيك. وفيه ردٌّ على الله تعالى، وذلك كفر، وقد ثبت أنهم كانوا معصومين قبل ذلك فلا يقع هذا منهم.

الوجه الثاني : أنهما خُيّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وذلك فاسد لأن الله تعالى لا يُخيِّر من أشرك، وإن كان قد صحت توبتها فلا عقوبة عليهما.

الوجه الثالث : أن المرأة لما فجرت فكيف يعقل أنها صعدت إلى السماء وصارت كوكباً، وعظّمَ الله قدرها بحيث أقسم بها في قوله: «**فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّس الْجَوارِي الْكُنَّس**».

فبان بهذه الوجوه ركة هذه القصة. لذا قال أبوالسعود: لما أنَّ مداره رواية اليهود يقضى أن هذه القصة غير صحيحة، وأنها لم تثبت بنقل معتبر، وتبع في ذلك البيضاوى، التابع في ذلك للفخر الرازى، والسعد التفتازاني وغيرهما ممن أطال في ردّها* «**وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ**» يعنى وما يعلمان أحداً حتى ينصحاهُ أولاً و يقولا «**إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ**» أي ابتلاء ومحنة* قوله: «**وَمَا يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ**» هذه الجملة عطف على ما قبلها، والضمير في يعلمان فيه قولان: أحدهما: أنَّه يعود على هاروت وماروت. والثاني: أنَّه عائد على الملكين. و يؤيده قراءة أُبَىٍّ بإظهار الفاعل وما يعلم الملكان. والأول هو الأصح، وذلك أن الاعتماد إنما هوعلى البدل دون المبدل منه، فإنَّه في حكم الطرح،

قـراعـاته أولى و(أحد) هنا الظاهر أنَّه الملازم للنفي، وأنَّه الذي همزته أصل بنفسها، وأجاز أبـو الـبـقـاء أنَّ يـكـون بمعنى واحد فتكون همزتُه بدلاً من واو. «**فَلاَ تَكْفُرْ**» أي لا تتعلم الـسـحر، فتعمل به فتكفر، قيل: يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرات، فإن أبى قبول نُـصـحـهما وصـمَّمَ على التّعليم يقولان له: ائت هذا الرماد فبل عليه، فإذا فعل ذلك خرج مـنـه نـورٌ سـاطـع في السماء، فذلك الإيمان والمعرفة، و ينزل شيء أسود مثل الدخان حتى يـدخـل مـسـامـعـه وذلـك غـضـب الله تعالى ـــ والعياذ بالله* الفتنة: الاختبار والإمتحان وافـرادهـا مع تعدُّدهما لكونها مصدراً وحملها عليها حمل مواطأة للمبالغة كأنها نفس الفتنة، والقصر لبيان أنها ليس لهما فيما يتعاطيانه شأن سواهما لينصرف النَّاسُ عن تعلُّمه، أي وما يـعـلـمان ما أنزل عليهما من السّحر أحداً من طالبيه حتى ينصحاه قبل التعليم، و يقولا له: إنَّما نحـن فـتـنـة وابتلاء من الله عز وجلّ، فمن عمل بما تعلَّم منا واعتقد حقيقته كفر، ومن تـوقّـى عـن العمل به، أو اتَّخذه ذريعة للاتقاء عن الاغترار بمثله بقي على الإيمان فلا تكفر باعتقاد حقيقته وجواز العمل به* «**فيتعَلَّمُونَ مِنْهُـمَا**» يعنى من الملكين «**مَا يُفـرِّقُونَ بِـهِ بيْنَ الْمَـرْءِ وَزَوْجِهِ**» أي علم السِّحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين كالتمو يه والـتـخـيـل والـنّـفـث في العقد، ونحو ذلك مما يحدث عند البغضاء والنُّشوز، والخلاف بين الـزوجين ابـتـلاءً مـن الله تـعـالى لا أنَّ الـسـحـر لـه تأثير في نفسه بدليل «**وما هُمْ**» يعنى الـسـحـرة «**بِضَارِّينَ بِهِ**» أي بالسحر «**مِنْ أَحَدٍ**» أي أحداً «**إلاَّ بإِذْنِ الله**» أي بعلمه وقـضـائـه وتـكـو ينه، فالساحر يسحر، والله تعالى يقدر، و يكون ذلك بقضائه تعالى وقدرته ومـشيئته «**و يتعلَّمونَ ما يَضُـرُّهُمْ ولا ينْفَعُهُمْ**» يعنى السحر لأنهم يقصدون به الشَّرَّ، أي لأنـهـم يـقـصـدون بـه الـعـمـل، أو لأنَّ العلم يجر إلى العمل غالباً* وقوله: «**ولا يَنْفَعُهُمْ**» صـرَّح بذلك إيذاناً بأنَّه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضرر، بل هو شرٌّ محض لأنهم لا يـقـصـدون به التخلص عن الاغترار بفعل من يدعى النبوة من السحرة، أو تخليص الناس مـنـه حتى يـكـون فـيـه نـفـع في الجملة وفيه أن الاجتناب عمَّا لا تُؤمن غوائله خير كتعلُّم الـفـلـسـفـة التي لا يـؤمـن أن تجـرَّ إلى الـغـوايـة* «**وَلَقَدْ عَلِمُوا**» راجع في المعنى لقوله: «**واتَّـبـعُـوا..**» فـهـو معطوف عليه، والضمير في علموا فيه خمسة أقوال: أحدها: أنَّه ضمير اليهود الـذيـن في عـهـد النبي صلى الله عليه وسلم. والثاني: أنه ضمير اليهود الذين في عهد سـلـيـمـان عـلـيـه الـسـلام. الـثـالـث: أنَّه ضمير جميع اليهود. الرابع: أنَّه ضمير الشياطين.

الخامس: أنّه ضمير الملكين عند من يرى أن الا ثنين جمع. «**لَمَنِ اشْتَرَاهُ**» أي اختار السحر، أو دفع مالاً للسحرة ليسحروا له فهو بمثابة الشراء «**مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**» يعني ما له نصيب في الجنة، ومن موصولة في محل رفع بالابتداء، واشتراه صلتها، وقوله ما له في الآخرة من خلاقٍ، جملة من مبتدأ وخبر، ومن مزيدة في المبتدأ، وفي الآخرة متعلق بمحذوف وقع حالاً منه، ولو أُخّرَ عنه لكان صفة له، والتقدير ما له خلاق في الآخرة، وهذه الجملة في محل الرفع على أنها خبر للموصول، والجملة في حيز النصب سادةَ مسدَّ مفعولى علموا إن جعل متعدياً إلى اثنين، أو مفعول له الواحد إن جعل متعدّياً للواحد «**وَلَبِئْسَ مَا شَرَوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ**» أي باعوا حظ أنفسهم حيث اختاروا السحر والكفر على الدين والحق، اللاّم جواب قسم محذوف، والمخصوص بالذّم محذوف أي و بالله لبئس ما باعوا به أنفسهم السحر، أو الكفر، وفيه إيذان بأنهم حيث نبذُوا كتاب الله وراء ظهورهم فقد عــرَّضوا أنفسهم للهلاك و باعوها بما لا يزيدهم إلا تباراً. «**لَوْ كَانُوا يعْلَمُون**» فإن قلت كيف أثبت لهم العلم أولا في قوله: «**ولَقَدْ عَلِمُوا**» على التوكيد القسمى، ثم نفاهُ عنهم آخراً في قوله: «**لَوْ كَانُوا يعْلَمُونَ**» قال الخازن: قد علموا أنَّ من اشترى السحر ما له في الآخرة من خلاق، ثم مع هذا العلم خالفوا واشتغلوا بالسحر، وتركوا العمل بكتاب الله تعالى. وما جاءت به الرسل عناداً منهم و بغياً، وذلك على معرفة منهم بما لمن فعل ذلك منهم من العقاب، فكأنهم حين لم يعلموا بعلمهم كانُوا منسلخين منه. «**وَلَوْ أَنَّهُمْ**» يعنى اليهود «**آمَنُوا**» بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن «**واتَّقُوا**» يعنى اليهودية والسحر وما يؤثمهم «**لَمثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ**» أي لكان ثواب الله إياهم «**خيْرٌ**» لهم يعنى هذا الثواب «**لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**» أنّه خير لما آثروا السحر على الثواب.

القــول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وقُولُوا انْظُرْنَا واسْمَعُوا ولِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ» سورة البقرة (آية: ١٠٤)

ذكر الواحدى في أسباب النزول: (ص ٢١) قال ابن عباس في رواية عطاء: وذلك أنَّ العرب كانو يتكلمون بها ــ أي رَاعِنَا ــ فلمَّا سمعتهم اليهود يقولونها للنبي صلى الله عليه وسلم أعجبهم ذلك، وكان (رَاعِنَا) في كلام اليهود سبّاً قبيحاً، فقالوا: إنَّا كنا نسب

محمداً سراً، فالآن أعلنوا السبَّ لمحمد فإنه من كلامه، فكانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون: يامحمد راعنا و يضحكون، ففطن بها رجلٌ من الأنصار، وهو سعد بن عبادة، وكان عارفاً بلغة اليهود، وقال: يا أعداء الله! عليكم لعنة الله، والذي نفس محمد بيده لئن سمعتُها من رجُل منكم لأضربنَّ عنقه، فقالوا: ألستُمْ تقولونها؟ فأنزل الله تعالى: «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا...**» الآية وكذلك في تفسير الخطيب الشربيني* وفي ابن كثير (جـ ١ ص ١٤٨) قال الضحاك عن ابن عباس: «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا...**» قال كانو يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم أرْعِنَا سمعك* وإنَّما راعِنا كقولك عاطنا* وعن قتادة نحو ذلك، وقال مجاهد: «**لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا...**» لا تقولوا خلافاً* وفي رواية: لا تقولوا اسمع منا ونسمع منك* وقال عطاء: لا تقولوا (راعنا) كانت لغة تقولها الأنصار فنهى الله عنها* وقال الحسن: (لا تَقُولُوا راعِنَا) قال: الراعن من القول السخرى منه نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد صلى الله عليه وسلم، وما يدْعوهم إليه من الإسلام* وكذا روى عن ابن جريج أنَّه قال مثله. وقال أبوصخر «**لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وقُولُوا انْظُرْنَا**» قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين فيقول أرعنا سمعك، فأعظم الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقال ذلك له* وقال السدى: كان رجل من اليهود من بنى قينقاع يدعى رفاعة بن زيد يأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فإذا لقيه فكلمه قال: ارْعِني سمعك، واسْمَع غير مُسمَعٍ، وكان المسلمون يحسبون أنَّ الأنبياء كانت تفخم بهذا فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع غير صاغر — وهى كالتى في سورة النساء — فتقدم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا راعِنا* قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندنا أنَّ الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وسلم راعنا. لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولها لنبيه صلى الله عليه وسلم، نظير الذي ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: [لا تقولوا للعنب الكرم، ولكن قولوا الحبلة، ولا تقولوا عبدى، ولكن قولوا فتاى]* وفي تفسير الزمخشرى (جـ ١ ص ٣٠٢) كان المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله: أي راقبنا وانتظرنا وتأنَّ بنا حتى نفهمه ونحفظه، وكانت لليهود كِلمة يتسابون بها عبرانية، أو سريانية، وهي راعنا، فلما سمعوا بقول المؤمنين راعنا افترصوه وخاطبوا به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم يعنون بها تلك

المسبّة، فنهى المؤمنون عنها وأمروا بما هو في معناه وهو (انظرنا) من نظره إذا إنتظره... وقرأ عبدالله بن مسعود راعونا على أنهم كانو يخاطبونه بلفظ الجمع للتوقير. وقرأ الحسن: رَاعِناً، بالتنوين من الرعن وهو الهوج: أي لا تقولوا قولاً راعناً منسوباً إلى الرعن بمعنى رعنيّاً.

والمعنى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وقُولُوا انْظُرْنَا واسْمَعُوا» نهى سبحانه الصحابة عن كلمة، كانت تدور على ألسنتهم حين خاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم وهي كلمة (راعنا) ومعناها راعنا سمعك: أي اسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه ونراجعك القول لنفهمه عنك، وانظرنا: أى راقبنا، وانتظر ما يكون من شأننا في حفظ ما تُلقيه علينا وفهمه، وسبب نهيهم عنها أنَّ اليهود لما سمعوها افترصوها وصاروا يخاطبون بها النبي صلى الله عليه وسلم لاوين بها ألسنتهم لموافقة جرْيها العربى لكلمة (راعينُو) العبرية التي معناها (شرير) فأرشد الله نبيه الكريم لذلك، وأمر أصحابه أن يقولوا (انظرنا) وهي خير منها وأخف لفظاً، وتفيد معنى الإنظار والإمهال كما تفيد معنى المراقبة التي تُستفاد من النظر بالعين، إذ تقول: نظرت الشيء ونظرت إليه إذا وجهت إليه بصرك ورأيته (المراغى جـ ١ ص ١٨٤)* «ولِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي لليهود الذين توسلوا بقولكم المذكور إلى كفرياتهم، وجعلوه سبباً للتهاون برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كفر لا شك فيه لأن من يصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنَّه شرير، فقد أنكر نبوَّته، وأنَّه موحى إليه من قبل ربه، ومتى فعل ذلك فقد كفر واستحق العذاب المؤلم* وفي الطبرى غير ما ذكر (جـ ١ ص ٣٧٤) قال ابن زيد في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وقُولُوا انْظُرْنَا» قال: راعنا القول الذي قاله القوم. قالوا: سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعناً في الدين، قال: قال هذا الراعن، والراعنُ الخطَّاءُ، قال: فقال للمؤمنين: لا تقولوا خطاءً كما قال القوم، وقولوا انظرنا واسمعوا، قال: كانوا ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم و يكلمونه، و يسمع منهم و يسألونه ويجيبهم* وفي الخازن (جـ ١ ص ٧١) في قوله: «واسْمَعُوا» أي ما تؤمرون به وأطيعوا، نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يقولوا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم راعنا لئلا يتطرق أحد إلى شتمه، وأمرهم بتوقيره وتعظيمه، وأن يتخيَّروا لخطابه صلى الله عليه وسلم من الألفاظ أحسنها، ومن المعانى أدقها، وإن سألوه يسألوه بتبجيل وتعظيم ولين، ولا يخاطبوه بما يسرُّ اليهود* إن هذا التأديب ليس خاصاً بمن كان في عصره من المؤمنين بل يعمُّ ما جاء بعدهم أيضاً إلى

يوم الدين. فهذا كتاب الله الذي كان يتلوه عليهم، وكان يجب عليهم الاستماع له والانصات لتدبره ــ هو الذي يتلى علينا بعينه لم يذهب منه شيء، وهو كلام الله الذي به كانَ الرسول رسولاً تجب طاعته والاهتداء بهديه ــ فما هذا الأدب الذي يقابله به الأكثرون؟ إنهم يلغطون في مجلس القرآن، فلا يستمعون ولا ينصتُون، ومن أنْصت واستمع فإنما ينصُتُ طرباً بالصوت واستلذاذاً بتوقيع نغمات القارىء، وإنهم ليقولون في استحسان ذلك واستجادته ما يقولون في مجلس الغناء، ويهتزون للتلاوة و يصوّتون بأصواتٍ مخصوصة، كما يفعلون عند سماع الغناء بلا فرق، ولا يلتفتون إلى شيء من معانيه، إلا ما يرونه مدْعاةً لسرورهم من مثل قصة يوسف عليه السلام مع الغفلة عمّا فيها من العبرة، وإعلاء شأن الفضيلة. ولا سيا العفة والأمانة، أليس هذا أقرب إلى الاستهانة بالقرآن منه بالأدب اللائق الذي ترشد إليه هذه الآية الكريمة وأمثالها؟ «**أفَلَمْ يَدَّبَرُوا الْقَوْلَ أمْ جاءَهُمْ مَالَمْ يأتِ آباءَهُمُ الأوَّلينَ * أمْ لَمْ يَعْرِفُوا رسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ**» كذا قاله الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسير المراغى (جـ ١ ص ١٨٥).

القــول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كفَرُوا مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكينَ أنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خيْرٍ مِنْ ربِّكُمْ والله يخْتصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ والله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» سورة البقرة (آية: ١٠٥)

جــاء في أسباب النزول للواحدى (ص ٢١): قال المفسرون ــ في سبب نزول هذه الآية ــ إنَّ المسلمين كانوا إذا قالوا لحلفائهم من اليهود: آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، قالوا: هذا الذي تدعوننا إليه ليس بخير مما نحن عليه، ولوددنا لو كان خيراً. فأنزل الله تعالى تكذيباً لهم «**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كفَرُوا مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ...**» الآية. قال أبوجعفر الطبرى في تفسيره (جـ ١ ص ٣٧٧): فتأو يل الكلام، ما يُحِبُّ الكافرون من أهل الكتاب أن لا ينزّل الله عليهم الفرقان. وما أوحاهُ إلى محمد صلى الله عليه وسلم من حكمه وآياته، وإنما أحبت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك حسداً و بغياً منهم على المؤمنين، قال: وفي هذه الآية دلالة بيّنة على أن الله تبارك وتعالى نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين والاستماع من قولهم، وقبول شيء ممّا يأتُونهم به على وجه النصيحة لهم منهم باطلاعه جل ثناؤه إيّاهم على ما يستبطنُه لهم أهل الكتاب

والمشركين من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مُسْتَبطنون» «**مَا يَوَدُّ**» أي ما يحب «**الَّذِينَ كفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**» يعنى اليهود «**وَلاَ الْمُشْرِكِينَ**» يعنى عبدة الأوثان لأن الكفر اسم جنس تحته نوعان: أهل كتاب، وهم الذين بدّلوا كتابهم وكذّبُوا الرسل. وعبدة الأوثان، وهم من عبدوا غير الله «**أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خيْـرٍ مِنْ رَبِّكُـمْ**» يعني ما أنزل الله عزّ وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم من الوحى والنبوّة «**أَنْ يُنَزِّلَ**» ناصب ومنصوب في تأو يل مصدر مفعول بيود. أي ما يودُّون إنزال خير، و بنى الفعل للمفعول للعلم بالفاعل وللتصريح به في قوله «**مِنْ رَبِّكُمْ**» وأتى بما في النفى دون غيرها لأنها لنفى الحال، وهُمْ كانوا متلبّسين بذلك. وقوله «**مِنْ خيْـرٍ**» وحى، وهو القائم مقام الفاعل. ومن زائدة أي أن ينزّل خيـرٌ من ربكم، وحسن زيادتها هنا، وإن كان ينزل لم يباشره حرف النفى انسحاب النفى عليه من حيث المعنى لأنه إذا نفيت الودادة انتفى متعلقها، وهذا له نظائر في كلامهم نحو. ما أظنُّ أحداً يقول ذلك إلا زيدٌ. برفع زيد بدل من فاعل يقـول. وإن لم يباشر النفى لكنّهُ في قوة ما يقول أحدٌ ذلك إلا زيد. وهذا على رأى سيبو يه وأتباعه، وأمّا الكوفيُّون والأخفش فلا يحتاجون إلى شيء من هذا. وقوله: «**والله يختصُّ**» يستعمل متعدّياً ولازماً، فعلى الأول: فاعله ضمير مستتر فيه، والموصول بصلته في محل النصب على المفعولية. والمعنى والله يخصُّ...الخ. وعلى الثاني: الفاعل هو الموصُول بصلته. والمعنى: يتميزُ برحمته من يشاءُ الله تمييزه، أي يختص بنبوته ورسالته من يشاء من عباده، و يتفضل بالإيمان والهداية على من أحبَّ من خلقه رحمة منه لهم. «**والله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**» يعنى أن كل خير ناله عباده في دينهم ودنياهم فإنه منه ابتداءً وتفضلاً عليهم من غير استحقاق أحد منهم لذلك بل له الفضل والمنّة على خلقه، (الخازن جـ١ ص ٧١). وقال ابن كثير (جـ١ ص ١٤٩): يبين بذلك تعالى شدّة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذّر الله تعالى من بهتم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم و بينهم، ونبّه تعالى على ما أنعم الله به على المؤمنين من الشرع التّام الكامل الذي شرعه لنبيّهم محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول تعالى: «**والله يختصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ والله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**» ولذا وجب على المؤمنين أن يشكروا الله تعالى على ما تفضّل به عليهم من البعثة المحمدية والرسالة الإسلامية، وهدايتهم إلى الايمان به والعمل بشريعته فضلاً من الله ونعمة.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«مَـا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أونُنْسِهَا نَأتِ بِخَيْـرٍ مِنها أوْمِثْلِهَا ألَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ»

جــاء في أسباب النزول للواحدى (ص ٢١) قال المفسرون: إن المشركين قالوا: أترون محمداً يأمُر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه، و يأمرهم بخلافه، و يقول اليوم قولاً و يرجع عنه غداً، ما هذا في القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً فأنزل الله: «**وَإذَا بَدَّلْنَا آيةً مَكَانَ آيه..**» الآية، وأنزل إيضاحاً «**مَـا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أونُنْسِهَا نَأتِ بِخَيْـرٍ مِنْها...**» الآية* وفي الخازن (جـ ١ ص ٧١) نفس الرواية زاد بعد ما يقوله إلا من تلقاء نفسه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: «**وإذَا بدَّلْنَا آيةً مَكانَ آيةٍ واللهُ أعْلَمُ بما يُنَزِّلُ قَالُوا إنَّمَا أنْتَ مُفْتَرٍ**» فأنزل «**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ..**» فبين بهذه الآية وجه الحكمة في النسخ، وأنَّه من عنده لا من عند محمد صلى الله عليه وسلم* قال البهنسى: لمَّا حرَّم الله سبحانه وتعالى قولهم راعنا بعد حِلِّه وكان ذلك من باب النسخ، قال: ما ننسخ بغير عطف لشدَّة ارتباطه بما قبله* وفي أبى السعود ما نصَّه: وهذا كلام مستأنف مسوق لبيان سرِّ النسخ الذي هو فردٌ من أفراد تنزيل الوحى. وإبطال مقالة الطاعنين فيه إثر تحقيق حقيقة الوحى. وردّ كلام الكارهين له. وقُرىء ما نَنْسَخ من آية. وما نُنْسِخْ: بضم النون من أنسخ أو ننسها، وقرىء نَنْسِها ونُنَسِّها بالتشديد، وتنسها على خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرأ عبدالله: ما نُنْسِكْ من آية أو نَنْسَخها* وقرأ حذيفة ما ننسخ من آية أو نُنْسِكها. ونسخ الآية إزالتها بإبدال أخرى مكانها، وإنساخها الأمر بنسخها، وهو أن يأمر جبريل عليه السلام بأن يجعلها منسوخة بالإعلام بنسخها. ونَسْؤُها تأخيرها وإذهابها لا إلى بدل. وإنساؤها أن يذهب بحفظها عن القلوب. والمعنى: أن كل آية يُذهب بها على ما توجبه المصلحة من إزالة لفظها وحكمها معاً، أو من إزالة أحدهما إلى بدل أوغير بدل* جاء في تفسير الطبرى (جـ ١ ص ٣٧٩) عن قتادة قوله «**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أونُنْسِهَا نَأتِ بِخَيْـرٍ مِنْها أوْمِثْلِهَا**» كان ينسخ الآية بالآية بعدها، و يقرأ نبي الله صلى الله عليه وسلم الآية أو أكثر من ذلك، ثم تنسى وترفع* وعنه قال: كان الله تعالى ذكره يُنسى نبيَّه صلى الله عليه وسلم ما شاء و ينسخ ما شاء. وعن مجاهد قال: كان عبيد بن عمير يقول: ننسها نرفعها من عندكم*

وعن الحسن قال في قوله تعالى: «أو نُنْسِهَا» قال: إن نبيكم صلى الله عليه وسلم أقرىء قرآناً نسيه، وكذلك كان سعد بن أبي وقَّاص يتأوّل الآية إلا أنّه كان يقرؤها أو نُنسها بمعنى الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنَّه عنى أو تنسها أنت يا محمد* ولكن قوله جل شأنه: «ولئن شِئنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إلَيْكَ» ما ينبيء عن أن الله تعالى ذكره لم يُنْسِ نبيَّه شيئاً ما آتاهُ من العلم، ومال الطبرى إلى الأول وقال وأما قوله: «وَلَئِنْ شئنَا لَنَذْهَبَنَّ بالَّذِى أَوْحيْنَا إليْكَ» لم يخبر أنَّه لا يذهب بشيء منه، وإنما أخبر أنه لو شاء لذهب بجميعه فلم يذهب به والحمد لله، بل ذهب بما لا حاجة بهم إليه منه. وذلك أن ما نسخ منه فلا حاجة بالعباد إليه، وقد قال تعالى ذكره: «سنقرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى * إلا ما شاء الله» فأخبر أنَّه يُنسى نبيَّه منه ما شاء.

وأصل النسخ في اللغة يكون بمعنى النقل والتحويل. ومنه نسخ الكتاب، وهو أن ينقل من كتاب إلى كتاب آخر، وذلك لا يقتضي إزالة الصورة الأولى بل يقتضى إثبات مثله في كتاب آخر. فعلى هذا المعنى يكون القرآن الكريم كله منسوخاً، وذلك أنه نسخ من اللوح المحفوظ، ونزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وقد يكون النسخ بمعنى الرفع والازالة، وهو إزالة شيء بشيء يعقبه كنسخ الشمس الظّل، والشيب الشباب، فعلى هذا المعنى يكون بعض القرآن منسوخاً، و بعضه ناسخاً، وهو المراد من حكم هذ الآية وهو إزالة الحكم بحكم يعقبه.

وفي اصطلاح علماء الشرع. عبارة عن رفع الحكم الشرعى بدليل شرعيّ متأخر عنه* أو قل: بيان انتهاء الحكم المستفاد من الآية المتلوة. وحكمتُه أن الأحكام ما شرعت إلاَّ لمصلحة الناس، وهي تختلف باختلاف المكان والزمان، فإذا شرع حكم في وقت كانت الحاجة إليه ماسَّة، ثم زالت الحاجة فمن الحكمة نسخه وتبديله بحكم يوافق الوقت الآخر فيكون خيراً من الأول، أو مثله في فائدته للعباد، وما مثل ذلك إلا مثل الطبيب الذي يغيّر الأغذية والأدوية باختلاف الأزمنة والأمزجة، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم هم مصلحوا النفوس، يغيّرون الأعمال الشرعية، والأحكام الخلقيَّة، التي هي للنفوس بمثابة العقاقير والأدوية للأبدان، فما يكون منها مصلحة فى وقت قد يكون مفسدة في وقت آخر* وخلاصة المعنى: ما نغيّر حكم آية أو ننسيكه إلا أتينا بما هو خير منه لمصلحة العباد بكثرة الثواب، أو مثله فيه (الخازن جـ ١ ص ٧١ والمراغى جـ ١ ص ١٨٧) وفيه وقال

الأستاذ الإمام أى محمد عبده: والمعنى الصحيح الذي يلتئم مع السياق. أنَّ الآية هنا ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم، أي ما ننسخ من آية نقيمها دليلاً على نبوة نبيّ من الأنبياء أي نزيلها ونترك تأييد نبي آخر بها، أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها، فإنا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف في الملك نأتي بخير منها في قوة الاقناع وإثبات النبوة. أو مثلها في ذلك، ومن كان هذا شأنه في قدرته وسعة ملكه فلا يتقيّد بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه* وقد سبقه إلى مثله محي الدين بن عربي في تفسيره. وفي تفسير الخطيب: وهو أي النسخ على وجوه:

أحدها : أن تثبت التلاوة و ينسخ الحكم كآية الوصيّة للأقارب، وآية عدّة الوفاة بالحول.

الثاني : أن ترفع التلاوة و يبقى الحكم كآية الرجم ــ الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتَّة.

الثالث : أن يرفع الحكم والتلاوة كما روى أ قوماً من الصحابة قامُوا ليلة ليقرؤا سورة، فلم يذكروا منها إلاَّ بسم الله الرحمن الرحيم. فغدوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال عليه الصلاة والسلام: [تلك سورة رفعت بتلاوتها وأحكامها]. قيل كانت سورة الأحزاب مثل سورة البقرة، فرفع أكثرها تلاوة وحكماً. ثم من نسخ الحكم ما يرفع و يقام غيره مقامه: كما أن القبلة نسخت من بيت المقدس إلى الكعبة، والوصية للآقارب نسخت بالميراث، وعدّة الوفاة من الحول إلى أربعة أشهر وعشر، ومصابرة الواحد للعشرة بمصابرة للإثنين* قال البغوى: والنسخ إنما يعترض على الأ وامر والنواهى دون الأخبار* والنسخ جائز عقلاً وواقع سمعاً خلافاً لليهود، فإن منهم من ينكره عقلاً لكنَّه منعه سمعاً، وشذّت طائفة قليلة من المسلمين فأنكرت النسخ* احتج الجمهور من المسلمين على جواز النسخ ووقوعه بأن الدلائل قد دلّتْ على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ونبوّته لا تصِحُّ إلا مع القول بالنسخ، وهونسخ شرع من قبله، فوجب القطع بالنَّسخ، ولنا على اليهود إلزامات. ومنها أنَّ الله تعالى حــرَّم عليهم العمل يوم السبت. ولم يحرّمه على من كان قبلهم* ومنها أنّه قد جاء في التوراة أن الله تعالى قال لنوح عليه الصلاة والسلام: عند خروجه من الفلك: إنى جعلتُ كُلَّ دابةٍ مأكولاً لك ولذريتك، وأطلقت ذلك لكم، ثم إنه تعالى حرم على موسى عليه الصلاة والسلام وعلى بنى إسرائيل كثيراً من الحيوانات*

ومنها أن آدم عليه السلام كان يزوّج الأخ للأخت، وقد حرَّمه على من بعده. وعلى موسى عليه الصلاة والسلام، فثبت بهذا جواز النسخ، وحيثُ ثبتَ جواز النسخ فقد اختلفوا فيه على وجوه:

أحدها : أن القرآن نسخ جميع الشرائع والكتب القديمة كالتوراة والانجيل وغيرهما.

الوجه الثاني : المراد من النسخ هو نسخ القرآن ونقله من اللَّوح المحفوظ إلى سماء الدنيا.

الوجه الثالث : وهو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء أن المراد من النسخ هو رفع حكم بعض الآيات. بدليل آخر. وهو المراد بقوله تعالى: «**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنْسِهَا نَأتِ بِخَيْرٍ مِنْها أوْ مِثْلِهَا**» لأن الآية إذا أطلقت، فالمراد بها آيات القرآن لأنه هو المعهود عندنا. الخازن (جـ ١ ص ٧٢) وقال: (مسئلة) قال الشافعى رضي الله عنه: الكتاب لا ينسخ بالسنة المتواترة. واستدل بهذه الآية وهو أنَّه تعالى قال: «**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنْسِهَا نَأتِ بِخَيْرٍ مِنْها أوْ مِثْلِهَا**» وذلك يفيد أنَّه تعالى هو الآتى، والمأتى به هو من جنس القرآن، وما كان من جنس القرآن فهو قرآن، وقوله: «**نأت بخير منها**» يفيد أنه هو المنفرد بالاتيان بذلك الخير وهو القرآن الذي هو كلام الله دون السنّة، ولأن السنة لا تكون خيراً من القرآن ولا مثله. واحتج الجمهور على جواز نسخ الكتاب بالسنة بأن آية الوصيّة للأقربين منسوخة بقوله صلى الله عليه وسلم: [لا وصيّة لوارث] أجاب الشافعى رضي الله عنه بأن هذا ضعيف لأن كون الميراث حقاً للوارث يمنع من صرفه إلى الوصيّة، فثبت أنَّ آية الميراث مانعة من الوصية. وتقرير هذا و بسطُهُ معروف في أصول الفقه. وقوله تعالى: «**نأت بخَيْرٍ**» أي بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم، وأكثر لأجوركم، وليس معناه أنَّ آية خير من آية لأن كلام الله تعالى كله واحد «**أوْ مِثْلِهَا**» أي في المنفعة والثواب، فما نسخ إلى الأ يسر كان أسهل في العمل كالذي كان على المؤمنين من فرض قيام الليل، ثم نسخ ذلك فكان خيراً لهم في عاجلهم لسقوط التعب والمشَّقة عليهم، وما نسخ إلى الأشق كان أكمل في الثَّواب كالذى كان عليهم من صيام أيام معدودات في السنة نُسخ ذلك وفرض صيام شهر رمضان، فكان صوم شهر كامل في كل سنةٍ أثقل على الأ بدان، وأشق من صيام أيَّام معدودات، فكان ثوابه أكمل وأكثر. أما المثل، فكنسخ التوجّه إلى بيت المقدس وصرفه إلى المسجد الحرام، واستواء الأحر في ذلك لأن على

المصلى المتوجّه إلى حيث أمره الله تعالى: «**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قدير**» أي على النسخ والتبديل، والمعنى ألم تعلم يا محمد أني قادرٌ على تعويضك ممَّا نسختُ من أحكامي، وغيرته من فرائضي التي كنت أفترضتها عليك ما أشاء مما هو خيرٌ لك ولعبادي المؤمنين، وانفع لك ولهم عاجلاً وآجلاً. (الخازن جـ ١ ص ٧٣)* والخطاب في «**أَلَمْ تَعْلَمْ**» للنبي صلى الله عليه وسلم. والمراد منه هو وأمته لقوله تعالى في الآية التي بعدها: «**وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصير**» وأول الآية «**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰواتِ والأَرْضِ وَمَا لَكُمْ...**» الآية* يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنَّه المتصرِّف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر، فكما خلقهم كما يشاء يسعد من يشاء و يشقى من يشاء و يصح من يشاء ويمرض من يشاء و يوفق من يشاء ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء ليحل ما يشاء ويحرِّمْ ما يشاء، و يبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ولا يسئل عما يفعل وَهُمْ يسئلون، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا وامتثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا وفي هذا المقام ردٌّ عظيم و بيانٌ بليغ لكفر اليهود. وتزييف شبهتهم لعنهم الله في دعوى استحالة النسخ إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، وإما نقلاً تخرَّصه آخرون منهم افتراءً وإفكاً.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلَ الْكُفْرَ بالإِيمانِ فَقَدْ ضلَّ سَواءَ السَّبِيلِ» سورة البقرة (آية: ١٠٨)

جاء في أسباب النزول للواحدى (ص ٢٢): قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبي كعب ورهط من قريش، قالوا: يامحمد اجعل لنا الصفا ذهباً، ووسع لنا أرض مكة، وفجر الأنهار خلالها تفجيراً نؤمن بك. فأنزل الله تعالى هذه الآية* وقال المفسرون أيضاً: إن اليهود وغيرهم من المشركين تمنَّعوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن قائل يقول: يأتينا بكتاب من السَّماء جملة واحدة كما أتى موسى بالتوراة، ومن قائل يقول: وهو عبدالله بن أبي أمية المخزومي، ائتني بكتاب من السماء فيه من رب العالمين إلى إبن أبي أميَّة اعلم أني قد أرسلت محمداً إلى الناس، ومن قائل يقول: لن نؤمن

لك أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً، فأنزل الله تعالى الآية* وفي لباب السيوطي: وأخرج عن أبي العالية قال: قال رجلٌ يا رسول الله لو كانت كفارتنا ككفارات بني إسرائيل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما أعطاكم الله خيرٌ، كانت بنو إسرائيل إذا أصابَ أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتُها، فإن كفّرها كانت له خزياً في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزياً في الآخرة، وقد أعطاكم خيراً من ذلك قال تعالى: «**وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثم يَسْتغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غفوراً رَحِيماً**» والصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفَّارات لما بينهن فأنزل الله «**أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ...**» الآية* وفي الخازن (جـ ١ ص ٧٣) وقيل إنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا لن نؤمن لك حتى تأتيَ بالله والملائكة قبيلاً كما سأل قوم موسى موسى فقالوا أرنا الله جهرة، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي الطبرى (جـ ١ ص ٣٨٥) زيادة على ما تقدم عن السدى «**أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ**» أن يريهم الله جهرة، فسألت العرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالله فيروه جهرة* وعن مجاهد قال: فسألت قريش محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله لهم الصفا ذهباً، قال: نعم، وهو لكم كمائدة بني إسرائيل إن كفرتم فأبوا ورجعوا. فأنزل الله «**أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ...**» الآية* والمراد أن الله تعالى ذمَّ من سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن شيء على وجه التعنت والاقتراح كما سألت بنوا اسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكذيباً وعناداً. وقد نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل كونها كما قال تعالى: «**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وإِنْ تَسْأَلُوا عنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ**» أي وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه، فلعله أن يحرم من أجل تلك المسئلة، ولهذا جاء في الصحيح [إنَّ أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يُحرَّم فحرّم من أجل مسئلته] ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجدُ مع امرأته رجلاً فإن تكلّم تكلّم بأمرٍ عظيم، وإن سكت سكت على مثل ذلك فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابَها، ثم أنزل الله حكم الملاعنة* ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال]* وفي صحيح

مسلم [ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه]* وقد امتثل الصحابة أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتحلّوا بذالك الخلق العظيم قال أنس بن مالك رضي الله عنه: [نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع]* وعن ابن عباس قال: ما رأيتُ قوماً خيراً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ما سألوه إلاَّ عن اثنتى عشرة مسئلة كلها في القرآن (يسألُونَكَ عَنَ الْخَمْرِ والْمَيْسِرِ — و — يسألونَكَ عَنِ الشَّهْر الحرام — و يَسْأَلُونَكَ عن اليتامى) يعنى هذا وأشباهه* واختلف أهل العربية في معنى (أَمْ) التي في قوله: «**أَمْ تُرِيدُونَ**» فقال بعض البصريين هي بمعنى الاستفهام، وتأويل الكلام، أتريدون أن تسألوا رسُولكُمْ. وقال آخرون منهم: هي بمعنى استفهام مستقبل منقطع من الكلام، وجرى الجلال على أنها بمعنى بل فيكون التقدير أم بل أتريدون. وهو يشير إلى أن أم هنا منقطعة، مقدرة ببل والهمزة وهو الظاهر، و يكون اضراب انتقال من قصّة لا إضراب إبطال، ولم تجعل أم متصلة لفقد شرطها، وهو تقدُّم همزة الاستفهام، أو التسوية، وليست هي معادلة للهمزة المذكورة في قوله: «**أَلَمْ تَعْلَمْ**» وأصل تريدون: ترودون لأنه من راد يرود فنقلت حركة الواو على الراء فسكنت الواو بعد كسرة فقلبت ياءً «**أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ**» ناصب ومنصوب في محل نصب مفعول به لقوله: تريدُون : أي أتريدون سؤال رسولكم؟ «**كَمَا سُئِلَ مُوسَى**» الكاف منصوبة محلاً صفة مصدر محذوف، وما مصدري، وكما في محل المفعول المطلق. أي سؤالاً مثل سؤال موسى. «**مِنْ قَبْلُ**» أي من قبل رسولكم، ومن قبل زمانكم، وذلك أن موسى سأله قومه، فقالوا: أرنا الله جهرة. في الآية منعهم ونهيهم عن السؤالات المقترحة بعد ظهور الدلالات والمعجزات وثبوت الحجج والبراهين على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم «**وَمَنْ يَتَبَدَّلَ**» أي يستبدل «**الْكُفْرَ بالإيمانِ فَقَدْ ضلَّ سَواءَ السَّبِيلِ**». والأظهر أنه خطاب للمؤمنين أعلمهم أن اليهود أهل غش وحسد، وأنَّهم يتمنون للمؤمنين المكاره، فنهاهم الله تعالى أن يقبلوا من اليهود شيئاً ينصحونهم به في الظاهر، وأخبرهم أنَّ من ارتدَّ عن دينه فقد أخطأ قصد السبيل* وفي الكشاف (جـ ١ ص ٣٠٣) «**وَمَنْ يَتَبَدَّلَ الْكُفْرَ بالإيمانِ**» ومن ترك الثقة بالآيات المنزلة وشك فيها واقترح غيرها «**فَقَدْ ضلَّ سَواءَ السَّبِيلِ**»* وفي المراغى

(جـ ١ ص ١٨٩) أي ومن يترك الثقة بالآيات البيّنة المنزلة بحسب المصالح، و يطلب غيرها تعنّتاً وعناداً للنبي صلى الله عليه وسلم فقد اختار الكفر على الإيمان، واستحبّ العمى على الهدى، و بعد عن الحق والخير، ومن حاد عن الحق وقع في الضلال. **«فَمَاذا بَعْدَ الْحَقِّ إلاَّ الضَّلالُ»**.

قال: وسبب نزول الآية أن رافع بن خزيمة، ووهب بن زيد قالا للنبي صلى الله عليه وسلم: ائتنا بكتاب من السماء نقرؤه، وفجر الأنهار نتبعك، وقد تقدم نحو هذا. وسواء السبيل. أي أخطأ الطريق الحق. والسواء في الأصل الوسط أي الطريق المستقيم وهو من إضافة الصفة للموصوف* وفي ابن كثير (جـ ١ ص ١٥٢) **«ومَنْ يَتَبَدَّلَ الْكُفْرَ بالإيمانِ»** أي من يشتر الكفر بالإيمان **«فَقَدْ ضلَّ سَواءَ السَّبِيلِ»** أي فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال، وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء وأتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم، والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنّت والكفر كما قال تعالى: **«أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعمَةَ الله كُفْراً وأحلُّوا قوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ* جَهَنَّمَ يَصْلونَهَا وَبِئسَ الْقَرَارِ»*** وقال أبو العالية: يتبدَّل الشدة بالرخاء وأصل الضلال عن الشيء الذهاب عنه والحيد. أي حاد عن سواء السبيل أي الصراط المستقيم وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده، وجعله لهم طريقاً يسلكونه إلى رضاه، وسبيلاً يركبونها إلى محبته والفوز بجنانه، فجعل جلّ ثناؤه الطريق الذي إذا ركب محجّته السائر فيه، ولزم وسطه المجتاز فيه نجا و بلغ حاجتَه، وأدرَكَ طلبته لدينه الذي دعا إليه عباده مثلاً لإدراكهم بلزومه، واتباعه إدراكهم طلباتهم في آخرتهم، كالذي يدرك اللازم محجة السبيل بلزومه إياها طلبته من النجاة منها، والوصول إلى الموضع الذي أمَّه وقصده. وجعل مثل الحائد عن دينه والحائد عن اتباع ما دعاه إليه من عبادته من حرمانه ما رجا أن يدركه بعمله في آخرته، و ينال به في معاده وذهابه عمّا أمّل من ثواب عمله، و بعده به من ربه مثل الحائد عن منهج الطريق وقصد السبيل الذي لا يزداد وغولاً في الوجه الذي سلكه إلا إزداد من موضع حاجته بُعداً، وعن المكان الذي أمَّهُ وأراده نأياً (الطبرى جـ ١ ص ٣٨٨) وقال: وهذه السبيل التي أخبر الله عنها أنَّ من يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواءها: هى الصراط المستقيم الذي أمرنا بمسئلته الهداية له بقوله: **«اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أنْعمتَ عَلَيْهِمْ»**.

القولُ في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«ودَّ كَثيرٌ مِنْ أهْلِ الْكِتاب لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْد أنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا واصْفَحُوا حَتَّى يَأتِيَ اللهُ بِأمْرِهِ إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيء قَدِيرٌ» سورة البقرة (آية: ١٠٩)

جاء في أسباب النزول للواحدى: قال ابن عباس: نزلت فى نفر من اليهود، قالُوا للمسلمين بعد وقعة أحد: ألم تروا إلى ما أصابكم؟ ولَوْ كنتُم على الحقّ ما هَزمْتُم، فارجعوا إلى ديننا فهو خيرٌ لكم وذكر أن كعب بن الأشرف اليهودى كان شاعراً، وكان يهجُو النبيَّ صلَّى الله عليه وسلم ويحرّض كفار قريش فى شعره، وكان المشركون واليهود فى المدينة حين قدمها رسُولُ الله عليه وسلَّم يؤذُون النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم وأصحابَهُ أشدَّ الأذى، فأمر الله تعالى نبيَّهُ بالصبر على ذلك والعفو عنهم، وفيهم أنزلت : **«ودَّ كَثِيرٌ مِنْ أهْلِ الْكِتابِ»** إلى قوله: **« فاعْفُوا واصْفَحُوا..»** والتحقيق أن العفو والصفح عنهم كان قبل نزول آية القتال، ولهذا قال **«حتّى يأتِيَ اللهُ بأمْرِهِ»** فيهم من القتال، وقد أذن الله تعالى بعد ذلك فى قتالهم، وضرب الجزية عليهم. إذاً فهذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: **«قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يؤمِنُونَ باللهِ وَلاَ بالْيَوْمِ الآخِرِ ولاَ يدِينُونَ دِينَ الْحَقِ مِنَ الَّذِينَ أوْتُوا الْكِتَابَ حَتّى يُعطوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وهُمْ صَاغِرُون»** و بقوله تعالى: **«قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ»** وفي الخطيب: وأبى النسخ جماعة من المفسّرين والفقهاء. واحتجُّوا بأنَّ الله تعالى لم يأمر بالعفو والصفح مطلقاً، وإنما أمر به إلى غايةٍ، وما بعد الغاية يخالف ما قبلها. وما هذا سبيله لا يكون من باب النسخ، بل يكون الأوّل قد انقضت مُدَّتُه، والآخر يحتاج إلى حكم آخر. وفي الخازن (ج١ ص٧٣) نزلت هذه الآية فى نفر من اليهود، وذلك أنّهم قالُوا لحذيفة بن اليمان، وعمَّار بن ياسر بعد وقعة أحُدٍ لَوْ كنتُم على الحَقِ ما هزبتمُ فارجعا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلاً منكم، فقال عمَّار بن ياسر: كيف نقضُ العهد فيكم؟ قالُوا: شديد. قال: إنى عاهدت أن لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلَّم ما عِشْتُ، قالت اليهود: أمَّا هذا فقد صبأ، وقال حذيفةُ: أمَّا أنا فقد رضيتُ بالله ربَّا وبمحمدٍ رسولاً و بالاسلام ديناً، و بالقرآن إماماً و بالكعبة قبلة و بالمؤمنين إخواناً، ثم أنهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه بذلك، فقال: أصبتما الخير، وأفلحتما فأنزل الله تعالى: «وَدَّ» أي تمنَّى **« كَثِيرٌ مِنْ أهْلِ الْكِتابِ»**

يعني اليهود «**لَوْ يَرُدُّونَكُمْ**» أي يا معشر المؤمنين «**مِنْ بَعْدِ إيمانِكُم كُفَّاراً**» أي ترجعون إلى ما كنتم عليه من الكفر «**حَسَداً**» أي يحسدونكم حسداً وأصل الحسد: تمنى زوال النعمة عمن يستحقها، وربما يكون مع ذلك سعْيٌ فى إزالتها، والحسدُ مذمُوم لما روى عن أبي هريرة أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: إياكم والحسد فإنَّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النَّارُ الحطب، أو قال: العُشب. أخرجه أبوداود فإذا أنعم الله على عبده نعمة فتمنى آخر زوالها عنه فهذا هو الحسد، وهو حرام، فإن استعان بتلك النعمة على الكفر والمعاصى، فتمنَّى آخر زوالها عنه فليس بحسد، ولا يحرم ذلك لأنَّهُ لم يحسده على تلك النعمة من حيث أنها نعمة بل من حيث أنَّه يتوصَّل بتلك النعمة إلى الشَّرَ والفساد «**مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ**» أي من تلقاء أنفسهم لم يأمرهم الله بذلك «**مِنْ بَعْدِ ما تَبيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**» يعني في التوراة. أنَّ قول محمد صلى الله عليه وسلّم ودينه حقٌّ لا يشكون فيه، فكفَرُوا به حسَداً و بغياً «**فاعْفُوا واصْفَحُوا**» أي فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وحَسَدٍ. وكان هذا الأمر بالعفو والصفح قبل أن يؤمر بالقتال «**حَتَّى يأْتِيَ الله بأمْرِهِ**» أي بعذابه، وهو القتل والسبيُ لبنى قريظة، والاجْلاءُ والنفي لبني النضير، قال ابن عباس: هو أمْرُ الله لَهُ بقتالهمْ في قوله «**قاتِلُوا الّذِينَ لايُؤمِنُون بالله ولاَبالْيَوْمِ الآخِرِ...**» الآية كما تقدم «**إنَّ الله عَلى كُلِّ شيْىءٍ قديرٌ**» فيه وعيد وتهديد لهم * وفي الطبري (ج١ ص٣٨٨) عن ابن عباس قال: كان حُييْ بن أخطب، وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسداً إذ خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم، وكانا جاهدين في رد الناس عن الاسلام بما استطاعا، فأنزل الله فيهما: «**ودَّ كثيرٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونكُمْ..**» الآية* والعفو والصفح متقاربان ففي المصباح: عفا الله عنك أي محا ذنوبك، وعفوت عن الحق أسقطته كأنك محوته عن الذى هو عليه، وعافاه الله محا عنه الأسقام* وفيه أيضاً: صفحت عن الذنب صفحاً من باب نفع. عفوت عنه وصفحت عن الأمر. أعرضت عنه وتركته* فعلى هذا يكون العطف في الآية للتأكيد، وحسنه تغاير اللفظين. وقال بعضهم: العفو ترك العقوبة على الذنب، والصفح ترك اللوم والعتاب عليه* وعبارة البيضاوى في قوله تعالى «**حتَّى يأتِيَ الله بأمْرِهِ**» الذى هو الاذن فى قتالهم، وضرب الجزية عليهم، أو قتل قريظة، وإجلاء بنى النضير* وهذا كله يقتضى أن هذه الآية نزلت قبل الأمر بالقتال. و ينافيه ما تقدم عن الخازن وغيره فى سبب نزولها بعد أحدٍ، وقد كان الأمر بالقتال قد نزل وحصل

القتال بالفعل، إلا أن يقال الذى كان قد حصل إنما كان فى قتال العرب، وأمّا قتال بنى إسرائيل من اليهود والنصارى فقد تأخر الأمر به. والإذن فيه عن غزوة الأحزاب، أو قبلها بيسير* وفى ابن كثير (جـ ١ص١٥٣)عن عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد أخبره قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، و يصبرون على الأذى قال الله «**فاعْفُوا واصْفَحُوا حتّى يَأْتِيَ اللهُ بأمْرِهِ إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ**» وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول من العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بالقتل، فقتل الله به من قتل صناديد قريش* قال ابن كثير: هذا إسناده صحيح. ولم أره في الكتب الستة، ولكن له أصل في الصحيحين عن أسامة بن زيد. وفى أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلّتهم هم أصحابُ القدرة والشّوكةو لأن الصفح لا يكون إلا من القادر، فكأنه يقول لهم: لا تغرنكم كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فأنتم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، وأهل الحق مؤيدون بعناية الله، ولهم العزّة ما ثبتوا عليه، ثم أكد الوعد السابق بالنصرة بقوله: «**إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ**» أي فالله هو القادر على أن يهبكم من القوة ما تتضاءل دونه جميع القوى، و يثبتكم بما أنتم عليه من الحق فتتغلبوا على من يناوئكم و يظهر لكم العدوان اغتراراً بكثرته، واعتزازاً بقوته «**وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**» المراغى (جـ ١ ص١٩١).

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلى شيءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شيءٍ وهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يوْمَ الْقِيَامَةِ فيمَا كَانُوا فيهِ يَخْتَلِفُونَ»

ففى الواحدى والقرطبي: نزلت في يهود أهل المدينة، ونصارى أهل نجران وذلك أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بعيسى والانجيل، وقالت لهم النصارى: ما أنتم على شيء من الدين، فكفروا بموسى والتوراة فأنزل الله تعالى هذه الآية* وكذا فى الخازن (جـ ١ ص٧٤) وقال مجاهد: فى تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء* وقال قتادة: «**وقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارى عَلى**

شَيْءٍ» قال: بل قد كانت أوائل النصارى على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا* وعن أبى العالية والربيع بن أنس قالا: هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوعلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم* وهذا القول يقتضى أن كلاً من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى. ولكن ظاهر سياق الآية يقتضى ذمهم فيما قالوه من علمهم بخلاف ذلك، ولهذا قال تعالى: «**وَهُمْ يتْلُونَ الْكِتَابَ**» أي وهم يعلمون شريعة التوراة والانجيل كل منهما قد كانت مشروعة في وقت، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً، ومقابلة للفاسد بالفاسد لإبطال العمل بالشرائع السابقة بشريعة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. وقد صَّرح ابن اسحاق بالسّماع عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة، أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى والانجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوّة موسى وكفر بالتوراة فأنزل الله في ذلك من قولهما «**وقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النّصَارى عَلَى شيء وقَالَتِ النّصَارىَ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شيْءٍ وهُمْ يتْلُونَ الْكِتَابَ**» قال: إن كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به أن يكفر اليهود بعيسى، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى وفي الانجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يد صاحبه* وفى الخازن (جـ١ ص٧٤) «**وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ**» يعنى وكلا الفريقين يقرؤن الكتاب، وليس في كتابهم هذا الاختلاف، فدلت تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم لما فيه على كفرهم، وكونهم على الباطل* وقيل: إن الانجيل الذى تدين بصحته النصارى يحقق ما في التوراة من نبوة موسى وما فرض الله فيها على بنى إسرائيل من الفرائض، وأن التوراة التى تدين بصحتها اليهود تحقق نبوة عيسى، وما جاء به من عند ربّه من الأحكام، ثم كلا الفريقين قالوا: ما أخبر الله عنهم بقوله: «**وقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارى عَلى شْيءٍ وقَالَتِ النَّصَارىَ ليْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شيء**» مع علم كل واحد من الفريقين ببطلان ما قاله. وفي اللسان (جـ٣ ص٤٣٩) ويهود: اسم قبيلة. قال: أولَئكَ أوْلَى مِنْ يَهُودَ بِمَدْحِهِ. إذَا أنْتَ يوْماً قُلْتَها لم تُؤنّب وقيل: إنما اسم هذه القبيلة يهوذ. فعّرب بقلب الذال دالاً، قال ابن سيده: وليس هذا بقويّ، وقالو: اليهود فأدخلوا الألف واللام فيها على إرادة

النسب يريدون اليهوديين ... وسميت اليهود اشتقاقاً من هادُوا. أي تابُو* قلت وفي التنزيل: «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ» أي تبنا إليك. وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير. قاله ابن سيده: عدَّاهُ بإلى لأن فيه معنى رجعنا، وقيل: معناه تبنا إليك ورجعنا وقربنا من المغفرة، وكذلك قوله تعالى « فتُوبُوا إلى بارِئِكُمْ» وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا» والتهوُّد: التوبةُ والعمل الصالح. وقال الجوهريُّ: ونصران قرية بالشام ينسب إليها النصارى. و يقال: ناصرة. والتَّنصُّرُ: الدخول في النصرانية* قلت: واسم القرية نصُورِيَّة وهي من قرى الشام. والنَّصَارى منسوبون إليها، ولكن قال ابن سيده: هذا قول أهل اللغة، وهو ضعيف إلا أن نادر النسب يسعه وقال بعضهم: سموا نصارى. لقول «عيسى ابنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيّينَ مِنْ أَنْصَارِي إلى الله قَالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ الله» والحواريُّون أصفياء عيسى، وهم أول من آمن به، وكانوا أثني عشر رجلاً. من الحور وهو البياض الخالص. قيل كانو قصارين يحورون الثياب. يبيضونها* وقوله «من أنصَارِى إلَىَ الله» ظاهرة أن النصرة له، وهذا لا يلائم جوابهم بقولهم «نَحْنُ أَنْصَارُ الله» فجعلوا النصرة لله، وقد أشار الجلال إلى أن الإضافة من إضافة أحد المتشاركين إلى الآخر لما بينهما من الاختصاص بقوله: أي من الأنصار الذين يكونون معى أي مصاحبين لى. وأشار إلى أن قوله «إلى الله»متعلّق بمحذوف هو حال حيث قال متوجهاً إلى نصرة الله. وقال الزمخشري في الكشاف (جـ ٤ ص١٠١) فان قلت: ما معنى قوله من أنصارى إلى الله، قلت: يجب أن يكون معناه مطابقاً لجواب الحواريِّين «نَحْنُ أَنْصَار الله» والذى يطابقه أن يكون المعنى من جندى متوجهاً إلى نصرة الله، وإضافة أنصارى خلاف إضافة أنصار الله، فان معنى نحن أنصار الله نحن الذين ينصرون الله، ومعنى من أنصارى من الأنصار الذين يختصمون بى يكونون معى في نصرة الله، ولا يصح أن يكون معناه من ينصرنى مع الله لأنه لا يطابق الجواب. قال: والدليل عليه قراءة من قرأ من أنصار الله. والحواريون أصفياؤه الخ ماذكره الجلال* قلت: يعنى أن بعضهم يدّعى أن الى بمعنى مع أي من أنصارى مع الله. وقوله: قراءة من قرأ أنصار الله. أي لو كانت بمعنى مع لما صح سقوطها في هذه القراءة، وهذا غير لازم، لأن كل قراءة لها معنى يخصها إلا أن الأولى توافق القراءتين. وقوله «نحن أنصَارُ الله» من إضافة الوصف إلى مفعوله أي نحن الذين ننصر الله أي ننصر دينه* وقوله تعالى: «كذلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ» يعنى مشركى

العرب، قالوا في نبيّهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه أنهم ليسوا على شيء «**مِثْلَ قَوْلِهِمْ**» يعني مثل قول اليهود للنصارى، والنصارى لليهود، وقيل: أممٌ كانت قبل اليهود والنصارى مثل قوم نوحٍ وهود وصالح ولوط وشعيب... الخ. الأقوام قالوا في أنبيائهم ليسُوا على شيء لأن قوله: «**كذلِكَ**» أي مثل ذلك الذي سمعت من قوله. والكاف في محل نصب إما على أنها نعت لمصدر محذوف قُدم على عامله لافادة الحصر أي قولاً مثل ذلك القول بعينه لا قولاً مغايراً له «**فَاللهُ يَحْكُمُ**» أي يقضي. رجع في الكشاف الضمير إلى الفريقين وقبله البيضاوى. وقضيّةُ اللفظ أن يقال بين الْفِرَق أي فرقة اليهود، وفرقة النصارى، وفرقة الذين لا يعلمون، لكنه خص الأ ولين بالذكر لأن المراد توبيخهما حيث نظما أنفسهما مع علمهما في سلك من لا يعلم. ورجّعه البغوى إلى المبطل والمحق، وهو شامل للفرق المذكورة (كرخى)* «**بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» يعنى بين الفرق، أو بين المحق والمبطل «**فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**» يعنى من أمر الدين، فيدخِلُ المحق الجنَّة والمبطل النار* وأما القيامة: فهي مصدر من قول القائل: قُمت قياماً وقيامةً كما يقال عدتُ فلاناً عيادةً، وصنتُ هذا الأمر صيانة، وإنما عنى جلّ جلاله بالقيامة قيامُ الخلق من قبورهم لربهم، فعنى يوم القيامة. يوم قيام الخلائق من قبورهم لمحشرهم.

القول في تأويل قولــه تعالى :

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرابِهَا أُولئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ» سورة البقرة (آية: ١١٤)

جـــاء في أسباب النزول للواحدى (ص ٢٢): قال ابن عباس: نزلت الآية في ططلوس الرومى وأصحابه من النصارى، وذلك أنهم غزوا بنى إسرائيل فقتلوا مقاتلتهم، وسبُوا ذراريهم، وحرقُوا التوراة، وخربُوا بيْت المقدس، وقَذَفُوا فيه الجيف* وقال قتادة: هو بختنصر وأصحابه، غزوا اليهود، وخرَّبوا بيْت المقدس، وأعانتهم على ذلك النّصارى من أهل الروم* وفي رواية عن ابن عبَّاس قال: نزلت في مشركى أهل مكة، ومنعهم المسلمين من ذكر الله تعالى في المسجد الحرام* وكذا في القرطبي. وفيه: والمعنى كيف تدعون أيها النّصارى أنكم من أهل الجنة، وقد خرَّبتمْ بيْتَ المقدس، ومنعتم المصلين من الصلاة فيه...؟!* وروى سعيد عن قتادة قال: أولئك أعداءُ الله النّصارى حملهم

إبغاض اليهود على أن أعانوا بُخْتَنَصَّر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس* قلتُ: ويجوز أن يكون الحكم عاماً وإن كان السبب خاصاً كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً، ومن أظلم ممن آذى الصالحين؟! أي لا أحد أظلم منه. لأن مَنْ استفهام في محل رفع بالابتداء. وأظلم أفعل تفضيل خبره. ومعنى الاستفهام هنا النفي أي لا أحد أظلم منه. ولما كان المعنى على ذلك أورد بعض الناس سؤالاً وهو أنَّ هذه الصيغة قد تكرر في القرآن **«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى»** **«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّه»** **«فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ»** وكل واحدة منها تقتضي أنَّ المذكور فيها لا يكون أحد أظلم منه. فكيف يوصف غيره بذلك؟ وفي ذلك جوابان:

أحدهما : أن يختص كل واحد بمعنى صلته، كأنَّه قال: لا أحد من المانعين أظلم من منع مساجد الله، ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله، ولا أحد من الكذَّابين أظلم ممن كذب على الله تعالى، وهكذا كل ما جاء منه.

الثاني : أنَّ هذا نفي للأظلميّة ونفي الأظلمية لا يستدعي نفي الظالميّة لأن نفي المقيّد لا يدل على نفي المطلق، وإذا لم يدل على نفي الظالميّة لا يكون تناقضاً لأنَّ فيها إثبات التسوية في الأظلمية وإذا ثبتت التسوية في الأظلمية لم يكن أحدٌ ممن وصف بذلك يزيد على الآخر لأنهم متساوون في ذلك. وصار المعنى، ولا أحد أظلم ممن منع، وممن افترى وممن ذكر.

ولا إشكال في تساوى هؤلاء في الأظلمية، ولا يدل ذلك على أنَّ أحدَ هؤلاء يزيد على الآخر في الظلم، كما أنك إذا قلت: لا أحد أَفْقَهُ من زيد و بكر وخالدٍ لا يدل على أن أحدهم أفقهُ من الآخر بل نفيت أن يكون واحد أفقه منهم* وقولُه: **«مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ»** الممنوع في الحقيقة هو النّاس، وإنما أوقع المنع على مساجد لما أن فعلهم من طرح الأذى والتخريب ونحوهما متعلّق بالمسجد لا بالناس، والممنوع بيت المقدس على قول، أو المسجد الحرام على قول. ومن خرَّب مسجداً من هذين فقد خرَّب مساجد كثيرة بالقوة لأنها أفضل المساجد على الإطلاق. **«أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ»** بالصلاة والتّسبيح **«وَسَعَى فِي خَرَابِهَا»** بالهدم والتعطيل. قال الجلال: نزلت إخباراً عن الروم الذين خرَّبوا بيت المقدس، أو في المشركين لمَّا صَدُّوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم عام الحديبية عن البيْتِ* وفي أبي السعود فقد روى أنَّ النَّصارى كانوا يطرحُون في بيت المقدس

الأذى، ويمنعون النّاس أن يصلُّوا فيه، وأنَّ الروم غزوا أهله فخرّبوه وأحرقوا التوراة، وقتلوا وسَبُوا. وقد نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن فلطيوس الرومى ملك النصارى وأصحابه غزوا بنى إسرائيل، فقتلوا مقاتلتهم، وسبُوا ذراريهم، وأحرقوا التوراة، وخربوا بيت المقدس، وقذفوا فيه الجيف، وذبحوا فيه الخنازير، ولم يزل خرباً حتى بناهُ المسلمون في عهد عمر رضي الله عنه* وقيل: إنَّ بختنَصَّر المجوسى من أهل بابل هو الذي غزا بنى إسرائيل، وخرَّب بيت المقدس، وأعانه على ذلك النصارى من أجل أن اليهود قتلُوا يحى بن زكريا عليه السلام. قاله السدى كما في الطبرى (جـ ١ ص ٣٩٧) وفيه قال ابن زيد في قوله: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وسَعَى فِى خَرَابِهَا**» قال هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، و بين أن يدخل مكة حتى نحرى هَدْيَهُ بذى طوى، وهادنهم، وقال لهم: ما كان أحدٌ يُرَدُّ عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فما يصدُّهُ، وقالُوا لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدرٍ وفينا باقٍ* ورجح الطبرى قول من قال: هم النصارى الذين سعوا في خراب بيت المقدس... الخ* وفي تفسير نظام الدين النيسابورى[1] (جـ ١ ص ٣٧٤) وعن الحسن وقتادة والسدى: نزلت في بختنصَّر حيث خرّب بيت المقدس، وأعانه على ذلك بعض النصارى* ورُدَّ بأن بختنصّر كان قبل مولد المسيح بزمان وفيه. وقيل: نزلت في مشركى العرب الذين منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إلى الله بمكة، وألجؤه إلى الهجرة فصارُوا مانعين له ولأصحابه أن يذكروا الله في المسجد الحرام* وقد تقدم أنّه قد يجيء الحكم عاماً وإن كان السبب خاصاً. ومثله «**وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة**» والمنزول فيه الأخنس بن شريق كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى. وقال نظام الدين النيسابورى: في قوله: «**وَمَنْ أَظْلَمُ..**» استعمال لفظ الظلم في هذا المعنى في غاية الحسن. لأن المسجد موضوع لذكر الله تعالى فيه، فالمانعُ من ذلك واضع للشيء في غير موضعه، وأمّا أنّه لا أظلم منه فلأنّه إن كان مشركاً فقد جمع مع شركه هذه الخصلة الشنعاء فلا أظلم منه، وإن كان يدعى الإسلام ففعله مناقض لقوله لأن من اعتقد أنَّ له

(١) أي تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامه نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسابورى الموضوع على هامش تفسير الطبرى.

معبوداً عرف وجوب عبادته له عقلاً أو شرعاً، والعبادة تستدعي متعبَّداً لا محالة، فتخريب المتعبَّد ينبئُ عن إنكار العبادة، وإنكار العبادة يستلزم إنكار المعبود، فهذا الشخص لا يكون في الحقيقة مسلماً، وإنما هو منخرط في سلك أهل النفاق، والمنافق كافرٌ أسوأ حالاً من الكافر الأصلي بالاتفاق* «**أُولئِكَ**» المانعون «**مَا كَانَ لَهُمْ**» أي ما ينبغي لهم «**أَنْ يَدْخُلُوهَا**» في حالٍ من الأحوال «**إِلاَّ خَائِفِينَ**» على حال التهيّب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها و يلوها، ويمنعوا المؤمنين منها. والمعنى: ما كان الحق الواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم، وقيل: هذه بشارة للمؤمنين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام، وعلى سائر المساجد، وأنه يُذِلُّ المشركين لهم حتى لا يدخلوا المسجد الحرام إلا خائفين من أن يُعاقَبُوا أو يقَتَّلُوا إن لم يُسْلِمُوا، وقد أنجز الله هذا الوعد، فمنعهم من دخول المسجد الحرام، ونادى فيهم عام حجَّ أبو بكر: ألا لا يَحُجَّنَّ بعد العام مشركٌ. وأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بإخراج اليهود من جزيرة العرب، وصار بيت المقدس في أيدي المسلمين. «**لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ**» ذِلٌّ بمنعهم المسلمون من دخول المساجد: أو بالجزية في حق أهل الذمّة، و بالسَّبي والقتل في حق أهل الحرب، وفيه ردعٌ لهم عن ثباتهم على الكفر، وقيل: الخزى فتح مدائنهم قسطنطينية وعمورية ورومية...الخ. «**وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**» والعذاب العظيم يناسب الظلم العظيم فخزى الدنيا بما يعقبه الظلم من الفساد المؤدى إلى الذل والهوان. ولا ظلم أكبر من إبطال العبادة من المساجد والسعي في خرابها، وقد تحقق ما أوعد به الله، فحلَّ بالرُّومانيين الخزى في الدنيا، فتقسَّمت دولتهم، وتشتت ملكهم ولحقهم الذل والهوان على يد غيرهم من الأمم القوية الفاتحة، ومنها الأمّة الإسلامية. وعذاب الآخرة هو ما أعدّه الله للفجار في جهنم و بئس القرار* روى الطبرى في تفسيره (جـ ١ ص ٣٩٨) عن السدى «**أُولئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ**» قال: فليس في الأرض رومى يدخلها اليوم إلا وهو خائف أن تضرب عنقه وقد أُخيف بأداء الجزية* وعن الحسن في قوله: «**لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ**» قال يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون* وعن السدى: «**وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**» قال: وأما العذاب العظيم، فإنَّه عذاب جهنَّم الذي لا يخفف عن أهله، ولا يقضى عليهم فيها فيموتوا* وهذه الجملة، وما بعدها لا محلَّ لها لاستئنافها عما قبلها، ولا يجوز أن تكون حالاً لأن خزيهم ثابت على كل حال لا يتقيد بحال دخول المساجد خاصة.

هذا: وقد جوَّز أبوحنيفه دخول المساجد كلها لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قدم عليه وفد ثقيف فأنزلهم المسجد. وأجيب بأنَّه في أول الإسلام. ثم نسخ. وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة. أخرج الإمام أحمد عن بشر بن أرطاة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو [اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة] وهو حديث حسن.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«وَلله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فأيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله إنَّ الله وَاسِعٌ عَليمٌ» سورة البقرة (آية: ١١٥)

روى الواحدى في أسباب النزول عن جابر بن عبدالله قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سَرِيَّة كنْتُ فيها، فأصابتنا ظلمة، فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منَّا: قد عرفنا القبلة هى ها هنا قِبل الشّمال، فصلُّوا وخطُّوا خطوطاً وقال بعضنا: القبلة ها هنا قِبلَ الجنوب وخطُّوا خطوطاً، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك فسكت، فأنزل الله تعالى: **«وَلله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فأيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله...»** الآية. وذهب ابن عمر رضي الله عنه أنَّ الآية نازلة في التّطوع بالنافلة. فقال: صلِّ حيث توجّهت بك راحِلتُكَ في التطوع* وروى عطاء عن ابن عباس قال: إن النجاشي لما توفى قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم إنَّ النجاشي توفى فصلِ عليه ــ أي صلاة الغائب ــ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصْحَابَه أن يحضُرُوا وصفهم، ثم تقدَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم: إنَّ الله أمرنى أن أُصَلِّيَ على النجاشي، وقد توفى فصلُّوا عليه، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنفسهم. كيف نصلى على رجل مات وهو يُصلى على غير قبلتنا؟ وكان النجاشي يصلى إلى بيت المقدس حتى مات، وقد صرفت القبلة إلى الكعبة: فأنزل الله تعالى: **«فأيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله...»*** وقال ابن عباس: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: **«وحيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وجُوهَكُمْ شَطْرَهُ»** فهذا قول ابن عباس عند عطاء الخرسانى. وقال: أوّلُ ما نسخ من القرآن شيئان: القبلة، قال الله تعالى: **«فأيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله»** قال فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس، وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله إلى البيت

العتيق* وفي رواية أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس قال: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جاهر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبُّ قبلة ابراهيم، فلمَّا صرفه الله تعالى إليها ارتابَ من ذلك اليهود وقالوا: «**ما ولاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ التى كانُوا عَلَيْهَا؟**» فأنزل الله تعالى: «**فأيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله**» وفي تفسير القرطبي: اختلف العلماء في المعنى الذي نزل فيه «**فأيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله**» على خمسة أقوال: فقال عبدالله بن عامر بن ربيعة: نزلت فيمن صلى إلى غير القبلة في ليلة مظلمة* أخرجه الترمذى عنه عن أبيه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرٍ في ليلة مظلمة، فلم ندر أينَ القبلة، فصلى كل رجُلٍ منا على حياله، فلمَّا أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت «**فأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله**» وضعف الحديث لوجود أشعث السَّمان في سنده. لكنه قال: وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى هذا وقالوا: إذا صلى في الغيم لغير جهة القبلة، ثم استبان له بعد ذلك أنَّه صلى لغير القبلة فإن صلاته جائزة، و به يقول سفيان وابن المبارك وأحمد وإسحاق، وهوقول أبي حنيفة ومالك. غير أن مالكاً قال: تستحب له الإعادة في الوقت* وقال المغيرة والشافعيُّ: لا يجزيه لأن القبلة شرط من شروط الصلاة* قال القرطبي: وما قاله مالك أصَحُّ لأن القبلة تبيح الضرورة تركها في المحاربة، وتبيحها أيضاً الرُّخصة حالة السفر* وقال ابن عمر: نزلت في المسافر ينتقل حيثما توجهت به راحلته* أخرجه مسلم عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى وهومقبلٌ من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت «**فأيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله**» قلتُ: ولا خلاف بين العلماء في جواز النافلة على الراحلة لهذا الحديث* وقال قتادة: نزلت في النجاشي..الخ. ما تقدم* وقال ابن زيد: كانت اليهود قد استحسنت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس. وقالوا: ما هتدى إلاَّ بنا، فلما حُوّل إلى الكعبة قالت اليهود: «**ما ولاَّهم عن قبلتهم التي كانوا عليه**» فنزلت «**وَلله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...**» الآية والقول الخامس: أن الآية منسوخة كما نقلته لك عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال القرطبي: فكأنَّه كان أي ابن عباس يجوّز في الابتداء أن يصلى المرء كيف شاء، ثم نسخ ذلك، وقال قتادة: الناسخ قوله تعالى: «**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**» أي تلقاءه، حكاه أبوعيسى الترمذي. وقول سادس:

روى عن مجاهد والضحاك أنها محكمة المعنى: أينما كنتم من شرق وغرب، فثم وجه الله الذي أمرنا باستقباله وهو الكعبة. وعن مجاهد أيضاً وابن جبير لمَّا نزلت **«ادْعُونى اسْتَجِبْ لَكُمْ»** قالوا إلى أين؟ فنزلت **«فأيْنَما تُوَلُوا فَثَمَّ وَجْهُ الله»** وتجد هذه الأقوال ونحوها في تفسير الطبرى (جـ ١ ص ٤٠٠)* وفي غرائب القرآن قول لأبى مسلم: أن كلا من اليهود والنصارى زعمت أن الجنة لهم وحدهم فردَّ الله عليهم وذلك أن اليهود إنما استقبلوا بيت المقدس لإعتقادهم أنه تعالى صعد إلى السماء من الصخرة، والنصارى استقبلوا المشرق لأن عيسى ولد هناك **«إذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أهْلِهَا مكاناً شرْقياً»** فكل منهما وصف معبوده بالحلول في الأماكن، ومن كان هكذا فهو مخلوق لا خالق فكيف تخلص لهم الجنة، وهم لا يفرقون بين المخلوق والخالق* وفي قول لعليّ بن عيسى: أنه خطاب للمسليمن. أي لا يمنعكم تخريب من خرَّب مساجد الله عن ذكره حيث كنتم من أرضه فلله بلاد المشرق والمغرب والجهات كلها في أي مكان فعلتم التولية التي أمرتهم بدليل قوله: **«فَوَلِّ وجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرام»** **«فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرهُ»** قلت: وفي السّمين: **«وَلله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ»** جملة مرتبطة بقوله: **«مَنَعَ مَساجِدَ الله وسَعَى في خَرابِها»** يعنى أنَّه إن سعى ساعٍ في المنع من ذكره تعالى، وفي خراب بيوته فليس لك مانعاً من أداء العبادة في غيرها لأن المشرق والمغرب وما بينهما له تعالى، والتنصيص على ذكر المشرق والمغرب دون غيرهما لوجهين:

أحدها : لشرفهما حيث جُعلا لله تعالى.

والثاني : أن يكون من حذف المعطوف للعلم به، أي لله المشرق والمغرب وما بينهما. كقوله: **«تَقِيكُمُ الحَرَّ»** أي والبرد.

وفي المشرق والمغرب قولان: أحدهما : أنهما اسما مكان الشروق والغروب. والثاني: أنهما اسما مصدر أي الإشراق والإغراب، والمعنى لله تولّى إشراق الشمس من مشرقها واغرابها من مغربها، وجاء المشارق والمغارب باعتبار وقوعها في كل يوم، والمشرقين والمغربين باعتبار مشرقى الشتاء والصيف ومغربيها* وفي تفسير النسفي في قوله: **«فَثَمَّ وَجْهُ الله»** أي جهته التى أمر بها ورضيها، والمعنى إنكم إذا منعتُم أن تُصلُّوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً، فصلوا في أي بقعة شئتُم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها فإنَّ التولية ممكنةٌ في كل مكان* قلت وهذا بالتأكيد منسوخ

بقوله تعالى: «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» لأن التوجه إلى الكعبة فرض في الفريضة على خلاف في نافلة السفر كما علمت. وإنَّ على جميعهم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه، فما أمرهم باستقباله فهو القبلة فإن القبلة ليست قبلة لذاتها بل لأن الله تعالى جعلها قبلةً وأمر بالتوجه إليها «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وحَيْثُ مَا كنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شطْرَهُ» فهو قبلة الله التى وجهكم إليها. وقوله: «فَثَمَّ وَجْهُ الله» أي وجه الله تعالى بعلمه وقدرته، والوجه صفة ثابتة لله تعالى لا من حيث الصورة، وقيل: فثم رضا الله أي يريدون بالتوجه إليه رضاهُ «إنَّ الله وَاسِعٌ» من السَّعة، وهو الغنى أي يسع خلقه كلهم بالكفاية والافضال والجود والتدبير وقيل: واسع المغفرة «عَليمٌ» أي بأعمالكم ونياتكم حيثما تصلُّوا وتدعوا، لا يغيب عنه منها شيء.

مَسْئلةٌ تتعلّق بحكم الآية :

قال الخازن في تفسيرة (جـ ١ ص ٧٦): وهي أن المسافر إذا كان في مفازة أو بلاد شرك، واشتبهت عليه القبلة، فإنه يجتهد في طلبها بنوع من الدلائل، و يصلى إلى الجهة التى أدى إليها اجتهاده ولا إعادة عليه، وإن لم يصادف القبلة، فإن جهة الاجتهاد قبلته، وكذا الغريق في البحر إذا بقى على اللوح فإنَّه يصلى على حسب حاله، وتصح صلاته، وكذلك المشدود على جذع بحيث لا يمكنه الاستقبال.

القول في تأويل قولــه تعالى :

«وقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا في السَّمٰوَاتِ والأرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ* بَديعُ السَّمٰوَاتِ والأرْضِ وإذَا قَضَى أمْراً فَإنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»
سورة البقرة (آية: ١١٦، ١١٧)

قال الواحدى في أسباب النزول: نزلت في اليهود قالوا: عزيزٌ ابن الله، وفي نصارى نجران حيث قالوا: المسيح ابن الله، وفي مشركى العرب قالوا: الملائكة بنات الله* وكذا في تفسير الخطيب. وفي القرطبي. خرَّج البخارى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [قال الله تعالى: كذَّبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبُهُ إيَّاىَ فزعم أنّى لا أقدرُ أن أعيده كما كان، وأمَّا شتمه إيَّاىَ فقوله لى ولد، فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولداً]* وقوله: «اتَّخَذَ الله وَلَداً» بمعنى صنع، فيعدَّى لواحد، أو بمعنى صيَّر، والمفعوا الأول محذوف أي صيَّر بعض مخلوقاته ولداً إلا أنَّه مع كثرة

ورود هذا التركيب لم يذكر معه إلا مفعول واحد مثل «**وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً**» «**ما اتّخذَ الله مِنْ وَلدٍ**» «**وما يَنْبغِي للرَّحمنِ أنْ يتّخِذَ ولَداً**»* «**سُبْحَانَهُ!**» تنزيها له عن الاتخاذ لأن اتخاذ الولد لبقاء النوع، والله منزه عن الفناء والزوال. «**بَلْ لَهُ ما في السَّمٰواتِ والأرْضِ**» ملكاً وخلقاً وعبداً، والملكية تنافى الولادة، وعبَّر بما تغليباً لمَا لا يعقل، أي التي لغير أولى العلم مع قوله قانِتُونَ. تغليباً لما لا يعقل أي للإعلام بأنهم في غاية من القصور عن فهم معنى الرُّبوبية. وفي نهاية من النزول إلى معنى العبودية إهانةً لهم، وتنبيهاً على إثبات مجانستهم بالمخلوقات المنافية للألوهية* وقيل: إنَّ الولد إنما اتخذ للحاجة إليه والانتفاع به عند عجز الوالد وكبره، والله تعالى منزه عن ذلك كله، فإضافة الولد إليه محال. «**كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ***» يعنى أن أهل السموات والأرض مطيعون لله ومقرون له بالعبودية، وأصل القنوت لزوم الطاعة مع الخضوع* وفي اللسان (جـ ٢ ص ٧٣) القنوت: الامساكُ عن الكلام. وقيل: الدعاء في الصلاة. والقنوتُ: الخشوع والاقرار بالعبودية، والقيام بالطاعة التى ليس معها معصيةٌ. وقيل: القيامُ وزعم ثعلبٌ أنَّه الأصل. وقيل: إطالة القيام. وفي التنزيل العزيز «**وقُومُوا لله قَانِتينَ**» قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت: وقوموا لله قانتينَ، فأمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام، فأمسكنا عن الكلام فالقنوت: هٰهنا: الإمساك عن الكلام في الصلاة. وفي القيام حديث جابر قال: سُئل النبي صلى الله عليه وسلم أي الصلاة أفضل؟ قال: طول القنوت، يريد طول القيام، وقد تكرر ذكر القنوت في الحديث وورد بمعان متعددة، كالطاعة والخشوع، والصلاة، والدعاء، والعبادة، والقيام، وطول القيام، والسكوت وقال ابن الأنبارى: القنوت على أربعة أقسام: الصلاة، وطول القيام، وإقامة الطاعة والسكوت* وقال ابن سيده: القنوت الطاعة. هذا هو الأصل. ومنه قوله تعالى: «**والقانِتينَ والْقَانِتَاتِ**» وقوله تعالى: «**كُلٌ لَهُ قَانِتُونَ**» أي مطيعون، ومعنى الطاعة ههنا: أنّ من في السَّمٰوات مخلوق لا يقدر أحدٌ على تغيير الخِلْقة، ولا مَلَكٌ مقرب، فآثار الصنيعة والخلقة تدل على الطاعة، وليس يعنى بها طاعة العبادة، لأن فيها مطيعاً وغير مطيع، وإنما هى طاعة الإرادة والمشيئة، أي التصرُّف المطلق بمن فيها، وما عليها* وقد دلت الآية على نوع آخر من قبائح أفعال اليهود والنَّصارى والمشركين جميعاً فقد مرَّ ذكرهم في قوله: «**كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلِ قَوْلِهِمْ**» وفي قوله: «**ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ**

«مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ..» والضمير يصلح للعود إليهم كما تقدم فاليهود قالوا عزير ابن الله، والنَّصارى قالوا المسيح ابن الله، والمشركون من العرب قالوا الملائكة بنات الله، وقد نـزَّه المولى جلَّ وعلا ذاته العليّة، و برهن على ذلك بأن له كل ما في السمٰوات والأرض ملكاً وخلقاً وإبداعاً وصنعاً، ومن جملتهم الملائكة والمسيح وعزير، والولد لابد أن يكون من جنس الوالد، ومن أين المناسبة بين واجب الوجود لذاته، وممكن الوجود لذاته، اللهمَّ إلا في مطلق الوجود، وذلك لا يقتضي شركة في الحقيقة الخاصّية بكل منهما، بل الملائكة وعزير والمسيح عابدون له مقرون بر بو بيته، منكرون لما أضافوا إليهم من الولدية، يحكى أنَّ عليَّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه قال لبعض النصارى: لولا تمرُّدُ عيسى عن عبادة الله تعالى لصرتُ على دينه، فقال النصرانيُّ: كيفَ يجوزُ أن ينسب ذلك إلى عيسى مع جدّه في طاعة الله، فقال عليٌّ: إن كان عيسى إلهاً فالإلٰه كيف يَعبُدُ غيره، وإنما العبد هو الذي يليق به العبادة، فانقطع النصرانيُّ وبهت* وقوله: **«بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ»** أي خالقها ومبدعها ومنشئها على غير مثالٍ سبق، والمشهور رفع بديع على أنَّه خبر مبتدأ محذوف أي هو بديع، وقرىء بالجرِّ على أنّه بدل من الضمير في لَهُ، وقرىء بالنصب على المدح، و بديع السَّمٰوات من باب الصفة المشبّهة أضيفت إلى منصوبها الذي كان فاعلاً في الأصل، والأصل بديعٌ سمٰواتُه وأرضه أي بدعت لمجيئها على شكل فائق حسن غريب، ثم شبّهت هذه الصّفة باسم الفاعل، فنصبت ما كان فاعلاً، ثم أضيفت إليه تخفيفاً، وهكذا كل ما جاء من نظائره، فالإضافة لابد وأن تكون من نصب لئلا يلزم إضافة الصفة إلى فاعلها، وهو لا يجوز، كما لا يجوز في اسم الفاعل الذي هو الأصل (من السمين والكشاف جـ ١ ص ٣٠٧)* **«وَإِذَا قَضَى أَمْراً»** أي قدّره. وأراد خلقه، وأهل القضاء الحكم والفراغ. والقضاء في اللّغة: على وجوه كلها ترجع إلى انقطاع الشيء وتمامه والفراغ منه. فيقال: قضى القاضي بهذا إذا فصل الدعوى، وانقضى الشيء انقطع، وقضى حاجته قطعها عن المحتاج، وقضى الأمر إذا أتَمَّهُ وأحكمه لأن إتمام العمل قطع له، وقضى دينَهُ أدّاهُ لأنَّهُ انقطع كل منهما عن صاحبه، ومعنى قضى أمراً. أتمه، أو حكم بأنه يفعله **«فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»** أي وإذا أراد إحداث أمر وإيجاده، فإنما يأمره أن يكون موجوداً فيكون، والكلام تمثيل وتشبيه لتعلّق إرادته بإيجاد الشيء فيعقبُه وجودُهُ، بأمرٍ يصْدُرُ فيعقبه الامتثال. والإيجاد والتكوين من أسرار الألوهية، عبّر عنها بما

يقرّبها من الفهم، وهو أن يقول للشيء كن فيكون. وهو كناية عن سرعة الإيجاد و يكون من كان التامة بمعنى أحدث فيحدُث، وليس المراد به حقيقة أمر وامتثال بل تمثيلُ حصُول ما تعلّقتْ به إرادته بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع بلا توقّف (البيضاوي)* وفي الشهاب تعليقاً على قوله: بَلْ تمثيلُ حصُول ما تعلّقت به إرادتُه...الخ. قال: بأن شُبّهت الحال التي تتصوَّر من تعلُّقِ إرادته تعالى بشيء من المكوّنات وسرعة إيجاده إيَّاهُ بحالة أمر الآمر النافذ تصرفُه في المأمور المطيع الذي لا يتوقّف في الإمتثال فأطلق على هذه الحالة ما كان يستعمل في تلك من غير أن يكون هناك أمرٌ وقولٌ* قلتُ: وقد أكّدَ جل جلاله بهذا استبعاد الولادة لأن من كان يتصف بهذه الصفة العظيمة من القدرة وسرعة الإيجاد كانت حالته تقتضي مباينتُه لأحوال الأجسام في توالدها، فهي مخلوقة، والمخلوق مفعول لا فاعل. فالصفتان متباينتان في الفاعلية والمفعولية، والله خَالِق كُلّ شيء وهو على كل شيء قدير. فيكون قد قرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنَّه السيد العظيم الذي لا نظير له، ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولدٌ؟ كما نبّه تعالى أنّ خلق عيسى بكلمة كن فكان قال تعالى: **«إنَّ مَثَلَ عيسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فيكُونُ»**.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«إنّا أرْسَلْنَاكَ بالْحَقِّ بَشيراً ونَذيراً ولاَ تُسْألُ عَنْ أصْحَابِ الْجَحِيمِ»

سورة البقرة (آية: ١١٩)

جـاء في أسباب النزول للواحدى : قال ابن عبَّاس: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم: [ليت شعرى ما فعل أبواى؟] فنزلت هذه الآية. لكن ضعفه الخطيب. وقال مقاتل: إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا فأنزل الله تعالى: **«ولاَ تُسْألُ عَنْ أصْحَابِ الْجَحِيم»*** وفي الخطيب والمختار أنها نزلت في كفار أهل الكتاب. وفي ابن كثير (جـ ١ ص ١٦٢) عن محمد بن كعب القرظى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ليت شعرى ما فعل أبواى. ليت شعرى ما فعل أبواى؟] فنزلت **«ولاَ تُسْألُ عَنْ أصْحَابِ الْجَحِيم»** فما ذكرها حتى توفاه الله عز وجل. ورواه ابن جرير عن أبى كريب، عن وكيع عن موسى بن عبيده. وقد تكلّموا فيه، وقد حكاه القرطبي عن ابن عبّاس، ومحمد بن كعب، قال القرطبي: وهذا كما يقال لا تسأل

عن فلان. أي قد بلغ فوق ما تحسب وقد ذكرنا في التذكرة أنَّ الله أحيى له أبو يه حتى آمنا به. قال ابن كثير: والحديث المروى في حياة أبو يه عليه السلام ليس في شيء من الكتب الستة ولا غيرها، وإسناده ضعيف* لمَّا بين تعالى غاية إصرارهم على العناد، وتصميمهم على الكفر بعد نزول ما يكفى في باب الإقتداء والإهتداء من الآيات البينات أراد أن يُسلِّيَ و يُسرّى عن رسُوله لئلا يضيق صَدْرُه فقال: إنا أرسلناك يا محمد بالحق بالصواب حسب ما تقتضيه الحكمة، وهو أن لا يكون ذلك أن تجبرهم على الايمان، بل لا يتجاوز حالك عن أن تكون بشيراً لمن اتبعك بكل خيرٍ ونذيراً لمن خالفك بكل سوء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فإنك غير مسئول عن أصحاب الجحيم، وهو من أسماء النار، وكل نار عظيمة في مهواة فهي جحيم من قوله تعالى: «**قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَألْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ**» والجاحم المكان الشديد الحر، وهذا كقوله: «**فإنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**»* وفي الخازن (جـ ١ ص ٧٧) «**إنَّا أرْسَلْنَاكَ بالْحَقِّ**» أي بالصدق، وقال ابن عباس: بالقرآن* وقيل: بالإسلام. وقيل معناه: إنَّا لم نرسلك عبثاً بل أرسلناك «**بالحقِّ بَشيراً**» أي مبشراً لأ وليائى، وأهل طاعتى بالثواب العظيم «**ونَذيراً**» أي منذراً ومخوّفاً لأعدائى وأهل معصيتى بالعذاب الأليم* وأخرج البخارى عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبدالله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة، فقال: أجل، والله إنَّه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أرسَلْنَاكَ شَاهِداً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل، لا فظّ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يَدْفعُ بالسيئة السيئة ولكن يعفو، و يغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملَّة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلاَّ الله، فيفتح به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقُلُوباً غُلْفاً* «**ولاَ تُسْألُ عَنْ أصْحَابِ الْجَحِيمِ**» أي فلا يضرنك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم إلى الجحيم، فأنت لم تبعث ملزِماً ولا جبَّاراً، بل بُعثت معلماً وهادياً بالدعوة وحسن الأسوة.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«**وَلَنْ تَرضَى عَنْكَ الْيَهُودُ ولاَ النَّصَارَى حتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ**» سورة البقرة (آية: ١٢٠)

في الواحدي. قال المفسرون: إنهم كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم الهدنة، و يطمعون أنه إذا هادنهم وأمهلهم اتبعوه و وافقوه. فأنزل الله تعالى هذه الآية* وقال ابن عباس: هذا في القبلة، وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى قبلتهم، فلمَّا صرف الله القبلة إلى الكعبة شُقَّ ذلك عليهم، فيئسوا منه أن يوافقهم على دينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية* أي ولن ترضى عنك اليهود إلا باليهودية ولا النصارى إلا بالنصرانية. قال الخطيب: وفي هذا مبالغة في إقناطه صلى الله عليه وسلم عن إسلامهم، وذلك أنهم كانُوا يسألونه الهدنة، و يطمعونه أنه إن أمهلهم اتّبعوه فأنزل الله تعالى هذه الآية* فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم فكيف يتبعون ملَّته؟. وفي القرطبي نحو هذا. وعبارته أنهم كانوا يسألونه المسالمة والهدنة و يَعدون النبي صلى الله عليه وسلم بالإسلام، فأعلمه الله أنهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم وأمره بجهادهم* «**قُلْ**» تعليماً للجواب «**إِنَّ هُدَى اللهِ**» أي دين الإسلام «**هُوَ الْهُدَى**» أي هو الذي يصح أن يُسمّى هُدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى، وما يدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو أهواء ألا ترى إلى قوله تعالى: «**وَلَئِنْ**» اللام الموطئة للقسم «**اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ**» أي آراءهم الزائفة التي يدعونك إليها «**بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**» أي من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة «**مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ**» يحفظك «**وَلاَ نَصِيرٍ**» يمنعك منه. وقد أفادت الآية أن الكفر كله ملَّة واحدة لقوله تعالى: «**مِلَّتَهُمْ**» فوحد الملة، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي وداود وأحمد بن حنبل، وفي رواية لأحمد ومالك أن الكفر مِلَلٌ، فلا يرث اليهوديُّ النصرانيَّ، ولا يرثان المجوسيَّ، وعلى القول الأول يرث كل واحد منهما الآخر. وقيل: في قوله تعالى: «**وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ**» أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد به أمَّته، والمعنى إيَّاكم أخاطبُ، ولكن أؤدب وأنهى، فقد علمتم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد جاءكم بالحق والصدق، وقد عَصَمْتُه، فلا تتبعوا أنتم أهواء الكافرين، ولئن اتّبعتُم أهواءهم بعد الذي جاءكم من العلم والبينات مالكم من الله من وليّ ولا نصير* وفي هذا تهديد و وعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنّصارى بعد ما علموا من القرآن والسنَّة عياذاً بالله من أنهم يحرفون كلام الله عن مواضعه بتأو يلاتهم الفاسدة، وأنهم نسوا حظاً مما ذكّرُوا به من صفات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل إلى آخر ما ذكره تعالى من صفاتهم السيئة في القرآن

الكريم من قتلهم الأنبياء بغير حق، وإنكارهم لشرائعهم التي جاؤهم بها، وأكلهم الرشا وأموال الناس بالباطل وغير ذلك من الصفات الذميمة، وهذا القول جارٍ على مجرى العرف في خطاب الملوك، أن يقال لِلْمَلِكِ: إذا فعلت كذا كانت العاقبة كذا، و يُرادُ إذا فعلته دولتُك، أو أمتُكَ. والكلام هنا جاء على هذا الأسلوب ليرشد من يأتي بعده أن يصدع بالحق، و ينتصر له، ولا يبالى بمن خالفه مهما قوى واشتد أمره، فمن عرف الحق، وعرف أنَّ الله وليُّ أمره وناصره لا يخاف في تأييده لوم اللائمين، ولا إنكار المعاندين.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِه أُلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فأولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» سورة البقرة (آية: ١٢١)

ذكر الواحدى في أسباب النزول عدة أقوال في أسباب نزول هذه الآية منها: قال ابن عباس في رواية عطاء والكلبي: نزلت في أصحاب السفينة الذين أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة كانوا أربعين رجلاً من الحبشة وأهل الشام* وقال الضحاك: نزلت فيمن آمن من اليهود* وقال قتادة وعكرمة: نزلت في محمد صلى الله عليه وسلم* وعبارة الخطيب تشير إلى أنها نزلت في اليهود فقال: **«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِه»** أي يعرفونه كما أنزل لا يحرفونه، ولا يُغيرُّون ما فيه من نعت محمد صلى الله عليه وسلم **«أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ»** أي بكتابهم دون المحرّفين **«وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ»** أي بالكتاب المؤتى بأن يُحرِّفَهُ **«فأولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ»** لمصيرهم إلى النَّار* وفي القرطبي: قال قتادة: هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. فالكتاب على هذا التأويل القرآن. وقال ابن زيد: هم ممن أسلم من بنى إسرائيل. فالكتاب على هذا التأويل التوراة. والآية تعمُّ الكتابين وأهليهما. واختلفوا في معنى **«يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِه»** فقيل: يتَّبعونه حق اتباعه باتباع أوامره ويجتنبون نواهيه، ويحلُّون حلاله ويحرِّمون حرامه، و يعملون بما تضمنه. وفي هذا قال عكرمة: أما سمعت قول الله تعالى: **«والْقَمَرِ إذَا تلاهَا»** أي اتبعها، وهو معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم. وروى نصر بن عيسى عن مالك، عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله **«يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِه»** قال: يتبعُونه حق اتباعه. لكن في إسناده مجاهيل. وأن معناه صحيح. قال أبوموسى الأشعرى: من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة* وعن عمر بن الخطاب رضي الله

عنه: هُمُ الذين إذا مرُّوا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مرُّوا بآية عذاب تعوَّذُوا» وقال الحسن: هم الذين يعلمون بمحكمه و يؤمنون بمتشابهه، و يكلون ما أشكل عليهم إلى عالمهم» وقيل: يقرؤنه حقّ قراءته» قال القرطبي: وفيه بعد إلا أن يكون المعنى يرتلون ألفاظه، و يفهمون معانيه، فإنَّ بفهم المعاني يكون الاتباع لمن وفّق» زاد الخازن (جـ ١ ص ٧٨) في رواية ابن عباس وهي قوله: أن الآية نزلت في أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب، قال: وكانوا أربعين رجلاً: إثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة، وثمانية من رهبان الشام منهم بحيرا الراهب» وقيل: هم مؤمنوا أهل الكتاب مثل عبدالله بن سلام وأصحابه» وقيل هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة» وقيل: هم المؤمنون عامة» وفي ابن كثير (جـ ١ ص ١٦٣) وقال أبو العالية: قال ابن مسعود: والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه، و يقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوّل شيئاً على غير تأويله» وهذا القول هو الصحيح لأن الكتاب الذي يمدح على تلاوته هو القرآن الكريم المحفوظ من التحريف أو التبديل. ففي الطبرى (جـ ١ ص ٤١١) عن قتادة في قوله: «**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ**» قال: هؤلاء أصحاب نبيّ الله صلى الله عليه وسلم آمنوا بكتاب الله وصدّقوا به» «**أُولئكَ**» يعنى الذين يتلونه حق تلاوته «**يُؤْمِنُونَ بِهِ**» أي يصدقون به «**وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ**» أي يجحد ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم «**فأولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**» أي خسروا أنفسهم حيث استبدلوا الكفر بالإيمان.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«أم كُنْتُمْ شُهَداءَ إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْت إذْ قَالَ لِبَنِيهِ ماَ تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدي قَالُوا نَعْبُدُ إلهَكَ وإلَهَ آبَائِكَ إبْراهِيمَ وإسْمَاعِيلَ وإسْحَاقَ إلٰهاً وَاحِداً ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»البقرة آية (١٣٣) فى الواحدى نزلت الآية فى اليهود حين قالوا للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: ألست تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية؟» وفى القرطبي: والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون إلى دين إبراهيم ما يُعص به نبيَّهُ، وأنهم على اليهودية والنصرانية، فرد الله عليهم قولهم وكذبهم» وفى الطبرى (جـ ١ ص ٤٣٩) عن الربيع قوله «**أمْ كُنْتُم شُهَداءَ**» يعنى أهل الكتاب» وشهداء، جمع شاهد أو شهيد. بمعنى الحاضر. أي ما كنتم حاضرين. و يعنى تعالى ذكره بقوله: «**أم كنتُم شُهَداءَ**»

أكنتم، ولكنه استفهم بأم إذ كان استفهاماً مستأنفاً على كلام قد سبقه كما قيل «ألـم. تنزيلُ الكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ ربِّ العَالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ»وكذلك تفعل العرب فى كل استفهام ابتدأته بعد كلام قد سبقه، تَسْتَفْهِمُ فيه بأم. وفى الكشاف (جـ ١ ص ٣١٣) هى أم المنقطعة، ومعنى الهمزة فيها للإنكار، وردّ الزمخشرى الخطاب فيه للمؤمنين. بمعنى ما شاهدتم. قال ابن المنير: رحمه الله. وإنما اختار على هذا التفسير أن تكون متصلة، لأنه لو جعلها منقطعة كالأول لكان مضمون الكلام نفى شهود المخاطبين، وهم اليهود على هذا التفسير الثانى لوفاة يعقوب والوصية بالإسلام، وحينئذ يكون ذلك كاقامة حجتهم على جحد الاسلام، وإنكار أن يكون الأنبياء مسلمين، والغرض ضدّ ذلك، وإنما كان الكلام يقتضى النفى حينئذ لأن الاستفهام من الله تعالى على ظاهره، فتعيَّن صرفه إلى الانكار لأن السياق يقتضيه، ولهذا كان نفياً لشهود المسلمين، وفاة يعقوب ووصيَّتُه على التفسير الأول لا سيا والمعتاد خطاب اليهود المعاصرين للنبىّ عليه الصلاة والسلام بما يخاطب به أوائلهم، وتنزيلاً لعلمهم ورضاهم منزلة حضورهم وتعاطيهم كقوله تعالى: «وإذْ قَتَلْتُم نَفْساً ــ وإذْ قُلْتُم يامُوسَى»إلى أشباه ذلك، فإذا كانت أم متصلة والخطاب لليهود فقد جرى الأمر فى خطابهم على المعتاد، وإذا كانت منقطعة انعكس الأمر. وقد جرى المفسرون على أنه خطاب لأهل الكتاب. أي كان يهودياً أو نصرانياً، لما روى من أن اليهود قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم: ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية. وخلاصة ذلك. أنتم يا معشر اليهود لم تحضروا ذلك إذ قال يقوب لبنيه حين حضرته الوفاة « ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي؟»ومراده من هذا السؤال أخذ الميثاق عليهم بثباتهم على الاسلام والتوحيد، وأن يكون مقصدهم فى جميع أعمالهم وجه الله ومرضاته، وإبعادهم عن عبادةِ الأصنام والأوثان، فلا تدَّعوا الأباطيل وتنسبُوهُ إلى اليهودية أو النصرانية، فإنى ما أرسلتُ إبراهيم وبنيه إلا بالحنيفية المسلمة، وبها وصوا بنيهم وعهدوا إلى أولادهم من بعدهم. «قَالُوا نَعْبُدُ إلٰهَكَ وإلٰهَ آبائكَ إبْراهِيمَ وإسْمَاعِيلَ وإسْحَاقَ إلٰـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» أي قالوا: نعبد الإله الذى قامت الأدلة العقلية والحسِّيةُ على وجوده، ووجوب عبادته لا نشرك به سواه، ونحن له منقادون خاضعون، معترفون له بالعبودية، متوجهون إليه عند الملمات. وكان سبب هذا السؤال خوف يعقوب على بنيه من عبادة غير الله حيث كانوا فى عصر فشت فيه عبادة الأصنام

والكواكب والحيوان وغيرها وهذا السرُّ فى قول إبراهيم عليه السلام « **واجْنُبْني وَبَنِىَّ أنْ نَعْبُدُ الأصْنَامَ**» وقد جعلوا إسماعيل (وهوعمُّه) أباً تشبيهاً له بالأب. روى الشيخان قوله عليه الصلاة والسلام: [عَمُّ الرَّجلِ صنْوُ أبيهِ] وقد أرشدت الآية الكريمة إلى أن دين الله واحد فى كل أمة، وعلى لسان كل نبىّ، وروحه التوحيد والاستسلام لله ربّ العالمين، والاذعان لهدى الأنبياء المرسلين، وبهذا كان يوصى النّبيون أممهم كما قال: « **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وصَّىَ بِهِ نوحاً والَّذِى أوْحَينا إلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِه إبْراهِيمَ ومُوسَى وَعيسَى أنْ أقِيمُوا الدِّينَ ولاَ تَتَفَرَّقُوا فيهِ**»* قال المراغى فى تفسيره: (ج١ ص٢٢٢) فالقرآن يحثُّ النَّاسَ على الاتفاق فى الدين الذى أساسه أمران: أولهما التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه. وثانيهما الاستسلام لله والخضوع له فى جميع الأعمال، فمن لم يتصف بذلك فليس بالمسلم. أي على الدين القيّم الذى كان عليه الأنبياء. قال: والناس يطلقون الإسلام اليوم لقباً على طوائف من الناس لهم ميزات دينية، وعادات تميزهم من سائر الناس الذين يلقبون بألقاب دينية أخرى، وقد يكون من بعض أهله من لم يكن مستسلماً مخلصاً لله فى أعماله، بل قد يكون مبتدعاً ما ليس منه، أو فاسقاً قد اتخذ إلهه هواهُ. والإسلام الذى دعا إليه القرآن هو الذى دعا إليه النبىُّ صلى الله عليه وسلم، ولم يدع إلى الإسلام بمعنى ذلك اللقب المعروف اليوم* قلتُ: وهناك بون شاسع بين ما جاء به الإسلام من الأخلاق القويمة و بين ما عليه غالب المسلمين اليوم من المفاسد الخلقية الذميمة، فالمسلم الكامل بإسلامه هو كالدُّرة النقية أو الجوهرة الثمينة التى لا تقوم بأثمان الدنيا كلها لَمَا انطبعت عليه نفسه الزكية من الايمان الصادق، والإخلاص فى جميع أعماله مبتغيا بها وجه الله العظيم، فأينما يتوجه يتوجه بخير ولا يأتى إلا بخير. سبحان الله!! كل أمره حسن. وقوله «**إذْ حَضَرَ**» إذ منصوب بشهداء على أنه ظرف لا مفعول به. أي أكنتم شهداء وقت حضور الموت إياه، وحضور الموت كناية عن حضور أسبابه ومقدماته (وقوله: يَعْقوبَ) سُمّى بذلك لأنه هو وأخوه العيص كانا توأمين فى بطن واحد، فتقدم العيص وقت الولادة فى الخروج مسابقةً ليعقوب، فتأخر يعقوب عنه ونزل على إثره، وعقبه فى الخروج ذكره الخازن فى تفسيره (ج١ ص٨٥) قال ابن عباس* وقيل: سُمِّى يعقوب لكثرة عقبه، وكان له من الولد اثناعشر، وهم روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا، وعبالون و يشجر ودان وتفتالى، وجاء وآشر و يوسف و بنيامين. وقوله «**إذْ قَالَ**»

أي يعقوب «لِبَنِيهِ» لأولاده الاثنى عشر «مَا تَعْبُدُونَ» ما اسم استفهام فى محل نصب لأنه مفعول مقدم لتعبدون، وهو واجب التقديم لأن له صدر الكلام. أي أيُّ شيىء تعبدونه. وأتى جلّ جلاله بلفظ «مَا» دونَ مَنْ، لأن المعبودات ذلك الوقت كانت غير عقلاء كالأوثان والأصنام والشمس والقمر، فاستفهم بما التى لغير العاقل، فعرف بنوه ما أراد. فأجابوه بالحق إذ الجواب على وفق السؤال قوله «مِنْ بَعْدِى» قيل: إن الله تعالى لم يقبض نبيا حتى يخيره بين الحياة والموت، فلما خير يعقوب، وكا قد رأى أهل مصر يعبدون الأوثان والنيران، فقال: انظرنى حتى أسأل ولدى، وأوصيهم، فأمهله فجمع ولده، وَوُلْدَ ولَدِه، وقال لهم: قد حضر أجلى «ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى؟» وهو قول عطاء «قَالُوا نَعْبُدُ إلٰـهَكَ وَإلٰهَ آبائِكَ إبْراهِيمَ وَإسْمَاعِيلَ وَإسْحَاقَ» إنما قدم اسماعيل لأنه كان أكبر من إسحاق(١) وأدخله فى جملة الآباء، وإن كان عماً لهم لأن العرب تسمى العم أبا قال عليه الصلاة والسلام فى عمه العباس: ردوا على أبى. وذلك فى فتح مكة «إلَٰهاً وَاحِداً» لا شريك له لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله: «قُلْ هُوَ الله أحَدٌ* الله الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحَدٌ» «وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون» أى مخلصون له بالعبودية والطاعة، مستقيمين على المِلَّة الحنيفية التى جاء بها ابراهيم عليه السلام. وهى جملة حالية من فاعل نعبُد. أى نعبده حال كوننا مسلمين، أو جملة معطوفة على نعبد وهى أبلغ، أو جملة اعتراضية مؤكدة. والآية التى تليها متعلقة بها وهى «تِلْكَ» إشارة إلى الأمة المذكورة التى هى ابراهيم و يعقوب و بنوهما الموحدون «أمَّةٌ قَدْ خَلَت» مضتْ «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ» أي إن أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدّماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما كسبتم وذلك لافتخارهم بآبائهم «ولاَ تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» ولا تؤاخذون بسيآتهم. والخطاب لأهل الكتاب. أى يا معشر اليهود والنصارى دعوا ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق و يعقوب والمسلمين من أولادهم بغير ما هم أهله، ولا تنحلوهم كفر اليهودية والنصرانية، فان اليهودية لم تأت إلا بعد موسى والنصرانية لم تأت إلا بعد عيسى، فلا تفتروا على الله الكذب فتضيفونها إليهم، فانهم أمة موحدة مسلمة غير مشركة بالله شيئاً، وفى هذا تعريض

(١) وقد أقمت البرهان على ذلك من التوراة والقرآن، وذلك فى كتابى صحيح السيره. (جـ١) أنه أسبق منه فى الولادة بأربع عشرة سنة وأنه جدُّ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وهو بحث نفيس جداً جداً.

باليهود والنصارى المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم تركوا عقيدة التوحيد التى جاء بها أنبياؤهم إلى عقيدة الشرك وعبادة العجل والأصنام والأوثان، فضلاً عن ادعاء اليهود بأن عزيزاً ابن الله، والنصارى بأن عيسى ابن الله. قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

القول فى تأويل قوله تعالى:

«وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»

سورة البقرة آية (١٣٥)

جاء فى أسباب النزول للواحدى: قال ابن عباس: نزلت فى رؤوس يهود المدينة: كعب الأشرف، ومالك بن الصَّيْف، وأبى ياسر ابن أخطب، وفى نصارى أهل نجران، وذلك أنهم خاصموا المسلمين فى الدين كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله تعالى من غيرها. فقالت اليهود: نبيُّنا موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفرت بعيسى والانجيل ومحمد والقرآن. وقال كل واحدٍ من الفريقين للمؤمنين: كونوا على ديننا، فلا دين إلا ذلك، ودعوهم إلى دينهم* وفى القرطبى: دعت كل فرقة إلى ما هى عليه، فردَّ الله ذلك عليهم فقال: **«بَلْ مِلَّةَ ابْرَاهِيمَ حَنِيفاً»** أى قل يا محمد لهم: بل نتبع ملة أى شريعة ابراهيم حنيفاً لأنه حنف إلى دين الله وهو الإسلام. والحنف: الميل. ومنه رِجْلٌ حَنْفاء، ورجل أحنف وهو الذى تميل قدماه كل واحدة منها إلى أختها بأصابعها. والملة فى اللغة: الشريعة والدين. وفى الحديث [لا يتوارثُ أهْلُ مِلَّتيْن] المّلة: الدين كملَّة الإسلام والنصرانية واليهودية، وقيل: هى معظم الدين، وجملة ما يجىء به الرُّسل.. قال أبواسحاق: الملة فى اللغة سنّتُهم وطريقهم، ومن هذا أخذ المَّلة أى الموضع الذى يختبر فيه لأنه يؤثر فى مكانها يؤثر فى الطريق وفى الخازن (ج١ ص٨٦) قال ابن عباس الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام قال الشاعر:

وَلَكـنَّـا خُلِقْنَـا إذْ خُلِقْنَا ... حَنِيفاً دِينُنَا عَنْ كُلِّ دِينِ

والعرب تسمى كل من حج أو اختتن حنيفاً تنبيها على أنه على دين ابراهيم عليه السلام. وقيل: الحنيفية الختان، وإقامة المناسك، وحنيفاً حال من المضاف إليه نحو رأيت وجه هِنْدٍ قائمة وقوله **«وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»** يعنى ابراهيم عليه السلام، وفيه تعريضٌ باليهود والنصارى ومشركى العرب حيث ادعوا أنهم على ملة ابراهيم مع أنه لم يكن

مشركاوهم مشركون، وقد كان الناس من مضر يحجون البيت فى الجاهلية يسمون حنفاء فأنزل الله تعالى ذكره «حُنَفَاءَ لِلّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ»* وفي ابن كثير(جـ ١ ص١٨٦) وقال أبوالعالية: الحنيف الذى يستقبل البيت بصلاته، و يرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلاً* وقال أبوقلابه: الحنيف الذى يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم* وقال قتادة: الحنيفية شهادة أن لا إله إلا الله، يدخل فيه تحريم الأمهات والبنات والخالات والعمات، وما حرم الله عز وجل والختان* وعلى كل فاليهود والنصارى ليسوا من ملة ابراهيم بدليل قوله «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» لكون النصارى قائلين بالتثليث، واليهود بالتشبيه، وأيضاً قالوا عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، فليسوا من ملة ابراهيم التى هى محض التوحيد، ولهذا أعقب الله تعالى هذه الآية بتعليم المؤمنين طرائق الإيمان فقال تعالى «قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ» يعنى قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لكم كونوا هوداً أونصارى تهتدوا آمنا بالله وصدقنا بأنه واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»(١) «وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا» يعنى القرآن «وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ» يعنى وآمنا بما أنزل إلى ابراهيم وهو عشر صحائف، وإنما قدم جلّ جلال الإيمان به لأن معرفة النبي والكتاب متوقفة على معرفته، وفيه إبطال ما ذهب إليه التعليمية والمقلّدة من أن طريق معرفة الله الكتاب والسّنة «وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ» وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر، وأحدهم سبط وكانوا أنبياء، وقيل السبط هو ولد الولد، وهو الحاقد، ومنه قيل للحسن والحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأسباط فى بنى اسرائيل كالقبائل فى العرب من بنى اسماعيل، وكان فى الأسباط أنبياء (الخازن جـ ١ ص٨٧) وكذا فى غرائب القرآن (جـ ١ ص٤٣٨)* أى فهم حفدة يعقوب لأنهم أولاد أولاده، أو ذرارى أبنائه الاثنى عشر. عدد بعض الأنبياء لتقدمهم وشرفهم، ثم عم لتعذر التفصيل. وفى قوله تعالى «وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ» أعاد الموصول «وما» لئلايتوهم من إسقاطه اتحاد المنزّل مع أنه ليس كذلك، وذكر اسماعيل وما بعده لكونهم مروّجين ومقرّرين لما أنزل على إبراهيم فكأنه منزل عليهم أيضاً، وإلا فليسوا منزّلاً عليهم فى الحقيقة. وهكذا قل فى

---

(١) وقد بيّنتُ أطرافاً كثيرة من تشبيهات أهل الكتاب فى كتابى (عقيدة السلف والخلف فى ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله)

كل ما ورد بنحوه فى القرآن الكريم * «ومَا أوتىَ مُوسَى» من التوراة «وَعِيسى» من الانجيل «وَمَا أُوتىَ النَّبِيُّون مِنْ رَبِّهِمْ» من الكتب والآيات عبر بالا تيان دون الإنزال كسابقه فراراً من التكرار الصورى الموجب للنقل في العبارة. وقوله: «وَعِيسَى» لم يعد الموصول بأن يقولُ: وما أوتىَ عيسى. إشارة إلى اتحاد المنزَّل عليه مع المنزَّل على موسى، فإن الانجيل مقرر للتوراة، ولم يخالفها إلا فى قدر يسير فيه تسهيل كما قال تعالى: «وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» والمعنى آمنّا أيضاً بالتوراة والانجيل والكتب التى أوتى جميع النبيّن وصدقنا أن ذلك كله حق وهدى ونورٌ، وأن الجميع من عند الله، وأن جميع ما ذكر الله من أنبيائه كانو على هُدىً وحقٍ «لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ» أى لا نؤمن ببعض الأنبياء، وكما تبرأت النصارى من محمد صلى الله عليه وسلم، وأقرّت ببعض الأنبياء بل نؤمن بكل الأنبياء بلا استثناء، وإن كنا لا نفرق بينهم بالإيمان إلا أنا نفرق بينهم فى الأفضلية. لما ورد به الدليل. وطريق معرفة نبوّة الأنبياء ظهور المعجزة على أيديهم، ولما ظهر المعجز على يد نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم وجب الاعتراف بنبوّته، والإيمان به، وبما أنزل عليه كما اعترفوا بنبوّة ابراهيم وموسى وعيسى، فإن تخصيص البعض بالقبول، وتخصيص البعض بالردّ يوجب المناقضة فى الدليل، وهذا مما يدل عقلاً ونقلاً على أن المسلمين على دين الله الحق، وما عداهم على الباطل والضلال ولهذا قال تعالى «فإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدُوا» أى بما آمنتم به. ومثل صلة فهو كقوله «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيىءٌ» أى ليس مثله شيىء، وقيل: فإن أتوا بإيمان كإيمانكم وتوحيد كتوحيدكم «فَقَدِ اهْتَدُوا» والمعنى حصلوا دينا آخر يساوى هذا الدين فى الصحة والسداد، فقد اهتدوا، ولكن لما استحال أن يوجد دين آخر يساوى هذا الدين فى الصحة والسداد استحال الاهتداء بغيره، لأن هذا الدين مبناهُ على التوحيد، والاقرار بكل الأنبياء، وما أنزل إليهم، وقيل: معناه فإن آمنوا بكتابهم كما آمنتم بكتابهم فقد اهتدوا، ولعلّ ما ذهب إليه الجلال هو الصحيح إذ قال « بِمْثلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ» وقرأ أبيٌّ «بالَّذِى آمنْتُم بِهِ» «وَإنْ تَوَلَّوْا» عما تقولون لهم، ولم ينصفوا فما هم إلا «فِى شِقَاقٍ» أى فى مناوأة ومعاندة لا غير وليسوا من طلاب الحقّ بشيء، أو وإن تولوا عن الشهادة والدخول فى الإيمان بها «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ» ضمان من الله لإظهار رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم وقد أنجز وعده بقتل قريظة وسبيهم، وإجلاء بنى النضير، ومعنى السين

أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» وعيدٌ لهم: أى يسمع ما ينطقون، و يعلم ما يضمرون من الحسد والغل، وهو معاقبتهم عليه.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ» سورة البقرة (آية: ١٣٨)

جاء في أسباب النزول للواحدى. قال ابن عباس: إن النصارى كان إذا ولد لأحدهم ولدٌ، فأتى عليه سبعة أيام صبغوه في ماء لهم يقُال له المعمودى ليطهروه بذلك، و يقولون هذا طهور مكان الختان، فإذا فعلوا ذلك صار نصرانياً حقاً، فأنزل الله الآية* وفي الخازن (ج١ ص٨٧) قال ابن عباس. «صِبْغَةَ اللهِ» دين الله، وهو مصدر مؤكد منتصب عن قوله آمنّا بالله، وهى فعلة من صبغ كالجلسة من جلس، وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ، والمعنى تطهير الله لأن الإيمان يطهر النفوس* وقال البغوى فى تقريرها، ثم إن إطلاق مادة لفظ الصبغ على التطهير مجاز تشبيهى، وذلك أنه شّبه التطهير من الكفر بالإيمان بصبغ المغموس فى الصبغ الحسى، ووجه الشبه ظهور أثر كُلٍّ منها على ظاهر صاحبه، فيظهر أثر التطهير على المؤمن حسّاً ومعنى بالعمل الصالح، والأخلاق الطيّبة كما يظهر أثر الصّبغ على الثوب، ولا ينافى ذلك كونه مشاكلة* أي كقولك لمن يغرس الأشجار اغرس كما يغرس فلان تريد رجلاً يصطنع الكرام* وحاصله أنَّ الصبغ ليس بمذكور لا فى كلام الله ولا فى كلام النّصارى، ولكن غمسهم الأ ولاد عبارة عن الصبغ، وإن لم يتكلموا به، والآية نازلة فى سياق هذا فكأن لفظ الصبغ مذكور* وفى ابن كثير (ج١ ص١٨٨) عن ابن عباس أن نبيَ الله صلى الله عليه وسلم قال: إن بنى إسرائيل قالوا: يارسول الله هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله، فناداه ربه: يا موسى سألوك هل يصبغ ربك؟ فقل نعم: أنا أصبغ الألوان الأحمر والأ بيض والأسود والألوان كلها من صبغى، وأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم «صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً» قال ابن كثير: كذا وقع فى رواية ابن مردو يه مرفوعاً، وهو فى رواية ابن أبى حاتم موقوف، وهو أشبه إن صح إسناده والله أعلم. وفى الكشاف (ج١ ص٣١٦) والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمُّونه المعموديّة، و يقولون: هو تطهير لهم، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً حقاً، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: ــ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ ــ وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل

صبغتنا، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا، أو يقول المسلمون: صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم* وفى الطبرى (ج١ ص٤٤٤) عن قتادة **(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً)** أن اليهود تصبغ أبناءها يهودَ، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى. وأن صبغة الله الإسلام، فلا صبغة أحسن من الإسلام ولا أطهر، وهو دين الله الذى بعث به نوحاً والأنبياء بعْدَهُ* وعن أبى العالية **«وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً»** ومن أحسن من الله ديناً* وهو قول السدى وابن عباس وابن زيد. وفى الخطيب **«صِبْغَةَ اللَّهِ»** أي دينه الذى فطر الناس عليه بظهور أثره على صاحبه. كالصبغ للثوب، وأورد السبب الذى أورده الواحدى، والعبارات التى ذكرها الزمخشرى. وفى القرطبى: **«صِبْغَةَ اللَّهِ»** غُسْلُ الله، أى اغتسلوا عند إسلامكم الغسل الذى أوجبه الله عليكم، قال: وبهذا المعنى جاءت السُّنَّةُ الثابتة فى قيس بن عاصم وثُمامة بن أثَال حين أسلما، روى أبو حاتم البُسْتِى فى صحيح مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن ثُمامة الحنفى ــ أى ابن أثال ــ فرَّ به النبى صلى الله عليه وسلم يوماً فأسْلَمَ، فبعث به إلى حائط أبى طلحة ــ بستان من النخيل إذا كان عليه جدار ــ فأمره أن يغتسل فاغتسل وصلى ركعتين، فقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: (حَسُنَ إسلام صاحبكم* قلتُ: وهو بعيد الاستدلال عما نحن بصدده، ولعله أراد أن ذلك بمنزلة غسل الإسلام والجنابة لأهل الإسلام فتكون الدلالة قريبة المعنى والله أعلم **«وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ»** مطيعون: معطوف على آمنا، فهو داخل معه تحت الأمر. أى وقولوا: ونَحْنُ الخ.. وقوله **«صِبْغَةَ اللَّهِ»** الخ... معترض بين قولوا آمنا ونحن له عابدون. قوله **«وَمَنْ أَحْسَنُ»** مبتدأ وخبر، وهذا استفهام معناه النفى، أى لا أحد، وأحسن هنا فيها احتمالان: أحدهما أنها ليست للتفضيل إذ صبغة غير الله منتف عنها الحسن. الثانى أن يراد التفضيل باعتبار من يبصر أن فى صبغة غير الله حسناً لا عن ذلك بالنسبة إلى حقيقة الشيء، ومن الله متعلق بأحسن فهو فى محل نصب، وصبغةً نصب على التميز من أحسن، وهو من التميز المنقول من المبتدأ، والتقدير، ومن صبغته أحسن من صبغة الله، فالتفضيل إنما يجرى بين الصبغتين لا بين الصابغين، وهذا غريب أعنى كون التمييز منقولاً من المبتدأ* يعنى أنه يصبغ عباده بالإيمان و يطهرهم به من أوضار الكفر، فلا صبغة أحسن من صبغته، وتقدَّم أن **«وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ»** عطف على آمنا. وهذا العطف يردُّ قول من زعم أنّ صبغة الله بدل من ملَّة إبراهيم، أو نصب على الاغراء بمعنى عليكم صبغة الله لما

فيه من فك النظم، وإخراج الكلام عن التآمه واتّساقه. وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذى ذكره سيبويه* (من السمين والكشاف ج١ ص٣١٦)

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ» سورة البقرة آية (١٣٩)

جاء فى تفسير الخطيب: ولما قالت اليهود للمسلمين نحن أهل الكتاب الأول، وقبلتنا أقدمُ، ولم تكن الأنبياء من العرب لأنهم عبدة الأوثان، ولو كان محمَّدٌ نبيّاً لكان منّا لأنّا أهل الكتاب. نزل (قُلْ) لهم (أَتُحاجُونَنَا) أى اتجادلوننا وتخاصموننا (فى الله) أى فى شأنه أن اصطفى النبىَّ صلى الله عليه وسلم من دونكم، و يقولون لو أنزل الله على أحدٍ لأنزل علينا، وترون أنكم أحقٌّ بالنبّوة منا **«وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ»** نشترك جميعا فى أنبا عباده، وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده، لا يخص به عجميٌّ دون عربيّ إذا كان أهلاً للكرامة **«وَلَنَا أَعْمَالُنَا»** نجازى بها **«وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ»** تجازون بها، أى كما أن لكم اعمالاً يعتبرها الله فى إعطاء الكرامة ومنعها، فنحن كذلك، فالعمل هو أساس الأمر، و به العبرة **«وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ»** فى الدين والعمل دونكم، فنحن أولى بالاصطفاء فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه لكرامته بالنبوّة. والهمزة للانكار، والجمل الثلاث أحوال* وفى القرطبى: قال الحسن: كانت المحاجة أن قالوا: نحن أولى بالله منكم لأنّا أبناء الله وأحباؤه* وقيل: لتقدّم آبائنا وكتبنا، ولأنّا لَمْ نعبد الأوثان. فمعنى الآية: قل لهم: يا محمد أى قل لهؤلاء اليهود، والنصارى الذين زعموا أنهم أبناءُ الله وأحباؤه، وادعوا أنهم أولى بالله منكم لقدم آبائهم وكتبهم **«أتحاجُّونَنَا»** أى أتجاذبوننا الحجة على دعواكم والربُّ واحد، وكل مجازى بعمله، **فأيُّ** تأثير لقدم الدين. ومعنى **«فى الله»** أى فى دينه، والقرب منه والحظوة لَهُ **«وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصونَ»** أى مخلصون له العبادة دلَّ المفهوم المخالف على التوبيخ لأهل الكتاب. أى ولم تخلصوا له أنتم، فكيف تدعون ما نحن أولى به منكم. إننا لا نشرك به شيئاً، ولا نعبد غيره أحداً كما عبد أهل الأوثان معه الأوثان، وأصحاب العجل معه العجل، فكيف تخاصموننا فى الله وتجادلوننا فيه؟! والاخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله لله تعالى فلا يشرك فى دينه، ولا يُرائى بعمله. قال الفضيل بن عياض: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شركٌ،

والإخلاصُ أن يعافيك الله منها وهذه الآية منسوخة بآية السيف. وقوله: « **أتحاجُّونَنَا**» هذه الجملة فى محل نصب بالقول قبلها، والضمير فى قل يحتمل أن يكون للنبى صلى الله عليه وسلم، أو لكل من صلح للخطاب، والضمير المرفوع فى أتحاجوننا لليهود والنصارى، أو لمشركى العرب، والمحاجَّةُ مفاعلةٌ من حَجَّهُ يُحجّهُ «**في الله**» لا بد من حذف مضاف أى فى شأن الله، أو فى دين الله. والمعنى: أي اتخاصموننا فى اصطفاء الله نبيّاً منّا، ولا ينبغى هذا منكم، والحالُ أنه ربنا وربكم، فله أن يجعل النبوة فيمن شاء بمحض الفضل، وإن توهمتم أن النبوة مرتبة على العمل فلا ينبغى أيضاً منكم ما ذكر لأن لنا عملاً كما لكم عملٌ، فللهِ أن يرتب النبوة على عملنا كما له أن يرتبها على عملكم بل نحن أولى منكم بها لأنا مخلصون فى عملنا دونكم. وعبارة البيضاوى فى قوله «**وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ**» ـ فله أن يصطفى من عباده من يشاء ـ أي بمحض الفضل بما نستحق به الإكرام* أى عمل نستحق الإكرام بسببه بأن يرتب عليه النبوة، فكأنه ألزمهم على كل مذهب يقصدونه و يقيمون عليه افحاماً وتبكيتاً، فإن كرامة النبوة إما تفضل من الله تعالى على من يشاء من عباده، والكل فيه سواء. وإما إفاضة حق على المستعدين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلي بالإخلاص، فكما أن لكم أعمالاً ربما يعتبرها الله فى إعطائها فلنا أيضا أعمال.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ* وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ومَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ ومَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ» سورة البقرة (الآية: ١٤٢، ١٤٣)

ذكر الواحدى فى أسباب النزول أن الآية نزلت فى تحويل القبلة، وذلك لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبُّ أن يتوجه نحو الكعبة، فأنزل الله تعالى: «**قد نَرى تَقَلُّبَ وجْهِكَ فِي السَّمَاءِ**» إلى آخر الآية. فقال السُّفهاء من الناس:

وهم اليهود، ما ولاَّهُمْ عن قبلتهم التى كانوا عليها؟ قال الله تعالى: «**قُلْ لله الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ**» إلى آخر الآية. رواه البخارى عن عبدالله بن رجاء. قلت: ورواية أبى ذرّ فى البخارى من قوله تعالى: «**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ...**» إلى آخر الآية، وروى الآية الأولى إلى «**مَا ولاَّهُمْ عن قِبْلَتِهِمْ...**» ورواية البخارى عن البراء رضى الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى إلى بيت المقدس ستة عشرة شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أو صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمرّ على أهل المسجد، وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم قِبل مكة فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذى مات على القبلة قبل أن تحول قِبل البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله «**ومَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانكُمْ إِنَّ اللهَ بالنَّاسِ لرؤف رَحِيمٌ**» «**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ**» أى الجهال من الناس، والسفه خفة فى النفس لنقصان العقل فى الأمور الدينية والدنيوية، ولا شك أن ذلك فى باب الدين أعظم لأن العادل عن الأمر الواضح فى أمر دنياه يعد سفيهاً. فمن كان كذلك فى أمر دينه كان أولى بهذا الإسم، فلا كافر إلا وهو سفيه، ولهذا كان اليهود والمشركون والمنافقون سفهاء لنزول الآية فيهم. وفى التنزيل: «**إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ**» قال الزجاج: القول الجيد عندى فى هذا أن سَفِهَ* فى موضع جَهِلَ، والمعنى والله أعلم. إلا من جهل نفسه. أى لم يفكر فى نفسه. فوضع سَفِهَ فى موضع جهل، وفى الحديث المرفوع حين سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الكبر فقال: الكِبْرُ أن تسفه الحق، وتَغْمِطَ الناس* فجعل سفه واقعاً معناه أن تجهل الحق فلا تراه حقاً. فيكون معنى السفهاء فى الآية: الجهلاء الذين يجهلون ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من الحق لقصور علومهم وخفة عقولهم. روى ثعلب عن ابن الأعرابى أنه قال: الزَّامِهُ: السَّرابُ، والسَّافِهُ: الأحمق* وفى قوله تعالى: «**ولاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً**» قال اللحيانى: بلغنا أنهم النساء والصبيان الصغار لأنهم جهال بموضع الثقة. قال: وروى عن ابن عباس أنه قال: النساء أسفه السفهاء* وفى التهذيب: وسّميت ـ أى المرأة ـ سفيهة لضعف عقلها. ولأنها لا تحسن سياسة مالها. وكذلك الأولاد ما لم يؤنس رشدهم، وقول المشركين للنبى صلى الله عليه وسلم: أَتُسَفِّهُ أحلامنا؟.* معناه أتجهل أحلامنا. وقوله تعالى: «**فإنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً**» السفيه:

هنا. الخفيف العقل من قولهم: تسفهت الرياح الشيء إذا استخفته فحركته* وقيل: نزلت الآية فى مشركى مكة خاصة، وذلك أنهم قالوا قد تردد على محمد أمره، واشتاق مولده، وقد توجه إلى نحو بلدكم، فلعله يرجع إلى دينكم. وقيل: نزلت فى المنافقين، وإنما قالوا ذلك استهزاء بالإسلام. والأولى أن يقال: إن لفظ السفهاء فى الآية عام فيدخل فيه جميع الكفار والمنافقين واليهود. لاحتمال وقوع الكلام المذكور فى الآية من كلهم. إذ لا فائدة فى التخصيص. ولأن الأعداء يبالغون فى الطعن والقدح فإذا وجدوا مقالاً قالوا أو مجالاً جالُوا. قلت: وقد أجمع الأمة على أن هذه الآية دليل واضح على النسخ فى أحكام الله تعالى. وأجمع العلماء على أن القبلة أول ما نسخ من القرآن، ودلت على جواز نسخ السنة بالقرآن وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس، وليس فى ذلك قرآن، فلم يكن الحكم إلا من جهة السنة، ثم نسخ ذلك بالقرآن، وفيها دليل على جواز القطع بخبر الواحد، وذلك أن استقبال بيت المقدس كان مقطوعاً به من الشريعة عندهم، ثم أنَّ أهل قباء لما أتاهم الآتى، وأخبرهم أن القبلة تحولت إلى المسجد الحرام، قبلوا قوله، واستداروا نحو الكعبة، فتركوا المتواتر بخبر الواحد، وهو مظنون* وفى الطبرى (ج٢ ص٣) عن ابن عباس قال: لما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، وصرفت فى رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفاعة بن قيس وقردم بن عمرو، وكعب بن الأشرف ونافع بن أبى نافع هكذا قال ابن حميد: وقال أبو كريب، ورافع بن أبى رافع، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، والربيع بن الربيع بن الحقيق، وكنانة بن أبى الحقيق. فقالوا: يا محمد ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة ابراهيم ودينه، أرجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك، وإنما يريدون فتنته عن دينه، فأنزل الله فيهم: «**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا**» ــ إلى قوله ــ «**إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**» ثم ذكر عدة روايات فى نفس المعنى و بألفاظ متقاربة لما ذكرت* وقوله تعالى «**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ**» أتى بالسين مع ما مضى القول المذكور لاستمرارهم عليه. بناء على أن الآية متقدمة فى نظم القرآن متأخرة فى النزول عن آية «**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ**» كما ذكره ابن عباس وغيره. فمعنى سيقول السفها أنهم يستمرون على هذا القول، وإن

كانوا قد قالوه، وحكمة الاستقبال أنهم كما قالوا ذلك فى الماضى منهم أيضاً من يقوله فى المستقبل وقوله «مِنَ النّاسِ» فى محل نصب على الحال من السفهاء، والعامل فيه سيقول، وهى حال مبينة فإن السفه كما يوصف به الناس يوصف به غيرهم من الحيوان والجماد، وكما ينسب القول إليهم حقيقة ينسب لغيرهم مجازاً، فرفع المجاز بقوله من الناس. «مَا وَلاَّهُمْ» أى أىُّ شىء صرفهم «عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا» فما هنا استفهامية، والجملة بعدها خبرها، وهى مع خبرها فى محل نصب بالقول، والاستفهام للانكار. أى أىُّ شَىْءٍ، وأىُّ سبب اقتضى انصرافهم عن قبلتهم التى كانو عليها. أى لأى سبب يقتضى ذلك، وإنما هو من تشهيهم وتصرفهم برأيهم، ومحصل الجواب المذكور بقوله «قُلْ لله ِالْمَشرِقُ والْمَغْرِبُ» بيان السبب المقتضى لذلك، وهو إرادة المالك المختار. والقبلة هى التى يستقبلها الإنسان، وإنما سمِّيَتْ قبلة لأن المصلى يقابلها وتقابله، ولما قال السفهاء ذلك رد الله تعالى عليهم بقوله: «قُلْ» يا محمد «لله ِالْمَشْرِقُ والْمغرِبُ» يعنى أن له قطرى المشرق والمغرب، وما بينهما ملكا، فلا يستحق شيىء أن يكون لذاته قبلة لأن الجهات كلها شيىء واحدٌ، وإنما تصير قبلة لأن الله تعالى هو الذى جعلها قبلة فلا اعتراض عليه، و بعبارة أخرى فيأمر بالتوجه إلى أى جهة شاء. أى لا يختص به مكان دون مكان لخاصة ذاتية تمنع إقامة غيره مقامه، وإنما العبرة بارتسام امره أى امتثاله لا بخصوص المكان، وتخصيص هاتين الجهتين بالذكر لمزيد ظهورهما حيث كان أحدهما مطلع الأنوار والاصباح والآخر مغربا، ولكثرة توجه الناس إليهما لتحقيق الأوقات لتحصيل المقاصد والمهمات «يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» هدايته من عباده بالتوجه إليها. «إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» يعنى إلى جهة الكعبة، وهى قبلة ابراهيم عليه السلام «وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أمَّةً وَسَطاً» الكاف فى قوله: وكذلك. كاف التشبيه جاء لمشبه به، وفيه وجوهٌ* أحدها إنه معطوف على ما تقدم من قوله فى حق إبراهيم «وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الْدنْيا ـ وَكَذِلكَ جَعَلْنَاكُمْ أمَّةً وَسَطَاً»* الثانى: أنه معطوف على قوله «يهْدِى مَنْ يشَاءُ إلىَ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» وَكَذلِكَ هَدْيناكُمْ وَجَعْلنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً* الثالث: قيل: معناه كما جعلنا قبلتكم وسطاً بين المشرق والمغرب ـ كذلك جعلناكم أمة وسطاً. يعنى عدولاً خياراً. أى مزكين بالعلم والعمل أى ممدوحين بهما لأن الوسط مستلزم للخيار والعدول. وأصل الوسط مكان تستوى إليه المساحة من سائر الجوانب، ثم استعير للخصال

المحمودة، ثم اطلق على المتصف بها، والآية دلت على أن الاجماع حجة إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانْثَلَمتْ به عدالتهم. أى اختلت. «لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» وذلك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد، ثم يقول لكفار الأمم: ألم يأتكم نذير؟ فينكرون و يقولون ما جاءنا من نذير، فيسأل الله الأنبياء عن ذلك، فيقولون كذبوا، قد بلغنا فسألهم البينة ــ وهو أعلم بهم ــ إقامة الحجة، فيقولون: أمة محمد صلى الله عليه وسلم تشهد لنا، فيؤتى بأمة محمد عليه الصلاة والسلام، فيشهدون لهم أنهم قد بلغوا، فتقول الأمم الماضية: من أين علموا، وإنما كانوا بعدنا؟ فيسأل الله تعالى هذه الأمة: فيقولون: أرسلت إليهم رسولاً، وأنزلت علينا كتاباً أخبرتنا فيه بتبليغ الرسل، وأنت صادق فيما أخبرت، ثم يؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم فيسأل عن حال أمته فيزكيهم و يشهد بصدقهم. (الخازن ج١ ص٨٩)* «وَمَا جَعَلْنَا» صيرنا «الْقِبْلَةَ» لك الآن الجهة «الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا» أولاً، وهى الكعبة، وكان صلى الله عليه وسلم يصلى إليها، فلما هاجر أمر باستقبال بيت المقدس تألفاً لليهود، فصلى إليها ستة أو سبعة عشر شهراً، ثم حول... «إِلاَّ لِنَعْلَمَ» علم ظهور. وهو استثناء مفرغ من أعم العلل. أى وما جعلنا ذلك لشيىء من الأشياء إلا لنمتحن الناس. أى نعاملهم معاملة من يمتحنهم، فنعلم حينئذ من يتبع الرسول فى التوجه إلى ما أمر به من الدين أو القبلة. والالتفات إلى الغيبة مع إيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة للإشعار بعلة الاتباع* (أبو السعود)* وقوله، علم ظهور. جواب عما يفهم من الآية من حدوث العلم، فأجاب بأن المراد إلا ليظهر علمنا من يتبع الخ.. فالّذى يتجدد ظهور العلم لا نفسه.. وفى الحقيقة الذى يحدث متعلق العلم وهو إيمان بعض وكفر بعض* (وفى الخازن) والمعنى. لنعلم العلم الذى يستحق العامل عليه الثواب والعقاب. وقيل: العلم هنا بمعنى الرؤية أى لنرى ونميز من يتبع الرسول فى القبلة ممن ينقلب على عقبيه، وقيل: معناه إلا لتعلم رسلى وحزبى وأوليائى من المؤمنين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وكا من شأن العرب إضافة ما فعله الأتباع إلى الكبير كقولهم: فتح عمر العراق، وجبى خراجها، وإنما فعل ذلك أتباعه عن أمره. وقيل: إنما قال إلا لنعلم، وهو بذلك عالم قبل كونه على وجه الرفق بعباده ومعناه إلا لتعلموا أنتم إذ كنتم جهالاً به قبل كونه، فاضافة العلم إلى نفسه رفقا بعباده المخاطبين. وقيل: معناه لعلمنا لأنه تعالى سبق فى علمه أن تحو يل القبلة سبب لهداية قوم وضلالة

آخرين. ومعنى من يتبع الرسول أي يطيعه في امر القبلة وتحويلها «**مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**» أي يرجع إلى ما كان عليه من الكفر فيرتد. وفي الحديث أنه لما تحولت القبلة إلى الكعبة ارتد قوم إلى اليهودية، وقالوا: رجع محمد إلى دين آبائه. «**وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ**» أي وكانت القبلة المحولة شاقة ثقيلة على من ألف التوجه إلى القبلة الأولى، فإن الانسان ألوف لِمَا يتعوده، وثقل عليه الانتقال منه، إلا على الذين هداهم الله بمعرفة أحكام دينه وسر تشريعه، فعلموا أن التعبد باستقبالها إنما يكون بطاعة الله بها، لا بسرٍّ في ذاتها أو مكانها، وأن الحكمة في اختيار قبلة ما هو اجتماع الأمة عليها، وهو من أسباب اتحادهم وجمع كلمتهم.

«**وما كانَ اللهُ ليُضيع إيمانكُمْ**» يعني صلاتكم إلى بيت المقدس، وذلك أن حُيي بن أخطب وأصحابه من اليهود قالُوا للمسلمين، أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس، إن كانت على هدى فقد تحوّلتم عنه وإن كانت على ضلالة فقد دنتم الله بها مدة، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة. فقال المسلمون: إنما الهدى فيما أمر الله به، والضلالة فيما نهى الله عنه. قالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا، وكان قد مات قبل تحول القبلة إلى الكعبة، أسعد بن زرارة من بني النجار، والبراء بن معرور من بني سلمة وكانا من النقباء، ورجالٌ آخرون، فانطلق عشائرهم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله: قد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم، فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فأنزل الله تعالى «**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**» يعني صلاتكم إلى بيت المقدس. «**إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رحِيمٌ**» يعني لا يضيع أجورهم، والرأفة أخصُّ من الرحمة، وأرق، وقيل: الرأفة الرحمة، وقيل: الفرق بين الرأفة والرحمة، أنَّ الرأفة مبالغة في رحمة خاصة وهي دفع المكروه، وإزالة الضرر، وأمَّا الرحمة فإنها اسم جامع يدخل في ذلك المعنى، و يدخل فيه أيضاً جميع الافضال والانعام فذكر الله الرأفة أولاً بمعنى أنَّه لا يُضيع أعمالهم، ثم ذكر الرحمة ثانياً لأنَّها أعمُّ وأشمل (الخازن جـ١ ص ٩٠)* وفي الخطيب «**وما كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**» ثباتكم على الإيمان، وأنكم لم تُزلزلُوا ولم ترتابُوا بل شكر سعيكم، وأعدَّ لكم الثواب العظيم. أو صلاتكم إلى بيت المقدس، بل يثيبكم عليها لأن سبب نزولها أن حيي بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا: للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس إلى آخر ما تقدم* وفي القرطبي:

«وما كان الله ليضيعَ إيمَانكُمْ» اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلى إلى بيت المقدس كما ثبت في البخارى من حديث البراء بن عازب ــ كما تقدّم ــ والمراد بالإيمان الصلاة، وقد تظاهرت الروايات عليها. وإضافة الإيمان إلى الأحياء «إيمَانكُمْ» من باب الاشفاق على أنفسهم خشية إحباط ثواب صلاتهم أيضاً نحو بيت المقدس، لذا وجّه الخطاب إلى الأحياء ودخل فيهم الموتى منهم وفي قوله: «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ» في هذا التركيب وما أشبهه محاورة في القرآن وغيره نحو «وَمَا كَانَ الله لِيُطْلِعَكُمْ» «مَا كَانَ الله لِيَذَرَ» قولان: أحدهما قول البصريين، وهو أن خبر كان محذوف، وهذه اللام تُسمّى لام الجحود ينتصب الفعل بعدها بإضمار أن وجوباً فينسبك منها ومن الفعل مصدر منجرٌ بهذه اللام، وتتعلق هذه اللام بذلك الخبر المحذوف والتقدير، وما كان الله مريداً لاضاعة إيمانكم، وشرط لام الجحود عندهم أن يتقدّمها كون منفيٌّ، واشترط بعضهم مع ذلك أن يكون كوناً ماضياً، و يفرق بينها و بين لام كي ما ذكرنا من اشتراط تقدُّم كون منفي، و يدل على هذا مذهب البصريين التّصريح بالخبر المحذوف في قوله: سَمَوتَ ولَمْ تكُنْ أهْلاً لِتَسْمُو. والقول الثاني: للكوفيين، وهو أن اللام وما بعدها في محل الخبر، ولا يقدّرون شيئاً، وإن اللام للتوكيد. (سمين) وقوله: «إنَّ اللهَ بالنَّاسِ» تعليل لما قبله.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«الَّذِينَ آتيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُوْنَه كَمَا يَعْرِفُوْنَ أَبْنَاءَهُمْ وإنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمونَ الْحقَّ وهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» سورة البقرة (آية: ١٤٦، ١٤٧)

قال الواحدى في أسباب النزول: نزلت في مؤمنى أهل الكتاب: عبدالله بن سَلاَم، وأصحابه كانُوا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بنعته وصفته و بعثه في كتابهم، كما يعرف أحدهم ولده إذا رآه مع الغلمان، قال عبدالله بن سَلاَم: لأنا أشدُّ معرفة برسول الله صلى الله عليه وسلم منّى بابنى، فقال له عمر بن الخطاب: كيف ذَاكَ يا ابن سلام؟ قال: لأنى أشهد أن محمداً رسول الله حقاً يقيناً، وأنا لا أشهد بذلك على ابنى لأنى لا أدرى ما أحدث النِّساء، فقال عمر: وفقك الله يا ابن سلام. وفى القرطبي: وروى أن عمر قال لعبد الله بن سَلاَم ــ بفتح السين واللام ــ أتعرف محمداً صلى الله عليه وسلم كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم، وأكثر، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته

فعرفته، وإني لا أدرى ما كنا من أُمِّهِ» وقيل: «يَعْرِفُونَه كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ» أي البيت الحرام هو القبلة. ولا يخفى بعده بل يحمل الأمر على العموم في قوله: «لَيَكْتُمُونَ الْحقَّ» وذلك الحقُّ هو القبلة التي وجَّه الله عز وجل إليها نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فكتمتها اليهود والنصارى وكتموا كذلك أمر محمد صلى الله عليه وسلم وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فأطلع الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وأمَّتهُ على خيانتهم بكتمان ذلك، وذلك قوله تعالى: «لَيَكْتُمُونَ الْحقَّ وهُمْ يَعْلَمُونَ» أن كتمان الحق معصية «الْحَقُّ» أي الذين يكتمونه هو الحقُّ «مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» أي من الشَّاكين في أن الذين تقدَّم ذكرهم علموا صحة نبوَّتك، وقيل: يرجع إلى أمر القبلة، المعنى أن بعضهم عاند وكتم الحق فلا تشك في ذلك، قال الخازن: فإن قُلتَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم لم يمتر ولم يشك فما معنى هذا النهي؟ قُلتُ: هذا الخطاب وإن كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم، ولكنَّ المراد غيره، والمعنى فلا تشكُّوا أنتم أيها المؤمنون» قلتُ: وهم غير راسخي الإيمان من أمَّته، ممن يُخشى عليهم أن يغترُّوا بزخرف القول من أولئك المخادعين الذين جعلوا همَّهم إشعال نار الفتنة بين المؤمنين، وفي الطبرى (جـ ٢ ص ١٧) أوقع الشك على القبلة فعن الربيع قال: قال الله تعالى ذكره لنبيه عليه السلام: «الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» يقول: لا تكن في شكٍ أنها قبلتك وقبلة الأنبياء من قبلك وكذا قال ابن زيد» ولعلَّه لا يخلوا من الصحة والله أعلم.

قال أبوجعفر الطبرى: فإن قال لنا قائل: أو كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم شاكاً في أن الحقَّ من ربه، أو في أنَّ القبلة التي وجهه الله إليها حقٌّ من الله تعالى ذكره حتى نهى عن الشك في ذلك، فقيل له: «فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» قيل: ذلك من الكلام الذي تخرجه العرب مخرج الأمر للنبيِّ صلى الله عليه وسلم والنهى له، والمراد به أصحابه المؤمنون به.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ولَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ» سورة البقرة (آية: ١٥٤)

ذكر الواحدى في أسباب النزول : أنها نزلت في قتلى بدر، وكانُوا بضعة عشر رجلاً، ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين، وذلك أنَّ الناس كانوا يقولون للرجل يقتل في

سبيل الله مات فلان، وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتُّها، فأنزل الله هذه الآية. وهذا تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يُحَسُّ به من الحيوانات، وإنما هي أمرٌ لا يُدْرك بالعقل، بل بالوحى كذا قاله البيضاوى. وقال الخطيب في تفسيره: وهذا ما عليه أكثر المفسرين. قال ابن عادل: و يُحتمل أن حياتهم بالجسد وإن لم تُشاهد. و يؤيد بأن الروح ثابتة لجميع الأموات بالاتفاق، فلو لم تكن حياة الشهيد بالجسد لاستوى هو وغيره، ولم تكن له مزيّه، ويمكن اعتماده بأن الأرض لا تبلى أجسامهم وأن أرْواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة، وتأوى إلى قناديل تحت العرش، كما ورد به الخبر الصحيح، ولذا فإنهم فضِّلوا على غيرهم بأنهم يرزقون من مطاعم الجنَّة ومآكلها، وغيرهم من المؤمنين منعمون بما دون ذلك. وعن الحسن أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم، فيصل إليهم الرَّوْحُ، أي الاستراحة، والتلذذ والتّنعم والفرح كما تعرض النار على أرواح فرعون غدُّواً وعشياً، فيصل إليهم الوجع والغم، بينما الشهداء لهم مزيد انعام من الله تعالى كل يوم بكرة وعشيّاً. والأرواح جواهر قائمة بأنفسها تبقى بعد الموت داركة، وهو قول جمهور الصحابة والتابعين، ونطقت به الآيات والسُّنن. وفي لباب السيوطى: عن عباس قال: قتل تيم بن الحمام ببدر، وفيه وفي غيره نزلت «**وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ**» الآية، قال أبونعيم: اتفقوا على أنه عمير بن الحمام. وأنَّ السديَّ صحفه. وفي الخازن (جـ١ ص ٩٥) نزلت فيمن قتل ببدر من المسلمين وكانوا أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين، وهم عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، وعمير بن أبى وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة الزهرى أخو ابن أبى وقاص، وذو الشمالين: واسمه عمير بن عبد عمروا بن العاص بن نضلة بن عمرو بن خزاعة، ثم بنى غبشان، وعاقل بن البكير من بنى سعد بن ليث بن كنانة، ومهجع مولّى لعمر بن الخطاب، وصفوان بن بيضاء من بنى الحارث بن فهر، ومن الأنصار ثمانية، وهم سعد بن خيثمة ومبشر بن عبد بن المنذر، و يزيد بن الحارث بن قيس بن فسحم، وعمير بن الحمام، ورافع بن المعلى، وحارثةُ بن سُراقة، وعوف ومعوّذ ابنا الحارث بن رفاعة بن سواد، وهما ابنا عفراء، وهي أمهما كان الناسُ يقولون لمن قتل في سبيل الله مات فلانٌ، وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: إن الكفار والمنافقين قالوا: إن الناس يقتُلُون أنفسهم ظلماً لمرضاة محمد من غير فائدة فنزلة هذه الآية، وأخبر أن

من قتل في سبيل الله فإنّه حيٌّ» وفي غرائب القرآن لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسّابور: قال: إن أكثر المفسرين على أنهم أحياء في الحال، فمن الجائز أن يجمع الله تعالى من أجزاء الشهيد جملة فيحيها و يوصل إليها النعيم، وإن كانت في حجم الذرّة فيرى معظم جسد الشهيد ميتاً، فلا يحسُّ بحياته، وإليه الإشارة بقوله: «**ولَكِنْ لا تَشْعُرونَ**» ومما يؤيّد هذا القول الآيات الدالة على إثبات عذاب القبر «**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوّاً وعَشِيّاً**» أي **غرقُوا فأدْخِلُوا النار** والفاء للتعقيب، وقال صلى الله عليه وسلم: [القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران]» وقيل المعنى لا تُسمُّوهم بالأموات وقولوا لهم الشهداء الأحياء، أو المراد قولوا هم أحياء في الدين وأنهم على هدى ونور من ربهم لا كما يزعم المشركون أنهم ليسوا من الدين في شيء» والمعنى: ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله هو ميت، فإن الميت من الخلق من سلبته حياته، وأعدمتُه حواسه، فلا يلتذُّ لذة ولا يدرك نعيماً، فإن من قتل منكم ومن سائر خلق في سبيلى أحياءٌ عندى في حياة ونعيم وعيش هنى ورزق سنيّ، فرحين بما آتيتهم من فضلى وحبوتهم به من كرامتى» وعن مجاهد في قوله تعالى: «**بَلْ أحْيَاءٌ عند ربّهم يرزقون**» من ثمر الجنة، ويجدون ريحها، وليسوا فيها» وعن قتادة قوله: «**وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ الله أمْواتٌ بَلْ أحْيَاءٌ ولَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ**» كما يحدث أن أرواح الشهداء تعارف في طير بيض يأكلن من ثمار الجنة، وإن مساكنهم سدرة المنتهى، وإن للمجاهدين في سبيل الله ثلاث خصال من الخير من قُتِلَ في سبيل الله منهم صار مرزوقاً، ومن غلبَ آتاهُ الله أجراً عظيماً، ومن مات رزقه الله رزقاً حسناً» وقد تظاهرت هذه الدلائل على أن الشهداء مرزوقون من مآكل الجنة ومطاعمها في برزخهم قبل بعثهم، ومنعمون بالذى ينعم به داخلوها بعد البعث من سائر البشر من لذيذ مطاعمها الذي لم يطعمها الله أحداً غيرهم في برزخه قبل بعثه فبها كانوا أحياء يرزقون، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشهداء على بارق نهر بباب الجنَّة في قبة خضراء، أو قال قبة في روضة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً» وقوله: أرواحهم في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت. بمعنى أن الطيور للأرواح كالهوادج للجالس فيها، وهذا مما يدل على أن حياتهم ليست بالجسد، ولا من جنس ما يحس من الحيوانات، وإنما هى أمر لا يدرك إلا بالكشف والوحى. هذا ما عليه أكثر المفسرين. والله أعلم. والأصح أن نؤمن بذلك،

ولا نبحث عنه لأنه من عالم الغيب، فنفوّض الأمر إلى الله.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«إنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شعائِرِ الله فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تطوَّعَ خيْراً فإنَّ اللهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ» سورة البقرة (آية: ١٥٨)

روى الواحدى عن عائشة رضي الله عنها: [قالت نزلت هذه الآية في الأنصار، كانُوا يحجُّون لمناة، وكانت مناة حذو قُدَد، وكانُوا يتحرَّجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلمَّا جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية] رواه البخاري عن عبدالله بن يوسف عن مالك* وروى البخارى عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنسَ بن مالك رضى الله عنه عن الصفا والمروة، فقال: كُنَّا نرى أنَّهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله تعالى: **«إنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شعائِرِ الله فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ»*** وقال عمرو بن الحسين: سألت ابن عمر عن هذه الآية فقال: انطلق إلى ابن عبَّاس فسله، فإنه أعلم من بقى بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فأتيتُه فسألتُه، فقال: كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له إساف، وعلى المروة صنم على صورة امرأة تدعى نائلة، زعم أهل الكتاب أنهما زنيا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين، ووضعهما على الصفا والمروة ليعتبر بهما، فلمَّا طالت المدة عبدا من دون الله تعالى، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مسحُوا الوثنين، فلما جاء الإسلام، وكسرت الأصنام كره المسلمون الطواف لأجل الصَّنمين، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وفي القرطبي: وذكر الصفا لأنَّ آدم وقف عليه، وأنّث المروة لأن حواء وقفت عليها* **«مِنْ شعائِرِ الله»** أي أعلام دينه، جمع شعيرة، وهي العلامة، أي من أعلام مناسكه ومتعبّداته... وفيه أيضاً. وعن ابن عباس قال: كان في الجاهلية شياطين تعزف الليل كله بين الصفا والمروة، وكان بينهما آلهة، فلما ظهر الإسلام قال المسلمون: يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة فإنهما شرك. فنزلت. وكذا في الطبرى (جـ ٢ ص ٢٨)* وفيه قال ابن زيد في قوله: **«فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا»** قال: كان أهل الجاهلية قد وضعوا على كل واحد منهما صنماً يعظمونها فلمّا أسلم المسلمون كرهوا الطواف بالصفا والمروة لمكان الصنمين. فقال الله تعالى: **«إنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شعائِرِ الله فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا»** وقرأ

«**ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب**» وسنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بهما» وعن قتادة قوله: «**إنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شعائِرِ الله**» الآية. فكان حيٌّ من تهامة في الجاهلية لا يسعون بينهما فأخبرهم الله إن الصفا والمروة من شعائر الله، وكان من سُنّة إبراهيم وإسماعيل الطواف بينهما» والصفا جمع صفاة، وهى الصخرة الصلبة الملساء، وقيل هي الحجارة الصافية، وفي اللسان قال ابن السكيت: الصفا العريض من الحجارة الأملس: جمع صفاةٍ يكتَبُ بالألف. فإذا ثنّى قيل صفوان، وهو الصَّفواء أيضاً، ومنه الصفا والمروة، هما جبلان بين بطحاء مكة والمسجد. والمروة الحجر الرخو، وجمعها مرو ومروات، وهذان أصلهما في اللغة، وإنما عنى الله بهما الجبلين المعروفين بمكة في طرفى المسعى بينهما من المسافة مقدار (٧٦٠ ذراعاً) والصفا تجاه البت الحرام، والآن عليتهما المبانى وصار بينهما سوقاً. ولذلك أدخل فيهما الألف واللام، وكل ما كان معلماً لقربان يتقرَّب به إلى الله تعالى من صلاة ودعاء وذبيحة فهو شعيرة من شعائر الله، ومشاعر الحج معالمه الظاهرة للحواس، و يقال شعائر الحج، فالمطاف والموقف والمنحر كلها شعائر، والمراد بالشعائر هنا المناسك التي جعلها لله أعلاماً لطاعته، فالصفا والمروة منها حيث يُسعى بينهما وقوله: «**مِنْ شعائِرِ الله**» أي لا من شعائر الجاهلية كما كان كذلك أولاً: «**فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ**» أي قصد البيت، هذا أصله في اللغة، وفي الشرع عبارة عن أفعال مخصوصة لاقامة المناسك، من شرطية في محل رفع بالابتداء، وحج في محل جزم بالشرط والبيت نصب على المفعول به لا على الظرف، والجواب قوله فلا جناح «**أنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**» أي يدور بهما و يسعى بينهما. وفي الخازن (جـ ١ ص ٩٧) اختلف العلماء في حكم (السعى) بين الصفا والمروة في الحج والعمرة. فذهب جماعة إلى وجوبه وهو قول ابن عمر وجابر وعائشة و به قال الحسن، وإليه ذهب مالك والشافعى، وذهب قوم إلى أنّه تطوّع، وهو قول ابن عباس، و به قال ابن سيرين، وذهب الثوريُّ وأبوحنيفة إلى أنه ليس بركن، وعلى من تركه دم، وروى عن ابن الزبير ومجاهد وعطاء أنَّ من تركه فلا شيء عليه، واختلفت الرواية عن أحمد في ذلك فروى عنه أنَّ من ترك السَّعى بين الصفا والمروة لم يجزه حجُّه، وروى عنه أنّه لا شيء في تركه عمداً ولا سهواً، ولا ينبغى أن يتركه، ونقل الجمهور عنه أنّه تطوّع. وسبب هذا الإختلاف أن قوله تعالى: «**فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**» يصدق عليه أنه لا إثم عليه في فعله فدخل تحته الواجبُ والمندوب والمباح،

فظاهر هذه الآية لا يدل على أنَّ السَّعى بين الصَّفا والمروة واجب، أو ليس بواجب لأنَّ اللفظ الدَّال على القدر المشترك بين الأقسام الثلاثة لا دلالة فيه علي خصوصية أحدهما فإذاً لابُدَّ من دليل خارج يدل على أنَّ السعى واجب، أو غير واجب. فحجّة الشافعى، ومن وافقه في أن السعى بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج والعمرة ماروى الشافعى بسنده عن صفيّة بنت شيبة قالت: أخبرتنى بنت أبى تُجْزاة، واسمها حبيبة: احدى نساء بنى عبد الدَّار، قالت: دخلت مع نسوة من قريش دار آلِ أبى حُسَيْن ننظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهويسعى بين الصفا والمروة، فرأيته يَسعى، وصححه الدار قطنى* وروى الشيخان عن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أرأيت قول الله: «**إنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شعائـرِ الله فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**» فما أرى على أحدٍ شيئاً أن لا يطوَّف بها. فقالت عائشة: كلاَّ، لو كان كما تقول كانت فلا جناح عليه أن لا يطَّوَّف بهما إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار كانُوا يهلُّون لمناة، وكانت مناة حَذْوَ قَدَدٍ، وكانوا يتحرَّجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلمَّا جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى «**إنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شعائرِ الله...**» الآية. وروى مسلم عن جابر في حديثه الطويل في صفة حجة الوداع، قال: ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ إنَّ الصفا والمروة من شعائر الله، أبدؤا بما بدأ الله به، فبدأ بالصَّفا: الحديث. فإذا ثبت أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم سعىَ وجب علينا السعى لقوله تعالى: «**فاتّبعُوهُ**» ولقوله صلى الله عليه وسلم: [خذُوا عنى مناسككم] والأمر للوجوب. ومن القياس أن السَّعى أشواط شرعت في بقعة من بقاع الحرم، و يؤتى به في إحرام كامل، فكان ركناً كطواف الزيارة* واحتجَّ أبوحنيفة، ومن لا يرى وجوب السعى بقوله: «**فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**» وهذا لا يُقال في الواجبات، ثم إنه تعالى أكد ذلك بقوله «**وَمَنْ تطوَّع خيْراً**» فبيَّن أنّه تطوع وليس بواجب* وأجيب عن الأ ول بأن قوله تعالى: «**فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ**» ليس فيه إلا أنه لا إثم على فاعله، وهذا القدر مشترك بين الواجب وغيره، فلا يكون فيه دلالة على نفي الوجوب، وعن الثانى وهو التمسك بقوله تعالى: «**وَمَنْ تطوَّع خيْراً**» فضعيف لأن هذا لا يقضى أن يكون المراد من هذا التطوع هو الطواف المذكور أولا، بل يجوز أن يكون المقصود منه شيئاً آخر يدل على ذلك قول الحسن أن المراد بقوله: «**وَمَنْ**

تطوَّع خيْراً» جميع الطاعات في الدين، يعنى فعل فعلاً زائداً على ما افترض عليه من صلاة وصدقة وصيام وحج وعمرة وطواف وغير ذلك من أنواع الطاعات* وقال مجاهد: «وَمَنْ تطوَّع خيْراً» بالطواف بهما، وهذا على قول من لا يرى الطواف بهما فرضاً* وقيل معناه: ومن تطوع خيرا فزاد في الطواف بعد الواجب، والقول الأول أولى للعموم انتهى الخازن* قلتُ وفي الصحيحين قالت عائشة رضي الله عنها: ثم قد سنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بهما فليس لأحدٍ أن يدع الطواف بهما. ذكره ابن كثير في التفسير(جـ ١ ص ١٩٩) وفيه: وقال آخرون من الأنصار: إنما أُمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى: «إِنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شعائِرِ الله» قال أبو بكر بن عبدالرحمن فلعلّها نزلت في هؤلاء وهؤلاء* وروى الإمام أحمد عن صفية بن شيبة أن امرأة أخْبرتها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الصفا والمروة يقول: [كتب عليكم السعي فاسعوا] وهو دليل الشافعي ومن وافقه لأن فاسعوا أمر، والأمر يقتضي الوجوب، وعلى الأخص إذا حفَّت به قرينة وهو فعل النبي صلى الله عليه وسلم له* وقيل: إنه واجب وليس بركن فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم وهو رواية عن أحمد و به يقول طائفة، وقال ابن كثير: والقول الأول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينهما وقال: خذوا عني مناسككم، فكل ما فعله في حجته تلك واجب لابدَّ من فعله في الحج إلا ما خرج بدليل، والله أعلم. و ينبغى على الساعى بينهما ــ اقتداءً بأم اسماعيل هاجر زوج الخليل ابراهيم عليه السلام ــ أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه، وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجىء إلى الله عز وجل لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبته عليه إلى مماته، أون يحوّله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام «وَمَنْ تطوَّع خيْراً فإِنَّ الله شاكِرٌ عَلِيمٌ» شاكرٌ لعلمه بالإثابة عليه «عليمٌ» بنيته. قال الخطيب في تفسيره: الشكر من الله أن يعطى العبد فوق ما يستحقه، فإنه يشكر اليسير، و يعطى الكثير* وفي الخازن (جـ ١ ص ٩٨) «فإِنَّ الله شاكِرٌ عَلِيمٌ» أي مجازٍ على الطاعة «عَلِيمٌ» أي بنيته. وحقيقة الشاكر في اللغة: هو المظهر للإنعام عليه، والشكر هو تصور النعمة، وإظهارها، والله تعالى لا يوصف بذلك لأنه لا يلحقه المنافع والمضار، فالشاكر في صفة الله تعالى مجاز، فإذا وصف به أريد به أنّه المجازى على

الطاعة بالثواب، إلا أنَّ اللفظ خرج مخرج التلطف للعباد مظاهرة في الإحسان إليهم* وفيه إشارة إلى الوثوق بوعده، وعظيم إحسانه، وفي غرائب القرآن: وعن النبي صلى الله عليه وسلم: [من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر] وقال يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين. و يؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له أترضى أن نجزيك كما جزينا الشاكر، فيقول نعم يارب، فيقول تعالى: لقد أنعمتُ عليك فشكرت، وابتليتك فصبرت لأضعِفَنَّ لك الأجر، فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين* فيكون معنى «**شاكِرٌ**» أي مجازيهم على الطاعة، سمى الطاعة شكراً تشبيهاً بجزاء النعمة، وفيه تلطف للعباد كما تقدم مثل «**مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً**». كأنه يقول إني وإن كنت غنياً عن طاعتك إلاَّ أني أجعل لها من الموقع ما لوصح عليَّ أن انتفع بها لما ازداد وقعه على ما حصل. عليم بالسرائر فيوفى كل ذى حق حقه وهو وعدٌ ليناسب قرينة الشكر، وإن كان أيضاً يحتمل التحذير من الاخلال بوظائف الاخلاص في العبادة.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ والْهُدَىَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ للناس فِى الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ» سورة البقرة (آية: ١٥٩)

في الواحدى: نزلت في علماء أهل الكتاب لكتمانهم آية الرجم، وأمر محمد صلى الله عليه وسلم* وفي لباب السيوطى عن ابن عباس قال: سأل معاذٌ بن جبل، وسعد بن معاذ، وخارجة بن زيد نفراً من أحبار اليهود عن بعض ما في التوراة، فكتموها إيَّاهم، وأبوا أن يخبروهم، فأنزل الله فيهم «**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ والهدى..**» الآية* وفي الخطيب: تنبيهان: أحدهما، اختلف في هؤلاء اللاعنين، فقال ابن عباس رضي الله عنهما جميع الخلائق إلا الجن والإنس* وقال عطاء: هم الجن والإنس، وقال الحسن: هم جميع عباد الله* وقال مجاهد: البهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا أمسك المطر، وتقول هذه من شؤم ذنوب بنى آدم، ووردت مثل هذا الأخبار الكثيرة* ثانيهما: هذه الآية توجب إظهار علوم الدين منصوصة ومستنبطة، وتدل على امتناع أخذ الأجرة على ذلك، وقد روى الأعرج عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه أنَّه قال: إنكم تقولون أَكْثَرَ أبوهريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأيم الله لولا آية في كتاب الله ما حدَّثتُ أحداً بشيء أبداً، وتلا «**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ...**» الآية* وفي القرطبي:

واختلفوا من المراد بذلك «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى» فقيل أحبار اليهود، ورهبان النّصارى... وقيل: المراد كل من كتم الحق، فهى عامة في كل من كتم علماً من دين الله يحتاج إلى بثّه، وذلك مفسرٌ في قوله عليه الصلاة والسلام: [من سئل عن علم ــ يعلمه ــ فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار] أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة، وعمرو بن العاص، لكن قال القرطبي: و يعارضه قول عبدالله بن مسعود: ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغُه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة* وقال عليه الصلاة والسلام: [حدثوا الناس بما يفهمون، أتحبُّون أن يُكذّب الله ورسوله] قال: وهذا محمول على بعض العلوم كعلم الكلام، أو ما لا يستوى فى فهمه جميع العلوم، فحكم العالم أن يحدّث بما يفهم عنه، و ينزل كل إنسان منزلته* وتحقيق الآي هو أن العالم إذا قصد كتمان العلم عصى، وإذا لم يقصده لم يلزم التبليغ إذا عرفه أنه مع غيره، وأما من سُئل فقد وجب عليه التبلغ لهذه الآية وللحديث* وكذا قاله القرطبي، وقال: ولا يجوز تعليم الكافر القرآن والعلم حتى يسلم، وكذلك لا يجوز تعليم المبتدع الجدال والحجاج ليجادل به أهل الحق، ولا يُعلّم الخصم على خصمه حجة يقطع بها ماله، ولا للسلطان تأو يلاً يتطرق به إلى مكاره الرعية، ولا ينشر الرُّخص في السفهاء فيجعل ذلك طريقاً لارتكاب المحظورات، وترك الواجبات ونحو ذلك، يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم، ولا تضعوها في غير أهلها فتظلموها] وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [لا تعلقوا الدر في أعناق الخنازير] يريد تعليم الفقه من ليس أهله* ودليل الكتمان لمن يفتتن به قول أبي هريرة رضي الله عنه قال: تحفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائين، فأمّا أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم. أخرجه البخارى* وفسّر العلماء قوله هذا بأن الذي لم يبثه يتعلّق بأمر الفتن، والنص على أعيان المرتدين والمنافقين. وهذا مما لا يتعلق بالبينات والهدى. وقوله: «يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ» قال: دواب الأرض لما رواه البراء بن عازب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. أخرجه ابن ماجه عن محمد بن الصباح وإسناده حسن. وقال البراء بن عازب وابن عباس «اللاَّعِنُونَ» كل المخلوقات ما عدا الثقلين: الجن والإنس، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [الكافر إذا ضرب في قبره فصاح، سمعه الكل إلا الثقلين ولعنه كل سامع] وقال ابن مسعود والسُّدى: هو الرجل يلعن

صاحبه فترتفع اللعنة إلى السماء، ثم تنحدر فلا تجد صاحبها الذي قيلت فيه آهلاً لذلك، فترجع إلى الذي تكلم بها فلا تجده أهلاً، فتنطلق فتقع على اليهود الذين كتموا ما أنزل الله تعالى فهو قوله: «وَ يَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ» فمن مات منهم ارتفعت اللعنة عنه، فكانت فيمن بقي من اليهود» والكتمان: تارة يكون بستر الشيء وإخفائه، وتارة أخرى بإزالته، ووضع آخر مكانه، واليهود فعلوا في التوراة كليهما، فقد أخفوا حكم رجم الزانى، وأنكروا بشارة التوراة بمحمد صلى الله عليه وسلم، وتعسَّفوا في تأويل ما ورد فيها من ذلك على وجه لا ينطبق على محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك فعلوا بالدلائل الدالة على نبوة عيسى عليه السلام وزعموا أنها لغيره، وأنهم لا يزالون إلى الآن ينتظرونه، والبينات: هى الأدلة الواضحة الدالة على أمر محمد صلى الله عليه وسلم وعلى الرجم، وتحويل القبلة، والهُدى: هو ضروب الإرشاد التي فيها، والكتاب يراد به الكتب المنزلة جميعاً. واللّعن: الابعاد والطرد. قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء، والطير في الهواء فهؤلاء بخلاف العلماء فيلعنُهم الله و يلعنُهُمُ اللاعنون: أي الملائكة والمؤمنون على الصحيح لأنهم هم المؤهلون لذلك غضباً لله تعالى. إذ لا خلاف في جواز لعن الكفار. وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الأئمة يلعنون الكفرة في القنوت وغيره. فأما الكافر المعيَّن فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن لأنَّا لا ندرى بما يختم الله له. والدليل على الأول قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ والملائكة والناس أجمعين» فالكاتمون من غير المؤمنين كافرون وهم الملعونون. وأتى بصلة الذين فعلاً مضارعاً. وكذلك بفعل اللعنة دلالة على التجدد والحدوث، وأن هذا يتجدد وقتاً فوقتاً، وكررت اللعنة تأكيداً في ذمهم.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأرضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ والْفُلْكِ التى تجرى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بيْن السَّماءِ والأرضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»

سورة البقرة (آية: ١٦٣، ١٦٤)

ذكر الواحدى في أسباب النزول عن عطاء: قال أنزلت بالمدينة على النبي صلى الله عليه وسلم «**وَإِلَهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الرحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ**» فقالت كفار قريش بمكة كيف يسع الناس إله واحدٌ؟ فأنزل الله تعالى: «**إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأَرضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ**» حتى بلغ «**لِقَوْمٍ يعْقِلُونَ**» وفي رواية عن أبي الضُحى قال: لمَّا نزلت هذه الآية «**وَإِلَهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ...**» تعجب المشركون وقالوا: إلــٰه واحدٌ!! إن كان صادقاً فليأتنا بآية فأنزل الله تعالى «**إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأَرضِ...**» إلى آخر الآية «**يعقِلُونَ**» وكذا في الخازن (جـ ١ ص ٩٩) وفيه في قوله عز وجل «**وَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ**» سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا: يامحمد صف لنا ربك وانسبه، فأنزل الله هذه الآية وسورة الإخلاص، ومعنى الوحدة: الانفراد، وحقيقة الواحد هو الشيء الذي لا يتبعَّض، ولا ينقسم، والواحد في صفات الله أنَّه واحدٌ لا نظير له، وليس كمثله شيء، وقيل: واحد في ألوهيته، وربوبيته، ليس له شريك لأن المشركين أشركوا معه الآلهة فكذبهم الله تعالى بقوله وإلهكم إله واحدٌ، يعنى لا شريك له في ألوهيته ولا نظير له في الربوبية. والتوحيد هو نفي الشريك والقسيم والشبيه، فالله تعالى واحدٌ في أفعاله لا شريك له يُشاركه في مصنوعاته، وواحد في ذاته لا قسم له، وواحد في صفاته لا يُشبِهُهُ شيء من خلقه* وأمَّا أنه واحدٌ فى أفعاله فلأن ما سواه ممكن الوجود لذاته، وبقدر البون بين الواجب للذات، والممكن للذات يوجد التفاوت بين فعليهما إن فرض للممكن فعل من نفسه قال تعالى: «**اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيءٍ سُبْحَانَهُ وتَعالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**» ثم أنه تعالى خصَّ الموضع بذكر الرحمن الرحيم، لأنَّ ذكر الألـٰهيّة والفردانية. يفيد القهر والعلو. فعقبها بذكر الصّفتين ترويحاً للقلوب عن هيبة الإلـٰهيّة، وعزّة الفردانية، وإشعاراً بأنه ما خلق الخلق إلا للرحمة والإحسان* وأمَّا أنه واحد في ذاته فلأنه لو شاركه غيره في حقيقته لزم تركيبه ممَّا به الإشتراك وما به الإمتياز، وكل مركب مفتقر وكل مفتقر ممكن* وأمَّا أنه واحدٌ في صفاته فلأن صفات غيره من غيره، وصفاته من نفسه، ولأن صفات غيره زمانية دون صفاته، ولأن صفات غيره متناهية، وصفاته غير متناهية كعلمه مثلاً فإن له معلومات غير متناهية، بل له في كل معلوم علومٌ غير متناهية بحسب أحياز ذلك المعلوم وأوقاته وسائر أحواله، ولأن موصوفية ذاته بالصفات ليست

بمعنى كونها حالة في ذاته، وكون ذاته محلاً لها، ولا بمعنى أن ذاته تُستكمل بها لأن ذاته كالمبدأ لتلك الصفات، ولن يستكمل المبدأ بما عن المبدأ بل ذاته مستكملة بذاته، ومن لوازم ذلك الاستكمال الذاتي تحقق صفات الكمال، وقد يفضي التقرير هنا إلى حيث تقصر العبارة عن الوفاء به، وذلك أنه لا خبر عند العقول من صفاته كما أنَّه لا خبر عندها من ذاته، فإنه لا نعرف من علمه إلا أنَّه الأمر الذي لأجله ظهر الأحكام والاتقان في المخلوقات، كما أنا لا نعلم من ذاته إلا أنَّه مبدأ جميع الممكنات. مَنْ طُبعَ على قلبه — والعياذ بالله — مني بالخذلان. ومن كشف له الغطاء — برحمة من الله — صار حيران. فلا إحاطة لذرَّة الماء بكرة الماء ولا ظهور لضوء السهى عند حلول الشمس كبد السماء. قال أحد العارفين في هذا المعنى:

أشْتَاقُه فإذَا بَدا أطْرَقْتُ من إجْلالِه
لا خيفةً بَلْ هيْبةً وصيانةً لجمالِه
فالْموْتُ في ادْباره والْعَيْشُ فى إقبالِه
وأصدُّ عنْه إذا بَدا وأرُوم طيف خيالِه

«لا تُدْرِكُه الأ بْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأ بْصارَ وهُوَ اللّطِيفُ الْخبيرُ»* وقوله «لاَ إلٰهَ إلاَّ هُوَ» تقرير للوحدانية بنفي غيره من الألوهية، وإثباتُها له سبحانه وتعالى «الرحْمٰنُ الرَّحِيمُ» يعني أنَّه المولى لجميع النعم وأصولها وفروعها فلا شيء سواهُ بهذه الصفة لأن كل ما سواه إمَّا بنعمة وإمَّا منعم عليه. وهو المنعم على خلقه الرحيم بهم* وعن أسماء بن يزيد قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين «وَإلَهُكُمْ إلٰهٌ وَاحِدٌ لاَ إلٰهَ إلاَّ هُوَ الرحْمٰنُ الرَّحِيمُ» وفاتحة آل عمران «الٓمٓ * الله لاَ إلٰهَ إلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»] أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث صحيح* وفي الطبرى (جـ٢ ص٣٧) عن سعيد قال: سألت قريش اليهود، فقالوا حدَّثونا عما جاءكم به موسى من الآيات، فحدَّثوهم بالعصا، و بيده البيضاء للناظرين، وسألوا النصارى عما جاء به عيسى من الآيات، فأخبروهم أنه كان يبرىء الأكمه والأ برص ويحى الموتى بإذن الله، فقالت قريش عند ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهباً، فنزداد يقيناً، ونتقوى به على عدوِّنا، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم ربَّه فأوحى إليه أني معطيهم، فأجعل لهم الصفا ذهباً، ولكن إن كذَّبوا عذبتُهم

عـذاباً لم أعذبه أحداً من العالمين. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ذرني وقومي فأدعوهم يـوماً بـيوم. فأنزل الله تعالى «**إنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰواتِ والأ رضِ...**» الآية أنَّ في ذلك لآيـة لهـم إن كـانـوا إنما يريدون أن جعل لهم الصفا ذهباً، فخلق الله السموات والأ رض واخـتلاف الليل والنهار أعظم من أن أجعل لهم الصفا ذهباً ليزدادوا يقيناً* وعن السدى «**إنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰواتِ والأ رضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ**» فقال المشركون للنبي صلى الله عـلـيـه وسـلـم: غير لـنـا الـصفا ذهباً إن كنت صادقاً أنه منه، فقال الله إنَّ هذه الآيات لآيات لقوم يعقلون. وقال: قد سأل الآيات قومٌ قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين.

«**خَلْقِ السَّمٰوات والأ رْضِ**» جمع السموات. وأفرد الأ رض. قال البيضاوى: بأنَّ السمٰوات طبقات متفاصلة بالذات، مختلفة بالحقيقة بخلاف الأ رضين* وقال الخطيب: وهـذا إنما يأتى على قول بعض الحكماء أن المراد بالأ رضين. الأقاليم* والأ ولى ما أجاب به البغوى. من أنَّ كلاً منها جنسٌ آخر. والأ رضون كلها من جنس واحد وهو التراب. أي فـهـى طـبـقـات كـالـسمٰوات، والآية في السمٰوات: سمكها وارتفاعها من غير عمد ولا عـلاقـة، ومـا يـرى فيهـا مـن الـشمس والقمر والنجوم وغير ذلك، والآية في الأ رض مدها و بـسـطها وسعتها، وما يرى فيها من الأشجار والأنهار والجبال والبحار، والجواهر والنبات وغير ذلـك (الخـطـيـب)* وفى الخـازن (جـ ١ ص ٩٩) «**إنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰواتِ والأ رْضِ**» وعَـلَّـمـه كـيفية الاستدلال على وحدانية الصانع، وردَّهم إلى التفكر في آياته والـنظر في عجائب مصنوعاته، وإتقان أفعاله، ففي ذلك دليل على وحدانيته، إذ لو كان في الـوجـود صـانـعـان لهـذه الأفـعـال لاستحال اتفاقهما على أمر واحد، ولا امتنع في أفعالهما الـتـساوى في صفة الكمال، فيثبت بذلك أنَّ خالق هذا العالم والمدبر له واحدٌ قادرٌ مختار* فبين سبحانه وتعالى من عجائب مخلوقاته ثمانية أنواع:

أولها : قـولـه: «**إنَّ في خَلْقِ السَّمٰواتِ والأ رضِ**» وإنما جمع السموات لأنها من أجنـاس مختـلـفـة، كل سماء من جنس غير جنس الآخرى، و وحدّ الأ رض لأنها جنس واحـد وهو التراب(١) والآية في السماء هي سمكها وارتفاعها بغير عمد ولا علاقة وما يرى فيهـا مـن الـشـمـس والقمر والنجوم. والآية في الأ رض مدّها و بسطها على الماء، وما يرى

(١) وقد برهنتُ في كتابى سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلٰهية. الجزء الأ ول. أن الأ رض سبع طبقات كما أن للسموات كذلك فمن أراد الوقوف عليها فليرجع إليه فهوا بحث نفيس جداً جداً. (المؤلف).

فيها من الجبال والبحار والمعادن والجواهر والأنهار والأشجار والثمار والنبات. (وقد برهنت في كتابي سبعون برهاناً علميا على وجود الذات الإلٰهية أنها جميعاً من خلق الله، وأظهرت ما فيها من أسرار إلٰهية دالة على الحضرة الربانية) المؤلف.

النوع الثاني: قوله تعالى: «**وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**» أي تعاقبهما في المجيء والذهاب وقيل اختلافهما في الطول والقصر والزيادة والنقصان والنور والظلمة، وإنما قدّم الليل على النهار، لأن الظلمة أقدم، والآية في الليل والنهار أن انتظام أحوال العباد سبب طلب الكسب والمعيشة يكون في النهار، وطلب النوم والراحة يكون في الليل، فاختلاف الليل والنهار إنما هو لتحصيل مصالح العباد.

النوع الثالث: قوله تعالى: «**وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ**» أي السفن. واحده. وجمعه سواء. وسمى البحر بحراً لاتساعه وانبساطه، والآية في الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء، وهي موقرة بالأثقال والرجال فلا ترسب، وجريانها بالريح مقبلة ومدبرة وتسخير البحر لحمل الفلك مع قوة سلطان الماء وهيجان البحر، فلا ينجى منه إلا الله تعالى.

النوع الرابع: قوله تعالى: «**بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ**» يعنى ركوبها، والحمل عليها في التجارات لطلب الأرباح، والآية في ذلك أن الله تعالى لو لم يقوّ قلب من يركب هذه السفن لما تم الغرض في تجاراتهم ومنافعهم، وأيضاً فإن الله تعالى خصَّ كل قطر من أقطار العالم بشيء معين، وأحوج الكل إلى الكل، فصار ذلك سبباً يدعوهم إلى اقتحام الأخطار في الأسفار من ركوب السفن وخوض البحر وغير ذلك، فالحامل ينتفع لأنه يربح والمحمول إليه ينتفع بما حمل إليه.

النوع الخامس: قوله تعالى: «**وما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ**» يعنى المطر: قيل أراد بالسماء السحاب سمى سماء لأن كل ما علاك فأظلك فهو سماء، خلق الله الماء في السحاب، ومنه ينزل إلى الأرض، وقيل: أراد السماء بعينها، خلق الله الماء في السماء، ومنه ينزل السَّحابُ، ثم منه إلى الأرض. «**فَأَحْيَا بِهِ**» أي بالماء «**الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**» أي يبسها وجدبها، سماه موتاً مجازاً لأنها إذا لم تنبت شيئاً ولم يصبها المطر فهى كالميتة. والآية في إنزال المطر، وإحياء الأرض به. إنَّ الله تعالى جعله سبباً لاحياء الجميع من حيوان ونبات، ونزوله عند وقت الحاجة إليه بمقدار المنفعة، وعند الاستسقاء والدعاء، وإنزاله بمكان دون مكان.

النوع السادس : قوله تعالى: «**وَبَثَّ**» أي فرق «**فِيهَا**» أي فى الأرض «**مِنْ كُلِّ دَآبَّة**» قال ابن عباس: يريد كل مادبَّ على وجه الأرض من جميع المخلوقات من الناس وغيرهم. والآية في ذلك أن جنس الإنسان يرجع إلى أصل واحد وهو آدم ثم ما فيهم من الاختلاف في الصور والأشكال والألوان والألسنة والطبائع والأخلاق. والأوصاف إلى غير ذلك، ثم يقاس على بنى آدم سائر الحيوان ــ أي أن كل نوع يرجع إلى أصل واحد وما فيه من الاختلاف في الألوان والطبائع، وقد أكد هذا العلم الحديث أن بنى الإنسان يعودون إلى أصل واحد هو الإنسان القديم، أي آدم عليه السلام. وقد أقمت البرهان على ذلك في كل من كتابيَّ سبعون برهاناً علمياً... والحجج العصماء في نقض نظرية دارو ين في النّشوء والارتقاء (المؤلف).

النوع السابع : قوله تعالى: «**وَتَصْرِيفُ الرِّيَاحِ**» يعنى في مهابها قبولاً ودبوراً وشمالاً وجنوباً. ونكباء وهى الريح التي تأتى من غير مهبّ صحيح، فكل ريح تختلف مهابها تسمى نكباء، وقيل تصريفها في أحوال مهابها ليّنة وعاصفة وحارة و باردة، وسمّيتْ ريحاً لأنها تريح. قال ابن عباس: أعظم جنود الله الريح* وقيل: ما هبّت ريحٌ إلاَّ لشفاء سقيم. أو ضدهُ، وقيل البشارة في ثلات رياح الصَّبا والشمال والجنوب. والدبور وهي الريح العقيم التي أهلكت بها عادٌ، فلا بشارة فيها، والآية في الريح أنها جسم لطيف لا يُمسَكُ ولا يُرى، وهى ذلك في غاية القوة، تقلع الأشجار والصخر، وتُخرِّبُ البنيان العظيم، وهي مع ذلك حياة الوجود، فلو أمسكت طرفة عين لمَات الإنسان وكل ذى روح، وأنتن ما على وجه الأرض.

النوع الثامن : قوله تعالى: «**والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بينَ السماء والأرض**» أي الغيم المذلل. سمى سحاباً لسرعة سيره كأنه يُسْحَبُ. والآية في ذلك أنَّ السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية العظيمة، يبقى مُعلقاً بين السماء والأرض.

ففي هذه الأنواع الثمانية المذكورة في هذه الآية دلالة عظيمة على وجود الصانع القادر المختار، وأنه الواحد في ملكه، فلا شريك له ولا نظير وهو المراد من قوله: «**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحدٌ لاَ إِلَـهَ إلاَّ هو..**»* «**لآيات**» جمع آية وهي الدلالة على وحدانية الصانع جل جلاله، وإنما جاء لفظ الآيات بصيغة الجمع لأن في كل واحد مما ذكر من هذه الأنواع آيات كثيرة تدل على أنَّ لها خالقاً مدبراً مختاراً «**لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**» ينظرون بصفاء عقولهم،

و يتفكرون بقلوبهم فيعلمون أن لهذه الأشياء خالقاً مدبراً مختاراً وصانعاً قادراً على ما يريد* قال البيضاوى: وفي الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله، وحث على البحث والنظر فيه* وتعلم أن الشافعى رحمه الله قد ذم علم الكلام واشتهر قوله فيه: لأن يلقى العبد ربَّه بكل ذنب ما عدا الشرك خير له من أن يلقاهُ بعلم الكلام* وحمله العلماء على التوغل فيه فيصير الباحث فلسفيًّا. قلت: وفي الرياح. روى أبوداود عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [الريح من روح الله تأتى بالرحمة، وتأتى بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبُّوها، واسألوا الله خيرها، واستعيذوا بالله من شرها] كذا ورد في سنن أبى داود، وأخرجه أيضاً ابن ماجه فى سننه. وفي القرطبي عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تَسُبُّوا الريح فإنها من روح الله تأتى بالرحمة والعذاب، ولكن سَلوا الله من خيرها وتعوّذُوا من شرها]* وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [نُصِرتُ بالصَّبا وأُهلكت عادٌ بالدَّبور] وفي التنزيل في غزوة الأحزاب قال الله تعالى فى حق الكافرين ونصرة المؤمنين «**فأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا**» وهى ريح الصبا* وقوله: «**لآ إلٰه إلاّ هُوَ**» تقرير للوحدانية. لأن الاستثناء هنا إثبات من نفى، فهوبمنزلة البدل، والبدل هو المقصود بالنسبة، وإزاحة لأن يتوهم أن في الوجود إلهاً، ولكن لا يستحق منهم العبادة* وقوله: «**إلاّ هُوَ**» رفع على أنه بدل من إسم لا على المحل، إذ محله الرفع على الابتداء، أو هو بدل من لا وما عملت فيه لأنها وما بعدها في محل رفع بالابتداء، أي بدل من الضمير المستكن في الخبر أي لا إله كائن، أو موجود إلا الله. وقوله «**الرَّحْمـٰنُ الرَّحِيمُ**» خبر مبتدأ محذوف أي هو الرحمن الرحيم كما قدره الجلال. وقوله «**إنَّ في خَلْقِ السَّمٰوات والأَرْض**» الخلق. هنا بمعنى المخلوق إذ الآيات التي تشاهد إنما هي في المخلوق الذي هو السموات والأرض، وحينئذٍ فالاضافة بيانيّة* والليل: اسم جنس يفرق بينه و بين واحده بالتاء، فيقال ليل وليلة كتمر وتمرة، والصحيح أنَّه مفردٌ، ولا يحفظ له جمع، ولذلك خطأ الناس من زعم أن الليالى جمع ليل بل الليالى جمع ليلة. وقدم الليل على النهار كما تقدم لأنه سابقُه قال تعالى: «**وآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ**» وهذا أصح القولين: وقيل: النور سابق الظلمة* وقوله: «**مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ**» من الأولى معناها ابتداء الغاية أي إنزاله من جهة السَّماءِ، وأما الثانية فتُحتملُ ثلاثة أوجه. أحدها أن تكون

لبيان الجنس، فإن المنزّل من السماء ماء وغيره، والثاني أن تكون للتّبعيض فإن المنزل منه بعض لا كل، والثالث أن تكون هى وما بعدها بدلاً من قوله: **«مِنَ السَّمَاءِ»** بدل اشتمال بتكرير العامل، وكل من الأولى والثانية متعلق بأنزل. قوله: **«فأَحْيَا بِهِ»** أي أظهر نضارتها وحسنها وقوله: **«مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ»** كل مفعول به لبثّ، ومن زائدة على مذهب الأخفش أو تبعيضيّة. وزيادتها أصح وذلك تأكيداً في مبالغة الخلق والبث. ولا يستقيم معنى البعضية إذ يصير المعنى و بث فيها بعض الدواب فيكون البعض الآخر مبثوث من نفسه بنفسه، قوله: **«وتَصْريفِ الرِّياح»** مصدر صَرَفَ ويجوز أن يكون مضافاً للفاعل والمفعول محذوف. أي وتصريف الرياح السَّحاب، فإنها تسوق السحاب. وأن يكون مضافاً للمفعول، والفاعل محذوف أي وتصريف الله الرياح ... **«والسَّحاب»** مشتق من السحب لجرّ بعضه بعضاً **«بيْن السَّماءِ»** في بين قولان: أحدهما أنّه منصوب بقوله: المسخر بين فيكون ظرفاً للتّسخير. والثاني يكون حالاً من الضمير المستتر في اسم المفعول فيتعلق بمحذوف أي كائناً بين السماء* وفي الحديث: [وَ يْلٌ لِمنْ قرأ هذه الآية فمَجَّ بِهَا] المجُّ قذف الريق ونحوه من الفم. والمراد عدم الاعتبار والاعتداد بها، إذ من تفكر فيها فكأنه حفظها ولم يلقها من فيه، وقال بعض العلماء: إن لله كتابين: كتاباً مخلوقاً هو الكون. وكتاباً منزلاً هو القرآن. و يرشدنا هذا إلى طرق العلم بذاك. بما أوتيناهُ من العقل، فمن اعتبر بهما وأوصله اعتباره إلى الإيمان بالمبدع الحيّ القيوم فقد فاز، ومن أعرض عنهما فقد هلك وخاب وخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«يـاأَيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إنَّهُ لكم عَدُوٌّ مُبِينٌ * إنَّما يأمُرُكُمْ بالسُّوءِ والفحشاءِ وأنْ تقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ» سورة البقرة (آية: ١٦٨، ١٦٩)

جاء في أسباب النزول للواحدى قول الكلبي: أنها نزلت في ثقيف وخزاعة، وعامر بن صعصعة، حرَّموا على أنفسهم من الحرث والأنعام، حرَّموا البحيرة والسائبة، والوصيلة والحامى* وفي الخطيب قال البيضاوى: نزلت في قوم حرَّموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس* وقول الكلبي كتفسير لما أبهم في قول البيضاوى أي حرَّموا على أنفسهم ذلك على وجه التورّع كما تفعله الصوفية. قال الخطيب: وما قاله ــ أي البيضاوى ــ مرجوح

كما قاله شيخنا زكريا، ثم قال: والمشهور أنها نزلت فيهم آية المائدة. أي «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ..**» وأمَّا هذه الآية نزلت في الكفار الذين حرَّموا البحائر والسوائب والوصائل ونحوها. ومن ثم عبّر هنا بيا أيها الناس، وثم بيا أيها الذين آمنوا. والمعنى يا أيها الناس كلوا مما أحللتُ لكم من الأطعمة على لسان رسُولي صلى الله عليه وسلم، فطيبته لكم مما تحرمونه على أنفسكم من البحائر والسوائب والوصائل، وما أشبه ذلك مما لم أحرمه عليكم دون ما حرمته عليكم من المطاعم والمآكل من ميتة ودم ولحم خنزير، وما أهل به لغيرى، ودعوا خطوات الشيطان الذي يوبقكم فيهلككم و يردكم موارد العطب، ويحرّم عليكم أموالكم فلا تتبعوها ولا تعملوا بها، إن الشيطان لكم أيها الناس عدوٌّ مبين. قد أبان لكم عداوته بإبائه عن السجود لأ بيكم وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة، واستزله بالخطيئة، وأكل من الشجرة، التزموا طاعتي فيما أمرتكم به، ونهيتكم عنه مما أحللته لكم، وحرّمته عليكم دون ما حرّمتموه أنتم على أنفسكم وحللتُموه طاعة منكم للشيطان، واتباعاً لأمره قال السدي «**إنَّما يأمُرُكُمْ بالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ**» أما السوء فالمعصية، وأما الفحشاء فالزنا. «**وأن تقولُوا عَلى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**» فهو ما كانوا يحرمونه من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي و يزعمون أن الله حرَّم ذلك فردَّ الله عليهم بقوله: «**مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحيرةٍ وَلاَ سَائبَةٍ ولاَ وَصِيلَةٍ ولاَ حَامٍ ولكنَّ الَّذِينَ كَفَروا يَفْتَرُونَ على اللهِ الْكَذِبَ وأكثرهُمْ لا يَعْقِلُونَ**» فأخبرهم تعالى في هذه الآية أن قولهم: إن الله حرَّم هذا من الكذب الذي يأمرهم به الشيطان. فهم مطيعون له، متبعون خُطواته، مقتفون آثار أسلافهم الضلال وآبائهم الجهال. وهذا معنى الآية التالية للآيتين السابقتين «**وَإذَا قِيلَ لَهُمَ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَ عَلَيهِ آبَائنَا أوَلَوْ كَانَ آبَاؤهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً ولا يَهْتَدُونَ**» سورة البقرة (آية: ١٧٠). وفي الطبرى (جـ ٢ ص ٤٦) عن ابن عباس «**ولا تتبِعُوا خُطُواتِ الشيْطانِ**» يقول عمله. وعن مجاهد قال: خطيئته وعن السدى «**خطوات الشيطان**» يقول طاعته. وقال آخرون (النذور في المعاصى) قاله أبومجلز. غير أن حقيقة تأويل الكلمة هوما بيَّنت من أنها بعد ما بين قدميه، ثم تستعمل في جميع آثاره وطرقه، إذ الخطوات واحدها خطوة (بالضم) وهى ما بين قدمى الماشي. يقال اتبّع خطواته، ووطىء على عقبه إذا اقتدى به واستن بسنته، ومُبينٌ: أي ظاهر العداوة لذوى البصائر، والسوء ما

يسوءك وقوعه أو عاقبته. والفحشاء لفظ عام، وهو كل ما يفحش قبحه في أعين الناس من المعاصي والآثام، وهي أقبح وأشد من السوء، و يأمركم أي يوسوس لكم و يتسلط عليكم كأنه آمرٌ مطاع، وأنتم في انقيادكم له، كأنكم مأمورون «أَلْفَيْنَا» وجدنا. وعقل الشيء عرفه بدليل، وفهمه بأسبابه ونتائجه* وفي الخازن (جـ١ ص ١٠١) والحلال: المباح الذي أحله الشرع، وانحلت عقدة الخطر عنه، وأصله من الحل الذي هو نقيض العقد. والطَّيب: ما يستلَذُّ، والمسلم لا يستطيب إلا الحلال، و يعاف الحرام، وقيل: الطيب هو الطاهر. لأن النّجس تكرهه النفس وتعافه* وحلالاً حال من ما «طيباً» صفة مؤكدة أي فيكون معنى الطيب هو معنى الحلال ـــ وإن لم يستلذ كالأدو ية، وعلى هذا فيكون الطيب أخصُّ من الحلال «ومن» في قوله: «مِمَّا فِى الأ رضِ» تبعيضية في موضع مفعول كلوا أي كُلُوا بعض ما في الأ رض إذ لا يؤكل كُل ما في الأ رض* وقوله: «إِنَّهُ لَكُمْ عَدوٌّ» ...الخ. تعليل للنهى عن الا تباع* وقوله: «إِنَّما يأمُرُكُمْ» ...الخ. بيان لعداوته، ووجوب التحرّز عن متابعته، واستعير الأمر لتزيينه، و بعثه لهم على الشر تسفيهاً لرأيهم وتحقيراً لشأنهم (البيضاوى)* وفي سبب نزول قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مـا أَنْزَلَ اللهُ...» الآية* في الخازن (جـ١ ص ١٠٢) قال ابن عباس: دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود إلى الإسلام، فقال رافع بن خارجة ومالك بن عوف «بَلْ نَتَّبِعُ مـا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» كانُوا خيراً منّا وأعلم منا، فأنزل الله هذه الآية* وقيل: إن الآية متصلة بما قبلها، والضمير في هم يعود إلى قوله «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً» قبل هذه الآيات. وهم مشركوا العرب «قالوا بَلْ نَتّبعُ مـا أَلْفَيْـنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» يعنى من عبادة الأصنام، وقيل: بل الضمير في هم يعود على قوله: «يا أَيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الأَرْضِ» والمعنى: وإذا قيل لَهم اتبعوا ما أنزل الله يعنى في تحليل ما حرَّموا على أنفسهم «قَالُوا بَلْ نَتّبعُ مـا أَلْفَيْـنَا» يعنى وَجَدْنا «عَلَيْه آبَاءَنَا» من التحريم والتحليل قال الله تعالى: «أَوَلَوا كَانَ آبَاؤهُمْ» يعنى الذين يتبعونهم «لاَ يَعْقِلُونَ شيْئاً» يعنى لا يعلمون شيئاً من أمر الدين. لفظه عام ومعناه خاص، وذلك أنَّهم كانوا يعقلون أمر الدنيا. «ولاَ يَهْتَدُونَ» أي إلى الصواب* وقوله تعالى «بَلْ نَتّبعُ» بل هنا للإضراب عن الأ وّل. أي لا نتّبعُ ما أنزل الله، وليس إضراب خروج قصة من قصة، بل إنَّه إضراب إبطال لا إضراب انتقال، وعلى هذا فيقال: كل إضراب في القرآن فالمراد

بـه الانـتقال من قصّة إلى قصّة إلاَّ في هذه الآية، وإلا في قوله: «**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الحقُ**» فـإنَّـه محتمل للأمرين، فإن اعتبرت قوله: أم يقولون افتراه كان إضراب انتقال. وإن اعتبرت افتراه وحده كان اضراب ابطال.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مٰا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مٰا يأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدىَ والْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبرهُمْ عَلَى النَّارِ» سورة البقرة (آية: ١٧٤، ١٧٥)

ذكـر الـواحـدى فى أسباب النزول قول الكلبىّ عن ابن عباس قال: نزلت فى رؤساء اليهود. وعلـمـائـهـم، كـانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا وكانوا يرجون أن يكون المبعوث منهم، فلما بـعـث مـن غـيرهم خافوا ذهاب مأكلتهم، وزوال رياستهم، فعمدوا إلى صفة محـمـد صلى الله عـلـيـه وسـلـم فغيروها، ثم أخرجوها إليهم، وقالوا: هذا نعت محمد الذى يخرج فى آخـر الـزمـان لايـشبه نعت هذا النبى الذى بمكة، فإذا نظرت السفلة إلى النعت المـتغير وجـدوه مخـالفاً لصفة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يتبعونه* وفى القرطبى نحو هذا. وعـبـارتـه «**إِنّ الّـذينَ يكتُمونَ مٰا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ ألْكِتاب**» يعنى علماء اليهود، كتموا ما أنـزل الله فى الـتـوراة مـن صفة محمد صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته* وهذه الآية وإن كـانـت فى الإخـبـار عـن اليهود وكتمانهم للحق فإنها تتناول من المسلمين من يكتم الحق منهـم مختـالاً لـذلـك بسبب دنيا يصيبها* وما ذكر فى القرطبى هو نفسه مذكور فى الطبرى وابـن كـثير (جـ٢ ص٥٣) و(جـ١ ص٢٠٦) وكذا فى الخازن (جـ١ ص١٠٤) وهو قول المـفسرين، ولكن قال الإمام الرازى: وعند المتكلمين هذا ممتنع لأن التوراة والانجيل قد بـلغا من الشهرة والتواتر إلى حيث تعذّر ذلك فيهما بل كانوا يكتمون التأويل لأنه قد كان منهـم مـن يـعـرف الآيـات الـدالـة على نـبـوة محـمـد صلى الله عـليـه وسلم، فهذا هو المراد بالكتمان فيصير المعنى إن الذين يكتمون معانى ما أنزل الله من الكتاب «**و يَشْتَرُونَ بِهِ**» أى بـالـكـتـمـان، وقـيـل يعود الضمير إلى ما أنزل الله من الكتاب. ومن فى من الكتاب للـبـيـان، وهـى حـال مـن الـعـائد على الموصول تقديره أنزله الله حال كونه من الكتاب، والعامل فيه أنزل، أو حال من الموصول نفسه، فالعامل فى الحال يكتمون، ويجوز أن تكون

من بمعنى فى. والكتاب هو التوراة. «**ثمناً قَلِيلاً**» أى عوضاً يسيراً وهى المآكل التى كانوا يأخذونها من سفلتهم «**أولَئِكَ مـا يأكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إلاَّ النَّارَ**» إستثناء مفرع لأن قبله عـاملاً يطلبه، وهذا من مجاز الكلام، جعل ما هو سبب للنار ناراً لقولهم: أكل فلان الدَّم يـريـدون الـديـة التى سببهـا الـدم. يعنى ما يأكلون فى بطونهم إلا ما يؤديهم إلى النار، وهو الـرشا والحرام، فلما كان يفضى بهم ذلك إلى النار، فكأنهم أكلوها أو أنهم يأكلونها حقيقة « **وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامةِ**» أى كلام رحمة وما يسرهم، بل يكلمهم بالتوبيخ لقوله تـعـالى: «**اخْـسَـئـوا فِـيهَا ولاَ تكَلِّمُون**» ذلك لكتمانهم كلامه فى الدنيا، وقيل: أراد به الـغـضـب، يـقـال فـلان لا يـكـلـم فـلانـاً إذا غضب عليه. وفى التنزيل أيضاً «**فَوَرَبِّكَ لَـنَـسْـأَلَـنَّـهُمْ أجْمعِينَ**» والسؤال كلام. والمراد من الآية والله أعلم أنه تعالى لا يكلمهم بـتـحـية وسلام وخير، وإنما يكلمهم بما تعظم به الحسرة والغمّ عند المناقشة والمساءلة «**وَلاَ يُـزَكِيهِمْ**» أى لا ينسبهم إلى التزكية، ولا يثنى عليهم، ولا يقبل أعمالهم كما يقبل أعمال الأ زكـيـاء، أو لا يـنـزلـهـم مـنـازل الأ زكـيـاء. أو لا يطهرهم من دنس الذنوب. «**وَلَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ**» أى مؤلم يصل ألمه إلى قلوبهم وإلى كل ذرة فى أجسامهم. « **أولَئِكَ الَّـذِينَ اشْـتَـرُوا الـضَّـلالَةَ بالْهُدَى والْعَذَابَ بالْمَغْفِرة**» أى أولئك الموصوفون بالصفات الستة مـن قـولـه «**إنَّ الَّـــذِينَ يـكْتُمونَ...**» إلى هنا، وهذا بيان لحالهم فى الدنيا بعد أن بين حـالـهـم فى الآخـرة. والـمعنى أنهـم اخـتـاروا الـضلالة على الهدى، واختاروا العذاب على المغفرة لانهم كانوا عالمين بالحق، ولكن كتموه وأخفوه، وكان فى إظهاره الهدى والمغفرة، وفى كـتـمـانـه الضلالة والعذاب فلما أقدموا على إخفاء الحق وكتمانه كانوا بائعين الهدى بـالـضـلالـة والـمـغفرة بالعذاب «**فَمَا أصْبَرهُمْ عَلَى النَّارِ!!**» ما استفهامية صحبها معنى الـتـعجب مثل كيف تكفرون. أو أنها موصولة. أى ما الذى صبرهم، وأى شيء جسرهم على الـنـار حتى تركوا الحق، واتبعوا الباطل! وفى الطبرى فى «**فَمَا أصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ**» قـال: اخـتـلـف أهل التأو يل فى تأو يل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك فما أجرأهم على الـعـمـل الـذى يـقـربهم إلى النار، وأسند هذا القول إلى قتادة والحسن* وعن مجاهد «**فَمَا أصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ**» قال: ما أعملهم بالباطل* وفى رواية عنه: ما أعملهم بأعمال أهل الـنـار* وهو قول الحسن وقتادة أيضاً، والمعنى أنهم فى عذاب شديد عظيم هائل يتعجب من رآهـم فيهـا من صبرهم على ذلك مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال عياذا بالله من ذلك.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«لَيْسَ الْبَرَّ أنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ والْمَغرِب وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ والْمَلائِكَةِ والْكِتَابِ والنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى والْيَتَامَى والْمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ والْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ فى الْبَأسَاءِ والضَّراءِ وَحِينَ الْبَأسِ أولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» سورة البقرة (آية: ١٧٧)

فى الواحدى. قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً سأل نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم عن البر فأنزل الله تعالى هذه الآية قال: وذكر لنا أن نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم دعا الرجل فتلاها عليه وقد كان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ثم مات على ذلك وجبت له الجنة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكذا قوله فى الطبرى (ج٢ ص٥٦) لكن بدل وجبت له الجنة. يرجى له، و يطمع له فى خير فأنزل الله **«لَيْسَ الْبَرَّ أن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ والْمَغرِب»** وكانت اليهود توجهت قبل المغرب والنصارى قبل المشرق **«ولكنّ الْبَرِمَنْ آمن باللهِ والْيَوْم الآخِرِ..»** الآية وفيه.
عن الربيع بن أنس قال: كانت اليهود تصلى قبل المغرب والنصارى قبل المشرق فنزلت ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب* وعن ابن عباس قوله **« لَيْسَ الْبَرَّ أن تُولُّوا وُجُوهَكَمْ قِبلَ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ»** يعنى الصلاة. يقول ليس البر أن تصلوا ولا تملوا، فهذا منذ تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض، وحدّ الحدود فأمر الله بالفرائض والعمل بها* وعن مجاهد **«لَيْسَ الْبرَّ أنْ تَوَلُّوا وُجُوهَكُمُ قِبَلَ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ»** وأنّ البرّ ما ثبت فى القلوب من طاعة الله* و يرجح قول من قال عنى الله بذلك اليهود والنصارى، وذلك أن اليهود تصلى فتوجه قبل المغرب، والنصارى تصلى فتوجه قبل المشرق فأنزل الله فيهم هذه الآية يخبرهم فيها أن البر غير العمل الذى يعملونه ولكنه ما بيناه فى هذه الآية وهو قول قتادة والربيع بن أنس، و يرجح ذلك أن الآيات قبلها مضت بتوبيخهم ولومهم والخبر عنهم، وعما أعد لهم من أليم العذاب. وهذا فى سياق ما قبله* وقال الخطيب فى تفسيره: **«أنْ تُوَلُّوا وجُوهَكُمْ»** أى فى الصلاة **«قِبَلَ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ»** على قولين. أحدهما أنهم المسلمون. والثانى أهل الكتابين. فعلى الأول معناه ليس البر كله فى الصلاة، ولكن البر ما فى هذه الآية. قاله ابن عباس ومجاهد

وعطاء. وعلى الثانى ليس البر صلاة اليهود إلى المغرب، وصلاة النصارى إلى المشرق، فإنهم أكثروا الخوض فى أمر القبلة حين حولت. وادعى كل طائفة أن البر هو التوجه إلى قبلته، فرد الله تعالى عليهم وقال: ليس البر ما أنتم عليه فإنه منسوخٌ ولكن البر ما فى هذه الآية و يعكر عليه أن قبلة اليهود بيت المقدس، وهو للشمال بالنسبة للكعبة، والله أعلم بأسرار كتابه ومراده وقال قوم: هو عام لهم وللمسلمين. أى ليس البر مقصوراً بأمر القبلة* والبر: لغة التوسع فى الخير، وأصله من البر المقابل للبحر. وفى لسان الشرع كل ما يتقرب به إلى الله من الإيمان به وصالح الأعمال وفاضل الخير، أو قل: البر. كل فعل مرضى عند الله تعالى. أو قل: هو اسمٌ جامع لكل الطاعات، وأعمال الخير المقربة إلى الله تعالى الموجبة للثواب والمؤدية إلى الجنة، ثم بين تعالى فى هذه الآية خصالاً من البر فقال: «مَنْ آمَنَ بِاللهِ» أي ولكن البر من آمن بالله، فكان المراد بالبر هنا الإيمان بالله، وهو أعظم البر إذ به يُخلّص الانسان نفسه من النار، فهو فى الحقيقة إحسان إلى النفس ذاتها بدليل «وَالْيَوْمِ الآخِرِ» أى ومن البر أيضاً الإيمان باليوم الآخر، وإنما ذكر الإيمان باليوم الآخر لأن عبدة الأوثان كانوا ينكرون البعث بعد الموت «وَالْمَلائِكَةِ» أى ومن البر الإيمان بالملائكة كلهم لأن اليهود قالوا: إن جبريل عدونا «وَالْكِتَابِ» الظاهر أراد به القرآن. لأن اليهود والنصارى ومن على شاكلتهم ينكرونه. وقيل: جميع الكتب المنزلة لسياق ما بعده وهو قول «وَالنَّبِيينَ» يعنى أجمع. وإنما خصَّ الإيمان بهذه الأمور الخمسة لأنه يدخل تحت كل واحد منها أشياء كثيرة مما يلزم المؤمن أن يصدق بها. فمن قوله: ليس البر الخ .. نصف السورة السابق كان متعلقاً بأصول الدين، و بقبائح بنى اسرائيل، وهذا النصف غالبه متعلق بالأحكام الفرعية تفصيلاً ليعمل بها المؤمنون «وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ» يعنى من أعمال إيتاء المال على حبه أى حب الله، أو على حبه المال. وهو فى محل نصب على المال. والعامل فيه آتى. أى آتى المال حال محبته له، واختياره إياه روى الشيخان عن أبى هريرة قال: جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله. أىُّ الصدقة أعظم أجراً؟ قال: [أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان]* قوله حتى إذا بلغت الحلقوم أى الروح ولفلان كذا. كناية عن الموصى له. وقد كان لفلان كناية عن الوارث «ذَوِى الْقُرْبَى» أى القرابة ففى الخطيب قال عليه الصلاة والسلام: [الصدقة

على المسكين صدقة، وعلى ذى الرحم ثنتان] لأنها صدقة وصلة* ولا شك أن القرابة أحق الناس بالبر إذ المركوز فى الفطرة أن الإنسان يألم لفاقة ذوى رحمه وعدمهم أشد مما يألم لغيرهم، فهو يرى أن هوانه بهوانهم، وعزه بعزهم، فمن قطع رحمه وامتنع عن مساعدتهم، وهم بائسون وهو فى نعمة من الله وفضل، فقد بعد عن الدين والفطرة (المراغى ج٢ ص٥٦)* وفى ابن كثير (ج؟ ص٢٠٧) عن أبى ذر أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الإيمان؟ فتلا عليه «**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ**» إلى آخر الآية، ثم سأله أيضاً فتلاها عليه، ثم سأله فقال: [إذا عملتَ حسنةً أحبَّهَا قَلْبَكَ وإذا عَمِلْتَ سيِّئةً أبْغضهَا قَلْبَكَ] لكنه منقطع كما قال ابن كثير لأن مجاهداً لم يدرك أبا ذر فإنه مات قديماً* وقال ابن كثير: وأما الكلام على تفسيره هذه الآية فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حولهم إلى الكعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب و بعض المسلمين ــ فقد جرى على القول بالعموم ــ فأنزل الله تعالى بيان حكمته فى ذلك وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل، وامتثال أوامره والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس فى لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ولهذا قال: «**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ**» الآية كما قال فى الأضاحى والهدايا «**لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ**» سورة الحج آية (٣٧) «**والْيَتَامىَ**» اليتيم هو الذى لا أب له مع الصغر، وقيل: يقع على الصغير والبالغ. أى يريد المحاو يج منهم والمراد إيتاء أوليائهم لأن الإيتاء لليتامى لا يصح، وهذا مع الصغر لعدم إدراكهم لذلك. «**والْمَسَاكِينَ**» جمع مسكين. سُمّىَ بذلك لأنه دائم السكون إلى الناس لأنه لا شيء له، أو لأن الحاجة أسكتته، والعجز قد أقعده عن طلب ما يكفيه. قال أبو إسحاق: المسكين الذى أسكنه الفقر أى قلل حركته* وهو بعيد لأن مسكينا فى معنى فاعل. وقوله الذى أسكنه الفقر يخرجه إلى معنى مفعول. فيكون فقيراً لإيقاع الفقر عليه. والفقير فى اللغة هو الذى له بعض ما يقيمه. والمسكين أسوأ حالاً من الفقير. وهو قول ابن السكيت، قال يونس: وقلت لأعرابىّ: أفقيرٌ أنت أم مسكين؟ فقال: لا والله بل مسكين، فأعلم أنه أسوأ حالاً من الفقير. واحتجوا على أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير بقول الراعى:

أمّا الفقير الذى كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد

فأثبت أن للفقير حلوبة، وجعلها وفقاً لعياله، قال: وقول مالك فى هذا كقول يونس. وروى عن الأصمعى أنه قال: المسكين أحسن حالاً من الفقير، وإليه ذهب أحمد بن عبيد. قال: وهو الصحيح عندنا لأن الله تعالى قال: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ» فأخبر أنهم مساكين وأن لهم سفينة تساوى جملة. أى من المال. وقال: « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً...» فهذه الحال التى أخبر بها عن الفقراء هى دون الحال التى أخبر بها عن المساكين. قال ابن برّى: وإلى هذا القول ذهب على بن حمزة الأصبهانى اللّغوى، و يرى أن الصواب. وما سواه خطأ، واستدل على ذلك بقوله تعالى: «مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ» فأكد عز وجل سُوء حاله بصفة الفقر لأن المتربة الفقر، ولا يؤكد الشيء إلا بما هو أوكد منه. واستدل على ذلك بقوله عزّ وجَلّ: «أَمَّا السَّفِينَة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ» فأثبت أن لهم سفينة يعملون عليها فى البحر، واستدل أيضاً بقول الراجز:

قل لك فى أجر عظيم تؤجره تغيث مسكيناً قليلاً عسكره

عشر شياه سمعه وبصره قد حدث النفس بمصر يحضره

فأثبت أن له عشر شياه، وأراد بقوله عسكره غنمه وأنها قليلة. واستدل أيضاً ببيت الراعى. وزعم أنه أعدل شاهد على صحة ذلك، وهو قوله: أما الفقير الذى كانت حلوبته... الخ. لأنه قال: أمّا الفقير الذي كانت حَلوبته، ولم يقل الذي حلوبته وقال: فلم يترك له سبد. فأعلمك أنه كانت له حلوبة تقوت عياله، ومن كانت هذه حاله فليس بفقير ولكن مسكين، ثم أعلمك أنها أُخذت منه فصار إذ ذاك فقيراً. يعنى ابن حمزة بهذا القول أنَّ الشاعر لم يثبت أنَّ للفقير حلوبة لأنه قال: الذي كانت حلوبته. أي فيما مضى. ولم يقول الذي حلوبته فثبت ملكيته لها. وهذا كما تقول: أما الفقير الذي كان له مالٌ وثروة فإنه لم يترك له سبدٌ، أي و بر. وقيل: الشعر. والعرب تقول: ماله سبدٌ ولا لبدٌ، أي ماله ذو وَبرٍ ولا صوف متلبد يكنى بها عن الإبل والغنم، و يدخل في الغنم المعز لأن الشعر له. وأراد أنه إذا لم يكن فقيراً، فهوا إمّا غنيٌّ وإمّا مسكين، ومن له حلوبة واحدة فليس بغنى، وإذا لم يكن غنياً لم يبق إلا أن يكون فقيراً أو مسكيناً، ولا يصح أن

يكون فقيراً على ما تقدم ذكره، فلم يبق أن يكون إلاّ مسكيناً، فثبت بهذا أن المسكين أصلح حالا من الفقير قال عليُّ بن حمزة: ولذلك بدأ الله تعالى بالفقير قبل من يستحق الصدقة من المسكين وغيره، وأنت إذا تأملت قوله تعالى: **«إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ»** وجدته سبحانه قد رتبهم فجعل الثاني أصلح حالاً من الأول. والثالث أصلح حالاً من الثاني. وكذلك الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن (اللسان جـ١٣ ص ٢١٦ وجـ٣ ص ٢٠٢) مع زيادة عليها بغية الإيضاح* **«وَابْنِ السَّبِيلِ»** هو المسافر البعيد عن ماله ولا يمكنه الإتصال بأهل أو بذى قرابة، وسُمّى ابن السبيل أي الطريق لملازمته إياها في السفر، أو لأنَّ الطريق تبرزه فكأنها ولدته (كرخى)* والسّبيل في اللغة: الطريق وما وَضَحَ منه يذكّر و يُؤنث. وسبيل الله: طريق الهدى الذي دعا إليه، وابن السبيل المسافر الكثير السفر، سُمى ابناً لها لملازمته إياها، وفي الحديث: [حريم البئر أربعون ذِراعاً من حواليها، لأعْطَانِ الإبل والغنم، وابن السبيل أوْلَى شارب منها] أي عابر السبيل المجتاز بالبئر أو الماء أحقُّ به من المقيم عليه، يمكَّن من الورد والشرب، ثم يدعه للمقيم عليه: والمراد من الآية أن المسافر الذي انقطع به وهو يريد الرُّجوع إلى بلده، ولا يجد ما يتبلغ به فله في الصَّدقات نصيب* قال الشافعى: وابن السبيل عندى: ابن السبيل هو من أهل الصدقة الذي يريد البلد غير بلده لأمر يلزمه. و يُعطى ابن السبيل قدر ما يبلغه البلد الذي يريده في نفقته وحمولته* وفي الخازن (جـ١ ص ١٠٥) وقيل: هو الضيف ينزل بالرجل لأنه إنما وصل إليه من السبيل، وهو الطريق، والأول أشبه لأن ابن السبيل اسمٌ جامع للمسافر* وفي الطبرى (جـ٢ ص ٥٧) عن قتادة **«وَابْنِ السَّبِيلِ»** قال: هو الضيف، قال: قد ذكر لنا أنَّ نبى الله صلى الله عليه وسلم كا يقول: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت]. قال: وكان يقول: [حق الضيافة ثلاث ليال، فكل شيء أضافه بعد ذلك صدقة]. وهو بعيد النجعة لأنه لا ارتباط بين اسمى ابن السبيل والضيف لغة ومعنى فكيف يُتأوّل أحدهما بالآخر* **«وَالسَّائِلِينَ»** يعنى الطالبين المستطعمين، عن على ابن أبى طالب كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [للسائل حق ولو جاء على فرس] أخرجه أبوداود. وكذا أخرجه مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم. وعن أم نجيد قالت: قلت يا رسول الله إنَّ المسكين ليقوم على بابى فلم أجد شيئاً أعطيه إيّاه، قال: [إن لم تجدي إلاّ ظِلفاً مُحرّقاً فادفعيه إليه في يده]

أخرجه أبوداود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح؛ قوله: ولو كان ظلفاً: هو خف الشاة، وفي كونه محرَّقاً مبالغة في قلة ما يُعطى. قوله: «وفِي الرِّقَابِ» معطوف على المفعول الأول، وهو ذوى. أي وآتى المال في الرقاب. أي دفعه في فكها. أي لأجله و بسببه، و يشمل ذلك ابتياع الأرقاء وعتقهم، ومساعدة الأسرى على الإفتداء، وإعانة المكاتبين على أداء نجومهم (المكاتب هو الرقيق يشترى نفسه من مولاه بثمن يجعله نجوماً ـ أقساطاً) وفي جعل هذا نوعاً من البذل واجباً على المسلمين، دليل على رغبة الشارع في فك الرقاب، واعتباره أن الإنسان خلق ليكون حُراً إلا في أحوال عارضة تقضى المصلحة العامة فيها أن يكون الأسير رقيقاً. والبذل لهذه الأصناف لا يتقيد بزمن معيَّن، ولا بامتلاك نصاب محدود من المال. ولا بتقدير المال المبذول بمقدار معيَّن كالزكاة الواجبة، بل هو موكول إلى سخاء المُعْطِي وحال المعطَى. وقد أغفل الناسُ أداء هذه الحقوق التي حثَّ عليها الكتاب الكريم، مع ما فيها من التكافل العام بين المسلمين، ولو أدوها لكانوا في معايشهم من خير الأمم، ولدخل كثير من الناس في الإسلام، لما يرون فيه من جميل العناية بالفقراء، وأنَّ لهم حقوقاً في أموال الأغنياء؛ «وأقَامَ الصَّلاةَ» المفروضة، فأداها على أقوم وجه في أول أوقاتها، ولا يتحقق ذلك بأداء أفعال الصلاة وأقوالها فحسب بل إنما يكون بوجود سرِّ الصلاة وروحها، ومن آثاره تحلى المصلى بالأخلاق الفاضلة، وتباعده من الرذائل، فلا يفعل فاحشة ولا منكراً كما قال تعالى مبيِّناً فوائدها: «إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» ولا يكون هلوعاً جزوعاً إذا مسَّه الضر، ولا بخيلاً منوعاً إذا ناله الخير كما قال جلّ اسمه «إنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وإذَا مسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إلاَّ الْمُصَلِّينَ» كما لا يخشى في الله لومة اللائمين، ولا يُبالى في سبيل الله ما يلقى من الشدائد. ولا بما ينفق من فضله ابتغاء مرضاته (المراغى جـ ٢ ص ٥٧)؛ «وآتَى الزَّكَاةَ» يعنى الواجبة قال: وقلما تجيء الصلاة في القرآن الكريم إلا وهى مقترنة بالزكاة، ذاك أن الصلاة تهذب الروح، والمال قرين الروح، فبذله ركن عظيم من أعمال البر، ومن ثَمَّ أجمع الصحابة على محاربة مانعى الزكاة من العرب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن مانعها يهدم ركناً من أركان الإسلام، و ينقض أساس الإيمان؛ «والمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ» يعنى ما أخذه الله من العهود على عباده بالقيام بحدوده، والعمل بطاعته. وقيل: أراد بالعهد ما يجعله الإنسان على نفسه ابتداء من نذر

وغيـره، وقيل: العهد الذي كان بينه و بين النَّاس، مثل الوفاء بالمواعيد، وأداء الأمانات (الخـازن جـ ١ ص ١٠٦)* ومـثل العهود العقود، فيجب علينا الوفاء بها ما لم تكن مخالفة لقـواعـد الدين العامة، وفي الوفاء بالعهود والعقود حفظ كيان المجتمع من أن ينفرط عقده كما أن الـغـدر والاخـلاف فيهـا هـادم للـنـظـام، مفسدٌ للعمران، فما من أمة فقدت الوفاء بـالعهد (وهو ركن الأمانة وقوام الصدق) إلا حلَّ بها العقاب الإلٰهي، فانتزعت الثقة من بين أفـرادهـا حتى بين الأهل والعيال، فيعيشون متخاذلين وكأنهم وحوش مفترسة، ينتظر كـل واحـد وثـبـة الآخـر عـلـيـه، إذا أمكن يده أن تصل إليه، ومن ثمَّ يضطر أفرادها إلى الاسـتـيـثـاق في عـقـودهـم بكل ما يقدرون عليه، ويحترس كل منهم من غدر الآخر، فلا يـكـون هـنـاك تـعـاون ولا تـناصر، بل تباغُضٌ وتحاسد، ولا سيما بين الأقارب، ولو شمل الـنـاس الوفاء لسلموا من هذا البلاء. «**إِذَا عَاهَدُوا**» يعنى إذا وعدوا أنجزوا، وإذا نذروا أوفـوا، وإذا حـلـفـوا بـروا في أيمـانهـم، وإذا قـالـوا صـدقـوا في أقـوالهـم، وإذا ائـتمنوا أدوا «**والـصَّـابِرِيـنَ فِــى الْـبَـأْسَاءِ**» أي في الشدة والفقر والفاقة «**والضَّراءِ**» أي المرض والـزمانه «**وَحِينَ الْبَأْسِ**» يعنى القتال والحرب في سبيل الله، وسمى الحرب بأساً لما فيه مـن الشدة، روى الشيخان عن البراء قال: كنَّا والله إذا احمرَّ البأس نتقي به وأن الشجاع مـنـا الـذي يحـاذى بـه. يـعنى الـنبي صلى الله عليه وسلم. احمرَّ البأس: أي اشتد الحرب، ونـتـقي بـه: أي نجعله وقاية لنا من العدو. وخُصَّ هذه المواطن الثلاثة مع أن الصبر المحمود في جمـيـع الأحوال، لأنَّ من صبر فيها كان في غيرها أصبر، فالفقر إذا اشتدَّت وطأته ضاق الـصـدر، وكـان يـفضى إلى الـكفر، والضُّرُّ إذا برَّح بالبدن أضعف الأخلاق والهمم، وفي الحـرب الـتـعـرض للـهـلاك بخوض غمرات المنية، والظفر مقرون بالصبر، و بالصبر يحفظ الحق الذي يناضل صاحبه دونه، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن الفِرار من الزَّحف مـن أكبر الـكـبـائـر. و بـاتـبـاع هذه الأ وامر كانت الأمة الإسلامية أعظم أمة حربيَّة في الـعـالم، قـولـه: «**والصَّابرين**» نصب على المدح، أي ليس المراد أنّه يقدر عامل من مادة المدح بـل المراد أنّه معمول لفعل محذوف كأخصُّ، أو أذكر هكذا صرَّحوا به. وعبارة أبي الـسعود: نصب على الاختصاص، ولم يدرج في سلك ما قبله بأن يقال: والصَّابرون تنبيهاً على فضيلة الصبر (ولفت النظر إليه، والتّفكر فيه وفي نتائجه) وهو في الحقيقة معطوف على مـا قـبـلـه مـن حـيـث المـعنى. قال أبوعلي: إذا ذُكرت صفات للمدح، أو للذم، وخولف

الأعـارب في بـعضها فذلك تفنُّنٌ، و يسمى قطعاً لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استـمـاع المذكـور، ومزيد اهتمام بشأنه، وقد قُرِىء والصَّابرون: كما قرىء والموفين* وعبـارة الكرخي: ولم يعطف لمزيد شرف الصبر. قال الراغب: ولمَّا كان الصبر من وجه مبـدأً للفضائل، ومن وجهٍ جامعاً للفضائل إذ لا فضيلة إلاَّ وللصبر فيها أثر بليغ غير إعرابه تـنـبيهاً على هـذا المقـصود* وهذا كلام حسن. فالآية جامعة لجامع الكمالات الإنسانية، وهـي صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس* «**أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا**» في دعـواهـم الإيمـان. دون الـذيـن قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم. قال الواقدى رحمه الله تـعـالى: إنَّ الواوات في هذه الأوصاف تدل على أنَّ من شرائط البر استكمالها وجمعها، فمن قـام بواحد منها لا يستحق الوصف بالبّر، فلا ينبغى إذا اظلم إنساناً وأوفى بعهده أن يكون مـن جملـة من قام بالبر، وكذا الصابر في البأساء لا يكون قائماً بالبر إلا عند استجماع هذه الخصـال. ولـذلـك قال بعضهم: هذه الصفات خاصة بالأنبياء لأنَّ غيرهم لا تجتمع فيه هـذه الأوصـاف* وقـال آخرون: هي عامة في جميع المؤمنين* «**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**» أي وأولـئـك هـم الذين جعلوا بينهم و بين سخط الله وقاية بالبعد عن المعاصى التي توجب خذلان الله في الدنيا. وعذابه في الآخرة، وعبارة أبي السعود: «**وأولَئِكَ هُمُ المتَّقُونَ**» الله أي عـن الـكـفـر وسـائـر الـرذائـل. وتكرير الإشارة لزيادة تنو يه شأنهم. وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمَ القِصَاصُ فِي القَتْلَى الْحُرُّ بالْحُرِّ والْعَبْدُ بالْعَبْدِ والأنْثَى بالأنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ منْ أخِيهِ شيءٌ فَاتِّبَاعٌ بالْمَعْروف وَأدَاءٌ إلَيْهِ بإحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكم وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أليمٌ * وَلَكُمْ فى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الألْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون*»

سورة البقرة (آية: ١٧٨، ١٧٩)

في الـواحـدى : قـال الـشعبي : كان بين حيّيْن من أحياء العرب قتال. وكان لأحد الحيين طـول على الآخر، فقالوا نقتل بالعبد منا الحر منكم، و بالمرأة الرجل فنزلت هذه الآية* قلت: وأخرج البخارى في كتاب التفسير: عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كـان في بنى إسرائيل القصاص، ولم تكن فيهم الدية، فقال الله تعالى لهذه الأمة: «**كُتِبَ**

عَلَيْكُمَ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بالْحُرِّ والعَبْدُ بالعَبْدِ والأُنْثَى بالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ منْ أخِيهِ شيءٌ» فالعفو أن يقبل الدّية في العمد. فاتباع بالمعروف. وأداءٌ إليه بإحسان. يتبع بالمعروف و يؤدى بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة مما كُتب على من كان قبلكم فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم، قتل بعد قبول التوبة. هذا هو لفظ البخارى بعينه متناً وشرحاً، وهو من تفسير ابن عباس رضي الله عنهما. والحديث أخرجه البخارى أيضاً في الديات عن قتيبة، وأخرجه النسائى في التفسير عن عبدالجبار، وفي القصاص عن الحارث بن مسكين. قوله: «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ منْ أخِيهِ شيءٌ» معناه قبول الدية في العمد، وقيل فيمن قتل وله وليّان فعفا أحدهما، فللآخر أن يأخذ مقدار حقّيه من الدية. وقال الخطابى: العفو في الآية يحتاج إلى تفسير، وذلك أن ظاهر العفو يوجب أن لا تبعة لأحدهما على الآخر، فما معنى الاتباع والإعفاء؟ فمعناه أن من عُفِي عنه الدم بالديه فعلى صاحب الدية اتباع أي مطالبة بالدية، وعلى القاتل آداء الدية إليه. ومعنى كلام الزمخشرى في الكشّاف (جـ ١ ص ٣٣١) أن معنى أخوه هو وليُّ المقتول، وقيل له أخوه لأنه لابسه من قبل أنه ولى الدم، ومطالبه به. أو ذكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ما هو ثابت بينهما من الجنسية والإسلام، قوله: «شيءٌ» أي من العفو. إنما قيل ذلك للاشعار بأن بعض العفو عن الدم، أو عفو بعض الورثة يسقط القصاص، ولم يجب إلا الدية، قوله: «فَاتِّبَاعٌ بالْمَعْرُوفِ» أي فليكن اتباع، أو فالأمر اتباع «ذَلِكَ» أي الحكم المذكور من العفو والدية لأن أهل التوراة كتب عليهم القصاص البتة، وحرم عليهم العفو وأخذ الدية، وعلى أهل الانجيل العفو وحرم القصاص والدية، خيرت هذه الأمة بين الثلاث القصاص والدية والعفو توسعة عليهم وتيسيراً «كَمَا كُتِبَ» على من كان قبلكم: هم أهل التوراة والإنجيل. قوله: «فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذِلِكَ» أي بعد التخفيف. وتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل، أو القتل بعد أخذ الدية. وهو معنى قوله: قُتل بعد قبول الدية. وهو على صيغة المعلوم من الماضى. وقيل: تفسيراً لقوله فمن اعتدى قوله: «فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ» نوع من العذاب شديد الألم في الآخرة، وفى القرطبى: بعد أن ذكر حديث البخارى قال: هو أن القاتل فرض عليه إذا أراد الوليُّ القتل الإستسلام لأمر الله والإنقياد لقصاصه المشروع. وأنَّ الوليَّ فرض عليه الوقوف عند قاتل وليّه، وترك التعدّى على غيره كما كانت العرب تتعدى فتقتل غير القاتل وهو معنى قوله

علـيـه الـصـلاة والـسـلام: [إنَّ من اعتى الناس على الله يوم القيامة ثلا ثة: رجل قتل غير قـاتـلـه، ورجل قتل في الحرم، ورجل أُخذ بذحُول الجاهليّة] الذَّحْل بفتح السكون. قيل: الـعـداوة والحـقـد. وقـيـل: الـثـأر وطلب المكافأة بجناية جنيت عليه من قتل أو جرح ونحو ذلـك. وفي الـقـرطبي: قـال الـشـعبي وقـتـادة وغيرهما: إنَّ أهل الجاهلية كان فيهم بغيٌ، وطاعة للشيطان، فكان الحيُّ إذا كان فيه عزٌّ ومنعة فقُتل لهم عبد، قتله عبد قوم آخرين، قـالـوا لا نـقـتـل به إلا حراً، وإذا قُتل منهم امرأة، قالوا لا نقتل بها إلا رجلاً، وإذا قُتل لهم رضيـع قـالـوا لا نـقـتـل به إلا شريفاً، و يقولون: (القتْلُ أوْقَى للقتل) ــ بالواو والقاف، و يـروى (أبْقَى) بـالـبـاء والقاف، و يروى (أنفى) بالنون والفاء ــ فنهاهم الله عن البغي فـقـال: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بالْحُرِّ والْعَبْدُ بالْعَبْدِ ...» الآيـة. وقـال: «وَلَكُمْ فى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ» و بين الكلامين في الفصاحة والجزل بونٌ عـظيم. أي أعـلـمهم الله تعالى أن الذي فرض لهم من القصاص أن يقتلوا بالرجل الرجل الـقـاتل دون غيره، و بالأنثى الأنثى القاتلة دون غيرها من الرجال، و بالعبد العبد القاتل دون غـيـره من الأحرار. فنهاهم أن يتعدُّوا القاتل إلى غيره في القصاص. وهو قول الشعبي كما في الـطـبـرى (جـ٢ ص ٦٠) نـزلـت في قـبيلتين من قبائل العرب اقتتلتا قتال عمِّية فـقـالـوا: نـقـتـلُ بعبدنا فلان بن فلان، و بفلانة فلان بن فلان فأنزل الله «الْحُرُّ بالْحُرِّ والْعَبْدُ بـالْعَبْدِ والأُنْثَى بـالأُنْثَى» وفي الـطـبرى عن السدى قوله «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بالْحُرِّ والْعَبْدُ بالْعَبْدِ والأُنْثَى بالأُنْثَى» قال: اقتتل أهل ملَّتين مـن الـعـرب أحدهما مسلم والآخر معاهد في بعض ما يكون بيْن العرب من الأمر فـأصـلح بينهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كانوا قتلوا الأحرار والعبيد والنساء على أن يـؤدى الحـر ديـة الحـر، والـعـبـد دية العبد، والأنثى دية الأنثى فقاصّهم بعضهم من بعض فـنـزلـت الآيـة. وعـن السدى عن أبى مالك قال: كان بين حيين من الأنصار قتال كان لأحدهما على الآخر الطول، فكأنهم طلبوا الفضل، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليصلح بـيـنـهـم فـنـزلت الآية «الْحُرُّ بالْحُرِّ..» الآية فجعل النبي صلى الله عليه وسلم الحر بالحر والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى. وقد لا يكون الأمر بعيداً أن تكرر نزول الآية بعدد أسباب النزول التي تحدَّثت عنها هذه الروايات. ولا يخفى أنَّ ما في الصحيح أصح. وهى الراجحة ومـا عـداهـا مـرجوحة قطعاً. وفي الطبرى (جـ٢ ص ٦١) عن ابن أبي جعفر عن أبيه عن

الربيع قوله: «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمَ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى**» الآية. قال: حدَّثنا عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنَّه كان يقول: أيُّمَا حر قتل عبداً فهو قود به، فإن شاء مولى العبد أن يقتلوا الحر قتلوه وقاصُّوهم بثمن العبد من دية الحر، وأدُّوا إلى أولياء الحر بقية ديته، وإن عبد قتل حراً فهوا به قود، فإن شاء أولياء الحر قتلوا العبد وقاصُّوهم بثمن العبد وأخذوا بقية دية الحر، وإن شاؤا أخذوا الدية كلها، واستحيوا العبد، وأي حر قتل امرأة فهو بها قود، فإن شاء أولياء المرأة قتلوه وأدوا نصف الدية إلى أولياء الحر، وإن امرأة قتلت حراً فهي به قود، فإن شاء أولياء الحر قتلوها وأخذوا نصف الدية، وإن شاؤا أخذوا الدية كلها، واستحيوها وإن شاؤا عفوا‪٭‬ وعن الحسن أن علياً قال في رجل قتل امرأته: قال: إن شاؤا قتلوه وغرموا نصف الدية‪٭‬ وعن الحسن قال: لا يقتل الرجل بالمرأة حتى يعطوا نصف الدية‪٭‬ وعن ابن عباس قوله «**والأنْثَى بالأنْثَى**» وذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، فأنزل الله تعالى «**النّفْسُ بالنَّفْسِ**» فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم في العمد رجالهم ونساؤهم في النفس وما دون النفس، وجعل العبيد مستوين فيما بينهم في العمد في النفس، وما دون النَّفس رجالهم ونساؤهم‪٭‬ قلتُ: وأخرج البخارى في كتاب التفسير عن أنس أن الرُّبَيِّع عمته كسرت ثنية جارية فطلبوا إليها العفوا فأبوا فعرضوا الأرْشَ فأبوا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوا إلاَّ القصاص. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصاص، فقال أنس بن النضر: يا رسول الله أتكسر ثنية الرُّبَيِّع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أنس كتابُ الله القصاص فرضى القوم فعفوا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ من عباد الله مَنْ لو أقسم على الله لأ بَرَّهُ‪٭‬ الرُّبيع بضم الراء مصغر الربيع ضد الخريف. وهي بنت النضر: عمَّه أنس. والجارية الشابة. وأنس بن النَّضر. بفتح النون وسكون الضاد المعجمة هو أخو الربيع، قوله: [لأ بره] أي جعله باراً في قسمه، وفعل ما أراده. قيل: كيف يصح القصاص في الكسر وهو غير مضبوط؟ وأجيب بأن المراد بالكسر القلع أو كان كسراً مضبوطاً‪٭‬ قلتُ: في الجواب نظرٌ، والصواب أن يقال أراد بالكسر الكسر الذي يمكن فيه المماثلة. والله أعلم‪٭‬ وفي الخازن (جـ١ ص١٠٦) بعض الإيضاح لما تقدَّم ذكره «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمَ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى**» قال: نزلت في حيَّيْن من أحياء

العرب اقتتلوا في الجاهلية بسبب قتيل، فكانت بينهم قتلى وحروب وجراحات كثيرة، ولم يأخذ بعضهم من بعض حتى جاء الإسلام* وقيل: نزلت في الأوس والخزرج، وكان لأحد الحيين طول على الآخر في الكثرة والشرف، وكانوا ينكحون نساءهم بغير مهر، وأقسموا لنَقْتُلَنَّ بالعبد منا الحر منهم، و بالمرأة منا الرجل منهم، و بالرجل منا الرجلين، وجعلوا جراحاتهم ضعفي جراحات أولئك، فرفعوا أمرهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله هذه الآية، وأمره بالمساوة فرضوا وسلّموا* وقيل: إنما نزلت هذه الآية لإزالة الأحكام التي كانت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أن اليهود كانوا يوجبون القتل فقط بلا عفو، والنصارى يوجبون العفو بلا قتل، والعرب في الجاهلية كانو يوجبون القتل تارة، و يوجبون أخذ الدية تارة، وكانوا يتعدون في الحكمين، فإن وقع القتل على الشريف قتلوا به عدداً، و يأخذون دية الشريف أضعاف دية الخسيس، فلما بُعثَ محمد صلى الله عليه وسلم أوجب الله رعاية العدل، وسوى بين عباده في حكم القصاص. فأنزل الله تعالى: «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمَ الْقِصَاصُ**» أي فرض عليكم القصاص في القتلى* وقال الخازن: فإن قُلتَ: كيف يكون القصاص فرضاً، والوليُّ مخير فيه بين العفو والقصاص وأخذ الدية؟ قُلتُ: إن القصاص فرض على القاتل للولى لا على الولى. وقيل: إذا أردتم القصاص فقد فرض عليكم. والقصاص: المساوة والمماثلة في القتل والدية والجراح. من قصّ الأثر: إذا اتّبعه، فالمفعول به يتبع ما فعل فيفعل به مثل ذلك، فلو قتل رجل رجلاً بعصاً، أو خنقه، أو شدخَ رأسه بحجر فمات فيُقتل القاتلُ بمثل الذي قُتل به، وهو قول مالك والشافعى، وإحدى الروايتين عن أحمد، وقيل يُقتل بالسيف، وهو قول أبي حنيفة والرواية الثانية عن أحمد* ومن العجيب أنى رأيت في الكشّاف للزمخشرى (جـ١ ص ٣٣١) قولاً له وهو قال محمود ـــ أي ابن عمر الزمخشرى ـــ: مذهب مالك والشافعى رضي الله عنهما أنَّ الحر لا يقتل بالعبد، والذكر لا يقتل بالأنثى...الخ. قال أحمد الاسكندري (في كتابه الإنصاف فيما تضمَّنه الكشاف): وهذا من الزمخشرى وهم على الإمامين فإنهما يقتصان من الذكر للأنثى بلا خلاف عنهما. وأما الحر والعبد عندهما. فهو الذى وهم الزمخشرى عنهما* قُلتُ: وفي الخازن (جـ١ ص ١٠٦) في «**الْحُرُّ بالْحُرِّ والْعَبْدُ بالْعَبْدِ والأنْثَى بالأنْثَى**» ومعناه أنّه إذا تكافأ الدمان من الأحرار المسلمين، أو العبيد من المسلمين، أو الأحرار من المعاهدين، أو العبيد منهم،

فيقتل كل صنف إذا قتل بمثله الذكر بالذكر والأنثى بالأنثى و بالذكر، ولا يقتل مؤمن بكافر، ولا حر بعبد، ولا والدٌ بولد، و يقتل الذميُّ بالمسلم والعبد بالحر والولد بالوالد. قال هذا مذهب مالك والشافعي وأحمد. و يدلُّ عليه ما روى البخارى في صحيحه عن أبي جحيفة قال: سألت علياً: هل عندكم من النبي صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرآن؟ قال: لا. والذي فلق الحبة و برأ النسمة إلاَّ أن يؤتى الله عبداً فهْماً في القرآن. وما في هذه الصَّحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفك الأسير، وأن لا يقتل مؤمن بكافر* وقد أخرج مسلم عن على نحو هذا من غير رواية أبى جحيفة. العقل هنا هو الدية، والعاقلة: الجماعة من أولياء القاتل الذين يعقلون* عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [لا تقام الحدود في المساجد ولا يقتل الوالد بالولد] أخرجه الترمذى* وذهب أصحاب الرأى إلى أن المسلم يقتل بالذمىّ، والحر بالعبد. وهذه الآية مع الأحاديث حجَّة لمذهب الشافعي ومن وافقه، و يقولون: هي مفسرة لما أبهم في قوله: «**النَّفس بالنَّفس..**» وأن تلك واردة لحكاية ما كتب على بنى إسرائيل في التوراة، وهذه الآية خطاب للمسلمين بما كتب عليهم* وذهب أصحاب الرأى إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله «**النفس بالنَّفس**» وتقتل الجماعة بالواحد، و يدل عليه ما روى البخارى في صحيحه عن ابن عمر أن غلاماً قُتِلَ غِيلةً، فقال عمر: لو اشترك فيه أهل صنعاء لقتلتهم به* قال البخاري: وقال مغيرة بن حكيم عن أبيه: أن أربعة قتلوا صبياً فقال عمر مثله. وروى مالك في الموطأ عن ابن المسيَّب أن عمر قتل نفراً خمسة أو سبعة برجل واحد قتلوه غيلة، وقال: لوتمَالأ عليه أهلُ صنعاء لقتلتهم جميعاً* الغيلة: أن يقتل الرجل خديعة ومكراً من غير أن يعلم ما يراد به ــ وقوله: (لوْتمالأ) أي تعاونوا واجتمعوا عليه* والخلاصة أن القصاص على القاتل أيًا كان لا على أحدٍ من قبيلته، ولا فرد من أفراد عشيرته، وقد جرى العمل من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتل الرجل بالمرأة، والحر بالعبد، إذا لم يكن سيده، فإن كان هو عُزِّر بشدّة تمنع أمثاله هذا الاعتداء، ولا يقتل الوالد بولده لأن المقصد من القصاص ردع الجانى عن الإستمرار في مثل هذ الجناية. والوالد بفطرته مجبول على الشفقة على ولده حتى ليبذل ماله وروحه في سبيله، وقلّما يقسوا عليه، ولكن كثيراً ما يقسُوا الولد على والده، وللحاكم أن يعزّر قاتلَ ولده بما يراه زاجراً لأمثاله، ومربياً لهم* كذا ذكره المراغى في تفسيره (جـ ٢

ص ٦٢) وهو مخالف لما عليه الجمهور. وما ذكره المراغي هو مذهب الكوفيين والثوري وأبي حنيفة وغيرهم. ففي القرطبي تحت تنبيهات:

أولاها : أن القصاص موكل إلى أولي الأمر لأن الله تعالى خاطب جميع الأفراد المؤمنين بالقصاص، واجتماعهم على إقامته محال، وبما أنهم أنابوا السلطان عنهم في إقامة الحدود، فهو الذي يتولى تنفيذه إذا لم يكن دية أو عفو من الأولياء.

ثانيتها : ذهب الكوفيُّون والثوري على أن الحرَّ يقتل بالعبد، والمسلم بالذميّ. وذهب أبوحنيفة وأصحابه والثوري وابن أبي ليلى على أن الحرَّ يقتل بالعبد كما يقتل العبد به. وهو قول داود، وروى ذلك عن علي، وابن مسعود رضي الله عنهما. و به قال سعيد بن المسيِّب، وقتادة وإبراهيم النخعي والحكم بن عُيينه. والجمهور من العلماء لا يقتلون الحر بالعبد للتوسيع والتقسيم في الآية. فأفاد كلام القرطبي هذا أنَّه لا مساواة بين الحر والعبد.

ثالثتها : لا يُقتل مسلم بكافر لقوله عليه الصلاة والسلام: [لا يُقتل مسلمٌ بكافرٍ] أخرجه البخاري عن علي بن أبي طالب. وأما حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل يوم خيبر مسلماً بكافر، لا صحة له فهو منقطع وضعيف والصحيح ما ذكره البخاري [لا يُقتلُ مسلمٌ بكافرٍ] إذ هو يخصص عموم قوله تعالى: «**كتب عليكُمُ القِصاصَ في القَتْلَى**» الآية. وعموم قوله «**النَّفْس بالنَّفْسِ**».

رابعتها : وأجمع العلماء على أن المرأة تقتل بالرجل، والرجل يقتل بالمرأة. والجمهور لا يرون الرجوع بشيء من الدية. وفرقة ترى الاتباع بفضل الدِّيات.

خامستها : اختلف أهل العلم في الرجل يقتل ابنه عمداً، فقالت: طائفة لا قود عليه، وعليه ديته، وهذا قول الشافعي وأحمد واسحاق وأصحاب الرأي، وروى ذلك عن عطاء ومجاهد. وقال مالك وابن نافع وابن عبدالحكم: يقتل به. وقال ابن المنذر: وبهذا نقول لظاهر الكتاب والسُّنة. وروى القرطبي عن مذهب مالك أنه إذا قتل الرجل ابنه متعمداً مثل أن يُضجعه و يذبحه أو يصبره ــ صبر الإنسان وغيره: على القتل أي يحبس و يرمى حتى يموت ــ مما لا عذر له فيه ولا شبهة في ادعاء الخطأ، أنه يقتل به قولاً واحداً. فأمَّا إن رماه بالسلاح أدباً، أو خنقاً فقتله. ففيه في المذاهب قولان: يُقتل به، ولا يُقتل به، وتُغلَّظ الدية، و به قال جماعة من العلماء، و يقتل الأجنبي بمثل هذا. وقال ابن العربي: سمعت شيخنا فخر الإسلام الشاشي يقول في النظر. لا يقتل الأب بابنه لأن

الأب كـان سـبب وجوده، فكيف يكون هو سبب عدمه؟* قال القرطبي: وهذا يبطل بما إذا زنى بـابنـتـه فـإنـه يُرجم، وكان سبب وجودها، وتكون هي سبب عدمه* وقال: وقد أثـروا عـن رسـول الله صلى الله عـلـيـه وسلم أنه قال: [لا يُقاد الوالد بولده]. وهو حديث بـاطل.. وكان مالك والشافعي وأحمد وإسحاق يقولون: إذا قتل الإبن الأب قُتل به، وهو الحق لأن قـتل الوالد من أشد العقوبات الذي نهى الله عنه، عدا ما فيه من قطيعة رحم، وعظيم جرم.

سادسها : تقتل الجماعة بالواحد، وتقدَّم فعل عمر لذلك ــ وقتل عليّ رضى الله عنه الحـروريـة ــ أي طائفة من الخوارج نُسِبوا إلى حروراء موضع قريب من الكوفة ــ قتلهم بـعبدالله بن خبَّاب. فإنه توقف عن قتالهم حتى يُحدثوا، فلمَّا ذبحوا عبدالله بن خباب كما تُـذبـح الـشاة، وأخبر عليٌّ بذلك قال: الله أكبر، نادوهم أن أخرجوا إلينا قاتل عبدالله بن خبـاب. فـقالوا: كُلُّنا قتله ثلاث مرات. فقال على لأصحابه: دونكم القوم. فما لبث أن قـتـلـهـم عـلـيٌّ وأصـحـابـه* وهذا الواجب اتباعه لأنه لولم تقتل الجماعة بالواحد لتعاون الأعـداء على قـتـل أعـدائـهم بالاشتراك في قتلهم الواحد بعد الواحد، وفى هذا ظلمُ عظيم وفسادٌ كبير.

و بـعـد أن ذكـر الله تعالى وجوب القصاص وهو أساس العدل، ذكر بعده العفو، وهو مـقـتـضى الـتـراحـم قـال: «**فَـمَـنْ عُفِيَ لَهُ منْ أخِيهِ شيءٌ**» أي ترك له وصفح عنه من الـواجـب عـلـيه وهو القصاص في قتل العمد ورضى بالدية أو العفو عنها، أو قبول الدية في قـتـل العمد «**منْ أخيه**» أي من دم أخيه. وأراد بالأخ ولى المقتول، وإنما قيل له أخ لأنه لا بَسَهُ من قبل أنه وليُّ الدم، والمطالب به. وقيل: إنما ذكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صـاحـبـه بما هو ثابت بينهما من الجنسية وأخوة الإسلام. وفي قوله «**شيءٌ**» دليل على أن بعض الأولياء إذا عفا سقط القود، وثبتت الدية لأن شيئاً من الدم قد بطل. «**فَاتِّبَاعٌ بـالْـمَـعْـروفِ**» أي فـلـيـتـبـع الولى القاتل بالمعروف فلا يأخذ أكثر من حقه، ولا يعنفه، وتـرتـيـب الا تـبـاع على الـعفو يفيد أن الواجب أحدهما،وهو أحد قولى الشافعى. والثاني: الـواجـب الـقـصاص، والدية بدل عنه، فلو عفا ولم يسمها فلا شيء ورجّح أي الثاني بأنه الـذي عـلـيـه الأكثرون. وصححه الشيخان وهو المعتمد «**وَ**» على القاتل «**أدَاءٌ**» للدية «**إلَـيْـهِ**» أي الـعـافى وهو الوارث «**بإحْسَانٍ**» بلا مطل ولا بخس أي لا يؤخر الدفع، أو

الوعد به ولا ينقص من الدية شيئاً* وفي الآية دليل على أن القاتل لا يصير كافراً، وأن الفاسق مؤمن. قال الخازن في تفسيره (جـ١ ص ١٠٧) ذلك من وجوه:

الوجه الأول : أن الله تعالى خاطبه بعد القتل بالايمان وسمَّاه مؤمناً بقوله: «**يا أيُّها الَّـذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمَ الْقِصَاصُ**» فسمّاه مؤمناً حال ما وجب عليه من القصاص، وإنما وجب عليه بعد صدور القتل منه، وقتل العمد والعدوان من الكبائر بالإجماع فدل على أن صاحب الكبيرة مؤمن.

الوجه الثاني : أنَّه تعالى أثبت الأخوة بين القاتل وولى الدم بقوله: «**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أخِيهِ شيءٌ**» وأراد بالأخوة أخوة الايمان، فلولا أن الايمان باق على القاتل لم تثبت له الأخوة.

الوجه الثالث : أنّه تعالى ندب إلى العفوعن القاتل، والعفولا يليق إلا عن المؤمن لا عن الكافر.

وقوله تعالى: «**ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكم وَرَحْمَةٌ**» يعنى الذي ذكر من الحكم بشرع القصاص، والعفوعن القصاص، وأخذ الدية تخفيف من ربكم، يعنى في حقِّكم ورحمة، وذلك لأن العفو، وأخذ الدية كان حراماً على اليهود، وكان القصاص حتماً في التوراة، وكان في شرع النَّصارى أخذ الدية، ولم يكتب عليهم القصاص، وقيل: كان عليهم العفو دون القصاص، وأخذ الدية، فخيرَّ الله هذه الأمة بين القصاص أو العفو وأخذ الدية توسعة عليهم وتيسيراً وتفضيلاً لهم على غيرهم. «**فَمَنِ اعْتَدَ بَعْدَ ذلِكَ**» يعنى بعد هذا التخفيف فقتل الجانى بعد العفو، أو قبول الدية «**فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**» وهو أن يقتل قصاصاً، ولا تقبل منه دية، ولا يعفى عنه، وقيل المراد بالعذاب الأليم عذاب الآخرة* في (غرائب القرآن) كان الولىٌّ في الجاهلية يؤمِّن القاتل بقبول الدية، ثم يظفر به فيقتله، وعن قتادة قال: العذاب الأليم أن يقتل لا محالة، ولا يقبل منه الدية كما روى أنّه صلى الله عليه وسلم قال: [لا أعافى أحداً قتل بعد أخذه الدية]* وهومذهب الحسن وسعيد بن جبير، وضعفه غيرهم* ولمَّا كانت الآية مشتملة على إيلام العبد الضعيف، وأنَّه لا يليق بكمال رحمته عقبها بقوله «**وَلَكُمْ فى القِصَاصِ حيَاةٌ**» قال المفسرون: القصاص إزالة الحياة، وإزالة الشيء لا تكون نفس ذلك الشيء، فالمراد لكم في شرع القصاص حياة. وأيُّ حياة؟ وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب

حتى كاد يفنى بكر بن وائل، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة. ويحتمل أن يقال نفس القصاص سبب لنوع من الحياة، وهي الحاصلة بالارتداع عن القتل لأن القاتل إذا قيد منه ارتدع من كان يهمُّ بالقتل فلم يقتُل ولم يُقْتل. فكان القصاص سبب حياة نفسين. وقرأ أبو الجوزاء ولكم في القَصَصِ حياةٌ أي فيما قُصَّ عليكم من حكم القتل والقصاص. وقيل: القصص القرآن. أي لكم في القرآن حياة للقلوب* هذا: وقد اتفق علماء البيان على أن قوله سبحانه: «**وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**» بلغ في الإيجاز نهاية الإعجاز. وذلك أن العرب عبَّروا عن هذا المعنى بألفاظ كثيرة كقولهم: قتل البعض إحياء للجميع، وأكثروا القتل ليقلّ القتل، وأوجز ذلك قولهم: القتل أنفى للقتل* والترجيح مع ذلك للآية من وجوه:

الأول: أن قولهم لا يصح على العموم لأن القتل ظلماً ليس أنفى للقتل قصاصاً، بل أدعى له. ولو خُصص فقيل القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً طال. والآية تفيد هذا المعنى من غير تقدير وتكلف.

الثاني: أن القتل قصاصاً لا ينفي القتل ظلماً حيث أنه قتل، بل من حيث أنّه قصاص، وهذه الحيثية معتبرة في الآية لا في كلامهم.

الثالث: أن الحياة هي الغرض الأصلي، ونفي القتل إنما يراد لحصول الحياة، فالتنصيص على المقصود الأصلي أولى.

الرابع: التكرار من غير ضرورة مستهجن وأنه في كلامهم لا في الآية.

الخامس: أن الحروف الملفوظة التي يعتمد عليها في اعتبار الوجازة لا المكتوبة. هي في الآية عشرة وفي كلامهم أربعة عشر.

السادس: أنَّ الأغلب في كلامهم أسباب خفاف، وذلك مما يخل بسلامة التركيب. والآية مع غاية وجازتها فيها السبب والوتد والفاصلة.

السابع: ظاهر قولهم يقتضي كون الشيء سبباً لانتفاء نفسه وهو محال. وفي الآية جعل نوع من القتل وهو القصاص سبباً لنوع من الحياة، ولا استبعاد فيه لظهور التغاير.

الثامن: المطابقة مرعية في الآية لمكان التضاد بين لفظي القصاص وحياة. بخلاف كلامهم.

التاسع: اشتمال الآية على لفظ يصلح للتفاؤل وهو الحياة بخلاف كلامهم، فإنه

يشتمل على نفي اكتنفه قتلان وأنه لكما يليق بهم.

العاشر: اشتمال الآية على اسمين وأداة، واشتمال كلامهم على ثلاثة أسماء وأداة، وإن اعتبرت أداة التعريف في الآية واحدة، وفي كلامهم ثنتان، وإن اعتبر التنوين في الآية تقاصت الأدوات وتبقى زيادة الأسماء بحالها على أنّ أفعل التفضيل إذا لم يكن فيه اللام والإضافة يستعمل بمن فتقدير كلامهم القتل أنفى للقتل من كل شيء فأين الجواز؟.

«**يَا أُولِي الأَلْبَابِ**» يا ذوى العقول، وأولوا جمع لا واحد له من لفظه، وواحده ذو بمعنى صاحب، وأولات للإناث واحدتها ذات بمعنى صاحبة قال تعالى: «**وأُولاَتِ الأَحمَالِ**» واللب العقل، ولبّ النخلة قلبها. وخالص كل شيء لبه، خاطب العقلاء الذين يتفكّرون في العواقب و يعرفون جهات الخوف فلا يرضون باتلاف أنفسهم لا تلاف غيرهم، إلا في سبيل الله «**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون**» يتعلق بمحذوف أي أريتكم ما في القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس لتكونوا على بصيرة في إقامته راجين أن تعملوا عمل أهل التقوى في الحكم به، وهو خطاب له فضل اختصاص بالأئمة* أو لعلكم تتقون نفس القتل لخوف القصاص. قاله الحسن والأصم* والسؤال هنا: إذا صحّ أن المقتول إن لم يقتل فهو يموت لأن المقدر من عمره ذلك القدر، وكذا إذا همّ إنسان بقتل آخر فارتدع خوفاً من القصاص فإن ذلك الآخر يموتُ وإن لم يقتله ذلك الإنسان، لأن كل وقت صحَّ وقوع قتله صحّ وقوع موته فكيف يفيد شرع القصاص حياة؟ والجواب أنَّه تعالى قد جعل لكل شيء سبباً يدور مسببه معه وجوداً وعدماً. وشرعية القصاص مما جعلها الله تعالى سبباً لحياة من أراد حياته بعد أن تصور الهامُّ قتله، وذلك بأن تذكر القصاص فارتدع عما هم به، ففائدة شرع القصاص هي فائدة سائر الأسباب والوسائط ومنكر فائدته منكر فائدتها، وكلا الانكارين مذموم، وصاحبها عند العقلاء مذموم.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ الله أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُم وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ الله لَكُمْ وَكُلُوا واشْرَبُوا حتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إلَى اللَّيْلِ ولاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي**

المَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»
سورة البقرة (آية: ١٨٧)

جاء في أسباب النزول للواحدى: قال ابن عباس في رواية الوالبي. وذلك أن المسليمن كانوا في شهر رمضان إذا صلّوا العشاء حُرّم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم أنَّ ناساً من المسلمين أصابُوا من الطعام والنّساء في شهر رمضان بعد العشاء منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية* وعن البراء بن عازب قال: كان المسلمون إذا أفطروا يأكلون و يشربون ويمسّون النساء ما لم ينامُوا، فإذا نامُوا لم يفعلوا شيئاً من ذلك إلى مثلها، وأن قيْس بن حرمة الأنصارى كان صائماً، فأتى أهله عند الافطار، فانطلقت امرأته تطْلُب شيئاً وغلبته عيناه فنام، فلما انتصف النهار من غدٍ غشى عليه، قال: وأتى عمر امرأته وقد نامت فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت: «أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُمْ» إلى قوله: «الْفَجْرِ» ففرح المسلمون بذلك* وعن البراء قال: كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار فنام قبل أن يطعم لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسى، وإن قيْس بن حرمه الأنصارى كان صائماً، فلما حضر الافطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل فغلبته عيناه، وجاءته امرأته، فلما رأته قالت: خيبة لك، فأصبح صائماً، فلمّا انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية: «أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُمْ» ففرحوا بها فرحاً شديداً. رواه البخارى عن عبدالله بن موسى عن اسرائيل* وفي النّسَفى أخذاً من الخازن (جـ ١ ص ١١٥) أنه كان في ابتداء الأمر بالصوم إذا أفطر الرجل حُلَّ له الطعام والشراب والجماع إلى أن يصلى العشاء الأخيرة، أو يرقد قبلها، فإذا صلى أو رقد حرم عليه ذلك كله إلى الليلة القابلة، ثم إن عمر بن الخطاب واقع أهله بعد ما صلى العشاء، فلما اغتسل أخذ يبكى و يلوم نفسه، ثم أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال يارسول الله: أعتذر إلى الله وإليك من هذه الخطيئة، إنى رجَعْتُ إلى أهلى بعد ما صلّيْتُ العشاء فوجدتُ رائحة طيّبة، فسوّلت لى نفسى فجامعت أهلى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما كنت بذلك جديراً ياعمر، فقام رجالٌ فاعترفوا بذلك فنزل في عمر وأصحابه: «أُحِلَّ لَكُمْ» أي أبيح لكم ليلة. أراد بالليلة ليالى الصيام الرفث إلى

نسائكم الرفث كلام يستقبح لفظه، من ذكر الجماع ودواعيه، وهو هنا كناية عن الجماع* قال ابن عباس: إنَّ الله تعالى حي كريم يكنّى، فما ذكره من المباشرة والملامسة وغير ذلك إنما هو الجماع* أي لأنه لا يكاد يخلوا من الرفث، وهو الإفصاح بما يجب أن يكون عنه كلفظ الوطء، وعُدّىَ بإلى لتضمنه معنى الافضاء، وكنّىَ عن الجماع هنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله: «**وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ**» استهجاناً لما وجد منهم قبل الإباحة، ولذلك سماه فيما يأتي خيانة «**هُنَّ لِبَاسٌ**» تعليل لما قبله* وعبارة السمين: لا محل له من الإعراب لأنه بيان للاحلال، فهو استئناف وتفسير. وقدم هنَّ لباسٌ لكم على وأنتم لباسٌ لهنَّ تنبيهاً على ظهور احتياج الرجل للمرأة، وعدم صبره عنها، ولأنه هو البادى بطلب ذلك. وكنى باللباس عن شدّة المخالطة* أي هن سكن «**لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ**» سَكَنٌ « **لَهُنَّ**» أي كما قال تعالى: «**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**» أي شبّه كل واحد من الزوجين للآخر بالسكن، لاشتماله على صاحبه في العناق والضمِّ باللباس المشتمل على لابسه. أي كالفراش واللحاف* وحاصله أنّه تمثيل لصعوبة اجتنابهنَّ وشدّة ملابستهن، أو لستر أحدهما الآخر عن الفجور، وكما قيل: لا يسكن شيء إلى شيء كسكون أحد الزوجين إلى الآخر* «**عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ**» بالجماع ليلة الصيام ... هذا في المعنى هو سبب النزول. قال ابن عباس: يريد فيما ائتمنكم عليه، وخيانتُهم أنهم كانوا يباشرون في ليالى الصيام* والمعنى يظلمونها بالمجامعة بعد العشاء، وهو من الخيانة، وأصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدى فيه الأمانة. و يقال للعاصي خائن لأنه مؤتمن على دينه «**فَتَابَ عَلَيْكُمْ**» أي فتبتم فتاب عليكم، وتجاوز عنكم، لأنه معطوف على محذوف أي فتبتم فتاب...الخ. «**وَعَفَا عَنْكُمْ**» أي محا ذنوبكم* روى البخارى عن البراء قال: لمَّا نزل صوم رمضان كانُوا لا يقربونَ النساء رمضان كُلَّه، فكان رجالٌ يخونون أنفسهم، فأنزل الله «**عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ...**» الآية. قال ابن عباس: فكان ذلك ممَّا نفع الله به النَّاس، ورخَّص لهم و يسر* «**فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ**» أي جامعوهن، فهو حلال لكم في ليالى الصيام، وسميت المجامعة مباشرة لتلاصق بشرة كل واحدٍ بصاحبه. والتّقدير: فالآن باشروهن أي فالوقت الذي كان يحرم عليكم فيه الجماع من الليل أبحتُ لكم المباشرة فيه «**وَابْتَغُوا**» أي اطلبوا «**مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ**»* في الخطيب: أي ما قسم

لكم وثبت في اللوح المحفوظ من الولد بالمباشرة. أي لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدها، ولكن لابتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل، أو قصد العفة كما جاء في الخبر (من تزوَّج فقد أحرز ثلثي دينه)* وقال مجاهد: ابتغوا الولد فإن لم تلد هذه فهذه* وقال مقاتل: وابتغوا الرُّخصة التي كتب الله لكم بإباحة الأكل والشرب والجماع في اللوح المحفوظ. وقيل: وابتغوا المحلَّ الذي كتب الله لكم، وحلَّله دون ما لم يكتب لكم من المحل المحرَّم* وقيل: هو نهى عن العزل لأنه في الحرائر* وفي الخازن: وقيل: اطلبوا ليلة القدر* **«وَكُلُوا واشْرَبُوا حتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأسْوَدِ»** في الخطيب: والخازن وغيرهما أنها نزلت في رجل من الأنصار. قال عكرمة: اسمه أبوقيس، وذلك ظَلَّ نهاره يعمل في أرض وهو صائم، فلمَّا أمسى رجع إلى أهله بتمر، فقال لامرأته: قدمي الطعام، وأرادت المرأة أن تطعمه شيئاً سخناً، فأخذت تعمل له في شيء وكان في ابتداء الإسلام، من صلى العشاء، أو نام قبلها حرم عليه الطعام والشراب. فلما فرغت من طعامه إذ هو قد نام، وكان قد أعيا وكلَّ فأيْقَظته، فكره أن يعصى الله ورسوله، وأبى أن يأكل، فأصبح صائماً مجهوداً، فلم ينتصف النهار حتى غشى عليه، فلما أفاق أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه قال: يا أبا قيس. مالك أمْسيتَ طليحاً، فذكر له حاله، فاغتم لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية* قال الخطيب: وقد شبَّه سبحانه وتعالى أوَّل ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق، وما يمتد معه من غبش الليل بخيطين (أبيض وأسود) واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله **« مِنَ الفَجْرِ»** عن بيان الخيط الأسود لدلالته عليه* ومعنى الآية: وكلوا واشربوا في ليالى الصوم حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود بياض النهار من سواد الليل. وسميا خيطين لأن كل واحد منهما يبدو في الأفق ممتداً كالخيط قال الشاعر:

فلمَّا أضاءَت لنا سَدْفَةٌ ... ولاَحَ مِنَ الصُّبْحِ خَيْطٌ أنَارا

السدف: اختلاط الظلام. وسدف الفجر: أضاء* روى الشيخان عن سهل بن سعد قال: لمَّا نزلت: **«وَكُلُوا واشْرَبُوا حتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأسْوَدِ»** ولم ينزل من الفجر، فكان رجال إذا أرادُوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى تتبيَّن له رؤيتها، فأنزل الله عز وجل بعده **«مِنَ الفَجْرِ»** فَعَلِموا أنه إنما يعنى الليل والنهار* وأخرج البخاري عن الشعبى عن عدى

قـال: أخـذ عَـدِيٌّ عـقـالاً أبـيض وعقالاً أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا فلما أصبـح قال: يا رسول الله جعلت تحت وسادتي عقالين، قال: إنَّ وِسَادَكَ إذاً لعريض أن كـان الخيـط الأبيض والأسود تحت وسادتك. وعديٌّ: هو عديٌّ بن حاتم رضي الله عنه وفي رواية له قال: قلت يارسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود. أهما الخيطان؟ قال: إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين، ثم قال: بل هو سواد الليل و بياض النهار* «ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ» من الفجر «إِلَى اللَّيْلِ» أي دخوله بغروب الشمس كما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إذا أقبل الليل من هـٰهُـنـا وأدبـر الـنَّـهار من هـٰهُنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم]* والأمر في أتموا للوجـوب. وهـو يتناول كل الصيام* أجاب أصحاب الشافعي عنه: بأن هذا إنما ورد في بـيـان أحـكـام صـوم الفرض، فكان المراد منه صوم الفرض، و يدل على إباحة الفطر من النفل ما روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فـقـال: [هل عندكم شيء؟ قُلنا: لا، قال: فإني صائمٌ، ثم أتانا يوماً آخر، فقلت يارسول الله: أُهـدى لنا حيسٌ. قال: أرينِه فلقد أصبحت صائماً، فأكل] أخرجه مسلم. الحيس: هـو خـلـط الأقـط والتمر والسمن. وقد يجعل عوض الأقط دقيق. وقيل: هو التمر ينزع نواه ويخلط بـالـسَّـو يق. والأول أعرف* «وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ» الاعـتـكـاف هو الاقبال على الشيء والملازمة له على سبيل التعظيم. وهو في الشرع: عبارة عـن الإقـامة في المسجد على عبادة الله تعالى. وسبب نزول هذه الآية أنَّ نفراً من أصحاب رسـول الله صلى الله عـلـيه وسلم كانوا يعتكفون في المسجد، فإذا عرض لرجل منهم حاجة إلى أهله خرج إليها وخلا بها، ثم اغتسل ورجع إلى المسجد فنهوا عن ذلك، حتى يفرغوا من اعـتـكـافـهـم* واعـلـم أن الله تـعالى بيَّن أن الجماع يحرم على الصائم بالنهار و يباح له في الليـل، فـكـان يحتمل أن يكون حكم الإعتكاف كحكم الصوم فبين الله تعالى في هذه الآيـة أنَّ الجـمـاع يحـرم على المعتكف في النهار والليل حتى يخرج من اعتكافه. وسيأتيك بحـث الاعـتـكـاف إن شاء الله تعالى* «تِلْكَ حُدُودُ اللهِ» أي الأحكام المذكورة. وهي قـولـه تـعـالى: «فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ» إلى قوله: «في المساجد» وحدود الله ما حدَّها لعباده لـيـقـفـوا عندها* وقيل: حدود الله فرائض الله. وأصل الحد في اللُّغة: المنع. والحدُّ الحاجز بين الـشَّـيـئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر. وحدُّ الشيء الوصف المحيط بمعناه المميز

له عن غيره* وقيل معنى حدود الله: المقادير التي قدَّرها، ومنع من مخالفتها* «**فَلاَ تَقْرَبُوهَا**» نهى تعالى أن يقرب الحد: الحاجز بين الحق والباطل لئلا يُدانى الباطل فضلاً أن يُتخطَّى عنه. ويجوز أن يراد بحدود الله محارمه ونواهيه* قال الخطيب: في تفسيره وعلى هذا فالنهى عن القربان ظاهر كما قال عليه الصلاة والسلام: [إن لكلِّ مَلِكٍ حمى، وإن حمى الله في أرضه محارمه، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه] رواه الشيخان* «**كَذَلِكَ**» أي كما بيَّن لكم ما ذكر «**يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**» أي لكى يتقوا مخالفة الأوامر والنواهي فينجوا من العذاب، (الخطيب والقرطبي والخازن) زاد القرطبي: قال ابن العربى: وهذا يدل على أنَّ سبب الآية جماع عمر رضي الله عنه لا جوع قيس لأنه لو كان السبب جوع قيس لقال: فالآن كلوا، ابتدأ به لأنه المهم الذي نزلت الآية لأجله* و يستفاد من قوله تعالى: «**وَكُلُوا واشْرَبُوا حتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ**» على أنه من أصبح جنباً فليغتسل، وليتم صومه ولا حرج عليه، وهذا مذهب الأئمة الأربعة، وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً لما رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنها أنها قالتا: [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصبحُ جنباً من غير احتلام، ثم يغتسل و يصوم]* وفي حديث أم سلمة عندها: [ثم لا يفطر، ولا يفضى] وفي حديث مسلم عن عائشة أن رجلاً قال يا رسول الله: تدركنى الصلاة وأنا جنب فأصوم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [وأنا تُدركنى الصلاة وأنا جنب فأصوم] فقال: لست مثلنا يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: [والله إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى] لكن في مسند الإمام أحمد وفي الصحيحين عن أبى هريرة عن الفضل بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [إذا نودى للصلاة (صلاة الصبح) وأحدكم جنب فلا يصم يَوْمَئِذٍ] والأصح حمل الحديث هذا على نفى الكمال. أي لا صوم له كاملاً لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز، وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها.

((فصــل في الاعتكاف))

الاعتكاف سنة، ولا يجوز في غير المسجد، وذلك لأن المسجد يتميّز عن سائر البقاع بالفضل لأنه بنى لإقامة الطاعات والعبادات فيه* ثم اختلفوا فنقل عن عليّ أنّه لا يجوز إلاّ في المسجد الحرام لقوله تعالى: «**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**» فخصه به* وقال عطاء: لا يجوز إلاّ في المسجد الحرام ومسجد المدينة* وقال حذيفة: يجوز في هذين المسجدين، ومسجد بيت* وقال الزهري: لا يصحُّ إلا في الجامع* وقال أبوحنيفة: لا يجوز إلا في مسجد له إمام ومؤذنٌ* وقال الشافعيُّ ومالك وأحمد: يجوز في سائر المساجد لعموم قوله تعالى: «**وأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ**» إلا أن المسجد الجامع أفضل حتى لا يحتاج إلى الخروج من معتكفه لصلاة الجمعة* روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: [أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجلّ، ثم اعتكف أزواجه بعده].

((فــــروع))

الفــــرع الأول : يجوز الإعتكاف بغير صوم، والأفضل أن يصوم معه، وقال أبوحنيفة: الصوم شرط في الإعتكاف ولا يصح إلاّ به، وقال الشافعيّ: يجوز الإعتكاف بلا صوم، وحجّته ما روى عن ابن عمر قال: [يا رسول الله إنى نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام. قال: فأوف بنذرك] أخرجاه في الصحيحين، ومعلوم أنه لا يصح الصوم في الليل.

الفــــرع الثاني : لا يُقَدَّر للاعتكاف زمان عند الشافعيّ، وأقلّه لحظة، ولا حدّ لأكثره، فلو نذر اعتكاف ساعه صحّ نذره، ولو نذر أن يعتكف مطلقاً يخرج من نذره باعتكاف ساعة. قال الشافعي: وأحب أن يعتكف يوماً، وإنما قال ذلك للخروج من الخلاف، فإن أقلّ زمن الاعتكاف عند مالك وأبى حنيفة يوم بشرط أن يدخل فيه قبل طلوع الفجر، ويخرج منه بعد غروب الشمس.

الفــرع الثالث : الجماع حرام في حال الإعتكاف و يفسد به، وأما ما دون الجماع كالقبلة ونحوها فكروه ولا يفسد به عند أكثر العلماء، وهوأ ظهر قولى الشافعى، والثاني يبطل به، وهو قول مالك، وقيل إن أنزل بطل اعتكافه، وإن لم ينزل فلا، وهو قول أبى حنيفة،

وأما الملامسة بغير شهوة فجائز، ولا يفسد به الإعتكاف لما روى عن عائشة رضي الله عنها: [أنها كانت ترجّل النبي صلى الله عليه وسلم وهى حائض، وهو معتكف في المسجد وهى في حجرتها يناولها رأسه ــ زاد في رواية ــ وكان لا يدخل البيت إلاّ لحاجة إذا كان معتكفاً] أخرجاه في الصحيحين. الترجيل: تسريح الرأس. وقولها إلاّ لحاجة: حوائج الإنسان كثيرة. والمراد منها هٰهُنا كل ما يضطر الإنسان إليه مما لا يجوز فعله في المسجد وموضع معتكفه.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«ولاَ تأكُلُوا أمْوَالَكُمْ بيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إلى الْحُكَّامِ لِتَأكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أمْوَالِ النَّاسِ بالإثْمِ وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ» سورة البقرة (آية: ١٨٨)

روى الواحدى في أسباب النزول عن مقاتل قال: نزلت هذه الآية في امرىء القيس بن عابس الكندى، وفي عبدان بن أشوع الحضرميّ، وذلك أنهما اختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم في أرض، وكان امرؤ القيس المطلوب، وعبدان الطالب، فأنزل الله تعالى هذه الآية فحكم عبدان في أرضه ولم يخاصمْهُ. وفي الخطيب: روى أن عبدان الحضرمى ادعى على امرىء القيْس الكندى قطعة أرض، ولم يكن له بيّنةٌ فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيْس، فهمَّ بالحلف فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وأيْمانِهِم ثَمَناً قَلِيلاً»** فارْتدع عن اليمين وسلَّم الأرض لعبدان فنزلت الآية. وعبارة الخازن: نزلت في امرىء القيس بن عابس الكندى ادَّعى عليه ربيعة بن عبدان الحضرمى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في أرض، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للحضرمى: ألك بيّنةٌ؟ قال: لا، قال: فلك يمينُه، فانطلق ليحلف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إن حلف على ماله ليأكله لَيَلْقِيَنَّ الله وهو عنه معرض. فأنزل الله هذه الآية. والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل أي من غير الوجه الذي أباحه الله له، وأصل الباطل: الشيء الذاهب. وقال: أمَّا حكم الآية بالباطل على وجوه:

الأول : أن يأكله بطريق التعدى والنهب والغصب.

الثاني : أن يأكله بطريق اللهو كالقمار، وأجرة المغنّى وثمن الخمر والملاهى ونحو ذلك.

الثالث : أن يأكله بطريق الرشوة في الحكم وشهادة الزور.

الرابع : الخيانة وذلك في الوديعة والأمانة ونحو ذلك.

وإنما عبر عن أخذ المال بالأكل لأنه المقصود الأعظم. ولهذا وقع في التعارف فلان يأكل أموال الناس، بمعنى يأخذها بغير حلّها. وفي المعنى قال المراغي: أي لا يأكل بعضكم مال بعض، وسمّاه ماله إشعاراً بوحدة الأمة وتكافلها، وتنبيهاً إلى أنَّ احترام مال غيرك احترام وحفظ لمالك كما أنَّ التعدى على مال غيرك جناية على الأمة التي هو أحد أعضائها، ولابُدَّ أن يصيبه سهم من كل جناية تقعُ عليها، إذ هو باستحلال مال غيره يجرِّىء غيره على استحلال أكل ماله إذا كان في طاقته، والباطل كلمة معروفة المعنى عند الناس بوجهها الكثيرة، و يدخل فيها:

١ ـــ الربا لأنه أكل لأموال الناس بدون مقابل من صاحب المال المعطِي.

٢ ـــ الأموال التي تُلق إلى الحكام رشوةً لهم.

٣ ـــ الصدقة على القادر على الكسب الذي يكفيه.

٤ ـــ أخذ القادر على الكسب صدقةً فلا يحلُّ لمسلم أن يقبل صدقة وهو غير مضطر إليها.

٥ ـــ باعة التمائم والعزائم وختمان القرآن، والعدد المعلوم من سورة يٰس لقضاء الحاجات، أو رحمة الأموات.

٦ ـــ التعدّى على الناس بغصب المنفعة بأن يسخر بعضهم بعضاً في عمل لا يعطيه عليه أجراً، أو يُنقصه من الأجر أو أجر المثل.

٧ ـــ ضروب الغشّ والاحتيال كما يقع من السّماسرة من التّلبيس والتدليس، فيزيّنُون للنّاس السلع الرديئة، والبضائع المزجاة، و يورّطونهم في شرائها، و يوهمونهم ما لا حقيقة له، بحيث لو عرفوا الخفايا ما باعوا وما اشتروا.

٨ ـــ الأجر على عبادة من العبادات كالصلاة والصوم لأن العبادة إنما تكون بالنية وإرادة وجه الله تعالى ابتغاءً لمرضاته، وامتثالاً لأمره، فمتى شاب هذا حظٌّ من حظوظ الدنيا خرج العمل عن كونه عبادة، إذ لا يقبل الله من الأعمال إلا ما أريد به رضاه فحسب، ودافع الأجر عليها خاسرٌ لماله، وآخذه خاسرٌ لمآله.

ومن علّم العلم والدين بالأجر فهو كسائر الصنّاع والأجراء لا ثواب له على أصل العمل، بل على اتقانه والإخلاص فيه، ولا يجوز أخذ الأجر على جواب السائل عن فتوى دينية تُعرض له، إذ الإجابة فريضة على أهل الذكر العارفين. وكتمان العلم محرَّم.

«وَتُدْلُوا بِهَا إلى الْحُكَّامِ» أي وتُلقوا أمور تلك الأموال التي فيها الحكومة إلى الحكام* في الخازن (جـ ١ ص ١١٨) قال ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه المال، وليس عليه بيّنةٌ فيجحد ويخاصم إلى الحكام، وهو يعلم أن الحقَّ عليه، وهو آثم بمنعه* وفي الطبرى (جـ ٢ ص ١٠٧) زيادة على هذه الرواية: وهو يعرف أن الحقَّ عليه، وهو يعلم أنَّه آثمٌ آكلٌ حراماً* وعن مجاهد في قوله: «وَتُدْلُوا بِهَا إلى الْحُكَّامِ» قال: لا تُخاصم وأنت ظالم. وعن قتادة في قوله: «ولاَ تأكُلُوا أمْوَالَكُمْ بيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إلى الْحُكَّامِ» قال: وكان يقال من مشى مع خصمه وهو له ظالم فهو آثم حتى يرجع إلى الحق* واعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضى لا يحلُّ لك حراماً، ولا يحق لك باطلاً، وإنما يقضى القاضى بنحو ما يرى و يشهد به الشهود، والقاضى بشر يخطىء و يصيب، واعلموا أنَّه من قد قضى لأخيه بالباطل فإنَّ خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة فيقضى على المبطل للحق، و يأخذ مما قُضى به للمبطل على الحق في الدنيا* وعن قتادة أيضاً في قوله «وَتُدْلُوا بِهَا إلى الْحُكَّامِ» قال: لا تُدْلِ بمال أخيك إلى الحاكم وأنت تعلم أنك ظالم فإن قضاءه لا يُحِل لك شيئاً كان حراماً عليك* وعن السدى: «ولاَ تأكُلُوا أمْوَالَكُمْ بيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ..» الآية. قال: أمَّا الباطل. يقول يظلم الرجل منكم صاحبه، ثم يخاصمه ليقطع ماله، وهو يعلم أنه ظالم فذلك قوله وتُدلُوا بها إلى الحكام* وعن عكرمة في قوله: «ولاَ تأكُلُوا أمْوَالَكُمْ بيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ» قال: هو الرجل يشترى السلعة فيردَّها و يرد معها دراهم* وقال ابن زيد في قوله: «ولاَ تأكُلُوا أمْوَالَكُمْ بيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إلى الْحُكَّامِ» يقول: يكون أجدل منه وأعرف بالحجة فيخاصمه في ماله بالباطل ليأكل ماله بالباطل وقرأ: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأكُلوا أمْوالَكُمْ بيْنَكُمْ بالبَاطِلِ إلاَّ أنْ تَكُونَ تِجَارةً عن تَرَاضٍ مِنْكُمْ»* قال: هذا القمار الذي كان يعمل به أهل الجاهلية. وأصل الادلاء إرسال الرجل الدلو في سبب متعلقاً به في البئر. فقيل للمُحتجّ لدعواه أدلى بحجته كيت وكيت إذا كانت حجته التي يحتج بها سبباً له هو به متعلق في خصومته كتعلق المستقى من بئر بدلو قد أرسلها فيها بسببها الذي الدلو به متعلقة يقال فيهما جميعاً أعنى من الإحتجاج ومن إرسال الدلو في البئر بسبب أدلى فلان بحجته فهو يدلى بها إدلاءً. وأدلى دلوه في البئر فهو يدليها إدلاءً* وقيل: هو أن يقيم شهادة الزور عند الحاكم وهو يعلم ذلك. وكان شريح القاضي يقول إنى لأقضى لك، وإنى لأظنُّك ظالماً

ولكنى لا يسعنى إلاَّ أن أقضى بما يحضرنى من البيّنة، وإنَّ قضائى لا يحلُّ لك حراماً* روى الشيخان عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سَمِع جلبة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: [إنَّما أنا بشرٌ، وأنه يأتيني الخصم، فلعلَّ بعضهم أن يكون أبلغ من بعض (وفي رواية: ألحن بحجته من بعض) فأحسب أنَّه صادقٌ، فأقضى له، فمن قَضيتُ له بحق مسلم، فإنما هى قطعة من النار فليحملها أو يذرها]* قولها: سمع جلبة خصم: يعنى أصوات خصم. قوله: ألحن بحجته: يقال فلان ألحن بحجته من فلان. أي أقوم بها منه، وأقدر عليها. من اللَّحن: بفتح الحاء، وهو الفطنة* «**لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً**» أي طائفة وقطعة «**مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بالإِثْمِ**» يعنى بالظلم. وقال ابن عباس: باليمين الكاذبة، وقيل: بشهادة الزُور «**وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**» يعنى أنكم على الباطل، وأنَّ ما تدّعونه وترجونه في كلامكم كذباً وزوراً، وهي السبب في تفرق الناس* وفي السمين «**بالإِثْمِ**» يحتمل أن تكون ــ الباء ــ للسببيّة فتتعلق بقوله: «**لِتَأْكُلُوا**» وأن تكون للمصاحبة. فتكون حالاً من الفاعل في لتأكلوا. وتتعلّق بمحذوف أي لتأكلوا ملتبسين بالإثم. وأنتم تعلمون جملة في محل نصب على الحال من فاعل لتأكلوا، وذلك على رأى من يجيز تعدد الحال. وأمّا من لا يجيز ذلك فيجعل. بالإثم: غير الحال* وفي الآية والحديث عبرة لوكلاء الدعاوى (المحامين) فلا ينبغى لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقبل الوكالة في دعوى يعتقد أن صاحبها مبطلٌ. و يعتمد في ذلك على خِلابته(١) في القول ولحنه في الخطاب.

والناظر إلى ما عليه المسلمون اليوم من غرامهم بالتقاضى. والإدلاء إلى الحكام لمحض الإيذاء والانتقام، وإن أضر بنفسه، يَعْلَمُ بُعْدهم عن فهم دينهم وهدى كتابهم، ومن ثَمَّ ساءت حالهم، فنفذت ثرواتهم، وخربت بيوتهم، وفرقت جماعاتهم، ولو تأدبوا بأدب الكتاب الذي إليه ينتسبون لكان لهم من هدايته ما يحفظ حقوقهم ويمنع تقاطعهم وعقوقهم، ولحلَّ فيهم التراحم محلّ التزاحم، وقد بلغ من أمرهم أن ظنُّوا أنهم عن هدى الدين أغبياء، وعَمُوا عمَّا اصابهم لأجل هذا من الأ رزاء (المراغى جـ ٢ ص ٨٣).

---

(١) الخلابة بكسر الخاء: المخادعة. وقيل: الخديعة باللسان. وفي حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال لرجل كان يخدع في بيْعه: إذا بِعْتَ فقُلْ لا خِلابَةَ: أي لا خداع. (المؤلف)

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها واتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفلِحُونَ» سورة البقرة (آية: ١٨٩)

في أسباب النزول للواحدى : قال معاذ بن جبل يا رسول الله: إنَّ اليهود تغشانا و يكثرون مسألتنا عن الأهلة. فأنزل الله تعالى هذه الآية« وقال قتادة: ذكر لنا أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم: لِمَ خُلقتْ هذه الأهلة؟ فأنزل الله تعالى «**قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والْحَجِّ**»« وقال الكلبيُّ: نزلت في معاذ بن جبل، وثعلبة بن غنمة، وهما رجلان من الأنصار. قالا: يا رسول الله ما بالُ الهلال يبدُو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم و يستوى و يستدير، ثم لا يزال ينقص و يدق حتى يكون كما كان. لا يكون على حالة واحدة فأنزلت هذه الآية. وكذا في تفسير الخطيب« وفي الطبرى (جـ ٢ ص ١٠٨) قال قتادة: سألوا نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك: لِمَ جُعِلت هذه الأهلَّة، فأنزل الله فيها ما تسمعون. هي مواقيت للناس. فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم ولمناسكهم وحجّهم ولعدّة نسائهم ومحلّ دينهم في أشياء، والله أعلم بما يصلح خلقه« وكذا روى عن الربيع وعن السدى قال: هى مواقيت للناس. فهى مواقيت الطلاق والحيض والحج« وقد كان هذا سؤالاً منهم على وجه الفائدة عن وجه الحكمة في تبين حال الهلال في الزيادة والنقصان، ومحاق الأهلة وتغير أحوالها. وما المعنى الذي خالف بينه و بين الشمس التي هى دائمة أبداً على حال واحدة لا تتغيّر بزيادة ولا نقصان... فقل يا محمد خالف بين ذلك ربكم لتصييره الأهلة التي سألتُم عن أمرها ومخالفة ما بينها و بين غيرها فيا خالف بينها و بينه مواقيت لكم ولغيركم من بنى آدم في معايشهم ترقبون بزيادتها ونقصانها ومحاقها واستمرارها لتعلموا بها وقت حلول ديونكم وانقضاء مُدّة إجارة من استأجرتموه ووقت صومكم وإفطاركم، فجعلها مواقيت للناس. والأهلة جمع هلال، وهو أوّل حال القمر حين يراه الناسُ أول ليلة من الشهر «**قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ**» جمع ميقات« والمعنى إنا فعلنا ذلك لمصالح دينية ودنيوية ليعلم الناسُ أوقات حجّهم وصومهم ... الخ. «**والْحَجِّ**» أي وللحجّ، وإنما أفرد الحج بالذكر، وإن كان داخلاً في جملة العبادات لفائدة عظيمة، وهي أن العرب في الجاهلية كانت تحجُّ

بـالعدد وتبدّل الشهور، فأبطل الله ذلك من فعلهم، وأخبر أن الحج مقصور على الأشهر التي عيَّنها لغرض الحج بالأهلة، وأنه لا يجوز نقل الحج عن تلك الأشهر التي عينها الله تعالى له كما كـانت العرب تفعل بالنسيء* ويمكن أن يقال: توقف الصوم على الهلال قد علم من قوله: «**شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ**» والزكاة تتعلق بالحول. والأصل في تقدير السـنين لعـودة الـشمس من نقطة كأول الحمل مثلاً إلى مثلها بحركتها الخاصة، والأيمان والجهـاد لا يـتعـلقان بوقت معيَّن، والصلاة تتعلق باليوم والليلة، فلم يبق من الأركان المتعـلقة بالشهر سوى الحجّ فتعيّن ذكره* وقوله تعالى: «**قُلۡ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ**» هذا مـن جواب السائل بغير ما سأل عنه تنبيهاً على أن الأولى لهم أن يسألوا عن هذا المجاب به لأنـه هـو الـذي يعنيهم، وذلك أنهم سألوا عن سبب اختلاف القمر في ذاته فأجيبُوا ببيان فـائـدة هـذا الاخـتـلاف إشارةً إلى أنَّ هذا هو الذي ينبغى أن يسئل عنه لأنَّه من أحكام الـظاهر التي شأن الرسول التّصدّى لبيانها، وأمَّا سبب اختلافه فهو من قبيل المغيبات التي لا غـرض لـلمـكـلف في معرفتها، ولا يليق أن تُبين له. ولكن قرَّر أبو السعود وكذا الخازن إلى أنَّ الجـواب مطابق للسؤال. ونصّ الأول: كانُوا قد سألوه عليه السلام عن الحكمة في اخـتلاف حال القمر، وتبدُّل أمره، فأمره الله تعالى أن يجيبهم بأن الحكمة الظاهرة في ذلك معالم للنَّاس ...الخ.

((فائـــــدة))

كـل مـا جـاء مـن الـسؤال في الـقـرآن أجـيـب عـنـه بـ «**قُلۡ**» بلا فاء. إلا في طٰه «**وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ**» فـبالفاء، لأن الجواب في الجميع كان بعد وقوع السؤال، وفي طٰه كان قبله. إذ تقديره: إن سُئلتَ عن الجبال فَقُلْ...

((فائـــدة أخـــرى))

الـفـرق بين الـوقـت، و بين المدة والزمان، أنَّ المدة المُطْلقة: امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها، والزمان: مُدَّة منقسمة إلى الماضى والحال والمستقبل. والوقت: الزمان المفروض لأمر. (الكرخى).

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» بقية الآية المتقدّمة.

في غرائب القرآن عن البراء قال: نزلت هذه الآية فينا. كان الأنصار إذا حَجُّوا، فجاؤا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت. فجاء رجلٌ من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنَّه عُيِّر بذلك فنزلت رواه البخارى ومسلم. وكذا ذكر في أسباب النزول للواحدى* وفي رواية كانُوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوُا البيت من ظهره. فأنزل الله الآية. وقال المفسرون: كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام. إذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه. فإن كان من أهل. المدر: المدن نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتّخذ سُلّماً فيصعد فيه. وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل من الباب حتى يحل من إحرامه، و يرون ذلك ذمَّا إلا أن يكون من الحمس، وهم قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخثعم و بنو عامر بن صعصعه و بنو النَّضْر بن معاو ية. سُمُّوحمساً لتشددهم في دينهم. قالوا: فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بيتاً لبعض الأنصار، فدخل رجل من الأنصار على إثره من الباب وهو محرم، فأنكروا عليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لِمَ دخَلتَ من الباب وأنت محرم؟ فقال: رأيتك دخلت من الباب فدخلت على إثرك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى أحمسيٌّ. قال الرجل: إن كنت أحمسياً فإنِّىَ أحمسىٌّ ديننا واحد، ورضيتُ بهديك وسمتك ودينك. فأنزل الله تعالى هذه الآية (الخطيب)* وفي الغرائب والخطيب. وأما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله بناء على الأسباب المرو ية في نزوله وعليه أكثر المفسرين فهو أنهم لما سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهلة. قيل لهم: اتركوا السؤال عن هذا الأمر الذي لا يعنيكم، وارجعوا إلى ما البحث عنه أهم، ولا تعتقدوا أن جميع ما سنح لكم هو على شاكلة الصَّواب، وانظروا في واحدة تفعلونها أنتُم تحسبونها برّاً، وليست من البر في شيء* أو أنه تعالى لما ذكر الحكمة في الأهلة، وهي جعلها مواقيت للناس والحج وكان هذا الأمر من الأشياء التي اعتبروها في الحج فلا جرم تكلّم الله تعالى فيه استطراداً لمزيد الإهتمام بشأنه لما فيه من المنافع الدينية والدنيو ية، أو اتفق وقوع القصتين في وقت واحد فنزلت الآية فيهما معاً في وقت واحد. وقيل: إنَّه تمثيل

لتعكيسهم في سؤالهم فإن الطريق المستقيم هو الاستدلال بالمعلوم على المظنون. فأمّا أن يُستدل بالمظنون على المعلوم فذاك عكس الواجب، ولما ثبت بالدّلائل أن للعالم صانعاً مختاراً حكيماً، وثبت أن الحكيم لا يفعل إلاّ الصواب البريء عن العبث والسّفه، فإذا رأينا اختلاف حال القمر وجب أن نعلم أن فيه حكمة ومصلحة، وهذا استدلال بالمعلوم على المجهول، فأما أن يستدل بعدم علمنا بما فيه من الحكمة على أن فاعله غير حكيم فهو استدلال بالمجهول على المعلوم، فكأنه تعالى يقول: لمّا لم تعلموا حكمته في اختلاف نور القمر صرتم شاكين في حكمة الخالق، أو قاربتم الشك فقد أتيتُم الأمر من ورائه، وهذا ليس من البر، ولا من كمال العقل إنما البرُّ أن تأتوا الأمور من وجوهها التي يجب أن تؤتى منها، وهذا باب مشهور في الكناية. قال الأعشى:

وكاس شربتُ على رغبة وأخرى تداويتُ منها بها
لكيْ يعلم النّاسُ أني أمرؤ أتيت المعيشة من بابها

وعن أبي مسلم أنَّ هذا إشارة إلى ما كانوا يفعلونه من النسيء، وكان يقع الحج في غير وقته، فذكر إتيان البيوت من ظهورها مثلاً لمخالفتهم الواجب في الحج وشهوره. إنه تعالى أمرهم بالتقوى التي تتضمن الإتيان بجميع الواجبات والاجتناب عن الفواحش والمنكرات إرادة أن يظفروا بالمطالب الدينية والدنيوية. وفي الخازن (جـ ١ ص ١١٩) وقال الزهريُّ: كان ناس من الأنصار إذا أهلُّوا بالعمرة لم يجعلوا بينهم و بين السماء شيئاً، وكان الرجل يخرج مُهِلاً بالعمرة فتبدو له الحاجة بعد ما خرج من بيته، فيرجع ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف الباب أن يحول بينه و بين السماء، فيفتح الجدار من ورائه، ثم يقوم في حجرته، فيأمر بحاجته، ثم بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هلَّ زمن الحديبية بالعمرة، فدخل حجرةً فدخل رجل من الأنصار من بني سلمة على أثره فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لم فعلت ذلك؟ قال: لأني رأيتك دخلت. فقال عليه الصلاة والسلام: إني أحمسيٌّ. فقال الأنصارى: وأنا أحمسيٌّ. يقول: أنا على دينك فأنزل الله تعالى: **«وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا»** يعني في حال الاحرام وغيره **«وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»** تفوزون برضا الله في الدنيا والآخرة، وتفلحون في أعمالكم وتصلون إلى غاية آمالكم. فالمتقون ملهمون إلى طريق الرشاد كما قال تعالى: **«وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً»**.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :
«وقَاتِلُوا فى سَبِيلِ الله الَّـذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إنَّ الله لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»
سورة البقرة (آية: ١٩٠)

روى الواحدى عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صُدَّ عن البيت هو وأصحابه نحر الهدى بالحديبية، ثم صالحه المشركون على أن يرجع عامه، ثم يأتى القابل على أن يخلوا له مكة ثلا ثة أيام، فيطوف بالبيت و يفعل ما يشاء، وصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما كان العامل المقبل تجهّز رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تفى لهم قريش بذلك، وأن يصدُّوهم عن المسجد الحرام و يقاتلوهم، وكره أصحابه قتالهم في الشهر الحرام في الحرم فأنزل الله تعالى **«وقَاتِلُوا فى سَبِيلِ الله الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ...»** يعنى قريشاً* وفي القرطبي: هذه أول آية نزلت في الأمر بالقتال، ولا خلاف في أن القتال كان محظوراً قبل الهجرة بقوله تعالى: **«ادْفَعْ بالَّتى هِىَ أحْسَنُ»** وقوله تعالى: **«فاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ»** وقوله: **«واهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً»** وقوله: **«لَستَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ»** وما كان مثله مما نزل بمكة، فلمّا هاجر إلى المدينة أمر بالقتال فنزل **«وقَاتِلُوا فى سَبِيلِ الله الَّـذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ»** قال الربيع بن أنس وغيره: وروى عن أبي بكر الصديق أنَّ أول آية نزلت في القتال **«أُذِنَ لِلَّـذِينَ يُقَاتَلُونَ بأنَّهُمْ ظُلِمُوا...»** قال القرطبي: والأول أكثر. وإن آية الإذن إنما نزلت في القتال عامة لمن قاتل ولمن لم يقاتل من المشركين. وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج مع أصحابه إلى مكة للعمرة..الخ.* أي يحلُّ لكم القتال إن قاتلكم الكفار. فالآية متصلة بما سبق من ذكر الحج وإتيان البيوت من ظهورها فكان عليه الصلاة والسلام يقاتل من قاتله و يكفُّ عمَّن كفَّ عنه حتى نزل **«فاقتلُوا المشركين»** فنسخت هذه الآية قاله جماعة من العلماء* وقال ابن زيد والربيع نسخها **«وقاتلُوا المشركينَ كَافةً»** فأمر بالقتال لجميع الكفار* وقال ابن عباس وعمر بن عبدالعزيز ومجاهد: هي محكمة. أي قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم* قال أبوجعفر النحاس: وهذا أصح القولين في السنّة والنّظر. فأما السُّنة فحديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولةً فكره ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان،

رواه الأئمة* وأمَّا النَّظر، فإن (فاعل) لا يكون في الغالب إلا من اثنين. كالمقاتلة والمشاتمة والمخاصمة، والقتال لا يكون في النساء ولا في الصبيان، ومن أشبههم كالرهبان والزّمنى والشيوخ والأجراء فلا يقتلون. وبهذا أوصى أبوبكر الصديق رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان حين أرسله إلى الشام إلاَّ أن يكون لهؤلاء إذاية. أخرجه مالك وغيره* أي أنَّ أي صنف مما ذكر إذا قاتل يقتل. في الطبرى عن يحى بن يحى الغسّانى قال: كتبتُ إلى عمر بن عبدالعزيز أسأله عن قوله «**وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**» قال: فكتب إليَّ أن ذلك في النساء والذرية ومن لم ينصب لك الحرب منهم* وفي الخازن (جـ١ ص ١١٩) «**وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ**» أي فى طاعة الله وطلب رضوانه. أخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعرى قال: سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعةً و يقاتل حمِيّة و يقاتل رياءً أي ذلك في سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، فهوا في سبيل الله «**الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ**» كان في ابتداء الإسلام أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالكف عن قتال المشركين، ثم لمَّا هاجر إلى المدينة أمر بقتال من قاتله منهم بهذه الآية* أي أن الآية محكمة لا منسوخة. قال الربيع بن أنس: هذه أوَّل آية نزلت في القتال، ثم أمر الله بقتال المشركين كافة قاتلُوا أو لم يقاتِلُوا بقوله تعالى: «**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً**» و بقوله: «**اقتلُوهم حَيْثُ ثقفتُموهم**» فصارت آية السيف ناسخة لهذه الآية. وقيل: إنها محكمة، ومعناها على هذا القول. وقاتلوا في سبيل الله الذين اعدوا أنفسهم للقتال فأما من لم يعد نفسه للقتال كالرهبان والشيوخ والزمنى والمكافيف والمجانين فلا تقتُلوهم لأنهم لم يقاتلوكم* «**وَلاَ تَعْتَدُوا**» وقال ابن عباس: ولا تقتلوا النساء والصبيان والشيوخ والرهبان، ولا من ألقى إليكم السلام روى مسلم عن بريدة قال: [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا بالله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تعتدوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً» قوله: ولا تغلوا. الغلول: الخيانة، وهوما يخفيه أحد الغزاة من الغنيمة، وقوله: ولا تعتدوا. أي ولا تنقضوا العهد. وقيل فى معنى الآية. لا تعتدوا أي لا تبدؤهم بالقتال. فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية القتال كذا قاله الخازن في تفسيره (جـ١ ص ١١٩)* « **إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**» المتجاوزين ما حد

لهم* قال الجلال: وهذا منسوخ بآية براءة ــ أي وهى «**وقَاتِلوا الْمُشْرِكينَ كَافَّةً**» أي قاتلوا أو لم يقاتلوا. بل قيل إنَّه نسخ بها سبعون آية ــ أو بقوله «**واقتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُموهُمْ**» وجدتموهم «**وأخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أخْرَجُوكُمْ**» أي مكة، وقد فعل بهم ذلك عام الفتح، أي فعل ذلك بمن لم يسلم منهم. «**والفِتْنَةُ**» الشرك منهم. وسمى الشرك فتنة لأنه فساد في الأرض «**أشَدُّ**» أعظم من القتل لأنه يؤدى إلى الخلود في النار، «**مِنَ الْقَتْلِ**» لهم في الحرم، أو الاحرام الذي استعظموه «**ولاَ تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِالْحَرَامِ**» أي في الحرم «**حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فإنْ قَاتَلُوكُمْ**» فيه «**فاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ**» القتل والاخراج «**جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإنِ انْتَهَوْا**» عن الكفر وأسلموا «**فإنَّ الله غَفُورٌ**» لهم «**رحِيمٌ**» بهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

«الشَّهْرُ الحَرامُ بالشَّهْرِ الْحَرامِ والْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدى عَلَيْكُمْ واتَّقُوا الله واعْلَمُوا أنَّ الله مع المتَّقِينَ» سورة البقرة (آية: ١٩٤)

روى الواحدى عن قتادة قال: أقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في ذى القعدة/ في السنة السادسة/ حتى إذا كانوا بالحديبية صدَّهم المشركون، فلما كان العام المقبل دخلوا مكة، فاعتمروا في ذى القعدة وأقاموا بها ثلاث ليال، وكان المشركون قد فجرُوا عليه حين ردُّوه يوم الحديبية، فأقصه الله تعالى منهم فأنزل «**الشَّهْرُ الْحَرامُ بالشَّهْرِ الْحَرامِ..**» الآية* وفي الخطيب: وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لمَّا خرج معتمراً في ذى القعدة سنة ستٍّ، وصده المشركون عن البيت بالحديبية، ورجع في العام القابل في ذى القعدة، وقضى عمرته سنة سبع، واستعظم المسلمون قتالهم في الشهر الحرام نزلت هذه الآية. أن هذا الشهر بذلك، وهتكه، بهتكه فلا ينالوا به* وفي القرطبي: وروى عن الحسن أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أنُهيتَ يا محمد عن القتال في الشهر الحرام؟ قال: نعم فأرادوا قتاله فنزلت هذه الآية إلا أنَّ الذي ذكره الخطيب أشهر وعليه أكثر المفسرين* وعبارة أبى السعود «**الشَّهر الْحَرَامُ بالشَّهْر الْحَرام...**» فقد قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذى القعدة، فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء في ذى القعدة أيضاً وكراهتهم القتال فيه: هذا الشهر الحرام بذاك الشهر الحرام، وهتكه بهتكه

فلا تبالوا» وعبارة المراغي خرج المؤمنون مع النبي صلى الله عليه وسلم للنسك عام الحديبية، فصدَّهم المشركون ، وقاتَلُوهم رمياً بالسِّهام والحجارة في شهر ذى القعدة سنة ستّ، ثم صالحوهم على أن يرجعوا إلى مكة في العام القابل، ولما خرجوا في ذلك العام لعمرة القضاء كرهوا قتال المشركين، وإن اعتدُوا ونكثوا العهد في الشهر الحرام، فبيَّن لَهُم أنَّ المحظور في الأشهر الحرم هو العدوان بالقتال لا المدافعة عن النفس، وأنَّ المشركين بإصرارهم على الفتنة وإيذائهم المؤمنين فعلوا ما هو أشد قبحاً من القتل بتأييدهم للشرك، ومنعهم للحق» ونحوه في الخازن (جـ١ ص ١٢٠) وكذا في الغرائب» وفي الطبرى (جـ٢ ص ١١٤) عن ابن عباس في قوله «**والْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**» قال: هم المشركون حبسوا محمداً صلى الله عليه وسلم في ذى القعدة فرجعه الله في ذي القعدة، فأدخله البيت الحرام، فاقتصَّ له منهم» وعن مجاهد في قوله «**الشَّهْرُ الحَرامُ بالشَّهْرِ الْحَرامِ..**» قال: فخرت قريش بردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية محرماً في ذى القعدة عن البلد الحرام. فأدخله الله مكة في العام المقبل من ذى القعدة فقضى عمرته، وأقصَّه بما حيل بينه و بينها يوم الحديبية» وعن قتادة قوله: «**الشَّهْرُ الحَرامُ بالشَّهْرِ الْحَرامِ والْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ..**» قال: أقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فاعتمروا في ذى القعدة ومعهم الهدى حتى إذا كانوا بالحديبية صدَّهم المشركون فصالحهم نبي الله صلى الله عليه وسلم على أن يرجع من عامه ذلك حتى يرجع من العام المقبل، فيكون بمكة ثلاثة أيَّام ولا يدخلها إلا بسلام راكب، ويخرج ولا يخرج بأحدٍ من أهل مكة فنحروا الهدي بالحديبية، وحلقوا وقصروا حتى إذا كان من العام المقبل أقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى دخلوا مكة فاعتمروا في ذى القعدة، فأقاموا بها ثلاث ليال، فكان المشركون قد فخروا عليه حين ردُّوه يوم الحديبية، فأقصه الله منهم، فأدخله مكة في ذلك الشهر الذي كانوا ردُّوه فيه في ذى القعدة، فقال الله: «**الشَّهْرُ الحَرامُ بالشَّهْرِ الْحَرامِ والْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ...**» وأخبر ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: «**الشَّهْرُ الحَرامُ بالشَّهْرِ الْحَرامِ**» حتى فرغ من الآية قال: هذا كله قد نسخ أمره أن يجاهد المشركين، وقرأ قاتلوا المشركين كافة كما يُقاتلونكم كافة. وقرأ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار العرب، فلما فرغ منهم قال الله جل ثناؤه، قاتلوا الَّذِينَ لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله. حتى بلغ قوله: وهم صاغرون. قال: وهم الروم

قال: فوجه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم* «**والْحُرُمَاتُ**» جمع حرمة، وإنما جمعت لأنه أراد حرمة الشهر وحرمة البلد، وحرمة الإحرام «**قِصَاصٌ**» القصاص: المساواة والمماثلة، وهو أن يفعل بالفاعل مثل مافعل، والمعنى أنهم لما منعوكم عن العمرة، وأضاعوا هذه الحرمات في سنة ست، فقد وقفتم حتى قضيتموها على رغمهم في سنة سبع. وقيل هذا في القتال . ومعناه فإن بدؤكم بالقتال في الشهر الحرام فاقتلوهم فيه فإنه قصاص «**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**» أي بالقتال «**فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ**» أي فقاتلوه «**بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**» سمَّى الجزاء بالاعتداء على سبيل المشاكلة «**واتَّقُوا اللهَ**» في الانتصار وترك الاعتداء أي لـمَّا أباح لهم الاقتصاص بالمثل، وشأن النفس حبُّ المبالغة في الانتقام حذّرهم من ذلك فقال:واتقوا الله «**واعْلَمُوا أنَّ اللهَ مع المتَّقِينَ**» بالعون والنصر. وفي الطبري: حدثنا بشر بن معاذ، قال: حدثنا يزيد، قال: ثنا سعيد عن قتادة قوله: «**الشَّهْرُ الحَرامُ بالشَّهْرِ الْحَرامِ والْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**» أقبل نبي الله وأصحابه فأعتمروا في ذي القعدة ومعهم الهدى حتى إذا كانوا بالحديبية صدّهم المشركون، فصالحهم نبي الله صلى الله عليه وسلم على أن يرجع من عامه ذلك حتى يرجع من العام المقبل، فيكون بمكة ثلاثة أيام، ولا يدخلها إلا بسلاح راكب، ويخرج ولا يخرج بأحدٍ من أهل مكة، فنحروا الهدىَ بالحديبية وحلقوا وقصروا حتى إذا كان من العام المقبل أقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى دخلوا مكة، فاعتمروا في ذى القعدة، فأقاموا بها ثلاث ليالٍ، فكان المشركون قد فخروا عليه حين ردّوه يوم الحديبية، فأقصه الله منهم، فأدخله مكة في ذلك الشهر الذي كانوا ردُّوه فيه في ذى القعدة فقال الله: «**الشَّهْرُ الحَرامُ بالشَّهْرِ الْحَرامِ والْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**» فيكون معنى «**الشَّهْرُ الحَرامُ بالشَّهْرِ الْحَرامِ**» عمرة في شهر حرام بعمرة في شهر حرام. وشهر ذى القعدة من الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال والقتل، وتضع فيه السلاح، ولا يقتل فيه أحدٌ أحداً ولو لقى الرجل فيه قاتل أبيه، أو ابنه، وسمى ذا القعدة لقعودهم فيه عن المغازى والحروب، فسمّاه الله بالاسم الذي كانت العرب تسميه به، وتكون الآية قد نزلت في عمْرة القضاء أي أن ذا القعدة الذي دخلتم فيه مكة وقضيتم عمرتكم بالشهر الحرام الذي صددتم فيه عن البيت* وفي ابن كثير في قوله: «**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**» نزلت بمكة حيث لا شوكة، ولا جهاد، ثم نسخ بآية القتال بالمدينة، وقد ردّ هذا القول ابن جرير، وقال: بل الآية مدنية بعد عمرة القضاء، وعزا ذلك إلى مجاهد رحمه الله. وعبارة أبي

السعود: الشهر الحرام بالشهر الحرام، فقد قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذى القعدة فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء في ذى القعدة أيضاً وكراهتهم القتال فيه، هذا الشهر الحرام بذاك الشهر الحرام، وهتكه بهتكه فلا تبالوا.

((القول في تأويل قوله تعالى :))
«وأنْفِقُوا فى سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بأيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ وأحْسِنُوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ»

في الواحدي: عن الشعبى قال: نزلت في الأنصار أمسكوا عن النفقة في سبيل الله فنزلت هذه الآية* وعن عكرمة قال: نزلت في النفقات في سبيل الله* وعن ابن أبى جبير قال: كانت الأنصار يتصدقون و يطعمون ما شاء الله، فأصابتهم سَنَةٌ فأمسكوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية* وعن النعمان بن بشير في قوله: **«ولا تُلقُوا بِأيْدِيكُمْ إلى التّهلكة»** قال: كان الرجل يذنب الذنب فيقول: لا يغفر لى. فأنزل الله هذه الآية* وأخرج الحكم بن عمر أنَّه قال: كُنّا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر الجهنى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج من المدينة صفٌّ عظيم من الروم، وصففنا لهم صفاً عظيماً من المسلمين، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا مقبلاً، فصاح الناس فقالوا: سبحان الله!! ألقى بيده إلى التّهلكة، فقال أبو أيوب الأنصارى: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيُّها الناس إنكم تتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنا أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصريه، قلنا: بعضنا لبعض سراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم. إن أموالنا قد ضاعت فلو أنا أقمنا فيها، وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى في كتابه يردُّ علينا ما هممنا به فقال: **«وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلقُوا بأيديكُمْ إلى التّهْلكةِ»** في الإقامة التي أردنا أن نقيم في الأموال.. فأمرنا بالغزو، فما زال أبو أيوب غازياً في سبيل الله حتى قبضه الله عز وجل* وفي الخطيب: وروى أنَّ رجلاً من المهاجرين حمل على صف العدوّ فصاح به الناس: ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب الأنصارى: نحن أعلم بهذه الآية، وإنما نزلت فينا صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصرناه وشهدنا معه المشاهد، وآثرناه

على أهلنا وأولادنا وأموالنا، فلمّا فشا الإسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها رجعنا إلى أهلينا وأولادنا وأموالنا نصلحها ونقيم فيها فكانت التهلكة: الاقامة في الأهل والمال وترك الجهاد، فما زال أبوأيوب يجاهد في سبيل الله حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية في زمن معاوية فتوفى هناك، ودفن في أصل سورها، وهم يستسقون به* وقال محمد بن سيرين وعبيدة السلماني: الإلقاء إلى التهلكة: هوالقنوط من رحمة الله تعالى* قال أبو قلابة: هو الرجل يصيب الذنب فيقول هلكت ليست لى توبة، فييأس من رحمة الله، و ينهمك في المعاصى فنهاهم الله عن ذلك كما قال تعالى: «**إنّه لا ييأسُ من روْح الله إلاّ الْقَوْمُ الكافِرُونَ**»* وفي القرطبي: في قوله تعالى: «**ولاَ تُلْقُوا بأيْدِيكُمْ إلى التّهْلُكَةِ**» قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد وجمهور من الناس: المعنى لا تُلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله وتخافوا العيلة، فيقول الرجل: ليس عندى ما أنفقه، وإلى هذا المعنى ذهب البخارى إذ لم يذكره غيره* قلت: وممّا يؤكد هذا المعنى ما ورد في الطبرى: حدّثنا أبوكريب قال: ثنا أبوبكر قال: ثنا أبوإسحاق عن البراء قال: سأله رجل: أحمل على المشركين وحدى فيقتلونى أكنت ألقيت بيدى إلى التهلكة؟ فقال: لا إنَّ التهلكة في النفقة، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**فَقَاتِلْ فى سَبِيلِ الله لاَ تُكَلَّفُ إلاّ نَفْسَكَ**» فيكون المعنى: وأنفقوا أموالكم أيها المؤمنون بإعداد العدة لاعزاز دينى الذي شرعته لكم، وجاهدوا بها عدوّكم الناصبين لكم الحرب على الكفر بى ولا تقعدوا عن النفقة والجهاد فيغزوكم الأعداء فتهلكوا، لأن من قعد عن الجهاد، وحبس ماله عن النفقة في سبيله فقد استسلم للتهلكة، ومثل ذلك قوله تعالى: «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا قُوا أنفُسَكَمْ وأهْلِيكُمْ نَاراً**» وقوله تعالى: «**وأحْسِنُوا إنَّ الله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**» أي أحسنوا أيها المؤمنون في أداء ما ألزمتكم من فرائض، وتجنب ما أمرتكم بتجنبه من معاصي، ومن الانفاق في سبيلى، عوْدُ القوى منكم على الضعيف ذى الخلّة، فإنى أحب المحسنين في ذلك، وهم الذين يحسنون الظن بى، وأداء فرائضى، و يعودون على من ليس في يده شيء* وفي ابن كثير: زيادة على ما تقدم من الأقوال. وقال الحسن البصرى: «**وَلاَ تُلْقُوا بأيْدِيكُمْ إلى التّهْلُكَةِ**» قال هو البخل* وروى على بن أبي طلحة عن ابن عباس: التهلكة عذاب الله، وقال ابن أبى حاتم، وابن جرير جميعاً حدثنا يونس بن وهب، أخبرنى أبوصخر عن القرظى محمد بن كعب أنه كان يقول في هذه الآية

«وَلاَ تُلْقُوا بأَيْدِيكُمْ إلى التهْلُكَةِ» قال: كان القوم في سبيل الله فيتزود الرجل فكان أفضل زاداً من الآخر، أنفق البائس من زاده حتى لا يبقى من زاده شيء أحبُّ أن يواسى صاحبه فأنزل الله «**وأَنْفِقُوا فى سَبِيلِ الله وَلاَ تُلْقُوا بأَيْدِيكُمْ إلى التّهلكةِ**» و به قال ابن وهب أيضاً أخبرنى عبدالله بن عياش عن زيد بن أسلم في قوله الله «**وأَنْفِقُوا فى سَبِيلِ الله وَلاَ تُلْقُوا بأَيْدِيكُمْ إلى التّهْلُكَةِ**» وذلك أنَّ رجالاً كانوا يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير نفقة، فإما أن يقطع بهم وإما كانوا عيالاً فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله ولا يُلقوا بأيديهم إلى التهلكة، والتهلكة أن يهلك رجالٌ من الجوع والعطش، أو من المشى* وقال لمن بيده فضل «**وأَحْسِنُوا إنَّ الله يُحِبُّ المُحْسِنِينَ**».

قال ابن كثير: ومضمون الآية: الأمر بالانفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات، ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء، و بذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، والاخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمارٌ لمن لزمه واعتاده، ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة فقال: «**وأَحْسِنُوا إنَّ الله يُحِبُّ المُحْسِنِينَ**»* وفي السمين قوله: «**بأيديكم**» في هذه الباء وجهان:

أحدهما: أنها زائدة في المفعول به، لأن ألقى يتعدى بنفسه قال تعالى: «**فألْقَى عَصَاهُ**» (وعلى هذا جرى الجلال).

والثاني : أن يضمن ألقى معنى فعل يتعدى بالباء، فيتعدى تعديته، فيكون المفعول به في الحقيقة هو المجرور بالباء تقديره: ولا تفضوا بأيديكم إلى التهلكة، كقوله: أفضت بجنبى إلى الأرض أي طرحته على الأرض، و يكون قد عبّر بالأيدى عن الأنفس لأن بها البطش والحركة* قلتُ: وعلى القول بزيادتها يكون المعنى: ولا تقبضوا التهلكة بأيديكم: أى لا تجعلوها آخذة بأيديكم ما لكة لكم. أو ولا تُلقُوا أنفسكم بأيديكم كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده: إذا تسبّبَ لهلاكها، وليس من معانى التهلكة ــ والله أعلم ــ الحمل على العدو بمفرده. روى الشافعىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الجنة، فقال له رجل من الأنصار: أرأيت يا رسول الله إن قُتلتُ صابراً محتسباً؟ قال: لك الجنة، فانغمس في جماعة العدو فقتلوه* وأن رجلاً من الأنصار ألقى درعاً كان عليه حين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الجنة، ثم انغمس في العدو فقتلوه بين يدى الرسول* وروى أنَّ

رجلاً من الأنصار تخلّف من أصحاب بئر معونة فرأى الطير عكوفاً على من قُتل من أصحابه، فقال لبعض من معه: سأتقدّم إلى العدو فيقتُلوننى، ولا أتخلف عن مشهد قُتل فيه أصحابى، ففعل ذلك، فذكروا للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: فيه قولاً حسناً.

((القول في تأويل قوله تعالى :))
«فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أوْبِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَام أوْ صَدَقَةٍ أوْنُسُكٍ» سورة البقرة (الآية: ١٩٦)

فى الواحدى قال كعب بن عجرة: نزلت هذه الآية ــ فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ــ وقع القمل فى رأسى، فذكرت ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم. فقال: أحلق وافده صيام ثلاثة أيام. أو النسك، أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين صاع. وعن كعب بن عجرة أيضاً قال: فىَّ نزلت هذه الآية. أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أدنه، فدنوت مرتين أو ثلاثاً، فقال: أيؤذيك هوامّك؟ قال ابن عون: وأحسبه قال نعم، فأمرنى بصيام، أو صدقة، أو نسك ما تيسّر* رواه مسلم عن أبى موسى عن ابن أبى عدىّ، عن ابن عون* وروى ابن عطاء عن ابن عباس قال: لما نزلنا الحديبية جاء كعب بن عجرة تنثر هوامٌّ رأسه على جبهته، فقال: يا رسول الله القمل قد أكلنى. قال: أحلق وافده، قال: فحلق كعب فنحر بقرة، فأنزل الله عز وجلّ فى ذلك الموقف: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أوْبِهِ أَذًى مِنْ رأسِهِ..» الآية قال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصيام ثلاثة أيام، والنسك: شاةٌ، والصدقة: الفرق بين ستة مساكين لكل مسكين مُدّ* وما ورد فى الواحدى ورد بحروفه فى الخطيب* وفى ابن كثير. قال البخارى: حدثنا آدم حدثنا شعبة عن عبدالرحمن بن الأصبهانى سمعت عبدلة عن معقل، قال: قعدت إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد يعنى مسجد الكوفة فسألته عن فدية من صيام فقال: حملتُ إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم والقمل يتناثر على وجهى، فقال: «ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا أما تجد شاة؟» قلت: لا، قال: «صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام، وأحلق رأسك» فنزلت فىَّ خاصة، وهى لكم عامة* وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن مجاهد عن عبدالرحمن بن أبى ليلى عن كعب بن عجرة قال: أتى على النبى صلى الله عليه وسلم،

وأنـا أوقـد تحـت قـدر، والقمل يتناثر على وجهى، أو قال: حاجبى. فقال: [يؤذيك هو ام رأسك؟] قـلـت: نـعم. قال: [فاحلقه وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين أو انسك نـسـيـكـة] قـال أيوب: لا أدرى بأيتهن بدأ» وأو هنا للتخيير. قال ابن كثير: وهو مذهب الأئمـة الأربعة وعامة العلماء أنه يخير في هذا المقام إن شاء صام وإن شاء تصدق بفرق[1]، وهو ثلاثة آصع لكل مسكين نصف صاع، وهو مُدّان، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الـفـقـراء أى ذلـك فـعل أجزأه، ولما كان لفظ القرآن فى بيان الرخصة بالأسهل فالأسهل «فـفـديـةٌ مـن صـيامٍ أو صدقةٍ أوْ نُسُكٍ» ولما أمر النبى صلى الله عليه وسلم كعب بن عـجـرة بـذلك أرشده إلى الأفضل فالأفضل فقال: انسك شاةٍ، أو أطعم ستة مساكين، أو صـم ثلاثة أيام، فكل حسن فى مقامه، ولله الحمد والمنّة. وفى ابن كثير: وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عيّاش قال: ذكر الأعمش قال: سأل إبراهيم سعيد بن جبير عن هذه الآية «ففديَةٌ مِنْ صِيَامٍ أوْ صَدَقَةٍ أوْ نُسُك» فأجابه بقوله: يحكم عليه طـعـام، فـإن كان عنده اشترى شاة، وإن لم يكن قومت الشاة دراهم وجعل مكانها طعام فـتـصدق، وإلا صام لكل نصف صاع يوماً، قال ابراهيم كذلك سمعت علقمة يذكر قال: لمـا قـال لى سعـيـد بن جبير من هذا ما أظرفه؟ قال: قلت: هذا إبراهيم، فقال: ما أظرفه كـان يجالـسـنـا، قـال: فـذكرت ذلك لإبراهيم قال: فلما قلت يجالسنا انتفض منها. وفيه أقوال غير هذا فلا فائدة فى إطالة ذكرها. ونقل عن عطاء أنه كان يقول: ما كان من ذبح فـبـمـكـة ومـا كـان من طعام وصيام فحيث شاء» والآية هنا عود إلى إتمام أحكام الحج، فـذكـر حـكـم المحصر وعـدم جـواز الحلق قبل بلوغ الهدى محله، إلا لمن كان مريضاً أو به جروح ونحوها فإنه يحلق وعليه أن يصوم ثلاثة أيام أو يذبح شاة أو يتصدق بفرق على ستة مـسـاكين، فـإذا زال الخوف من العدوّ، فمن أتم العمرة وتحلل و بقى متمتعاً إلى زمن الحج لـيـحـج مـن مكة فعليه دم، لأنه أحرم بالحج من غير الميقات، فإن لم يجد ذلك صام ثلاثة أيـام فى أيـام الإحـرام بالحج، وسبعة إذا رجع إلى بلده إلا إذا كان مسكنه وراء الميقات. والمواقيت: ذو الحليفة والجحفة وقرن و يلملم وذات عرق. فمن كان من أهل هذه المواضع فـا دونهـا إلى مـكـة فهو من حاضرى المسجد الحرام فالمكيُّ إذا تمتع أو قرن فلا هدى عليه

(١) الفرق بالتحريك: مكيال بالمدينة يزن ستة عشر رطلاً

ولا بدل له لأنه لا يجب عليه أن يحرم من الميقات فإقدامه على التمتع لا يوجب خللاً فى حجه فلا يجب عليه الهدى. و يدل على ذلك ما أخرجه البخارى تعليقاً من حديث عكرمة قال: سئل ابن عباس عن متعة الحج، فقال أهل المهاجرون والأنصار وأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وأهللنا، فلما قدمنا مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [اجعلوا إهلا لكم بالحجّ عمرة إلاّ من قلّد الهدى] فطفنا بالبيت و بالصفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب، وقال: [من قلّد الهدى فإنه لا يحلُّ من شىء حتى يبلغ الهدى محلَّهُ] ثم أمرنا عشية التروية أن نهل بالحج فإذا فرغنا من المناسك جئنا فطفنا بالبيت و بالصفا والمروة، وقد تم حجنا وعلينا الهدى كما قال تعالى: **«فَمَا أستيْسَرَ مِن الهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّام فى الْحجّ وسبعةٍ إذَا رجَعْتُم»** إلى أمصاركم. والشاة تجزىء. فجمعوا بين النسكين فى عام بين الحج والعمرة فإن الله أنزله فى كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأباحه للناس من غير أهل مكة قال تعالى: **«ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرى الْمَسْجِدِ الْحَرامِ»**. وفى الحديث زيادة، قال الحميدى: قال أبو مسعود الدمشقى: هذا حديث غريب ولم أجده إلا عند مسلم بن الحجاج ولم يخرجه فى صحيحه من أجل عكرمة فإنه لم يروعنه فى صحيحه.

وعندى أن البخارى إنما أخذه من مسلم. (وأعلم) أنه يجوز الاحرام من قبل المواقيت لحديث أم سلمة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ أحْرمَ مِنْ بيْتِ الْمقْدِسِ بحجّ أو عمرة كان من ذنوبه كيوم ولدته أُمّهُ] وفى رواية [غُفِرَ لَهُ ما تقدّم من ذنْبِهِ ومَا تأخرَ] أخرجه أبو داود وقال: «يرحم الله وكيعاً!! أحرم من بيت المقدس» يعنى إلى مكة، وخص فى هذا الشافعى. وكرّهه مالك لأن عمر بن الخطاب أنكر على عمران بن حصين إحرامه من البصرة، وأنكر عثمان على ابن عمر احرامه قبل الميقات. ومما لا شك فيه أن الاحرام من الميقات أفضل لأنه عليه الصلاة والسلام لم يحرم من بيته بل كان يحرم من ميقاته الذى وقته لأمته. وقد وقت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة (ذا الحليفة) ــ قرية خربة بينها و بين مكة مائتا ميل ــ ولأهل الشام (الْجُحْفَة) ــ قرية خربة بينها و بين مكة خمس مراحل، وهى قرب القرية المعروفة برابغ ــ ولأهل نجد (قَرْن) وهو جبل مشرف على عرفات على بعد مرحلتين من مكة ــ ولأهل اليمن (يَلَمْلَمْ)ــ مكان على مرحلتين من مكة. وأجمع أهل العلم على القول بظاهر هذا

الحديث. واختلفوا فى ميقات أهل العراق. فروى عن ابن عباس أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم وقّت لأهل المشرق (الْعَقيقَ) وحسّنه الترمذى. و يروى أن عمر بن الخطاب قال: وقت لهم (ذات عرق) وهذا هو الصحيح، ولم يكن باجتهاد منه بل لما روى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت لأهل العراق ذات عرق ــ قرية على مرحلتين من مكة ــ وعلى كل فمن أحرم ما قبل هذه المواقيت فإحرامه صحيح لأنه زاد ولم ينقص.

وقد دلت الآية على وجوب العمرة لأنه تعالى أمر بإتمامها فى أول الآية فقال: «**وَأَتِمُّوا الْحج والْعُمْرَةَ لله**» فكما أن الحج واجب فكذلك العمرة. ففى القرطبى: قال ابن جريج: وأخبرت عن عكرمة أن ابن عباس قال: العمرة واجبة كوجوب الحج من استطاع إليه سبيلاً* وممن ذهب إلى وجوبها من التابعين عطاء وطاووس ومجاهد والحسن وابن سيرين والشعبى وسعيد بن جبير وأبو بردة ومسروق وعبيدالله بن شداد والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو عبيد وابن الجهم من المالكيين* وقال الثورى: سمعنا أنها واجبة. وسئل زيد بن ثابت عن العمرة قبل الحج فقال: صلاتان لا يضرك بأيّهما بدأت. ذكره الدارقطنى* وروى مرفوعاً عن محمد بن سيرين عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إنّ الحجَّ والعمرةَ فريضتان لا يضرُّكَ بأيهّما بدأت] وكان مالك يقول: «العمرة سنة ولا نعلم أحداً أرخص فى تركها» وهو قول النخعى وأصحاب الرأى فيما حكى ابن المنذر. وأوجبها أبو حنيفة كالحج.

((القول فى تأو يل قوله تعالى :))
«وتَزَوَّدُوا فَإِن خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىَ واتَّقُونِ يَا أُولى الألْبَابِ»

فى الواحدى: عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، يقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: «**وتزوَّدُوا فإن خَيْرَ الزّادِ التّقوىَ**» وفى الخطيب: قال أهل التفسير: الكعك والزيت والسو يق والتمر ونحوها. فإن خير الزاد التقوى أى ما يتق به سؤال الناس وغيره. وفى البخارى وغيره: أن أهل اليمن كانوا يخرجون إلى الحج بغير زاد. و يقولون نحن متوكلون، ونحن نحج بيت الله تعالى أفلا يُطعمنا، فيكونون كلاً على الناس، فيسألونهم، وربما يفضى بهم الحال إلى النهب

والـغـصـب فقال الله عز وجلّ: «وَتَزَوَّدُوا فإِنَ خَيْرَ الزَّادِ التقوى» أى تزودوا ما تتبلّغُون بـه، وتـكـفـون بـه وجـوهـكـم* وفى الـقـرطبى: «وتزوَّدُوا» أمر باتخاذ الزاد قال ابن عمر وعـكرمة ومجاهد وقتادة وابن زيد: نزلت الآية فى طائفة من العرب كانت تجىء إلى الحج بـلا زادٍ، و يـقـول بعضهم: كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا فكانو يبقون عالة على الناس فنهـوا عـن ذلـك وأمـروا بـالـزاد. وقـال عبدالله بن الز بير: كان الناس يتكل بعضهم على بـعـض بـالزاد فأمروا بالزاد. وكان للنبىّ صلى الله عليه وسلم فى مسيره راحلة عليها زاد* وقـال بـعـض الـنـاس: «وتـزوّدُوا» الـرفـيـق الـصـالـح. قال ابن عطية: وهذا تخصيص ضعيف. والأ ولى فى معنى الآية «وتَزَوَّدُوا» لمعادكم من الأعمال الصالحة.

قـلـت: إلا أن القول الأ ول هو الأصح. أى أن المراد بالزاد فى قوله تعالى «وتَزَوَّدُوا» هـو الـزاد المـتـخـذ فى سـفـر الحـج. المأكول حقيقة لما ذكر البخارى كما تقدم وعليه أكثر المفسّرين. قال الشعبى: الزاد: التمر والسو يق* وقال ابن جبير: الكعك والزيت. وقال أبو الـفـرج الجوزى: وقد لبّس إبليس على قوم يدعون التوكل فخرجوا بلا زاد، وظنوا أن هذا هـو الـتـوكـل، وهـم على غاية الخطأ. قال رجل لأحمد بن حنبل: أريد أن أخرج إلى مكة على الـتـوكـل بـغير زاد، فـقال له أحمد: اخرج فى غير القافلة. فقال: لا، إلا معهم، قال: فـعلى جُرُبِ[1] الناس توكلت* وفي الطبرى: حدثنى الحسين بن علىّ الصوائى: قال: ثنا عـمـرو بن عبدالغفار قال: ثنا محمد بن سوقة عن نافع عن ابن عمر قال: كانوا إذا أحرموا ومـعـهـم أزْوِدَةٌ رمـوا بها، واستأنفوا زاداً آخر فأنز الله «وتَزوّدُوا فإن خيْرَ الزَّادِ التّقوى» فنهـوا عن ذلك. وأمروا أن يتزودوا الكعك والدقيق والسو يق* وفى الخازن: وقيل فى معنى الآيـة وتـزودوا مـن الـتـقـوى فإن الإنسان لا بد له من سفر فى الدنيا، ولا بد فيه من زاد. ويحـتـاج فيه إلى الطعام والشراب والمركب، وسفر من الدنيا إلى الآخرة ولا بد فيه من زادٍ أيـضاً، وهو تقوى الله عزّ وجلّ والعمل بطاعته، وهذا الزاد أفضل من الزاد الأ ول فإن زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفوس وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم فى الآخرة وفى هذا المعنى قال الأعشى:

إذا أنـتَ لـمْ تـرحَـلْ بـزادٍ مـن التّقى ... ولاقـيْـتَ بَـعْـدَ المـوتِ مَـنْ قَدْ تزوّدا
نـدمـتَ على أن لا تـكـونَ كـمـثـلـه ... وإنـك لم تَـرْصُـدْ كما كـان أرصـدا

(١) جُرُب (بضمّتين) جمع جراب، وهو الوعاء المتخذ من جلد يوضع فيه الدقيق ونحوه.

وأيضاً فليس السفر من الدنيا أهون من السفر فى الدنيا، وهذا لا بد له من زاد فكذا ذلك بل يزداد فإن زاد الدنيا يخلصك عن عذاب منقطع موهوم، وزاد الآخرة ينجيك من عذاب أبدىّ معلوم، زاد الدنيا يوصلك إلى متاع الغرور، وزاد الآخرة يبلغك دار السرور، وزاد الدنيا سبب حصول حظوظ النفس، وزاد الآخرة سبب الوصول إلى عتبة الجلال والقدس. وفيه دليل على أن القادر على استصحاب الزاد فى السفر إذا لم يستصحب عصى الله فى ذلك. فيه إبطال حكمة الله تعالى، ورفع الوسائط والروابط التى عليها تدور المناجح، وبها تنظم المصالح. دعوى أن بعض العارفين زهد فبلغ من زهده أن فارق الناس وخرج من الأمصار، وقال لا أسأل أحداً شيئاً حتى يأتينى رزقى، فأخذ يسبح فأقام فى سفح جبل سبعاً لم يأته شىء حتى كاد يتلف، فقال يارب إن أحببتنى فأتنى برزق فى الذى قسمت لى، وإلا فاقبضنى إليك فألهمه الله تعالى فى قلبه، وعزتى وجلالى لا أرزقك حتى تدخل الأمصار. وتقيم بين الناس، فدخل المدينة وأقام بين ظهرانى الناس، فجاء هذا بطعام وهذا بشراب فأكل وشرب، فأوجس فى نفسه من ذلك، فسمع أردت أن تبطل حكمته بزهدك فى الدنيا أما علمت أنه يرزق العباد بأيدى العباد أحبّ إليه من أن يرزقهم بيد القدرة. وفى قوله: «**واتّقُونِ يَا أُولِى الأَلْبَابِ**» قال الطبرى: يعنى بذلك جل ثناؤه واتقونى يا أهل العقول والأفهام بأداء فرائضى عليكم التى أوجبتها عليكم فى حجكم ومناسككم وغير ذلك من دينى الذى شرعته لكم، وخافوا عقابى باجتناب محارمى التى حرمتها عليكم تنجوا بذلك مما تخافون من غضبى عليكم وعقابى، وتدركوا ما تطلبون من الفوز بجناتى.

((القول في تأويل قوله تعالى :))

«لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ» سورة البقرة (الآية: ١٩٨)

في الواحدى : عن أبى أمامة التميمي قال: سألت ابن عمر فقلت: إنّا قوم ذو كرى في هذا الوجه، وإن قوماً يزعمون أنه لا حجّ لنا، قال: ألستم تلبُّون؟ ألستم تطوفون بين الصفا والمروة؟ ألستم ألستم؟ قال: بلى، قال: إنَّ رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمَّا

سألت عنه، فلم يرد عليه حتى نزلت «**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أن تبتغُوا فضْلاً مِنْ رَبّكُمْ**» فدعاه فتلا عليه حين نزلت، فقال: أنتم حجاج* وعن ابن عباس قال: كان ذو المجاز وعكاظ متجر ناس في الجاهلية، فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت «**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أن تبتغُوا فضْلاً مِنْ رَبّكُمْ**» في موسم الحج* وروى مجاهد عن ابن عباس قال: كانوايتقون البيوع والتجارة في الحج يقولون: أيام لذكر الله فأنزل الله تعالى «**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أن تبتغُوا فضْلاً مِنْ رَبّكُمْ**» فاتجروا* وفي الخطيب: نزلت ردعاً لناس من العرب كانوا يتأثمون أن يتجروا أيام الحج، وإذا دخل العشر كفُّوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق، و يسمون من يخرج بالتجارة الدّاج. و يقولون: هؤلاء الدَّاج وليسو بالحجاج. وروى البخارى [أنه كانت عكاظ ومِجَنَّةُ وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية، يتجرون فيها أيام الموسم، وكانت معايشهم منها، فلمَّا جاء الإسلام تأثموا فرفع عنهم الجناح في ذلك وأبيح لهم] وعن عمر رضى الله عنه أنه قيل له: كنتم تكرهون التجارة في الحج؟ فقال: وهل كانت معايشنا إلاَّ من التجارة في الحج* عكاظ: سوق لقيس. وَمِجَنَّةُ: سوق لكنانة بمرّ الظهران. وذو المجاز: سوق لهذيل. وفي القرطبي ما نصه: في هذه الآية دليل على جواز التجارة في الحج للحجاج مع أداء العبادة، وأنَّ القصد إلى ذلك لا يكون شركاً، ولا يخرج به المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه خلافاً للفقراء ــ الصوفية ــ وفي الطبرى: وفي رواية عطاء عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج. وفي القرطبي: حدثني يعقوب بن إبراهيم قال: ثنا ابن عليّة، قال: ثنا ليث عن مجاهد في قوله: «**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أن تبتغُوا فضْلاً مِنْ رَبّكُمْ**» قال: التجارة في الدنيا والأجر في الآخرة* وفي غرائب القرآن للنيسابورى: عن أبى مسلم أنَّه حمل الآية على ما بعد الحج. قال: والتقدير، واتقون في كل أفعال الحج، ثم بعد ذلك ليس عليكم جناح أن تبتغوا ــ أى عطاء منه وتفضلاً في الرزق بسبب التجارة والربح بها كقوله «**وآخَرُونَ يضربونَ في الأرضِ يبتغونَ مِنْ فضل الله**» وكقوله: «**فإذَا قُضِيَت الصَّلاةُ فانتشروا في الأرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فضلِ الله**» وزيف قوله هذا بأن حمل الآية على موضع الشبهة أولى من حملها لا على موضع الشبهة، ومحل الاشتباه هو التجارة في زمان الحج، وأما بعد الفراغ فالحل معلوم. وقياس الحج على الصلاة فاسد. فإن الصلاة أعمالها متصلة فلا يحل في أثنائها التشاغل

بغيرها، وأعمال الحج متفرقة تحتمل التجارة في خلالها، وأيضاً الفاء في قوله: «**فإذَا أفضْتُمْ**» ظاهرة في أنَّ هذه الافاضة حصلت عقب ابتغاء الفضل، وذلك يدل على أن المراد وقوع التجارة في زمان الحج، و يؤيده قراءة ابن عباس ــ المتقدمة ــ فضلاً من ربكم في مواسم الحج ــ... ومن المعلوم أنه إنما يباح ما لم يشغل عن العبادة ... وعن جعفر الصادق رضي الله عنه: أن ابتغاء الفضل هٰهنا طلب أعمال أُخر زائدة على أعمال الحج موجبة لفضل الله تعالى ورحمته كإعانة الضعيف وإغاثة الملهوف وإطعام الجائع وإرواء العطشان* وقال النيسابورى: واعلم أن الفضل ورد في القرآن بمعانٍ: منها: ما يتعلق بالمصالح الدنيوية من المال والجاه والغذاء واللباس. وهو المسمى بالرزق «**فانتشِرُوا في الأرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله**» ومنها ما يتعلق بالمصالح الأخروية وهو الفضل والثواب والجنة والرحمة «**تَرَاهُمْ رُكَعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ الله**» «**وَلَولاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشيْطَانَ**» ومنها ما يتعلق بمواهب القربة «**ذَلِكَ فَضْلُ الله يؤتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**» «**وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيماً**» ورفع الجناح قد يستعمل في الواجب والمندوب مثل ما يستعمل في المباح كما مرّ في قوله: «**فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**» وفي الخازن: وقال بعض العلماء: إنَّ التجارة إن أوقعت نقصاً في أعمال الحج لم تكن مباحة، وإن لم توقع نقصاً فيه كانت من المباحات التى الأولى تركها لتجريد العبادة عن غيرها لأن الحج بدون التجارة أفضل وأكمل* ولعلّ سندهم قوله تعالى: «**ومـا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ**» والاخلاص هو أن لا يكون له حامل على الفعل سوى كونه عبادة.

والحاصل: أن الإذن في هذه التجارة جارٍ مجرى الرُّخص كذا في الكرخى. والذي تُلخص في كتب الفروع في هذه المسئلة: أنَّ في التشريك بين العبادة وغيرها ثلاثة طرق: قال ابن عبدالسلام: إنه لا أجر فيه مطلقاً. أي سواء تساوى القصدان أم اختلفا* وقد اختار الغزاليُّ فيما إذا شرّك في العبادة غيرها من أمر دنيوى. اعتبار الباعث على العمل. فإن كان القصد الدنيوى هو الأغلب لم يكن فيه أجر. وإن كان القصد الدينيُّ أغلب فله بقدره وإن تساويا تساقطا* وقال ابن حجر في شرح المنهاج: والأوجه أنَّ قصد العبادات يثاب عليه بقدره، وإن انضم إليه غيره مساوياً أو راجحاً* وخالفه الرملى: فأعتمد طريقة الغزالى. ولكن يقال: جاء قوله تعالى: «**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أن تبتغوا فضْلاً مِنْ**

رَبِّكُمْ» كالاستدراك والاحتراس مما عساه يسبقُ إلى الفهم من منع التجارة في الحج. وذلك أنَّ الآيات السابقة أرشدت إلى حرمة الرَّفث والفسوق والجدال في الحج، والتجارة تفضى إلى الجدل والنزاع في قيم السلع قلّة وكثرة، فعقب ذلك ببيان حكمها، وأبان أن الكسب في أيام الحج مع ملاحظة أنَّه فضل من الله غير محظور، لأنه لا ينافى الإخلاص في هذه العبادة، وإنما الذي ينافيها أن يكون المقصد التجارة فحسب، بحيث لو لم يرج الكسب لم يسافر للحج ــ وقوله تعالى: «فإذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ» أي يطلب من الحاج إذا دَفَعَ من عرفات إلى المزدلفة أن يذكر الله عند المشعر الحرام بالدّعاء والتحميد والثناء والتّلبية، وإنما طلب منه ذلك خشية أن يتركه بعد المبيت، فطلب منه المضيّ في الذكر ما دام في هذا الموضع، وعرفة موضع الوقوف في الحج، وهى عمدة أفعال الحج. ولهذا روى الإمام أحمد وأهل السُّنن بإسناد صحيح عن الثورى عن بكير عن عطاء عن عبدالرحمن بن معمر الديلى قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [الحجُّ عَرَفات] ثلاثاً ــ فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك. وأيَّام منًى ثلاثة «فَمَنْ تَعَجَّلَ في يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْه» ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر لأن النبي صلى الله عليه وسلم وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس. وقال: [لِتأخذوا عنى مناسككم] وقال في هذا الحديث [فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك] وهذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة. واحتجوا بحديث الشعبى عن عروة بن مضرس بن حارثة بن لام الطائى قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة، فقلت يا رسول الله: إنى جئتُ من جبلى طيء أكلت راحلتى، واتعبتُ نفسى، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لى من حج؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه، وقضى تفثه] رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي. ثم قيل: إنما سميت عرفات لما رواه عبدالرازق. أخبرنى ابن جريج قال: قال ابن المسيّب: قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم صلى الله عليه وسلم فحجّ به حتى إذا أتى عرفة قال: عرفتُ، وكان قد أتاها مرّة، قبل ذلك فلذلك

سمّيت عرفة. وقال ابن المبارك عن عبدالملك بن أبي سليمان عن عطاء قال: إنما سميت عرفة لأن جبريل كان يُرى إبراهيم المناسك فيقول عرفت عرفت. فسمّيت عرفات. وعن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رؤس الجبال كأنها العمائم على رؤس الرجال دَفَعُوا، فأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدَّفعةَ من عرفة حتى غَرَبَتِ الشمس. رواه بن مردو يه من حديث زمعة بن صالح. وزاد. ثم وقف بالمزدلفة وصلى الفجر بغلس حتى إذا أسفر كل شيء، وكان في الوقت الآخر دفع، قال ابن كثير في التفسير: وهذا أحسن الإسناد. وقوله: «**واذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ**» أي كما علمكم تذكرونه بأن يكون بتضرع وخيفة وطمع في ثوابه، صادر عن رغبة ورهبة كما قال صلى الله عليه وسلم: [الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك] ولا تعدلوا عنه إلى ما كنتم تفعلونه في الجاهلية من الشرك واتخاذ الوسطاء بينكم و بينه. فلا تفرغ قلوبكم له. فقد كانوا يقولون في التلبية: لبّيْكَ لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. و يؤيد هذا تذييل الآية بقوله: «**وإنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِينَ**» أي وإن كنتم من قبل هذا الهُدَى من الضالين عن الحق في العقائد والأعمال بعبادة الأ وثان والأصنام، و باتخاذ الوسطاء الذي يشفعون عنده و يقر بون إليه زلفى.

((القول في تأو يل قوله تعالى :))
«ثُمَّ أفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أفَاضَ النَّاسُ واسْتَغْفِرُوا اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» سورة البقرة (الآية: ١٩٩)

في الواحدى: عن عائشة قالت: كانت العرب تفيض من عرفات، وقريش ومن دان بدينها تفيض من جُمَع من المشعر الحرام فأنزل الله تعالى: «**ثُمَّ أفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أفَاضَ النَّاس**» وأخبر ابن جبير بن مطعم عن أبيه قال: أضللت بعيراً لى يوم عرفة، فخرجتُ أطلبه بعرفة، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً مع الناس بعرفة، فقلت: هذا من الحمس ما له هٰهنا؟! قال سفيان: والأحمس: الشديد الشحيح على دينه، وكانت قريش تسمى الحُمْسَ، فجاء الشيطان فاستهواهم، فقال لهم: إنكم إن عظمتم غير حرمكم استحنف الناس غيركم، فكانوا لا يخرجون من الحرم. و يقفون بالمزدلفة، فلمّا جاء الإسلام أنزل الله عز وجل «**ثُمَّ أفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أفَاضَ**

النَّـاسُ» يعني عرفة. رواه مسلم عن عمرو الناقد عن ابن عيينه* وفي ابن كثير: «**ثُمَّ**» هـهنـا للعـطـف خبر على خبر، وتـرتيبه عليه كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات كما كـان جمـهـور الـنـاس يـصـنـعـون، يقفون بها إلاَّ قريشاً فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم، فـيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحل، و يقولون نحن أهل الله في بلدته، وقطّان بيته قال البـخـارى: حـدَّثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمّون الحمس. وسائر العرب يقفون بعرفات.

فـلما جـاء الإسـلام أمـر الله نـبـيه أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها فذلك قـوله: «**من حيثُ أفاض الناسُ**» وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والسدى وغيرهم: واختاره ابن جرير وحكى عليه الإجماع* وفي الطبرى: «**ثُمَّ أفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أفَـاضَ الـنّـاسُ**» قـيـل الخطاب للحُمْس، فإنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات، بل كـانـوا يـقفون بالمزدلفة، وهي من الحرم، وكانوا يقولون نحن قطين الله ـ أي سكان حرمه ـ فـيـنبغى لنا أن نعظم الحرم، ولا نعظم شيئاً من الحل، وكانوا مع معرفتهم واقرارهم أن عـرفـة مـوقـف إبراهيم عليه السلام لا يخرجون من الحرم. و يقفون بجمح، و يفيضون منه. و يـقـف الـنـاس بـعـرفة، فقيل لهم أفيضوا مع الجملة* والمراد بـ «**النّاس**» إبراهيم عليه السلام كما قال: «**الّـذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاسُ**» وهو يريد واحداً. والمعنى أفيضوا من حيث أفـاض إبـراهيم مـن مـزدلـفـة جمع، أي ثم أفـيضوا إلى منًى لأن الافاضة من عرفات قبل الإفاضة من جمع.

فالمعنى: عليكم أن تفيضوا مع الناس من مكان واحدٍ تحقيقاً للمساواة وتركاً للتفاخر وعدم الامـتـيـاز لأحد على أحدٍ، وذلك من أهم مقاصد الدين. وقيل المراد بـ «**النّاسُ**» هـنـا آدم وحـده بـدلـيـل قراءة سعيد بن جبير، ثم أفيضوا من حيثُ أفاض النّاسيء بالياء وقـال هـو آدم عـهـد إليه فنسى، ووجه هذا أن الوقوف بعرفات والإفاضة منها شرع قديم، ومـا سـواه مـبـدَع محدث وقوله: «**واسْتَغْفِروا الله**» ممّا أحدثتُم من تغيير المناسك بعد آدم وإبـراهيم، وإدخـال الـشـرك في أعـمـال الحجّ «**إنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ**» أي إنَّه تعالى واسع المـغـفـرة والرَّحمة لمن يستغفره مع الإنابة والتوبة، روى البخارى عن شدَّاد بن أوس قال: قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: [سيّدُ الاستغفار أن يقول العبد: اللهمَّ أنْتَ رَبى لاَ

إلــٰـه إلاَّ أنْتَ خلقتني، وأنا عبْدُكَ، وأنَا على عَهْدِكَ ووعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ أعوذ بكَ من شرّ ما صنـعْتُ أبوء لَكَ بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لى فإنَّه لا يغفرُ الذُّنوبَ إلاَّ أنت. من قـالها في ليـلتـه فـات في ليـلتـه دخل الجنة، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة] وفي الـصحيـحين عن عبدالله بن عمر أنَّ أبا بكر قال يا رسول الله: علمني دعاء أدعوا به في صلاتي فقال: [قُلْ اللّهُمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوبَ إلاَّ أنت، فاغفر لى مغفـرةً من عـنـدك، وارحمنى إنـك أنت الغفور الرحيم] والغفور يفيد المبالغة في الغفر، وكـذا الـرحيم. وفيـه دلـيـل على أنه تعالى يقبل التوبة من عبادة التائبين و يغفر لهم لأنه تـعـالى أمـر المـذنـب بـالاستغفار. ثم وصف نفسه تعالى بأنَّه كثير الغفران كثير الرحمة فدل ذلك على أنَّه تعالى يغفر للمستغفرين، و يرحم المذنبين بمنه وكرمه.

((القول في تأويل قوله تعالى :))

«فَـإذَا قضَيْتُمْ مناسِكَكُمْ فاذْكُرُوا الله كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أو أشَدَّ ذِكْراً فَـمِـنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ربَّنَا آتِنا فى الدُّنيا ومَالَه فى الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ* وَمِـنْـهُـمْ مَـنْ يَـقُـولُ ربَّـنَـا آتِـنَـا فى الدُّنيا حَسَنةً وفى الآخِرةِ حَسَنَةً وقِنَا عَـذَابَ الـنَّـارِ* أُولٰئكَ لَهُمْ نَصِيبٌ ممَّا كَسَبُوا والله سَرِيعُ الْحِسَابِ»

سورة البقرة (آية: ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢)

في الـواحـدى : قـال مجـاهـد: كـان أهـل الجـاهـلية إذا اجتمعوا بالموسم ذكروا فعل آبـاءهـم في الجـاهـلـيـة، وأيَّـامـهـم وأنـسـابهـم فتفاخروا فأنزل الله تعالى **«فاذْكُرُوا الله كَذِكْرِكُـمْ آبـاءَكُـمْ أو أشـدَّ ذِكْـراً»** وعبارة القرطبي: كانت عادة العرب إذا قضت حجـهـا تقف عند الجمرة فتفاخر بالآباء، وتذكر أيام أسلافها من بسالة وكرم وغير ذلك حتى أن الـواحـد منهـم لـيـقـول: اللهم إن أبى كان عظيم القبة، وعظيم الجفنة، كثير المال فـأعـطنى مـثل ما أعطيته فلا يذكر غير أبيه. فنزلت الآية ليلزموا أنفسهم ذكر الله أكثر من الـتـزامـهـم ذكر أبائهم أيام الجاهلية* هذا قول جمهور المفسرين. وقال ابن عباس وعطاء والـضحاك والربيع: معنى الآية: واذكروا الله كذكر الأطفال آباءهم وأمهاتهم: أبَهْ أُمَّه* أي فـاسـتـغيثوا به والجئوا إليه كما كنتم تفعلون في حال صغركم بآبائكم* وقالت طائفة: معنى الآية: اذكروا الله وعظموه وذبُّوا عن حُرَمَهِ، وادفعوا من أراد الشرك في دينه ومشاعره

كما تذكرون آباءكم بالخير إذا غُضّ أحد منهم، وتحمون جوانبهم وتذبُّون عنهم* وقال أبو الجوزاء لابن عباس: إن الرجل اليوم لا يذكر أباه فما معنى الآية؟ قال: ليس كذلك، ولكن أن تغضب لله تعالى إذا عُصىَ أشدّ من غضبك لوالديك إذا شُتما* وفي الطبرى: حدثنى محمد بن عمرو قال: ثنا أبوعاصم عن عيسى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد: قال: تفاخرت العرب بينها بفعل آبائها يوم النحر حين فرغوا. فأمروا بذكر الله مكان ذلك* وقال حدثنى بشر بن معاذ قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد عن قتادة، قال: كان أهل الجاهلية إذا قضوا مناسكهم بمنى قعدوا حلقاً فذكروا صنيع آبائهم في الجاهلية، وفعالهم به يخطب خطيبهم، ويحدّثُ محدثهم، فأمر الله عز وجل المسلمين أن يذكروا الله كذكر أهل الجاهلية آباءهم، أو أشد ذكراً* و يرى الطبرى أن الصواب في تأو يل الآية أن يقال إنَّ الله جل ثناؤه أمر عباده المؤمنين بذكره بالطاعة له فى الخضوع لأمره، والعبادة له بعد قضاء مناسكهم، وذلك الذكر جائز أن يكون هو التكبير الذي أمر به جل ثناؤه بقوله: «**واذكرُوا الله في أيّامٍ معدودات**» الذي أوجبه على من قضى نسكه، فألزمه حينئذٍ من ذكره ما لم يكن له لازماً قبل ذلك، وحثَّ على المحافظة عليه محافظة الأ بناء على ذكر الآباء في الإكثار منه بالاستكانة له والتضرع إليه بالرّغبة منهم إليه في حوائجهم كتضرع الولد لوالده، والصبى لأمه وأبيه، أو أشدّ من ذلك إذا كان ما كان بهم و بآبائهم من نعمة فنه وهو وليّهم* أي أن المقصود منه الحثُّ على كثرة الذكر لله عز وجل. ولهذا كان انتصاب قوله: «**أوْ أشدَّ ذِكْراً**» على التميز. تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً، وأو ههنا لتحقيق المماثلة في الخبر كقوله: «**فهىَ كالحجارة أو أشدُّ قسوة**» وقوله: «**يخشوْنَ النّاسَ كخشيةِ الله أو أشدَّ خشيةً**» فليست ههنا للشك قطعاً. وإنما هى لتحقيق الخبر عنه كذلك أو أزيد منه، وقيل «**أوْ**» بمعين الواو أي وأشد ذكراً أي وأكثر ذكراً للآباء لأنه هو المنعم عليهم وعلى الآباء، فهو المستحق للذكر والحمد مطلقاً، وقوله: «**فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ربّنَا آتِنا فى الدُّنيا**» عبارة الخازن: يعنى أن المشركين كانوا يسألون الله في حجهم الدُّنيا ونعيمها، كانوا يقولون: الله أعطنا إبلاً وغنماً و بقراً وعبيداً وإماءً، وكان أحدهم يقوم فيقول: الله إن أبى كان عظيم الفئة كبير الجفنة، كثير المال، فاعطنى مثل ما أعطيته، قال قتادة: هذا عبدٌ نيّتُهُ الدنيا، لها أنفق ولها عمل ونصب. روى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [تَعسَ

عبدُ الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطى رضى وإن لم يعطى سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش] قوله عليه الصلاة والسلام: تعس عبد الدينار، هذا دعاء عليه بالهلاك، وهو الوقوع على الوجه من العثار، والخميصة ثوب من خز أو صوف معلّم. قوله: وانتكس: هذا دعاء عليه أيضاً لأن من انتكس على رأسه أو في أمره فقد خاب وخسر. قوله: وإذا شيك: هذا فعل ما لم يسم فاعله تقول: شاكته الشوكة إذا دخلت في جسمه، والانتقاش: اخراج الشوكة من الجسم. وإنما كان سؤال المشركين للدنيا ولم يطلبوا التوبة والمغفرة ونعيم الآخرة لأنهم كانوا ينكرون البعث «**وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**» أي وماله في الآخرة من حظ ولا نصيب. وقوله: «**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنيا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذَابَ النَّارِ**» يعنى المؤمنين وعبارة الخازن: واعلم أن الله تعالى قسم الداعين فريقين: فريق اقتصر في الدعاء على طلب الدنيا وهم الكفار لأنهم كانوا لا يعتقدون البعث والآخرة. والفريق الثانى: هم المؤمنون الذين جمعوا في الدعاء بين طلب الدنيا والآخرة. وذلك أن الإنسان خلق ضعيفاً محتاجاً لا طاقة له بآلام الدنيا ومتاعبها. فالأولى له أن يستعيذ بالله من شرها وآلامها لأنه لو اضطرب على الإنسان عرق من عروقه لشوّش عليه حياته في الدنيا، وتعطل عن الاشتغال بطاعة الله تعالى: فثبت بذلك أن طلب الدنيا في الدعاء من أمر الدين فلذلك قال الله تعالى إخباراً عن المؤمنين «**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنيا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً**» قيل إن الحسنة في الدنيا عبارة عن الصحة والأمن والكفاية والتوفيق إلى الخير والنصر على الأعداء والولد الصالح والزوجة الصالحة. روى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة] وقيل الحسنة في الدنيا: العلم والعبادة، وفي الآخرة الجنة. وقيل الحسنة في الدنيا: الرزق الحلال والعمل الصالح. وفي الآخرة: المغفرة والثواب. وقيل من آتاه الإسلام والقرآن وأهلاً ومالاً فقد أوتى في الدنيا الحسنة وفي الآخرة حسنة. يعنى في الدنيا عافية وفي الآخرة عافية. وروى مسلم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد رجلاً من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: [هل كنت تدعو الله بشيء، أو تسأله إياه؟ قال: نعم، كنت أقول: الله ما كنت معافيني به فى الآخرة فعجله لى في الدنيا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سبحان

الله!! لا تطيقه ولا تستطيعه ، أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار] قال: فدعا الله به فشفاه« وأخرج الشيخان عن أنس بن مالك قال: كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: [اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار] وعن عبدالله بن السائب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بين الركنين: [ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار] أخرجه أبوداود« والانصاف أنه سبحانه لو سلّط الآلم على عرق واحد في البدن، أو على منبت شعرة واحدة عجز الإنسان عن الصبر عليه، وقد يفضى ذلك به إلى الجزع و يعوقه عن اكتساب الكمالات، ويحمله على إهمال وظائف الطاعات، ومن ذا الذي يستغنى عن إمداد الله إياه في دنياه وعقباه. «**أُولئكَ**» إشارة إلى المؤمنين الداعين بالحسنتين. ووجه هذا القول أن الله ذكر حكم الفريق بكماله فقال: وما له في الآخرة من خلاق. وقيل: يرجع إلى الفريقين. أي كل فريق له نصيب بحسب ما دعاه، ومشى الجلال في تقريره على الإحتمال الأول. وفي الغرائب: وعن عليّ رضي الله عنه قال: الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة، وفي الآخرة الحوراء، وعذاب النار: امرأة السوء. وقوله: «**أُولٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ**» وأتى نصيب «**مِمَّا كَسَبُوا**» من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة. وهوالثواب الذي هو المنافع الحسنة. فمن للابتداء. ويحتمل التعليل. أي من أجل ما كسبوا كقوله «**مِمَّا خطيئاتِهِمْ أُغْرِقوا**» والكسب ما يناله المرء بعمله. ومنه يقال للأرباح إنّه كسب فلان. أو لهم نصب مما دعُوا به يعطيهم بحسب مصالحهم في الدنيا واستحقاقهم في الآخرة. وسمى الدعاء كسباً لأنه من الأعمال، والأعمال موصوفة بالكسب «**وَمَا أَصَابَكُمْ من مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**» وفي ابن كثير: قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً فأنزل الله فيهم «**فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ربَّنَا آتِنا فى الدُّنيا ومَالَه فى الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**» وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: «**ربَّنَا آتِنَا فى الدُّنيا حَسَنةً وفى الآخِرةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذَابَ النَّارِ**» فأنزل الله «**أُولٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ ممَّا كَسَبُوا والله سَرِيعُ الْحِسَابِ**» ولهذا مدح من يسأله الدنيا والآخرة فقال: «**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فى الدُّنيا حَسَنةً وفى الآخِرةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذَابَ النَّارِ**» فجمعت هذه الدعوة كل خير في

الدنيا، وصرفت كل شر، فإن كل الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوى من عافيه ودار رحبة، وزوجة حنة، ورزق واسع وعلم نافع وعمل صالح، ومركب هيّن وثناء جميل إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة في الآخرة: فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة. وأما النجاة من النار فهو يقتضى تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام. وقال القاسم: أبوعبدالرحمن: من أعطى قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وجسداً صابراً فقد أوتى في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ووقى عذاب النار* وقوله: «**والله سَرِيعُ الْحِسَابِ**» السرعة نقيض البطء. والحساب مصدر كالمحاسبة وهو العدُّ. قال الزجاج: هو مأخوذ من قولك حسبك كذا. أي كفاك. وذلك أن فيه كفاية وليس فيه زيادة على المقدار ولا نقصان، ومعنى كون الله محاسباً لخلقه، قيل إنه يعلمهم مالهم وعليهم بأن يخلق العلم الضرورى في قلوبهم بمقادير أعمالهم وكميّاتها وكيفيَّاتها، وبمقادير ما لهم من الثواب والعقاب، ووجه هذا المجاز أن الحساب سبب لحصول علم الانسان بماله وعليه فإطلاق الحساب على هذا الاعلام اطلاق اسم السبب على المسبب. عن ابن عباس أنه قال: لا حساب على الخلق بل يقفون بين يدى الله يعطون كتبهم بأيمَانهم فيها سيئاتهم فيقال لهم: هذ سيئاتكم قد تجاوزت عنها، ثم يعطون حسناتهم، و يقال هذه حسناتكم قد ضعفتها لكم* وقيل: المحاسبة المجازاة «**وكأيِّن مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً**» ووجه المجاز أن الحساب سبب للأخذ والاعطاء. وقيل: إنه تعالى يكلم العباد في أحوال أعمالهم، وكيفية ما لها من الثواب والعقاب، فمن قال: إن كلامه ليس بحرف ولا صوت، قال: إنه تعالى يخلق في أذن المكلف سمعاً يسمع به كلامه القديم كما يخلق في عينه رؤية يرى بها ذاته القديمة، ومن قال: إنَّه صوت، قال: إنه تعالى يخلق كلاماً يسمعه كل مكلف. إما بأن يخلق ذلك الكلام في أذن كل واحد منهم، أوفي جسم يقرب من أذنه بحيث لا يبلغ قوة ذلك الصوت مبلغاً يمنع الغير من فهم ما كلف به، فهذا هو المراد من كونه محاسباً لخلقه. ومعنى كونه سريع الحساب أن قدرته تعالى متعلقة بجميع الممكنات من غير أن يفتقر في إحداث شيء إلى فكر وروية ومدّة وعدّة، ولذلك ورد في الخبر أنه يحاسب الخلق في مقدار حلب شاة.

وروى في لمحة. أو أنه سريع القبول لدعاء عباده والإجابة لهم، لأنه قادر على أن يعطى مطالب جميع الخلائق في لحظة واحدة كما ورد في الدعاء المأثور: [يامن لا يشغله سمعٌ عن سمع] أو أن وقت جزائه وحسابه سريع. يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب البعاد. كقوله تعالى: «اقْتَرَبَ للنَّاسِ حِسَابُهُمْ» كذا في الغرائب: نقلاً عن الخازن.

((القول في تأويل قوله تعالى :))

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ويُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلدُّ الْخِصَامِ* وإذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فى الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ والنَّسْلَ واللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ* وإذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمَ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ*»

سورة البقرة (الآية: ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦)

في الواحدى: قال السدى: نزلت في الأخنس بن شُريق الثقفى. وهو حليف بنى زهرة أقبل إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فأظهر الإسلام وأعجب النبي صلى الله عليه وسلم ذلك منه، وقال: إنما جئتُ أريد الإسلام. والله يعلم إنى لصادق وذلك قوله: «ويُشهِدُ اللهَ عَلَى مَا فى قَلْبِهِ» ثم خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر بزرع لقوم من المسلمين وحُمُر. فأحرق الزرع وعقر الحُمُر، فأنزل الله تعالى «وإذَا تَوَلَّى سَعَى في الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ والنَّسْلَ»* وفي الخطيب: هو الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة، واسمه أُبى، وسميّ الأخنس لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من بنى زهرة عن القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان منافقاً حلو المنظر، حلو الكلام للنبي صلى الله عليه وسلم، يحلف أنه مؤمن، ومحبٌ له، و يقول: يعلم الله أنى صادق، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنى مجلسه، وقوله تعالى: «في الْحَيَاة الدُّنيا» متعلق بالقول. أي يعجبك ما يقوله في أمور الدنيا: أسباب المعاش، أو في معنى الدنيا لأن ادعاء المحبة بالباطل يطلب به حظاً من حظوظ الدنيا، ولا يريد الآخرة كما يراد بالإيمان الحقيقى، والمحبة الصادقة للرسول صلى الله عليه وسلم، فكلامه إذاً في الدنيا لا في الآخرة. أو يعجبك قوله في الحياة الدينا حلاوة وفصاحة، ولا يعجبك في الآخرة لما يرهقه في الموقف من الدهشة واللكنَّة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام. فلا يتكلم

حتى يعجبك كلامه «ويُشهِدُ الله عَلَى ما في قَلْبِهِ» أنه موافق لكلامه «وَهُوَ ألَدُّ الْخِصَامِ» أي أشد الخصومة لك ولأتباعك لعداوته لك. وقال الحسن: ألَدُّ الخصام: أي كاذب القول* وقال قتادة: شديد الفسوق في المعصية، جدل بالباطل، يتكلم بالحكمة، و يعمل بالخطيئة* وفي الحديث [إنَّ ابغض الرجال إلى الله الألد الخصم] «وإذَا تَوَلَّى» أي انصرف عنك بعد إلانة القول وحلاوة المنطق « سَعَى» أي مشى «في الأرْضِ لِيُفْسِدَ فيها» قال ابن جرير: يقطع الرحم، و يسفك دماء المسلمين «وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ والنَّسْلَ» وذلك أن الأخنس كان بينه و بين ثقيف خصومة فبيتهم ليلاً فأحرق زرعهم وأهلك مواشيهم، وقيل: وإذا كان والياً فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل. وقيل: يظهر الظلم حتى يمنى الله تعالى بشؤم ظلمه القطر. فيهلك الحرث والنسل. وحكى الزجاج عن قوم أن الحرث: النساء. والنسل: الأولاد، قال: وهذا ليس بمنكر لأن المرأة تسمى حرثاً. أي و يدل له قوله تعالى: «فأْتُوا حَرْثَكُمْ أنَّى شئتُمْ» «والله لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ» أي لا يرضى به، لأن المحبة وهي ميل القلب محالة في حقه تعالى. فهي مستعملة في حقه تعالى في معنى الرضا «وإذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ الله» في فعلك «أخَذَتْهُ الْعِزَّةُ» أي حملته الأنفةُ والحمية على العمل «بالإثْم» الذي يؤمر بإتقانه «فَحَسْبُهُ» أي كافيه «جَهَنَّمَ» جزاءً وعذاباً، وهي عَلَمٌ لدار العقاب. وهو في الأصل مرادف للنار. وسميت بذلك لبعد قعرها. وأصلها من الجهم وهو الكراهة* وفي القرطبي: زيادة على ما تقدم في الواحدي والخطيب: فمرّ بزرع لقوم من المسلمين، و بحُمُر فأحرق الزرع، وعقر الحمر. قال المهدوي: وفيه نزلت «ولا تطع كل حلاَّف مَهِينٍ * همّازٍ مشّاءٍ بِنَمِيمٍ» و «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ» وقال ابن عطيه: ما ثبت قط أن الأخنس أسلم* وقال ابن عباس: نزلت في قوم من المنافقين تكلموا في الذين قتلوا في غزوة الرّجيع* وقد أوضح هذا الطبرى في تفسيره قال: لما أُصِيبت هذه السرية: أصحاب خبيبٍ بالرّجيع بين مكة والمدينة(١) فقال: رجالٌ من المنافقين: ياو يح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا، لا هُمْ قَعَدوا في بيوتهم، ولا هم أدُّوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قول المنافقين وما أصاب أولئك النفر من الشهادة والخير من الله «ومن

(١) راجع كتابى صحيح السيرة وفقهها ستجد الموضوع وافياً مما يسرُّ بالك و يشرح صدرك

النَّـاسِ مَـنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أي ما يظهر بلسانه من الإسلام، و يُشهد الله على ما في قلبه من النفاق، وهو ألد الخصام أي ذو جدال إذا كلمك وراجعك.. وقال أبوجعفر: حدثني محمد بن أبى معشر، قال أخبرنى أبى: أبومعشر نجيح سمعت سعيد المقبرى يذاكر محمد بن كعب، قال سعيد: إن في بعض الكتب: إن لله عباداً ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرُّ من الصبر، لبسوا للناس مسوكَ الضأن من اللّين يشترون الدنيا بالدين. قال الله تبارك وتعالى: أعلى يجترؤن وبى يغترون، وعزتى لأ بعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران* فقال محمد بن كعب: هذا كتاب الله جلّ ثناؤه. فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قول الله عز وجل: **«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا و يُشْهِدُ الله عَلَى مَا فى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ* وإذَا تَوَلَّى سَعَى في الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ والنَّسْلَ والله لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ»** فقال سعيد: قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل، ثم تكون عامة بعد. وحدّث الطبرى عن القرطبي عن نوف وكان يقرأ الكتب، قال: إنى لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل: قوم يحتالون الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرُّ من الصبر، حلفتُ بنفسى لأ بعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيهم حيران* قال القرطبي: تدبّرتها في القرآن فإذا هم المنافقون. فوجدتها: **«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا و يُشْهِدُ الله عَلَى مَا فى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ» «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله عَلَى حَرْفٍ فإنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ به»** وكل ما تقدم ذكره موجود في ابن كثير. وقوله: **«وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ»** أي جعلت جهنم لهم بدل مهاد يفترشونه كذا في السّمين. وهو جواب قسم مقدر أي والله. وفي الخازن: والمعنى أن العذاب بالنار يجعل تحته وفوقه. قال ابن مسعود: إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد اتق الله فيقول عليك بنفسك* وروى أنه قيل لعمر رضى الله عنه: اتق الله، فوضع خدّه على الأ رض تواضعاً لله تعالى.

قال المراغى: دلت الآيات السابقة على أن المقصد من كل العبادات هو تقوى الله بإصلاح القلوب. وإنارتها بذكره تعالى، لاستشعارها عظمته وفضله، وعلى أن طلب الدنيا من الوجوه الحسنة لا ينافى التقوى بل يعين عليها، خلافاً لما ذهب إليه أهل الأديان السابقة من أن تعذيب الأجساد وحرمانها من طيبات الدنيا هو أسُّ الدين وأصله، وأن من يطلب الدنيا، ويجعل لها عناية خاصة ليس له في الآخرة من خلاق.

((القول في تأويل قوله تعالى :))

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ واللهُ رؤف بالْعِبادِ»

سورة البقرة (الآية: ٢٠٧)

في الواحدى: قال سعيد بن المسيّب: أقبل صهيبٌ مهاجراً نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتبعه نفرٌ من قريش من المشركين، فنزل عن راحلته، ونثر ما في كنانته، وأخذ قوسه، ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم أنّى من أرماكم رجلاً، وأيم الله لا تصلون إليَّ حتى أرمى بما في كنانتى، ثم أضرب بسيفى ما بقى في يدى منه شيء، ثم افعلوا بى ما شئتُم، قالوا: دلنا على بيتك ومالك بمكة ونخلّى عنك، وعاهدوه إن دلَّهُمْ أن يدعوه ففعل، فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قال: أبا يحى ربح البيع ربح البيع ربح البيع؛ وأنزل الله «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ...» وقال الحسن: أتدرون فيمن نزلت هذه الآية؟ في المسلم يلقى الكافر فيقول له: قل لا إله إلاَّ الله، فإذا قُلتها عَصَمْتَ مالك ودمك. فأبى أن يقولها، فقال المسلم: والله لأشرين نفسى الله، فتقدَّم فقاتل حتى قُتل* وفي الخطيب: وقال أكثر المفسرين: نزلت في صهيب بن سنان الرُّومى. أخذه المشركون في رهط من المؤمنين، فعذبوهم، فقال لهم: إنى شيخ كبير لا يضرّ أمِنْكم كنتُ أم من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالى وتذرونى ودينى، ففعلوا، وكان شرط عليهم راحلة ونفقةً، فأقام بمكة ما شاء الله، ثم خرج إلى المدينة، فتلقاه أبوبكر وعمر رضي الله تعالى عنهما في رجال: فقال له أبوبكر: ربح بيعك أبا يحى، فقال: وما ذاك؟ فقال: أنزل الله فيك قرآناً، وقرأ عليه هذه الآية. فعلى هذا يكون يشرى بمعنى يشترى: أي يبيع و يبذل، وفي الخطيب أيضاً: وقيل نزلت في الزبير والمقداد بن الأسود. وذلك أنَّ كفار قريش بعثوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة، أن قد أسلمنا، فابعث إلينا نفراً من علماء أصحابك يعلموننا دينك، وكان ذلك مكراً منهم، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو هريرة: عشرة من جملتهم خبيب، فقتلوهم وأسروا خبيباً، قال آسره: والله ما رأيت أسيراً خيرا من خبيب، والله وجدته يوماً يأكل قطفاً من عنب في يده، وإنه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمرة، وإن كان إلا رزقاً رزقه الله خبيباً، ثم أرادوا قتله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل، وأرادوا أن يصلبوه، فقال: دعونى أصلى

ركعتين، فتركوه حتى صلاهما، ثم قال: لولا أخشى أن تحسبُوا أنَّ ما بى من جزع لزدت. ثم قال: اللهمّ أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً، ثم أنشأ يقول:

ولستُ أبالى حينَ أقتل مسلماً على أي شق كانَ فى الله مصرعى
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوٍ ممزّع

ثم صلبوه حياً، فقال: الله إنك تعلم أنه ليس أحد حولى يبلغ سلامى رسولك فأبلغه سلامى، ثم قام عقبة بن الحارث فقتله، فلمّا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الخبر قال: [أيكم ينزل خبيباً عن خشبته وله الجنة؟] فقال الزبير بن العوَّام: أنا يا رسول الله وصاحبي المقداد. فخرجا يسيران بالليل، و يكمنان بالنهار حتى وصلا إليه ليلاً، وإذا حول الخشبة أربعون رجلاً من المشركين نيام. فأنزله الزبير، وحمله على فرسه وسارا، فانتبه الكفارُ فلم يجدوه. فأخبروا قريشاً، فركب منهم سبعون، فلما لحقوهما قذف الزبير خبيباً فابتلعته الأرض. فسمى بليع الأرض. ثم رفع الزبير العمامة عن رأسه وقال أنا الزبير بن العوَّام، وأمى صفيّة بنت عبدالمطلب، وصاحبي المقداد بن الأسود، فإن شئتم ناضلتكم، وإن شئتم نازلتكم، وإن شئتم انصرفتم، فانصرفوا إلى مكة، وقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عنده، فقال يا محمد إن الملائكة لتُباهى بهذين من أصحابك، فنزلت فيهما هذه الآية* وفي القرطبي: وقيل نزلت فيمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر. وعلى ذلك تأولها عمر وعلى وابن عباس رضي الله عنهم. قال علىٌّ وابن عباس: اقتتل الرجلان، فقال المغيّر للمفسد: اتق الله، فأبى المفسد، وأخذته العزة، فشرى المغيّرُ نفسه من الله وقاتله فاقتتلا أي قتل* وقال أبوالخليل: سمع عمر بن الخطاب إنساناً يقرأ هذه الآية، فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، قام رجل يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر فقتل* وقيل: نزلت فيمن يقتحم القتال. حمل هشام بن عامر على الصف في القسطنطينية فقاتل حتى قتل. فقرأ أبوهريرة رضي الله عنه «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ**» ومثله عن أبى أيوب. وقال قتادة: هم المهاجرون والأنصار* وقيل: نزلت في على كرم الله وجهه حين تركه النبي صلى الله عليه وسلم على فراشه ليلة خرج إلى الغار* وفي الطبرى عن عكرمة قال: نزلت في صهيب بن سنان وأبى ذرّ الغفارى: جندب بن السكن، أخذ أهل أبى ذرّ أبا ذرٍّ فانفلت منهم فقدم على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رجع مهاجراً عرضوا له، وكانوا بمرّ الظهران فانفلت أيضاً حتى قدم

على النبي صلى الله عليه وسلم، وأما صهيب فأخذه أهله، فافتدى منهم بماله ثم خرج مهاجراً، فأدركه منقذ بن عمير جدعان فخرج له ما بقى من ماله وخلى سبيله.

والحق أن الوصف عام في كل من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله سواء في جهاد الأعداء أم بمعروف أو نهى عن المنكر. فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وأما تفسير الآية: فذكر المفسرون أن المراد بهذا الشراء: البيع. ومنه قوله: «**وشروه بثمنٍ**» أي باعوه. والمعنى أن المسلم يبيع نفسه بثواب الله تعالى في الدار الآخرة. وهذا البيع هو أن يبذل نفسه في طاعة الله من صلاة وصيام وحج وجهاد وأمرٍ بمعروف ونهى عن منكر. فكان ما يبذله من نفسه كالسلعة، فصار كالبائع. والله تعالى المشترى. والثمن: هو ثواب الله تعالى فى الآخرة «**ابتغاء مرضاة الله**» أي طلب رضاه وفيه دليل على أن كل مشقة يتحملها الإنسان يجب أن تكون على وفق الشرع، ومطلوباً بها جانب الحق، وإلا كان عمله ضلالاً وكده وبالاً «**والله رؤف بالعباد**» فن رأفته أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، ومن رأفته أن المصرّعلى الكفر مائة سنة إذا تاب أسقط عقابه وأعطاه ثوابه «**فأولئك يُبدّلُ الله سيآتهم حسناتٍ وكان الله غفوراً رحيماً**» ومن رأفته أن النفس له والمال له ثم إنه يشترى ملكه بملكه فضلاً منه وامتناناً ورحمة وإحساناً.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فى السِّلْمِ كَافَّةً ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» سورة البقرة (الآية: ٢٠٨)

في الواحدى: قال عطاء عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبدالله بن سلام وأصحابه، وذلك أنّهم حينما آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم فآمَنُوا بشرائعه وشرائع موسى، فعظَّمُوا السبْتَ، وكرهوا لَحْمَانِ: الإبل وألبانها بعد ما أسلموا فأنكر ذلك عليهم المسلمون، فقالوا: إنّا نقوى على هذا وهذا، وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إنَّ التوراة كتاب الله، فدعنا فلنعمل بها فأنزل الله تعالى هذه الآية* فالسّلم هنا معناه الإسلام قاله ابن عباس. وعليه قول الشاعر الكندى:

دعوت عشيرتى للسّلْم لمّا رأيتهم تولوا مدبرينا

أي دعاهم إلى الإسلام لمّا ارتدت كنده بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مع الأشعث

بن قيس الكِندى، ولأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالدخول في المسالمة التي هى الصلح. وإنما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أن يجنح للسلم إذا جنحوا له، وأمّا أن يبتدىء بها فلا، و يدخل في الذين آمنوا المصدقون بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به، والمصدّقون بمن قبله من الأنبياء والرسل، وما جاؤا به، وقد دعا الله تعالى كلا الفريقين. أي أهل الكتاب والمؤمنين إلى العمل بشرائع الإسلام وحدوده والمحافظة على فرائضه التي فرضها، ونهاهم عن تضييع شيء من ذلك، فالآية عامة لكل من شمله اسم الإيمان، وهو قول مجاهد رضي الله عنه. وكافّةً هنا بمعنى جميعاً، وفي صحيح مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [والذي نفسُ محمدٍ بيده، لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمة: يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار] وفي القرطبي: وقال مقاتل: استأذن عبدالله بن سلام وأصحابه أن يقرؤا التوراة في الصلاة، وأن يعملوا ببعض ما في التوراة فنزلت: «**ولاَ تتبعُوا خُطُواتِ الشّيْطان**» زاد مسلم في صحيحه: فإن اتباع السنة واجب. وقيل لا تسلكوا الطريق الذى يدعوكم إليه الشيطان: «**إنَّهُ لكُمْ عدوٌّ مبينٌ**» ظاهر العداوة بأمره إياكم بالكفر واتباع غير ما شرعه الله لكم. ولأن التمسك بالتوراة بعد نسخها من اتباع آثار الشيطان. وفي الخازن: وروى جابر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم حين أتاه عمر فقال: إنا نسمع أحاديث من يهود وتعجبنا، فنرى أن نكتب بعضها، فقال صلى الله عليه وسلم: [أتتهوَّكون كما تهوَّكت اليهودُ والنّصارى، لقد جئتكُم بها بيضاء نقية، ولو أنّ موسى حيٌّ ما وسعه إلا اتّباعى] وقوله: [أتتهوَّكونَ] أى تتحيرون أنتم فى دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى وقوله: [لقْد جئتكُمْ بِهَا] يعنى بالملّة الحنيفية بيضاء نقية. أى لا تحتاج إلى شيىء. قال حذيفة بن اليمان: في هذه الآية للإسلام ثمانية أسهم: فعل الصّلاة والزكاة والصوم والحجّ والعمرة والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. قال: وقد خاب من لا سهم له* وفى الغرائب وقيل الخطاب للمنافقين. والتقدير يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم ادخلوا بكليتكم فى الإسلام. ولا تتبعوا آثار تزيين الشيطان وتسو يله بالاقامة على النفاق* وفي الآية وعيد وتهديد لمن في قلبه شكٌّ ونفاق، أو عنده شبهةٌ في الدين.

((القول في سبب نزول قوله تعالى))

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ولمَّا يأْتِكُمْ مَثَلُ الّذِينَ خَلَوْا مِنْ قبْلِكُمْ مَسَّتْهُم الْبأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ والّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ إِلاَ إِنّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ» سورة البقرة (الآية: ٢١٤)

في الواحدى: قال قتادة والسّدى: نزلت هذه الآية فى غزوة الخندق لمّا أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدّة والحرّ والبرد، وسوء العيش، وأنواع الأذى. وكان كما قال تعالى: «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» وقال عطاء: لمّا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة اشتدّ الضَرُّ عليهم بأنهم خرجوا بلا مال. وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدى المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسرَّ قوم من الأغنياء النفاق، فأنزل الله تطيبا لقلوبهم «أم حَسبْتُم» الآية* وفى الخطيب: وقيل نزلت فى حرب أحدٍ* ونظيره فى القرطبى* وفى الخازن: نزلت فى غزوة الأحزاب، وهى غزوة الخندق، وذلك أنّ المسلمين أصابهم ما أصابهم من الجهد والشدة والخوف والبرد، وضيق العيش الذى كانو فيه يومئذ* وفيه: وقيل نزلت فى غزوة أحد* ثم أورد ما ذكره الواحدى وفى الغرائب: وقيل نزلت فى حرب أحد لما قال عبدالله ابن أبى لأصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى متى تقتلون أنفسكم وتنصرون الباطل، لو كان محمد نبياً ما سلط الله عليهم الأسر والقتل* والمعنى أم حسبتم أيها المؤمنون أنكم تدخلون الجنة بمجرد الايمان بى، والتصديق لرسولى دون أن تعبدوا الله بما تعبدكم به وابتلاكم بالصبر عليه، وأن ينالكم من أذى الكفار، ومن احتمال الفقر والفاقة، ومكابدة الضر والبؤس فى المعيشة ومقاساة الأهوال فى جهاد العدو كما نال ذلك من قبلكم من المؤمنين.: «مَثَلُ الّذِينَ خَلَوْا» حالهم التى هى مَثَلٌ فى الشدّة. و: «مَسَّتْهُمُ» بيان للمثل، وهو استئناف كأن قائلاً قال: كيف كان ذلك المثل؟ فقيل مَسَّتْهُمُ: «الْبأْسَاءُ» وهى عبارة عن تضييق جهات الخير والمنفعة عليه.: «والضَّرَاءُ» وهى إشارة إلى انفتاح أبْواب الشر والآفة إليه: «وَزُلْزِلُوا» حركوا وأزعجوا بأنواع البلاء والرزايا إزعاجاً شديداً، شبيهاً بالزلزلة، وهى من زلّ الشيىء عن مكانه، والتضعيف فى اللفظ للتضعيف فى المعنى. وقيل: معناهُ خُوّفوا. وليس ببعيد لأن الخائف لا يستقرُّ بل

يضطرب لِقَلَقِهِ، ولهذا لا يقال ذلك إلا فى الخوف المقيم المقعد. ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك شيأ هو الغاية فى الدلالة على كمال الضرّ والبؤس والمحنة فقال: «**حتّى يقولَ الرّسُولُ والّذينَ آمَنُوا مَعَهُ متىٰ نَصْرُ اللهِ**» لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك غاية فى الشدّة لا مطمح وراءها.: «**ألآإنّ نَصْرَ اللهِ قَريبٌ**» أى فقيل لهم ذلك إجابة إلى طلبهم، فكونوا أنتم معاشر المؤمنين كذلك فى تحمل الأذى والمتاعب فى طلب الحق، فإن نصر الله قريب لأنه آتٍ، وكل ما هوآتٍ قريب.
وقال النيسابورى: والحاصل أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينالهم من المشركين والمنافقين أذىً كثير، ولما أذن لهم فى القتال نالهم من الجراح وذهاب الأموال والأنفس ما لا يخفى، فعزاهم تعالى فى ذلك، و بين أن حال من قبلهم فى طلب الدنيا كان ذلك، والمصيبة إذا عمّت هانت، وذكر الله تعالى من قصّة إبراهيم عليه السلام، وإلقائه فى النار، ومن أمر أيوب عليه السلام، وما ابتلاه به، ومن أمر سائر الأنبياء فى مصابرتهم على أنواع المكاره ما صار ذلك سلوة للمؤمنين. روى خباب بن الأ رتّ قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسّد بردة له فى ظلّ الكعبة، فقُلْنَا: ألا تستنصِرُ لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: [قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأ رض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليُتمّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكاب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون]
وقصارى القول: إن للإيمان حقوقاً و واجبات تؤدى إلى سعادة الدّارين، من أهملها سُلِبَ النعمة التى أنعم بها على السابقين، فعلى المسلم أن يجعل همَّهُ تطبيق آى كتاب الله على أعماله، وأن يُعرض عن الاحتفال بعيوب الناس، وأن يتعاون مع المؤمنين على البر والتقوى، ويهجر من رغب عنها، اكتفاءً بزخرف الدنيا وزينتها، فليتأمل المسلمون وليعتبروا بما خوطب به أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم، وهم موضع التَّجلّة والاحترام، وكيف عوتبوا هذا العتاب الشديد على ظنهم أنهم يدخلون الجنة، وهم لم يقاسوا من البأساء والضرّاء واحتمال الشدائد فى سبيل نصرة الدين، مثل ما قاسى الذين سبقوهم بالإيمان حتى استحقوا الجنّة، فكيف لا يعاتب المسلم نفسه ــ وهو يعلم أنّه دون الصحابة إيماناً ودعوةً إلى الحق، وصبراً على المكاره فى سبيل الله.

((القول في سبب نزول قوله تعالى))

«يسألونكَ ماذا يُنْفِقون قُلْ ما أنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ واليتامى والمَساكين وابْنِ السَّبيلِ وما تفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فإنَّ الله بِهِ عَليمٌ» سورة البقرة (الآية: ٢١٥)

فى الواحدى: قال ابن عباس فى رواية أبى صالح: نزلت فى عمرو بن الجموح الأنصارى، وكان شيخاً كبيراً ذا مالٍ كثير، فقال يا رسول الله: بماذا يتصدّقُ؟ وعلى من ينفق؟ فنزلت هذه الآية* وفى رواية عطاء: نزلت هذه الآية فى رجل أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال: «أنفقها على خادمك» فقال: إن لى أربعة فقال: «أنفقها على والديك» فقال: إن لى خمسة فقال: «أنفقها على قرابتك» فقال: إن لى ستةً، فقال: «أنفقها فى سبيل الله وهو أخسُّها» أى أقلُّها ثواباً، والظاهر أن الآية محمولة على نفقة التطوع لأنّ الزكاة لا تُعطى للمذكورين* فى القرطبى: قال السّدى: نزلت هذه الآية قبل فرض الزكاة، ثم نسختها الزكاة المفروضة، وهى مبيّنة لمصارف صدقة التطوّع، فواجب عل الرجل الغنىّ أن ينفق على أبو يه المحتاجين ما يُصلحهما فى قدر حالهما من حاله من طعام وكسوة وغير ذلك، قال مالك: ليس عليه أن يزوّج أباهُ لأنه رآهُ يستغنى عن التزوج غالباً، ولو احتاج حاجة ماسة لوجب أن يزوجه، لولا ذلك لم يوجب عليه أن ينفق عليهما، فأما ما يتعلق بالعبادات من الأموال فليس عليه أن يُعطيه ما يحجُّ به أو يغزو، وعليه أن يخرج عنه صدقة الفطر لأنها مستحقة بالنفقة والإسلام* وفى الطبرى: قال: ثنى حجّاج، قال: قال ابن جريج: سأل المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وسلم أين يضعون أموالهم؟ فنزلت: «يَسْأَلُونَكَ ماذا ينفقُون..» الآية قال: فذلك النفقة فى التطوع، والزكاة سوى ذلك كله* وما ذكره الواحدى ذكره الخازن. وفى الخازن وأبى السعود قوله: «فَلِلْوالِدَيْنِ» قد علمتَ أن الآية فى صدقة التطوع فلا يشكل ذكر الوالدين، وقدّمهما لوجوب حقّهما على الولد لأنهما السّببُ فى وجوده، وقدم الأقربين لأنّ الإنسان لا يقدر أن يقوم بمصالح جميع الفقراء، فتقديم القرابة أولى من غيرهم، ولأنهم أبعاض الوالدين، وقدّم اليتامى لأنهم لا يقدرون على الكسب ولا لهم منفق، فانظر هذا الترتيب الحسن في كيفية الانفاق، فالأليق أن الإنسان ينفق على الوجو المذكورة فى

الآية، فيقدم الأولى على طبقها، ولم يذكر فيها السائلين والرقاب كما فى الآية الأخرى اكتفاء بها، أو بعموم قوله: «وما تنفقوا مِنْ خيْرٍ» فإنه شامل لكل خير وقع فى أىّ مصرف* «فإن الله بِهِ عَليمٌ» فيجازيكم أحسن الجزاء. وفى الغرائب عن السّدّىّ أن الآية منسوخة بفرض الزكاة* وقال المحققون: و يروى عن الحسن أنها ثابتة، فقد يكون الانفاق على الفروع والأصول واجباً. ويحتمل أن يكون المراد من أحبَّ التقرب الى الله تعالى فى باب النفقة فليراع هذا الترتيب. فيقدم الوالدين لأنهما كالسبب لوجوده، وقد ربّياهُ صغيراً، ثم الأقربين لأن الإنسان لا يمكنه أن يقوم بمصالح جميع الفقراء، والترجيح لا بد له من مُرجّحٍ، والقرابة تصلح للترجيح، لأنه أعرف بحاله والاطلاع على غنى الغنىّ مما يحمل المرء على الانفاق، وأيضاً لو لم يعطه قريبه احتاج إلى الرجوع إلى غيره، وذلك عارٌ وشنارٌ، وأيضاً قريب المرء كجزء منه، والانفاق على النفس أولى من الانفاق على الغير، ثم اليتامى لعدم قدرتهم على الاكتساب لصغرهم، ثم المساكين الذين هم غير اليتامى، وأبناء السبيل لأنهم بسبب الاشتراك فى دار الإقامة من أنفسهم، ثم أبناء السبيل المنقطعون عن بلدهم ومالهم ما يتبلّغُون به إلى أوطانهم. أى اصرفوها فى هذه الوجوه مرتباً. كما جاء الحديث: [أُمّكَ وأبَاكَ وأختك وأخاك، ثم أدناك فأدناك] وتلا ميمون بن مهران هذه الآية ثم قال: هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلاً، ولا مزماراً، ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان* كذا ذكره ابن كثير فى التفسير.

((القول فى سبب نزول قوله تعالى :))

يسْئَلُونَكَ عَنِ الشّهْرِ الْحرَام قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كبيرٌ وصدٌ عَنْ سبيل الله وكُفْرٌ بِهِ والْمَسْجِدِ الْحَرام وإخْرَاجُ أهْلِهِ مِنْهُ أكْبَرُ عِنْدَ اللهِ والْفِتْنَةُ أكبرُ مِنَ الْقتْلِ ولاَ يزالوُنَ يُقَاتِلُونكُمْ حتى يَرُدّوكُمْ عَنْ دينكُم إنِ اسْتطَاعُوا ومَنْ يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَنْ دينِهِ فَيمُتْ وَهُوَ كافِرٌ فأولئكَ حَبطت أعْمَالُهُمْ فى الدُّنيا والآخرة وأُولئكَ أصْحابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خالِدُونَ»

سورة البقرة (الآية: ٢١٧)

فى الواحدى: أخبر عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية من المسلمين، وأمر عليهم عبدالله بن جَحْشٍ الأسدىّ، فانطلقوا حتى هبطوا نخلة ووجدوا بها

عمرو بن الحضرمىّ فى عير تجارة لقريش فى يوم بقى فى الشهر الحرام. فاختصم المسلمون، فقال قائل منهم: لا نعلم هذا اليوم إلا من الشهر الحرام، ولا نرى أن تستحلوا لطمع أشفيْتُم عليه، فغلب على الأمر الذى يريدون: عرض الحياة الدنيا، فشدُّوا على ابن الحضرمى فقتلوه، وغنموا عيره، فبلغ ذلك كفار قريش. وكان ابن الحضرمى أوّل قتيل قُتل بين المسلمين و بين المشركين، فركب وفد كفار قريش حتى قدموا على النبىّ صلى الله عليه وسلم، فقالوا: اتحُل القتال فى الشّهرِ الحرام؟ فأنزل الله تعالى «**يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهرِ الْحَرامِ قتالٍ فيه..**» واستاقوا العير، فوافق على ذلك النبيى صلى الله عليه وسلم، وقال: [لم آمركم بالقتالِ فى الشّهْر الحرام] فقالت قريشٌ: استحلَّ محمد الشهر الحرام فأنزل الله تعالى: «**يسْئلُونكَ عن الشَّهرِ الحرام**» إلى قوله: «**والفتنةُ أكْبَرُ منَ الْقَتْلِ**» أى قد كانوا يقتلونكم وأنتم فى حرم الله بعد إيمانكم، وهذا أكبر عند الله من أن تقتلوهم فى الشهر الحرام مع كفرهم بالله. قال الزهرىّ: لما نزل هذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير، وفادى الأسيرين. ولما فرَّج الله تعالى عن أهل تلك السرية ما كانوا فيه من غمّ طمعُوا فيا عند الله من ثواب، فقالوا: يانبىّ الله أنطمع أن تكون غزوة ولا نعطى فيها أجر المجاهدين فى سبيل الله؟ فأنزل الله تعالى فيهم: «**إنَّ الّذِينَ آمَنُوا والّذِينَ هَاجَرُوا وجَاهَدُوا..**» الآية ثم عزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من العير الخمس. فكان أول خمس فى الإسلام. وقسّم الباق بين أصحاب السَّريّة، فكان أوّل غنيمة فى الإسلام، وفادى الرسول بالأسيرين* كذا ذكر الواحدى. وفى الغرائب قال: أكثر المفسّرين على أن هؤلاء السائلين هم المسلمون حيث اختلج فى صدورهم أن يكون الأمر بالقتال مقيَّداً بغير الشّهر الحرام، والمسجد الحرام. فسألوا النبىَّ صلى الله عليه وسلم بعث عبدالله بن جحش، وهو ابن عمّه النبىّ صلى الله عليه وسلم فى جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر شهراً من مقدمة المدينة، و بعث معه ثمانية وهو من المهاجرين: سعد بن أبى وقّاص الزهرى، وعكاشة بن محصن الأسدىّ، وعتبة بن غزوان السلمىّ، وأبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسهيل بن بيضاء، وعامر بن ربيعة، وواقد بن عبدالله، وخالد بن بكير. وكتب لأميرهم عبدالله بن جحش كتاباً، وقال: [سِرْ على اسْمِ اللهِ، ولا تَنْظَرْ فى الْكِتَاب حتى تسير يومين، فإذا نزلت منزلاً فافتح الكتاب، واقرأه على أصحابك، ثم امض لما أمرتك، ولا تستكرهن أحداً من أصحابك على السير معك] فسار عبدالله

يومين، ثم نـزل وفـتـح الكتاب فإذا فيه [بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فسر على بركة الله بمن تبعك من أصحابك حتى تنزل على بطن نخلة، فترصّد بها عير قريش لعلك أن تأتينا منـه بخبر] فلما نظر عبدالله في الكتاب قال: سمع وطاعة، ثم قال لأصحابه ذلك: وقال: إنـه قـد نهـانى أن أسـتكره أحداً منكم، حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع، قد أضلّ سعد بن أبي وقّاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كان يعتقبانه، فاستأذنا أن يتخلّفا فى طلب بعيرهما، فـأذن لهما فـتـخلفا فى طلبه، ومضى عبدالله ببقية أصحابه حتى نزلوا بطن نخلة ــ بين مكّة والـطـائـف ــ فـبـينما هم كذلك مرّت بهم عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة الـطـائـف. فيهـم عـمـرو بن الحضرمى، والحكم بن كيسان، وعثمان بن عبدالله المغيرة، ونـوفـل بـن عبدالله المخزوميان، فلما رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هابوهم، فـقـال عبدالله بن جحش: إن القوم قد ذعروا منكم، فاحلقوا رأس رجل منكم فليتعرض لهـم. فـإذا رأوه محـلـوقاً أمِـنُوا. وقالوا: قوم عُمَّارٌ، فحلقوا رأس عكاشة، ثم أشرف عليهم. فـقـالـوا قـومٌ عُـمّـارٌ لا بـأس عليكم فأمنوهم، وكان ذلك فى آخر يوم من جمادى الآخرة، وكـانوا يرون أنه من جمادى، وهى رجب، فتشاور القوم فيهم، وقالوا: لئن تركتموهم هذه الليـلـة لـيـدخـلـن الحـرم فليمتنعن منكم، فأجمعوا أمرهم فى مواقعة القوم، فرمى واقد بن عـبـدالله الـسـهـمـىّ عـمـرو بـن الحـضـرمىّ بسهم فقتله، فكان أوّل قتيل من المشركين، واسـتـأسـروا الحـكـم وعـثـمان، فكانا أول أسيرين فى الإسلام، وأفلت نوفل فأعجزهم، واسـتـاق المؤمنون العير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فـقـالـت قـريـش: قـد اسـتحل محمد الشهر الحرام، شهراً يأمن فيه الخائف، و يتفرق فيه الناس لمعايشهم، سفك فيه الدماء، وأخذ فيه الحرائب، وعير ذلك أهل مكة من كان فيها مـن المسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن جحش وأصحابه: [مـا أمرتكُمْ بـالـقـتـال فى الشّهْرِ الحرام، ووقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، **فَعَظُمَ** ذلـك على أصـحـاب السّرّية، وظنوا أن قد هلكوا، وسقطوا فى أيديهم، وقالوا يارسول الله: إنـا قـتلنا ابن الحضرمىّ، ثم أمسينا فنظرنا إلى هلال رجب، فلا ندرى أفى رجب أصبناه، أم فى جمـادى، وأكْـثَرَ النّاسُ فى ذلك] فنزلت: «**يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشّهْرِ الْحرَام..**» فأخذ رسـول الله صلى الله عـلـيـه وسـلـم العير فعزل منها الخمس، فكان أول خمس، وقسم الباقى بين أصـحـابـه أصحاب السرّية، فكان أوّل غنيمة فى الإسلام، و بعث أهل مكة فى فداء

أسيرهم، فقال: بل نقفها حتى يقدم سعد وعتبة، وإن لم يقدما قتلناهما بهما، فلما قدما فاداهما، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقتل يوم بئر معونة شهيداً، وأما عثمان بن عبدالله فرجع إلى مكة فمات بها كافراً. وأما نوفل فضرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخندق على المسلمين، فوقع فى الخندق مع فرسه فتحطما جميعاً وقتله الله، وطلب المشركون جيفته بالثمن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**خُذوه فإنه خبيث الجيفة خبيث الدّية**» وفى الخطيب نحواً من هذا. وقال: وأكثر الأقاو يل على أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: «**قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتمُوهُمْ**» وما أوردته لك من الغرائب بحروفه فى ابن كثير. وفيه: وأنزل الله يُعَيِّر أهل مكة: «**يسئَلُونَكَ عَنِ الشّهْرِ الْحرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فيهِ كبيرٌ**» لايحلُّ، وما صنعتم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل فى الشهر الحرام حين كفرتم بالله وصددتم عن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وإخراج أهل المسجد الحرام منه حين أخرجوا محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكبر من القتل عند الله* وفى الخازن: واختلف العلما فى حكم هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها محكمة، وأنه لا يجوز الغزو فى الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه، فيقاتلوا على سبيل الدفع، روى عن عطاء أنه كان يحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا فى الشهر الحرام، ولا أن يقاتلوا فيه، وما نسخت* والقول الثانى الذى عليه جمهور العلماء وهو الصحيح أنها منسوخة بقوله: «**فاقتُلُوا الْمُشْرِكينَ حَيْثُ وجدتُمُوهُمْ**» وبقوله: «**وقَاتِلُوا الْمُشْرِكينَ كَافّةً**» يعنى فى الأشهر الحرم وغيرها* وفى الغرائب قال أبوعبيد: والناس بالثغور اليوم جميعاً على هذا القول يرون الغزو مباحاً فى الأشهر الحرم كلها، ولم أر أحداً من علماء الشام والعراق ينكره عليهم. وكذلك أحسب قول أهل الحجاز، والحجة فى إباحاته قوله تعالى: «**فاقْتُلُوا الْمُشْرِكينَ حَيْثُ وجدْتُموهُمْ**» ويمكن أن يقال إن قوله: «**قِتَالٍ فِيهِ كبيرٌ**» نكرة فى حيّز الاثبات فيتناول فرداً واحداً لا كل الأفراد. فلا يلزم منه تحريم القتال فى الشهر الحرام مطلقاً، فلا حاجة فيه إلى تقدير النسخ. والله أعلم* وقوله تعالى: «**قتالٍ فيهِ**» بدل اشتمال من الشّهر: «**قُلْ**» لهم: «**قِتَالٌ فِيهِ كَبيرٌ**» أى عظيم وزراً إن كان عمداً، فإن كان خطأ كفعل السرّية فلا إثم فيه: «**وَصَدٌّ**» منع النّاس: «**عَنْ سَبيلِ اللهِ**» فيه: «**وَكُفْرٌ بِهِ**» أى بالله: «**وَ**» صَدٌّ عن: «**الـمَسْجِدِ الْحَرَامِ**» أى مكة: «**وإخْراجُ أهْلِهِ مِنْهُ**» وهم النبىّ صلى الله عليه

وسلم وأصحابه: «أَكْبَرُ» أى أعظم وزراً: «عِنْدَ اللهِ» مما فعلته السّرّية من قتل ابن الحضرميّ فى الشهر الحرام خطأ، وبناء على الظن: «والْفِتْنَةُ» أى الشرك منكم: «أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» لكم فيه. فلما نزلت هذه الآية كتب عبدالله بن أنيس إلى مؤمنى مكة إذا عيركم المشركون بالقتال فى الشهر الحرام فعيروهم أنتم بالكفر، وإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكة، ومنعهم المسلمين عن البيت: «ولاَ يَزالُونَ» أى الكفار: «يقاتِلُونكُمْ» أيها المؤمنيون: «حَتىَّ يَرُّدوكُمْ عَنْ دينِكَمْ» إلى الكفر. فى ذلك إخبار عن عداوة الكفار لهم، وانهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم: «إنِ اسْتَطاعُوا» فيه استبعاد لاستطاعتهم كقول الرجل لعدوه إن ظفرت فى فلا تبق على، وهو واثق بأنه لا يظفر به: «وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دينهِ فيمتْ وهو كافِرٌ فأولئكَ حَبَطَتْ» بطلبت: «أَعْمَالُهَمْ» الصالحة: «فى الدُنْياَ والآخِرةِ» فلا اعتداد بها ولا ثواب عليه. قال الخطيب: والتقييد بالموت يفيد أنه لو رجع إلى الإسلام لم يبطل عمله كما هو مذهب الشافعى رضى الله عنه خلافاً لأبى حنيفة رضى الله عنه حيث قال: إن الردّة تحبط الأعمال مطلقاً لقوله تعالى: «وَمَنْ يكْفُرْ بالإيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» : «وأولئكَ أصْحَابُ النّارِ هُمْ فيهَا خالِدُونَ» كسائر الكفرة.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))
«يسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ والمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وإثْمُهُمَا أكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا» سورة البقرة (الآية: ٢١٩)

في الواحدى: نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار رضي الله تعالى عنهم، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أفتنا في الخمر والمَيْسِر فإنهما مذهبة للعقل مسلبة للمال، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي الخطيب: روى أنَّه لما نزل بمكة قوله تعالى: «وَمِنْ ثَمَراتِ النّخِيلِ والأعْنَابِ تَتّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً ورِزْقاً حَسَناً..» كان المسلمون يشربونها، وهي لهم حلالٌ يومئذٍ، ثم إن عمر ومعاذاً في نفر من الصحابة، قالوا: أفتنا في الخمر يا رسول الله فإنها مذهبة للعقل. فنزلت هذه الآية* فشربها قومٌ، وتركها آخرون، ثم إن عبدالرحمن بن عوف صنع طعاماً فدعا ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا، فحضرت صلاةٌ، فقدّمُوا بعضهم ليُصلى

بهم فقرأ: (قُلْ يا أيُّها الْكَافِرونَ أعبد ما تعبدون هكذا إلى آخر السورة بحذف لا، فأنزل الله تعالى: «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تقْرَبُوا الصّلاةَ وأنْتُمْ سُكارىٰ حتّى تعلموا ما تقُولون**» فحرّم السكر في أوقات الصلاة، فتركها قوم، وقالوا: لا خير في شيء يحول بيْننا و بين الصلاة، وتركها قوم في أوقات الصلاة، وشربوها في غير وقتها، حتّى كان الرجل يشرب بعد صلاة العشاء يصبح وقد زال عنه السكر، و يشرب بعد صلاة الصبح، فيصحوا إذا جاء وقت الظهر، ثم إن عتبان بن مالك صنع طعاماً ودعا رجالاً من المسلمين فيهم سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه، وقد كان شوى لهم رأس بعير فأكلوا منه، وشربوا الخمر حتّى اشتدت فيهم، ثم افتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدُوا الأشعار، فأنشد سعدٌ قصيدة فيها هجاء للأنصار وفخر لقومه، فأخذ رجُلٌ من الأنصار لحى البعير، فضرب به رأس سعد فشجَّهُ موضحةً، فانطلق سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا لَهُ الأنصارى، فقال عمر: اللهمَّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً فنزل «**إنَّمَا الْخَمْرُ والْمَيْسِرِ**» إلى قوله: «**فَهَلْ أنتُمْ مُنْتَهُون**» فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا ياربُّ* قال القفال: الحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب، إن القوم كانُوا ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم به كثير، فعلم الله لو منعهم دفعة واحدة لشقَّ عليهم، فاستعمل في التّحريم هذا التّدرج والرّفق، وسمى عصير العنب والتمر إذا إشتد وغلا خمراً، لأنَّه يخمر العقل، كما سمى سُكْراً لأنه يسكره أي يحجزهُ، وهو حرام مطلقاً، وكذا كل ما أسكر عند أكثر العلماء، وقال أبوحنيفة: نقيع الزبيب والتّمر إذا طبخ حتّى ذهب ثلثاهُ، ثم اشتد حلَّ شرابه ما دون السكر* وسمى القمار ميسراً لأنه أخذ مال الغير بيسر، والمعنى «**يسئَلُونكَ**» عن تعاطيها لقوله تعالى: «**قُلْ**» لهم «**فِيهِمَا**» أي تعاطيها «**إثْمٌ كَبِيرٌ**» أي عظيم لما يحصل بسببها من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش «**وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**» باللذات والفرح، ومصادقة الفتيان، وتشجيع الجبان، وتوفر المروءة، وتقوية الطبيعة في الخمر، وإصابة المال بلا كدّ في الميسر «**وإثْمُهُمَا**» أي ما ينشأ عنها من المفاسد «**أكْبَرُ**» أي أعظم «**مِنْ نَفْعِهِمَا**» المتوقع منها، ولهذا قيل إنَّ هذا هو المحرّم للخمر، فإن المفسدة إذا ترجحت على المصلحة اقتضت تحريم الفعل. وما نقل عن أبي حنيفة والثوريّ وابن أبي ليلى، وابن شبرمة وجماعة من فقهاء الكوفة: ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فهو حلال. وإذا سكر منه أحدٌ دون أن يتعمد الوصول إلى حدّ السكر فلا حدَّ عليه* قال

القرطبي: وهذا ضعيف يردُّه النَّظر والخبر على ما يأتي بيانه في المائدة والنّحل، إن شاء الله تعالى. «**والْمَيْسِرِ**» الميْسرُ: قمار العرب بالأزلام قال ابن عبّاس: كان الرجل في الجاهلية يخاطر الرجل على أهله وماله، فأيُّهما قَمَرَ صاحبه ذهب بماله وأهله. فنزلت الآية. وقال مجاهد ومحمد بن سيرين والحسن وابن المسيّب وعطاء وقتادة ومعاو ية بن صالح وطاوس وعليّ بن أبي طالب وابن عباس أيضاً: (كل شيء فيه قمار من نرد وشِطْرَنج فهو الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب: أي فصوص النرد إلا ما أبيح من الرّهان في الخيل والقرعة في افراز الحقوق)* وقال مالك: الميسر ميسران: ميسر اللهو، وميسر القمار، فمن ميسر اللهو النّرد والشطرنج والملاهى كلها. وميْسر القمار: يتخاطر الناس عليه* قال على بن أبي طالب رضي الله عنه: الشطرنج ميسر العجم. وروى مالك في الموطأ عن داود بن حصين أنّه سمع سعيد بن المسيّب يقول: كان من ميْسر أهل الجاهلية، بيع اللحم بالشّاة والشّاتين. وهذا محمول عند مالك وجمهور أصحابه في الجنس الواحد. حيوانه بلحمه، وهو عنده من باب المزابنة أي كبيع الرّطب في رؤس النخل بالتّمر، أو كبيع الز بيب بالعنب، والزيتون بالزيت، والشيرج بالسُّمْسُم، ونحو ذلك. والطيْر عنده كله جنس واحد، وكذلك الحيتان من سمك وغيره. وروى النّسائى عن عثمان رضي الله عنه قال: (اجتنبوا الخمر فإنّها أمُّ الخبائث). إنه كان رَجُلٌ ممن كان قبلكم تعبّد، فعلقته امرأة غو ية، فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنَّا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأةٍ وضِيئةٍ عندها غلام و باطية خمر. فقالت: إنّي ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع عليَّ. أو تشرب من هذه الخمر كأساً، أو تقتل هذا الغلام، قال: فأسقيني من هذه الخمر كأساً، فسقتْهُ كأساً، قال: زيدوني، فلم يَرِم — أي يبرح — حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا يَجْتَمِع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه* وروى أن الأعمش لما توّجه إلى المدينة ليُسلم، فلقيه بعض المشركين في الطريق فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم بأنه يريد محمداً صلى الله عليه وسلم، فقالوا: لا تصل إليه. فإنه يأمرك بالصلاة، فقال: إنَّ خدمة الربّ واجبة، فقالوا: إنّه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء، فقال: اصطناع المعروف واجب، فقيل له: إنَّه ينهى عن الزنى، فقال: هو فحش وقبيح في العقل، وقد صرتُ شيخاً فلا أحتاج إليه، فقيل له: إنَّه ينهى عن شرب الخمر، فقال: أمَّا

هذا فإني لا أصبر عليه، فرجع، وقال: أشرب الخمر سنة، ثم أرجع إليه، فلم يصل إلى منزله حتى سقط عن البعير فانكسرت عنقه فمات* وفي الطبرى: عن أبي توبة المصرى قال: سمعتُ عبدالله بن عمر يقول: أنزل الله عز وجل في الخمر ثلاثاً، فكان أول ما أنزل «**يسئلونك عن الخَمْرِ والْمَيْسِرِ قُلْ فيها إثْمٌ كبيرٌ..**» الآية، فقالوا يا رسول الله: ننتفع بها ونشربها كما قال الله عز وجل في كتابه، ثم نزلت هذه الآية «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تقْرَبُوا الصَّلاة وأنْتُم سكارى..**» الآية، قالوا يا رسول الله: لا نشربها عند قرب الصلاة، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [حُرِّمت الخَمْرُ]* وعن الشعبىّ قال: نزلت في الخمر أربع آيات «**يَسْئلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ والْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إثْمٌ كبيرٌ وَمَنَافِعُ للنَّاسِ..**» فتركوها. ثم نزلت «**تَتخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً**» فشربُوها ثم نزلت الآيتان في المائدة «**إنّمَا الْخَمْرُ والْمَيْسِرُ والأنْصَابُ والأزْلامُ...**» إلى قوله: «**فَهَلْ أنْتُمْ منتهُونَ**» وفي الخازن: و يروى أن حمزة بن عبدالمطلب شرب الخمر يوماً، وخرج فلقي رجلاً من الأنصار و بيده ناضح له، والأنصارىّ يتمثّلُ ببيتين لكعب بن مالك يمدح قومه وهما:

جمعنا مع الإيواء نصراً وهجرةً … فلم يُرَ حيٌّ مثلنا في المعاشر
فأحياؤنا مِنْ خَيرِ أحْياءِ من مضى … وأمواتُنا مَن خير أهل المقابر

فقال حمزة: أولئكَ المهاجرون، وقال الأنصارىّ: بل نحن الأنصار، فتنازعا، فجرّد حمزة سيْفَه، وعدا على الأنصارىّ، فهرب الأنصارىّ، وترك ناضحه، فقطعه حمزة، فجاء الأنصارىّ مستعديا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بفعل حمزة، فغرم له رسول الله صلى الله عليه وسلم ناضحاً، فقال عمر: اللهمَّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فأنزل الله تعالى الآية التي في المائدة إلى قوله: «**فَهَلْ أنْتُمْ مُنْتَهُونَ**» فقال عمر: انتهينا ياربّ، وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيّام* قال أنس: حرمت الخمر ولم يكن يومئذٍ للعرب عيش أحبُّ منها، وما حرم عليهم شيء أشدُّ من الخمر، وروى الشيخان عن أنس قال: ما كان لنا خمرٌ غير فضيخكم، وإنّي لقائم أسقي أبا طلحة، وأبا أيّوب وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجُلٌ فقال: حرمت الخمر، فقالوا: أهرق هذه القلال يا أنس، فما سألُوا عنها، ولا راجعوها بعد خبر هذا الرجل* الفضيخ بالضاد والخاء المعجمتين: شراب يُتّخذ من بسر مطبوخ، والاهراق: الصّبُّ، والقلال: جمع قلّة وهى الجرّة الكبيرة.

((فصـــلٌ في تحريم الخمر ووعيد من شربها))

قـال الخـازن في تـفـسـيـره: أجمعت الأمّة على تحريم الخمر، وأنّه يُحدّ شاربها، و يفسّق بـذلـك مـع اعـتقاد تحريمها، فإن استحلّها كفر بذلك ويجب قتله، روى الشيخان عن ابن عـمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [كُلُّ مُسْكرٍ خَمْرٌ، وكُلُّ مُسْكِـرٍ حرامٌ، ومن شـرب الخـمر في الدنيا ومات وهو يدمنها لم يتب منها لم يشربها في الآخرة] ولفظ مسلم عن جابر: أن رجلاً قدم من جيشان، وجيشان من اليمن، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم عن شـراب يـشـر بـونـه بأرضهم من الذرة يقال له المزر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أومُـسْـكرٌ هو؟] قال: نعم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كل مسكر حرام، وإنَّ على الله عـهـداً لمـن يـشـرب المـسـكر أن يسقيه من طينة الخبال قالوا: وما طينة الخبال يا رسـول الله؟ قـال: عـرقُ أهـل النّار، أو عصارة أهل النار] وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عـلـيـه وسـلـم قـال: [كـل مـسـكـر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب مسكراً بـخـسـت صلا ته أر بعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقاً على الله أن يـسـقـيـه من طينة الخبال، قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: صديد أهل النار] وأخرج أبوداود عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال: [مَـن شـرب الخـمـر فجعلها في بطنه لم تقبل منه صلاة سبعاً، وإن مات فيها، مات كـافراً، فإن أذهبت عقله عن شيء من الفرائض (وفى رواية: عن القرآن) لم تقبل صلا ته أر بـعين يوماً، وإن مات فيها مات كافراً] وأخرج الترمذى عن أنس قال: لعن رسول الله صلى الله عـلـيـه وسـلـم في الخمر عشرةً: [عاصرها ومعتصرها، وشاربها وساقيها، وحاملها والمحمولة إليه، و بائعها ومبتاعها و واهبها وآكل ثمنها].

((فَضلٌ في أحكام تتعلّقُ بالخمــر))

وفيـه مسـائـل (الأولى في ماهيتها): قال الشافعي: الخمرة عبارة عن عصير العنب النيء الشديد الذي قذف بالزبد، وكذلك نقيع الزبيب والتّمر المتخذ من العسل والحنطة والشعير والأرز والذرة، وكل ما أسكر فهو خمر* وقال أبوحنيفة: الخمر من العنب والرطب ونقيع التّمر والزبيب، فإن طبخ حتّى ذهب ثلثاه حلّ شربه، والمسكر منه حرام، واحتج على ذلك بما روى عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى بعض عُمّاله أن أرزق المسلمين من الطِّلاء ما ذهب ثلثاهُ، و بقى ثلثه* وفي رواية أمّا بعد فاطبخوا شرابكم حتّى يذهب منه نصيب الشيطان، فإنَّ له اثنيْن ولكم واحد. أخرجه النسائى. الطِّلاء: بكسر الطاء والمدّ: الشراب المطبوخ من عصير العنب الذي ذهب ثلثاهُ و بقى ثلثه* واحتج أيضاً بما روى عن ابن عباس قال: حرمت الخمر بعينها قليلها وكثيرها. والسكر من كل شراب. أخرجها النّسائى* واستدل أيضاً على أن السكر حرام لما روى عن أبى الأحوص عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن بردة أنَّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: [اشربوا ولا تسكروا] وعن عائشة نحوه. أخرجه النّسائى وقال: هذا حديث غير ثابت. واستدل الشافعيُّ على أن الخمر حرام من عدِة أشياء بما روى عن ابن عمر أن عمر قال على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمّا بعد أيها النّاس إنه نزل تحريم الخرم، وهى من خمسة، العنب والتّمر والعِسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل ثلاث، وددت أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عهد إلينا فيهنَّ عَهْداً ننتهى إليهنّ. الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا. أخرجه البخارى ومسلم* وأخرجا عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن الْبِتْعِ، فقال: [كل شراب أسكر فهو حرام] البتع: شراب يتخذ من العسل كان أهل اليمن يشربونه* وفي اللسان: والْبِتْعُ مثل القِمْع والقِمَع: نبيذ يُتّخذ من عسل كأنه الخمر صلابة، وقال أبوحنيفة: البتع الخمر المتخذ من العسل فأوقع الخمر على العسل* وفي الخازن: وعن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [إنَّ من العنب خمراً، وإن من البرّ خمراً، وإنَّ من الشعير خمراً، وإنَّ من التمر خمراً] أخرجه أبوداود، وزاد في رواية [والذرة: وإنّى أنهاكم عن كل مسكر] وللترمذي نحوه، وزاد [وإن من العسل خمراً]* وأخرج البخارى عن ابن عبّاس أنّه سئل عن الباذَقِ،

قال: سبق حكم محمد. الباذق: فماأسكر فهو حرام عليك، والشراب الحلال الطيّب، ليس بعد الحلال الطيب إلاّ الحرام الخبيث* قال صاحب المطالع الباذَق: بفتح الذّال المعجمة هو الطّلاء المطبوخ من عصير العنب، كان أول من صنعه وسمّاه بنوأميّة لينقلوهُ عن اسم الخمر، وكل ما أسكر فهو خمر لأن الاسم لا ينقله عن معناه الموجود فيه* وقال ابن الأثير في النّهاية: الباذَق: الخمر تعريب باذه: وهو اسم للخمر بالفارسيّة، أي لم يكن في زمانه* عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: [نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتّر] أخرجه أبوداود. والمفتّر: كل شراب أحمى الجسد وصار فيه فتور وضعف وانكسار* واستدل الشافعي على ما أسكر كثيره فقليله حرام بما روى عن جابر بن عبدالله أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [ما أسكر كثيره فقليله حرام] أخرجه الترمذي وأبوداود.

المسئلة الثانية (في الحكم بنجاسة الخمر) : في الخازن: الخمر وما يلحق بها نجسة العين، و يدل على نجاستها قوله تعالى: «**إنَّمَا الْخَمْرُ والْمَيْسِرُ والأنْصَابُ والأزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطان فاجتنبوهُ**» والرجس في اللغة: النّجس والشيء المستقذر، وقوله تعالى: «**فاجْتَنِبُوهُ**» فأمر باجتنابها، فكانت نجسة العين، و يدل على نجاستها أيضاً أنها محرّمة التناول لا للاحترام، ولأنَّ الناس مشغوفون بها، فينبغي أن يحكم بنجاستها تأكيداً للزجر عنها.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإنْ تُخَالِطُوهُمْ فإخْوانُكُمْ والله يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ولَوْ شَاءَ الله لأعْنَتَكُمْ إنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ» سورة البقرة (الآية: ٢٢٠)

فى الواحدى: عن سعيد بن جبير قال: لمّا نزلت «**إنَّ الَّذِينَ يأكُلُونَ أمْوَالَ الْيَتَامى ظُلْماً**» عزلوا أموالهم فنزلت.«**قُلْ إصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإنْ تُخَالِطُوهُمْ فإخْوانُكُمْ**» فخلطوا أموالهم بأموالهم* وروى سعيد عن ابن عباس أنه قال: لمّا أنزل الله عز وجل «**ولا تقربُوا مال اليتيم إلاَّ بالّتى هِيَ أحْسَنُ**» و«**إنَّ الَّذِينَ يأكلونَ أمْوالَ الْيَتَامَى ظُلماً**» انطلق من كان عنده مالُ يتيم فعزل طعامَه عن طعامِه، وشرابه

من شرابه، وجعل يفصل الشيء من طعامه فيجلس له حتى يأكله أو يفسد، واشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل «**و يسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم..**» فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم* وفي الطبرى: عن السّدى قال: كانت العرب يشدّدون في اليتيم حتى لا يأكلوا معه في قصعة واحدة، ولا يركبون له بعيراً، ولا يستخدمون له خادماً، فجاؤا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه عنه فقال «**قل إصلاح لهم خير**» يصلح له ماله وأمره له خير، وإن يخالطه فيأكل معه و يطعمه و يركب راحلته، ويحمله و يستخدم خادمه ويخدمه فهو أجود «**والله يعلم المفسد من المصلح**» أي بها يجازى كلاً منهما. ففي ذلك وعيد ووعدٌ لمن خالطهم لافساد وإصلاح «**ولو شاء الله لأعنتكم**» أي لضيّق عليكم بتحريم المخالطة، وما أباح لكم مخالطتهم. وأصل العنت: الشدّة والمشقّة ومعناه كلفكم في كل شيء ما يشقُّ عليكم «**إنّ الله عزيزٌ**» غالب على أمره يقدر على الاعنات وغيره «**حكيمٌ**» يحكم بما تقتضيه الحكمة.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَلاَ تنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَة ولَوْ أعْجَبَتْكُمْ ولاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يؤمِنُوا ولَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ ولَوْ أعجَبَكُمْ أولٰئكَ يَدْعُونَ إلىَ النَّارِ والله يَدْعُوا إلى الجنّةِ والْمَغْفِرَةِ بِإذْنِهِ و يُبيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكرُونَ»

سورة البقرة (الآية: ٢٢١)

في الواحدى: حدّث خالد بن معروف عن مقاتل بن حيّان قال: نزلت في مرشد الغنوى. استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في عناق أن يتزوّجها، وهى امرأة مسكينة من قريش، وكانت ذات حظّ وجمال، وهى مشركة، وأبومرثد مسلم. فقال: يا نبى الله إنّها لتعجبنى، فأنزل الله عز وجل «**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ...**» وروى السدى عن أبى مالك عن ابن عبّاس في هذه الآية قال: نزلت في عبدالله بن رواحة، وكانت له أمةٌ سوداء وأنّه غضب عليها فلطمها، ثم أنه خرج، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره خبرها، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: [ما هى يا عبدالله؟ فقال: يا

رسـول الله هـي تـصـوم، وتُـصلي وتُـحـسنُ الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسولهُ، فـقـال: يـا عـبـدالله هـذه مـؤمنة، قال عبدالله: فوالذى بعثك بالحق لأعتقها ولأ تزوّجها] فـفـعـل،فـطـعـن عليه ناس من المسلمين فقالوا: نكح أمةً، وكانُوا يريدون أن ينكحوا إلى المشـركين، و يـنكحوهم رغبة في أحسابهم، فأنزل الله تعالى فيه «**وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خيرٌ من مـشركة**» الآية* وقال الكلبيّ عن أبى صالح عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسـلـم بـعـث رجلاً من غِنَّى يقال له مرثد بن أبى مرثد حليفاً لبنى هاشم إلى مكة ليخرج نـاسـاً مـن المسلمين بها أسراء، فلمَّا قدمها سمعت به امرأة يقال لها عناق، وكانت خليلة لـهُ في الجـاهـلية، فلمّا أسلم أعرض عنها، فأتته فقالت: ويحك يا مرثد ألا نخلو، فقال لها: إن الإسـلام قد حال بينى و بينك، وحرّمه علينا، ولكن إن شئت تزوجتك إذا رجعت إلى رسـول الله صلى الله عـلـيـه وسلم أستأذنه في ذلك، ثم تزوجتك؟ فقالت له: أنت تَبَرَم، ثم اسـتغاثت عليه فضر بوه ضر باً شديداً، ثم خلوُّا سبيله، فلمّا قضى حاجته بمكة انصرف إلى رسـول الله صلى الله عـلـيـه وسلم راجعاً وأعلمه الذى كان من أمره وأمر عناق وما لقى في سببـهـا، فـقـال يـا رسول الله: اتُحِلُّ أن أتزوجها، فأنزل الله ينهاه عن ذلك «**وَلاَ تنكِحُوا الْـمُـشْـرِكَـاتِ**» أى لا تـتـزوجوا أيُّها المسلمون «**الْمُشْرِكَات**» أي الكافرات «**حَتّى يُــؤْمِنَّ**» بدين الإسلام ومحمد عليه الصلاة والسلام* وفي الخطيب روى أبوداود وغيره أنَّ سـبـب نـزول آية الروم «**الزَّانى لاَ يَنْكِحُ إلاّ زانِيَةً أوْمُشْرِكةً..**» الآية. قالوا: والآية وإن كـان شـامـلـة للكتابيّات لكنّها مخصوصة بغيرهن بقوله «**والْمُحْصَنات مِنَ الّـذِينَ أوتُوا الكتَابَ**» وقد تزوّج عثمان بنصرانية. فأسلمت، وتزوج حذيفة بيهودية، وطلحة بن عبيدالله بنصرانية* قال الخطيب: فإن قيل: كيف أطلقتم اسم الشرك على من لم ينكر إلاَّ نـبـوة مـحـمد صلى الله عليه وسلم؟ قال الحسن بن فارس: لأنّه يقول القرآن كلام غير الله؛ ومـن يقول القرآن كلام غير الله فقد أشرك مع الله غير الله* وقال تعالى: «**وقَالَتِ الْيَهُودُ عُـزَيْرٌ ابْنُ الله، وقَـالَـتِ الـنـّصَـارَى الْـمَـسِـيحُ ابْـنُ الله**» إلى قـوله: «**سبْحَانه عمَّا يُـشْـرِكُـونَ**» ولكن يقال إنَّ المراد من المشركات في الآية اللاتى يعبدون الأ وثان ففى ابن كـثير، قـال على بـن أبى طلحة عن ابن عباس في قوله: «**وَلاَ تنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتّى يُــؤْمِنَّ**» استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب. وهكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جـبير ومـكـحـول والحسن والضّحاك وزيد بن أسلم والرّبيع بن أنس وغيرهم* وقال ابن

كثير: فأمّا ما رواه ابن جرير: حدّثني عبيد بن آدم بن أبي إياس العسقلاني، حدّثنا أبي، حدّثنا عبدالحميد بن بهرام الفزاري، حدّثنا شهر بن حوشب قال: سمعت عبدالله بن عباس يقول: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات، وحرّم كلّ ذات دين غير الإسلام قال الله عز وجل: «**وَمَنْ يَكْفُرْ بالإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ..**» وقد نكح طلحة بن عبدالله يهودية، ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية، فَغَضِبَ عمر بن الخطاب غضباً شديداً حتىٰ همَّ أن يَسْطُوَ عليهما، فقالا: نحن نُطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب، فقال: لئن حلَّ طلاقُهُنّ لقد حلَّ نكاحُهُنَّ ولكني أنتزعُهنَّ منكم صغرة قمأة* فهو حديث غريب جداً، وهذا الأثر غريب عن عمر أيضاً، قال أبوجعفر بن جرير رحمه الله بعد حكايته الاجماع على إباحة تزوّج الكتابيات. وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد النّاس في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني كما حدّثنا أبو كريب، حدّثنا ابن ادريس، حدّثنا الصَّلتُ بن بهرام عن شقيق قال: تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر خلّ سبيلها، فكتب إليه، أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها؟ فقال: لا أزعم أنها حرام ولكني أخاف أن تُعاطوا المؤمنات منهنّ* وهذا إسناد صحيح. ونقل عن عمر قوله: المسلم يتزوج النصارنية ولا يتزوّج النّصراني المسلمة* قال: وهذا أصحّ إسناداً من الأول. ونقل ابن كثير عن محمد بن علي وصالح بن أحمد أنهما سألا أبا عبدالله: أحمد بن حنبل عن قوله الله «**وَلاَ تنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتّى يُؤْمِنَّ**» قال مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام* وفي الغرائب قال الحاكم النيسابوري: اختلف العلماء في الآية في موضعين: الأول: في لفظ النكاح. فقال أكثر أصحاب الشافعي: إنه حقيقة في العقد لقوله صلى الله عليه وسلم: [لا نكاح إلاّ بوليّ وشاهديْ عدْل] ولا شك أن المتوقف على الولي والشاهد هو العقد لا الوطء، ولقوله صلى الله عليه وسلم أيضاً: [ولدتُ من نكاح لا من سِفَاح] ولقوله تعالى: «**وأنكحوا الأيَامَ مِنْكُمْ**»* وقال الجمهور من أصحاب أبي حنيفة: أنه حقيقة في الوطء لقوله تعالى: «**حتى تنكح زوْجاً غَيْرُه**» والنكاح الذي ينتهي إليه الحرمة ليس هو العقد بل هو الوطء بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: [لا حتى تذوق عُسَيْلتَهُ وَ يذُوقَ عُسَيْلَتِكِ] وقال صلى الله عليه وسلم: [ناكحُ الْيَدِ مَلْعُونٌ] ومن الناس من قال: النكاح عبارة عن الضمّ، يقال: نكح المطر الأرض إذا وصل إليها، ونكح النعاس عينه. والضمّ حاصل في العقد وفي الوطء،

فيحسن استعمال اللفظ فيها جميعاً. قال ابن جنى: سألت أبا على عن قولهم: (نكح المرأة) فقال: فرّقت العرب بالاستعمال فرقاً لطيفاً، فإذا قالوا: نكح فلانٌ فلانه: أرادوا أنه تزوجها وعقد عليها، وإذا قالوا: نكح امرأته أو زوجته لم يريدُوا غير المجامعة* إلاَّ أن المفسرين أجمعوا على أن المراد بالنكاح في هذه الآية هوالعقد. أي لا تعقدوا على المشركات* الموضوع الثاني: لفظ المشرك هل يتناول الكفار من أهل الكتاب أم لا؟ قال الأكثرون: نعم لقوله تعالى: «**وقالت اليهودُ عُزَيْرٌ ابْنُ الله وقالتِ النصارَى الْمَسيحُ ابن الله**» إلى قوله: «**سُبْحَانَهُ عمَّا يُشْرِكونَ**» ولقوله: «**إنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ و يَغْفِرُ ما دونَ ذلك لِمَنْ يَشاءُ**» فلو كانَ كفر اليهود والنصارى غير الشرك لاحتمل أن يغفر الله لهم، وذلك باطل بالاتفاق. وأيضاً النّصارى قائلون بالتّثليث، وليس ذلك في الصفات، فإن أكثر المسلمين يثبتُون لله تعالى صفات قديمة، فإذن هو في الذات وهذا شركٌ محض* روى أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أمّر أميراً، وقال: [إذا لقيت عدواً من المشركين فادعهم إلى الاسلام، فإن أجابُوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، وإن أبوفادعهم إلى جزية وعقد الذمة، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم] سمّى من يقبل الجزية وعقد الذمة بالمشرك. وقال أبو بكر الأصم: كل من جحد رسالته فهومشرك من حيث أن تلك المعجزات التي ظهرت علي يده كانت خارجة عن حدّ البشر، وهم أنكروها وأضافوها إلى الجنّ والشياطين. فقد أثبتوا شريكاً لله سبحانه في خلق هذه الأشياء الخارجة عن قدرة البشر* واعترض عليه بأن اليهوديّ حيث لا يسلم أن ما ظهر على يد محمد صلى الله عليه وسلم هو من جنس ما لا يقدر العباد عليه لم يلزم أن يكون مشركاً بسبب إضافة ذلك إلى غير الله. (والجواب): أنّه لا اعتبار باقراره وإنما الاعتبار بالدليل، فإذا ثبت بالدّليل أن ذلك المعجز خارج عن قدرة البشر، فمن أضاف ذلك إلى غير الله كان مشركاً، كما لو أسند خلق الحيوان والنبات إلى الأفلاك والكواكب. احتج المخالف بأنه تعالى فصلّ بين أهل الكتاب والمشركين في الذكر حيث قال: «**ما يَوَدُّ الّذِينَ كَفَروا من أهْل الكتاب ولا المشركين**» «**لَمْ يكنِ الّذِينَ كَفَروا من أهْلِ الكِتَابِ والْمُشْرِكينَ**» والعطف يقتضى التّغاير، وأجيب بأن كفر الوثنى أغلظ، وهذا القدر يكفى في العطف، أو لعله خصّ أولاً، ثمَّ عمّ* وهل هذه الآية منسوخة أم لا؟ فى الخازن: وقيل إنَّ حكم الآية نزل في مشركات العرب: الوثنيات خاصة، ولم ينسخ منها شيء، ولم يستثن، وإنما

حكمها عام مخصوص: قال قتادة «وَلاَ تنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتّى يُؤْمِنَّ» يعنى مشركات العرب اللاّتى ليس فيهنّ كتاب يقرأنه* فعلى قول من قال: إن اسم الشرك لا يتناول إلاّ الوثنيات تكون الآية محكمة، وعلى قول الأكثرين أن اسم الشرك يتناول الوثنيات والكتابيات وغيرهن تكون الآية محكمة في حق الوثنيات منسوخة في حق الكتابيات. أي اللاتى لهن كتاب سماوى يقرأنه، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى. وقوله تعالى: «وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ» أي حرة لأنّ سبب نزولها العيب على من تزوج أمة ــ كما تقدم في الواحدى ــ وترغيبه في نكاح حرّة مشركة كذا ذكر الجلال: واللام في «وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ» هذه اللام للتوكيد فهي تشبه لام القسم، والمراد بالأمة وكذا بالعبد في قوله «ولَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ» أمة الله وعبده، لأنَّ الناس كلهم عبيد الله وإماؤه. أي ولا مرأة مؤمنة حرّة كانت أو مملوكة «خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ ولَوْ أعْجَبَتْكُمْ» للمبالغة، والجواب محذوف، أي ولو كانت المشركة تعجبكم بمالها وجمالها ونسبها، فالمؤمنة خير منها لأن الإيمان يتعلق بالدّين والمال والجمال، والنسب يتعلق بالدنيا، ورعاية الدّين أولى من رعاية الدنيا إن لم يتيسر الجمع بينهما، وقد تحصل المحبة والتآلف عند التّوافق في الدين فتكمل منافع الدنيا أيضاً من حسن الصحبة والعشرة وحفظ الغيب وضبط الأموال والأولاد، أمّا عند اختلاف الدين فتنعكس هذه القضايا، وقد يرى أضداد ما توقع منها، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدّين تربت يداك] وقوله: «ولاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يؤمِنُوا» لا خلاف ههنا فى أنَّ المراد به الكل، وأن المؤمنة لا يحلُّ تزويجها من الكافر على اختلاف أقسام الكفر «أُولَـئِكَ» المشركات والمشركون. أي عموم أهل الشرك لأن اسم الاشارة واقع على كل من الإناث والذكور لأنه يصلح لهما كما قال ابن مالك:* وبأُولَى أَشِرْ لجمع مطلقاً* حال كونهم «يَدْعُونَ إلىَ النَّارِ» أي إلى ما يؤدي إليها، فإن الزوجة مظنة الألفة والمحبة في الظاهر، وقد تحمل المودة على الاتفاق في الدين، فلعل المؤمن يوافق الكافر، والاحتراز عن مظنة الارتداد أهمُّ من الطموح إلى إسلام المشرك، فحقّهم أن لا يوالوا ولا يُصاهروا، ولا يكون بينهم وبين المؤمنين إلا المناصبة والقتال، وقيل: المراد أنّهم يدعون إلى ترك المحاربة والجهاد. وفي ترك الجهاد استحقاق النار والعذاب. وغرض هذا القائل أن يجعل هذا فرقاً بين الذميّة وغيرها. فإن الذميّة لا تحمل زوجها على ترك الجهاد.

وقيل: إن الولد الذي يحدث ربما دعاهُ الكافر إلى الكفر فيصير الولد من أهل النّار، فهذا هو الدعوة إلى النّار. **«والله يَدْعُوا إلى الجنّةِ»** حيث أمر بالتزوّج بالمسلمة حتى يكون الولد مسلماً من أهل الجنة، أو المراد أنّ أولياء الله وهو المؤمنون يدعون إلى الجنة والمغفرة، وما يؤدى إليها، فهم الذين يجب موالاتهم ومصاهرتهم وأن يؤثروا على غيرهم **«بإذْنِهِ»** بتوفيق الله وتيسيره للعمل الذي يستحقُّ به الجنة والغفران **«ويُبيّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»** يتعظون، ومعناه واضح.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَيَسْألُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فى الْمَحِيضِ ولاَ تَقْرَبُوهُنَّ حتّى يَطْهُرْنَ فإذا تطهّرنَ فأتُوهُنَّ مِنْ حيْثُ أمَرَكُمُ اللهُ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوابِينَ ويُحِبُّ الْمُتطهّرِينَ» سورة البقرة (الآية: ٢٢٢)

فى الواحدى: حدّث ثابت عن أنس أنَّ اليهود كانت إذا حاضت منهم امرأة أخرجوها من البيت فلم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيت، فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله عز وجل **«وَيَسْألُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فى الْمَحِيضِ..»** الآية. رواه مسلم* وروى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال: [إنَّ اليهود قالت: لمن أتى امرأته من دبرها كان ولده أحول، فكان نساء الأنصار لا يدعن أزواجهن يأتوهن من أدبارهنّ، فجاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألوه عن إتيان المرأة وهي حائض، وعمّا قالت اليهود، فأنزل الله عز وجل **«وَيَسْألُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فى الْمَحِيضِ ولاَ تَقْرَبُوهُنَّ حتّى يَطْهُرْنَ»** ــ يعنى الاغتسال ــ **«فإذا تطهّرنَ فأتُوهُنَّ مِنْ حيْثُ أمَرَكُمُ اللهُ»** ــ يعنى القبل ــ **«إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوابِينَ ويُحِبُّ الْمُتطهّرِينَ* نِسَاؤُكُم حَرْثٌ لَكُمْ فأتُوا حَرْثَكُمْ أنّى شِئْتُم»**] فإنما الحرث حيث ينبت الولد ويخرج منه* وفى القرطبي والطبرى أي السائل **«وَيَسْألُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ»** ثابت بن الدحداح، وقيل: أسيد بن حُضير. وعبّاد بن بشر، وهو قول الأكثرين. وسبب السؤال فيما قال قتادة وغيره: إن العرب في المدينة وما والاها كانُوا قد استنُّوا بسنّة بنى إسرائيل في تجنب مؤاكلة الحائض ومساكنتها فنزلت هذه الآية* وقال مجاهد: كانوا يتجنّبون النساء

في الحيـض، و يـأتونَـهُنّ في أدبارهن مدة زمن الحيض، فنزلت الآية* وفي صحيح مسلم أيضـاً عـن أنـس رضي الله عنـه أن اليهـود كـانُـوا إذا حـاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهُـنّ في الـبيـوت، فسأل أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم النبيّ صلى الله عليه وسلـم فـأنـزل الله تعالى «**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ..**» الآيـة. فقـال رسـول الله صلى الله عـليه وسلم: [اصنعُوا كلَّ شيء إلاَّ الـنـكـاح] فـبـلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلاَّ خالفنا فيـه، فـجـاء أُسَيْـدُ بـنُ حُضَيْرٍ، وعبَّادُ بن بشر فقالا: يا رسول الله: إنَّ اليهود تقول كذا وكـذا. أفلا نجامِعُهُنَّ؟ فتغيرّ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننا أنْ قد وَجَدَ ــ غـضـب ــ عـليهما، فـخـرجـا فاستقبلهما هديّةٌ من لبنٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فـأرسـل في أثـرهـمـا فـسقاهما فعرفا أنَّه لم يَجدْ عليهما* قال علماؤنا: كانت اليهود والمجوس تجتنب الحائض وكانت النّصارى يجامعوهن في الحيض، فأمر الله بالقصد بين هذين. وقد أجمع العلماء أن للمرأة ثلاث أحكام في الدم الخارج منها:

الأول : الحـيـض : ودمـه أسودٌ خـاثـرٌ تـعـلوهُ حُمْرةٌ فتترك له الصلاة والصوم، ولا تـقضى الـصـلاة، وإنمـا تـقضى الـصـوم بـعدّة أيّامه بعد طهرها لحديث معاذ قال: [سألت عـائشـة رضي الله عنهـا فـقُلتُ: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضى الصلاة؟ قالت: أحـروريّـةٌ ــ طـائفة من الخوارج الذين قاتلهم على رضي الله عنه ــ أنتِ؟ قُلتُ: ليست بحـروريّـة، ولـكنى أسأل، قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمرُ بقضاء الـصلاة] أخرجه مسلم* وأقل مدة الحيض ثلاثة أيّام وأكثره خمسة عشر يوماً، وما زاد عن خمسة عشر يوماً أو قلّ عن ثلاثة أيام فيكون دم استحاضة، وقيل يرجع إلى عادة النّساء في ذلك. وأقلُّ الطهر خمسة عشر يوماً. هذا: والمستحاضة تتوضأ لكل صلاة بعد دخول الوقت كالمعذور، وتصلّي الفرض وما شاءت من النوافل.

الـثـاني: دم الـنـفـاس : وهو الخارج بعد الولادة، قيل أكثره شهران، وقيل أربعون يوماً، وأقله لحظة والغسل منه كالغسل من الجنابة.

الـثالث: دم ليس بعادة : ولا طبع منْهُنَّ ولا خلْقَةٍ، وإنما هو عرق انقطع سائله: دم أحمرٌ لا انـقطاع له إلا عند البرء منه، وحكمه أن تكون المرأة منه طاهرة لا يمنعها من صلاة وصوم وجمـاع لحديـث فاطمة بن أبى جحش: يا رسول الله إنّى لا أطهر، أفأدعُ الصلاة؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إنما ذلك عرقٌ فليس بالحيضة، إذا أقبلت الحيضة فدعى الصلاة، فإذا ذهب قدرها فاغسل عنك الدم وصلّى] وشذّت طوائف من الخوارج فقالوا: بوجوب الصّلاة على الحائض ولا دليل لهم لا من كتاب ولا سُنّة، وهذا الحديث حجةٌ عليهم، وهو أصح ما روى في هذا الباب* واختلف العلماء فيمن أتى امرأته وهى حائض ماذا عليه؟ نقل عن مالك والشافعي وأبى حنيفة أن يستغفر الله تعالى ولا شيء عليه* وروى عن محمد بن الحسن: يتصدّق بنصف دينار* وقال أحمد: ما أحسن حديث عبدالحميد عن مِقسَم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم [يتصدق بدينار، أو نصف دينار] أخرجه أبوداود، وفي كتاب الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [إذا كان دماً أحمر فدينارٌ، وإن كان دماً أصفر فنصف دينارٍ] وقوله تعالى: «**فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ**» أي فاعتزلوا مجامعتهن، وقد قام إجماع المسلمين على حرمته في الحيض، واتفق العلماء على حلّ الاستمتاع بالمرأة بما فوق السرة، وتحت الركبة، واختلفوا فيما دون السّرة وفوق الركبة، فالشافعى وأبوحنيفة وأبويوسف قالوا: يجب اعتزال ما اشتمل عليه الإزار بناء على أن المحيض مصدر كالمجيء والمبيت. والتقدير فاعتزلوا تمتّع النّساء في زمان الحيض: ترك العمل بالآية فيما فوق السّرة وتحت الركبة للإجماع. فبقى الباقى على الحرمة* وعن زيد بن أسلم أنَّ رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم: ما يحلُّ لى من امرأتى وهىَ حائض؟ قال: [لتشدَّ عليها إزارها، ثم شأنك بأعلاها] وقيل ما سوى الفرج حلال لأن المراد بالمحيض موضع الحيض، فالمعنى فاعتزلوا موضع الحيض من النساء. نعم المحيض الأول مصدر، فيصلح عود الضمير إليه في قوله «**هُوَ أَذًى**» أي الحيض شيء يستقذر و يؤذى من يقربه، نفرةً وكراهة على أنه يحتمل أن يكون بمعنى المكان، والتقدير هو ذا أذى. وإنما قدم قوله «**هُوَ أَذًى**» لترتيب الحكم. وهو وجوب الاعتزال عليه، وذلك أن دم الحيض فاسد يتولّد من فضلة تدفعها طبيعة المرأة من طريق الرّحم، حتّى لو احتبست تلك الفضلة لمرضت المرأة، فذلك الدم جارٍ مجرى البول والغائط، فكان أذًى وقذراً، ولا يرد عليه دم الاستحاضة حيث لا يوجب الاعتزال لأنَّ ذلك دمٌ صالح يسيل من عرق يتفجّر في عنق الرّحم، و يؤيده ما روى في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: [جاءت فاطمة بنت أبى جحش، فقال يا رسول الله إنى امرأة أستحاض فلا أطهر، أفأدع الصّلاة؟ فقال: لاَ، إنما ذلك عِرقٌ وليست بالحيضة،

فإذا أقبلت الحيضة فدعى الصلاة، فإذا أدبرت فاغسلى عنك الدم وصلى] ومعنى العرق: إنّه علّةٌ حدثت بها من تصدّع العروق. وأصل الحيض في اللغة: السيل، يقال حاض السّيل وفاض، قال الأزهريُّ: منه قيل الحوض لأنَّ الماء يحيض إليه. أي يسيل. أما السّنُّ المحتمل للحيض، فأصحّ الوجوه أنّها تسع سنين، فإن رأت الصبيّة دماً قبل استكمال التّسع، فهو دم فساد، قال الشافعى: وأعجل من سمعت من النّساء يحضن، نساء تهامة يحضن لتسع سنين* وقيل: إن أول وقت الامكان يدخل بالطعن في السنة التاسعة، وقيل بمضى ستة أشهر من السنة التاسعة، والاعتبار على الوجوه بالسنين القمرية تقريباً على الأظهر لا تحديداً، حتى لو كان بين رؤية الدم و بين استكمال التّسع على الوجه الأصح مالا يسع حيضاً وطهراً كان ذلك الدم حيضاً، وإلا فلا.

ويحرم بالحيض عشرة أشياء: الصلاة والصوم والاعتكاف والمكث في المسجد والطّواف ومسُّ المصحف، وقراءة القرآن والسجود والغشيان بنص القرآن. والطلاق في حق بعضهن، ثم إن أكثر فقهاء الأمصار على أنَّ المرأة إذا انقطع حيضها لا يحلُّ مجامعتها إلا بعد أن تغتسل عن الحيض. وهذا قول مالك والأوزاعى والشافعى والثورى* والمشهور عن أبى حنيفة أنها إن رأت الطهر دون عشرة أيام لم يقربها زوجها حتى تغتسل، ويمضى عليها وقت صلاة، وإن رأته عشرة أيام جاز له أن يقربها قبل الاغتسال* حجّة الشافعى: أن القراءة المتواترة حجّةٌ بالإجماع فإذا حصلت قراءتان متواترتان وجب الجمع بينهما ما أمكن، فمن قرأ يطهُرنَ ــ بالتّخفيف، فانتهاء الحرمة عنده انقطاع الدم، ومن قرأ يطّهرن ــ بالتّشقيل فالنهاية تطهرها بالماء والجمع بين الأمرين ممكن بأن يكون النهاية حصول الشيئيْن* ومعنى قوله: «**وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ**» أي لا تجامعوهن، وهذا كالتأكيد لقوله: «**فَاعْتَزِلُوا**» ويحتمل أن يكون ذلك نهيا عن المباشرة في موضع الدم، وهذا نهى عن الإلتذاذ بما يقرب من ذلك الموضع وأيضاً قوله: «**فإذا تطهرن فأتوهُنَّ**» تعليق للاتيان على التطهر بكلمة إذا فوجب أن لا يجوز الاتيان عند عدم التطهر، والمراد بالتّطهر الاغتسال لأنَّ هذا الحكم عائداً إلى ذات المرأة فوجب أن يحصل في كل بدنها لا في بعض من أبعاض بدنها* وعن عطاء وطاوس هو أن تغسل الموضع وتتوضّأ* وقال بعضهم: غسل الموضع* ثم القائلون بوجوب الاغتسال أجمعوا على أنَّ التيمم يقوم مقامه عند اعواذ الماء. وقوله تعالى: «**مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ**» أي من المأتى الذي أمركم به وحلّله لكم وهو

القبل. قاله ابن عبّاس ومجاهد وابراهيم وقتادة وعكرمة* وقال الأصم والزجّاج: فأتوهن من حيث يحل لكم غشيانهن، وذلك بأن لا يكنَّ صائمات ولا معتكفات ولا محرمات* وعن محمد بن الحنفية فأتوهن من قِبَلِ الحلال دون الفجور «إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوابِينَ» مما عسى أن يبدر عنهم من ارتكاب ما نهوا عنه من ذلك بمجامعة الحائض والطاهرة قبل الغسل، وإتيان الدبر «ويُحِبُّ الْمُتطهِّرِينَ» المتنزهين عن تلك الفواحش، فالتائب هو الذي فعله ثم تركه، والمتطهر هو الذي ما فعله تنزّهاً عنه لأنّ الذنب كأنه نجاسة روحانية حكمية، إنَّما المشركون نجسٌ. أو يُحبُّ التوابين الذين يطهّرون أنفسهم بالتوبة من كل ذنب، و يُحبُّ المتطهرين من جميع الأقذار والأوزار.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ» سورة البقرة (الآية: ٢٢٣)

فى الواحدى: حدَّث ابن المنذر أنه سمع جابر بن عبدالله يقول: كانت اليهود تقول في الذي يأتى امرأته من دبرها في قبلها إنَّ الولد يكون أحول فنزلت «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» رواه البخارى عن أبي نعيم. ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، كلاهما عن سفيان* وقال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه فأسأله عنها حتّى انتهى إلى هذه الآية «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» فقال ابن عبّاس: إنَّ هذا الحيَّ من قريش كانُوا يتزوَّجون النساء، و يتلذّذون بهنّ مقبلات ومدبرات، فلمّا قدمُوا المدينة تزوَّجوا من الأنصار، فذهبوا ليفعلُوا بهنَّ كما كانُوا يفعلون بمكة فأنكرن ذلك وقُلنَّ: هذا شيءٌ لم نكن نؤتى عليه، فانتشر الحديث حتّى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى فى ذلك «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» قال: إنْ شئت مقبلة وإن شئتَ مدبرة إن شئت باركة، وإنما يعنى بذلك موضع الولد للحرث يقول: ائت الحارث حيثُ شئت* رواه الحاكم أبوعبدالله في صحيحه عن أبي زكريا العنبرى عن محمد بن عبدالسلام عن اسحاق بن ابراهيم عن المحاربى وروى عن جابر بن عبدالله أنه قال: قالت اليهود: إذا نكح الرجل امرأته مُجبّيةً جاء ولدها أحول فنزلت «نِسَاؤُكُمْ

«حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» إن شاء مُجبّبةً (أي منقلبة على وجهها تشبيهاً بهيئة السجود) وإن شاء غير مجبّبة، غير أولئك في صمام واحد. رواه مسلم عن هارون بن معروف عن وهب بن جرير» وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هلكتُ، فقال: وما الذي أهلكك؟ قال: حوّلتُ رَحْلي(١) الليلة، قال: فلم يرد عليه شيئاً، فأوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» يقول: أقبل وأدبر واتّق الدُّبر والحيضة» وفي القرطبي: وروى أبوداود عن ابن عباس قال: إنَّ ابن عمر ـــ والله يغفر له وهم ـــ كان هذا الحيُّ من الأنصار، وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود، وهم أهل كتاب، وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب ألا يأتُوا النساء إلا على حرف. وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحيُّ من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحيّ من قريش يشرحون شرحاً منكراً ـــ أي يطئونها وهي نائمة على قفاها ـــ و يتلذّذون منهنَّ مقبلات ومدبرات ومستلقيات، فلمّا قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك فأنكرت عليه، وقالت: إنما كنا نؤتى على حرف، فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني، حتى شرى أمرهما (أي عظم وتفاقم ولجوا منه) فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات يعني بذلك موضع الولد» وروى الترمذي عن ابن عباس قال: [جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله هلكتُ..] وساق الحديث. قال: هذا حديث حسن صحيح. وروى النسائي عن أبي النضر أنه قال لنافع مولى ابن عمر: قد أكثر عليك القول إنك تقول عن ابن عمر أنه أفتى بأن يؤتى النساء في أدبارهن، قال نافع: لقد كذبوا عليَّ، ولكن سأخبرك كيف كان الأمر، إن ابن عمر عرض عليَّ المصحف يوماً وأنا عنده حتى بلغ «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ» قال نافع: هل تدري ما أمر هذه الآية؟ إنَّا كنا معشر قريش نجبي النساء، فلمّا دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردنا منهن ما كنا نريد من نسائنا فإذا هُنَّ قد كرهن

(١) تحويل الرّحل قيل ظاهره الكناية عن الإتيان في غير المحل المعتاد، وقيل إنه الإتيان في المحل المعتاد لكن من جهة ظهرها.

ذلك وأعظمنه، وكان نساء الأنصار إنما يؤتين على جنوبهن، فأنزل الله سبحانه «**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ**» ومكان الحرث هو الفرج كالأرض، والنطفة كالبذر، والولد كالنبات. أنشد ثعلب:

إنَّمَا الأرحام أرضو ن لنا محترثات
فعلينا الزرع فيها وعلى الله النَّبات

وما نسب لابن عمر رضي الله عنه عن طريق نافع ومالك وأصحابه في كتاب السرّ من جواز إتيان المرأة في دبرها محض اختلاق لأنَّ ابن عمر رضي الله عنهما كفر من يفعل ذلك. روى الدارمي في مسنده عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال: قلتُ لابن عمر: ما تقول في الجواري حين أحمض بهن؟ (التحميضُ: أن يأتي الرجل المرأة في غير مأ تاها) قال: وما التحميض؟ فذكرت له الدُّبر، فقال: هل يفعل ذلك أحدٌ من المسلمين!! أي لا يفعله إلا غير المسلم وهو الكافر. وأسند عن خزيمة بن ثابت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [يا أيها الناس إن الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهنَّ] وأسند عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [مَنْ أتى امرأة في دُبرها لم ينظر الله تعالى إليه يوم القيامة] وفي رواية ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [تلك اللوطية الصغرى] يعني إتيان المرأة في دبرها، وروى عن طاوس أنه قال: كان بدء عمل قوم لوط إتيان النّساء في أدبارهن. وقال مالك لابن وهب وعليّ بن زياد لما أخبراه أنَّ ناساً بمصر يتحدّثون عنه أنه يجيز ذلك، فنفّر من ذلك، وقال: كذبوا عليّ. كذبوا عليّ. كذبوا عليّ، ثم قال: ألستم قوماً عَرَباً؟ ألم يقل الله تعالى: «**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ**» وهل يكون الحرث إلاَّ في موضع المنبت» وفى الطبرى: ثنا روح بن القاسم عن قتادة قال: سئل أبو الدرداء عن اتيان النساء في أدبارهنَّ فقال: هل يفعل ذلك إلاَّ كافر» وفي الطبرى أيضاً: حدثني يونس قال: أخبرنا بن وهب، قال: أخبرنا عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال، أن عبدالله بن عليّ حدثه أنه بلغه أنَّ ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسوا يوماً، ورجل من اليهود قريب منهم، فجعل بعضهم يقول: إني لآتي امرأتي وهي مضجعة، و يقول الآخر: إني لآتيها وهي قائمة، و يقول الآخر: إني لآتيها على جنبها و باركة، فقال اليهودي: ما أنتم إلاَّ أمثال البهائم، ولكنَّا إنما نأتيها على هيئة واحدة، فأنزل الله تعالى ذكره «**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ**» فهو القبل» وفي

ابن كثير زيادة على ما تقدم ذكره: قال ابن أبي حاتم: حدّثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب عن عامر بن يحى عن عبدالله حنش، عن عبدالله بن عباس قال: أتى ناس من حِمْيَرَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن أشياء فقال له رجل: إني أحب النساء فكيف ترى فيّ؟ فأنزل الله «**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ**» قلت: وهذا الحديث حجة لمن قال إنّ «**أَنَّىٰ**» في الآية بمعنى (كيف) حيث فسرها بعضهم بمعنى (أين) وكيف ومتى، و بعضهم بمعنى كيف فقط، ولكن يقال هنا: إنَّ أيْنَ إنما هي حرف استفهام عن الأماكن والمحال فقط. فحينما تقول: أين مالك؟ يجاب بمكان كذا وكذا، أي أخبره عن محله، إذن فتكون أين مختصة بالسؤال عن الأماكن والمحالّ فقط، وكيف يسأل بها عن الصحة فقط، أو الهيئة، فيقال: كيف أنت؟ فيقال: بخير الحمد لله، أو معافى إن شاء الله، إذن فكيف يسأل بها عن حال المسئول عن حاله فقط. ومتى يستفهم بها عن المجيء، أو مطلق الحدث، فيقال: متى قدمت؟ فيقول: أمس. ومتى حدث هذا؟ فيقال: أمس. فهذه الثلاثة معانى لا ارتباط لها بمفهوم الآية لا من حيث المنطوق الموافق ولا المنطوق المخالف. أما (أَنَّىٰ) فيستفهم بها عن عدة وجوه. فيقال: أَنَّىٰ أثمرت الشجرة؟ فيقول: من عدة وجوه: من كون كذا وكذا وكذا... وعليه قوله تعالى: «**أَنَّىٰ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ**» فيقال من وجه كذا وكذا... لذا كان معنى قوله تعالى: «**فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ**» أي من أي وجه شئتم من أوجه المأتى في المكان المعدّ للحرث، دليله ما ورد في الحديث الصحيح عن جابر وابن عباس من أن هذه الآية نزلت فيما كانت اليهود تقوله للمسلمين: إذا أتى الرجل المرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول. وفى ابن كثير: قال أبوجعفر الطحاوى في كتابه مشكل الحديث: حدثنا أحمد بن داود بن موسى، حدثنا يعقوب بن كاسب، حدثنا عبدالله بن نافع، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري أنَّ رجلاً أصاب امرأة في دبرها، فأنكر الناس عليه ذلك فأنزل الله «**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ**» الآية. وقد أطنب ابن كثير رحمه الله في ذكر الأحاديث في هذا الموضوع. و بعضها صريح في تكفير من أتى المرأة في دبرها، وقوله تعالى: «**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ**» جارٍ مجرى البيان والتوضيح لقوله: «**فَأْتُوهنَّ من حيثُ أمركُمُ الله**» دلالة على أنّ الغرضَ الأصلى في الإتيان هو طلب النّسل لا قضاء الشهوة، فينبغى أن يؤتى المأتى الذي هو مكان الحرث،

وفي الغرائب عن ابن عباس في «فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» إن شاء عزل وإن شاء لم يعزل* وقوله تعالى: «وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ» العمل الصّالح كالتسمية عند الجماع، روى ابن عادل في تفسيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [من قال بسم الله عند الجماع فأتاه ولدٌ فله حسنات بعد أنفاس ذلك الولد، وعدد عقبه إلى يوم القيامة] «واتَّقُوا اللهَ» في أمره ونهيه «واعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ» بالبعث فيجازيكم بأعمالكم «وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ» الذين اتقوه بالجنة لأنهم تلقوا ما خوطبوا به من الأوامر والنواهي بحسن القبول والامتثال بما يقصر عنه البيان من الكرامة والنعيم المقيم، أو بكل ما يبشر به من الأمور التي تُسرّ بها القلوب، وتقرّ بها العيون، وجعل المبشّر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه من المبالغة في تشريف المؤمنين ما لا يخفى.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَلاَ تجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَنْ تبرُّوا وتَتَّقُوا وتُصْلِحُوا بيْنَ النَّاسِ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ* لاَ يُؤاخِذُكُمُ اللهُ باللّغوِ فى أيْمانِكُمْ ولَكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ واللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ»

سورة البقرة (الآية: ٢٢٤، ٢٢٥)

في الواحدى : قال الكلبي : نزلت في عبدالله بن رواحة ينهاه عن قطيعته ختنه بشر بن النعمان، وذلك أنَّ ابن رواحة حلف أن لايدخل عليه أبداً، ولا يكلّمه ولا يصلح بينه و بين امرأته، و يقول: قد حلفت بالله أن لا أفعل، ولا يحلُّ إلاَّ أن أبرّ في يميني، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي لباب السيوطي: نزلت في أبي بكر في شأن مسطح، قد حلف أن لا ينفق عليه بعد خوضه في حديث الافك* العرضة: كل ما يعرض فيمنع عن الشيء، أي لا تجعلوا الحلف بالله تعالى سبباً مانعاً لكم من البرّ والتقوى، يدعى أحدكم إلى صلة رحم أو برّ فيقول حلفتُ بالله أن لا أفعله، فيعتل بيمينه في ترك البرّ، واللغو: كل مطروح من الكلام الذي لا يعتد به، ولغو اليمين هوما سبق إلى اللسان على عجلة لصلة كلام من غير عقد ولا قصد كقول القائل: لا والله و بلى والله، وكلاَّ والله، قالت عائشة رضي الله عنها: [حينا سئلت عن لغو اليمين، قالت: لغو اليمين كقول الإنسان لا والله، و بلى والله] وقد أخذ به الشافعي رضي الله عنه* وقال قوم: هو أن يحلف على شيء يرى أنه صادق، ثم

يتبين أنه خلاف ذلك. أخذ به أبوحنيفة رضي الله عنه* وقال زيد بن أسلم: هو دعاء الرجل على نفسه كقول الإنسان أعمى الله بصرى إذا لم أفعل كذا وكذا، فهذا لغو لا يؤاخذ الله به، قال تعالى: «**وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ**» وقال تعالى: «**وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ**» «**وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ**» أي قصدتم من الأيمان إذا حنثتم ولم تبرُّوا بها «**واللهُ غَفُورٌ**» حيث لم يؤاخذكم باللغو «**حَلِيمٌ**» حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجد تربَّصاً للتوبة. وأيمان اللغو لا كفارة فيها* والمعنى العام للآية. إذا حلفتم بالله أو بأسمائه أو صفاته أو أفعاله بألاَّ تصلوا أرحامكم، ولا تتصدَّقوا، ولا تصلحوا بين الناس، أو على أى فعل من أفعال البر فاحنثوا بأيمانكم وكَفِّرُوا عنها، وسيأتى بيان مقدار الكفّارة إن شاء الله تعالى. قوله: «**وَلاَ تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ**» هو نيه عن الجراءة على الله بكثرة الحلف فإن من أكثر ذكر شيء في معنى من المعانى فقد جعله عرضة، قال الشاعر: فلا تجعلونى عرضة للوائم. وقد ذم الله تعالى من أكثر الحلف بقوله: «**ولا تُطع كُلَّ حلاَّفٍ مَهِينٍ**» والحكمة فيه أن من حلف في كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك فلا يؤمن اقدامه على الأيمان الكاذبة. وأيضاً كلما كان الإنسان أكثر تعظيما لله كان أكمل في العبودية، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله تعالى أجّل وأعلى عنده من أن يبتذله و يستشهد به في غرض من الأغراض الدنيو ية. وقوله: «**أَنْ تَبَرُّوا**» علّة النهى. أي إرادة أن تبرُّوا وتتّقوا وتصلحوا بين الناس لأن الحلاَّف مجترىء على الله غير معظّم له فلا يكون برّاً متقياً، فإذا ترك الحلف لاعتقاده أن الله أعظم وأجل من أن يستشهد باسمه العظيم في مطالب الدنيا اعتقد الناس في صدق لهجته و بعده من الأغراض الفاسدة، فعدُّوه برّاً متحذّراً من الاخلال بواجب حق الله فيدخلونه في وساطاتهم وإصلاح ذات بينهم. «**واللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**» يعنى في ترك معاجلة أهل العصيان بالعقوبة. قال الحليميُّ فى معنى الحليم: إنّه الذى لا يحبس انعامه، وإفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم، ولكنه يرزق العاصى كما يرزق المطيع، و يبقيه وهو منهمك في معاصيه كما يبقى البرّ المتقى، وقد يقيه الآفات والبلايا وهو غافل لا يذكره فضلاً عن أن يدعوه كما يقيها النّاسك الذي يدعوه و يسأله* وقال أبوسليمان الخطابى: الحليم ذو الصّفح والأناة الذي لا يستفزه غضب، ولا يستخفه جهلُ جاهل، ولا عصيان عاصٍ، ولا يستحق الصافح مع العجز اسم الحليم، إنما الحليم الصفوح مع القدرة على الانتقام المتأنّى الذي لا يعجل بالعقوبة.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لِلّذينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فإنْ فَاؤا فإنّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* وَإنْ عَزَمُوا الطّلاقَ فإنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»

سورة البقرة (الآية: ٢٢٦، ٢٢٧)

في الواحدى: حدّث عطاء عن ابن عباس قال: كان إيلاء أهل الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك، فوقّت الله أربعة أشهر فمن كان إيلاؤه أقل من أربعة أشهر فليس بإيلاء* وقال سعيد بن المسّيب: كان الإيلاء ضراراً في الجاهلية، كان الرجل لا يريد المرأة ولا يحب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها أبداً، وكان يتركها كذلك لا أيماً ولا ذات بَعْلٍ، فجعل الله تعالى الأجل أربعة أشهر، وأنزل: «**لِلّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ..**» الآية* يؤلون من نسائهم. أي يحلفون أن لا يجامعوهن. فالإيلاء الحلف* في الخطيب: قال قتادة: كان الإيلاء طلاقاً لأهل الجاهلية* وقوله: «**تربُّصُ**» أي انتظار «**أربعة أشْهُرٍ**» أي للمولى حقّ التّثبت فى هذه المدة، فلا يطالب بفيئة ولا طلاق. قال الشافعى رضى الله عنه: لا إيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر* و يؤيده: «**فَإِنْ فَاؤُا**» أى رجعوا فى المدة، أو بعدها عن اليمين إلى الوطء لأن الفيئة وعزم الطلاق مشروعان عقب الإيلاء وحصول التّربص، فلا بدّ أن يكون مدخول الفاء واقعاً بعدهما «**فإنَّ اللهَ غَفورٌ رَحِيمٌ**» لهم ما أتوه من ضرر بالحلف، رحيم بهم «**وإنْ عَزَمُوا الطّلاقَ**» أى صمّمُوا عليه بأن يفيئُوا فليوقعوهُ: «**فإن اللهَ سَميعٌ**» لقولهم: «**عَلِيمٌ**» بعزمهم. أى ليس لهم بعد تربّص ما ذكر إلا الفيئة أو الطلاق. ففيه دليل على أنها لا تطلق بعد مضى المدة ما لم يطلقها زوجها. ونقل عن ابن عباس وأصحاب الرأى إذا مضت أربعة أشهر يقع عليه طلقة واحدة بائنة* ونقل عن سعيد بن المسّيب والزُّهريّ طلقة واحدة رجعّية* ولو حلف ألاّ يطأها بأقل من أربعة أشهر لا يكون مولياً بل حالفاً، فإذا وطئها قبل مضى تلك المدة وجب عليه كفارة يمين إن كان الحلف باللهِ. وفى القرطبى: قال عبدالله بن عباس: كان إيلاء الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك، يقصدون بذلك إيذاء المرأة عند المسائة فوقّت لهم أربعة أشهر، فمن آلى بأقل من ذلك فليس بإيلاءٍ حكميّ* وذكر ابن ماجة أنّ النّبيَّ صلى الله عليه وسلم قد آلى وطلّق، وسبب إيلائه سؤال نسائه إياهُ من النفقة ما

ليس عنده* رواه مسلم وقيل سبب إيلائه صلى الله عليه وسلم منهن أنّ زينب ردّت عليه هدّيَتهُ فغضب صلى الله عليه وسلم فآلى منهنّ* واعلم أن الإيلاء له أركان أربعة: الحالف والمحلوف به والمحلوف عليه ومدّة هى ظرف المحلوف عليه. (الركن الأول) الحالف: وهو كل زوج يتصّور منه الوقاع، وكان تصرفه معتبراً في الشرع، فيصح إيلاء الذمّىّ لعموم قوله: «**لِلّذينَ يؤْلُونَ**» و به قال أبو حنيفة. وقال أبو يوسف ومحمد: لا يصح إيلاؤه بالله تعالى و يصح بالطّلاق والعتاق، وأيضاً لا فرق عندنا بين الحرّ والرقيق فى الحدّ، وعند أبى حنيفة يتنصّف برقّ المرأة، وعند مالك برقّ الرجل كما قالا فى الطلاق. لنا أن التخصيص خلاف الظاهر، ولإن تقدير هذه المدّة إن كان لأجل معنى يرجع إلى الجِبِلّة والطبع، وهو قلّة الصبر على مفارقة الزوج فيستوى فيه الحرُّ والرقيق كالحيض، ومدّة الرضاع ومدّة العنة، و يصح الإيلاء فى حالتى الرّضا والغضب لعموم الآية. قال مالك: لا يصّح إلاّ فى حال الغضب. وأيضاً يصّح الإيلاء من المرأة سواء كانت في صلب النكاح أو كانت مطلقة طلقةً رجعيّة لأنّ الرجعيّة يصدق عليها أنها من نسائه بدليل أنّه لو قال: نسائى طوالق وقع الطلاق عليها، فتدخل تحت ظاهر قوله: «**يؤلُون من نِسَائِهِمْ**» ولهذا لو قال لأجنبية والله لا أجامعك لم يكن مواليأ. وإيلاء الخصى صحيح لأنّه يجامع كما يجامع الفحل غير أنه لا ينزل، ومن جُبّ جميع ذكره لم يصح إيلاؤه على الأظهر لأنه لا يتحقق منه قصد الإيلاء لامتناع الأمر في نفسه، وكذا الأشل. ومن بقى من ذكره بعد الجبّ ما دون قدر الحشفة، فإن آلى ثم جب فالأصح ثبوت الخيار لها فإن لم تفسخ بقى الإيلاء على الأظهر لأن العجز عارض، وقد قصد الاضرار فى الابتداء. وإذا كانت المرأة رتقاء أو قرناء فالحكم كما في الجبّ، ولا يصح إيلاء الصبىّ والمجنون بحال. (الركن الثانى) المحلوف به: وهو إمّا الله تعالى وصفاته، أوغيره، فإن حلف بالله كان مولياً، ثم إن جامعها في مدّة الإيلاء خرج عن الإيلاء، وهل يجب عليه كفّارة اليمين؟ الجديد وهو وقول أبى حنيفة أنّه يجب عليه كفّارة اليمين لأنّ الدلائل الدالّة على وجوب الكفّارة عند الحنث باليمين عامّة، وأىّ فرق بين أن يقول: والله لا أقربك، ثم يقربها، أو بين أن يقول والله لا أكلمكِ ثم يكلّمها. وإنما ترك ذكر الكفّارة فى الآية لأنها مبيّنة فى سائر المواضع من القرآن وعلى لسان الرسول وقوله تعالى: «**فإن الله غَفُورٌ رَحِيمٌ**» يدل على عدم العقاب. وأنه لا ينافى الكفّارة كالتائب عن الزنا أو القتل لا

عقاب عليه، ومع ذلك يجب عليه الحدّ والقصاص، وأما إن كان الحلف في الإيلاء بغير الله كما إذا قال: إن وطئتك فلله على عتق رقبة أو صدقة أو حج أو صوم أو صلاة فهل يكون مولياً؟ الجديد، وهو قول أبي حنيفة ومالك وجماعة من العلماء أنه يكون موالياً لأن العتق والطلاق المعلقين بالوطء يحصلان لو وطيء ، فيكون ما يلزمه الوطء مانعاً له من الوطء، و يكون هو بتعليقه بالوطء مضرٌّ بها فيثبتُ لها المطالبة كما في اليمين بالله تعالى حتى يضيق الأمر عليه بعد مضى أربعة أشهر ليفيء أو يطلق، ولا يخفى أنّه لو كان المعلق به إلزام قربة في الذمّة فعليه ما في نذر اللجاج، وفيه أقوال أصحها أنّ عليه كفارة اليمين، والثاني عليه الوفاء بما سمى. والثالث التخّيير بين كفّارة اليمين و بين الوفاء. (الركن الثالث) المحلوف عليه: وهو الجماع وهذا من صرايح ألفاظه وكذا الوطء والإصابة. ومن كناياتها المباضعة والملامسة والمباشرة فلا تعمل إلا بالنيّة. (الركن الرابع) المدّة، فعن ابن عباس أنه لا يكون مولياً حتى يحلف أن لا يطأها أبداً* وعن الحسن وإسحاق أنه مول وإن حلف يوماً، وهذان المذهبان في غاية البعد. وعن أبي حنيفة والثورى أنّه لا يكون مولياً حتى يحلف على أن لا يطأها أربعة أشهر، أو فيما زاد. وعن مالك وأحمد والشافعي أنه لا يكون مولياً حتى تزيد المدة على أربعة أشهر. فعند الشافعي إذا آلى منها أكثر من أربعة أشهر أجل لأربعة أشهر، وهذه المدة تكون حقاً للزوج، فإذا مضت طالبة المرأة الزوج بالفيئة أو الطلاق، فإن امتنع الزوج منهما طلّقها الحاكم عليه، وعند أبي حنيفة إذا مضت أربعة أشهر يقع الطلاق بنفسه. حجّة الشافعي: أن الفاء في قوله: «**فإنْ فَاؤا**» تقضى كون ما بعدها من حكمى الفيئة، والطلاق مشروعاً متراخياً عن انقضاء الأشهر الأربعة، وأيضاً قوله: «**وإنْ عَزَمُوا الطّلاقَ فإنّ الله سَميعٌ عَليمٌ**» صريح في أن وقوع الطلاق إنما يكون بإيقاع الزوج، وفي أنّ الزوج لا بدّ أن يصدر عنه شيء يكون مسموعاً، وما ذاك إلاّ إيقاع الطلاق* أجاب أبو حنيفة بأنّ قوله: «**فإنْ فَاؤا**» تفصيل للحكم المتقدّم كما تقول أنا نزيلكم هذا الشهر فإن حمدتكم أقمت عندكم إلى آخره، وإلاّ لم أقم واتحوّل. وأيضاً الإيلاء طلاق في نفسه، فالطلاق إشارة إليه، وأيضاً الغالب أن العازم للطلاق والضرار وترك الفيئة لا يخلو من مقاولة ودمدمة وحديث نفس فذلك الذى يسمعه الله كما يسمع وسوسة الشيطان. واستدل على صحة مذهبه في أن الفيئة لا بدّ أن تقع في الأشهر بقراءة عبدالله بن مسعود: فإن فاؤا فيهنّ. وردّ بأنها شاذّة فلا معول عليه، والرجوع إلى الحق أولى* الله حسبي.

((القول فى سبب نزول قوله تعالى :))

«الطَّلاقُ مَـرَّتانِ فَإمْسَاكٌ بمعروفٍ أوْ تَسْريحٌ بإحسانٍ ولاَ يَحِلُّ لكُمْ أنْ تَأخُذوا مِمَّا آتيتُمـوهُنَّ شْيئاً إلاَّ أنْ يخَافَا ألاَّ يُقِيما حُدُودَ اللهِ فإنْ خِفْتُمْ ألاَّ يُقيمَا حُدُودَ اللهِ فَلاَ جُنَاحَ عليْهِمَا فيما افْتَدتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ومَنْ يَتعدَّ حُدُودَ اللهِ فأولئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»

سورة البقرة (الآية: ٢٢٩)

فى الواحدى أخبر الرّبيع عن الشافعى عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كان الرجل إذا طلَّق امرأته ثم أرجعها قبل أن تنقضى عدّتها كان ذلك له، وإن طلقها مائة مرّة، فعمد رجل إلى امرأته فطلّقها، ثم أمهلها حتى إذا شارفت انقضاء عدتها ارتجعها، ثم طلقها، وقال: واللهِ لا آو يك إلىَّ ولا تحلين أبداً، فأنزل اللهُ عزّ وجلّ: «**الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فإمْسَاكٌ بمعروفٍ أو تَسْرِيحٌ بإحْسَانٍ...**» وقوله: «**ولاَ يحِلُّ لَكُمْ أنْ تأخُذُوا مِمَّا آتيْتُموهُنَّ**» أى من المهور: «**شيْئاً**» إذا طلقتموهنَّ. ففى الخطيب أنها نزلت فى جميلة أخت عبدالله بن أبىّ بن سلول، كانت تبغض زوجها ثابت بن قيْس، فشكَتْهُ إلى أبيها، فقال: ارجعى إلى زوجك، فإنى أكره للمرأة أن لا تزال رافعةً يديْها تشكو زوجها، فلمّا رأت أباها لم يشكها رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل خلفه فجاءه فقال له: [مالك ولأهلك؟] فقال: والذى بعثك بالحق نبياً ما على وجه الأرض أحبّ إلىَّ منها غيرك، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ما تقُولين] فقالت: هومنّى أكرم النّاس حُبّاً لزوجته، ولكن لا أنا ولا ثابت، لا يجمع رأسى ورأسه شيء واللهِ لا أعيبه فى دين ولا خلق، ولكن أكرهُ الكفر فى الإسلام. ما أطيقه بغضاً. أى أكره إن أقمت عنده أن أقع فيما يقتضى الكفر بغضاً فيه. ويحتمل أن تريد كفران العشرة ــ إنى رفعتُ جانب الخباء فرأيتُه أقبل فى عدّةٍ، فإذا هو أشدُّهُمْ سواداً وأقصرهم قامةً، وأقبحهم وجهاً، فقال ثابت: قد أعطيتها حديقة فقل لها فلتردّها علىَّ وأخلّى سبيلها، فقال لها: [تردّينَ عليه حديقته وتملكين أمرك؟] قالت: نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [يا ثابت خُذْ منها ما أعطيتّها وخلّ سبيلها] ففعل، وفى رواية [اقبل الحديقة وطلّقها تطليقةً] * وفى القرطبي: ثبت أنّ أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عدد، وكانت عندهم العدة

معلومة مقدّرة، وكان هذا فى أوّلِ الإسلام برهةً، يطلّقُ الرجل امرأته ما شاء من الطلاق، فإذا كادت تحلُّ من طلاقه راجعها ما شاء، فقال رجل لامرأته على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم: لا آو يك ولا أدعك تحلّين، قالت: وكيف؟ قال: أطلّقك، فإذا دنا مضيّ عدتك راجعتك، فشكت المرأة ذلك إلى عائشة فذكرت ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية بياناً لعدد الطلاق الذى للمرء منه أن يرتجع دون تجديد مهر وولّي، ونَسَخَ ما كانوا عليه* أخرجه الترمذى والحاكم عن عائشة رضى الله عنها. ومعنى الآية أن الطلاق الرجعى مرتان، ولا رجعة بعد الثالثة إلاَّ أن تنكح زوجاً آخر، وهذا التفسير هو قول من جوّز الجمع بين الطلاق الثلاث فى دفعة واحدة وهو الشافعى. وقيل فى معنى الآية أن التطليق الشرعى يجب أن يكون تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والارسال دفعة واحدة، وهذا تفسير من قال إن الجمع بين الثلاثة حرام إلا أن أبا حنيفة قال يقع الثلاث وإن كان حراماً. وقيل إن الآية دالّة على عدد الطلاق الذى يكون للرجل فيه الرجعة على زوجته، والعدد الذى تبين به زوجته منه، والمعنى أن عدد الطلاق الذى لكم فيه رجعة على أزواجكم إذا كن مدخولاً بهنّ تطليقتان، وإنَّه لا رجعة له بعد التطليقتين إن سرحها فطلقها الثالثة. كذا فى الخازن. أى والثالثة تؤخذ من قول: **«أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ»** أو من قوله: **«فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ...»** وقوله: **«فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ»** يعنى بعد الرجعة، وذلك أنه إذا راجعها بعد التطليقة الثانية فعليه أن يمسكها بالمعروف. وهو كل ما عرف فى الشرع من أداء حقوق النكاح وحسن الصحبة: **«أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ»** يعنى أنه يتركها بعد الطلاق حتى تنقضى عدتها من غير مضارة، وقيل هو أنه إذا طلقها أدى إليها جميع حقوقها المالية ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء، ولا ينفّر النّاسَ عنها كذا فى الخازن. وفى القرطبى: والتسريح يحتمل لفظه معنيين: أحدهما تركها حتى تتم العدة من الطلقة الثانية، وتكون أملك بنفسها وهذا قول السدى والضّحاك. والمعنى الآخر أن يطلقها ثالثة فيسّرحها وهذا قول مجاهد وعطاء وغيرهما وهو أصحّ لوجوه ثلاثة: أحدهما ما رواه الدارقطنى عن أنس أن رجلاً قال يا رسول الله قال الله تعالى: **«الطَّلاقُ مَرَّتَانِ»** فَلِمَ صار ثلاثا؟ قال: **«إمْسَاكٌ بمعروف أو تسريح بإحسان»** وفى رواية: هى الثالثة، ذكره ابن المنذر. الثانى: أن التسريح من ألفاظ الطلاق ألا ترى أنه قد قرىء وإن عزموا السّراح. الثالث: أن فعل تفعيلاً يعطى أنه

أحدث فعلاً مكرّراً على الطلقة الثانية، وليس فى الترك احداث فعل يعبّر عنه بالتفعيل. قال أبو عمر: وأجمع العلماء على أن قوله تعالى: «**أو تسْرِيحٌ بإحْسَانٍ**» هى الطلقة الثالثة بعد الطّلقتين، وإيّاها عنى بقوله تعالى: «**فإنْ طلَّقَهَا فَلاَ تحِلُّ لَهُ من بَعْدُ حتى تنكِحَ زوجاً غيرهُ**»* وفى الكرخى: الفاء فى قوله: «**فإمْسَاكٌ بمعروف**» للترتيب على التعليم، كأنه قيل إذا علمتم كيفية التطليق فعليكم أحد الأمرين. وإنما كان معناها ذلك لأن الإمساك بالمعروف، أو التسريح بالإحسان إنما يكون قبل استيفاء الطلقات الثلاث لا بعدها. والاحسان أعمُّ من المعروف. لأن المراد بالمعروف عدم المضارّة اعطاء المال جبراً لخاطرهنّ لما يحصل لهنّ بسبب الطلاق من الوحشة وانكسار الخاطر، وذلك على حسب ما كانوا يراعون فى بذل المعروف لمن يرتحل عنهم* وقوله تعالى: «**ولاَ يحِلُ لَكُمْ أنْ تأخُذُوا مِمَّا آتيْتُموهُنَّ**» أى أعطيتموهن. وقد تقدم بيان سبب نزولها «**شَيْئاً**» يعنى من مهر أو غيره، ثم استثنى الخلع فقال تعالى: «**إلاَّ أنْ يَخَافَا أنْ يقيما حُدُودَ الله**» أى ولا يحلُّ لكم أن تأخذوا منهنّ شيئاً فى حالٍ من الأحوال إلا فى حال خوفهما عدم إقامة حدود الله أى بما حدّه من الحقوق الزوجية من حسن الصحبة والمعاشرة بالمعروف، وقيل هو يرجع إلى المرأة وهو سوء خلقها واستخفافها بحق زوجها: «**فلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**» نفسها من المال ليطلقها. أى لا حرج على الزوج فى أخذه ولا الزوجة فى بذله.

قال الخازن: (**فَصْلٌ فى حُكْمِ الْخَلْعِ وفيه مسَائل**) :

الأولى : قال الزهرىُّ والنخعى وداود: لا يباح الخلع إلا عند الغضب والخوف من أن لا يقيما حدود الله. وذهب جمهور العلماء إلى أنه يجوز الخلع من غير نشوز ولا غضب غير أنه يكرهُ لما فيه من قطع الوصلة بلا سبب* عن ثوبان أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [أيُّما امرأة سألت زوْجها الطّلاقَ مِنْ غيْرِ بأسٍ فحرام عليها رائحة الجنّة] أخرجه أبو داود والترمذى.

* عن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: [أبغَضُ الحلالِ إلى الله الطّلاقُ] أخرجه أبو داود. ودليل الجمهور على جواز الخلع من غير نشوز قوله تعالى: «**فَإنْ طِبْنَ لكُمْ عَنْ شيء مِنْهُ نفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً**» فإذا جاز لها أن تهب مهرها من غير أن يحصل لها شيء فإذا بذلت كان ذلك فى الخلع الذى تصير بسببه مالكة أمر نفسها أولى* وأجيب عن الاستثناء المذكور فى هذه الآية أنه محمول على الاستثناء المنقطع.

(المسئلة الثانية) : الخلع جائز على أكثر مما أعطاها، و به قال أكثر العلماء، وقال بعضهم: لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها، وهو قول عليّ، و به قال الزهرى والشّعبيّ والحسن وعطاء وطاوس. وقال سعيد بن المسّيب: بل يأخذ دون ما أعطاها حتى يكون الفضل فيه* وحجة الجمهور أن الخلع عقد على معاوضة فوجب أن لا يقيّد بمقدار معيّن، كما أن للمرأة أن لا ترضى عند عقد النكاح إلا بالكثير فكذلك للزوج ألا يرضى عند الخلع إلاّ بالبذل الكثير لا سيما وقد أظهرت الاستخفاف بالزوج حيث أظهرت بعضه وكراهته.

(المسئلة الثالثة) : اختلف العلماء فى الخلع هل هو فسخ، أو طلاق. فقال الشافعى فى القديم: إنه فسخ، وهو قول ابن عباس وطاوس وعكرمة، و به قال أحمد وإسحاق وأبو ثور. وقال الشافعى فى الجديد: إنه طلاق وهو الأظهر، وهو قول عثمان وعليّ وابن مسعود والحسن والشعبيّ والنخعى وعطاء وابن المسّيب ومجاهد ومكحول والزهرى، و به قال أبو حنيفة ومالك وسفيان الثورى. وحجة القول القديم: أن الله تعالى ذكر الطلاق مرتين، ثم ذكر بعده الخلع، ثم ذكر الطلقة الثالثة فقال: «**فإن طلّقها فلاَ تحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زوْجاً غَيْرَهُ**» ولو كان الخلع طلاقاً لكان الطلاق أربعاً، وحجة القول الجديد أنه لو كان فسخاً لما صحّ بالزيادة على المهر المسّمى كالإقالة فى البيع، وأيضاً لو كان الخلع فسخاً، فإذا خالعها ولم يذكر مهراً وجب أن يجب المهر عليه كالإقالة، فإن الطلقة الثالثة قوله: «**أو تَسْرِيحٌ بإحْسَانٍ**» وفائدة الخلاف أنا إذا جعلناه فسخاً بانت منه بثلاث* : «**تِلْكَ**» الأحكام المذكورة في قوله: «**ولاَ تنكحوا المشركات...**» وهى ما تقدم من أحكام الطلاق والرجعة والخلع* : «**حُدُودُ اللهِ فَلاَ تعْتَدُوهَا**» فلا تتجاوزُوا عنها: «**وَمَنْ يتَعَدَّى حُدُوَ اللهِ فأولئكَ هُمُ الظّالِمُونَ**» والظالم اسم ذمّ وتحقير، فوقع هذا الاسم عليه ليكون جارياً مجرى الوعيد، وكيف لا والظالم ملعون: «**ألاَ لَعْنَةُ اللهِ على الظّالِمينَ**».

((القول فى سبب نزول قوله تعالى))

«وإذَا طَلَّقْتُمُ النِسَاءَ فَبَلَغْنَ أجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أنْ ينكِحْنَ أزْوَاجَهُنَّ إذَا تَرَاضَوْا بيْنَهُمْ بالْمَعْرُوف ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ منكُمْ يُؤمِنُ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أزْكَى لَكُمْ وأطْهَرُ واللهُ يَعْلَمُ وأنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» سورة البقرة (الآية: ٢٣٢)

فى الواحدى: ذكر عن الحسن أنه قال: حدثنى معقل بن يسار أنها نزلت فيه قال: كنت زوّجتُ اختاً لى من رجل فطلقها حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له: زوّجتك وأفرشتُك وأكرمتك فطلقتها، ثم جئت تخطبها!! لا والله لا تعود إليها أبداً، قال: وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، فزوّجتُها إياهُ، رواه البخارى عن أحمد بن حفص، وفى رواية فكفرتُ عن يمينى وأنكحتُها إيَّاهُ. قوله: «**فَبَلَغْنَ أجَلَهُنَّ**» أى انقضت عدتهن: «**فَلاَ تعضُلُوهُنّ**» أى تمنعوهُنَّ من: «**أنْ ينكِحْنَ أزواجَهُنَّ**» أى المطلقين لهنّ. وهذه الآية دليل على أنّ المرأة لا تزوج نفسها إذ لو تمكنت منه لم يكن لعضل الولىّ فائدة، ولا يُعارض ذلك بإسناد النكاح إليهنّ لأنه إنما أسند إليهن لتوقف النكاح على إذنهن: «**إذا تَرَاضَوْا بيْنَهُمْ**» أى الأزواج والنساء: «**بالْمَعْرُوفِ**» أى بما يعرفه الشرع و يستحسنه من كونه بعقد حلال. وفيه دليل على أن العضل عن التزو يج من غير كفء غير منهىّ عنه : «**ذَلِكَ**» أن ترك العضل: «**أزكَى**» أنفع : «**لَكُمْ وأطْهَرُ**» لكم ولهن من دَنس الآثام لما يخشى على الزوجين من الريبة بسبب العلاقة بينها: «**واللهُ يَعْلَمُ**» ما فيه المصلحة: «**وأنتُم لاَ تعْلَمُونَ**» ذلك لقصور عقولكم. فى أن الخيرة فيا تأتون ولا فيا تذرون* من الخطيب وابن كثير. وفى الغرائب: وعن مجاهد والسدى أنّ جابر بن عبدالله كانت له بنت عَم فطلقها زوجها وأراد رجعتها بعد العدة فأبى جابر فنزلت* وقد تمسّك الشافعى بالآية فى أن النكاح لا يجوز إلا بولىّ لأنه لو جاز للمرأة أن تزوج نفسها، أو توكل من يزوّجها لما كان الولى قادراً على عضلها من النكاح. وهذا مبنىٌّ على أن

الخطاب فى: «**لا تعضُلُوهُنَّ**» للأولياء. وتمسك أبو حنيفة بقوله تعالى: «**أنْ ينكحْنَ أزْوَجَهُنّ**» على أن النكاح بغير وليّ جائز، وذلك أنه تعالى أضاف النكاح إليها إضافة الفعل إلى فاعله، والتصرف إلى مباشرة، ونهى الوليَّ عن منعها من ذلك ولو كان ذلك التصرف فاسداً لما نهى الولى عن منعها منه، و يتأكد هذا النص بقوله: «**حتّى تنكِحَ زوْجاً غيْره**» وأجيب بأن الفعل كما يضاف إلى المباشر فقد يضاف أيضاً إلى المتسبب مثل بنى الأمير داراً، وإنما ذهبنا إلى هذا وإن كان مجازاً لدلالة الحديث على بطلان هذا النكاح. ففى ابن كثير، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: نزلت هذه الآية فى الرجل يطلّق امرأته طلقةً أو طلقتين، فتنقضى عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها* وكذا روى العوفى عنه عن ابن عباس أيضاً، وكذا قال مسروق وابراهيم النخعى والزهرىّ والضّحاك أنها نزلت فى ذلك. قال ابن كثير: وهذا الذى قالوه ظاهر من الآية. وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوّج نفسها، وأنّه لا بد في النكاح من وليّ كما قاله الترمذى وابن جرير عند هذه الآية كما جاء فى الحديث: [لا تُزَوّجُ المرأةُ المرأةَ ولا تزوّجُ المرأةُ نفْسَها فإن الزانيةهى التى تزوّج نفسها] وفى الأثر الآخر [لا نِكَاحَ إلاَّ بولّيٍ مُرْشِدٍ وشاهِدَىْ عَدْلٍ] وفى الخازن: فى قوله: «**فَلاَ تعْضُلُوهُنّ أنْ ينكِحْنَ أزْوَاجَهُنَّ**» خطاب للأولياء، والمعنى لا تضيقوا عليهن أيها الأولياء فتمنعوهن من مراجعة أزواجهن بنكاح جديد تبتغون بذلك مضارتهن، فهو خطاب عامٌّ لجميع الأولياء، وإن كان سبب الآية خاصة* أو أنّ الخطاب للأمة جميعها، لأنها متكافلة فى المصالح العامة، ليعلم المسلمون أنّه يجب على من علم منهم بوقوع المنكر من أولياء النساء أو غيرهم أن ينهوهُ عن ذلك حتى يفىء إلى أمر الله، وأنهم إذا سكتوا عن المنكر ورضوا به يأثمون، إذ كثيراً ما يرجحون أهواءَهم وشهواتهم على الحق والمصلحة، ثم يقتدى بعضهم ببعض، فيكثر الشرّ والمنكر فتهلكُ الأمة كما قال تعالى: «**لُعِنَ الّذِينَ كَفَروا مِنْ بَنِي إسْرائيلَ عَلى لِسَانِ دَاوُدَ وَعيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكانُوا يعْتَدُونَ* كَانُوا لاَ يتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئسَ مـا كَانُوا يَفْعَلُونَ**».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» سورة البقرة (الآية: ٢٥٦)

في الواحدى: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كانت المرأة من نساء الأنصار تكون مقلاة أي لا يعيش لها ولد فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده. فلمّا أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى **«لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ..»** قال سعيد بن جبير: فمن شاء لحق بهم، ومن شاء دخل في الإسلام* وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار كان له غلامٌ أسود يقال له صبيح، وكان يكرهه على الإسلام* وقال مسروق: كان لرجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف إبنان فتنصّرا قبل أن يُبعث النبيُّ صلى الله عليه وسلم، ثم قدما المدينة في نفر من الأنصار يحملون الطعام، فأتاهما أبوهما فلزمهما، وقال: والله لا أدعكما حتى تُسلما فأبيا أن يُسلما، فاختصُموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أيدخل بعضى النّار وأنا أنظر؟ فأنزل الله عز وجل **«لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ..»** فخلّى سبيلهما* وقال مجاهد: كان ناس مسترضعين في اليهود: قريظة والنضير، فلمّا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإجلاء بنى النَّضير، قال أبناؤهم من الأوس الذين كانُوا مسترضعين فيهم لنذهبنّ معهم ولندينَنَّ بدينهم. فمنعهم أهليهم وأرادُوا أن يكرهوا على الإسلام فنزلت **«لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ..»** الآية أي على الدخول فيه، فمن أعطى الجزية لم يكره على الإسلام، فهو عام مخصوص بأهل الكتاب، وقيل عام منسوخ، فكان هذا في الابتداء قبل أن يؤمر بالقتال، فصارت الآية منسوخة بآية السيف قاله ابن مسعود رضي الله عنه: كذا في الخطيب، وفي القرطبي: قال السدى: نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال له أبوحصين، كان له ابنان. فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلمّا أرادُوا الخروج أتاهم ابنا الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصّرا، ومضيا معهم إلى الشام، فأتى أبوهما رسول الله صلى الله عليه وسلم مشتكياً أمرهما، ورغب في أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من يردّهما فنزلت **«لاَ إِكْرَاهَ**

في الـدِّيـنِ..» ولم يؤمر بقتال أهل الكتاب، وقال: (أبعدهما الله هُمَا أوّلُ من كفر) فوجد أبوالحصين في نفسه على النبي صلى الله عليه وسلم حيث لم يبعث في طلبهما، فأنزل الله جلّ ثناؤه «فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتّى يُحَكِّمُوكَ فيمَا شجَرَ بيْنَهُم» الآية، ثم إنه نسخ «لاَ إكْرَاهَ في الدِّينِ» فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة (براءة) أي أنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول، ولم ينقد له أو يبذّل الجزية قوتل حتى يقتل وهذا معنى الإكراه قال تعالى: «ستدعوْن إلى قوْمٍ أولى بأسٍ شديدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أويُسْلِمون» وقال تعالى: «يا أيُّها النبيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ والمنافقينَ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ» وقال تعالى: «يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً واعْلَمُوا أنَّ الله مع المتقين» وفي الخازن : زيادة على ما تقدم ذكره من أسباب النزول: وقيل نزلت في أهل الكتاب إذا قبلوا بذل الجزية لم يكرهوا على الإسلام، وذلك أن العرب كانوا أمّةً أميّةً ولم يكن لهم كتاب يرجعوا إليه فلم يقبل منهم إلاَّ الإسلام أو القتل، ونزل في أهل الكتاب «لاَ إكْرَاهَ في الـدِّينِ» يعنى إذا قبلوا الجزية، فمن أعطى الجزية منهم لم يكره على الإسلام، فعلى هذا القول تكون الآية محكمة ليست منسوخة* وقوله: «قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» أي ظهر بالآيات البيّنات أنَّ الإيمان رشد، والكفر غيٌّ، والعاقل لا يختار الشقاوة على السعادة بعد تبيّنها، وأصل الغيّ بمعنى الجهل إلاَّ أن الجهل في الاعتقاد والغي في الأعمال كذا في الكرخي. «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ» الشيطان، أو الأصنام «ويُؤْمِنْ بالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ» تمسّك، فالسين والتاء زائدتان للمبالغة وليستا للطلب. أي بالغ في التمسك «بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى» بالعقدة المحكمة «لاَ انْفِصَامَ لَهَا» أي لا انقطاع لها ولا زوال وهلاك «والله سَمِيعٌ» لما يقال «عَلِيمٌ» بما يفعل من العزائم والعقائد.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«الَّـذِينَ يُنْفِقُونَ أمْوالَهُمْ في سَبيلِ الله ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أنْفَقُوا منّاً ولاَ أذًى لَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ ربِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُون»

سورة البقرة (الآية: ٢٦٢)

في الواحدى: قال الكلبي: نزلت في عثمان بن عفّان وعبدالرحمن بن عوف، أمّا

عبدالرحمن بن عوف فإنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأربعة آلاف درهم صدقةً، فقال: كان عندى ثمانية آلاف درهم، فأمسكتُ منها لنفسى ولعيالى أربعة آلاف درهم وأربعة آلاف أقرضتُها ربّى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت] وأما عثمان رضي الله عنه فقال عليٌّ: جهّزَ من لا جهاز له في غزوة تبوك، فجهز المسلمين بألف بعير بأقتابها وأحلاسها، وتصدّق برؤمةٍ: ركية كانت له على المسلمين، فنزلت فيهما هذه الآية. وقال أبوسعيد الخدرى: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم رافعاً يده يدعو لعثمان و يقول: [يارَبّ إنَّ عثمان بن عفّان رضيتُ عنه فارضَ عنه] فما زال رافعاً يده حتّى طلع الفجر، فأنزل الله تعالى فيه «**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فى سَبِيلِ اللهِ...**» الآية، وكذا في الخطيب ونحوه في الخازن، والمعنى الذين يعينون المجاهدين في سبيل الله بالإنفاق عليهم في حوائجهم ومؤنتهم «**ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً ولاَ أَذًى**» أي لا يتبع نفقته التي أنفقها عليهم بالمنّ والأذى، هو أن يُعيّره فيقول كم تسأل وأنت فقير أبداً وقد بليت بك. وأراحنى الله منك وأمثال ذلك. والمنّ في اللغة الانعام، والمنّة النعمة الثقيلة، يقال منّ فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة، و يكون ذلك بالقول أيضاً، ومنه قول الشاعر:

فمنّى علينا بالسَّلام فإنما ... كلامُك يا قوتٌ ودُرٌ منظم

والمنّان في صفة الله تعالى معناه المتفضل، فمنّ الله إفضالٌ على عباده، وإحسان إليهم، فجميع ما هُم فيه منّةٌ منه سبحانه وتعالى، ومنُّ العباد تعيير وتكدير. فظهر الفرق بينهما. «**لَهُمْ أَجْرُهُمْ**» يعنى ثوابهم «**عِنْدَ رَبِّهِمْ**» يعنى في الآخرة «**وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**» يعنى يوم القيامة «**وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**» يعنى على ما خلّفوا من الدنيا.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ولا تَيَمَّمُوا الْخَبِثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيه إلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فيه واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» سورة البقرة (الآية: ٢٦٧)

في الواحدى: عن جابر رضي الله عنه قال: أمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بزكاة الفطر بصاع من تمر، فجاء رجل بتمر ردىء فنزل القرآن «**يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا**

مِنْ طيّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أخْرَجْنَا لكُمْ مِنَ الأرْضِ ولا تَيَمَّمُوا الْخَبِثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ» * وعن السدّى عن عدى بن ثابت عن البراء: قال: نزلت هذه الآية في الأنصار. كانت تخرج إذا كان جذاذ النخل من حيطانها أقناء من التمر والبسر، فيعلّقونها على جبل بين اسطوانتين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيأكل منه فقراء المهاجرين وكان الرجل يعمد فيخرج قنو الحشف، وهو يظنّ أنّه جائز عنه في كثرة ما يوضع في الأقناء، فنزل فيمن فعل ذلك، «**وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ**» يعنى القنو الذى فيه حشف، ولو أهدى إليكم ما قبلتموه إلا على استحياء من صاحبه وغيظ فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم، قاله البراء: كذا في الخطيب. وفيه: عن ابن عباس رضي الله عنهما كانوا يتصدّقون بحشف التمر وشراره فنهوعن ذلك* هذا إذا كان كله أو بعضه جيداً، فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب، نعم إن كان كُلّ ماله رديئاً فلا بأس بإعطاء الردىء. وفي أبى السعود «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا أنْفِقُوا مِنْ طيّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ..**» هذا بيان لحال ما ينفق منه إثر بيان أصل الانفاق وكيفيته، أي أنفقوا من حلال ما كسبتم وجياده لقوله تعالى: «**لن تَنَالُوا البرَّ حتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**» وليس في بقيّة التفاسير زيادة على ما تقدم، قوله: «**أنْفِقُوا مِنْ طيّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ**» أنفقوا: زكّوا «**مِنْ طيّبَاتِ**» أي جياد «**مَا كَسَبْتُمْ**» من المال بالتجارة والصناعة، وفيه دلالة على إباحة الكسب، وأنّه ينقسم إلى طيّب وخبيث، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ما أكل أحدٌ طعاماً قطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وكان نبيُّ الله داود لا يأكل إلا من عمل يده]» * والزكاة واجبة في التجارة. فبعد الحول تُقوّم العروض: فيخرج منها قيمتها. ربع العشر أي ٢/١ ٢٪ إن كان قيمتها عشرين ديناراً أو مائتى درهم فضّة فيزكيها. قال سمرة بن جندب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نُخرِجَ الصّدقة من الذي يُعدُّ للبيع* «**وَمِمَّا**» أي من طيبات ما «**أخْرَجْنَا لكُمْ مِنَ الأرْضِ**» من الحبوب والثمار والمعادن. واتفق العلماء على إيجاب العشر في النخيل والكروم وفيما يقتات به من الحبوب، إنْ كان مسقياً بماء السماء، أو من نهر يجرى الماء فيه من غير مؤنةٍ، وإن كان مسقيّاً بساقية أو نضح. أي فيه مؤنة ففيه نصف العشر لقوله صلى الله عليه وسلم: [فيما سقت السماء والعيون، أو كان عشريّاً: العشر. وفيما يُسْقى بالنّضح نصف العشر] وعنه صلى الله عليه وسلم: [ليس في حبٍ ولا تمرٍ

صَدَقة حتى يبلغ خمسة أوْسق] والوسق (٦٠ صاعاً) قوله: «**وَلا تَيَمَّمُوا**» أي لا تقصدُوا «**الْخَبِيثَ**» أي الرديء «**مِنْهُ**» المذكور «**تُنْفِقُونَ**» في الزكاة «**وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ**» أي الخبيث «**إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا**» أي تُسامحُوا «**فيه**» بالحياء مع الكراهة، وهو على حدّ قول البراء المتقدّم. واختلف العلماء هل الآية في الزكاة المفروضة أم في التطوع؟ فقال عليٌّ بن أبي طالب وعبيدة السلمانيّ وابن سيرين: هي الزكاة المفروضة، نهى الناس عن إنفاق الرديء فيها بدل الجيّد* وقال ابن عطية: والظاهر من قول البراء بن عازب والحسن وقتادة أنّ الآية في التطوع، ندبُوا ألا يتطوعوا إلا بمختار جيد* والحق أن الآية تعم الوجهين: فالأمر فيها للوجوب في الفرضيّة، وللندب في التطوع، لما روى البراء أن رجلاً علّق قِنْو حَشَف، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [بِئسَمَا عَلَّق] فنزلت الآية خرّجه الترمذي. فالأمر على هذا القول للندب، ندبوا ألا يتطوعوا إلاَّ بجيد مختار «**واعْلَمُوا أَنَّ الله غنيٌّ حَمِيدٌ**» أي إنَّ الله غنيٌّ عن إنفاقكم، وإنما يأمركم به لمنفعتكم، فلا تتقربوا إليه بما لا يقبله لرداءته، وهو المستحق للحمد على جلائل نعمائه، ومن الحمد اللائق بجلاله تحرّي إنفاق الطيّب مما أنعم به.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ويُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّآتِكُمْ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»

سورة البقرة (الآية: ٢٧١)

في الواحدى: قال الكلبي: لمَّا نزل قوله تعالى: «**وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ**» الآية. قالوا يا رسول الله: صدقة السّر أفضل، أم صدقة العلانية، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وكذا في الخطيب والقرطبي والخازن. وفي ابن كثير: وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبى حدّثنا الحسين بن زياد المحاربيّ مؤدب محارب، أنا موسى بن عمير، عن عامر الشعبيّ في قوله: «**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**» قال: نزلت في أبى بكر وعمر رضي الله عنهما: أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: وما خلّفت وراءك لأهلك يا عمر؟ قال: خلّفت لهم نصف مالى. وأمّا أبوبكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتى دفعه

إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: وما خلّفت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟ فقال: عدة الله وعدة رسوله. فبكى عمر رضي الله عنه وقال: بأبي أنت وأمي يا أبا بكر، والله ما استبقْنا إلى باب خيرٍ قط إلاَّ كنت سَابقاً* قال ابن كثير: وهذا الحديث روى من وجه آخر عن عمر رضي الله عنه، وإنما أوردناه ههنا لقوْل الشّعبي: إنّ الآية نزلت في ذلك، وقال: ثم إنَّ الآية عامة في أنّ إخفاء الصدقة أفضل سواء كانت مفروضة، أو مندوبة، لكن روى ابن جرير من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: جَعَل الله صدقة السّر في التّطوّع تفضُل علانيتَها يقال بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرّها يقال بخمسة وعشرين ضعفاً* وفي الخازن: وقيل إنَّ الآية واردة في زكاة الفرض، وكان إخفاؤها خيراً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنّهم كانوا لا يظنون بأحدٍ أن يمنع الزكاة، فأما اليوم في زماننا فإظهار الزكاة أفضل حتى لا يُساء الظنَّ به* وقيل إن الآية عامة في جميع الصدقات الواجبة والتطوع، والاخفاء أفضل في كل صدقة من زكاة وغيرها، قوله: «**إنْ تُبْدُا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ**» أي إن تظهروا الصدقات فنعمّ عملاً إظهارها لما فيه من الأسوة الحسنة، فيقتدى بالمتصدّق كثير من الناس ولأنَّ الصدقة من شعائر الإسلام التي لو أخفيت لتوهم منعها «**وَإنْ تُخْفُوهَا وتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**» أي وإن تعطوها الفقراء خفية فهوا أفضل جبراً لخاطرهم. ولما في ذلك من البعد عن شبهة الرّياء، ولما دلّت عليه الآثار والأحاديث: أخرج أحمد عن أبي أمامة أنَّ أبا ذر قال: [يا رسول الله أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: صدقة سرٍ إلى فقيرٍ، أو جَهْدٌ مِنْ مُقلٍ، ثم قرأ الآية] وروى الطبرى مرفوعاً [أن صدقة السر تُطفِىء غضب الرب] وروى البخاريُّ: أن من السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم القيامة إذ لا ظلّ إلا ظله، [ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تُنفق يمينه] وقد فهم من قوله: «**الفُقَرَاءَ**» ولم يقل فقراءكم. أعني المسلمين ــ أنّ صدقة التطوع تُعطى للمسلم والكافر والبرّ والفاجر، لأن الله كتب الرحمة والإحسان في كل شيء، فقد ورد في الصحيحين [في كل ذى كبدٍ حرَّى أجر] أي في جميع الأحياء، وتمنع الزكاة المفروضة التي هى أحد أركان الإسلام عن الكافر، ومثلها زكاة الفطر. قوله: «**و يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّآتِكُمْ**» أي ويمحوا عنكم بعض ذنوبكم لأنَّ الصدقة لا تكفر جميع الذنوب، وأصل التكفير في اللغة التّغطية والستر. وفي الخازن قال

ابن عباس: جميع سيئاتكم* وقيل أدخل من للتبعيض ليكون العباد على وجل ولا يتكلموا، والمعنى: ونكفر عنكم الصغائر من سيئاتكم «**والله بِمَا تَعْمَلُونَ خبيرٌ**» يعنى من إظهار الصدقات وإخفائها، فجازيكم عليه. وفي هذا ترغيب في إعطاء الصدقات سرّاً.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ولكنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ومَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فلأنفُسِكُمْ ومَا تنفِقُونَ إلاَّ ابْتِغَاءَ وجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إليكُمْ وأنْتُمْ لاَ تُظْلَمُون* لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فى سَبيلِ اللهِ لا يستطيعُونَ ضَرْباً فى الأرْضِ يَحْسَبُهُمَ الْجَاهِلُ أغنياءَ مِنَ التَّعَفُّف تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْألُونَ النَّاس إلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خيْرٍ فإنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ» سورة البقرة (الآية: ٢٧٢، ٢٧٣)

في الخازن: قيل سبب نزول هذه الآية أن ناساً من المسلمين كان لهم قربات وأصهار في اليهود وكانُوا ينفعونهم و ينفقون عليهم قبل أن يسلمُوا، فلمّا أسلموا كرهوا أن ينفعوهم وأرادُوا بذلك أن يسلموا، وقيل كانُوا يتصَّدقون على فقراء أهل المدينة فلمّا كثر المسلمون نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التصدق على المشركين كى تحمله الحاجة إلى الدخول في الإسلام لحرص النبي صلى الله عليه وسلم على إسلامهم فنزل «**لَيْسَ عليكَ هُدَاهُمْ**» ومعناه ليس عليك هداية من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لأجل أن يدخلوا في الإسلام فحينئذٍ تتصدّق عليهم، وأعلمه الله تعالى أنّه إنما بعث بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه، فأمّا كونهم مهتدين فليس ذلك إليك* وفي الخطيب: وقيل إن أسماء بنت أبى بكرة حجّت فأتتها أمها تسألها وهى مشركة فأبت أن تعطيها فنزلت* وفي القرطبي: روى سعيد بن جبير مرسلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في سببب نزول هذه الآية أن المسلمين كانُوا يتصدّقون على فقراء أهل الذمّه، فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تتصدّقوا إلا على أهل دينكم] فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام* وذكر النقّاش أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بصدقات فجاء يهوديّ، فقال: اعطنى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [ليس لك من صدقة المسلمين شيء] فذهب اليهوديُّ غير بعيد فنزلت «**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ**» فدعاه رسول الله صلى الله

عليه وسلم فأعطاه* وفي الخطيب: وعن بعض العلماء لو كان المنفق عليه أشر خلق الله كان لك ثواب نفقتك، وأمّا الصدقة المفروضة فلا يجوز وضعها إلا في المسلمين* وجوّز أبوحنيفة صرف صدقة الفطر إلى أهل الذّمة* وفي الطبرى: وقد قام الاجماع على أنّ الذمّيّ لا يعطى من زكاة الأموال شيئاً، أما صدقة التطوع فلا بأس بإعطائهم منها لقوله تعالى: «**لاَ ينْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فى الدِّينِ ولَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أنْ تبرُّوهُمْ وتُقْسِطُوا إلَيْهِم**» لذا يدفع لأهل الذمّة من صدقة التطوّع إذا احتاجوا..بل وذكر أبويوسف في كتاب الخراج أنَّ عمر رضي الله عنه رأى شيخاً ضريراً يسأل على باب فقال له: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: الجزية والحاجة والسنّ، فأخذ بيده، وذهب إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها، وأرسل إلى خازن بيت المال أن انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناهُ إن أكلنا شيبتَهُ، ثم نخزله عند الهرم، «**إنَّما الصّدقاتُ للفقراءِ والمساكين**» وهذا من مساكين أهل الكتاب. ووضع عنه الجزية وعن ضربائه، وأجرى له رزقاً، وليس في بيت مال المسلمين إلاّ الصدقات المفروضة، فأعطاه منها بدليل استشهاده بالآية «**إنَّما الصّدقَاتُ للفقراءِ والمساكين**» والله أعلم. وفي ابن كثير: قال أبوعبدالرحمن النسائى: أنبأ محمد بن عبدالسلام بن عبدالرحيم، أنبأنا الفريابى، حدّثنا سفيان عن الأعمش، عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس قال: كانُوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فسألوا: فرخص لهم فنزلت هذه الآية «**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ..**» الآية. وهذا رواه أبوحذيفة وابن المبارك وأبوأحمد الزبيرى، وأبوداود الحضرميّ عن سفيان وهو الثورى به، وقال ابن أبى حاتم: أنبأ أحمد بن القاسم بن عطيه، حدّثنى أحمد بن عبدالرحمن يعنى الدشتكى، حدثنى أبى عن أبيه، حدّثنا أشعث بن اسحاق عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية «**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ**» الآية. فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين* قوله تعالى: «**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ**» أي الناس إلى الدخول في الإسلام إنما عليك البلاغ والإرشاد، والحث على المحاسن والنهى عن القبائح، وقوله في آية أخرى «**وإنّكَ لتهْدِى إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**» إنما أراد هنا الدعوى إلى الهدى. كذا في الكرخى

«ولـكِـنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ» هدايته إلى الدخول فيه «وما تفْعَلُوا مِنْ خيرٍ» مال ولو على كـافر ولكن هذا في غير صدقة الفرض «فَلأنْفُسِكُمْ» لأنَّ ثوابه لها «وما تُنْفِقُونَ إلاَّ ابتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ» أي ثوابه لا غير من عرض الدنيا «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إليكُمْ» جـزاؤه «وأنْـتُـمْ لاَ تُظْلَمُونَ» تنقصون منه شيئاً. «لِلْفُقَراءِ» أي الصدقات السابقة، أو الـنفقات «الَّـذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ» أي حَبَسُوا أنفسهم على الجهاد. في الجلالين نـزلـت في أهـل الصفة، وهم أربعمائة من المهاجرين، أرصدوا لتعلّم القرآن والخروج مع السّـرايا. وفي الخازن: وهم فقراء المهاجرين كانوأ نحو أربعمائة رجل لم يكن لهم بالمدينة مـساكن ولا عشائر، وكانُوا يأوون إلى صفة فى المسجد يتعلمون القرآن بالليل و يرضخون الـنـوى بـالنّهار، وكانُوا يخرجون في كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم،وهم أصـحـاب الـصـفّة، فحثّ الله تعالى النَّاس على مواساتهم، فكان من عنده فضل أتاهم به إذا أمسى «لا يـسـتـطيعُونَ ضَرْباً فى الأرْضِ» يعنى لا يتفرغون للتجارة وطلب العيش والـكـسـب، وهم أهل الصفة الذين تقدم ذكرهم.. وقيل: هم قوم أصابتهم جراحات في الجـهـاد مـع رسـول الله صلى الله عليه وسلم، فصاروا زمنى، حصرهم المرض والزمانة عن الـضرب في سبيل الله، «يَحْسَبُهُمَ الْجَاهِلُ أغنياءَ مِنَ التَّـعَفُّـفِ» أي يظن من لم يختبر حـالـهـم أنهـم أغـنـيـاء من التعفف، وهوتفعل من العفة، وهى ترك الشيء والكف عنه، يقال تعفف إذا ترك السؤال والزم القناعة.

والمعنى: يـظنهـم مـن لم يـعـرف حـالهـم أغنياء لإظهار التّجمل وتركهم المسئلة، وفي الـشرع يحرم السؤال لغير ضرورة، روى أبوداود والترمذي من حديث عبدالله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [لا يحلُّ الصدقة لغنىّ ولا لذى مِرّةٍ سوىًّ] والمرة بكسر الميم الـقـوّة، والـسـوى: هـو الـسليم الأعضاء، والمراد به القادر على الكسب. وروى أحمد وأبـوداود أن رسـول الله صلى الله عـليه وسلم قال: [مَن سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنّم، قالوا يا رسول الله: وما يغنيه؟ قال: مايُغديه أو يعشيه]. وروى أحمد وابن مـاجـة عـن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [من سأل الناس أموالهم تكثراً فـإنمـا يـسأل جمراً، فليستقل منه أو ليستكثر] وروى أحمد والبخارى ومسلم عن أبى هريرة قـال: [سـمـعـت رسـول الله صلى الله عـليه وسلم يقول: لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظـهـره فـيتصدق منه، و يستغنى به عن الناس، خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه]

فمن يعلم أنه يسأل لنفسه تكثراً كالشحاذين الذين جعلوا السؤال حرفة وهم قادرون على العمل ــ لا يعطى شيئاً، فقد رأى عمر رضي الله عنه سائلاً يحمل جراباً، فأمر أن ينظر فيه، فإذا هو خبز فأمر أن يؤخذ منه و يلق إلى إبل الصدقة* وهذا يدل على جواز مصادرة أموال الشحاذين لأنهم اكتسبوها من وجه محرم غير مشروع وفي المراغي: وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوماً على أصحاب الصفة، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال: [أبشروا يا أصحاب الصفّة، فن بقي من أمتي على النعت الذي أنتم عليه راضياً بما فيه فإنه من رفقائى] قال المراغى: ولا يحلُّ لأهل التكايا مشايخ الطرق أن يأكلوا أموال الناس، لأنهم لم ينقطعوا لتعلّم علم ولا غزو في سبيل الله، بل قصارى أمر الأ ولين أن يأكلوا الصدقات والأ وقاف ليعبدوا الله في هذه التكايا، فهي لهم كالأديار للنصارى وهم فيها كالرهبان، وإن كان بعضهم قد يتزوّج، وكذلك مشايخ الطرق الذين ينزلون بجماعتهم بلداً بعد آخر، و يكلّفون من يستضيفونه الذبائح والشيء الكثير من الطعام، ثم لا يخرجون إلا مثقلين بالمال والهدايا، بل قد يسلبون و ينهبون باسم الدين، وفي معرض الكرامات، فهؤلاء الأ وغاد يشبهون أنفسهم بأهل الصفة، و يزعمون أنَّ لأكلهم أموال الناس بالباطل أصلاً في الكتاب والسنة «**كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إنْ يقُولون إلاّ كذباً**»* وقوله: «**تَعْرِفُهُمْ بسيمَاهُمْ**» السيماء والسيمياء والسمة: العلامة التى يعرف بها الشيء، واختلفوا في معناها، فقيل: هي الخضوع والتواضع، وقيل: هى أثر الجهد من الحاجة والفقر، وقيل: هي صفرة ألوانهم من الجوع ورثاثة ثيابهم من الضرّ* كذا في الخازن. والمعنى بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم كما قال تعالى: «**سيماهُمْ في وجُوهِهِمْ**» وقال: «**ولتعْرِفَنَّهُمْ فى لَحْنِ الْقَوْلِ**» وفي الحديث الذي في السنن [اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله] ثم قرأ «**إنَّ فى ذلك لآياتٍ للمتوسِّمينَ**» وقوله: «**لاَ يسئَلُونَ النَّاسَ إلْحَافاً**» أي لا يلحون في المسئلة، و يكلّفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن المسئلة فقد ألحف في المسئلة قال البخارى: حدَّثنا ابن أبي مريم، حدَّثنا محمد بن جعفر، حدَّثنا شريك بن أبى نمر أن عطاء بن يسار وعبدالرحمن بن أبى عمرة الأنصارى قالا: سمعنا أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لَيْسَ المسكينُ الذي تردُّه التمرةُ والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان: إنما المسكين الذي يتعفف. اقرؤوا إن شئتم يعنى

قوله «لا يسألُونَ النَّاسَ إلْحافاً»] وكذا رواه مسلم بهذا اللفظ عن أبى هريرة رضي الله عنه، وفي البخارى عنه أيضاً قال: [ليس المسكين بالطّواف عليكم فتطعمونه لقمةً لقمةً إنما المسكينُ المتعفف الذي لا يسأل الناس إلحافاً] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبوبكر الحنفى، حدثنا عبدالحميد بن جعفر عن أبيه عن رجل من مزينة أنّه قالت له أمه: ألا تنطلق فنسأل رسول الله كما يسأله الناس؟ فانطلقت أسأله فوجدته قائماً يخطب وهو يقول: [ومن استعفّ أعفَّه الله، ومن استغنى اغناه الله، ومن سأل الناس وله عدل خمس أواق، فقد سأل الناس إلحافاً] فقلت بينى و بين نفسى لناقة لى خير من خمس أواق ولغلامى ناقة أخرى فهى خير من خمس أواق، فرجعت ولم أسأل* وأخرج أحمد عن أبي سعيد عن أبيه قال: سرحتنى أمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله، فأتيتُه فقعدت، قال: فاستقبلنى فقال: [من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفه الله، ومن استكف كفاهُ الله، ومن سأل وله قيمة أوقيّةٍ فقد ألحف] قال: فقلت ناقتى الياقوتة خير من أوقية، فرجعت فلم أسأله* والأ وقية: أربعون درهماً. وأخرج الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من سأل ولَهُ ما يغنيه جاءت مسئلتُه يوم القيامة خدُوشاً أو كدوحاً في وجهه قالوا: يا رسول الله وما غناه؟ قال: خمسون درهماً أو حسابها من الذهب] وكذا رواه أهل السنن الأ ربعة. وقوله: «ومَا تُنْفِقُوا مِنْ خيْرٍ فإنَّ الله به عَليمٌ» فلا تخفى عليه حسن النية والإخلاص له في العمل، ولا تحرى النفع به وإيتاؤه أحقّ الناس به، فهو يجازى عليه بحسب هذا، ولا يخفى ما في هذا من الترغيب في الانفاق ولا سيّما على مثل هؤلاء الذين تقدّم ذكرهم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أمْوالَهُمْ باللَّيْلِ والنّهارِ سِرًّا وعَلاَنِيةً فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عنْدَ رَبِّهِمْ ولاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» سورة البقرة (الآية: ٢٧٤)

في الواحدى : عن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [نزلت هذه الآية في أصحاب أهل الخيل] وهذا قول أبى أمامة ، أبى الدرداء ومكحول والأ وزاعى ورباح بن يزيد قالوا: هم الذين يربطون الخيل في سبيل الله ينفقون عليها بالليل والنهار سرًّا وعلانية. نزلت فيمن لا يرتبطها تخيّلاً ولا افتخاراً* وعن ابن عباس

قال في هذه الآية «الَّـذِينَ يُنفِقُونَ أمْوالَهُمْ باللَّيْلِ والنّهارِ..» في علف الخيل، و يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: [من ارتبط فرساً في سبيل الله فأنفق عليه احتساباً كان شبعه وجوعه وريه وظمؤه و بوله وروثه في ميزانه يوم القيامة] وعن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [المنفق في سبيل الله على فرسِهِ كالباسط كفيه بالصدقة] وعن عجلان بن سهل الباهليّ قال: سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: من ارتبط فرساً في سبيل الله لم يرتبط رياءً ولا سمعةً كان من «الذين ينفقون أمواهم بالليل والنهار..» الآية. وحدَّث عبدالوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس في قوله: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أمْوالَهُمْ باللَّيْلِ والنّهارِ سِرًّا وعَلاَنِيةً..» قال: نزلت في عليّ بن أبى طالب. كان عنده أربعة دراهم فأنفق بالليل واحداً، و بالنّهار واحداً، وفي السرّ واحداً وفي العلانية واحداً؞ وفي رواية الكلبي: قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما حملك على هذا؟ قال: حملني أن أستوجب على الله الذي وعدني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا إن ذلك لك. فأنزل الله تعالى هذه الآية؞ وفي الخطيب: نزلت في أبى بكر الصديق رضي الله عنه، تصدّق بأربعين ألف دينار: عشرة بالليل، وعشرة بالنّهار، وعشرة بالسرِّ وعشرة بالعلانية، وفى عليّ بن أبى طالب رضي الله عنه كان عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها، فتصدّق بدرهم ليلاً و بدرهم نهاراً، و بدرهم سرًّا و بدرهم علانيةً؞ وفي القرطبي: وذكر ابن سعد في الطبقات قال: أخبرت عن محمد بن شعيب بن شابور قال: أنبأنا سعيد بن سنان عن يزيد بن عبدالله بن عريب عن أبيه عن جدّه عريب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى: «الَّـذِينَ يُنْفِقُونَ أمْوالَهُمْ باللَّيْلِ والنّهارِ سِرًّا وعَلاَنِيةً..» الآية قال: [هم أصحابُ الخيل» وقال قتادة: هذه الآية نزلت في المنفقين من غير تبذير ولا تقتير؞ قلتُ: وما ذكر سبباً لنزولها لا يقتضي خصوص الحكم به بل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقوله: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أمْوالَهُمْ باللَّيْلِ والنّهارِ» الآية. ذلك أنَّ الذين يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة يكون ذلك منهم دليل على الحرص البالغ والإهتمام التّام كلما نزلت بهم حاجة محتاج عجّلوا قضاءها، ولم يؤخروه متعللين بوقت وحال. والباء بمعنى في أي في الليل والنهار. وسرًّا وعلانيةً منصوبان على الظرفية أيضاً أي في أوقات السرّ والعلن، أو على وصف المصدر أي إنفاقاً سرًّا وعلانية، أو على الحال لكونه بياناً عن كيفية الانفاق. وقيل لمّا نزل «لِلْفُقَرَاءِ

«الَّذِينَ أُحْصِرُوا في سبيل الله» بعث عبدالرحمن بن عوف بدنانير إلى أصحاب الصفّة، وبعث عليٌّ بوَسَقٍ من تمرٍ فنزلت الآية. وكذا في الغرائب: وفي تقديم ذكر الليل وتقديم السرّ على العلانية دليل على أن صدقة السرّ أفضل لأن ذلك إيذاناً بمزيد الإخفاء على الإظهار. «فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» أي يوم القيامة على ما فعلوا من الانفاق في الطاعات «ولاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» أي على ما خلفوه من الأولاد، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها، لا يأسفون عليها لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ ورسُولِهِ وإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ»

سورة البقرة (الآية: ٢٧٨، ٢٧٩)

في الواحدي: حدّث الكلبيُّ عن أبي صالح عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في بني عمرو بن عمير بن عوف من ثقيف، وفي بني المغيرة من بني المخزوم، وكانت بنو المغيرة يربون لثقيف، فلمّا أظهر الله تعالى رسوله على مكة، وضع يومئذ الربا كله، فأتى بنو عمرو بن عمير وبنو المغيرة إلى عتّاب بن أسيد، وهو على مكة، فقال بنو المغيرة، ما جعلنا أشقى النّاس بالربا، وضع عن الناس غيرنا، فقال بنو عمرو بن عمير: صولحنا على أنَّ لنا ربانا، فكتب عتّاب في ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية والتي بعدها «فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ ورسُولِهِ..» فعرف بنو عمرو أن لا يدان لهم بحرب من الله ورسوله يقول الله تعالى: «وإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ» فتأخذون أكثر «ولاَ تُظْلَمُونَ» تبخسون منه* وقال عطاء وعكرمة: نزلت هذه الآية في العبّاس بن عبدالمطلب وعثمان بن عفان، وكانا قد أسلفا في التمر، فلمّا حضر الجذاذ قال لهما: صاحب التّمر، لا يبقى له ما يكفي عيالي إذا أنتما أخذتما حظكما كله، فهل لكما أن تأخذا النصف وأضعف لكما؟ ففعلا، فلمّا حلّ الأجل طلبا الزيادة، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاهما، وأنزل الله تعالى هذه الآية، فسمعا وأطاعا

وأخذا رؤوس أموالهما» وقال السديُّ: نزلت في العباس وخالد بن الوليد، وكانا شريكين في الجاهلية يسلفان في الربا، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [ألا إنَّ كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، وأول رباً أضعه ربا العباس بن عبدالمطلب] وفي القرطبي: إن الآية نزلت بسبب ثقيف، وكانوا عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم على أن مالهم من الربا على الناس فهولهم، وما للناس عليهم فهو موضوع عنهم، فلما جاءت آجال رباهم بعثوا إلى مكة للاقتضاء، وكانت الديون لبنى عبدة، وهم بنوعمرو بن عمير من ثقيف، وكانت على بنى المغيرة المخزوميين، فقال بنو المغيرة: لا نعطى شيئاً فإن الربا قد رُفع، ورفعوا أمرهم إلى عتاب بن أسيد، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الآية، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عتاب، فعلمت بها ثقيف فكفّتْ» واعلم أنَّ الربا قسمان: ربا النسيئة وربا الفضل.

أمّا الأول (ربا النسيئة) : فهو الذي كانُوا يتعارفونه في الجاهلية، كانُوا يدفعون المال مدّة على أن يأخذوا كل شهر قدراً معيّناً، ثم إذا حل الدين طالب المديون برأس المال فإن تعذّر عليه الأداء زادُوا في الحق والأجل.

وأمّا الثانى (ربا الفضل) : فأن يباع مُنٌّ من الحنطة بمنويْن مثلاً. المروى عن ابن عباس أنه كان لا يحرّم إلا القسم الأول، وكان يقول: لا ربا إلا في النّسيئة، ويجوّز ربا النقد، فقال له أبوسعيد الخدرى: أشهدت ما لم تشهدْ، أسمعت ما لم تسمع فروى له الحديث المشهور في هذا الباب. وله روايات منها: الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبرّ والشعير بالشعير، والتّمر بالتمر، والملح بالملح مثلاً بمثل، يداً بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى الآخذ والمعطى فيه سواء» ثم قال أبوسعيد: لا أرانى وإيّاك في ظل بيت ما دمت على هذا، فيروى أنّه رجع عنه.

قال محمد بن سيرين: كنا في بيت معنا عكرمة، فقال رجل يا عكرمة: أما تذكر ونحن في بيت فلان ومعنا ابن عباس، فقال: إنما كنت استحللتُ الصرف برأى، ثم بلغنى أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حرّمه، فأشهدوا أنى حرمته، وبرئت إلى الله منه، حجة ابن عباس أن قوله تعالى: «**وأحلَّ الله البيع**» يتناول بيع الدرهم بالدرهمين نقداً، وقوله: «**وحرّم الربّا**» لا يتناوله، لأن كل زيادة ليست محرمة، فوجب أن تبقى على

الحل، ولا يخرج إلا العقد المخصوصو الذى كا يسُمّى فيا بينهم ربا، وهو ربا النسيئة وقد تأكد هذا الرأى بما روى أسامة بن زيد أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: [الربا في النسيئة] وفي رواية: [لاربا فيا كان يداً بيد] وذكر أبو المنهال أنه سأل البراء بن عازب وزيد بن أرقم، فقالا: كنا تاجرين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصرف، فقال: [إن كان يداً بيدٍ فلا بأس وإن كان نسيئة فلا يصح] وأما جمهور المجتهدين فقد اتفقوا على حرمة الربا في القسمين، أما النسيئة فبالقرآن، وأما النقد فبالخبر، ثم إن الخبر دل على حرمة ربا النقد في الأشياء الستة: النقدان والمطعمات الأربعة، ولا شك أن الربا إنما ثبت فيها المعنى، فإذا عرف ذلك المعنى ألحق بها ما يشاركها فيه، أما الأشياء الأربعة فللشافعى في علة الربا فيها قولان: الجديد أن العلة الطعم لما روى عن معمر بن عبدالله قال: كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [الطعام بالطعام مثل بمثل] علق الحكم باسمى الطعام، والحكم المعلق بالإسم المشتق معلل بما منه الإشتقاق كالقطع المعلق باسم السارق، والجلد المعلق باسم الزانى، والقديم أن العلة فيها الطعم مع الكيل أو الوزن لما روى أنّه صلى الله عليه وسلم قال: [الذهبُ بالذهب وزناً بوزن، والبر بالبر كيلاً بكيل] فعلى هذا يثبت الربا في كل مطعوم مكيل أو موزون دون ماليس بمكيل ولا موزون كالسفرجل والرمان والبيض والجوزه وقال مالك: العلة الاقتيات، فكل ما هو قوت أو يستصلح به القوت كالملح يجرى فيه الربا... وعن أحمد رواية كأبى حنيفة، والأخرى كالجديد، وأما النقدان فعن بعض الأصحاب أنَّ العلة فيها لعينها لا لعلّة، والمشهور أن العلّة فيهما صلاحية الثمنية الغالية، فيشمل التبر والمضروب والحليّ والأوانى المتخذة منها، ولا يتعدى الحكم إلى الفلوس على الأصح وإن راجت رواج الذهب والفضة لانتفاء العلّة، وقال أحمد وأبو حنيفة: العلة فيهما الوزن، فيتعدّى الحكم إلى كل موزون كالحديد والرصاص، فهذا ضبط المذاهب وتفاريعها إلى الفقه.

وأما السبب في تحريم الربا: فهو أن من يبيع الدرهم بالدرهمين نقداً أو نسيئةً يحصل له زيادة درهم من غير عوض، وأخذ مال المسلم من غير عوض محرّم لقوله صلى الله عليه وسلم: [حرمة مال المسلم كحرمة دمه] وإبقاء رأس المال في يده مدة مديدة وتمكينه من أن يتجر فيه و ينتفع به أمرٌ موهوم. فقد يحصل وقد لا يحصل، وأخذ الدرهم الزائد متيقّن،

وتفويت المتيقّن لأجل الموهوم لا يخلو من ضرر* وقيل: سبب تحريمه أنّه يمنع الناس من الإشتغال بالمكاسب لأن صاحب الدرهم إذا تمكّن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقداً أو نسيئةً أعرض عن وجوه المكاسب، فيختل نظام العالم* وقيل: لما يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض، ولأنه تمكين للغنى من أن يأخذ مالاً زائداً من الفقير* وقيل إنّ حرمة الربا قد ثبتت بالنّص، ولا يجب أن تكون حكمة كل تكليف معلومة لنا* وقوله: **«يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وذَرُوا»** أي اتركوا **«مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا»** أي اتركوا بقايا ما شرطتُم منه على الناس تركاً كلياً. كذا في أبي السعود* وفي السمين: والمراد اتركوا طلب ما بقي مما زاد على رؤوس أموالكم. **«إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»** صادقين في إيمانكم، فإن من شأن المؤمن امتثال أمر الله تعالى **«فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا»** ما أمرتم به **«فَأْذَنُوا»** فاعلموا أنتم، أو أيقنوا **«بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ ورسُولِهِ»** لكم، فيه تهديد شديد لهم. والمراد بالحرب القتل في الدنيا والنار في الآخرة. أي أيقنوا أنكم تستحقون القتل بمخالفة أمر الله تعالى ورسوله. وتنكيره للتعظيم. (الكرخى)* **«وإنْ تُبْتُمْ»** رجعتُم عنه أي عن أكل الربا المأخوذ من قوله **«فإن لم تفعلوا»** **«فَلَكُمْ رُؤوسُ»** أصول **«أمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ»** بزيادة **«ولاَ تُظْلَمُونَ»** بنقص. وعبارة أبي السعود: أي لا تَظلمون غرماءكم بأخذ الزيادة، ولا تُظلمون أنتم من قبله بالمطل والنّقص.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وإنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ وإنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كنتُمْ تَعْلَمون» سورة البقرة (الآية: ٢٨٠)

في الواحدى : قال الكلبيُّ: قالت بنو عمرو بن عمير لبنى المغيرة: هاتُوا رؤوس أموالنا ولكم الربا ندعه لكم، فقالت بنو المغيرة: نحن اليوم أهل عسرة فأخّرونا إلى أن تدرك الثمرة، فأبوا أن يؤخروهم، فأنزل الله تعالى **«وإنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ..»** الآية. لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حلّ عليه الدين: إمّا أن تقضى وإمّا أن تربى، ثم يندب إلى الوضع عنه، و يعد على ذلك الخير والثواب الجزيل فقال: **«وإنْ تصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كنتُمْ تَعْلَمون»** أي وإن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين وفي الحديث: [من سرّه أن يظله الله يوم لا ظلّ إلاّ ظله فلييسر على مُعْسِرٍ، أو ليضع عنه]

وقال عليه الصلاة والسلام: [من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقةً] وفي رواية [فله بكل يوم مثلاه صدقةً] وروى محمد بن كعب القرظى: أن أبا قتادة كان له دين على رجل وكان يأتيه يتقاضاه فيختبيء منه، فجاء ذات يوم فخرج صبيٌّ فسأله عنه، فقال: نعم، هو في البيت يأكل خزيرة، فناداه فقال يا فلان: أخرج فقد أخبرت أنك ها هنا، فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عنّي؟ فقال: إنى معسر وليس عندى شيء، قال: آللّه إنّك معسر؟ قال: نعم، فبكى أبوقتادة، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [من نفّس عن غريمه أو محا عنه كان في ظلّ العرش يوم القيامة] رواه مسلم في صحيحه. وقال عليه الصلاة والسلام: [أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة، قال: ماذا عملت لى في الدنيا؟ قال: ما عملت لك يارب مثقال ذرَّة في الدنيا أرجوك بها ــ قالها ثلاث مرات ــ قال العبد عند آخرها: يارب إنك كنت أعطيتنى فضل مال وكنت رجلاً أبايع النَّاسَ، وكان من خُلقي الجواز، فكنتُ أيسّر على الموسر، وأنظر المعسر، قال: فيقول الله عز وجل: أنا أحقُّ من ييسّر. أدخل الجنة] أخرجه البخارى ومسلم. ولفظ البخارى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [كان تاجرٌ يداين الناس فإذا رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه لعلّ الله أن يتجاوز عنّا، فتجاوز الله عنه] وفي حديث صحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من أعان مجاهداً في سبيل الله، أو غازياً، أو غارما في عسرته، أو مكاتباً في رقبته أظلّه الله يوم لا ظلّ إلاّ ظلّهُ] وروى أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربتُه فليفرج عن معسره] وسائر المفسرين أن الآية عامة في كل دين، ولهذا ورد كان تامّة، ولوفرض أن سبب النزول خاصّ فلا بد من إلحاق سائر الصور به لأن العاجز عن أداء المال لا يجوز تكليفه به، وهو قول أكثر الفقهاء كمالك وأبى حنيفة والشافعى.

والاعسار في الشرع: هو أن لا يجد في ملكه ما يؤديه بعينه، ولا يكون له ما لو باعه لأمكن أداء الدين من ثمنه، فمن وجد داراً أو ثوباً لا يعدُّ من ذوى العسرة إذا أمكنه بيعها وأداء ثمنها، ولا يجوز له أن يحبس إلا قوت يومه لنفسه وعياله وما لا بد لهم من كسوة لصلاتهم ودفع الحرّ والبرد عنهم، وهل يلزمه أن يؤجّر نفسه من صاحب الدين أو غيره؟ الأصح أنه لا يلزمه، وكذا لو بذل له غيره ما يؤديه لا يلزمه القبول، فأمّا من له بضاعة كسدت عليه فواجب عليه أن يبيعها بالنقصان إن لم يمكن إلاّ ذلك، وإذا علم

الإنسان أن غريمه معسر حرم عليه حبسه، وأن يطالبه بماله عليه، ووجب الانظار إلى وقت اليسار، فأمّا إن كان له ريبة في إعساره جاز أن يحبسه إلى ظهور الإعسار، وإذا ادعى الإعسار وكذّبه الغريم فإن كان الديْن الذي الزمه حصل له عن عوض كالبيع أو القرض، فلا بدَّ له من إقامة شاهدين عدلين على أن ذلك العوض قد هلك، فإن لم يكن عن عوض كإتلاف وضمان وصداق، فالقول قوله، وعلى الغريم البّينة لأنّ الأصل هو الفقر «**وإنْ تصَدَّقُوا**» على المعسر بما عليه من الديْن «**خَيْرٌ لَكُمْ**» لحصول الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى «**إنْ كنتُمْ تَعْلَمونَ**» أنَّ هذا التصدق خير لكم فتعملوا به، جعل من لا يعمل به وإن علمه كأنه لا يعلمه، أو تعلمون فضل التصدُّق على الانظار والقبض بعده، أو تعلمون أن ما يأمركم به ربكم أصلح لكم. وقيل: المراد بالتصدُّق الانظار لقوله عليه الصلاة والسلام: [لا يحلُّ دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة]، وروى [من أنظر معسراً أو وضع عنه أنجاه الله من كرب يوم القيامة] وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إن الملائكة تلقّت روح رجل كان قبلكم، فقالوا له: هل عملت خيراً قط؟ قال: لا، قالوا: تذكّر، قال: إلا أنى رجل كنتُ أداين النَّاس، فكنت آمر فتياني بأن ينظروا الموسر، و يتجاوزوا عن المعسر، قال الله تعالى (تجاوزت عنه)] وأخرج البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ أخذَ أموالَ النَّاس يريد أداءها أدّى الله عز وجلّ عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد اتلافها أتلفه الله] وأخرج الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [مطل الغنىّ ظلْمٌ] وروى الشيخان عن كعب بن مالك أنه تقاضى ابن أبى حدرد ديناً كان له في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في بيته، فخرج إليهما حتى كشف سجف حجرته، فنادى، فقال: يا كعب قلت: لبيك يا رسول الله، فأشار بيده أن ضع الشطر من دينك، فقال كعب: قد فعلت يا رسول الله. قال: قُمْ فاقْضِهِ، وأخرج الشيخان عن أبى هريرة قال: كان لرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سِنٌّ من الإبل، فجاءه يتقاضاه: فقال: أعطوه فطلبوا سِنَّهُ فلم يجدوا إلا سِنًّا فوقها، فقال: أعطوه فقال: أوفيتنى وفاك الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [إنَّ خيركم أحسنكم قضاءً] وفي رواية أنه أغلظ لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين

استقضاه حتى همّ به بعض الصحابه، فقال: [دعوه فإن لصاحب الحقّ مقالاً] ثم أمر له بأفضل من سِنَّهِ* وأخرج مسلم عن أبى قتادة الأنصارى، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال. فقام رجل فقال يا رسول الله: أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عنى خطاياى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلاَّ الدَّيْنَ فإن جبريل قال لى ذلك] وأخرج النسائى عن محمد بن جحش قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفع رأسه إلى السماء، ثم وضع يدهُ على جبهته، ثم قال: [سبحان الله!! ماذا نزل من التّشديد!] فسكتنا وفزعنا، فلمَّا كان من الغد، سألته: يا رسول الله ما هذا التشديد الذي نزل؟ فقال: [والذي نفسى بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله، ثم أحيىَ، ثم قُتل، ثم أُحيىَ، وعليه دين ما دخل الجنة حتى يُقضى عنه دينه] فاللهم أوف عنا ديْن الدنيا والآخرة.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))
«واتّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيه إلى الله ثُمَّ تُوفّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ» سورة البقرة (الآية: ٢٨١)

في البيضاوى: قال ابن عباس: وهذه آخر آية نزل بها جبريل، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ضعها في رأس المائتين والثمانين من سورة البقرة، وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها أحداً وعشرين يوماً، وقيل أحداً وثمانين، وقيل سبعة أيام، وقيل ثلاث ساعات* وقوله: في رأس المائتين والثمانين، وهى في المصحف كما ذكر، وفي الخازن زيادة: ومات صلى الله عليه وسلم لليلتين خلتا من ربيع الأول في يوم الإثنين سنة إحدى عشرة من الهجرة، وروى الشعبي عن ابن عباس: أنَّ آخر آية نزلت آية الربا* وفي ابن كثير: عن سعيد بن جبير قال: آخر ما نزل من القرآن كله **«واتّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيه إلى الله...»** الآية. وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول* قال ابن كثير: فكان بين نزولها وموت النبي صلى الله عليه وسلم واحد وثلاثون يوماً... قال ابن جرير يقولون: إن النبي صلى

الله عليه وسلم عاش بعدها تسع ليال، و بدىء يوم السبت، ومات يوم الاثنين* وقوله: «**واتّقوا يَوْماً**» والمراد اتقاء ما يحدث فيه من الشدائد والأهوال، واتقاء ذلك لا يمكن إلاّ باجتناب المعاصي، وفعل الأوامر في الدنيا، فهذا القول يتضمن الاتيان بجميع التكاليف، وانتصب يوماً على أنه مفعول به، والمعنى تأهبوا بما تسلفون من العمل الصالح للقاء يوم ترجعون فيه إلى الله أي إلى ما أعدّ لكم من ثواب، أوعقاب، أو إلى علمه وحفظه، وذلك أن الإنسان له أحوال ثلاث على الترتيب:

الأولى : كونه جنيناً لا يملك تصرفاً فلا تصرف فيه إلا لله.

الثانية: خروجه إلى فضاء، وهناك يرى للأبوين ولغيرهما تصرف فيه ظاهر.

الثالثة : ما بعد الموت، وهنالك لا يكون التصّرف فيه ظاهراً في الحقيقة إلاّ لله تعالى، فكأنه عاد إلى الحالة الأولى.

وهذا معنى الرجوع إلى الله تعالى «**ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ**» أي جزاء ذلك، أو المكتسب هو الجزاء كما يقال: كسب الرجل لما يحصله بتجارته، والمراد أن كل مكلّف فإنه يصل إليه جزاء عمله بالتمام عند الرجوع إلى الله تعالى. كقوله: «**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شرًّا يَرَه**».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ والْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بالله وملائكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أحدٍ مِنْ رُسُلِهِ وقالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وإلَيْكَ الْمَصِيرُ* لاَ يُكَلّفُ الله نَفْساً إلاّ وُسْعَهَا لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أو أخْطأْنَا رَبَّنَا ولاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْراً كما حَمَلْتَهُ على الّذِينَ مِنْ قَبْلنَا ربَّنَا ولاَ تُحَمِّلْنَا ما لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ واعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا أنْتَ موْلانا فانْصُرْنَا على القوْمِ الْكَافِرِين» آخر سورة البقرة (الآية: ٢٨٥، ٢٨٦)

فى الواحدى : قال أبو هريرة: لما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم «**وإن تُبْدُوا ما فى أنفُسِكُمْ أو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ الله..**» الآية. اشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: كلفنا من

الأعمال ما لا نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية، ولا نطيقها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم؟ أراد قالوا: سمعنا وعصينا. قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلمّا اقترأها القوم، وجرت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى في إثرها، «**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ..**» الآية. ونسخها الله تعالى فأنزل «**لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا..**» الآية إلى آخرها. رواه مسلم عن أميّة بن بسطام؛ وعن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: «**وإنْ تُبْدُوا ما في أنفسكُمْ أو تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ به الله..**» دخل قلوبهم منها شيءٌ لم يدخلها من شيء فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قولوا سمعنا وأطعنا وسلّمنا. فألقى الله تعالى الإيمان في قلوبهم. فقالوا: سمعنا وأطعنا، فأنزل الله تعالى: «**لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا**» حتى بلغ أخطأنا. فقال: قد فَعَلْتُ. إلى آخر البقرة. كل ذلك يقول قد فعلت. رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع.

قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية «**وإنْ تُبْدوا ما في أنفسكم**» جاء أبوبكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف، ومعاذ بن جبل وناس من الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله: ما نزلت آية أشدُّ علينا من هذه الآية، إنَّ أحدنا ليحدّث نفسه بما لا يحبُّ أن يثبت في قلبه، وأن له الدينا وما فيها، وإنا لمؤاخذون بما نحدّث به أنفسنا، هلكنا والله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هكذا أنزلت. فقالوا: هلكنا وكلفنا من العمل ما لا نطيق، قال: فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل لموسى: سمعنا وعصينا. قولوا: سمعنا وأطعنا. فقالوا: سمعنا وأطعنا. واشتد ذلك عليهم، فمكثوا بذلك حولاً، فأنزل الله تعالى الفرج والراحة بقوله: «**لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا...**» فنسخت هذه الآية ما قبلها. قال النبي صلى الله عليه وسلم: [إنَّ الله تجاوز لأمتي ما حدَّثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلَّموا به]. وفي الخازن: قال الزجاج: لما ذكر الله في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصوم والحج والطلاق والايلاء والحيض والجهاد، وقصص الأنبياء. وما ذكر من كلام الحكماء، ختم السورة بذكر تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بجميع ذلك؛ قال الخازن: ومعنى آمن الرسول: صدّق الرسول يعني محمداً صلى الله عليه وسلم. والمعنى صدّق الرسول أن هذا القرآن. وجملة ما فيه من الشرائع والأحكام منزّل من عند الله؛ وكذلك بما ظهر على أيدى الأنبياء من

المعجزات، ولهذا ذكر غقيبه إيمان المؤمنين بذلك، لمعجزات أظهرها الله تعالى على يد الرسول حتى استدلت الأمة بها على أنّه صادق في دعواه، وهو المرتبة المتأخرة، ومن تأمّل في نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه و بلاغة معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم مبانيه. وقوله: «**كُلٌّ**» أي كل واحد من المؤمنين، دلّ عليه التنوين، فهو تنوين عوض من المضاف إليه «**آمَنَ بالله وملائكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**» قال الخازن: فهذه أربع مراتب من أصول الإيمان وضرورياته، فأمّا الإيمان بالله: فهو أن يؤمن بأن الله واحدٌ أحدٌ لا شريك له، ولا نظير له، و يؤمن بجميع أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وأنّه حيّ عالم قادر على كل شيء. وأمّا الإيمان بالملائكة: فهوا أن يؤمن بوجودهم، وأنهم معصومون مطهرون، وأنهم السفرة الكرام البررة وأنهم الوسائط بين الله تعالى و بين رسله، وأما الإيمان بكتبه: فهو أن يؤمن بأن الكتب المنزلة من عند الله هي وحي الله إلى رسله، وأنها حقّ وصدق من عند الله بغير شكٍّ ولا ارتياب، وأن القرآن لم يحرّف ولم يبدّل ولم يغيّر، وأنّه مشتمل على المحكم والمتشابه، وأنّ محكمه يكشف عن متشابهه. وأما الإيمان بالرسل: فهو أن يؤمن بأنهم رسل الله إلى عباده، وأمناؤه على وحيه، وأنهم معصومون، وأنهم أفضل الخلق وأن بعضهم أفضل من بعض، وقد أنكر بعضهم ذلك وتمسّك بقوله تعالى: «**لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**» وأجيب عنه بأن المقصود من هذا الكلام شيء آخر، وهو إثبات نبوة الأنبياء، والردّ على اليهود والنصارى الذين يقرون نبوة موسى وعيسى و ينكرون نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم. وقد ثبت بالنص الصريح تفضيل بعض الأنبياء على بعض بقوله «**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**»* وقوله: «**لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**» أي في الإيمان، ولا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى، بل نؤمن بجميع رسله «**وقالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا**» يعني سمعنا قولك وأطعنا أمرك أي قال المؤمنون: سمعنا قول ربنا فيما أمرنا به. وأطعناه فيما ألزمنا من فرائضه، واستعبدنا به من طاعته، وسلمنا له فيما أمرنا به ونهانا عنه «**غُفْرَانَكَ رَبَّنَا**» أي اغفر لنا غفرانك ربنا «**وإلَيْكَ الْمَصِيرُ**» المرجع بالبعث «**لاَ يُكَلِّفُ الله نَفساً إلاَّ وُسْعَهَا**» أي ما تسعه قدرتها فضلاً منه ورحمة، أو مادون مدى طاقتها، أي غاية طاقتها، بحيث يتّسعُ فيه طوقها و يتيسر عليه كقوله: «**يُريدُ الله بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُريدُ بِكُمُ العُسر**» كذا في البيضاوي. «**لَهَا مَا كَسَبَتْ**» يعني للنفس

ما عملت من الخير فلها أجره وثوابه «وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ» يعني من الشر عليها وزره وعقابه، ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد، ولا بما لم يكسبه مما وسوست به نفسه.

وفي الغرائب: واعلم أن العلماء اتفقوا على أن الأمور التي تخطر بالبال مما يكرهها الإنسان، ولا يمكنه إزالتها عن النفس لا يؤاخذ بها لأنها تجرى مجرى تكليف ما لا يطاق، وأما الخواطر التي يوطن الإنسان نفسه عليها، و يعزم على إدخالها في الوجود، فقد قيل إنه يؤاخذ بها لقوله تعالى: «ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم» وكما يؤاخذ باعتقاد الكفر والبدع، وأنّه من أفعال القلوب. ثم قال بعضهم: إنما يؤاخذ بها في الدنيا لما روى الضحاك عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما حدّث العبد به نفسه من شر كانت محاسبة الله عليه. نعم يبتليه في الدنيا بحزن أو أذى فإذا جاءت الآخرة لم يسئل عنه ولم يعاقب، وروت أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: فأجابها بما هذا معناه، وقيل إن كل ما كان في القلب مما لايدخل في العمل فإنه في محل العفو لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال بعد نزول قوله: «لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا» أن الله تجاوز لأمتي ما حدّثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلموا. و يدخل في وسوست النفس مراتب القصد الأربعة ما عدا العزم. وهى الهاجس والخاطر وحديث النفس والهم، وقوله: «رَبَّنَا لاَ تُؤاخِذْنَا إنْ نَسِينَا..» تعليم من الله لعباده كيفية الدعاء، وهذا من غاية الكرم حيث يعلمهم الطلب ليعطيهم المطلوب «أو أخْطأنَا» تركنا الصواب لا عن عمد كما أخذت به من قبلنا، وقد رفع الله ذلك عن هذه الأمة كما ورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: [رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه] رواه الطبراني وغيره كذا في الكرخي. وفي الخازن: قيل كانت بنو اسرائيل إذا نسوا شيئاً مما أمروا به، أو أخطؤا عُجلت لهم العقوبة فيحرم عليهم شيء مما كان حلالاً لهم من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب. فأمر الله المؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك* «رَبَّنَا ولاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْراً كما حَمَلْتَهُ على الَّذِينَ مِنْ قَبْلنَا» أي لا تكلّفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الآغلال والآصار التي كانت عليهم التي بعثت نبيّك محمداً صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيف السهل السمح وقوله: «ربَّنَا ولاَ تُحَمِّلْنَا ما لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ» أي من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قبل لنا به «واعْفُ عَنَّا» امح ذنوبنا

«**واغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا**» في الرحمة زيادة من المغفرة لأن الرحمة الإحسان وهي تشمل المغفرة التي هى غفران الذنوب وإيصال النعم في الدنيا والآخرة «**أَنْتَ مَوْلانا**» سيدنا ومتولى أمورنا «**فانْصُرْنَا على القوْمِ الْكَافِرِين**» بإقامة الحجة والغلبة في قتالهم. فإن من شأن المولى أن ينصر مواليه على الأعداء. وفي الحديث: [لما نزلت هذه الآية فقرأها صلى الله عليه وسلم قيل له: عقب كل كلمة قد فعلتُ]. والآية أولها: «**لا يكلّفُ اللهُ نَفْساً إلاّ وسْعهـا..**» إلى آخر السورة. وقوله قيل له: أي من قبل الله عز وجل أي قال الله له عقب كل كلمة من كلمات الدعوات، وهى سبع أولها لا تؤاخِذنا وآخرها فانصُرنا على القوم الكافرين. فيكون قوله: قد فعلت وقع سبع مرات والمراد به أجبت دعاءك ومطلوبك، وهذه رواية مسلم كما تقدم. وفي الحديث رواية أخرى ذكرها الخازن ونصّه. قال ابن عباس في قوله تعالى: «**غُفْرَانَكَ رَبَّنَا**» قال: قد غفرت لكم، وفي قوله: «**لا تؤاخِذْنا إن نَسينَا أو أخطأنا**» قال: لا أوآخذكم «**رَبَّنَا ولاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْراً**» قال: لا أحمل عليكم «**ولاَ تُحَمِّلْنَا مـا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ**» قال: ولا أحملكم «**واعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا أنْتَ مَوْلانا فانْصُرْنَا على القوْمِ الْكَافِرِين**» قال: قد عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم ونصرتكم على القوم الكافرين* وروى عن معاذ بن جبل أنّه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة قال: آمين* قال ابن عطيه: هذا يظن به أنه رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم. والله أعلم آخر سورة البقرة.

((سورة آل عمران وبيان ما فيها من أقوال في بيان سبب النزول))

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«بسم الله الرحمٰن الرحيم»

«الـم* اللهُ لآ إلٰـه إلآ هُوَ الحَىُّ القَيُّومُ» سورة آل عمران (الآية: ١، ٢)

إلى بضعة وثمانين آية كما سيأتى. في الواحدي: قال المفسرون: قدم وفد نجران، وكانوا ستين راكباً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر يؤل إليهم أمرهم، فالعاقب أمير القوم وصاحب شورتهم الذين لا يصدرون إلاّ عن رأيه، واسمه عبدالمسيح، والسيد إمامهم وصاحب رحلهم، واسمه الأيهم، وأبوحارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم، وإمامهم وصاحب مدراسهم، وكان قد شرف فيهم، ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم، وكانت ملوك الروم قد شرفوه وولُوه و بنوا له الكنائس لعلمه واجتهاده، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخلوا مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات: جبات وأردية في جمال رجال الحارث بن كعب. يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما رأينا وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقامُوا فصلُّوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوهم. فصلوا إلى الشرق، فكلّم السيد والعاقب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: أسلما. فقالا: قد أسلمنا قبلك. قال: كذبتما، منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكم الخنزير. قالا: إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى. فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولداً إلاّ و يشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أنَّ ربنا حيٌّ لا يموت وأن عيسى أتى عليه الفناء؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيّم على كل شيء يحفظه و يرزقه؟ قالوا: بلى، قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإن ربنا صورّ عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذى كما يغذى الصبيُّ، ثم كان يطعم و يشرب ويحدث؟ قالوا: بلى، قال: فكيف يكون هذا كما

زعمتم؟ فسكتوا. فأنزل الله عز وجل فيهم صدراً من سورة آل عمران إلى بضعة وثمانين آية منها. هكذا ذكر الواحدى. والخازن والخطيب والطبرى نقلاً عن ابن اسحاق، وعبارة أبي السعود: نزلت هذه الآيات في وفد نجران، وكانوا ستين راكباً، فيهم أربعة عشر من أشرافهم: ثلاثة منهم أكابرهم، أحدهم أميرهم وثانيهم وزيرهم وثالثهم حبرهم، فقدموا على النبي صلى الله عليه وسلم، فتكلم منهم أولئك الثلاثة معه صلى الله عليه وسلم، فقالوا تارة عيسى هو الله: لأنّه كان يحى الموتى، وتارة هو ابن الله، إذ لم يكن له أب، وتارة أنه ثالث ثلاثة: لقوله تعالى: فعلنا وقلنا ــ أي بصيغة الجمع ــ ولو كان واحداً لقال فعلتُ وقلتُ. فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ألستم تعلمون أن ربنا حيٌّ لا يموت وأن عيسى يموت؟ قالوا: بلى، وكرر عليهم أدلة كثيرة ــ كما ذكر الواحدى وغيره ــ وهم يقولون: بلى، ثم قال: فكيف يكون عيسى كما زعمتم؟ فسكتوا. وأبوا إلا الجحود. فأنزل الله من أول السورة إلى نيف وثماني آية تقريراً لما احتجّ به النبي صلى الله عليه وسلم* وتمام القصة سيجىء إن شاء الله تعالى في آية المباهلة، قوله تعالى: **«الـم»** أحسن ما ذكر أن معنى **«الـم»** أنا الله أعلم، ومعنى **«الـمر»** أنا الله أعلم وأرى. وقيل إن أحرف الهجاء التي في أوائل السور هى أسماء للسور، وعليه اطباق أكثر المتكلمين، والحق أن التفويض أفضل أي يكتفى في تفسيرها بقوله: الله أعلم بمراده. **«اللهُ لاَ إِلٰـهَ إِلاَّ هُوَ الْـحَيُّ الْقَيُّومُ»** الحيُّ هو الفعال الدرّاك، والقيوم، هو القائم بذاته، والقائم بتدبير خلقه، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور: في البقرة، الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم، وفي آل عمران: الله لا إله إلا هو الحى القيوم. وفي طٰه: وعنت الوجوه للحيّ القيوم. ونقل البندينجى عن أكثر العلماء أن الاسم الأعظم هو **«الله»**.

واعلم أن مطلع هذه السورة له نظم عجيب، ونسق أنيق، وذلك أولئك النصارى كأنه قيل لهم: إمّا أن تنازعوه في شأن الإله، أو في أمر النبوة، أما الأول فالحق فيه معه لأنه تعالى حيٌّ قيوم وأن عيسى ليس كذلك لأنه وُلِدَ وكان يأكل و يشرب ويحدث، والنّصارى زعموا أنه قتل، وما قدر على دفع القتل عن نفسه، وهذه الكلمة أعنى قوله **«اللهُ لاَ إِلٰـهَ إِلاَّ هُوَ الْـحَيُّ الْقَيُّومُ»** جامعة لجميع وجوه الدلائل على بطلان قول النصارى بالتثليث لأن معنى **«اللهُ لاَ إِلٰـهَ إِلاَّ هُوَ»** إخبار بأنه جل شأنه هو وحده المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وعيسى من جملة المخلوقين فلا يكون ولداً ولا شريكاً ولا إلٰهاً،

وقوله: «الْحَيُّ الْقَيُّومُ» أي الحيُّ في نفسه الذي لا يموت أبداً القيم لغيره، وعيسى ليس كذلك فهو حيٌّ بالله مكتوب عليه إذاقة الموت والفناء. وكان عمر رضي الله عنه يقرأ: القيّام فجميع الموجودات مفتقرة إليه وهو غنيٌّ عنها، ولا قوام لها بدون أمره وحده قال تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ والأَرضُ بأمْرِهِ».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمْ وَبِئْسَ المِهَادُ* قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فى سَبِيلِ اللهِ وأُخْرَى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ واللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إنَّ فى ذلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَارِ» سورة آل عمران (الآية: ١٢، ١٣)

في الواحدى: قال الكلبيُّ: عن أبي صالح عن ابن عباس: أن يهود أهل المدينة قالوا لما هزم الله المشركين يوم بدر: هذا والله النبيُّ الأمى الذي بشرنا به موسى، ونجده في كتابنا بنعته وصفته، وأنه لا تُردُّ له راية، فأرادوا تصديقه واتباعه، ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى، فلمّا كان يوم أُحد ونكب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شكُّوا، وقالوا: لا والله ما هو به، وغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا، وكان بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدٌ إلى مدة، فنقضوا ذلك العهد، وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى أهل مكة أي إلى أبي سفيان وأصحابه فوافقُوهم وأجمعوا أمرهم، وقالوا: لتكوننَّ كلمتنا واحدة، ثم رجعُوا إلى المدينة، فأنزل الله فيهم(١) ها تين الآيتين* وعبارة الطبرى: عن ابن عباس قال: لمّا أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر، فقدم المدينة جمع يهود في سوق بنى قينقاع، فقال: يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشاً، فقالوا يامحمد: لا تغرّنك نفسُك إنك قتلت نفراً من قريش كانُوا أغماراً، لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنّا نحن النّاس، وأنك لم تأت مثلنا، فأنزل الله عز وجل في ذلك قوله: «**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمْ وَبِئْسَ المِهَادُ**» إلى قوله: «**لأولى الأبصار**» وروى الطبرى عن

---

(١) عبارة الواحدى : فأنزل الله تعالى هذه الآية. قلت: بل كان النزول إلى قوله: «**لأولى الأبصار**» كما ستراه إن شاء الله تعالى.

سلمة عن ابن اسحاق قال: كان من أمر بني قينقاع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم بسوق بني قينقاع، ثم قال: يا معشر اليهود!!! احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبيٌّ مرسل تجدون ذلك في كتابكم، وعهد الله إليكم، فقالوا: يا محمد إنك ترى أنّا كقومك، لا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنا نحن الناس، فأنزل الله الآية* وحدث عن ابن عباس قال: ما نزلت هؤلاء الآيات إلاَّ فيهم **«قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمْ وَبِئسَ المِهَادُ»** إلى قوله **«لأُولى الأبصار»**.

وحدث عن عكرمة في قوله: **«قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمْ..»** قال فنحاص اليهوديُّ في يوم بدر: لا يغرنَّ محمداً أنه غلب قريشاً وقتلهم، إن قريشاً لا تحسن القتال، فنزلت هذه الآية. قال أبوجعفر فكل هذه الأخبار تنبيء عن أنَّ المخاطبين بقوله **«سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ»** هم اليهود المقول لهم **«قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فى فِئَتَيْنِ..»*** وفي الخازن: قيل أراد بالذين كفروا مشركي قريش. والمعنى: قل لكفار مكة ستغلبون يوم بدر وتحشرون في الآخرة إلى جنهم، فلمَّا نزلت هذه الآية قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر: إنَّ الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم* وقيل: إن أبا سفيان جمع جماعة من قومه بعد وقعة بدر فأنزل الله تعالى هذه الآية ثم أورد ما ذكره الواحدى، وفي أبي السعود في قوله: **«قد كان لكُمْ آيةٌ»** خطاب لليهود، وهو جواب قسم مقدَّر، وهو من تمام القول المأمور به جيء به لتقرير وتحقيق ما قبله* لكن عبارة القرطبي: واختلف في المخاطب بها، فقيل يهود المدينة، وقيل جميع الكفار، وقيل المؤمنون* وفي ابن كثير **«قد كان لكُمْ آيةٌ»** أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية أي دلالة على أن الله مُعِزُّ دينه، وناصرٌ رسوله، ومظهر كلمته، ومعل أمره **«في فئتين»** أي طائفتين **«الْتَقَتَا»** أي للتقال **«فِئَةٌ تُقَاتِلُ فى سَبِيلِ الله وأُخْرَى كافِرَةٌ»** وهم مشركوا قريش يوم بدر وقوله **«يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ»** قال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير: يرى المشركون يوم بدر أن المسلمين مثليهم في العدد رأى أعينهم، أي جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم. قال ابن كثير: وهذا لا إشكال عليه إلاَّ من جهة واحدة، وهي أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذٍ قبل القتال يحزر لهم المسلمين فأخبرهم بأنهم ثلا ثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً. وهكذا كان الأمر، كانُوا ثلا ثمائة و بضعة عشر رجلاً ثم

لما وقع القتال أمدّهم الله بألف من خوّاص الملائكة وساداتهم* ثم قال: والقول الثاني: أن المعنى في قوله تعالى: «يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ» أي يرى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم أي ضعفهم في العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم، وهذا لا إشكال فيه على ما رواه العوفى عن ابن عباس: أن المؤمنين كانُوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين. وكأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية، ولكنّه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيّام النّاس. وخلاف المعروف عند الجمهور أن المشركين كانوا ما بين تسعمائة إلى ألف كما رواه محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا سأل العبد الأسود لبني الحجاج عن عدّة قريش قال: كثير، فقال: كم ينحرون كل يوم؟ قال: يوماً تسعاً و يوماً عشراً، قال النبي صلى الله عليه وسلم: [القوم ما بين تسعمائة إلى ألف] .. وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم. لكن وجّه ابن جرير هذا وجعله صحيحاً كما تقول: عندى ألف وأنا محتاج إلى مثلها، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف. كذا قال* قال ابن كثير: وعلى هذا فلا إشكال، لكن بقى سؤال آخر وهو وارد على القولين. وهو أن يقال: ما الجمع بين هذه الآية، و بين قوله تعالى في قصة بدر: «وإذ يريكمُوهُمْ إذ الْتَقَيْتُمْ فى أعْيُنِكُمْ قليلاً و يقلّلكُمْ فى أعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ الله أمراً كَانَ مفعولاً» فالجواب: أن هذا كان في حالة، والآخر كان في حالة أخرى كما قال السدى عن الطيب عن ابن مسعود في قوله تعالى: «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا» الآية قال: هذا يوم بدر، قال عبدالله بن مسعود: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا. ثم نظرنا إليهم، فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً وذلك قوله تعالى: «وإذ يُرِيكُمُوهُمْ إذ التَقَيْتُمْ فى أعْيُنِكُمْ قليلاً و يقلّلكُمْ فى أعْيُنِهِمْ» الآية. وقال أبواسحاق عن أبى عبدة عن عبدالله بن مسعود قال: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: تُراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. قال: فأسرنا رجلاً منهم فقلنا: كم كنتُم؟ قال: ألفاً* قلت: ولماذا لا يكون المراد بالمثلين مطلق الكثرة لا خصوص المثلين في العدد، أي يرونهم أكثر من الثلاثمائة التى هى عددهم في الواقع وكذا العكس، وعلى كل من الاحتمالين فهذه الآية التي نحن بصدد بيان سبب نزولها تنافى آية الأنفال وهى قوله: «وإذ يريكمُوهُمْ إذ التقيتُمْ فى أعْينِكُمْ قليلاً و يقلّلكُم

فى أَعْيُنِهِمْ» فتلك الآية تقتضي أنَّ كلاً من الفريقين قلل في أعين الآخر، وهذه الآية تقتضي أن كلاً منهما كثر في أعين الآخر. فيكون المعنى: وإذ يريكمُوهم أيها المؤمنون إذ التقيتم في أعينكم قليلاً نحو سبعين أو مائة، وهم ألف لتقدموا عليهم، و يقللكم في أعينهم ليقدموا ولا يجبنوا من قتالكم، وهذا قبل التحام الحرب، فلمّا التحم أراهم إياهم مثليهم كما في آيتنا هذه. لكن في الخازن في قوله: «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ» قريء بالتاء: يعني ترون أهل مكة ضعفي المسلمين يا معشر اليهود، وذلك أن جماعة من اليهود كانوا قد حضروا قتال بدر لينظروا على من تكون الدائرة، ولمن النصر، فرأوا المشركين مثلى عدد المسلمين، ورأوا النصر للمسلمين، فكان ذلك معجزة، وقريء يروْنهم بالياء، واختلفوا في وجه قراءة الياء، فجعل بعضهم الرؤية للمسلمين، ثم له تأو يلان:

أحدهما: يرى المشركون المسلمين مثليهم كما هم...

والثاني: وهو الأصح قلل الله المشركين في أعين المسلمين حتى رأوهم مثليهم.

وقوله: «ستغلبون» فمن قرأ بالياء فالأمر يكون متوجهاً إلى حكاية هذا الفظ. أي قل لهم قولى لك سيغلبون. أي عن قريب كما تفيده السين. وفيها دليل على صحة البعث والحشر بإخبار الصادق. وقوله: ستغلبون قد وقع كما أخبر عن الغيب — من قتلى بنى قريظة، فقد قتل منهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم في يوم واحد ستمائة، جمعهم في سوق بنى قينقاع، وأمر السيّاف بضرب أعناقهم، وأمر بحفر حفيرة ورميهم فيها — فيكون معجزاً دالاً على صدق النبيّ صلى الله عليه وسلم، نظيره في حق عيسى عليه السلام «وأنبئكُمْ بِمَا تأكُلُونَ ومَا تدّخِرُونَ فى بُيُوتِكُمْ» ثم إنه تعالى ذكر ما يجرى مجرى الدلالة على صحة ذلك الحكم فقال: «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا» يوم بدر «فِئَةٌ» احداهما: جماعة «تُقَاتِلُ فى سَبِيلِ اللهِ» وهم المسلمون لأنهم يقاتلون لنصرة دين الله وإعلاء كلمته «وأخْرَى كافِرَةٌ» وفئة أخرى كافرة: هم كفار قريش، و بيان كون تلك الواقعة آية من وجوه:

احدها: أن المسلمين كان قد اجتمع فيهم من أسباب الضعف أمور منها: قلة العَدد والعُدد، كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، مع كل أر بعة منهم بعير، ومعهم من الدروع ستة، ومن الخيل فرسان، ومنها: أنهم خرجوا غير قاصدين الحرب، فلم يتأهبوا: ومنها: أن ذلك ابتداء غارة في الحرب لأنها من أول غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان قد

حصل في المشركين أضداد هذه المعانى كانوا تسعمائة وخمسين رجلاً، وفيهم أبوسفيان وأبوجهل، ومعهم مائة فرس، وسبعمائة بعير، وأهل الخيل كلهم دارعون، وكان معهم دروع سوى ذلك، وكانوا قد مُرنوا على الحرب والغارات، وإذا كان كذلك كانت غلبة المسلمين خارقة للعادة فكانت معجزة.

وثانيها : أنّه صلى الله عليه وسلم كان قد أخبر عن ذلك باخبار الله في قوله تعالى: «**وإذ يَعِدُكُمُ اللهُ إحْدى الطّائفَتَيْن**» يعنى جمع قريش، أو عير أبى سفيان، وكان أخبر قبل الحرب بأن هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، والإخبار عن الغيب معجز.

وثالثها : إمداد الملائكة ــ كما سيجىء في هذه السورة.

ورابعها : قوله: «**يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ**» وفيه أربعة احتمالات لأن الضمير في يرون إمّا أن يعود إلى الفئة الكافرة، أو إلى الفئة المسلمة، وعلى كلا التقديرين يجوز عود الضمير في مثليهم إلى كل منهما، فهذه أربعة. الأول: أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثل عدد المشركين قريباً من الفين. والثاني: أنها رأت المسلمين مثلى عدد المسلمين ستمائة ونيفاً وعشرين، ودليل هذا الاحتمال قراءة من قرأ «**تَرَوْنَهُمْ**» بتاء الخطاب أي ترون يا مشركى قريش المسلمين مثلى أنفسهم، ودليل الاحتمالين جميعاً أن عود الضمير في يرون إلى الأقرب، وهوالفئة الكافرة أولى، ولأنه سبحانه جعل هذه الحالة آية للكفار حيث خاطبهم بقوله: «**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ**» فوجب أن يكون الراؤن هم الكفار حتى تكون حجة عليهم، ولو كانت الآية مما شاهدها المؤمنون لم يصح جعلها حجة على الكفرة، والحكمة في ذلك أن يهابهم المشركون ويجبنوا عن قتالهم، وهذا لا يناقض قوله في سورة الأنفال «**و يُقَلِّلُكُمْ فى أعْيُنِهِمْ**» لاختلاف الوقتين، فكأنهم قلّلوا أولاً في أعينهم حتى اجترؤا عليهم، فلمّا لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، على أن تقليلهم تارة في أعينهم وتكثيرهم أخرى ابلغ في القدرة وإظهار الآية.

الاحتمال الثالث : أن الرائين هم المسلمون، والمرئيين هم المشركون، فالمسلمون رأوا المشركين مثلى المسلمين، والسبب فيه ما قرر عليهم أمرهم من مقاومة الواحد الا ثنين في قوله تعالى: «**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين**» والكافرون كانوا قريباً من ثلا ثة أمثالهم، فلو رأوهم كما هم لجبنوا وضعفوا.

الاحتمال الرابع : أن يكون الرّاؤن المسلمون، ثم إنهم رأوا المشركين على الضعف من

عدد المشركين، وهذا قول لا يمكن أن يقول به أحد لأن هذا يوجب نصرة الكفار، وإيقاع الخوف في قلوب المؤمنين، والآية تنافى ذلك.

وفي الآية احتمال خامس: وهو أن أول الآية قد بيّنا أنه خطاب مع اليهود، فيكون المراد ترون أيها اليهود المشركين مثلى المؤمنين في القوّة، وههنا بحث، وهو أن الاحتمال الأول والثاني يقتضى أن المعدوم صار مرئياً، والاحتمال الثالث يوجب أن يكون الموجود والحاضر غير مرئىّ، أما الأول فهوا محال عقلاً، والقول به سفسطة، فلهذا قيل لعل الله تعالى أنزل الملائكة حتى صار عسكر المسلمين كثيراً، وعلى هذا تكون الرؤية رؤية البصر، و يكون مثليهم نصباً على الحال، أو تحمل الرؤية على الظنّ والحسبان، فإن من اشتدّ خوفه قد يظن في الجمع القليل أنه في غاية الكثرة لكن قوله: «**رأى الْعَيْنِ**» لا يجاوب ذلك، إذ معناه رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها، معاينة كسائر المعاينات. وأمّا الثاني فهو جائز عند الأشاعرة إذ عند حصول الشرائط. وصحة الحاسّة لا يكون الإدراك واجب الحصول، بل يكون عندهم جائزاً لا واجباً، والزمان زمان خوارق العادات، وأما المعتزلة فعندهم الادراك واجب الحصول عند استجماع الشروط، وسلامة الحس، فاعتذروا عن ذلك بأن الإنسان عند الخوف لا يتفرّغ للتأمّل البالغ، فقد يرى البعض دون البعض، أو لعلّ الغبار صار مانعاً عن إدراك البعض، أو خلق الله تعالى في الهواء ما صار مانعاً عن رؤية ثلث العسكر، أو يحدث في عيونهم ما يستقلّ به الكثير كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين، وكل ذلك محتمل وقوله: «**والله يُؤَيِّدُ**» يقوى «**بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ**» نصره «**إِنَّ فِى ذَلِكَ**» المذكور «**لَعِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَارِ**» أي لذوى البصائر، أفلا تعتبرون بذلك فتؤمنون.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إِلَٰه إلاَّ هُوَ والملائكةُ وأُلُوا الْعِلْم قائماً بالْقِسْطِ لاَ إِلَٰهَ إلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ إلاَّ منْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بيْنَهُمْ ومَنْ يكْفُرْ بآياتِ الله فإنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَاب* فَإن حاجُّوكَ فقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله وَمَنِ اتَّبَعَنِ وقُلْ لِلَّذِينَ أُتُوا الكِتَابَ والأُمِّيينَ أأَسْلَمْتُمْ فَإنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وإن تَوَلَّوْا فَإنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ والله بَصِيرٌ بالْعِبادِ»

سورة آل عمران (الآية: ١٨، ١٩، ٢٠)

فى الواحدى وأبى السعود قال الكلبيُّ: لمّا ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار الشام، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبيّ الَّذِى يخرج في آخر الزمان؟! فلما دخلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال «نعم» قالا: وأنت أحمد؟ قال: «نعم» قالا: إنّا نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنّا بك، وصدقناك، فقال لهما رسول صلى الله عليه وسلم: «سلانى» فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله، فأنزل الله تعالى على نبيّه «**شَهِدَ الله أنّه لا إله إلا هو والملائكة وأولُوا العلم...**» فأسلم الرجلان، وصدّقا برسول الله صلى الله عليه وسلم* وكذا فى الخازن، وفيه إنّ هذه الآية نزلت فى نصارى نجران فيا ادعوا فى عيسى عليه السلام. هذا: ولم أعثر فى التفاسير على غير هذين القولين: فقوله: «**شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إِلَٰهَ إلاَّ هُوَ والملائكَةُ وأولُوا الْعِلْمِ...**» قال صاحب الغرائب: واعلم أن الشهادة من الله تعالى ومن الملائكة ومن أولى العلم يحتمل أن تكون بمعنى واحد. ويحتمل أن لا تكون كذلك. أما الأول فتقريره من وجهين: أحدهما: أن الشهادة عبارة عن الاخبار المقرون بالعلم، فهذا المعنى مفهوم واحد، وهو حاصل فى حقّ الله تعالى، وفى حقّ الملائكة وفى حقّ أولى العلم، أما من الله فذلك أنه أخبر فى القرآن أنه إله واحد لا إله إلا هو، وذلك فى مواضع كثيرة كالإخلاص وآية الكرسى وغيرهما. والتمسّك بالدلائل السمعية فى هذه المسئلة

جائز، لأن العلم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم لا يتوقف على العلم بها، وأما من الملائكة وأولى العلم، وهم الذين عرفو وحدانية الله تعالى بالدلائل القاطعة، فكلهم أخبروا أيضاً أن الله واحد لا شريك له. وثانى الوجهين أن تجعل الشهادة عبارة عن الاظهار والبيان، فالله تعالى أظهر ذلك، و بيّن بأن خلق ما يدل على ذلك، والملائكة وأولوا العلم أظهروا ذلك، و بيّنوه أيضاً. الملائكة للرسل والرسل للعلماء والعلماء لعامة الخلق، فالتفاوت إنما وقع فى الشيء الذى به حصل الإظهار والبيان، فأما مفهوم الاظهار والبيان فشيء واحد فى حقّ الكل، فكأنه قيل للنبىّ صلى الله عليه وسلم إن وحدانية الله تعالى أمر قد ثبت بشهادة الله وشهادة جميع المعتبرين من خلقه، ومثل هذا الدين المبينُ والمنهج القويم لا يضعف بمخالفة بعض الجهال من النّصارى وعبدة الأوثان، فاثبت أنت وقومك يا محمد على ذلك فإنه هو الإسلام، والدين عند الله هو الإسلام. وأمّا الثانى فهو قول من يقول: شهادة الله تعالى على توحيده عبارة عن أنه خلق الدلائل الدالة على توحيده، وشهادة الملائكة وأولى العلم عبارة عن اقرارهم بذلك، ونظيره قوله تعالى: «**إنّ الله وملائكته يصلّون على النبىّ**» فالصلاة من الله غير الصلاة من الملائكة وقال: فإن قيل المدعى للوحدانية هو الله فكيف يكون المدعى شاهداً؟ فالجواب أنه ليس الشاهد بالحقيقة إلا الله لأنه خلق الأشياء، وجعلها دلائل على توحيده، ثم وفق العلماء لمعرفة تلك الدلائل والتّوصل بها إلى معرفة الوحدانيّة، ثم وفقهم حتى أرْشَدُوا غيرهم إلى ذلك، ولهذا قال: «**قُلْ أىُّ شىءٍ أكبَرُ شهادةً قل الله**» * وفى الخطيب: قال ابن عباس رضى الله عنهما: خلق الله الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة، وخلق الله الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة، فشهد لنفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ولم يكن سماء ولا أرض ولا برّ ولا بحر فقال: «**شَهِدَ الله أنّهُ لاَ إلَهَ إلاّ هو**» «**وَ**» أشهد بذلك «**الملائكة**» أى أقرّوا بذلك «**وَ**» » شهد بذلك: «**أولُوا العِلْمِ**» أى بالايمان بذلك، والاحتجاج عليه، والمراد بالعلماء هنا هم الذين يثبتُون وحدانية الله تعالى وعدله بالحجج الناطقة والبراهين القاطعة، وهم علماء العدل والتوحيد. وفى ذلك تنو يه بفضل علم التوحيد وشرف أهله* وفى الخازن: واختلفوا فى أولى العلم، فقيل هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم أعلم الخلق بالله تعالى* وقيل هم علماء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار* وقيل هم علماء مؤمنى أهل الكتاب مثل عبدالله بن سلاّم

وأصحابه* وقيل هم علماء جميع المؤمنين* وفى القرطبي: وقد قيل إن المراد بأولى العلم الأنبياء عليهم السلام. وقال بن كيسان: المهاجرون والأنصار* وقال مقاتل: مؤمنوا أهل الكتاب* وقال السدى: المؤمنون كلهم* قال القرطبي: وهو الأظهر لأنه عام* وقوله: «**قائماً بالْقِسْطِ**» عبارة أبي السعود: بيان لكماله فى أفعاله بعد بيان كماله فى ذاته* هذا وفى انتصاب قائماً بالقسط وجوه: الأول أنه حال مؤكدة. والتقدير شهد الله قائماً بالقسط، أو لا إله إلا هو قائماً بالقسط، وهذا أوجه لكون الإلهية والتفرّد بها مقتضياً للعدالة، مثل هذا أبوك عطوفاً، أو لا رجل إلا عبدالله شجاعاً، ويحتمل أن يكون حالاً من أولى العلم أى حال كون كل واحد منهم قائماً بالقسط فى أداء هذه الشهادة. الثانى أن يكون صفة للنفى كأنه قيل لا إله قائماً بالقسط إلاّ هو، وقد رأيناهم يتسعون فى الفصل بين الصفة والموصوف. الثالث: أن يكون نصباً على المدح، وإن كان نكرة كقوله: و يأوى إلى نسوة عُطّلٍ. وشعثاً مراضيع مثل السعالى. واعلم أن وجوب الوجود يلزمه الغنى المطلق والعلم التّام، والفيض العام والحكمة الكاملة والرحمة الشاملة، وعدم الانقسام بجهة من الجهات، وعدم الافتقار بوجه من الوجوه إلى شيء من الأشياء، وعدم النقص والنقص فى شيء من الأفعال والأحكام إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العليا، ومركوز فى العقل السليم أن من هذا شأنه لا يصدر منه شيء إلا على وفق العدالة وقضية التسوية ورعاية الأصلح عموماً أو خصوصاً، فكل ما يخيل إلى المكّلف أنه خارج عن قانون العدالة، أو يشبه الجور، أو القبح وجب أن ينسب ذلك إلى قصور فهمه وعدم إحاطته التّامة بسلسلة الأسباب والمسبّبات والمبادىء والغايات، فانظر فى كيفية خلقه أعضاء الانسان حتى تعرف عدل الله وحكمته فيها، ثم أنظر إلى اختلاف أحوال الخلق فى الحسن والقبح والغنى والفقر والصحة والسقم، وطول العمر وقصره، واللذة والألم. واقطع بأن كل ذلك عدلٌ، وصواب، ثم انظر فى كيفيّة خلقه العناصر وأجرام الأفلاك والكواكب، وتقدير كل منها بقدر معين، وخاصّية معيّنة فكلها حكمة وعدالة، وانظر إلى تفاوت الخلائق فى العلم والجهل والفطانة والبلادة والهداية والغواية، واقطع بأن كل ذلك عدل وقسط، فإن الإنسان، بل كل ما سوى الله تعالى لم يخلق مستعداً لادراك تفاصيل كلمات الله، فالخوض فى ذلك خوض فيما لا يغنيه، بل لا يسعه ولا ينفعه إلا العلم الإجمالى بأنه تعالى واحد فى ملكه، وملكه لا منازع له فيه، ولا مضارّ، ولا مانع لقضائه، ولا رادّ، وأن

ذلك بقضائه وقدره، وفى كل واحدٍ من مصنوعاته ولكل شيء من أفعاله حكم ومصالح لا يحيط بذلك علماً إلا موجده وخالقه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، هذا هو الدين القويم، والاعتقاد المستقيم، والعدول عنه مراء، والجدال فيه هراء، فمن نسبه إلى الجور فى فعل من الأفعال فهو الجائر لا على غيره بل على نفسه إذ لا يعترف بجهله وقصوره. ولكن ينسب ذلك إلى علام الخفيات والمطلع على الكليات والجزئيات من أزل الآزال إلى أبد الآباد*

وقوله: «لا إلٰهَ إلاّ هُوَ» إنما كرره للتأكيد، وقيل: إن الأول وصف وتوحيد، والثانى رسم تعليم. أى قولُوا لا إله إلا هو. وقيل: فائدة تكرارها الاعلام بأن هذه الكلمة أعظم الكلام وأشرفه، ففيه حثٌّ للعباد على تكريرها والاشتغال بها، فإن من اشتغل بها فقد اشتغل بأفضل العبادات. أو لأن الأول قول الله والثانى حكاية قول الملائكة وأولى العلم، أو لأنّ الأول جرى مجرى الشهادة والثانى جرى مجرى الحكم بصحة ما شهد به الشهود. وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: الأول وصف والثانى تعليم أى قولوا وأشهدُوا كما شهدت. من الخازن والكرخى. «العزيز» فى ملكه والغالب الذى لا يقهر. وعبارة الكرخى: قوله العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعه. فيه إشارة إلى أنه قدم العزيز لأن العزة تلائم الوحدانية، والحكمة تلائم القيام بالقسط فأتى بهما لتقرير الأمرين على ترتيب ذكرهما. قال صاحب الكشاف: العزيز الحكيم صفتان مقروئان لما وصف به ذاته من الوحدانية والعدل. يعنى أنه العزيز الذى لا يغالبه إلى آخره. الحكيم الذى لا يعدل عن العدل فى أفعاله. وقوله تعالى: «إنَّ الدّينَ عِنْدَ اللهِ الإسلامُ» يعنى إن الدين المرضى عند الله هو الإسلام كما قال تعالى: «ورضيتُ لكُمُ الإسْلامَ دِيناً» نزلت الآية ردّاً على اليهود والنصارى، وذلك لما ادعت اليهود أنه لا دين أفضل من اليهودية، وادّعت النّصارى أنه لا دين أفضل منَ النصرانية ردَّ الله عليهم ذلك فقال: «إنّ الّدِينَ عِنْدَ اللهِ الإسلامُ». والمعنى: شهد الله أنه لا إله إلاّ هو، وشهد أن الدين عند الله الإسلام. وأصل الدين فى اللغة الجزاء. يقال: كما تدين تدان، ثم صار اسماً للملة والشريعة. ومعناه الانقياد للطاعة والشريعة. قال الزجاج: الدين اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه، وأمرهم بالاقامة عليه، والإسلام هو الدخول فى السلم، وهو الاستسلام والانقياد والدخول فى الطاعة، وروى البغوى بسند الثعلبى عن غالب القطان، قال: أتيتُ الكوفة فى تجارة. فنزلت قريباً من الأعمش، وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهى لى

عـنـد الله وديـعة، إن الدين عند الله الإسلام، قالها مراراً، قلت: سمع فيها شيئاً. فصليت الـصـبـح مـعـه، وودّعـتـه، ثم قـلـت لـه: إنى سمعتك ترددها، فما بلغك فيها؟ قال والله لا أحـدثك فيها إلى سنة، فكتبت على بابه ذلك اليوم، وأقمتُ سنة، فلما مضت السنة. قلت: يـا أبـا محمد قد مضت السنة فقال: حدثنى أبو وائل عن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عـلـيـه وسـلـم: [يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عزّ وجلّ: إن لعبدى هذا عندى عـهـداً وأنـا أحـق مـن وفّـى بـالعهد، ادخلوا عبدى الجنة] الخازن* وقوله: «**وَمَا اخْتَلَفَ الَّـــذِيـنَ أُوتُـوا الْكِتَابَ**» فى الخازن قال الكلبىّ: نزلت فى اليهود والنصارى حين تركوا الإسـلام، والمـعنى ومـا اخـتـلـف الذين أوتوا الكتاب فى نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم: «**إِلاَّ مِـنْ بـعْـدِ مـا جَـاءَهُمُ الْعِلْمُ**» يعنى بيان نعته وصفته فى كتبهم، وقال الربيع: إنّ مـوسـى عـلـيه السلام لمّا حضره الموت دعا سبعين رجلاً من خيار بنى إسرائيل وأودعهم الـتـوراة، واستخلف يوشع بن نون. فلمّا مضى القرن الأول والثانى والثالث وقعت الفرقة والاخـتـلاف بـينهم، وهم الذين أوتوا الكتاب، وهم من أبناء الملوك السبعين حتى أهرقوا الدماء ووقع الشر والاختلاف بينهم، وذلك بعد ما جاءهم العلم. يعنى بيان ما فى التوراة مـن الأحكام* وعبارة الجلال: «**وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**» اليهود والنصارى فى الـدين بأن وحّدَ بعضٌ وكفر بعض. وعبارة البيضاوى: أو من أرباب الكتب المتقدمة فى ديـن الإسـلام. فـقـال قـوم: إنـه حـقٌ، وقـال قوم: إنه مخصوص بالعرب ونفاهُ آخرون مطلقاً، أو فى التوحيد. فثلث النصارى، وقالت اليهود عزيز ابن الله. وقيل: هم قوم موسى اختلفوا بعده. وقيل: هم النصارى اختلفوا فى أمر عيسى* وفى القرطبى بعد عبارة: وقالت اليهود عـزيز ابن الله* وقالوا: كنا أحق بأن تكون النبوّة فينا من قريش لأنهم أميُّون ونحن أهـل الـكـتـاب. وقـولـه: «**بَغْـيـاً**» أى ما كان ذلك الاختلاف، وتظاهر هؤلاء بمذهب وهـؤلاء بمـذهـب إلاّ حسداً. والتقدير: وما اختلفوا إلاّ للبغى لا لغيره، فهو حيّز الاستثناء: «**بـيْـنَـهُمْ**» وطلباً للرياسة. وقيل: هو اختلافهم فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من بعد مـا جـاءهم العلم ببيّنات بنعته فى كتبهم، حيث آمن به بعض وكفر به بعض. وقيل: هو اخـتـلافـهـم فى الايمـان بـالأنبياء، فمنهم من آمن بموسى، ومنهم من آمن بعيسى. ولم يؤمنوا بـبـقـيّـة الأنـبـياء: «**وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ الله فَإِنَّ الله سَرِيعُ الْحِسابِ**» أى المجازات له: «**فَـإِنْ حَـاجُّـوكَ**» أى جـادلـك الذين كفروا يا محمد فى التوحيد والدين: «**فقل**» لهم:

«**أسْلَمتُ وجْهِيَ لله**» أى أخلصت نفسى وعبادتى لله وحده، لم أجعل فيها لغيره شركاً بأن اعبده، ولا أدعو إلهاً معه، لأنّ دين الإسلام دين التوحيد، وهو الدين القويم الذى ثبت عندكم صحته كما ثبت عندى وحيه، وما جئت بشيء مبتدع حتى تجادلونى فيه، وخص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء، فهو تعبير عن جملة الشخص بأشرف أجزائه الظاهرة، وذلك لاشتماله على معظم القوى والمشاعر، ولأنه معظم ما تقع به العبادة من السجود والقراءة، و به يحصل التوجّه إلى كل شيء* كذا فى القرطبى وأبى السعود، وقوله: «**وَمَنِ اتّبعنِ**» كذلك عقيدته: «**وقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**» اليهود والنصارى: «**والأميّين**» مشركى العرب الذين لا كتاب لهم، وإن كانوا يكتبون و يقرؤن الكتاب: «**أأسْلَمْتُمْ**» أى فهل أسلمتم كما أسلمتُ أنا، فقد أتيتكم بالبيّنات بما يوجب عليكم أن تسلموا. أى أسلموا وانتهوا عن كفركم خير لكم: «**فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا**» إلى دين الله القويم، ونفعوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور. وفى القرطبى: وقد قرأ الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الآية عليهم، وقال لليهود: أتشهدون أن عزيراً عبدالله ورسوله؟ فقالوا: معاذ الله أن يكون عزيراً عبدالله، فقال الله عزّ وجلّ: «**وإنْ تَولّوْا**» عن الإسلام والتوحيد الخالص لم يضروك: «**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ**» أى وظيفتك تبليغ الرسالة، وقد بلغها عليه الصلاة والسلام على أبلغ وجه: «**والله بَصيرٌ بالْعِبَادِ**» فيجازيهم بأعمالهم، وهذا قبل الأمر بالقتال، فهو منسوخ بآية السيف لأن المفهوم اقتصار الرسالة على التبليغ، بل أمر بعده بقتالهم حتى يسلموا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«قُلِ اللّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إنَّكَ عَلى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ* تُولِجُ اللّيْلَ فى النَّهَارِ وتُولِجُ النَّهَارَ فى اللّيْلِ وتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وترْزقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ»

سورة آل عمران (الآية : ٢٦، ٢٧)

في الواحدى والخطيب: قال ابن عباس وأنس بن مالك: افتتح رسول الله صلى الله

عليه وسلم مكة، ووعد أمّته ملك فارس والروم قالت المنافقون واليهود: هيهات هيهات! من أين لمحمد ملك فارس والروم، هم أعزّ وأمنع من ذلك، ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وذكر المفسرون أنّه صلى الله عليه وسلم خطّ على الخندق يوم الأحزاب، ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، قال عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان الفارسى وحذيفة والنعمان بن مقرن المزنى، وستة من الأنصار فى أربعين ذراعاً، فحفرنا حتّى إذا كنا تحت ذى ناب، أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروةٍ كسرتْ حديدنا، وشقت علينا، فقلنا: يا سلمان إرق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبر هذ الصخرة، فإمَّا أن نعدل عنها، وإمَّا أن يأمرنا فيها بأمره، فإنا لا نحبُّ أن نجاوز خطه، قال: فَرقَى سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ضارب عليه قبّةً تركيةً، فقال: يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق، فكسرت حديدنا وشقّت علينا حتى ما يَحِيكُ فيها قليل ولا كثير، فمرنا فيها بأمر فإنا لا نحب أن نجاوز خطّك، قال: فهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سلمان إلى الخندق، والتسعة على شفة الخندق، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم المعول من سلمان فضربها ضربةً صدعها، و برق منها برق أضاء ما بيْن لابتيْها (يعنى المدينة) حتى كأن مصباحاً في جوف بيت مظلم وكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح، فكبَّر المسلمون، ثم ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكسرها و برق منها برق أضاء ما بين لابتيْها حتى كأن مصباحاً في جوف بيتٍ مظلم، وكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح، وكبّر المسلمون، وأخذَ يَدَ سلمانَ ورقى، فقال سلمان: بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد رأيتُ شيئاً ما رأيت مثله قط!! فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القوم فقال: رأيتُم ما يقول سلماً؟ قالوا: نعم، يا رسول الله، قال: ضربتُ ضربتى الأولى فبرق الذي رأيتُم أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنّها أنياب كلاب، وأخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثانية فبرق الذي رأيتُم، أضاء لى منها القصور الحمر في أرض الروم كأنها أنياب كلاب، وأخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت الثالثة فبرق الذي رأيتُم أضاءت لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب كلاب، وأخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها، فأبشروا، فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحفر، فقال

المنافقون: ألا تحفرون الخندق من الْفَرَقِ ــ الفزع ــ ولا تستطيعون أن تبرزوا؟ قال: فنزل القرآن «**وإذ يقُولَ المُنَافِقُونَ والَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ ورسُولُهُ إلاَّ غُروراً**» وأنزل الله تعالى في هذه القصّة «**قُلِ اللّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ..**» إلى قوله: «**بِغَيْرِ حِسَابِ**»* وفي القرطبي: وقيل: نزلت دامغة لباطل نصارى أهل نجران في قولهم: ان عيسى هو الله، وذلك أن هذه الأوصاف ــ المتقدمة ــ تبيّن لكل صحيح الفطرة أن عيسى ليس في شيء منها، قال ابن إسحاق: أعلم الله عز وجل في هذه الآية بعنادهم وكفرهم وأن عيسى عليه السلام وإن كان الله تعالى أعطاه آيات تدل على نبوته من إحياء الموتى ــ وغير ذلك فإن الله عزّ وجلّ هو المنفرد بهذه الأشياء من قوله: «**تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ**» إلى قوله: «**بِغَيْرِ حِسَابِ**» فلو كان عيسى إلٰهاً كان هذا إليه، فكان في ذلك اعتبار وآية بيّنةٌ* وفي الخازن: زيادة على ما تقدم. وقيل إن اليهود قالوا: والله لا نطيع رجلاً جاء ينقل النبوة من بنى إسرائيل إلى غيرهم فنزلت هذه الآية. وقوله تعالى: «**قُلِ اللّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ**» قال الحسن: إن الله تعالى أمر نبيّه أن يسأله أن يعطيه ملك فارس والروم، و يردّ ذلّ العرب عليهما، وأمره بذلك دليل على أنّه يستجيبُ له صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء، وهكذا منازل الأنبياء إذا أمروا بدعاء استجيب دعاؤهم، أي قل يا الله «**مَالِكَ الْمُلْكِ**» أى جنس الملك على الاطلاق ملكاً حقيقيّاً بحيث يتصرّف فيه كيف يشاء كذا في أبي السعود. وقيل مَلَكَ العباد وما ملكوا، وقيل: مالك ملك السموات والأرض، وقيل معناه بيده الملك يؤتيه من يشاء، وقيل: معناه ملك الملوك ووارثهم، يوم لا يدّعى الملك أحد غيزه، وفي بعض كتب الله المنزلة: أنا الله ملك الملوك، ومالك الملك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدى، فإن العباد أطاعونى جعلتهم عليهم رحمة، وإن هم عصونى جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسبّ الملوك، ولكن توبوا إلىَّ أعطّفهم عَلَيكُمْ. كذا في الخازن. وفى القرطبى، قال علىّ رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم: [لـمّا أمر الله تعالى أن تنزل فاتحة الكتاب وآية الكرسى، وشهد الله، وقل اللّهم مالك الملك، إلى قوله: بغير حساب، تعلّقن بالعرش وليس بينهنَّ و بين الله حجاب، وقلن يارب: تهبطنا دار الذنوب وإلى من يعصيك؟ فقال الله تعالى: وعزتى وجلالى لا يقرؤكُنَّ عبد عقيب كل صلاة مكتوبة إلا أسكنتُه حظيرة القدس على ما كان منه، وإلاَّ نظرت إليه بعينى المكنونة في كل يوم سبعين نظرة، وإلاَّ قضيت لهُ كل يوم سبعين حاجةً أدناها الفقر، وإلا أعذتُه من عدوّه بنصرته عليه، ولا يمنعه من دخول الجنّة إلاَّ أن يموت] وقوله:

«تُؤتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ» بيان لبعض وجوه التصرّف الذي تستدعيه مالكيّة الملك، وتحقيق لاختصاصها به حقيقة، وكون مالكية غيره بطريق المجاز كما ينبيء عنه إيثار الإيتاء الذي هو مجرّد الاعطاء على التمليك المؤذن بثبوت المالكية حقيقة «وتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ» بإيتائه الملك «وتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ» بنزعه منه «بِيَدِكَ» بقدرتك «الْخَيْرُ» أى والشر، والتقديم للاختصاص، وإنما خص الخير بالذكر لأنّه المرغوب فيه، أو لأنه المقضى بالذّات، والشرّ مقضى بالعرض إذ لا يوجد شرٌّ جزئى ما لم يتضمّن خيراً كلياً «إنَّكَ عَلى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ» تعليل لما سبق وتحقيق له «تُولِجُ» تدخل «اللَّيْلَ فى النَّهارِ وتُولِجُ النَّهارَ» تُدخله «فى اللَّيْلِ» فيزيد كل منهما بما نقص من الآخر، وفيه دلالة على أن من قدر على أمثال هذه الأمور العظام المحيّرة للعقول والأفهام فقدرته على أن ينزع الملك من العجم و يذلّهم و يؤته العرب و يعزهم أهون عليه من كل هيّن «وتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيّتِ» كالإنسان والطائر من النطفة والبيضة «وتُخْرِجُ الْمَيِّتَ» كالنطفة والبيضة «مِنَ الْحَىِّ» وكالمسلم من الكافر وعكسه، فالمسلم حيٌّ الفؤاد والكافر ميّت الفؤاد، قال تعالى: «أوَمَنْ كانَ ميْتاً فأحييْناهُ» هذا ما عليه المفسرون. ولكن لما لا يقال (وتخرجُ الميتَ من الحيِّ) كالشعر من الرأس والظفر من اللحم، «وترْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغيْرِ حِسابٍ» أي ترزقه رزقاً واسعاً بلا ضيق، إذِ المحسوب يقال للقليل. أي تعطى من تشاء من المال ما لا يقدر على إحصائه، وتُقتِرُ على آخرين لما لك من الحكمة والارادة والمشئية.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لاَ يَتّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الكافرِينَ أوْلِياءَ مِنْ دُونِ المؤمِنينَ ومَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فى شيءٍ إلاّ أنْ تَتّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً ويُحذّرُكُمُ اللهُ نفْسَهُ وإلى اللهِ الْمَصِيرُ»

في الواحدى: قال ابن عباس: كان الحجاج بن عمرو وكهمس بن أبى الحقيق، وقيس بن زيد، وهؤلاء كانوا من اليهود يباطنون نفراً من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر، وعبدالله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود، واحذروا لزومهم ومباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر إلاّ مباطنتهم

وملازمتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال الكلبيُّ: نزلت في المنافقين: عبدالله بن أُبيّ وأصحابه، كانُوا يتولون اليهود والمشركين و يأتونهم بالأخبار و يرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأنزل الله تعالى هذه الآية، ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم. وقال جبير عن الضحاك عن ابن عباس: نزلت في عبادة بن الصّامت الأنصارى، وكان بدرياً نقيباً، وكان له حلفاء من اليهود، لمّا خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب. قال عبادة يا نبي الله: إن معى خمسمائة رجل من اليهود، وقد رأيت أن يخرجوا معى، فأستظهر بهم على العدو فأنزل الله تعالى **«لاَ يَتّخِذِ الْمُـؤْمِنُونَ الكافرينَ...»** الآية. وقيل: نزلت في عمّار بن ياسر حين تكلم ببعض ما أراد منه المشركون. وكذا فى الخازن والطبرى والغرائب وفيه، وقد كرر الله ذلك ــ أي النهى عن موالات الكافرين ــ في آيات كثيرة **«لاَ تتّخذوا بِطَانةً مِنْ دُونِكُمْ»** **«لاَ تَتّخِذُوا اليهودَ والنّصَارَى أوْلِيَاء»** **«لاَ تَجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوَادُّونَ منْ حَادَّ الله ورسُولَهُ»** وقال: وكون المؤمن موالياً للكافر يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون راضياً بكفره والرضا بالكفر كفر فيستحيل أن يصدر عن المؤمن فلا يدخل تحت الآية لقوله: **«لا يتّخذ المؤمنون»** **«يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا»**

وثانيها: المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر وذلك غير ممنوع منه.

والثالث: كالمتوسط بين القسمين، وهو الركون إليهم والمعونة والمظاهرة لقرابة أو صداقة قبل الإسلام، أو غير ذلك، ولهذا قال مقاتل: نزلت في حاطب بن أبى بلتعه وغيره، وكانُوا يظهرون المودة لكفار مكّة مع اعتقاد أن دينهم باطل فهذا لا يوجب الكفر إلاّ أنه منهيٌّ عنه حذراً من أن يجره إلى استحسان طريقته، والرضا بدينه حتى يخصه بالموالاة دون المؤمنين فلا جرم هدد فقال: **«ومَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ الله»** أي من ولايته أو من دينه **«فى شيء»** يقع عليه اسم الولاية. يعنى أنه منسلخ عن ولاية الله رأساً وهذا كالبيان لقوله: **«مِنْ دُونِ المؤمنين»** ليعلم أن الاشتراك بينهم و بين المؤمنين في الموالاة غير متصوّر، وهذا أمر معقول، فإن موالاة الوليّ وموالاة عدوه ضدان: قال الشاعر:

تــودُّ عــدوّى ثم تــزْعُـمُ أنّنى ... صَدِيقكَ ليْسَ النُّوك عنك بعازب

وقوله: **«إلاّ أنْ تَتّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً»** قال الجوهريُّ: يقال اتّقى تقيةً وتقاةً، مثل اتّخم تُخْمةً،... قال الواحدى: ويجوز أن يجعل تقاةً هٰهُنا مثل دعاةً ورماةً، فيكون حالاً

مؤكدة، وعلى هذين الوجهين يكون تتقُوا متضمناً معنى تحذروا، أو تخافُوا، ولهذا عديَ، بمن ويحتمل أن يكون التقاة أو التقية بمعنى المتّقى مثل ضرب الأمير لمضرو به، فالمعنى إلاَّ أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه. رخص لهم في موالاتهم إذا خافوهم والمراد بتلك الموالاة مخالفة ومعاشرة ظاهرة والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع من قشر العصا وإظهار الطوية كقول عيسى عليه السلام: (كن وسطاً وامش جانباً) أي ليكن جسدك بين الناس وقلبك مع الله، وللتقية عند العلماء أحكام، منها: إذا كان الرجل في قوم كفار يخاف منهم على نفسه جاز له أن يظهر المحبّة والموالاة ولكن بشرط أن يضمر خلافه، و يُعرّض في كل ما يقول ما أمكن، فإن التُّقْيَةَ تأثيرها في الظاهر لا في أحوال القلب ومنها أنها رخصة فول تركها كان أفضل لما روى الحسن أنّه أخذ مسيلمة الكذّاب رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما، أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أنى رسول الله، قال: نعم، وكان مسيلمة يزعم أنه رسول بنى حنيفة، ومحمد رسول قريش فتركه، ودعا الآخر وقال: أتشهد أنّ محمداً رسول الله؟ قال: نعم، نعم، نعم، فقال: أتشهد أنى رسول الله، فقال: إنى أصمٌّ ثلاثاً. فقدّمه وقتله، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم، أمّا هذا المقتول فضى على يقينه وصدقه فهنيئاً له، وأمّا الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه* ونظير هذه الآية «**إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وقلبُهُ مطمئنٌّ بالإيمان**» ومنها: أنها إنما تجوز فيما يتعلق بإظهار الموالاة والمعاداة، وقد يجوز أن تكون أيضاً فيما يتعلق بإظهار الدين، فأما الذي يرجع ضرره إلى الغير كالقتل والزنا وغصب الأموال وشهادة الزُّور وقذف المحصنات، وإطلاع الكفار على عورات المسلمين فذلك غير جائز البتّة، ومنها أنَّ الشافعى جوّز التقية بين المسلمين كما جوّزها بين الكافرين محاماة عن النّفس، ومنها أنها جائزة لصون المال على الأصح كما أنها جائزة لصون النفس لقوله صلى الله عليه وسلم: [حرمة مال المسلم كحرمة دَمِه، ومن قُتل دون ماله فهو شهيد] ولأن الحاجة إلى المال شديدة، ولهذا يسقط فرض الوضوء ويجوز الاقتصار على التّيمم إذا بيع الماء بالغبن. قال مجاهد: كان هذا في أول الإسلام فقط لضعف المؤمنين. وروى عوف عن الحسن أنّه قال: التّقية جائزة إلى يوم القيامة، وهذا أرجح عند الأئمة* وفي الطبرى: حدّثنى المثنى قال: ثنا عبدالله بن صالح قال: ثنا معاوية بن صالح عن علىّ عن ابن عباس قوله: «**لاَ يَتّخِذِ الْمُـؤْمِنُونَ**

الكافرينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المؤمنينَ» قال: نهى الله سبحانه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار، أو يتخذوهم وليجة من دون المؤمنين إلاَّ أن يكون الكفّارُ عليهم ظاهرين فيظهرون لهم اللطف، ويخالفونهم في الدين وذلك قوله: «إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» وقال ابن عباس: التّقاة: التكلم باللسان وقلبه مطمئن بالايمان* وقال عكرمة في قوله: «إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» ما لم يهرق دم مسلم، وما لم يستحل ماله* قال أبو العالية: التقية باللسان وليس بالعمل* وعن الضحاك قال: التقية باللسان، من حمل على أمر يتكلم به، وهو لله معصية فتكلم مخافة على نفسه وقلبه مطمئن بالايمان فلا إثم عليه، إنما التقية باللسان* وعن ابن عباس: فإن ذلك لا يضره* وعن قتادة قال: لا يحلُّ لمؤمن أن يتخذ كافراً وليًّا في دينه، وفي قوله: «إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» قال: يكون بينك و بينه قرابة فتصله لذلك* وعن الحسن في قوله «إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» قال: صاحبهم في الدنيا معروفاً الرحم وغيره، فأمّا في الدّين فلا* وفي القرطبي: وقيل إن المؤمن إذا كان قائماً بين الكفار فله أن يداريهم باللسان إذا كان خائفاً على نفسه، وقلبه مطمئن بالايمان، والتقية لا تحل إلا مع خوف القتل، أو القطع أو الايذاء العظيم، ومن أكره على الكفر فالصحيح أن له أن يتصلب ولا يجيب إلى التلفظ بكلمة الكفر، بل يجوز له ذلك* وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، قوله: «و يُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ» أي حذركم نقمته في مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه، وعادى أولياءه وقوله: «وإلى اللهِ الْمَصِيرُ» أي المرجع والمنقلب ليجازى كل عامل بعمله، وفي الخبر عن مهران قال: قام فينا معاذ فقال: يا بني أود إني رسول رسول الله إليكم تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنّة أو إلى النار* اللهم اجعلنا من أصحاب الجنّة يا حيُّ يا قيوم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«قُلْ إن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبكُم اللهُ و يغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ* قُلْ أَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ فإنْ تولَّوْا فإنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِين» سورة آل عمران (الآية: ٣١، ٣٢)

في الواحدي وابن كثير والخطيب والطبري وغيرها من التفاسير: قال الحسن وابن

جريج: زعم أقوامٌ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله، فقالوا: يا محمد إنـا نحبُّ ربّنا، فأنزل الله هذه الآية« وفي الخازن: نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا: نحـن أبنـاء الله وأحباؤه. فنزلت هذه الآية فعرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فلم يـقبلوها« وقال ابن عباس: وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش وهم في المسجد الحرام، وقد نـصبـوا أصنـامَـهـم، وعلّقُوا عليها بيض النّعام، وجعلوا في آذانها الشفوف، وهم يسجدون لهـا، فقـال: يـا معشر قريش، والله لقد خالفتُم ملة أبيكم إبراهيم، وإسماعيل، فقالت قريش: إنما نعبدها حباً لله لتقربنا إلى الله زلفى، فنزلت هذه الآيـة« وقيل: إن نصارى نجران قالوا: إنما نقول هذا القول في عيسى حباً لله وتعظيماً له، فـأنـزل الله قـل يـا محمد إن كنتم تحبُّون الله فيما تزعمون فاتّبعونى يحببكم الله لأنه قد ثبتت نـبـوة محـمد صلى الله عليه وسلم بالدلائل الظاهرة، والمعجزات الباهرة، فوجب على كافة الخلق متـابـعـتـه، قـال الخـازن: والمعنى: قل إن كنتم صادقين في ادعاء محبة الله فكونوا منقادين لأ وامره مطيعين له فاتبعونى فإنَّ اتّباعى من محبة الله تعالى وطاعته« قال الخطيب في تـفسيره: فمن ادّعى محبّته وخالف سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو كذّاب، وكتاب الله يـكـذّبُـه، وإذا رأيـت مـن يـذكـر محـبـة الله و يصفقُ بيده مع ذكره و يطرب، و ينعر و يـصـعق، فلا شكّ أنَّه لا يعرف ما لله، ولا يدرى ما محبة الله، ما تصفيقه وطربه ونعرته وصـعـقته إلاَّ أنَّه تصوّر في نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسمّاها الله بجهله وادّعائه، ثم صفـق وطـرب ونعر وصعق عند تصورها، وربما رأيت المنيَّ قد ملأ إزار ذلك المحبّ عند صعـقـه، وحمق الـعـامّة حواليه قد ملؤا أذقانهم بالدموع لما رأوه من حاله. ولمَّا نزلت هذه الآيـة قـال عبدالله بن أبيّ لأصحابه: إنَّ محمداً يجعل طاعته كطاعة الله، و يأمرنا أن نحبّه كما أحـبَّ الـنـصارى عيسى فنزل قوله: «**قُلْ**» لهم «**أَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ**» فيما يأمركم به من التوحيد «**فإنْ تولَّوْا**» أي أعرضوا عن الطاعة «**فإنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِين**» أي لا يـرضى فـعـلـهـم، ولا يـغفر لهم، قلت: وكذلك لا يرضى عمن تبعهم وتولاَّهم ولا يغفر لهـم. وفي الـقـرطبي: وقـال سهل بن عبدالله: علامة حبّ الله حبّ القرآن، وعلامة حبّ القـرآن حـبّ الـنبي صلى الله عـلـيـه وسلم، وعلامة حبّ النبي صلى الله عليه وسلم حبّ الـسـنّـة، وعـلامـة حب الله وحب القرآن وحبّ النبي وحبّ السنّة حبّ الآخرة، وعلامة حـبّ الآخـرة، أن يحـبّ نفسه، وعلامة حبّ نفسه أن يبغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا ألا يـأخـذ منها إلاَّ الزاد والْبُلْغَة« وروى أبوالدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في

قوله تعالى: «قُلْ إن كُنْتُم تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونى يُحْبِبكُم الله» قال: على البرّ والتقوى والتواضع وذلّة النفس. خرجه أبوعبدالله الترمذي. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [من أراد أن يحبّه الله فعليه بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وألا يؤذى جاره] وفي صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إن الله إذا أحبّ عبداً دعا جبريل فقال: إنى أحبُّ فلاناً فأحبّه. قال: فيحبه جبريل، ثم ينادى في السماء فيقول: إنَّ الله يحب فلاناً فأحبُّوه، فيحبُّهُ أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إنى أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادى في أهل السماء إنَّ الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض] قوله: «ويغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» يعنى أن من غفر له فقد أزال عنه العذاب وذلك ببركة اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام «والله غفُورٌ رَحِيمٌ» غفور لمن اتبعني ما سلف منه قبل ذلك، رحيم به «قُلْ» لقريش «أطِيعُوا الله والرَّسُولَ» يعنى إنَّ طاعة الله متعلقة بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن طاعته لا تتم مع عصيان رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولهذا قال الشافعيُّ رضي الله عنه: كل أمر أو نهى ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جرى ذلك في الفريضة واللزوم مجرى ما أمر الله به في كتابه أو نهى عنه* وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فإنَّ طاعتكم لمحمد صلى الله عليه وسلم طاعتكم لى، فأمّا أن تطيعونى وتعصوا محمداً فلن أقبل منكم «فإنْ تولّوا» أي أعرضوا عن طاعة الله ورسوله «فإنَّ الله لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِين» أى لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم. روى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلاَّ من أبى. قالوا: ومن يأبى؟ قال: من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى] وأخرج الشيخان عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى].

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون» سورة آل عمران (الآية: ٥٩)

في الواحدي: ذكر المفسرون أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما

لك تشتم صاحبنا؟ قال: وما أقول؟ قالوا: تقول إنه عبدٌ قال: أجل إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول. فغضبوا، وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية* وعن الحسن أنه جاء راهبان من نجران. فعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما الإسلام، فقال أحدهما: إنا قد أسلمنا قبلك، فقال: كذبتما، إنّه يمنعكما من الإسلام ثلاث، عبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير، وقولكم لله ولداً. قالا: من أبو عيسى؟ وكان لا يعجل حتى يأمره ربه، فأنزل الله تعالى الآية «**إِنَّ مَثَلَ عيسى..**» وكذا في الخازن وغيره، وكاد يجمع المفسرون على ذلك، وقوله تعالى: «**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى**» أي شأنه الغريب الذي لغرابته ينتظم في سلك الأمثال «**عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ**» كشأنه في خلقه من غير أب ولا أم، وهو من تشبيه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم، وأوقع في النفس، لأن فاقد الأبوين أغرب من فاقد الأب، فكان أشدّ خرقاً للعادة من الموجود من غير أب، وأقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته، والجماع كون كل منهما من غير أب، على أن التّشبيه تكفي فيه المماثلة من بعض الوجوه. وهذا جواب: كيف قال: إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم. وآدم خلقه الله من التراب وعيسى من الهواء، وآدم خلق من غير أب وأم، وعيسى خلق من أم؟ وإيضاحه أن المراد تشبيه به في الوجود من غير أب. والتشبيه لا يقتضي المماثلة من جميع الوجوه (الكرخي)* وعن بعض العلماء أنه أسر بالرُّوم. فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟ فقالوا: لأنه لا أبَ له. فقال لهم: فآدم أولى لأنه لا أبوين له، قالوا: فإنه كان يحي الموتى، قال: فحزقيل أولى لأن عيسى أحيا أربعة نفر، وحزقيل أحيا ثمانية آلاف، قالوا: إنه كان يبرىء الأكمه والأبرص، قال: فجرجيس أولى لأنه طبُخ وأحُرق، ثم خرج سالماً. كذا في السمين* «**خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ**» أي خلق آدم من تراب يابس وهو أبلغ في القدرة فلم لا يقرُّون بأن الله خلق عيسى من مريم من غير أب. بل الشأن في خلق آدم أعجب وأغرب. أي قدّره جسداً من طين «**ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ**» أي أنشأه خلقاً بالكلمة، وكذلك عيسى أنشأه خلقاً بالكلمة، أو المراد: اعلم يا محمد أن ما قال له ربك كن فإنه يكون لا محالة. والمراد بكن ادخاله في الوجود. قالت الحكماء: إنما خلق آدم من التراب لوجوه: ليكون متواضعاً. وليكون ستاراً، وليكون أشدّ التصاقاً بالأرض فيصلح للخلافة فيها، ولما فيه من إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التي هى أضوأ الأجرام السفلية، وابتلاهم

بظلمات الضلالة، وخلق الملائكة من الهواء الذي هو أرق الأجرام، وأعطاهم كمال القوّة والقدرة، وخلق السموات من أمواج مياه البحار، وأبقاها معلقة في الفضاء، وخلق آدم من التراب الذي هو أكثف الأجرام فآتاه النور والهداية، وكل ذلك برهان باهر، ودليل ظاهر على أنّه تعالى هو المدبر بغير احتياج والخالق بلا مزاج وعلاج. خلق البشر من التراب لاطفاء نيران الشهوة والحرص والغضب، وخلقه من الماء، خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً ليكون صافياً تتجلى فيه صور الأشياء، ثم مزج بين التراب والماء لامتزاج اللطيف بالكثيف، فصار طيناً **«إنّي خالقٌ بشراً من طين»** ثم إنه سلّ من ألطف أجزائه الطين **«ولقد خلقنا الإنسان من سُلالةٍ مِنْ طينٍ»** ثم جعله طيناً لازباً **«إنّا خلقناهم مِنْ طِينٍ لازِب»** ثم سنه وغير رائحته **«ولقد خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حمأٍ مَسْنُونٍ»** وفي **«كن فَيَكُونُ»** قال ابن عباس: معناه كن فكان.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وأَبْنَاءَكُمْ ونِسَاءَنَا ونِسَاءَكُمْ وأَنْفُسَنَا وأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلى الكاذِبِين»

فى الوحدى عن جابر بن عبدالله قال: قدم وفد أهل نجران على النبي صلى الله عليه وسلم: العاقب والسيّد، فدعاهما إلى الإسلام فقالا: أسلمنا قبلك، قال: كذبتما إن شئتما أخبرتكما بما يمنعكما من الإسلام؟ فقالا: هات أنبئنا، قال: حبُّ الصليب، وشرب الخمر، وأكل لحم الخنزير. فدعاهما إلى الملاعنة، فوعداه على أن يفادياه بالغداة، فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ بيد عليّ وفاطمة، و بيد الحسن والحسين، ثم أرسل إليهما، فأبيا أن يجيبا، فأقرا له بالخراج. فقال صلى الله عليه وسلم: [والذي بعثني بالحق لو فعلا لمطر الوادى ناراً] فأنزل الله الآية* وفي الخطيب: فلمّا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على وفد نجران، ودعاهم إلى المباهلة، قالوا: حتى نرجع، وننظر في أمرنا، ثم نأتيك غداً، فخلا بعضهم ببعض، وقالوا للعاقب، وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبيٌّ مرسلٌ. ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم. والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتُم لنهلكنَّ، فإن أبيتم إلاّ الاقامة على دينكم، وعلى ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل، وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وقد غدا محتضناً للحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه، وعليٌّ خلفها رضي الله عنهم آل البيت. وهو صلى الله عليه وسلم يقول لهم: [إذا دعوت فأمِنُّوا] فقال أسقف نجران: وهو اسم سرياني ـــ لرئيس النصارى وعالمهم، وهو غير العاقب: يا معشر النصارى!! إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصرانيٌّ إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم!! رأينا إلاَّ نباهلك، وأن نقرّك على دينك، ونثبت على ديننا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإن أبيتُمْ المباهلة، فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين، وعليكم ما عليهم، فأبوا، فقال: إنما أُنَا بِذكم فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على ألاَّ تغزونا، ولا تخنقنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفيْ حُلّةٍ: ألف في صَفَر، وألف في رَجَبَ، نؤديها للمسلمين، وعارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يؤدوها، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: [والذي نفسي بيده أنَّ العذاب تدلى على أهل نجران، ولو لاعنُوا لمسخوا قردةً وخنازير، ولا ضطرم عليهم الوادى ناراً، ولا ستأصل الله تعالى نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر، ولما حال الحول على النصارى حتى هلكوا كلّهم] وعن عائشة رضي الله عنها: [أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة، ثم عليّ، ثم قال: «**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجْسَ أهْلَ البيت**»] وفي ذلك دليل على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم، وعلى فضل أهل الكساء رضي الله تعالى عنهم وعن بقية الصحابة أجمعين، وقوله: «**فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وأَبْنَاءَكُمْ**» أراد بالأبناء الحسن والحسين، وبالنساء فاطمة، وبالنفس نفسه صلى الله عليه وسلم وعلياً رضي الله عنه، وقيل هو على العموم لجماعة أهل الدين، وقوله تعالى: «**ثُمَّ نَبْتَهِلْ**» قال ابن عباس: نتضرّع في الدعاء. وقيل معناه: نجتهد ونبالغ في الدعاء. وقيل: معناه نلتعنُ، والابتهال الإلتعان يقال عليه بهلة الله أي لعنة الله، والمراد منها تبيّن الصادق من الكاذب. وتجوز المباهلة بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلاَّ أنها لا تجوز إلا في أمرٍ مهم شرعاً وقع فيه اشتباهٌ وعناد لا يتيسّر دفعه إلا بالمباهلة ـــ فيشترط كونها بعد إقامة الحجّة، والسعي في إزالة الشبهة، وتقديم النصح والإنذار وعدم نفع ذلك. ومساس

الـضـرورة إليهـا، وأمـا قول المشركين «**اللّـهُمَّ إن كان هذا هو الحقّ مِنْ عندك فأمْطِرْ علـيـنـا حـجـارة من السّماء**» فليس من قبل المباهلة. فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يـعرض نفسه لذلك، ولم يكن ذلك القول في معرض الاحتجاج ولا دعاء ولا بإذن من الله تـعـالى لـرسـولـه. وقـوله تعالى: «**فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ الله عَلى الكاذِبين**» يعني منّا ومنكم في شأن عيسى عليه السلام، أي الذي يقول إنه ابن الله، أو يقول إنه إله فعليه لعنة الله.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«قُلْ يـا أهْـلَ الكتَابِ تعَالَوْا إلى كلمة سَواءٍ بيننا وبينكُمْ ألاّ نعْبُدَ إلاّ الله وَلاَ نُشـرِكَ بـه شَـيْـئـاً ولاَ يتَّخِذَ بعْضُنَا بَعْضاً أرْبَاباً مِنْ دونِ الله فإنْ تولَوْا فقُولُوا اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمُونَ» سورة آل عمران (الآية: ٦٤)

في الخـازن: قـال ابـن عـبـاس: اجتمع عند النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران وأحـبـار اليـهـود فـتـنـازعـوا عـنـده، فـقـالت: الأحبار: ما كان إبراهيم إلاّ يهودياً، وقالت الـنصارى: ما كان إبراهيم إلاّ نصرانياً وكلا الفريقين يدعى أنه أولى به، فقال رسول الله صلى الله عـلـيـه وسلم: كلا الفريقين بريء من إبراهيم ودينه، بل كان حنيفاً مسلماً وأنا على ديـنـه فـاتـبـعوا دينه الإسلام؟ فقالت اليهود: ما تريد إلاّ أن نتّخذك ربّا كما اتّخذت النصارى عيسى رباً، وقالت النصارى: يا محمد ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عـزيـر، فـأنـزل الله عـز وجـل: «**قُلْ يا أهْلَ الكتَابِ تعَالَوْا**» أي هلمّوا «**إلى كلمة سَواءٍ**» يـعنى فيهـا إنصاف ولا ميل فيها لأحدٍ على صاحبه أي كلمة عدل لا يختلف فيها الـتوراة والإنجيل والقرآن وتفسير الكلمة قوله: «**ألاّ نعْبُدَ إلاّ الله وَلاَ نُشرِكَ به شَيْئاً ولاَ يتَّخِذَ بعْضُنَا بعْضاً أرْبَاباً مِنْ دونِ الله**» وذلك أن النصارى عبدوا غير الله وهو المسيح، وأشـركـوا بـه، وهـو قـولهـم: أب وابـن وروح الـقـدس، فـجـعلوا الواحد ثلاثة، واتّخذوا أحـبـارهـم ورهـبـانهم أرباباً من دون الله، وذلك أنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الشرك و يـسجدون لهم... ومعنى الآية قل يا محمد لليهود والنصارى: هلموا إلى أمرٍ عدل نصف وهُـوَ أن لا نـقول عزيراً ابن الله، ولا نقول المسيح ابن الله، لأن كل واحد منهما بشر مخلوق مـثـلـنـا، ولا نـطيع أحبارنا ورهبانناً فيما أحدثوا من التحريم والتّحليل من غير رجوع إلى ما شرع، ولا يسجد بعضنا لبعض لأنَّ السجود لغير الله حرام ـــ بل وشرك ـــ فلا نسجد لغير

الله، ولا نطيع أحداً في معصية الله «**فإنْ تَوَلَّوْا**» أي فإن أعرضوا عما أمرتم به «**فقُولُوا**» أنتُم لهؤلاء «**اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمُونَ**» أي مخلصون بالتوحيد والعبادة له. روى الشيخان عن ابن عباس أنَّ أبا سفيان أخبره أنَّ هِرَقْلَ أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشأم في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مادَّ فيها أبا سفيان وكفارَ قريش. فأتوه، وهو بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به دِحْيَةَ الكلبي إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل. فقرأ فإذا فيه [بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أمَّا بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تَسْلَمْ يؤتك الله أجرك مرّتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسين، و «**يا أهْلَ الكتَابِ تعَالَوْا إلى كلمة سَواءٍ بيننا وبينكُمْ ألاَّ نعْبُدَ إلاَّ الله وَلاَ نُشرِكَ به شَيْئاً ولاَ يَتَّخِذَ بعْضُنَا بعضاً أرْبَاباً مِنْ دونِ الله فإنْ تولَوْا فقُولُوا اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمُونَ**»] والأريس: الأكار. وهو الزرّاع والفلاح. وقيل: هم أتباع عبدالله بن أريس. رجل كان في الزمن الأول بعثه الله فخالفه قومه، وقيل هم الأروسيُّون وهم نصارى أتباع عبدالله بن أرس. وهم الأروسة، وقيل: هم الأرِيُسُون. بضم الهمزة، وهم الملوك الذين يخالفون أنبياءهم، وقيل هم المتبخترون، وقيل هم اليهود والنصارى الذين صددتهم عن الإسلام واتبعوك على كفرك (الخازن) مع بعض التصرّف في بعض الألفاظ. وعبارة أبي السعود: روى أنه لما نزل قوله تعالى: «**اتّخذُوا أحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أربَاباً من دون الله**» قال عدى بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله، فقال: أليس كانُوا يحللون ويحرمون لكم فتأخذون بقولهم؟ قال: نعم. قلت: وقد رواه الترمذي. وقال البيضاوى: انظر ما راعى الله سبحانه وتعالى في هذه القصة من المبالغة والإرشاد، وحسن التدرّج في الحجاج، فبين أولاً أحوال عيسى، وما تعاور عليه من الأطوار الماضية للإلهيّة، ثم ذكر ما يحلّ عقدتهم، و يزيل شبهتهم، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز، ثمُ لمَّا أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد عاد إليهم الإرشاد، وسلك طريقاً أسهل وألزم بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى والإنجيل وسائر الأنبياء والكتب، ثم لما لم يجد أن ينفع ذلك أيضاً عليهم، وعلم أنَّ الآيات والنذر لا تغني عنهم أعرضوا عن ذلك. وقال «**اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمُونَ**» أي لمّا لزمتكم الحجة فأعترفوا بأنا مسلمون دونكم، ومتّصفون بما سمّانا به إبراهيم عليه السلام

مسلمين منقادون لأحكامه معترفون بما لله علينا في ذلك من المنن والأنعام غير متخذين أحداً رباً لا عيسى ولا عزيراً ولا الملائكة لأنهم بشر مثلنا محدث كحدوثنا. ولا نقبل من الرهبان شيئاً بتحريمهم علينا. فنكون قد اتخذناهم أرباباً من دون الله. قال عكرمة: معنى يتّخذ: يسجد* وروى أن ابن مالك قال: قُلنا يا رسول الله: أينحني بعضنا لبعض؟ قال: لا. قلنا: أيعانقُ بعضنا بعضاً؟ قال: لا، ولكن تتصافحوا. وفي الحديث: [ما ينبغي أن يُسْجَدَ لأحدٍ من دون الله].

((القول في سبب نزول قوله تعالى))

«إنّ أوْلَى النّاسِ بإبْراهِيمَ لَلّذِينَ اتّبعُوهُ وهَذَا النّبيُّ والّذِينَ آمَنُوا والله وَليُّ المؤمنينَ» سورة آل عمران (الآية: ٦٨)

فى الواحدى: قال اليهود: والله يا محمد لقد علمتَ أنّا أوْلَى بدين إبراهيم منك ومن غيرك. وأنه كان يهودياً. وما بك إلا الحسد. فأنزل الله تعالى هذه الآية* قلتُ: ولنزول هذه الآية سبب مرتبط بما قبله من نزول قوله تعالى: **«يا أهْلَ الكتاب لِمَ تُحاجُّون فى إبْرَاهيم ومـا أنْزلَتِ التّوْراةُ والإنجيلُ إلاّ مِنْ بعْدِهِ أفلاَ تعْقِلُونَ* هَا أنْتمْ هؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُونَ فيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ والله يعْلَمُ وأنتم لا تعلمون* مـا كانَ إبْراهيمُ يَهُودياً ولاَ نصْرانياً ولَكِنْ كَانَ حَنيفاً مُسْلِماً ومَا كَانَ مِنَ المُشْرِكينَ»** أي إن أحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته والانتساب إلى دينه للذين سلكو طريقه ومنهاجه. فوحدوا الله مخلصين له الدين، وسنّو سنّته، وعملوا بشرائعه، وكانوا لله حنفاء مسلمين غير مشركين به. وعبارة ابن كثير في تفسير الآية: **«إنَّ أوْلَى النّاسِ بإبْراهيم...»** يقول تعالى: أحقُّ النّاس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعُوه على دينه، وهذا النبيّ يعنى محمّداً صلى الله عليه وسلم، والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار. ومن تبعهم بعدهم. وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [لكل نبيّ ولاة من النبيّين، وإن وليّ منهم أبى وخليل ربّى عز وجلّ، ثم قرأ **«إنّ أوْلَى النّاسِ بإبراهيم للذينَ أتبَعُوه»** الآية. زاد فى رواية أخرى بعد: منهم أبى وخليل الله عزّ وجلّ ابراهيم عليه السلام] وذكر الطبرى عن قتادة فى قوله: **«إنّ أولى النّاسِ بإبراهِيمَ للذينَ اتّبعُوه»** يقول للذين اتّبعُوه على ملّته وسنّته ومنهاجه وفطرته:

«**وهذا النبىّ**» وهو نبىُّ الله محمد «**والذين آمنوا**» معه، وهم المؤمنون الذين صدّقوا نبىَّ الله واتبعوه. كان محمد رسول الله والذين معه من المؤمنين أولى النّاس بإبراهيم.: «**والله ولىُّ المؤمنين**» بنصره ومعونته لهم فى كل ما يصلح حالهم فى الدنيا والآخرة.

((القول فى سبب نزول قوله تعالى:))

«وَدّتْ طائفةٌ مِنْ أهل الْكِتَاب لَوْ يضلوُّنكم وَمَا يُضِلوُّنَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ ومَا يشْعُرُونَ* يا أَهْلَ الْكِتَاب لِمَ تكْفُرُونَ بآياتِ الله وأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ* يا أَهْلَ الْكِتَاب لِمَ تَلْبِسُونَ الحقَّ بالْبَاطِلِ وتكْتُمونَ الْحقَّ وأَنتُمْ تعْلَمُونَ» سورة آل عمران (الآية: ٦٩، ٧٠، ٧١)

فى الواحدى: نزلت الآية فى معاذ بن جبل وعمّار بن ياسر حين دعاهم اليهود إلى دينهم* قلت: والآية نظير قوله تعالى: «**ودّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب لَوْ يردّونكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمَانِكُمْ كُفّاراً حَسَداً...**»-وفى الطبرى عن ابن عباس قال: قال عبدالله بن الصّيف وعدىّ بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشيّةً حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعوا عن دينهم فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم: «**يا أَهْلَ الْكِتَاب لِمَ تَلْبِسُونَ الحقَّ بالباطل**» ــ إلى قوله ــ: «**والله واسِعٌ عليمٌ**» وعن قتادة: «**يا أَهْلَ الْكِتَاب لِمَ تلْبِسُونَ الحقَّ بالْبَاطِلِ**» يقول لم تلبسون اليهودية والنصارنية بالإسلام، وقد علمتمُ أن دين الله الذى لا يقبل غيره الإسلام، ولا يجزى إلا به. وفى قوله: «**وتكتُمون الْحقَّ وأَنْتُمْ تعْلَمُونَ**» قال قتادة: كتموا شأن محمد يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر* وعبارة ابن كثير: يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين و بغيهم إياهم الا ضلال، وأخبر أنّ و بال ذلك إنما يعود على أنفسهم، وهم لا يشعرون.. ولم يذكر سبباً لنزولها. وما ذكره الواحدى ذكره الخازن وكذ بقية المفسرين.

((القول فى سبب نزول قوله تعالى:))

«وقَالَتْ طائفةٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَاب آمنُوا بالّذِى أُنْزِلَ على الذينَ آمَنُوا وجْهَ النَّهَارِ واكفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ* ولاَ تُؤْمِنُوا إلاَّ لِمَنْ تَبعَ دينَكُمْ قُلْ إنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللهِ أنْ يُؤتَى أحَدٌ مِثْلَ مَا أوتيتُمْ أوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ ربّكُمْ قُلْ إنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ واسِعٌ عَليمٌ* يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذوالْفَضْلِ الْعَظيمِ»

سورة آل عمران (الآية: ٧٢، ٧٣، ٧٤)

فى الواحدى: تواطأ اثنا عشر حَبْراً من يهود خيبر، وقال بعضهم لبعض: ادخلوا فى دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا به فى آخر النهار، وقولوا إنا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك، وأظهر لنا كذبه و بطلان دينه، فإذا فعلتُم ذلك شكَّ أصحابه فى دينهم، وقالوا: إنهم أهل كتاب، وهم أعلم به منّا فيرجعون عن دينهم إلى دينكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية وأخبر محمداً صلى الله عليه وسلم والمؤمنين* وقال مجاهد ومقاتل والكلبي: هذا فى شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة، شُقَّ ذلك على اليهود لمخالفتهم، قال كعب بن الأشرف وأصحابه: آمنوا بالذى أنزل على محمد من أمر الكعبة، وصلّوا إليها أوّل النّهار ثم اكفُرُوا بالكعبة آخر النّهار، وارجعوا إلى قبلتكم الصخرة، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل كتاب وهم أعلم منّا، فربما يرجعون إلى قبلتنا، فحذّر الله تعالى نبيّه مكر هؤلاء. وأطلعه على سرّهم وأنزل: **«وقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ..»** وكذا فى القرطبي والخازن. وجه النّهار أوّله. والوجه مستقبل كل شيء لأنّه أول ما يوجه منه. وقوله: **«لَعَلّهُمْ يَرجِعُونَ»** يعنى عن دين الإسلام إن ألقينا هذه الشبهة لعلهم يشكون فى دينهم، فيرجعون عنه، ولمّا دبّروا هذه الحيلة أخبر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بها، فلم تتم لهم، ولم يحصل لها أثر فى قلوب المؤمنين، ولولا هذا الاعلام من الله تعالى لكان ربّما أثر ذلك فى قلوب بعض من كان فى إيمانه ضعف. قوله تعالى: **«ولا تؤمنُوا إلاَ لِمَنْ تَبعَ دِينكُمْ»** قال الخازن: هذا متصلٌ بالأول، وهو من قول اليهود يقول بعضهم لبعض: ولا تؤمنوا أى ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم: أى وافق ملّتكُمْ وهى اليهودية، واللام فى لمن صلة كقوله ردف لكم أى ردفكم. واعتبرها الجلال زائدة. وقال

القرطبي: وهذه الآية أشكل ما فى السورة، فروى عن الحسن ومجاهد أن معنى الآية: ولا تؤمنوا إلا لمن يتبع دينكم ، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنهم لا حجة لهم، فإنكم أصح منهم ديناً* قال الطبرى: الكلام كله خبر عن قول الطائفة التى قال الله عزّ وجلّ: **«وقالَت طائفةٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بالذى أُنْزل على الذينَ آمنُوا وجْهَ النّهارِ..»** وهو غير واضح، وعبارة ابن كثير: **«ولاَ تؤمِنُوا إلاّ لِمَنْ تبعَ دِينكُمْ»** أى تطمئنوا وتظهروا سروركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم، ولا تُظهرُوا ما بأيديكم إلا للمسلمين فيؤمنون به، ويحتجُّوا به عليكم* أى أنه من كلام اليهود. فيكون: **«ولاَ تُؤمنُوا»** معطوف على آمنوا بالذى أنزل، فيكون المعنى حكاية عنهم: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أى تصدقُوا إلا نَبيًّا يقرر شرائع التوراة، فأمّا من جاء بتغيير شىء من أحكام التوراة، فلا تصدّقوه. وهذا هو مذهب اليهود إلى اليوم، وعليه تكون اللام فى **«لمن»** زائدة، ومن أجل ذلك قيل للنبىّ صلى الله عليه وسلم : **«قُلْ إنَّ الْهُدىٰ هُدَى اللهِ»** وقد جئتكم به، فلن ينفعكم هذا الكيد الضعيف، فهدى الله هو الإسلام، وما عداه ضلال وقوله: **«أَنْ يُؤتَى»** أى بأن يؤتى: **«أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ»** من الكتاب والحكمة والفضائل.. المعنى لا تقرُّوا بأن أحداً يؤتى ذلك إلا لمن تبع دينكم **«أوْ»** بأن **«يُحَاجُّوكُمْ»** أى المؤمنون يغلبوكم **«عِنْدَ رَبّكُمْ»** يوم القيامة لأنكم أصحُّ ديناً، قال تعالى: **«قُلْ إنَّ الْفَضْلَ بيَدِ اللهِ يؤتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»** فمن أين لكم أنه لا يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتُم: **«وَاللهُ واسِعٌ»** كثيرُ الفضل **«عَليمٌ»** بمن هو أهله **«يَختصُّ بِرَحْمتِهِ مَنْ يَشَاءُ»** أى اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يحد ولا يوصف بما شرّف به نبيكم محمداً صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء، وهداكم به إلى أكمل الشرائع **«واللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظيمِ»** أى الكثير، فمن قصر إنعامه وإكرامه على مراتب معيّنةٍ، وإلى أشخاصٍ معينين كان جاهلاً بكمال الله تعالى فى قدرته وحكمته، ثم إنه تعالى كذبهم فى دعواهم الاختصاص بالمناصب العالية، فإن فيهم الخيانة المستقبحة فى جميع الأديان، ونقض العهد والكذب على الله وقتل الأنبياء وأكل الربا والرشا إلى غير ذلك من القبائح. وهو ما سترى طرفاً منها في هذه الآية.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إنْ تَأمَنهُ بِقِنْطارٍ يُؤدِّهِ إلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤدِّهِ إلَيْكَ إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائماً ذَلِكَ بأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأمِيّينَ سَبِيلٌ وَيقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وهُمْ يَعْلَمُونَ* بَلى مَنْ أوْفَى بِعَهْدِهِ واتَّقَى فَإنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتّقِينَ»
سورة آل عمران (الآية: ٧٥، ٧٦)

في الخازن: نزلت في اليهود. أخبر الله عز وجل أن فيهم أمانة وخيانة، وقسّمهم قسمين، والقنطار عبارة عن المال الكثير، والدينار عبارة عن المال القليل يقول منهم من يؤدى الأمانة وإن كثرت مثل عبدالله بن سلاّم وأصحابه، ومنهم من لا يؤديها وإن قلّت. وهم كفار أهل الكتاب مثل كعب بن الأشراف وأصحابه، قال ابن عباس في هذه الآية: أودع رجل من قريش عبدالله بن سلاّم ألفاً ومائتى أوقية من ذهب. فأدّاها إليه، فذلك قوله تعالى: **«وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إنْ تَأمَنهُ بِقِنْطارٍ يُؤدِّهِ إلَيْكَ»** يعنى فنحاص بن عزوراء استودعه رجل من قريش ديناراً فخانه، وجحده ولم يؤده إليه* وقيل: أهل الأمانة هم النّصارى وأهل الخيانة هم اليهود لأن مذهبهم أن يحلّ قتل من خالفهم في الدين وأخذ ماله بأى طريق كان* ونقل بن ابن عبّاس أنها نزلت في الوديعة. ومعنى الآية أن من أهل الكتاب، وهم اليهود من بنى إسرائيل أهل أمانة يؤدُّونها ولا يخونونها، ومنهم الخائن أمانته الفاجر في يمينه المستحلّ، و يكون في الآية دليل على تحذير المؤمنين أن يأتمنوهم على أموالهم، وتخو يفهم الاغترار بهم لاستحلال كثير منهم أموال المؤمنين* وعن قتادة كما في الطبرى: في قوله: **«إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائماً»** قال: تقتضيه إياه. وعن مجاهد: في قوله: مادمت عليه قائماً قال: مواظباً. قال أبوجعفر: وأولى القولين بتأو يل الآية قول من قال: معنى ذلك إلا مادمت عليه قائماً بالمطالبة والاقتضاء من قولهم: قام فلان بحق على فلان حتى استخرجه لى، أي عمل في تخليصه وسعى في استخراجه منه حتى استخرجه* وقوله: **«ذَلِكَ»** أي من سبب ذلك الاستحلال والخيانة **«بأَنَّهُمْ قَالُوا»** يعنى اليهود **«لَيْسَ عَلَيْنَا فى الأمِيّينَ سَبِيلٌ»** أي لا إثم عليهم ولا حرج في أخذ مال العرب. وذلك أن اليهود قالوا: أموال العرب حلال لنا إنهم ليسوا على ديننا، ولا

حرمة لهم في كتابنا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم في دينهم. وقيل: إن اليهود قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، والخلق لنا عبيد فلا سبيل علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا. فأكذبهم الله تعالى فقال: «**و يقولون عَلَى اللهِ الْكَذِبَ**» يعني اليهود «**وهُمْ يَعْلَمُونَ**» يعنى أنهم كاذبون. وقد اختلقوا هذه المقالة، وائتفكوها بهذه الضلالة، فإن الله حرّم عليهم أكل الأموال إلا بحقها، وإنما هم قوم بهت، وفي ابن كثير عن ابن صعصعه بن يزيد أن رجلاً سأل ابن عباس فقال: إنّا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدّجاجة والشاة. قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول ليس علينا بذلك بأس قال: هذا كما قال أهل الكتاب ليس علينا في الأميين سبيل: إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم* وعن سعيد بن جبير قال: لمّا قال أهل الكتاب ليس علينا في الأميين سبيل، قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: [كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميْ هاتيْن إلاّ الأمانة فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر] فيكون مرادهم بالأميّ من ليس له كتاب، وشأنه يشمل ماله ودمه وعرضه فقد استباحوا دماء العرب وأموالهم وأعراضهم. و يقولون على الله الكذب في نسبة ذلك إليه. وقوله تعالى: «**بَلَى**» أي عليهم فيهم سبيل «**مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ**» الذي عاهد الله عليه، أو بعهد الله إليه من أداء الأمانة وغيره. وهى استئناف مقررة للجملة التي تسد بلى مسدها، وفي السمين: ومن موصولة أو شرطية والرابط من الجملة الجزائية أو الخبرية هو العموم في المتّقين، وعند من يرى الربط بقيام الظاهر مقام المضمر يقول ذلك هنا، وقيل الجزاء أو الخبر محذوف تقديره يحبه الله، ودل على هذا الحذف قوله: «**فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**» أي يحبهم بمعنى يثيبهم وهم الذين يتقون الشرك، روى الشيخان عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول سالله صلى الله عليه وسلم: [أربع من كنَّ فيه كَانَ منافقاً خالصاً، ومَنْ كان فيه خصلة منهنَّ كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر] وفي رواية [إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر].

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأيْمانِهِم ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ولاَ يَنْظُرُ إلَيْهِمْ يَومَ الْقِيَامةِ ولاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ ألِيمٌ* وإنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ومَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»

سورة آل عمران (الآية: ٧٧، ٧٨)

في الواحدى: عن سفيان عن الأعمش عن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ حَلَفَ على يمينٍ، وهوفيها فاجر ليقطع بها مال امرىء مُسلم لقى الله وهو عليه غضبان] فقال الأشعث بن قيس: فيَّ والله. كان بيني و بين رجل من اليهود أرض — وفي رواية بئر وأرض — فجحدنى فقدمته إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فقال: لك بيّنة؟ قلتُ: لا. فقال لليهود: أتحلفُ. قلت: إذن يحلف فيذهب بمالى، فأنزل الله عز وجل «**إنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأيْمانِهِم ثَمَناً قَليلاً**» الآية. لكن روى البخارى عن عبدان، عن أبي حمزة عن الأعمش، وعن عبدالله بن أبى أوْفى، أنَّ رجلاً أقام سلعة في السوق فحلف لقد أعطى بها ما لم يعط ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت «**إنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأيْمانِهِم ثَمَناً قليلاً**»* وقال عكرمة: في أبى رافع ولبابة أبى الحقيق، وحُيى بن أخطب وغيرهم من رؤساء اليهود، كتموا ما عهد الله إليهم في التوراة من شأن محمد صلى الله عليه وسلم و بدلوه وكتبوا بأيديهم غيره، وحلفوا أنّه من عند الله لئلا يفوتهم الرشا والمآكل التي كانت لهم على أتباعهم. كذا في الواحدى. أي أن الآية نزلت في اليهود لـمّا بدّلوا نعت النبي صلى الله عليه وسلم، وعهد الله إليهم في التوراة، أو فيمن حلف كاذباً في دعوى أو في بيع سلعة* وفي الخطيب: وقيل نزلت في جماعة من اليهود جاؤا إلى كعب بن الأشرف في سنة أصابتهم ممتارين، فقال لهم: أتعلمون أن هذا الرجل رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: لقد هممت أن أميركم وأكسوكم فحرمكم الله خيراً كثيراً. فقالوا: لعلّه اشتبه علينا فرو يْداً حتى نلقاه، فانطلقوا فكتبوا صفة غير صفته، ثم رجعوا إليه، وقالوا: لقد غلطنا، وليس هو بالنّعت الذي نعت لنا. ففرح ومارهم* وفي الطبرى

عن عدى بن عميرة قال: كان بين امرىء القيس ورجل من حضرموت، فارتفعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال للحضرميّ: بيّنتُكَ وإلاَّ فيمينُه. قال: يا رسول الله إن حلف ذهب بأرضي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها حقّ أخيه لقي الله وهو عليه غضبان] فقال امرؤ القيس: يا رسول الله فما لمن تركها، وهو يعلم أنها حق؟ قال: الجنة، قال: فإني أشهدك أني قد تركتها. قال جرير فكنت مع أيوب السختياني حين سمعنا هذا الحديث من عديّ، فقال أيوب: إن عدياً قال في حديث العرش بن عميرة، فنزلت هذه الآية «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأيمانهم ثَمَناً قليلاً..» إلى آخر الآية. قال جرير: ولم أحفظ يومئذ من عدى. وكذا في بقية التفاسير، وفي الخازن: وقيل نزلت في ادعاء اليهود الذين قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل — وكتبوا ذلك بأيديهم وحلفوا أنه من عند الله — ولعلّ هذا القول أصح الأقوال لتوافق معناه مع مدلول الآية الثانية. لكنّ الأقرب حمل الآية على الكل. فقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ» يدخل فيه جميع ما أمر الله به و يدخل فيه العهود والمواثيق المأخوذة من جهة الرُّسل. و يدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه من عهد وميثاق. فكل ذلك من عهد الله الذي يجب الوفاء به، وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ» أي يستبدلون «بِعَهْدِ اللهِ» إليهم في الإيمان للنبي صلى الله عليه وسلم والوفاء بالميثاق وأداء الأمانة «وأيمانهم» أي حلفهم به تعالى كاذباً في قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه (البيضاوى) «ثَمَناً قَلِيلاً» من الدنيا « أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ» أي نصيب «لَهُمْ فى الآخرةِ» أي في نعيمها «وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ» بما يسُرهم، أولا يكلمهم بشيء أصلاً، وإنما يقع ما يقع من السؤال والتوبيخ في أثناء الحساب من الملائكة. فلا يخالف النصوص الدالة على أنهم يسئلون كقوله: «فوربّك لنسألنّهم أجْمَعِين» وهذه الجملة واللتان بعدها كناية عن إهانتهم وشدّة الغضب عليهم «ولاَ يَنْظُرُ إلَيْهِمْ» أي ولا يرحمهم «يَوْمَ الْقِيَامةِ ولاَ يُزَكّيهِمْ» أي ولا يثني عليهم بالجميل ولا يطهرهم من الذنوب، «وَلَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ» أي مؤلم في الآخرة. روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم: رجل حلف على سلعة لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرىء مسلم، ورجل منع فضل مائة

فيقول الله له: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك] وروى مسلم عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [من اقتطع حقّ امرىء مسلم بيمينه حرّم الله عليه الجنة، وأوجب له النار. فقالوا: يا رسول الله: وإن كان شيئاً يسيراً؟ قال: وإن كان قضيباً من أراك] قوله: «**وإنَّ مِنْهُمْ**» يعني من اليهود، أو أهل الكتاب «**لَفَرِيقاً**» طائفة ككعب بن الأشرف، ومالك بن الصّيف، وحيي بن أخطب، وأبي ياسر وشعبة بن عمر الشاعر. (كذا في الكرخي) «**يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بالْكِتَابِ**» أي يعطفونها بقرائتة عن المنزل إلى ما حرّفوه من نعت النبي صلى الله عليه وسلم «**لِتَحْسَبُوهُ**» أي المحرف «**مِنَ الْكِتَابِ**» الذي أنزله الله «**وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ**» أي في الواقع وفي اعتقادهم أيضاً «**وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ الله**» أي مع ما ذكر من اللّيّ والتّحريف على طريقة التّصريح لا بالتّورية والتعريض. (كذا في أبي السعود) «**وما هُوَ مِنْ عِنْدِ الله**» أي المحرف، والحال كونه ليس من عند الله «**و يَقُولُونَ عَلى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**» أنهم كاذبون. وفي الخازن: قال ابن عباس: إن الآية نزلت في اليهود والنصارى جميعاً. وذلك أنهم حرّفوا التوراة والإنجيل وألحقوا في كتاب الله ماليس فيه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«مـا كَانَ لِبَشَرٍ أنْ يُؤتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ والْحُكْمَ والنبوَّةَ ثم يقولَ لِلنَّاس كُونُوا عِبَاداً لِى مِنْ دُونِ اللهِ وَلكِنْ كُونُوا ربَّانِيّينَ بمـا كُنْتُم تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وبِمَا كُنْتُم تَدْرُسُونَ* ولا يأمُرَكُمْ أنْ تَتّخِذُوا المَلائكَةَ والنّبيينَ أرْباباً أيأمُرُكُمْ بالْكُفرِ بَعْدَ إذْ أنْتُمْ مُسْلِمُونَ»

سورة آل عمران (الآية: ٧٩، ٨٠)

في الواحدي: قال الضحاك ومقاتل: نزلت في نصارى نجران حين عبدوا عيسى* وقوله: «**ما كَانَ لِبَشَرٍ**» يعني عيسى «**أنْ يُؤتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ**» يعني الإنجيل. وقال ابن عباس في رواية الكلبي وعطاء: إن أبا رافع اليهودى والرئيس من نصارى نجران. قالا: يا محمد أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [معاذ الله أن يعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غير الله. ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني] فأنزل الله هذه الآية. قال الحسن: بلغني أن رجلاً قال: يا رسول الله نسلّمُ عليك كما يسلّمُ بعضنا على

بعض أفلا نسجد لك؟ قال صلى الله عليه وسلم: [لا ينبغي أن يسجد لأحدٍ من دون الله، ولكن أكرموا نبيّكم، واعرفوا الحقّ لأهله] فأنزل الله تعالى هذه الآية» وكذا في الطبري وفيه عن ابن جريج قال: كان ناس من يهود يتعبدون الناس من ربهم بتحريفهم كتاب الله عن موضعه، فقال الله عز وجل: «**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ والنبوَّةَ ثم يقولَ لِلنَّاس كُونُوا عِبَاداً لى مِنْ دُونِ اللهِ**» ثم يأمر النَّاس بغير ما أنزل الله في كتابه وفي الجلال: ونزل لمّا قال نصارى نجران: إنَّ عيسى أمرهم أن يتّخذوه رباً، أو لمَّا طلب بعض المسلمين السجود له صلى الله عليه وسلم «**مَا كان لِبَشَرٍ..**» الآية. وكذا في الخازن وابن كثير والغرائب، وقيل: زعمت اليهود أن أحداً لا ينال من درجات الفضل ما نالوه، فقال لهم الله: إن كان الأمر كما قلتُم وجب أن لا تشتغلوا باستبعاد الناس واستخدامهم، وهذا الوجه يحتمله لفظ الآية. لكن في الخازن وقال ابن عباس: في قوله تعالى: «**مَا كَانَ لِبَشَرٍ**» يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم أن يؤتيه الله الكتابَ يعنى القرآن، وذلك أن أبا رافع من اليهود والسيّد من نصارى نجران قالا: يا محمد تريد أن نعبدك ...الخ. وقوله: «**مَا كانَ**» أي لا ينبغي «**لبَشرٍ**» أي لكل فرد من أفراد البشر، وهو جميع بنى آدم لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط. و يوضع موضع الواحد والجمع «**أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ**» يعنى الفهم والعلم «**والنبوَّةَ**» المنزلة الرفيعة «**ثم يقولَ لِلنَّاس كُونُوا عِبَاداً لى مِنْ دُونِ اللهِ**» قال الخازن: ومعنى الآية إنه لا يجتمع لرجل نبوّة مع القول للناس كونوا عباداً لى من دون الله وكيف يدعوا الناس إلى عبادة نفسه دون الله، وقد آتاه الله ما آتاه من الكتاب والحكم والنبُوَّة، وذلك أن الأنبياء موصوفون بصفات لا يحصل معها ادعاء الإلٰهية والربوبية: منها: أن الله تعالى آتاهم الكتب السماوية، ومنها: إيتاء النبوة ولا يكون إلا بعد كمال العلم. وكل هذه تمنع من هذه الدعوى» قال الأصم كما في الغرائب: لو أرادُوا أن يقولوا ذلك لمنعهم الله منه، نظيره: «**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْه بالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْه الْوَتِينَ**» «**لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً* إذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ**» وقيل معناه إنه تعالى لا يشرف عبداً بالنبوة إلا إذا علم منه أنه لا يقول مثل ذلك الكلام. وقيل إن الرسول يدعى تبليغ الأحكام عن الله تعالى، ويحتج على صدقه بالمعجزة فلو أمرهم بعبادة نفسه بطل دلالة المعجزة على كونه صادقاً، والتحقيق أن

الأنبياء موصوفون بصفات لا يحصل معها هذا الادعاء لأن النّفس ما لم تكن كاملة بحسب قوتها النظرية والعلمية لم تكن مستعدّة لقبول نزول الكتاب السماوى عليه. وللحكم وهو فهم ذلك الكتاب و بيانه، وقد يعبر عنه بالسنة والنبوة، وهو كونه مأموراً بتبليغ ما فهم إلى الخلق. وفي قوله: «**ثُمَّ يَقُول**» تبعيد هذا القول عن مثل ذلك البشر «**كُونُوا ربَّانِيِّينَ**» يعنى ولكن يقول لهم النبي: كونوا ربّانيين، قال ابن عباس: كونوا فقهاء علماء. وفي رواية عنه كونوا فقهاء معلّمين، وقيل: معناه حكماء حلماء. وقيل: الربّانى الذي يربى الناس بصغار العلم وكباره، وقيل: الربانى العالم الذي يعمل بعلمه، وقيل: الرباني العالم بالحلال والحرام والأمر والنّهى. والتحقيق: أنه يطلق على الفقيه العالم الورع في الدين، ولمّا مات ابن عباس رضي الله عنهما قال محمد بن الحنفية: اليوم مات ربّانيّ هذه الأمة* قال سيبويه: الربّانى منسوب إلى الربّ بمعنى كونه عالماً به ومواظباً على طاعته، كما يقال رجل إلهيٌّ، إذا كان مقبلاً على معرفة الإله وطاعته، «**بما كُنتُمْ**» الباء للسببية وما مصدرية «**تُعلّمُونَ**» من التعليم أو العلم، على القراءتين فيعلم منه أنَّ التعليم أو العلم أو الدراسة وهي القراءة توجب على صاحبها كونه ربانياً إذا كان مخلصاً لله فيها وعاملاً بما تعلمه وفي الحديث [نعوذ بالله من قلب لا يخشع ومن علم لا نفع] وفي الآية دليل على صحة قوله عليه الصلاة والسلام: [العلماءُ ورثة الأنبياء] وقوله تعالى: «**ولا يأمُرَكُمْ**» أي ولا ينبغى لبشر أن يُنصّبه الله منصب الدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة، ثم يخالفه إلى أن يأمر الناس بعبادة نفسه و يأمركم «**أنْ تَتخِذُوا المَلائكَةَ والنّبيينَ أرْباباً**» والمعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهى قريشاً عن عبادة الملائكة واليهود والنّصارى عن عبادة عزير والمسيح بحيث قالوا له: أنتخذك رباً؟ قيل لهم: ما كان لبشر أن يستنبئه الله، ثم يأمر الناس بعبادة نفسه و ينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء، و يراد بالنبيين غيره صلى الله عليه وسلم كأنّه أخرج نفسه بتلك الدعوى عن زمرة الأنبياء «**أيأمُرُكُمْ**» أي البشر وقيل الله «**بالكُفرِ**» استفهام انكارى من الله تعالى للمسلمين الذين طلبوا من الرسول أن يسجدوا له «**بَعْدَ إذْ أنْتُمْ مُسْلِمُونَ**» إنما قاله على طريق الإنكار، يعنى لا يقول هذا ولا يفعله وما جاء به من الدين الحنيف يحرّم ذلك كله «**وَمَا أمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُا الله مُخلِصِينَ لَهُ الدّينَ حُنَفَاءَ**» «**مَنْ كانَ يرجُو لقَاءَ رَبّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِك بِعِبَادَةِ رَبّهِ أحَداً**».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))
«أفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أسْلَمَ مَنْ فى السَّمٰواتِ والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وإليْهِ يُرْجَعُون» سورة آل عمران (الآية: ٨٣)

في الواحدي والخازن: قال ابن عباس: اختصم أهل الكتابين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفوا بينهم من دين ابراهيم كل فرقة زعمت أنها أولى بدينه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: كلا الفريقين بريء من دين ابراهيم. فغضبوا، وقالوا: والله ما نرضى بقضائك، ولا نأخذ بدينك فأنزل الله تعالى: **«أفَغَيْرَ دِينِ اللهَ يَبْغُونَ»** ولم يوجد شيء في بقية التفاسير زائداً على ما ذكرت وقوله: **«أفَغَيْرَ دِينِ اللهَ يَبْغُونَ»** أي أفغير دين الإسلام يطلبون و يعبدون؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار، فإنه لا دين لله إلا الإسلام في السموات والأرضين بدليل قوله: **«وَلَهُ أسْلَمَ»** أي خضع وانقاد **«مَنْ فى السَّمٰواتِ والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً»** الطوع الانقياد والاتباع بسهولة، والكره ما كان من ذلك بمشقة وإباء من النفس، واختلفوا في معنى قوله **«طوْعاً وكرْهاً»** فقيل أسلم أهل السموات طوعاً وأسلم بعض أهل الأرض طوعاً و بعضهم كرهاً من خوف القتل والسّبي. وقيل أسلم المؤمن طوعاً، وانقاد الكافر كرهاً. وقيل: هذا في يوم أخذ الميثاق في حين قال: **«ألست بربكم قالُوا بلى»** فمن سبقت له السعادة قال ذلك طوعاً، ومن سبقت له الشقاوة قال ذلك كرهاً. وقيل أسلم المؤمن طوعاً فنفعه إسلامه يوم القيامة، والكافر يسلم كرهاً عند الموت في الوقت اليأس فلم ينفعه ذلك في القيامة. الخازن* ولكن لماذا لا يكون **«أسْلَمَ مَنْ فى السَّمٰواتِ والأرْضِ»** أي بالنظر في الأدلة، واتباع الحجة والانصاف من نفسه، ولم يكن سبيل لكفر الكافر إلا البغي والعناد، والآية على حد قوله تعالى: **«ولله يسجُدُ مَنْ فى السَّمٰواتِ والأرْضِ طوعاً وكرهاً»** فلا سبيل لأحدٍ إلى الامتناع عن مراده، فيكون المراد استسلم له من فيهما طوعاً وكرها، وسجد له من فيهما طوعاً وكرهاً: وظِلالُهُمْ بالغُدوِّ والآصال. والجملة حالية أي كيف يبغون غير دينه والحال هذه. فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه خاضعاً مطيعاً لله، الكافر مستسلم لتصرف الله فيه. كافراً بقلبه عاصٍ بقالبه متكبراً عن عبادته، وهو حال كونه واقعاً تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذى لا يخالف ولا يمانع* لكن في ابن كثير: عن عطاء*

بن أبي رباح عن النبي صلى الله عليه وسلم «وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمٰوٰتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً» أما من في السموات فالملائكة، وأما من في الأرض فمن ولد على الإسلام، وأمّا كرها فمن أتى به من سبايا الأمم في السلاسل والأغلال يقادون إلى الجنّة وهم كارهون. وقد ورد في الصحيح [عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنّة في السلاسل]. ولكن المعنى الأول الذي ذكرته لك للآية أقوى. وقوله: «وإليْهِ يُرْجَعُون» أي يوم المعاد فيجازى كلاً بعمله* وفي القرطبي: في قوله: «وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمٰوٰتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً» قال قتادة: أسلم المؤمن طوعاً والكافر عند موته كرهاً، ولا ينفعه ذلك لقوله «فلم يك ينفعُهُم إيمانُهُم لمّا رأوا بأسنا» قال مجاهد: إسلام الكافر كرهاً بسجوده لله وسجود ظله لله «أولم يروْا إلى ما خلقَ اللهُ من شيءٍ يتفيأ ظلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ والشّمائِلِ سُجّداً لله وهُمْ داخرون» «ولله يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمٰوٰت والأرض طوعاً وكرْهاً وظلالُهُمْ بالغدوِّ والآصالِ». وروى أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله عزّ وجل: «وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمٰوٰتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً» قال: الملائكة أطاعوه في السماء، والأنصار وعبدالقيس في الأرض. وقال عليه الصلاة والسلام: [لا تسبُّوا أصحابي فإن أصحابي أسلموا من خوف الله، وأسلم النّاس من خوف السيف] أي أن الملائكة والأنبياء والمرسلين وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلاّ المنافقين أسلموا لله طائعين. والمنافقين مكرهين بسبب مصالحهم. والكافرين خوفاً من السيف والسّبي.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخرة مِنَ الخَاسرينَ» سورة آل عمران (الآية: ٨٥)

في الخطيب: نزلت فيمن ارتدّ عن الإسلام ولحق بالكفار، وهم اثنا عشر رجلاً، ارتدُّوا عن الإسلام، وخرجوا من المدينة، وأتوا مكّة كفاراً، منهم الحارث بن سويد الأنصاري، وهو أخو الجلاس بن سويد، ثم بعد أن نزلت الآية أرسل إلى أخيه يطلب التوبة، قال ابن عباسٌ وأسلم بعد نزول الآيات* وفي الطبري: عن عكرمة في «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً» قال: فقالت الملل: نحن المسلمون، فأنزل الله عز وجل «ولله على النَّاسِ حجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إليْهِ سبيلاً وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عَنِ

«الْعَالَمِينَ» فحج المسلمون، وقعد الكفار، يعنى إنَّ الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام، وإن كل دين سواه غير مقبول عنده لأن الدين الصحيح ما يأمر الله به، و يرضى عن فاعله و يثيبه عليه وقوله: «وَهُوَ فى الآخرة مِنَ الخَاسرينَ» من الخسران. وهو العقاب وحرمان الثواب وحصول العقاب. قال عليه الصلاة والسلام: [من عَمِلَ عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ] وفي الحديث عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول يارب: أنا الصلاة فيقول: إنك على خير. وتجيء الصدقة: فتقول يارب: أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير، ثم يجيء الإسلام فيقول: يارب أنت السّلام وأنا الإسلام. فيقول الله تعالى: إنك على خير بك اليوم آخذ و بك أعطى. قال الله في كتابه: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فى الآخرة مِنَ الخَاسرينَ».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«كَيْفَ يَهدِى اللهُ قوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِمْ وشَهِدُوا أنَّ الرّسُولَ حقٌّ وجَاءَهُمُ البيِّنَاتُ واللهُ لا يَهْدى القوْمَ الظّالمينَ* أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ والملائكةِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ* خَالِدينَ فِيهَا لاَ يُخفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ* إلاَّ الّذِينَ تَابُوا من بَعْدِ ذَلِكَ وأصْلَحُوا فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» سورة آل عمران (الآية: ٨٦ - ٨٩)

في الواحدي: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رجلاً من الأنصار ارتدَّ فلحق المشركين، فأنزل الله تعالى «كَيْفَ يَهدِى اللهُ قوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِمْ» إلى قوله: «غفورٌ رحيمٌ» فبعث بها قومُه إليه، فلمّا قرئت إليه قال: والله ما كذبنى قومى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا كذب رسول الله على الله، والله عزّ وجل أصدق الثلاثة، فرجع ثانياً، فقبل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركه. وفي رواية عنه أيضاً: فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل له من توبة؟ فإنى قد ندمت، فنزلت «كَيْفَ يَهدِى اللهُ قوْماً كَفَرُوا» حتى بلغ «إلاَّ الّذِينَ تَابُوا» فكتب بها قومه إليه فرجع فأسلم. رواه النسائى* وفي القرطبي: وقال الحسن: نزلت في اليهود لأنهم كانوا يبشرون بالنبي صلى الله عليه وسلم و يستفتحون على الذين كفروا. فلمّا بُعث عاندوا

وكفروا فأنزل الله عزّ وجل «**أولئك جَزَاءُهُمْ أنَّ عليْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ والملائكة والنَّاسِ أجمعين**»* وفي الطبرى: هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوْا نعت محمد صلى الله عليه وسلم وأقروا به، وشهدوا أنّه حقٌ فلمّا بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فانكروه، وكفروا بعد إقرارهم حسداً للعرب حين بعث من غيرهم. قال الطبرى: وقول الحسن هذا الأشبه بظاهر التنزيل، إلاَّ أن غيره من الأقوال أكثر، والقائلين به أعلم بتأويل القرآن* والحق أن الآية عامّة في كل من آمن بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثم كفر به بعد بعثته، وحتى يوم يبعثون. ومعنى «**كَيْفَ يَهدِى اللهُ..**» أي كيف يرشدهم للصواب و يوفق للإيمان قوماً جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد تصديقهم إياه وإقرارهم به. وبما جاء به من عند ربه «**وجَاءَهُمُ البيّنات**» أي الحجج والبراهين والمعجزات الدّالة على صحّة نبوته صلى الله عليه وسلم التي بمثلها تثبت النبوة «**واللهُ لا يَهْدى القوْمَ الظّالمينَ**» الواضعين للشيء في غير موضعه وذلك أن الخصال الثلاث. أعنى الإيمان والشهادة ومشاهدة المعجزات توجب مزيد الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم المبعوث في آخر الزمان لا الكفر والعناد. وفيه دليل على أن زلّة العالم أقبح من زلّة الجاهل، ولهذا صرّح في آخر الآية بأنه تعالى لا يهديهم بعد أن عرّض بذلك في أول الآية، ثم أردفه بغاية الوعيد قائلاً «**أُولئِكَ جَزَاؤُهُمْ**» يعنى الذين كفروا بعد إيمانهم على العموم إلى يوم الدين في كل من يرتد عن الإسلام، الجزاءُ هو «**أنَّ عَلَيْهِمُ لَعْنَةَ الله والملائكةِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ**» أي ولعنة الملائكة ولعنة الناس أجمعين، مؤمنين وكافرين. ولعنة الله الطرد من رحمته، ولعنة الملائكة والناس بغضاً وتحقيراً لهم «**خَالِدِينَ فيهَا**» أي في اللعنة أو النار المدلول بها عليها أي على النّار «**لاَ يُخفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ**» يمهلون أي لا يُؤخَّرون عن وقت العذاب. ولا يؤخرعنهم من وقت إلى وقت، ثم استثنى سبحانه وتعالى فقال «**إلاَّ الّذِينَ تَابُوا من بَعْدِ ذَلِكَ**» يعنى من بعد ارتدادهم وكفرهم «**وأصْلَحُوا**» أي ضمُّوا إلى التوبة الأعمال الصالحة، فبيّن سبحانه وتعالى: أنَّ التوبة وحدها لا تكفى حتى يضاف إليها العمل الصالح لقوله تعالى: «**وإنّى لغفّارٌ لِمَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالحاً ثُمّ اهْتَدى**» «**فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**» غفور لقبائحهم في الدنيا بالستر، رحيم في الآخرة بالعفو، وقيل غفورُ بإزالة العذاب، رحيم بإعطاء الثواب.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إِنَّ الَّـذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازدادوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وأولٰئِكَ هُمُ الْضَّالُّونَ» سورة آل عمران (الآية: ٩٠)

في الواحدى: قال الحسن وقتادة وعطاء الخرساني: نزلت في اليهود كفروا بعيسى والإنجيل، ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن، وقال أبو العالية: نزلت في اليهود والنَّصارى: كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم بنعته وصفته، ثم إزدادوا كفراً بإقامتهم على كفرهم «**وأولٰئِكَ هُمُ الْضَّالُونَ**» أي الثابتون على الضلالة فلا يتوبون بعلم الله تعالى ليقبلها منهم، أو لن يقبل توبتهم عند الموت عن الذنوب التي ارتكبوها قبل كفرهم* وفي القرطبي: وقال قطرب: هذه الآية نزلت في قوم من أهل مكة، قالوا: نتربّصُ بمحمد ريب المنون. فإن بدا لنا الرجعة رجعنا إلى قومنا، فأنزل الله تعالى «**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ**» الآية. أي لن تقبل توبتهم وهم مقيمون على الكفر. فسمّاها توبة غير مقبولة لأنه لم يصح من القوم عزم. والله تعالى يقبل التوبة كلها إذا صح العزم* وفي الطبرى: عن قتادة قال في الآية: أولئك أعداء الله اليهود كفروا بالإنجيل و بعيسى، ثم ازدادوا كفراً حتى حضرهم الموت. وقال أبو العالية عن هذه الآية: قال هم اليهود والنصارى والمجوس أصابُوا ذنوباً في كفرهم، فأرادوا أن يتوبوا منها، ولن يتوبوا من الكفر ألا ترى أنه يقول: «**وأولٰئِكَ هُمُ الْضَّالُّونَ**» وأولى الأقوال في تأويل الآية قول من قال عنى بها اليهود كما ذكره الطبرى في تفسيره، وسنده في ذلك أن الآيات قبلها وما بعدها فيهم نزلت فأولى أن تكون هي في معنى ما قبلها و بعدها لأنها سياق واحد* والخازن: وقيل نزلت في جيمع الكفار، وذلك أنهم أشركوا بالله بعد اقرارهم بأنَّ الله خالقهم، ثم ازدادوا كفراً يعنى بإقامتهم على كفرهم حتى هلكوا عليه، وقيل زيادة كفرهم هو قولهم: نتربص بمحمد ريب المنون. وقيل نزلت في أحد عشر رجلاً من أصحاب الحارث بن سويد الذين ارتدوا عن الإسلام، فلمَّا رجع الحارث إلى الإسلام أقامُوا على كفرهم بمكة. وقالوا: نقيم على الكفر ما بدا لنا. ومتى أردنا الرجعة ينزل فينا مثل ما نزل في الحارث، فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، فمن دخل منهم في الإسلام قبلت توبته، ونزل فيمن مات منهم على كفره: «**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ**».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لبنِي اسْرائيلَ إلاَّ ما حَرَّمَ إسْرَائيلُ على نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأتُوا بالتَّوْراةِ فَاتْلُوهَا إن كُنْتُم صادِقِينَ»

سورة آل عمران (الآية: ٩٣)

في الواحدي: قال الكلبيُّ: نزلت حين قال النبي صلى الله عليه وسلم إنه على ملة إبراهيم، فقالت اليهود: كيف تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نُحلهُّ. فقالت اليهود: كل شيء أصبحنا اليوم نحرمه فإنه كان على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا. فأنزل الله عز وجل تكذيباً لهم **«كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لبنِي اسْرائِيلَ..»** الآية* وفي الخطيب: فقالوا: كل ما نحرمه اليوم كان حراماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا فنزل **«كُلُّ الطَّعام..»*** وفي الطبرى: عن ابن عباس، أن عصابة من اليهود حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا أي الطعام حرّم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون إسرائيل ــ أي يعقوب ــ مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرّمنّ أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟ فقالوا: نعم، قال الطبرى فكان ذلك من أعظم الحجة عليهم بأنه نبي الله صلى الله عليه وسلم إليهم، لأن ذلك من أخبار أوائلهم الذي خفى علمه عليهم، ولا يعمله إلاَّ الخاصة منهم. فحينما أعلمه الله بذلك أفحمهم، وأقام عليهم الحجة البالغة بأنه نبيٌّ مرسل إليهم ولغيرهم من الناس كافة* قوله: **«كَانَ حِلاًّ»** الحلّ في اللغة: الحلال كما أن الحرم لغة: الحرام أي كل أنواع المطعومات كان حلالاً أكلها **«لبنى اسْرائيلَ»** أي لبنى يعقوب عليه السلام **«إلاَّ ما حَرَّمَ إسْرَائيلُ»** يعقوب **«على نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ»** أي ليس الأمر على ما قالوه من حرمة لحوم الإبل وألبانها على إبراهيم. بل كان الكل حلالاً له، ولبنى إسرائيل، وإنما حرّمها إسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة، فليس في التوراة حرمتها، واختلفُوا في الطعام الذي حرّمه إسرائيل على نفسه وفي سببه فقال مقاتل والكلبي: كان ذلك الطعام الإبل وألبانها، وسبب ذلك أنّه مرض

مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر لئن عافاه الله من سقمه ليحرمنَّ أحبّ الطعام والشراب إليه، وكان ذلك أحب إليه فحرّمه* وقال ابن عباس والضحاك: هى العروق، وسبب ذلك أنَّه اشتكى عرق النَّسا (عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ، وكان أصل وجعه) أنه كان نذر إن وهبه الله اثنى عشر ولداً، وأتى بيت المقدس صحيحاً أن يذبح آخرهم، فتلقاه ملك من الملائكة فقال: يا يعقوب إنك رجل قويٌّ فهل لك في الصراع. فعالجه فلم يصرع واحد منهما صاحبه، فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النَّسا، ثم قال له: أما إنى لو شئت أن أصرعك لفعلت، ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنك كنت نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحاً ذبحت ولدك، فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجاً. فكان لا ينام بالليل من الوجع، فحلف يعقوب لئن عافاه الله تعالى ألا يأكل عرقاً ولا طعاماً فيه عرق فحرمه على نفسه، وكان بنوه بعد ذلك يتتبَعُون العروق يخرجونها من اللحم* وقال ابن عباس: لمَّا أصاب يعقوب عرق النسا، وصف له الأطباء أن يجتنب لحمان الابل فحرمها يعقوب على نفسه، ثم اختلفوا في حالة هذا الطعام المحرّم على بنى إسرائيل بعد نزول التوراة. فقال السديُّ: حرّم الله عليهم في التوراة ما كان يحرمونه قبل نزولها* وقال الضحاك: لم يكن شيء من ذلك حراماً عليهم وإنما حرموا على أنفسهم اتباعاً لأ بيهم، ثم أضافوا تحريمه إلى الله عزّ وجل، وأكذبهم الله تعالى فقال: «**قُلْ**» لهم: يا محمد «**فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا**» ليتبين صدق قولكم «**إِن كُنتُم صَادِقِينَ**» فيه، فبهتُوا ولم يأتوا بها* وبان كذبهم فيما ادعوا من حرمة هذه الأشياء على إبراهيم عليه السلام وعرق النَّسا: بفتح النون والقصر. ودواؤه ما ذكره القرطبي: ونصه: وأخرج الثعلبي في تفسيره من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم في عرق النسا (تُؤخذ ألية كبش عربيّ لا صغير ولا كبير، فتقطع قطعاً صغاراً، وتُسلى على النار، و يؤخذ دهنها، فيجعل ثلاثة أقسام يشرب المريض بذلك الدواء على الريق كل يوم ثلثاً) قال أنس فوصفته لأكثر من مائة كلهم يبرأ بإذن الله تعالى* وفي ابن كثير: قال ابن عبّاس: حضرت عصابة من اليهود نبى الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهنَّ لا يعلمهنَّ إلاَّ نبى، قال: سلونى عما شئتم، ولكن اجعلوا لى ذمة الله، وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعنى على الإسلام؟ قالوا: فذلك لك. قالوا: أخبرنا عن أربع خلال، أخبرنا أيُّ الطعام حرّم إسرائيل على نفسه؟ وكيف ماء المرأة

ومـاء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبيُّ الأميَّ في النوم، ومن وليـه من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنَّه، فقال: أنشدكم بالذى أنزل الـتوراة على مـوسى هل تعلمون أن إسرائيل مرض شديداً، وطال سقمه، فنذر لله نذراً لئن شفـاهُ الله مـن سقمه ليحرمنَّ أحبّ الطعام والشراب إليه، وكان أحبّ الطعام إليه لحم الإبـل، وأحبّ الـشـراب، إلـيـه ألـبانها؟ فقالوا: اللهم، نعم، فقال: اللهمَّ اشهدْ عليهم. وقـال: انـشـدكـم بـالله الـذى لا إلـه إلاَّ هو الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن مـاءالـرجـل أبـيـض غـليظ. وماء المرأة أصفر رقيق، فأيُّهما علا كان له الولد والشّبه بإذن الله. قـالـوا: نـعم، قال: اللهم اشهد عليهم قال: وأنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى هـل تـعلمون أن هذا النبي الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه. قالوا: اللهم، نعم، قال: اللهم اشـهـد. قـال: وإن ولـيّ جـبـريـل ولم يـبـعـث الله نبياً قط إلا وهو وليّه. قالوا: فعند ذلك نـفـارقـك، ولو كان وليك غيره لتبعناك. فعند ذلك قال الله تعالى: «**قُلْ مَن كانَ عدوّاً لجـبـريـل..**» الآية. وعن ابن عباس أيضاً قال: أقبلت يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلـم، فـقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهنَّ عرفنا أنك نبي الله. واتـبـعـنـاك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: والله على ما نقول وكيل. قـال: هـاتـوا. قـالوا أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه. قالوا: أخبرنا كـيـف تـؤنـث المـرأة وكـيـف تـذكـر؟ قـال: يـلتقى المآن فإن علا ماء الرجل ماء المرأة أذكـرت، وإذا عـلا ماء المرة أنثت. قالوا: أخبرنا ما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يشتكى عرق النّسا، فلم يجد شيئاً يلائمه إلاَّ ألبان كذا وكذا. قال أحمد: قال بعضهم يعنى الإبـل (فحرم لحومها) قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة الله عـز وجـل مـوكـل بـالـسحاب بيده (أو في يده) مخراق من نار يزجر به السّحاب يسوقه حـيث أمره الله عز وجل. قالُوا: فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: صوته قالوا: صدقت، إنمـا بـقـيـت واحـدة وهـي التي نـتبعك إن أخبرتنا بها: إنه ليس من نبيّ إلا له ملك يأتيه بـالخبر، فـأخـبرنـا مـن صـاحـبـك؟ قـال: جبريل عليه السلام. قالوا: جبريل ذاك ينزل بـالحـرب والـقتال والعذاب، عدوُّنا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لـكـان، فـأنـزل الله تـعـالى «**قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لجبريلَ فإنَّه نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بإذْنِ الله مُـصـدّقـاً لِـمَا بينَ يَدَيْهِ وهُدًى وَبُشْرَى للمُؤمنين**» والآية بعدها. رواهما أحمد. وروى

الأخير الترمذي والنسائي من حديث عبدالله بن الوليد العجلى به نحوه، وقال الترمذي: حسن غريب* وفي الخازن والغرائب: أن اليهود كانُوا يَقُولُونَ بإنكار شرع محمد صلى الله عليه وسلم على إنكار النسخ فأورد عليهم أن الطعام الذي حرمه اسرائيل على نفسه كان حلالاً ثم صار حراماً عليه وعلى أولاده، وهو النسخ، ثم إنَّ اليهود لمَّا توجَّه عليهم هذا السؤال زعموا أن ذلك كان حراماً من لدن آدم، ولم يحدث نسخ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يطالبهم بإحضار التوراة إلزاماً لهم وتفضيحاً، ودلالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بأن يطالبهم بإحضار التوراة إلزاماً لهم وتفضيحاً ودلالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان أميًّا، فامتنع أن يعرف هذه المسئلة الغامضة من علوم التوراة إلا بخبر من السماء* وثانيها أن اليهود قالوا له: إنك تدعى أنك على ملة إبراهيم فكيف تأكل لحوم الإبل وألبانها، وتفتى بحلّها مع أنَّ ذلك كان حراماً في دين إبراهيم، فأجيبوا بأن ذلك كان حلالاً لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق و يعقوب إلاَّ أن يعقوب حرّمه على نفسه بسبب من الأسباب. و بقيت تلك الحرمة في أولاده. فأنكروا ذلك فأمروا بالرجوع إلى التوراة، وثالثها لمّا نزل قوله تعالى: «**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حرّمْنَا عَلَيْهِمْ طيبات أُحلّت هم**» وقوله: «**وعَلى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذى ظُفُرٍ**» إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنَّه إنما حرّم عليهم كثير من الأشياء جزاءً لهم على بغيهم وظلمهم، غاظهم ذلك واشمأزوا وامتنعوا من قبل أن ذلك يقتضى وقوع النّسخ ومن قبل أنَّه تسجيل عليهم بالبغى والظلم وغير ذلك من مساويهم، فقالوا: لسنا بأوّل من حرّمت هي عليه، وما هو إلا تحريم قديم، فنزلت «**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لبنى اسْرائيلَ**» كذا في الغرائب.

والخلاصة : إن محمداً صلوات الله وسلامه عليه على دين إبراهيم في جزئيات الأحكام وكلياتها، فأحلّ ما أحلّه الله من أكل لحوم الإبل وألبانها، ودعا إلى التوحيد والبراءة من كل معبود سوى الله وما كان إبراهيم صلوات الله عليه إلاَّ على هذا الدين.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إنَّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ* فيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَلله عَلى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإنَّ الله غَنىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»

سورة آل عمران (الآية: ٩٦، ٩٧)

في الواحدى والخازن : تفاخر المسلمون واليهود، فقالت اليهود، بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء، وفي الأرض المقدّسة وأرض المحشر، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي الخازن: وقيل لمّا ادعت اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم أكذبهم الله تعالى وأخبرهم أنَّ إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. وأمرهم باتباعه فقال تعالى: في الآية المتقدمة «**فاتّبِعُوا ملَّةَ إبراهيم حنيفاً**» وكان من أعظم شعائر ملّة إبراهيم الحج إلى الكعبة، ذكر في هذه الآية فضلية البيت ليفرّع عليها إيجاب الحج* وفي الغرائب قال مجاهد «**إنَّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ**» هو جواب عن شبهة أخرى لليهود. وذلك أنهم قالوا: بيت المقدس أفضل من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء وأرض المحشر، وقبلة الأنبياء، فكان تحول القبلة منه إلى الكعبة كالطعن في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم* أي فأنزل الله الآية تكذيباً لهم، وبياناً لأفضلية بيت الله الحرام على بيت المقدس، وقوله تعالى: «**إنَّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ**» اختلف العلماء في معنى الأوّلية على قولين:

الأول : أنه أوّل في بنائه، ووضعه جميعاً، روى الواحدى رحمه الله في البسيط بإسناده عن مجاهد أنه قال: خلق الله هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً في الأرضين* وفي رواية أخرى خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين بألفى سنة، وإنَّ قواعده لفى الأرض السابعة السفلى* وروى أيضاً عن محمد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عن آبائه قال: إنَّ الله بعث ملائكة فقال ابنوا لى في الأرض بيتاً على مثال البيْت المعمور، وأمر الله تعالى من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، وهذا كان قبل خلق آدم* وقد ورد في سائر كتب التفسير عن عبدالله بن عمر ومجاهد والسدّى أنَّ أوّل بيْت ظهر على وجه الماء عند خلق الأرض والسماء، وقد خلقه

الله قبل الأرض بألفي عام. وكان زبدة بيضاء على الماء، ثم دحيت الأرض من تحته* وعن الزهري قال: بلغني أنهم وجدوا في مقام إبراهيم ثلاثة صفوح في كل صفح منها كتاب: في الصفح الأول أنا الله ذو بكّة وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء، وباركت لأهلها في اللحم واللبن* وفي الثاني: أنا الله ذو بكة، خلقت الرحم وشققت لها إسماً من اسمي من وصلها وصلته ومن قطعها قطعته* وفي الثالث: أنا الله ذو بكة خلقت الجنَّ والإنس فطوبى لمن كان الخير على يديه، وويل لمن كان الشرُّ على يديه.

وقد يستدل على صحة هذا القول بما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة: [ألا إن الله قد حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض] وتحريم مكة لا يمكن إلا بعد وجودها، ولأنه تعالى سمّاها أم القرى، وهذا يقتضي سبقها على سائر البقاع، ولأن تكليف الصلاة كان ثابتاً في أديان جميع الأنبياء، وأيضاً قال تعالى في سورة مريم: «**أُولَـٰئِكَ الَّـذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النبيينَ مِنْ ذريّة آدم**» إلى قوله: «**خَرُّوا سُجَّداً..**» والسجدة لا بدَّ لها من قبلة، فلو كانت قبلتهم غير الكعبة لم تكن هى أوّل بيت وضع للناس، هذا محال خلف.

القول الثاني: روى أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أول بيت وضع للناس: فقال: [المسجد الحرام، ثم بيتُ المقدس] فسئل كم بينهما؟ قال: [أربعون سنة] وعن عليّ أن رجلاً قال له: هو أوّل بيت؟ قال: لا قد كان قبله بيوت. ولكنّه أول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة.(*)

وقوله تعالى: «**لَلَّذِى بِبَكَّةَ**» أي للبيت الذي في مكة. وردت بالباء لغة في مكة. أي تقلب الميم باء، وسميت مكّة لأنها قليلة الماء، تقول العرب: مكّ الفصيل ضرع أمه وأمكّهُ إذا امتص كل ما فيه من اللبن. وقيل إنها تمك الذنوب. كذا في الخازن. وفي الخطيب: سميت بذلك لأنها تبك أعناق الجبابرة. أي تدقها، فلم يرمها جبّار بسوء إلا وقصمه الله، وتدعى أم رحم لأن الرحمة تنزل بها «**مُبَارَكاً**» أي ذو بركة، فهو كثير الخير والنفع لمن صحبه واعتمره واعتكف عنده، أو طاف حوله أذ يكثر ثوابه وتكفّر ذنوبه، روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلاّ المسجد الحرام]

«**وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ**» أي قبلة ومتعبد المؤمنين، وقيل لأن فيه دلالة على وجود الصّانع المختار لما فيه من الآيات التي لا يقدر عليها غيره، وقيل هو هدى للعالمين إلى الجنة لأن من قصده بأن صلى إليه أو حجّه فقد أوجب الله تعالى له الجنّة برحمته، وقوله تعالى: «**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ**» ترى بالأنظار للدلالة على حرمته ومزيد فضله من هذه الآيات انحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار فلا تعلو فوقه لا بالليل ولا بالنهار، ومنها أن ضوارى السباع تخالط الطيور في الحرم ولا تتعرّض لها، وإذا قصدت الجارحة صيداً فدخلت الحرم كفَت عنه. وأنه بادٍ صار إليه الأنبياء والمرسلون والأولياء والأبرار والصالحون ... الخ. ما تقدم من فضله وقوله: « **مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ**» مبتدأ خبره محذوف أي منها مقام إبراهيم، أو خبر مبتدأ محذوف أي إحداها، أو بدل من آيات بدل بعض من كل. وهو الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وكان أثر قدمه فيه. فاندرس من كثرة المسح بالأيدى، ولعلّ الذي اندرس بعضه، قال الخطيب: فإنى رأيت أثر القدمين فيه* إن أثر القدم في الصخرة الصّماء آية. وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاء هذا الأثر دون آثار سائر الأنبياء آية لإبراهيم خاصة. وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين. وأهل الكتاب والملاحدة ألوفاً من السنين آية. وكذا في الغرائب* وفي السمين: وقال ابن عطية والراجح عندى أنَّ المقام، وأمن الداخلين جُعلا مثالاً لما في حرم الله تعالى من الآيات وخصا بالذكر لعظمهما، وأنهما تقوم بهما الحجة على الكفار إذ هم مدركون لهاتين الآيتين بحواسّهم، وقوله: «**وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً**» أي ومن الآيات أنْ من دخله أمن على نفسه ما دام فيه. قلت: ومنها آيات: الصفا، والمروة والركن والحطيم وزمزم والمشاعر كلها. ومنها إذا كان الغيث من ناحية الركن اليمانى كان الخصب باليمن، وإذا كان بناحية الشامى كان الخصب بالشام، وإذا عمّ البيْت كان الخصب في جميع البلدان* وفي الطبرى: في قوله: «**وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً**» قال قتادة: وهذا كان في الجاهلية كان الرجل لو جرّ كل جريرة على نفسه ثم لجأ إلى حرم الله لم يتناول، ولم يطلب، فأمّا في الإسلام فلا يمنع من حدود الله. مَنْ سرق فيه قُطع، ومن زنى فيه أقيم عليه الحد. ومن قتل فيه قُتل* وعن قتادة: أن الحسن كان يقول: إن الحرم لا يمنع من حدود الله، لو أصاب حداً في غير الحرم فلجأ إلى الحرم لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد. وقال مجاهد: في الرجل الذي يقتل ثم يدخل الحرم. قال: يؤخذ

فيخرج من الحرم. ثم يقام عليه الحدّ. يقول القتل. فيكون الأمن في الآية بناء على هذه الأقوال مخصوصاً في الجاهلية. فقد كان الحرم مفزع كل خائف، وملجأ كل جان لأنه لم يكن يهاج به ذو جريرة، ولا يعرض الرجل فيه لقاتل أبيه وابنه بسوء. وروى أن ابن الزبير قد أخرج من لجأ من العيون إليهم، فصلبهم بعد أن نهاهُ ابن عباس عن ذلك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: من أحدث حدثاً ثم استجار بالبيت فهو آمن، ليس للمسلمين أن يعاقبوه على شيء إلى أن يخرج، فاذا خرج أقاموا عليه الحدّ. وقال ابن عمر: لو وجدت قاتل عمر في الحرم ما هجتُه* وحدّث الليث عن عطاء أن الوليد بن عتبة أراد أن يقيم الحدّ في الحرم، فقال له: عبيد عمير لا تقم عليه الحدّ في الحرم إلا أنّ يكون أصابه فيه* وقال عامر: إذا أصاب الحدّ ثم هرب إلى الحرم فقد أمن، فإذا أصابه في الحرم أقيم عليه في الحرم* وحدّث مجاهد عن ابن عباس قال: إذا أصاب الرجل الحدّ، قَتَلَ أو سَرَقَ فدخل الحرم، لم يبايع ولم يؤو حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحدّ* وهذا ما أخذ به أبو حنيفة رضي الله عنه* قال الطبرى: وأولى الأقوال عندنا بالصواب قول ابن الزبير ومجاهد والحسن ومَنْ قال معنى ذلك ومَنْ دخله من غيره فمن لجأ إليه عائذاً به كان آمناً ما كان فيه، ولكنه يخرج منه فيقام عليه الحدّ إن كان أصاب ما يستوجبه في غيره ثم لجأ إليه، وإن كان أصاب فيه أقيم عليه فيه، فتأويل الآية إذاً «**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إبْرَاهِيمَ**» ومن يدخله من الناس مستجيراً به يكن آمناً ممَّا استجَار منه ما كان فيه حتى يخرج منه* قلت: وجمهور العلماء على أن الحدود تقام في الحرم، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل ابن خَطَل وهو معلّقٌ بأستار الكعبة. وقيل المراد «**وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً**» أي من النار. (*)

قال الله تعالى: «**فليبعْبُدوا ربَّ هَذا الْبَيْتِ* الَّذِى أطعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُمْ مِنْ خوْفٍ**» «**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً ويتخطّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ**» وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها، وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها، وفي حديث فتح مكة [لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلاَّ مَنْ عرّفها، ولا يختلى خلاها] فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال: [إلاَّ الأذخر] وروى مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [لا يحلُّ لأحدٍ أن يحملَ السلاح بمكة] وقال يحى بن بن جعدة بن هبيرة، في قوله

تعالى: «وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» قال: آمناً من النار. وقوله تعالى: «وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إلَيْهِ سَبِيلاً» هذه آية وجوب الحج عند الجمهور، وقيل بل هي قوله: «وأتمُّوا الحَجَّ والْعُمْرَةَ لله» والأول أظهر. والمعنى: ولله على من استطاع من الناس حجّ البيت، ويجوز أن ينوى الاستئناف بمن والخبر أو الجزاء محذوف لدلالة ما قبله عليه، التقدير: من استطاع إليه سبيلاً فالله عليه حجّ البيت. هذا قول الفراء، وقال ابن الأنبارى: يحتمل أن يكون محلّه رفعاً على البيان كأنه قيل من الناس الذين عليهم لله حجّ البيت؟ فقيل: هم من استطاع. والضمير في إليه. للبيت أو الحج. واستطاعة السبيل إلى الشيء هى إمكان الوصول إليه، واحتج أصحاب الشافعى بالآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع لأن الناس يعم المؤمن والكافر، وعدم الإيمان لا يصلح أن يكون معارضاً ومخصصاً لهذا العموم لأن الدهرى مكَلَّف بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم مع أن شرط صحة الإيمان غير حاصل. والمحدث مكلف بالصلاة مع أن الوضوء الذي هو شرط صحة الصلاة ليس بحاصل. واعلم أن الحج ركن من أركان الإسلام لا يجب بأصل الشرع في العمر إلاّ مرة واحدة لما روى عن ابن عباس قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [يا أيّها الناسُ إنَّ الله كتب عليكم الحجَّ. فقام الأقرع بن حابس فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لم تعملوا بها، الحجُّ مرة فمن زاد فتطوع] وقد يجب أكثر من مرة واحدة لعارض كالنذر والقضاء.

((ما هي الشروط التي يصح بها الحج ؟))

لصحة الحج على الاطلاق شرط واحد، وهو الإسلام، فلا يصح حج الكافر كصومه وصلاته، ولا يشترط فيها التكليف بل يجوز للوليّ أن يحرم عن المجنون وعن الصبيّ الذي لا يميز، وحينئذ يصح حجهما لما روى عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرّ بامرأة وهي فى محفتها فأخذت بعضد صبيّ كان معها فقالت: آلهذا حجٌّ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نعم، ولك أجر] وعن جابر قال: حججنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، ومعنا النّساء والصبيان، فلبيْنا عن الصبيان، ورمينا عنهم* ولصحة المباشرة شرط زائد على الإسلام. وهو التمييز، فلا تصح مباشرة الحج من المجنون والصّبيّ الذى لا يميز كسائر العبادات، و يصح من الصبيّ المميز أن يحرم ويحجَّ بإذن الولى، ولا يشترط فيها الحرية كسائر العبادات* ولوقوعه عن حجّة الإسلام شرطان زائدان: البلوغ والحريّة لقوله صلى الله عليه وسلم : [أيُّما صبيّ حجَّ ثم بلغ فعليه حجّة الإسلام، وأيما عبد حجّ ثم عتق فعليه حجّة الإسلام] والمعنى فيه أن الحج عبادة عُمُرٍ لا تتكرّر، فاعتبر وقوعها في حالة الكمال، ولأن التكليف تابع للتميز، فشرط هذا الحكم إذن يعود إلى ثلاثة: الإسلام والتّكليف والحريّة. ولو تكلف الفقير الحج وقع حج الإسلام شرط زائد على الثلاثة المذكورة آنفاً وهو الاستطاعة بالآية: والاستطاعة نوعان: استطاعة مباشرته بنفسه، واستطاعة تحصيله بغيره: النوع الأوّل. يتعلّق به أمور أربعة: أحدهما. الراحلة، والناس قسمان: أحدهما من بينه و بين مكة مسافة القصر، فلا يلزمه الحج إلاَّ إذا وجد راحلة سواء كان قادراً على المشي، أو لم يكن لما روى أنه صلى الله عليه وسلم فسَّر استطاعة السبيل إلى الحج بوجود الزاد والراحلة* نعم لو كان قادراً على المشي يستحب له أن لا يترك الحجّ. وعند مالك القوى على المشي يلزمه الحجُّ، و يعتبر مع وجدان الراحلة وجدان المحمل أيضاً إن كان لا يستمسك على الراحلة، و يلحقه مشقّة شديدة، ثم العادة جارية بركوب اثنين في المحمل، فإن وجد مؤنة محمل أو شق محمل، ووجد شريكاً يجلس في الجانب الآخر لزمه الحج، وإذ لم يجد الشريك فلا، القسم الثاني: من ليس بينه و بين مكّة مسافة القصر، فإن كان قوياً على المشى لزمه الحجُّ، وإلاّ فلا يجب إلاَّ مع الراحلة، أو معها ومع المحمل، كما فى حقّ البعيد، والمراد بوجود الراحلة أن يقدر على تحصيلها ملكاً أو استئجاراً بثمن المثل، أو بأجرة المثل وكذا في المحمل. المتعلّق الثاني. الزاد وأوعيتُه، وما

يحتاج إليه في السفر مدّة ذهابه وإيابه سواء كان لَهُ أهل أو عشيرة يرجع إليهم أولا، فحب الوطن من الإيمان، وكذا الراحلة للإياب وأجرة البذرقة. كل ذلك بعد قضاء الديون جميعها، وردّ الودائع ونفقة من يلزمه نفقتهم حينئذ إلى العود، و بعد مؤن النكاح إن خاف العنت و بعد مسكنه، ودَسْتُ ثوب يليقُ به، وخادم يحتاج إليه لزمانته أو لمنصبه، ولو كان له رأس مال يتجر فيه و ينفق من ربحه ولو نقص لبطلت تجارته، أو كان له مستغلات يرتفق منها نفقته فالأصح عند الأئمة أنه يكلف بيعها لأنه واجد للزاد والراحلة في الحال، ولا عبرة لخوف الفقر في الاستقبال. المتعلّق الثالث: الطريق و يشترط فيه غلبة ظنّ الأمن على النفس من نحو سَبُعٍ وعدو، والأمن على المال من عدوّ أو رصديّ وإن رضي بشيء يسير، والأمن على البضع للمرأة بخروج زوج أو محرم أو نسوة ثقات، وفى البحر يعتبر غلبة السلامة. وفى البرّ وجود علف الدّابه؛ المتعلّق الرابع. البدن و يشترط فيه أن يقوى على الاستمساك على الرّاحلة فإن ضعف عن ذلك لمرض أو غيره فهو غير مستطيع للمباشرة، ولا بدّ للأعمى من قائد، وعند أبي حنيفة لا حجّ عليه، و يروى أنّه يستنيب. قال الأئمة: لا بد مع الشرائط من إمكان المسير، وهو أن يبقى من الزمان بعد الاستطاعة ما يمكنه المسير فيه إلى الحجّ به: السير المعهود، فإن احتاج إلى أن يقطع في يوم مرحلتين أو أكثر لم يلزمه الحجّ، ولو خرجت الرفقة قبل الوقت الذى جرت عادة أهل بلده بالخروج فيه لم يلزمه الخروج معهم ووجوب الحج في العمرُ مرة كالصلاة فى وقتها، فيجوز التراخى، لكنه إن دامت الاستطاعة وتحقق الإمكان، ولم يحج حتى مات عصى الله على الأظهر، وإن كان شاباً. وقال أحمد ومالك وأبوحنيفة في رواية أنّه على الفور حجّة الشافعى أن فريضة الحج نزلت سنة خمس من الهجرة وأخّره النبيّ صلى الله عليه وسلم من غير مانع، فإنه خرج سنة سبع لقضاء العمرة ولم يحجّ، وفتح مكّة سنة ثمان و بعث أبا بكر أميراً على الحاج سنة تسع، وحجَّ هو سنة عشر، وعاش بعدها ثمانين يوماً. وأما النوع الثانى. فهو عن الإستنابة لأنَّ المحجوج عنه قد يكون عاجزاً عن المباشرة بسبب الموت، أو الكبر أو زمانة أو مرض لا يرجى زواله، وعن ابن عباس أن رجلاً جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله: إن أختى نذرت أن تحجّ وماتت قبل أن تحجّ أفأحجُّ عنها؟ فقال: [لَوْ كان على أختِكَ دَيْنٌ أكُنْتَ قاضيه؟] قال: «نعم» وقد تكون الإستنابة بطريق الاستئجار لأنه عمل يدخله النيابة، فيجرى فيه الإستئجار كتفريق الزكاة، وعند

أبي حنيفة وأحمد لا يجوز، ولكن يرزق عليه، ولو استأجر كان ثواب النفقة للآمر، وسقط عنه الخطاب بالحج، ويقع الحج عن الحاجّ، والحجُّ بالرزق أن يقول حجّ عني وأعطيك نفقتك، وهذا أيضاً جائز عند الشافعي كالإجارة، ولكن لا يجوز أن يقول استأجرتك بالنفقة لأنها مجهولة، والأجرة لا بد أن تكون معلومة، وقولُه: «**وَمَنْ كَفَرَ فإن الله غنيٌّ عَنِ الْعَالمينَ**» أي الإنس والجنّ والملائكة وعن عبادتهم، يعني ومن جحد ما ألزمه الله من فرض حج بيته وكفر به، فإن الله غنيٌّ عنه وعن حجه وعمله وجميع خلقه. وقيل: نزلت فيمن وجد ما يحجُّ ولم يحجّ فهو كفر به لما روى عن عليّ بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيْت الله ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهوديّاً أو نصرانياً، وذلك أن الله تعالى يقول: «**ولله على النّاس حجُّ البيْت من اسْتَطاعَ إليه سبيلاً**» أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وفي اسناده مقال. وقيل: نزلت في اليهود وغيرهم من أصحاب الملل حيث قالوا: إنا مسلمون فنزلت: «**ولله عَلى النّاسِ حجُّ البيْت**» فلم يحجُّوا، وقالوا الحج إلى مكّة غير واجب وكفروا به، فنزلت: «**وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ الله غنيٌّ عن العالمين**» والله أعلم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الّذِينَ آمنُوا إنْ تُطيعُوا فَرِيقاً مِنَ الّذِينَ أوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمَانِكُمْ كافِرِينَ* وَكيْفَ تكفُرُونَ وأنتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آيَاتُ الله وَفيكُم رَسُولُهُ وَمَنْ يعْتَصِمْ بالله فَقَدْ هُدِىَ إلىَ صِراطٍ مُسْتَقِيم* يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا الله حَقّ تُقَاتِهِ ولاَ تَمُوتُنَّ إلاّ وأنْتُمْ مُسْلِمُونَ* واعْتَصِمُوا بحَبْلِ الله جَميعاً ولاَ تفرّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إذ كُنْتُمْ أعْدَاءً فَألّفَ بَيْنَ قُلُوبكُمْ فَأصْبَحْتُمْ بنِعْمَتِهِ إخْواناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فأنْقذَكُمْ مِنْهَا كَذلِكَ يُبيّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلّكُمْ تَهْتَدُونَ* وَلْتكُنْ مِنكُمْ أمّةٌ يَدْعُونَ إلَى الْخيْرِ و يأمُرُونَ بالمَعْرُوف ويَنْهَوْنَ عَنِ المنكَرِ وأولئِكَ هُمُ الْمُفِلحونَ* ولاَ تَكُونُوا كالّذِينَ تَفرّقُوا

واخْتَلَفُوا مِنْ بعْدِ ما جاءَهُمْ البيّناتُ وأولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظيمٌ»

سورة آل عمران (الآية: ١٠٠ ـ ١٠٥)

فى الواحدى: قال عكرمة: كان بين هذين الحيين من الأ وس والخزرج قتال فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام اصْطلحُوا وألّفَ الله بين قلوبهم، وجلس يهودى في مجلس فيه نفر من الأ وس والخزرج، فأنشد شعراً قاله أحد الحييْن فى حربهم، فكأنهم دخلهم من ذلك، فقال الحيُّ الآخرون: وقد قال شاعرنا فى يوم كذا كذا كذا، فقال الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا كذا وكذا، فقالوا: تعالوا نرد الحرب جذعاً كما كانت، فنادى هؤلاء: يا آل أوس، ونادى هؤلاء: يا آل خزرج، فاجتمعوا وأخذوا السلاح، واصطفوا للقتال، فنزلت هذه الآية، فجاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفين فقرأها ورفع صوته، فلما سمعوا صوته أنصتوا وجعلوا يستمعون، فلما فرغ ألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضاً، وجعلوا يبكون، قال جابر بن عبدالله: ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما رأيت و يوماً أقبح ولا أوحش أوّلاه، وأحسن آخراه من ذلك اليوم* وفى الخطيب: ولمّا مرّ شاس بن قيس اليهودى، وكان شيخاً عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد لهم. على نفر من الأنصار من الأ وس والخزرج في مسجد لهم يتحدّثون، فغاظه ذلك حيث تآلفُوا، واجتمعوا بعد الذى كان بينهم في الجاهلية من العداوة. وقال: مالنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم، و يذكرهم يوم بعاث ــ وهو موضع بالمدينة ــ و ينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار، وكان يوماً اقتلت فيه الأ وس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس، ففعل، فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السّلاح السّلاح، فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار، فقال: [أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله ُبالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهليّة، وألّف بينكم] فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيدهم من عدوهم، فألقوا السّلاح و بكوا، وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين. نزل: **«يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا إن تُطيْعوا فريقاً مِنَ الّذِينَ أوتُوا الْكِتَاب»** أى شاساً وأصحابه:... وفى الطبرى: عن السّدى قال: نزلت فى ثعلبة بن غنمة الأنصارى.

كـان بيـنـه و بين أنـاس من الأنصار كلام، فمشى بينهم يهودى من قينقاع فحمل بعضهم على بعـض حتى همّت الطائفتان من الأوس والخزرج أن يحملوا السّلاح، فيقاتلوا فأنزل الله عز وجـلّ: «**إن تُطيعُوا فـريقـاً من الّذِينَ أوتُوا الكتاب يردُّوكُمْ بَعْدَ إيمانِكُمْ كَافِرِينَ..**» يقول: إن حملتمُ السّلاح فاقتتلتم كفرتم* وعن مجاهد: قال: كان جماع قبائل الأنـصار بطـنين: الأوس والخـزرج. وكـان بينهما في الجاهلية حروب ودماء، وشنآن ــ تـبـاغض ــ حتى منّ الله عليهم بالإسلام و بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، فأطفأ الله الحرب التى كـانـت بينهم، وألّف الله بينهـم بـالإسلام، قال: فبينما رجل من الأوس والخزرج قـاعـدان يـتـحـدّثان ومعهما يهوديّ جالس.. الخ ... ما تقدم حتى قوله: وضعوا السّلاح، فـأنـزل الله عـزّ وجلّ القرآن في ذلك: «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا إنْ تُطيعُوا فريقاً مِنَ الّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ**» إلى قوله: «**عذاب عَظِيمٌ**» كذا فى الطبرى. وكذا فى بقية التفاسير. لـكـن في ابـن كثير. وذكر عكرمة أن ذلك نزل فيهم حين تشاوروا في قضية الإفك. والله أعـلـم. وقوله: «**يَرِدُّوكُم بَعْدَ إيمانِكُمْ كَافِرِينَ**» تقدم قول جابر رضى الله عنه: ما رأيت يوماً أقبح أوّلاً ولا أحْسَن آخرا مثل ذلك اليوم. ثم قال تعالى على وجه التعجّب والانكار والـتـوبـيـخ: «**وكَيْفَ تكْفُرُونَ**» أى ولم تكفُرُون، وعبارة أبى السعود فى توجيه الانكار والاستبعاد إلى كيفية الكفر مبالغة، لأن كل موجود لا بد أن يكون وجوده على حال من الأحوال، فإذا أنكر ونفى جميع أحوال وجوده، انتفى وجوده بالكلية على الطريق البرهانى* والمعنى: مـن أيـن يـدخل إلى قلوبكم الكفر بعد الايمان والحال أن آيات الله تتلى عليكم على لـسـان الرسول في كل واقعة، ومقيم بين أظهركم يبين لكم ما يشتبه عليكم، و يزيل عـنـكـم كـل عـلّـة، ومع هذين النورين لا يبقى لظلمة الضلال عين ولا أثر فعليكم أن لا تـلـتفتوا إلى قول المخالف، وترجعوا فيما يعنُّ لكم إلى الكتاب والنبىّ صلى الله عليه وسلم. قـال صـاحـب الـغرائب: أما الكتاب فإنه باق على وجه الدّهر، وأمّا النبىّ صلى الله عليه وسلـم و ورثـتـه يـقـومن مقامه بحسب الظاهر أيضاً، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم [إنى تـارك فـيكم الثّقلين ما إن تمسكتُم بهما لن تضلوا: كتابَ الله وعترتى] وقال: [إنّ العلماء ورثـة الأنـبـيـاء] اللـهـم اجعلنا من زمرتهم بعصمتك وهدايتك. وفى هذا بشارة لهذه الأمة أنهـم لا يـضـلـون أبداً إلى يوم القيامة* قلتُ: ما داموا معتصمين بحبل الله وسنّة نبيّه صلى الله عـلـيـه وسـلـم : «**ومَنْ يَعْتَصِمْ باللهِ**» أى يستمسك بالله أى بحبله وهو القرآن أو ومن

يستمسك بدينه، أو يلتجيء إليه في مجامع أموره: «**فقدْ هُدِيَ**» أى فقد حصل له الهدى لا محالة لأن المعتصم بالله متوقع للهدى. كما أنّ قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده: «**إلى صراط**» أي إلى طريق: «**مُسْتَقِيم**» واضح وهو الحق المؤدى إلى الجنة، وقوله: «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله**» لمّا بيّن ضلال الكفار في أنفسهم، وضلالهم لغيرهم شرع في بيان يكمل المؤمنين لأنفسهم بهذه الآية ولغيرهم كما يأتى. وقوله: «**حقّ تُقَاتِهِ**» فسّر ابن عباس : «**حقّ تُقَاتِهِ**» بقوله: (وهو أن يطاع الله فلا يُعصى طرفة عيْن. وأن يشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا يُنسى) أو هو القيام بالواجبات كلها، والاجتناب عن المحارم بأسرها، وأن لا يأخذه فى الله لومة لائم، و يقوم بالقسط ولو على نفسه. أو الوالدين والأقربين. ولما نزلت: «**اتّقُوا الله حقّ تُقَاتِه**» شقّ ذلك على المسلمين فنزلت: «**فاتّقُوا الله ما استطعْتُمْ**» والجمهور على أنها غير منسوخة، لأن معنى حقّ تقاته: واجب تقواه. تقاة: مصدر وهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها. إذ الأصل اتقوا الله اتقاء الحق. أى الثابتة كقوله: ضربت زيْداً أشدَّ الضرب، تريد الشديد. أى وكما يحق أن يتقى. وهو أن يجتنب جميع معاصيه، ومثل هذا لا يجوز أن ينسخ، وإلا كان إباحة لبعض المعاصى. وقوله: «**ولاَ تمُوتُنَّ إلاّ وأنْتُمْ مُسْلِمُونَ**» ليس نهياً عن الموت، وإنما هو نهْيٌ عن أن يدركهم الموت على خلاف حال الإسلام. والمراد دوامهم على الإسلام. وذلك أن الموت لا بد منه، فكأنه قيل: داوموا على الإسلام إلى الموت. والجملة في محل نصب على الحال، والاستثناء مفرّغ من الأحوال العامة. أى لا تموتن على حالة من سائر الأحوال إلاّ على هذه الحالة الحسنة، وجاءت الحالة جملة اسمية لأنها أبلغ وآكد. ثم إنه تعالى أمرهم بما هو كالأصل لجميع الخيرات وإصلاح المعاش والمعاد، وهو الاجتماع على التمسك بدين الله، واتفاق الآراء على إعلاء كلمته فقال: «**واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً**» حال كونكم مجموعين. وقولهم: اعتصمت بحبله، يجوز أن يكون تمثيلاً لاستظهاره به، ووثوقه بعنايته باستمساك المتدلى من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه لأن وجه الشبه وصف غير حقيقي، ومنتزع من عدّة أمور، ويجوز أن يكون الحبل استعارة للعهد والاعت... ووثوقه بالعهد بناء على أن في الكلام تشبيهين، ويجوز أن تفرض الاستعارة فى الحبل فقط، و يكون الاعتصام ترشيحاً لها. والحاصل: أن طريق الحق دقيق والسائر عليه غير مأمون أن تزلّ قدمه عن الجادة، فيراد بالحبل هٰهُنا ما يتوصل به إلى الثبات على الحق، وإن

كـانت عبارات المفسرين متخالفة، فعن ابن عباس: هو العهد كما يجىء إلاَّ بحبل من الله وحـبـل مـن الناس، وقيل: إنه القرآن كما روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال [أما إنها ستكون فتنة] قيل: فما المخرج منها؟ قال صلى الله عـليـه وسـلـم [كتابُ الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو حـبـل الله المتين] وروى ابـن مـسعود عن النبىّ صلى الله عليه وسلم [هذا القرآن حبل الله] وعـن أبى سعـيـد الخدرى عـن الـنبىّ صلى الله عليه وسلم إنى تارك فيكم الثّقلْين: كـتاب الله حبل متين، ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى] وقيل: إنه طاعة الله. وقـيـل إخـلاص التوبة. وقد جرى الجلال على أنه دين الله* أوكتابه لقوله صلى الله عـليـه وسـلـم [الـقرآن حبل الله] رواه الحاكم وصححه. استعار له الحبل من حيث أنّ التمسك بـه سـبـب للنجاة عن التردى، كما أن التمسك بالحبل سبب للسلامة عن التردى والاعـتـصـام للوثوق به والاعتماد عليه، ترشيحاً للمجاز* وقوله: «**جميعاً ولا تفرّقوا**» بعد الإسـلام. والـعـطـف لـلـمـغـايـرة لأنـه نهى عن التفرّيق فى الابتداء، والحق لا يكون إلا واحـداً. ومـا بـعـد الحـق إلا الضلال. و يد الله مع الجماعة بالنصر والتأييد قال صلى الله عـلـيه وسلم [ستفترق أمّتى على نيف وسبعين فرقة. الناجى منهم واحد] فقيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: [الجماعة] وروى: السّواد الأعظم. وروى [ما أنا عليه وأصحابى] وقـال صلى الله عـلـيـه وسـلـم [لا تجتمع أمّتى على الضلالة] ثم إنه تعالى: ذكرهم نعمته عـليهم، وذلـك أنـهـم كانوا في الجاهلية بينهم الإصن والبغضاء والحروب المتطاولة فقال: «**واذْكُرُوا نـعـمـةَ الله عـليكم**» يامعشر الأوس والخزرج: «**إذْ كنتُمْ**» قبل الإسلام: «**أعْـداءً فـألّـفَ**» جمع : «**بيْن قلوبِكُمْ**» بالإسلام: «**فأصْبَحْتُمْ**» فصرتم: «**بِنِعمتِهِ إخْـواناً**» مـتراحمين، متناصحين مجتمعين على أمر واحد، وهو الأخوة فى الله جعلت بينهم رابـطـة أقـوى مـن رابـطـة الـنـسـب، وقيل: هم الأوس والخزرج كانا أخوين لأب وأمّ، فـوقعت بينهما العداوة بسبب قتيل، وتطاولت الحرب والعداوة بينهم مائة وعشرين سنة إلى أن أطـفـأ الله ذلك بالإسلام، وألف بينهم برسول الله صلى الله عليه وسلم: «**وكُنْتُمْ على شَـفَـا**» أى طـرف فى المـصـبـاح: وشـفـا كل شىء حرفه مثل النوى* وفى السمين. الشفا طـرف الشىء وحـرفه: «**حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ**» أى حفرة ليس بينكم و بين الوقوع فيها إلاّ أنْ تموتوا كفاراً: «**فأنْقذَكُمْ منها**» أى من الشفا لأنه المحدث عنه، وتأنيث الضمير لاكتساب

المضاف التأنيث من المضاف إليه. أى بالإسلام : «**كذلك**» أى مثل ذلك البيان البليغ: «**يبيّنُ الله لكُمْ آياتِهِ**» أى دلائله: «**لعلكُمْ تهتَدُونَ**» إرادة أن تزدادوا هدى: «**وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أمَةٌ يَدْعُونَ إلَى الْخيْرِ**» أى إلى الإسلام: «**و يأمُرُونَ بالْمَعْرُوف و يَنْهَوْنَ عَنِ الْمنكَرِ**» والمعنى: ولتكن منكم أيها المؤمنون أمة أي جماعة يدعون الناس الى الخير أى إلى الإسلام وشرائعه التى شرعها الله لعباده، و يأمرون بالمعروف. أى يأمرون الناس ابتاع محمد صلى الله عليه وسلم ودينه الذى جاء به من عند الله. و ينهون عن المنكر أى و ينهون عن الكفر بالله والتكذيب بمحمد وبما جاء به من عند الله بجهادهم بالأ يدى والجوارح حتى ينقادوا لكم بالطاعة : «**أولئكَ**» الدّاعون الآمرون الناهون: «**هُمُ الْمُفْلِحُونَ**» الفائزون بكمال الفلاح. روى الإمام أحمد وغيره أنه صلى الله عليه وسلم سئل وهو على المنبر: من خير النّاس؟ قال [آمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله، وأوصلهم للرحم] وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان] وروى أنّه صلى الله عليه وسلم قال [والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده، ثم لتدعُنّه فلا يستجاب لكم] رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه من حديث عمرو بن أبى عمروا به، وقال الترمذى: حسن لذا يجب على كل مكلف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إما بيده أو بلسانه أو بقلبه. فعلى هذا يكون معنى الآية كونوا أمة دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، ومن قال بهذا القول يقول: إنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية إذا قام به واحد سقط الفرض به عن الباقين. وقيل: إنّ من من قوله: «**منكم**» للتّبعيض، وذلك لأن فى الأمّة من لا يقدر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لعجز أو ضعف، فحسن إدخال لفظ من فى قوله: «**ولتكنْ منكم أمّة يدعون إلى الخير..**» وهم العلماء خاصة و ولاة الأمر فعلى هذا يكون المعنى ليكن بعض الأمة القادرين على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يقوموا بذلك، و يكون الفلاح حليفهم روى البخارى عن النعمان بن بشير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال [مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها و بعضهم أسفلها، فكان الذى فى اسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن

تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً] وقوله تعالى: «**ولا تكونُوا كالّذِينَ تفَرّقوُا واختلفُوا**» يعنى ولا تكونوا يا معشر المؤمنين كالذين تفرقوا يعنى أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى فى قول أكثر المفسرين، قال الربيع فى هذه الآية: هم أهل الكتاب نهى الله أهل الإسلام أن يتفرقوا ويختلفوا كما تفرق واختلف أهل الكتاب* وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرعهم إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في الدين* وقال بعضهم: هم المبتدعة من هذه الأمة: «**مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ البيّناتُ**» يعنى الحجج الواضحات، فعلموها ثم خالفوها: «**وأولئكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظيمٌ**» يعنى لهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا عذاب عظيم في الآخرة. وفيه زجرعظيم للمؤمنين عن التفرّق والخلاف* عن أبي ذرّقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [من فارق الجماعة شِبْراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه] وعن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [مَنْ سَرَّهُ أن يسكن بحبوحة الجنّة فعليه بالجماعة فإن الشيطان مع الفَذِ، وهومن الإثنين أبعد] ربقة الإسلام: عقد الإسلام. بحبوحة الجنة: وسطها. والفذّ: الواحد.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))
«كُنتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ...» سورة آل عمران (الآية: ١١٠)

في الواحدى : قال عكرمة ومقاتل: نزلت في ابن مسعود وأبيّ بن كعبٍ ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة، وذلك أن مالك بن الصَّيْف ووهب بن يهوذا: اليهوديْن قالا لهم: إنَّ ديننا خير ممَّا تدعوننا إليه، ونحن خير وأفضل منكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقد تقدّم الكلام عنها.

((من هم أهل الْخَيْرَّية؟))

في القرطبى: قال أبوهريرة رضي الله عنه: نحن خير الناس للناس نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام* وقال ابن عباس: هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وشهدو بدراً والحديبية* وقال عمر بن الخطاب: من فعل فعلهم كان مثلهم* وقيل: هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم يعنى الصالحين منهم وأهل الفضل، وهم الشهداء على النَّاس يوم القيامة ... وقال مجاهد كنتُم خير أمة إذا أمرتُم بالمعروف ونيهتُم عن المنكر* وقد بين

الحديث الشريف أن أول الأمة هي أفضل الأمم فقال عليه الصلاة والسلام: [خيرُ القرون قرنى، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم] وقيل: إن قرنه صلى الله عليه وسلم إنما فضّل لأنهم كانُوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار وصبرهم على أذاهم، وتمسكهم بدينهم، وإن أواخر هذه الأمة إذا أقاموا الدين وتمسّكُوا به، وصبروا على طاعة ربهم في حين ظهور الشرَّ والفسق والهرج والمعاصى والكبائر كانوا عند ذلك أيضاً غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الوقت كما زكت أعمال أوائلهم. ومما يشهد لذلك قوله عليه الصلاة والسلام: [بدأ الدين غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء] وروى أن عمر بن عبدالعزيز لمّا ولى الخلافة كتب إلى سالم بن عبدالله: أن اكتب إليّ بسيرة عمر بن الخطاب لأعمل بها، فكتب إليه سالم: إن عملت بسيرة عمر فأنت أفضل من عمر لأنَّ زمانك ليس كزمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر، قال: وكتب إلى فقهاء زمانه فكلهم كتب إليه بمثل قول سالم* وقد عارض بعض الجلّة من العلماء قوله صلى الله عليه وسلم: [خير الناس قرنى] بقوله صلى الله عليه وسلم: [خير الناس من طال عمره وحسن عمله، وشرُّ الناس من طال عمره وساء عمله] لكن في الطبرى: قال عمر بن الخطاب: لو شاء الله تعالى أنتُم فكنا كلنا، ولكن قال: «كنتُمْ» في خاصة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن صنع مثل صنيعهم كانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر* فيستوى حينئذٍ أول هذه الأمة بآخرها بفضل العمل إلاَّ أهل بدر والحديبية، ومن تدبّر آثار هذا الباب بان له الصوّاب، فعن درّة بنت أبى لهب قالت: قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله أيُّ الناس خير؟ قال: [خيرُ الناس أقرأهم وأتقاهم لله وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم] رواه أحمد في مسنده، والنسائي في سننه والحاكم في مستدركه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَنْ يضرُّوكُمْ إلاَّ أذًى وإنْ يُقَاتِلُوكُمْ يولُّوكُمْ الأدْبَارَ ثُمَّ لاَ ينصَرُونَ* ضُربَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أيْنَ مَا ثُقِفُوا إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وباؤا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ ذَلِكَ بأنَّهُمْ كَانُوا يكْفُرُونَ بآيَاتِ اللهِ و يَقْتُلُونَ الأنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكَانُوا يَعْتَدُونَ» سورة آل عمران (الآية: ١١١، ١١٢)

في الواحدى: قال مقاتل: إن رؤوس اليهود: كعب، وعدى، والنعمان، وأبورافع وأبوياسر وابن صوريا عمدوا إلى مؤمنهم: عبدالله بن سلاَّم وأصحابه فآذوهم لإسلامهم فأنزل الله تعالى هذه الآية» وكذا في الخازن: وليس في بقية التفاسير غير الذي ذكرا. قوله: «**لَنْ يَضُرُّوكم**» أي اليهود يا معشر المسلمين بشيء «**إلاَّ أذًى**» باللسان من سب ووعيد أي مجرد لقلقة لسان «**وإنْ يُقَاتِلُوكم يُوَلُّوكُمْ الأَدْبَارَ**» منهزمين. وهكذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلّهم الله وأرغم أنوفهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة. بنى قينقاع وبنى النّضير و بنى قريظة كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم، وهو كذلك، ويحكم بملة الإسلام وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فيكسر الصليب، و يقتل الخنزير، و يضع الجزية، ولا يقبل إلاّ الإسلام، «**ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ**» عليكم بل لكم النصر عليهم «**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أيْنَمَا ثُقِفُوا**» حيثما وجدوا، فلا عزّ لهم ولا اعتصام في سائر أحوالهم، فقد أهدرت أنفسهم، وأبيحت أموالهم، وسبى أهلهم، أو ضرب الجزية عليهم «**إلاَّ**» في حال اعتصامهم «**بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ**» أي إلاَّ بعهد من الله وهو أن يسلموا فتزول عنهم الذلة «**وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ**» المؤمنين، وهو عهدهم إليهم بالأمان على أداء الجزية، أي لا عزّ لهم قط إلا هذه الواحدة، وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية «**وَبَاؤا**» رجعوا «**بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ**» أي مستوجبين له «**وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ**» كما يضرب البيت على أهله، فهم ساكنون في المسكنة غير ظاعنين عنها يظهرون الفقر والمسكنة. وأكثر المفسرين على أنَّ معنى المسكنة: الجزية. وهم اليهود أي فلا منعة لهم «**ذَلِكَ**» أي ضرب الذلّة والمسكنة والبوء بالغضب كائنٌ «**بأَنَّهُمْ**» أي بسبب أنهم «**كانُوا يَكْفُرونَ بآياتِ اللهِ ويقتُلُونَ الأنبياءَ بغيْرِ حَقٍ ذَلِكَ**» أي الكفر والقتل «**بِمَا عَصَوْا وكانُوا يَعْتَدُونَ**» أي كائن بسبب عصيانهم، واعتدائهم بقتل الأنبياء وتعدى حدود الله تعالى، فإن الإصرار على الصغائر يفضى إلى الكبائر، والإصرار على الكبائر ــ والعياذ بالله ــ يفضى إلى الكفر. قال القرطبي: الآية وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أن أهل الكتاب لا يغلبونهم، وأنهم منصورون عليهم لا ينالهم منهم اصطلام ــ استئصال ــ إلا إيذاء بالبهت والتحريف، وأما العاقبة فتكون للمؤمنين. و يستقيم هذا القول إذا كان

الإستثناء متّصلاً، أمّا إذا كان منقطعاً فإنهم لن ينالُوا من المؤمنين البتّة، لكن يؤذونهم بما يسمعُونهم من كلمة الكفر، وقولهم في عيسى وأُمّه وعزير، ودعاؤهم إياكم إلى الضلالة، ولا يضرونكم بذلك، وهذا من الاستثناء المنقطع الذي هو مخالف معنى ما قبله كما قيل: ما اشتكى شيئاً إلاَّ خيراً. وهذه الكلمة محكيّة عن العرب سماعاً. قال قتادة: لن يضرُّوكم إلاَّ أذًى تسمعونه منهم* وهو قول الربيع أيضاً. وقال ابن جريج: «لَنْ يضرُّونكم إلاّ أذًى» إشراكهم في عزير وعيسى* وقال الحسن: تسمعون منهم كذباً على الله و يدعونكم إلى الضلالة.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائمةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُون* يُؤمِنُونَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ و يأمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ المنكَرِ و يُسَارِعُونَ فى الْخَيْرَاتِ وأولئكَ مِنَ الصَّالِحِينَ* وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ واللّهُ عَليمٌ بالمتّقين»

سورة آل عمران (الآية: ١١٣، ١١٤)

في الواحدى: قال ابن عباس ومقاتل: لما أسلم عبدالله بن سلام، وثعلبة بن سعنة، وأسيد بن سعنة وأسد بن عبيد، ومن أسلم من اليهود، قالت أحبار اليهود: ما آمن لمحمد إلاَّ شرارنا، ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين آبائهم، وقالوا لهم: لقد خنتُم حين استبدلتم بدينكم ديناً غيره، فأنزل الله تعالى «لَيْسُوا سَوَاءً» الآيات* وقال ابن مسعود: نزلت الآية في صلاة العتمة يصليها المسلمون، ومن سواهم من أهل الكتاب لا يصليها* وعن ابن مسعود قال: أخرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةً صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا النّاسُ ينتظرون الصلاة، فقال: إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله في هذه الساعة غيركم. قال: فأنزلت هذه الآية «لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمّةٌ قَائمةٌ يتلون» إلى قوله «والله عليمٌ بالمتقين»* ونحو القول الأول في الخطيب والجلال* وفي أبي السعود: وقيل: هم أربعون رجلاً من نصارى نجران، واثنان وثلاثون من الحبشة، وثلاثة من الرّوم، كانُوا على دين عيسى، وصدّقوا محمداً صلى الله عليه وسلم، وكان من الأنصار فيهم عدة قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم. منهم: سعد بن زرارة والبراء بن

معرور، ومحمد بن مسلمة، وأبوقيس: صرمة بن أنس رضي الله عنهم كانوا موحدين يغتسلون من الجنابة، و يقومون بما يعرفون من شرائع الحنيفية حتى بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم فصدّقوه ونصروه* وفي ابن كثير ذكر سبب انتظار الصلاة، ثم قال: والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبدالله بن سلاّم وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم* وكذا في الخازن* وفي قوله: «لَيْسُوا سَوَاءً» قولان:

أحدهما : أنه كلام تام يوقف عليه، والمعنى أن أهل الكتاب الذين سبق ذكرهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ليسو سواءً. وقيل: معناه لا يستوى اليهود وأمّة محمد صلى الله عليه وسلم القائمة بأمر الله، الثابتة على الحق.

والقول الثاني : أن قوله: «لَيْسُوا سَوَاءً» متعلق بما بعده ولا يوقف عليه.

وفي السمين: الظاهر في هذه الآية أن الوقوف على سواء تام، فإن الواو اسم ليس، وسواء خبر والواو تعود على أهل الكتاب المتقدّم ذكرهم. والمعنى أنهم ينقسمون إلى مؤمن وكافر. لقوله: منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون. فانتفى استواؤهم. وسواء في الأصل مصدر، فلذلك وُحد* وعبارة أبي السعود: ليسو سواءً جملة مستأنفة سيقت تمهيداً وتوطئة لتعداد محاسن مؤمنى أهل الكتاب. وتذكيراً لقوله تعالى: «منهم المؤمنون» والضمير في ليسوا لأهل الكتاب جيعاً لا للفاسقين خاصّة، وهو اسم ليس خبره سواء، وإنما أفرد لأنه في الأصل مصدر، وقوله: «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ» استئناف مبيّن لكيفية عدم تساويهم ومزيل لما فيه من الإبهام، كما أن ما سبق من قوله تعالى: «تأمرون بالمعروف» ..الخ. مبيّن لقوله: «كنتُمْ خير أُمّة» ..الخ* لكن في الطبرى عن ابن مسعود أنه كان يقول في قوله: «لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ» قال: لا يستوى أهل الكتاب وأمّة محمد صلى الله عليه وسلم* وعن السدى: «لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ» الآية. يقول: ليس هؤلاء اليهود كمثل هذه الأمة التي هي قائمة* ومعنى قائمة: مستقيمة على الهدى وكتاب الله وفرائضه وشرائع دينه بالعدل والطاعة وغير ذلك من أسباب الخير من صفة أهل الإستقامة على كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونظير ذلك الخبر الذي رواه النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم ركبوا سفينة..] ثم ضرب لهم

مثلاً، فالقائم على حدود الله هو الثابت على التمسّك بما أمره الله به، واجتناب ما نهاه الله عنه، فتأويل الكلام: من أهل الكتاب جماعة معتصمة بكتاب الله متمسّكة به ثابتة على العمل بما فيه، وما سنَّ له رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقوله: «**يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ**» أي يقرؤن كتاب الله، وهم الذين آمنُوا بمحمد صلى الله عليه وسلم «**آنَاءَ اللَّيْلِ**» أي في ساعاته «**وَهُمْ يَسْجُدُونَ**» يصلون، لأن التلاوة لا تكون في السجود، والجملة حال من فاعل يتلون. وقيل: هى صلاة التهجد بالليل، وقيل: هي صلاة العشاء، لأن اليهود لا يصلونها، وقيل: يحتمل أنَّه أراد بالسجود الخضوع والخشوع لأن العرب تسمى الخشوع سجوداً. «**يُؤمِنُونَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ**» وذلك أن إيمان أهل الكتاب فيه شرك، و يصفون اليوم الآخر بغير ما يصفه المؤمنون. وقيل: إنَّ الإيمان بالله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله، واليهود يؤمنون ببعض الأنبياء و يكفرون ببعض، والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من فعل المعاصى، واليهود لا يحترزون منها، فلم يحصل الإيمان الخالص بالله واليوم الآخر. «**و يأمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ المنكَرِ**» يعنى غير مداهنين كما يداهن اليهود بعضهم بعضاً، وقيل: يأمرون بالمعروف: يعنى بتوحيد الله تعالى والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، و ينهون عن المنكر: يعنى عن الشرك، وعن كتم صفة محمد صلى الله عليه وسلم «**و يُسَارِعُونَ فى الْخَيْرَاتِ**» المسارعة في الخير فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر يسارع تولّيه والقيام به. أي يبادر مع كمال الرغبة في فعل أصناف الخيرات القاصرة والمتعدية. فإن قيل: أليس أن العجلة مذمومة كما قال صلى الله عليه وسلم: [العجلة من الشيطان والتأنى من الرحمٰن] فما الفرق بين السرعة والعجلة؟ فالجواب: أن السرعة مخصوصة بأن يُقدّمَ ما ينبغى تقديمه، والعجلة مخصوصة بأن يقدّم ما لا ينبغى تقديمه، فالمسارعة مخصوصة بفرط الرغبة فيما يتعلق بالدين لأن من رغب في الآخرة آثر الفور على التراخى. قال تعالى: «**وسَارِعُوا إلى مَغْفِرةٍ مِنْ رَبّكم**» مع أن العجلة ليست مذمومة على الإطلاق قال تعالى: «**وعَجِلْتُ إلَيْكَ ربّى لِتَرْضَى**» :الكرخى. الموصوفون بما ذكر «**وأولئكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**» ومنهم من ليسوا كذلك. أي ليسوا موصوفين بالصّفات السابقة بل بأضدادها. أي أن ذكر أحد الضدّيْنِ يُغنى عن ذكر الآخر. والمراد بالصالحين ممن صلحت أحوالهم عند الله تعالى واستحقوا رضاه وثناءه والجنة، ومن باب مفهوم المخالف أن الأمم الأخرى من اليهود والنصارى غير قائمة على الحق بل منحرفون

عـنه، غير متعبدين بالليل، ملحدون في صفاته لا يؤمنون باليوم الآخر كما ينبغي الايمان به من شفاعة المصطفى صلى الله عليه وسلم ... متثاقلين عن فعل الخيرات **«وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ»** أي تعدموا ثوابه. بل تجازون عليه، والخطاب للأمة القائمة **«واللهُ عَلِيمٌ بالمتّقينَ»** بشارة لهم، وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير وحسن العمل، وإن الفائزين عند الله هم أهل التقوى.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الّـذِينَ آمَنُوا لاَ تتّخذُوا بطانةً مِنْ دُونكُمْ لاَ يألُونكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أكْبَرُ قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الآيَاتِ إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ»

سورة آل عمران (الآية: ١١٨)

في الواحدي : قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين و يواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالى هذه الآية ينهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة منهم عليهم* بطانة الرجل ووليجته: خصيصه وصفيّه الذي يفضي إليه بشؤنه ثقة به. شبّه ببطانة الثوب كما يقال: فلان شعاري. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: [الأنصار شعار والناسُ دثار] رواه الشيخان. والشعار ما يلي الجسد، والدثار فوقه* وفي الطبرى عن مجاهد في قول الله عز وجل: **«يا أيُّها الّـذِينَ آمَنُوا لاَ تتّخذُوا بطانةً مِنْ دُونكُمْ لاَ يألُونكُمْ خَبَالاً»** في المنافقين من أهل المدينة. نهى الله عز وجل المؤمنين أن يتولوهم* وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تستضِيئوا بنار أهل الشرك، ولا تنقشوا في خواتيمكن عربيّا] قال: فلم ندر ما ذلك حتى أتو الحسن، فسألوه، فقال: نعم، أمّا قوله: لا تنقشُوا في خواتيمكم عربيًّا فإنه يقول: لا تنقشُوا في خواتيمكم محمداً، وأما قوله: ولا تستضِيئوا بنار أهل الشرك: فإنه يعنى به المشركين. يقول: لا تستشيروهم في شيء من أموركم. قال الحسن: وتصديق ذلك في كتاب الله ثم تلا هذه الآية **«يا أيُّها الّـذِينَ آمَنُوا لاَ تتّخذُوا بطانةً مِنْ دُونكُمْ»*** وفي ابن كثير: قيل لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه: إنَّ ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب، فلو اتخذتَه كاتباً؟ فقال: قد اتخذت

إذاً بطانة من دون المؤمنين. قال ابن كثير: في هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أنَّ أهل الذمّة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب. ولهذا قال: «**لاَ يأْلُونَكُمْ خَبَالاً ودُّوا مَا عَنِتُّمْ**» جملة مستأنفة مبينة لحالهم داعية إلى الإجتناب عنهم، أو صفة لبطانة، يقال: آلا في الأمر إذا قصّر فيه. ثم استعمل معدىّ إلى مفعولين في قولهم: لا آلوك نصحاً، ولا آلوك جهداً على تضمين معنى المنع والنقص. والخبال الفساد، وأصله ما يلحق الحيوان من مرض وفتور فيورثه فساداً واضطراباً، وعبارة السمين: قال ابن عطية: معناه لا يقصرون لكم فيما فيه الفساد عليكم. فعلى هذا يكون الضمير في كاف الخطاب وخبالاً منصوبين على إسقاط الخافض وهو اللام وفي. ومعنى «**لاَ يأْلُونَكُمْ خَبَالاً**» أي لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشرّ والفساد بدعوتهم إياكم إلى الضلالة. وقوله: «**ودُّوا مَا عَنِتُّمْ**» أي يتمنون عنتكم، وهو ما يشق عليكم من الضرر والشرّ والهلاك. والعنت: المشقة، وهو استئناف مؤكد للنهى، موجب لزيادة الاجتناب «**قَدْ بَدَتِ**» ظهرت «**الْبَغْضَاءُ**» العداوة لكم، لأنهم لا يتمالكون ضبط أنفسهم مع مبالغتهم فيه، ومع ذلك يتفلت من ألسنتهم ما يعلم به الطعن بالمسلمين «**مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**» بالوقيعة فيكم، واطلاع المشركين على سرّكم «**ومَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ**» من العداوة «**أَكْبَرُ**» ممّا بدا من أفواههم «**قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الآيَاتِ**» الدالة على عداوتهم «**إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُون**» ذلك فلا توالوهم.

والمعنى: قد لاح على صفحات وجوههم وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل. ولهذا قال تعالى: «**قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُون**» ابن كثير* أو إن كنتم تعقلون عن الله مواعظه وأمره ونهيه، وتعرفون مواقع نفع ذلك منكم، ومبلغ عائدته عليكم. وقد أكدت الآية الزجر عن الركون إلى الكفار، نهى المؤمنين عن مصانعة أهل الأهواء والدخلاء، وكل من كان على خلاف ديننا أن نسند إليه أمراً من مهمّات أمورنا، فيما يتعلق بأسرار دولتنا، أو نشركه في البتّ في آرائنا، وما أحسن قول الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسلْ عن قرينه ... فكل قرينٍ بالمقارن يَقتدى

وقال ابن مسعود: اعتبروا النّاس بإخوانهم* وفي سنن أبى داود عن أبى هريرة رضي

الله عنـه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: [المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل] وعن ابن عمـر رضي الله عنهما قـال: لا تـستـعملوا أهل الكتاب فإنهم يستحلُّون الرَّشا، واستعينوا على أموركم، وعلى رعيتكم بالذين يخشون الله تعالى. وفي البخارى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [ما بعث الله من نبيّ، ولا استخلف من خليفةٍ إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضُّه عليه، و بطانة تأمره بالشر وتحضُّه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى] والحق أن الجمل مستأنفات كلها على جهة التعليل للنّهى، فكأنه قيل: لم لا نتخذهم بطانة؟ فقيل: لأنهم لا يقصرون، فقيل: لهم لم يفعلون ذلك؟ قيل: لأنهم يودُّون عنتكُمْو ثم قيل: وما آية ودادة العنت؟ فقيل: قد بدت. والله أعلم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَإذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤمِنينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ والله سميعٌ عَليمٌ* إذْ هَمّتْ طَائفَتانِ مِنْكُمْ أنْ تَفْشلاَ والله وَلِيُّهُمَا وعَلَى الله فَلْيَتَوكّلِ الْمُؤمِنُون» » سورة آل عمران (الآية: ١٢٢)

في الواحدى: نزلت هذه الآية فى غزوة أُحُدٍ* وكذا في الخطيب: قاله ابن عباس والسدىّ وابن اسحاق* وقيل: يوم الأحزاب قاله الحسن. والأول أصح لتضافر الأخبار عليه، و بدليل الآية التالية لهذه الآية «**إذْ هَمَّتْ طَائفتَانِ مِنكُمْ أنْ تفشَلاَ**» والطائفتان هما بنو سليم و بنو حارثة بلا خلاف، وقد نزل المشركون أُحداً يوم الأ ربعاء، وكان خروجه صلى الله عليه وسلم إليهم بعد صلاة الجمعة، وأصبح بالشِّعْبِ يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة، ونزل في غدوة الوادى أي جانبه، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وسوّى صفوفهم، وأجلس خمسين من الرماة وأمّر عليهم عبدالله بن جبير بسفح الجبل، وقال: [انضحُوا عنَّا بالنبل، لا يأتُونا من ورائنا، ولا تبرحُوا غُلِبنا أو نُصِرنا] حدّث الطبرى عن السدىّ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: أشيروا عليّ ما أصْنَعُ. فقالوا: يا رسول الله. اخرج إلى هذه الأكلب. فقال الأنصار: يا رسول الله ماغَلبَنَا عدوٌّ لنا أتانا في ديارنا، فكيف وأنت فينا، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن أبَيّ ابن سلول، ولم يدعه قط قبلها، فاستشاره، فقال: يا رسول الله

اخرج بنا إلى هذه الأكلب، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة، فيقاتلوا في الأزقّة، فأتاه النعمان بن مالك الأنصارى، فقال: يا رسول الله، لا تحرمني الجنة، فوالذى بعثك بالحق لأدخلن الجنة، فقال له: بمَ؟ قال: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وإنى لا أفر من الزحف. قال: صدقت. فقتل يومئذٍ، ثم إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بدرعه فلبسها فلمَّا رأوه وقد لبس السّلاح ندموا، فقاموا واعتذروا إليه، وقالوا: اصنع ما رأيت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ينبغى لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل* وحدّث أيضاً عن ابن شهاب الزهريّ، ومحمد بن يحيٰى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين، بن عبدالرحمن بن عمر و بن سعد بن معاذ وغيرهم من علمائنا، قالوا: لمّا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون بالمشركين قد نزلوا منزلهم من أحد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى رأيت بقرة (في الخطيب: مذبحة حولى) فأولتها خيراً، ورأيت في ذباب سيفى ثلماً (وفي الخطيب: فأوّلته هزيمة) ورأيت أنى أدخلت يدى في درع حصينة، فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا المدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقامُوا أقامُوا بشرّمقام، وإن هم دخلُوا علينا قاتلناهم فيها. وكان رأي عبدالله بن أبى سلول مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرى رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك أن لا يخرج إليهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره الخروج من المدينة، فقال رجال من المسلمين: ممن أكرمهم الله بالشهادة يوم أحد وغيرهم: ممَّن كان فاته بدر وحضوره، يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنًا عنهم وضعفنا، فقال عبدالله بن أبى سلول: يا رسول الله أقم بالمدينة، لا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ لنا قط إلا أصاب منّا، ولا دخلها علينا قط إلاَّ أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقامُوا بشرّ محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعُوا رجعُوا خائبين كما جاؤا، فلم يزل الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم: الذين كان من أمرهم حبّ لقاء القوم حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبس لأمته، فكانت تَبْوِئَةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين مقاعد للقتال ما ذكر من مشورته على أصحابه بالرأى الذي ذكرنا على ما وصفه الذين حكينا قولهم* وقوله تعالى: **«وإذْ غَدَوْتَ مِنْ أهْلِكَ»** أي من حجرة عائشة رضي الله عنها، أو من المدينة، والغدوُّ الخروج

أول النهار، يقال غدا يغدو من باب سما أي خرج غدوة، و يستعمل بمعنى صار عند بعضهم فيكون ناقصاً، يرفع الاسم و ينصب الخبر، والمقصود خروجه أول النهار أي بكرة على خلاف ما ذكر من خروجه بعد صلاة الجمعة، فلا يقال لذلك الوقت غدوة، قال عليه الصلاة والسلام: [لو توكلتُم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغْدُوا خِماصاً وتروح بطاناً] ولعل يكون المعنى اللغوى هو المقصود، فالمعنى عليه: وإذ غدوْتَ: أي صرت «**تُبَوِّىءُ للمؤمنين**» أي تنزلهم في منازل، وهذا أظهر من المعنى الآخر لأن المذكورة في القصة أنه سار من أهله، بعد صلاة الجمعة، و بات في شعب أحد، وأصبح ينزل أصحابه في منازل القتال و يدبّر لهم أمر الحرب. فيكون معنى تبوّىء: تنزل. والجملة يجوز أن تكون حالاً من فاعل غدوت، وهى حال مقدّرة، أي قاصداً تبوىء للمؤمنين لأن وقت الغدوّ ليس وقت للتبوّىء، ويحتمل أن تكون حالاً مقارنة لأنَّ الزمان متّسع. وتبوىء أصله من الباءة. وهى الرجع. واللام في القتال فيها وجهان: أظهرها أنها متعلقة بتبوىء على أنها لام العلّة، والثاني: أنها متعلقة بمحذوف لأنها صفة لمقاعد، أي مقاعد كائنة ومهيّئةً للقتال. ولا يجوز تعلّقها بمقاعد. وإن كانت مشتقة لأنه مكان، والأمكنة لا تعمل. وقوله «**والله سميعٌ**» لأقوالكم «**عليمٌ**» بأحوالكم. ومعلوم أن غزوة أحد كان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرافهم يوم بدر، وسلمت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبى سفيان قال: أبناء من قتل ورؤساء من بق لأبى سفيان: ارصد هذه الأموال لقتال محمد فانفقها في ذلك، فجمّعُوا الجموع والأحابيش وأقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من أحد ...الخ. ما ذكر. وقوله تعالى: «**إذ**» بدل من إذ قبله لأنه هو المقصود بالسياق «**هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكم**» بنو سلمة و بنو حارثة جناحا العسكر. والهمّ العزم. وقيل: بل هو دونه وذلك أن أول ما يخطر بقلب الإنسان يسمّى خاطر، فإذا قوى سمّى حديث نفس، فإذا قوى سمّى هماً، فإذا قوى سمّى عزماً، ثم بعده إما قول وإما فعل. و بعضهم يعبّر عن الهمّ بالارادة. تقول العرب: هممت بكذا أهُمُّ به (بضم الهاء، من باب ردّ) والهمّ أيضاً الحزن الذي يذيب صاحبه وهو مأخوذ من قولهم: هممتُ الشحم أي أذبته، والهمّ الذي في النفس قريب منه لأنه قد يؤثر في نفس الإنسان كما يؤثر الحزن. (سمين)* «**أنْ تَفْشَلاَ**» تجبنا عن القتال وترجعا لمَّا رجع عبدالله بن أبى: المنافق وأصحابه، وقال: علامَ نقتل أنفسنا وأولادنا. وقال لأبى

جابر السلمي القائل له: أنشُدكم الله في نبيكم وأنفسكم لو نعلم قتالاً لا تبعناكم، فثبتهما الله، ولم ينصرفا. أي فهو خطاب من أبي جابر لابن أبيّ اللعين ومن رجع معه، فقال ابن أبيّ اللعين لو نعلم قتالاً لا تبعناكم، فهمّ الحيان باتباعه فثبتهم الله ومضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الزمخشري: والظاهر أنها ما كانت إلا همّة وحديث نفس. وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر و يوطنها على احتمال المكروه. **«والله وليُّهما»** أي ناصرهما **«وعلى الله فليتوكّل الْمؤمنُون»** أي ليقوا به دون غيره. قال البخاري: حدثنا على بن عبدالله وحدثنا سفيان. قال: قال عمر سمعت جابر بن عبدالله يقول: فينا نزلت: **«إِذْ هَمَّتْ طَائفَتَانِ مِنْكُم أنْ تفْشَلاَ»** الآية. قال: نحن الطائفتان بنو حارثة و بنو سلمة، وما نحبّ. وقال سفيان مرّة: وما يسرنى أنها لم تنزل لقوله تعالى: **«والله وليُّهما»** وكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))
«وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ وأَنْتُمْ أذِلَّةٌ فاتّقوا الله لعلكم تشكرون»
سورة آل عمران (الآية: ١٢٣)

قال الجلال: ونزل لما هزمُوا تذكيراً لهم بنعمة الله **«وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ»** موضع بين مكة والمدينة* أي فيها: وكانت وقعتها في السابع عشر من شهر رمضان في السنة الثانية (أبو السعود). **«وأَنْتُمُ أذِلَّةٌ»** بقلة العَدَدِ والسّلاح **«فاتّقُوا الله لعلّكُمْ تشكُرون»** نعمه. فقد كان المسلمون يوم بدر ثلا ثمائة و بضعة عشر رجلاً، ولم يكن فيهم إلا فرس واحد، وأكثرهم كانوا رجالة، وربما كان الجمع منهم يركبون جملاً واحداً. والمشركون كانوا قريباً من ألف مقاتل، ومعهم مائة فرس، وأسلحة كثيرة، وهم بعدة كاملة، لذا كان تأويل **«أذِلّةٌ»** بمعنى القلّة وعدم المنعة من الناس، مع ضعف الحال، وقلة السلاح والمال فأظهرهم الله على عدوّهم، وتجد غزوة بدر مع آياتها مجملة ومفصلة في كتب السيّر فلا حاجة لذكرها ههنا.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَيْسَ لكَ مِنَ الأمْرِ شَيءٌ أوْيَتُوبَ عَلَيْهِمْ أويُعَذِّبَهُمْ فإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ* ولله ما في السَّمٰواتِ وَمَا في الأرْضِ يغْفِرُلِمَنْ يَشَاءُ و يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ والله غَفُورٌرَحِيمٌ» سورة آل عمران (الآية: ١٢٨، ١٢٩)

في الواحدى : عن أنس بن مالك قال: كسرت رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، ودمى وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه و يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيّهم بالدم، وهويدعوهم إلى ربهم، قال: فأنزل الله تعالى **«ليْسَ لكَ مِنَ الأمْرِ شيءٌ أويتوب عليهم أويعذّبهم فإنّهم ظالمون»** وعن سالم عن أبيه قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاناً وفلاناً، فأنزل الله عزوجل **«ليس لكَ من الأمرشيء..»** الآية رواه البخارى عن حيان عن ابن المبارك. عن معمر. وفي رواية كان دعاؤه صلى الله عليه وسلم على المنافقين بعد أن يرفع رأسه من الركوع في صلاة الفجر، و بعد أن يقول: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد، ثم يقول وهوقائم: اللهم انج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبى ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين. اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنىّ يوسف، اللهم العن لحيان ورعلاً وذكوان وعصية عصت الله ورسوله. وقد ترك عليه الصلاة والسلام الدعاء حين نزلت **«ليس لك من الأمرشيء أويتوبَ عليْهم أويعذبّهم فإنَّهُمْ ظالمون»** رواه البخارى عن موسى بن اسماعيل عن ابراهيم وسعد عن الزهرى* وفي الخطيب: وقال قوم: نزلت في أهل بئر معونة وهم سبعون رجلاً من القراء، بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بئرمعونة في صفرسنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهرمن أحد ليعلّموا النّاس القرآن والعلم. أميرهم المنذربن عمر، قتلهم عامربن الطفيل، فوجد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجداً شديداً، وقنت شهراً في الصلواة كلها يدعوعلى جماعة من تلك القبائل باللّعن والسنين* وفي القرطبي: وقيل: استأذن في أن يدعوفي استئصالهم، فلمّا نزلت هذه الآية علم أنَّ منهم من سيُسلم، وقد آمن كثيرمنهم خالد بن الوليد، وعمروبن العاص، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم* ورى الترمذى عن ابن عمرقال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوعلى أربعة نفر. فأنزل الله عزّوجلّ **«ليْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شيءٌ»**

فهداهم الله للإسلام. وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، وفي الطبرى: قال الربيع بن أنس: أنزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وقد شجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه، وأصيبت رباعيته، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو عليهم، فقال: كيف يفلح قوم أدموا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى الله وهم يدعونه إلى الشيطان، و يدعوهم إلى الهدى و يدعونه إلى الضلالة، و يدعوهم إلى الجنّة، و يدعونه إلى النّار، فهمّ أن يدعو عليهم، فأنزل الله عز وجلّ: «**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شيء..**» الآية فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء عليهم. وهكذا بقية الأقوال تدور في فلك الذي ذكرت قوله تعالى: «**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شيء**» المراد من الأمر إصلاحهم وتعذيبهم، أي لست تملك إصلاحهم ولا تعذيبهم بل ذلك ملك لله تعالى، يفعل بهم ما يشاء من التعذيب «**أوْ**» بمعنى إلى أن «**يتوُبَ عَلَيْهِمْ**» بالإسلام. غاية في الصبر. أي فإذا تاب عليهم فلك من الأمر السرور، وإذا عذبهم فلك التّشفي فيهم «**أوْ يُعَذِّبَهُمْ فإنَّهُمْ ظَالِمُونَ**» بالكفر ومحاربتك بدون حق* وفي الغرائب: وقيل: نزلت في حمزة بن عبدالمطلب، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لمّا رآه، ورأى ما فعلوا به من المثلة: قال: لأمثّلنّ منهم بثلاثين فنزلت* وقيل: أراد أن يلعن المسلمين الذين خالفوا أمره، والذين انهزموا، فمنعه الله عن ذلك، مرويّ عن ابن عباس* وقيل: أراد أن يستغفر للمسلمين الذين عصوا أمره فنزلت* وقال القفال: كل هذه الأمور وقعت يوم أُحد، فلا يمنع حمل نزول الآية في الكل* ولا يخفى أن ظاهر الآية يدل على أنّه صلى الله عليه وسلم كان يفعل فعلاً فمنع منه، وحيئذٍ يتوجّه الإشكال بأن فعل ذلك الفعل إن كان من الله تعالى فكيف منعه منه؟ وإلا فهو قدح في عصمته، ومناف لقوله: «**وما ينطق عن الهوى**» والجواب: أن المنع من الفعل لا يدل على أن الممنوع مشتغل به كقوله: «**ولاَ تُطِعِ الْكَافِرِين**» مع أنه ما أطاعهم، وقوله: «**لئن أشرَكتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**» مع أنّه ما أشرك قط، ولعلّه عليه الصلاة والسلام شاهد من قتل حمزة وغيره ما أورثه حزناً شديداً، وكان من الممكن أن يحمله ذلك على ما لا ينبغي من الفعل والقول، فنصّ الله تعالى على المنع تقوية لعصمته صلى الله عليه وسلم. وتأكيداً لطهارته، ولئن سلمنا أنّه كان مشغولاً بذلك الفعل والقول، فإنه محمول على ترك الأولى، والنهيُ إرشاد إلى اختيار الأفضل، وأيضاً أنَّ دعاءه صلى الله عليه وسلم لا يكون بمجرد التّشهى، وإنما هو بطلب الأصلح، فالذى يظن به أنّه

خلاف مسئوله صلى الله عليه وسلم وقد وقع فهو بالحقيقة سؤاله صلى الله عليه وسلم، ولهذا سأل الله تعالى أن يجعل لعنه على من لا يستحقّه طهراً وزكاةً ورحمة. انتهى كلام صاحب الغرائب* قلت: وما رواه البخارى هو الأصح: قال البخارى: قال محمد بن عجلان، عن نافع بن ابى عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على رجال من المشركين يسّميهم بأسمائهم حتى أنزل الله تعالى: «**ليسَ لَكَ من الأمر شيء**» الآية. وقد روى عدّة روايات في هذا المعنى. فيكون المراد من الأمر (كما تقدم) اصلاحهم وتعذيبهم، ولا يملك ذلك صلى الله عليه وسلم، وقوله: «**ولله مَا فى السّمٰوات والأرْض**» يؤيد الذي ذكرت. أي ملكاً وخلقاً وعبيداً. فهو كالدليل على قوله: ليس لك من الأمر شيء ..الخ. «**يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ**» المغفرة له «**و يُعَذِّبَ مَنْ يَشَاءُ**» تعذيبه «**والله غَفُورٌ**» لأوليائه «**رَحِيمٌ**» بأهل طاعته فضلاً وإحساناً.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«والّـذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أوْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ الله وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى ما فَعَلُوا وهُمْ يعْلَمُونَ* أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وجنَّاتٌ تجْرى مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أجْرُ الْعَامِلِينَ»

سورة آل عمران (الآية: ١٣٥، ١٣٦)

وفي الواحدى: قال ابن عباس: في رواية عطاء. نزلت الآية في بنهان التمّار. أتته امرأة حسناء باعها تمراً فضمّها إلى نفسه وقبّلها، ثم ندم على ذلك، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر ذلك له فنزلت هذه الآية.* وقا ابن عباس: في رواية الكلبى: إن رجلاً أنصارياً وثقيفياً آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما، فكانا لا يفترقان، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض مغازيه، وخرج معه الثقفيّ، وخلف الأنصاريّ في أهله وحاجته، وكان يتعاهد أهل الثقفيّ، فأقبل ذات يوم فأبصر امرأة صاحبه قد اغتسلت، وهى ناشرة شعرها، فوقعت في نفسه، فدخل ولم يستأذن حتى انتهى إليها، فذهب ليقبّلها، فوضعت كفّها على وجهها، فقبل ظاهر كفها، ثم ندم واستحيا، فأدبر راجعاً، فقالت: سبحان الله!! خنت أمانتك، وعصيْتَ ربَّكَ، ولم تصب حاجتك،

قال: فندم على صنيعه، فخرج يسيح في الجبال و يتوب إلى الله تعالى من ذنبه، حتى وافى الثقفيُّ، فأخبرته أهله بفعله، فخرج يطلبه حتى دل عليه، فوافقه ساجداً، وهويقول: ربّ ذنبي قد خنتُ أخي. فقال له: يا فلان قُم فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسله عن ذنبك لعلّ الله أن يجعل لك فرجاً وتوبة. فأقبل معه حتى رجع إلى المدينة، وكان ذات يوم عند صلاة العصر نزل جبريل عليه السلام بتوبته، فتلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم «**والَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ..**» إلى قوله: «**وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ**» فقال عمر: يا رسول الله أخاصٌّ هذا لهذا الرجل. أم للناس عامة؟ قال: بل للناس عامة* وعن عطاء: أن المسلمين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أبنوا اسرائيل أكرم على الله منا؟ كانوا إذا أذنب أحدهم أصبحت كفارة ذنبه مكتوبةً في عتبة بابه: اجدع اذنك، اجدع أنفك، افعل كذا، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت «**وسارعوا إلى مغفرة من ربّكم**» إلى قوله «**والَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فاحِشَةً أو ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ**» فقال: ألا أخبركم بخير من ذلك، فقرأ هذه الآيات* وكذا في الخازن: وفيه روايات نحو الأولى قوله تعالى: «**والَّذِينَ إذا فَعَلوا فاحِشَةً**» ذنباً قبيحاً كالزنا لأن المراد العموم في الفاحشة لا الزنا فقط «**أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ**» بما دون الزنا كالقبلة واللمسة، والنظرة ونحوهما، وفيه إشارة إلى أنّه إنما صرّح بذكر الفاحشة مع دخولها في ظلم النفس، وترك مقتضى الظاهر لأن المراد بها نوع من أنواع ظلم النفس، أو ليدل به على عدم المبالاة في الغفران، فإن الذنوب وإن جلّت فعفوه أعظم. «**فاستغْفَروا لِذُنوبِهِمْ**» بالندم والتوبة. وقد وردت أحديث كثيرة في فضل الإستغفار منها ما روى عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعني الله منه ما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من الصحابه استحلفته، فإذا حلف لى صدّقته، وإنه حدّثني أبوبكر وصدق أبوبكر أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [ما من عبد مؤمن (أوقال: ما من رجل) يذنب ذنباً، فيقوم فيتطهر، ثم يصلى ركعتين، ثم يستغفر الله إلاّ غفر الله له، ثم قرأ هذه الآية «**والَّذِينَ إذَا فعلوا فاحشة أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذكَرُوا الله..**» الآية] أخرجه أبو داود والترمذى، وقال: هذا حديث قد رواه غير واحد عن عثمان بن المغيرة فرفعوه، ورواه مسعر وسفيان عن عثمان بن المغيرة فوقفاه ولم يرفعاه ولا يعرف لأسماء إلاّ هذا الحديث* وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال: [من لزم الإستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كلّ همّ فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب] أبوداود. وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [والذي نفسي بيده لولم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم] وأخرج الشيخان عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن الربّ تبارك وتعالى قال: [إذا أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم أغفر لى ذنبي، قال تبارك وتعالى أذنب عبدى ذنباً علم أنَّ لهُ رباً يغفر الذنب و يأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب. فقال: أي رب اغفر لى ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب و يأخذ بالذنب] وفي رواية [اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك] قال عبدالأعلى: لا أدرى أقال في الثالثة، أو الرابعة اعمل ما شئت. وعن أنس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنَّك ما دعوتنى ورجوتنى غفرتُ لك ولا أبالى، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة] أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن. عَنَان السماء بفتح العين، قيل: هو السحاب: وقيل: هوما عنّ لك منها، أي ما ظهر لك منها. وقُراب الأرض: بضم القاف، وروى بكسرها والضم أشهر، وهوما يقارب ملأها* عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من قال استغفر الله العظيم الذي لا إلٰه إلا هو الحيّ القيوم، وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فرّمن الزحف] أخرجه أبوداود والترمذى والحاكم، وقال: حديث حسنٌ صحيح على شرط البخارى ومسلم* وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [كل ذنب عسى الله أن يغفره (أو قال: عسى أن يغفره الله) إلاَّ من مات مشركاً، ومن قتل مؤمناً متعمداً] أخرجه أبوداود* وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بلغنى أنَّ ابليس حين نزلت هذه الآية «**والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فاحِشَةً أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فاستَغفَروا لذنوبهم..**» الآية. بكى]* وروى أحمد في مسنده عن أبى سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [قال إبليس: يارب وعزتك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الله تعالى: وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى] وقوله تعالى: «**ومن يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلاَّ الله**» أى لا يغفرها أحد سواه. روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بأسير، فقال: اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد، فقال النبي صلى

الله عليه وسلم: [عرف الحقّ لأهله] وقوله: «**وَلَمْ يُصِرُّوا على ما فعلوا..**» أي ولم يقيموا على قبيح فعلهم بأن أقلعوا عنه مستغفرين. وفي الحديث [ما أصرّ من استغفر وإنْ عادَ في اليوم سبعين مرة] وفي الحديث [لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرا] «**وهم يعلمون**» أي ولم يصرُّوا على قبيح فعلهم عالمين به «**أولئِكَ جَزَاؤهم مَغْفِرةٌ مِنْ رَبّهم، وجَنَّاتٌ تجرى مِنْ تحتِها الأَنْهَارُ**» إشارة إلى الفريقين، أو الموصوفون في قوله «**والَّذِينَ إذا فعَلُوا فَاحِشَةً أوْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ..**» الآية.

ومعنى الآية: أن المطلوب بالتوبة أمران: أحدهما: الأمن من العقاب وإليه الإشارة بقوله «**مغفرةٌ من ربّهم**» والثاني: إيصال الثواب وإليه الإشارة بقوله: «**وجَنَّاتٌ تجرى من تحتها الأنهار**» أي ذلك لهم ذخر لا يبخس وأجر لا يوكس. «**خالِدينَ فيها**» أي في الجنات، وهي حال من الضمير في جزاؤهم لأنه مفعول به في المعنى، لأن المعنى: يجزيهم الله جنّات في حال خلودهم، وتكون حالاً مقدره ولا يجوز أن تكون حالاً من جنات في اللفظ، وهى لأصحابها في المعنى إذ لو كان كذلك لبرز الضمير لجريان الصفة على غير من هى له. والجملة من قوله: «**تجرى من تحتها الأنهار**» في محل رفع نعتاً لجنّات. والمخصوص بالمدح محذوف في قوله: «**ونعم أجْرُ العاملين**» تقديرُ، ونعم أجر العاملين الجنة، روى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: [ما أقلَّ حياء من يطمع في جنّتى بغير عمل، كيف أجود برحمتى على من يبخل بطاعتى] وحدّث شهر بن حوشب: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة. وعن الحسن يقول الله تعالى يوم القيامة: جوزوا الصراط بعفوى، وادخلُوا الجنّة برحمتى، واقتسمُوها بأعمالكم. وعن رابعة البصرية كانت تنشد:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إنَّ السفينة لا تجرى على اليبس

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«ولاَ تَهِنُوا ولاَ تَحْزَنُوا وأَنْتُمُ الأَعْلونَ إن كنتُم مؤمنين* إن يمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وتلك الأيّامِ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله الَّذينَ آمنوا ويتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَداءَ والله لاَ يُحِبُّ الظَّالِمينَ* ولِيُمَحصَ الله الّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الكَافِرينَ* أَمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا

الجنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَم اللهُ الذينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابرِينَ* وَلَقَدْ كُنْتُم تمنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رأيْتُموهُ وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» سورة آل عمران (الآية: ١٣٩ - ١٤٣)

في الواحدي: قال ابن عباس: انهزم أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم أحد، فبينما هم كذلك إذا أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم [اللهم لا يعلون علينا، اللهم لا قوة لنا إلا بك، اللهم ليس يعبدك في هذه البلدة إلا هؤلاء النفر] فأنزل الله تعالى هذه الآيات، وثاب نفرٌ من المسلمين رماة، فصعدوا الجبل، ورموا خيل المشركين حتى هزمُوهم فذلك قوله تعالى **«وأنتُمْ الأعْلَوْن»** الوهن: الضعف أي لا تضعفوا عن الجهاد ولا يورثنّكُمْ يوم أحد وهْناً وجُبناً، ولا تحزنوا على من قتل منكم وجرح، وأنتم الأعلون. أي وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر ممّا أصابوا منكم يوم أحد، وأنتم الأعلون شأناً لأن قتالكم لله، وقتالهم للشيطان، وقتلاكم في الجنة وقتلاهم في النّار، وأنتم الأعلون بالحجة والعاقبة الحميدة كقوله **«والعاقبةُ للمتقين»** وفى هذا تسلية و بشارة. أي عزّاهم وسلاّهم بما نالهم يوم أحد من القتل والجراح وحثهم على قتال عدوّهم، ونهاهم عن العجز والفشل **«ولاَ تَهِنُوا ولا تحزنُوا»** على ظهورهم، ولا على ما أصابكم من الهزيمة، والحال وأنتم الأعلون. أي الغالبين على الأعداء بعد أحد، فلم يخرجوا بعد ذلك عسكراً إلاّ ظفروا في كل عسكر كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفى كل عسكر كان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بعد انقراضهم ما افتتحت بلدة على الوجه كما كانُوا يفتتحون فى ذلك الوقت، وهذه الآية بيان فضل هذه الأمة لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه لأنه قال لموسى **«إنّكَ أنتَ الأعْلَى»** وقال لهذه الأمة **«وأنتُم الأعْلَوْنَ»** وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى، فهو سبحانه العليّ، وقال للمؤمنين **«وأنتُم الأعْلَوْنَ»** وقوله: **«إنْ كنتُم مُؤمنِين»** إمّا أن يكون قيداً لقوله: **«وأنتُمُ الأعْلَوْنَ»** أى إن كنتُم مصدقين بما يعدكم الله و يبشّرُكم به من الغلبة، وإما أن يكون قيداً لقوله: **«ولاَ تهنُوا»** أى إن صحّ إيمانكم بالله وبحقيقة هذا الدين، فلا تضعفوا لثقتكم بأنّ الله سيتمُّ هذا الأمر، قال راشد بن سعد: لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد كئيباً حزيناً جعلت المرأة تجيء بزوجها وأبيها وابنها مقتولين، فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: [أهكذا تفعَلُ برسولك]؟ فنزلت: «**إنْ يمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ**» .. والمراد بالقرح الجراحة. ومعنى الآية إنْ نالُوا منكم يوم أحد فقد نلتُم منهم قبل ذلك فى يوم بدر، ثم لم يثبّطهم ذلك عن معاودة القتال، فأنتم أولى بأن لا تفقوا ولا تجبنوا، ونظيره: «**فإنَّهُمْ يألَمونَ كما تألَمُونَ وترجُون من الله ما لاَ يرجُون**» وقوله تعالى: «**وتلْكَ الأ يَّامُ**» موصوفاً وصفتُه مبتدأ خبره نداولها، أو تلك مبتدأ والأ يام خبرة كقولك هى الأ يام تبلى كل جديد، فإن الضمير لا يوصف، و يكون تلك إشارة إلى الوقائع والأحوال العجيبة التى يعرفها أهل التجارب من أبناء الزمان. والمراد بالأ يام ما فى تلك الأ وقات من الظفر والغلبة والحالات الغريبة، وقوله: «**نداولها**» كالتفسير لما تقدّمه. والمداولة نقل الشيء من واحد إلى آخر، و يقال: تداولته الأ يدى. أى تناقلته، والدنيا دول أى تنتقل من قوم إلى آخرين لا تدوم مسارّها ومغامّها، فيوم يحصل فيه السرور له والغمّ لعدوّه، و يوم آخر بالعكس، فلا يبقى شيء من أحوالها، ولا يستقُّر أثر من آثارها ونظيره قولهم: الحرب سجال. شبّهت بالدلاء لكونها تارة مملوءة وأخرى فارغة، وليس المراد من هذه المداولة أنه تعالى ينصر المؤمنين وأخرى ينصر الكافرين، بل المراد أنّه تارة يشدّد المحنة على الكافرين وأخرى على المؤمنين. وذلك أنّه لو شدّد المحنة على الكفار فى جميع الأ وقات وأزالها عن المؤمنين فى جيعها لحصل العلم الاضطرارى بأنّ الايمان حقٌ وما سواه باطلٌ، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب. فالحكمة في المداولة أن تكون الشبهات باقية، والمكلّف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل الدّالة على صحة الإسلام. فيعظم ثوابه عند الله، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: «**وليعْلَمَ الله الّذِينَ آمَنُوا**» وحذف المعطوف عليه ليذهب الوهم كل مذهب. و يقرر الفوائد. والتقدير: نداولها بين الناس ليكون كيت وكيت وليعلم، وفيه إيذان بأن المصلحة في هذه المداولة ليست بواحدة، ولكن في ضمنها مصالح جمّة لو عرفوها انقلبت مساءتهم مسّرة منها أن يعلم الله أى ليظهر معلومنا وهو المخلص من المنافق، والمؤمن من الكافر. وقيل: معناه ليحكم بالامتياز، فوضع العلم مقام الحكم، وقيل: ليعلمهم علماً يتعلّق به الجزاء، وقيل: ليعلم أولياء الله. فأضاف إلى نفسه تفخيماً لهم. وعلى الأقوال العلم بمعنى العرفان، ولهذا تعدّى إلى مفعول واحد، وقيل: بمعنى فعل القلب الذى يتعدّى إلى مفعولين. والتقدير وليعلمهم مميّزين عن غيرهم. وقوله: «**و يتّخِذَ مِنكُمْ شُهَداءَ**» ممّن يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة. كقوله تعالى: «**لتكُونُوا شُهَداءَ على النّاسِ**» وهذا منصب شريف لا يناله إلا

هـذه الأمـة. ولـن يكونوا من الأمة إلا بالصّبر على ما ابتلوا به من الشدائد، أو المراد ليكرم نـاساً مـنكـم بالشهادة، والشهداء جمع شهيد كالكرماء والظرفاء. والمقتول من المسلمين بسيف الكفار يسمى شهيداً. قال النضر بن شميل: لأنهم أحياء حضروا دار السلام كما ماتُو بخلاف غيرهم، وقال ابن الأنباری: لأنّ الله وملائكته شهدوا له بالجنة* **«والله لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ»** أى المشركين **«إنّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»** قاله ابن عباس رضى الله عنهما، وقيـل: لا يحب مـن لـيس من هؤلاء الثابتين على الايمان الصابرين على البلوى. و بين الحكمـة بـقوله: **«ولِيُمَحِّصَ الله ٱلّذِينَ آمَنُوا ويمحقَ الْكَافِرِينَ»** والمحص في اللغة الـتـنـقـيـة، والمحق النقصان. وفي القاموس ومحص الذهب بالنّار من باب منع أخلصه مِمَّا يـشوبه. والتمحيص الابتلاء والاختبار* وفى البيضاوى: **«وليمّحِصَ الله الّذِينَ آمنُوا»** لـيـطهرهم و يصفّيهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم **«و يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ»** يهلكهم إن كـانـت الـدولـة عليهم، والمحق نقص الشيء قليلاً قليلاً* وقال المفضل: هو أن يذهب الشيء كـلـه لحتى لا يـرى مـنـه شيء* وقـال الـزجـاج: معنى الآية إنّه إن حصلت الغلبة للكـافـرين على المؤمنين كان المراد تمحيص ذنوب المؤمنين أى تطهرهم وتصفيتهم، وإن كـان بـالـعـكـس فـالمراد محو آثار الكفار، وهذه مقابلة لطيفة لأن تمحيص هؤلاء بإهلاك ذنـوبهم نظير محق أولئك بإهلاك أنفسهم لا بالكليّة فإنّ ذلك غير واقع، بل بتدريج ومهل* وقـولـه: **«أم حَسِبْتُمْ»** أى بـل. أم منقطعة والهمزة للاستفهام الانكارى أى لا ينبغى مـنـكـم أنـكـم تحبُون أى تظنون أنكم تدخلون الجنّة مع أنكم لم تجاهدوا ولم تصبروا على شدائد الحرب. وعبارة أبى السعود: هذا خطاب للمنهزمين يوم أحد، وأم منقطعة، وما فيها مـن كـلـمـة بـل لـلاضـراب عـن تـسليتهم إلى تـو بيخهم، والهمزة المقدّرة معها للانكار والاسـتـبـعاد* **«أنْ تدخُلُوا الجنّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الّذِينَ جَاهَدُوا منكم»** أى علم ظهور. قـال أبـوالـسـعـود: نفى العلم كناية عن نفى المعلوم لما بينهما من اللزوم المبنى على لزوم تحقّق الأول لتحقّق الثانى ضرورة استحالة تحقق شيء بدون علمه تعالى به، وإنما وجه النفى إلى الموصوفين مع أن المنفى هو الوصف فقط، وكان يكفى أن يقال: ولمّا يعلم الله جهادكم كـنـايـة عـن معنى، ولمَّا تجاهدوا للمبالغة فى بيان انتفاء الوصف وعدم تحققه أصلاً، وفى كلمة لمَّا إيذان بأن الجهاد متوقّع منهم فيما يستقبل إلاّ أنه غير معتبر فى تأكيد الانكار* أى ولـمَّـا هـنـا بمعنى لمْ مع زيادة التوقّع، وليس المراد نفى العلم بالمجاهدين. ولكن المراد نفى

المعلوم، وإنما حسن إقامة ذلك مقام هذا لأن العلم متعلّق بالمعلوم كما هوعليه، فلمّا حصلت بينهما هذه المطابقة حسن إقامة أحدهما مقام الآخر تقول: ما علم الله فى فلان خيراً، أى ما فيه خير حتى يعلمه. فحاصل الكلام: لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم تجاهدوا بعد. وإنما أنكر هذا الحسبان لأنه تعال أوجب الجهاد قبل هذه الواقعة وأوجب الصبر على تحمل متاعبها، و بيّن وجوه المصالح المنوطة بها فى الدين والدنيا، وإذا كان كذلك فمن البعيد أن يصل الإنسان إلى السعادة والجنّة مع إهمال مثل هذه الطاعة، وقوله: «وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ» فى الشدائد. ونصب الفعل بأن مقدرة بعد الواو المقتضية للجمع كهى فى قولك: لا تأكل السّمك وتشرب اللبن أى لا تجمع بينهما وهومذهب البصريين، أو بواو الصرف وهو مذهب الكوفيين. كأنه قيل إن دخول الجنة وترك المصابرة على الجهاد ممّا لا يجتمعان، فليس كُلُّ من أقرَّبدين الله كان صادقاً ولكن الفيصل فيه تسليط المكروهات ومخالفات النفس فإن الحبّ هو الذى لا ينقص بالجفاء ولا يزاد بالوفاء. وقيل: التقدير أظننتم أن تدخلوا الجنة قبل أن يعلم الله المجاهدين وأن يعلم الصابرين هذا على تقدير أنّ، ووجه آخر وهو أن يكون مجزوماً لكنّ الميم حرّكت للساكنيْن حركت بالفتحة اتّباعاً للفتحة قبلها، وقوله تعالى: «وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ» حيث قلتم ليتَ لنا يوماً كيوم بدرلننال ما نال شهداؤه. فى الخازن: قال ابن عباس: لما أخبر الله عزّ وجلّ المؤمنين على لسان نبيّه صلى الله عليه وسلم بما فعل بشهدائهم يوم بدر من الكرامة رغبوا فى ذلك فتمنَّوا قتالاً يستشهدون فيه، فيلحقون بإخوانهم، فأراهم الله يوم أُحد، فلم يلبثوا أن انهزموا إلاَّ من شاء الله منهم فأنزل الله هذه الآية* ومعنى قوله: «تمنّوْن الْمَوْتَ» أى تطلبون أسباب الموت وهو القتال والجهاد «مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ» أى من قبل أن تلقوا يوم أُحُدٍ، والخطاب للذين لم يشهدوا بدراً بدليل إلحاحهم يوم أُحد على الخروج. وقوله: «فَقَدْ رأيْتُموهُ» أى سببه بالحرب. وهى رؤية بصريّة. قال البيضاوى: أى قد رأيتموه معاينين لَهُ حين قتل دونكم. أى قدامكم و بين أيديكم من قتل من إخوانكم. وهوتوبيخ لهم على أنهم تمنّوا الحرب وتسبّبُوا فيها، ثم جبنُوا وانهزموا عنها، أو توبيخ لهم على الشهادة فإن فى ثمنها تمنّى غلبة الكافرين* و يدل عليه تذييل الآية «وأنتُمْ تنظرُونَ» أى بصراء تتأملون الحال كيف هى فَلِمَ انهزمتُم، وفى إيثار الرؤية على الملاقاة وتقييدها بالنظر مزيد مبالغة فى مشاهدتهم له.

((القول فى سبب نزول قوله تعالى :))

«وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ* وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إلاَّ بِإذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثوابَ الآخِرَةِ نؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ* وَكَأَيِّن مِنْ نبيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فى سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ* وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنَا وإسْرَافَنَا فى أَمْرِنَا وثَبِّتْ أَقْدامَنَا وانْصُرْنَا عَلى الْقَوْمِ الكافِرِينَ* فآتاهُمُ اللهُ ثَوابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ واللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»

سورة آل عمران (الآية: ١٤٤ ـ ١٤٨)

فى الواحدى وابن كثير قال عطية العوفى: لمّا كان يوم أحد انهزم الناس، فقال بعض النّاس: قد أصيب محمد فأعطوهم بأيديكم، فإنما هم إخوانكم، وقال بعضهم: إذا كان محمد أصيب ألا ما تمضون على ما مضى عليه نبيكم حتى تلقوا به. فأنزل الله فى ذلك ـ «وما محمّدٌ إلاَّ رسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» ـ إلى قوله ـ «وكأيِّنْ مِنْ نبيٍّ قاتَلَ مَعَهُ ربيُّون كثير» ـ إلى قوله ـ «والله يحبُّ الْمُحْسِنين» * وعبارة ابن كثير: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أُحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إنّ محمداً قد قُتل، ورجع ابن قمئة إلى المشركين، فقال لهم: قتلت محمداً، وإنما كان قد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فشجّهُ فى رأسه، فوقع ذلك فى قلوب كثير من النّاس، واعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، وجوّزوا عليه ذلك كما قصّ الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام فحصل ضعف ووهن وتأخرٌ عن القتال ففى ذلك أنزل الله تعالى: «وما مُحَمّدٌ إلاَّ رسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قبْلِهِ الرُّسُلَ» أى لَهُ أسوة بهم فى الرسالة وفى جواز القتل عليه. قال ابن أبى نجيح عن أبيه: أن رجلاً من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحط فى دمه فقال له: يا فلان أشعرت أنّ محمّداً قد قتل؟ فقال

الأنصاريُّ: إن كان محمد قد قتل فقد بلّغَ فقاتلُوا عن دينكم فنزل: «**وَمَا محَمَّدٌ إلاَّ رسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قبْلِهِ الرُّسُلُ**» رواه الحافظ أبو بكر البيهقى فى دلائل النبوّة. وروى بقية المفسرين قصّة معركة أُحد بطولها نقلاً عن أصحاب السير والمغازى فلا حاجة لذكرها ولأنه سيأتى طرفاً منها أثناء الشرح قوله تعالى: «**وما مُحمَّدٌ إلاَّ رسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**» فسيخلو كما خلوا بالموت، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو المستغرق لجميع المحامد لأنّ الحمد لا يستوجبه إلا الكمال، والتّحميد فوق الحمد فلا يستحقه إلاّ المستولى على الأمر فى الكمال، وأكرم الله تعالى نبيه وصفيه محمداً صلى الله عليه وسلم باسمين مشتقين من اسمه جلّ وعلا محمد وأحمد، وفيه يقول حسان بن ثابت:

وشق له من اسمه ليُجلَّهُ فذو العرش محمود وهذا محمداً

وقوله: «**أفإنْ ماتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أعقابِكُمْ**» إنكاراً لارتدادهم، وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلّوه صلى الله عليه وسلم بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله، و بقاء دينهم متمسكاً به «**وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ الله شيئاً**» بارتداده، وإنما يضر نفسه، وقد أوجب الدين قتل المرتد بعد ثلاثة أيام إذا لم يرجع إليه لأن رتداده عن الدين تشجيع للناس على حركة الردة ومحاربة الإسلام. «**وسَيَجْزى الله الشاكرينَ**» يعنى الثابتين على دينهم الذين لم ينقلبوا عنه لأنهم شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام وثباتهم عليه، فسمّاهم الله شاكرين لما فعلوا، وسيثيب الله من شكره على توفقه وهدايته. وروى ابن جبير عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه في قوله: «**وسيجزى الله الشاكرين**» قال الثابتين على دينهم: أبا بكر وأصحابه، وكان علىٌّ يقول: أبو بكر أمين الشاكرين، وأمين أخبار الله، وكان أكرمهم وأحبّهم إلى الله تعالى: «**وما كانَ لِنفسٍ أنْ تمُوتَ إلاَّ بإذْنِ الله**» ووجه السياق أن المنافقين أرجفُوا محمداً قتل فارجعوا إلى ما كنتم عليهم من الأديان فأبطل قولهم بأن القتل مثل الموت في أنّه لا يحصل إلاّ فى الوقت المقدّر، وكما أنّه لو مات فى بلده لم يدل ذلك على فساد دينه، فكذا لو قتل، وفيه تحريض المؤمنين على الجهاد باعلامهم أن الحذر لا يغنى عن القدر، وأنّ أحداً لا يموت قبل الأجل، وإنْ خاض المهالك واقتحم المعارك، أو الغرض بيان حفظه وملائكته لنبيّه، فإنه ما بقى فى تلك الواقعة سبب من أسباب الهلاك والشرّ إلا وقد حصل إلاّ أنه تعالى لـمّا كان حافظاً لنبيّه، ولم يقدر فى ذلك الوقت أجله لم يضره ذلك، وفيه

تقريع لأصحابه أنهم قد قصروا فى الذبّ عنه صلى الله عليه وسلم، وجواب عما قاله المنافقون للصحابة لمّا رجعوا: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتِلُوا. قال الأخفش والزجاج: تقدير الكلام وما كانت نفس لتموت إلاَّ بإذن الله* وقال ابن عباس: الإذن هو قضاء الله وقدره فإنه لا يحدث شيئاً إلا بمشيئة الله وإرادته* فأورد الكلام على سبيل التمثيل كأنه فعل لا ينبغى لأحدٍ أن يقدم عليه إلاَّ أن يأذن الله فيه، وذلك أن إسناد الموت إلى النفس نسبة الفعل إلى القابل لا إلى الفاعل، فاقيم القابل مقام الفاعل. وقال أبو مسلم: الاذن هو الأمر. والمعنى أن الله تعالى يأمر ملك الموت بقبض الأ رواح فلا يمت أحد إلا بهذا الأمر* وقيل: المراد التكوين والتخليق لأنه لم يقدر على خلق الموت والحياة أحد إلا الله. وقيل: التخلية والإطلاق وترك المنع بالقهر والاجبار، والمعنى ما كان لنفس أن تموت بالقتل إلاَّ بأن يخلى الله بين القاتل والمقتول. وفيه أنه تعالى لا يخلّى بين نبيه و بين أحد ليقتله صلى الله عليه وسلم، ولكنه جعل من بين يديه صلى الله عليه وسلم ومن خلفه رصداً ليتم على يديه بلاغ ما أرسله به، فلا تهنوا فى غزواتكم بعد ذلك بإرجاف مرجف. وقيل: الاذن العلم، أى لن تمت نفس إلا نفس إلا فى الوقت الذى علم الله موتها فيه. وفى الآية دليل على أن المقتول ميت بأجله، وأنَّ تغيير الآجال ممتنع ولذا أكدّ هذا المعنى بقوله: «**كِتَاباً مُؤجلاً**» وهو مصدر مؤكد لنفسه لدلالة ما قبله عليه، أى كتب الموت كتاباً مؤجلاً مؤقتاً له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر. وقيل: الكتاب المؤجل هو اللوح المحفوظ الذى كتب فيه جميع الحوادث من الخلق والرزق والأجل والسعادة والشقاوة. قال القاضى: الأجل والرزق مضافان إلى الله تعالى، وأما الكفر والفسق والايمان والطاعة، فكل ذلك مضاف إلى العبد، فإذا كتب تعالى ذلك فإنما يكتب ما يعلمه من اختيار العبد من أن يكون مذموماً أو ممدوحاً* والحقُّ أن هذا تعكير للقضية فإن الله تعالى إذا علم من العبد الكفر استحال أن يأتى هو بالإيمان، وإلاّ انقلب علم الله جهلاً، وإذا كان هو غير قادر على الايمان حينئذ فا معنى اختياره؟ «**ومن يُردْ ثوابَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا**» أى من ثوابها. تعريض بالفريق الدنيوي، وهم الذين شغلتهم الغنائم، و باقى الآية مدح للفريق الآخر الأخروى، وإن فضله تعالى وعطيته شامل لكلا الفريقين، لكن ثواب الفريق الثانى هو المعتد به فى الحقيقة «**ومَنْ يُردْ ثوابَ الآخرةِ نؤتِهِ مِنْهَا وسَنَجْزى الشاكرينَ**» فأبهم الجزاء وأضافه إلى نفسه تنبيهاً على أن جزاء الذين شكروا نعمة الإسلام فلم يشغلهم

عن الجهاد شيء لا يكتنه كنهه، وتقصر عنه العبارة. «وَمَنْ يُرِدْ ثوابَ الدّنيا» الخ .. نزلت في الذين تركوا المركز وطلبوا الغنيمة. وقوله: «ومَنْ يُرِدْ ثوابَ الآخرة..» نزلت في الذين ثبتُوا مع النبيّ، وهذه الآية وإن نزلت في الجهاد خاصة لكنها عامة في جميع الأعمال كما قال صلى الله عليه وسلم: [إنّما الأعمَالُ بالنيّات] وذلك لأن المؤثر في جانب الثواب والعقاب القصود والدواعي، فمن وضع الجبهة على الأرض والوقت ظهراً والشمس أمامه فإن قصد بذلك السجود عبادة لله تعالى كان من الإيمان، وإن قصد تعظيم الشمس كان من الكفر، وقوله: «وكأيّنْ» كم. والأكثرون على أنها في الأصل مركبة من كاف التشبيه وأي التي هي في غاية الإبهام إذا قطعت عن الاضافة، كما أنّ كذا مركبة من الكاف وذا المقصود به الإشارة، فكأين مثل كذا في كون المجرورين مبهمين عند السامع إلاَّ أنّ في ذا إشارة في الأصل إلى ما في ذهن المتكلّم بخلاف أيّ فإنه للعدد المبهم، فهي بمعنى كم الخبرية وتمييزها «مِنْ نبيّ» وتنو يه للتكثير. أي أنبياء كثيرون «قَاتَلَ مَعَهُ رِبيُّونَ كَثيرٌ» قال ابن عباس: جموع كثيرة. وقيل: الربيون: الألوف، وقيل: الربيّة. الواحدة عشرة آلاف، وقيل: ألف. وقيل: ربيُّون يعني فقهاء علماء، وقيل الربيُّون هم الأتباع. وفي قراءة «قُتِلَ» أي وكأين من نبيّ قُتل ممن كان معه وعلى دينه ربيون كثير «فَمَا وَهَنوا» ضعفوا أي الباقون «وما استكانُوا» لقتل من قتل من إخوانهم، بل مضوا على جهاد عدوّهم إعلاء لكلمة الله، ثم إنه تعالى مدح هؤلاء الربيين بصفات، وذلك قوله: «فَمَا وهَنُوا لِمَا أصَابهُمْ في سَبِيلِ الله» الخ.. ولا بُدّ من تغايرهما، فقيل: فما وهنوا عند قتل النبيّ، وما ضعفوا عن الجهاد بعده، وما استكانوا للعدو، أي لم يخضعوا له، وفيه تعريض بما أصاب المسلمين من الوهن والانكسار عند الارجاف بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، و بضعفهم عند ذلك عن جهاد الكفّار، واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبدالله بن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان، وقيل الوهن استيلاء الخوف عليهم، والضعف ضعف الإيمان، واختلاج الشبهات في صدورهم. والاستكانة الانتقال من دينهم إلى دين عدوّهم، وقيل: الوهن ضعف يلحق القلب، والضعف مطلقاً اختلال القوّة الجسميّة، والاستكانة إظهار ذلك العجز والضعف. واستكان قيل: افتعل من السكون كأنه سكن لصاحبه ليفعل به ما يريد و يؤيد هذا قوله: «والله يُحِبُّ الصّابِرِينَ» على الشدائد والمحن ومشقة الجهاد فيثيبهم

الجنّة عرفها لهم، ثم أخبر أن الربيين كانوا مستعينين عند ذلك بالتصبر والتجلّد بالدعاء والتضرّع وطلب الامداد والنصر من الله تعالى. والغرض أن تقتدى هذه الأمة بهم فقال: **«وما كانَ قَوْلَهُمْ إلاَّ أنْ قَالُوا ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذنُوبَنَا وإسْرافَنَا فِي أمْرِنا وثَبِّتْ أقْدامَنَا وانْصُرْنَا عَلى الْقَوْمِ الكافِرِينَ»** أى أنهم تجاوزوا الحد فى الإسراف، وهذا إيذان بأنَّ ما أصابهم كان لسوء فعلهم. لذا طلبوا مغفرة ذنوبهم قاطعين على أنفسهم القيام بالأعمال الصالحة. منها الجهاد فى سبيل الله، والنصر على القوم الكافرين. أى فهلا قُلتُم وفعلتُم مثل ذلك يا أصحاب محمّد؟! فكان من جزائهم أن **«فآتَاهُمُ الله ثوابَ الدنيا»** بالنصر والغنيمة والعزّ وحسن الذكر **«وحُسْنَ ثَوابِ الآخرةِ»** أى بالجنّة والنعيم المقيم **«والله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»** أى فيكثر لهم الثواب، وهم الذين يفعلون مثل ما فعل هؤلاء، وهذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يقولوا مثل هذا عند لقاء العدوّ، وفيه دقيقة لطيفة، وهى أنّهم لمّا اعترفوا بذنوبهم وكونهم مسيئين سمَّاهم الله تعالى محسنين. والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه. وهنا سرّ أيضاً وهو أنه تعالى وفقهم للطاعة، ثم أثابهم عليها، ثم مدحهم على ذلك فسَّماهُمْ محسنين ليعلم العبد أن الكل بعنايته وفضله.

((القول فى سبب نزول قوله تعالى :))

«سَنُلْقِي في قُلُوبِ الّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أشْرَكُوا بالله مَا لَمْ ينزّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأواهُمْ النَّارُ وبِئْسَ مَثْوَى الظّالِمِينَ»

سورة آل عمران (الآية: ١٥١)

فى الواحدى: قال السّدى: لمّا ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أُحد متوجّهينَ إلى مكّة، انطلقوا حتى بلغوا بعض الطريق، ثم إنهم ندموا وقالوا: بئس ما صنعنا، قتلناهم حتى إذا لم نبق منهم إلاَّ الشرذمة تركناهم، ارجعوا فاستأصلوهم، فلمّا عزموا على ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرعب حتى رجعوا عمّا همُّوا به، وأنزل الله تعالى هذه الآية* وفى الخطيب. وذلك أن الكفار لمَّا هزموا المسلمين فى أُحد أوقع الله الرعب فى قلوبهم فتركوهم وفروا منهم بغير سبب، حتى روى أن أبا سفيان صعد الجبل ـــ أى وهو منهزماً ـــ ونادى يا محمد: موعدنا موسم بدر القابل إن شئتَ، فقال عليه الصلاة والسلام: **«إنْ شاءَ الله»** ثم ذكر ما أورده الواحدى. بلفظ وقيل: إنهم لما ذهبوا منتصرين متوجهين إلى

مكة، فلما كانوا فى بعض الطريق ندموا الخ ...* وفى الطبرى عن السّدى قال: لمّا ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أُحد متوجهين نحو مكّة، انطلق أبو سفيان حتى بلغ بعض الطريق، ثم إنهم ندموا فقالوا: بئس ما صنعتم إنكم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم!. ارجعوا فاستأصلوهم، فقذف الله عزّ وجلّ فى قلوبهم الرعب، فانهزموا، فلقوا أعرابياً فجعلوا له جعلاً، وقالوا: إن لقيت محمّداً فأخبره بما قد جمعنا لهم، فأخبرا الله عزّ وجلّ رسوله صلى الله عليه وسلم فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد فأنزل فى ذلك: **«الّذِينَ اسْتَجابُوا للهِ والرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلّذِينَ أحْسَنُوا مِنْهُمْ واتّقَوْا أجْرٌ عَظِيمٌ* الّذِينَ قَالَ لَهُمْ النّاسُ»** ـ نعيم بن مسعود الأشجعى ـ **«إنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزادَهُمْ إيمَاناً وقَالُوا حَسْبُنَا الله ونِعْمَ الْوكيلُ* فانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ الله وفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوَانَ الله والله ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إنّمَا ذلِكُمُ الشيْطانُ يُخوّفُ أوْلِيَاءَهُ* فَلاَ تَخَافُوهُمْ وخَافُونِ إنْ كُنْتُمْ مُؤمِنينَ»** وستأتى هذه الآيات فيما بعد إن شاء الله تعالى. وأكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت فى موعد أبى سفيان فى بدر الصغرى، فلم يخرج إليها إذ وصل بجيشه إلى مرّ الظهران يريد بدراً الصغرى، فألقى الله فى قلبه الرعب، وذكر له أن نعيما بن مسعود الأشجعى كان معتمراً قاصداً المدينة، فجعل له عشر نياق على أن يثبط محمّداً وأصحابه عن الخروج إلى بدر الصغرى، فجاءهم وهم يتجهزون، وقال لهم: ماذا تفعلون؟ قالوا: نريد الخروج إلى أبى سفيان، فقال لهم: لقد غزاكم فى قعر داركم، فقتل منكم سبعين، ولم ينج منكم إلا من كان شريداً أو طريداً، فكيف تخرجون إليه وقد جمع لكم جموعاً؟! فتثبّط الكثير من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم عن الخروج، فقال عليه الصلاة والسلام [والله لأخرجن إليهم ولَوْ كنت وحدى] فخرج معه قرابة ثلاثمائة فارس، وجاؤا بدراً، ولم يأت أبو سفيان، فباعوا ما معهم من الذهاب فى السوق وربحوا الدرهم درهمين، وذلك قوله تعالى: **«فانْقَلَبُوا بِنعمِة مِنَ الله وفَضْلٍ لَمْ يمْسَسْهُمْ سُوءٌ واتّبعُوا رضوانَ الله ..»** وفى ابن كثير: وروى العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى: **«سَنُلْقِي فِي قُلُوب الّذِينَ كَفَروا الرُّعْبَ»** قال: قذف الله فى قلب أبى سفيان الرعب فرجع إلى مكة فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: [إنّ أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً، وقد رجع وقذف الله فى قلبه الرعب» رواه ابن أبى حاتم. والرعب: الخوف الشديد حتى رجعوا عما هموا به، فعلى هذا

القول يكون الوعد بالقاء الرعب فى قلوب الكفار مخصوصاً بيوم أحد، وقيل: إنه عام وإن كان السبب خاصّا لقوله صلى الله عليه وسلم: [نصرت بالرعب من مسيرة شهر] فكأنه قال: سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب منكم حتى تقهروهم و يظهر دينكم على سائر الأديان، وقد فعل الله ذلك بفضله وكرمه حتى صار دين الإسلام ظاهراً على جميع الأديان والملل كما قال الله تعالى: «**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**» وفى شرح المواهب. بعد ارتحالهم من أحد وقد نزلوا بملل ــ بوزن جبل ــ موضع قريب من المدينة، فقال بعضهم لبعض: ما صنعتم شيئاً فقد بقى من القوم وجوه ورؤساء يجمعون عليكم، فارجعوا لنستأصل من بقى، فقال بعض آخر منهم: لا تفعلوا، فإن الدولة لكم فلو رجعتم لربما كانت عليكم* وخرج صلى الله عليه وسلم فى أثرهم فى ستمائة وثلاثين على الصحيح وهم الذين شهدوا أُحداً حتى نزل بحمراء الأسد، وهو مكان على ثمانية أميال من المدينة فلم يدرك منهم أحداً. وتمام الكلام مبسُوط فى كتب المغازى والسير: وقوله تعالى: «**بِمَا أَشْرَكُوا**» أى إنما كان إلقاء الرعب فى قلوب الكافرين بسبب إشراكهم بالله وفيه وجهٌ معقول وهو أن الدعاء إنما يصير فى محل الاجابة عند الاضطرار كما قال: «**أَمَّنْ يُجِيبُ المضطرَّ إِذَا دعَاهُ**» ومن اعتقد أنّ لله شريكاً لم يحصل له الاضطرار لأنه يقول إن كانَ هذا المعبود لا ينصرنى فذاك الآخر ينصرنى فلا يحصل له الإجابة فيلزمهم الرعب والخوف هذا تقدير أن معبوديهم يصح منهم الاجابة كيف وإنهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً «**مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً**» حجة. أي لم ينزل الله بإشراكها حجة، وهو دليل على أنه واحد أحد لا شريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وعمّا يقوله المشركون والملحدون والزنادقة ظلماً وعدواناً «**وَمَأْوَاهُمْ**» أى المكان الذى يأوون إليه «**النّارُ وبئسَ مثْوىَ الظَّالِمِينَ**» مقام المشركين من ثوى بالمكان يثوى إذا أقام به.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنكُم مَنْ يُرِيدُ الدُّنيا ومِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخرةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ واللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المُؤْمِنينَ* إِذْ تُصْعِدُونَ ولاَ تلْوُونَ عَلى

أحَدٍ والرَّسُولُ يدعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فأثَابَكُمْ غمّاً بِغَمٍ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَـا فَاتَكُمْ ولا مَـا أَصَابَكُمْ والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون»

سورة آل عمران (الآية: ١٥٢، ١٥٣)

فى الواحدى : قال محمد بن كعب القرظى: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد. قال ناسٌ من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله بالنصر؟ فأنزل الله تعالى:«**ولقد صدَقكُمُ الله وعده..**» إلى قوله:«**منكُمْ مَنْ يريدُ الدنيا..**» يعنى الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أحد* وكذا فى الخطيب وغيره وقوله:«**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ الله وَعْدَهُ**» نزلت لما اجتمع المؤمنون بعد رجوعهم إلى المدينة، وقال بعضهم لبعض: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله بالنصر، وهو ما وعدهم على لسان نبيه حيث قال للرماة لا تبرحوا من مكانكم، ولن تزالوا غالبن ما ثبتم مكانكم، وقد كان كذلك، فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرمونهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلاً ذريعاً حتى قتلوا منهم فوق العشرين* وفى السمين فى قوله:«**بإِذْنِهِ**» متعلّق بمحذوف لأنه حال من فاعل تحسُّونهم أى تقتلونهم مأذوناً لكم* والمراد بإذنه: إرادته «**حتّى إذَا فَشِلْتُمْ**» جبنتم عن القتال. فى المصباح فشل فشلاً، فهو فشل من باب تعب، وهو الجبان الضعيف القلب. وفى حتى هذه قولاً: أحدهما أنها حرف جرّ بمعنى إلى، وفى متعلقها حينئذٍ ثلاثة أوجه: أحدها أنّها متعلقة بتحسُّونهم. أى تقتلونهم إلى هذا الوقت، والثانى: أنها متعلقة بصدقكم وهو ظاهر قول الزمخشرى حيث قال: ويجوز أن يكون المعنى صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم، والثالث: أنها متعلقة بمحذوف دلّ عليه السياق تقديره دام لكم ذلك إلى وقت فشلكم. القول الثانى: أنها حرف ابتداء داخله على الجملة الشرطيّة، وإذا على بابها من كونها شرطيّة، وفى جوابها حينئذٍ ثلاثة أوجه: أحدها، أنه وتنازعتم قال الفراء، وتكون الواو زائدة. والثانى أنه ثم صرفكم، وثم زائدة، وهذان القولان ضعيفان جداً. والثالث وهو الصحيح أنه محذوف. واختلفت عبارتهم فى تقديره، فقدره ابن عطية انهزمتم، وقدّره الزمخشرى، منعكم نصره، وقدّره أبوالبقاء بأن لكم أمركم. ودلّ على ذلك قوله: «**منكُمْ مَنْ يُريدُ الدُّنيا..**» وقدره غيره امتحنتُم، وقدّره بعضهم انقسمتُم إلى قسميْن.. والمعنى

على الأوّل. قد نصركم الله إلى حين كان منكم الفشل لأن وعدهم بالنصر كان مشروطاً بالثبات والصبر «**وتَنازَعْتُمْ في الأمْرِ**» أى الشأن، وذلك أن الرماة لما انهزم المشركون ونساؤهم يصعدن الجبل وكشفن عن سوقهن بحيث بدت خلاخلهنّ، قالوا: الغنيمة. فقال عبدالله بن جُبير: أمير الرماة، عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نبرح هذا المكان، فأبوْا عليه وذهبوا إلى طلب الغنيمة، و بقى عبدالله مع طائفة دون العشرة إلى أن قتلهم المشركون فهذا هو تنازعهم فى الأمر أى الشأن والقصة، أو بمعنى الأمر الذى يضاد النهى. أى تنازعتم فيما أمركم الرسول به، وعصيتم بترك ملازمة ذلك المكان «**مِنْ بَعْدِ ما أراكُمْ**» الله «**ما تحبُّونَ**» من النصر، وجواب إذا دلّ عليه ما قبله أى منعكم نصرهُ «**مِنكُمْ مَنْ يُريدُ الدنيا**» فترك المركز للغنيمة «**ومِنْكُمْ مَنْ يُريدُ الآخِرَة**» فثبت به حتى قتل كعبدالله بن جبير وأصحابه. وفى هذا تنبيه لهم على عظم شأن المعصية لأنهم لما شاهدوا أن الله أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية، فلما أقدموعليها سلبهم الله ذلك الاكرام وأذاقهم و بال أمرهم قوله: «**ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ**» قالت الأشاعرة: معنى هذا الصرف أنه تعالى ردَّ المسلمين عن الكفار، وحالت الريح دبوراً وكانت صباً، حتى وقعت الهزيمة على المسلمين، وقتل منهم من قتل، واستولى الكفرة. ولا يتوجّه عليهم إشكال، لأن من مذهبهم أن الخير والشرّ بإرادة الله تعالى وتخليقه، وأمّا المعتزلة فلم يرضوا بهذا التفسير، وقالوا: كيف يضيف الصرف بهذا المعنى إلى نفسه. والصرف عن الكفار معصية، وقد أضافها إلى الشيطان فى قوله: «**إنَّما استزَلَّهُمُ الشَّيطانُ ببعْضِ ما كسَبُوا**» وأيضاً أنه تعالى عاتبهم على ذلك الانصراف ولو كان بفعل الله لم يجز معاتبة القوم عليه كما لا يجوز المعاقبة على طولهم وقصرهم وصحتهم ومرضهم فعند ذلك ذكروا فى تأو يل الآية وجوهاً. قال الجبائى: إن الرماة كانوا فريقين: بعضهم فارق المكان أولاً لطلب الغنائم، و بعضهم، بقوا هناك إلى أن أحاط بهم العدوّ، وعلموا أنهم لو استمروا على المكث هناك لقتلهم العدوُّ ألا ترى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ذهب إلى الجبل فى جماعة من أصحابه فتحصنوا به. فلما كان ذلك الانصراف جائز أضافه الله إلى نفسه بمعنى أنه كان بأمره و بإذنه، ثم قال: «**ليبتليَكُمْ**» والمراد أنه تعالى لما صرفهم إلى ذلك المكان، وتحصّنُوا فيه أمرهم هناك بالجهاد والذبِّ عن بقية المسلمين، ولا شك أن الاقدام على الجهاد بعد الانهزام. و بعد أن شاهدوا فى تلك المعركة قتل اقاربهم

وأحبـائـهـم مـن أعظم أنواع الابتلاء. فاذنْ الآية مشتملة على المعذورين فى الانصراف، وعلى غير المعـذورين، فقوله: ((**ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ**)) يرجع إلى المعذورين، وقوله: ((**ولَقَدْ عَفَا عنكُمْ**)) يرجع إلى غير المعذورين، وسبب العفو ما علم من ندمهم على ما فرط منهم من عصيان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم* وقال الكعبيُّ ((**ثُمَّ صَرَفكُمْ عَنْهُمْ**)) بأن لم يـأمـركـم بمعاودتهم من فورهم ليبتليكم بكثرة الانعام عليكم والتخفيف عنكم* وقال أبـو مسـلـم الأصفـهـانى: المعنى من الصرف أنه تعالى أزال ما كان فى قلوب الكفار من الـرعـب مـن المسـلـمين عقوبة لهم على عصيانهم وفشلهم، ومعنى الابتلاء أنه جعل ذلك الـصـرف محنـة عـليهـم لـيـتـوبـوا عما خـالـفوا فيه أمره، ثم أعلمهم أنه قد عفا عنهم* قال الـقـاضى: ظاهر قوله تعالى: ((**ولقدْ عَفَا عنكُمْ**)) يقتضى تقدم ذنب منهم، فإن كان ذلك الـذنـب مـن الـصـغـائر صحّ أن يصف نفسه بالعفوعنهم من غير توبة. وإنْ كان من باب الكبائر فلا بد من اضمار توبتهم لقيام الدلالة على أن صاحب الكبيرة إذا لم يتب لم يكن مـن أهـل العفو* وقالت الأشاعرة: لا شكَّ أن ذلك الذنب كان من الكبائر لأنهم خالفوا صـريـح نص الرسول، وصارت تلك المخالفة سبباً لانهزام عسكر الإسلام، ولقتل جمّ غفير مـن الـصـحـابـة، ثم إنّ ظـاهـر الآيـة دلّ على أنه تعالى قد عفا عنهم من غير توبة لأنها غير مـذكـورة، فـصـارت الآية دليلاً على أنه قد يعفو عن أصحاب الكبائر* أى تفضلاً لما علم مـن نـدمـهـم على المخالفة، والندم قريب من التوبة إن لم نقل جزءاً منها ((**والله ذُوفَضْلٍ عَلى المؤمـنـينَ**)) بالعفو، أو هو متفضل عليهم فى جميع الأحوال سواء كانت الدولة لهم أو عـليهـم، لأن الابـتـلاء رحمـة، كما أن الـنـصـرة رحمـة، وقد يستدل بالآية على أن صاحب الـكـبيرة مؤمن لأنه سماهم مؤمنين خلافاً ما يقوله المعتزلة من أنه وسط بينهما أى لا مؤمن ولا كـافر. وقوله تعالى: ((**إذْ تُصْعِدُونَ**)) تبعدون فى الأرض هار بين من العدوّ يوم أحد، وهـو مـتـعـلـق بعفا والتقدير: ولقد عفا عنكم حين صعودكم هار بين فى الجبل، وقيل هو اسـتـئناف، أو ابتداء كلام لا تعلق له بما قبله، وقرأ الحسن تَصَعِدُون ـــ بفتح التاء ـــ من الـصـعود. وهو الارتقاء من أسفل إلى أعلى كالصعود على الجبل وعلى السُّلَّم، وللمفسرين فى معنى الآيـة قـولان: أحـدهما. أنه صعودهم فى الجبل عند الهزيمة، والثانى أنه الابعاد فى الأرض فى حال الهزيمة ووقت الحرب. وقوله: ((**ولاَ تلْوُونَ عَلَى أحدٍ**)) أى لا يقف أحد لأحد ولا ينتظره* أى لأن من شأن المنتظر أن يلوى عنقه نحو من يريد انتظاره ((**والرَّسُولُ**

يدعُوكُمْ فـيِ أُخْرَاكُمْ» عـبارة أبى السعود «**فيِ أُخْرَاكُمْ**» فى ساقتكم وجماعتكم الأخـرى. وفى البـيضاوى يقول: إلىّ عباد، الله إلىّ عباد الله، أنا رسول الله من يكرّ فله الجنـة* فـيحـتمل أنه صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم إلى نفسه حتى يجتمعوا عنده ولا يـتـفـرقـوا، وهو الأقرب. ويحتمل أنه كان يدعوهم إلى محاربة العدو وهو بعيد إذ لا يمكنهم تـلـك المحاربة وهم على حالهم تلك من التفرق والتولية، وقد صح أن القوم تقدموه منهزمين وبقى هـو صلى الله عـليه وسلم فى الجماعة المتأخرة «**فَأَثَابَكُمْ غمًّا بِغَمّ**» أى جازاكم غمَّ الهـزيمـة بسبب غمّكم للرسول بالمخالفة والهزيمة، وسميت العقوبة التى نزلت بهم ثواباً على سبـيـل المجـاز لأن لـفظ الثواب لا يستعمل فى الأغلب إلا فى الخير، وقد يجوز استعماله فى الشرّ لأنـه مأخوذ من ثاب إذا رجع، فأصل الثواب كل ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله سـواء كـان خيراً أو شرّاً، فمتى حملنا لفظ الثواب على أصل اللغة كان حقيقة، ومتى حملناه على الأغـلب كان مجازاً. كذا فى الخازن. وقيل الباء بمعنى على. أى مضاعفاً على غمّ فوق الـغـنـيمة «**لِكَيْلاَ**» لكىْ متعلّق بعفا، ولا من لكيلا نافية لا زائدة كما ذكر الجلال. أى عـفـا عـنـكـم لأجـل أن يـنتفى حزنكم «**تَحْزَنُوا عَلَى مـا فَاتَكُمْ**» من الغنيمة «**ولاَ مـا أَصَابكُمْ**» من القتل والهزيمة. وقد روى أنهم لما سمعوا بأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد قـتـل نَسُوا ما أصابهم وما فاتهم من الغنيمة «**والله خبيرٌ بِمَا تَعْمَلُون**» أى هو عالم بجميع أعمالكم خيرها وشرّها فيجازيكم عليها* والآيات فيما بعدها فى غزوة أحد.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَمـا كَـانَ لـنبـيٍّ أَنْ يَـغُـلَّ وَمَـنْ يَـغْـلُلْ يَـأْتِ بِـمَا غلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُـمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مـا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ* أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضوانَ اللهِ كَـمَـنْ بَـاءَ بِسَـخَـطٍ مِنَ اللهِ ومَأْوَاهُ جَـهَـنَّـمُ وبِـئْسَ الْـمَـصِـيرُ»

سورة آل عمران (الآية: ١٦١، ١٦٢)

في الـواحـدى: عـن ابـن عـبـاس قـال: فـقـدت قـطـيفة حمراء يوم بدر مما أصيب من الـمـشـركين، فـقـال أنـاسُ ــ أي مـن المنافقين ــ لعلّ النبي صلى الله عليه وسلم أخذها، فـأنـزل الله تـعـالى: «**وما كـانَ لـنَـبِـيٍّ أَنْ يَـغُـلَّ..**» قـلـت: والحديث أخرجه أبوداود والـتـرمـذي وقـال هـذا حـديث حـسن غريب. وقال قتادة: نزلت، وقد غلّ طوائف من

أصحابه* وقال الكلبيُّ ومقاتل: نزلت حين ترك الرماة يوم أحد طلباً للغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أخذ شيئاً فهو له، وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: [ظننتُم أنّا نغلّ ولا نقسم لكم] فأنزل الله هذه الآية* زاد الخطيب عما في الواحدى: وقال محمد بن اسحاق بن يسار. هذا في الوحى يقول: ما كان لنبيّ أن يكتم شيئاً من الوحى رغبة أو رهبة، أو مداهنة كان صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن، وفيه سبّ دينهم، وسبّ آلهتهم، فسألوه أن يترك ذلك فنزلت* وروى أنّه صلى الله عليه وسلم غنم في بعض الغزوات، وجمع الغنائم، وتأخرت القسمة لبعض الموانع، فجاء قوم وقالوا: ألا تقسم غنائمنا؟ فقال عليه السلاة والسلام: [لو كان لكم مثل أُحُد ذهباً ما حبستُ عليكم منه درهماً، أتحسبون أنى أغلكم مغنمكم] فنزلت «**وَمَنْ يَغْلُلْ يأتِ بِمَا غَلَّ يوْمَ القيامة**» وكل ما ذكر موجود في الخازن وابن كثير* وفي الزمخشرى: أنّه بعث طلائع فغنمت غنائم فقسمها ولم يقسم للطلائع، فنزلت. يعنى وما كان لنبى أن يعطى قوماً ويمنع آخرين، بل عليه أن يقسم بالسوية، وسمىّ حرمان بعض الغزاة غلولاً تغليظاً وتقبيحاً لصورة الأمر.

والغلول : هو الخيانة، وأصله أخذ الشيء في خفية يقال غلّ فلان يَغُلُّ ــ قرىء بفتح الياء وضم الغين ــ أي وما كان لنبىّ أن يخون. لأن النبوّة والخيانة لا يجتمعان ذلكم أن منصب النبوّة أعظم المناصب وأشرفها وأعلاها فلا تليق به الخيانة لأنها في نهاية الدناءة والخسّة، والجمع بين الضدين محال، فثبت بذلك أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يخن أمّته في شيء لا من الغنائم ولا من الوحى، وقيل: المراد به الأمّة لأنه قد ثبت براءة ساحة النبي صلى الله عليه وسلم من الغلول والخيانة. فدلّ ذلك على أن المراد بالغلول غيره. وقيل: اللام فيه منقولة معناه، ما كان لنبى ليغلّ على نفى الغلول عن الأنبياء* وقيل: معناه ما كان لنبى الغلول. أراد ما غلّ نبىّ قط، فنفى عن الأنبياء الغلول، وقيل: وما كان يحل لنبىّ الغلول، وإذا لم يحل لَهُ لم يفعله... وقرىء يُغَلُّ ــ بضم الياء وفتح الغين ــ ولها معنيان أحدهما أن يكون من الغلول أيضاً، ومعناه: وما كان لنبىّ أن يخان. أي تخونه أمّته. والثاني: أن يكون من الأغلال، ومعناه: وما كان لنبى أن يخون أي ينسب إلى الخيانة. الخازن* وقوله «**وَمَنْ يَغْلُلْ يأتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» حاملاً له على عنقه. روى الشيخان عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره حتى قال: [لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رغاء يقول يا رسول الله: أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حَمْحَحَةٌ، فيقول يا رسول الله: أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول يا رسول الله: اغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول يا رسول الله: أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً فقد أبلغتك] لفظ مسلم، الرغاء: صوت البعير، والثغاء: صوت الشاة، والصامت: الذهب والفضّة، وروى الشيخان عن أبي هريرة قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر، ففتح الله علينا، فلم نغنم ذهباً ولا ورقاً، غنمنا المتاع والطعام والثياب، ثم انطلقنا إلى الوادي. يعني وادي القرى، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد له، وهبه له رجل من جذام يدعى رفاعة بن زيد من بني الضبيب، فلما نزلنا الوادي قام عبد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلّ رحله، فرمى بسهم عائر فكان فيه حتفه، فقلنا: هنيئاً له، شملته الشهادة يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كلا، والذي نفس محمد بيده إنَّ الشملة لتلتهب عليه ناراً أخذها من الغنائم يوم خيبر، لم تصبها المقاسم] قال: ففزع الناس، فجاء رجل بشراك أو شراكين، فقال: أصبتها يوم خيبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [شراك من نار، أو شراً كان من نار] الشراك: سير النعل الذي يكون على ظهر القدم، والسهم العائر: هو السهم الذي لا يدرى من رماه، والأحاديث في وعيد الغلول والغال كثيرة يكتفى بما ذكر «**ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ**» الغال وغيره جزاء «**بِمَا كَسَبَتْ**» عملت، «**وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**» شيئاً، وجملة ثم توفى كل نفس... معطوفة على الشرطية، وفيها إعلام بأنَّ الغال وغيره من جميع الكاسبين لا بدَّ أن يجازوا، فيندرج الغال تحت هذا العموم أيضاً فكأنه ذكر مرتين* وفي السمين: قال الزمخشري: فإن قلت هلاَّ قيل، ثم يُوفى ما كسب ليتصل به. قلت: جيء بعام دخل تحته كل كاسب من الغال وغيره. فاتّصل به من حيث المعنى، وهو أثبت وأبلغ* أي كل نفس لا يظلمون شيئاً لأنّه عادل في حكمه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

« أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ* وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سبيل الله أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ* الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ المَوْتَ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ»

سورة آل عمران (الآية: ١٦٥ - ١٦٨)

في الواحدى: قال ابن عباس: حدثنى عمر بن الخطاب قال: لمّا كان يوم من العام المقبل عوقبُوا بما صنعوا يوم بدر من أخذه الفداء، فقتل منهم سبعون، وفرت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيّتُه، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله تعالى «**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ الله على كُلِّ شيء قَدِيرٌ**» إلى «**صادقين**»* وفي «**قُلْ هو مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ**» قال: بأخذكم الفداء كما عملت. أي «**أَوَلَمَّا**» أي حين «**أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ**» بأحد قتل سبعون منكم «**قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا**» ببدر بقتل سبعين وأسر سبعين «**قُلْتُم**» متعجبين «**أَنَّى**» أي من أين لنا «**هَذَا**» القتل والهزيمة، ونحن مسلمون ورسول الله فينا، والجملة الأخيرة في محل الاستفهام الانكارى. «**قُلْ**» لهم يا محمد «**هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ**» أي هو ممّا اقترفتهُ انفسكم من مخالفة الأمر بترك المركز. فإن الوعد كان مشروطاً بالثبات في المركز والمطاوعة في الأمر. أي لمّا خالفتم نبيّكم وكلتم لأنفسكم، روى عبيدة السلمانى عن عليّ رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: [إن الله قد كره ما صنع قومك من أخذهم الفداء من الأسارى، وقد أمرك أن تخيّرهم بين أن يُقدّمُوا ــ أي الأسارى ــ فتضرب أعناقهم و بين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عددهم] فذكرَ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

للناس، فقالوا: يا رسول الله عشائرنا وإخواننا، لا بل نأخذ منهم فداءهم، فنتقوّى به على قتال أعدائنا، و يستشهدُ منا عدّتهم، فقتل منهم يوم أحد سبعون عدد أسارى بدر، وهذا معنى قوله تعالى: «**هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ**» أي بأخذكم الفداء واختياركم للقتل «**إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيء قَدِيرٌ**» فيقدر على النصر وعلى منعه، وعلى أن يصيب منكم تارة، و يصيب منكم أخرى تأديباً لكم. «**وما أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ**» جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة «**فَبِإِذْنِ اللهِ**» أي فهو كائن بعلمه وقضائه وإرادته «**وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ**» أي يميز و يظهر للعيان ما كان في علمه الأزليّ «**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا**» المنافق من: يظهر كلمة الإيمان و يبطن الكفر. قال أبوعبيدة: مشتق من نافقاء اليربوع لأن جحر اليربوع لَهُ بابان: القاصعاء والنافقاء، فإن طلب من أيها يخرج من الآخر، فقيل للمنافق إنّه منافق، وهو اسم إسلامى لأنه صنع لنفسه طريقين، إظهار الإسلام، وإضمار الكفر، فمن أيها طلب خرج من الآخر، «**وَقِيلَ لَهُمْ**» أي وليظهر للعيان الذين قيل لهم، وهم الذين تفرقوا عن القتال، وقالوا: علام نقاتل، ونلق أنفسنا في القتل فيقتل بعضنا بعضاً فرجعُوا، وهم عبدالله بن أبيّ وأصحابه، وكانوا ثلاثمائة من جملة الألف، الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم «**تَعَالَوْا قَاتِلُوا فى سبيل اللهِ**» الكفار «**أَو ادْفَعُوا**» عنّا أى إن كان في قلبكم حبّ الإيمان فقاتلوا للدين، وإن لم تكونوا فقاتلوا دفعاً عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم لأن الكفار لا يفرقون في حربهم بين المنافقين والمؤمنين «**قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ**» أنكم تلقون حرباً «**لا تّبعناكُمْ**» ولكن لا تلقون قتالاً. قال الله تكذيباً لهم: «**هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ**» أي يوم إذ قالوا لو نعلم قتالاً لا تبعناكم «**أَقْرَبُ مِنْهُمْ للإيمان**» لانقطاعهم وارتدادهم، وما ذكروه من النفاق مؤذن بكفرهم. وقيل: المعنى على حذف مضاف. أي هم لأهل الكفر أقرب منهم لأهل الايمان. بما أظهرُوا من خذلانهم للمؤمنين بسبب أنهم كانوا «**يَقُولُونَ بأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فى قُلُوبِهِمْ**» أي يظهرون خلاف ما يضمرون، ولا تواطىء قلوبهم ألسنتهم بالإيمان، فهم وإن كانُوا يُظهرون الايمان باللسان لكنهم يضمرون في قلوبهم الكفر، ومما يدل على نفاقهم أنَّ إيمانهم موجودٌ في أفواههم فقط «**والله أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ**» في ضمائرهم من النفاق والحقد والحسد والعداوة والبغضاء، وبما يخلو به بعضهم إلى بعض فإنه يعلم ذلك مفصّلاً بعلم واحد. وأنتُم تعلمونه مجملاً بأمارات

«الَّـذِينَ قالُوا لإخوانِهِمْ» أي لأجل إخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد، أو إخوانهم بالنسب، أو في سكنى الدار، أو عداوة النبي صلى الله عليه وسلم **«وَقَعَدُوا»** حال مقدرة أي قالوا قاعدين عن القتال **«لَوْ أطَاعُونَا»** في القعُود **«ما قُتِلُوا»** كما لم نقتل. وأكثر المفسّرين على أن القائل ذلك هو أبيٌّ بن خلف وأصحابه **«قُلْ»** لهم **«فادْرَؤا»** ادفعوا **«عَنْ أنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين»** في أن القعود ينجي من الموت لأنكم إن دفعتم القتل الذي هو أحد أسباب الموت لم تقدروا على دفع سائر أسبابه المبثوثة، ولابُدّ لكم أن يتعلق بكم بعضها، روى أنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّـذِينَ قُتِلُوا فى سَبيل الله أمْوَاتاً بل أحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ و يَسْتَبْشِرُونَ بالَّـذِينَ لَمْ يلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ألاَّ خوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ الله وَفَضْلٍ وأنَّ الله لاَ يُضِيعُ أجْرَ الْمُـؤْمِنِـينَ»

سورة آل عمران (الآية: ١٦٩ - ١٧١)

في الواحدى: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمّا أصيب إخوانكم بأحد جَعَلَ الله أرواحهم في أجواف طير خضرٍ تردُ أنهار الجنّة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلّقة في ظل العرش، فلما وجدُوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا أنّا في الجنّة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا في الحرب، فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى **«ولاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سبِيلِ الله أمواتاً»** إلى **«لاَ يُضِيعُ أجْرَ الْمُؤْمِنِينَ»** وهو الصحيح. وقال جابر بن عبدالله: نظر إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [مالى أراك منكساً مهتماً؟ قلت: يا رسول الله قتل أبي وترك ديناً وعيالاً، فقال: ألاَ أخبرك؟ ما كلّم الله أحداً قط إلاَّ مِنْ وراء حجاب، وإنه كلّم أباك كفاحاً، فقال: عبدى سلنى أعطك، قال: أسألك أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية. فقال: إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون، قال: يارب فأبلغ من ورائى، فأنزل الله تعالى **«ولاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبيل الله أمواتاً..»**] قلت:

أخرجه ابن ماجه في سننه. والترمذي في جامعه، وقال: هذا حديث حسن غريب. وقال سعيد بن جبير: لمَّا أصيب حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير يوم أحد، ورأوا ما رزقوا من الخير، قالوا: ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير كى يزدادُوا في الجهاد رغبةً، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي البيضاوى: وقيل: نزلت في شهداء بدر أي وكانوا أربعة عشرة شهيداً ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين* إلاَّ أن المتعارف عند المفسرين اعتماداً على ما ذكره القاضى زكريا أن شهداء بدر نزل فيهم آية البقرة «**ولا تقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فى سَبِيلِ الله أمْواتٌ بَلْ أحْيَاءٌ عِنْدَ ربِّهِمْ يُرْزَقُونَ**»* وفي القرطبي: وقيل: نزلت في شهداء بئر معونة* وقيل: هى عامة في جميع الشهداء. قلت: وهو الصحيح لأنه خطاب عام يشمل كل من يقتل في سبيل الله إلى يوم الدين. وفي القرطبي أيضاً: وقال آخرون: إنَّ أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمةٌ وسرور تحسّروا، وقالوا: نحن في النعمة والسرور وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا في القبور، فأنزل الله هذه الآية، تنفيساً عنهم وإخباراً عن حال قتلاهم* قوله تعالى «**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ الله أمْواتاً**» الخطاب للرسول أو لكلّ أحد، ومن قرأ على الغيبة فالضمير للرسول. أو المراد لا يحسبنَّ حاسب. أو لا يحسبنّهم أمواتاً. والحسبان: هنا بمعنى الظنّ أي ولا تظنّن الذين قتلوا في سبيل الله لأجل دينه أمواتاً «**بَلْ**» هُمْ «**أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ**» أي ذو زلفى منه، فليس المراد القرب المكانى لاستحالته. ولا بمعنى فى علمه وحكمه لعدم مناسبة المقام له، بل بمعنى القرب شرفاً ورتبة وقوله «**يُرْزَقُونَ**» من ثمار الجنة. روى ابن عباس: أنه عليه الصلاة والسلام قال: [أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تردُ أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش] رواه أحمد وغيره. وقوله «**فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْله**» وهو شرف الشهادة وقبولها، والقرب من الله تعالى، والفوز بالحياة الأبدية، والتمتع بنعيم الجنّة «**وَيَسْتَبْشِرُونَ**» أي يفرحون، أو يستبشرون بما تبينَّ لهم من حسن حال إخوانهم الذين تركوهم، وهو أنهم عند قتلهم أو موتهم يفوزون بحياة أبدية لا يكدرها خوف وقوع محذور، ولا خوف فوات مطلوب كذا في أبي السعود. وقوله «**بالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ**» أي من إخوانهم الذين تركوهم أحياء في الدنيا على مناهج الإيمان والجهاد لعلّهم أنّهم إذا استشهدُوا التحقُوا بهم، ونالُوا من الكرامة ما نالُوا، فلذلك يستبشرون «**مِنْ خَلْفِهِمْ**» أي الذين من خلفهم زماناً أو

رتبة «أنْ» بأن «لاَ خوْفٌ عليهم» أي الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم «ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» في الآخرة على ما فاتهم من نعيم الدنيا، ومفارقتهم أهليهم وأموالهم. وفي ذكر حال الشهداء، واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على ازدياد الطاعة والجدّ في الجهاد، والرغبة في نيل منازل الشهداء، وإصابة فضلهم، وإحماد لحال من يرى نفسه في خير فيتمنّى مثله لإخوانه لأن الله تعالى مدحهم على ذلك وقوله «يستبشرونَ بنعْمةٍ مِنَ الله وَفَضلٍ» لما بين تعالى أنهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم، بين هنا أنهم يستبشرون لأنفسهم بما رزقوا من النّعيم، ولذلك أعاد لفظ الاستبشار، وهو الفرح التامّ، فلا يتوهم التكرير بتفسير الاستبشار بالفرح «وأنَّ الله لا يُضِيعُ أجْرَ المُـؤْمِنينَ» لمَّا ذكر إيصال الثواب العظيم إلى الشهداء. بيّن أن ذلك ليس مخصوصاً بهم، بل كل مؤمن يستحقُّ شيئاً من الأجر والثواب فإن الله تعالى يوصل ثوابه إليه ولا يضيّعه* وفي ابن كثير: قال: روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنّة تسرح أيضاً فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعدّه الله لها من الكرامة، وهو إسناد صحيح عزيز اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة: أصحاب المذاهب المتبعة. فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله عن الزهريّ، عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنّة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه] قوله (يعلق) أي يأكل وفي هذا الحديث: أن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنّة، أمّا أرواح الشهداء ــ فكما تقدم ــ في أجواف طير ــ وفي رواية: حواصل طير خضر ــ فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفسها* وهذا هو الصحيح لأن ما صح به النقل فهو الواقع، وما ذكره ابن كثير فهو نصّ يرفع الخلاف. وقد ذكر القرطبي في التذكرة: أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء والشهداء والعلماء والمؤذنين المحتسبين وحملة القرآن* فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على سنتهم، ويحشرنا تحت لواء سيّد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

وهل الشهيد يُغَسَّلُ و يُصَلّى عليه؟ : ذهب مالك والشافعي وأبوحنيفة والثوريّ إلى أن الشهداء يغسّلُون و يُصلى عليهم إلاّ قتيل المعترك في قتل العدوّ خاصّة، لحديث جابر، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: [ادفنوهم بدمائهم وثيابهم] وبهذا قال أحمد وإسحاق

والأوزعى وداود بن عليّ وجماعة فقهاء الأمصار، وأهل الحديث، وابن عليّة. وقال سعيد بن المسيّب والحسن يغسّلون: وقالوا: إنما لم تغسّل شهداء أحد لكثرتهم، والشغل عن ذلك. قال أبوعمر: ولم يقل أحد بقول سعيد والحسن هذا أحد من فقهاء الأمصار إلا عبدالله بن الحسن العبرى، وليس ما ذكروا من الشغل عن غسل شهداء أحد علّة، لأن كل واحد منهم كان له وليٌّ يشتغل به، و يقوم بأمره، والعلّة في ذلك ــ والله أعلم ــ ما جاء في الحديث في دمائهم [أنها تأتي يوم القيامة كريح المسك] فبان أن العلّة ليست الشغل كما قال من قال ذلك أما الصلاة عليهم. فذهب مالك والليث والشافعي وأحمد وداود إلى أنّه لا يصلى عليهم لحديث جابر المتقدّم، وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: أيها أكثر أخذاً للقرآن؟ فإذا أشير إلى أحدهم قدّمه في اللّحد وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة. وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يغسلّوا ولم يصل عليهم* وقال فقهاء الكوفة والبصرة والشام: يصلى عليهم. وروَوْا آثاراً كثيرة لا تخلوا من الضعف، بل أكثرها مراسيل منها أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على حمزة، وعلى سائر شهداء أحد، لكن أجمع العلماء على أن الشهيد إذا حمل حيًّا ولم يمت في المعترك، وعاش وأكل فإنّه يُصلّى عليه، كما قد صنع بعمر رضي الله عنه* واختلفوا فيمن قتل مظلوماً كقتيل الخوارج. وقطّاع الطريق وشبه ذلك. قال أبوحنيفة والثوريّ: كل من قتل مظلوماً لم يغسّل، ولكنّه يصلى عليه، وعلى كل شهيد، وهو قول سائر أهل العراق، ورووا من طرق كثيرة صحاح عن زيد بن صوحان، وكان قتل يوم الجمل، (لا تنزعوا عني ثوباً، ولا تغسلُوا عني دماً) وثبت عن عمّار بن ياسر أنه قال مثل قول زيد هذا، وقتل عمّار بن ياسر بصفّين، ولم يغسلْهُ عليٌّ كرم الله وجهه. وللشافعي في المظلوم قولان: أحدها: يغسّل كجميع الموتى إلاّ من قتله أهل الحرب، وهذا قول مالك: لا يغسل من قتله الكفار، ومات في المعترك. وكل مقتول بغير المعترك فإنه يغسّل و يصلى عليه، وهذا قول أحمد رضي الله عنهم جميعاً، والقول الآخر للشافعي: لا يُغسل قتيل البغاة، و يرجح قول مالك لأن غسل الموتى قد ثبت بالاجماع ونقل الكافّة، فواجب غسل كل ميت إلاّ من أخرجه إجماع أو سنّة. وهذه الآية تدل على عظيم ثواب القتل في سبيل الله، والشهادة فيه حتى أنّه يكفر الذنوب كما قال صلى الله عليه وسلم: [القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلاّ الدّيْن، كذلك قال جبريل آنفاً] وذكر الديْن تنبيه على ما في معناه

من الحقوق المتعلّقة بالذمم، كالغصب، وأخذ المال بالباطل، وقتل العمد وجراحه، وغير ذلك من التبعات، فإنَّ كل هذا أولى ألاّ يغفر بالجهاد، ومن الدّين فهو أشدُّ. والقصاص في كل هذا بالحسنات والسيآت حسبما وردت به السنة الثابتة. روى عبدالله بن أنيس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [يحشر الله العبادَ — أو قال الناسَ — وأومأ بيده إلى الشام عراةً عزلاً بهماً. قلنا: ما بُهْمٌ؟ قال: ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من قرب، ومن بعد: أنا الملك. أنا الديّان لاينبغى لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وأحدٌ من النّاس يطلبه بمظلمة حتى اللطمة. قال: قلنا: كيف وإنا نأتى الله حفاة عراة عزلاً؟ قال: بالحسنات والسيآت] أخرجه الحارث بن أبى أمامة وفي صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس من فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إنَّ المفلس من أمّتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، و يأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا. وأكل مال هذا، وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النّار] وقال عليه الصلاة والسلام: [والذي نفسي بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم أحيي، ثم قتل، ثم أحيي، ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنّة حتى يقضى عنه] وروى الترمذي عن المقداد بن مَعْدِ يَكْرِبَ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [للشهيد عند الله ست خصال] كذا في الترمذي وابن ماجه — (ستّ) وهي في العدد سبع كذا في حاشية السندى على سنن ابن ماجه — [يغفر له في أول دفعة، و يرى مقعده من الجنّة، ويجار من عذاب القبر، و يأمن من الفزع الأكبر، و يوضع على رأسه تاج الوقار. الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، و يزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين. و يشفع في سبعين من أقاربه] قال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وهذا الحديث كبيان للنعمة والفضل في قوله تعالى: «**يستبشِرُونَ بنعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ**» ومن كرامة الشهداء على الله تعالى أنّه جل جلاله يتولى قبض أرواحهم. روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [أكرم الله تعالى الشهداء بخمس كرامات لم يكرم بها أحداً من الأنبياء، ولا أنا. أحدها: أن جميع الأنبياء قبض أرواحهم ملك الموت، وهو الذي سيقبض روحى، وأما الشهداء فالله هو الذي يقبض أرواحهم بقدرته كيف يشاء، ولا يسلط على أرواحهم

ملك الموت. والثاني: أن جميع الأنبياء قد غسلوا بعد الموت، وأنا أغسّل بعد الموت، والشهداء لا يغسلون، ولا حاجة لهم إلى ماء الدنيا، والثالث: أن جميع الأنبياء قد كُفِنوا وأنا أكفن، والشهداء لا يكفّنون بل يدفنون في ثيابهم، والرابع: أن الأنبياء لمّا ماتُوا سُمُّوا أمواتاً، وإذا متُّ يقال مات، والشهداء لا يسمُّون موتى. والخامس: أن الأنبياء تعطى لهم الشفاعة يوم القيامة، وشفاعتى أيضاً يوم القيامة، وأما الشهداء فإنهم يشفعون في كل يوم فيمن يشفعون] القرطبي* وفي الطبرى: عن مسروق بن الأجدع قال: سألت عبدالله بن مسعود عن هذه الآيات «ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سبيلِ الله أمواتاً» قال: أما إنا قد سألنا عنها فقيل لنا: (إنَّه لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنَّة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فيطلع الله إليهم إطلاعة فيقول: عبادى ما تشتهون فأزيدكم. فيقولون: ربّنا لا فوق ما أعطيتنا الجنَّة نأكل منها حيث شئنا ثلاث مرات، ثم يطلع فيقول: يا عبادى ما تشتهون فأزيدكم، فيقولون: ربنا لا فوق ما أعطيتنا الجنة نأكل منها حيث شئنا. إلاَّ أنَّا نختار أن تردّ أرواحنا في أجسادنا ثم تردّنا إلى الدنيا فنقاتل فيك مرةً أخرى). وفي رواية مسروق: (إني قد قضيت أن لا ترجعُوا) وفي رواية محمود بن لبيد الأنصارى عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [الشهداء على بارق نهر بباب الجنَّة في قبّة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنَّة بكرة وعشيًّا] و بقية ما في التفاسير لا زيادة فيها عمَّا ذكر إلاَّ فى تغيير بعض الألفاظ والمعنى واحد.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أغنِياءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وقَتْلَهُمُ الأنبِيَاءَ بغَيْرِ حقّ ونَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيق* ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أيْدِيكُمْ وأنَّ الله لَيْسَ بِظَلاَّمٍ للعَبِيد»

سورة آل عمران (الآية: ١٨١، ١٨٢)

في الواحدى: قال محمد بن اسحاق: دخل أبوبكر الصدّيق رضي الله عنه ذات يوم بيْتَ مدارس اليهود، فوجد ناساً من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يُقال لَه فنحاص بن عازوراء، وكان من علمائهم، فقال أبوبكر لفنحاص: اتقِّ الله وأسلم، فوالله إنك لتعلَم

أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، فآمن وصدّق، وأقرض الله قرضاً حسناً يدْخلك الجنّة، و يضاعف لك الثواب، فقال فنحاص: يا أبا بكر، تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا، وَمَا يستقرض إلاَّ الفقير من الغنى، فإن كان ما تقول حقاً فإن الله إذن فقير، ونحن أغنياء، ولو كان غنياً ما استقرض أموالنا. فغضب أبوبكر رضي الله عنه، وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا و بينك لضربت عنقك، يا عدوّ الله. فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد انظر إلى ما صنع بى صاحبك؟ فقال: يا رسول الله إنَّ عدوَّ الله قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقيرٌ وأنّهم أغنياء، فغضبت لله وضربتُ وجههُ، فجحد ذلك فنحاص، فأنزل الله عز وجل ردّاً على فنحاص، وتصديقاً لأبى بكر: «**لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ فقيرٌ..**» وهذا فنحاص هو الذي قال: يد الله مغلولة، قاله شبل* وفي الخطيب: قال الحسن ومجاهد: لمّا نزل قوله تعالى «**مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً**» قالت اليهود: إنَّ الله فقير يستقرض منّا ونحن أغنياء، فأنزل الله تعالى «**لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ فَقِيرٌ ونحن أغنياء..**» وذكر الحسن أن قائل هذه المقالة حييُّ بن أخطب. وقال عكرمة: هو فنحاص بن عازوراء* وقال عكرمة والسدّى ومقاتل ومحمد بن اسحاق: كتب النبيُّ صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر الصديق إلى يهود بنى قينقاع يدعوهم إلى الإسلام، وإلى إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً. فدخل أبوبكر رضي الله عنه ذات يوم بيت مدارس اليهود ...الخ. ما فى الواحدى* وكذا في الطبرى: إلاَّ أنه بلفظ: فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحقّ من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، قال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنّه إلينا لفقير، وما نتضرّع إليه كما يتضرّع إلينا، وإنا عنه لأغنياء. ولو كان غنياً ما استقرض منّا كما يزعم صاحبكم، و ينهاكم عن الربا و يعطيناه، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبوبكر ...الخ. ما تقدم في الواحدى* و بلفظه في ابن كثير، وقال: رواه أبوحاتم، وفي الكرخي القائل ذلك: جماعة من اليهود منهم حييُّ بن أخطب وفنحاص بن عازوراء وكعب بن الأشرف* وفي المراغى: روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أتت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله تعالى «**مَنْ ذَا الَّذِى يقْرِضُ**

الله قَرْضاً حسناً» فقـالـوا: يا محمد، أفقيرٌ ربّكَ، يسألُ عباده القرض؟ نحن أغنياء، فأنزل الله «**لَقَدْ سَمِعَ..**» الآية، والحق أن النزول كان إلى قوله تعالى: «**وأنَّ الله لَيْسَ بظَلاَّمٍ لِلْعَبِيد**» وقوله تعالى «**لَقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الّذِينَ قَالُوا إنَّ الله فَقِيرٌ ونَحْنُ أَغْنِيَاءُ**» أي علمه وأحصاه، والمقصود من هذا تهديد القائلين ما ذكر، وإعلامهم أنّهم لا يفوتهم من جزائه شيء، وقد علمت أن هذه المقالة قد صدرت عن جمع من اليهود، ولا يخلوا إمّا أن يكونوا قالوا هذه المقالة عن اعتقاد لذلك القول، أو قالوها استهزاءً، وأيها كان فهذه المقالة عظيمة القبح لا تصدر عن عاقل، وإنما صدرت عن كافر متمرّدٍ في كفره وضلاله. وموسى عليه السلام لما طلب من اليهود الجهاد ببذل النفوس قالوا له «**إذْهَبْ أنْتَ وربُّكَ فقاتِلا..**» فلا يبعد أنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم لمّا طلب منهم الأموال قالوا له: لو كان الإله غنياً فأي حاجة إلى أموالنا، ثم إنَّ القائل لو كان فنحاص وحده فإنما يستقيم قوله «**لَقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الّذِينَ قَالُوا**» لأن اختبار الرجل والمقتدين به حكمهم حكمه، ثم إنّه تعالى لم يجبهم عن شبهتهم. إمّا على قول أهل السنة فبأن يقول: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، فلا يبعد أن يأمر عبيده ببذل المال مع كونه أغنى الأغنياء، وأمّا على قوانين المعتزلة: فبأن في هذا التّكليف فوائد، منها إزالة حبّ المال عن القلب، ومنها التوسّل إلى الثواب المخلّد، ومنها تسخير البعض للبعض، فبذلك ترتبط أمور التمدّن وتنتظم أحوال صلاح المعاش والمعاد، وإنما لم يجب لكثرة ورودها في القرآن «**لن تنالوا البرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّون**» «**مَنْ ذا الّذِى يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أضْعَافاً كثيرة**» ..الخ. ما هنالك من آيات في الموضوع. ولأن وجوب الوجود عبارة عن الغنى المطلق حتّى لا يحتاج في ذاته ولا في شيء من صفاته، ولا بجهة من جهاته إلى ما سوى ذاته، فمن اعترف بوجوب وجوده، ثم شك في كمال غناه في وجوده فقد عابه بالنقص على موضوعه، فلا يستحق الجواب عند أولى الألباب، وإنما يستأهل صنوف من العتاب، وضروباً من العذاب، فلهذا قال على جهة الوعيد «**سَنَكْتُبُ مٰا قَالُوا**» في صحائف الحفظة، أو نستحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه كما يثبت المكتوب فلا ينسى، وفي التفسير الكبير: سنكتب عنهم هذا الجهل في القرآن حتى يبقى على لسان الأمّة إلى يوم القيامة، ثم عطف عليه قتلهم الأنبياء فقال: «**وَ**» نكتب «**وَقَتْلَهُمُ الأنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ**» وذلك ليدل على أنهم كما لم يقدروا الله حقّ قدره حتى نسبُوا إليه ما نسبوه، فكذلك لم

يقضوا حقوق الأنبياء ففعلوا بهم ما فعلوا **«ونقولُ»** على لسان الملائكة **«ذُوقُوا عَذَابَ الحريق»** النار، و يقال لهم إذا ألقوا فيها **«ذَلِكَ»** العذاب **«بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ»** عبّر بها عن الانسان لأن أكثر الأفعال تزاول بها كالسبّ والقتل أي جعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب، وإن كان بعضه باللسان، أو بسائر الجوارح والآلات، وإنما جمع لأن المخاطب جمع، ولو كان مفرداً قيل: بما قدمت يداك مثنّى كما في سورة الحجّ قوله **«وأنَّ الله»** أي و بأن الله، فهوا معطوف على مدخول الباء **«لَيْسَ بِظَلاَّمٍ»** أي بذى ظلم **«للعبيد»** فيعذّبهم بغير ذنب، بل هو سبحانه وتعالى عادل، ومن العدل أن يعاقب المسيء و يثيب المحسن.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يأتِينَا بِقُرْبَانٍ تأكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بالبيناتِ وبالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إن كُنْتُمْ صادِقِين* فإنَّ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاؤا بِالبَيِّنَاتِ والزُّبُرِ والْكِتَابِ الْمُنِيرِ»

سورة آل عمران (الآية: ١٨٣، ١٨٤)

في الواحدى: قال الكلبيُّ: نزلت في كعب بن الأشرف. ومالك بن الصيف، ووهب بن يهوذا وزيد بن تابوه، وفنحاص بن عازوراء، وحييّ بن أخطب، أتو رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: تزعم أن الله بعثك إلينا رسولاً، وأنزل عليك كتاباً، وأن الله قد عهد إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئتنا به صدقناك فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي الخطيب: وقال السّدىّ: هذا الشرط جاء في التوراة ولكنه مع شرط آخر، وهو أن الله تعالى أمر بنى إسرائيل: من جاءكم يزعم أنه رسول الله فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار، حتى يأتيكم المسيح ومحمد، فإذا أتياكم فآمنوا بهما فإنهما يأتيان بغير قربان، وقيل: كان أمر المقربين ثابتاً إلى أن نسخت على لسان عيسى بن مريم، وعن ابن عباس في قوله تعالى **«حتّى يأتينا بقربانٍ تأكُلُهُ النّارُ»** قال: كان الرجل يتصدّق، فإذا تُقبّلَ منه أنزلت عليه نار من السماء فأكلته* وقيل: إنَّ ادعاء هذا الشرط كذب على التوراة، وهو من كذب اليهود

وتحريفهم، و يدل على ذلك أن المقصود في الدلالة على صدق النبيّ هو ظهور المعجزات الخارقة للعادة، فأيُّ معجزة أتى بها النبيُّ قبلت منه، وكانت دليلاً على صدقه، وقد أتى النبيُّ محمد صلى الله عليه وسلم بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه، فوجب على كافة الخلق اتباعه، والقربان: كل ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل من أعمال البرّ من نسك وصدقة وذبح وكل عمل صالح، و يدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: [الصوم جُنَّةٌ والصلاة قربان] يعني أنهما مِمَّا يتقرّب بها إلى الله عز وجل. وكانت القرابين والغنائم لا تحل لبني إسرائيل، وكانوا إذا قرّبُوا قرباناً، أو غنموا غنيمةً جمعوا ذلك، وجاءت نارٌ بيضاء من السماء لا دخان لها، ولها دويّ وحفيف، فتأكل ذلك القربان أو الغنيمة وتحرقه، فيكون ذلك دليلاً وعلامة على القبول، وإذا لم يقبل بقي على حاله، ولم تنزل نار* وقال عطاء: كانت بنو إسرائيل يذبحون لله فيأخذون الثروب وأطايب اللحم فيضعونها في وسط بيت والسقف مكشوف فيقوم نبيهم عليه السلام في البيت و يناجي ربه عز وجل، و بنوا إسرائيل خارجون حول البيت، فتنزل نار بيضاء لها دويّ وحفيف ..الخ. ثم قال تعالى «**قُلْ**» توبيخاً، وإقامة للحجة عليهم «**قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ**» بالمعجزات «**وبِالَّذِي قُلْتُمْ**» يعني ما طلبوا من القربان، وجاؤكم به كزكريا ويحي قتلتموهم، والخطاب لمن في زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإن كان الفعل لأجدادهم لرضاهم به «**فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُم إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**» في أنكم تؤمنون بالرسل عند الإتيان بالقرابين، وقد ذكر الله تعالى مجيء الرسل بالبينات ولم يقتصر على مجيء القربان ليتمَّ الإلزام وذلك أن القوم يحتمل أن يقولوا إن الاتيان بهذا القربان شرط النبوة لا موجب لها، والشرط يلزم من عدمه عدم المشروط لكن لا يلزم من وجوده وجود المشروط، فلوا اكتفى بذكر القربان لم يتم الإلزام، وحيث أضاف إليه البينات ثبت أنهم أتوا بالموجب و بالشرط جميعاً، فكان الأقرب بالنبوة واجباً، ثم سلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «**فإِنْ كَذَّبُوكَ**» في أصل الشريعة والنبوّة، أو في قولك إن الأنبياء الأقدمين جاؤهم بالبينات فقتلتموهم «**فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاؤا بالبيّنات**» المعجزات «**والزُّبُرِ**» كصحف إبراهيم والزُّبُر واحده زبُور، وكل كتاب فيه حكمة زبُورٌ، وأصله من الزبر: وهو الزجر، وسميّ الكتاب الذي في الحكمة زبوراً لأنه يزبر أي يزجر عن الباطل و يدعو إلى الحق، وهو بمعنى مذبور، أي مكتوب «**والكتَابِ المُنِيرِ**»

الواضح هو التوراة والإنجيل، وهو عطف خاص إن أريد بالزبر مطلق الكتب، وعطف مغاير إن أريد بها خصوص الصحف، وعطف الكتاب المنير على الزّبر لأن الكتاب بوصفه بالإنارة، أو بالاستنارة أشرف من مطلق الزبر، وأنّه نصّ بعد العموم لشرفه. مثل وملائكته وجبريل وميكال.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَتُبْلَوُنَّ فى أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشرَكُوا أَذًى كثيراً وإِنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ» سورة آل عمران (الآية: ١٨٦)

في الواحدى: ذكر المفسرون أن كعب بن الأشرف كان شاعراً، وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم، ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وأهلها أخلاط، منهم المسلمون ومنهم المشركون ومنهم اليهود، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يستصلحهم، فكان المشركون واليهود يؤذونه و يؤذون أصحابه أشدّ الأذى، فأمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ذلك، وفيهم أنزل الله **«ولَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الكِتابَ من قبلكم وَمِنَ الَّذِينَ أشركوا أذًى كثيراً..»** الآية* وقال عروة بن الزبير: أخبرني أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمارٍ على قطيفة فدكيّة، وأردف أسامة بن زيد، وسار يعود سعد بن عبادة في بنى الحرث بن الخزرج قبل وقعة بدر، حتى مرّ بمجلس فيه عبدالله بن أبيٍّ، وذلك قبل أن يسلم عبدالله بن أبيٍّ، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، وفي المجلس عبدالله بن رواحة، فلما غشى المجلس عجاجة الدّابة خمّر عبدالله بنى أبيّ أنْفه بردائه، ثم قال: لا تُغبروا علينا، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم وقف، فنزل ودعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن. فقال عبدالله بن أبيّ: أيها المرء إنه لا أحسن مما نقول إن كان فَلِمَ تؤذينا به في مجلسنا؟ ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فأقصص عليه. فقال عبدالله بن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك، واستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادُوا يتساورون فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يُخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم دابته وسار حتى دخل على سعد بن عبادة

فقال له: يا سعد ألم تسمع ما قال أبوحباب؟ يريد عبدالله بن أبيّ: قال: كذا وكذا، فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي نزل عليك، وقد أصلح أهل هذه البحيرة على أن يتوّجوه، و يعصبّوه بالعصابة، فلمّا رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرف بذلك، فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى «**ولتسمَعُنَّ مِنَ الَّـذِينَ أوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ومنَ الَّـذِينَ أشركوا أذًى كثيراً**». قلت: وأصل هذا في الصحيحين* وفي الخطيب: واختلف في سبب نزلو هذه الآية. قال ابن جريج والكلبيُّ ومقاتل: نزلت في أبي بكر وفنحاص، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر إلى فنحاص اليهودى ليستمدّه، وكتب إليه كتاباً، فجاء أبوبكر رضي الله عنه وهو متوشح بالسيف فأعطاه الكتاب، فلمّا قرأه قال: احتاج ربك إلى أن نمُدّه، فهم أبوبكر رضي الله عنه أن يضربه بالسيف فتذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: [لا تفتاتن عليّ بشيء ترجع] ونزلت* وقال الزهرى: نزلت في كعب بن الأشرف كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعره، و يسبُّ المسلمين، ويحرّض المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه في شعره، و يتشبّب بنساء المسلمين، حتى بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مَسْلَمَةَ وأصحابه فقتلهُ القتلة المشهورة كما في السير وصحيح الخبر، وهي: أن انطلق خمسة نفر من الأنصار فيهم محمد بن مسلمة، ورجل يقال له: أبوعبس، فأتوه وهو في مجلس قومه بالعوالى، فلما رآهم ذعر منهم، فأنكر شأنهم، وقالوا جئناك لحاجة، قال: فليدن إلى بعضكم فليحدثنى بحاجته، فجاءه رجل منهم: فقال: جئناك لنبيعك أدراعاً عندنا لنستنفق بها، فقال: والله لئن فعلتم لقد جهدتم منذ نزل بكم هذا الرجل، فواعدوه أن يأتوه عشاء حين هدأ عنهم الناس، فأتوه فنادوه، فقالت امرأته: ما طرقك هؤلاء ساعتهم هذه لشيء مما تحبُّ، قال: إنهم حدّثونى بحديثهم وشأنهم، قال معمر: فأخبرنى أيوب عن عكرمة أنه أشرف عليهم فكلمهم فقال: أترهنونى أبناءكم، وأراد أن يبيعهم تمراً، قال: فقالوا: إنا نستحى أن تعيير أبناؤنا، فيقال هذه رهينة وسق، وهذا رهينة وسقين، فقال: أترهنونى نساءكم؟ قالوا: أنت أجمل الناس ولا نأمنك، وأي امرأة تمتنع منك لجمالك، ولكنا نرهنك سلاحنا، فقد علمت حاجتنا إلى السلام اليوم، فقال: ائتونى بسلاحكم، واحتملوا ما شئتم، قالوا: فأنزل إلينا نأخذ عليك وتأخذ علينا،

فذهب ينزل فتعلّقت به امرأته وقالت: أرسل إلى أمثالهم من قومك يكونون معك. قال: لو وجدني هؤلاء نائماً ما أيقظوني، قالت: فكلّمهم من فوق البيت، فأبى عليها، فنزل إليهم يفوح ريحه، قالوا: ما هذه الريح يا فلان؟ قال: هذا عطر أمّ فلان. امرأته، فتقدم إليه بعضهم يشمّ رائحته، ثم اعتنقه، ثم قال: اقتلوا عدوَّ الله، فطعنه أبوعبس في خاصرته، وعلاه محمد بن مسلمة بالسيف فقتلوه، ثم رجعوا فأصبحت اليهود مذعورين، فجاؤا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: قُتِل سيّدنا غيلة، فذكّرهم النبي صلى الله عليه وسلم صنيعه، وما كان يحض عليهم، ويحرّض في قتالهم و يؤذيهم، ثم دعاهم إلى أن يكتب بينه و بينهم صلحاً، قال: فكان ذلك الكتاب مع عليٍّ رضي الله عنه» وقوله تعالى «**لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ**» اللام جواب القسم المقدّر، والنون دخلت مؤكدة وضمت الواو للساكنين، والتقدير: والله لتُبلَوُنَّ، أي لتختبرنَّ ما ينالهم من الفقر والضر والقتل والجرح والتكاليف الشاقة البدنية والمالية من الصلاة والزكاة والصوم والجهاد، والذي كانوا يسمعونه من الكفرة كالطعن في الدين الحنيف وأهله، وإغراء المخالفين وتحريضهم عليهم، وإغواء المنافقين وتنفيرهم عنهم «**وأنفسكم**» بالعبادات والبلاء «**وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ**» اليهود والنصارى «**وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا**» من العرب «**أَذًى كَثِيراً**» من السب والطعن، والتشبيب بنسائكم «**وَإِن تَصْبِرُوا**» على ذلك من قوله: لتبلونّ في أموالكم، «**فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عزم الأمور**» أي المذكور من الأمرين: الصبر والتقوى. قال الواحدى: كان هذا قبل نزول آية القتال، وقال القفال: الظاهر أنها نزلت بعد قصة أحد فلا تكون منسوخة بآيات السيف، والمراد الصبر على ما يؤذن به الرسول على طريق الأقوال الجارية فيما بينهم واستعمال مداراتهم في كثير من الأحوال، والأمر بالقتال لا ينافى الأمر بالمصابرة على هذا الوجه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا و يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»

سورة آل عمران (الآية: ١٨٨)

في الواحدى: قال أبوسعيد الخدري: إن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله صلى

الله عليه وسلم كان إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلّفوا عنه، فإذا قدم اعتذروا إليه، وحلفُوا وأحبّوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت «**لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا..**» الآية رواه مسلم عن الحسن بن عليّ الحلواني على بن أبي مريم* وفي الخطيب: يروى أنه صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شيء ممّا في التوراة، فكتموا الحقّ، وأخبروه بخلافه، وأروه أنهم قد صدقوا، وفرحوا بما فعلوا، فأطلع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ذلك، وسلاّه بما أنزل من وعيدهم، أي لا تحسبنّ اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك، ويحبّون أن يحمدُوا بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عمّا سألتهم عنه ناجين من العذاب* وقيل: هم المنافقون. فإنهم يفرحون بمنافقتهم، و يستحمدون إلى المسلمين بالإيمان الذين لم يفعلوه على الحقيقة. ويجوز أن يكون شاملاً لكل من يأتي بحسنة فيفرح بها فرح اعجاب، و يُحِبُّ أن يحمده الناس، و يثنوا عليه بالديانة والزهد بما ليس فيه* وفي القرطبي: وفي الصحيحين أن مروان: أي بن الحكم بن العاص، وكان يومئذ أميراً على المدينة من قبل معاو ية، قال لبوّابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له: لئن كان كل امرىء منا فرح بما أوتى، وأحبّ أن يحمد بما لم يفعل معذّباً لنعذبنّ أجمعون. فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما لكم ولهذه الآية!! إنما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس «**لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا و يُحِبُّونَ أن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا..**» وقال ابن عباس: سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد أروه أنه قد أخبروه بما سألهم عنه* وقال محمد بن كعب القرطبي: نزلت في علماء بني إسرائيل الذين كتموا الحق، وأتوا ملوكهم من العلم ما يوافقهم في باطنهم «**واشتروا به ثمناً قليلاً**» أي بما أعطاهم الملوك من الدنيا، فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم «**لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا و يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ من الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**» فأخبر أن لهم عذاباً أليماً بما أفسدوا من الدين على عباد الله* وقال الضحاك: إنَّ اليهود كانُوا يقولون للملوك: إنّا نجد في كتابنا أنَّ الله يبعث نبياً آخر الزمان يختم به النبوّة، فلمّا بعثه الله سألهم الملوك: أهو هذا الذي تجدونه في كتابكم؟ فقال اليهود طمعاً في أموال الملوك، هو غيره هذا فأعطاهم الملوك الخزائنَ فقال الله تعالى: «**لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا..**» الملوك من الكذب حتى يأخذوا عرض الدنيا* وقال عبيد بن

سليمان: سمعت الضحاك بن مزاحم يقول في قوله «لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا» فإنهم فرحوا باجتماعهم على كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقالوا: قد جمع الله كلمتنا، ولم يخالف أحدٌ منّا احداً أنه نبي، وقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن أهل الصلاة والسلام، وكذبُوا وهم أهل كفر وشرك وافتراء على الله تعالى يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا* وذكر الضحاك نحو هذا، وقال السّدى: إنهم كتموا اسم محمد صلى الله عليه وسلم، وفرحوا بذلك حين اجتمعوا عليه، وكانُوا يزكون أنفسهم فيقولون نحن أهل الصيام وأهل الزكاة، ونحن على دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى فيهم «لاَ تَحْسَبنّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا» من كتمان محمد صلى الله عليه وسلم. ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، أحبوا أن تحمدهم العرب بما يزكون أنفسهم، وليسوا كذلك. من القرطبي والطبرى* وقوله تعالى: «لاَ تَحْسَبَنَّ» بالتاء على الخطاب. أي لا تحسبن يا محمد الفارحين الذين يفرحون ..الخ. و بالياء على الغيبة، أي ولا يحسبنّ الفارحون. أي لا يحسبنَّ الذي يفرحون فرحهم منجياً لهم من العذاب «الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا» أي بما فعلوا من الكتمان وإضلال الناس «و يُحِبُّون أن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا» من التمسك بالحق وهم على ضلال «فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ» بالتاء والياء «بِمَفَازَةٍ» بمكان ينجون فيه «مِنَ الْعَذَابِ» في الآخرة بل هُمْ في مكان يعذبون فيه وهو جهنّم «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» مؤلم فيها* ونحن إذا انصفنا وجدنا أكثر مجارى أمورنا على هذ الحالة، فنسأله العصمة والهداية.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إنَّ فى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلاَفِ اللَّيْلِ والنَّهار لآيَاتٍ لأولى الألْبَابِ» سورة آل عمران (الآية: ١٩٠)

في الواحدى وابن كثير: عن ابن عباس قال: أتت قريس اليهود، فقالوا: ما جاءكم به موسى من الآيات؟ قالوا: عصاً و يده بيضاء للناظرين، وأتوا النّصارى، فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ فقالوا: يبرىء الأكمه والأبرص.ويحى الموتى، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: ادع لنا ربّك يجعل الصفا ذهباً، فأنزل الله «إنَّ في خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأرض واخْتِلاَف اللّيْلِ والنّهارِلآياتٍ..» الآية* وفي الخازن: قال ابن عباس: إن أهل مكة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية، فنزلت هذه الآية. وهكذا في

بقية التفاسير. وقوله تعالى «إنَّ في خلق السَّمٰوات والأرض» أي تفكروا واعتبروا أيها الناس فيما خلقته وأنشأته من السَّمٰوات والأرض لمعاشكم وأرزاقكم «**واخْتِلاَفِ اللّـيْلِ والنَّهارِ**» وفيما عقبت من ذلك بين الليل والنهار، واختلافهما في الطول والقصر، فجعلتهما يختلفان و يعتقبان عليكم لكى تتصرفوا فيهما لمعاشكم، تطلبون أرزاقكم في النهار وتسكنون في الليل لراحة أجسادكم، فاعتبروا وتفكرّوا في هذه الآيات «**يا أُولى الألْبَاب**» أي يا ذوى العقول الصافية أي الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، فيكون إيمانهم عن يقين لا عن تقليد، وإنما وقع الاقتصار على الدلائل السماوية لأنَّها أقهر وأبهر، والعجائب فيها أكثر، وانتقال النفس منها إلى عظمة الله أيسر.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«فاستَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أنّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فالَّذِينَ هَاجَرُوا وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وأُوذُوا فى سَبِيلِى وقَاتَلُوا وقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّآتِهِمْ ولأُدْخِلَنَّهُمْ جنَّاتٍ تَجْرى مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثّواب»

سورة آل عمران (الآية: ١٩٥)

في الواحدي: قالت أم سلمة رضي الله عنها يا رسول الله: لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله تعالى «**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُمْ مِنْ ذكرٍ أو أُنثى**» رواه الحاكم أبوعبدالله في صحيحه عن ابن عون محمد بن أحمد بن ماهان، عن محمد بن على بن زيد عن يعقوب بن حميد عن سفيان* قلت: وأخرجه على هذا النحو الترمذي وكذا رواه ابن كثير والخازن عن أم سلمة رضي الله عنها* وقوله «**فاسْتَجَابَ لَهُمْ ربُّهُمْ**» أي دعاءهم المذكور فيما سبق في هذه الآية من قولهم: «**سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار.**» الآيات* «**أنّى**» بأنّى هكذا قرأ أبيُّ رضي الله عنه، والباء سببية كأنه قيل فاستجاب لهم ربُّهم بسبب أنى لا أضيع عمل عامل، أي سنته مستمرة على ذلك، والالتفات إلى التكلم والخطاب لاظهار كمال الإعتناء بشأن الاستجابة وتشريف الداعين. قاله أبوالسعود، وقوله: فاستجاب أخصُّ من أجاب لأنَّه يفيد حصول جميع المطلوب لكثرة مبانيه، لأن كثرة المباني تدل على كثرة المعانى. و يعدّى

بنفسه و باللام، وقوله «**لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ**» كائن «**مِنْ بَعْضٍ**» أي الذكور والإناث و بالعكس، وهذه الجملة استئنافية جيء بها لتبين شركة النساء مع الرجال في الثواب الذي وعد الله به عباده العاملين، وهى في محلّ التعليل للتعميم في قوله «**مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى**» فكأنه قيل: إنما سوى بين الفريقين في الثواب لاشتراكهم في الأصل والدين. والمعنى كما أنكم من أصل واحد، وأن بعضكم مأخوذ من بعض فكذلك أنتم في ثواب العمل لا يثاب رجل عامل دون امرأة عاملة «**فالَّذِينَ هَاجَرُوا**» أي من مكة إلى المدينة «**وأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ**» بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله «**وأُوذُوا فى سبيلى**» أي ديني «**وقَاتَلُوا**» الكفار «**وقُتِلُوا**» أي استشهدوا في سبيل إعلاء كلمة الدين جزاء من جميع هذه الصفات «**لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سيِّآتِهِمْ**» أسترها بالمغفرة، وهو جواب قسم محذوف تقديره والله لأكفرن «**ولأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ثَواباً**» مصدر من معنى لأكفرن مؤكد له، أي ولأدخلنهم، فمعنى المجموع لأثيبنّهم، فيكون ثواباً مصدراً موافقاً في المعنى فكأنه قيل: لأثيبنّهم ثواباً، والثواب هنا بمعنى الإثابة التي هذ المصدر. وإن كان في الأصل هو المقدار من الجزاء «**مِنْ عِنْدِ اللهِ**» فيه التفات عن التكلّم «**واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَوابِ**» الجزاء وهو أن يرجع على العامل من جزاء عمله.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَروا فى الْبِلادِ* متَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ» سورة آل عمران (الآية: ١٩٦ - ١٩٧)

في الواحدي: نزلت في مشركى مكة، وذلك أنَّهم كانوا فى رخاء ولين من العيش، وكانوا يتجرون و يتنعمون، فقال بعض المؤمنين: إنَّ أعداء الله فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع والجهد، فنزلت الآية* وكذا في القرطبي والخازن. وقال: الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره من الأمّة لأنه صلى الله عليه وسلم لم يغترقط* وفي القرطبي: وقيل: للجميع، أى لا يغرّنك، أو لا يغرنكم سلامتهم بتقلبهم في أسفارهم* وفي الطبرى عن السّدى في قوله: «**لاَ يَغُرَّنَّكَ تقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فى البِلادِ**» يقول: ضربهم في البلاد، وإمهال الله إياهم مع شركهم وجحودهم نعمه، وعبادتهم غيره* وقال

قتادة في قوله: «لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى البِلادِ» والله ما غروا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم، ولا وكل إليهم شيئاً من أمر الله حتى قبضه الله على ذلك* وعبارة الخازن: لا يغرنك أيها السامع تقلب الذين كفروا في البلاد يعنى ضربهم في الأرض وتصرفهم في البلاد للتجارات وطلب الأرباح والمكاسب* وفي الغرائب في سبب نزول هذه الآية: وقيل: كانت اليهود تضرب في الأرض فتصيب الأموال فنزلت* والمراد بتقلبهم: تبسطهم وتصرّفهم في المكاسب والمزارع والمتاجر، ذلك التقلّب أو الكسب والربح متاع قليل في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة. أو في جنب ما وعد الله المؤمنين من الثواب، أو هو قليل في نفسه إذ لا نسبة لمدته إلى ما بين أمدى الأزل والأبد، ومع قلته سبب للوقوع في نار جهنّم أبد الآبدين والنعمة القليلة إذا كانت سبباً للمضرّة العظيمة لم تكن في الحقيقة نعمة* وقوله: «وَبِئْسَ الْمِهَادُ» الفراش هى. وهذه الآية كقوله تعالى: «مَا يُجادِلُ فِى آيَاتِ الله إلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يغررْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى الْبِلادِ» وقوله تعالى: «إنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلى الله الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ* مَتَاعٌ فِى الدّنيا ثُمَّ إلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمْ الْعَذَابَ الشّدِيدَ بِمَا كَانوا يكفُرون».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وإنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بالله وَمَا أُنْزِلَ إلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لله لا يشْتَرونَ بآيَاتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً أُولئكَ لَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَابِ» سورة آل عمران (الآية: ١٩٩)

في الواحدى والخازن: قال جابر بن عبدالله وأنس وابن عباس وقتادة: نزلت في النجاشي (ملك الحبشة واسمه أصمحه، وهو بالعربية عطيّة) وذلك لمّا مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: [اخرجُوا فصلُّوا على أخٍ لكم مات بغير أرضكم. فقالوا: ومن هو؟ قال: النجاشي] فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البقيع، وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة، فأبصر سرير النجاشي، وصلّى عليه وكبّر أربع تكبيرات، واستغفر له، وقال لأصحابه: استغفروا له. فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلى على علج حبشيّ نصرانيّ لم يره قط وليس على دينه، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي الخطيب:

وقال عطاء: نزلت في أربعين رجلاً من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانُوا على دين عيسى فآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم* وقال ابن جريج: نزلت في عبدالله بن سلاّم وأصحابه* وقال مجاهد: نزلت في مؤمنى أهل الكتاب* قوله تعالى: **«وإنَّ مِنْ أهْلِ الكِتَاب لَمَنْ يؤمِنُ باللهِ..»** يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان **«وَما أُنْزِلَ إليكُمْ»** أي و يؤمنون بما أنزل على محمد مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة **«وما أُنزِلَ إليْهِمْ خاشعِين للهِ»** أي مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه **«لا يشْتَرونَ بآيات اللهِ ثَمَناً قَليلاً»** أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكر صفته ونعته. وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم سواء كانوا هوداً أو نصارى. **«أولئكَ لَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ»** يؤتونه مرّتين كما في سورة القصص ففيها **«أولئكَ يُؤتَونَ أجْرَهُمْ مرّتين»** **«إنَّ اللهَ سَريعُ الْحِسَابِ»** يحاسب الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا، أو بيان سرعة وصول الأجر الموعود به إليهم. كذا في أبي السعود. فتكون به بشارة بسرعة حصول الأجر.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورابِطُوا واتّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» سورة آل عمران (الآية: ٢٠٠)

في الواحدي: قال مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير: حدّثنى داود بن صالح قال: (قال أبوسلمة بن عبدالرحمن: يا ابن أخى هل تدرى في أي شيء نزلت هذه الآية **«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورابِطُوا»**؟ قال: قلت: لا، قال: إنّه يا ابن أخى لم يكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ثغرٌ يُرابط فيه، ولكن انتظارُ الصلاة خلف الصلاة) رواه الحاكم أبوعبدالله في صحيحه* قلت: ولعل أبا سلمة احتج بقوله عليه الصلاة والسلام: [ألا أدلكم على ما يمحوا الله به الخطايا، و يرفع به الدرجاً، اسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذٰلكم الرباط ثلاثاً] قوله تعالى: **«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا»** يعنى على دينكم الذي أنتم عليه. ولا تدعوه لشدّة ولا لغيرها. وأصل الصبر حبس النفس عمّا لا يقتضيه شرع ولا عقل، والصبر لفظ عام تحته أنواع من المعانى، قال بعض الحكماء: الصبر ثلاثة أقسام:

ترك الشكوى، وقبول القضاء، وصدق الرضا* وقيل في معنى الآية: اصبروا على البلاء. وقيل: اصبرُوا على الجهاد. وقيل: اصبرُوا على أحكام الكتاب والسنة. «وصابِرُوا» يعني الكفار والأعداء وجاهدوهم، أي غالبوا أعداء الله في الصبر على شدائد الحرب، فلا يكونوا أشدَّ صبراً منكم «ورابِطُوا» أي أقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدّين للغزو، قال تعالى: «ومِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عدوَّ الله وعدوَّكُمْ» روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: [من رابط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه لا يفطر ولا ينفتل عن صلاته إلاَّ لحاجة] وفي الحديث الصحيح [رباط يوم في سبيل الله يعدل عبادة شهر] وروى الشيخان عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [رباط يوم في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها، وموضع سَوْطِ أحدكم من الجنّة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها] وروى مسلم عن سلمان الخير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان].

وقال أهل المعاني في معنى هذه الآية: يا أيها الذين آمنوا اصبروا على بلائى وصابروا على نعمائى، ورابطوا على مجاهدة أعدائى، واتّقوا محبّة سوائى لعلكم تفلحون بلقائى. وقيل: اصبروا على النعماء، وصابروا على البأساء والضراء، ورابطوا في دار الأعداء، واتقُوا إله الأرض والسماء لعلكم تفلحون في دار البقاء. وقيل: اصبروا على الدنيا ومحنها رجاء السلامة. وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة، ورابطوا على مجاهدة النفس اللّوامة، واتقوا ما يعقبكم الندامة لعلكم تفلحون غداً في دار الكرامة، من الخازن* والحق أن هذه الآية جامعة مشتلمة على كنوز الحكم والمعارف، وجامعة لآداب الدين والدنيا، وذلك أن أحوال الإنسان قسمان: الأول: ما يتعلق به وحده، فأمر فيه بالصبر، و يتدرج فيه الصبر على مشقة النظر والاستدلال في معرفة التوحيد والعدل والنبوة والمعاد والصبر على آداء الواجبات والمندوبات، والاحتراز عن المنهيات، والصبر على شدائد الدنيا وآفاتها ومخاوفها. الثاني ما يتعلق بالمشاركة مع أهل المنزل والمدينة، فأمر فيه بالمصابرة، و يدخل فيه تحمّل الأخلاق الرديئة من الأقارب والأجانب، وترك الانتقام منهم، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد مع أعداء الدين بالحجة و بالسيف، و باللسان، أو بالسنان،

ثم إنه لابُدّ للإنسان في تكلف أقسام الصبر والمصابرة من قهر القوى النفسانيّة البهيميّة، والسبعيّة الباعثة على أضداد ذلك، فأمر بالمرابطة من الربط: الشدّ، فكل من صبر على أمر فقد ربط قلبه عليه وألزم نفسه إيّاه، ثم لابد في جميع الأعمال والأقوال من ملاحظة جانب الحق حتى يكون معتداً بها، فلهذا أمر بتقوى الله، والآية على اختصارها فهى كالإعادة لما تقدم في هذه السورة من الأصول، وهي تقرير التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، ومن الفروع كأحكام الحج والزكاة والجهاد، وعن الحسن قال: اصبروا على دينكم فلا تتركوه بسبب الفقر والجوع، وصابروا عدوّكم فلا تفشلوا بسبب ما أصابكم يوم أحد* وقال الفراء: اصبروا مع نبيّكم وصابروا عدوكم فلا ينبغى أن يكون أصبر منكم* وقال الأصمّ: لما كثرت تكاليف الله تعالى في هذه السورة أمرهم بالصبر عليها، ولمّا كثر ترغيب الله تعالى في الجهاد فيها، أمرهم بالمصابرة مع الأعداء.

((سورة النِّساء وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها))

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

« بسم الله الرحمٰن الرحيم »

«وآتُوا الْيَتَامَى أمْوالَهُمْ ولاَ تتبدَّلُوا الْخَبِيثَ بالطيّب ولاَ تأكُلُوا أمْوَالَهُمْ إلى أمْوالِكُمْ إنَّه كَانَ حُوباً كَبِيراً»

سورة النِّساء (الآية: ٢)

في الواحدي: قال مقاتل والكلبيّ: نزلت في رجل من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم، فلمّا بلغ اليتيم طلب المال، فمنعه عمّه، فترافعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية، فلما سمعها العم، قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول، ونعوذ بالله من الحُوب الكبير، فدفع إليه ماله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [مَنْ يوق شح نفسه و يطع ربّه هكذا فإنه يحلُّ داره] يعنى جنته، فلمّا قبض الفتى ماله أنفقه في سبيل الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [ثبت الأجر و بقى الوزر. فقالوا يا رسول الله: قد عرفنا ثبت الأجر فكيف بقى الوزر وهوينفق في سبيل الله؟ فقال: ثبت الأجر للغلام و بقى الوزر على والده]، قلت: ولعله لم يخرج زكاة ماله أو كان مشركاً. والله أعلم* وما في الواحدى في الخازن، وفي الخطيب في قوله «وآتُوا» للأولياء والأوصياء، واليتامى جمع يتيم، وهو الصبى الذي مات أبوه، واليتيم في اللغة: الانفراد، ومنه الدرّة اليتيمة لانفرادها، واسم اليتيم يقع على الصغير والكبير لغة لبقاء الانفراد عن الآباء، لكن في العرف أختص اسم اليتيم بمن لم يبلغ مبلغ الرجال، فإذا بلغ الصبىُّ وصار يستغنى بنفسه من غيره زال عنه اسم اليتيم. وسئل ابن عباس عن اليتيم متى ينقطع عنه اسم اليتيم: قال: إذا أونس منه الرشد، وإنما سمّاهم يتامى بعد البلوغ على مقتضى اللغة، أو لقرب عهدهم باليتم، وإن كان قد زال عنهم بالبلوغ، وقيل المراد باليتامى: الصغار الذين لم يبلغوا. والمعنى: وآتُوا اليتامى أموالهم بعد البلوغ وتحقق الرشد، وقيل: معناه وآتوا اليتامى الصغار ما يحتاجون إليه من نفقة وكسوة* قال الخازن: والقول الأول هوالصحيح إذ المراد باليتامى البالغون لأنه لا يجوز دفع المال إلى اليتيم إلاّ بعد البلوغ وتحقق الرشد* قلت: وفي الحديث [تستأمر

اليتيمة في نفسها ولا تستأمر إلا وهي بالغة] وعلى هذا يكون في الآية إشارة إلى أن لا يؤخر دفع أموالهم عن حدّ البلوغ، ولا يمطلوا إن أونس منهم الرشد. وقوله تعالى **«ولاَ تَتَبَدَّلُوا الخبيث بالطيب»** قال الفراء والزجاج: أي لا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم وما أبيح لكم من المكاسب. ورزق الله المبثوث في الأرض فتأكلوه مكانه* وفي الطبرى: عن ابراهيم **«ولا تتبدّلوا الخبيثَ بالطيب»** كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم، ويجعل مكانها الشاة المهزولة. و يقول: شاة بشاة، و يأخذ الدرهم الجيد، و يطرح مكانه الزيف. و يقول درهم بدرهم* لكن قال مجاهد: **«ولاَ تتبَدَّلُوا الخبيثَ بالطيبب»** لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الحلال الذي قدر لك وقوله **«ولاَ تأكُلُوا أموالهم إلى أموالكم»** إلى بمعنى مع أي مع أموالكم، وقيل معناه، ولا تضمُّوا أموالهم إلى أموالكم في الانفاق. واعلم أن الله تعالى نهى عن أكل مال اليتيم، وأراد به جميع التصرّفات المهلكة للمال، وإنما ذكر الأكل لأنه معظم المقصود. خازن. والآية كقوله **«مَنْ أنْصَارِى إلى الله»** أي مع الله، أي ألا تنفقوها معاً، ولا تسووا بينها، فأكلكم أموالكم حلال لكم، وأكلكم أموالهم حرام عليكم، فلا يحل لكم من أموالهم ما زاد على قدر الأكل من أجرتكم ونفقتكم* وفي الخطيب: فإن قيل: قد حرّم الله عليهم أكل مال اليتيم وحده ومع أموالهم، فلم ورد النهيُ عن أكله معها؟ أجيب بأنهم كانُوا يفعلون كذلك، فأنكر عليهم فعلهم، وسمع بهم ليكون أزجر لهم، ولأنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال، وهم مع ذلك يطمعون فيها، كان القبح أبلغ، والذمّ أحقّ* وقوله **«إنَّه»** أي أكلها **«كَانَ حُوباً»** أي ذنباً **«كبيراً»** عظيماً، أي فهو من الكبائر. قال الحسن: لمّا نزلت هذه الآية في أموال اليتامى كرهُوا أن يخالطوهم، وجعل وليُّ اليتيم يعزل مال اليتيم عن ماله. فشكوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى **«يسألُونَك عَنِ اليتامى قُلْ إصْلاحٌ لَهُمْ خيرٌ وإنْ تُخَالِطُهُمْ فإخْوَانُكُمْ»** قال: فخالطوهم واتقّوا.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تُقْسِطُوا في الْيَتَامَى فانكِحُوا ما طابَ لكُمْ مِنَ النّساءِ مثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ فإنْ خِفْتُم ألاَّ تعْدِلُوا فَواحِدَةً أوْ ما مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أدْنَى ألاَّ تعُولُوا وآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلةً فإنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شيءٍ منْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مريئاً»

سورة النِّساء (الآية: ٣، ٤)

في الواحدي: عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزلت هذه في الرجل يكون له اليتيمة وهو وليُّها، ولها مال، وليس لها أحد يخاصم دونها، فلا يُنكحها حباً لمالها. و يضربها و يسيء صحبتها، فقال الله تعالى: **«وإنْ خِفْتُم ألاَّ تُقْسِطوا فى اليتامى..»** يقول: ما أحللت لك ودع هذه. رواه مسلم عن أبي كريب عن أبي أسامة عن هشام* وقال سعيد بن جبير وقتادة والربيع والضحاك والسّدى: كانوا يتحرّجون عن أموال اليتامى، و يترخصون في النساء، و يتزوَّجونَ ما شاؤا، فربما عدلوا، وربما لم يعدلوا. فلما سألوها عن اليتامى ــ نزلت آية اليتامى ــ **«وآتوا اليتامى أموالهم»** الآية أنزل الله تعالى أيضاً **«وإنْ خفتُم ألا تقسطوا في اليتامى»** الآية، فكذلك فخافوا في النساء أن لا تعدلُوا فيهنَّ، فلا تتزوجوا أكثر ما يمكنكم القيام بحقهنَّ لأن النساء كاليتامى في الضعف والعجز. وهذا قول ابن عباس في رواية الوالبي* وفي الخطيب: عن شعبة عن سماك قال: سمعتُ عكرمة يقول في هذه الآية: **«وإنْ خِفْتُم ألاَّ تقْسِطُوا في اليتامى ..»** قال: كان الرجل من قريش يكون عنده النسوة و يكون عنده الأ يتام، فيذهب ماله، فيميل إلى مال الأ يتام، قال: فنزلت هذه الآية* وفي رواية عنه قال: كان الرجل يتزوّج الأ ربع والخمس والست والعشر، فيقول الرجل ما يمنعنى كما تزوّج فلان، فيأخذ مال يتيمه فيتزوّج به. فنهوا أن يتزوَّجوا فوق الأ ربع* وعن طاوس عن ابن عباس قال: قصر الرجل على أربع من أجل أموال اليتامى* ونحوه بقيّة الأقوال **«وإن خِفْتُم ألاَّ تُقْسِطُوا في اليتامى»** أي وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهن إذا نكحتُموهن فانكحوا الغرائب **«فانكِحُوا ما طَاب لكُمْ مِنَ النِّساء»** يعنى ما حلّ لكم من النِّساء* قال الخازن: الظاهرية على وجوب النكاح، قالوا: إن قوله **«فانكِحُوا»** أمر، والأمر للوجوب،

وأجيب عنه بأن قوله تعالى «**فانكِحوا**» إنما هو بيان لما يحلُّ من العدد في النكاح* وتمسك الشافعي في بيان أنَّ النكاح ليس بواجب بقوله «**ومَنْ لمْ يستطع منكُمْ طوْلاً أن ينكح**» إلى قوله «**ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ العَنَتَ منْكُمْ وإن تصْبرُوا خيرٌ لكم**» الآية. فحكم في هذه السورة بأن ترك النكاح خير من فعله، وذلك يدل على أنّه ليس بواجب ولا مندوب، والاقساط: العدل، وقرىء بفتح التاء فقيل: هو من قسط أي جار ولا مزيدة كما في قوله «**لئلا يعلَمَ**» وقيل: هو بمعنى أقسط فإن الزجاج حكى أن قسط يستعمل استعمال أقسط، والمراد بالخوف العلم كما في قوله تعالى «**فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً**» عبر عنه بذلك إيذاناً بكون المعلوم مخوفاً محذوراً، وهو شروع في النهى عن منكر آخر، كانوا يباشرونه متعلق بأنفس اليتامى أصالة، و بأموالهم تبعاً عقيب النهى عما يتعلق بأموالهم خاصة، وتأخيره عنه لقلّة وقوع المنهى عنه بالنسبة إلى الأ ول وتنزيله منه منزلة المركب من المفرد، وذلك أنهم كانوا يتزوَّجون من يحل لهم من اليتامى اللاتى يلونهن لكن لا لرغبة فيهنَّ، بل في مالهنَّ، و يسيئون في الصحبة والمعاشرة، و يتربصون بهن الموت ليرثوهن، وهذا قول الحسن. وقيل هي اليتيمة تكون في حجر وليّها فيرغب في مالها وجمالها، و يريد أن ينكحها بأدنى من سُنَّةِ نسائها فنهوا أن ينكحوهن إلاَّ أن يقسطوا لهنَّ في إكمال الصَّداق. وأمرُوا أن ينكحوا ما سواهُنَّ من النِّساء، وهذا قول الزهرى* وفي رواية عن عروة عن عائشة رضي الله عنها. أبو السعود* وقوله «**ما طَابَ لكم**» في ما هذه أوجه:

أحدها: أنها بمعنى (الذي) وذلك عند من يرى أن ما تكون للعاقل، وهي مسئلة مشهورة، قال بعضهم: وحسن وقوعها هنا أنها واقعة على النساء، وهنَّ ناقصات العقول، و بعضهم يقول هي لصفات من يعقل، و بعضهم يقول لنوع من يعقل. كأنه قيل: النوع الطيّب من النساء، وهي عبارات متقاربة، فلذلك لم يعدها وجها.

الثاني: أنها نكرة موصوفة، أي انكحوا جنساً طيباً وعددا طيباً.

الثالث: أنها مصدريّةٌ. وذلك المصدر واقع موقع اسم الفاعل إن كانت ما مفعولاً بانكحوا.

وقوله «**مِنَ النِّساءِ**» من بيانية، وقيل: تبعيضيَّة، والمراد بهنَّ غير اليتامى بشهادة قرينة المقام. أي ما استطابتها نفوسكم من الأجنبيات وقوله «**مَثْنَى وثُلاثَ وَرُبَاعَ**» أي

اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً وذلك أن الواو في قوله «**مَثْنَى وثُلاث..**» ليست للعطف كما أوضح ذلك في الكشاف، أي ولا تزيدُوا على الأربعة، وهذا هو المقصود بالسياق. وأمَّا إباحة الأربعة فمادونها فكان معلوماً من قبل، فالمقصود المنع والنهى عن الزيادة، وقوله «**فإنْ خِفْتُمْ ألاّ تَعْدِلُوا**» فيهن بالنفقة والقسم «**فَوَاحِدَةً**» أنكحوها «**أوْ**» اقتصروا على «**ما مَلكَتْ أيْمانُكُمْ**» من الاماء إذ ليس لهنَّ من الحقوق ما للزوجات، وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز لأحد أن يزيد على أربع نسوة، وان الزيادة على أربع من خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم التي لا يشاركه فيها أحد من الأمة، ويدل على أن الزيادة على أربع غير جائزة وأنها حرام ما روى عن الحرث بن قيس، أو قيس بن الحرث، قال: أسلمت وعندى ثمان نسوة. فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [اختر منهنَّ أربعاً] أخرجه أبوداود* وعن ابن عمر أن غيلان بن سملة الثقفى أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية فأسلمن معه، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختار منهنَّ أربعاً. أخرجه الترمذي* قال العلماء: فيجوز للمرء أن يجمع بين أربع نسوة حرائر، ولا يجوز للعبد أن ينكح أكثر من امرأتين. وهو قول أكثر العلماء، لأنه خطاب لمن ولى وملك وذلك للأحرار دون العبيد، وقال مالك في إحدى الروايتين عنه وربيعة: يجوز للعبد أن يتزوّج بأربعة نسوة، واستدل بهذه الآية، وأجاب الشافعى بأن هذه الآية مختصة بالأحرار، ويدل عليه آخر الآية، وهو قوله «**فإن خِفْتُمْ ألاّ تعدِلُوا فواحِدةً أوْ ما مَلكَتْ أيْمَانُكُمْ**» والعبد لا يملك شيئاً فثبت بذلك أن المراد من حكم الآية الأحرار دون العبيد.

فيكون المعنى : فإن خفتم الأربع فثلاثاً، وإن خفتم فاثنتين، وإن خفتم فواحدةً، فمن قرأ بالنصب، أراد فاختارُوا، أو انكحُوا، أو الزمُوا الواحدة، ومن قرأ بالرفع أراد فكفت واحدة، أو فحسبكم واحدة، وذروا الجمع، والأمر كله يدور مع العدل، فأينما وجدتموه فعليكم به، ثم قال: «**أوْ ما مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ**» فسوى في السهولة بين الحرة الواحدة وبين ما شاء من الإماء لأنهنَّ أقل تبعة وأخف مؤنةً من المهائر أي الزوجات الحرائر ذوات المهور، ولا مؤاخذة عليه عدل بينهنّ أم لم يعدل، عزل عنهن أم لم يعزل، ولمّا كانت التسوية بينها وبينهنَّ احتج بها الشافعى في بيان أن نوافل العبادات أفضل من النكاح لأن الزائد على أحد المتساويين يكون زائداً على المساوى الآخر* وقوله «**ذَلِكَ**

أدْنَى ألاَّ تَعُولُوا» أي اختيار الواحدة. أو التسرى أقرب أن لا تميلوا، أو لا تجوروا، وكلا اللفظين مروى عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم من قولهم: عال الميزان عولاً إذا مال، وعال الحاكم في حكمه إذا جار، ومنه عالت الفريضة إذا زادت سهامها، وفيه الميل عن الاعتدال، وقيل معناه أن لا تفتقروا. ورجل عائل أي فقير، وذلك أنّه إذا قلّ عياله قلّتْ نفقاته، فلم يفتقر، ونقل عن الشافعى أنّه قال: معناه أن لا تكثر عيالكم، وطعن فيه بعض القاصرين بأن هذا في اللغة معنى تعيلوا لا معنى تعولوا، يقال: أعال الرجل إذا كثر عيالُه، ومنه قراءة طاوس: أن لا تعيلوا، وأيضاً أنه لا يناسب أول الآية: «وإنْ خِفْتُمْ أن لا تقسطوا» وأيضاً هب أنه يقل العيال في اختيار الحرّة الواحدة، فكيف يقول عند اختيار التسّرى ولا حصر لهنّ* والجواب عن الأول: أن الشافعى لم يذهب إلى تفسير اللغة، وإنما زعم أنه تعالى أشار إلى الشيء بذكر لازمه. أي جعل الميل والجوْر كناية عن كثرة العيال لأن كثرة العيال لا تنفك عن الميل والجور* وقوله تعالى: «وآتوا النِّساءَ صَدُقَاتِهِنَّ» أي مهورهنَّ، والخطاب للأزواج وهو قول علقمه وقتادة والنخعى، واختيار الزجاج، لأن ما قبله خطاب للناكحين. وقيل الخطاب للأولياء لأن العرب كانت في الجاهلية لا تعطى البنات من مهورهنّ شيئاً ولذلك كانُوا يقولون لمن ولدت له ابنة: هنيئاً لك النافجة. يعنون أنك تأخذ مهرها إبلاً فتضمها إلى إبلك فتنضج مالك، أي تعظمه، وقال ابن الأعرابى: النافجة ما يأخذه الرجل من الحلوان إذا زوّج ابنته، فنهى الله عن ذلك، وأمر بدفع الحق إلى أهله، وهذا قول الكلبىّ وأبى صالح، واختيار الفراء وابن قتيبة، قال القفال: يحتمل أن يكون المراد من الايتاء المناولة، فيكون قد أمر بدفع المهور التي سمّوها لهنّ، ويحتمل أن يراد الالتزام كقوله «حتّى يُعطُوا الجزْية عن يَدٍ» أي حتى يضموها و يلتزموها. فيكون المعنى أن الفروج لا تستباح إلا بعوض يلتزم سواء سمّى ذلك أو لم يسمّ إلاّ ما خصّ به الرسول صلى الله عليه وسلم من الموهوبة. قال: ويجوز أن يراد الوجهان جميعاً* أمّا قوله «نِحْلةً» أي عطيّة وهبة قال الكلبىّ: فيكون مفعولاً له أو حالاً من الخاطبين. أي آتوهُنَّ ناحلين طيبّى النفوس بالاعطاء من غير مطالبة منهنَّ لأن ما يؤخذ بالمطالبة لا يُسمّى نحلة، أو حالاً من الصدقات أي ديناً من الله شرعه وفرضه، وإنما سميت عطية من الزوج لأن الزوج لا يملك بدله شيئاً لأن البضع في ملك المرأة بعد النكاح كهو قبله، وإنما استحقه الزوج هو

الاستباحة لا الملك والنحلة العطية من غير بدل. وقال قوم: إن الله تعالى جعل منافع النكاح من قضاء الشهوة والتوالد مشتركاً بين الزوجين، ثم أمر الزوج بأن يؤتى الزوجة المهر. وكان ذلك عطية من الله تعالى ابتداء، وقوله «فإن طِبْنَ» يعنى النساء المتزوجات «لكُمْ» يعنى الأزواج «عَنْ شيءٍ» منه يعنى من الصداق. ومن هنا لبيان الجنس لا للتبعيض لأنها لو وهبت المرأة لزوجها جميع صداقها جاز «نَفْساً» نصب على التميز أي فإن طابت نفوسهنَّ عن شيء من ذلك الصداق المعين فوهبن ذلك لكم فنقل الفعل من النفوس إلى أصحابها فخرجت النفس مفسّراً فلذلك وحّد النفس. وقيل: لفظه واحد ومعناه الجمع «فكلُوهُ» يعنى ما وهبته لكم «هَنِيئاً مَرِيئاً» أي طيباً سائغاً، وهما صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه، وقيل: الهنيء: ما يستلزه الآكل، والمريء: ما تحمد عاقبته. وقيل: هوما ينساغ في مجراهُ، والمراد إباحة ذلك* وذهب صاحب الغرائب: أن قوله «مِنْهُ» للتبعيض اخراجاً للكلام مخرج الغالب مع فائدة البعث المذكور لأنه لا يجوز هبة كل الصداق إذا طابت نفسها عن المهر بالكليّة. قال: ومن غفل عن هذه الدقيقة زعم أن من للتّبيين. قلت: وقد ذكر عن الليث أنه قال: إنها للتبعيض وقد منع أنها للتبيين. والله أعلم* وفي القرطبي: تعلّق أبوحنيفة بهذه الآية في تجويزه نكاح اليتيمة قبل البلوغ. وقال: إنما تكون يتيمة قبل البلوغ، و بعد البلوغ هي امرأة. وذهب مالك والشافعي: والجمهور من العلماء على أن ذلك لا يجوز حتى تبلغ وتستأمر لقوله تعالى: «ويستفتُونَكَ فى النِّساء» والنساء اسم يطلق على الكبار كالرجال في الذكور، واسم الرجل لا يتناول الصغير، فكذلك اسم النساء، والمرأة لا تتناول الصغيرة وقد قال: (في يتامى النِّساء) والمراد به هناك اليتامى هنا كما قالت عائشة رضي الله عنها، فقد دخلت اليتيمة الكبيرة في الآية فلا تزوّج إلا بإذنها. روى ابن أبي ذئب عن عمر بن حسين، عن نافع عن عبدالله بن عمر، أنه تزوّج بنت خاله عثمان بن مظعون قال: فذهبت أمّها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إنَّ ابنتى تكره ذلك. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يفارقها. وقال: [لا تنكحوا اليتامى حتّى تَسْتَأمِرُوهُنَّ، فإذا سكتن فهو إذنها] فهذا يردّ ما ذهب إليه أبوحنيفة إذا بلغت لا تحتاج إلى وليّ بناء على أصله في عدم اشتراط الولى في صحةالنكاح.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إذَا بَلَغُوا النِكَاحَ فإنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فادْفَعُوا إليْهِمْ أمْوالَهُمْ ولاَ تأكُلُوهَا إسْرَافاً وَبدَاراً أنْ يكْبَرُوا ومَنْ كانَ غنِيّاً فَلْيَسْتَعْفف ومَنْ كانَ فقيراً فليأكل بالْمَعْرُف فإذَا دفَعْتُمْ إليْهِمْ أمْوالَهُمْ فأشهِدُوا عَلَيْهِمْ وكَفَى بالله حَسِيباً»

سورة النِّساء (الآية: ٦)

فى الواحدى : نزلت فى ثابت بن رفاعة وفى عمه، وذلك أن رفاعة توفى وترك ثابتاً وهو صغير، فأتى عمّ ثابت إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال: إن ابن أخى يتيمٌ فى حجرى، فما يحلُّ لى من ماله، ومتى أدفع إليه ماله؟ ـــ وكذا فى الخازن وغيرهما من التفاسير قوله تعالى: «وابْتَلُوا الْيَتَامَى» أى اختبروهم قبل البلوغ فى دينهم وتصرفهم فى أحوالهم، وهذا شروع فى تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم، و بيان شرطه بعد الأمر بإتيانها على الاطلاق، والنهى عنه عند كون أصحابها سفهاء أى واختبروا من ليس منهم بين السّفَه قبل البلوغ بتتبّع أحوالهم فى صلاح الدين. والاهتداء إلى ضبط المال وحسن التصّرف فيه، وجرّبُوهم بما يليق بحالهم، فإن كانوا من أهل التجارة فأن تعطوهم من المال ما يتصرفون فيه بيعاً وابتياعاً، وإن كانوا ممّا لهم ضياع وأهل وخدم فأن تعطوهم منه ما يصرفونه إلى نفقة عبيدهم وخدمهم وأجرائهم، وسائر مصارفهم حتى يتبيّن لكم كيف أحوالهم. والمراد بذلك اختبار عقولهم، ومن هنا قال أبو حنيفة تصرفات الصبىّ العاقل بإذن الولى صحيحه لأن الابتلاء المأمور به قبل بلوغهم إنما يحصل إذا أذن له فى البيع والشراء* وقال الشافعى: الابتلاء قبل البلوغ لايقتضى الاذن يتوقف على دفع المال إليهم، ولكن لا يصح دفع المال إليهم، لأنه موقوف على الشرطين، بل المراد بالابتلاء اختبار عقله واستبراء حاله حسبما يليق بكل طائفة، فولد التاجر يختبر فى البيع والشراء بحضوره، ثم باستكشاف ذلك البيع والشراء منه. وما فيهما من المصالح والمفاسد، وقد يدفع إليه شيئاً لبيع أو يشترى فيعرف بذلك مقدار فهمه وعقله، ثم الولى بعد ذلك يتم العقد لو أراد. وولد الزارع يختبر فى أمر المزارعة والانفاق على القوام بها، وولد المحترف فيما يتعلق بحرفته، والمرأة فى أمر القطن والغزل، وحفظ الأقمشة، وصون الأطعمة عن الهرة

والفأرة وما أشبهها، ولا يكفى المرة الواحد فى الاختبار، بل لا بد من مرتين وأكثر على ما يليق بالحال، و يفيد غلبة الظنّ أنه رشد. وقوله: «**حتّى إذَا بلَغُوا النّكاحَ**» أى صاروا أهلاً له إمّا بالسن وهو استكمال خمس عشرة سنة تحديدية لخبر ابن عمر رضى الله عنه [عرضت على النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزنى ولم يرنى بلغت، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى ورآنى بلغت] رواه ابن حبان، وأصله فى الصحيحين، وابتداؤها من انفصال جميع الولد، قيل: عرض صلى الله عليه وسلم سبعة عشر من الصحابة، وهم أبناء أربع عشرة فلم يجزهم، وعرضُوا عليه وهم أبناء خمس عشرة فأجازهم. وإما بخروج المنى فى وقت إمكانه وكذا الحيض على تفصيل فى الفروع. وقوله: «**فإنْ آنَسْتُمْ**» أى أبصرتُم أو علمتم وهو الأصح ففى المصباح وآنست الشىء بالمدّ علمته وآنسته أبصرته. «**مِنْهُمْ رُشْداً**» صلاحاً فى دينهم ومالهم. قال أبوحنيفة: إذا بلغ مهتدياً إلى وجوه مصالح الدنيا فهو رشيد يدفع إليه ماله. وقال الشافعى [لا بُدّ مع ذلك من الاهتداء لمصالح الدين، فإن الفاسق لا يخلوا من إتلاف المال فى الوجوه الفاسدة المحرّمة] وقد نفى الله تعالى الرشد على فرعون فى قوله: «**ومــا أمر فرعونَ برشيد**» مع أنه كان يراعى مصالح الدنيا. و يتفرّع على القولين: أن الشافعى يرى الحجز على الفاسق، وأبو حنيفة لا يراهُ. كم إنه إذا بلغ غير راشد واستمر على ذلك لم يدفع إليه ماله بالاتفاق إلى خمس وعشرين سنة، وفيما وراء ذلك خلاف. فعند أصحاب أبى حنيفة وعند الشافعى لا يُدفع إليه أبداً إلا بإيناس الرشد كما هو مقتضى الآية، وعند أبى حنيفة يدفع لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسن ثمانى عشرة سنة، فإذا زادت عليها سبع سنين وهى مدة معتبرة فى تغيّر أحوال الانسان لقوله صلى الله عليه وسلم: [مروهم بالصلاة لسبع] دُفع إليه ماله، أو نسى منه رشد أو لم يونس وقوله: «**فادْفَعُوا إلَيْهِمْ أمْوَالَهُمْ**» من غير تأخير «**ولاَ تأكُلوهَا**» أيها الأ ولياء «**إسْرَافاً**» أى بغير حق «**وَبِدَاراً**» حالان. أى مسرفين ومبادرين إلى انفاقها مخافة «**أنْ يكبَرُوا**» رشداً فيلزمكم تسليمها إليهم. «**ومَنْ كَانَ**» من الأ ولياء «**غنيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ**» أى أن يعف عن مال اليتيم، ويمتنع عن أكله «**وَمَنْ كانَ فقيراً فليأكُلْ**» منه «**بالْمَعْروف**» أى بقدر الأكل من حاجته وأجرة سعيه. روى النسائى وغيره أن رجلاً قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم: إنّ فى حجرى يتيماً أفآكل من ماله؟ قال: «**بالْمَعْرُوف**» وللعلماء خلاف

فى أن الوصى هل له أن ينتفع بمال اليتيم. قال الشافعى: لَهُ أن يأخذ بقدر ما يحتاج إليه، وبقدر أجرة عمله لأن النهى فى الآية عن الاسراف مشعر بأن له أن يأكل بقدر الحاجة، ولا سيا إذا كان فقيراً. ولما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أن رجلاً قال له: إن فى حجرى يتيماً أفآكل من ماله؟ قال: [بالمعروف غير متأثل مالاً ولا واق مالك بما له] قال: أفأضرب به؟ قال: [مما كنت ضارباً منه ولدك] وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عمار وابن مسعود وعثمان بن حنيف: سلام عليكم: أما بعد: فإنى قد رزقتكم كل يوم شاة شطرها لعمار وربعها لعبدالله بن مسعود، وربعها لعثمان. ألا وإنى قد أنزلت نفسى وإياكم من مال الله منزلة والى مال اليتيم **«مَنْ كانَ غنياً فلْيَسْتَعْفِفْ ومَنْ كَانَ فقيراً فلياُكُلْ بالمعروف»** وأيضاً قياساً على الساعى فى أخذ الصدقات وجمعها فإنه يضرب له فى تلك الصدقات بسهم، فكذا هنا* وعن سعيد بن جبير ومجاهد وأبى العالية. أن له أن يأخذ بقدر ما يحتاج إليه قرضاً ــ أى لقوله: **«بالمعروف»** ثم إذا أيسر قضاه، وإن مات ولم يقدر على القضاء فلا شىء عليه* وأكثر العلماء على أن هذا الاقتراض إنما جاء فى أصول الأموال من الذهب والفضة وغيرهما، وأما التناول من ألبان المواشى. واستخدام العبيد وركوب الدوابّ فمباح له إذا كان غير مضرّ بالمال* وقال أبو بكر الرازى: الذى نعرفه من مذهب أصحابنا أنه لا يأخذه لا على سبيل القرض ولا على سبيل الابتداء سواء كان غنياً أو فقيراً. واحتجّ بقوله تعالى: **«وآتوُا اليتامَى أموالهم»** وأجيب بأنها عامة. وقوله: **«فلياُكُلْ بالمعروف»** خاص، والخاص مقدم على العام. قال: **«إنَّ الَّذِينَ يأكُلُونَ أمْوالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً»** وأجيب بأن محل النزاع هو أن أكل الوصى مال اليتيم ظلم، أوْلا . وقوله: **«فإذَا دَفَعْتُمْ إلَيْهِمْ أمْوَالَهُمْ فأشْهِدُوا عَلَيْهِمْ»** اتفق العلماء على الوصى إذا دفع المال إلى اليتيمْ بعد بلوغه رشيداً فالأَولى والأحواط أن يشهد عليه إظهاراً للأمانة، وبراءة من التهمة، ولكن اختلفوا فى أن الوصى إذا ادّعى بعد بلوغ اليتيم أنه قد دفع المال إليه، فهل هو مصدَّقٌ؟ فقال أبو حنيفة وأصحابه يصدق بيمينه كسائر الأمناء وقال الشافعى: لا يصدق إلاَّ بالبيّنة لأنه تعالى نصّ على الاشهاد فقال: **«فإذا دَفَعْتُمْ إلَيْهِمْ أمْوَالَهُمْ فأشْهِدُوا عليْهِمْ»** وظاهر الأمر للوجوب، ولأنه أمين من جهة الشرع لا من جهة اليتيم، وليس له نيابة عامة كالقاضى، ولا كمال الشفقة كالأب، نعم يصدق فى قدر النفقة وفى عدم التقتير والاسراف لعسر

إقامة البيّنة على ذلك، وتنفيره الناس عن قبول الوصاية. وقوله: «**وَكَفَى باللهِ حَسِيباً**» حافظاً لأعمال خلقه ومحاسبهم أى كافياً فى الشهادة عليكم بالدفع والقبض، وفيه تهديد للولىّ ولليتيم أن يتصادقوا ولا يتكاذبوا.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدَانِ والأَقْرَبُونَ وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تركَ الْوالِدانِ والأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أو كَثُرَ نَصيباً مَفْرُوضاً»

سورة النِّساء (الآية: ٧)

فى الواحدى : قال المفسّرُون: إنّ أوس بن ثابت الأنصارى تُوفى وترك امرأة يقال لها أم كحه، وثلاث بنات له منها، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه، يقال لهما: سويد وعرفجة، فأخذا ماله ولم يُعطيا أمرأته شيئاً ولا بناته، وكانوا فى الجاهلية لا يورّثون النساء، ولا الصغير وإن كان ذكراً، وإنما يورثون الرجال الكبار، وكانوا يقولون: لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل وحاز الغنيمة، فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت يا رسول الله: إنّ أوس بن ثابت مات وترك علىّ بنات، وأنا امرأة وليس عندى ما أنفق عليهنّ، وقد ترك أبوهُنّ مالاً حسناً، ولا يسقيان ولا يرفعان لهن رأساً. فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالا يا رسول الله: ولدها لا يركب فرساً ولا يحمل كلاًّ ولا ينكب عدوّاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله فيهنّ] فانصرفوا. فأنزل الله هذه الآية* فأثبت لهنّ الميراث، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تقربا من مال أوس شيئاً، فإنّ الله جعل لبناته نصيباً] * وكذا فى الخازن وابن كثير والخطيب وغيرها من التفاسير: وقوله «**للرِّجالِ**» الأولاد والأقرباء «**نَصِيبٌ**» حظ «**مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأَقرَبُون**» المتوفون من الأموال وكذلك «**لِلنِّساءِ نَصِيبٌ**» حظ من التركه «**مِمَّا قَلَّ مِنْهُ**» أى المال «**أَوْ كَثُرَ**» جعله الله «**نَصِيباً مَفرُوضاً**» مقطوعاً بتسليمه إليهم، فلا يسقط باسقاطهم، قال البيضاوى: فى الآية دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه بالاعراض* وفى رواية ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى أم كحة الثمن، والبنات الثلثين، والباقى لابنىْ العمّ. واحتجَّ بعض أصحاب أبى حنيفة بهذه الآية على توريث ذوى الأرحام،

كالعمات والخالات والأخوال وأولاد البنات لأن الكل من الأقربين، غاية ما فى الباب أن مقدار أنصبائهم غير مذكور هٰهُنا إلاَّ أنا نثبت بالآية استحقاقهم لأصل النصيب، ونستفيد المقادير من سائر الدلائل. وأجيب بأنه تعالى قال: «**نصيباً مَفْرُوضاً**» وبالإجماع ليس لذوى الأرحام نصيب مقدّر. وأيضاً الواجب عندهم ما علم ثبوته بدليل مظنون، والمفروض ما علم بدليل قاطع، وتوريث ذوى الأرحام ليس من هذا القبيل بالاتفاق، فعرفنا أنه غير مراد من الآية. وأيضاً ليس المراد بالأقربين من له قرابة ما، وإن كانت بعيدة وإلا دخل جميع أولاد آدم فيه، فالمراد إذنْ أقرب الناس إلى الوارث. وما ذاك إلا الوالدن والأولاد، ودخول الوالدين فى الأقربين يكون كدخول النوع فى الجنس. فلا يلزم تكرار والله أعلم. (الغرائب) وفيه قال المفسّرون: إنه تعالى لما ذكر فى الآية للنساء أسوة بالرجال فى أن لهن حظاً من الميراث، وعلم أن فى الأقارب من يرث وفيهم من لا يرث، وربما حضروا القسمة فلا يحسن حرمانهم. قال: «**وإذا حضر القسمة أُوْلُوا الْقُرْبَى**» الآية ثم منهم من قال بوجوبه، ومنهم من قال باستحبابه وعلى الوجوب فعن سعيد بن المسيّب والضحاك أنها منسوخة بآية المواريث. وعن أبى موسى الأشعرى وإبراهيم النخعى والشعبىّ والزهرى ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير أنها محكمة، ولكنها مما تهاون به الناس. قال الحسن: أدركنا الناس وهم يقسمون على القرابات واليتامى والمساكين من الورق والذهب فإذا آل الأمر إلى قسمة الأرضين والرقيق وما أشبه ذلك، قالوا لهم: قولاً معروفاً، كانوا يقولون لهم: ارجعوا بورك فيكم* وعلى الاستحباب، وهو مذهب فقهاء الأمصار اليوم. قالوا: إن هذا الرضخ يستحب إذا كانت الورثة كباراً، أما إذا كانوا صغاراً فليس إلاَّ القول بالمعروف. كأن يقول الولى: إنى لا أملك هذا المال إنما هو لهؤلاء الضعفاء الذين لا يعرفون ما عليهم من الحق. وإن يكبروا فسيعرفون حقّكُمْ.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إِنَّ الَّـذِينَ يأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّما يأْكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ نَاراً وسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً» سورة النِّساء (الآية: ١٠)

في الواحدي: قال مقاتل بن حيان: نزلت في رجل من غطفان يقال له مرثد بن زيد، وُلّيَ مال ابن أخيه، وهو يتيم صغير فأكله، فأنزل الله فيه هذه الآية* وكذا في الخازن

وبقية التفاسير: قوله: «**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً**» أي بغير حق «**إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً**» أي سيأكلون يوم القيامة، فسمّى الذين يأكلون ناراً بما يؤل إليه أمرهم يوم القيامة* قال السّدى: يبعث آكل مال اليتيم ظلماً يوم القيامة، ولهب النّار يخرج من فيه، ومن مسامعه وأذنيه وعينيه وأنفه، يعرفه من رآه بآكل مال اليتيم* وفي حديث أبي سعيد الخدري قال: حدّثنا النبي صلى الله عليه وسلم عن ليلة أسرى به، قال: [نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم، ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار يخرج من أسافلهم، قلت ياجبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً]* وقيل: إنما ذكر أكل النار على سبيل التّمثيل والتوسع في الكلام. والمراد أنَّ أكل مال اليتيم ظلماً يفضى به إلى النار، وإنما خصّ الأكل بالذكر، وإن كان المراد سائر أنواع الإتلافات وجميع التّصرفات الرديئة المتلفة للمال لأن الضرر يحصل بأكل ذلك لليتيم، فعبّر عن جميع ذلك بالأكل لأنه معظم المقصود، وإنما ذكر البطون للتأكيد، فهو كقولك رأيتُ بعيني وسمعت بأذنى. وقوله: «**وَسَيُصْلَوْنَ سَعِيراً**» السعير النار. أي مسعورة، والتنكير للتّعظيم، أي ناراً مبهمة الوصف لا يعلم شدتها إلاّ خالقها. ولمّا نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس، واحترزوا من مخالطة اليتامى، وأموالهم بالكليّة، فشق ذلك على اليتامى فنزل قوله تعالى: «**وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ**» وقد توهم بعضهم أن قوله «**وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكم**» ناسخ لهذه الآية. وهذا غلط ممَّن توهمه لأنَّ هذه الآية واردة في المنع من أكل أموال اليتامى ظلماً، وهذا لا يصير منسوخاً، لأن أكل مال اليتيم بغير حق من أعظم الآثام وإن تخالطوهم فإخوانكم. وارد على سبيل الإصلاح في أموال اليتامى، والإحسان إليهم، وهو من أعظم القرب.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يُوصِيكُمُ اللهُ فى أوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنْثَيَيْنِ فَإنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وإنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ولأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وورِثَهُ أبَواهُ فَلأمِّهِ الثُّلثُ فإنْ كانَ لَهُ إخْوَةٌ فَلأمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بها أوْ دَيْنٍ آبَاؤكُمْ وأبْنَاؤكُمْ لاَ تَدْرُونَ أيُّهُمْ أقْرَبُ لكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إنَّ اللهَ كانَ عَليماً حَكيماً»

سورة النِّساء (الآية: ١١)

يتبع إلى قوله: **«ولَهُ عَذَبٌ مُهِينٌ»**

في الواحدي: قال ابن جريج: أخبرنى ابن المنكدر عن جابر قال: عادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوبكر في بنى سلمة يمشيان، فوجدانى لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ، ثم رش على منه فأفقت، فقُلْتُ: كيف أصْنَعُ في مالى يا رسول الله؟ فنزلت: **«يُوصِيكُمُ اللهُ في أوْلاَدِكُمُ»** الآية رواه البخارى* وعن جابر بن عبدالله قال: جاءت امرأة بابنتيْن لها. فقالت يا رسول الله: هاتان بنتا ثابت بن قيس، (أو قالت: سعد بن الربيع) قتل معك يوم أحد وقد استفاء عمهما مالهما وميراثهما. فلم يدع لهما مالاً إلاّ أخذه. فما ترى يا رسول الله؟ فوالله ما ينكحان أبداً إلاّ ولهما مال. فقال: يقضي الله في ذلك. فنزلت سورة النساء وفيها **«يُوصِكُمُ اللهُ فى أوْلاَدِكُمْ للذكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنْثَيَيْن»** إلى آخر الآية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ادع لى المرأة وصاحبها. فقال لعمهما: أعطهما الثُلْثَيْن، وأعط أمهما الثّمن، وما بقى فَلَكَ] أخرجه الترمذي. ونحوه في الخطيب والخازن وفيه، وقال السّدى: كان أهل الجاهلية لا يورّثون الجوارى، ولا الضعفاء من الغلمان لا يرث الرّجل من ولده إلاّ من أطاق القتال، فمات عبدالرحمن: أخو حسّان الشاعر وترك امرة وخمس بنات، فجاء الورثة وأخذوا ماله. فشكت امرأته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة* وبقية ما في التفاسير لا زيادة فيها عمّا ذكر. قوله تعالى: **«يُوصِكُمُ اللهُ»** يأمركم **«فى أوْلادِكُمْ»** أي في شأن ميراثهم بما هو العدل والمصلحة. وهذا إجمال تفصيله **«لِلذَّكَرِ»** منهُم **«مِثْلُ حَظِّ»** نصيب **«الأُنْثَيَيْنِ»** إذا

اجتمعتا معه. فله نصف المال، ولهما النصف، فإن كان معه واحدة فلها الثلث وله الثلثان. وإنما فضل الذكر على الأنثى لاختصاصه بلزوم ما يلزم الأنثى من الجهاد وتحمّل الدية وغيرها، وله حاجتان: حاجة لنفسه وحاجة لزوجته، والأنثى حاجة واحدة لنفسها. بل هي غالباً مستغنية بالتزويج عن الإنفاق من مالها. ولكن لمّا علم الله تعالى احتياجها إلى النفقة، وإن الرغبة تقلُّ فيها إذا لم يكن لها مال جعل لها حظاً من الإرث. وأبطل حرمان الجاهلية لها* قال الخطيب: فإن قيل: هلاَّ قيل للأنثيين مثل حظ الذكر، أو للأنثى نصف حظ الذكر؟ أجيب بأنه إنما بدأ ببيان حظ الذكر لفضله، كما ضوعف حظه لذلك، ولأن قوله: «**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنثيين**» قصد إلى بيان فضل الذكر. وقوله: للأنثيين مثل حظ الذّكر قصد إلى بيان نقص الأنثى، وما كان قصداً إلى بيان فضله كان أدل على فضله من القصد إلى بيان نقص غيره منه، ولأنهم كانوا يورثون الرجال دون النساء والصبيان، وكان في ابتداء الإسلام بالمحالفة قال تعالى: «**والّذِينَ عَقَدَتْ أيمَانُكُمْ فآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ**» ثم صارت الوراثة بالهجرة قال تعالى: «**والّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يُهَاجِروا مالكُمْ مِنْ ولاَيَتِهِمْ مِنْ شيء**» ثم نسخ ذلك بالآية الكريمة* وقوله: «**فإنْ كُنَّ**» أي الأولاد، وهو عائد على الإناث اللاتى هن بعض الأولاد المتقدم ذكرهم في قوله تعالى «**يوصيكُمْ الله فى أوْلادِكُمْ**» أي الذكور والإناث. لكن في السمين «**فإنْ كُنَّ نِسَاءً**» الضمير في كنَّ يعود على الإناث اللاتى شملهن قوله في أولادكم، فإن التقدير في أولادكم: الذكور والإناث، فعاد الضمير على أحد قسمى الأولاد. وقوله «**نِسَاءً**» فقط «**فوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلثَا ما تركَ**» الميت وكذا الاثنتان لأنه للأختين بقوله «**فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ**» فهما أولى أي البنات، وذلك لأنها أقرب للميت من الأختين كما هو ظاهر. ويدل عليه قوله «**وإنْ كَانَتْ**» المولودة «**واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ولأبَوَيْهِ**» أي الميت، وهو شروع في إرث الأصول «**لِكُلِّ وَاحِدٍ منْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ**» ذكر أو أنثى، وألحق بالولد ولد الإبن، وبالأب الجد «**فإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أبَوَاهُ**» فقط أو مع زوج «**فَلأمِّهِ الثُّلُثُ**» أي ثلث المال، أو ما يبقى بعد الزوج والباقي للأب وفي كل من المسئلتين «**فإنْ كَانَ لَهُ إخْوَةٌ**» أي الميت اثنان فصاعداً ذكوراً وإناثاً «**فلأمِّهِ السُّدُسُ**» والباقى للأب ولا شيء للأخوة، وتقسم التركة على نحو ما ذكر «**مِنْ بَعْدِ**» تنفيذ «**وَصِيَّةٍ يُوصى بِهَا**» الميت «**أوْ**» قضاء

«دَيْنٍ» عليه. وتقديم الوصيّة على الدين وإن كانت مؤخرة عنه في الوفاء للاهتمام بها لكون أدائها شاقاً على الورثة في أخذها من غير عوض كان إخراجها ممّا يشقُّ على الورثة بخلاف الدّين. فإن نفوسهم مطمئنة إلى أدائه، فلذلك قدّمت على الدين حثاً على وجوبها، والمسارعة إلى اخراجها مع الدين، ولذلك جيء بكلمة أوْ للتسوية بينهما في الوجوب. وقوله «**آبَاؤُكُمْ وأبنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً**» في الدنيا والآخرة فظانٌ أن ابنه أنفع له فيعطيه الميراث فيكون الأب أنفع، و بالعكس، وإنما العالم بذلك الله وحده ففرض لكم الميراث «**فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً**» بخلقه «**حَكِيماً**» فيما دبّره لهم أي لم يزل متّصفاً بذلك. وذلك أن الخبر عن الله بهذا اللفظ كالخبر بالحال والاستقبال بمعنى لم يزل كذلك عليماً حكيماً، وكان كذلك وهو الآن على ما كان عليه لأنه منزّه عن الدخول تحت الزمان. وعلى هذا المعنى تتخرّج جميع الصفات الذاتية المقترنة بكان، ومعلوم أن كان في القرآن على أوجه بمعنى الأ زل والأ بد، وبمعنى المضى المتقطع، وهو الأصل في معناها. وبمعنى الحال وبمعنى االاستقبال وبمعنى صار، وبمعنى ينبغى، وبمعنى حضر أو وجد، وترد للتأكيد وهى الزائدة وقوله تعالى «**ولَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أزْوَاجُكُمْ إنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ**» أي ذكر أو أنثى منكم أو من غيركم «**فإنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ**» على نحو ما ذكر «**فَلَكُم الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصيّةٍ يُوصِينَ بِهَا أوْ دَيْنٍ**» وألحق بالولد في ذلك ولد الابن بالاجماع سواء كان ذكراً أو أنثى بخلاف ولد البنت فلا يحجب الزوج «**وَلَهُنَّ**» أي الزوجات تعدّدت أولا «**الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ**» منهنَّ أوْ من غيرهنَّ «**فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِنْ بَعْدِ وَصيّةٍ تُوصُونَ بِهَا أوْ دَيْنٍ**» وولد الإبن في ذلك كالولد إجماعاً «**وإنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةٌ**» أي لا والد له ولا ولد وهذا أحسن ما قيل في تفسير الكلالة، و يدل على صحته أن اشتقاق الكلالة من كلّت الرحم بين فلان وفلان إذا تباعدت القرابة بينهما. فسمّيت القرابة البعيدة كلالة من هذا الوجه. قال الليث: الكَلُّ الرّجلُ الذي لا ولد له ولا والد. وقيل: ما لم يكن من النَّسب لحماً فهو كلالة، وقالُوا: هو ابن عمّ الكَلاَلَةَ، وابن عم كَلاَلةٍ. وقيل: الكلالةُ من تكلّل نسبُه بنسبك كابن العم ومن أشبهه. وقيل: هم الأخوة للأم وهو المستعمل. وقال اللحيانى: الكلالة: من العصبة من ورث معه الإخوة من الأم، والعرب تقول: لم يرث كلالة أي لم يرثه عن عُرُض بَلْ عَنْ قُرْبٍ واستحقاق، قال الفرزدق:

وَرِثْـتُـم قـنـاة الملك غير كـلالـة عن ابنى مَنافٍ: عَبْدِ شمْس وهَاشم

وقـال ابـن الأعـرابى: الكَلالةُ بنو العمّ الأ باعد، وحكى عن أعرابى أنه قال: مالى كثيرٌ، و يـرثُنى كَـلالَـةٌ متـراخ نـسبهـم، والقول الأ ول هو الأصح لأن الكلالة مصدر من تكلّله النّـسب، أي تـطـرفَهُ كأنّه أخذ طرفيه من جهة الولد والوالد، وليس لها منها أحدٌ وعليه أكثر الـصحـابـة. قال الشعبيُّ: سئل أبوبكر رضي الله عنه عن الكلالة فقال: إنى سأقول فيها برأى، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأً فمنى ومن الشيطان، أراه ما خلا الوالد والـولـد، وقضى به، ولمّا استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إنى لأستحى من الله أن أردَّ شـيـئاً قاله أبوبكر، وذهب طاوس إلى أن الكلالة من لا ولد له، وهى احدى الـروايتين عـن ابن عبّاس. وأحد القولين عن عبدالله بن عمر. وقال عمر رضي الله عنه: ثـلاث لأن يـكـون الـنبي صلى الله عـلـيـه وسـلم بيّنهنّ لنا أحبُّ إلينا من الدنيا وما فيها: الـكـلالـة، والخـلافـة، وأبـواب الربا، وما نقل عن أبى بكر رضي الله عنه فيها قول جمهور اللغـو يّين. و يؤيد ذلك أن الآية نزلت في جابر رضي الله عنه، ولم يكن له يوم أنزلت أبٌ ولا ابـن. وقوله تعالى: «أَوْ امرأَةٌ» تورث كَلالة أي خالية من الوالد والولد، وهى عطف على رجـل «وَلَـهُ» أي لـلـمـورث كـلالـة «أَخٌ أَوْ أُخْـتٌ» أي مـن أم فقط، وقرأ به ابن مسـعـود وغـيـره. وقد احتج بها الشافعى فيما حكاه البو يطى عنه في باب الرضاع. و باب تحريم الجمع، وعليه جمهور أصحابه لأنها منقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم. ولا يلزم من انـتـفـاء خصوص قرآنيتها انتفاء خصوص خبريّتها. «فَلِكُلّ واحدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ» وقد أجمعوا على أن المراد بـه الأخ والأخـت مـن الأم، هـذا عـند الإنفراد «فإِنْ كَانُوا» أي الإخوة والأخوات من الأم «أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ» أي من واحد «فَهُمْ شُرَكَاءُ فِى الثُّلُثِ» يسـتـوى فـيـه ذكـرهـم وأنثاهم ولإدلائهم بمحض الأنوثة ذلك التقسيم «مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُـوصِـى بِـهَـا أَوْ دَيْـنٍ غـيْرَ مُضَارٍّ» أي غير مدخل الضرر على الورثة بأن يوصى بأكثر من الـثلث ذلكم «وصيّـةً» مصدر مؤكد ليوصيكم الله في أولادكم. أي يوصيكم الله وصيةً كـائنةً «مِنَ اللهِ واللهُ عليمٌ» بما دبّرهُ لخلقه من الفرائض «حَكِيمٌ» أى عادل فيما أعطاه لـكـل وارث مـن الـتركة. وقد خصّت السنّة الشريفة توريث من ذكر بمن ليس فيه مانع مـن قـتـل أو اخـتـلاف ديـن أو رق. «تِـلْـكَ حُدُودُ اللهِ» أي ما حدّه من شرائع لعباده لـيـعـمـلـوا بـهـا، ولا يعتدُوها، وفيه إشارة إلى أن حدود الله نوعان: منها ما لا يفعل كالزنا

ونحوه، ومنها ما لا يتعدّى كالمذكورات ونحوها كتزويج الأربع. وقوله: «**وَمَنْ يُطِعْ اللهَ ورسُولَهُ**» فيما حكم به «**يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تجرى مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خالدينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمِ* وَمَنْ يَعْصِ اللهَ ورسُولَهُ و يتعدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خالِداً فيها ولَهُ**» فيها «**عَذَابٌ مُهِينٌ**» ذو إهانة. هذه الآية ركن من أركان الدين، وعمدة من عمدة الأحكام، وأُمّ من أمهات الآيات، فإن الفرائض عظيمة القدر حتى أنها ثلث العلم، وروى نصف العلم، وهو أوّل علم ينزع من الناس و يُنْسى. روى الدارقطنى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: [تعلَّمُوا الفَرائض وعلِّموهُ النَّاس فإنه نصف العلم، وهو أوّل شيء يُنسى من أمتى] وروى أيضاً عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [تعلَّموا القرآنَ وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلّموها الناس، وتعلموا العلم وعلموه الناس فإنى امرؤ مقبوض، وإنَّ العلم سيقبض. وتظهر الفتن حتى يختلف الإثنان في الفريضة لا يجدان من يفصل بينهما] ولذا فقد اهتم الصحابة بهذا العلم، بل كان علم الفرائض أكثر علومهم، بدليل قول ابن عباس رضي الله عنهما: من لم يتعلم الفرائض والطلاق والحج فبمَ يفضل أهل البادية* وقد كثرت المناظرات بين الصحابة في علم الفرائض دون غيره بدليل ما رواه عكرمة، قال: أرسل ابن عباس إلى زيد بن ثابت يسأله عن امرأة تركت زوجها وأبويها. قال: للزوج النصف، وللأم ثلث ما بقى. فقال: تجده في كتاب الله أو تقوله برأى؟ قال: أقوله برأى. لا أفضل أماً على أب* قال أبو سليمان: فهذا من باب تعديل الفريضة إذا لم يكن فيها نصٌ. وذلك أنَّه اعتبرها بالمنصوص عليه. وهو قوله تعالى «**وَوَرِثَهُ أبَوَاهُ فلأُمِّهِ الثُّلُث**» فلما وجد نصيب الأم الثلث. وكان باقى المال في الثلثان للأب قاس النصف الفاضل من المال بعد نصيب الزوج على كل المال إذا لم يكن مع الوالدين ابن، أو ذو سهم فقسمه بينهما على ثلاثة، للأم سهم وللأب سهمان وهو الباقي، وكان هذا أولى في القسمة من أن يعطى الأم من النصف الباقى ثلث جميع المال، وللأب ما بقى وهو السدس ففضلها عليه، فيكون لها وهي مفضولة في أصل الموروث أكثر مما للأب وهو المقدّم و المفضل في الأصل. وذلك أعدل مما ذهب إليه ابن عبّاس حيث ردّ الثلث على الأم وردَّ السدس على الأب، فترك قوله، وصار عامّة الفقهاء إلى زيد، ومن حجج زيد على ابن عبّاس أن الأبوين إذا اشتركا في الورثة ليس معهما غيرهما كان للأم الثلث، وللأب الثلثان، وكذلك إذا اشترط في

النصف الذي يفضل عن الزوج كانا فيه كذلك ثلث وثلثين، وهذا صحيح في النظر والقياس. وقال: عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في زوج وأبوين. للزوج النصف وللأم ثلث جميع المال وللأب ما بقي. وقال في امرأة وأبوين: للمرأة الربع وللأم ثلث جميع المال والباقي للأب. وتبعه على هذا خلق منهم شريح القاضي ومحمد بن سيرين وداود بن عليّ وغيرهم. فأنت ترى الخلاف بينهما أن زيداً يعطى الأم ثلث ما بقي بعد نصيب الزوج، وعبدالله بن عباس يعطيها ثلث جميع المال. أي قبل أن يأخذ الزوج نصيبه. إذ يبقى ثلثان نصفهما للزوج والباقي للأب أخذاً بظاهر النّص «**فإن لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أبَواهُ فلأمِّهِ الثُّلُث**» وهنا يكون نصيبها أكثر من الأب مع أن له ضعفيها لذا رُجح مذهب زيد رضي الله عنه وهو أفرض الصحابة جميعاً* ولا ينسى فضل ابن مسعود في هذا العلم كذلك، فقد روى عن هذيل بن شرحبيل، قال: وسُئل أبوموسى عن (ابنة وابنة ابن وأخت) فقال: للابنة النصف وللأخت النصف، وأُخبر ابن مسعود بقول أبي موسى فقال ابن مسعود: بعد أن سئل عنها: لقد ضللتُ وما أنا من المهتدين. ثم قال: أقضي فيها بقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: للإبنة النصف ولإبنة الإبن السدس تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت. فأخبر أبوموسى بقول ابن مسعود. فقال: لا تسألونى ما دام هذا الحبر فيكم* أخرجه البخارى. (من القرطبي والخازن والسمين وأبي السعود).

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً ولاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْض ما آتيْتُموهُنَّ إلاّ أنْ يأتِينَ بِفَاحِشَة مُبَيِّنَة وعَاشِرُوهُنَّ بالْمَعْرُوفِ فَإنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خيْراً كَثِيراً» سورة النِّساء (الآية: ١٩)

في الواحدي: قال ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول هذه الآية: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤهُ أحقُّ بامرأته إن شاء بعضهم تزوّجها، وإن شاؤا زوّجوها، وإن شاؤا لم يزوّجوها، وهم أحقُّ بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك رواه البخارى في التّفسير عن محمد بن مقاتل* وقال المفسرون: كان أهل المدينة في الجاهلية وفي أول الاسلام، إذا مات الرجل ولَهُ امرأة جاء ابنه من غيرها، أو قرابته من عصبته فألقى ثوبه

على تلك المرأة فصار أحقّ بها من نفسها ومن غيره، فإن شاء أن يتزوّجها تزوّجها بغير صداق إلا الصّداق الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوَّجها غيره. وأخذ صداقها ولم يعطها شيئاً. وإن شاء عضلها وضارّها لتفتدى منه بما ورثت من الميت. أو تموت هي فيرثها، فتوفى أبوقيس ابن الأسلت الأنصارى، وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له حصن ـــ وقال مقاتل: اسمه قيس بن أبي قيس ـــ فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها. ثم تركها فلم يقربها، ولم ينفق عليها، يضارّها لتفتدى منه بمالها، فأتت كبيشة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله: إنَّ أبا قيس توفى وورث ابنه نكاحى وقد أضرّني وطوّل عليَّ، فلا هو ينفق عليّ ولا يدخل بى، ولا هو يخلّى سبيلي. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقعدى في بيتك حتى يأتيَ فيك أمر الله. قال: فانصرفت، وسمعت بذلك النّساء في المدينة، فأتين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلن: ما نحن إلاَّ كهيأة كبيشة غير أنّه لم ينكحنا الأ بناء ونكحنا بنو العم. فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي الخطيب: نحو هذا وفيه: فإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل أن يلقى عليها عصبة الميّت ثوبه فهي أحقّ بنفسها* وقال ابن عباس: هذا الرجل يكون له المرأة وهو كارهٌ صحبتها ولا عليه مهر فيضارّها لتفتدى، وتردّ إليه ما ساق إليها من المهر، فنهى الله تعالى عن ذلك* وكذا في الطبرى والقرطبي وغيرهما من التفاسير وقوله تعالى **«يا أيُّها الَّــذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُ لَكُمْ أن تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً»** الخطاب لأقارب الميت ولأ زواج الزوجات أي لا يحلُّ لكم ميراث نكاح النّساء ولا أن ترثوا أموالهن وهن كارهات **«ولاَ»** أن **«تَعْضُلُوهُنَّ»** أي تمنعُوا أزواجكم عن نكاح غيركم إياهُنَّ بإمساكهنَّ ولا رغبة لكم فيهنَّ ضراراً. **«لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مٰا آتَيْتُمُوهُنَّ»** من المهر **«إلاّ أنْ يأتينَ بِفَاحِشَة مُبَيِّنَة»** بفتح الباء وكسرها أي زناً بيناً يبينها من يدعيها وأوضحها وأظهرها. أو نشوزاً، فلكُمْ أن تُضَارّوهنَّ حتّى يفتدين منكم ويختلعن. وفي الخطيب: قال عطاء: كان الرجل إذا أصابت امرأته فاحشةً (زنا) أخذ منها ما ساق إليها، وأخرجها فنسخ ذلك بالحدود* ولا يجوز في أي مذهب من المذاهب مضارة الزوجة لأجل أن تفتدى بمالها إذا لم ترتكب فاحشة أو تكون ناشزةً، بل أوجب علينا **«وعَاشِرُوهُنَّ بالْمَعْرُوفِ»** أي بالإجمال في القول والنفقة والمبيت، وقيل: هو أن يتصنَّعَ لها كما تتصنَّعُ لَهُ. **«فَإنْ كَرِهْتُموهُنَّ»** أي بالطبع من غير أن يكون من قبلهن ما يوجب ذلك فاصبروا **«فَعَسَى**

أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً» ولعلّه يجعل فيهن ذلك بأن يرزقكم منهنّ ولداً صالحاً. فتنقلب تلك الكراهة محبّة، وقيل في الآية ندب إلى إمساك المرأة مع الكراهية لها لأنه إذا كره صحبتها وتحمّل ذلك المكروه طلباً للثواب، وأنفق عليها وأحسن صحبتها استحق الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى، وقيل: في معنى الآية إنكم إن كرهتموهنّ، ورغبتُم في فراقهنّ، فربما جعل الله في تلك المفارقة لهن خيراً كثيراً، وذلك بأن تخلص من هذا الزوج الكاره لها وتتزوج غيره خيراً منه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))
«وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إنَّه كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وسَاءَ سَبِيلاً» سورة النّساء (الآية: ٢٢)

في الواحدي: نزلت في حصن بن أبي قيس، تزوج امرأة أبيه كبيشة بنت معن، وفي الأسود بن خلف تزوّج امرأة أبيه، وصفوان بن أميّة بن خلف تزوّج امرأة أبيه مليكة بنت خارجة، وقال أشعث بن سوار: توفى أبوقيس وكان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأة أبيه، فقالتْ إنى أعدك ولداً، ولكن آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أستأمره. فأتته فأخبرته. فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي القرطبي: وكان في العرب من تزوّج ابنته، وهو حاجب بن زرارة، تمجّسَ وفعل هذه الفعلة، ذكر ذلك النّضر بن شمّل في كتاب المثالب* وفي الطبرى: عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يحرّمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، قال: فأنزل الله **«ولاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ ما قد سلف» «وأن تجمعوا بين الأختين إلاَّ ما قد سلف»** قال السهيلي: وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمة تزوّج بامرأة أبيه فأولدها أبيه النّضر بن كنانة، فأراد أنهم كانُوا يعدُّونه نكاحاً مستساغاً، واستشهد بقوله صلى الله عليه وسلم: [ولدتُ من نكاح لا من سِفاح] وفيا ذكره السهيلى من قصة كنانة تحتاج إلى نظر والله أعلم. قوله تعالى **«ولاَ تَنْكِحُوا مَا»** بمعنى من **«نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ»** لكن **«مَا قَدْ سَلَفَ»** من فعلكم ذلك فإنه معفو عنه.

ومن المعلوم أن المحرمات بالمصاهرة أربعة: زوج الأب، وزوجة الإبن، وأم الزوجة، وبنت الزوجة. وكلها يحصل فيها التحريم بمجرّد العقد، وإن لم يحصل دخول إلاّ الربيبة

فلا يحرم إلا بشرط الدخول بأمّها. وقوله «إنّه» أي نكاحهن «كَانَ فَاحِشَةً» قبيحاً «وَمَقْتاً» سبباً للمقت من الله. وهو أشد البغض. وفي أبي السعود في قوله تعالى «إنّه كان فَاحِشةً ومَقْتاً» تعليل للنّهى، وبيان لكون المنهيّ عنه في غاية القبح مبغوضاً أشدّ البغض. وإنه لم يزل في حكم الله تعالى وعلمه موصوفاً بذلك ما رخّص فيه لأمّة من الأمم* وقوله تعالى «وسَاءَ سَبِيلاً» أي بئس طريقاً ذلك أي سبيل هذا النكاح.

قيل: مراتب القبح ثلاث: القبح العقلى، والقبح الشرعى، والقبح العادى، وقد وصف الله تعالى هذا النكاح بكل ذلك، فقوله: فاحشة مرتبة قبحه العقلى، وقوله: ومقتاً مرتبة قبحه الشرعى، وقوله: وساء سبيلاً مرتبة قبحه العادى، وما اجتمعت فيه هذه المراتب فقد بلغ أقصى مراتب القبح. والعرب تُسمّى ولد الرجل من امرأة أبيه مقيتاً، وكان منهم الأشعب بن قيس وأبومعيط بن أبى عمرو بن أميّة. روى البغوى بسنده عن البراء بن عازب قال: مرّ بى خالى ومعه لواء، فقلت: أين تذهب؟ قال: بعثنى النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل تزوّج امرأة أبيه آتيه برأسه. (الخازن).

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«والْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ كِتَابَ الله عَلَيْكُمْ وأُحِلَّ لَكُمْ مَا وراءَ ذَلِكُمْ أنْ تَبْتَغُوا بأمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ولاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إنَّ الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً»

سورة النّساء (الآية: ٢٤)

في الواحدى: قال أبوسعيد الخدرى: أصبنا سبايا يوم أوطاس لهنَّ أزواج، فكرهنا أن نقع عليهنَّ فسألنا النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت: «والْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّساءِ إلاَّ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ» فاستحللناهُنَّ* وفي رواية عنه في الخطيب: نزلت في نساء كُنَّ هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهنَّ أزواج، فتزوّجن بعض المسلمين، ثم قدم أزواجهن مهاجرين. فنهى الله المسلمين عن نكاحهنَّ، ثم استثنى فقال: «إلاَّ ما مَلَكَتْ أيْمانُكُمْ» أي من الإماء بالسبى، فلكم وطؤهُنَّ، وإن كان لهن أزواج في دار الحرب بعد الاستبراء، لأنَّ بالسبى يرتفع النكاح بينها و بين زوجها، قال أبوسعيد: بعث رسول

الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين جيشاً إلى أوْطاس ..الخ.* وقال الخطيب: وقيل: نزلت في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكّة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نُسِخَتْ، كان الرجل ينكح المرأة وقتاً معلوماً ليلة أو ليلتين، أو أسبوعاً بثوب أو غير ذلك، و يقضى منها وطره ثم يسرّحها، سميت متعة لاستمتاعه بها، أو لتميته لها بما يعطيها، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أباحها، ثم أصبح يقول: [يا أيُّها الناس إنى كنتُ أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء، إلاَّ أنَّ الله حرَّم ذلك إلى يوم القيامة]. وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: لا أوتى برجل تزوّج بامرأة إلى أجل إلاَّ رجمتها بالحجارة* وعن ابن عباس أنه قال: هى محكمة. أي لم تنسخ* وكان يقرأ «**فَمَا اسْتَمْتَعْتُم به إلى أجلٍ مسمّىً**» و يروى أنه رجع عن ذلك عند موته، وقال: اللهم إنى أتوب إليك من قولى بالمتعة* وقيل: إنها أبيحت مرتين وحرّمت مرّتين* وما رواه الواحدى والخطيب رواه الامام أحمد فى مسنده وابن كثير فى تفسيره نقلاً عنه وعن مسلم والترمذى عن أبى سعيد الخدرى* وروى الطبرانى من حديث الضحاك عن أنس أنها نزلت فى سبايا خيبر. وهذه كلها نصوص صحيحة تثبت أن الآية نزلت بسبب تحرّج أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم عن وطء المسبيات ذوات الأزواج، فأنزل الله فى جوابهم: «**إلاّ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ**» أى و به قال مالك وأبو حنيفة وأصحابه والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور. وهو الصحيح. قوله تعالى: «**وَ**» حُرّمت عليكم «**الْمُحْصَنَاتُ**» أى ذوات الأزواج «**مِنَ النِّسَاءِ**» أن تنكحوهنّ قبل مفارقة أزواجهن حرائر مسلمات كُنّ أولا. وقد ورد الاحصان فى القرآن لأربعة معان: الأول التزوّج كما فى هذه الآية. وكما فى قوله: مُحصِنين غيرَ مُسَافحينَ. الثانى: الحرية كما فى قوله: «**وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ منكُمْ طَوْلاً أن ينكحَ المُحْصَناتِ**» الثالث: الإسلام كما فى قوله: «**فإذا أُحْصِنَّ**» قيل: فى تفسيره أسلمن. الرابع: العفة كما فى قوله: «**مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافحاتٍ**» وقوله: «**إلاّ ما مَلَكَتْ أيمانُكُمْ**» من الإماء بالسبى فلكم وطؤهن، وإن كان لَهنّ أزواج فى دار الحرب بعد الاستبراء. أى فهى حلال لكم، وكان الاستبراء على زمن الصحابة للسبايا بحيضة واحدة. لحديث أبى سعيد الخدرى فى سبايا أوْطاس: (لا تُوطأ حامل حتّى تضع، ولا حائل حتى تحيض). ولم يجعل لفراش الزوج السابق أثراً حتى يقال إن المسبيّة مملوكة، ولكنها لمّا كانت زوجة وزال نكاحها فتعتدّ عدّة الاماء على ما نقل عن الحسن بن

صالح قال: عليها العدّة حيضتان إذا كان لها زوج فى دار الحرب. وكافّة العلماء رأوا استبراءها، واستبراء التى لا زوج لها بحيضةٍ واحدة. والمشهور من مذهب مالك أنه لا فرق بين أن يُسبي الزوجان مجتمعين أو متفرقين، لكن روى عن ابن بكير أنهما إن سُبيا جميعاً، واستبق الرجل أقرَّ على نكاحها* فرأى فى هذه الرواية أنه استبقاء لما يملكه، لأنه قد صار له عهد، وزوجته من جملة ما يملكه فلا يحال بينه و بينها، وهو قول أبى حنيفة والثورى، و به قال ابن القاسم. ورواه عن مالك، والصحيح الأول لقوله تعالى: «**إلاَّ ما مَلَكَتْ أيْمانُكُمْ**» فأحال الحلّ بالشرط المتقدّم على ملك اليمين، وجعله هو المؤثر فى الإباحة، فيتعلّق الحكم به من حيث العموم إلا ما خُصّ الدليل وقوله: «**كِتَابَ اللّهِ**» نصب على المصدر المؤكد لأنه لما قال: حُرّمت عليكم أمهاتكم إلى هنا كتابا وفرضه فرضاً عليكم: «**وأُحِلَّ**» بالبناء للفاعل وللمفعول: «**لَكُمْ ما وراء ذَلِكُمْ**» أى سوى ما حرم عليكم من النّساء* هذا عام مخصوص فقد دلّت السنّة على تحريم أصناف أخر سوى ما ذكر، فمن ذلك أنّه يحرم الجمع بين المرأة وعمتها، و بين المرأة وخالتها، ومن ذلك نكاح المعتدة، ومن ذلك أن من كان فى استطاعته نكاح الحرّة لا يجوز له نكاح الأمة، ومن ذلك من عنده أربع زوجات لا يجوز له نكاح خامسة، ومن ذلك الملاعنة فإنها محرّمة على الملاعن أبداً فهذه أصناف من المحرمات سوى ما ذكر فى الآية* كذا فى الخازن.
قلت: وكذا المطلقة ثلاثاً لا تحلّ لقوله تعالى: «**فَإنْ طَلّقَها فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ**» وكذا الحربيّة والمرتدة حتى يؤمنا لقوله تعالى: «**ولاَ تنكحُوا المشركاتِ حتّى يُؤْمِنَّ**» وقوله تعالى: «**أنْ تبتَغُوا**» أى تطلبُوا النّساءَ: «**بأمْوالِكُمْ**» بصداق أو ثمنٍ، وفيه دليل على أن النكاح لا يكون إلاَّ بمهر، وإنه يجب وإن لم يسم، وإن غير المال لا يصح مهراً، وإن القليل لا يصلح مهراً إذ الحبّةُ لا تُعدّ مالاً. ذكره الخازن قلت: قال أبوحنيفة: لا يجوز المهر بأقلّ من عشرة دراهم لأنه تعالى قيد التحليل بالأموال. والدرهم والدرهمان لا يُسمّى أمْوالاً* وقال الشافعى: يجوز بالقليل والكثير لأن قوله: «**بأمْوَالِكُمْ**» مقابلة الجمع بالجمع فيقتضى توزع الفرد على الفرد، فيتمكن كل واحد من ابتغاء النكاح بما يسمّى مالاً، والقليل والكثير فى هذه الحقيقة سواء. وعن جابر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال [منْ أعْطىَ امرأة فى نكاحٍ كفَّ دقيق أو سويق فقد استحلّ» . وقال أبوحنيفة: لو تزوّج بها على تعليم سورة من القرآن لم يكن ذلك مهراً.

ولها مهر مثلها لأن أبو حنيفة قال: لو تزوّج بها على تعليم سورة من القرآن لم يكن ذلك مهراً. ولها مهر مثلها لأن الابتغاء بالمال شرط، والمال اسم للأعيان لا للمنافع. وكذا قوله: «**وآتوا النِّساءَ صَدُقَاتِهِنّ نِحْلَةً فإنْ طِبْنَ لكُمْ عَنْ شيءٍ مِنْهُ نَفْساً فكلُوه**» والإيتاء والأكل من صفة الأعيان؛ وإن تزوج امرأة على خدمة سنة فإن كان حُرّاً فلها مهر مثلها. وإن كان عبداً فلها خدمة سنة. وقال الشافعي: الآية تدلّ على أنّ الابتغاء بالمال جائز، وليس فيه أن الابتغاء بغيره جائز أولا، وأيضاً قد خرج الخطاب مخرج الأعم الأغلب فلا يدل على نفي ما سواه، وممّا يدل على جواز جعل المنفعة صداقاً قوله تعالى: في قصة شعيب : «**عَلى أنْ تأجُرَنى ثمانى حِجَج**» والأصل فى شرع من قبلنا البقاء إلى أن يظهر الناسخ؛ وأيضاً التى وهبت نفسها لمّا لم يجد الرجل الذى أراد التزوّج بها شيئاً قال صلى الله عليه وسلم: [هَلْ معك شيءٌ مِنَ القُرْآن..] ومنه يعلم جواز عتق الأمة صداقاً لها لا سيما وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه أعتق صفيّة وجعل عتقها صداقها، وكونه من خواصه ممنوع. وقوله: «**مُحْصِنينَ**» يعنى غير متزوجين وقيل: متعفّفين: «**غَيْرُ مُسَافِحِينَ**» أى غير زانين. وأصل السفح، وهو الصبُّ، وإنما سُمّىَ الزنا سفاحاً لأنّ الزانى لا غرض له إلاّ صبَّ النطفة فقط. وقوله تعالى: «**فمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنّ**» فى الخازن: اختلفوا فى معناهُ. فقال الحسن ومجاهد: أراد ما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بنكاح صحيح. لأن أصل الاستمتاع فى اللغة الانتفاع. وكل ما انتفع به فهو متاع؛ أى فما استمتعتم به من المنكوحات من جماع أو عقد عليهن أو خلوة صحيحة عند أبى حنيفة: «**فآتُوهُنّ أُجُورَهُنَّ**» عليه والمراد بالأجور: المهور لأن المهر ثوابٌ على البضع كما يسمى بدل منافع الدار والدابة أجراً: «**فَرِيضَةً**» حال من الأجور بمعنى مفروضة، وفى الخازن: وقال قومٌ: المراد من حكم الآية هو نكاح المتعة، وهو أن ينكح أمرأة إلى مدة معلومة بشيء معلوم، فإذا انقضت تلك المدة بانت منه بغير طلاق، وستبرىء رحمها. وليس بينهما ميراث. وكان هذا فى ابتداء الإسلام. ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال [أيها الناس إنى كنت أذنتُ لكم فى الاستمتاع فى النساء، وإن الله قد حرَّم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا ممّا آتيتموهن شيئاً» قال الخازن: وإلى هذا ذهب جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم. أى أن نكاح المتعة حرام. والآية منسوخة، واختلفوا فى ناسخها. فقيل: نُسخت بالسنّة، وهو ما تقدم

من حديث سبرة الجهنىّ. وروى الشيخان عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال [نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية] وهذا على مذهب من يقول: إن السنّة تنسخ القرآن. ومذهب الشافعى أن السنّة لا تنسخ القرآن. فعلى هذا يقول: إنّ ناسخ هذه الآية قوله تعالى فى سورة المؤمنون: **«والّذينَ هُمْ لِفرُوجِهِمْ حافِظُونَ إلاّ على أزواجِهِمْ أوْ ما مَلكَتْ أيْمانُهُمْ فإنَّهُمْ غَيْرُ ملُومينَ»** والمنكوحة بالمتعة ليست بزوجة ولا ملك يمين. واختلفت الروايات عن ابن عباس فى المتعة فروى أن الآية محكمة. وكان يرخّص فى المتعة، قال عمارة: سألت ابن عباس عن المتعة: أسفاحٌ هى أم نكاحٌ؟ فقال: لا سفاحٌ ولا نكاحٌ. قلتُ: فما هى؟ قال: متعة قال الله تعالى: **«فمَا استَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنّ»** قلتُ: هل لها عدّة؟ قال: نعم حيْضَةٌ. قلتُ: هل يتوارثان؟ قال: لا. وروى أن الناس لما ذكروا الأشعار فى فتياهم ابن عباس بالمتعة قال: قاتلهم الله أنا ما أفتيتُ بإباحتها على الإطلاق لكن قلت: إنما يحل للمضطر كما تحل الميتة له* وروى أنه رجع عنه وقال بتحريمها. وروى عطاء الخرسانى عن ابن عباس فى قوله: **«فما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ»** أنها صارت منسوخة بقوله تعالى: **«يا أيُّها النبىُّ إذَا طلّقْتُمُ النِّساء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعدَّتهِنّ»** وروى سالم بن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب صعد المنبر فَحمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: ما بال أقوام ينكحون هذه المتعة، وقد نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عنها، لا أجد رجلاً نكحها إلاّ رجمتُه بالحجارة، وقال: هدم المتعة النكاح والطلاق والعدة والميراث* قال الشافعى: لا أعلم فى الإسلام شيئاً أحل ثم حرم، ثم أحل ثم حرم غير المتعة، وقال أبو عبيد السلمانى: اليوم مجمعون على أن متعة النساء قد نسخت بالتحريم نسخها الكتاب والسنة. هذا قول أهل العلم جميعاً من أهل الحجاز والشام والعراق من أصحاب الأثر والرأى، وأنه لا رخصة فيها لمضطر ولا لغيره* قال ابن الجوزى فى تفسيره: وقد تكلف قوم من مفسرى القرآن فقالوا: المراد بهذه الآية نكاح المتعة، ثم نسخت بما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن متعة النساء، وهذا تكلف لا يحتاج اليه لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم أجاز المتعة، ثم منع منها فحرّمها، فكان قوله منسوخاً بقول: وأما الآية فإنها لم تتضمن جواز المتعة لأنه تعالى قال فيها: **«أنْ تبتغوا بأموالِكُمْ مُحْصِنينَ غيْرَ مُسَافحينَ»** فدلّ ذلك على النكاح الصحيح* قال الزجاج: ومعنى قوله: **«فمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنّ»** فما نكحتُموه على

الشرائط التى جرت، وهو قوله: «مُحْصِنِينَ غيرمُسَافحينَ» أى عاقدين التزو يج* وقال ابن جرير الطبرى: أولى التأو يلين فى ذلك بالصواب، تأو يل من تأوّله. فما نكحتموه منهن فجامعتموهُنّ فآتُوهُنّ أجورهنّ يعنى مهورهنّ* قلتُ: وعبارة الزجاج كما فى اللسان: أن هذه الآية آية غلط فيها قوم غلطاً عظيماً لجهلهم باللغة، وذلك أنهم ذهبوا إلى قوله: «فما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ» فما نكحتم منهن على الشريطة التى جرى فى الآية أنه الإحصان: «أَنْ تبتَغُوا بأموالِكُمْ مُحْصِنينَ» أى عاقدين التزو يج، أى فما استمعتم به منهن على عقد التزو يج الذى جرى ذكره. فآتُوهُن أجورهنّ فريضة، أى مهورهن، فإن استمتع بالدخول بها أتى المهر تامّاً، وإن استمتع بعقد النكاح أتى نصف المهر* وقال الأزهرى: ومن زعم أن قوله: «فما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ» التى هى الشرط فى التمتع الذى يفعله الرافضة فقد أخطأ خطأ عظيماً لأن الآية واضحة مبيّنة، قال: فإن احتج محتجٌ من الروافض بما يروى عن ابن عباس أنه كان يراه حلالاً، وأنه كان يقرؤها: فمَا استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسمّى، فالثابت عندنا أن ابن عباس كان يراها حلالاً ثم لما وقف على نهى النبىّ صلى الله عليه وسلم رجع عن إحلالها، قال عطاء: سمعت ابن عباس يقول: ما كانت المتعة إلا رحمة رحم الله بها أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فلولا نهيه عنها ما احتاج إلى الزنا أحد إلا شفىً والله. ولكنى أسمع قوله: إلاَّ شفىً، عطاء القائل. قال عطاء: فهى التى فى سورة النساء: «فمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ» إلى كذا وكذا من الأجل على كذا وكذا شيئاً مسمّى، فإن بدا لهما أن يتراضيا بعد الأجل وإن تفرّقا فهو ليس بنكاح. قال الأزهرى: وهذا حديث صحيح، وهو الذى يبين أن ابن عباس صح له نهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن المتعة الشرطيّة، وأنه رجع عن إحلالها إلى تحريمها* وقوله: إلا شفىً أى إلاّ أن يُشْفىَ أى يشرف على الزنا ولا يوافقه.. وإنما بيّنتُ هذا البيان لئلا يَغُرَّ بعض الرافضة غيراً من المسلمين، فيحل له ما حرّمه الله عزّ وجلّ على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن النهى عن المتعة الشرطية صح من جهات لو لم يكن فيه غير ما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، ونهيه ابن عباس عنها لكان كافياً، وهى المتعة التى كانت ينتفع بها إلى أمد معلوم، وقد كان نكاحها مباحاً فى أوّل الإسلام، ثم حرم. وهو الآن جائز عند الشيعة* وقوله: «فريضَةً» يعنى لازمة وواجبة وقوله: «ولاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ» قال الخازن: اختلفوا

فيه، فمن حمل ما قبله على نكاح المتعة، قال: أراد أنهما إذا عقدا عقداً إلى أجل على مال، فإذا تم الأجل، فإن شاءت المرأة زادت فى الأجل وزاد الرجل فى الأجر، وإن لم يتراضيا فارقها ــ وقد تقدّم أن ذلك جائز ثم نسخ وحرّم ــ ومن حمل الآية على الاستمتاع بالنكاح الصحيح قال: المراد بقوله: «**ولاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فيمَا تَرَاضيْتُمْ بِهِ**» يعنى من الإبراء من المهر، والافتداء والاعتياض، وقال الزجّاج: معناه لا جناح عليكم أن تهب المرأة للزوج مهرها، وأن يهب الرَّجل للمرأة التى لم يدخل بها نصف المهر الذى لا يجب عليه* وقوله: «**مِنْ بَعْدِ الفريضِةِ**» أى من حطها أو بعضها أو زيادة عليها: «**إنَّ الله كانَ عَليماً**» بخلقه: «**حكيماً**» فيما دبّره لهم، ومن جملته ما شرع لهم من هذه الأحكام رأفةً بحالهم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وللنِّسَاءُ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ واسْئلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شيءٍ عليماً» سورة النِّساء (الآية: ٣٢)

في الواحدي: عن مجاهد قال: قالت أم سلمة رضي الله عنها يا رسول الله: تغزو الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله تعالى «**ولاَ تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ**» الآية* وقال قتادة والسّدى: لمَّا نزل قوله تعالى: «**للذكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيينِ**» قال الرجال: إنا لنرجوا أن نفضّل عن النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث، فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء، وقالت النساء: إنا لنرجوا أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم في الدنيا، فأنزل الله تعالى «**ولا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ بعْضَكُمْ عَلَى بعْضٍ**»* وكذا في القرطبي والخازن وفيه: وقيل: لمَّا جعل الله للذكر مثل حظ الأنثيين من الميراث قالت النساء: نحن أحقّ وأحوج إلى الزيادة من الرجال لأنا ضعفاء، وهم أقوى وأقدر على طلب المعاش فأنزل الله تعالى هذه الآية* ومثله في الطبرى وابن كثير* وفيه عن ابن عباس في الآية قال: أتت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله: للذكر مثل حظّ الأنثيين ، وشهادة امرأتين برجل. أفنحن في العمل هكذا؟ إن فعلت امرأة حسنة كتبت لها نصف حسنة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية «**ولا**

تَتَمَنَّوْا..» فإنه عدل مني وأنا صنعته* وقال السّدى في الآية: إن رجالاً قالوا: إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء كما لنا في السهام سهمان، وقالت النساء: إنا نريد أن يكون لنا من الأجر مثل أجر الشهداء فإنا لا نستطيع أن نقاتل، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا. فأبى الله ذلك. ولكن قال لهم: سلوني من فضلي: قال: ليس بعرض الدنيا* وقد روى عن قتادة نحو ذلك، وعن ابن عباس في تفسير الآية قال: ولا يتمنّى الرجل فيقول: ليت لو أن لى مال فلان وأهله. فنهى الله عن ذلك، ولكن يسأل الله من فضله* وفي الغرائب: وقيل: أتت وافدة النساء إلى الرسول، وقالت: ربّ الرجال والنساء واحد، وأنت الرسول إلينا وإليهم، وأبونا آدم وأمنا حواء، فما السبب في أنَّ الله يذكر الرجال ولا يذكرنا. فنزلت الآية. فقالت: وقد سبقنا الرجال بالجهاد، فما لنا، فقال صلى الله عليه وسلم: [إنَّ للحامل منكنّ أجْرَ الصائم القائم، وإذا ضربها الطلق لم يدر أحدٌ ما لها من الأجر، فإن أرضعت كان لها بكلّ مصّة أجر إحياء نفس] فيكون المعنى لكل فريق جزاء ما اكتسب من الطاعات، فلا ينبغي أن يضيعه بسبب الحسد المذموم. وتلخيصه: لا تضيّع مالك بتمنّي ما لغيرك، فنهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن التّمني لأن فيه تعلّق البال ونسيان الأجل* وقوله: «**للرِّجَالِ نَصيبٌ ممَّا اكتَسَبُوا**» بسبب قيامهم بالنفقة على النساء «**وللنِّساء نصيبٌ ممَّا اكْتَسَبْنَ**» بحفظ فورجهن وطاعة أزواجهن والقيام بمصالح البيت. «**واسألُوا الله مِنْ فَضْلِهِ**» فعنده من ذخائر الأنعام ما لا ينفده مطالب الأنام فخزائن نعمه لا نفاد لها ولا نقصان «**إنَّ الله كَانَ بِكُلِّ شيءٍ عَليماً**» ومنه محلّ الفضل وسؤالكم، فالله عالم به فيجيبه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأقْرَبُونَ والَّذِينَ عَقَدَتْ أيْمَانُكُمْ فآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شيءٍ شهيداً»

سورة النّساء (الآية: ٣٣)

في الواحدي: قال سعيد بن المسيّب: نزلت هذه الآية في الذين كانُوا يتبنَّون أبناء و يورثونهم فأنزل الله فيهم، أن يجعل لهم نصيب في الوصية، وردَّ الله تعالى الميراث إلى الموالى من ذوى الرحم والعصبة، وأبى أن يجعل للمدعين ميراث من ادّعاهم وتبنّاهم.

ولكلٍّ جعلنا نصيباً في الوصيّة» وفي البخارى في كتاب الفرائض من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس «**وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ..**» الآية» قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث الأنصاريّ المهاجريّ دون ذوى رحمه، للأخوّة التي آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم، فلمّا نزلت «**وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ**» قال: نسختها «**والَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ**» قال أبوالحسن بن بطال: وقع في جميع النسخ «**ولِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ**» قال: نسختها «**والَّذِينَ عاقدتْ أيمانُكُمْ**» لكن قال الطبرى: والصواب أن الآية الناسخة «**وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوالِيَ**» والمنسوخة «**والَّذِينَ عاقدت أيْمَانُكُمْ**» وعلى التحقيق أنه لا نسخ بين الآيتين ويمكن الجمع بينهما بأن آية «**والَّذِينَ عَقَدَتْ أيمانُكُمْ**» محكم وليس بمنسوخ. وإنما أمر الله المؤمنين أن يعطوا الحلفاء أنصباءهم من النصرة. والرفادة والنصيحة وما أشبه ذلك وهوقول مجاهد والسّدى واختاره النحاس. ورواه عن سعيد بن جبير» وذلك الآية «**وأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ**» نزلت في إبطال ميراث المتبنين، وهذا ما رواه الزهرى عن سعيد بن المسيّب قال: أمر الله عز وجل الذين تبنّوْا غير أبنائهم في الجاهلية، وورثوا في الإسلام، أن يجعلوا لهم نصيباً في الوصية، ورد الميراث إلى ذوى الرحم والعصبة» والمعنى: ولكن أيها الناس جعلنا عصبة يرثونه ممّا ترك والده وأقرباؤه من ميراثهم له. ولا يوجد في التفاسير غير ما ذكر. قوله تعالى: «**ولِكُلٍّ**» من الرجال والنّساء «**جَعَلْنَا مَوالِيَ**» عصبة يعطون تركته إرثاً «**مِمَّا ترَكَ الْوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ**» أي أن الوالدين والأقربين هم الموروثون. وعبارة الخازن: ولكل من الرجال والنساء جعلنا موالى. يعنى ورثة من بنى عمّ وإخوة وسائر العصبات مما ترك يعنى يرثون مما ترك الوالدان والأقربون. فعلى هذا الوالدان والأقربون هم الموروثون. وقيل: معناه: ولكن جعلنا موالى أي ورثة مما ترك، وتكون ما بمعنى تركهم الميت، ثم فسّر الوالى فقال: الوالدان والأقربون فعلى هذا الوالدان والأقربون هم الوارثون. والمعنى ولكل شخص جعلنا ورثة ممن تركهم وهم والداه وأقرباؤه. والقول الأول أصح لأنه مروى عن ابن عباس وغيره» وملخص القولين: بحيث يكون الوالدان والأقربون هم وارثين وبحيث يكونان موروثاً منهما. والمولى لفظ مشترك بين معان: منها الْمُعْتِقُ لأنه وليّ نعمته في عتقه، ومنها العبد المعتَقُ لا تصال ولاية مولاه في إنعامه عليه. وهذا كما يسمى الطالب غريماً لأن له اللزوم والمطالبة بحقّه، و يُسمّى المطلوب غريماً لكون

الـديـن لازماً له، ومنها الحليف لأن الحالف يلي أمره بعقد اليمين. ومنها ابن العمّ لأنه يليه بالنصرة،ومنه المولى للناصر قال تعالى: «**ذلك بأنَّ الله مولى الَّذِينَ آمَنُوا**» ومنها العصبة وهـو المـراد في الآيـة. وهـو الألـيـق بها كقوله صلى الله عليه وسلم: [أنا أولى بالمؤمنين منْ مـات وتـرك مـالاً فـالـه للـموالى الـعـصـبـة، ومـن تـرك كلاً فأنا وليّه] وقوله «**والَّذِينَ عَاقَدَتْ**» بالألف ودونها، أي قرأ الكوفيُّون عقدت، والباقون عاقدت بألف، وروى عن حمزة: عقّدت بالتشديد. والمفاعلة هنا ظاهرة لأن المراد المحالفة. والمفعول محذوف على كل من الـقـراآت أي حـلـفـهـم. وقـوله «**أيْمَانُكُمْ**» جمع يمين، بمعنى القسم، أو اليد، أو هما جـمـيـعـاً؛ أي الحلفاء الذين عاهدتموهم في الجاهلية على النصرة والإرث، وذلك أنهم كانوا إذا تحـالـفـوا أخـذ كـل واحد منهم بيد صاحبه، وتحالفُوا على الوفاء بالعهد والتمسك بذلك الـعـقـد، وكـان الرجل يحالف الرجل في الجاهلية و يعاقده، فيقال: دمى دمك، وهدمى هدمك، وحربى حربك وسلمى سلمك، ترثني وأرثك، وتطلب بى وأطلب بك، وتعقل عنى وأعـقـل عـنك، فيكون لكل واحد من الحلفين السدس في مال الآخر، وكان الحكم ثابتاً في الجاهـلية وابتداء الإسلام وذلك قوله تعالى «**فآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ**» يعنى اعطوهم حظهم من المـيـراث، ثم نـسـخ الله هذا الحكم بقوله «**وأولوا الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أوْلى ببعْضٍ في كتـابِ الله**» وقوله تعالى «**إنَّ الله كَانَ عَلَى كُلِّ شيءٍ شَهِيداً**» الشهيد بمعنى الشاهد والمراد منه علمه بجميع الأشياء جزئياًتها وكليّاتها. وقيل الشهيد هو الشاهد على الخلق يوم الـقـيـامـة بـكـل مـا عملوه. فيجازيكم عليها في الدار الآخرة. وفيه وعيد للعاصين ووعيد للمطيعين.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«الـرِّجَـالُ قـوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ الله بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أنْفَقُوا مِنْ أمْـوالِهِمْ فالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْب بِمَا حَفِظَ الله والـلاتى تـخَـافُـونَ نُـشُـوزَهُـنَّ فَـعِـظُـوهُـنَّ واهْـجُـرُوهُـنَّ فى الْـمَـضَاجِعِ واضْرِبُوهُـنَّ فَإنْ أطَعْنَكُـمْ فَلاَ تبغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إنَّ الله كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً» سورة النّساء (الآية: ٣٤)

في الـواحـدي: قـال مقاتل: نزلت هذه الآية في سعد بن الربيع، وكان من النقباء،

وامرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير، وهما من الأنصار، وذلك أنها نشزت عليه، فلطمها، فانطلق أبوها معها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أفرشته كريمتي فلطمها، فقال صلى الله عليه وسلم: لتقتص من زوجها، وانصرفت مع أبيها لتقتص منه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ارجعوا هذا جبريل عليه السلام أتاني. وأنزل هذه الآية، فقال صلى الله عليه وسلم: أردنا أمراً وأراد الله أمراً، والذى أراد خير، ورفع القصاص* وفي القرطبي: وقال أبوروق: نزلت في جميلة بنت عبدالله بن أبيّ، وفي زوجها ثابت بن قيْس بن شمّاس* وقال الكلبيّ: نزلت في عميرة بنت محمد بن مسلمة، وفي زوجها سعد بن الربيع — وقد تقدم أن اسمها في الواحدى حبيبة. كذا في الغرائب وغيره* وقوله تعالى **«الرِّجَالُ قَوّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ»** أي يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية من نفقة وذبّ عنهنّ، وعلّل ذلك بأمرين: أحدهما وهبيّ والآخر كسبيٌّ. وقد ذكر الأول بقوله تعالى **«بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ»** أي بسبب تفضيله الرجال على النساء بكمال العقل، وحسن التدبير، ومزيد القوة في الأعمال والطاعة، ولذلك خصُّوا بالنُّبوّة والإمامة والولاية، وإقامة الشعائر والشهادة في مجامع القضايا، ووجود الجهاد والجمعة والتعصيب، وزيادة السهم في الميراث والاستبداد بالفراق، والرجعة، وعدد الأزواج، وإليهم الانتساب. وهم أصحاب اللحى والعمائم. بل المرأة يعود أصلها إلى الرجل، وأعنى بذلك حواء وآدم عليهما السلام. ثم ذكر الثاني بقوله **«وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ»** في نكاحهنّ كالمهر والنفقة، وإكرام الضيفان روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: [لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها] وفي الآية دليل على أن الولاية إنما تستحق بالفضل لا بالتغلّب والاستطالة والقهر. وقال العلماء: لا قصاص بين الرجل وامرأته فيما دون النفس. ولو شجّها. ولكن يجب الْعَقْلُ. وقيل: لا قصاص إلاّ في الجرح والقتل، وأمّا اللطمة ونحوها فلا. وقوله تعالى **«فالصّالحات»** منهن **«قانِتَاتٌ»** مطيعات لأزواجهنّ **«حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ»** أي لفروجهنّ وغيرها في غيبة أزواجهنّ **«بِمَا حَفِظَ اللهُ»** حيْثُ أوصى عليهن الأزواج فأنت ترى أن الله تعالى قسّم النّساء قسمين: فوصف الصالحات منهن بأنهن قانتات مطيعات لله وللزوج، حافظات للغيب، قائمات بحقوق الزوج في غيبته، وذلك بأن تحفظ نفسها عن الزنا لئلا يلحق الزوج العار بسبب زناها، ولئلا يلحق به الولد الحاصل من نطفة غيره فيرثه ظلماً وعدواناً. وأن تحفظ أسراره عن الافشاء، وماله

عن الضياع، ومنزلها عما لا ينبغي شرعاً وعرفاً. عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [خيْرُ النِّساءِ امرأةٌ إن نظرت إليها سرّتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها وتلا الآية] وما في قوله «بِمَا حَفِظَ اللهُ» موصولة، والعائد محذوف، أي بالذى حفظ الله لهنّ. أي عليهنّ أن يحفظن حقوق الزوج في مقابلة ما حفظ الله حقوقهنّ على أزواجهنّ حيث أمرهم بالعدل فيهنّ في قوله «فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ» فقوله «بِمَا حَفِظَ اللهُ» يجرى مجرى قولهم: هذا بذاك أي هذا في مقابلة ذاك، أو أنها مصدرية، فيكون المعنى: أنهنّ حافظات للغيب بحفظ الله إيّاهُنّ، فإنّهُنّ لا يتيسر لهنّ حفظ الغيب إلا بتوفيق الله تعالى. وقوله تعالى «وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ» النشوز العصيان. مأخوذ من النشز. وهو ما ارتفع من الأرض. وعليه انشزوا، أي قومُوا، أي تعلمون وقوع النشوز منهنّ أولا «فَعِظُوهُنَّ» أي خوّفوهنّ، كان يقول لزوجته: اتق الله في الحق الواجب لى عليك، واحذرى العقوبة من الله، و يبين لها أن النشوز يُسقطُ النفقةَ والقسم، فإن لم تُجد هذه العظة بها، فينتقل الزوج إلى التطبيق العملى وهي العقوبة المادية الجسديّة بعد الثانية «وَاضْرِبُوهُنَّ» ضرباً غير مبرح، وهو الذي لا يخدش وجهاً ولا يكسر عظماً، أو يؤدى إلى التهلكة. والأولى ترك الضرب لما روى أنّه صلى الله عليه وسلم قال: [لاَ تَضْرِبُوا إماءَ الله» فجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ذئرت النساء على أزواجهن، أي اجترأت، فرخص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهنّ ليس أولئك بخياركم] ومعناه أن الذين ضربوا أزواجهم ليسو خيراً ممن لم يضربوا، وإذا ضربها وجب أن لا يكون مفضياً إلى الهلاك البتة، وأن يكون مفرّقاً على بدنها لا يوالى به في موضع واحد، و يتّقى الوجه لأنّه مجمع المحاسن، وأن يكون دون الأربعين. وقيل: دون العشرين لأنّه حد كما في شرب العبد، ومنهم من لا يرى الضرب، بالسياط ولا بالعصا، و بالجملة فالتّخفيف مرعى في هذا الباب، ولهذا قال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه: يعظها بلسانه، فإن انتهت فلا سبيل له عليها، فإن أبت هجر مضجعها: فإن أبت ضربها، فإن لم تتعظ بالضرب بعث الحكمين. وقال آخرون: هذا الترتيب مرعى عند خوف النشوز، فأما عند تحقق النشوز فلا بأس بالجمع بين الكل. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم: [علّق سَوْطَكَ حيث يراهُ

أهلك] وقوله تعالى «**فإن أطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنّ سَبِيلاً**» بالأذى والتوبيخ، واجعلوا ما كـان منهن كأن لم يكن. وإطاعتهن فيما يراد منهنّ من طلاقة وجه وطيب كلام وحسن معاشرة.

((ما تدل عليه الآيــة))

دلّت الآية على ما يلي :

١ ــ على الرجال تأديب نساءهم بما يحفظ حقوقهم، فإذا حفظن حقوق الرجال فلا ينبغي أن يساء عشرتهنّ.

٢ ــ القوامة وهي تدبير شؤون الانفاق، وتأديب النساء وإمساكهن في بيوتهنّ ومنعهنّ من البروز كاسيات عاريات كما يفعل بعض نساء اليوم.

٣ ــ على المرأة طاعة زوجها، وقبول أمره ما لم تكن في معصية.

٤ ــ وإذا أعسر الزوج عن النفقة فللزوجة حقّ فسخ العقد، وذلك لزوال المقصود ممّا شرع لأجله النكاح، وهذا مذهب مالك والشافعي لقوله تعالى: «**وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أمْوَالِهِمْ**» وخالف أبوحنيفة بقوله: «**وإنْ كانَ ذو عُسْرَةٍ فَنَظْرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ**» وقوله: «**إنَّ الله كانَ علياً كَبيراً**» فاحذروه أن يعاقبكم إن ظلمتموهنّ.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«الّــذِينَ يَبْخَلُونَ ويَأمُرُونَ النَّاسَ بالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ ما آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ وأعْتَدْنَا لِلْكَافِرِين عَذَاباً مُهِيناً * والّذِينَ يُنْفِقُونَ أمْوَلَهُمْ رئاءَ النَّاسِ ولاَ يُــؤْمِنُونَ بالله وَلاَ بالْيَومِ الآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً * وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بالله والْيَومِ الآخِرِ وأنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ الله وَكَانَ الله بِهِمْ عَلِيماً» سورة النِّساء (الآية: ٣٧ ـ ٣٩)

في الواحدي: قال أكثر المفسّرين: نزلت في اليهود. كتموا صفة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يُبينوها للناس، وهم يجدونها مكتوبة عندهم في كتبهم* قال ابن عباس وابن زيد: نزلت في جماعة من اليهود، كانوا يأتون رجالاً من الأنصار يخالطونهم، و ينصحونهم، و يقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر، فأنزل الله تعالى: «**الّذِينَ**

يبْخَلُونَ و يأمُرونَ النَّاسَ بالبخل..» إلى «**عَليماً**» كما في القرطبي* وفيه وقيل: نزلت في مطعمى يوم بدر، وهم رؤساء مكة. أنفقوا أموالهم على الناس ليخرجوا إلى بدر* قلت: هذا القول أصح من سابقيه لأن اليهود يؤمنون بالله واليوم الآخر، وكفار مكة ليسوا كذلك فيرجح أن تكون الآية نزلت فيهم. أو أن الآية الأولى نزلت في اليهود، والثانية والثالثة في مطعمى بدر. وحدّث وهب عن ابن زيد في قوله «**الّـذِينَ يَبْخَلُونَ و يأمُرُونَ النَّاسَ بالبخْلِ..**» قال: هؤلاء يهود. وقرأ: و يكتمون ما آتاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ. قال: يبخلون بما آتاهم الله من الرزق، و يكتمون ما آتاهم الله من الكتاب إذا سئلُوا عن الشيء، وما أنزل الله كتموه، وقرأ: «**أمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فإذاً لا يأتُونَ النَّاسَ نقِيراً**» من بخلهم* وفي الطبرى والقرطبي عن ابن عباس ومجاهد: كان النزول إلى قوله «**وكانَ الله بِهِمْ عَلِيماً**» وفي الخازن بعد أن أورد قول ابن عباس: وقيل: يحتمل أن يكون لمراد بالبخل كتمان العلم، ومنع المال لأن البخل في كلام العرب منع السائل من فضل ما لديْه، وإمساك المقنيات، وفي الشرع البخل عبارة عن إمساك الواجب ومنعه. وإذا كان ذلك أمكن حمله على منع المال ومنع العلم. وقوله تعالى «**والّـذِينَ يبْخَلُونَ**» بما يجب عليهم «**و يأمُرُونَ النَّاسِ بالبُخْلِ**» به «**و يكتُمُونَ ما آتَاهُمْ الله مِنْ فَضْله**» من العلم والمال، وهم اليهود في قول. أو مطعمى يوم بدر في قول آخر «**وأعْتَدْنَا لِلْكَافِرينَ**» هيّئنا للكافرين بذلك و بغيره «**عَذَاباً مُهيناً**» ذا إهانة، وهذا دليل على أن من أنكر نعم الله وكفر بها، فله عذاب يهينه كما أهان نعم الله عليه بالبخل والاخفاء وفي الحديث كما رواه أحمد في مسنده [وإذا أنعم الله على عبد نعمة أحبّ أن يظهر أثرها عليه] وعلى هذا فيكون معنى الكافرين هنا الجاحدين نعم الله عليهم ومثلهم «**والّـذِينَ**» عطف على الذين قبله في صدر الآية، أو على الكافرين بناء على إجراء التغاير الوصفي مجرى التغاير الذاتي. «**يُنْفِقُونَ أمْوَالَهُمْ رِئاءَ النَّاس**» مرائين لهم في الانفاق لا يبتغون بها وجه الله، أنفقوها ليقال عنهم: ما أسخاهم وما أجودهم، ومثل هذا الانفاق يدل على أن صاحبهُ كما قال تعالى: «**وَلاَ يُؤْمِنُونَ بالله ولاَ باليَومِ الآخِرِ**» لأنه لم ينفق لله ولا لليوم الآخر، ولو كان يؤمن بذلك لكان مخلصاً لله في إنفاقه. «**ومَنْ يكُنِ الشيطَانُ لَهُ قَريناً**» في الدنيا آمراً له بالبخل والفحشاء «**فَسَاءَ قريناً**» في الآخرة يقرن به في النار، ثم استفهم تعالى على سبيل الانكار فقال: «**وماذا عليهم؟**» أي أي تبعة و وبال عليهم، أو ماذا عليهم في

باب الإيمان والانفاق في سبيل الله، والمراد بقوله: «وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله» التوبيخ كما يقال للمنتقم: ما ضرّك لوعفوت، وللعاق: ما كان يرزؤك لو كنت باراً، وقوله «وكان الله بهم عليماً» فيجازيهم بما عملوا. وفي هذا حثّ على إصلاح أفعال القلوب التي يطلع عليها علام الغيوب، وردع عن دواعي النفاق والرياء، والسمعة والفخار بل ينبغي أن يكون الانفاق لابتغاء وجه الله تعالى وطلب ثوابه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً» سورة النّساء (الآية: ٤٣)

ورد في سبب نزول الآية سببان: الأول في الواحدي: نزلت الآية في أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يشربون الخمر ويحضرون الصلاة وهم نشاوى. فلا يدرون كم يصلون ولا ما يقولون في صلاتهم. وقال عطاء: صنع عبدالرحمن بن عوف طعاماً، ودعا أناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فطعموا وشربوا، وحضرت صلاة المغرب، فتقدّم بعضهم، فصلى بهم المغرب فقرأ (قل يا أيها الكافرون ــ أعبد ما تعبدون ــ بحذف لا إلى آخر السورة) فلم يتمها فأنزل الله هذه الآية* والثاني عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفارنا حتى كنا بالبيداء، أو بذات الجيش، انقطع عقد لى، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه، وأقام الناس معه وليسوعلى ماء، وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر، فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالنّاس معه وليس معهم ماء!! فجاء أبوبكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع رأسه على فخذى قد نام أجلست رسول الله صلى الله عليه وسلم والنّاس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟ قالت: فعاتبنى أبوبكر: وقال: ما شاء الله أن يقول فجعل يطعن

بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرّك إلا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبح على غير ماء. فأنزل الله تعالى آية التيمم فتيمَّمُوا، فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء: ما هي بأوّل بركتكم يا آل أبي بكر. قالت عائشة: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته. رواه البخاري عن اسماعيل بن أبي أويس. وفي رواية ابن عباس عن عمّار بن ياسر قال: فقام المسلمون فضربوا بأيديهم الأرض، ثم رفعوا أيديهم إلى الآباط* قال الزهري: وبلغنا أنَّ أبا بكر قال لعائشة: والله إنك ما علمت إلاَّ مباركة* وفي السبب الأول جاء في الخطيب: روى أن عبدالرحمن بن عوف صنع طعاماً وشراباً فدعا نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان الخمر مباحاً، فأكلوا وشربوا، فلمّا سكروا جاء وقت صلاة المغرب. فقدموا أحدهم يصلي بهم، فقرأ: (قل يا أيُّها الكافرون ـــ أعبد ما تعبدون ـــ بحذف لا هكذا إلى آخر السورة) فنزلت. فكانوا لا يشربونها في أوقات الصلاة، فإذا صلوا العشاء شربوها، فلا يصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر، وعلموا ما يقولون، ثم نزل تحريمها. وقيل: أراد بالصلاة مواضعها، وهي المساجد، وقيل: أراد بالسكر سكر النوم ـــ وهو مروى عن الضحاك. وقال عبيدة السلماني «**وأنْتُمْ سُكَارى**» أي حاقنا لحديث [لا يصلينَّ أحدكم وهو حاقب] كذا في الخطيب* وهذا مخالف لما ورد من سبب نزولها، ففي الخازن: سبب نزول هذه الآية ما روى عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: صنع لنا ابن عوف طعاماً فدعانا فأكلنا وأسقانا خمراً قبل أن تحرم الخمر فأخذت منّا وحضرت الصلاة أي صلاة المغرب فقدموني فقرأت: (قل يا أيها الكافرون ـ أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون) قال: فخلطتُ فنزلت: «**ولا تقْرَبُوا الصلاة وأنْتُمْ سُكارى حتى تعلموا ما تقولون**» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب حسن صحيح. والسكر لغة: السدّ. ومنه قيل لما يعرض للمرء من شرب المسكر لأنه يسدُّ ما بين المرء وعقله. وأكثر ما يقال: السكر لازالة العقل بالمسكر. وقد يقال ذلك لازالته بغضب ونحوه من عشق وغيره. والسَّكْرُ: بالفتح وسكون الكاف، حبس الماء، وبالكسر، نفس الموضع المسدود، وأما السَّكَرُ: بفتحتان فما يسكر به من المشروب، ومنه «**سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً**» وقد ردّ على الضحاك ابن جرير كما في ابن كثير بقوله: والصواب أن المراد سكر الشراب، قال: ولم يتوجه النهي إلى السكران الذي لا يفهم الخطاب لأن ذاك في حكم المجنون، وإنما خوطب

بالنهي الثمل الذي يفهم التكليف. وهذا حاصل ما قاله. وقد ذكره غير واحد من الأصوليين وهو أن الخطاب يتوجّه إلى من يفهم الكلام دون السكران الذي لا يدرى ما يقال له: فإن الفهم شرط التكليف. وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهى عن السكر بالكليّة لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً، وفي القرطبي: روى أبوداود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لمّا نزل تحريم الخمر قال عمر: اللهمَّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في البقرة «**يسألونك عن الخمر والميسر**» قال: فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهمَّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في النّساء «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تقربوا الصّلاة وأنتم سكارى**» فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى: ألا لا يقربن الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهمَّ بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت آية «**إنَّما الخمر والميسر والأنصابُ والأ زلام رجسٌ**» إلى قوله: «**فَهَلْ أنْتُمْ مُنْتَهُونَ**» قال عمر: انتهينا يارب، وقال سعيد بن جبير: كان الناس على أمر جاهليتهم حتى يؤمروا أو ينهوا، فكانوا يشربونها أوّل الإسلام حتى نزلت «**يسألونَك عنِ الْخَمْرِ والمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إثْمٌ كبيرٌ وَمَنَافِعُ للنَّاس**» قالوا: نشربها للمنفعة لا للإثم، فشربها رجل فتقدم يصلي بهم فقرأ: (قل يا أيها الكافرون ـ أعبد ما تعبدون ـ) فنزلت «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تقْربُوا الصلاة وأنتُم سُكَارَى**» فقالوا: في غير الصلاة، فقال عمر: اللهمَّ أنزل علينا في الخمر بياناً شافياً فنزلت «**إنّما يُريدُ الشيْطَانُ**» الآية فقال عمر: انتهينا انتهينا، ثم طاف منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألاَّ إن الخمر قد حرّمت، وعامة المفسرين ذكروا حديث عائشة في آية التيمم، وسبب نزولها. إلا القرطبي قال: آية التيمم نزلت في عبدالرحمن بن عوف أصابته جنابة وهو جريح، فرخص له في أن يتيمم، ثم صارت عامة في جميع الناس. والأول أصحُ لأنه مخرّج في الصحيحين، وأجمع المفسرون على أنها نزلت في الخمر قوله تعالى: «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصّلاةَ وأنتُم سُكَارى**» في لفظ الصلاة ههنا قولان:

أحدها: أن المراد منه المسجد، وهوقول ابن عباس وابن مسعود والحسن، وإليه يذهب الشافعى، وليس فيه إلا حذف المضاف. أي لا تقربوا مواضع الصلاة.

وثانيها: وعليه الأكثرون أن المراد نفس الصلاة. أي لا تصلُّوا إذا كنتُم سكارى.

ومعنى الآية على القول الأول: لا تقربوا المسجد في حالتين: أحدهما حالة السكر: وذلك أن الإنسان إذا أتى المسجد فإنما يأتيه للصلاة. ولا شك أن الصلاة فيها أقوال مخصوصة يمنع السكر منها، وثانيها حالة الجنابة: واستثنى من هذه الحالة حالة العبور. أي الاجتياز في المسجد بأن كان الطريق إلى الماء فيه، أو كان الماء فيه.

والمعنى على القول الثاني: النهى عن الصلاة في حالتين: الأولى حالة السكر أيضاً إلاّ إذا علموا ما يقولون (وقد علمت أنها حرّمت على التأبيد) ومعنى قربان الصلاة: غشيانها، والقيام إليها، والثانية حالةالجنابة: و يستثنى منها حالة عبور السبيل، و يراد به في هذا القول السفر، أي لا تقربوا الصلاة في حالة الجنابة إلا ومعكم حال أخرى تعذرون فيها، وهي حال السفر.

ويجوز أن يكون إلاّ عابرى سبيل صفة لقوله جنباً: أى لا تقربوها جنباً غير عابرى سبيل أي جنباً مقيمين غير معذورين. والعبور: الجواز «**حتى تَغْتَسِلُوا**» فلكم أن تصلوا وقوله: «**وإنْ كُنْتُم مَرْضى**» مرضاً يضره الماء «**أوْعَلى سَفَرٍ**» أي مسافرين. وأنتم جنب أو محدثون حدثاً أصغر «**أوْجَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ**» هو المكان المعد لقضاء الحاجة أي أحدث بالخروج «**أوْلاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ**» وفي قراءة «**أولَمَسْتُمْ**» وكلاهما بمعنى اللّمس: وهو الجسّ باليد، قاله ابن عمر، وعليه الشافعيّ، وألحق به الجسّ بباقي البشر. وعن ابن عباس هوالجماع وهوقول أبي حنيفة. وهى مسألة خلافية مبسوطة في الفروع. وقوله «**فَلَمْ تَجِدُوا ماءً**» تتطهرون به للصلاة بعد الطلب والتفتيش، وهوراجع إلى ما عدا المرضى لأنه يباح لهم ذلك في حالة مرضهم «**فتَيَمَّمُوا**» اقصدُوا بعد دخول الوقت «**صَعِيداً طَيِّباً**» تراباً طاهراً، فاضربوا به ضربتين «**فامْسَحُوا بوجُوهِكُمْ وأيْديكُمْ**» مع المرفقين منه «**إنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً**» وهو كالتعليل للترخيص المستفاد مما قبله. فعلم أن المسافر إذا أجنب ثم لم يجد الماء تيمّم وصلى مع الجنابة حتى يجد الماء، وكذا المقيم المريض الذي يضره الماء يتيمم و يصلى حتى يشفى من مرضه «**مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**» روى أنَّ بعض الصحابة أصابته جنابة،وكان به جراحة عظيمة فسأل بعضهم فلم يفته بالتيمم فاغتسل فمات. فسمع النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قتلوه قتلهم الله. حتى قال مالك وداود: يجوز له التيمم بجميع أنواع المرض. وفي معنى المرض: البرد المؤدى إلى المرض. وأكثر العلماء ألحقوا بالغائط كل ما يخرج من

السّبيلين من معتاد أو نادر. وعلى مذهب الشافعى قال بعض أهل الظاهر: إنما ينتقض وضوء اللامس دون الملموس لقوله لمستُمْ. والصحيح أنه ينتقض وضوُّهما معاً لاشتراك اللامس والملموس في ابتغاء اللذة. وقيل: عند عدم القصد لا نقض لكليهما. أي بأن يكون اللمس عفوياً لا عن قصد، بأن أراد أن يتناول من المرأة متاعاً فأصاب يدها بيده.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ ولاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً* انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وكَفَى به إِثْماً مُبيناً»

سورة النِّساء (الآية: ٤٩، ٥٠)

في الواحدي: قال الكلبيُّ: نزلت في رجال من اليهود أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأطفالهم وقالوا يا محمد: هل على أولادنا هؤلاء ذنب؟ قال: لا، فقالوا: والذي نحلف به ما نحن إلا كهيئتهم، ما من ذنب نعمله بالنهار إلاَّ كفّر عنّا بالليل. وما من ذنب نعمله بالليل إلاَّ كفرعنّا بالنهار. فهذا الذي زكُّوا به أنفسهم* وكذا في الخطيب: وفي الخازن: وقال ابن عباس: نزلت في رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم اليهوديين. كانا إذا تكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يا ألسنتها وعاباهُ. فأنزل الله الآية* وفي الجلال: نزلت في اليهود حيث قالوا: نحن أبناؤ الله وأحباؤه* وقيل: هم النَّصارى لأنَّ هذه المقالة لهما* في ابن كثير: قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية وهي قوله: **«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ»** في اليهود والنصارى حين قالوا **«نحنُ ابناءُ اللهِ وأَحِبَّاؤُهُ»** وفي قولهم: **«لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارى»** وقال مجاهد: كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمونهم، و يزعمون أنهم لا ذنوب لهم* وكذا قال عكرمة وأبومالك، وروى ذلك ابن جرير* وقال العوفى عن ابن عباس في قوله **«أَلمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ»** وذلك أن اليهود قالوا: إنَّ أبناءنا توفّوْا وهم لنا قربة، و يشفعون لنا. و يزكوننا. فأنزل الله على محمد **«أَلمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ»** الآية ... وفيه أقوال لا زيادة في معناها على ما ذكر. وقوله تعالى: **«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ»** الاستفهام تعجّبى، أي ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم تعجب من حالهم المنافية لما هم عليه من الكفر والطغيان، وقد علمت أن المراد بهم اليهود الذي يقولون:

نحن أبناء الله وأحباؤه. أي انظر إليهم فتعجب من ادعائهم أنهم أزكياء عند الله تعالى مع ما هُم عليه من الكفر والإثم العظيم. أو من ادّعائهم التكفير مع استحالة أن يغفر للكافر شيء من كفره، أو معاصيه، وفيه تحذير من اعجاب المرء بنفسه، وقوله تعالى: **«بَلْ اللهُ يُزَكّي مَنْ يَشَاءُ»** تنبيه على أنَّ تزكيته تعالى هي المعتد بها دون تزكيتهم أنفسهم. وفي صحيح مسلم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سمّيتُ ابنتي بُرَّة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة، إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا الإسم، وسميتُ برّة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تُزَكُّوا انْفُسَكُمْ، الله أعلم بأهل البرّ منكم» فقالوا: بم نسميها؟ فقال: سمُّوها زينب. قال القرطبي: فقد دل الكتاب والسنة على المنع من تزكية الإنسان نفسه، ويجرى هذا المجرى ما قد كثر في هذه الديار المصرية من نعتم أنفسهم بالنعوت التي تقتضي التزكية، كزكى الدين، ومحى الدين، وما أشبه ذلك. لكن لمّا كثرت قبائح المسلمين بهذه الأسماء ظهر تخلف هذه النعوت عن أهلها فصارت لا تفيد شيئاً، فأما تزكية الغير ومدحه له، فعن البخارى من حديث أبى بكرة أن رجلاً ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه رجل خيراً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [و يْحَكَ قطعتَ عنق صاحبك ــ يقوله مراراً ــ إن كان أحدكم مادحاً لا محالة، فليقل: أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك، وحسيبه الله، ولا يزكى على الله أحداً] وعلى هذا تأوّل العلماء قوله عليه الصلاة والسلام: [احثُوا التُّراب في وجوه المدّاحين] أن المراد به، المدّاحون في وجوههم بالباطل، وبما ليس فيهم حتى يجعلوا ذلك بضاعته يستأكلون به الممدوح وَ يَفْتَتِنونَهُ، فأما مدح الرجل بما فيه من الفعل الحسن والأمر المحمود ليكون ذلك ترغيباً له فى أمثاله وتحريضاً للناس على الإقتداء به في أشباهه فليس بمدّاح، وإن كان قد صار مادحاً بما تكلم به من جميل القول فيه، وهذا راجع إلى النيات **«والله يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ»** وقد مدح صلى الله عليه وسلم في الشعر والخطب والمخاطبة، ولم يحث التراب في وجوه المدّاحين، وقد مدح أصحابه بقوله: [إنّكم لتقلُّون عند الطمع، وتكثُّرون عند الفزع] وأمّا قوله عليه الصلاة والسلام: [لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، وقولوا: عبد الله ورسوله] فمعناه لا تصفونى بما ليس فيَّ من الصفات تلتمسون بذلك مدحى، كما وصفت النصارى عيسى بما لم يكن فيه، فنسبوه إلى أنه ابن الله. فكفروا بذلك وضلُّوا، وهذا يقتضى أنَّ من رفع امرأ فوق حدّه وتجاوز مقداره بما ليس فيه فمعتدٍ

أثيم، لأن ذلك لو جاز في آحد لكان أولى الخلق بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم* وقوله «ولاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً» أي لا ينقصون من أعمالهم الصالحة بقدر قشرة النواة. أو «ولاَ يُظْلَمُونَ» عطف على جملة قد حذفت تعويلاً على دلالة الحال عليها، وإيذاناً بأنها غنية عن الذكر. أي يعاقبون بتلك الفعلة القبيحة ولا يظلمون في ذلك العقاب فتيلاً. أي أدنى ظلم وأصغره، وهو الخيط الذي في شقّ النواة، يضرب به في القلّة، والحقارة. وقيل: التقدير، يثاب المزكون ولا ينقص من ثوابهم شيء أصلاً، ولا يساعده مقام الوعيد. «انْظُرْ» متعجباً «كَيْفَ يَفْتَرُونَ على اللهِ الكَذِبَ» بذلك القول السابق «وكَفَى بِهِ» بالافتراء وحده «إِثْماً مُبيناً» بيناً.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ والطَّاغُوتِ ويقولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سبيلاً* أولئكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ومَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً* أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فإذاً لاَ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً* أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ على ما آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ وآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً»

سورة النّساء (الآية: ٥١ ـ ٥٤)

في الواحدي: قال عكرمة: جاء حييُّ بن أخطب، وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم. فأخبرونا عنّا وعن محمد؟ فقالوا: ما أنتُم وما محمد؟ قالوا: ننحر الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونفك العانى، ونصل الأرحام، ونسقي الحجيج، وديننا القديم ودين محمد الحديث. قالا: بل أنتُم خير منه وأهدى سبيلاً فأنزل الله تعالى «أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكتاب» إلى قوله تعالى «وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لهُ نَصيراً» بل كان النزول إلى «ملكاً عظيماً»* وفيه وقال المفسرون: خرج كعب بن الأشرف في سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفُوا قريشاً على غدر رسول الله صلى الله عليه وسلم و ينقضوا العهد الذي كان

بينهم، و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل كعب على أبى سفيان، ونزل اليهود في دور قريش، فقال أهل مكة: إنكم أهل كتاب، ومحمد صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردتَ أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما. فذلك قوله «**يُؤمِنونَ بالجُبْتِ والطاغُوتِ**» ثم قال كعب لأهل مكة: ليجيء منكم ثلاثون ومنا ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة، فنعاهد ربّ البيت لتجهدن على قتال محمد، ففعَلُوا ذلك، فلما فرغوا، قال أبوسفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أمِيُّون لا نعلم، فأيُّنَا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحق؟ أنحن أم محمد؟ فقال كعب: اعرضوا عليَّ دينكم فقال أبوسفيان: نحن نخرج للحجيج الكوماء، ونسقيهم الماء، ونقرى الضيف، ونفك العانى، ونصل الرحم، ونعمرّ بيت ربّنا، ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمد فارق دين آبائه، وقطع الرحم، وفارق الحرم، ور بنا القديم، ودين محمد الحديث. فقال كعب: أنتُم والله أهدى سبيلاً مما هوعليه. فأنزل الله تعالى «**أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ أُتُوا نَصِيباً مِنَ الكتاب**» يعنى كعباً وأصحابه الآيات* وكذا في الخازن: «**يُؤمِنُونَ بالْجِبْتِ والطَّاغُوتِ**» يعنى سجودهم للصنمين، قال الخازن: واختلف العلماء فيهما. فقيل: الجبت والطاغوت: كل معبود دون الله عزّ وجلّ، وقيل: هما صنمان كانا لقريش، وهما اللذان سجد اليهود لهما لمرضاة قريش. وقيل: الجبت اسم للأصنام، والطاغوت شياطين الأصنام، ولكل صنم شيطان يعبّر فيه، و يكلّم النّاس، فيغترّوا بذلك. وقيل: الجبت: الكاهن، والطاغوت: الساحر* وفي القرطبي: اختلف أهل التأو يل في تأو يل الجبت والطاغوت، فقال ابن عبّاس وابن جبير وأبوالعالية: الجبت: الساحر بلسان الحبشة، والطاغوت: الكاهن* وقال الفاروق عمر رضي الله عنه: الجبت: السحر. والطاغوت: الشيطان* وقال ابن مسعود: الجبت والطاغوت هٰهنا: كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب. وعكس عكرمة فقال: الجبت حيي بن أخطب، والطاغوت: كعب بن الأشرف. ودليله قوله تعالى «**يُرِيدُونَ أن يتحاكموا إلى الطَّاغُوتِ**» أي كعب بن الأشرف* وروى عن مالك بن أنس: الطاغوت: ما عبد من دون الله* وكلمة جبت في اللغة: تقع على الصنم والكاهن والسّاحر ونحو ذلك. وقيل: الجبتُ: كل ما حرّم الله، والطاغوت: كل ما يطغى الإنسان. ومثل ما في الخازن من القول في سبب نزولها في الطبرى. قال: وأنزل إلى قوله «**وآتيناهم مُلْكاً عَظيماً**»* وفي الجلال: الجبت

والطاغوت: صنمان لقريش* وفي الغرائب: زيادة على ما ذكر. فلما رجعا ــ إلى كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب ــ إلى قومهما. قال لهما قومهما: إنَّ محمداً يزعم أنه قد نزل فيكما كذا وكذا، قالا: صدق والله ما حملنا على ذلك إلا بغضه وحسده* وقوله «**و يَقُولُونَ لِلَّـذِينَ كَفَرُوا**» أي إلى أبي سفيان وأصحابه حين قالوا لهم: نحن أهدى سبيلاً، ونحن ولاة البيت نسق الحاج ونقرى الضّيفَ..الخ. أي لأجلهم أو في شأنهم. والقائل كعب: لكن لمّا أقرّه الباقون صاروا كأنهم قائلون. «**هَؤُلَاءِ**» أي أنتم فالقول بالمشافهة، والأظهر أنّه حكاية بالمعنى. «**أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً**» أقوم طريقاً «**أُولَئِكَ الَّـذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ**» يعنى كعب بن الأشرف وأصحابه، وهو استئناف لبيان حالهم وما يصيرون إليه «**وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ**» أي ومن يلعنه الله «**فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً**» ما نعاً من عذابه وقوله: «**أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ**» الاستفهام انكارى بمعنى بلى ليس لهم من الملك شيء البتة، وذلك أن اليهود كانُوا يقولون نحن أولى بالملك والنبوّة فكيف نتبع العرب. فأكذبهم الله تعالى وأبطل دعواهم. وما قالُوا ذلك إلاَّ من حيث أن النبوة كانت في بنى إسرائيل وكان فيهم الملوك فطمعُوا أن تعودَ فيهم النبوّة، وتعود الملوك منهم ولو كان الأمر كما تمنّوا «**فإذاً لا يأتُونَ النَّاس نَقيراً**» أي شيئاً تافها قدر النقرة في ظهر النواة لفرط بخلهم، والمراد بقدر نقرة النواة أي ما يملؤها. فكيف يستحقون ذلك، وهذه الآية كقوله تعالى: «**قُلْ لو أنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ ربّى إذاً لأمْسَكْتُمْ خشيَّةَ الانفاق وكانَ الانْسَانُ قتوراً**» أي بخيلاً. وقوله تعالى: «**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى مَا آتَاهُمَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ**» يعنى بذلك حسدهم النبي صلى الله عليه وسلم على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومَنَعَهُم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب، وليس من بنى إسرائيل. وأخرج الطبرانى عن ابن عباس في قوله «**أَمْ يَحسُدُونَ النَّاسَ**» الآية قال: نحن الناس دون الناس. قال الله تعالى: «**فقدْ آتينَا آلَ إبراهِيمَ الكِتَابَ والحكمة وآتيناهُم ملكاً عظيماً**» الآية أي فقد جعلنا في أسباط بنى إسرائيل الذي هم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتاب وحكموا فيهم بالسنن، وهى الحكمة، وجعلنا منهم الملوك،ومع هذا فنهم من آمن به أي بهذا الإيتاء وهذا الإنعام، ومنهم من صدّ عنه أي كفر به وأعرض عنه، وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم أي من بنى إسرائيل، فقد اختلفوا عليهم فكيف بك يا محمد ولست من بنى إسرائيل* وقال مجاهد:

فنهم من يؤمن به أي بمحمد صلى الله عليه وسلم، ومنهم من صدّ عنه، فالكفرة منهم أشدُّ تكذيباً لك وأبعد عمّا جئتَهمْ به من الهدى، والحق المبين، ولهذا قال متوعداً لهم «وكفَى بِجَهنَّمَ سَعِيراً» أي وكفى بالنار عقوبة على كفرهم وعنادهم. ومخالفتهم كتب الله ورسله* هذا والحسد مذموم، وصاحبه مغرم وهو يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب، رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال الحسن: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسدٍ، نفس دائم، وحزن لازم. وعبرة لا تنفد* وقال عبدالله بن مسعود: لا تعادوا نعم الله؟ قيل له: ومن يعادى نعم الله؟ قال: الذين يحسدُون الناس على ما آتاهم الله من فضله* يقول تعالى في بعض الكتب. (الحسود عدوّ نعمتى، متسخّط لقضائى، غير راضى بقسمتى)* ولمنصور الفقيه:

ألا قل لمن ظلَّ لى حاسداً أتدرى على من أسأتَ الأدبْ
أسأتَ على الله في حكمه إذا أنت لم ترضى لى ما وهبْ

و يقال: الحسد: أول ذنب عُصى الله به في السماء، وأول ذنب عُصى به في الأرض، فأمّا في السماء: فحسد ابليس لآدم، وأمّا في الأرض: فحسد قابيل لهابيل.

وما أحسن من قال:

أصبر على حسد الحسو دِ فإنَّ صَبْرَكَ قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجدْ ما تأكله

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إنَّ الله يأمُرُكُمْ أنْ تُؤدُّوا الأمانَاتِ إلى أهْلِهَا وإذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أنْ تَحْكُمُوا بالْعَدْلِ إنَّ الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إنَّ الله كانَ سَمِيعاً بَصِيراً»

سورة النِّساء (الآية: ٥٨)

في الواحدي: نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي من بنى عبد الدار سادن الكعبة، فلمّا دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، أغلق عثمان باب البيت، وصعد السطح فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم المفتاح، فقيل: إنه مع عثمان، فطلب منه فأبى وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه المفتاح، فلوى على بن أبى طالب يده وأخذ المفتاح وفتح الباب، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت وصلى فيه ركعتيْن،

فلمّا خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين السّقاية والسّدانة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً أن يردّ المفتاح إلى عثمان و يعتذر إليه، ففعل ذلك عليٌّ فقال عثمان: أكرهت وآذيت، ثم جئت ترفق؟ فقال: لقد أنزل الله تعالى في شأنك، وقرأ عليه هذه الآية، فقال عثمان: أشهد أن محمداً رسول الله، وأسلم. فجاء جبريل عليه السلام، فقال: ما دام هذا البيت فإنَّ المفتاح والسّدانة في أولاد عثمان، وهو اليوم في أيديهم* وفي رواية مجاهد: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من البيت وهو يتلو هذه الآية، فدعا عثمان فدفع إليه المفتاح، وقال: خذوها يا بنى أبي طلحة بأمانة الله، لا ينزعها منكم إلاَّ ظالم* وكذا في الخازن لكنه زاد على ما تقدم هو والخطيب: فكان المفتاح معه إلى أن مات فدفعه إلى أخيه شيبة، فالمفتاح والسّدانة في أولادهم إلى يوم القيامة* قال الخازن: قلت: وفيما ذكره البغوى رحمه الله من إسلام عثمان بن طلحة يوم الفتح، ومنعه المفتاح، وقوله: لو أعلم أنّه رسول الله لم أمنعه المفتاح. فيه نظر، والصحيح ما حكاه أبوعمر بن عبد البر، وابن منده، وابن الأثير أنَّ عثمان بن طلحة هاجر إلى المدينة في هدنةالحديبة سنة ثمان مع خالد بن الوليد ولقيهما عمرو بن العاص مقبلاً من عند النجاشي، فرافقهما وهاجر معهما، فلمّا رآهم النبي صلى الله عليه وسلم قال: [رمتكم مكة بأفلاذ كبدها] يعنى أنهم وجوه مكة فأسلموا، وسلم عثمان بن طلحة المفتاح للنبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، فردّه النبي صلى الله عليه وسلم إليه، وقال: [خذوها يا بنى طلحة خالدة مخلدة لا ينزعها منكم إلاَّ ظالم] ولم يذكروا سؤال العباس السّدانة. والله أعلم* وثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: أقبل النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح وهو مردف أسامة على القصواء، ومعه بلال وعثمان حتى أناخ عند البيت ثم قال لعثمان: ائتنا بالمفتاح فجاء بالمفتاح ففتح الباب. وذكر الحديث* وكذا ذكر ابن الجوزى في تفسيره ما يفيد تقديم إسلامه على فتح مكة* وكذا في ابن كثير، وعبارته: وقد ذكر كثير من المفسرين أنَّ هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبى طلحة، واسم أبى طلحة عبدالله بن عبدالعزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب: القرشي العبدرى: حاجب الكعبة المعظّمة، وهو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبى طلحة الذي صارت الحجابة في نسله اليوم. أسلم هذا في الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وأمّا عمّه عثمان بن

أبي طلحة فكان معه لواء المشركين يوم أحد وقتل يومئذٍ كافراً، قال ابن كثير: وإنما نبّهنا على هذا النسب لأنَّ كثيراً من المفسرين قد يشتبه عليه هذا بهذا، وسبب نزولها فيه لمّا أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة يوم الفتح، ثم ردَّهُ عليه قوله تعالى «**إنَّ الله يأمركُمْ أن تُؤدُّوا الأمانات إلى أهْلِها**» ذهب بعض المفسرين إلى أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. وورد بصيغة الجمع تشريفاً له، وهو أنَّه تعالى أمره برد مفتاح البيت إلى عثمان بن طلحة. وقيل: هو خطاب لولاة أمور المسلمين من الأمراء والحكام وغيرهم. و يدل عليه سياق الآية وهو قوله «**وإذَا حَكَمْتُمْ بين الناسِ أن تَحْكُموا بالعدل**» والمعنى إن الله تعالى يأمركم يا ولاة الأمور أن تؤدُّوا ما ائتمنتم عليه من أمور رعيتكم، وأن توفوهم حقّهم، وأن تعدلوا بينهم. وقيل إنَّ الآية عامة في جميع الأمانات لأنه لا يمتنع من خصوص السبب عموم الحكم فيدخل في ذلك جميع الأمانات التي يحملها الإنسان، و ينقسم ذلك إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول : رعاية الأمانة في عبادة الله تعالى، وهو فعل المأمورات وترك المنهيات، قال ابن مسعود: الأمانة لازمة في كل شيء حتى في الوضوء والغسل من الجنابة والصلاة والزكاة والصوم، وسائر أنواع العبادات.

القسم الثاني : هو رعاية الأمانة مع نفسه، وهو ما أنعم الله به عليه من سائر أعضائه، فأمانة اللسان حفظه من الكذب، والغيبة والنميمة ونحو ذلك. وأمانة العين غضها عن المحارم، وأمانة السمع ألا يشغله بسماع شيء من اللهو والفحش والأكاذيب ونحوه، ثم سائر الأعضاء على نحو ذلك.

القسم الثالث : وهو رعاية أمانة العبد مع سائر عباد الله تعالى، فيجب عليه ردّ الودائع والعوارى إلى أربابها الذين ائتمنوه عليها ولا يخونهم فيها، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أدِّ الأمانة إلى من ائتمنكَ، ولا تَخُنْ من خانك] أخرجه أبوداود والترمذي، وقال حديث حسن غريب. و يدخل في ذلك وفاء الكيل والميزان فلا يطفف فيهما، و يدخل في ذلك أيضاً عدل الأمراء والملوك في الرعية ونصح العلماء للعامّة، فكل هذه الأشياء من الأمانة التي أمر الله عز وجل بأدائها إلى أهلها.

روى البغوى بسنده عن أنس قال: قلّما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا

قال: [لا إيمانَ لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له] الخازن* والظاهر أن هذه الآية مرتبطة بقوله سابقاً «أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً..» وذلك أن اليهود كانوا يعرفون الحقّ، وأوصاف النبي صلى الله عليه وسلم المذكورة في التوراة، وهي أمانة عندهم، ومع ذلك كتموها وأنكروها، وقالوا لأهل مكة: أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه، فلما خانوا في هذه الأمانة الخاصة أمر الله تعالى عموم المكلفين بأداء جميع الأمانات بقوله: «إنَّ الله يأمركم أن تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهْلِها» أي ما ائتمن عليه من الحقوق «وإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ» يأمركم «أنْ تَحكمُوا بالْعَدْلِ» أي بالسواء بأن تأمروا من وجب عليه الحقّ بأدائه إلى من هو له، فإن ذلك من أعظم الصالحات الموجبة لحسن المقيل في الظلّ الظليل* أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: [سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلّه: إمام عادل، وإنَّ أبغض النَّاس إلى الله يوم القيامة، وأشدهم عذاباً إمام جائر] «إنَّ الله نِعِمَّا» فيه إدغام ميم نعم في ما النكرة الموصوفة، أي نعم شيئاً «يعظُكُمْ بِهِ» تأدية الأمانات والحكم بالعدل «إنَّ الله كان» ولم يزل ولا يزال «سَمِيعاً» لكل ما يقال «بَصيراً» بكل ما يفعل. أي إذا حكمتم فهو يسمع حكمكم، وإذا أديتم الأمانات فهو يبصر فعلكم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أطيعُوا الله وأطيعُوا الرَّسُولَ وأُولي الأمْرِ مِنْكُمْ فإنْ تَنَازَعْتُمْ في شيءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله والرَّسُولِ إنْ كُنْتُم تُؤْمِنُونَ بالله واليوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وأحْسَنُ تأويلاً» سورة النِّساء (الآية: ٥٩)

في الواحدي: قال ابن عباس: نزلت في عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدىّ بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سريّة، رواه البخارى عن صدقة بن فضل. ورواه مسلم عن زهير بن حرب: كلاهما عن حجاج. وقال ابن عباس في رواية أخرى: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في سرية إلى حيّ من أحياء العرب، وكان معه عمار بن ياسر، فسار خالد حتى دنا من القوم عرّس لكى يُصبّحهم، فأتاهم النذير، فهربوا عن رجل قد كان أسلم، فأمر أهله أن يتأهبُوا للمسير، ثم انطلق حتى أتى عسكر خالد، ودخل مع عمّار. فقال: يا أبا اليقظان إنى منكم، وإنَّ قومى لمَّا سمعوا بكم

هربوا وأقمت لإسلامى، أفنافعى ذلك، أو أهرب كما هرب قومى؟ فقال: أقم فإنّ ذلك نافعك. وانصرف الرجل إلى أهله، وأمر بالمقام، وأصبح خالد فغار على القوم، فلم يجد غير ذلك الرجل. فأخذه وأخذ ماله. فأتاه عمّار فقال: خلّ سبيل الرجل فإنّه مسلم. وقد كنتُ أمّنتُه وأمرته بالمقام. فقال خالد: أنت تجير عليَّ وأنا الأمير!؟ فقال: نعم، أنا أجير عليك وأنت الأمير، فكان في ذلك بينهما كلام، فانصرفوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبروه خبر الرجل فأمّنه النبي صلى الله عليه وسلم، وأجاز أمانة عمّار، ونهاه أن يجير بعد ذلك على أمير بغير إذنه، قال: واستبَّ عمّار وخالد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأغلظ عمار لخالد، فغضب خالد، وقال يا رسول الله: أتدع هذا العبد يشتمنى، فوالله لولا أنت ما شتمنى، وكان عمّار مولى لهاشم بن المغيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا خالد: كفّ عن عمار، فإنه من يسبُّ عمّاراً يسبُّ الله، ومن يبغض عمّاراً يبغضه الله، فقام عمار، فتبعه خالد فأخذ بثوبه، وسأله أن يرضى عنه، فرضى عنه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمر بطاعة أولى الأمر» وكذا في الخطيب والخازن نقلا عن السّدى. لكن في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت فى عبدالله بن حُذافة بن قيس بن عدى السهمى إذ بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في سريّة» وكذا في ابن كثير. وفي مسند الإمام أحمد عن عليٍّ رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سريّة، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا، وَجَدَ عليهم في شيء، قال: فقال لهم: أليس قد أمَرَكم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُطيعونى؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لى حطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنّها. قال: فقال لهم شابٌ منهم: إنما فررتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النّار، فلا تعجلوا حتّى تلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه، فقال لهم: لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف. أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش به. وقوله تعالى: **«يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا الله وأطِيعُوا الرّسولَ وأولى»** أصحاب **«الأمر»** أي الولاة منكم إذا أمروكم بطاعة الله ورسوله. والمراد بهم أمراء الحقّ، لأن أمراء الجور، الله ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم كما يدّعى ذلك بعض المرائين. وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إيثار العدل، واختيار

الحق، والأمر بها، والنهيُ عن أضدادها كالخلفاء الراشدين، ومن تبعهم بإحسان. وكان الخلفاء يقولون: أطيعونى ما عدلت فيكم، فإن خالفت فلا طاعة لى عليكم. وقيل: هم أمراء السرايا. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: [من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن يطع أميرى فقد اطاعنى، ومن يعص أميرى فقد عصاني] وقيل: هم العلماء الدينيُّون الذين يُعلّمون الناس الدين، و يأمرونهم بالمعروف و ينهونهم عن المنكر كما في قوله تعالى **«ولتكُنْ منكُمْ أمّةٌ يدعونَ إلى الخير و يأمُرُونَ بالْمَعْروفِ و يَنْهَونَ عَنِ المنكرِ وأولئكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»** وقوله: **«فإن تَنَازَعْتُمْ»** اختلفتم **«فى شَىءٍ فردُّوهُ إلى الله»** أي إلى كتابه **«والرَّسُولِ»** مدّة حياته، و بعده إلى سنته أي اكشفوا عليه منها، واحكموا به، وفي الآية إشارة لأدِلّةِ الفقه الأربعة، فقوله: **«أطيعوا الله»** إشارةٌ للكتاب، وقوله: **«وأطيعوا الرسول»** إشارةٌ إلى السنّة، وقوله: **«وأولى الأمر»** إشارة للإجماع. وقوله: **«فإن تنازعتم»** ..الخ. إشارة للقياس. وقوله: **«إنْ كنتُمْ تُؤمِنُونَ بالله واليوم الآخر»** أي فإن الإيمان يوجب هذا **«ذَلِكَ»** الردُّ إليهما **«خَيْرٌ»** لكُمْ من التنازع والقول بالرأى **«وأحْسَنُ تأو يلاً»** أي من تأو يلكم بلا رَدٍّ.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وما أُنزلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ويُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُم ضلالاً بعيداً* وإذا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى ما أَنْزَلَ اللهُ وإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً* فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاؤكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وتَوفِيقاً* أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً* ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً* فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْليماً»

سورة النّساء (الآية: ٦٠ - ٦٥)

في الواحدي: قال ابن عباس: رضي الله عنهما: كان أبوبردة الأسلميّ كاهِناً يقضى بين اليهود فيما يتنافرون إليه، فتنافر إليه أناسٌ ممن أسلم، فأنزل الله تعالى «**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ**» إلى قوله: «**و يُسَلِّمُوا تسليماً**»* وحدّث سعيد عن قتادة قال: أنزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يقال له قيس، وفي رجل من اليهود في ممارة كانت بينهما في حقّ تنازعا فيه، فتنافرا إلى كاهن بالمدينة ليحكم بينهما، وتركا نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم، فعاب الله تعالى ذلك عليهما، وكان اليهوديّ يدعوه إلى نبي الله، وقد علم أنه لن يجور عليه، وجعل الأنصارى يأبى عليه، وهويزعم أنه مسلم، و يدعوه إلى الكاهن، فأنزل الله تعالى ما تسمعون وعاب على الذي يزعم أنه مسلم، وعلى اليهودى الذي هو من أهل الكتاب، فقال: «**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنّهم آمَنُوا**» إلى قوله: «**يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدوداً**». والأصح أنها نزلت إلى «**و يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**» وقال الكلبيُّ عن أبى صالح عن ابن عباس: نزلت في رجل من المنافقين كان بينه و بين يهوديّ خصومة، فقال اليهوديّ:

انطلق بنا إلى محمد، وقال المنافق: بل نأتي كعب بن الأشرف، وهو الّذِى سمّاه الله تعالى الطاغوت، فأبى اليهودى إلاّ أن يخاصمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمّا رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاختصما إليه، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهودى، فلمّا خرجا من عنده لزمه المنافق، وقال: ننطلق إلى عمر بن الخطاب، فأقبلا إلى عمر: فقال اليهودى: اختصمنا أنا وهذا إلى محمد فقضى لى عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه مخاصم إليك، وتعلّق بى فجئت إليك معه، فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، فقال لهما: رو يداً حتى أخرج إليكما، فدخل عمر فأخذ السيف فاشتمل عليه، ثم خرج إليهما، وضرب به المنافق حتّى برد، وقال: هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله، وهرب اليهودى، ونزلت هذه الآية* وقال جبريل عليه السلام: إنَّ عمر فرق بين الحقّ والباطل، فسمّى الفاروق وكذا في الخازن* وفي الواحدي أقوال أخرى في نفس المعنى. وفي الخطيب اسم المسلم: بشر المنافق. ولكن ف الصحيح أن الآية نزلت في الزبير وخصْم له من الأنصار ــ وقد شهد بدراً ــ في شراج من الحرّة كانا يستقيان بها النّخل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للزبير: إسق يا زبير، ثم أرسل إلى جارك، فغضب الأنصارىّ، وقال يا رسول الله: أنْ كان ابن عمتك، فتلَوّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: اسق يا زبير، حتى يبلغ الجدر، واستوف حقّك ثم أرسله إلى جارك، فنزلت الآية* وفي الخازن: وقال السّدى: كان ناس من اليهود قد أسلموا ونافق بعضهم، وكانت قريظة والنضير في الجاهلية، وكانت قريظة حلفاء الخزرج، والنضير حلفاء الأوس، وكان إذا قتل رجل من بنى قريظة رجلاً من بنى النضير قتل به، أو أخذت ديته مائة وسق من تمر، وإذا قتل رجل من بنى النضير رجلاً من قريظة لم يقتل به، وأعطى ديته ستين وسقاً، فلما جاء الإسلام وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، فاختصموا في ذلك، فقال بنو النضير: كنا وأنتم قد اصطلحنا على أن نقتل منكم ولا تقتلوا منّا، وديتنا مائة وسق، وديتكم ستون وسقاً، فنحن نعطيكم ذلك، فقالت الخزرج: هذا شيء كنتُم فعلتموه في الجاهلية لكثرتكم وقلتنا فقهرتمونا على ذلك، فاليوم نحن إخوة في الدين، فلا فضل لكم علينا. فقال المنافقون منهم: ننطلق إلى أبى بردة الكاهن الأسلمى، وقال المسلمون من الفريقين: بل ننطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأبى المنافقون: وانطلقوا إلى أبى بردة الكاهن

ليحكم بينهم، فقال: أطعموا اللقمة، يعني الخطر، فقالوا: لك عشرة أوسق، فقال: بل مائة وسق ديتي، فأبوا أن يعطوه إلاّ عشرة أوسق، وأبى أن يحكم بينهم، فأنزل الله عزّ وجلّ آية القصاص، وأنزل هذه الآية **«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ..»** * وعلى كل فالآية أعمّ من ذلك كله فإنها ذامّة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهوالمراد بالطاغوت هنا. وقوله **«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ..»** الزُّعم بضم الزاى وفتحها لغتان، وأكثر ما يستعمل الزعم بمعنى القول الذي لا يتحقق. وقيل: هو حكاية قول يكون مطيّة للكذب، ولذلك قيل: زعم مطيّة الكذب، والمراد به في هذه الآية الكذب لأن الآ ية نازلة في المنافقين. وظاهر الآية يدل على أنها نازلة في الذين نافقوا من مؤمني أهل الكتاب، و يدل عليه قوله: **«آمَنُوا بما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبلكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ»** يعني كعب بن الأشرف في قول ابن عباس: سمّاه الله طاغوتاً لإفراطه في الطغيان، وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل: هو أبوبردة الكاهن في قول السّدى **«وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا به»** يعني بالطاغوت لأن الكفر بالطاغوت إيمانٌ بالله عزّ وجل **«و يُرِيدُ الشَّيْطَانُ»** بإرادتهم ذلك التحاكم إلى الطاغوت **«أَنْ يُضِلَّهم»** أي المتحاكم إليه **«ضَلالاً بَعيداً»** أي بحيث لا يمكنهم الرجوع إلى الهدى. **«وإذا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ الله»** في القرآن من الحكم **«رأيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصدُّونَ»** يُعرضونَ عنك إلى غيرك **«صُدُوداً»** أي إعراضاً بالكليّة. فذكر المصدر للتأكيد والمبالغة* والآية سبقت لمادة التعجب ببيان إعراضهم صريحاً عن التحاكم إلى كتاب الله ورسوله إثر بيان إعراضهم عن ذلك في ضمن التحاكم إلى الطاغوت. وقوله تعالى: **«فكيفَ»** يصنعون **«إذا أَصَابَتْهُمْ مصِيبة»** عقوبة **«بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ»** من الكفر والمعاصى. أي أيقدرون على الاعراض والفرار منها؟ لا **«ثُمَّ جاؤكَ»** معطوف على يصدون **«يَحْلِفُونَ بالله إِنْ» مَا «أَرَدْنَا»** بالمحاكمة إلى غيرك **«إِلاَّ إِحْسَاناً»** صُلْحاً **«وتَوفيقاً»** أي تأليف بين الخصمين. بالتقريب في الحكم، ولم نرد مخالفتك **«أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ الله مَا فى قُلُوبهم»** من النفاق والبغض للإسلام وأهله. وإن اجتهدوا في إخفائه وكذبهم في حلفهم **«فأَعْرِضْ عَنْهُمْ»** أي عن عتابهم بالصفح لأنهم أقلُّ من أن يحسب لهم حساب، وهذه الجملة جواب شرط محذوف دلّ عليه السياق. أي إذا كان حالهم كذلك فأعرض عن

قبول عذرهم. وقوله «**وَعِظْهُمْ**» خوّفهم الله القادر على استئصالهم، «**وَقُلْ لَهُمْ فِى أَنْفُسِهِمْ**» أي سرّاً، أو خاليا بهم، فإنّ النصح في السرّ أنجع وقل لهم «**قَوْلاً بَلِيغاً**» أي مؤثراً فيهم، أي ازجرهم ليرجعُوا عن كفرهم. وقيل: هذا منسوخ بآية القتال، وفي هذه الجملة وجوه:

أحدها : أن في الآية تقديماً وتأخيراً. والمعنى قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم مؤثراً في قلوبهم يغتمُّون به اغتماماً، و يستشعرون منه الخوف.

الثاني : وقل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة، وقلوبهم المطوية على النفاق قولاً بلغياً هو أن الله يعلم ما في قلوبكم فلن يغنى عنكم الإخفاء، فطهّروا قلوبكم عن دنس النفاق، وإلا فسينزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك، أو شرّاً من ذلك، وأغلظ.

الثالث : الذي ذكرتُ، أي قل لهم في أنفسهم خالياً بهم مُسَاراً لهم بالنصيحة فإن النُّصحَ بين الملأ تقريع وفي السرّ أنفع وأنجع قولاً يؤثر فيهم.

وقيل: القول البليغ يتعلق بالوعظ، وهو أنِ يكون كلاماً حسناً، وجيز المبانى غزير المعانى يدخل الأذن بلا إذْن مشتملاً على الترغيب والترهيب والاعذار والإنذار. وقوله: «**وما أرْسَلنَا مِنْ رَسُولٍ إلاّ لِيُطَاعَ**» فيما يأمر به ويحكم. وهذه علّة إرسال الرسل فمن لم يطعه، ولم يرضى بحكمه ولم يقبل رسالته، ومن كان كذلك كان كافراً يستوجب القتل «**بإذْنِ الله**» أي بأمر الله ولا ليُعصى ويخالف. ثم بين رحمته الواسعة بقوله: «**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ**» بتحاكمهم إلى الطاغوت «**جَاؤكَ**» تائبين «**فاسْتَغْفَرُوا الله**» أي بالتوبة والاخلاص «**واستَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسولُ**» أي سأل الله أن يغفر لهم ما تقدم من تكذيبهم، وفي ذلك التفات عن الخطاب تفخيماً لشأنه أي حيث عدل عن خطاب إلى ما هو من عظيم صفاته، فهو على طريقة حَكَمَ الأمير بكذا مكان حكمت بكذا. ووجه التفخيم أن شأن الرسول أن يستغفر لمن عظم ذنبه، وهو مستجاب لا محالة بدليل قوله: «**لَوَجَدُوا الله تَوَّاباً**» عليهم «**رَحِيماً**» بهم وقوله: «**فلا وربّك**» لا زائدة للتأكيد، وهو اختيار الزمخشرى فهي معنى القسم كما زيدت في لئلا يعلم. لتأكيد وجوب العلم «**لا يُؤمِنُونَ**» جواب القسم «**حَتّى يُحَكِّموكَ فِيما شَجَر**» أي اختلط «**بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً**» ضيقاً أو شكاً «**مِمَّا قَضَيْتَ**» به «**و يُسَلِّمُوا**» ينقادوا لحكمك «**تَسْليماً**» من غير معارضة، أي ينقادُوا لحكمك انقياداً لا شبهة فيه ظاهراً و باطناً وهذا

ينـاسب أن يكون المراد بالإيمان الإيمان الكامل لأن أصل الإيمان المقابل للكفر لا يستلزم الانقياد لظاهر بل هو أمر باطنيٌّ قلبيٌّ.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فأولئكَ مَعَ الّذِينَ أنْعَمَ اللهُ علَيهِمْ مِنَ النّبيّنَ والصِّدّيقينَ والشُّهَداءِ والصّالحينَ وحَسُنَ أولئكَ رَفيقاً * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى باللهِ عليماً» سورة النِّساء (الآية: ٦٩، ٧٠)

فى الواحدى : قال الكلبيُّ: نزلت فى ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان شديد الحبّ له، قليل الصّبر عنه، فأتاه ذات يوم، وقد تغيّر لونه، ونحل جسمه، يعرف فى وجهه الحزن، فقال له: يا ثوبان ما غيّر لونك؟ فقال يا رسول الله: ما بى من ضُرٍ ولا وجع غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة، وأخاف ألاَّ أراك هناك، لأنى أعرف أنك ترفع مع النّبيين، وإنى وإن دخلت الجنة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة فذاك أحرى ألاَّ أراك أبداً، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وعن مسروق قال: قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ينبغى لنا أن نفارقك فى الدنيا، فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا، فأنزل الله تعالى: «**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرّسُولَ فأولئكَ مَعَ الذِينَ أنعم اللهُ عليهم...**» * وقالت عائشة رضى الله عنها: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال يا رسول الله: إنك لأحبّ إلى من نفسى وأهلى وولدى، وإنى لأكون فى البيت، فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإنى إذا دخلت الجنة حيث لا أراك، فلم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: «**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فأولئكَ مع الّذِينَ أنْعَمَ اللهُ عليهم...**» وكذا فى الخازن وابن كثير وغيرهما. قوله تعالى: «**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرّسُولَ**» فيا أمرا به أمر إيجاب، أو ندب. وفيما نهيا عنه نهى تحريم، أو كراهة، فالمراد بالطاعة الانقياد التام لجميع الأوامر والنواهى، و يُطع الرسول فى السنن التى سنها «**فأولئكَ مَعَ الّذِينَ أنْعَمَ اللهُ عَلَيهِمْ**» يعنى بالهداية والتوفيق فى الدنيا، و يدخل الجنة فى الآخرة «**مِنَ النبّيينَ**» أى أن المطيعين مع النبيين فى الجنة لا تفوتهم رؤية الأنبياء فى

الجنة، ومجالستهم، لا أنهم يكونون فى درجتهم فى الجنة لأن ذلك يقتضى التسوية فى الدرجة بين الفاضل والمفْضول «والصِّدِّقينَ» أفاضل أصحاب الأنبياء وسُّموا صديقين لمبالغتهم فى الصدق «والشُّهداءِ» القتلى فى سبيل الله «والصَّالحين» غير من ذكر، وهم القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، وإنما قلت غير من ذكر لتحصل المغايرة فى العطف، لأنّ الأصناف الثلاثة صالحون «وحَسُنَ أولئِكَ» أى كل واحد من الأصناف الأربعة «رفيقاً» أى رفقاء فى الجنة بأن يستمتع فيها برؤيتهم وزيارتهم، والحضور منهم، وإن كان مقرّهم فى الدرجات العالية بالنسبة إلى غيرهم. وفيه معنى التعجب، وإنما وحد الرفيق وهو صفة جمع لأن العرب تعبّر به عن الواحد والجمع. «ذَلِكَ» أى كونهم مع من ذكر «الفضْلُ مِنَ الله» أى تفضل به عليهم لا أنّهم نالوه بطاعتهم «وكَفَى بالله عليماً» أى بجزاء من أطاعه، أو بمقادير الفضل واستحقاق أهله، روى أبو هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [قاربُوا وسدِدُوا، واعلموا أنه لا ينجو أحدٌ منكم بعمله] قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: [ولاَ أنا إلاَّ أن يتغمدّنى الله برحمةٍ منه وفضل].

((القول فى سبب نزول قوله تعالى :))

أَلَمْ تَرَ إلى الّذِينَ قيلَ لَهُمْ كُفُّوا أيْدِيَكُمْ وأقيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ فلمَّا كُتِبَ عليْهِمُ الْقِتَالُ إذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يخْشَوْنَ النّاسَ كَخَشْيةِ الله أوْ أشدَّ خشية وقَالُوا رَبّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أخّرْتَنا إلىَ أجلٍ قريب قُلْ مَتَاعُ الدنيا قَليلٌ والآخِرَةُ خيرٌ لِمَنِ اتّقَى ولاَ تُظْلَمُونَ فتيلاً»

سورة النِّساء (الآية: ٧٧)

فى الواحدى : قال الكلبىُّ : نزلت هذه الآية فى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: منهم عبدالرحمن بن عوف، والمقداد بن الأسود، وقدامة بن مظعون، وسعد بن أبى وقاص، فيقول لهم كفُّوا أيديكم عنهم، فإنى لم أومر بقتالهم، فلمّا هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وأمرهم الله تعالى بقتال المشركين كرههُ بعضهم، وشق عليهم فأنزل الله تعالى هذه الآية* وقال ابن عباس: إنّ عبدالرحمن وأصحابه أتوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم بمكّة، فقالوا يا نبىَّ الله: كنا فى عزٍ ونحن مشركون، فلمّا آمنّا صرنا أذلةً، فقال: إنى أمرت بالعفو فلا تقاتِلوا القوم، فلما حوَّله الله إلى المدينة أمره بالقتال

فكفوا، فأنزل الله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إلى الّذِين قيل لَهُمْ كفوًا أيديكم..» أخرجه النسائى فى سننه، وكذا فى الطبرى والخازن وابن كثير وغيرها. وقوله: «أَلَمْ تَرَ إلَى الّذِينَ» تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من إحجامهم عن القتال مع أنهم كانوا قبل ذلك راغبين فيه حرصاً عليه بحيث كانوا يباشرونه كما ينبىء عنه الأمر بكف الأيدى «كُفُّوا أيْدِيَكُمْ» فإن ذلك مشعر بكونهم بصدد بسطها إلى العدو، فلما نزلت الآية بعد الهجرة وأمروا بقتال المشركين: كرهوا ذلك، والذى كره إمّا مؤمن وتاب، أو منافق لم يتب وقوله: «وأقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزكَاةَ» الخطاب لجماعة المسلمين، وفيهم المنافقون والضعفاء، والمعنى. ألم تر إلى أولئك الذين أمرهم الله بحقن الدّماء، وكف الأيدى من الاعتداء، وإقام الصلاة والخشوع لله، وإيتاء الزكاة التى تمكن الإيمان فى القلوب، وتشدّ أواصر التراحم بين الخلق، وقد كانوا من قبل ذلك أصحاب إحنٍ وأحقاد وتخاصم وتلاحم وحروب مستمرة، فلما جاء الإسلام أحبُّوا أن يكتب عليهم القتال ليسيروا على ما تعودوه، ولكن حين كتب عليهم قتال الكفار كرهه الضعفاء منهم، وخافوا إن قاتلوهم أن ينزل بهم الكفار النكال والوبال بدليل قوله: «فلمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَال» أى فرض عليهم «إذَا فرِيقٌ مِنْهُمْ يخشَوْن» يخافون «النَّاسَ» كخشية الله مفعول مطلق أى خشية كخشية الله، وأشدّ خشية حال منه، لأن نعت النكرة إذا تقدّم عليها يعتبر حالاً، أى أو أشدّ خوفاً من خوفهم له، وجواب لمّا دلّ عليه إذا وما بعدها أى فاجأتهم الخشية «وقالُوا..» خوفاً من الموت بمقتضى الجبلّة لا اعتراضاً على حكمه تعالى لأنهم من خيار الصحابة. وفى الكرخى: قال الحسن البصرى: وهذا كان منهم لما فى طبع البشر من المخافة لا لكراهتهم أمر الله بالقتال، أو هو سؤال عن وجه الحكمة فى فرض القتال عليهم لا اعتراض لحكمه، بدليل أنهم لم يوبخوا على هذا السؤال، بل أجيبوا بقوله: «قُلْ مَتَاعُ الدنْيَا قَلِيلٌ» آيلٌ إلى الفناء وفى أبى السعود: أى قل لهم تزهيداً لهم فيما يأملونه بالقعود من المتاع الفانى وترغيباً فيما ينالونه بالقتال من النعيم الباقى «والآخِرةُ» أى الجنّة «خيْرٌ لِمَن اتَّقَى» عقاب الله بترك معصيته «ولاَ تُظلَمُونَ فتيلاً» قدْر قشرة النواة. أى تجزون فيها ولا تظلمون أدنى شىء.

((القول فى سبب نزول قوله تعالى :))

«أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ولو كنْتُمْ فى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يقُولُوا هذه من عنْدكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لاَ يكادُونَ يفْقَهُونَ حَدِيثاً* ما أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سيئةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وأَرْسَلْنَاكَ للنَّاسِ رَسُولاً وكَفَى باللهِ شَهِيداً» سورة النِّساء (الآية: ٧٨، ٧٩)

فى الواحدى : قال ابن عباس فى رواية أبى صالح: لما استشهد الله من المسلمين يوم أحد، قال المنافقون: الذين تخلفوا عن الجهاد: لو كان إخواننا الذين قتلوا عندنا ما ماتُوا ولا قُتِلُوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكذا فى الخطيب والخازن، وفيه: وقيل: نزلت فى الذين قالوا ربنا لم كتب علينا القتال، فردَّ الله عليهم بقوله تعالى: **«أَيْنَمَا تكُونُوا يدرككم الموتُ»** يعنى ينزل بكم الموت* وفى الطبرى عن مجاهد قال: كان فيمن كان قبلكم امرأة، وكان لها أجير، فولدت جارية، فقالت لأجيرها: اقتبس لنا ناراً، فخرج فوجد بالباب رجلاً، فقال له الرجل: ما ولدت هذه المرأة؟ قال: جارية، قال: أما إنّ هذه الجارية لا تموت حتى تبغى بمائة، و يتزوّجها أجيرها، و يكون موتها بالعنكبوت، قال: فقال الأجير فى نفسه: فأنا أريد هذه بعد أن تفجر بمائة، فأخذ شفرة فدخل، فشقّ بطن الصبيّة، وعولجت فبرئت، فشبّت، وكانت تبغى، فأتت ساحلاً من سواحل البحر، فأقامت عليه تبغى، ولبث الرجل ما شاء الله، ثم قدم ذلك الساحل، ومعه مال كثير، فقال لامرأة من أهل الساحل: ابغينى امرأة من أجمل امرأة فى القرية أتزوّجها، فقالت: ههُنا امرأة من أجمل النّاس، ولكنها تبغى. قال: ائتنى بها، فأتتها، فقالت: قد قدم رجلٌ لَهُ مال كثير، وقد قال لى كذا، فقلت له: كذا. فقالت: إنى تركت البغاء، ولكن إن أراد تزوجته، قال: فتزوجها، فوقعت منه موقعاً، فبينا هو يوماً عندها إذ أخبرها بأمره، فقالت: فإنه قال لى يكون موتها بالعنكبوت، قال: فبنى لها برجاً بالصحراء، وشيّده، فبينا هما يوماً فى ذلك البرج إذا عنكبوت فى السّقف، فقالت: هذا يقتلنى، لا يقتله أحدٌ غيرى فحركته فسقط، فأتته فوضعت ابهام رجلها عليه فشدخته، وساخ سّمه بين ظفرها واللحم، فاسودت رجلها فماتت، فنزلت هذه الآية **«أينَما تكونُوا يدرككُم الموتُ..»**

وكذا ذكرها ابن كثير نقلاً عن الطبرى ولم يذكره: فماتت فنزلت هذه الآية لأنه لا ارتباط بين عرض القصة ونزول الآية وحكاية مجاهد لها. والأصح أنه خطاب عام للمنافقين وضعفة الإيمان الذين قالُوا: «لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلىَ أَجَلٍ قريب» أى «أيْنَما تكُونُوا» أيها النّاس كلكم مطيعكم وعاصيكم.. لأنه كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى بطريق تلوين الخطاب، وصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المخاطبين اعتناء بإلزامهم إثر بيان حقارة الدنيا، وعلو شأن الآخرة، فلا محل له من الاعراب. هذا: ويحتمل أنه فى محل نصب داخل تحت القول المأمور به، والمعنى: قل لهم: أينما تكونوا فى الحضر أو السفر، أو فى القصور المشيدة يُدْركم الموت الذى تكرهون القتل لأجله زعماً منكم أنه من مظانه. وفى لفظ الإدراك إشعارٌ بأنهم آخذون فى الهرب من الموت وهو مُجِدٌّ فى طلبهم. كما فى قوله تعالى: «قُلْ إنَّ الموتَ الّذي تفرُّون مِنْهُ فإنَّهُ مُلاقيكُمْ» وأين اسم مكان وشرط يجزم فعلين، وما زائدة على سبيل الجواز مؤكدة لها، وتكونوا مجزومٌ بها، و يدرككم جوابه وقوله: «ولَوْ كنتُمْ فى بروجٍ مشيّدة» البروج فى كلام العرب الحصون والقلاع كذا فى الخازن، وفى أبى السعود: «ولو كنتُمْ فى بروجٍ مشيّدة» فى حصون رفيعة، أو قصور محصنة. وقال السّدى وقتادة: بروج فى السماء. قلت: وهو ضعيف لأن المخاطبين فى الأرض لا فى السماء، ولأنها الكواكب العظام. و يقال: شادَ البناءَ وأشاده وشيّده، أى رفعه، وشيد القصر رفعه، وشيد القصر رفعه، أو طلاهُ بالشيد، وهو الجبس. وجواب لو محذوف اعتماداً على دلالة ما قبله عليه. أى ولو كنتُم فى بروج مشيدة يدرككم الموت. والجملة معطوفة على أخرى مثلها. وقوله: «وإنْ تُصْبهُمْ حَسَنَةٌ يقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ» نزلت فى المنافقين واليهود، وذلك أن المدينة كانت ذات خير وأرزاق وعند مقدم النبىّ صلى الله عليه وسلم، فلمّا ظهر نفاق المنافقين وعناد اليهود أمسك الله عنهم بعض الإمساك، فقال المنافقون واليهود: ما زلنا نعرف النقص فى ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه، فقال الله تعالى: «وإنْ تُصْبْهُمْ سَيّئَةٌ» أى جدب فى الثمار وغلاء فى السعر «يقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ» يا محمد أى بشؤمك. أى قالوا: هذا بسبب شؤمه وشؤم أصحابه. والشؤم ضد اليُمْنِ وهو البركة، وفى المصباح الشؤم الشّرُّ، ورجلٌ مشئوم غير مبارك، وتشاءم القوم به مثل تطيّروا به «قُلْ» أى يا محمدُ لهم: «كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ» يعنى الحسنة والسيئة. أى كل واحدة من النعمة والبليّة من جهة الله تعالى

خلقاً وإيجاداً من غير أن يكون له مدخل فى وقوع شيئ منها بوجه من الوجوه كما تزعمون، بل وقوع الأولى منه تعالى بالذات تفضلاً ونعمة، ووقوع الثانية بسبب ذنوب من ابتلى بها عقوبة من قبله تعالى، ابتلاء منه لهم **«فَمَالِ هَؤلاءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً»** أى فما شأن هؤلاء القوم المنافقين واليهود الذين قالوا ما قالوا لا يقاربون أن يفهموا معانى القرآن التى بُيّنَ فيها أن الأشياء كلها من الله عزّوجلّ خيرها وشرّها. (ما) من (فمَا) مبتدأ، وتقبيح حالهم، والتعجب من كمال غوايتهم، وقوله: لا يكادون يفقهون حديثاً. هذه الجملة حال من هؤلاء، والعامل فيها ما فى الظرف من معنى الاستقرار، أى وحيث كان الأمر كذلك فأى شيىء حصل لهم حال كونهم بمعزل من أن يفقهوا حديثاً. أو هو استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاستفهام، كأنه قيل: ما لهم، وماذا يصنعون حتى يتعجب منه؟! أو حتى يسأل عن سببه؟ فقيل: لا يكادون يفقهون حديثاً من الأحاديث أصلاً، فدعهم يقولون ما يقولون. إذ لو فهموا شيئاً من معانى القرآن لفهموا هذا النّص وغيره بأن الكل من عند الله تعالى: **«مَا أَصَابَكَ»** أيها الإنسان. أى جنس الإنسان **«مِن حَسَنَةٍ»** خيرٍ ونعمة **«فَمِنَ اللهِ»** أتتك فضلاً منه **«ومَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ»** بليّة من قحط وجدب وشدّة ومكروه.. **«فَمِنْ نَفْسِكَ»** أتتك، حيث ارتكبت ما يستوجبها من الذنوب، وفى هذا إشارة إلى الجمع بين قوله: ما أصابك من حسنة فمن الله. وبين قوله: قلْ كل من عند الله. الواقع ردّاً لقول المشركين، وإن تصبهم حسنة الآية بأن قوله: **«قُلْ كلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ»** أى ايجاداً. وقوله: وما أصابك من سيئة فمن نفسك. أى كسبك، كما فى قوله تعالى: **«ومَا أَصَابَكُمْ مِنْ مصيبة فبمَا كَسَبَت أيديكُمْ»** فحاصله. انك إذا نظرت إلى الفاعل الحقيقى فالكل منه، وإذا نظرت إلى الأسباب فما هى إلاّ من شؤم ذنب نفسك يوصله الله إليك بسببه مجازاة وعقوبة لا من محمد صلى الله عليه وسلم، وقوله: **«وأرْسَلْنَاكَ لِلنّاسِ رسُولاً»** أى مقتصراً على تبليغ الرسالة، وليس إليك الحسنة والسيئة **«وكَفَى باللهِ شَهِيداً»** بأنك رسوله والآية مسوقة لبيان جلالة منصبه صلى الله عليه وسلم، ومكانته عند الله بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد فى حقه صلى الله عليه وسلم بناءً على جهلهم بشأنه الجليل صلوات الله عليه إلى يوم الدين.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ واللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أتريدُونَ أن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً* وَدُّوا لَوْ تَكْفُرونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً فلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُموهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِياً ولاَ نَصِيراً* إلاَّ الّذِينَ يَصِلُونَ إلى قَوْمٍ بيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ولَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فإنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وأَلْقَوْا إلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً»

سورة النِّساء (الآية: ٨٨ - ٩٠)

في الواحدي: قال عبدالله بن ثابت: إنَّ قوماً خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أُحد فرجعُوا، فاختلف فيهم المسلمون فقالت فرقة: نقتلهم، وقال فرقة لا نقتلهم، فنزلت هذه الآية. رواه البخارى عن بندار، ورواه مسلم عن عبدالله بن معاذ عن أبيه كلاهما عن شعبة* وقال أبوسلمة بن عبدالرحمن: حدثني أبى أن قوماً من العرب أتوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمُوا فأصابُوا وباءً بالمدينة وحماها، فأركسوها، فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفرٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: مالكم رجعتُم؟ فقال: أصبنا وباء المدينة فاجتوبناها، فقالوا: ما لكم في رسول الله أسوة حسنة؟ فقال بعضهم: نافقُوا، وقال بعضهم لم ينافقُوا: هم مسلمون. فأنزل الله تعالى «فمَا لكُمْ فى المنافقين فئتين والله أركَسهم بما كسبُوا..» الآية* وقال مجاهد في هذه الآية: هم قوم خرجوا من مكّة حتى جاؤا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون، ثم ارتدُّوا بعد ذلك، فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكّة ليأتُوا ببضائع لهم يتّجرون فيها، فاختلف فيهم المؤمنون، فقائل يقول: هم منافقون، وقائل يقول: هم مؤمنون، فبيّن الله تعالى نفاقهم، وأنزل هذه الآية، وأمر بقتلهم فى قوله: «فإن تولَّوْا فخُذُوهم واقتلُوهم

حيث ثَقِفْتُموهم» فجاؤا ببضائعهم إلى هلال بن عويمر الأسلمي، و بينه و بين النبي صلى الله عليه وسلم حلف، وهو الذي حصر صدره أن يقاتل المؤمنين، فرفع عنهم القتل بقوله: «**إلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ ميثَاقٌ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أن يُقَاتِلُوكُمْ..**» وكذا في الخطيب، وفي القرطبي: روى مسلم عن زيد بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد فرجع ناس ممن كان معه، فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين، فقال بعضهم نقتلهم ..الخ. ما تقدم في الواحدى. والمعنىُّ بالمنافقين هنا عبدالله بن أبيّ وأصحابه الذين خذلُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد ورجعُوا بعسكرهم بعد أن خرجُوا. وفي القرطبي أيضاً قال ابن عباس: هم قوم بمكة آمنوا وتركوا الهجرة. قال الضحاك: وقالُوا: إن ظهر محمد صلى الله عليه وسلم فقد عرفنا، وإن ظهر قومنا فهو أحبُّ إلينا، فصار المسلمون فيهم فئتين، قوم يتولّوْنهم وقوم يتبرّؤن منهم فقال الله عزّ وجلّ «**فَمَا لَكُمْ فى المنافقين فئتين**» وعبارة الطبرى: عن زيد بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم لمّا خرج إلى أحد رجعت طائفة ممن كان معه، فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين: فرقة تقول نقتلهم، وفرقة تقول لا، فنزلت هذه الآية «**فَمَا لَكُمْ فى المنافقين فئتين والله أرْكَسَهُمْ بما كَسَبُوا أتريدُون أن تهدوا من أضَلَّ الله..**» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة: إنها طيبة، وإنّها تنفى خبثها كما تنفى النّار خبث الفضة. قلتُ: فقوله عليه الصلاة والسلام: [إنها طيبة] ..الخ. زيادة للترمذي. وقال حديث حسن صحيح. وهذه الزيادة تتّفق مع قول من قال هم المنافقون الذين جاؤا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون، ثم خرجُوا منها مُعْتَلّين بوبائها ..الخ* وفي الغرائب: وعن عكرمة هم قوم أخذوا أموال المشركين وانطلقوا بها إلى اليمامة* وقيل: هم العرنيُّون الذين أغارُوا على السّرح وقتلُوا يساراً: مولى النبي صلى الله عليه وسلم* وقال ابن زيد: نزلت في أهل الإفك. قال الحسن: سمّاهم المنافقين، وإن أظهروا الكفر باعتبار حالهم التي كانُوا عليها* وقوله تعالى: «**فَمَا لَكُمْ**» أي ما شأنكم صرتم «**فى المنافقين فئتين**» فرقتين «**والله أرْكَسَهُمْ**» ردَّهم إلى الكفر والجملة حال من المنافقين وهو الظاهر، أو مستأنفة، والركس والإركاس ردُّ الشيء مقلوباً، و يقال للرفث الركس لأنّه ردّ إلى حالة خسيسة، وهى حال النجاسة، و يسمى رجعياً أيضاً لذلك، والمعنى: أنهم ردُّوا إلى أحكام الكفار من الذّل والصغار والسبى والقتل «**بِمَا كَسَبُوا**» أي

بما أظهروا من الارتداد بعد ما كانوا على النفاق «**أتريدون أن تهدوا من أضلّ**» أي أضله «**الله**» أي تعدوهم من جملة المهتدين، والاستفهام في الموضعين للإنكار والتوبيخ، أي لا ينبغي لكم أن تختلفوا في قتلهم، ولا ينبغي أن تعدُّوهم في المهتدين، والتوبيخ للفريق القائل للنبي لا تقتلهم. أي ينبغي لكم أن تجمعوا على قتلهم بظهور كفرهم «**ومن يضلل**» أي يُضلله «**الله فلن تجد له سبيلاً**» طريقاً إلى الهدى «**ودُّوا**» تمنّوا «**لو تكفرون كما كفروا فتكونون**» أنتم وهم «**سواءً**» في الكفر «**فلا تتخذوا منهم أولياء**» تُوالونهم وإن أظهروا الإيمان. والمراد النهي عن أن يتّخذ منهم وليٌّ ولو واحداً «**حتى يهاجروا في سبيل الله**» أي الهجرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يخرج للقتال في سبيله مخلصين صابرين محتسبين. والهجرة على ثلاثة أقسام: هجرة المؤمنين في أول الإسلام، وهي قوله تعالى: «**للفقراء المهاجرين**» وقوله: «**ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله**» ونحوهما من الآيات. وهجرة المنافقين: وهي خروج الشخص مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صابراً محتسباً لا لأغراض الدنيا، وهي المرادة هٰهنا. وهجرة من جميع المعاصي قال صلى الله عليه وسلم: [المهاجر من هجر ما نهى الله عنه] «**فإن تولّوا**» أي أعرضوا عن التوحيد والهجرة. وأقاموا على ما هم عليه من النفاق «**فخذوهم**» بالأسر «**واقتلوهم حيث وجدتموهم**» أي في حل أو حرم، فإن حكمهم حكم سائر المشركين قتلاً وأسراً، وهذا مما يدل على أنهم مرتدون عن الدين، وصرّحوا بالكفر علناً حتى أبيح قتلهم «**ولا تتخذوا منهم ولياً**» تُوالونه «**ولا نصيراً**» تنتصرون به على عدوكم «**إلا الذين يصلون**» أي يلجئون و يستندون «**إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق**» أي عهد بالأمان، ولمن وصل إليهم، وهم الأسلميُّون، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقْتَ خروجه إلى مكة، وكان قد وادع هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذي لهلال، وقيل: هم بنوبكر بن زيد، وقيل: هم خزاعة، والمعنى: أن من كان دخل في عهدٍ من كان داخلاً في عهدكم فهم أيضاً داخلون في عهدكم «**أو جاؤكم**» عطف على الصلة، أي أو الذين جاؤكم «**حصرت صدورهم**» أي ضاقت عن «**أن يقاتلوكم**» وهم بنو مدلج جاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مقاتلين «**أو يقاتلوا قومهم**» معكم. أي ممسكين عن قتالكم وقتالهم فلا تتعرّضوا إليهم بأخذ ولا قتل، وهذا وما بعده

منسوخ بآية السيف الآمرة بقتالهم سواء قاتلوا أو لا، وسواء التجاؤا إلى المعاهدين أوْ لا* وعبارة الخازن: وقال جماعة من المفسرين: معاهدة المشركين وموادعتهم في هذه الآية منسوخة بآية السيف، وذلك لأن الله لمّا أعزّ الإسلام وأهله أمر أن لا يقبل من مشركي العرب إلا الإسلام، أو القتل* ولكن يقال: إن آية السيف عامّة وما من عامّ إلا خصص، وقد خصص عمومها بغير المؤمنين والمعاهدين مثل قوله تعالى: «إلاّ الّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ المشركين» وقوله تعالى: «ولَوْ شاءَ اللهُ» تسليطهم عليكم «لَسَلَّطَهُمْ عليكُمْ» بأن يقوى قلوبهم بإزالة الرعب عنها «فلقاتَلُوكُمْ» ولكنه لم يشأه فألقى في قلوبهم الرعب «فإن اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وألْقَوْا إليكُمُ السَّلَمَ» أي انقادوا للصلح والأمان ورضوا به «فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً» طريقاً بالأخذ والقتل.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَمَا كَانَ لِمؤمِنٍ أنْ يقْتُلَ مُؤمِناً إلاّ خطأً ومَنْ قَتَلَ مُؤمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهْلِهِ إلاّ أنْ يَصَّدَّقُوا فَإنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لكُمْ وَهُوَ مُؤمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ وإنْ كَانَ مِنْ قوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلّمَةٌ إلى أهْلِهِ وتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنْ اللهِ وكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً»

سورة النّساء (الآية: ٩٢)

في الواحدي: حدّث عبدالرحمن بن القاسم عن أبيه أن الحارث بن زيد كان شديداً على النبي صلى الله عليه وسلم فجاء وهويُريد الإسلام فلقيه عياش بن أبي ربيعة والحارث يريد الإسلام وعياش لا يشعر فقلته، فأنزل الله تعالى هذه الآية «**وما كانَ لِمُؤمِنٍ أنْ يَقْتُلَ مُؤمِناً إلاّ خطأً..**» وشرح الكلبي هذه القصّة فقال: إن عياش بن أبي ربيعة المخزومي أسلم، وخاف أن يظهر إسلامه، فخرج هارباً إلى المدينة فقدمها، ثم أتى أطماً من آطامها، فتحصّنَ فيه، فجزعت أمّهُ جزعاً شديداً، وقالت: لابنها أبي جهل والحارث بن هشام، (وهما لأمّه) لا يظلني سقف بيْت، ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى تأتوني به، فخرجا في طلبه. وخرج معهم الحارث بن زيد بن أبي أنيسة حتى أتوا المدينة،

فأتوْا عيّاشاً وهو في الأطم، فقالا له: انزل فإنَّ أمك لم يأوها سقف لبيت بعدك، وقد حلفت لا تأكل طعاماً ولا شراباً حتى ترجع إليه، ولك الله علينا ألا نكرهك على شيء، ولا نحول بينك و بين دينك، فلما ذكرا له جزع أمّه، وأوثقا له نزل إليهم، فأخرجوهُ من المدينة، وأوثقوهُ، وجلده كل واحد مائة جلدة، ثم قدمُوا به على أمّه، فقالت: والله لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بالذي آمنت به، ثم تركوه موثوقاً في الشمس، وأعطاهم بعض الذي أرادوا، فأتاه الحارث بن زيد، وقال عياش: والله لئن كان الذي كنت عليه هدى لقد تركت الهدى، وإن كان ضلالة لقد كنت عليها، فغضب عياش من مقاله: وقال: والله لا ألقاك خالياً إلاَّ قتلتك، ثم أن الحارث أسلم بعد ذلك، وهاجر إلى المدينة، وليس عياش يومئذٍ حاضراً ولم يشعر بإسلامه، فبينما هو يسير بظهر قبا إذ لقي الحارث بن زيد، فلمّا رآهُ حمل عليه فقتله، فقال الناس: أيُّ شيء صنعت؟ إنه قد أسلم، فرجع عياش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال يا رسول الله: كان من أمرى وأمر الحارث ما قد علمت، وإنى لم أشعر بإسلامه حين قتلتُهُ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: «**وما كَانَ لمؤمنٍ أنْ يَقْتُلَ مؤمناً إلاَّ خطأً..**» الآية» قال نزل هذا في رجل قتله أبو الدرداء كانُوا في سريّة، فعدل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجةً له، فوجد رجلاً من القوم في غنم لَهُ، فحمل عليه بالسيف، فقال: لا إله إلاَّ الله، قال: فضربه، ثم جاء بغنمه إلى القوم، ثم وجد في نفسه شيئاً، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك لَهُ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ألا شققت عن قلبه؟] فقال: ما عسيت أجد، هل هو يا رسول الله إلاَّ دمٌ أو ماء، قال: فقد أخبرك بلسانه فلم تصدقه؟ قال: كيف بي يا رسول الله؟ قال: فكيفَ بلا إله إلاَّ الله. حتى تمنيتُ أن يكون ذلك ابتداء إسلامي. قال: ونزل القرآن «**وما كَانَ لمؤمنٍ أنْ يَقْتُلَ مؤمناً إلاَّ خطأً..**» حتى بلغ «**إلاَّ أنْ يَصَّدقُوا**» قال: إلاَّ أن يضعُوها» وعلى كل فسواءٌ قلنا إنَّ الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة وقتيله، أم في أبي الدرداء وصاحبه، أم غير ذلك فقد أرسلت الآية أحكاماً شرعية على كل من يقتل مؤمناً خطأً إلى يوم الدين، فعليه كفارة، وهي عتق رقبة مؤمنة، فإن عجز، فالصيام، والدية كما سيأتى إيضاحه في الشرح إن شاء الله تعالى. قوله: «**وما كَانَ لِمُؤمنٍ أنْ يَقْتُلَ مؤمناً**» أي لا يليق ولا يصحُّ أن يصدر منه قتلٌ له «**إلاَّ خطأً**» أي مخطئاً في قتله من غير قصد، ونصب خطأ على الحال. أي وليس من شأن المؤمن أن يقتل

مؤمناً في حالة من الأحوال إلا حال الخطأ، وإما مفعول لأجله أي لا يقتله لعلّةٍ إلاّ للخطأ، وقيل: إلاّ: بمعنى ولا ، أي ليس له قتله في حال من الأحوال ولا خطأ. «**وَمَنْ قَتَلَ مُؤمِناً خطأ**» كأنْ قصد رمى غيره كصيد أو شجر فأصابه، أو لم يعلم بإسلامه فظنه حربياً فقتله «**فَتَحْرِيرُ رَقَبةٍ**» أي فعليه وجوباً تحرير رقبة كاملة الرقّ، فلا يجزى مكاتب كتابة صحيحةٍ، ولا أم ولد، والتحرير الاعتاق، و يعبّر عن النَّسَمَة بالرقبة، كما يعبّر عنها بالرأس على شرط «**مُؤمِنَةٍ**» أي محكوم بإسلامها، وإن كانت صغيرة، وكذلك عليه «**وَدِيَةٌ مُسَلَّمةٌ**» أي مؤداة «**إلى أهْلِهِ**» أي ورثة المقتول يقتسمونها كسائر المواريث. ومن يختص بها من أب ونحوه دون الورثة فقد عَصَى الله تعالى واستحقّ دخول النار، إذ لا فرق بين هذه الدية، و بين سائر الأموال، وفي أنه يُقْضى منها الدَّيْن، و ينفذ منها الوصيّة، و يقسم الباقي بين الورثة على فرائض الله لما روى أن امرأة جاءت في أيام عمر تطلب نصيبها من دية الزوج، فقال عمر: لا أعلم لك شيئاً، إنما الدية للعصبة الذين يعقلون عنه، فشهد بعض الصحابة بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن تورّث الزوجة من دية زوجها، فقضى عمر بذلك* وعن ابن مسعود: يرث كل وارث من الدية غير القاتل* وعن شريك: لا يُقضى من الدّية ولا تُنفَّذ وَصيّتُه (الغرائب والخازن)* وقوله «**إلاّ أنْ يَصَّدَّقُوا**» أن يتصدّقوا بها عليه بأن يعفُوا عنه، وسمى العفو عنها صدقة حثاً عليها، وتنبيها على فضله، قال عليه الصلاة والسلام: [كل معروف صدقة] و بيّنت السنة أنَّ دية الخطأ مائة من الإبل: عشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لبون، وعشرون ابن لبون، وعشرون حقّة، وعشرون جذعة، وإن عاقلة القاتل تتحملها عنه، وهم عصبته إلاّ أصله وفرعه، موزّعة عليهم على ثلاث سنين على الغنيّ منهم نصف دينار، والمتوسط ربع دينار كل سنة، فإن لم يستطيعوا فمن بيت المال، فإن تعذّر فعلى الجانى «**فإن كانَ**» يعنى المقتول «**مِنْ قومٍ عَدُوّ لكُمْ وَهوَ مُؤمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ**» أراد أنه إذا كان رجل مسلم في دار الحرب وهو منفرد مع قوم كفار فقتله من لم يعلم بإسلامه، فلا دية عليه، وعليه الكفارة، وقيل: المراد منه أنّه إذا كان المقتول مسلماً في دار الإسلام، وهو من نَسَب قوْم كفار وأهله الذين يرثونه في دار الحرب. وهم حرب للمسلمين ففيه الكفارة ولا دية لأهله. وكان الحرث بن زيد من قوم كفار حرب للمسلمين، فكان فيه الكفارة تحرير رقبة مؤمنة دون الدية لأنه لم يكن بين قومه و بين المسلمين عهد* «**وإنْ كانَ مِنْ قَومٍ**

بـيْـنَـكُـمْ وبَيْنَهُمْ ميثاقٌ» أي عهد «فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهْلِهِ وتحريرُ رقبة مُؤمِنَة» أي إذا كـان المقـتـول كافراً معاهداً، أو ذمياً فتجب فيه الدية والكفارة. «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ» يعني الرقبة «فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ متتابعين» أي فعليه صيام شهرين متتابعين بين أيامها وشهريْهما بـدلاً عـن الـرقـبـة، حتّى لو أفطر يوماً واحداً لغَيْر حيض أو نفاس، وجب الاستئناف، ولم يـنـتـقـل تـعـالى إلى الطعام كالظهار، و به قال الشافعي رضي الله عنه في أظهر قوليْه. أي اقـتـصـاراً منه على الوارد من الاعتاق، ثم الصوم ولم يحمل المطلق هنا على المقيد فيما ذكر، لأنَّ المطلق إنما يحمل على المقيّد في الأوصاف دون الأصول كما حمل مطلق اليد في التيمّم على تـقـيـيـدهـا بـالمرافـق في الـوضـوء، ولم يحمل ترك الرأس والرجلين فيه على ذكرها في الوضوء* وعن مسروق: أن الصوم بدل من مجموع الرقبة والدية «تَوبَةً مِنَ الله» أي شرع لـكـم مـا شـرع مـن أحكام قتل الخطأ، قبولاً من الله ورحمة منه من تاب الله عليه إذا قبل تـوبـتـه. ومعنى التوبة عن الخطأ أنّه لا يخلو من ترك احتياط، من ندم وأسف على ما فرط مـنـه. ويجوز أن يـكـون المـعنى نـقلكم من الرقبة إلى الصوم توبة منه، أي تخفيفاً منه لأن الـتـخـفـيف من لوازم التوبة. وتوبةً: نصبت على المصدر. أي وتاب عليكم توبة، أو على المـفـعـول له أي شرع لكم ذلك توبة «وكانَ الله» أي ولم يزل «عَليماً» أي بأحوالكم، وبمـا يـصـلحكم في الدنيا والآخرة «حكيماً» فيما دبّره لكم من نصب الزواجر بالكفارات وغيرها فالزموا أوامره و باعدوا زواجره لتفوزوا برضوانه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))
«وَمَـنْ يَـقْتُلْ مُـؤْمِناً مُتَعَمِّداً فجزاؤهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فيها وغَضِبَ الله عَلَيْه ولَعَنَهُ وأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً» سورة النِّساء (الآية: ٩٣)

حـدَّث الـكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: أن مقيس بن ضبابة وجد أخاه هشام بـن ضبابة قتيلاً في بني النجار. وكان مسلماً، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر له ذلك، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه رسولاً من بني فهد، فقال له: ائت بني الـنـجـار فـأقرئهم السلام، وقل لهم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم إن عَلمتُمْ قـاتـل هـشـام بن ضبابة أن تدفعوه إلى أخيه فيقتص منه، وإن لم تعلموا له قتيلاً أن تدفعُوا إلـيـه ديـتـه، فـأعـطـوه مائةً من الإبل، ثم انصرفا راجعين نحو المدينة، و بينهما و بين المدينة

قريب، فأتى الشيطان مقيساً فوسوس إليه، فقال: أي شيء صنعت؟ تقبل دية أخيك فيكون عليه سبّةً، اقتل الذي معك، فيكون نفس مكان نفس، وفضل الدية، ففعل مقيس ذلك، فرمى الفهدى بصخرة فشخ رأسه، ثم ركب بعيراً منها، وساق بقيّتها راجعاً إلى مكة كافراً، وجعل يقول في شعره:

قتلتُ به فهراً وحمّلت عقله ... سُراة بني النجار أربابَ فارع

حللتُ به وترى وأدركت ثأرتي ... وكنتُ إلى الأوثان أوّلَ راجع

فنزلت هذه الآية «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمِناً متعمداً..» الآية. ثم أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه يوم فتح مكة، فأدركه الناس في السوق فقتلوه* قلت: وقد أجمع الأئمة أنها نزلت في كافر قتل مؤمناً. وكذا في الغرائب والخطيب والخازن والطبرى، و بقية التفاسير قوله تعالى: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمِناً مُتَعَمِداً» بأن يقصد قتله بما يقتل غالباً عالماً بإيمانه «فجزَاؤهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فيها» يعنى بكفره وارتداده وهو الذي استثناه النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة عمّن أمّنَهُ من أهلها، فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة، والمراد بالخلود في حق المؤمن المكث الطويل، فإنَّ الدلائل متظاهرة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم، ولهذا لم يذكر في الآية: أبداً، وما روى عن ابن عباس أنه قال: قاتل العمد لا تقبل توبته. كما رواه البخارى أراد به التشديد كما قاله البيضاوى إذ روى عنه خلافه ورواه البيهقى في سننه، و بيّنت آية البقرة، أن قاتل العمد يقتل، وأن عليه الدية من ماله، وقد أجمع العلماء على أن العاقلة لا تحمل شيئاً من دية العمد. و بينت السنة أنَّ بين العمد والخطأ قتلاً يُسمّى شبه العمد. وهو أن يقتله بمالا يقتل غالباً كمن ضرب به بعصا خفيفة فقُتل، فلا قصاص فيه، بل فيه ديّة العمد في الصفة والخطأ في التأجيل والحمل* وفي القرطبي: وأنكر مالك قتل شبه العمد، وقال: ليس في كتاب الله إلاَّ العمد والخطأ. وذكره الخطابيُّ أيضاً عن مالك وزاد: وأمّا شبه العمد فلا نعرفه، وقال أبوعمر: أنكر مالك والليث بن سعد شبه العمد، فمن قُتل عندهما بمالا يقتُل مثله غالباً كالعضة واللطمة وضربة السوط والقضيب وشبه ذلك فإنه عمد. وفيه القود. قال أبوعمر: وقال يقولهما جماعة من الصحابة والتابعين. وذهب جمهور فقهاء الأمصار إلى أن هذا كله شبه عمد، و يؤيدهم ما روى أبوداود من حديث عبدالله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [ألاَ إنَّ دية الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا مائة من الإبل، منها أربعون

في بطونها أَوْلادُهَا] وروى الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [العمد قود اليد، والخطأ عقل، ولا قود فيه، ومن قُتِل في عِمِّيَّةٍ: بحجرٍ أو عصا، أو سوط فهو دية مُغلّظة في أسنان الإبل] وروى أيضاً من حديث سليمان بن موسى عن عمروا بن شعيب عن أبيه عن جدّه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [عقل شبه العمد مغلظ مثل قتل العمد. ولا يقتل صاحبه] وهذا نصٌّ في قتل شبه العمد. والدية المغلظة في شبه العمد عند عطاء والشافعي: ثلاثون حقّه، وثلاثون جذعة، وأربعون خلفه. الحقّه: هي النّاقة التي دخلت في السنة الرابعة، والجذعة: هي التي دخلت في الخامسة. وإذا دخل البعير في العاشرة: فهو خلف. قلت: وعند عدم وجود الإبل فهي ألف دينار ذهباً، أو اثنا عشر ألف درهم من الفضة وعليها علماء الأمصار، واختلف العلماء في الجماعة يقتلُون رجلاً واحداً خطأ، فقالت طائفة: على كل واحد منهم كفارة. وهو قول الحسن وعكرمة والنخعي والحارث العكليّ ومالك والثوري والشافعي وأحمد، وإسحاق وأبوثور وأصحاب الرأي* وقالت طائفة: عليهم كلهم كفارة واحدة هكذا قال أبوثور، وحكى ذلك عن الأوزعي، وفرّق الزهري بين العتق والصوم، فقال في الجماعة يرمون بالمنجنيق فيقتلون رجلاً: عليهم كلهم عتق رقبة، وإن كانُوا لا يجدون فعل كل واحد منهم صوم شهرين متتابعين* قوله: «**وغَضِبَ الله عليهِ ولَعَنَهُ**» أبعده من رحمته «**وأعدَّ لَهُ عَذَاباً عظيماً**» في النار، وهذا مؤوّل بمن يستحل القتل بدون حق إذ لا يحل قتل النفس إلاّ بثلاثة أمور. زنا بعد إحصان، وردّةٌ بعد إيمان، والنفس بالنفس. والأحاديث كثيرة في بيان عظم جرم قتل المؤمن. فيها ما روى عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [قتْلُ المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا] وقال عبدالله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أوّل ما يُحاسَبُ به العبد الصلاة، وأوّل ما يُقضى بين الناسِ في الدّماء] وعن عبدالله بن عباس أنه سأله سائل فقال: يا أبا العباس: هل للقاتل توبة؟ قال ابن عباس: ويحك!! أنّى له توبة!! سمعتُ نبيّكم صلى الله عليه وسلم يقول: [يأتي المقتول مُعَلّقاً رأسه بإحدى يديه مُتَلَبِّياً قاتله بيده الأخرى تشخبُ أوداجُه دماً حتّى يوقفا، فيقول المقتول لله سبحانه وتعالى: رب، هذا قتلني، فيقول الله تعالى للقاتل: تَعِسْتَ و يُذهب به إلى النّار]* وعن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ما نازلتُ ربّي في شيء ما نازلتُه ـــ أي راجعتُه وسألته

مرّة بعد أخرى ـــ في قتل المؤمن فلم يُجبنى] وأخرج الإمام أحمد عن أبى ادريس، قال: سمعت معاو ية رضي الله عنه يقول: سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: [كُلُّ ذنب عسى الله أن يغفره إلاّ الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمّداً] عصمنى الله وإيّاكم من ذلك برحمته ورضوانه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا إذَا ضَرَبْتُمْ فى سَبيلِ الله فَتَبَيَّنوا ولاَ تَقُولُوا لِمَنْ ألْقَى إليْكُمْ السَّلامَ لَسْتَ مؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحيَاةِ الدُّنيا فَعِنْدَ الله مَغَانِمَ كَثِيرةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ الله عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إنَّ الله كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خبيراً» سورة النّساء (الآية: ٩٤)

في الواحدي: قال ابن عباس: لحق المسلمون رجلاً في غنيمة له، فقال: السلام عليكم، فقتلوه، وأخذوا الغنيمة، فنزلت هذه الآية **«ولاَ تَقُولُوا لِمَنْ ألْقى إليكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مؤمِناً تبتغُونَ عرضَ الحياة الدنيا»** تلك الغنيمة رواه البخارى عن عليّ بن عبدالله، ورواه مسلم عن أبى بكر بن شيبة: كلاهما عن سفيان. وقال الحسن: إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرجُوا يطوفون فلقُوا المشركين فهزموهم، فشدَّ منهم رجلٌ، فتبعه رجل من المسلمين. وأراد متاعه، فلمّا غشيه بالسّنان قال: إنى مسلم: إنى مسلم، فكذّبه، ثم أوجره بالسّنان فقتله، وأخذ متاعه، وكان قليلاً، فرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قتلته بعدما زعم أنه مسلم؟ فقال يا رسول الله: إنما قالها تعوّذاً قال: فَهَلاَّ شققت عن قلبهِ لتنظر صادق هو أم كاذب؟ قال: فما لبث القاتل أن مات. فدفن فأصبح وقد وضع إلى جانب قبره. قال: ثم عادوا فحفروا له، وأمكنُوا، ودفنوه، فأصبحوا وقد وضع إلى جانب قبره مرتين أو ثلاثاً، فلمّا رأوا الأرض لا تقبله ألقوْه في بعض تلك الشعاب، قال: وأنزل الله تعالى هذه الآية. قال الحسن: إنَّ الأرض تحبس من هو شرٌّ منه، ولكن وعظ القوم ألاّ يعودوا. وقال السّدى: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد على سريّة، فلقى مرداس بن نهيك، فقتله، وكان من أهل فدك، ولم يُسلم من قومه غيره، وكان يقول: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله و يُسلّم عليهم، قال أسامة: فلمّا قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرته، فقال: قتلت رجلاً

يقول لا إلٰه إلا الله!! فقلت: يا رسول الله: إنما تعوّذ من القتل. فقال: كيف أنت إذا خاصمك يوم القيامة بلا إلٰه إلا الله؟ قال: فمازال يردّدها عليَّ: أقتلت رجلاً يقول لا إلٰه إلا الله. حتى تمنيتُ لو أن إسلامى كان يومئذٍ ــ فنزلت ــ «**إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا..**» الآية* وعبارة الخطيب. روى أن سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم غزت أهل فدك، فهربوا، وبقى رجل يقال له مرداس لأنه كان على دين المسلمين، فلمّا رأى الخيل خاف أن يكونُوا من غَيْر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل، وصعد هو إلى الجبل، فلمّا تلاحقت الخيل سمعهم يكبّرون، فلمّا سمع التكبير علم أنهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبّر ونزل، وهو يقول: لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله. السلام عليكم، فتغشاهُ أسامة بنَ زيد فقتله، واستاق غنمه، فنزلت، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه، فوجَدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وجداً شديداً، وقد كان سبقهم قبل ذلك الخبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قتلتموه إرادة ما معه!! ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على أسامة بن زيد، فقال يا رسول الله: استغفر لى فقال: وكيف بلا إلٰه إلاَّ الله؟ قال أسامة: فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكررّها عليّ حتى وددت أنى لم أكن أسلمتُ إلا يومئذٍ، ثم إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لى ثلاث مرات، وقال: اعتق رقبةً وحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديته إلى أهله، وردَّ عليه غنيماته على طريق الإئتلاف* وهناك روايات أخرى في التفاسير منثورة بألفاظ متقاربة المعنى، ولعل تلك الأقوال جرت في زمان متقارب فنزلت الآية في الجميع، وقد دلت الآية على أن المسلم إذا لقى الكافر ولا عهد له جاز له قتله، فإن قال لا إلٰه إلا الله لم يجز قتله لقوله عليه الصلاة والسلام: [أمرتُ أن أقاتل الناسّ حتى يقولُوا لا إلٰه إلاَّ الله» وذلك لأنه اعتصم بعصام الإسلام المانع من دمه وماله وأهله، فإن قتله بعد ذلك قُتل به، وإنما سقط القتل عن هؤلاء لأجل أنهم كانوا في صدر الإسلام. وتأوّلُوا أنه قالها متعوّذاً وخوفاً من السلاح. قوله تعالى: «**وَإِذَا ضَرَبْتُمْ**» أي سافرتم للجهاد «**فى سبيل الله فَتَبَيَّنُوا**» أي تثبّتوا. أي اطلبوا التثبت أو البيان من لقيكم «**ولاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إليكُمُ السّلامَ**» أي تحية الإسلام. أو الانقياد لكم بقول كلمة الحق، وهى الشهادة التي هى أمارة على الإسلام. واللام في قوله: لمن. لام التبليغ هنا ومن موصولة، أو موصوفة. وألقى هنا ماضى اللفظ إلاَّ

أنّـه بمعنى المستقبل. أي لمن يلق، لأن النهى لا يكون عمّا وقع وانقضى، والماضى إذا وقع صلـة صلـح للـمضى والاسـتـقـبال. «لَسْتَ مُؤْمِناً» وإنما قلتَ هذا تقية لنفسك ومالك فـتقتلوه. وهو عطف على قوله: ولا تقولوا. أي فلا تقتلوه وهذا هو المقصود بالتوبيخ والنهى «تَبْـتَـغُونَ» تطلبون بذلك «عَرَضَ الحياة الدنيا» من الغنيمة. وتبتغون حال من فاعل لا تـقُـولـوا، لـكـن لا على أن يـكون النهى راجعاً للقيد فقط كما في قولك: لا تطلب العلم تـبـتـغـى بـه الجاه. بلى على أنه راجع إليهما جميعاً. أي لا تقولوا له ذلك، ولا تبتغُوا العرض الـفـانى. «فَـعِـنْـدَ اللهِ مَـغَـانِمُ كَثِيرةٌ» تغنيكم عن قتل مثله لما له، وقوله: «فعند الله» تعليل للنهى المذكور، والمغانم جمع مغنم، وهو يصلح للمصدر والزمان والمكان، ثم يطلق على مـايـؤخـذ مـن مـال الـعدوّ اطلاقاً للمصدر على اسم المفعول. «كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ» تُـعـصـم دماؤكم وأموالكم بمجرد نطقكم بالشهادة. والمقصود: التعريض. أي كنتُم مثل الـرجـل الـمذكـور في مـبـادى الإسـلام لا يظهر منكم للناس غير ما ظهر منه لكم من تحيّة الإسـلام ونحـوهـا «فَـمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ» بالاشتهار بالإيمان والاستقامة أي قبل منكم تلك المرتـبـة ولم يـأمر بالتفحص عن سرائركم «فَتَبَيَّنُوا» أن تقتلوا مؤمناً، وافعلُوا بالداخل في الإسـلام كما فـعـل بـكـم، فـتـبيّنوا: تأكيد لفظى للأول، وقيل: ليس تأكيداً لاختلاف متعلقهما، فإن تقدير الأوّل: فتبيَّنوا فى أمر من تقتلونه، وتقدير الثاني: فتبيّنوا نعمة الله، أو تلبَّـثُوا فيها، والسياق يدل على ذلك لأن الأصل عدم التأكيد. «إنَّ اللهَ كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خبيراً» فيجازيكم به.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لاَ يَسْـتَـوِى الْـقَـاعِـدُونَ مِنَ المؤمِنينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ والْمُجَاهِدُونَ فى سَـبِـيلِ اللهِ بأمْوالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ فَضّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ عَلَـى الْـقَاعِدِينَ دَرَجَةً وكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وفَضّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ على الْـقَـاعِـدِيـنَ أجْـراً عَـظِـيـمـاً* دَرَجَـاتٍ مِـنْـهُ وَمَـغْـفِـرةً وَرَحْـمَـةً وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رحيماً» سورة النّساء (الآية: ٩٥ - ٩٦)

في الواحدي: قال زيد بن ثابت كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم حين نزلت «لا يَستَوِى القَاعِدُونَ مِنَ المؤمنينَ والمجاهِدُونَ فى سبِيلِ اللهِ» ولم يذكر أولى الضرر. فقال

ابن مكتوم: كيف وأنا أعمى لا أبصر، قال زيد: فتغشّى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في مجلسه الوحيُ، فاتكأ على فخذى، فوالذي نفسى بيده لقد ثقل عليَّ فخذى حتّى خشيتُ أن يرضها، ثم سُرّي عنه، فقال: [اكتب: «**لا يستوى الْقَاعِدُونَ من المؤمنين غير أولى الضرر**» فكتبها] رواه البخارى عن اسماعيل بن عبدالله، عن ابراهيم بن سعد بن صالح عن الزهرى* وفي رواية البراء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [ادع لى زيْداً، وقل له يجيء بالكتف والدواة، أو اللوح، وقال: اكبت لى «**لا يستوى القاعدون من المؤمنين**» (أحسبه قال: والمجاهدون فى سبيل الله) فقال: ابن مكتوم: يا رسول الله: بعيني ضرر، قال: فنزلت قبل أن يبرح «**غير أولى الضرر**»] رواه البخارى عن محمد بن يوسف، عن اسرائيل، عن أبى اسحاق* وهكذا في بقيّة التفاسير مع اختلاف في اللفظ دون المعنى* وقوله: «**لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمؤمِنِينَ**» عن الجهاد، وهذا بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوتهم في الجهاد بعد ما مرَّ من الأمر به وتحريضُ المؤمنين عليه ليأنف القاعدون عنه «**غَيْرُ أولى الضَّرَرِ**» من زمانة أو عمًى، أو نحوه كالعرج. «**والْمُجَاهِدُونَ فى سَبِيلِ الله بأمْوَالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ فَضَّلَ الله المُجَاهِدِينَ بأمْوَالِهِمْ وأنفُسِهِمْ على الْقَاعِدينَ درجةً**» يعنى فضلة في الآخرة قال ابن عباس: أراد بالقاعدين هنا أولى الضرر. أي فضل الله المجاهدين على أولى الضرر درجة لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النيّة، وألوا الضرر كانت لهم نيّة، ولم يباشروا الجهاد فنزلُوا عن المجاهدين درجة «**وَكُلاًّ**» من الفريقين «**وَعَدَ الله الْحُسْنى**» الجنَّة بإيمانهم «**وفَضَّلَ الله المجاهدين**» في سبيل الله «**على القاعدينَ**» يعنى الذين لا عذر لهم، ولا ضرر «**أجْراً عَظِيماً**» أي ثواباً جزيلاً، ثم فسّر ذلك الأجر العظيم فقال: «**دَرَجَاتٍ مِنْهُ**» قال قتادة: كان يقال للإسلام درجة، وللهجرة في الإسلام درجة، وللجهاد فى الهجرة درجة، وللقتل في الجهاد درجة* وقال ابن زيد: الدرجات سبعة: وهي التي ذكر الله في سورة براءة حين قال: «**ذَلِكَ بأنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ولاَ نَصَبٌ**» إلى قوله: «**ولا يَقْطَعُونَ وَادِياً إلاّ كُتِبَ لَهُمْ**»* وقال ابن محيْريز: الدرجات سبعون درجة ما بين كل درجتين سير الفرس الجواد المضمر سبعون سنة، روى مسلم عن أبى سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [من رضِيَ بالله رباً و بالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً وجبت له الجنَّة. فتعجب لها أبوسعيد: فقال: أعدْها يا رسول الله عليَّ، فأعادها عليه، ثم قال:

وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجةٍ في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: الجهاد في سبيل الله] ‹‹**دَرَجَاتٍ مِنْهُ**›› منازل بعضها فوق بعض من الكرامة وفيما ينالونه من الثواب الذي يكرمُهُم الله به ‹‹**وَمَغْفِرَةً ورحمةً**›› منصوبان بفعلهما المقدر، بمعين وغفر لهم مغفرة، ورحمهم رحمة، أو أنهما معطوفان على درجات ‹‹**وكانَ الله غفُوراً**›› لأ وليائه لما عسى يفرط منهم. قال الرازى: المغفرة والغفران ستر الذنب، ومنه الغافر والغفور والغفّار لستره ذنوب العباد وعيوبهم، يقال: استغفر الله لذنبه. ومن ذنبه بمعنى واحد فغفر له، أي فستره عليه وعفا عنه ‹‹**رَحِيماً**›› بأهل طاعته.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

‹‹إنَّ الّـذِينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمِي أنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأ رضِ قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَا جِرُوا فِيهَا فأولئكَ مأوَاهُمْ جَهَنَّمُ وسَاءتْ مَصِيراً* إلاّ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حيلَةً ولاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً* فَأُوْلَئكَ عَسَى الله أنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ الله عَفُوّاً غَفُوراً››

سورة النّساء (الآية: ٩٧ - ٩٩)

في الواحدي: نزلت الآية في ناس من أهل مكّة تكلّموا بالإسلام ولم يهاجروا، وأظهروا الايمان وأسرُّوا النفاق، فلمّا كان يوم بدر خرجُوا مع المشركين إلى حرب المسلمين، فقُتِلوا، فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم، وقالوا لهم: ما ذكر الله سبحانه وتعالى* وكذا في الخطيب والقرطبي، وعبارته: المراد بها جماعة من أهل مكة كانُوا قد أسلموا وأظهروا للنبيّ صلى الله عليه وسلم الإيمان به، فلمّا هاجر النبي صلى الله عليه وسلم أقامُوا مع قومهم، وفتن منهم جماعة فافتتنُوا، فلمَّا كان أمر بدر خرج منهم قوم مع الكفار، فنزلت الآية* وقيل: إنّهم لما استحقروا عود المسلمين. دخلهم شكٌّ في دينهم، فارتدُّوا فقتلُوا على الردّة، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكرهوا على الخروج، فأستغفروا لهم فنزلت الآية* وروى البخارى عن محمد بن عبدالرحمن قال:

قطع على أهل المدينة بعث ــ أي ألزمُوا بإخراج جيش لقتال أهل الشام في خلافة عبدالله بـن الزبير على مكة ــ فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهانى عن ذلك أشدّ النّهى، ثم قال: أخبرنى ابن عبّاس أن ناساً من المسلمين كانُوا مع المشركين ليـكثّرُوا سواد المشركين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأتى السهمى فيُرمى به فـيصيب أحدهم فيـقتله، أو يضرب فيقتل، فأنزل الله تعالى «**إنَّ الّـذِينَ توفّاهُم الملائكة ظالِمِى أنفُسِهِم..**»* وفي الطبرى: عن عكرمة في قوله تعالى: إنَّ الّـذِينَ توفّاهُمُ الملائكة ظَالِمِى أنفسهم قالُوا فيمَ كُنتُم» إلى قوله «**وساءت مصيراً**» قال: نزلت في قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحرث بن زمعة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبى العاص بن منبه بن الحجاج، وعلى بن أميّة بن خلف، قال: لمّا خرج المشركون من قريش وأتباعهم لمنع أبى سفيان بن حرب وعير قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأن يطلبُوا ما نيل منهم يوم نخلة، خرجوا معهم بشبان كارهين كانُوا قد أسلموا، واجتمعُوا ببدر على غير موعد، فقُتِلُوا ببدر كفاراً، ورجعوا عن الإسلام، وهم هؤلاء الذين سميناهُم* وأخبر ابن وهب قال: سألته: يعنى ابن زيد عن قول الله: «**إنَّ الّـذِينَ تَوفَاهُمُ الملائكةُ ظالمى أنفُسِهم..**» فقرأ حتى بلغ: «**إلاَّ المستضعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّساءِ والولدانِ**» فقال: لمَّا بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم وظهر، ونبع الإيمان نبع النفاق معه، فأتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالٌ، فقالوا يا رسول الله: لولا أنا نخاف هؤلاء القوم يعذبوننا و يفعلون و يفعلون لأسلمنا، ولكنّا نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فكانوا يقولون ذلك، فلما كان يوم بدر، قام المشركون فقالُوا: لا يتخلّف عنا أحد إلاَّ هدمنا داره واستبحنا ماله، فخرج أولئك الذين كانُوا يقولون ذلك القول للنبي صلى الله عليه وسلم معهم، فقُتِلَتْ طَائفَة منهم، وأسرت طائفة، قال: فأما الذين قُتِلُوا فهم الذين قال الله فيهم «**إنَّ الّـذِينَ توفاهُمُ الملائكة ظالمى أنفسهم..**» الآية. والأقوال كلها تكاد تجمع على أن الآية نزلت في جماعة أسلموا ولم يهاجروا فَقُتِلُوا يوم بدر مع الكفار* وقوله: «**إنَّ الّـذِينَ تَوَفّاهُمُ الملائكَةُ ظَالِمِى أنْفُسِهِمْ**» بالمقام مع الكفار وترك الهجرة. قال الجمهور: معنى تتوفاهم: تقبض أرواحهم عند الموت. ولا منافاة بينه و بين قوله: «**الله يتوفّى الأنفُسَ**» «**قلْ يتوفاكم ملكُ الموتِ**» لأنه تعالى هو المتوفى والفاعل لكل الأشياء بالحقيقة إلاَّ أن الرئيس المفوّض إليه هذا العمل ملك

الموت، وسائر الملائكة أعوانه. وعن الحسن: توفّاهُمُ الملائكة: أي يحشرونهم إلى النار. أما قوله: «**ظالِمِي أنْفُسِهِمْ**» فمنصوب على الحال من مفعول توفى، والإضافة فيه لفظيّة، ولذا لم تفد تعريباً فصح وقوعه حالاً. والظلم قد يراد به الشرك هنا. «**إنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**» فالمراد أنهم ظالمون أنفسهم بنفاقهم وكفرهم، وتركهم الهجرة «**قَالُوا**» لهم موبخين «**فِيمَ كُنْتُمْ**» أي في أي حالة كنتُم في أمر دينكم؟ وهو سؤال تقرير وتوبيخ. أي كنتم في أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم أم كنتُم مشركين؟ «**قالُوا**» معتذرين ومواربين في جوابهم «**كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ**» أي عاجزين عن إقامة الدّين «**فى الأ رْض**» أرض مكة، وهذا اعتذار غير صحيح إذ كانُوا يستطيعون الحيلة ويهتدون السبيل، ثم أوقفتهم الملائكة على دينهم فـ «**قَالُوا**» لهم توبيخاً «**أَلَمْ تَكُنْ أرضُ الله واسِعَةً فتُهَاجِرُوا فيهَا**»؟ من أرض الكفر إلى بلد آخر كما فعل غيركم. ومفاد هذا السؤال والجواب أنهم ماتُوا مسلمين ظالمين أنفسهم في تركهم الهجرة، وإلا فلو ماتُوا كافرين لم يُقل لهم شيء من هذا «**فأولئكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصيراً**» هي* وفي الآية الكريمة إشارة إلى وجوب المهاجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة الدين بأي سبب كان. وقوله تعالى: «**إلاَّ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والوِلْدانِ**» الذين صدقُوا في استضعافهم، وهم الذين «**لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً**» أي لا قوّة لهم على الهجرة ولا يملكون المال لينفقوه في سبيلها «**فأولئكَ عَسَى الله أنْ يَعْفُوَ عنْهُمُ**» أي عن خطر الهجرة بحيث يحتاج المعذور إلى العفو، وفي البرهان: وعَسَى ولعلَّ في كلام الله واجبتان، وإن كانتا رجاء وطمعاً في كلام المخلوقين، لأنَّ المخلوق هو الذي تعرض له الشكوك والظنون، والبارى سبحانه منزه عن ذلك. «**وكَانَ الله عَفُوّاً غَفُوراً**» أي مبالغاً في المغفرة، فيغفر لهم ما فرط منهم من ذنوبهم التي من جلتها القعود عن الهجرة إلى وقت الخروج، والولدان: كعباس بن ربيعة وسلمة بن هشام وغيرهما من الذين دعا لهم الرسول عليه السلام. قال ابن عباس: كنت أنا وأمي ممَّن عفا الله عنه بهذه الآية* وذلك أنه كان من الولدان إذ ذاك، وأُمّه هي أم الفضل بنت الحرث، واسمها لبابة، وهي أخت ميمونة رضي الله عنها، وأختها الآخرى لبابة الصغرى، وهنَّ تسع أخوات، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فيهنَّ: [الأخوات مؤمنات].

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَمَنْ يُهَاجِرْ فى سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فى الأرضِ مُراغَماً كثيراً وسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إلى اللهِ ورسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً»

سورة النّساء (الآية: ٩٩)

في الواحدي: قال ابن عباس في رواية عطاء: كان عبدالرحمن بن عوف يخبر أهل مكّة بما ينزل فيهم من القرآن، فكتب الآية التي نزلت «**إنَّ الَّذِينَ تَوفّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمِى أنْفُسِهِمْ..**» فلما قرأها المسلمون، قال خبيب(١) بن ضمرة الليثىّ لبنيه، وكان شيخاً كبيراً: احملونى فإنى لستُ مِنَ المستضعفين، وإنى لا أهتدى إلى الطريق، فحمله بنوه على سريرٍ متوجّهاً إلى المدينة، فلمّا بلغ التنعيم أشرف على الموت. صفقق يمينه على شماله. وقال: اللهمَّ هذه لك وهذه لرسولك، أبايُعك على ما با يَعَتْكَ يدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومات حميداً. فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: لو وافى المدينة لكان أتمّ أجراً، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي القرطبي: وذكر أبوعمر وأنه قد قيل فيه: خالد بن حزام بن خويلد ابن أخى خديجة رضي الله عنها، وأنّه هاجر إلى أرض الحبشة فنهَشَتْهُ حيّةٌ في الطريق فماتَ قبل أن يبلغ أرض الحبشة، فنزلت فيه الآية* والقول الأول ذكره الخازن وزاد بعد: أتمَّ أجراً. وضحك المشركون وقالوا: ما أدرك ما طلب، فأنزل الله عز وجلّ قوله: «**وَمَنْ يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ..**» الآية* ومثله في الغرائب، ولم يوجد غير الذي ذكرت في بقية التفاسير.

قوله تعالى «**وَمَنْ يُهَاجِرْ فى سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فى الأرْضِ مُرَاغَماً**» أي متحوَلاً ينتقل إليه، فهو اسم مكان. أي مكاناً يهاجر إليه. وعبر عنه بالمراغم للاشعار بأن المهاجر يرغم أنف قومه، أي يذلهم، والرغم الذل والهوان، وأصله لصوق الأنف بالرّعام، وهوالتراب. وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: [بُعِثْتُ مَرْغَمَةً] أي بعثتُ هواناً وذلاً للمشركين.

---

(١) الصحيح أن اسمه جندع بن ضمرة الليثى. كما ذكره الجلال والخازن نقلاً عن ابن عباس رضي الله عنها. (المؤلف).

وقوله «كثيراً وسَعَةً» في الرزق وإظهار الدين، وهذا ترغيب في الهجرة في سبيل الله لإعلاء دينه «وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إلى اللهِ ورَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ» في الطريق، كما وقع لجندع بن ضمرة «فَقَدْ وَقَعَ» ثَبَتَ «أَجْرُهُ» أي أجر هجرته «عَلَى اللهِ» فإيجابه على نفسه بحكم الوعد والتفضل والكرم، لا وجوب استحقاق، وتحتم. قال بعض العلماء: و يدخل في حكم الآية من قصد فعل طاعة من الطاعات ثم عجز عن اتمامها فيكتب الله لَهُ ثواب تلك الطاعة كاملاً تفضلاً منه ونعمة. وقال بعضهم: إنما يكتب له أجر ذلك القدر الذي عمل وأتى به، أمّا تمام الأجر فلا، والقول الأوّل أصحُّ لأنَّ الآية إنما نزلت في معرض الترغيب في الهجرة، وأنَّ من قصدها ولم يبلغها بل مات دونها، فقد حصل له ثواب الهجرة كاملاً فكذلك من قصد فعل طاعة ولم يقدر على إتمامها كتب له ثوابها كاملاً. وقد قسم العلماء الذهاب في الأرض قسمين (هرباً وطلباً) فالهرب ينقسم إلى ستة أقســام:

القسم الأول: الهجرة وهي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام كهجرة الصحابة من مكة إلى المدينة، وكانت فرضاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وهي باقية إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح هي القصد إلى البني صلى الله عليه وسلم حيث كان أسلم في دار الحرب، وجب عليه الخروج إلى دار الإسلام.

القسم الثاني: الخروج من أرض البدعة، قال مالك: لا يحل لأحدٍ أن يقيم بأرض يُسبُّ فيها السلف و يستدل لقول الإمام مالك بقوله تعالى: «وإذَا رأيْتَ الّذِينَ يَخُوضونَ في آيَاتِنَا فأعْرِضْ عَنْهُمْ» إلى قوله: «فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالمين».

القسم الثالث: الخروج من أرض غلب عليها الحرام، لأنَّ طلب الحلال فرض على كل مسلم.

القسم الرابع: الفرار من الأذاية في البدن ليخلّص نفسه من التّهلكة اقتداء بإبراهيم عليه السلام، قال لمّا خاف من قومه «إنِّي مُهَاجِرٌ إلىَ رَبِّي» وقال «إنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي سيهدين» وقال مخبراً عن موسى عليه السلام «فَخَرجَ مِنْهَا خَائفاً يَتَرَقَّبُ» والآيات كثيرة في الموضوع.

القسم الخامس: خوف المرض في البلاد الموبوءة والخروج منها إلى الأرض

الصحيّة، فقد أذن الرسول عليه الصلاة والسلام للرعاة حين استوخمُوا المدينة أن يخرجوا إلى السرح فيكونوا فيه حتّى يصحُّوا وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون للحديث الصحيح.

القسم السادس : الفرار خوف الأذية في المال. فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه.

أما الطلبُ فينقسم إلى قسمين (طلبُ دينٍ، وطلبُ دنيا) القسم الأول وهو طلب الدين ينقسم إلى تسعة أقسام:

القسم الأول : مندوب وهو السفر للاعتبار في مخلوقات الله. قال تعالى: «**أوَلَمْ يَسِيروا فى الأرْضِ فَيَنْظُروا كيْفَ كانَ عاقِبةُ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم**» و يقال: إنَّ ذا القرنين: إنما طاف الأرض ليرى عجائبها وقيل: لينفذ الحقّ فيها.

القسم الثاني : فرض وهو سفر الحج عندما تتوفر الشروط المطلوبة في الشخص والسفر.

القسم الثالث : سفر الجهاد وله أحكـــام.

القسم الرابع : سفر المعاش فقد يتعذّر على الرجل اكتساب معاشه في بلده فيخرج في طلبه، لا يزيد عليه من صيد أو احتطاب، أو احتشاش، وهو فرض في حقه، لأن المسئلة مع القدرة على العمل محرّمة في الشرع.

القسم الخامس : سفر التجارة والكسب الزائد على القوت لقوله تعالى: «**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أنْ تبتَغُوا فَضْلاً من رَبِّكُمْ**» يعنى التجارة، وهي نعمة من الله بها في سفر الحج، فكيف إذا انفردت.

القسم السادس : الخروج لطلب العلم، اطلبوا العلم ولو في الصين.

القسم السابع : قصد البقاع قال عليه الصلاة والسلام: [لاَ تُشد الرحالُ إلاَّ إلى ثلاثة مساجد].

القسم الثامن : الثغور للرباط بها، وتكثير سوادها للذبّ عنها.

القسم التاسع : زيارة الإخوان في الله تعالى قال عليه الصلاة والسلام: [زار رجل أخاً لهُ في قرية، فأرصد الله له ملكاً على مدرجته، فقال: أين تريد؟ فقال: أريد أخاً في هذه القرية، قال: هل لك من نعمة تربُّها عليه، قال: لا، غير أنني أحببته في الله عز وجل: قال: فإني رسول الله إليه بأن الله أحبك كما أحببته فيه] رواه مسلم وغيره. وقوله تعالى فى آخر الآية: «**وكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً**» أي بإكمال ثواب هجرته.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وإذَا كُنْتَ فيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصلاةَ فلتقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وليَأخُذُوا أسْلِحَتَهُمْ فإذَا سَجَدُوا فليكُونُوا مِنْ ورائكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أخرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ولْيَأخُذُوا حِذْرَهُمْ وأسْلِحَتَهُمْ ودَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفَلُونَ عَنْ أسْلِحَتِكُمْ وأمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً ولاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إنْ كَانَ بِكُمْ أذًى مِّنْ مَطَرٍ أوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أنْ تَضَعُوا أسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إنَّ اللهَ أعَدَّ للكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً» سورة النّساء (الآية: ١٠٢)

في الواحدي والخطيب : قال مجاهد: حدّثنا أبوعياش الزرقي، قال: صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر، فقال المشركون: قد كانُوا على حال لو كنا أصبناهم غرّة، قالوا: تأتى عليهم صلاة هي أحبّ إليهم من آبائهم، قال: وهي العصر، قال: فنزل جبريل في هذه الآية بيْنَ الأولى والعصر **«وإذا كُنْتَ فِيهِمْ فأقمت لَهُمُ الصلاةَ»** وكان بعُسْفَانَ، وعلى المشركين خالد بن الوليد، وهم بيننا و بين القبلة، وذكر صلاة الخوف، وقد فصّل ابن عباس بقوله: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقى المشركين بعُسْفَانَ، فَلمَّا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر، فرأوه يركع و يسجد هو وأصحابه، قال بعضهم لبعض: كان هذا فرصة لكم لو أغرتُم عليهم ما علموا بكم حتى تواقعوهم، فقال قائل منهم: فإن لهم صلاة أخرى هي أحبّ إليهم من أهليهم وأموالهم، استعدُّوا حتّى تُغِيرُوا عليهم فيها فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه **«وإذا كُنْتَ فيهِمْ فأقَمْتَ لهُمُ الصلاةَ..»** إلى آخر الآية. وأعلم ما ائتمر به المشركون، وذكر صلاة الخوف. وكذا في الخازن. وكذا روى الإمام أحمد وأهل السنن كما هو في ابن كثير. وقوله تعالى: **«وإذَا كُنْتَ»** يا محمد حاضراً **«فِيهِمْ»** وأنتم تَخافون العدو **«فأقَمْتَ لَهُمُ الصلاة فَلْتَقُمْ طَائفَةٌ منْهُمْ مَعَكَ»** وتتأخر طائفة بإزاء العدو **«وَلْيَأخُذُوا»** أي الطائفة التي قامت معك **«أسْلِحَتَهُمْ»** معهم، في الخازن: اختلفُوا في هؤلاء الذين أمرهم الله بأخذ السلاح ، فقيل: أراد بهم الذين قامُوا معه إلى الصلاة فإنهم يأخذون أسلحتهم في

الصلاة، فعلى هذا القول إنما يأخذون من السلاح ما لا يشغلهم عن الصلاة، ولا يؤذى به من إلى جنبه كالسيف والخنجر، وذلك لأنه أقرب إلى الإحتياط، وأمنع للعدوّ من الإقدام عليهم، فإن كان السلاح يشغل بحركته، وثقله عن الصلاة كالترس الكبير، أو يؤذى من إلى جانبه كالرمح فلا يأخذه. وقيل أراد بهم الطائفة التي بقوا في وجه العدو، فإنهم يأخذون أسلحتهم للحراسة. وقيل: يحتمل أن يكون أمراً لفريقين بحمل السلاح لأن ذلك أقرب للاحتياط. والظاهر أنَّ الأمر بأخذ السلاح للطائفة القائمة مع رسو الله صلى الله عليه وسلم. والمعنى: لا يضعوها ولا يلقوها. وإنما عبّر عن ذلك بالأخذ للإيذان بالاعتناء باستصحابها كأنهم يأخذونها ابتداء. وقوله: «**فإذَا سَجَدُوا**» أي شرعُوا في الصلاة «**فليكُونُوا**» أي الطائفة الأخرى «**مِنْ وَرَائِكُمْ**» يحرسون إلى أن تقضوا الصلاة، وتذهب هذه الطائفة تحرس «**ولتَأْتِ طائفةٌ أخرى لم يُصَلُّوا**» وهى الطائفة التى كانت في وجه العدو «**فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ**» الركعة الثانية التي بقيت عليك، و يتمُوا بقية صلاتهم «**وَلْيأخُذُوا حِذْرَهُمْ وأَسْلِحَتَهُمْ**» معهم إلى أن تقضوا الصلاة، وقد فعل صلى الله عليه وسلم ذلك ببطن نخل. رواه الشيخان كذا حملها الجلال على صلاة بطن نخل، وحملها بعض المفسرين على صلاة عُسْفَان كما علمت، وحملها بعض آخر منهم على ذات الرقاع، وقوله: «**وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**» أي تمنَّ الذين كفروا «**لَوْ تَغْفَلُونَ**» إذَا قمتم إلى الصلاة «**عَنْ أسْلِحَتِكُمْ وأمتِعَتِكُمْ**» أي حوائجكم التي بها بلاغكم في أسفاركم فتسهون عنها، والخطاب للفريقين بطريق الالتفات. «**فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً**» أي فيهجمون عليكم هجمة واحدة ليأخذوكم. وهذا علّة الأمر بأخذ السلاح «**ولاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ**» أي لا حرج ولا وزر «**إنْ كانَ بِكُمْ أذًى من مَطَرٍ أوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أنْ تَضَعُوا أسْلِحَتَكُمْ**» فلا تحملوها. وهذا يفيد إيجاب حملها عند عدم العذر، وهو أحد القولين للشافعى، والثاني أنه سنّةٌ، ورجّحه الشيخان «**وَخُذُوا حِذْرَكُمْ**» مِنَ العدوّ أي احترزوا منه ما استطعتم قال ابن عباس: نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وذلك أنه غزا بنى محارب و بنى أنمار. ولا يرون من العدوّ أحداً، فوضع النّاس السّلاح فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته حتى قطع الوادى، والسماء ترش بالمطر، فسال الوادى، فحال السيل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين أصحابه، فجلس تحت شجرة، فبصر به غورث بن الحارث المحاربى، فقال: قتلنى الله إن لم أقتله، ثم انحدر من الجبل،

ومعه السيف ولم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ وهو قائم على رأسه، وقد سلّ سيْفَهُ من غمده، وقال يا محمد: من يمنعك منّي الآن؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله، ثم قال: اللهمّ اكفني غورث بن الحارث بما شئتَ، فأهوى غورث بالسيف ليضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم به فأكبَّ لوجهه من زلخة زلخها، فندر السيف من يده، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ السيف، ثم قال يا غورث: من يمنعك منّي الآن؟ فقال: لا أحد. فقال: أتشهد أن لا إلٰه إلاّ الله وأنَّ محمداً عبده ورسُولُه؟ فقال: لا، ولكن أشهد أن لا أقاتلك، ولا أعين عليك عدوّاً، فأعطاهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سيْفه، فقال غورث: أنت خيرٌ منّي. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أنا أحقّ بذلك منك. فرجع غورث إلى أصحابه، فقالوا له: و يلك يا غورث ما منعك منه؟ فقال: والله لقد أهويت إليه بالسيف لأضرب به، فوالله ما أدرى زلخني بين كتفى، فخررتُ لوجهي. وذكر لهم حاله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وسكن الوادى، فقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الوادى إلى أصحابه، وأخبرهم الخبرو وقرأ هذه الآية «**ولاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إنْ كانَ بِكُمْ أذًى..**» الآية* والزلخة: الدفعة، وفي القاموس زلخه بالرمح يزلخه من باب ضرب زجّه* وقوله تعالى: «**إنّ الله أعدّ**» أي هيأ «**للكافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً**» أي ذا إهانة.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إنا أنزلنا إليْكَ الكِتَابَ بالحقّ لتحكُمَ بيْنَ النَّاسِ بِا أراكَ الله ولاَ تَكُنْ لِلْخَائنينَ خَصِيماً* واسْتَغْفِرِ الله إنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَحيماً* ولاَ تُجَادِلْ عنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أنْفُسَهُمْ إنَّ الله لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَواناً أثِيماً* يَسْتَخْفُونَ مِنَ النّاسِ ولاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله وَهُوَ مَعَهُمْ إذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ الله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحيطاً* هأنْتُمْ هؤلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فى الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ الله عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكيلاً* وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أوْيَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ الله يَجِدِ الله غَفُوراً رَحِيماً* وَمَنْ يَكْسِبْ إثْماً فَإنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً* وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أوْإثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ

بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وإثْماً مُبيناً* وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ ورَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وما يُضِلُّونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ وما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيءٍ وأَنْزَلَ اللهُ عليكَ الْكِتَابَ والحكمَةَ وعَلَّمَكَ ما لَمْ تكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً» سورة النّساء (الآية: ١٠٥ - ١١٢)

هذه الآيات أنزلت كلها فى قصّة واحدة وذلك أن رجلاً من الأنصار يقال له: طعمة بن أبيرق، أحد بنى ظفر ابن الحارث، سرق درعاً من جار له يقال له: قتادة بن النعمان، وكان الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرْقٍ في الجراب حتى انتهى إلى الدار، وفيها أثر الدقيق، ثم خبّأها عند يهُودىّ يُقال له: زيد بن السمين، فالتُمست الدرع عند طعمة، فلم توجد عنده، وحلف لهم، والله ما أخذها وماله به علم، فقال أصحاب الدرع: بل والله قد أدلج علنيا فأخذها، وطلبنا أثره حتّى دخل داره، فرأينا أثر الدقيق، فلمّا أن حلف تركوه، واتّبعُوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودى، فأخذوه، فقال اليهودي: دفعها إلىَّ طعمة بن أبيرق، وشهد له أناس من اليهود على ذلك، فقال بنوا ظفر، وهم قوم طعمة: انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلموهُ في ذلك، فسألوهُ أن يجادل عن صاحبهم، وقالُوا: إن لم تفعل هلك صاحبنا، وافتضح و برىء اليهودى، فهمَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل، وكان هواه معهم، وأن يُعاقب اليهودى، فأنزل الله تعالى «**إنَّا أنْزَلْنَا إلَيْكَ الْكِتَابَ بالحقّ..**» الآيات كلها. وهذا قول جماعة من المفسرين منهم الخطيب والقرطبي والجلال والخازن والكشاف وابن كثير وابن جرير عن قتادة، زاد وكان طعمة قذف بها بريئاً، فلما بين الله شأن طعمة نافق ولحق بالمشركين بمكة، فأنزل الله فيه «**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ**» الآية. قرأت في بعض الكتب أنه أراد السرقة بمكة فبينما هوينقب الحائط فإذا به يسقط عليه، فقتله وشخص بصره فأنزل الله تعالى «**ولاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظالمونَ إنَّما يؤخِّرُهُمْ لِيومٍ تَشْخَصُ فيهِ الأ بْصَارُ**». قوله: «**إنَّا أَنْزَلْنَا إلَيْكَ الْكِتَابَ**» القرآن «**بالحقّ**» بالصدق، وهو متعلّق بأنزل، وهو في محل نصب على الحال المؤكدة فيتعلّقُ بمحذوف وصاحب الحال هوالكتاب، أي أنزلناه ملتبساً بالحقّ «**لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ**» أي بما علمك الله وأوحى إليك وإنما سمّى العلم اليقينى رؤية لأنه جرى مجرى الرؤية في قوّة الظهور،

روى عن عمر أنه قال: لا يقولنّ أحدكم قضَيْتُ بما أرانى الله فإنَّ الله لم يجعل ذلك إلاَّ لنبيّه صلى الله عليه وسلم. ولكن ليجتهد رأيه لأن الرأي من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مصيباً لأن الله تعالى كان يريه إيَّاهُ، وإنَّ رأى أحدنا يكون ظناً ولا يكون علماً* قال المحققون: دلّت هذه الآية على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يحكم إلاّ بالوحى الإلٰهى، والنص المنزل عليه* كذا في الخازن، وفي النسفى: قال الشيخ أبومنصور رحمه الله: بما ألهمك الله في أصوله المنزلة، وفيه دلالة على جواز الإجتهاد* ولكنَّ المعنى: بما أراك: أعلمك. والعلم لا يكون إلاَّ بوحي، والكلام صحيح إذا قصد الوحى الإلهاميّ. وقوله «**وَلاَ تَكُنْ لِلخائِنِينَ**» كطعمة «**خَصِيماً**» أي مخاصماً عنهم وهم قوم طعمة بأن تجادل عن طعمة مدافعاً عنه، ومعيناً له، واللام في للخائنين، للتعليل، ومفعول خصيماً محذوف، أي مخاصماً للبرىء من السرقة، وهو اليهودى، أشار إلى هذا البيضاوى «**واسْتَغْفِرِ الله**» ممّا هممتَ به من القضاء على اليهودى بقطع يده تعويلاً على شهادتهم. «**إنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَحِيماً**» غفوراً لذنوب عباده يسترها عليهم، و يغفرها لهم رحيماً بعباده المؤمنين. قال الخازن: وقد تمسّك بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنب من الأنبياء، وقالوا: لو لم يقع من الرسول صلى الله عليه وسلم ذنب لما أمر بالإستغفار.

والجواب: عمّا تمسكوا به من وجوه:

أحدها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفعل المنهى عنه في قوله «**وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائنِينَ خَصِيماً**» ولم يخاصم عن طعمة لمّا سأله قومه أن يذبّ عنه وأن يلحق السرقة باليهودى فتوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وانتظر ما يأتيه من الوحى السماوى والأمر الإلٰهى فنزلت هذه الآية، وأعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن طعمة كذّاب، وأن اليهوديّ برىء من السرقة. وإنما مال صلى الله عليه وسلم إلى نصرة طعمة وهمَّ بذلك بسبب أنه في الظاهر من المسلمين. فأمره الله بالاستغفار لهذا القدر.

الوجه الثانى: أن قوم طعمة لمَّا شهدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ببراءة طعمة من السرقة، ولم يظهر في الحال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يوجب القدح في شهادتهم همّ بأن يقضى على اليهودى بالسرقة، فلمّا أطلعه الله على كذب قوم طعمة عرف أنه لو وقع ذلك الأمر لكان خطأ في نفس الأمر فأمره الله بالاستغفار منه، وإن كان معذوراً.

الوجه الثالث : يحتمل أن الله تعالى أمره بالاستغفار لقوم طعمة لذنبهم عن طعمة فإنَّ استغفاره صلى الله عليه وسلم يحتمل أن يكون لذنب قد سبق قبل النبوّة. وأن يكون لذنوب أمته.

الوجه الرابع : إنّ درجة النبي صلى الله عليه وسلم أعلى الدرجات ومنصبه أشرف المناصب فلعلوّ درجته وشرف منصبه، وكمال معرفته بالله عزّ وجلّ، فما يقع منه على وجه التأويل أو السهو المقربين، وذلك بالنسبة إلى منازلهم ودرجاتهم. انتهى. ولماذا لا يقال هو من باب أن للسيد أن يخاطب عبده بما شاء. كما أن النهى عن الشيء لا يقتضى كون المنهى مرتكباً للمنهى عنه.

وقوله: «**ولاَ تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ**» يعني طعمة ومن عاونه من قومه ممن علموا كونه سارقاً والاختيان كالخيانة يقال: خانه واختانه، والعاصي خائن نفسه لأنه يحرم نفسه الثواب و يوصلها إلى العقاب «**إِنَّ الله لاَ يَحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً**» قال المفسرون: إنَّ طعمة خان في الدرع أولاً، ثم في نسبة اليهودى إلى تلك السرقة، وخوّاناً فعّالاً وأثيماً فعيلاً بُنِيَا على المبالغة والعموم ليتناول طعمة وكل من يخون خيانة. أي فلا تخاصم لخائن قط، ولا تجادل عنه لأن الله لا يُحِبُه، وأيضاً كان الله عالماً من طعمة بالافراط في الخيانة وركوب الإثم، وقد تقدم أنه هرب إلى مكة مرتداً ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فمات، ومن كانت تلك خاتمة أمره لا يشك في حاله. قال العقلاء: إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات. وعن عمر أنَّه أمر بقطع يد سارق فجاءت أُمّه تبكى وتقول: هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه، فقال: كذبت إنَّ الله لا يؤاخذ عبده في أول مرّة. وفي الآية دليل على أنَّ من كان قليل الخيانة والإثم لم يكن في معرض السخط من الله تعالى. وقوله «**يَسْتَخْفُونَ**» يستترون «**مِنَ النَّاسِ**» حياءً منهم، وخوفاً من ضررهم «**وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله**» أي لا يستحيون منه لأن الاستخفاء لازم الإستحياء. «**وهو مَعَهُمْ**» بالعلم والقدرة والرؤية فلا يخفى عليه شيء من حالهم لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية، وكفى بذلك زاجراً للإنسان عن المعاصي وقوله: «**إِذْ يُبَيِّتُونَ**» يدبرون «**مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ**» وهو تدبير طعمة أن يرمى الدرع في دار اليهودى: زيد فى السمين. ليسرق دونه ويحلف ببراءته. أو لعلهم اجتمعوا في الليل ورتبوا كيفية المكر فسمى الله تعالى كلامهم ذلك بالقول المبيّت الذي لا يرضاهُ الله، أو المراد

بالقول الحلف الكاذب الذي حلف به بعد أن بيّت الدرع عند اليهودى. «**وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً**» أي لا يخفى عليه شيء من أسرار عباده، وهو مطلع عليهم ومحيط بهم لا تخفى عليه خافية «**هٰا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ**» ها للتنبيه في أنتم وما بعدها مبتدأ وخبر. و يعنى يا هؤلاء الذين هو خطاب لقوم من المؤمنين كانوا يذبون عن طعمة، وعن قومه «**جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ**» جملة موضحة للأولى. أي هَبُوا أنكم خاصمتُم عن طعمة وقومه في الدنيا «**فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ**» أي فمن الذي يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذه الله بعذابه فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع. «**أَمْ مَّنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وكيلاً**» حافظاً ومحامياً عن عذاب الله إذا نزل بهم، وهذا الاستفهام معطوف على الأ ول، وكلاهما للإنكار والتقريع ثم أردف الوعيد والتهديد بذكر التوبة فقال تعالى: «**وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ**» نزلت هذه الآية في ترغيب طعمة في التوبة وعرضها عليه، وقيل: نزلت في قومه الذي جادلوا عنه. وقيل: هي عامة في كل مسيء ومذنب لأن خصوص السبب لا يمنع من إطلاق الحكم. ومعنى الآية: ومن يعمل سوأ يسيء به إلى غيره كما فعل طعمة بالسرقة من قتادة واليهودى، أو يظلم نفسه بما يجازى به كالحلف الكاذب «**ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ**» يعنى من ذنوبه. وقد يستدل بالآية على أن التوبة مقبولة عن جميع الذنوب وإن كان كفراً أو قتلاً عمداً، أو غصباً للأموال، بلى على أن مجرّد الاستغفار كافٍ. وعن بعضهم أنّ الاستغفار لا ينفع مع الإصرار فلابد من اقترانه بالتوبة. وإنما قلت الذي ذكرت لأن الاثم يشمل كل ما يأثم بفعله الإنسان. والظلم يشمل الشرك فما دونه، أي ثم يستغفر الله من ذنوبه «**يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً**» ولهذا قال الخازن: في هذه الآية دليل على حكمين:

أحدها : أن التوبة مقبولة عن جميع الذنوب الكبائر والصغائر لأن قوله «**وَمَنْ يَعْمَلْ سوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ**» عمَّ الكل.

والحكم الثاني: أن ظاهر الآية يقتضي أن مجرد الإستغفار كافٍ. وقال بعضهم إنه مقيد بالتوبة لأنّه لا ينفع الاستغفار مع الإصرار على الذنوب* قلت: بل لابد من أن يصدق في التوبة فليس المراد مجرّد الاستغفار باللسان.

قال الكرخى : وهذه الآية دلت على أن التوبة مقبولة من جميع الذنوب سواء كانت كفراً أو قتلاً عمداً أو غصباً للأموال، لأن السوء والظلم يَعُمُّ الكل* وفي الطبرى: قال عبدالله: كانت بنوا اسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب

على بابه، وإذا أصاب البول شيء منه قرضه بالمقارض، فقال: رجل: لقد آتى الله بني إسرائيل خيراً. فقال عبدالله: ما آتاكم الله خيراً مما آتاهم: جعل الله الماء لكم طهوراً، وقال: «والَّذِينَ إذا فَعَلوا فاحِشَةً أو ظَلَموا أنفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهم» وقال: «وَمَنْ يَعْمَلْ سوءًا أو يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثم يَسْتَغْفِرِ الله يَجد الله غَفُوراً رَحيماً»* قال محمد بن جرير الطبري: حدثني يعقوب، قال: ثنا هشيم، قال: ثنا ابن عوف عن حبيب بن أبي ثابت قال: جاءت امرأة إلى عبدالله بن مغفل، فسألته عن امرأة فجرت فحبلت، فلمّا ولدت قتلت ولدها، فقال ابن مغفل: ما لها إلاَّ النار، فانصرفت وهي تبكي فدعاها، ثم قال: ما أرى أمرك إلاَّ أحد أمرين «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أو يظلم نفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ الله يجد الله غَفُوراً رَحيماً» قال: فمسحت عينها ثم مضت* وقال: حدثني المثنى قال: ثنا عبدالله بن صالح، قال: ثني معاوية عن عليّ عن ابن عبّاس قوله «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ الله يَجِدِ الله غَفُوراً رَحِيماً» قال: أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً* قال: ولو كانت ذنوبه أعظم من السّمٰوات والأرض والجبال* وكذا ذكره ابن كثير في التفسير* وروى الإمام أحمد عن عليّ رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً نفعني الله فيه بما شاء أن ينفعني منه. وحدَّثني أبوبكر وصدق أبوبكر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ما من مسلم يذنب ذنباً، ثم يُصلي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلاَّ غفر له] وقرأ هاتين الآيتين «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أو يَظْلم نَفْسَهُ» الآية «والَّذِينَ إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفُسَهُم..» الآية. وروى أحاديث في الموضع بعضها صحيحة الأسناد، وبعضها لا يصح. وقوله تعالى: «وَمَنْ يَكْسِبْ إثْماً» ذنباً «فإنَّما يكسبُه عَلَى نَفْسِهِ» لأنَّ وباله عليها ولا يضر غيره «ولا تزرُ وازِرَةٌ وزر أخرى» يعنى لا يغنى أحدٌ عن أحد، وإنما على كل نفس ماعملت لا يحمل عنها لغيرها «وَكَانَ الله عَليماً حَكِيماً» في صنعه لا يظلم أحداً، يعنى إذا حكم عليه بالقطع، وقيل: معناه عليماً بما في قلب عبده عند إقدامه على التوبة إذا كان صادقاً. حكيماً: تقتضى حكمته أن يتجاوز عن التائب، و يغفر له، و يقبل توبته «وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أوْ إثْماً» قيل: إن الخطيئة: هى الصغيرة من الذنوب، والاثم: هو الكبيرة، وقيل: الخطيئة هي الذنب المختص بفاعله، والإثم

الذنب المتعدّى إلى الغير، وقيل: إن الخطيئة هي سرقة الدرع والاثم هو يمينه الكاذبة* وقوله: «ثُمَّ يَرْمِ بِهِ» أي بالخطيئة والإثم، وتوحيد الضمير مع تعدد المرجع لمكان أو تذكيره لتغليب الإثم على الخطيئة كأنه قيل: ثم يرم بأحدهما «بريئاً» منه كاليهودى: زيد في السمين في واقعة طعمة «فَقَد احْتَمَلَ» تحمّل «بهْتَاناً» برميه. البهتان: من البهت وهو الكذب الذي يتميّز في عِظَمه «وإثْماً مُبيناً» بيّناً بكسبه، أي فله عقوبتان لأنه جامع بين الأمرين، فلا جرم يلحقه الذم في الدارين وقوله: «وَلَوْلاَ فَضْلُ الله علَيْكَ وَرَحْمَتُهُ» أي لولا أن خصك الله بالفضل وهو التوبة، الرحمة، وهي العصمة، وما أوحى إليك من الاطلاع على أسرار قوم طعمة فهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصّة «لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُم» يعنى من بنى ظفر وهم قوم طعمة «أنْ يُضِلُّوكَ» يعنى عن القضاء بالحق، وتوخي طريق العدل. وقيل: معناه يخطؤك في الحكم، و يلبّسُوا عليك الأمر حتى تدفع عن طعمة، وذلك لأنَّ قوم طعمة عرفوا أنه سارق، ثم سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يدافع عنه و ينزهه عن السرقة، و يرمى بها اليهودى «وَمَا يُضِلُّونَ إلاَّ أنفُسَهُمْ ومَا يَضُرُّونك مِنْ» زائدة في المفعول المطلق. أي شيئاً من الضرر لا قليلاً ولا كثيراً لأنَّ وبال إضلالهم عليهم «وأنْزَلَ الله عَلَيْكَ الْكِتَابَ» القرآن «وَالْحِكْمَةَ» السنّة بما فيها من الأحكام لتقضى بهما «وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ» من الأحكام والغيب «وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ» بذلك وغيره «عَظِيماً» فلا فضل أعظم من النبوّة العامة والرسالة التّامة. ففي هذه الآية تنبيه من الله عزَّ وجل لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم على ما حباهُ من ألطافه، وما شمله من فضله وإحسانه ليقوم بواجب حقه، وقد قام به صلى الله عليه وسلم حقّ القيام شاكراً مولاه على ما حباهُ به من الفضل والإحسان.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَيْسَ بأمَانيِّكُمْ ولاَ أمَانِيِّ أهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ الله وَلِيّاً ولاَ نَصِيراً» سورة النّساء (الآية: ١٢٣)

في الواحدي: قال أبوصالح: جلس أهل الكتاب: أهل التوراة، وأهل الإنجيل، وأهل الأديان. كل صنف يقول لصاحبه: نحن خيرٌ منكم، فنزلت هذه الآية* وقال مسروق وقتادة: احتج المسلمون وأهل الكتاب: فقال أهل الكتاب: نحن أهدى منكم،

نـبّـيـنـا قـبـل نبيّكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم. وقال المسلمون: نحن أهـدى مـنـكـم، وأوْلى بـالله، نـبـينا خاتم الأنبياء، وكتابنا يقضى على الكتب التي قبله، فـأنـزل الله تـعالى هذه الآية* ثم أفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان بـقـوله تعالى «**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكر أو أنثى وهو مؤمنٌ**» و بقوله «**وَمَنْ أحـسنُ ديناً ممن أسلم وجهه لله**» الآيتين وكذا في الخطيب* وفي القرطبي: ومن أحسن مـا روى في نـزولها مـا رواه الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: قالت اليهود والـنـصـارى: لـن يـدخل الجنَّة إلاَّ من كان منَّا، وقالت قريش: ليس نبعث، فأنزل الله «**لَـيس بـأمـانـيِّـكُـمْ ولا أمـانيِّ أهل الكتاب..**» ومال إليه الطبرى: وعلل ذلك بأن المسـلـمين لم يجر لأمانيّهم ذكر فيا نصّ من الآى قبل قوله: «**لَيْسَ بأمانيكم..**» وقال: حدث الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: لمّا نزلت «**ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب..**» قال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء فنزلت هذه الآية «**وَمَنْ يَعْملْ مِنَ الـصَّالِـحَـاتِ مـنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْـثَـى وهو مؤمنٌ..**» وهكذا بقية الأقوال في مفاخرة أهل الكتاب والمسلمين.. كان أهم السبب في نزل الآية* وقوله تعالى: «**لَيْسَ**» الأمر مرتبطاً «**بأَمَانِيِّكُمْ ولاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ**» بل بالعمل الصالح، والخطاب للمسلمين لأنه لا يـؤمـن بـوعـد الله إلاَّ مـن آمـن بـه* وقـيـل: قـالـت اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن أصحـاب الجـنـة، وكـذلـك الـنـصارى، وقالت قريش: لا نُبْعث. فنزلت: أيَ ليس ما ادعـيـتـمـوه يـا كـفـار قريش بأمانيكم، والأمانى جميع أمنية مأخُوذة من التمّنى وهو تقدير الشيء في الـنـفـس وإرادتـه، فالأمنية ما يقدره الإنسان في نفسه و يصوره فيها كأن يتصور أنَّـه يـثـاب أو يـعاقب، أوْ أنه يفعل كذا وكذا، فيؤل المعنى إلى أنها نوع من الشهوة والمحبّة والإرادة* «**مَـنْ يَـعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**» المؤمن والكافر، لأن السوء يشمل الكفر، والجزاء إمّـا في الآخـرة، أو في الـدنـيا بالبلاء والمحن كما ورد في الحديث المخرج في الترمذي وغيره أنَّ أبـا بـكـر لـمّـا نـزلـت قـال يا رسول الله: وأينا لم يعمل السوء، وإنا لمجزيون بكل سوء عـمـلـنـاه؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أما أنت وأصحابك المؤمنون فتجزن بذلك في الدنيا حتى تـلْـقُـوا الله ولـيـس عـليكم ذنوب. وأما الآخرون فيجتمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم الـقـيامة* وكذا في الكرخى وأسد الغابة وغيرها* وفي الخازن: قال الضحاك: يقول ليس لـكم ما تمنيتُم وليس لأهل الكتاب ما تمنّوْا، ولكن من عمل سوءًا يعنى شركا فات عليه

يجز به النَّار» وقال الحسن: هذا في حق الكفار خاصة لأنهم يجازون بالعقاب على الصغير والكبير ولا يجزى المؤمن بسيء عمله يوم القيامة، ولكن يجزى بأحسن عمله و يتجاوز عن سيآته. قال الخازن: و يدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله: «**ولاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ الله وليـاً ولاَ نَـصيراً**» وهذا هو الكافر. فأمّا المؤمن فله وليٌّ ونصير» وقال آخرون: هذه الآية في حقّ كل من عمل سوءاً من مسلم ونصراني وكافر. قال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه: لما نزلت هذه الآية شقّتْ على المسلمين مشقّة شديدة، وقالوا يا رسول الله: وأيُّنـا مـن لم يعمل سوءاً غيرك، فكيف الجزاء؟ قال: [منه ما يكون في الدنيا، فمن يعمل حسنة فله عشر حسنات، ومن جوزى بالسيئة نقصت واحدة من عشر حسناته، و بقيت له تسع حسنـات، فو يل لمن غلبت آحاده أعشاره. وأما من كان جزاؤه في الآخرة فيقابل بين حسنـاته وسيّآته، فيلقى مكان كل سيئة حسنة، و ينظر في الفضل، فيعطى الجزاء في الجنـة، فيؤتى كل ذى فضل فضله]. و يدل على صحة هذا القول ما روى عن أبي هريرة قـال: لما نزلت «**من يعمل سوءًا يجزى به**» بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [قاربُوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها] أخرجه مسلم.

فـإن قـلنا: إن هذه الآية خاصة في حق الكفار فتأو يلها ظاهر، وإن قلنا: إنها في حق كـل عـامـل سوء من مسلم وكافر، فإنَّه لا وليّ لأحدٍ من دون الله يوم القيامة، ولا ناصر، فـالمـؤمـن لا وليّ لهم غير الله وشفاعة الشافعين تكون بإذن الله، فليس يمنع أحدٌ أحداً عن الله، قـلـت: وإذا كـانـت شـفاعة الملائكة والأنبياء بإذن الله صدق أنه لا وليّ لأحدٍ ولا نصيراً إلاّ الله.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ ابْرَاهِيمَ حَنِيفاً واتَّخَذَ الله ابْرَاهِيمَ خَليلاً» سورة النِّساء (الآية: ١٢٥)

في الواحدي: قـال عـمـر رضي الله عنـه قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [يا جبـريـل: لـمَ اتّـخذَ الله إبراهيم خليلاً؟ قال: لاطعامه الطعام يا محمد] وقال عبدالله بن عبـدالرحمن بـن البزى: دخل إبراهيم فجاءه ملك الموت في صورة شاب لا يعرفه، قال له

إبـراهيم: بـإذن من دخلت؟ فقال: بإذن رب المنزل؟ فعرفه إبراهيم عليه السلام: فقال له ملـك الموت: إنَّ ربـك اتّخذَ من عباده خليلاً، قال ابراهيم: ومن ذلك؟ قال: وما تصنع بـه؟ قـال: أكـون خـادماً لَهُ حتى أموت. قال: فإنه أنت* وفي رواية أبي أمامة قال: قال رسـول الله صلى الله عـليـه وسـلـم: [إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، وإن لم يكـن نـبيٌّ إلاّ له خليل ألا وإنَّ خليلي أبوبكر] وفي رواية أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عـليـه وسـلـم: [اتخذ الله ابـراهيم خليلاً، وموسى نجياً، واتخذني حبيباً، ثم قال: وعـزتي لأ وثـرنَّ حـبـيبي على خـليلي ونجيي]» قـوله تعالى: «**وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وهُوَ مُحْسِنٌ**» أي ومن أحكم ديناً ممن أسلم نفسه (وعبر بالوجه لأنه أشرف الأعـضاء) وهو موّحد لله عزّ وجلّ لا يشرك به شيئاً. قاله ابن عباس في تفسيره. وإنما صار ديـن الإسـلام أحسـن الأديـان لأن فـيه طاعة الله ورضاه وهما أحسن الأعمال. «**واتَّبَعَ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ**» الموافقة لملة الإسلام وقوله: «**حَنيفاً**» حال أي مائلاً عن الأديان كلها إلاّ الـدين القيّم. «**واتَّخذَ اللهُ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**» أي صفياً خالص المحبّة. وإنما أعاد ذكره ولم يـضمره تفيخماً لَهُ، وتنصيصاً على أنه الممدوح. والخلّة: من الخلال. فإنه ودٌّ تخلل النفس وخـالـطـهـا. قـال الزجـاج: الخـليل الذي ليس في محبته خَلَلٌ. والخلّه: الصداقة، فسمي خـلـيـلاً لأنَّ الله تـعـالى أحبّـه واصـطـفـاه. روى أن إبراهيم عليه السلام كان يسمى أبا الـضـيـفـان. وكـان منزله على ظهر الطريق يُضيف من مرّ به من النّاس، فأصاب الناسَ سـنـةٌ، فـحـشروا إلى باب إبراهيم يطلبون الطعام، وكانت الميرة له كل سنة من صديق له بمصر، فـبـعـث غلمانه بالإبل إلى الخليل الذي بمصر، فقال خليله لغلمانه: لو كان إبراهيم يـريـد لـنـفـسه لفعلتُ، ولكن يريد للأضياف، وقد أصابنا ما أصاب النّاس من الشدّة. فـرجع غلمانه فمرُّوا ببطحاء، أي بأرض ذات حصى، فقالُوا: لو أنا حملنا من هذه البطحاء لـيـرى الـنَّـاسُ أنّا قد جئنا بميرة، فإنّا نستحي أن نمرّبهم وإبلنا فارغة، فملؤا الغرائز، ثم أتوا ابراهيم، فـلـمّـا أخـبـروه بـذلـك، وسـارّة (زوجـته) نائمة ساعه الخبر، فغلبت عيناه فنام، واستـيـقـظت سارّة، وقد ارتفع النهار فقالت سبحان الله!! ما جاءَ الغلمان؟ قالوا: بلى، فـقـامـت إلى الـغرائز ففتحتها فإذا هو أجود حُوَّارى (بضم الحاء المهملة وتشديد الواو وفتح الـراء) الـدقـيـق الـذي نخل مـرّة بـعـد أخرى، فأمرت الخبّازين فخبزوا وأطعموا الناس، فـاسـتـيـقـظ إبـراهيم فـوجـد رائـحة الخبز، فقال: من أين هذا لكم؟ فقالت: مِنْ خليلك

المصرى، فقال: بل من عند خليلى: الله عزّ وجلّ فسمّاهُ خليلاً* وما ورد في القرطبى في سبب تسميته خليلاً: قيل: إنه أضاف رؤساء الكفار، وأهدى لهم هدايا، وأحسن إليهم، فقالوا له: ما حاجتك؟ قال: حاجتى أن تسجدوا سجدة، فسجدوا فدعا الله تعالى وقال: اللهم إنى قد فعلت ما أمكننى فأفعل، اللهم فأنت أهل لذلك. فوفقهم الله تعالى للإسلام، فاتخذه الله خليلاً لذلك* و يقال: لما دخلت عليه الملائكة بشبه الآدميين، وجاء بعجل سمين. فلم يأكلوا منه، وقالوا: إنّا لا نأكل شيئاً بغير ثمن. فقال لهم: اعطوا ثمنه وكلوا. قالوا: وما ثمنه؟ قال: أن تقولُوا فى أوّله بسم الله، وفي آخره الحمد لله، فقالُوا فيما بينهم: حقٌّ على الله أن يتخذه خليلاً، فاتخذه الله خليلاً* وروى جابر بن عبدالله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [اتَّخذَ الله ابراهيم خليلاً لإطعامه الطعام، وإفشائه السلام، وصلاته بالليل والناس نيام] كذا في القرطبي والخازن. وقيل: لمّا أراه الله ملكوت السموات والأرض وحاجّ قومه في الله ودعاهم إلى توحيده ومنعهم من عبادة النجوم والشمس والقمر والأوثان و بذل نفسه للإلقاء في النيران. و بذل ولده للقربان، وماله للضيفان اتخذه الله خليلاً وجعله إماماً للناس يقتدى به، وجعل النبوّة فيه وفي ذريّته. وقيل: إن إبراهيم عليه السلام لمّا كسر الأصنام وعادى قومه في الله عزّ وجلّ. اتّخذه الله خليلاً* وقد ثبتت الخلّة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد ثبت في الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [لو كنتُ متخذاً خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلاً] وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم: [لو كنتُ متخذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً ولكنه أخى وصاحبى، وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً] أخرجه مسلم وقد رواه الترمذي بلفظ أطول وفيه ألا وأنا حبيب الله ولا فخر.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«ويَستَفتُونَكَ في النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفتِيكُمْ فِيهِنَّ وما يُتْلَى عَلَيْكُمْ في الكِتَابِ في يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ وتَرْغَبُونَ أنْ تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وأنْ تقُوموا لليَتَامَى بالْقِسْطِ وَما تَفعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فإنَّ اللهَ كانَ بِهِ عَلِيماً»

سورة النِّساء (الآية: ١٢٧)

في الواحدي: قالت عائشة رضي الله عنها: ثم إنَّ الناس استفتُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية «ويستفتونَكَ في النساء» الآية، قالت: والذي يتلى عليهم في الكتاب الآية الأولى التي قال فيها «وإن خِفتُمْ ألا تُقْسِطوا في اليتامى» قالت عائشة رضي الله عنها: وقال الله تعالى في الآية الأخرى «وترغَبُونَ أنْ تَنكِحُوهُنَّ» رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال. فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من باقي النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن. رواه مسلم بهذا اللفظ عن حرملة بن وهب* وفي القرطبي: نزلت بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النّساء وأحكامهنّ في الميراث وغير ذلك، فأمر الله نبيّهُ عليه السلام أن يقول لهم: الله يفتيكم فيهنَّ. أي يبيّن لكم حكم ما سألتم عنه. روى أشهب عن مالك قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يُسأل فلا يجيب حتى ينزل عليه الوحي. وذلك في كتاب الله «وَيَسْتَفْتُونَكَ في النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفتِيكُمْ فيهن» «ويَسألُونَكَ عنِ اليَتَامَى» «ويَسألُونَكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسِرِ» «ويَسألُونَكَ عن الجبال»* وفي الطبرى عن ابن جريج قال: أخبرني عبدالله بن كثير أنَّه سمع سعيد بن جبير يقول في قوله «ويَسْتَفْتُونَكَ في النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفتِيكُمْ فيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ في الكتاب في يتامى النِّساءِ قُلْ الله يفتيكم فيهن..» الآية قال: كان لا يرث إلا الرجل الذي قد بلغ، ولا يرث الرجل الصغير ولا المرأة، فلمَّا نزلت آية المواريث في سورة النساء، شقّ ذلك على الناس، وقالوا: يرث الصغير الذي لا يعمل في المال ولا يقوم فيه، والمرأة التي هي كذلك، فيرثان كما يرث الرجل الذي يعمل في المال. فرجوا أن يأتي في ذلك حدث من السماء، فانتظروا فلمَّا رأوا أنّه لا يأتي حدث، قالوا: لئن تمَّ هذا إنه الواجب ما منه بدّ، ثم قالوا: سلُوا فسألُوا

النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله «**ويَسْتَفْتُونَكَ فى النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فيهنَّ..**» قال سعيد بن جبير. وكان الوليُّ إذا كانت المرأة ذات جمال ومال انكحها ولم ينكحها* وحدث عن أسباط عن السد في قوله تعالى: «**وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فى الكتابِ فى يَتَامى النِّساءِ..**» إلى قوله «**بالقسط**» قال: كان جابر بن عبدالله الأنصارى،ثم السلمى له ابنة عمّ عمياء، وكانت دميمة، وكانت ورثت عن أبيها مالاً، فكان جابر يرغب عن نكاحها، ولا ينكحها رهبة أن يذهب الزوج بمالها، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وكان ناس في حجورهم جَوَارٍ أيضاً مثل ذلك، فجعل جابر يسأل النبي صلى الله عليه وسلم: أترثُ الجارية إذا كانت قبيحة عمياء، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: نعم، فأنزل الله فيهنَّ هذا* وفي الخازن: «**وَيَسْتَفْتُونَكَ فى النِّساءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ**» الآية. قال ابن عباس: نزلت في بنات أم كحة. وقد تقدمت قصتهن فى أول السورة. وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت: هي اليتيمة تكون في حجر الرجل، وقد شركته في ماله فيرغب عنها فلا يتزوّجها لدمامتها، و يكره أن يزوجها غيره، فيدخل عليه و يشركه في ماله، فيحبسها حتى تموت، فنهاهم الله عن ذلك، وأنزل هذه الآية* قال المفسرون: والذي استفتُوه فيه هو ميراث النساء، وذلك أنهم كانُوا لا يورثون النساء ولا الصغار من الأولاد، فلما نزلت آية المواريث قالوا يا رسول الله: كيف ترث المرأة والصغير؟ فأجابهم بهذه الآية: «**قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ**» يعنى قل يا محمد: الله يفتيكم في شأن النساء وحالهن «**وَمَا يتلَى عليكُمْ فى الكتابِ**» أي اللوح المحفوظ، والغرض تعظيم حال هذه الآية. وأن المخل بها وبمقتضاها من رعاية حقوق اليتامى ظالم متهاون بما عظمه الله، ونظيره في تعظيم القرآن «**وإنَّهُ فى أمّ الكتابِ لدينا لعليٌّ حكيم**» والمعنى: أنَّ الله يفتيكم في النساء بما أنزل في كتابه عليكم المثبت أصله في اللوح المحفوظ بأن العدل والإنصاف في حقوق اليتامى من أعظم الأمور عند الله تعالى التي تجب مراعاتها، وأن المخلّ بها ظالم «**فى يَتَامَى النِّساء**» أي في النساء اليتامى وقيل: في اليتامى أولاد النساء، وفيه خمسة أوجه:

أحدها: أنه بدل من في الكتاب، وهو بدل اشتمال، ولابدّ من حذف مضاف. أي في حكم يتامى النساء، ولا شك أن الكتاب مشتمل على ذكر أحكامهنّ.

والثاني: أن يتعلق بيتلى، فإن قيل كيف يجوز تعلق حرف جرّ بلفظ واحد ومعناه

واحد. فالجواب: إنَّ معناهما مختلف لأن الأ ولى للظرفية على بابها والثانية بمعنى السببيّة مجازاً أو حقيقة عند من يقول بالاشتراك، قال أبوالبقاء: كما تقول: جئتك في يوم الجمعة فى أمر زيْد.

والثالث: إنه بدل من فيهنَّ بإعادة العامل، و يكون هذا بدل بعض من كل.

والرابع: أن يتعلق بنفس الكتاب. أي فيما كتب في حكم اليتامى.

والخامس: أنه حال، فيتعلّق بمحذوف. وصاحب الحال هو المرفوع بيتلى، أي كائناً في حكم يتامى النساء، وإضافة يتامى إلى النساء من إضافة الصفة إلى الموصوف إذ الأصل في النساء اليتامى.

«اللاّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ» فرض **«لَهُنَّ»** وهى صفة لليتامى، وذلك أنهم كانوا يورثون الرجال دون النساء والكبار دون الصغار **«وَتَرْغَبُونَ أنْ تنكِحُوهُنَّ»** أي لما لهن وجمالهن بأقل من صداقهن، وقيل: معناه تَرْغَبُونَ عن نكاحهنَّ لقبحهنَّ ودمامتهن، وتمسكوهن رغبة في مالهنَّ، روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: هذه اليتيمة تكون في حجر وليّها فيرغب في جمالها ومالها و يريد أن ينقص صداقها فنهوا عن نكاحهنَّ إلاَّ أن يقسِطُوا لهنَّ في اكمال الصداق، وأمروا بنكاح من سواهُنَّ. قالت عائشة رضي الله عنها: فاستفتى الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك فأنزل الله عز وجلّ **«و يَسْتَفْتُونَكَ فى النِّساءِ»** إلى قوله **«وترغبون أن تنكحوهُنَّ»** فبينَّ لهم أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال ومال رغبوا في نكاحها. ولم يلحقوها بسنتها في اكمال الصداق. وإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسُوا غيرها، قال: فكما يتركونها حين يرغبون عنها، فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلاَّ أن يقسطوا لها، يعطوها حقها، الأ وْفى من الصداق. الخازن» **«وَ»** في **«المستَضْعَفِينَ»** الصغار **«مِنَ الْوِلْدانِ»** أن تعطوهم حقوقهم، كانوا يقولون في الجاهلية لا نورث إلا من يحمى الحوزة و يذب عن الحرم، فيحرمون المرأة والصغير فنزلت **«وَ»** يأمركم **«أنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بالْقِسْطِ»** بالعدل في الميراث والمهر **«وَما تفْعَلُوا من خيرٍ فإنَّ الله كانَ بِهِ عَليماً»** فيجازيكم به.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وإنْ امْـرأةٌ خَـافَـتْ مِـنْ بَـعْلِهَـا نُـشُوزاً أوْ إعْـراضاً فَـلاَ جُنَـاحَ عَلْيـهِـمَا أنْ يُـصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً والصُّلْحُ خَيْرٌ وأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الـشُّحَ وإنْ تُحْـسِنُوا وتَـتَّقُوا فَـإنَّ اللهَ كَـانَ بِـمَا تَـعْمَلُونَ خَبِـيراً»

سورة النِّساء (الآية: ١٢٨)

قـالـت عائشة رضي الله عنها: نزلت الآية في المرأة تكون عند الرجل فلا يستكثر منها، و يـريـد فـراقـهـا، ولـعـلها أن تكون لها صحبة و يكون لها ولد فيكره فراقها،وتقول له: لا تـطلقنى وأمسكنى وأنت في حلّ من شأنى. فأنزلت هذه الآية رواه البخارى عن محمد بن مقـاتـل، عـن ابن المبارك، ورواه مسلم عن أبى كريب وأبى أسامة: كلاهما عن هشام* وحدّث الـزهـرى عن المسيب، أنَّ بنت محمد بن مسلمة كانت عند رافع بن صبيح فكره منهـا أمـراً، إمّا كبراً وإمّا غيره، فأراد طلاقها، فقالت: لا تطلقنى وأمسكنى، وأقسم لى ما بـدا لـك، فـأنـزل الله تـعالى **«وإنْ امرأةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أوإعْرَاضاً..»** الآية* كـذا في الواحدي* وفي الخطيب: قال سعيد بن جبير: كان رجل له امرأة قد كبرت، وله منهـا أولاد فـأراد أن يـطـلـقـهـا، و يتزوّج غيرها، فقالت له: لا تطلقنى ودعنى على ولدى، وأقسم لى من كل شهرين إن شئتَ، وإن شئتَ فلا تقسم لى، فقال: إن كان يصلح ذلك فـهـو أحـبُّ إلـيَّ، فـأتى رسـول الله صلى الله عـليه وسلم فأنزل الله تعالى **«وإن امرأة..»** الآيـة* وفي الـقرطبي: نزلت بسبب سودة بنت زمعة. روى الترمذي عن ابن عباس قال: خَشِيَت سودة أن يطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: لا تطلقنى. وأمسكنى، واجـعـل يومى منك لعائشة، ففعل، فنزلت **«فلا جناحَ عَلَيْهِمَا أن يُصلحا بيْنَهما صُلْحاً والـصُّلْحُ خَيرٌ»** فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز، قال: هذا حديث حسنٌ غريب* وفي الطبرى: عن سعيد بن المسيّب وسليمان بن يسار: أن رافع بن خديج كان تحته امرأة قـد خـلا مـن سنّها، فتزوّج عليها شابة فآثر الشابّة عليها، فأبت امرأته الأ ولى أن تقيم على ذلـك، فـطـلـقـها تطليقة حتى إذا بقى من أجلها يسير قال: إن شئت راجعتك وصبرتِ على الأ ثرة، وإن شئتِ تركتك حتى يخلوا أجلك؟ قالت: راجعنى وأصبر على الأ ثرة، فراجعها. ثم آثـر عـليهـا فـلم تصبر على الأ ثرة. فطلقها أخرى، وآثر عليها الشابة، قال: فذلك الصلح

الذي بلغنا أنَّ الله أنزل فيه «وإن امرأةٌ خافت مِنْ بعْلِهَا نُشُوزاً أوْ إعْراضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أن يُصْلِحَا بيْنَهُمَا صلحاً» وفي زيادة عن عبيدة على حديث الزهرى: فإن أضرّبها الثالثة فإن عليه أن يوفيها حقها أو يطلقها» وفي ابن كثير: عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت له: يا ابن أخي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا، وكان قلّ يوم إلاّ وهو يطوف علينا، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى من هو يومها، فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة رضي الله عنها حين أسنّت وفرقَتْ أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله: يومي هذا لعائشة، فقبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت عائشة رضي الله عنها: فني ذلك، أنزل الله «وإن امْرأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشوزاً أوْ إعْراضاً» رواه أبوداود عن أحمد بن يونس به، والحاكم في مستدركه، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وهكذا الألفاظ والمعانى متقاربة في بقية الأقوال لدى المفسرين. وقوله تعالى: «وإن امْرأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشوزاً أو إعْرَاضاً» البعل: هو السيد، وسمى البعل زوجاً لأنه سيد المرأة. وفي حديث الإيمان [وأن تلد الأمة بعلها] المراد بالبعل هنا الملك يعنى كثرة السبي والتّسرّى. والنُّشُوز: أصله من النّشز، وهو المرتفع من الأرض. قال أبواسحاق: النشوز يكون بين الزوجين، وهو كراهة كل واحد منهما صاحبه، ونشزت المرأة بزوجها وعلى زوجها: ارتفعت عليه واستعصت عليه، وأبغضته، وخرجت عن طاعته وفركتهُ. قال:

سَرَتْ تَحت أقطاعٍ من الليل حنَّتي ... لِخَمَّانِ بيتٍ فهي لا شكَّ ناشزُ

ونشز هو عليها نشوزاً كذلك، وضربها وجفاها وأضرّبها، أي أن نشوز الزوج هو كما قال تعالى «أوْ اعْراضاً» يعنى بوجهه عنها، أو يعبس في وجهها، أو يترك مضاجعتها، أو يسيء عشرتها، أو يشتغل بغيرها، وقيل: المراد من النشوز إظهار الخشونة في القول والفعل، والمراد من الإعراض السكوت عن الخير والشرّ والإيذاء، بل يعرض عنها بوجهه أو يشتغل بغيرها. «فَلاَ جُنَاح» أي لا إثم على الزوج والمرأة «أنْ يُصْلِحَا» فيه ادغام التاء في الأصل في الصاد، وفي قراءة يُصْلِحَا من أصلح «بَيْنَهُمَا صُلْحاً» في القسم والنفقة بأن تترك له شيئاً طلباً لبقاء الصحبة، فإن رضيت بذلك، وإلاّ فعلى الزوج أن يوفيها حقها، أو يفارقها، ونفى الجناح عن الزوج ظاهر لأنه يأخذ شيئاً من قِبَلِها، والأخذ مظنة الجناح،

ومظنة أن يكون من قبيل الرشوة المحرمة، وأما نفى الجناح عنها، مع أن الذي من قبلها هو الدافع لا الأخذ فلبيان أن هذا الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة للمعطى والآخذ، وذلك بأن يقول الزوج لها: إنك قد دخلت في السن، وأنا أريد أن أتزوّج امرأة شابة جميلة أوثرها عليك في القسم ليلاً ونهاراً، فإن رضيتى بهذا فأقيمى، وإن كرهت خليتُ سبيلك، فإن رضيتْ كانت هي المحسنة، وإن لم ترضى بدون حقها كان على الزوج أن يوفيها حقها من القسم والنفقة أو يُسرّحها بإحسان، فإن أمسكها ووفاها حقها مع كراهته فهو المحسن» «والصُّلْحُ» بأن يترك كل منها حقَّه أو بعضه «خَيْرٌ» من الفرقة والنشوز والإعراض كما فعلت سودة بنت زمعة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال تعالى في بيان ما جبل عليه الإنسان «وأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَ» أي شدة البخل. أي جبلت عليه، فكأنها حاضرته لا تغيب عنه، والشُّحَ مفعول ثان لأحضرت. والمعنى: أنَّ المرأة لا تكاد تسمح بنصيبها من زوجها، والرجل لا يكاد يسمح عليها بنفسه إذا أحبّ غيرها أو كرهها. والشّحُ: أقبح البخل، وحقيقته الحرص على منع الخير. لذا حثَّ المولى جلّ وعلا على الإحسان والتقوى وحسم مادة الخصومة رأساً فقال: «وإنْ تُحْسِنُوا» عشرة النساء بالاقامة على ما كنتم عليه من الإحسان إليهنَّ «وتَتَّقُوا» الجور عليهنّ «فإنَّ الله كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً» فيثيبكم على ذلك، وعلى هذا فالخطاب للأزواج وقيل للزوجين أن يحسن كل منهما إلى صاحبه، ويحترز عن الظلم، وقيل: لغيرهما أن يحسنُوا في المصالحة بينهما، و يتقُوا الميل إلى واحد منهما» يحكى أن عمران بن خطاب الخارجى كان من أدمّ بنى آدم، وامرأته من أجملهم، فأجالت يوماً نظرها في وجهه، ثم قالت الحمد لله. فقال مالك؟ فقالت: حمدت الله على أنى وإياك من أهل الجنة لأنك رزقت مثلى فشكرتَ ورزقتُ مثلك فصبرت. والشاكرين والصابرين من أهل الجنة» قلت: وفي الآية دليل على أن كل صلح يقع بين الزوجين مباح بلا استثناء» ذكر ابن خويْز منْداد فى أحكامه عن عائشة رضي الله عنها قالت: وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم على صفية في شيء. فقالت لى صفيّة: هل لَكِ أن ترضين رسول الله صلى الله عليه وسلم عنّى ولكِ يومى، قالت: فلبستُ خماراً كان عندى مصبوغاً بزعفران، ونضحتُه، ثم جئتُ فجلست إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إليكِ عنى فإنّه ليس بيومك. فقلت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وأخبرته الخبر، فرضى عنها. وفي الآية دليل على أنَّ ترك التسوية بين النساء، وتفضيل بعضهن على بعض لا يجوز إلا بإذن المفضولة ورضاها.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قوَّامينَ بالْقِسْطِ شُهَداءَ لله ولَوْ عَلَى أنْفُسِكُمْ أو الْوَالِدَيْنِ والأقْربينَ إنْ يَكُنْ غَنِياً أو فقِيراً فالله أوْلى بِهِمَا فَلاَ تَتبِعُوا الْهَوَى أنْ تَعْدِلُوا وإنْ تلْوُوا أو تُعْرِضُوا فإنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً» سورة النِّساء (الآية: ١٣٥)

في الواحدي: روى أسباط عن السدى قال: نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم اختصم إليه غنيٌّ وفقير، وكان ضلعهُ مع الفقير، فقال: «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قوّامينَ بالقسط**» حتى بلغ «**إن يكن غَنياً أو فقيراً فالله أولى بهما**» إلى «**خبيراً**»* وعبارة الخازن عن السّدى: إنَّ فقيراً وغنياً اختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكان صفوه مع الفقير، يرى أن الفقير لا يظلم الغنيَّ، فأنزل الله هذه الآية، وأمر بالقيام بالقسط مع الغنى والفقير* وقيل: إنَّ هذه الآية متعلقة بقصّة طعمة بن أبيرق، فهى خطاب لقومه الذين جادلوا عنه، وشهدوا له بالباطل، فأمرهم الله تعالى أن يكونُوا قائمين بالقسط شاهدين لله على كل حال، ولو على أنفسهم وأقاربهم. وما فى الواحدي في الطبرى، ولم أر في التفاسير زيادة على ما ذكرت* قوله «**يا أيُّها الَّذِينَ آمنُوا كُونُوا قوَّامِينَ**» أي قائمين قياماً بليغاً مواظباً عليه مجتهداً فيه* في الكرخى: أي مديمين القيام ومن عدل مرة أو مرتين لا يكون في الحقيقة قوّاماً* وقوله «**بالْقِسْطِ**» بالعدل «**شُهَداءَ**» أي شاهدين بالحقِّ «**لله ولَوْ**» كانت الشهادة «**على أنْفُسِكَمْ**» ومعنى: شهادة الشخص على نفسه: بالتزام الحقّ ولا يكتمه. وعبارة السمين: قوله «**ولَوْ على أنْفُسِكُمْ**» لو هذه يحتمل أن تكون على بابها من كونها حرفاً لما كان سيقع بوقوع غيره وجوابها محذوف، أي ولو كنتم شهداء على أنفسكم لوجب عليكم أن تشهدوا عليها، وأجاز الشيخ أن تكون بمعنى إن الشرطية و يتعلّق قوله: على أنفسكم. بمحذوف تقديره وإن كنتم شهداء على أنفسكم فكونوا شهداء لله. هذا تقدير الكلام. وحذف كان بعد لو كثير. تقول ائتنى بتمر ولو حشفاً. أي وإن كان التمر حشفاً فأتني به* والمعنى فأشهدوا عليها بأن تقرُّوا بالحق ولا تكتموه «**أو الوالِدَيْنِ والأقْرَبينَ**» أي ولو كانت الشهادة على والديكم وأقاربكم «**إنْ يَكُنْ**» المشهود عليه من الوالدين والأقربين وغيرهم من الأجانب «**غَنياً أو فقِيراً**» فلا تمتنعوا

من الشهادة عليها طلباً لرضى الغنىّ أو ترحماً على الفقير «**فالله أوْلَى بِهِمَا**» أي أولى بجنس الغنى والفقير المدلول عليهما بما ذكر، ولولا أنَّ الشهادة عليهما فيها مصلحة لهما لما شرعها لذا «**فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوىٰ**» في شهادتكم بأن تحابُوا الغنى لرضاه والفقير رحمة له «**أن تَعْدِلُوا**» أي إرادة أن تعدلُوا، فقد بان لكم أن لا عدل في ذلك، أو لئلا تعدلُوا: أي تميلوا عن الحق. أي فهو من العدول عن الحق ولا مقدرة فيكون علّةً للنّهى. أن نهيتكُم لئلا تميلُوا* وفي الكرخى: قوله: لأن لا تعدلُوا: أشار إلى أنْ تعدلوا مفعول لأجله كما اختاره القاضى على أنه من العدول لا من العدل. وقيل: كراهة أن تعدلوا على أنه من العدل. وهو القسط. وهذا ما اختاره صاحب الكشاف. «**وإن تَلْوُوا**» أي ألسنتكم لتحرّفوا الشهادة «**أوْ تُعْرِضُوا**» عن أدائها «**فَإنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خبيراً**» فيجازيكم به.

((حكم شهــادة الأقرباء بعضهم على بعض))

قال ابن شهاب الزهرى: كان من مضى من السلف الصالح يجيزون شهادة الوالدين والأخ، و يتأوّلون في ذلك قول الله تعالى: « **كونُوا قوّامِينَ بالْقِسْطِ شُهَداءَ لله**» فلم يكن أحد يُتّهم في ذلك من السلف الصالح رضوان الله عليهم، ثم ظهرت من الناس أمور حملت الولاة على اتهامهم، فتركت شهادة من يُتّهم، وصار ذلك لا يجوز في الوالد والولد، والأخ والزوج والزوجة، وهومذهب الحسن والنخعى، والشعبى وشريح ومالك والثورى والشافعي وابن حنبل، وقد أجاز قوم شهادة بعضهم لبعض إذا كانُوا عدولاً، وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه أجازه، وكذلك روى عن عمر بن عبدالعزيز، قال اسحاق والثورى والمزنى. وفي رواية عن مالك أنه جوّز شهادة الأخ على أخيه إذا كان عدلاً إلاّ في النّسب، وروى عنه ابن وهب أنها لا تجوز إذا كان في عياله، أو في نصيب مال يرثه، وقال مالك وأبوحنيفة: شهادة الزوج والزوجة لا تقبل لتواصل منافع الأملاك بينهما. وهى محل الشهادة. وقال الشافعى: تجوز شهادة الزوجين بعضهما على بعض لأنهما أجنبيان، وإنما بينهما عقد الزوجيّة وهو معرّض للزوال والأصل قبول الشهادة إلاّ حيث خصّ فيما عدا المخصوص فيبقى على الأصل* كذا في القرطبي: لكنه ضعف هذا القول معللاً ذلك بأن الزوجية توجب الحنان والمواصلة والألفة والمحبة، فالتّهمة قويّة ظاهرة. وقد روى أبوداود من حديث سليمان بن موسى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [شهادة الخائن والخائنة، وذى الغِمْرِ على أخيه، وردّ

شهادة القانع لأهل البيت، وأجازها لغيرهم]. قال الخطابيُّ: ذو الغِمْر هو الذي بينه وبين المشهود عليه عداوة ظاهرة فتردّ شهادته عليه للتّهمة. والقانع: السائل والمستطعم، وأصل القنوع السؤال. و يقال في القانع: إنه المنقطع إلى القوم يخدمهم، و يكون في حوائجهم وذلك مثل الأجير، أو الوكيل ونحوه. ومعنى ردّ هذه الشهادة التّهمة في جرّ المنفعة إلى نفسه. لأن القانع لأهل البيت ينتفع بما يصير إليهم من نفع. وكل من جرّ إلى نفسه بشهادته نفعاً فشهادته مردودة كمن شهد لرجل على دارٍ هو شفيعها، أو كمن حكم له على رجل مدين وهو مفلس، فشهد المفلس على رجل بديْن ونحوه. قال الخطابى بعد هذا: ومن ردّ شهادة القانع لأهل البيت بسبب جرّ المنفعة فقياس قوله: أن يرد شهادة الزوج لزوجته لأن ما بينهما من التهمة، في جرّ المنفعة أكثر وإلى هذا ذهب أبوحنيفة* كما علمت* قلت: وإذا قبلها الله تعالى في الملاعنة، وهى أخطر شهادة، بها يهدم بيت الزوجية ووقوع في التهمة، وانتهاك للعرض، وحرمة على التأبيد أفلا تقبل في عرض من الدنيا؟.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بالله ورسُولِهِ والكتاب الَّذِى نزّلَ على رَسُولِهِ والْكِتَاب الَّذِى أنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بالله وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً»

سورة النِّساء (الآية: ١٣٦)

قال الكلبيُّ: نزلت في عبدالله بن سلام، وأسد وأسيد ابنى كعب، وثعلبة بن قيس وجماعة من مؤمنى أهل الكتاب، قالُوا يا رسول الله: إنا نؤمن بك و بكتابك وبموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي الخازن: زيادة على ما ذكره الواحدى عن الكلبيّ، فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم: بل آمِنُوا بالله و برسوله محمد والقرآن و بكل كتاب كان قبله فأنزل الله تعالى هذه الآية* وكذا في الخطيب والغرائب، وقيل الخطاب للمسلمين كما في القرطبي. والظاهر أن الخطاب لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى والتوراة و بعيسى والانجيل. أي آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وبجميع الكتب المنزلة من قبل لا ببعضها فقط لأنَّ طريق العلم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم هو المعجز، وإنه حاصل في الكل، فالخطاب لليهود

والنصارى أو «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا» باللسان «آمِنُوا» بالقلب، فهم المنافقون. أو يا أيها الذين آمنوا باللاتِ والعزى آمنُوا بالله، فهم المشركون «آمِنُوا بالله ورسُولِهِ» أي داوموا على الإيمان بها «وَ» داومُوا على الإيمان بـ «الكتابِ» القرآن «الذى نزّلَ على رسُولِهِ» محمد صلى الله عليه وسلم «والكتَاب الَّذِى أُنْزَلَ مِنْ قَبْلُ» على الرسل: أي جنس الكتاب. بمعنى الكتب «وَمَنْ يَكْفُرْ بالله» ..الخ. الآية. فقد ضلَّ عن الحق ضلالاً بعيداً بحيث يعسر العود منه إلى سواء الطريق. وزيادة الملائكة واليوم الآخر في جانب الكفر لما أنه بالكفر بأحدهما لا يتحقق الإيمان أصلاً، وجميع الكتب والرسل لما أن الكفر بكتاب أو رسول كفر بالكل* وعبارة صاحب الغرائب: فإن قيل: لَمَ ذكر في مراتب الإيمان أموراً ثلاثة: الإيمان بالله و بالرسل و بالكتب، وذكر في مراتب الكفر أموراً خمسه؟ أجيب بأن الإيمان بالثلاثة يلزم منه الإيمان بالملائكة واليوم الآخر لكنَّه ربّما ادعى الانسان أنَّه يؤمن بالثلاثة. ثم إنه ينكر الملائكة واليوم الآخر لتأويلات فاسدة، فلمَّا كان هذا الاحتمال قائماً نصَّ على أن منكر الملائكة والقيامة كافر بالله. فإن قيل: لَمَ قدّم في مراتب الإيمان الرسول على ذكر الكتاب وفي مراتب الكفر عكس الأمر، فالجواب: أنَّ الكتاب مقدّم على الرسول في مرتبة المنزول من الخالق إلى الخلق، وأمَّا في العروج فالرسول مقدّم على الكتاب* و بوجه آخر الرسول الأول هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والرسل عامّ له ولغيره. فلمّا خصّ ذكره أولاً للتشريف جعل ذكره تالياً لذكر الله لمزيد التشريف، ولبيان أفضليته صلى الله عليه وسلم.

* ((القول فى سبب نزول قوله تعالى :)) *

«لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إلاَّ مَنْ ظُلِمَ وكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً* إنْ تُبْدُوا خَيْراً أوْ تُخْفُوهُ أوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فإنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً قديراً» سورة النِّساء (الآية: ١٤٨، ١٤٩)

فى الواحدى : قال مجاهد : إن ضيفاً تضيف قوماً فأساؤا قراه فاشتكاهم، فنزلت هذه الآية رخصة في أن يشكو* وكذا في الخطيب والخازن. وفيه، وقال مقاتل نزلت فى أبي بكر الصديق، وذلك أن رجلاً نال منه، والنبيّ صلى الله عليه وسلم حاضر، فسكت عنه أبو بكر مراراً، ثم ردّ عليه، فقام النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر يا رسول

الله: شتمني فلم تَقُلْ له شيئاً حتى إذا رددتُ عليه قمتَ؟ قال [إن مَلَكاً كان يجيب عنكَ، فلمّا رددت عليه ذهب الملك، وجاء الشيطان فقمتُ] ونزلت هذه الآية. وليس فى التفاسير أقوال غير ما ذكرت قوله تعالى: «لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بالسُّوءِ» أي رفع الصوت بالسوء أىّ بأحوال النّاس المكتومة كغيبة ونميمة، فإن العاقل من اشتغل بعيوبه، والجهر ليس قيداً، بل مثله الاسرار بذلك، وإنما خص الجهر لأنه الذى كان سبباً للنزول فهو بيان للواقع فلا مفهوم له، والسبب (كما علمتَ) أن رجلاً أضاف قوماً فلم يحسنوا ضيافته، فلمّا خرج تكلم فيهم جهراً، وخصّهم، وقوله: «مِنَ الْقَوْلِ» حال من السوء، وهو غير قيد أى من أحد فيعاقبه عليه. أى أنّ عدم المحبة منه تعالى كناية عن العقاب الذى هو غاية عدم المحبة لاستحالة المحبة التى هى الميل القلبى عليه تعالى. وقوله: «إلاَّ مَنْ ظُلِمَ» أى فلا يؤاخذه بالجهر به بأن يخبر عن ظلم ظالمه، و يدعو عليه دعاء جائزاً بأن يكون بقدر ظلمه فلا يدعو عليه بخراب دياره لأجل أخذ ماله منه. ولا يسبُّ والده وإن كان هو فعل كذلك ولا يدعو عليه لأجل ذلك بالهلاك. بل يقول: اللهم خلّص حقى منه، أو اللهمّ جازه، أو كافئه، ولا يجوز أن يدعو عليه بسوء الخاتمة، أو الفتنة فى الدين، فإن بعضهم منعه مطلقاً وهو الظاهر، وأجازه بعضهم إذا كان ظالماً متمرداً. وفى الخازن قال ابن عباس: لا يحبُّ الله أن يدعو أحد على أحدٍ إلاَّ أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه وذلك قوله: «إلاَّ مَنْ ظُلِمَ» وإن صبر فهو خير له* وهذا مما يدل على أن الاستثناء منقطعٌ. ومعناه لكن المظلوم يجوز أن يجهر بظلم الظالم. وقوله: «وكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً» فليتق الله ولا يقل إلا الحقّ ولا يقذف مستوراً، ثم حث على العفو بقوله: «إنْ تُبْدُوا خيْراً أوْ تُخْفُوهُ» وهو إشارة إلى إيصال النفع «أوْ تعفُوا عَنْ سُوءٍ» وهذا إشارة إلى دفع الضرر. وعلى هذين تدور المعاشرة مع الخلق: «فإن الله كَانَ عَفُوّاً قديراً» قال الحسن: أى يعفو عن الجانى مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدُوا بسنة الله، وقيل: عفوٌّ لمن عفا، قديرٌ على إيصال الثواب إليه، قال الكلبىُّ معناهُ إن الله أقدر على عفو ذنوبك منك على عفو صاحبك* وقوله: إنْ تبدوا خيراً الخ.. قد ذكر فى حيز الشرط ثلاثة أشياء. وقوله: فإن الله كان عَفوّاً قديراً إنما يظهر كونه جزاءً للثالث. وقد أشار البيضاوى إلى الجواب عن ذلك بما حاصله. أن المقصود هو الثالث، والأوّلان ذكرا توطئة له، ونصُّه. إن تبدوا خيراً: طاعة و برّاً. أو تخفوه: أى تفعلوه سرّاً. أو تعفوا عن

سوء. لكم المؤاخذة عليه، وهو المقصود، وذكر ابداء الخيّر وإخفائه توطئة له، ولذلك رتب عليه قوله. فإن الله كان عفواً قديراً* أى ولم يزل ذا عفو مع قدرته على الانتقام، فاعفوا أنتم عمّن ظلمكم يَعْفُ عنكم يوم القيامة لأنه أهل للتجاوز والعفو عنكم* **«ومَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فأجْرُهُ عَلى الله»**.

* ((القول فى سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يسألُكَ أهْلُ الكِتَاب أنْ تُنَزلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَألُوا مُوسَى أكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أرِنَا الله جَهْرَةً فَأخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتّخذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البيّناتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مبيناً* ورَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِميثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا فى السَّبْتِ وأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غليظاً* فَبِمَا نَقْضِهِمْ ميثَاقَهُمْ وكُفْرِهِمْ بآيَاتِ الله وقتْلِهِمُ الأَنْبيَاءَ بِغَيْرِ حقٍّ وقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بكُفرهِمْ فَلاَ يُؤمِنُونَ إلاَّ قليلاً* وَبِكُفْرِهِمْ وقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً»

سورة النّساء (الآية: ١٥٣ - ١٥٦)

فى الواحدى : نزلت في اليهود قالو للنبىّ صلى الله عليه وسلم: إن كنت نبيّاً فأتنا الكتاب جملة من السماء كما أوتى به موسى. فأنزل الله تعالى هذه الآية* بل الآيات كما ذكره الطبرى عن محمد بن كعب القرظى. قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن موسى جاء بالألواح من عند الله فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدقك، فأنزل الله تعالى: يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء. إلى قوله: وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً* وما فى الواحدى قريباً منه فى ابن كثير وأبى السعود. وعبارة الخازن: يعنى يسألك يا محمد أهل الكتاب وهم اليهود، وذلك أن كعب بن الأشرف، وفنحاص بن عازوراء من اليهود قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كنت نبيّاً فأتنا بكتاب جملة واحدة من السماء كما أوتى موسى بالتوراة، وقيل: سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً مختصاً بهم، وقيل: سألوه أن ينزل

عليهم كتاباً إلى فلان وكتاباً إلى فلان ليشهدا لك بأنك رسول الله، وكان هذا السؤال من اليهود سؤال تعنّت واقتراح لا سؤال استرشاد وانقياد. والله تعالى لا ينزل الآيات على اقتراح العباد، ولأن معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت قد تقدمت وظهرت، فكان طلب الزيادة من باب التعنّت» وفى أبي السعود: ولو سألوه لكى يبيّن الحق لأعطاهم» قوله تعالى: «**يسألُكَ أهْلُ الْكِتَابِ**» أي يسألك يا محمد اليهود: «**أنْ تُنزّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ**» جملة كما أنزل على موسى تعنتاً لا استرشاداً، وإلا لنزل كما طلبوا، فعاقبهم على هذا الوصف القائم به، والتعنّت طلب الوقوع فى العنت أى المشقة، وفى المختار: والْعَنَتُ بفتحتين، الاثم. فإن استكثرت يا محمد ذلك فلا تبال بسؤالهم وتشطيطهم فإنها عادتهم «**فَقَدْ سألُوا**» أى آباؤهم «**موسَى أكْبَرَ**» أعظم «**مِنْ ذلِكَ فَقَالُوا أرِنا الله جَهْرَةً**» عياناً أى معاينين له، وذلك أن سبعين رجلاً من بنى إسرائيل خرجوا مع موسى عليه السلام إلى الجبل، فبعد أن سمعوا كلام الله يخاطب به موسى قالوا: نريد أن نراه «**فَأخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ**» الموت عقاباً لهم «**بِظُلْمِهِمْ**» حيث تعنتوا بالسؤال، وإنما كان سؤال الرؤية أكبر من سؤال تنزيل الكتاب جملة واحدة لأن تنزيله على ما ذكروا أمرٌ ممكن فى ذاته، بخلاف رؤية الله عياناً فإنها ممتنعة فى الدنيا: «**ثُمَّ اتّخذُوا الْعِجْلَ**» أى إلهاً لهم، وهم الذين خلفهم موسى مع أخيه هارون حين خرج إلى ميقات ربه. وثم تفيد الترتيب للأخبار. أى ثم كان من أمرهم أن اتخذوا العجل. «**مِنْ بَعْدِ ما جَاءتْهُمُ البيّنَاتُ**» فى البينات وجوه. أحدهما: أن البينات الصاعقة لأنها تدل على قدرة الله تعالى وعلى علمه وعلى قدمه، وعلى كونه مخالفاً للأجسام والأعراض، وعلى صدق موسى عليه السلام فى دعوى النبوّة. وثانيها: أنها إنزال الصاعقة وإحياؤهم بعد اماتتهم. وثالثها: أنها الآيات التسع من العصا واليد وفلق البحر. وغيرها. وفحوى الكلام: أن هؤلاء يطلبون منك يا محمد أن تنزل عليهم كتاباً من السماء، فاعلم أنهم لا يطلبون منك، إلاَّ عناداً ولجاجاً، فإن موسى عليه السلام قد أنزل عليه هذا الكتاب، وأنزل عليه سائر المعجزات الباهرة، ثم إنهم طلبوا الرؤية على سبيل العناد، وأقبلوا على عبادة العجل وكل ذلك يدل على أنهم مجبولون على اللجاج والعناد والبعد عن طريق الحق «**فَعَفَوْنا عَنْ ذَلِكَ**» حيث لم نستأصل عَبَدَة العجل. أى أن أولئك الذين أجرموا من آبائهم لما تابوا عفونا عنهم كل ما سلف من ذنوبهم فتوبوا أنتم نعف عنكم وقوله: «**وآتَيْنَا**

مُوسَى سُلْطَاناً مبيناً» تسلطاً بيّناً ظاهراً عليهم حيث أمرهم بقتل أنفسهم توبة فأطاعوه. فى المختار: السلاطة: . يقال سَلُط لكرم وسمع سَلاَطة وسُلُوطة بالضم، وقد سلّطَهُ الله تسليطاً فتسلّط عليهم، والسلطان: الوالى، والسلطان أيضاً الحجة والبرهان، ولا يثنى ولا يجمع لأن مجراه مجرى المصدر، أو المراد: قوة أمره وكمال حاله وانكسار خصومه ففيه بشارة للنبىّ صلى الله عليه وسلم بأن هؤلاء الكفار وإن كانوا يعاندونه فإنه بالآخرة يستولى عليهم و يقهرهم، ثم حكى عنهم سائر جهالاتهم وإصرارهم على أباطيلهم منها: **«وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطّورَ بميثاقِهِمْ»** أى جبل الطور المعروف بفلسطين العربية، وذلك بسبب أخذ الميثاق عليهم ليخافوا فيقبلوه، وذلك أنهم امتنعوا من قبول شريعة التوراة، فرفع الله عليهم الطور فقبلوها. ومنها: **وقُلْنَا لَهُمُ ادْخلُوا الْبَابَ سُجّداً»** أى دخولهم بيت المقدس ساجدين سجود انحناء. أى مطأطئين الرؤوس فهو سجود تواضع وخضوع، فخالفوا ودخلوا زحفاً على أستاهم. ومنها: **«وقُلْنَا لَهُمْ لاَ تعدُوا فى السَّبْتِ»** باصطياد الحيتان. **«وأخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَليظاً»** أى العهد المؤكدة غاية التوكيد على أن يتمسكوا بالتوراة و يعملوا بما فيها. وفى أبى السعود: قيل: إنهم أعطوا الميثاق على أنهم إن هموا بالرجوع عن الدين فالله يعذبهم بأى أنواع العذاب أراد: **«فَبِمَا نقْضِهِمْ»** ما مزيدة للتوكيد أى فبنقضهم: **«مِيثَاقَهُمْ وكُفْرِهِمْ بآيَاتِ الله وقتْلِهِمُ الأنبيَاء بِغَيْرِ حقّ، وقَولِهِمْ»** للنبىّ صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم: **«قُلُوبُنا غُلْفٌ»** لا تعى كلامك: **«بَلْ طَبَعَ»** ختم: **«الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ»** فلهذا لا يصل أثر الدعوة والبيان إليها: **«فَلاَ يُؤمِنُونَ»** منهم: **«إلاّ قَليلاً»** كعبد الله بن سلاَّم وأصحابه: **«وبكُفْرِهِمْ»** ثانياً بعيسى عليه السلام. وتكرير ذكر الكفر إيذانا بتكرر كفرهم، فإنهم كفروا بعيسى، ثم بمحمد عليه الصلاة والسلام، فكأنه قيل: فبجمعهم بين نقض الميثاق، والكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقولهم قلوبنا غلف، وجمعهم بين كفرهم: **«وقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عظيماً»** حيث رموْها بالزنا، فأنكروا قدرة الله تعالى على خلق الولد من غير أب، ومنكر قدرة الله تعالى على ذلك كافر لأنه يلزمه أن يقول كل ولد مسبوق بوالد لا إلى مبدأ، وذلك يوجب القول بقدم العالم والدهر والقدح فى وجود الصانع المختار. فقد ظهر لهم عند ولادة عيسى من الكرامات والمعجزات ما دلّهم على براءتها من كل سوء. وذلك كما قصّه الله علينا فى سورة مريم عليها السلام* ولذلك فقد سمى الله رميها بالزنا بهتانا عظيماً.

* ((القول فى سبب نزول قوله تعالى :)) *
«لِكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ والْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وكَفَى باللهِ شَهِيداً» سورة النّساء (الآية: ١٦٦)

فى الواحدى : قال الكلبيُّ فى رواية عن ابن عباس: إنّ رؤساء أهل مكّة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: سألنا عنك اليهود فزعموا أنهم لا يعرفونك، فأتنا بمن يشهد لك أن الله بعثك إلينا رسولاً، فنزلت هذه الآية: **«لكِنِ اللهُ يشهدُ بمٰا أنزل إليك..»** الآية. وكذا فى الخطيب. وفى الطبرى عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من يهود، فقال لهم: إنى والله أعلم أنكم لتعلمون أنى رسول الله. فقالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله: **«لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ والملائِكةُ يَشْهَدُون ...»** الآية، قال قتادة فى والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً: شهود والله غير متهمة. وكذا فى ابن كثير، والخازن، وفيه : فى رواية عن ابن عباس أن رؤساء مكة أتو رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد: إنا سألنا عنك اليهود، وعن صفتك فى كتابهم فزعموا أنهم لا يعرفونك، فأنزل الله عزّ وجلّ : **«لكن اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزلَ إليك ..»** يعنى إن جحد هؤلاء اليهود يا محمد وكفروا بما أوحينا إليك، وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شىء فقد كذبُوا فيما ادعوا فإن الله يشهد لك بالنبوّة، و يشهد بما أنزل إليك من كتابه ووحيه، وقوله: **«لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ»** لا بد له من مستدرك لأن لكن لا يبتدأ به، وفى ذلك المستدرك وجهان: أحدهما أن هذه الآيات بأسرها جواب عن قول اليهود: لو كان نبياً لنزل عليه الكتاب جملة .. وكزعمهم ذلك يتضمن أن هذا القرآن ليس كتاباً نازلاً عليه من السماء. فلا جرم قيل: لكن الله يشهد بأنه نازل عليه من السماء. الثانى: أنه تعالى لما قال: إنا أوحينا إليك، قال القوم: نحن لا نشهد لك بذلك فنزل: **«لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ»** ومعنى شهادة الله انزال القرآن بحيث عجز عن معارضته الأولون والآخرون أى يشهد لك بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذى أنزله إليك، ثم فسر ذلك وأوضح بقوله: **«أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ»** أى أنزله متلبساً بعلمه ..الخ. الذى لا يعلمه غيره، أو بسبب علمه الكامل: **«والملائِكةُ يَشْهَدُون»** لأنهم لا يسبقونه بالقول، فشهادته تستتبع شهادتهم، ومن صدقه ربّ العالمين وملائكة السموات والأرضين لم يلتفت إلى

تكذيب أحسن الناس إياه : «وكَفَىَ باللهِ شَهِيداً» أى على صحة نبوتك حيث نصب لها معجزات باهرة، وحججاً ظاهرة مغنية عن الاستشهاد بغيرها. ففيه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم عن شهادة أهل الكتاب له، فإن الله يشهد له وملائكته كذلك.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فى دِينِكُمْ ولاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاّ الحقّ إنَّمَا الْمَسِيحُ عيسَى ابنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وروحٌ مِنْهُ فآمِنُوا باللهِ ورُسُلِهِ ولاَ تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خيراً لَكُمْ إنّما اللهُ إلَـهٌ وَاحِدٌ سبحانَهُ أنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فى السَّمٰوَاتِ وما فى الأرْضِ وكَفَى باللهِ وَكيلاً» سورة النّساء (الآية: ١٧١)

في الواحدي: نزلت في طوائف من النصارى حين قالوا: عيسى ابن الله، فأنزل الله تعالى «لا تَغْلُوا فى دينكم..» الآية وكذا في الخازن ونحوهما في بقية التفاسير. وقوله تعالى: «يا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا» أي تجاوزوا الحدّ «فى دينكُمْ» الخطاب للفريقين: غلّت اليهود فى حق عيسى حتّى رموه بالزنا. والنصارى في رفعه حتّى اتخذوه إلٰهاً. وقيل: الخطاب للنصارى خاصّةً، والمراد بالكتاب الإنجيل فإنّه أوفق، وهذا ما جرى عليه الجلال، أي فالكتاب عام مراد به خاصٌ، وكذا أهل الكتاب المراد بهم النصارى، فكل منها عامٌ مراد به خاص. وذلك لأن ما بعْدَهُ يدل لذلك «ولاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاّ» الْقَوْل «الحقّ» من تنزيه عن الشريك والولد. «إنّما الْمَسِيحُ عيسَى ابنُ مَرْيَمَ رسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُه» أي أنه تكوَّن بكلمته وأمره الذي هو كن من غير واسطة أب ولا نطفة «أَلْقَاهَا» أوصلها «إلىَ مَرْيَمَ وَرُوحٌ» أي ذو روح «مِنْهُ» أضيف إليه تعالى تشريفاً لَهُ، وليس كما زعمتم ابن الله، أوْ إلٰهاً معه، أو ثالث ثلاثة لأنَّ ذا الروح مركّب والإلٰه منزَّه عن التركيب، وعن نسبة المركب إليه، وإنما سمى روحاً لأنّه حصل من الريح الحاصل من نفخ جبريل عليه السلام في جيب درع مريم عليها السلام فوصل النفخ إلى فرجها فحملت به. ومن ابتدائية لا تبعيضيّة كما زعمت النَّصارى، وهى متعلقة بمحذوف وقع صفة لروح، أي كائنة من جهته تعالى. وجعلت منه، وإن كانت بنفخ جبريل عليه السلام لكون النفخ بأمره تعالى. حكى أن طبيباً حاذقاً نصرانياً جاء للرشيد، فناظره عليٌّ

بن الحسين الواقدى ذات يوم، فقال له: إنَّ في كتابكم ما يدلّ على أنَّ عيسى جزء من الله، وتلا هذه الآية، فقرأ لَهُ الواقدىُّ: «**وسخَّرَ لكُمْ ما فى السّمٰواتِ ومٰا فى الأرْضِ جميعاً مِنْهُ**» فقال: إذاً يلزم أن تكون جميع تلك الأشياء جزءاً منه سبحانه!! فانقطع النصرانىُّ، وأسلم وفرح الرشيد فرحاً شديداً وأعطى للواقدى حلةً فاخرة. «**آمِنُوا باللهِ ورَسُولِهِ**» كما آمن النّاس «**ولاَ تَقُولُوا**» الآلهة «**ثَلاثَةٌ**» الله وعيسى وأُمّهُ. واعلم أنَّ أصناف النصارى أربعة: اليعقوبيّة، والملكانيّة، والنسطوريّة، والمرقوسيّة:

فأمّا اليعقوبيّة والملكانيّة: فقالوا فى عيسى: إنَّه الله!!.

وقالت النسطوريّة: إنَّه ابن الله!!.

وقالت المرقوسيّة: ثالث ثلاثة!! وقيل إنهم يقولون: إنَّ عيسى جوهر واحد. ثلاثة أقانيم: اقنوم الأب، وأقنوم الابن. وأقنوم روح القدس. وأنهم يريدون بأقنوم الأب: الذات. وبأقنوم الابن: عيسى. وبأقنوم روح القدس: الحياة الحالة فيه فتقديره عندهم. الإلٰـه ثلاثةٌ. وقيل: إنهم يقولون في عيسى ناسوتيّة وألوهيّة: فناسوتيتهُ: من قبل الأم. وألوهيته: من قبل الأب. **تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً**.

يقال: إن الذى أظهر هذا للنصارى رجل من اليهود يقال له: بولص. تنصّرَ ودسّ هذا في دين النّصارى ليضلّهم بذلك ولذا قال لهم: «**انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ**» أي ليكن الانتهاء عن هذا القول خيراً لكم من القول بالتّثليث المبدَع «**إنَّما اللهُ إلٰـهٌ واحدٌ**» فهو سبحانه وتعالى منزه عن التثليث وعن الولد «**سُبْحَانَهُ أنْ يَكُونَ لَهُ ولدٌ**»!!! أي لا ينبغى أن يكون له ولد لأن الولد جزء من الأب، وتعالى الله عن التجزئة، وعن صفات الحدوث «**لَهُ مٰا فى السَّمٰواتِ وَمٰا فى الأرْضِ**» خلقاً وملكاً وعبيداً وعيسى ومريم من جملة من فيها، فهما عبيده وملكه. فإذا كانا عبدين لَهُ فكيف يعقل مع هذا أن له ولداً وزوجةً!!! ومن الذى يقول إنَّ الْمُلْكَ جزء من المالك؟ كما أن التجزئة إنما تصح في الأجسام والله تعالى منزّه عن صفات الأعراض والأجسام «**ليْسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصيرُ**» «**وكَفَىٰ باللهِ وَكيلاً**» أي شهيداً على ذلك، ومستقلاً بتدبير خلقه فلا حاجة لَهُ إلى ولد يُعينُه. ثم ساق الله تعالى الآيات مبيناً فيها عبوديّة عيسى عليه السلام. وكذا غيره من المخلوقين ومنهم الملائكة الكرام فقال: «**لن يستنكف الْمَسِيحُ أنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ ولاَ الملاٰئِكَةُ المُقرّبُون..**» الآية.. التى نحن في صدد بيان نزولها.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لله ولاَ الْمَلائكَةُ المقرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إلَيْهِ جَمِيعاً»

سورة النِّساء (الآية: ١٧٢)

في الواحدي: قال الكلبيُّ: إن وفد نجران قالوا يا محمد: لِمَ تَعِبْ صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى. قال: وأي شيءٍ أقول فيه؟ قالوا: إنه عبد الله ورسوله. فقال لهم: إنه ليس بعار لعيسى أن يكون عبداً لله. قالوا: بلى. فنزلت «لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أنْ يَكُونَ عبْداً لله..» الآية وكذا في الخازن. وما عداهما لا يوجد فيها شيء زائداً على ما ذكرا. قوله: «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ» الاستنكاف الأنفة والترفّع من نكفت الدمع إذا نحيته عن وجهك بالأصبع، والنَّكْفُ: العدول والامتناع عن الشيء أنفة كبراً. والمفسرون يقولون: الاستنكاف والاستكبار واحد، والاستكبار أن يتكبّر و يتعظّم: أي ليس يستنكف الذي يزعمون أنّه إله أن يكون عبداً لله. «ولاَ الملائكَةُ المقرَّبُونَ» وهم أكبر من البشر، لا يستنكفون أن يكونُوا عبيداً، وهذا من أحسن الاستطراد ذكر للردّ على من زعم أنها آلهة، أو بنات الله، ولا يخفى أن الاستطراد هو الانتقال من معنًى إلى معنًى آخر متصلاً به، ولم يقصد بذكر الأ ول التوصل إلى ذكر الثاني. وعليه قوله تعالى: «يا بني آدَمَ قَدْ أنزلنا عَلَيكُمْ لِبَاساً..» الآية هذا أصله. وقد يكون هوالمقصود فيذكر الأ ول قبله ليتوصل إليه كما هنا، فيكون من الإستطراد الحسن. «وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فسيحْشُرُهُمْ إليه جميعاً» في الآخرة وجميعاً حال من الهاء في يحشرهم أو توكيدٌ له. والفاء في قوله: «فَسَيَحْشُرُهُمْ» يجوز أن تكون جواباً للشرط في قوله: «وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ» أي ومن يستنكف عن عبادته و يستكبر فيعذبه عند حشره إليه ومن لم يستنكف ولم يستكبر فيثيبه. والضمير في فسيحشرهم يرجع إلى عموم الناس، ومنهُم عيسى وأمّه، فلوا كانا إلهين لما حسن حشرهما مع الناس، فتبيّن أنهما مخلوقان لله وأنهما من جنس البشر يقع عليهما ما يقع على البشر من الصحة والمرض، والغنى والفقر، والحشر والنشر والحساب والثواب.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»

سورة النّساء (الآية: ١٧٦)

في الواحدي: حدّث الزبير عن جابر قال: اشتكيتُ، فدخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندى سبع أخوات، فنفخ في وجهى، فأفقت، فقلت يا رسول الله: أوصى لأخواتى بالثلثين؟ قال: اجلس، فقُلتُ: الشطر، قال: اجلس. ثم خرج فتركنى. قال: ثم دخل عليَّ وقال: يا جابر إنى لا أراك تموت فى وجعك هذا. إنَّ الله قد أنزل فبيّن الذي لأخواتك الثلثين. وكان جابر يقول: نزلت فيّ «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُم..» الآية.

وفى الخازن: روى الشيخان عن جابر بن عبدالله قال: مرضتُ فأتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوبكر رضي الله عنه يعودان ماشيين، فأغمى عليَّ، فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم صبَّ عليَّ من وضوئه، فأفقتُ، فإذا النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، كيف أصنع فى مالى؟ كيف أقضى في مالى؟ فلم يرد عليَّ شيئاً حتى نزلت آية المواريث «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الكَلالَة..»* وفى الطبرى: عن قتادة: أن الصحابة أهمهم شأن الكلالة فسألوا عنها النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية* وهكذ الأقوال في بقية التفاسير* قوله: «يَسْتَفْتُونَكَ» فى الكلالة والمستفتى في الكلالة هو جابر لما عاده النبيُّ صلى الله عليه وسلم في مرضه كما علمت «قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الكَلَالَةِ» متعلّق بيفتيكم على إعمال الثاني. تقدم في البقرة أن الكلالة ما عدا الوالد والولد من القرابة وقيل الإخوة من الأم. والمعنى: يطلبون منك أيها النبي الفتيا فيمن يُوّرث كلالة كجابر بن عبدالله ليس له والد ولا ولد، وله أخوات من العصبة لم يفرض لَهُنَّ شيء في التركة من قبل، والآية حجة لأبى بكر الصديق رضي الله عنه القائل فيها: الكلالة ما عدا الوالد والولد. وإنما فرض للأخوة من الأم السدس للواحد منهم، والثلث لما زاد على الواحد. وهم شركاء فيه مهما كثروا لأنَّ ميراث أمهم ليس لها سواه.

فقل لهم جواباً عمّا سألتم عنه: «**إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ**» أي ان امرؤ مات غير ذي ولد، وترك أختاً شقيقة أو من أبيه فقط فلها نصف التركة «**وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ**» أي يأخذ جميع تركتها إذا لم يكن لها ولد ذكرٌ ولا أنثى. ولا والد يحجبه عن إرثها. «**فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ**» أي فإن كان للأخ الميت أختان فما فوق فيأخذن ثلثيْ التركة «**وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**» أي وإن كان من يرث بالأخوة كلالة: ذكوراً وإناثاً. فتقسم التركة بين الجميع للذكر مثلُ حظّ الأنثيين كما هي القاعدة في كل صنف اجتمع منه أفراد في درجة واحدة. إلاَّ أولاد الأمّ فإنهم شركاء في سُدُسِ أمهم لحلولهم محلّها. ولولا ذلك لم يرثوا. إذ هم ليسوا من عصبة الميت. «**يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا**» أي يبين الله لكم أمور دينكم كراهة أن تضلُّوا. أي لتتقوا بمعرفتها الضلال في قسمة التركات وغيرها. «**واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**» فهو لم يشرع لكم من الأحكام إلا ما علم أن فيه الخير لكم. وذلك شأنه جل جلاله في كل ما شرع من أحكام، فكلها موافقة للحكمة. دالة على واسع العلم، وعظيم الرحمة، فيكون بيانه حقاً وتعريفه صدقاً. ختم هذه السورة ببيان كمال العلم كما أنَّه ابتدأها بكمال القدرة فبهما تتم الإلٰهية، ويحصل الترهيب والترغيب للعاصي والمطيع، والحمد لله في الإبتداء والانتهاء. آخر سورة النِّساء.

((سورة المائدة وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها))

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«بسم الله الرحمٰن الرحيم»

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ ولاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْواناً وإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ولاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ والتَّقْوى ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والْعُدْوانِ واتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ»

سورة المائدة (الآية: ٢)

في الواحدي: قال ابن عباس: نزلت في الحطيم، واسمه شريح بن ضبيع الكندى، أتى النبي صلى الله عليه وسلم من اليمامة إلى المدينة فخلّف خيله خارج المدينة، ودخل وحده على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إلامَ تدعو الناس؟ قال: إلى شهادة أن لا إلٰه إلاّ الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فقال: حسنٌ إلاّ أنّ لى أمراء لا نقطع أمراً دونهم. ولعلّى أسلم وآتى بهم. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: يدخل عليكم رجلٌ يتكلّم بلسان شيطان؟؟ ثم خرج من عنده، فلما خرج قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقدْ دَخَلَ بوجه كافر وخرج بعقبى غادر، وما الرجل مسلم. فمرّ بسرح المدينة فاستاقه، فطلبوه فعجزوا عنه، فلمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام القضيّة سمع تلبية حجاج اليمامة، فقال لأصحابه: هذا الحطيم وأصحابه وكان قد قلّد هدياً من سرح المدينة، وأهدى إلى الكعبة، فلمّا توجّهُوا فى طلبه أنزل الله تعالى «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحلُّوا شَعَائِرَ اللهِ**» يريد ما أشعر الله وإن كانوا على غير دين الإسلام* وكذا في الغرائب والخازن. وفيه: لقد دخل بوجْهٍ كافرٍ وخرج بقفا غادر، وما الرجل بمسلم، فمرَّ بسرح من سرح المدينة، فاستاقه وانطلق به، وهو يرتجز و يقول:

قد لفّها بالليل سوّاقٌ حطم ... ليس براعى إبل ولا غنم
ولا بجزّار على ظهر وضم ... باتوا نياماً وابن هند لم ينم
بات يقاسيها غلام كالزلم ... خدلج السّاقيْن ممسوح القدم

يجب أن يكون مخدلج حتى لا ينكسر البيت، فتبعوه فلم يدركوه. فلمّا كان العام القابل خرج شريح حاجاً مع حجاج بكر بن وائل من اليمامة ومعه تجارة عظيمة، وقد قلّد الهدى، فقال المسلمون يا رسول الله: هذا الحطم قد خرج حاجاً فخلّ بيننا و بينه فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنّه قلّد الهدى. فقالوا: يا رسول الله هذا شيء كنا نفعله في الجاهلية، فأبى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله **«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحلوُّا شَعَائرَ الله..»** قال ابن عباس: هي المناسك. كان المشركون يحجون ويهدون فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنهاهم الله عن ذلك* وفى الغرائب والواحدى: وقال زيد بن أسلم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالحديبية حين صدهم المشركون. وقد اشتد ذلك عليهم، فمرّبهم ناس من المشركين يريدون العمرة. فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: نصدُّ هؤلاء عن البيت كما صدنا أصحابهم فأنزل الله **«لا تَحلوُّا شعائر الله وَلاَ الشَّهْرَ الحرام..»** الآية. أي لا تعتدوا على هؤلاء العمار إن صدكم أصحابهم. قوله تعالى: **«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَحِلوُّا شَعَائرَ الله»** جمع شعيرة. وقد علمت أنَّ ابن عباس قال فى الشعائر: هي المناسك. وقيل: الشعائر الهدايا المشعرة، وإشعارها أن يطعن في صفحة سنام البعير بحديدة حتى يسيل دمه. فيكون ذلك علامة على أنّه هدىٌ، وهو سنّة في الإبل والبقر دون الغنم. وعند أبى حنيفة لا يجوز إشعار الهدى. بل وفى رواية عن ابن عباس قال في معنى الآية: **«لا تُحِلوُّا شَعَائِرَ الله»** هى أن تصيد وأنت محرم* وقيل: شعائر الله. شرائع الله، ومعالم دينه. والمعنى: لا تُحِلوُّا شيئاً من فرائضه التى فرضها عليكم. ولا من نواهيه التى نهاكم عنها. قال أبوحيّان: والشعائر هى ما حرم الله مطلقاً سواء كان في الإحرام، أو في غيره، والمعطوفات الأربعة (ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام) بعده مندرجة في عموم قوله: **«لا تُحِلوُّا شعائر الله»** فكان ذلك تخصيصاً بعد تعميم* فالشهر الحرام: شهر الحج، أعنى ذا الحجة، أو المراد رجب وذوالقعدة، وذوالحجة والمحرّم، وعبّرعنها بلفظ الواحد اكتفاء باسم الجنس. أي لا تحلُّوا القتال في هذه الأشهر. والهدى: ما أهدى إلى بيت الله، وتقرب به إلى الله من النسائك. جمع هدية. والقلائد: جمع قلادة وهي ما قلد به الهدي من نعل أو عروةِ مزادة، أو لحاء شجر الحرم، والمراد لا تحلُّوا ذوات القلائد من الهدى. ولا آمين: قاصدين البيت أى ولا تحلُّوا قتال قوم. أو ذى قوم قاصدين البيت للحجّ أو العمرة* وفي الخازن:

وقيل: أراد أصحاب القلائد: وذلك العرب في الجاهلية كانوا إذا أرادُوا الخروج من الحرم قلّدوا أنفسهم وإبلهم من لحاء شجر الحرم. فكانوا يأمنون بذلك فلا يتعرض لهم أحد، فنهى الله المؤمنين عن ذلك الفعل، ونهاهم عن استحلال نزع شيء من شجر الحرم* فالمعنى: على هذا: لا تحلُّوا أخذها من شجر الحرم* وفي القرطبي: والقلائد: ما كان الناس يقلّدُونه أمنةً لهم. فهو على حذف مضاف أي ولا أصحاب القلائد. وقيل: أراد بالقلائد نفس القلائد، فهو نهى عن أخذ لحاء شجر الحرم حتى يتقلد به طلباً للأمن قاله مجاهد وعطاء وغيرهما* وللمفسرين خلاف في الآية. فذهب كثير منهم كابن عباس ومجاهد والحسن والشعبي وقتادة إلى أنها منسوخة. وذلك أن المسلمين والمشركين كانُوا يحجُّون جميعاً، فنهى المسلمون أن يمنعُوا أحداً عن حج البيت بقوله: «لا تُحلوُّا» ثم نزل بعد ذلك «إنَّما المشركُونَ نَجَسٌ» «مَا كَانَ للمُشْرِكِينَ أنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله» وهؤلاء فسرّوا ابتغاء الفضل بالتجارة، وابتغاء الرضوان بأن المشركين كانوا يظنُّون فى أنفسهم أنهم على شيء من الدين وأن الحج يقربهم إلى الله بظنهم «يَبْتَغُونَ فَضْلاً» رزقاً «مِنَ رَبِهِمْ» بالتجارة «ورضْواناً مِنْهُ» بقصده بزعمهم الفاسد. وقال آخرون: إنها محكمة: وأنه تعالى أمرنا أن لا نخيف من يقصد بيته من المسلمين بدليل قوله تعالى: «يبتغونَ فضْلاً من ربهم» أي ثواباً «وَرِضْواناً» أي يرضى عنهم. وهذا إنما يليق بالمسلم لا بالكافر. وقال أبومسلم: المراد بالآية الكفار الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلمّا زال العهد بسورة براءة زال ذاك الخطر. قلت: وفي ابن كثير: وقد حكى ابن جرير الاجماع على أنَّ المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمانٌ، وإن أمَّ البيت الحرام، أو بيت المقدس، وأن هذا الحكم منسوخ في حقهم، والله أعلم. فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به فهذا يمنع قال تعالى: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنَّما المشركُونَ نَجَسٌ فلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عَامِهِمَ هَذَا» ولهذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عام تسع لمّا أمرّ الصديق على الحجيج علياً وأمره أن ينادى على سبيل النيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ببراءة، وأن لا يحجَّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وقوله: «وإذَا حَلَلْتُمْ فاصْطَادُوا» ظاهر الأمر للوجوب. إلاَّ أنه يفيد هٰهنا الإباحة لأنه لـمّا كان المانع من حل الاصطياد هو الإحرام رجع إلى أصل الإباحة. أي إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرّماً عليكم في حال الإحرام

من الصيد. وقال علماء الأصول: إنَّ هذا الأمر يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهى. فإن كان واجباً ردّه واجباً، وإن كان مستحباً فمستحب. أو مباحاً فمباح. وقوله «**ولا يجْرِمَنَّكُمْ**» معطوف على لا تحلُّوا. وجرم بمعنى كسب من حيث المعنى. ومن حيث تعد يه إلى مفعول واحد تارة وإلى مفعولين أخرى. تقول: جرم ذنباً نحو كسبه، وجرمته ذنباً كسبتُه إيّاه. وهذا هو المذكور في الآية. وعبارة المفسرين: أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل، فإن العدل واجب في كل أحد. وقال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض. وعلى القول الأول: «**ولا يجْرِمنّكم**» يكسبنّكم «**شَنَآنَ**» بغض «**قَوْمٍ**» لأجل «**أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الحرامِ أن تعْتَدُوا**» عليهم بالقتل وغيره. وقوله «**ولا يجرمنّكُمْ**» نهى. فإن الذين يصدون المسلمين عن دخول مكة كانوا كفاراً حربيين. فكيف ينهى عن التعرض لهم وعن مقاتلتهم الله إلاّ إذا كان هذا النهى منسوخاً أو يقال: إن النهي عن التعرض لهم بسبب عقد الصلح الذي وقع في الحديبية فصاروا به مؤمّنين، وعلى هذا الأساس لا يجوز التعرض لهم. وشنآن مأخوذ من شنيء المتعدّى كعلم. يقال: شنئت الرجل أشنئه أي بغضته، وهذا المصدر سماعى مخالف للقياس من وجهين: تعدى فعله وكسر عينه لأنه لا ينقاس إلا في مفتوحها اللازم كما قال في الخلاصة. وفعل اللازم مثل قعد* «**وتَعَاونُوا على البِرِّ**» أي فعل ما أمرتم به «**والتقْوى**» على العفو والاغضاء أو على كل ما يعدُّ برّاً وتقوى. أي بترك ما نهيتم عنه «**ولا تَعَاونُوا على الإثم**» المعاصى «**والعدْوانِ**» الانتقام والتّشفى، أو على كل ما يورث الاثم والتجاوز عن الحدّ. والحاصل: إن الباطل والاثم لا يصلح لأن يقتدى به، و يعان عليه، وإنما اللائق بالاقتداء به والتعاون عليه هو الخير والبر وما فيه تقوى الله سبحانه وتعالى، ثم بالغ في هذا المعنى بقوله: «**واتّقُوا الله**» أي في استحلال محارمه «**إنّ الله شديدُ الْعِقَابِ**» لمن خالفه في أوامره ففيه وعيد وتهديد عظيم

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» سورة المائدة (الآية: ٣)

في الواحدى: والخطيب: قال المفسرون: نزلت هذه الآية يوم الجمعة. وكان يوم عرفة بعد العصر في حجّة الوداع سنة عشر، والنبي صلى الله عليه وسلم بعرفات على ناقته العضباء فكادت عضد الناقة تندق من ثقلها فبركت. قال طارق بن شهاب: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين: إنكم تقرؤن آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً فقال: أيُّ آية هي؟ قال: «اليوم أكملتُ لكم دينكُمْ وأتمَمْتُ عليكم نعمتى» فقال عمر: والله إنى لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم والساعة التي نزلت فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم: عشية يوم عرفة، في يوم عرفة، في يوم جمعة. رواه البخارى عن الحسن بن صباح. ورواه مسلم عن عبدالله بن حيمد، كلاهما عن جعفر بن عوف* وحدّث حماد عن عباد بن أبي عمّار قال: قرأ ابن عباس هذه الآية، ومعه يهوديّ: «اليوم أكملتُ لكُمْ دِينكُمْ وأتْمَمْتُ عَليْكُمْ نعمتى ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً» فقال اليهودى: لو نزلت هذه علينا في يوم لاتخذناه عيداً. فقال ابن عباس: فإنها نزلت في عيدين اتفقا في يوم واحد، يوم جمعة وافق ذلك يوم عرفة. انتهى الواحدى. وفي أبي السعود: لمّا نزلت هذه الآية بكى عمر رضي الله عنه: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما يبكيك ياعمر؟ قال أبكانى أنا كنا في زيادة من ديننا، فإذاً قد كمل، وأنَّه لا يكمل شىء إلاَّ نقص. فقال عليه الصلاة والسلام: صدقت. فكانت هذه الآية نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما لبث بعد ذلك إلاَّ أحداً وثمانين يوماً* قلت: وانتقل عليه الصلاة والسلام إلى الدار الآخرة إلى جوار ربّه عز وجل يوم الإثنين بعد ما زاغت الشمس لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة. وقيل: في يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول وكانت هجرته في الثاني عشر منه* وفي القرطبي: وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين كان بمكة لم تكن إلاّ فريضة الصلاة وحدها، فلما قدم المدينة

أنـزل الله عـليـه الحلال والحـرام إلى أن حـج، فلما حج وكمل الدين نزلت هذه الآية: «الـيـوم أكمتُ لكُمْ دينكم..» الآية. وفي الخازن: قال ابن عباس: إن في ذلك اليوم خمسة أعـيـاد: يـوم جمعة، و يوم عرفة، وعيد لليهود، وعيد للنصارى، وعيد للمجوس. ولم تجـتـمـع أعـيـاد لأهـل المـلل في يـوم واحـد قـبله ولا بعده» وأمَّا تفسير الآية: فقوله تعالى: «الـيـوْمَ أكْـمَـلْـتُ لَـكُـمْ دِيـنَـكُمْ» يعني بالفرائض والسنن والحدود والأحكام والحلال والحرام، ولم يـنزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام، ولا شيء من الفرائض. هذا معنى قول ابـن عـبـاس: وقـال سـعيد بن جبير وقتادة: معنى أكملت لكم دينكم، أي حيث لم يحج مـعـكـم مـشرك. وخلا الموسم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسليمن. فيكون المعنى: بـأن كـفـيـتكم خوف عدوكم وأظهرتكم عليهم. كما يقول الملوك: اليوم كمل لنا الملك. أي كـفـيـنـا مـن كـنا نخافه. وقيل: اكمال الدين لهذه الأمة أنه لا يزول ولا ينسخ. وأن شـريـعتهـم بـاقية إلى يوم القيامة، وقال ابن الأنبارى: اليوم أكملت لكم شرائع الإسلام على غير نـقـصـان كـان قـبل هذا الوقت، وذلك أن الله تعالى كان يتعبد خلقه بالشيء في وقـت، ثم يـزيـد عـليـه في وقـت آخر، فيكون الوقت الأ ول تاماً في وقته، وكذلك الوقت الثاني تاماً في وقته، فهو كما يقول القائل: عندى عشرة كاملة، ومعلوم أن العشرين أكمل منهـا، والـشـرائـع التي تـعـبـد الله بهـا عبادةُ في الأ وقات المختلفة مختلفة، وكل شريعة منها كـامـلـة في وقـت الـتـعـبد بها، فكمّل الله عزّ وجلّ الشرائع في اليوم الذي ذكره، وهو يوم عـرفـه، ولم يـوجـب ذلـك أنَّ الـدين كان ناقصاً البتة، بل كان أبداً كاملاً إلاَّ أن الأ ول كـمـال إلى يوم مخصوص، والثاني كمال إلى يوم القيامة، فلأجل هذا المعنى قال: «اليوم أكـمـلـتُ لكُمْ دينكُمْ»» و يقال أيضاً: أرأيت نقصان الشهر هل يكون عيباً؟ ونقصان صلاة المسافر أهو عيب لها؟ ونقصان العمر الذي أراده الله بقوله «ومَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمرٍ ولاَ يُـنْـقـصُ مِنْ عُـمُـرِهِ» أهـو عـيـب لـه؟ ونقصان أيام الحيض عن المعهود، ونقصان أيام الحـمـل... لما أنكرت أن نقصان أجزاء الدين في الشرع قبل أن تلحق به الأجزاء الباقية في عـلـم الله تـعـالى؟ هـذه لـيـست بشيء ولا عيب، روى ابن جرير وابن المنذر عن ابن عـبـاس قال: أخبر الله نبيه والمؤمنين أنَّه قد أكمل لهم الايمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً. وقـد أتمـه فـلا يـنقص أبداً. وقد رضيه فلا يسخط أبداً. وقوله «وأتمَمْتُ عَلَيكُمْ نعْمَتي» بـفـتـح مـكة ودخولها آمنين ظاهرين، وهدم منار الجاهلية وإبطال منا سكها، وأن لم يحج

معكم مشرك، ولم يطف بالبيت عريان. «وَرَضِيتُ» اخترت لكم الإسلام دينا من بين الأديان، وهو الذى عند الله لا غيره ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه* وقوله تعالى: «فَمَنِ اضطُّرَّ» متصل بذكر المحرمات. أى فى قوله تعالى: «حُرِّمَت عليكُمُ المَيْتَةُ..» وما بينهما اعتراض بما يوجب التجنب عنها، وهو أن تناوله فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل، والنعمة التامة، والإسلام المرضى. يعنى فمن اضطر إلى تناول شىء من هذه المحرمات وكان «فى مَخْمَصة» أى مجاعة حال كونه «غيرَ مُتجانِف» أى مائل متعمد «لإثم» معصية «فإنَّ الله غفورٌ» له لما أكل ممّا حرم عليه فى الآية المتقدمة: «رَحيمٌ» به فى إباحته له بخلاف المائل لاثم أى المتلبّس به كقاطع الطريق والباغى مثلا فلا يحل له الأكل. أى إذا كانا مسافرين. أما إذا كانا مقيمين فلهما الأكل منها عند الاضطرار. «فمَنِ اضطُّرَّ غيرَ باغ ولا عَادٍ فلا إثم عليه».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يَسْألُونَكَ ماذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أحل لَكُمُ الطيّبات وما عَلَّمْتُم مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا علَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ واذكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ واتّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ»

سورة المائدة (الآية: ٤)

في الواحدي: قال أبورافع: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب. فقال الناسُ يا رسول الله: ما أُحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: وهي «يسألُونَكَ ماذا أُحِلَّ لَهُمْ» رواه الحاكم أبوعبدالله في صحيحه عن أبي بكرة بن بالويه عن محمد بن ساذان، عن يعلى بن منصور، عن ابن أبي زائدة. وذكر المفسرون شرح هذه القصّة فقالوا: قال أبورافع: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم واستأذن عليه، فأذن له فلم يدخل، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قد أذنا لك يا رسول الله. فقال: أجل يا رسول الله، ولكنا لن ندخل بيتاً فيه صورة ولا كلب. فنظروا فإذا في بعض بيوتهم جرو، قال أبورافع: فأمرني ألا أدع كلباً بالمدينة إلاّ قتلته حتى بلغت العوالى، فإذا امرأة عندها كلب يحرسها فرحمتها فتركته، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأمرني بقتله، فرجعت إلى الكلب فقتلته، فلمّا أمر رسول الله

صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب جاء ناسٌ فقالُوا يا رسول الله: ماذا يحلُّ لنا من هذه الأمّة التي تقتلها؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية، فلمّا نزلت أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها. ونهى عن إمساك ما لا ينفع فيه منها. وأمر بقتل الكلب الْكَلِبِ والعقور، وما يضرُّ و يؤذى، ورفع القتل عمَّا سواهما وما لا ضرر فيه* وقال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في عدى بن حاتم وزيد بن المهلهل: الطائيين، وهو زيد الخيل: الذي سمّاه الرسول صلى الله عليه وسلم زيد الخير. فقالا يا رسول الله: إنَّا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، فإن كلاب آل درع وآل حوريّة تأخذ البقر والحمر والظباء والضبّ، فمنه ما يدرك زكاته، ومنه ما يقتل فلا يدرك زكاته، وقد حرّم الله الميتة، فماذا يحلُّ لنا منها؟ فنزت هذه الآية «**يسألُونَك ماذا أحِلَّ لَهُم**»؟ «**قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطيبات**» يعنى الذبائح «**ومٰا علمْتُمْ من الجوارح**» يعنى وصيد ما علمتُم من الجوارح، وهي الكواسب من الكلاب وسباع الطير. انتهى الواحدي* وما في الواحدي في الغرائب بحروفه، وقريب من ذلك في الخازن، وذكر اسماء الناس بقوله: فدخل عاصم وسعد بن أبى خيثمة وعويم بن ساعدة على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: ماذا أحلّ لنا؟ فنزلت «**يَسْأَلُونَكَ مٰاذا أُحلّ لَهُمْ..**» ومثله في الطبرى مع عدم ذكر لأسماء. أمّا التفسير: فقوله تعالى: «**يَسْأَلُونَكَ**» أي يسألك أصحابك يا محمد ما الذي أحل لهم أكله من المطاعم والمآكل، كأنهم لمَّا تلا عليهم من خبائث المآكل ما تلا، سألُوا عمّا أحل لهم: تلك عبارة الخازن. أي كأنهم حين تلى عليهم ما حرم عليهم من خبيثات المآكل سألُوا عمّا أحل لهم، والسؤال في معنى القول، وإنما لم يقل ماذا أحل لنا على حكاية قولهم نظراً إلى ضمير الغائب في يسألونك، ومثل هذا يجوز فيه الوجهان. تقول: أقسم زيد ليفعلن، أو لأفعلن. والسؤال من المؤمنين «**مٰاذا أُحلَّ لَهُمْ**» من الطعام «**قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ**» المستلذات عند أصحاب الطباع السليمة، وهذا مقيد بما لم يرد نص بتحريمه من كتاب أو سنة أو إجماع ولا قياس كذلك، والمراد ما ذبح على اسم الله عزّ وجلّ فالآية الكريمة نصاً فيما يحل ويحرم من الأطعمة* وأعلم أن الأصل في الأعيان الحلّ لأنها خلقت لمنافع العباد : «**هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مٰا فى الأَرْضِ جَمِيعاً**» واستثنى من ذلك أصول: الأول: تنصيص الكتاب على تحريمه كالميتة والدّم.. وغيرهما كما هو منصوص عليه في الكتاب العزيز. الثاني: تنصيص السنة كما روى عن جمع من الصحابة

أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عام خيبر عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية والبغال كالحمير. ولا تحرم الخيل عند الشافعى لما روى عن جابر أنه قال: نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل. الثالث: ما هو في معنى المنصوص كالنبيذ فإنه مسكر كالخمر فيشاركها في التحريم. الرابع: كل ذى ناب من السباع وذى مخلب من الطيور، فيدخل تحت هذا الأصل الكلب والأسد والذئب والنمر والفهد والدب والقرد والفيل لأنها تعدو بأنيابها، ولا يحل من الطيور البازى والشاهين والصقر والعقاب وجميع جوارح الطير. الخامس: ما أمر بقتله من الحيوانات فهو حرام لأن الأمر بقتله إسقاط لحرمته ومنع من اقتنائه ولو كان مأكولاً لجاز اقتناؤه للتسمين وإعداده للأكل وقت الحاجة. ومنه الفواسق الخمس، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: [خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية والفأرة والغراب الأ بقع والكلب والحدأة]. السادس: ما ورد النهي عن قتله فهو حرام لأنه لو كان مأكولاً لجاز ذبحه ليؤكل كما روى أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل الخطاطيف، وكذا الصرد والنملة والنحلة والهدهد والخفاش. السابع: الاستطابة والاستخباث لقوله تعالى: «**قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ**» قال العلماء: فيبعد الرجوع إلى طبقات الناس، وتنزيل كل قوم على ما يستطيبون و يستخبثون لأن ذلك يوجب اختلاف الأحكام في الحلّ والحرمة. وذلك يخالف موضوع الشرع، فالعرب أولى أمّة بالاعتبار لأن الدين عربى وهم المخاطبون أولاً، وليس لهم ترفّه وتنعم يورث تضييق المطاعم على الناس، ولكن المعتبر استطابة سكان القرى، والبلاد دون أجلاف البوادى الذين لا تميز لهم. وأيضاً يعتبر أصحاب اليسار والترفه دون أصحاب الضرورات والحاجات. وأيضاً المعتبر حال الخصب والرفاهية دون حال الجدب والشدّة. والحشرات بأسرها مستخبثة كالذباب والخنفساء والجعلان وحمار قبان إلاّ الضبّ فإنه صلى الله عليه وسلم قال: [لا آكله ولا أحرّمه] وفي رواية [لكن نفسى تعافه]. وقوله: «**وَ**» أحل لكم صيد «**مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِحِ**» الكواسب من الكلاب والسباع والطير إذا كنتم «**مُكَلِّبِينَ**» لها. حال من كلّبْتَ الكلب إذا علمته على الصيد، وهو مراد في الكلام لدلالة الباقي عليه ولأنهم سألوا عن الصيد. والجوارح جمع جارحة، وهى الكواسب من السباع والطير كالفهد إلى آخر ماقدّمته لك، وسميت جوارح من الجرح لأنها تجرح الصيد عند امساكه وقوله: «**تُعَلِّمُونَهُنَّ**» أي تؤدبونَهُنّ «**مِمَّا عَلَّمَكُمُ**

الله» مـن عِلْمِ التكليب لأن بعضه إلهام من الله تعالى، أو مما عرفكم أن تعلموه من اتباع الـصـيـد بإرسال صاحبه وانزجاره بزجره، واعلم أنه يعتبر في صيرورة الكلب معلماً أمور. منها: أن ينزجر بزجر صاحبه في ابتداء الأمر، وكذا إذا انطلق واشتد عدوه وحدّته يشترط أن يـنـزجـر بـزجـره أيـضـاً على الأشبـه فـيـه يظهر التأدب. ومنها أن يسترسل باسترسال صاحبه. أي إذا أُغرى بالصيد هاج. ومنها: أن يمسك الصيد لقوله: «**فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ**» وفي هذا اعتبار وصفين أحدهما أن يخطفه ولا يخليه. والثاني: أن لا يأكل منه لقـولـه عـليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم: [فإن أكل فلا تأكل منه، فإنما أمسكه على نـفسه] وجوارح الطير يشترط فيها أن تهيج عند الاغراء، وأن تترك الأكل، ولكن لا مطمع في انزجارها بعد الطيران. و يشترط عند الشافعي تكرر هذه الأمور بحيث يغلب على الظن تـأديـب الجـارحـة بهـا، وأقـلـه ثلاث مرات، ولم يقدر الأكثرون عدةَ المرات، كأنهم رأوا الـعـرف مـضـطـربـاً وطـبـاع الجوارح مختلفة فيرجع إلى أهل الخبرة بطباعها، وعن سلمان الـفـارسي وسـعـد بـن أبي وقـاص وابـن عـمـر وأبي هـريرة: أنه يحلّ، وإن أكل. فعندهم الإمساك هو أن يحفظه ولا يتركه. ومعنى الآية: كلوا ما تبقى لكم الجوارح، وإن كان بعد أكـلـهـا منه. ومن في ممّا أمسكن. قيل زائدة: نحو كلوا من ثمره، وقيل: مفيدة وذلك أنَّ بـعـض الـصـيد لا يؤكل كالعظم والدم والريش. وقال سعيد بن جبير وأبوحنيفة والمزني: يـؤكـل مـا بقي مـن جـوارح الـطير، ولا يـؤكـل ما بقي من الكلب. والفرق تأديب الكلب بـالـضـرب على الأكـل ممـكـن، وتـأديب الطير عليه غير ممكن، ولا خلاف أنه إذا كانت الجـارحـة مـعـلـمـة، ثم تصيد صيداً وجرحته وقتلته وأدركه الصائد ميتاً فهو حلال. وجرح الجـارحـة كـالـذبـح. وإن قـتـلـتـه بالفم من غير جرح ففي حلّه خلاف. الغرائب* وقوله: «**وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ**» قال ابن عباس: يعنى إذا أرسلت جارحك فقل بسم الله. وإن نـسـيـت فـلا حـرج. ومـنـه قـولـه عـلـيه الصلاة والسلام لعدىّ: [إذا أرسلت كلبك وذكـرت اسـم الله عـلـيـه فـكـل] فعلى هذا يكون الضمير في عليه عائداً على ما علّمْتم من الجوارح، أي سـمُّـوا الله عـلـيـه عند إرساله. وقيل: الضمير عائداً إلى ما أمسكن عليكم. والمعنى: سـمُّـوا الله عـلـيـه إذا أدركتم ذكـاتـه. وقيل: يحتمل أن يكون الضمير عائدُاً إلى الأكـل. يـعنى واذكـروا اسـم الله عـلـيه عند الأكل، فعلى هذا تكون التسمية شرطاً عند إرسـال الجـوارح، وعند الذبيحة وعند الأكل. الخازن* وعلى الأ ول فالتسمية محمولة على

الندب عند الشافعي. وعلى الوجوب عند أبي حنيفة* وقوله: «واتّقوا الله» يعنى واحذروا مخالفة الله. يعنى فيما أحلّ لكم وحرّم عليكم* «إنّ الله سَريعُ الحِسَاب» إذا حاسب عباده يوم القيامة، ففيه تخويف لمن خالف أمره وفعل ما نهاه عنه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّـذِينَ آمَنُوا اذكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إذْ هَمَّ قَوْمٌ أنْ يَبْسُطُوا إلَيْكُمْ أيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ واتّقُوا الله وعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمِنُونَ» سورة المائدة (الآية: ١١)

في الواحدى: حدّث جابر بن عبدالله الأنصارى رضي الله عنه: أنَّ رجلاً من محارب يقال له غورث بن الحارث، قال: لقومه من غطفان ومحارب: ألا أقتُل لكم محمداً؟ قالوا: نعم، وكيف تقتله؟ قال: أفتك به، قال: فأقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس وسيفه في حجره، فقال يا محمد: أنظر سيفك هذا؟ قال: نعم، فأخذه فاستلّه، ثم جعل يهزه ويهمّ به، فكبته الله عزّ وجلّ، ثم قال يا محمد: ما تخافني؟ قال: لا. قال: ألا تخافني وفي يدى السيف؟ قال: يمنعنى الله منك، ثم أغمد السيف. وردّه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأنزل الله تعالى هذه الآية «إذكروا» نصر الله عليكم «إذْ هَمَّ قَوْمٌ أنْ يَبْسُطُوا إلَيْكم أيْدِيَهُمْ..» وفي رواية لجابر أيضاً أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل منزلاً. وتفرق الناس في العضاة يستظلُّونَ تحتها، فعلّق النبيُّ صلى الله عليه وسلم سلاحه على شجرةٍ، فجاء أعرابى إلى سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قام عليه. فقال: من يمنعك منّى؟ قال: الله. قال ذلك الأعرابى: مرتين أو ثلاثاً، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: الله، فأغمد الأعرابى السيف. فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه. فأخبرهم خبر الأعرابى، وهو جالسٌ إلى جانبه لم يعاقبه. وقال مجاهد والكلبي وعكرمة: قتل رجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من بنى سليم، وبين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قومهما موادعة فجاء قومهما يطلبون الدية، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبوبكر وعمر وعثمان وعليّ وغيرهم، فدخلوا على كعب بن الأشرف وبنى النضير يستقرضهم في عقلهما، فقالوا: نعم، يا أبا القاسم. قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا، فجلس هو وأصحابه، فخلا

بعضهم ببعض، وقالوا: إنكم لن تجدوا محمداً أقرب من الآن فمن يظهر إلى هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيرحنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب: أنا، فجاء إلى رحا عظيمة ليطرحها عليه، فأمسك الله يدَهُ، فجاء جبريل عليه السلام وأخبره بذلك فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وأنزل الله هذه الآية* كذا في الواحدى والغرائب بحروفه وألفاظه* وفي الغرائب: وقيل: نزلت في قصة عُسفَانَ حين همّ الأعداء أن يواقعوهم فنزلت صلاة الخوف* وقيل: إنها لم تنزل في واقعة خاصة، ولكن المراد أن الكفار أبداً كانوا يريدون إيقاع البلاء والنهب والقتل بالمسلمين فأعزّ الله المسلمين، وفلّ شوكة الكفار، وقوى دين الإسلام، وأظهره على الأديان* وقد أورد الخطيب قصة عُسْفان بقوله: روى أن المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر، يصلون معاً وذلك بعسفان (وهو وادٍ بينه و بين مكة مرحلتان) فى غزوة ذى أنمار، فلمَّا صلُّوا ندموا أن لا كانُوا أكبُّوا عليهم، فقالوا: إنَّ لهم بعدها صلاة هى أحب إليهم من آبائهم، وأبنائهم يعنون صلاة العصر، وهمُّوا أن يوقعُوا بهم إذا قامُوا إليها، فنزل جبريل عليه السلام بصلاة الخوف. رواه مسلم وغيره. والآية أشارت إلى ذلك. وفي الطبرى زيادة على ما ذكرت لك من الأقوال عن مجاهد في: «**اذكروا نعمة الله عليكُمْ إذْ همَّ قومٌ أن يبْسطُوا إليكُمْ أيديَهُمْ فكفَّ أيديَهُمْ عنكم**» يهود حين دخل النبي صلى الله عليه وسلم حائطاً لهم، وأصحابه من وراء جدار لهم، فأستعانهم في مغرم في دية غرمها، ثم قام من عندهم فأتمروا بينهم بقتله، فخرج يمشى معترضاً ينظر إليهم خيفتهم، ثم دعا أصحابه رجلاً رجلاً حتى تتامُّوا إليه، قال الله عز وجل: «**فكفّ أيديَهُمْ عنكُمْ واتّقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون**» وهكذا بقيّة الأقوال في نفس المعنى.

أما التفسير: «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عليْكُمْ**» النعمة في الحقيقة هي قوله تعالى: «**فكفّ أيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ**» وهو المراد بقوله: «**إذْ**» حين «**همّ قَوْمٌ**» فني الجلال: هم قريش وقد علمتَ منهم من قال اليهود ومنهم من قال قريش، ولا مانع من حمل الآية على العموم «**أنْ يَبْسُطُوا إليكُمْ أيْدِيَهُمْ**» أي بالقتل والبطش بكم فصرفهم عنكم، وحال بينكم و بين ما أرادوهُ بكم «**فكفَّ أيْدِيَهم عنكُمْ**» أي منعهم مما أرادوه بكم «**واتّقُوا الله**» يعنى فيا أمركم به ونهاكم عنه «**وعلى الله فَلْيَتَوكّل الْمُؤمِنُون**» أمر الله المؤمنين بالتوكل عليه لأنه هو الكافى عباده جميع أمورهم، فإذا فَعَلُوا ذلك وتوكلوا عليه

حفظهم ورعاهم ممن أرادهم بسوء كما كف أيدى اليهود وقريش عنهم لمّا أرادُوا أن يفتكون به، ومن قال إن المراد بالقوم في قوله «إذْ هَمَّ قَوْمٌ» هم اليهود فهو أولى بالصواب لأنه عقبَ الآية بذم اليهود، وذكر قبح أفعالهم وخيانتهم* وذلك قوله تعالى: «ولقدْ أخذْنا ميثاقَ بنى إسرائيل..» الآيات.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إنمَّا جَزاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ الله ورسُولَهُ و يَسْعَوْنَ فى الأ رْضِ فَسَاداً أنْ يُقَتَّلُوا أوْيُصَلَّبوا أوْتُقَطَّعَ أيْدِيهِمْ وأرْجُلُهُمْ مِنْ خلافٍ أوْيُنْفَوْا مِنَ الأ رْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ في الدنْيا ولَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ* إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فاعْلَمُوا أنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ» سورة المائدة (الآية: ٣٣، ٣٤)

في الغرائب: عن قتادة، عن أنس أنَّ الآية نزلت في العرنيّين الذين قتلُوا راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستاقُوا الذود، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثرهم وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم ثم سمل أعينهم، وتركهم حتى ماتوا* وقيل: نزلت في قوم أبي برزة الأسلمى، وكان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدٌ، فمرَّبهم قوم من كنانة يريدون الإسلام، وأبوبرزة غائب، فقتلُوهم وأخذوا أموالهم* وقيل: إنها في بني اسرائيل الذي حكى الله عنهم أنهم مسرفون في القتل* وقيل: فى قطاع الطريق من المسلمين.. وهذا قول أكثر الفقهاء. قالوا: ولا يجوز حمل الآية على المرتدين لأن قتل المرتد لا يتوقّف على المحاربة وإظهار الفساد في الأ رض، ولأنه لا يجوز الاقتصار في المرتد على قطع اليد أو النفي، ولأنَّ حدّه يسقط بالتوبة قبل القدرة عليه و بعدها. ولأنّ الطلب غير مشروع في حقه، ولأن اللفظ عام* والأ ول أصح لما رواه الواحدى: عن أنس رضي الله عنه: أن رهطاً من عُكل وعُرَيْنَةَ أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله: إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف فاستوخمنا المدينة، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذوْدٍ أن يخرجُوا فيها فليشربُوا من ألبانها وأبوالها، فقتَلُوا راعى رسول صلى الله عليه وسلم، واستقاوا الذود فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آثارهم فأتى بهم

فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، فتركوا في الحرّة حتى ماتُوا على حالهم. فنزلت الآية «**إنما جَزاءُ الّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ ورسُولَهُ..**» الآية. رواه مسلم عن عبيد الأعلى عن سعيد إلى قول قتادة عن أنس ورواه عنه أحمد والبخارى. زاد البخارى أن قتادة الذي روى الحديث عن أنس. وروى أبوداود والنسائى عن أبى الزناد: أن رسول الله لمّا قطع الذين سرقُوا لقاحه، وسَمَلَ أعينهم بالنار، عاتبه الله في ذلك وأنزل «**إنَّما جَزاءُ الّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ ورسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فى الأَرْضِ فَسَاداً أن يُقَتَّلُوا أويُصَلَّبُوا**» الآية. وفي رواية للبخارى قال أبوقلابة: وأيّ شيء أشد مما صنع هؤلاء، ارتدُّوا عن الإسلام وقتلوا وسرقُوا* قلت: ولذا قال مالك والشافعى وأبوثور نزلت الآية فيمن خرج من المسلمين يقطع السبيل و يسعى في الأرض بالفساد* وفي رواية لأبى قلابة: **فهؤلاء** قومٌ سرقُوا وقتلُوا وكفَرُوا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله. زاد في رواية له: وأنزل الله عز وجلّ «**إنَّما جزاءُ الّذِينَ يُحَارِبونَ اللهَ ورسُولَه..**» الآية.

أما تفسير الآية: «**إنَّما جزاءُ الّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ ورسُولَه**» بمحاربة المسلمين على حذف مضاف. أي أولياء الله وأولياء رسوله. وهم المسلمون، وفيه إشارة إلى أن ذكر الله تمهيد لرسول الله، فإن محاربة المسلمين في حكم محاربة الرسول، لأنَّ ما ذكر فيها من حكم قطع الطريق شامل للقطاع على المسلمين ولوبعد الرسول بأعصار لأنهم يحاربونه حيث يحاربون من هوعلى طريقته وأهل شريعته «**ويَسْعَوْنَ فى الأَرْضِ فَسَاداً**» بقطع الطريق، هذا هومعنى محاربة المسلمين. وفى نصب فساداً ثلاثة أوجه: الأول: أنه مفعول لأجله أي يحاربون و يسعون لأجل الفساد. والثاني: أنه مصدر واقع موقع الحال. أي و يسعون في الأرض مفسدين. والثالث: أنه منصوب على المصدر أي يفسدون في الأرض بسعيهم إفساداً «**أنْ يُقَتَّلُوا أوْيُصَلَّبُوا أوْ تُقَطَّعَ أيْدِيهُمْ وأرْجُلَهُمْ مِنْ خِلافٍ**» أي أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى «**أوْيُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ**» أوْ. لترتيب الأحوال. فالقتل لمن قتل فقط والصلب لمن قتل وأخذ المال. والقطع لمن أخذ المال ولم يقتل. والنفى لمن أخاف فقط قاله ابن عباس وعليه الشافعى وأصح قوليْه. فتقدير الآية أن يقْتلُوا إن قتلُوا..الخ. والنفى مقيّد بأن أخافوا السبيل فقط. وكانُوا ينفونهم إلى دهلك وهوبلد فى أقصى تهامة، وناصع وهوبلد من بلاد الحبشة. الكشاف* وعن جماعة منهم الحسن والنخعى: أنَّ الإمام مخيّر بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق من غير تفصيل، وذلك فيما يرى فيه المصلحة

للمسلمين «**ذَلِكَ لَهُمْ خزىٌ فى الدُّنْيا**» ذلّ وفضيحةٌ، وذلك إشارة إلى الجزاء المتقدّم «**فى الدنيا ولَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**» هوعذاب النّار. استحقاق الأمرين إنما هو للكافر، وأمّا المسلم فإنه إذا أقيم عليه الحد في الدنيا سقطت عنه عقوبة الآخرة، فالآية محمولة على الكافر، أو أنّ فيها تقديراً في قوله: ولَهُمْ فى الآخرة ..الخ. أي إن لم تقع عليه الحدود المذكورة في الدنيا «**إلاّ الّذِينَ تَابُوا**» من المحاربين والقطاع* «**مِنْ قَبْلِ أنْ تَقْدِروا عَلَيْهِمْ فاعْلَمُوا أنَّ الله غَفُورٌ**» لهم ما أتوهُ «**رَحِيمٌ**» بهم. عبر بذلك دون فلا تحدُّوهم ليفيد أنه لا يسقط عنه بتوبته إلا حدود الله، دون حقوق الآدميين. وعبارة المنهج مع شرحها وتسقط عنه بتوبته قبل أن تقدروا عليهم. فلا يسقط عنه ولا عن غيره بها قول ولا مال. ولا باقى الحدود من حدّ زنا وسرقة وشرب وقذف لأن العمومات الواردة فيها لم تفصل بين ما قبل التوبة وما بعدها، بخلاف قاطع الطريق. ومحل عدم سقوط باقى الحدود بالتوبة في الظاهر، أمّا بينه و بين الله تعالى فتسقط* وقال الشافعى إذا تاب بعد القدرة عليه لم يسقط عنه ما يختص بقطع الطريق من العقوبات لأنّه متّهم حينئذٍ بدفع العذاب عنه، وفي سائر الحدود بعد القدرة عليه* قيل: يكفى في التوبة إظهارها كما يكفى إظهار الإسلام تحت ظلال السيوف، والأصح أنّه لابد مع التوبة من إصلاح العمل لقوله تعالى في الزنا «**فان تابا وأصلحا فأعرضُوا عنهما**» وفي السرقة «**فَمَنْ تَابَ من بَعْدِ ظُلْمِهِ وأَصْلَحَ**».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

والسّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعُوا أيْدِيَهُمَا جَزاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ الله والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ* فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وأَصْلَحَ فإنّ الله يتُوب عليه إنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ» سورة المائدة (الآية: ٣٨، ٣٩)

فى الواحدى : قال الكلبىّ: نزلت فى طعمة بن أبيرق سارق الدرع. وقد مضت قصته. وكذا فى الخازن قال ابن السائب: نزلت فى طعمة بن أبيرق. أى الذى تقدمت قصته فى سورة النساء. ولم يذكر المفسرون غير ما ذكره الواحدى والخازن. قوله تعالى: «**والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ**» أل فيها موصولة مبتدأ ولشبهه بالشرط دخلت الفاء فى خبره وهو: «**فاقْطَعُوا أيْدِيَهُمَا**» أى يمين كل واحدٍ منها من الكوع، و بيّنت السنة أنّ الذى يقطع

فيه ربع دينار فصاعداً، وأنه إذا عاد قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم، ثم اليد اليسرى، ثم الرجل اليمنى، و بعد ذلك يعزّر. وإنما سمى السارق سارقاً لأنه يأخذ الشيء الذى ليس له أخذه فى خفاء. ومن حرز مثله. ومنه استرق السمع مستخفيا. وقد قطع السارق فى الجاهلية، وأول من حكم بقطع يده فى الجاهلية. الوليد بن المغيرة، وأقرّ الله قطعه فى الاسلام، فكان أول سارق قطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإسلام من الرجال: الخيار بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، ومن النساء مرّة بنت سفيان بن عبد الأسد من بنى مخزوم، وقطع أبو بكر اليمنيَّ الذى سرق عقداً لأسماء بنت عميس: زوج أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فقطع يده اليسرى. وقطع عمر يد ابن سمرة. أخى عبدالرحمن بن سمرة. ولا خلاف فيه، ولا حجّة قاطعة لمن قال: تقطع يد السارق بأقل من ربع دينار، وما ورد فى أقل من ذلك، فإنه خرج مخرج التحذير بالقليل عن الكثير كما جاء فى معرض الترغيب بالقليل مجرى الكثير فى قوله عليه الصلاة والسلام [من بنى لله مسجداً ولو مثل مَفْحَصِ قطاة بنى الله له بيتاً فى الجنّة] والمراد بسرقة البيضة أنها بيضة الحديد كما فسّرها البخارى: لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، والحبل فتقطع يده. ولا قطع على المختلس والمنتهب والمعتمد على القوة، ولا على المودع إذا جحد خلافاً لأحمد. وأما السارق فيشترط فيه التكليف والتزام الأحكام والاختيار. فيقطع الذمى والمعاهد، ولا يقطع المكره. وإنما تثبت السرقة بثلاث حجج باليمين المردودة، أو بالاقرار، أو بشهادة رجلين. و يتعلّق بها حكمان: الضمان والقطع. وقال أبو حنيفة: القطع والغرم لا يجتمعان. وهو خلاف ما قاله الشافعى. دليله قوله عليه الصلاة والسلام [على اليد ما أخذت حتى تؤدى] يوجب الضمان. وقد اجتمع فى هذه السرقة أمران، وحق الله لا يمنع حق العباد، ولهذا يجتمع الجزاء والقيمة فى الصيد المملوك، ولو كان المسروق باقياً وجب ردّه بالاتفاق. وحجة أبى حنيفة: قوله تعالى: «**جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نكالاً**» أى عقوبة لهم. والجزاء هو الكافى، فهذا القطع كاف فى جناية السرقة. وردّ بلزوم ردّ المسروق عند كونه قائماً. ولأن القطع علة لفعل السرقة لا لعلة المسروق. أمّا كيفيّة القطع، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم أتى بسارق فقطع يمينه. قال الشافعى: فإن سرق ثانياً قطعت رجله اليسرى، فإن سرق ثالثاً فيده اليسرى، فإن سرق رابعاً فرجله اليمنى و به قال مالك، وروى ذلك عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم. وعن أبى حنيفة وأحمد: لا

يقطع فى الثانية وما بعدها لما روى عن ابن مسعود أنه قرأ فاقطعُوا أيْمانهما. وضعّفه الشافعى. بأن القراءة الشاذة لا تعارض ظاهر القرآن المقتضى لتكرر القطع بتكرر السرقة. مكان القطع: اتفقوا على أنه تُقطع اليد من الكوع والرجل من المفصل بين الساق والقدم. والسيد يملك إقامة الحد على مماليكه لعموم قوله: «**فاقطعُوا**» ولم يجوزه أبو حنيفة، واحتج المتكلّمون بالآية فى أنه يجب على الأمة نصب الإمام لأن هذا التكليف لا يتم إلاّ به. وما لا يتم الواجب إلاّ به ـ وكان مقدوراً للمكلف فهو واجب ـ وانتصاب جزاء ونكالاً على أنه مفعول لهما. والعامل اقطعوا أى جازوهم ونكلوا بهم جزاء بما كسبا نكالاً من الله. «**فَمَنْ تَابَ**» من السرقة «**مِنْ بعْدِ ظُلْمِهِ**» أى سرقته فرجع عنها بعد أن ظلم غيره بها «**وأصْلَحَ**» عمله، ومن جملة الاصلاح ردّ ما سرقه، أو بَدَلَهُ لصاحبه: «**فإنَّ الله يتُوبُ عَلَيْهِ**» بشروط التوبة المعروفة. وهى الندم على ما مضى، والعزم على تركه فى المستقبل. عن أبى أميّة المخزومى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [ما أخالك سرقت] فقال: بلى، فأعاد عليه مرتين أو ثلاثاً. كل ذلك يعترف، فأمر به فقطع، ثم جىء به فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: [استغفر الله وتب إليه] فقال الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: [اللهمّ تب عليه] أخرجه أبو داود والنسائى بمعناه. «**إنَّ الله غفورٌ**» له «**رحيمٌ**» به.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الّذينَ يُسَارِعُونَ فى الكُفْرِ من الّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بأفْواهِهِمْ وَلَمْ تؤمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرينَ لَمْ يأتُوكَ يُحرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مواضِعِهِ يَقُولُونَ إنْ أوُتيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وإنْ لَمْ تُؤتَوْهُ فاحْذَرُوا ومَنْ يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شيْئاً أولئكَ الّذِينَ لَمْ يُرِدِ الله أنْ يَطْهِرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فى الآخِرةِ عَذَابٌ عظيمٌ» سورة المائدة (الآية: ٤١)

فى الواحدى : قال البراء بن عازب: مرَّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودى مُحمَّماً مجلوداً فدعاهم. فقال [أهكذا تجدون هذا الزانى فى كتابكم]؟ قالوا: نعم، قال: فدعا رجلاً من غلمانهم فقال [أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى عليه السلام:

هكذا تجدون حدَّ الزانى فى كتابكم]؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتنى لم أخبرك، نجد حدّ الزانى فى كتابنا الرجم، ولكنه كثر فى أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الوضيع أقمنا عليه الحدّ، فقلنا: تعالوا نجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم، والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأمر به فرجم. فأنزل الله تعالى: **«يا أيُّها الرَّسُولُ لا يحْزُنْكَ الّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفرِ»** ــ إلى قوله ــ: **«إنْ أوتيتُمْ هذا فخذُوه»** ــ يقولون أئتوا محمداً فإن أفتاكم بالتَّحميم والجلد فخذُوا به، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا ــ قوله تعالى: **«وَمَن لم يحكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فأولئكَ هُمُ الظالمونَ»** ــ قال فى اليهود إلى قوله: **«ومنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَل الله فأولئكَ هُمُ الكَافرون»** ــ: **«ومَنْ لم يحكُمْ بِمَا أنزل الله فأولِئكَ هُمْ الفَاسِقُون»** قال: نزلت كلها فى الكفار. رواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة* وعبارة الخطيب: روى أن شريفاً فى خيبر زنى بشريفة، وكانا محصنيْن، وحدهما الرجم فى التوراة، فكرهُوا رجمها لشرفهما، وقالوا: إن هذا الرجل الذى بيثرب ليس فى كتابه الرّجْم، ولكن الضرب، فأرسلوهما مع رهط منهم إلى بنى قريظة ليسألُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه. وقالوا: إن أمركم بالجلد والتحميم ــ أى تسويد الوجه من الحمة وهى السواد ــ فاقبلوا، وإنْ أمركم بالرجم فلا، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا يا محمد: أخبرنا عن الزنا والزانية إذا أحصنا ما حدّهما فى كتابك؟ فقال: هل ترضون بقضائى؟ فقالوا: نعم، فنزل جبريل بالرجم، فأخبرهم بذلك، فأبوْا أن يأخذوا به، فقال له جبريل: اجعل بينك و بينهم ابن صوريا ووصفه. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا؟ قالوا: نعم فقال هو أىُّ رجل فيكم؟ فقالُوا: هو أعلم يهودىّ بقى على وجه الأرض بما أنزل الله على موسى بن عمران فى التوراة، قال: فأرسلوا إليه، ففعلوا فأتاهم، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم: أنت ابن صوريا؟ قال: نعم، قال: أعلمُ اليهود؟ قال: كذلك يزعمون. قال: تجعلونه بينى و بينكم؟ قالوا: نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [أنْشُدُكَ الله الذى لا إله إلاَّ هو الذى فلق البحر لموسى، ورفع فوقهم الطور، وأنجاكم وأغرق آل فرعون، والذى أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون فيه الرجم عمن أحصن؟] قال: نعم، فوثب عليه سفلةُ اليهود، فقال: خفت

إن كذبت أن ينزل علينا العذاب، ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يعرفها من أعلامه، فقال: أشهد ألا إلٰه إلاّ الله وأنك رسول الله النبيّ الأميّ العربيّ الذى بشّر به المرسلون، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزانيين فرجما عند باب مسجده، وقال [اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه] فأنزل الله عزّ وجلّ: **«يا أيّها الرسُولُ لا يَحزُنْكَ الّذِينَ يُسَارِعُونَ فى الكفر..»** الآية* وروى أن اليهود جاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلاً منهم وأمرأة زنيا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟ قالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال عبدالله بن سلاّم: كذبتم إن فيها آية الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، وقرأ ما بعدها، فقال له عبدالله: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم. قالوا: صدقت يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما، قال عبدالله بن عمر رضى الله عنهما: فرأيت الرجل يقى بيده عن المرأة الحجارة. رواه مسلم عن ابن عمر: قلت: وقد كانت آية الرجم فى القرآن فنسخت تلاوتها و بقى حكمها. روى البيهقى عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم أنه قال فى خطبته: إن الله بعث محمداً وأنزل عليه كتاباً. وكان فيما أنزل آية الرجم فتلوّناها ووعيناها: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم* وفى ابن كثير: قيل نزلت فى أقوام من اليهود قتلوا قتيلاً، وقالوا: تعالوا نتحاكم إلى محمد. فإن حكم بالدية فاقبلوه، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه* والصحيح أنها نزلت فى اليهوديْين اللذين زنيا.. وعليه علماء التفسير وعبارة الخازن: قال علماء التفسير: إن رجلاً وامرأة من أشراف يهود خيبر زنيا وكانا محصنين، كان حدهم الرجم عندهم فى حكم التوراة، فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما، فقالوا: إن هذا الرجل بيثرب يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم، وليس فى كتابه الرجم. ولكن الضرب، فأرسلوا إلى اخوانكم بنى قريظة، فإنهم جيرانه، وصلح معه فليسألوه عن ذلك، فبعثوا رهطا منهم مستخفين، وقالوا لهم: اسألوا محمداً عن الزانيين إذا أحصنا ما حدّهما، فإن أمركم بالحد فاقبلوا منه. وإن أمركم بالرجم فاحذروه، ولا تقبلوا منه، وأرسلوا معهم الزانيين، فقدم الرهط حتى نزلوا على بنى قريظة والنضير، وقالوا لهم: إنكم جيران هذا الرجل، ومعه فى بلده، وقد حدث فينا حدث، وذلك أن فلاناً وفلانة قد زنيا، وقد أحصنا، فَنُحِبُّ أن تسألوه عن قضائه فى ذلك، فقال لهم بنو قريظة والنضير: إذاً

والله يأمركم بما تكرهون، ثم انطلق قوم منهم فيهم كعب بن الأشرف وكعب بن أسد، وسعيد بن عمرو، ومالك بن الصيف. وكنانة بن أبي الحقيق وغيرهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقالوا يا محمد: أخبرنا عن الزانى والزانية إذا أحصنا ما حدهما فى كتابك؟ فقال هل ترضون بقضائى؟ قالوا: نعم، فنزل جبريل عليه السلام بآية الرجم. فأخبرهم بذلك. فأبوا أن يأخذوا به، فقال جبريل للنبىّ صلى الله عليه وسلم: اجعل بينك و بينهم ابن صوريا، و وصفه له. فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا؟ قالوا: نعم، قال: فأىُّ رجل هو فيكم؟ فقالوا: هو أعلم يهودى بقى على وجه الأرض بما أنزل على موسى عليه السلام فى التوراة، قال: فأرسلوا إليه، ففعلوا، فلما جاء قال له النبىّ صلى الله عليه وسلم: أنت ابن صوريا؟ قال: نعم، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لابن صوريا: ناشدتك بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى، وأخرجكم من مصر، وفلق لكم البحر، وأنجاكم وأغرق آل فرعون، و بالذى ظلل عليكم الغمام، وأنزل عليكم المنّ والسلوى، وأنزل عليكم كتابه فى حلاله وحرامه، تجدون فى كتابكم الرجم على المحصن؟ فقال ابن صوريا: اللهم نعم، والذى ذكرتنى به لولا خشيتى أن ينزل علينا العذاب إن كذبت أو غيرت ما اعترفت لك، ولكن كيف هى فى كتابك يا محمد؟ قال: إذا شهد أربعة رهط عدول أنه أدخله فيها كما يدخل الميل فى المكحلة وجب عليهما الرجم، فقال ابن صوريا: والذى أنزل التوراة على موسى. هكذا أنزل الله فى التوراة على موسى، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم، فما كان أول ما رْخصتم به فى أمر الله تعالى: فقال ابن صوريا: كنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدّ، فكثر الزنا فى أشرافنا حتى زنى ابن عم ملك لنا فلم نرجمه، ثم زنى رجل آخر فى أمرأة من قومه، فأراد الملك رجمه، فقام قومه دونه، وقالوا: والله لانرجمه حتى ترجم فلاناً لابن عم الملك، فقلنا: تعالوا نجتمع فلنصنع شيئاً دون الرجم يكون على الشريف والوضيع، فوضعنا الجلد والتحميم، وهو أن يجلد أربعون جلدة بحبل مطوىّ بقار، ثم تسود وجوههما، ثم يحملان على حمارين، و وجوهما من قبل دبر الحمار، و يطاف بهما، فجعلوا ذلك مكان الرجم. فقالت اليهود لابن صوريا: ما أسرع ما أخبرته، وما كنت لما أثنينا عليك بأهل، ولكنك كنت غائباً فكرهنا أن نغتابك، فقال لهم ابن صوريا: إنه قد ناشدنى بالتوراة، ولولا خشيتى أن ينزل علينا

العذاب ما أخبرته، فأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بهما فرجما عند باب المسجد، وقال: [اللهم إنى أوّل من أحيا أمرك إذ أماتوه] فأنزل الله تعالى هذه الآية* أما التفسير: قوله تعالى: «**يا أيها الرَّسولُ لا يَحْزُنْكَ**» صنع «**الّذِينَ يُسَارِعُون فى الكفر**» يقيمون فيه بسرعة. أى يظهرونه إذا وجدوا فرصة: «**مِنَ الّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بأفْواهِهِمْ ولَمْ تُؤمِنْ قُلُوبُهُمْ**» يعنى المنافقين لأنهم أظهروا الإيمان بالقول وكتموا الكفر وهذه صفة المنافقين: «**وَمِنَ الّذِينَ هَادُوا**» أى وطائفة من اليهود: «**سمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ**» الذى افترته أحبارهم سماع قبول. وهو المراد لأنك تقول: تسمع من فلان لا تقبل منه. وقيل: سماعون لأجل أن يكذبوا عليك، وذلك أنهم كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يخرجون من عنده، و يقولون سمعنا منه كذا وكذا. ولم يسمعوا ذلك منه بل كذبوا عليه. وقوله: «**سمَّاعون**» منك: «**لقَوْمٍ**» لأجل قوم: «**آخَرِينَ**» من اليهود: «**لَمْ يأتُوكَ**» وهم أهل خيبر زنى فيهم محصنان فكرهوا رجمهما فبعثوا قريظة ليسألوا النبىّ صلى الله عليه وسلم عن حكمهما الخ ..: «**يحرِفُونَ الْكَلِمَ**» الذى فى التوراة. كآية الرجم: «**مِنْ بَعْدِ مواضِعِهِ**» التى وضعها الله عليها. أى يبدلونه وذلك إما تحريفاً لفظياً بإبدال كلمة بكلمة أو بإخفائه وكتمانه، أو بالزيادة فيه، أو بالنقص منه، وإما تحريفاً معنوياً بحمل اللفظ على غير ما وضع له: «**يقُولُونَ**» لمن أرسلوهم: «**إنْ أوتِيتُمْ هذا**» الحكم المحرّف المزال عن مواضعه: «**فَخُذُوهُ**» فهو الحق واعملوا به: «**وإنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ**» بل أفتاكم بخلافه: «**فاحذروا**» أن تقبلوه: «**ومَنْ يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ**» إضلاله: «**فلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شيئاً**» فى دفع الفتنة عنهم: «**أولئكَ الّذِينَ لَمْ يُرِدِ الله أنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ**» من الكفر، وهو إشارة إلى المذكورين من المنافقين واليهود، وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الفساد: «**لَهُمْ فى الدُّنْيا خِزْيٌ**» ذلّ بالفضيحة بإظهار نفاقهم، و بيان تحريفهم. وضرب الجزية على المحاربين من أهل الكتاب: «**ولَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**» يعنى الخلود فى النار للمنافقين واليهود.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فإنْ جَاؤكَ فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أوْ أعْرِضْ عَنْهُمْ وإنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وإنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوراةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولئكَ بالمؤمِنينَ»

سورة المائدة (الآية: ٤٢، ٤٣)

في الخازن: نزلت في حُكَّام اليهود مثل كعب بن الأشرف ونظرائه، كانُوا يرتشون و يقضون لمن رشاهم. قال الحسن: كان الحاكم منهم إذا أتاهُ أحدهم برشوة جعلها في كمّه، ثم يريها إيَّاهُ، و يتكلّم بحاجته، فيسمع منه، ولا ينظر إلى خصمه، فيسمع الكذب، و يأكل الرشوة، وهي السحت* وفي الغرائب: وقيل: كان فقراؤهم يأخذون من أغنيائهم مالا ليقيموا على ما هم عليه من اليهودية، فكانُوا يسمعُونَ أكاذيب الأغنياء و يأكلون السّحت* وقيل: إنَّه في أمر خاصّ. وهو رجم المحصن قاله ابن عباس ومجاهد والزهرى* وقيل: في قتيل قُتل من اليهود في بنى قريظة والنضير، وكان في بنى النضير شرف، وكانت ديتهم كاملة، وفي قريظة نصف دية، فتحاكموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل الدية سواء* وعن النخعى والشعبى وقتادة وعطاء وأبى بكر الأصم وأبى مسلم أن الآية عامّة في كل من جاء من الكفار. وأن الحكم ثابت في سائر الأحكام غير منسوخ* قلت: والحقُّ إنَّ الآية متصلة بما قبلها، و يتضح ذلك من أقوال العلماء في تفسيرها. قوله فى آخر الآية السالفة الذكر: «**وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**» هم «**سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ للسُّحْتِ**» الحرام كالرشا وأصل السُّحت الاستئصال. يقال سحته: إذا استأصله، وسميت الرشوة في الحكم سُحت: لأنها تستأصل دين المرتشى، والسحت كله حرام يحمل عليه شدّة الشره، وهو يرجع إلى الحرام الخسيس الذي لا تكون له بركة، ولا لآخذه مروأة، و يكون في حصوله عار بحيث يخفيه لا محالة، فهو كالآخذ المال خفيةً، ولذلك حرمت الرشوة على الحكام. أخرج الترمذي وأبوداود عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الراشي والمرتشي في الحكم* قال الحسن: إنما ذلك في الحاكم إذا رشوته ليحق لك باطلاً أو يبطل عنك حقاً*

وقال ابن مسعود: الرشوة في كل شيء فمن شفع شفاعة ليردّ بها حقاً، أو يدفع بها ظلماً، فأهدى بها إليه فقبل فهو سحت. فقيل له يا أبا عبدالرحمن: ما كنا نرى ذلك إلاّ الآخذ على الحكم. فقال: الأخذ على الحكم كفر قال تعالى: «**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**»* والسحت الرشوة في الحكم. ومهر البغي وعسب الفحل. وكسب الحجام وثمن الكلب وثمن الخمر وثمن الميتة، وحلوان الكاهن والاستكساب في المعصية. روى ذلك عن عليّ رضي الله عنه وعمر وعثمان وابن عباس وأبي هريرة ومجاهد. كذا في الغرائب* وكل ذلك يرجع إلى الحرام الخسيس الذي لا يكون فيه بركة «**فَإِنْ جَاؤُكَ**» لتحكم بينهم. لمّا بيّن تفاصيل أحوالهم المختلفة الموجبة لعدم المبالاة بهم خواطب ببعض ما ينبغي عليه من الأحكام. أي فإن جاؤك متحاكمين إليك «**فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ**» فانت مخيّر بين الحكم بينهم والاعراض عنهم وتركهم إلى رؤسائهم. وأوْ هنا للتخيير فهي خاصّة بالمعاهدين دون أهل الذّمة. فلا يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين الأجانب الذين هم في بلادهم وإن تحاكموا إليهم، بل هم مخيّرُون يرجحون في كل حال ما يرونه من المصلحة. وأمّا أهل الذمة فيجب الحكم بينهم إذا تحاكموا إلينا، لأن من أخذت منه الجزية تجرى عليه أحكام الإسلام في البيوع والمواريث، وسائر العقود إلا في بيع الخمر والخنزير فإنهم يقرّون عليه، بشرط عدم الاعلان بشربه في الأسواق، ويمنعون من الزنا كالمسلمين لأنهم نهو عنه لكن لا يرجون لأنّ من شرط الرجم الإسلام. «**وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً**» فالله حافظك من ضررهم إذا أخترت الاعراض عنهم ولم تحكم بينهم «**وَإِنْ حَكَمْتَ**» أي اخترت الحكم بينهم «**فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ**» أي بالعدل الذي أمرت به في القرآن الكريم «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**» العادلين في الحكم أي يثيبهم عليه «**وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ**» !!؟ تعجب من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من تحكيمهم من وجوه. منها: «**وَعِنْدَهُمُ التوراة فِيهَا حُكْمُ اللهِ**» ومنها رجُوعهم إلى حكم من كانُوا يعتقدونه مبطلاً. ومنها: إعراضهم عن حكمه بعد أن حكموه، وهذا غاية الجهالة ونهاية العناد. وما سبب ذلك إلا أنهم ليسوا مؤمنين «**ثُمَّ يتولَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وما أُولئكَ بالمؤمنين**» بك ولا بالتوراة من قبلك إيماناً صحيحاً لأن المؤمن بشرع لا يرغب عنه إلى غيره، اللهم إلاّ إذا آمن بنسخه لحكمة اقتضت ذلك وقد جاء في سِفرِ التّثنية بعد بيان أن من تزوّج عذراء فوجدها ثيباً

تـرجم عند باب أبيها، وإذا وُجِد رجل مضطجع مع امرأة زوج بعل يقتل الإثنان. الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة، فتنزع الشرَّ من إسرائيل. وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجـدهـا رجـل في المـديـنـة. فـاضطجع معها فأخرجوهما كليهما إلى باب المدينة وأرجموهما بـالـحـجـارة حتى يموتـا، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة، والرجل من أجل أنَّه أذلّ امرأة صاحبه فتزيل الشرَّ من وسطك. المراغی.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ»

سورة المائدة (الآية: ٤٤)

في الـواحـدى: قال أبوهريرة رضي الله عنه: زنى رجل من اليهود وامرأة. قال بعضهم لبعض، اذهبوا بنا إلى هذا النبي فإنه نبيٌّ مبعوث للتّخفيف، فإذا أفتانا بفتيا دون الرجم قـبـلـنـاهـا، واحـتـجـجنا عند الله، وقلنا: فتيا نبيّ من أنبيائك، فاتُوا النبيّ صلى الله عليه وسـلـم وهـو جـالـس في المسجد مع أصحابه. فقالوا يا أبا القاسم: ما ترى في رجل وأمرأة زنـيـا؟ فـلـم يكلمهما حتى أتى بيت مدراستهم، فقام على الباب فقال: أنشُدُكم الله الذي أنـزل الـتـوراة على مـوسى ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن؟ قالوا: يحمَّم ويجبّه ويجلد. والتجبية أن يحمل الزانيان على الحمار و يقابل أفقيهما و يطاف بهما. قال: وسكت شـابّ منهم، فـلـمّـا رآه الـنبى صلى الله عـليه وسلم ألحّ عليه في النشدة، فقال: اللهم إذا أنـشـدتـنـا فإنا نجد في التوراة الرجم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فما أوّل ما أرخصتم أمـر الله عزّ وجل؟ قال: زنى رجل ذو قرابة من ملك من ملوكنا، فأخّرعنه الرجم، ثم زنى رجل من سراة النّاس، فأراد رجمه، فأحال قومه دونه، فقالوا: لا يرجم صاحبنا حتى يجيء بـصـاحـبكم فيرجمه. فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فـإني أحـكـم بما في التوراة، فأمر بهما فرجما. قال الزهريُّ: فبلغنا أنَّ هذه الآية نزلت فيهم: «**إنّا أنزلنا التوراة..**» الآية» وكذا في الطبرى. والخازن، وفي ابن كثير: عن الإمام أحمد

عن ابن عباس في «**ومن لَمْ يَحْكُمْ بما أنزل الله فأولئِكَ هُمُ الكافرون**» «**وأولئك هُمُ الظالمونَ**» «**وأولئكَ هُمُ الفاسِقُون**» أنزلها الله في الطائفتين من اليهود. وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أنَّ كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق (الوسْقُ: حِمْلُ بعير) فكانوا على ذلك حتى قدم النبي صلى الله عليه وسلم. فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعَثُوا لنا بمائة وسق. فقالت الذليلة: وهل كان في حيّيْن دينها واحد، ونسبها واحد، وبلدهما واحد دية بعضهم نصف دية بعض، إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا، وفرقاً منكم (خوفاً) فأما إذا قدم محمد فلا نعطيكم، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم، ثم ذكرت العزيزة، فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ولقد صدقوا ما أعطونا هذا إلاَّ ضيماً منا، وقهراً لهم، فدسُوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حكّمتموهُ، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه، فدسُّوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما جاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأمرهم كله، وما أرادوا، فأنزل الله تعالى «**يا أيُّها الرّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الّذِينَ يُسَارِعُونَ فى الكُفْرِ**» إلى قوله «**الفاسقون**» ففيهم. والله أنزل. وإيَّاهم عنى عز وجلّ. رواه أبوداود من حديث أبي الزناد عن أبيه بنحوه. قلت: والآية التي بعد هذه الآية: «**وكتبنا عَلَيْهِمْ فيها أنَّ النَّفْسَ بالنّفسِ والْعَيْنَ بالعينِ..**» يؤيد أنها في قضية القصاص، ولا مانع من أن يجتمع لنزول الآية سببان فأكثر في وقت واحد لأن الأمر بالحكم بما أنزل الله يشمل الجميع، أي استفتاء اليهود في أمر الزانيين والقصاص في القتلى.

أما التفسير: «**إنّا أنزلنا التوراة**» على موسى عليه السلام وهو كلام مستأنف سيق لبيان علوّ شأن التوراة، ووجوب مراعاة أحكامها، وأنها لم تزل مرعية من الأنبياء ومن يقتدى بهم كابراً عن كابر مقبولة لكل أحد من الحكام والمتحاكمين، محفوظة عن المخالفة والتبديل تحقيقاً لما وصف به المحرفون من عدم إيمانهم بها وتقريراً لكفرهم وظلمهم. «**فيهَا هُدًى**» من الضلالة «**ونُورٌ**» ببيان الأحكام. وقيل: الهدى بيان الأحكام. والنور بيان التوحيد والنبوّة، والمعاد. قال الزجاج: الهدى: بيان الحكم الذي جاؤا يستفتُون فيه،

والنور بيان أمر النبي صلى الله عليه وسلم حقّ* وقيل: فيها هدى يهدى للحقّ والعدل، ونورٌ يبيّن ما استبهم من الأحكام. فهما عباراتان عن معبر واحد، وقد يستدل بالآية على أن شرع من قبلنا يلزمنا لأنَّ الهدى والنور لابد أن يكون أحدهما يتعلّق بالفروع والآخر بالأصول. وإلا كان تكراراً أو أيضاً أنها نزلت في الرجم، ومورد الآية لابد أن يكون داخلاً فيما سواه. قال صاحب الغرائب: إن غيره داخل أو خارج، ويمكن أن يجاب بأن التكرار بعبارتين غير محذور، أو بأن في الكلام تقديماً وتأخيراً، والمراد فيها هدى ونور للذين هادُوا «يَحْكُم بها النَّبِيُّونَ» وقوله: «الَّذِينَ أَسْلَمُوا» فأورد عليه أن كل نبيّ مسلم فما الفائدة في هذا الوصف؟ وأجيب بأنها صفة جارية على سبيل المدح لا التوضيح والكشف، وفيه تعريض باليهود أنهم بعداء عن ملة الإسلام التي هي دين الأنبياء قديماً وحديثاً، لأن غرض الأنبياء الانقياد لتكاليف الله، وغرضكم من ادعاء الحكم بالتوراة أخذ الرشا من العوام، فالفريقان متباينان ولهذا أردفه بقوله: «لِلَّذِينَ هَادُوا» أي يحكمون لأجلهم* وهادوا متعلق بيحكم أي يحكمون بها فيما بينهم. كأنّه قال أنزلنا التوراة فيها هدًى ونور لأجل أن يحكموا بها، ففيه تعريض بالمحرّفين، أو متعلّق بأنزلنا، وقيل: بهدى ونور. وفيه الفصل بين المصدر ومعموله، وقيل: متعلق بمحذوف وقع صفة لهما. أي هدى ونور كائنان للذين هادوا. أبوالسعود* وفي الخازن: أراد بالنَّبيين الذين بعثُوا بإقامة التوراة وأحكامها. ومعنى أسلمُوا: أي انقادُوا لأمر الله تعالى، والعمل بكتابه، وهذا على سبيل المدح لهم، وفيه تعريض باليهود لأنهم بعدوا عن الإسلام الذي هو دين الأنبياء عليهم السلام. قال الحسن والزّهرى وعكرمة وقتادة والسّدى: يحتمل أن يكون المراد بالنبيين الذين أسلموا هو محمد صلى الله عليه وسلم. وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً وتشريفاً له صلى الله عليه وسلم لأن النبي صلى الله عليه وسلم حكم على اليهود بالرجم، وكانَ هذا الحكم في التوراة* قال ابن الأنبارى: هذا ردٌّ على اليهود والنصارى لأن الأنبياء عليه السّلام ما كانوا موصوفين باليهودية والنصرانية بل كانوا مسلمين لله تعالى منقادين لأمره ونهيه* وقوله: «والرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ» أي الزهاد والعلماء من ولد هٰرون عليه السلام: الذين التزمُوا طريقة النبيين، وجانبُوا دين اليهود* وعن ابن عباس: الربّانيُّون: الذين يسوسون النّاس بالعلم، ويربونهم بصغاره قبل كباره. والأحبار: هم الفقهاء، والأحبار: واحد حَبْرٌ بالفتح والكسر، والثانى أفصح، وهو رأي الفراء مأخود من

التحبير والتّحسين. فإنهم يحبّرونه و يزيّنونه، أي هم أيضاً يحكمون بأحكامها، فهم خلفاء ونواب عن الأنبياء في تطبيق أحكامها «بِمَا» أي بسبب الذي «اسْتُحفِظُوا» أي استحفظهم الله إياهُ «مِنْ كتاب الله» أن يحرفوه أو يبدلُوه «وكَانُوا عَلَيْهِ شُهداءَ» أنَّه حقٌ «فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ» أيُّها اليهود في إظهار ما عندكم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم والرجم وغيرهما «واخْشَوْنِ» خافوا عقابي العظيم في كتمانها «وَلاَ تَشْتَرُوا» تستبدلوا «بآياتي ثَمَناً قليلاً» من الدنيا تأخذونه على كتمانها «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ الله فأولئكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» يعني أن اليهود لما أنكروا حكم الله تعالى المنصوص عليه في التوراة. وقالوا إنه غير واجب عليهم فهم كافرون على الإطلاق بموسى والتوراة وبمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن.

((اختلاف العلماء فيمن نزلت آيات الحكم بما أنزل الله))

الآيات هي قوله تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أنزل الله فأولئكَ هُمُ الكَافِرُونَ» «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فاأولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمُ بِمَا أَنْزَلَ الله فأولـئكَ هُمُ الفاسِقُونَ» ورد عن جماعة من المفسرين أنَّ الآيات الثلاث نزلت في الكفار. ومن غيَّر حكم الله من اليهود لأن المسلم وإن ارتكب كبيرة لا يقال إنَّه كافر، وهذا قول ابن عباس وقتادة والضحّاك* قال الخازن: و يدل على صحة هذا القول ما روى عن البراء بن عازب قال: أنزل الله تبارك وتعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فأولئكَ هُمُ الكافِرونَ» «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ الله فأولئكَ هُمُ الظالمون» «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ الله فأولئكَ هُمُ الفاسِقُونَ» في الكفار كلها. أخرجه مسلم* وعن ابن عباس قال: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فأولـئكَ هُمُ الكافرونَ» إلى «الفاسِقونَ» هذه الآيات الثلاث في اليهود خاصة: قريظة والنضير أخرجه أبوداود* وقال مجاهد في هذه الآيات الثلاث: من ترك الحكم بما أنزل الله ردّاً لكتاب الله فهو كافر ظالم فاسق* وقال عكرمة: ومن لَمْ يحكم بما أنزل الله جاحداً به فقد كفر، ومن أقرّ به، ولم يحكم به فهو ظالم فاسق* وهذا قول ابن عباس أيضاً، واختيار الزجاج لأنّه قال: من زعم أن حكماً من أحكام الله تعالى التي أتت بها الأنبياء باطلٌ فهو كافر* وقال طاوس: قلت لابن عباس: أكافرٌ من لم يحكم بما أنزل الله؟ فقال: به كفر، وليس بكفر

يـنقل عن الملّة كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ونحو هذا. روى عن عطاء قال: هو كفر دون الكفر* وقال ابن مسعود والحسن والنخعي: هذه الآيات الثلاث عامة في اليهود وفي هذه الأمة، فكلٌّ من ارتشى، و بدل الحكم فحكم بغير حكم الله فقد كفر وظلم وفسق، وإليه ذهب السّدى لأنَّه ظاهر الخطاب* وقيل: هذا فيمن علم نص حكم الله ثم ردّه عياناً عمداً، وحكم بغيره، وأمّا من خفي عليه النصُّ، أو أخطأ في التأويل فلا يدخل في هذا الوعيد. الخازن* قال الرازى نقلاً عن عكرمة: إن الحكم بالكفر على من حكم بغير ما أنزل الله إنما يكون فيمن أنكر بقلبه وجحد بلسانه أمّا من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقرَّ بلسانه كونه حكم الله إلاَّ أنَّه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله ولكنه تارك له فلا يدخل تحت هذه الآية* وعن الشعبي أنه قال: الثلاث الآيات التي في المائدة أولها: في هذه الأمة،والثانية: في اليهود، والثالثة: في النصارى. وخلاصة المعنى: ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهيناً به، منكراً له، وأن حكم غير ما أنزل أفضل منه كان كافراً لجحوده به واستخفافه بأمره وحكمه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وأنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أنْزَلَ اللهُ ولاَ تَتَّبِعْ أهْواءَهُمْ واحْذَرْهُمْ أنْ يفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أنْزَلَ اللهُ إليْكَ فإنْ تَوَلَّوْا فاعْلَمْ أنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أنْ يُصِيبَهُمْ ببَعْضِ ذنُوبِهِمْ وإنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لفاسِقُونَ* أفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أحْسَنُ من اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ»

سورة المائدة (الآية: ٤٩، ٥٠)

في الواحدى: قال ابن عباس: إن جماعة من اليهود منهم كعب بن أسيد، وعبدالله بن صوريا، وشاس بن قيس، قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد عليه الصلاة والسلام لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه، فقالوا يا محمد: قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم، وإنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود ولن يخالفونا، وإنَّ بيننا و بين قوم خصومة ونحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى فيهم «**واحْذَرْهُمْ أنْ يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك..**» الآية* وكذا في الخطيب والخازن قيل: ولعلهم طلبوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يحكم بما كان

يحكم به الجاهليون من التفاضل بين القتلى. أي بيّن ديات بعضهم على بعض، وكذا في بقية التفاسير. وقوله: «وأنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ» في محل نصب على الكتاب، والتقدير: وأنزلنا إليك الكتاب، وأن تحكم به بينهم أي والحكم بينهم. كذا في السمين. أوْ وأنزلنا إليك أن احكم على أنَّ أنْ المصدرية وصلت بالأمر لأنه فعل كسائر الأفعال، أو على قوله بالحقّ، أي أنزلناه بالحقّ و بأن احكم، ويحتمل أن تكون أن مفسرة، وفعل الأمر محذوف أي وأمرناك أن احكم. وتكرار الأمر بالحكم إمَّا للتأكيد، وإمَّا لأنها حكمان لأنهم احتكموا إليه في زنا المحصنين، ثم احتكموا في قتيل كان بينهم «ولاَ تَتّبع أَهْوَاءَهُمْ» ميولاتهم الفاسدة «وَاحْذَرْهُمْ أن» لا «يفتنُوك» يُضلُّوك «عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ» أي احذر أن يصرفوك عن بعضه ولو كان أقل قليل بتصوير الباطل بصورة الحق «فإنْ تَوَلَّوْا» عن الحكم المنزل وأرادُوا غيره «فاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُم» بالعقوبة في الدنيا «ببعض ذُنُوبِهِمْ» لا بجميعها، وذلك كما عاقبهم بالقتل والسّبي والجلاء، وأما في الآخرة فيجازيهم على الجميع، وفي ذلك إشارة إلى أن مجازاتهم ببعض الذنوب كافية في إهلاكهم وتدميرهم وإذلالهم، وأراد بالبعض ذنب التولى عن حكم الله، وفيه أن لهم ذنوباً جمّة، وأن هذا الذنب عظيم جداً «وإنَّ كثيراً من النَّاسِ لفَاسِقُونَ» يعنى اليهود لأنهم ردُّوا حكم الله تعالى «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ» أي أفحكم الجاهلية يطلب هؤلاء اليهود قال ابن عباس: يعنى بحكم الجاهلية ما كانُوا عليه من الضلال والجور في الأحكام، وتحريفهم أيّاها عما أمر الله. وفي أبى السعود: والمراد بالجاهلية إما الملّة الجاهليّة التي هي متابعة الهوى الموجبة للميل والمداهنة في الأحكام، وقد جرى المفسرون على هذا، وإما أهل الجاهليّة وحكمهم، وهوما كانُوا عليه من المفاضلة بين القتلى من النضير وقريظة. قوله: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً» انكار لأن يكون أحد حكمه أحسن من حكم الله تعالى، أو مساوٍ له؟! روى أن بنى النضير تحاكموا إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام في خصومة كانت بينهم و بين بنى قريظة، وطلب بعضهم من النبي صلى الله عليه وسلم أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل، وجعل دية القُرظي ضعفى دية النضيرى لمكان القوّة والضعف، فقال عليه الصلاة والسلام: القتلى بَوَاء ــ سواء ــ فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بذلك فنزلت الآية. وخلاصة المعنى: توبيخهم والتعجب من حالهم كيف لا وهم أهل كتاب وعلم،

ومع ذلك فهم لا يرضون بحكم الله تعالى العادل، بل يريدون حكم الجاهلية القائم على محض الجهل والمداهنة وصريح الهوى. أي لا أحد أحسن حكماً من حكم الله تعالى «لِقَومٍ يُوقِنُونَ» بدينه و يذعنون لشرعه لأنه حكم جامع بين منتهى العدل والحقّ من الحاكم، والقبول والاذعان من المحكوم لَهُ والمحكوم عليه. فهو جلّ جلاله منزّه عن الهوى أو الميل إلى هذا أو ذاك، فالكل خلقه وملكه وعبيده، ومن أجلّ استتباب الأمن بينهم، وطمأنينة الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وللمحافظة على كرامتهم أنزل حكمه العادل ليشعر كل منهم بالهدوء وراحة الضمير* «أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ» ؟ بلىَ.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ والنَّصارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إنَّ الله لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* فَتَرَى الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخشى أَنْ تُصِيبنَا دَائرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يأتِيَ بالْفَتْح أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فى أَنْفُسِهِمْ نادمينَ» سورة المائدة(الآية: ٥١، ٥٢)

في الواحدي: قال عطاء العوفي: جاء عبادة بن الصامت فقال يا رسول الله: إنَّ لى موالى من اليهود، كثيرٌ عددهم، حاضرٌ نصرهم، وإنّى أبُوءُ إلى الله ورسوله من ولاية اليهود، وآوى إلى الله ورسوله، فقال عبدالله بن أبيّ: إنّى رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية اليهود، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا الحباب، ما تجلب به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت، فهو لك دونه. فقال: قد قبلتُ، فأنزل الله تعالى فيها **«يا أيُّهَا الَّذِينَ آمِنُوا لا تتّخِذُوا الْيَهُودَ والنَّصَارَى أَوْلياءَ»** وقد فصّل الخطيب ما أجلمه الواحدى بقوله: احتلف في سبب نزول هذه الآية* فقال قوم: نزلت في عبادة بن الصامت، وعبدالله بن أبى سلول المنافق، وذلك أنها اختصما، فقال عبادة: إنَّ لى أولياء من اليهود كثير عددهم، شديدة شوكتهم، وإنى أبرأ إلى الله وإلى رسوله من موالاتهم، ولا مولى لى إلاّ الله ورسوله، فقال عبدالله: لكنّى لا أبرأ من ولاية اليهود لأنى أخاف الدوائر ولا بد لى منهُم. فأنزل الله تعالى هذه الآية* وقال السّدى: لمّا كانت وقعة أحد اشتدت

على طائفة من الناس، وتخوّفوا أن توالى عليهم الكفار، فقال رجل من المسلمين: أنا ألحقُ بفلان اليهودى آخذ منه أماناً، إنى أخاف أن تدال علينا اليهود، وقال الآخر: أما أنا فألحق بفلان النصرانى من أهل الشام، وآخذ منه أماناً، فأنزل الله تعالى هذه الآية» وقال عكرمة: نزلت في أبى لبابة بن المنذر بعثه النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى بنى قريظة حين حاصرهم، فاستشاروه في النزول، وقالوا: ماذا يصنع بنا إذا نزلنا؟ فجعل أصبعه على حلقه، يعنى إنه الذبح. أي يقتلكم. فنزلت «**فترى الّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ..**» وفي أبى السعود. قوله: «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا**» خطاب يعمُّ حكمه كافة المؤمنين من المخلصين وغيرهم، وقوله: آمنوا ولو ظاهراً، وإن كان سبب نزولها في غير المخلصين فقط، وهم المنافقين كعبد الله بن أبيّ وأضرابه الذين كانُوا يسارعون في موالاة اليهود ونصارى نجران، وكانُوا يعتذرون إلى المؤمنين بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم ظروف الزمان كما قال تعالى: «**يقُولُونَ نَخْشى أنْ تُصِيبنا دائرةٌ..**» وهكذا بقيّة الأقوال التي في التفاسير. وأولى الأقوال بالصواب كما قال الطبرى: أن يقال إنَّ الله تعالى ذكره. نهى المؤمنين جميعاً أن يتّخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أن من اتّخذَهم نصيراً وحليفاً ووليا من دون الله ورسوله والمؤمنين فإنه منهم في التحزّب على الله ورسوله والمؤمنين. وإن الله ورسولَه والمؤمنين منه بريئان. وقد تكون الآية قد نزلت في شأن عبادة بن الصامت وعبدالله بن أبى سلول وحلفائهما من اليهود، ويجوز أن تكون نزلت في أبى لبابة بسبب فعله في بنى قريظة، ويجوز أن تكون نزلت في شأن الرجلين اللذين ذكر السّدى أنَّ أحدهما همّ باللحاق بيهودى والآخر بنصرانى، ولم يصح بواحد من هذه الأقوال الثلاثة خبر يثبت بمثله حجّة فالصواب أن يحكم لظاهر التنزيل بالعموم» أي قصده يقول: وإن كان حكمها عاماً لجميع المؤمنين إلاَّ أنَّ خصوص السبب الوارد في المنافقين لا يمنع من نهى جميع المؤمنين من موالاة الكافرين. وقوله: «**لاَ تَتّخِذُوا الْيَهُودَ والنّصارَى أوْلِيَاءَ**» أي لا يتخذ أحدٌ منكم أحداً منهم وليّاً تعاهدونه على التناصر من دون المؤمنين رجاء أن يحتاج إلى نصره إذا خُذِل المسلمون وغُلِبُوا على أمرهم، ثم ذكر جل جلاله علّة هذا النهي فقال: «**بَعْضُهُمْ أوْلِيَاءُ بَعْضٍ**» أي إن اليهود بعضهم أنصار بعض، والنصارى بعضهم أنصار بعض، ولم يكن للمؤمنين منهم وليٌّ ولا نصير إذ كان اليهود قد نقضوا ما عقده الرسول معهم من العهد من غير أن يبدأهم بقتال ولا عدوان فصار الجميع

حرباً للرسول ومن معه من المؤمنين. ومن ضرورة موالاة بعضهم لبعض اجتماع الكل على مضارّتكم فكيف يتصوّر بينكم و بينهم موالاة، ولذلك توعّد من يفعل ذلك بقوله «**وَمَنْ يَتَوَلَّـهُمْ مِنكُمْ فإنَّهُ مِنهُمْ**» أي ومن ينصرهم أو يستنصر بهم من دون المؤمنين وهم في الحقيقة أعداء الله ورسوله والمؤمنين فهو لا شكّ منهم، ومن أهل دينهم لأنه لا يوالى أحدٌ أحداً إلاّ وهو عنه راضٍ، فإذا رضي عنه رضي دينه، فصار من أهل ملّته، وهذا على سبيل المبالغة في الزجر، ومن هذا تعلم أنّه إذا وقعت الموالاة والمحالفة والمناصرة بين المختلفين في الدين لمصالح دنيوية لا تدخل في النهى الذي في الآية. كما إذا حالف المسلمون أمّةً غير مسلمة على أمّة مثلها لا تفّاق مصلحة المسلمين مع مصلحتها فليس يكون محظوراً، بل لا بأس به «**إنَّ الله لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْظَّالِمينَ**» بموالاتهم الكفار، وهو تعليل لكون من يواليهم منهم. أي لا يهديهم إلى الايمان بل يخليهم وشأنهم فيقعُونَ في الكفر والضلال، ثم أخبر تعالى أن فريقاً من ضعاف الايمان يفعل ذلك فقال: «**فَتَرَى الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فيهِمْ**» أي فترى المنافقين الذين اعتلّ إيمانُهم ولم يصل إلى درجة الايمان الكامل أو اليقين كعبدالله بن أبيّ وغيره من المنافقين يُسارعُونَ في موالاتهم «**يَقُولُونَ**» للمؤمنين معتذرين عنها «**نخشى أنْ تُصِيبنَا دائرةٌ**» يدور بها الدهر علينا من جدب، أو غلبة الكفار على المؤمنين، ولا يتمّ أمر محمد فلا يميرونا، أي لا يعطون الميرة: بكسر الميم، وهى الطعام. قال تعالى: «**فَعَسَى الله أنْ يأتِىَ بالْفَتْحِ**» بالنصر لنبيّه لإظهار دينه. وفي هذا ردٌّ على أوليك المنافقين، وقطع لِعلَلِهِمْ الباطلة وأطماعهم الفارغة. وتبشير للمؤمنين بالظفر الواقع لا محالة لأن عسى منه تعالى وَعْدٌ محتوم لا يتخلف «**أوْ أمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ**» بهتك ستر المنافقين وافتضاحهم، وقد هتكوا وافتضحوا «**فَيُصْبِحُوا**» أي المنافقون المتعلّلون بما مر «**عَلَى مَا أسَرُّوا فى أنْفُسِهِمْ**» من الشّك وموالاة الكفار «**نادمينَ**» على ما فعلوا من اتخاذ الأولياء من اليهود والنصارى على المؤمنين وتقع الدوائر عليهم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إنمَّا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُه والَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِمُونَ الصَّلاةَ و يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وهُمْ راكِعُونَ* وَمَنْ يتولَّى اللهَ ورسُولَه والَّذِينَ آمَنُوا فإنَّ حِزْبَ اللهِ هُمَ الْغَالِبُونَ» سورة المائدة (الآية: ٥٥، ٥٦)

في الواحدي: قال جابر رضي الله عنه: جاء عبدالله بن سلاّم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله: إنَّ قوماً من بنى قريظة والنضير قد هاجرونا وفارقونا وأقسمُوا ألاَّ يجالسونا، ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل، وشكى ما يلقى من اليهود فنزلت هذه الآية، فقرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: رضينا بالله ورسُولِهِ و بالمؤمنين أولياء* ونحو هذا قال الكلبىّ: وزاد في آخر الآية أنها في علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليه لأنَّه أعطى خاتمه سائلاً وهو راكع في الصلاة* وذكر الأ ول الجلال، وعبارة الخازن: قال ابن عباس: نزلت هذ الآية في عبادة بن الصّامت حين تبرأ من موالاة اليهود، قال: أتولّى الله ورسوله والمؤمنين. يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وذكر قول جابر المتقدّم لكنه قال: رضينا بالله رباً و برسوله نبياً و بالمؤمنين أولياء* وفي رواية ابن عباس عن أبى صالح قال: أقبل عبدالله بن سلاَّم، ومعه نفر من قومه قد آمنُوا، فقالوا يا رسول الله: إنَّ منازلنا بعيدة، وليس لنا مجلس ولا متحدّث، وإن قومنا لما رأوْنا آمنَّا بالله ورسوله، وصدّقناه رفضونا وآلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا ولا يناكحونا، ولا يكلمونا، فشقّ ذلك علينا، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: **«إنّما وليّكُمُ الله ورسُولُهُ والّذِينَ آمنوا»** الآية.ثم إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى المسجد والناس بين قائم وراكع، فنظر سائلاً، فقال: هل أعطاك أحدٌ شيئاً؟ قال: نعم، خاتم من ذهب. قال: من أعطاكه؟ قال: ذلك القائم، وأومأ بيده إلى علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه، فقال: علَى أيِّ حال أعطاك؟ قال: أعطانى وهو راكع، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قرأ **«وَمن يتولّى الله ورسُولَهُ والّذِينَ آمَنُوا فإنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْغَالِبونَ»*** إذاً فنزول الآية كان متعلقاً بسببين كما علمت ولا مانع من ذلك، وعلى القول بأن الآية نزلت في علىّ كرم الله وجهه حين تصدّق بخاتمه وهو راكع فيكون العمل القليل في الصلاة لا يُفسدها. وقد اختلف العلماء في المراد من الركوع في الآية، فنهم من قال: إن المراد به

الخضوع والمعنى أن المؤمنين يصلّون و يزكون، وهم منقادون خاضعون لأ وامره ونواهيه* ومنهم من قال إنَّ المراد منه أن من شأن المؤمنين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وإنما خصّ الركوع بالذكر تشريفاً له* ومنهم من قال: إنَّ الآية نزلت وهم ركوع. ومنهم من قال اعتماداً على ما حكاه السّدى أنها نزلت في شخص واحد معين وهوعلى بن أبي طالب، روى عن عبدالملك بن سليمان قال: سألت أبا جعفر: محمد بن على الباقر رضي الله عنهما عن هذه الآية «إنّما وليكُمُ الله ورسُولُه والّذِينَ آمَنُوا» من هم؟ فقال: المؤمنون، فقلت: إن ناساً يقولون هو عليٌّ. فقال: عليٌّ من الذين آمَنُوا* والقول بالعموم أولى ففى ابن كثير: «إنما وليّكم الله ورسُولُهُ» نزلت في المؤمنين وعلى ابن أبي طالب أوَّلُهُمْ* وقال أسباط عن السّدى: نزلت هذه الآية في جميع المؤمنين، ولكن عليَّ بن أبي طالب مرّ به سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه، وقد تقدّم أن هذه الآيات نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه حين تبرأ من حلف اليهود ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين، ولهذا قال تعالى: «وَمَنْ يتولّى الله ورسُولَه وَالّذِينَ آمَنُوا فإنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْغَالِبُونَ»* فالآية نزلت على وفق ما مر من قصة عبادة بن الصامت* وفي الغرائب: روى عن ابى ذرّ أنه قال: صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً صلاة الظهر، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد، فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللهم أشهد أنى سألت في مسجد الرسول فما أعطانى أحدٌ شيئاً، وعليٌّ كرم الله وجه كان راكعاً، فأومأ إليه بخنصره اليمنى، وكان فيها خاتم، فأقبل السائل حتّى أخذ الخاتم فرآه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: اللهم إن أخى موسى سألك، فقال: «ربِّ اشْرح لى صَدْرِى» إلى قوله: «وأشركْهُ فى أمْرِي» فأنزلت قرآناً ناطقاً «سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيك ونجْعَلْ لكما سُلْطَاناً» اللهمَّ، وأنا محمد نبيّك وصفيك، فاشرح لى صدرى و يسر لى أمرى، واجعل وزيراً من أهلى عليّاً أشدد به أزرى. قال أبوذر: فوالله ما أتمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الكلمة حتى نزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد: اقرأ «إنّما وليكم الله..» الآية.

أمّا التفسير: «إنّما وَليُّكُمُ الله ورسُولُهُ والّذِينَ آمَنُوا» أي لا وليَّ لكم أيُّها المؤمنون، ولا ناصر ينصركم إلا الله ورسوله والمؤمنون الصادقون الذين اتّصفوا بتلك الصفات الآيتة وهي: «الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلاةَ و يُؤْتُونَ الزّكَاةَ وهُمْ راكِعُونَ»

خاشعون، أو يصلُّون صلاة التطوع، وعبارة أبي السعود: وهم راكعون حال فاعل الفعلين، أي يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى* وقيل: هو حال مخصوصة بإيتاء الزكاة والركوع. ركوع الصلاة. والمراد بيان كمال رغبتهم في الإحسان ومسارعتهم إليه. أي إن المؤمنين الذين يقيمون بحقّ الولاية والنصرة لكم هم الذين يقيمون الصلاة و يؤدُونها حقّ الأداء باشتمالها على الآداب الظاهرة والباطنة، و يعطون الزكاة مُستحقيها، وهم خاضعون لأ وامر الله مع طيب نفس وهدوء بال لا خوفاً ولا رياء ولا سمعةً، دون المنافقين الذين يقولون: آمنا بأفواهِهم ولم تؤمن قلوبهم. و يأتون بصورة الصلاة لا بروحها ومعناها المقصود منها، فإذا هم قامُوا إليها قامُوا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلاّ قليلاً. وقوله: «**وَمَنْ يَتَوَلَّى اللهَ ورسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا**» فيعينهم و ينصرهم «**فإنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**» بالحجة والبرهان فإنها مستمرة أبداً لا بالدولة والصولة، وإلا فقد غلب حزب الله غيرمرة حتى في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. الكرخي* وعبارة الخازن: «**وَمَنْ يتولىّ اللهَ ورسُولَهُ والّذِينَ آمَنُوا**» يعني ومن يتولى القيام بطاعة الله ونصر رسوله والمؤمنين. قال ابن عباس: يريد المهاجرين والأنصار ومن يأتي بعدهم. «**فإنَّ حِزْبَ اللهِ**» يعني أنصار دين الله «**هُمُ الْغَالِبُونَ**» لأنَّ الله ناصرهم على عدوّهم* أي في أغلب الأحوال إذا أخلصوا نصرتهم لدين الله قال تعالى: «**إن تنصُرُوا اللهَ ينصرُكم ويُثَبِّتْ أقْدامَكُمْ**»* وقال: «**كَتَبَ اللهُ لأغْلِبَنَّ أنا ورُسُلي إنَّ اللهَ قويٌّ عَزيزٌ**» «**لا تجدُ قَوْماً يُؤمِنُونَ باللهِ والْيَومِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ ورسُولَه..**» إلى قوله: «**ألاَ إنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحُونَ**» فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين، فهو من جند الله وحزبه، وهم المفلحون في الدنيا والآخرة، ومنصورون في الدنيا والآخرة، ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على عدوّهم، وفي رواية قائمة على الحقّ حتى يأتي أمر الله، أي نصرهُ. «**ألاَ إنَّ نَصْرَ اللهِ قَريب**» بلى.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً من الَّذِينَ أوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ والكُفَّارَ أوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إنْ كُنْتُم مؤمنينَ» سورة المائدة (الآية: ٥٧)

في الواحدى والخازن والنسفي والغرائب وغيرها قال ابن عباس: كان رفاعة بن زيد، وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام، ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادُّونهما، فأنزل الله تعالى هذه الآية* ومعنى اتّخذوا دينكم هزواً ولعباً هو إظهارهم الإسلام بألسنتهم قولاً، وهم مع ذلك يبطنون الكفر و يسرونه وقوله: «**مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الكِتَابَ من قبلِكُمْ**» أي اليهود «**والكُفّارَ**» أي عبدة الأصنام* قال الخازن: وإنما فصل بين أهل الكتاب والكفار، وإن كان أهل الكتاب من الكفار لأن كفر المشركين من عبدة الأصنام أغلظ وأفحش من كفر أهل الكتاب «**أوْلياء**» أي لا تتخذوا أهل الكتاب والكفار الذين يسخرون من دينكم أولياء وأنصاراً «**واتّقُوا الله**» بترك موالاتهم «**إنَّ كُنْتُمْ مُؤمنينَ**» صادقين في إيمانكم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وإذَا نَادَيْتُمْ إلى الصَّلاةِ اتّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بأنّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ» سورة المائدة (الآية: ٥٨)

في الواحدي: قال الكلبي: كان منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نادى إلى الصلاة فقام المسلمون عليها، قالت اليهود: قومُوا صلُّوا اركعوا على طريق الاستهزاء، والضحك فأنزل الله تعالى هذه الآية* قال السّدى: نزلت في رجل من نصارى المدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهدُ أنَّ محمداً رسول الله، قال: حُرّق الكاذب. فدخل خادمه بنار ذات ليلة، وهو نائم وأهله نيام، فطارت منها شرارة في البيت فاحترق هو وأهلُه* وقال آخرون: إنَّ الكفار لما سمعُوا الأذان حضروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون على ذلك، وقالوا يا محمد: لقد أبدعت شيئاً لم نسمع به فيا مضى من الأمم، فإن كنت تدّعى النبوّة، فقد خالفت فيا أحدثت من هذا الأذان الأنبياء من

قبلك، ولو كان في هذا خير كان أولى الناس به الأنبياء والرسل من قبلك. من أين لك صياح كصياح البعير، فما أقبح من صوت، ولا أسمج من كفر، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وأنزل «وَمَنْ أحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إلى الله وَعَمِلَ صالحاً» كذا في الغرائب والخازن والطبرى. قوله تعالى: «وإذَا ناديتُمْ إلى الصَّلاةِ اتَّخذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً» أي ومن شدّة عداوتهم لدينكم أن إذا أذّن مؤذنكم داعياً إلى الصلاة سخروا من دعوتكم إليها واستهزؤا بكم واعتبروا صلاتكم لعباً «ذلِكَ بأنَّهُمْ قَوْمٌ لا يعْقِلُونَ» أنَّ هزوهم ولعبهم من أفعال السفهاء والجهال الذين لا عقل لهم. أو ذلك الاتخاذ بأنهم قوم لا يعقلون ما في الصلاة من المنافع لأنها التوجّه إلى الخالق والاشتغال بخدمة المعبود، أو لا يعلمون ما في اللعب والهزء من السفه والجهل. قال بعض الحكماء: أشرف الحركات الصلاة وأنفع السّكتات الصيام.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ والْخَنَازِيرَ وعَبَدَ الطَّاغوتَ أولئك شَرٌّ مَكاناً وأضَلُّ عن سَواءِ السَّبِيلِ» سورة المائدة (الآية: ٦٠)

في الواحدي: قال ابن عباس: أتى نفرٌ من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عمَّن يؤمن به من الرسل، فقال: أومن بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله ونحن له مسلمون. فلمَّا ذكر عيسى جحَدوا نبوّتَه، وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقلّ حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم. فأنزل الله تعالى «قُلْ هَلْ أنبئكُمْ بشرٍّ مِنْ ذلكَ مثوبةً عند الله..» الآية. وكذا في الغرائب والكشاف. قوله «قُلْ هَلْ أنبِّئكُمْ» أخبركم «بشرٍّ مِنْ» أهل «ذَلِكَ» الذي تنقمونه وهو ديننا «مَثُوبَةً» ثواباً بمعنى عقوبةً، واستعملت المثوبة هنا التي هي بمعنى الإحسان بمعنى العقوبة تهكّماً مثل. فبشرْهم بعذاب أليم. «عِنْدَ الله» هو «مَنْ لَعَنَهُ الله» أبعده عن رحمته «وَغَضِبَ عَلَيْهِ» أي وانتقم منه لأن الغضب إرادة الانتقام من العصاة «وجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ والْخَنازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ» الشيطان. وفي هذا انتقال بهم من تبكيت لهم بإقامة الحجة على هزئهم ولعبهم بما ذكر (إلى ما هو أشدُّ منه تبكيتاً وتشنيعاً عليهم،

ذلك هو التذكير بسوء حال آبائهم مع أنبيائهم، وما كان من جزاء الله لهم على فسقهم وتمرّدهم بأشدّ ما جازى به الفاسقين الذين ظلموا أنفسهم) من اللّعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت **«أولئك»** يعنى الملعونين والمغضوب عليهم والممسوخين **«شرٌّ مكاناً»** يعنى من غيرهم، ونسب الشرّ إلى المكان والمراد به أهله، فهو من باب الكناية. وقيل: أراد مكانهم سقر في جهنّم ولا مكان أشدّ شراً منه **«وأضلّ عن سَواءِ السَّبيل»** أي وأخطأ عن قصد طريق الحقّ ووسطه الذي لا إفراط فيه ولا تفريط. ومثل هؤلاء يحملهم على الاستهزاء بدين المسلمين و بصلاتهم وأذانهم إلاّ الجهل وعمى البصيرة.

((أقوال العلماء في ماهية المسخ وسببه))

قال ابن جرير الطبرى: حدّثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة بن الفضل، عن ابن اسحاق عن عمرو بن كثير بن أفلح مولى أبي أيوب الأنصارى قال: حدّثت أن المسخ في بنى إسرائيل من الخنازير كان أنّ امرأة من بنى اسرائيل كانت في قرية من قرى بنى اسرائيل، وكان فيها ملك بنى اسرائيل، وكانوا قد استجمعُوا على الهلكة إلاّ أن تلك المرأة كانت على بقيّة من الإسلام، متمسّكة به فجعلت تدعو إلى الله حتى إذا اجتمع إليها ناسٌ، فتابعوها على أمرها. قالت لهم: إنه لا بد لكم من أن تجاهدوا عن دين الله. وأن تُنادُوا قومكم بذلك، فاخرجوا إنّي خارجة، فخرجت، وخرج إليها ذلك الْمَلِكُ في الناس، فقتل أصحابها جميعاً. وانفلتت من بينهم، قال: ودعت إلى الله حتى تجمّع الناس إليها حتى إذا رضيت منهم، أمرتهم بالخروج فخرجوا وخرجت معهم، وأصيبُوا جميعاً، وانفلتت من بينهم، ثم دعت إلى الله حتى إذا اجتمع إليها رجال واستجابُوا لها أمرتهم بالخروج فخرجُوا وخرجت معهم فأصيبُوا جميعاً، وانفلتت من بينهم فرجعت وقد أيست، وهي تقول سبحان الله!! لو كان لهذا الدين وليٌّ وناصر لقد أظهره بعد. قال: فباتت محزونة، وأصبح أهل القرية يسعون في نواحيها خنازير قد مسخهم الله في ليلتهم تلك. فقالت حين أصبحت ورأت ما رأت اليوم: أعلم أنّ الله قد أعزّ دينه. وأمر دينه، قال: فما كان مسخ الخنازير في بنى اسرائيل إلاّ على يد تلك المرأة* وفي الخازن: قال ابن عباس: إن الممسوخين كلاهما أصحاب السبت، فشبّانهم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير* وقيل: إنّ مسخ القردة كان في أصحاب السبت من اليهود، ومسخ الخنازير كان في الذين

كفروا بعد نزول المائدة في زمن عيسى عليه السلام. ولمّا نزلت هذه الآية عيّر المسلمون اليهود. وقالوا لهم: يا إخوان القردة والخنازير، وافتضحُوا بذلك* وفي ابن كثير: في تفسير قوله تعالى «**كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**» البقرة. قال ابن عباس: إنَّ الله إنما افترض على بني اسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم (يوم الجمعة) فخالفوا إلى السبت فعظمُوهُ، وتركُوا ما أمروا به، فلمّا أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه فحرّم عليهم ما أحل لهم في غيره، وكانوا في قرية بين أيلة والطور يقال لها مَدْيَنُ، فحرّم الله عليهم في السّبت الحيتان: صيدها وأكلها، وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شرعاً إلى ساحل بحرهم حتّى إذا ذهب السبت ذهبْن، فلم يروْا حوتاً صغيراً ولا كبيراً حتّى إذا كان يوم السبت أتين شرعاً حتى إذا ذهب السبت ذهبْن، فكانوا كذلك حتى طال عليهم الأمد. وقرموا إلى الحيتان. عمد رجل منهم فأخذ حوتاً سراً يوم السبت، فحزمه بخيط ثم أرسله في الماء وأوْتَدَ له وتداً في الساحل، فأوثقه ثم تركه، حتى إذا كان الغد جاء فأخذه وقال: إني لم آخذه في يوم السبت (فانطلق به فأكله حتّى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك، ووجد الناس ريح الحيتان، فقال أهل القرية: والله لقد وجدنا ريح الحيتان، ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل، قال: ففعَلُوا كما فعل، وصنعُوا سراً زماناً طويلاً لم يعجل الله عليهم العقوبة حتى صادوها علانية وباعوها في الأسواق. فقالت طائفة منهم من أهل البقيّة: ويحكم اتقّوا الله، ونهوهم عمّا كانُوا يصنعون. فقالت طائفة أخرى: لم تأكل الحيتان ولم تنه القوم عمّا صنعُوا: لِمَ يَعِظونَ قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً؟ قالوا معذرة إلى ربكم. بسخطنا أعمالهم ولعلهم يتقون. قال ابن عباس: فبينا هم على ذلك أصبحت تلك البقيّة في أنديتهم ومساجدهم. ففقدوا الناس فلم يروهم. قال: فقال بعضهم لبعض: إنَّ للناس شأناً فانظروا ما هو؟ فذهبُوا ينظرون في دورهم فوجودوها مغلقة عليهم قد دخلوها ليلاً فغلقوها على أنفسهم كما يغلق الناس على أنفسهم. فأصبحوا فيها قردة، وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد. والمرأة بعينها وإنها لقردة. والصبيُّ بعينه وإنه لقرد. قال: قال ابن عباس: فلولا ما ذكر الله أنّه نجى الذين نهوا عن السوء لقد أهلك الله الجميع منهم. قال: وهي القرية التي قال جل ثناؤه لمحمد صلى الله عليه وسلم: «**واسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةَ التي كانت حاضرة البَحْر**» الآية* وقال السّدى في قوله تعالى «**وَلَقَدْ عَلِمْتُمَ الَّذِينَ اعْتَدَوا مِنكُمْ في السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسئينَ**»

قال: هم أهل أيلة. وهي القرية التي كانت حاضرة البحر، فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت (وقد حرّم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئاً) لم يبق في البحر حوت إلاّ خرج حتى يخرجن خراطيمهنَّ من الماء. و يوم الأحد لزمن سفل البحر فلم يُر منهنَّ شيء حتى يكون يوم السبت فذلك قوله تعالى «**واسْألْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ التي كانت حَاضِرَة البحر إذْ يَعْدُون في السَّبْتِ إذ تأتيهم حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً و يومَ لا يَسْبِتُونَ لاَ تأتيهِمْ**» فاشتهى بعضهم السمك، فجعل الرجل يحفر الحفرة ويجعل لها نهراً إلى البحر. فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفرة، فيرد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر، فيمكث فيها، فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه، فجعل الرجل يشوى السمك فيجد جاره روائحه فيسأله فيخبره فيصنع مثل ما صنع جاره حتى فشا فيهم أكل السمك، فقال لهم علماؤهم: ويحكم إنما تصطادون يوم السبت وهو لا يحل لكم. فقالوا: إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه فقال الفقهاء: لا ولكنكم صدتموه يوم فتحتُم له الماء فدخل، قال: وغلبُوا أن ينتهُوا. فقال بعض الذين نهوهم لبعض «**لِمَ تَعِظُونَ قوْماً الله مُهْلِكُهُمْ أو مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شديداً**» يقول: لم تعظوهم وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم. فقال بعضهم «**مَعْذِرَةً إلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يتّقُون**» فلمّا أبوْا قال المسلمون: والله لا نساكنكم في قرية واحدة، فقسموا القرية بجدار ففتح المسلمون باباً، والمعتدون في السبت باباً، ولعنهم داود عليه السلام. فجعل المسلمون يخرجون من بابهم، والكفار من بابهم، فخرج المسلمون ذات يوم ولم يفتح الكفار بابهم، فلمّا أبطئوا عليهم تسوّر المسلمون عليهم الحائط فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض، ففتحوا عنهم فذهبوا في الأرض. فذلك قول الله تعالى: «**فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**» وذلك حين يقول: «**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا من بنى اسرائيل على لِسَانِ داودَ وعيسى ابن مريمَ**» الآية. فهم القردة» (قلت): والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً. بل الصحيح أنّه معنوى صوريٌّ. قاله ابن كثير: وهو الحق. فلفظ «**مَثُوبَةً**» في آية المائدة. عقوبة يدل عليه وأن المسلمين يعيرونهم بعد نزول الآية باخوان القردة والخنازير فينكسون رؤسَهُمْ. ولعن داود من أحد الأسباب الموجبة لمسخهم، ولعله كان قد طلب ذلك من الله تعالى فاستجاب الله دعاءه. وعن ابن مسعود قال: سئل

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير: أهي ممّا مسخ الله؟ فقال: إنَّ الله لم يَـهْلِكَ قوْماً، أو قال: لم يمسخ قوماً فيجعل لهم نسلاً ولا عقباً. وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك* وقد رواه مسلم من حديث سفيان الثورى ومسعر كلاهما عن مغيرة بن عبدالله اليشكرى به* وعن ابن مسعود أيضاً قال: سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير: أهي من نسل اليهود؟ فقال: [لا، إنَّ الله لم يلعن قوماً قط فيمسخهم فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان، فلمّا غضب الله على اليهود فسخهم جعلهم مثلهم] رواه أحمد من حديث داود بن أبي الفرات به. ولم يقل صلى الله عليه وسلم: أنه مسخ معنوى لأنه لو وقع كذلك لكان الجواب إيضاحاً له. وهذه كلها دلائل وقرائن تثبت صحة مسخهم معنوياً وصورياً. وممّا يدل عليه قوله تعالى: «**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِى السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**» وقوله «**فلمَّا عَتَوْا عمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**» وجمهرة العلماء على أنهم مسخوا قردة وخنازير على الحقيقة الصوريّة وانقرضوا لأنَّ الممسوخ لا يكون له نسلٌ كما علمت. وما نقله ابن جرير عن مجاهد أنه قال: مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردةً لا دليل له لا من كتاب ولا سنّة، وهو معارض بما ذكرناه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إنَّ اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»

سورةالمائدة (الآية: ٦٧)

في الواحدى: قال الحسن: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما بعثنى الله تعالى برسالاتى ضقتُ بها ذرْعاً، وعرفت أنَّ من النّاس من يكذبنى. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يهيب قريشاً واليهود والنصّارى. فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي الطبرى: عن محمد بن كعب القرظى وغيره قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل منزلاً اختار له أصحابه شجرة ظليلة فيقيل تحتها، فأتاه أعرابيٌّ فاخترط سيفه ثم قال: من يمنعك منى؟ قال: الله، فرعدت يد الأعرابى وسقط السيف منه، قال: وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، فأنزل الله «**والله يعصمك من الناس**»* وعن ابن جريج قال: كان

النبي صلى الله عليه وسلم يهاب قريشاً فلما، نزلت هذه الآية: **«والله يعصمك من الناس»** استلقى. ثم قال من شاء فليخذلنى مرتين أو ثلاثاً* وفي الغرائب: **«يا أيُّها الرسولُ بلّغ»** عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن هذه الآية نزلت في فضل عليّ بن أبى طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه يوم غدير خم، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، وقال: من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه: اللهمّ وال من والاهُ، وعادِ مَن عاداه، فلقيه عمر، وقال: هنيئاً لك يا ابن أبى طالب، أصبحت مولاىَ ومولى كل مؤمن ومؤمنة، وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن عليّ* وقيل: لمّا نزلت آية التخيير: **«يا أيُّها النبي قُل لأ زواجك»** فلم يعرضها عليهنَّ خوفاً من اختيارهم الدنيا. نزلت: **«يا أيُّها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك»** وقيل: نزلت في أمر زيد وزينبَ بنت جحش* وقيل: لمّا نزل: **«ولا تسبُّوا الذينَ يدعونَ من دون الله»** سكت النبي صلى الله عليه وسلم عن عيب آلهتهم، فنزلت. أي بلغ معايب آلهتهم ولا تخفها* وقيل: إنه صلى الله عليه وسلم لمّا بيَّن الشرائع والمناسك في حجة الوداع. قال: هل بلغت؟ قالوا: نعم. فقال صلى الله عليه وسلم: اللهم اشهد فنزلت* وعبارة القرطبي قالت عائشة: سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فقلت يا رسول الله: ما شأنك؟ قال: ألا رجل صالح يحرسنى الليلة، قالت: فبينا نحن فى ذلك سمعت صوت السلاح، فقال: من هذا؟ قال: سعد وحذيفة جئنا لنحرسك. فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعت غطيطه فنزلت هذه الآية. فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من قُبة أدم. فقال: انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله، وفي رواية ابن عباس: قد عصمنى من الجن والإنس* وفي الخازن وقيل: نزلت في اليهود، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى الإسلام، فقالوا: أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزؤون، و يقولون: تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى حناناً، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك منهم سكت، فأنزل الله هذه الآية، وأمره أن يقول لهم: **«يا أهل الكتاب لستُمْ على شيء»*** وقيل: نزلت هذه الآية في أمر الجهاد لمّا علم من كراهية بعضهم له، فأنزل الله هذه الآية* وقيل: نزلت في قصّة الرجم والقصاص وما سأل عنه اليهود* وأصح الأقوال (والله أعلم): ما ذكر من أنها نزلت في أمر زينب بنت جحش. أي بلغ ما أنزل إليك في أمر زينب بنت جحش، وهومذكور في البخارى. وقريب من الصّحة أيضاً: بلغ ما أنزل

إليـك في أمر نـسائك، أو من حقوق المسلمين في حجة الوداع. وعند الجوزى بلغ ما أنزل الله إليـك من الرجـم والقـصـاص. وفي البخارى عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدّثك أنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً مما أنزل عليه فقد كذب، والله يقول: «**يا أيُّها الرسولُ بلغ ما أنزل إليك من ربّك**» الآية. أي يا أيها الرسول بلّغ إلى الخلق جميع ما أنزل إليـك من ربـك مالك أمرك، ولا تخشى في ذلك أحداً، ولا تخف أن ينالك من الناس مكروه، «**وإنْ لَمْ تَفْعَلْ**» أي لم تبلغ جميع ما أنزل إليك، «**فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**» بـالافـراد والجـمـع ــ رسـالا ته ــ لأن كتمان بعضها ككتمان كلها، وظاهر التركيب: وإن لم تـفـعـل فـما بـلغت رسالته، اتحاد الشرط والجزاء لأنه يؤل ظاهراً إلى وإن لم تفعل فما فعلت مع أنـه لابـد أن يكون الجواب مغايراً للشرط لتحصيل الفائدة ومتى اتّحدا اختل الـكـلام. وأجـاب عن ذلك ابن عطيّة بقوله: وإن تركت شيئاً فقد تركت الكل وصار ما بـلغته غير معتد به، فصار المعنى وإن لم تستوف ما أمرت بتبليغه فحكمك في العصيان وعدم الامتثال حكم من لم يبلغ شيئاً أصلاً، وقد أشار الجلال إلى هذا بقوله: أي لم تبلّغ جميع ما أنزل إليك لأن كتمان بعضها ككتمان كلها. السمين، أي أن التركيب جار على طريق التهديـد، والمـراد إن لم تبلّغ منها أدنى شيء فأنت كمن لم يبلغ شيئاً لأن أداء بعضها ليس أولى مـن أداء الـبـعـض الآخر. كما أنَّ من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها. أو المـراد إن لم تـفـعـل فـلـك مـا يـوجـبـه كتمان الوحى كله، فوضع السبب موضع المسبب، و يـعـضـده مـا روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: [بعثنى الله برسالا ته وضقتُ بها ذرعاً، فـأوحـى الله إلـيّ إن لم تـبـلّـغ رسـالاتى عـذبـتـك، وضمن لى العصمة، فقو يت] كذا في الـغـرائـب، وقـولـه: «**والله يَعْـصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**» المراد بالعصمة هنا القتل. أي والله يـعـصـمـك مـن الـنـاس أن يقتلوك. وقد علمت أنه صلى الله عليه وسلم كان يُحرس حتى نـزلت فقال: انصرفوا فقد عصمنى الله. رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح الاسناد ولم يخرجـاه. وروى الـتـرمذي وأبو الشيخ والحاكم وأبونعيم والبيهقي عن بضعة رجال من الـصـحـابة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُحرس في مكة قبل نزول هذه الآية، وكان الـعـبـاس ممَّن يحرسه، فلما نزلت ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرس، وروى: أن أبـا طـالـب كـان يـبـعـث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من يحرسه إذا خرج حتى نزل «**والله يـعـصمك من الناس**» فذهب ليبعث معه، فقال ياعم: إنَّ الله حفظنى لا حاجة

لى إلى من تبعث. وهذه دلائل وقرائن تفيد أن الآية مكيّة، ولا صحة لقول من قال إنها مدنيّة بعد أحد. نعم، ادرجت الآية في سياق تبليغ أهل الكتاب وهو مدنّي لتدلّ على أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان عُرضةً لإيذاء أهل الكتاب ورصدهم له أكثر من غيرهم، ولذا فقد حاولوا اغتياله أكثر من مرة فعصمه الله منهم. ثم ذكر ما هو كالسبب في العصمة فقال: «**إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**» أي إنه تعالى يصرف وجوه أولئك الكافرين الذين هم بصدد قتلك وإيذائك إلى أن يكونوا دائماً خائبين لتبلّغ رسالات ربك التي يتمّ بها إكمال الدين، وقد فعل الله ما أراد، وهدى به من شاء من العباد.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ والَّذِينَ أَشْرَكُوا ولَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ* وإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ ربَّنَا آمَنَّا فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» سورةالمائدة (الآية: ٨٢، ٨٣)

قال الواحدى: نزلت في النجاشي وأصحابه. قال ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة يخاف على أصحابه من المشركين، فبعث جعفر بن أبي طالب، وابن مسعود في رهط من أصحابه إلى النجاشي، وقال: إنّه مَلِك صالح لا يظلم ولا يُظلمُ عنده أحد، فاخرجُوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجاً. فلما وردوا عليه أكرمهم. وقال لهم: تعرفون شيئاً ممّا أنزل عليكم؟ قالوا: نعم، قال: اقرؤا فقرؤا وحوله القسّيسُونَ والرهبان. فلمّا قرأ آية انحدرت دموعهم ممّا عرفُوا من الحقّ. قال الله تعالى: «**ذلك بأنّ منهم قسّيسينَ ورهباناً وأنهم لا يستكبرون* وإذا سمعُوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع**» الآية* وفي رواية عروة والزبير وغيرهما فقرأ سورة مريم عليها السلام، فآمنوا بالقرآن، وأفاضت أعينهم من الدمع. وهم الذين أنزل فيهم «**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نصارَى**» إلى قوله «**واكتبنا مع الشاهدين**» قال السيوطى في لبابه. أخرج هذا ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيّب وأبى بكر عن عبد البر، وعروة بن الزبير* وقال الجلال: إنها نزلت في وفد النجاشي القادمين

عليهم من الحبشة قرأ صلى الله عليه وسلم عليهم سورة يٰس فبكوا وأسلموا، وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى* وعبارة الخازن قال ابن عباس وغيره من المفسّرين في قوله تعالى «**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نصارى**» قالُوا: إن قريشاً ائتمرت أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثب كل قبيلة على من آمن منهم، فآذوهم وعذبُوهم، فافتُتن من افتتن منهم، وعصم الله من شاء منهم، ومنع الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعمه أبي طالب، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نزل بأصحابه ولم يقدر أن يمنعهم من المشركين، ولم يكن قد أمر بالجها. أمر أصحابه بالخروج إلى أرض الحبشة. وساق الهجرة الحبشيّة بكاملها، وهي مطولة جداً* وقيل: نزلت في ثمانين رجلاً: أربعين من نصارى نجران من بنى الحرث بن كعب، واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم* وقال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب كانُوا على شريعة من الحقّ ممّا جاء بها عيسى عليه السلام* فلمّا بعث صلى الله عليه وسلم آمَنُوا به وصدّقُوه، فأثنى الله عليهم بقوله «**ولَتَجِدَنَّ أقربَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نصَارَى ذلك بأنَّ منهم قسِّيسينَ وَرُهْبَاناً وأَنَّهُمْ لا يسْتَكبِرُونَ**» يعنى لا يتعاظمون عن الإيمان والإذعان للحق. كذا مجمل ما في الخازن والقرطبي وجميع الأقوال في بقيةالتفاسير تدور في فلك الذي ذكرناه.

أما التفسير: قوله تعالى: «**لَتَجِدَنَّ**» يا محَمَّدُ. اللام للقسم. وهذا كلام مستأنف لتقرير ما قبله من قبائح اليهود. «**أَشَدَّ النَّاس عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا**» المسلمين «**اليهُودَ والَّذِينَ أشركوا**» من أهل مكة عباد الأوثان الذين اتّخذوها آلهة يعبدُونها لتقربهم إلى الله، وقد ذكر أصحاب التواريخ والسير أن أشدّ ما لاقى المصطفى صلى الله عليه وسلم من العداوة والإيذاء كان من يهود الحجاز في المدينة وما حولها، ومن مشركى العرب ولا سيّما بمكة وما قرب منها، وقد كان يجمع بين اليهود والمشركين الكثير من قبيح الصفات التي جعلتهم مقترنين بعضهم ببعض كالكبر والعتوّ والبغى والمكر والكذب والاستهزاء والسخرية، وغلبة الحياة المادّية المترفة، والأثرة، وحبّ الذات، والقسوة على الضعفاء، والعصبة الجنسية والحميّة القوميّة، وإن كان مشركوا العرب أرق من اليهود قلوباً وأعظم سخاءً وإيثاراً ونجدة، وأكثر استقلالاً في الرأي وحريّة الفكر، و يدل على هذا تقديم ذكر اليهود على المشركين إيذاناً بتفوقهم على مشركى العرب بالصفات الذميمة فضلاً عمّا

امتازوا به من مخالفة الله وقتل الأنبياء، واستحلال أكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك من الجرائم الجمّة، وكذلك فعل تعالى في تقديمهم في قوله: «**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا**» في الكشاف عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [ما خلا يهوديان بمسلم إلاّ همّا بقتله] وذلك لبيان عتوّ بنى إسرائيل وشدّة عداوتهم وتمردهم، وقد علل سبحانه وتعالى سهولة مأخذ النصارى وقرب مودّتهم للمؤمنين فقال: «**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ**» أي أنصار دين الله. وموادُّون لأهل الحقّ، وقد صدق من قال: مذهب اليهود يوجب عليهم إيصال الشرّ والأذى إلى من خالفهم في الدين. ومذهب النصارى تحريم الأذى مطلقاً. وكذا يقال: إن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا وطلب الملك والرياسة والعلوّ ومن كان كذلك كان شديد العداوة لغيره. أما النّصارى فإن فيهم من هو معرض عن الدنيا ولذاتها، وترك طلب الملك والرياسة والعلوّ على الخلق، ومن كان كذلك فإنه لا يحسد أحداً ولا يعاديه بل يكون ألْين عريكة في طلب الحق والمودة لأهله فلذا قال جلّ جلاله: «**ذَٰلِكَ**» أي قرب مودتهم للمؤمنين «**بِأَنَّ**» بسبب أنَّ «**مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ**» علماء «**وَرُهْبَاناً**» عُبَّاداً «**وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**» عن اتباع الحق كما يستكبر اليهود وأهل مكة. وقسّيسِينَ جمع قسّيس على فعيل، وهو مثال مبالغة كصديق، وهو هنا رئيس النّصارى وعالمهم، وأصله من تقسّس الشيء إذا اتبعه وتطلبّه بالليل، يقال: تقسّسْتُ أصواتهم، أي تتبعتها بالليل. قال الراغب: وقال غيره: القَسُّ بفتح القاف: تتبع الشيء، ومنه سمي عالم النّصارى قسّيساً لتتبعه العلم. وزعم ابن عطية أنه أعجميّ معرّب. وقال عروة بن الزبير: ضيّعت النصارى الإنجيل وما فيه، و بقى منهم رجل يقال له قسّيس* يعنى بقى على دينه لم يبدله، فمن بقى على هديه ودينه يقال له قسّيس. وقسّ بن ساعدة كان أعلم أهل زمانه، وهو الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام: [يبعث أمّةً وحده] وقوله: «**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ**» الضمير في سمعوا يعود على النصارى المتقدّمين بعمومهم. وقيل: إنما يعود لبعضهم، وهو من جاء من الحبشة إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عطية: لأن كل النصارى ليسُوا كذلك* وفي الخازن: قال ابن عباس: يريد النجاشي وأصحابه لمّا قرأ عليهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم، قال: فما زالُوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة. وهذا معنى قوله «**تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**» أي كان فيض

الدمع من أجل سماع الحق و بسببه هذا على القول بأن من الأولى لابتداء الغاية أي أن الدمع ابتدىء ونشأ من معرفة الحق، والثانية لبيان الموصول الذي هو ما عرفوا، ويجوز أن تكون للتبعيض أي عرفوا بعض الحقّ ففاضت أعينهم، وهو أنَّ عيسى عبدالله ورسوله* «يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا» صدقنا بنبيك وكتابه. وهذه الجملة استئنافية لأنها مبنيّة على سؤال كأنه قيل فماذا يقولون بعد أن عرفوا الحق قال: يقولون ربّنا.. «فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» المقربين بتصديقها. أي أمّة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يشهدون على الناس يوم القيامة بالحق كما في قوله تعالى: «لتكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النّاسِ» قالوا ذلك: لأنهم وجدُوا ذكرهم في الإنجيل كذلك.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحرِّمُوا طَيِّبَاتِ ما أحَلَّ اللهُ لَكُمْ ولاَ تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ* وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً واتّقُوا اللهَ الَّذِى أنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ» سورةالمائدة (الآية: ٨٧، ٨٨)

في الواحدى: قال المفسرون: جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فذَكر الناس، ووصف القيامة، ولم يزدْهم على التخويف، فرّق الناس و بكوا، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحى، وهم أبوبكر الصديق وعلى بن أبى طالب، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عمرو وأبوذر الغفارى، وسالم مولى أبى حذيفة، والمقداد بن الأسود، وسلمان الفارسى ومعقل بن مضر. واتفقوا على أن يصومُوا النهار، و يقوموا الليل، ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحوم ولا الْوَدَكَ (دسم اللحم والشحم) و يترهبُوا، ويجبُّوا المذاكير. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجمعهم فقال: ألم أنبأ بأنكم اتّفقتُم على كذا وكذا، فقالوا: بلى يا رسول الله، وما أردنا إلا الخير، فقال: إنى لم أومر بذلك، إنَّ لأنفسكم عليكم حقاً، فَصُومُوا وأفطروا وقوموا وناموا، فإنى أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وآكل اللحم والدسم، ومن رغب عن سنتى فليس منّى، ثم خرج إلى النّاس ، وخطبهم فقال: ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والطيب والنوم، وشهوات الدنيا، أما إنى لست آمركم أن تكونُوا قسّيسِين ولا رهباناً، فإنه ليس في دينى ترك اللحم والنساء ولا اتّخاذ الصوامع، وإن سياحة أمتى الصوم ورهبانيتها الجهاد، واعبدوا الله ولا

تشركوا به شيئاً، وحجُّوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتُوا الزكاة، وصوموا رمضان فإنما هلك من قبلكم بالتشديد، شدَّدُوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم. فأولئك بقايا في الدّيارات والصوامع، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقالوا يا رسول الله: كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها؟ وكانوا حَلَفُوا على ما عليه اتفقُوا، فأنزل الله تعالى **«لاَ يؤاخِذُكُمُ الله باللّغْوِ في أيْمَانِكُمْ..»** الآية وكذا في الغرائب. زاد السيوطى في لبابه: وروى بن أبى حاتم عن زيد بن أسلم أنَّ عبدالله بن رواحة أضافه ضيف من أهله. وهوعند النبي صلى الله عليه وسلم ثم رجع إلى أهله فوجدهم لم يطعموا ضيفه انتظاراً له، فقال لامرأته: حبست ضيفى من أجل هوحرام علىّ، فقالت امرأته: هوعلىّ حرام. فقال الضيف: هوعلىّ حرام، فلمّا رأى ذلك، وضع يده وقال: كلوا بسم الله، ثم ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر الذى كان منهم، ثم أنزل الله **«يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تُحرّمُوا طيباتِ ما أحلّ الله لكم..»*** وروى بن جرير وابن أبى حاتم وابن مردو يه عن عباس في قوله: **«يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرّمُوا طيباتِ ما أحَلَّ الله لكم..»** الآية قال: نزلت هذه الآية في رهط من الصحابة. قالوا: نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأ رض كما تفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [لَكنّى أصوم وأفطر، أصلى وأنام وأنكح النساء فمن أخذ بسنتى فهو منى ومن لم يأخذ بسنّتى فليس منى» وهكذا بقيّة الأقوال في التفاسير. قوله: **«يا أيُّهاالّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرّمُوا طَيّبَاتِ مَا أحَلَّ الله لكُمْ»** أي ما طاب ولذّمنه، مثل قوله: **«فانكِحُوا مَا طَابَ لكُمْ مِنْ النّساءِ»** أي ما تستطيبه نفوسكم من المطاعم والمشراب والمناكح. وكأنه تعالى لمّا تضمّن ما سلف ذكره من مدح النصارى على الترهيب، وترغيب المؤمنين في كسر النفس، ورفض الشهوات عقّب ذلك النهي عَن الافراط في الباب. أي لا تمنعُوها أنفسكم كمنع التحريم، أو لا تقولوا حرّمنا على أنفسنا مبالغة منكم في العزم على تركها تزهداً منكم وتقشفاً ومن اعتقد تحريم شيء أحلّه الله للمؤمنين من الطيبات فقد كفر، أمّا ترك لذات الدنيا وشهواتها والانقطاع إلى الله والتفرغ لعبادته من غير حرمان النفس حقها فهذا لا شيء فيه لقوله تعالى: **«ولاَ تَعْتَدُوا»** أي بالاسراف في الطيبات **«إنَّ الله لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ»** المتجاوزين الحلال إلى الحرام **«وَكُلُوا مِمّا رَزَقَكُمُ الله»** أي تمتّعوا بأنواع الرزق، وخصّ الأكل لأنه أغلب

الانتفاع بالرزق «حَلالاً طَيّباً» مفعول. أي كلوا شيئاً حلالاً مما رزقكم الله إياه «واتّقُوا الله» في كسبه «الَّـذِى أنْـتُـمْ بِهِ مؤمِنُونَ» مصدقون. والمعروف من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم أنّه كان يأكل ما وجده فتارة يأكل أطيب الطعام كلحوم الأنعام والطير والدجاج، وتارة يأكل أخشنه كخبز الشعير بالملح، أو الزيت أو الخلّ، وحيناً يجوع وأخرى يشبع، فكان في ذلك قدوة للموسر والمعسر، وما كان يهمه أمر الطعام لكنه يُعْنَى بأمر الشراب. ففى حديث عائشة رضي الله عنها [كان أحبَّ الشراب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلو البارد] قال المحدثون: و يدخل في ذلك الماء القراح، والماء المحلّى بالعسل، أو نقيع التمر أو الزّبيب].

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لاَ يُؤاخِذُكُمُ الله باللّغْوِ فى أيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤاخِذُوكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أوْسَطِ مَاتُطْعِمُونَ أهْلِكُمْ أو كِسْوَتُهُمْ أوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أيْمَانِكُمْ إذَا حَلَفْتُمْ واحْفَظُوا أيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيّنُ الله لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» سورة المائدة (الآية: ٨٩)

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: لما نزلت «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ مَا أحلَّ الله لكُمْ» في القوم الذين كانو حرموا النساء واللحم على أنفسهم، قالوا يا رسول الله: كيف نصنعُ بأيماننا التى حلفنا عليها؟ فأنزل الله تعالى «لا يؤاخِذُكُمْ الله باللّغوِ فى أيْمَانِكُمْ» وأخرج أبوالشيخ عن يعلى بن مسلم قال: سألت سعيد بن جبير عن هذه الآية. قال: اقرأ ما قبلها فقرأت «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تحرِّمُوا طيباتِ ما أحلَّ الله لكُمْ» إلى قوله: «لاَ يُؤاخِذُكُمُ الله باللغوِ فى أيْمَانِكُمْ» وكذا في الخازن: قوله تعالى «لا يُؤاخِذُكُمُ الله باللّغوِ» الكائن «فى أيْمَانِكُمْ» هو ما يسبق إليه اللسان من قصد الحلف كقول الانسان لا والله، و بلى والله، وهذا اللغو في اليمين يسمى اليمين الساقط الذي لا يتعلق به حكم، وهو أن يحلف على شيء يظنّ أنّه كذلك، وليس كما يظن وهو قول مجاهد. قيل: كانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظن أنّه قربة فلمّا نزل النهى قالُوا: كيف بأيماننا فنزلت* وعند الشافعى رحمه الله: ما يبدو من المرء غير قصد

كقوله: لا والله، و بلى والله، وهو قول عائشة رضي الله عنها، وفي بمعنى من كما قاله القرطبيّ: والمعنى لا يؤخذكم الله بالأيمان التي تحلفونها بلا قصد، فلا كفارة عليها في الدنيا ولا عقوبة في الآخرة «**ولَكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأ يمَانَ**» أي بما صممتُم عليه من الأيمان وقصدتموهُ إذا أنتم حنثتُم فيه. وهذه المؤاخذة بينها سبحانه بقوله «**فكفّارتُهُ إطعامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أوْسَطِ مَا تطعِمُونَ أهْلِيكُمْ أو كِسْوَتُهم أو تحرير رقبةٍ**» فإذا حنث الحالف في يمينه عليه أن يكفر عنها على التّخيير بإحدى هذه المكفرات الثلاث:

١ ــ أن يطعم عشرة مساكين وجْبَةً واحدةً من غالب الطعام الذي يأكله أهله في البيت. لا من أردئه ولا من أعلاه. وأجاز أبو حنيفة إطعام مسكين واحد عشرة أيّام.

٢ ــ أو كسوة عشرة مساكين إذا لم يطعمهم كالجلابيّة ونحوها ممّا يستر البدن كله، ولا يجزيء ما يوضع على الرأس من طربوش أو عمامة فلا يقال لها كسوة.

٣ ــ أو اعتاق رقيق ولا يشترط إيمانها عند أبي حنيفة خلافاً للأئمة الثلاثة فقد اشترطوا إيمانها

«**فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِع**» ذلك «**فَصِيَامُ ثلاثة أيّام**» متتابعات. فإن كان مريضاً صام عند القدرة، فإن لم يقدر يرجى له عفو الله ورحمته. «**ذَلِكَ كَفَّارةُ أيْمَانِكُمْ إذَا حَلَفْتُمْ**» بالله أو بأحد أسمائه وحنثتُم «**واحْفَظُوا أيْمَانكُمْ**» فلا تبذلُوها في أتفه الأمور وأحقرها، ولا تكثروا من الأيمان الصادقة فضلاً عن الأيمان الكاذبة قال تعالى «**ولاَ تَجْعَلُوا الله عُرْضَةً لأ يْمَانِكُمْ**» وإذا حلفتُم فلا تنسَوْا ما حلفتم عليه ولا تحنثُوا فيه إلا لضرورة تعرض، أو مصلحة تجعل الحنث راجحاً. «**كَذَلِكَ يُبَيّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ**» أي بيّن الله لكم أعلام شريعته، وأحكامَ دينه ليعدّكم بذلك إلى شكر نعمه على الوجه الذي يحبّه و يرضاهُ.

((مسائل تتعلّق بالأ يمــان لابُدّ من معرفتها))

١ ــ لا يجوز الحلف بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته. قال عليه الصلاة والسلام: [من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله] رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر. وفي رواية عنه لأحمد والبخاري [من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت] و يدخل في النهي الحلف

بالنبي والكعبة وسائر ما هو معظم شرعاً تعظيما يليق به فالتعظيم لا يجوز إلاَّ لله تعالى في هذا الأمر. ولقد كان غلُوّ الناس في تعظيم الأنبياء والصالحين منهم سبباً لهدم الدين.

٢ ـــ يجوز الحنث في اليمين لمصلحة راجحة مع التكفير. روى أحمد والشيخان عن عبدالرحمن بن سَمُرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فائت الذي هو خير وكفّرْ عن يمينك] وفي لفظ عن أبى داود والنسائى [فَكَفِّرْ عن يمينك ثم ائتِ الذي هو خير] دلّ اختلاف الرواية في تقديم الأمر بالكفارة أو تأخيره على جواز الأمرين.

((الحلف باعتبار المحلوف عليه على أقسام))

أولاً : أن يكون الحلف على فعل واجب أو ترك حرام. وهذا تأكيد لما كلف الله به الحنث و يكون الاثم مضاعفاً.

ثانياً : أن يكون على ترك واجب أو فعل حرام. ويجب في هذا الحنث لأن اليمين معصية، ومن ذلك الحلف على إيذاء الوالدين وعقوقهما، أو منع ذى حقّ حقّه الواجب له، والحلف على ترك المباح كالطيب من الطعام، فإن ذلك تشريعاً بتحريم ما أحلَّ الله كما فعلت الجاهلية في تحريم بعض الطيبات.

ثالثا : أو يكون على فعل مندوب أو ترك مكروه. وهذه طاعة يندب له الوفاء به، و يكره الحنث ومن ذلك الحلف على ترك طعام معيّن كالطعام الذي في هذه الصحفة مثلاً كما فعل عبدالله بن رواحة في تحريمه الطعام على نفسه، ثم أكل منه لأجل الضيف، وقد تقدم ذلك من قريب في آية «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحرّمُوا طيبات ما أحلّ الله لكُمْ..**».

((الأيمان ثلاثةُ أقْسام.))

الأول : ما ليس من أيمان المسلمين كالحلف بالمخلوقات نحو الكعبة والملائكة والمشايخ والملوك والآباء. وهذه يمين غير منعقدة ولا كفارة فيها، وهي منهى عنها، وتعمدّها إثم، ويخشى أن تكون كفراً لما روى [من حَلَفَ بغير الله فقد كفر].

الثاني : يمين بالله تعالى كقوله: والله لأفعلنَّ كذا، وهذه يمين منعقدة فيها كفارة عند الحنث.

الثالث : أيمان في معنى الحلف بالله يريد بها الحلف تعظيم الخالق كالحلف بالنذر والحرام والطلاق والعتاق. كقوله: إن فعلت كذا فعليّ صيام شهر، أو الحج إلى بيت الله، أو على الحرام لا أفعل كذا. أو الطلاق يلزمني لا أفعل كذا. أو إن فعلتُه فزوجتي طالق فيجزئه كفارة يمين. لأنها واردة في صيغة اليمين نيّةً وقصداً.

((اليمين الغموس))

هي التي يُهضَمْ بها الحقّ، أو يقصد بها الخيانة والغش، لا يكفرها عتق ولا صدقة، ولا صيام، بل لابُدّ من التوبة وأداء الحقوق لأربابها والاستقامة، قال تعالى: **«ولاَ تتَّخِذُوا أيْمَانكُمْ دَخَلاً بينكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتَهَا وتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عن سبيل الله وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»** وقال صلى الله عليه وسلم: [مَنْ حَلَفَ عَلى يمينٍ صُبُرٍ وهو فيها فاجرٌ يقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان] رواه البخاري ومسلم. وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في الإثم لأنه حلف كاذباً على علم منه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يـاأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنَّما الْخَمْرُ والْمَيْسِرُ والأنْصَابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إنَّما يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوةَ والْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ والْمَيْسِرِ ويَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أنتُمْ مُنْتَهُونَ » سورةالمائدة (الآية: ٩٠، ٩١)

في الواحدي: روى مسلم عن أبي خيثمة قال: حدثنا حسن أبوموسى قال: حدّثنا الزبير قال: حدثنا سماك بن حرب، قال: حدثني مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أتيت على نفر من المهاجرين، فقالوا: تعال نطعمك ونسقيك خمراً، وذلك قبل أن يحرم الخمر، فأتيتهم في حشٍ، والحشّ: البستان، وإذا رأس جزور مشوياً عندهم ودنّ خمر، فأكلت وشربت معهم، وذكرت الأنصار والمهاجرين، فقلت: المهاجرون خير من الأنصار، فأخذ رجل لحى الرأس، فجذع أنفي بذلك، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأنزل الله تعالى في شأن الخمر **«إنما الخمرُ والميسرُ..»** إلى قوله **«فهل أنتُم منتهون»** كذا في كثير من الروايات* وفي رواية أبي ميسر عن عمر بن الخطاب قال:

اللهمّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في البقرة «**يسألونَك عن الخَمْرِ والْمَيْسِرِ**» فدعى فقرئت عليه. فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافيا، فنزلت الآية التي في النساء «**يا أيها الّذِينَ آمَنُوا لا تقربُوا الصلاةَ وأنتُمْ سُكارى**» فكان منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقام الصلاة ينادى: لا يقربنَّ الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه. فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية «**إنما الخَمر والميسر..**» فدعى عمر فقرئت عليه، فلمّا بلغ «**فهل أنتُمْ مُنْتَهُونَ**» قال عمر: انتهينا يارب كما في بعض الروايات. وقال عليٌّ رضي الله عنه: كانت لى شارف (ناقة) من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانى شارفاً من الخمس، ولما أردت أن أبتنى بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعدتُ رجلاً صوَّاغاً من بنى قينُقّاع أن يرتحل معى فنأتى بأذخر، أردت أن أبيعه من الصوّاغين فأستعين به في وليمة عرسى، فبينما أنا أجمع لشارفى من الأقتاب، والغرائر والحبال، وشارفى مناخان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، فإذا أنا بشارفىّ قد أجبت أسنتهما، وبُقرت خواصرهما، وأخذ من أكبادهما، فلم أملك عيْنىَّ حين رأيتُ ذلك المنظر!! من فعل هذا؟ فقالوا: فعله حمزه، وهو في البيت في شرب الأنصار، عنده قيّنة وأصحابه، فقالت في غنائها:

ألا يا حمزة للشرف النواء — وهن معقلات بالفناء
فرّج المسكين في اللبات منها — فضرجهنَّ حمزة بالدماء
فأطعم من شرائحها كبابا — ملهوجة على رهج الصلاء
فأنت أبا عمارة المرجى — لكشف الضر عنا والبلاء
فوثب إلى السيف — فأجبّ أسنَّتها
وبقر خواصرها — وأخذ من أكبادها

قال علىّ رضي الله عنه: فانطلقت حتى أدخل على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده زيد بن حارثة، قال: فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لقيت، فقال: ما لك به؟ فقلت يا رسول الله: ما رأيتُ كاليوم!! عدا حمزة على ناقتى، وجبّ أسنتها، وبقر خواصرهما، هوذا في بيتٍ، معه شرب. قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بردائه، ثم انطلق يمشى، فاتّبعت أثره أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي هو فيه، فاستأذن

فأذن له، فإذا هم شرب، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم لوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثمل محمرّة عيناهُ، فنظر حمزة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه، ثم قال: وهل أنتم إلا عبيد أبى، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه ثمل، فنكص على عقبيه القهقرى، فخرج وخرجنا. رواه البخارى عن أحمد بن صالح. كذا ذكره الواحدى، وصاحب الغرائب* وفي لباب السيوطى: روى أحمد عن أبى هريزة قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وهم يشربون الخمر و يأكلون الميسر، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما: فأنزل الله **«يسألونك عن الخمر والميسر..»** فقال الناس: ما حرّم علينا إنما قال إثمٌ كبير، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين: أمّ أصحابه في المغرب، فخلط في قراءته. فأنزل الله آية أشد منها **«يا أيُّها الَّذِينَ آمنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأنتُمْ سكارى حتى تعلموا ما تقولون»** ثم نزلت آية أشدّ من ذلك **«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنما الخمر والميسر»** إلى قوله **«فهل أنتُمْ منتهون»** قالوا: انتهينا يا رب. فقال الناس يا رسول الله: ناس قُتلُوا في سبيل الله، وماتوا على فراشهم وكانوا يشربون الخمر و يأكلون الميسر، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان، فأنزل الله **«ليس على الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات جُناحٌ فيمَا طَعِمُوا»** وفي اللّباب: وروى النسائى والبيهقى عن ابن عباس قال: إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربُوا، فلمَّا ثمل القوم عبث بعضهم ببعض. فلما صحوا جعل الرجل يرالأثر في وجهه ورأسه ولحيته، فيقول: صنع بى هذا أخى فلان وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغان، فيقول: والله لو كان بى رؤفاً رحيماً ما صنع بى هذا، حتّى وقعت الضغائن في قلوبهم، فأنزل الله هذه الآية **«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنَّما الخَمرُ والميسر..»** الآية. فقال ناس من المتكلّفين: هي رجسٌ وهي في بطن فلان، وقد قتل يوم أحد. فأنزل الله **«ليْسَ على الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحاتِ جُنَاحٌ..»** وفي رواية حماد عن أنس (كما في الواحدي) قال: كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبى طلحة، وما شرابهم إلا الفضيخ والبسر والتمر، وإذا منادي ينادي: إنَّ الخمر قد حرّمت، قال: فأريقت في سكك المدينة، فقال أبوطلحة: اخرج فأرقها، قال: فأرقتها، فقال بعضهم: قتل فلان وقتل فلان، وهى في بطونهم قال: فأنزل الله تعالى **«ليس على الَّذِينَ آمَنُوا وعملوا الصالحات جناح..»** رواه مسلم عن أبى الربيع،ورواه البخارى عن النعمان

كلاهما عن حماد، وفي البخارى قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما كان لنا خمرٌ غير فضيخكم هذا الذي تسمُّونه الفضخ (شراب يتخذ من البسر وحده من غير أن تمسّه النار) فإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل، فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: حُرّمت الخمر. فقالوا: أهرق هذه القِلاَلَ (جرار) يا أنس قال: فما سألُوا عنها، ولا راجعوها بَعْدَ خبر الرجل* وفي رواية له وفي آخرها: قال: فجرت في سكك المدينة. قال: وكانت خمرهم يومئذٍ الفضيخَ، فقال بعض القوم قتل قوم وهي في بطونهم، قال: فأنزل الله «**ليسَ على الّذِينَ آمَنُوا وعملوا الصّالحاتِ جُناحٌ فيما طَعِمُوا**» وهنا رواياتٌ كثيرة في التفاسير جميعها متقاربة اللفظ و المعنى فيما ذكرت.

أما التفسير: «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا إنَّما الخَمْرُ**» المسكر الذي يخامر العقل أي يستره و يغطيه. روى البخارى عن ابن عمر قال: سمعت عمر رضي الله عنه على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أما بعد أيها الناس، إنَّه نزل تحريم الخرم، وهي من خمسةٍ: من العنب والتّمر والعسل والحنطة، والشعير، والخمرُ ما خامر العقل. أي ستره وغطاه، وصار عليه كالخمار، وهو بعمومه يتناول كل ما أزال العقل. سواء كان متخذاً من العنب والزبيب والحبوب بأنواعها، أو نباتاً كجوز الهند والحشيش ولبن الخشخاش،وكل ذلك إذا أسكر حرم، وما ورد في رواية مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم [الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنب] لا تعارض بين هذا و بين الذي ذكرناه، لأن كل واحد من الرواة حفظ ما سمعه من الأصناف وأنَّ مفهوم العدد ليس بحجّة على الصحيح وعليه الجمهور. وقوله «**والْمَيْسِرُ**» القمار هو اللعب بالملاهي كالطاب والمنقلة والطاولة. وسميّ القمار. أي اللعب ميسراً لأن فيه أخذ المال بيسر. «**والأَنْصَابُ**» الأصنام «**والأَزْلاَمُ**» قداح الاستقسام. أي قطع رقيقة من الخشب بهيئة السهام كانُوا يستقسمون بها في الجاهلية لأجل التفاؤل أو التّشاؤم «**رِجْسٌ**» في السمين قال الزجاج: الرجس اسم لكل ما استقذر من عمل قبيح، يقال: رَجِسَ ورَجَسَ (بكسر الجيم وفتحها) يرجس رجساً إذا عمل عملاً قبيحاً، وأصله من الرَّجس، وهو شدّة صوت الرعد، وفرّق ابن دريد بين الرجس والرجز والركس، فجعل الرجس: الشرَّ، والرجز: العذاب، والركس: القذرة والنّتن* وفي القاموس: ورجس كفرح، وكرم إذا عمل عملاً قبيحاً، والرجس: المستقذر حساً أو معنى، يقال رجل رجس. ورجال أرجاس، والرجس على

أوجه: إمَّا من جهة الطبع، وإمَّا من جهة العقل، وإمَّا من جهة الشرع كالخمر والميسر، وإما من كل ذلك كالميتة لأنها تُعاف طبعاً وعقلاً وشرعاً «**مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**» الذي يزينه من الأمور للنفس، فليس المراد بعمله ما يعمله بيده «**فاجتنبوهُ**» أي الرجس المعبر به عن هذه الأشياء أن تفعلوه «**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**» أي رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تزكية أنفسكم، وسلامة أبدانكم، والتوادّ فيما بينكم. و بعد أن أمر الله باجتناب الخمر والميسر ذكر أنَّ فيهما مفسدتين: احداهما: دنيو ية، وثانيتُهما: دينيّة، وقد أشار إليهما بقوله «**إنَّما يُرِيدُ الشيطانُ أنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ والبغضَاءَ فى الْخَمْرِ والْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكرِ الله وعَنْ الصَّلاةِ**» أي إنه الشيطان يريد لكم شراب الخمر ومباشرتكم بالقداح ليعادى بعضكم بغْضاً، و يبغض بعضكم إلى بعض عند الشراب والمباشرة، فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم باخوّة الإسلام، و يصرفكم بالسكر والاشتغال بالميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم، وعن الصلاة التي فرضها عليكم، تزكية لنفوسكم، وتطهيراً لقلوبكم.

* ((ما هى الدلائل على تحريم الخمر)) *

قال العلماء : هذه الآية تدلُّ على تحريمها من وجوه. منها تصدير الجملة بإنما الدالة على الحصر، معناه ليست الخمر إلاّ الرجس وعمل الشيطان* ومنها أنه قرنها بعبادة الأصنام. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: [شارِبُ الخمر كعابد الوثن]* ومنها أنه جعلها رجساً كما قال فى موضع آخر [فاجتنبوا الرّجس مِن الأ وثان] ، وأصل الرجس العمل القبيح، والقذر ــ كما علمت ــ قال تعالى: «**ويجعل الرجْسَ على الّذينَ لاَ يعْقِلُون**» أى العقاب والغضب* ومنها أنه جعلها من عمل الشيطان، ومن المعلوم أنه لا يصدر منه إلا الشرّ البحت* ومنها أنه أمر بالاجتناب، وظاهر الأمر للوجوب* ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح فيكون القرب منه خيبة* ومنها أنها شرُّ أنواع المفاسد المنتجة. منها التعادى والتباغض والصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة خصوصاً، وفيه أن غرض الشرب من الاجتماع تأكيد الألفة والمودة، ثم إنها تورث نقيض المقصود لأن العقل إذا زال استولت الشهوة والغضب، و يؤدى إلى التنازع واللجاج وكذا القمار يفضى إلى افناء المال، وإلى أن يقامر على خليلته وأهله وولده، وكل ذ لك يورث العداوة والفتن، وهذان

من مكايد الشيطان، ومضادّان لمصالح الإنسان. وأيضاً الخمر يسبّب تهييج اللذة الجسمية، والقمار يورث لذة الغلبة الحالية، وكلتاهما توجب الاشتغال عن اللذات الحقيقية الحاصلة من الاستغراق فى طاعة المعبود، وإنما أفرد ذكر الخمر والميسر ثانيا لأن الخطاب مع المؤمنين، فقرنهما أولاً بذكر الأنصاب والأزلام تنبيها على أنها جميعاً من أعمال الجاهلية وأهل الشرك، ثم أفردهما لأن الكلام مسوق لتحريمهما على المخاطبين حيث إنهم كانوا لا يتعاطون سوى هذين* ومنها سوق الكلام بطريق الاستفهام فى قوله: «**فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**» كأنه قيل: قد تلى عليكم ما هو كافٍ فى باب المنع، فهل أنتم منتهون، أم أنتمُ على ما كنتم عليه فى الجاهلية.. وكأنكم لم تزجروا. ولهذا قالُوا قد انتهينا يارب. لأنهم فهموا التحريم المؤكد* ومنها أنه قال بعد: «**مُنْتَهُونَ**» : «**وأطيعُوا الله وأطيعُوا الرَّسُولَ واحْذَرُوا**» والمراد بالطاعة الاجتناب والحذر عن المخالفة، وقوله: «**فإنْ تَوَلَّيتُمْ ..**» الآية أى إن أعرضتم فالحجة قد قامت عليكم، والرسول قد خرج عن عهدة البلاغ، وقد أعذر من أنذر، وجزاء المخالف إلى الله المقتدر* وقد ورد الوعيد من الرسول عليه الصلاة والسلام لشاربها فى كثير من الأحاديث منه [لعنت الخمر على عشرة أوجه: لعنت الخمر بعينها وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها] رواه أبو داود وابن ماجه من حديث وكيع به. وفى رواية عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [مَنْ تَرَكَ الصَّلاة سُكْراً مَرَّةًواحدةً فكأنّما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها، ومن ترك الصلاة سُكراً أربع مرّات كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال] قيل: وما طينة الخبال؟ قال: [عصارة أهل جهنّم] رواه أحمد من طريق عمرو بن شعيب، وفى رواية ابن عبارس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: [كلُّ مخمّر خمر. وكل مسكر حرام، ومن شرب مسكراً بخست صلاته أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال. قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: [صديد أهل النار، ومن سقاه صغيراً لايعرف حلاله من حرامه كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال] تفرد به أبو داود، وفى رواية للشيخين عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [مَنْ شرب الخمر فى الدنيا ثم لم يَتُبْ منها حرمها فى الآخرة] ، وفى رواية النّسائى عن عمرو بن على قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقّ لوالدَيه، والمدمن الخمر والمنّانُ بما أعطى] والأحاديث فى الموضوع كثيراً جداً. (*)

وكان يؤتى بالشارب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فيضرب بالأ يدى والجريد والثياب والنعال* وفي حديث أنس [أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم أتى برجل قد شرب الخمر فجلده بجريدتين نحو أربعين] وفعل ذلك خليفته أبوبكر الصديق، وفي صحيح مسلم أن عثمان أتى بالوليد وقد صلى الصبح ركعتين، وقال: أزيدكم وشهد عليه الشهود أنه شرب الخمر فأمر بجلده وعليٌّ كرم الله وجهه يعد حتى بلغ الأربعين، فقال: أمْسِك. ثم جلد النبي وأبوبكر أربعين وعمر ثمانين وكُلٌّ سُنَّةٌ. وهذا أحبُّ إلى — يريد الأربعين جلدة — وقوله: وكُلٌّ سُنَّةٌ أي إنه جرى العمل به فعلاً. وقد روى الدارقطنى عن علىّ كرم الله وجهه: إذا شرب سَكِرَ، وإذا سَكِرَ هذى، وإذا هذى افترى، وعلى المفترى ثمانون جلدة.

* ((القول فى سبب نزول قوله تعالى :)) *
«قُلْ لاَ يَسْتَوِى الْخَبِيثُ والطَّيّبُ ولَوْ أعجبكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ* فاتّقُوا اللّٰه يا أولى الألْبَابِ لعلّكُمْ تُفْلِحُونَ» سورة المائدة (الآية: ١٠٠)

فى الواحدى : حدّث محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال إن الخمر لُعن شاربها وعاصرها وساقيها، وبائعها وآكل ثمنها، فقام إليه أعرابى، فقال يا رسول الله: إنى كنت رجلاً كانت هذه تجارتى، فاقتنيْتُ من بيع الخمر مالاً فهل ينفعنى ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله؟ فقال النبىُّ صلى الله عليه وسلم: [إن أنفقته فى حجّ أو جهاد أو صدقة لم يعدل عند الله جناح بعوضه فيه، إن الله لا يقبل إلاَّ الطيّب] فأنزل الله تعالى تصديقاً لقوله عليه الصلاة والسلام: **«قُلْ لا يَسْتَوِى الْخَبيثُ والطيّبُ ولَوْ أعجبكَ كثرةُ الخبيث ..»** الحرام كالزنا والكسب الحرام، ومنه الخبائث، وهى التى كانت العرب تستخبثها مثل الحيّة والعقرب ... والأخبثان: البول والغائط. وشىء خبيث بخس* **«والطيّب»** الكسب الحلال وهو نقيض الحرام، يعنى لا يستوى الحلال ولا الطالح، ولا الضّار ولا النافع، ولا الظالم ولا العادل الخ ... فلكُلٍ منها حكم يليق به عند الله الذى يضع كل شىء فى موضعه بحسب علمه: **«ولَوْ أعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبيث»** أى ولو أعجبك أيها السامع كثرة الخبيث من الناس أو من الأموال المحرمة لسهولة تناولها، والتوسع فى التمتع بها كأكل الربا وتجارة الخمر والرشوة والخيانة، أى لا يستويان لا فى أنفسهما ولا

عنـد الله، ولو فرض أن كثرة الخبيث أعجبتك وغرّتك، فصرت بعيداً عن إداراك تلك الحقيقة ـ وهي أن القليل من الكسب الحلال خير من الكثير من الكسب الحرام. ألا ترى أنّ القليل الجيد من الغذاء أو المتاع خير من الكثير الرىء الذى لا يغنى غناءه ولا يفيد فائدته بل ربما يضرُّ و يؤذى صاحبه، فكذلك الحلال بالنسبة إلى الناس. فالقليل الطيب منهم خير من الكثير الخبيث، فطائفة قليلة من شجعان المؤمنين تغلب الطائفة الكثير من الجبناء المتخاذلين، وجماعة قليلة من ذوى البصيرة والرأي تأتى من الأعمال ما يعجز عنه الكثير من أهل الحمق والبلاهة، فالعبرة بالصفة لا بالعدد، والكثرة لا تكون خيراً إلاّ بعد التساوى فى الصفات الفاضلة: «**فاتّقُوا الله**» يعنى فيما أمركم به أو نهاكم عنه، ولا تعتدُوه: «**يَا أُولِى الألْبَابِ**» يعنى يا ذوى العقول السليمة: «**لعلّكُمْ تُفلِحونَ**» تفوزون برضوان الله.

* ((القول فى سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْألُوا عَنْ أشْيَاءَ إنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤكُمْ وإنْ تَسْألُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عنْهَا واللهُ غفورٌ حليمٌ* قَدْ سَألَهَا قوْمٌ مِنْ قبْلِكُمْ ثُمّ أصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ»

سورة المائدة (الآية: ١٠١، ١٠٢)

فى الواحدى : قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى قوم كانوا يسألون النبىَّ صلى الله عليه وسلم استهزاءً، فيقول الرجل تضل ناقته. أين ناقتى؟ فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية* وفى اللباب. روى البخارى عن أنس بن مالك قال: خطب النبىُّ صلى الله عليه وسلم خطبة، فقال رجلٌ: من أبى؟ فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية: «**يا أيُّها الّذين آمنُوا لا تسألُوا...**» حتى فرغ من الآية كلها. وروى أحمد والترمذى والحاكم عن علىّ قال: لما نزلت ولله على الناس حجّ البيت، قالوا يارسول الله: أفى كل عام؟ فسكت. قالوا يا رسول الله: أفى كل عام؟ قال: لا، ولو قلت: نعم، لوجبت، فأنزل الله تعالى: «**لاَ تَسْألُوا عَنْ أشْيَاءَ إنْ تُبْدَ لَكُمْ..**» قال الحافظ ابن حجر: لا مانع أن تكون نزلت فى الأمرين قلت: رواية البخارى عن أنس رضى الله عنه قال: [خطب رسول الله صلى

الله عليه وسلم خطبة ما سَمِعْتُ مِثْلَها قط، قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، قال: فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وُجُوهَهُم لهم حنينٌ، فقال رجل من أبي؟ قال: فلانٌ فنزلت هذه الآية «**لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤكُمْ**» وأخرجه مسلم فى فضائل النبىّ صلى الله عليه وسلم عن محمد بن معمر وغيره، وأخرجه الترمذى فى التفسير عن محمد بن معمر، وأخرجه النسائى فى الرقاق عن محمود بن غيلان مختصراً. قال الخطابى: الحنين بكاء دون الانتحاب* وأصله من حنين المرأة، وهو نزاعها إلى ولدها وإن لم يكن لها صوت عند ذلك* وفى رواية أخرى كما فى الخازن: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج حين زاغت الشمس، فصلى الظهر، فقام على المنبر فذكر السّاعة، فذكر فيها أموراً عظاماً، ثم قال: من أحب أن يسألنى عن شىء فليسأل، فلا تسألونى عن شىء إلاّ أخبرتكم به ما دمت فى مقامى، فأكثر النساء البكاء، وأكثر أن يقول سلونى فقام عبدالله بن حذافة السهمى، فقال: من أبى؟ فقال: أبوك حذافة، ثم أكثر أن يقول سلونى، فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله ربّاً و بالإسلام ديناً، وبمحمّد نبياً، فسكت، ثم قال: عرضت علىَّ الجنّة والنّار آنفاً فى عرض هذا الحائط، فلم أرَ كاليوم فى الخير والشر، قال ابن شهاب: فأخبرنى عبيد الله بن عبدالله بن عتبة، قال: [قالت أم عبدالله بن حذافة لعبدالله بن حذافة: ما سمعت بابن قط أعقّ منك، أمنت أن تكون أمك فارقت بعض ما تفارق أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس، فقال عبدالله بن حذافة: لو ألحقتنى ببعبد أسود للحقته] أخرجاه فى الصحيحين* وروى مجاهد عن ابن عباس: لا تسألوا عن أشياء، قال: هي البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، ألا ترى أنه يقول بعد ذلك ما جعل الله من بحيرة ولا كذا وكذا ولا كذا* وقال عكرمة: إنهم كانوا يسألون عن الآيات فنهوا عن ذلك، ثم قال: «**قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كَافِرِينَ**».

أما تفسير الآيات: «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**» أي لا تسألوا عن أشياء: جميع شىء، إن تُبد لك: تظهر لكم، وتبيّن لكم تسؤكم. يعنى إن أمرتُم بالعمل بها، فإن من سأل عن الحج لم يأمن أن يؤمر به. فلا يقدر عليه فيسوؤه ذلك، ومن سأل عن نَسَبِهِ لم يأمن أن يلحقه النبي صلى الله عليه وسلم بغير أبيه فيفتضح و يسوؤه ذلك، وهذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهى لهم عن أن

يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها* في الطبرى: عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه حتى أحفوه بالمسألة فخرج عليهم ذات يوم، فصعد المنبر، فقال: [لا تسألونى اليوم عن شيء إلاَّ بينته لكم..]. «**وإنْ تَسْألُوا عنها حِينَ يُنزَّل القُرآنُ تُبْدَ لَكُمْ**» أي وإن تسألوا عن جنس تلك الأشياء التي من شأنها أن يكون إبداؤها مِمَّا يسوءكم حين ينزّل القرآن في شأنها أو حكمها لأجل فهم ما نزل إليكم فإنَّ الله يبديه لكم على لسان رسوله. قال الحافظ بن كثير: لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها فلعلّه ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق. وقد ورد في الحديث [أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته] ولكن إذا نزل القرآن بها مجملةً فسألتُم عن بيانها بُيِّنت لكم حينئذٍ لاحتياجكم إليها «**عَفَا اللهُ عنها**» أي ما لم يذكره في كتابه فهو ممَّا عفا عنها، فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها، وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [ذرونى ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم] وفي الحديث الصحيح أيضاً [إنَّ الله تعالى فرض فرائض فلا تُضيّعُوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غيرنسيان فلا تسألوا عنها]. «**قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافرينَ**» أي قد سأل أمثال هذه المسائل قوم من قبلكم من الأمم، ثم أصبحوا بعد ابدائها كافرين بها. فإنّ من أكثر الأسئلة عن الأحكام الشرعية من الأمم السالفة لم يعملوا بها، بل عتوا عن أمر ربّهم استثقالاً للعمل بها، وذلك هو الكفران المبين، فاستحقوا بسبب ذلك الهلاك في الدنيا قبل عذاب الآخرة كقوم صالح وغيرهم من الأمم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُم إلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»

سورة المائدة (الآية: ١٠٥)

في الواحدي: قال الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عباس قال: كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل هجر، وعليهم منذر بن ساوى يدعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا

فليؤدوا الجزية، فلمّا أتاهُ الكتاب عرضه على من عنده من العرب واليهود والنصارى والصابئين والمجوس، فأقرُّوا بالجزية وكرهُوا الإسلام، وكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أما العرب فلا تقبل منهم إلاَّ الإسلام أو السيف، وأما أهل الكتاب والمجوس فأقبل منهم الجزية، فلمّا قرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلمت العرب، وأما أهل الكتاب والمجوس فأعطوا الجزية، فقال منافقوا العرب: عجباً من محمد يزعم أنَّ الله بعثه ليقاتل الناس كافة حتى يُسلموا، ولا يقبل الجزية إلاَّ من أهل الكتاب، فلا نراه إلا قبل من مشركى أهل هجر مارّد على مشركى العرب. فأنزل الله تعالى «**عَلَيْكُمْ أنفسكُمْ لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديْتُمْ..**» يعنى من ضلّ من أهل الكتاب* وفي الخازن: قال سعيد بن جبير ومجاهد: نزلت هذه الآية في أهل الكتاب: اليهود والنصارى. يعنى عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ من أهل الكتاب فخذوا منهم الجزية واتركوهم. وقيل: لـمّا قبلت الجزية من أهل الكتاب قال بعض الكفار: كيف تقبل الجزية من بعض دون بعض فنزلت هذه الآية. وقيل: إنَّ المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار على كفرهم، فقيل لهم عليكم أنفسكم واجتهدوا في صلاحها لا يضركم ضلال الضالين ولا جهل الجاهلين إذا كنتُمْ أنتم مهتدين* وفي الطبرى: قال ابن زيد في قوله: «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا عليكُمْ أنفسكُمْ..**» قال كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سفهت آباءك وضللتهم وفعلت وفعلت، وجعلت آباءك كذا وكذا كان ينبغى لك أن تنصرهم وتفعل فقال الله تعالى: «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ**»* روى ابن كثير: أن أبا بكر رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنكم تقرؤن هذه الآية «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا عليكم أنفسكم**» وإنكم تضعُونها على غير موضعها، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [إنّ النّاسَ إذا رأوا المنكر ولم يغيّروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب]* وروى الترمذي عن أبى أمية الشيبانى قال: أتيْتُ أبا ثعلبة الخشنى، فقلت: ما تصنع في هذه الآية؟ قال: أيَّةُ آية؟ قلت: قول الله تعالى: «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أنفسكُمْ لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتمُ**» قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شُحّاً مطاعاً، وهوى متّبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوامّ، فإن من

ورائكم أياماً الصابر فيهنّ مثل القابض على الجمر، للعامل فيهنّ أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم]. وروى ابن جرير عن ابن عقال قال: قيل لابن عمر: لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه فإن الله قال «**عَلَيْكُمْ أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم**» فقال ابن عمر رضي الله عنهما: إنها ليست لى ولا لأصحابى لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [ألا ليبلغ الشاهد الغائب] فكنا نحن الشهود، وأنتم الغُيّب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم. وفى الكرخي: أن الآية ليست نازلة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل جاء عن أبى بكر رضي الله عنه أنه قال: تعدُّونها رخصة، والله ما نزل آية أشدّ منها، وإنما المراد لا يضركم من ضلّ من أهل الكتاب كما جاء عن مجاهد وابن جبير. هي في اليهود والنصارى خذوا منهم الجزية واتركوهم. وفي أبي السعود: ولا يتوهم أنّ في هذه الآية رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع استطاعتها، كيف لا، ومن جملة الاهتداء أن ينكر على المنكر حسبما تفي به الطاقة، قال صلى الله عليه وسلم: [منْ رأى منكم منكراً فاستطاع أن يغيّرهُ فليغيرهُ بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه] وقد روى أن الصديّق رضي الله عنه قال يوماً على المنبر: يا أيُّها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها غير موضعها، ولا تدرون ما هي، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [إنّ الناس إذا رأوْا منكراً فلم يغيّروه عمهم الله بعقاب] فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، ولا تغتروا بقول الله عز وجل «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عليكُمْ انفسكُمْ**» فيقول أحدكم عليّ نفس، والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر، أو ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب، ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لهم. وعنه صلى الله عليه وسلم: [ما من قوم عمل فيهم منكر، وسنّ فيهم قبيح، فلم يُغيروه ولم ينكروه إلا وحقّ على الله أن يعمهم بالعقوبة جميعاً. ثم لا يستجاب لهم]. والآية نزلت لمّا كان المؤمنون يتحسّرون على الكفرة، وكانُوا يتمنّون إيمانهم، وهم من الضلال بحيث لا يكادون يرعون عنه بالأمر والنهي. قوله تعالى: «**عَليكُمْ أنفُسَكُمْ**» الجمهور على نصب أنفسكم وهو منصوب على الإغراء بعليكم لأن عليكم هنا اسم فعل إذ التقدير الزمُوا أنفسكم: أي هدايتها وحفظها مما يؤذيها، وقرأ نافع بن أبى نعيم «**أَنْفُسُكُمْ**» رفعاً فيما حكاه عنه صاحب الكشاف أي ورفعه إما على الابتداء وعليكم خبره مقدّم. وهو إغراء أيضاً. ومنه قراءة بعضهم «**ناقةُ**

الله وسقياها» وهذا تحذير نظير الاغراء. وإما أن يكون توكيداً للضمير المستتر في عليكم، والمفعول محذوف أي عليكم أنتُمْ أنفسكم: صلاح حالكم وهدايتكم* أي عليكم أنفسكم وما كلفتم به من إصلاحها والمشي بها في طريق الهدى «لا يَضُرُّكُمْ» الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين كما قال عز وجلّ لنبيه عليه الصلاة والسلام: «فلاَ تُذْهب نفسك عليهم حَسَرَات» وكذلك من يتأسف على ما فيه الفسقة من الفجور والمعاصي ولا يزال يذكر معايبهم ومناكيرهم فهو مخاطب به. وقوله: «إذا اهتَدَيْتُمْ» قيل: المراد لا يضركم من ضلّ من أهل الكتاب وعلى هذا القول تكون الآية ليست نازلة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد علمت ما ذكره أبو السعود «إلى الله مَرْجِعَكُمْ جميعاً» أي أيها المؤمنون الطائعون ومرجع الضالين في الآية اكتفاء على حدّ: سرابيل تقيكم الحرب* وفي هذا وعد ووعيد للفريقين، وتنبيه على أنّ أحداً لا يؤاخذ بعمل غيره «فينبئكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فيجازيكم به.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادةُ بيْنِكُمْ إذَا حَضَرَ أحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيّةِ اثْنَانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أوْآخَرَانِ مِنْ غيْرِكُمْ إنْ أنْتُمْ ضَرَبْتُمْ ف الأرْض فَأصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بالله إنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِه ثَمَناً وَلَوْكَانَ ذا قُرْبَى ولاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ الله إنَّا إذاً لَمِنَ الآثِمينَ» سورة المائدة (الآية: ١٠٦)

في الواحدي: قال ابن عباس: كان تميم الداري وعدي بن زايد يختلفان إلى مكة، فصحبهما رجل من قريش من بني سهم، فمات بأرض ليس بها أحد من المسلمين، فأوصى إليهما بتركة، فلمّا قدما دفعاها إلى أهله، وكتما جاماً كان معه من فضة كان مخوّصاً بالذهب، فقالا: لم نره، فأتى بهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستحلفهما بالله ما كتما ولا اطلعا، وخلى سبيلهما، ثم إن الجام وجد عند قوم من أهل مكة فقالوا: ابتعناهُ من تميم الداري وعديّ بن زيد. فقام أولياء السهمي فأخذوا الجام، حلف رجلان منهم بالله إنّ هذا الجام جام صاحبنا، وشهادتنا أحقّ من شهادتهما وما اعتدينا فنزلت هذه الآية والتي تليها* وعبارة السيوطي في لبابه: روى الترمذي (وضعفه غيره) عن ابن عباس عن تميم

الدارى في هذه الآية «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بينكم» قال: برىء الناس منها غيرى وغير عدىّ بن زيد، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبنى سهم يقال له: بديل بن أبى مريم بتجارة، ومعه جام من فضة فرض فأوصى إليهما، وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله. قال تميم: فلمّا مات أخذنا ذلك الجام فبعتُه بألف درهم، ثم اقتسمناهُ أنا وعدى، فلمّا قدمنا أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدُوا الجام فسألونا عنه، فقلنا: ما ترك غير هذا، وما دفع غيره، فلمّا أسلمتُ تأثمتُ من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، ودفعت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألهم البيّنة فلم يجدُوا، فأمرهم أن يستحلفوه، فحلف فأنزل الله «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا شهادة بينكم» إلى قوله «أن تُردّ أيمانٌ بعد أيمانهم» فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا، فنزعت الخمسمائة درهم من عدى بن بدّاء» وعبارة ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال: كان تميم الدارى وعدى بن بدّاء رجلين نصرانيين يتّجران إلى مكة في الجاهلية، و يطيلان الاقامة بها، فلمّا هاجر النبي صلى الله عليه وسلم حوّلا متجرهما إلى المدينة، فخرج بُدَيل مولى عمرو بن العاص تاجراً حتى قدم المدينة، فخرجُوا جميعاً تجّاراً إلى الشام حتى إذا كانُوا ببعض الطريق اشتكى بديل، فكتب وصيّة بيده، ثم دسّها في متاعه، وأوصى إليهما، فلمّا مات فتحا متاعه فأخذا منه شيئاً، ثم حجراه كما كان، وقدما المدينة على أهله، فدفعا متاعه، ففتح أهله متاعه فوجدُوا كتابه وعهده وما خرج به، وفقدُوا شيئاً فسألوهما عنه، فقالوا: هذا الذي قبضنا له ودُفع إلينا، فقالوا لهُما: هذا كتابه بيده، قالوا: ما كتمنا له شيئاً، فترافعُوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادةُ بَيْنِكُمْ إذا حَضَرَ أحدكم الموتُ» إلى قوله: «إنَّا إذاً لَمِنَ الآثِمِينَ» فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستحلفوهما في دُبُر صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما قبضنا غير هذا ولا كتمنا. فمكثا ما شاء الله أن يمكثا. ثم ظهر معهما إناء من فضة منقوش مُمَوَّه بالذهب. فقال أهله: هذا من متاعه، قالا: نعم ولكنا اشتريناه منه، ونسينا أن نذكره حين حلفنا فكرهنا أن نكذّب نفوسنا، فترافعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية «فإنْ عُثِرَ عَلَى أنَّهُما اسْتَحَقَّا إثماً..» فأمر النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من أهل البيت أن يحلفا على ما كتما وغيّبا و يستحقانه» ثم إن تميماً

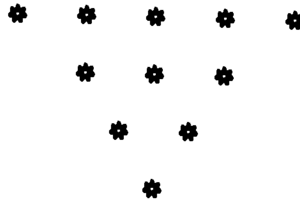
الداري أسلم وبايع النبي صلى الله عليه وسلم وكان يقول: صدق الله ورسوله. أنا أخذتُ الإناءَ، ثم قال يا رسول الله: إن الله يظهرك على أهل الأرض كلها فهب لى قرية عبنون من بيت لحم. وهي القرية التي ولد فيها عيسى، فكتب له بها كتاباً، فلمّا قدم عمر الشام أتاهُ تميم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر: أنا حاضر ذلك فدفعها إليه* وعبارة الخطيب: فلمّا قدمُوا الشأم مرض بديل، فدوّن ما معه في صحيفة وصرها في متاعه ولم يخبرهما بها، وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله، ومات ففتشاه وأخذا منه إناء من فضةٍ وزنه ثلاثمائة مثقال منقوشاً بالذهب. وكان بديل أراد به ملك الشام. ثم قضيا حاجتهما، وانصرفا إلى المدينة، ودفعا المتاع إلى أهل الميت، ففتّشوا فأصابوا الصحيفة فيها تسمية ما كان معه، فجاؤا تميماً وعدياً فقالوا: هل باع صاحبنا شيئاً؟ قالا: لا. قالوا: فهل إتّجر تجارة؟ قالا: لا. قالوا: فهل طالب مرضه فأنفق علي نفسه؟ قالا: لا. قالوا: فإنا وجدنا في متاعه صحيفة فيها تسمية ما معه، وإنا فقدنا منها إناءً من فضة مموّهاً بالذّهب. وزنه ثلاثمائة مثقال من فضّة. قالا: ما ندرى إنما أوصى لنا بشيء. وأمرنا أن ندفعه لكم فدفعناه، وما لنا علمٌ بالإناء، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصرّوا على الإنكار وحلفا فأنزل الله «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا..» الآية* وذكر الجلال رواية البخاري: وهي أن رجلاً من بنى سهم خرج مع تيم الداري وعدى بن بداء: أي وهما نصرانيّان، فمات السهمي بأرض ليس فيها مُسْلِمٌ، فلما قدما بتركته فقدوا جَاماً من فضة مخوّصاً بالذهب. فرفعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت، فأحلفهما، ثم وجد الجام بمكة، فقال: ابتعناه من تميم وعدى، فنزلت الآية الثانية، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا* قلت: والذي ذكره البغوى وغيره من المفسرين أنَّه إناء من فضة منقوش بالذهب كما هي عبارة الخطيب، وابن جرير عن عكرمة.

أمّا التفسير: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا» استئناف مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بأمور دنياهم أثر بيان الأحوال المتعلقة بأمور دينهم «شَهَادةُ بينكُمْ» اختلف في هذه الشهادة: فقيل: هي الشهادة المعروفة: التي هي الإخبار بحق للغير على الغير. وقيل: هي حضور وصية المحتضر. وعبارة الخطيب: المعنى أن المحتضر إذا أراد الوصيّة ينبغى أن يُشهد عدلين من أهل دينه على وصيته، أو ما يوصى إليهما احتياطاً، فإن لم يجدهما فآخران من غيرهم. «إذَا حَضَرَ أحَدَكُمُ المَوْتُ» أي أسبابه من غيبوبة ونزع «حِينَ الوَصِيّة اثْنَانِ ذَوَا

عَدْلٍ مِنكُمْ» خبر بمعنى الأمر أي هذه الجملة وهي قوله: شهادة بينكم ..الخ. خبريّة ومعناها الطلب: أي ليشهد، وإضافة شهادة بينكم على الاتساع والتجوز. أي وحقّ الشهادة أن تضاف إلى المشهود به كأن يقال شهادة الحقوق المشروعة بينكم وهي شهادة اثنين من المسلمين ذوى العدل والاستقامة يُشهدهما الموصي على وصيته، فيشهدان بذلك عند الحاجة «**أَوْ آخران مِنْ غَيْرِكُم**» أي غير ملتكم «**إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى الأَرْضِ**» أي سافرتم للتجارة ونحوها «**فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ**» أي أو شهادة اثنين آخرين من غير المسلمين إن كنتم مسافرين، ونزلت بكم مقدّمات الموت، وأردتم الايصاء، «**تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاة**» أي صلاة العصر لأنها وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار، ولأن جميع الملل يعظمون هذا الوقت، ويجتنبون فيه الحلف الكاذب. وقال الحسن: صلاة الظهر، وقيل: أيّ صلاة كانت، وقيل: من بعد صلاتهما لأنهما كافران (القرطبي)، والأصح أنها صلاة العصر لأن النبي صلى الله عليه وسلم حلّف عدياً وتميماً بعدها، ولأن العمل قد جرى عليه، فكان التحليف فيه هو المعروف، وروى عن ابن عباس أنّ الشهيديْن إذا كانا غير مسلمين فالمراد بالصلاة صلاة أهل دينهما «**فَيُقْسِمَانِ بالله إن ارْتَبْتُمْ**» أي وتستقسمون الشاهدين وتطلبون حلفهما على الوصية، إن شككتُمْ في صدقهما فيقسمان: أما الأمين فيصدّق بلا يمين. لأن التقدير: إن ارتبتم فحلّفوهما. هذا ما جرى عليه الأكثر، وهو جواب إن ارتبتم «**لاَ نَشْتَرِى بِهِ ثَمَناً قليلاً**» أي يقسمان بقولهما: لا نشترى بيمين ثمناً، ولو كان المُقْسَم له من أقاربنا. أي لا نجعل يمين الله كالسلعة التي تبذل لأجل ثم ينتفع به في الدينا «**ولاَ نكْتُمُ شَهَادَةَ الله**» التي أمرنا بها كما قال «**وأقيمُوا الشَّهَادَةَ لله**» «**إِنَّا إذاً**» إن كتمناها «**لَمِنَ الآثمينَ**» أي متحملين للإثم الذي نستحق الجزاء عليه من الله تعالى «**فإنْ عُثِرَ**» اطلع بعد حلفهما «**عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إثْماً**» أي فعلا ما يوجبه من خيانة، أو كذب في الشهادة بأن وجد عندهما مثلاً ما اتّهما به، وادّعيا أنهما ابتاعاهُ من الميت، أو وصّى لهما به. أو دفعه إلى شخص زاعماً أن الميت أوصى له به كما ورد في ادعائهما في الأقوال المنقولة في القصّة في سبب نزول الآية «**فآخَرانِ يَقُومَان مقامَهُما**» أي فالواجب حينئذٍ أن تُردّ اليمين إلى الورثة بأن يقوم رجلان آخران مقامهما من أولياء الميت الوارثين له المفهوم من قوله «**مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقّ عَلَيْهِمْ**» الوصية، وهم الورثة «**الأَوْلَيَانِ**» بالميت. أي الأقربان إليه فيحلفان

«فَيُقْسِمَانِ بالله» على خيانة الشاهدين، و يقولان «لَشَهَادَتُنَا» يميناً «أَحَقُّ» أصدق «مِنْ شَهَادَتِهِمَ» يمينها «وَمَا اعْتَدَيْنَا» تجاوزنا الحق في اليمين «إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ» أي و يقولان في يمينهما إنا إذا اعتدينا الحقّ فحلفنا مبطلين كاذبين لنكونن من الظالمين لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وانتقامه. «ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يأْتُوا بالشهادة» أي أدنى الطرق وأقربها إلى أن يؤدى الشهداء الشهادة «على وَجْهِهَا» بلا تبديل ولا تغيير، تعظيماً لله ورهبة من عذابه ورغبة في ثوابه. أو خوفاً من الفضيحة بين الناس «أَوْ» أقرب إلى أن «يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ» على الورثة المدّعين، فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم فيفتضحون و يغرمون فلا يكذبوا باليمين، وعبارة أبي السعود. فلا يحلفوا على موجب شهادتهم إن لم يأتُوا بها على وجهها فيظهر كذبهم بنكولهم «واتَّقُوا الله» بترك الخيانة والكذب «واسْمَعُوا» ما تُؤمرون به سماع قبول «والله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» الخارجين عن طاعته إلى سبيل الخير.

إلى هنا تم بعون الله الجزء الأول و يليه الجزء الثاني أوله سورة الأنعام وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها من قوله تعالى: «وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِى قِرْطَاسٍ..»



الفهـــــرس

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

(سـورة النّساء)

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

مطـــابع الاشـــعاع

الرياض ت : ٤٤٨٦٣٥٨ ـــ ٤٠٤١٣٦٦

الخطــأ والصـــواب

الصفحة	السطر	الخطــــأ	الصـــــواب
١٠	٨	يَعِظُكَمْ	يَعِظُكُمْ
٤٧	٢٥	يَشْعُرُنَ	يشعرون
٤٩	١٥	الصفاهات	السفاهات
٦٧	٤	فعطم	فعظم
٧٠	٢١	كبيرت	كبريت
٨٩	١	الشيطن	الشيطان
٩٦	٢٦	الوحدى	الواحدى
١٤٦	٢٢	عليه	عليها
١٥٤	٨	ألئك (وأينما وجدت)	أولئك
١٦١	٦	الّدى	الّذى
١٦٢	١٤	الصّبع	الصبغ
١٦٩	٢٢	وكا	وكان
٢٠٤	٦	بالمساوة	بالمساواة
٢١١	٤	المسليمن	المسلمين
٢٣٧	٤	فكانو	فكانوا
٢٣٩	٩	وليسو	وليسوا
٢٧٦	الأخير	بن	بنت
٢٩١	٦	بعضه	بغضه
٢٩٣	١٧	لحميع	لجميع
٢٩٦	٢٢	الخبث	الخَبِيثَ (حيثما وجدت)
٢٩٨	١٥	تُبْدُا	تُبدُوا
٣٠٥	٢٥	الطرفية	الظرفية
٣٠٨	١	المخصوصو	المخصوص
٣١٤	١٥	الدينا	الدنيا
٣٢١	٢١	للتقال	للتقاتل
٣٢١	٢٣	المسليمن	المسلمين (حيثما وجدت)
٣٣٠	١٠	موسوى	موسى
٣٣٢	٢٠	سلماً	سلمان
٣٥٤	١٠	باستبعاد	باستعباد
٣٨٠	١٢	ثففوا	ثُقِفُوا (حيثما وجدت)
٤٠١	١٣	رتداده	ارتداده

الصفحة	السطر	الخطـــأ	الصـــواب
٤٠٨	١٨	الشيطانْ	الشيطانُ
٤٢٣	١٢	فإنَّ	فإنْ
٤٢٤	٢٣	فَقَدَ	فَقَدْ
٤٢٨	٢	تَحْسَبَنَّ	تَحْسَبَنَّ
٤٢٩	٢٠	قريس	قريش
٤٣١	١١	تَحْتَهَا	تَحْتِهَا
٤٣٧	٣، ٨	تَتَبَدَّلُوا	تَتَبَدَّلُوا
٤٣٧	الأخير	تُخالِطُهُمْ	تخالِطُوهم
٤٤٩	١٧، ٢٤	يُوصِكُمْ	يُوصِيكُمُ
٤٥٨	١٩	طَوْلاً	طَوْلاً
٤٧٥	٦	يُزَكُونَ	يُزَكُّونَ
٤٩٣	٢	يدْرِكُّكُمْ	يدْرِككُّمُ
٤٩٣	٢	تُصِبْهُمْ	تُصِبْهُمْ
٥٠١	١٥	يَصَدُّقُوا	يَصَّدَّقُوا
٥٠٥	٧	إلَيْكُمْ	إلَيْكُمُ
٥٠٥	٨	مَغَانِمَ	مَغَانِمُ
٥٠٧	٢٠، ٢١	فَضَّلَ	فَضَّلَ
٥٣٩	١٢	غَلْفٌ	غُلْفٌ
٥٥٤	١٢	لَكُمْ	لَكُمُ
٥٩٦	١١	أهْلِكُمْ	أهْلِيكُمْ
٦٠٢	٧	حُنَاحٌ	جُنَاحٌ
٦١٥	٢	شهَادَتِهِمَ	شهَادَتِهِمَا

جامع النقول في أسباب النزول

صــدر الإذن بطباعة هذا الكتاب من :

١ ـــ الإدارة العامة لشئون المصاحف ومراقبة المطبوعات برئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد برقم ٥/٧٩١٠ وتاريخ ١٤٠٤/٥/٧هـ.

٢ ـــ ومن المديرية العامة للمطبوعات بوزارة الاعلام برقم ٥٥٨٠م وتاريخ ١٤٠٤/٨/١٤هـ.

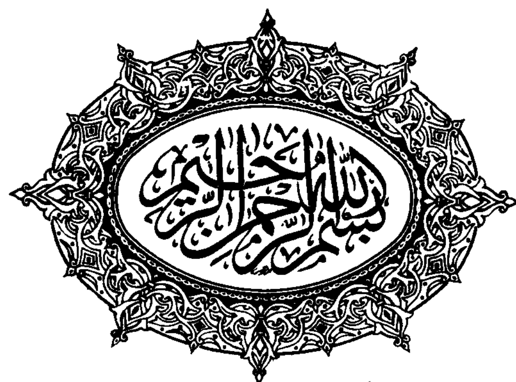
ابن خليفة عليوى
خريج جامعة الأزهر الشريف

جامع النقول في أسباب النزول

وشرح آياتها

الجزء الثاني

الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثـانى

(من كتاب جامع النقول في أسباب النزول)

بسـم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ** ﴾ في الواحدي : قال الكلبي : إن مشركى مكة قالوا يا محمد : والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله . وأنك رسوله فنزلت هذه الآية * وفي الخازن : قال الكلبي ومقاتل : نزلت في النضر بن الحرث وعبد الله بن أمية ، ونوفل بن خويلد : قالوا يا محمد : لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب ...الخ .. ما في الواحدي ومثله فى الغرائب وأبي السعود . وفي المراغي . وروى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن اسحاق : سبب نزول الآية الثانية : قال : دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام ، وكلمهم فأبلغ إليهم ، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب والنضر بن الحارث بن كلدة وعبدة بن عبد يغوث ، وأبي بن خلف والعاصى بن وائل بن هشام : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ، ويرى معك – فأنزل الله في ذلك : ﴿ **وقالوا لولا أُنزِلَ عليهِ مَلَكٌ** ... ﴾ قال المراغي : ورجح بعضهم أن هذا السبب لا يصح في هذه الآية ، لأن اقتراح المعاندين من المشركين إنزال الملك مع الرسول مذكور في سور من القرآن أنزلت قبل هذه السورة ، فما فيها . إنما هو رد على شبهة سبقت وحكيت عليهم ، وكذلك اقتراح إنزال كتاب من السماء ، وإنزال القرآن جملة واحدة مذكور في سورة الفرقان * أما التفسير ﴿ **وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كتاباً** ﴾ مكتوبا ، لأن الكتاب مصدر بمعنى اسم المفعول وهو الشيء الذى يكتب من المعانى والألفاظ ﴿ **فِي قِرْطَاسٍ** ﴾ رَق يتخذ من الجلد يكتب فيه ، وفسره البيضاوى والزمخشرى بالورق ، وهو تفسير بالأخص . لأن القرطاس في اللغة أعم منها . ففى المصباح ، والقرطاس ما يكتب فيه ، وفي

القاموس . القرطاس مثلث القاف كجعفر ودرهم : الكاغد * وفي السمين القرطاس الصحيفة يكتب فيها تكون من ورق وكاغد وغيرهما ، ولا يقال قرطاس إلا إذا كان مكتوبا، وإلا فهو طرس وكاغد* قلت : والمعروف لدى العامة أن القرطاس كيس من الورق . والظاهر أن المراد . ولو أنزل عليهم مكتوبا في قرطاس كناية عن حفظه ﴿ **فلَمَسُوهُ بأيْديهِمْ** ﴾ أي القرطاس الذي فيه المكتوب . ولم يقل عاينوه لأن اللمس أبلغ من المعاينة . وأنفى للشك ، والباء للاستعانة كعملت بالقدوم ، لأن السحر يجرى على المرئى ولا يجرى على الملموس ، ولأن الغالب أن اللمس بعد المعاينة ﴿ **فَقَالَ الّذِينَ كَفَرُوا إنْ** ﴾ ما ﴿ **هَذَا إلاَّ سِحْرٌ مبين** ﴾ تعنتا وعنادا ﴿ **وقَالُوا لَوْلآ** ﴾ هلا ﴿ **أُنْزِلَ علَيْه** ﴾ على محمد ﷺ ﴿ **مَلَكٌ** ﴾ يصدقه . والظاهر أن هذه الجملة مستأنفة سيقت للاخبار عنهم بفرط تعنتهم وتضليلهم في كفرهم . أي أن النبي ليس صادقاً عندهم بل لابد له من ملك يشهد له في دعوى النبوة ، فرد الله على ذلك ﴿ **لَقُضِيَ الأمْرُ** ﴾ بهلاكهم ﴿ **ثُمَّ لا يُنْظرون** ﴾ يمهلون لتوبة أو معذرة كعادة الله فيمن قبلهم من إهلاكهم عند وجود مقترحهم إذا لم يؤمنو ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ** ﴾ أي المنزل إليهم ﴿ **مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ** ﴾ أي الملك ﴿ **رَجُلاً** ﴾ أي على صورته ليتمكنوا من رؤيته إذ لا قوة للبشر على رؤية الملك . وعبارة الخازن . وذلك أن البشر لا يستطيعون أن ينظروا إلى الملائكة في صورهم التى خلقوا عليها ، ولو نظر إلى الملك ناظر لصعق عند رؤيته ، ولذلك كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الإنس كما جاء جبريل إلى النبي ﷺ في صورة دحية الكلبى ، وكما جاء الملكان إلى داود عليه السلام في صورة رجلين ، وكذلك أتت الملائكة إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام ، ولما رأى النبي ﷺ جبريل في صورته التى خلق عليها صعق لذلك وغشى عليه . ﴿ **و** ﴾ لو أنزلناه وجعلناه رجلا ﴿ **لَلَبَسْنَا** ﴾ شبهنا ﴿ **عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ** ﴾ على أنفسهم حينئذ بأن يقولوا له : إنما أنت بشر ، ولست بملك ، ولو استدل على ملكيته بالقرآن المعجز الناطق بها ، أو بمعجزات أخر غير ملجئة إلى التصديق لكذبوه كما كذبوا النبي عليه السلام ، ولو أظهر لهم صورته الأصلية لصعقوا ، ولم يتمكنوا من تكليمه . وفيه تأكيد لاستحالة جعل النذير ملكاً . أو من غير جنس البشر ، فكأنه قال تعالى لو فعلناه لفعلنا ما لا يليق بشأننا من لبس الأمر عليهم . وذكر البخاري في تفسير قضاء الأمر عدة وجوه . الأول – أن سنة الله جرت بأن

أقوام الرسل إذا اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا بها يعذبهم الله عذاب استئصال ، والله لا يريد أن يستأصل هذه الأمة التى بعث فيها خاتم رسله نبى الرحمة ﴿ **وما أرْسَلْنَاك إلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمنَ** ﴾ الثاني – أنهم لو شاهدوا الملك بصورته الأصلية لزهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون . الثالث – أن رؤية الملك بصورته آية ملجئة يزول بها الاختيار الذي هو قاعدة التكليف . الرابع – أنهم اقترحوا ما لا يتوقف عليه الإيمان ، فلو أعطوه ولم يجد ذلك معهم نفعا دل ذلك على منتهى العناد الذى يستدعى الإهلاك وعدم النظرة *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ولَهُ مٰا سَكَنَ في اللّيل والنَّهارِ وهُوَ السَّميعُ الْعَلِيمُ** ﴾ في الواحدي : روى الكلبي عن ابن عباس أن كفار مكة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد : إنا قد علمنا أنه إنما يحملك على ما تدعوا إليه الحاجة ، فنحن نجعل لك نصيبا في أموالنا حتى تكون أغنانا رجلا وترجع عما أنت عليه . فنزلت هذه الآية * وكذا في الغرائب ، ولم أعثر على غير ما ذكرا . أما التفسير . قوله : ﴿ **ولَهُ مٰا سَكَن في اللّيْل والنّهار** ﴾ أي وما تحرك أيضا كقوله : ﴿**سَرَابِيلَ تقيكُمْ الحرَّ** ﴾ . أي تقيكم الحر والبرد فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر للقرينة . هذا إذا كان مشتقاً من السكنى كما يقال فلان سكن ببلد كذا أي حل فيه ، والمراد كل ما حل في الوقت والزمان سواء كان متحركا أو ساكنا ، وذلك أن الدخول تحت الزمان يستلزم التغير والحدوث ، فلابد من محدث يتقدم عليه وعلى نفس الزمان . ومن فسر ذلك بالاستقرار عنى بذلك شمول القسمين ، وخص الساكن بالذكر دون المتحرك لأن الساكن من المخلوقات أكثر عددا من المتحرك . أو لأن السكون هو الأصل والحركة طارئة . والمعنى : لله ما في السمٰوات وما في الأرض الساكن منهما والمتحرك وفي ذلك تنبيه إلى تصرفه تعالى بهذه الخفايا ، ولاسيما إذا جن الليل وهدأ الخلق ﴿ **وَهُوَ السَّميعُ** ﴾ لما يقال ﴿ **الْعَلِيمُ** ﴾ بما يفعل . أي المحيط سمعه بكل ما من شأنه أن يسمع مهما يكن خفيا عن غيره ، فهو يسمع دبيب النملة في الليلة الظلماء على الصخرة الصما ، والمحيط علمه بكل شيء في هذا الوجود مهما دق أو كبر ﴿ **يَعْلَمُ خائِنَةَ الأعيُنِ ومٰا تُخْفِى**

الصُدُورُ ﴾ فقد أعطى محمداً ﷺ النبوة والمقام المحمود في الأخرة ، وهما خير مما يعرض عليه كفار مكة من الأموال *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أيُّ شَيء أكْبَرُ شَهادَةً قُلْ اللهُ شَهِيدٌ بيْني وبيْنكُمْ وأُوحىَ إليَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُم بِهِ ومَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخرىَ قُلْ لَا أشْهَدُ قلْ إنَّما هُوَ إلَهٌ وَاحِدٌ وإنّنِي بَرِيءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ** ﴾ في الواحدي : قال الكلبي : إن رؤساء مكة قالوا يا محمد : ما نرى أحدا يصدقك بما تقول من أمر الرسالة ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى . فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة . فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم فأنزل الله تعالى هذه الآية* وكذا في الغرائب والخازن وفي اللباب : أخرج ابن اسحاق وابن جرير من طرق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال جاء النحام بن زيد وقروم بن كعب وبحرى بن عمرو فقالوا يا محمد : ما نعلم مع الله إلها غيره ، فقال : لا إله إلا الله بذلك بعثت وإلى ذلك أدعوا . فأنزل الله في قولهم : ﴿ **قُلِ اللهُ شهيدٌ بَيْنى وبينكُمْ** ﴾ على صدق . والمراد بشهادة الله اظهار المعجزة على يد النبي ﷺ ، فإن حقيقة الشهادة ما بين به المدعى ، وهو كما يكون بالقول يكون بالفعل ، ولا شك أن دلالة الفعل أقوى من دلالة القول لعروض الاحتمالات في الألفاظ دون الأفعال ، فإن دلالتها لا يعرض لها الاحتمال ، وأن المعجزة نازلة من قوله تعالى صدق عبدى في كل ما يبلغ عنى . وشهادة الله بين الرسل وقومه ضربان : شهادته برسالة الرسول ، وشهادته بصدق ما جاء به : والأول أنواع ثلاثة : الأول – اخباره بها في كتابه بنحو قول : ﴿ **مُحَمّدٌ رَسُولُ اللهِ** ﴾ والثاني – تأييده بالمعجزات الكثيرة التى من أعظمها القرآن الكريم فهو المعجزة المحسوسة الدائمة إلى يوم الدين ، فقد ثبت عجز البشر عن الاتيان بمثله حتى ولو من أقصر سوره عدا عما فيه من أخبار الغيب ، ووعد الرسول والمؤمنين بنصر الله الثالث – شهادة كتبه السابقة ، وبشارة الرسل السابقين به ، ولا تزال هذه الشهادة طى كتب اليهود والنصارى . والثاني : ثلاثة أنواع أيضا . الأول : شهادة كتبه بذلك كقوله تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللهُ أنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ والْملائكَةُ وأولُوا الْعِلْمِ قائِماً بالْقِسْطِ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ العزيزُ الحكيمُ * إنَّ الدّينَ عندَ اللهِ الإسْلام** ﴾ الثاني : ما أقامه من الآيات في الأنفس والآفاق مما يدل على

توحيده واتصافه بصفات الكمال . الثالث : ما أودعه جل شأنه في الفطرة البشرية من الإيمان بإله واحد له صفات الكمال ، والبقاء الذى لا نهاية له . ﴿ **وأُوحِيَ إليَّ هَذَا الْقرْآنُ لأُنْذِرَكُم** ﴾ يا أهل مكة ﴿ **بِهِ ومَنْ بَلَغَ** ﴾ أي بلغه القرآن ممن يأتى بعد إلى يوم القيامة من العرب والعجم ، وغيرهم من سائر الأمم * في الخازن قال محمد بن كعب القرطبي : من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه * . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس مرفوعاً قال : -(من بَلَغَهُ القرآن فكأنما شافَهْتُهُ به)- ثم قرأ : ﴿ **وأوحىَ إليَّ هَذَا الْقرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ** ﴾ وأخرج أبو الشيخ عن أبي كعب قال : أتى رسول الله ﷺ بأسارى فقال لهم : « هل دعيتم إلى الاسلام ؟ » قالوا : لا ، فخلى سبيلهم ، ثم قرأ : ﴿ **وأوحيِ إليَّ هَذا القرآن لأُنْذِرَكُمْ به** ﴾ ثم قال : « خلوا سبيلهم حتى يأتوا مأمنهم من أجل أنهم لم يدعوا » وفي الخازن : وقال أنس بن مالك : لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل . وأخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاصى أن النبي ﷺ قال : « بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليَّ متعمدا فليتبوا مقعده من النار » وقد شرح الخازن الحديث بقوله : فيه الأمر بإبلاغ ما جاءبه النبي ﷺ إلى من بعده من قرآن وسنة . وقوله : وحدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج . الحرج الضيق ولاثم . ومعنى الحديث . أنه مهما قلتم عن بنى اسرائيل فإنهم كانوا في حال أكثر مما قلتم وأوسع . وليس هذا فيه إباحة الكذب والاخبار عن بنى اسرائيل لكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على بعض البلاغ . وإن لم يتحقق ذلك بنقل لأنه أمر قد تعذر لبعد المسافة وطول المدة . عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نضر الله امرأً سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع » أخرجه الترمذي * والمعنى : وهو نذير لكل من بلغه من الملائكة والإنس والجن ، كقوله تعالى : ﴿ **ومَنْ يكفُرْ به مِنَ الأَحْزَابِ فالنّار موْعِدُه** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **أئنكُمْ لتَشْهَدُونَ** ﴾ أيها المشركون أي ﴿ **أنَّ معَ الله آلهة أُخرىَ قلْ لا أشْهَدُ** ﴾ كقوله : ﴿ **فإنْ شهِدُوا فلَا تشْهَدْ مَعَهُمْ** ﴾ * وآلهة الكفار : الأصنام التى كانوا يعبدونها . أي لا أشهد بما تشهدون به أن مع الله آلهة أخرى ، بل أجحد ذلك وأنكره ﴿ **قُلْ هُوَ إلهٌ واحدٌ** ﴾ أي وبذلك أشهد . وقد قامت الدلائل العقلية والنقلية على صدق ذلك

﴿ وإنَّني بَرِىٌّ مِمَّاتُشْرِكونَ﴾ أي وأنا برىء من كل ما تعبدون سوى الله . فبالتوحيد بعثت ، وبكسر الأصنام أمرت ، وبدين الإسلام رضيت *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يِسْتَمعُ إليْكَ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أن يفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرا وإنْ يَروْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حتَّى إذَا جَاؤُكَ يُجَادِلُونَكَ يقُولُ الَّذِينَ كفَرُوا إنْ هَذَا إلاَّ أساطيرُ الأوَّلينَ ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس في رواية أبي صالح : إن أبا سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث ، وعتبة وشيبة ابني ربيعة وأمية وأبيا ابنى خلف . استمعوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا للنضر : يا أبا قتيلة ما يقول محمد ، قال : والذي جعلها بيته ما أدرى ما يقول إلا أنى أرى يحرك شفتيه يتكلم بشىء ، وما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية ، وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى ، وكان يحدث قريشا فيستملحون حديثه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * زاد المراغى : قال أبو سفيان : إنى لأرى بعض ما يقول حقا ، فقال أبو جهل : كلا فأنزل الله الآية * وفي الخازن : قال أبو جهل : كلا لا نقر بشىء من هذا . وتجىء رواية : للموت أهون علينا من هذا فأ نزل الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مِنْ يَستَمِعُ إليْكَ ... ﴾ وكذا في الغرائب والكشاف أما التفسير : ﴿ ومِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إليْكَ ﴾ يا محمد إذا قرأت ، وفي يونس يستمعون بالجمع لأن ما هنا في قوم قليلين فنزلوا منزلة الواحد ، وما في يونس في جميع الكفار مناسب الجميع فأعيد الضمير على معنى من . ﴿ وجَعَلْنَا عَلى قُلُوبِهِمْ أكِنةً ﴾ أغطية مستقرة على قلوبهم ﴿ أنْ ﴾ لا ﴿ يفْقَهُوهُ ﴾ يفهموا القرآن ﴿ وفي آذانِهِمْ وقْرا ﴾ أي وجعلنا في آذانهم صمما فلا يسمعونه سماع قبول ﴿ وإنْ يَروا كُل آيَةٍ ﴾ دالة على صدق رسالتك ﴿ لَا يؤْمنُوا بها ﴾ لعدم استعمال عقولهم والتفكير فيما جئتهم به ، حال كونهم ﴿ يُجادِلُونَك ﴾ في الرسالة والقرآن ﴿ يقُولُ الَّذِين كفَرُوا إنْ ﴾ ما ﴿ هَذَا ﴾ القرآن ﴿ إلاَّ أسَاطيرُ الأوَّلينَ ﴾ أساطير جمع أسطورة نحو أحدوثة وأحاديث . ومعنى الأساطير الأحاديث الباطلة وهى الخرافات والترهات . وجائز أن يكون الواحد أسطارا مثل أبيات وأبابيت وأقوال وأقاويل من قول الله تعالى : وكتاب مسطور ، فإن كان هذا فإن معناه ما هذا إلا ما كتبه الأولون ، وعن ابن عباس : معناه إن هذا إلا أساطير

الأولين . وعن السدى : أساجيع الأولين ، وعن ابن عباس في تفسير ﴿ **حتّى إذا جاؤُكَ يُجادِلُونكَ** ﴾ قال : هم المشركون يجادلون المسلمين في الذبيحة يقولون : أما ما ذبحتم وقتلتم تأكلون ، وأما ما قتل الله فلا تأكلون . وأنتم تتبعون أمر الله تعالى * وإنما نسبوا القرآن إلى أساطير الأولين بمعنى أنه ليس بوحى من الله تعالى . وإنما هو أخبار مجردة كما تروى أخبار الأولين * ثم إن غرض القوم من هذا القول هو القدح في كون القرآن معجزاً كما أن الكتب المشتملة على الأخبار والقصص ليست بمعجزة . والجواب : إن هذا القرآن مقرون بالتحدى وقد عجزوا جميعا عن الاتيان بمثل أقصر سورة منه فظهر الفرق بين تلك الأساطير وتراكيب ألفاظ القرآن الكريم * كما أن تلك الأساطير من كلام البشر كحديث رستم وغيره ، والقرآن كلام الله العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه * وكانوا يعنون بالأساطير الخرافات الباطلة التى لا يكون فيها فائدة معتبرة *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وينأوْنَ عَنْهُ وإنْ يُهْلكُونَ إلاَّ أنْفسَهُمْ ومَا يشعُرُونَ** ﴾ في لباب السيوطي : نزلت في عمومة النبي ﷺ . وكانوا عشرة . فكانوا أشد الناس معه في العلانية ، وأشد الناس عليه في الشر * وفي الغرائب : وعن عطاء ومقاتل عن ابن عباس أنها نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ، ويتباعد عما جاء به . روى أن قريشا اجتمعوا إلى أبي طالب يريدون سوأً بالنبي ﷺ ، فقال أبو طالب :

والله لَنْ يصلُوا إليك بجمعهم * حتّى أُوسّد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة * وابشر وقرّ بذاك منك عيونا
وعرضتَ ديناً لا محالة أنه * من خير أديان البريّة دينا
ودعوتّنى وزعمت أنك ناصحى * ولقد صدقت وكنتَ ثمَّ أمينا
لولا الملامةُ أو حذارى سَبّة * لوجدتنى سمحاً بذاك مبينا

وكذلك في الخازن : وفي الكرخى ، وقيل : نزلت في عمه أبي طالب وهو قول ابن عباس وعمرو بن دينار وسعيد بن جبير * والقائل بأنها نزلت في المشركين جماعة منهم الكلبي والحسن . وفي مجمع الزوائد قوله : ﴿ **وهُمْ ينهون عنهُ** ﴾ عن ابن عباس : ﴿ **وهُمْ ينْهَوْنَ عنه ويَنْأوْنَ عَنْهُ** ﴾ نزلت في أبي طالب كان ينهى عن أذى النبي ﷺ

وينأى عن اتباعه . قال الهيثمي : رواه الطبراني ، وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة وغيره ..... وضعفه ابن معين وغيره ، وبقية رجاله ثقات * وفي مستدرك الحاكم : حدثنا على بن حمشاذ العدل : ثنا محمد بن منده الأصبهاني ، ثنا بكر بن بكار ، ثنا حمزة بن حبيب بي أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله عز وجل : ﴿ وَهُمْ يَنْهونَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ قال نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ويتباعد عما جاء به * قال الحاكم حديث حمزة بن حبيب صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وأقره الذهبي * وحينئذ فجمع الضمير المرفوع من حيث استتباعه لأتباعه . وقوله كان ينهى المشركين الخ .. فعلى الأول وهم ينهون عنه يعنى عن اتباعه وهو عام فيدخل فيهم أبو طالب ، وعلى الثاني يعنى عن أذاه . وقوله : ﴿ إنْ يُهلِكُونَ إلاَّ أنْفُسَهُمْ ﴾ أي بما تقدم ذكره . ولكن النهى عن أذيته حسن لا يوجب الهلاك . ويمكن أن يجاب بأن الذم توجه على الهيئة الاجتماعية الحاصلة من النهى مع النأى كقوله : ﴿ أتأمُرُونَ النّاس بالبر وتنْسُونَ أنْفُسَكُمْ ﴾ ولو سلم فلم لا يجوز أن يرجع الذم إلى القسم الأخير فقط ، وعبارة أبي السعود : بالنهى والنأى . أي ﴿ وإنْ ﴾ ما ﴿ يُهْلِكُوْنَ ﴾ بالنأى عنه ﴿ إلّا أنْفُسَهُمْ ﴾ لأن ضرره عليهم ﴿ وما يشعرُونَ ﴾ بذلك أي بإهلاك أنفسهم . وهذه الآية متصلة بما قبلها إذ هى تأكيد لطعنهم في القرآن الكريم ونهيهم عن اتباع النبي ﷺ *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الّذى يَقُولُونَ فإنَّهُمْ لا يكذّبونَكَ ولَكِنَّ الظّالِمينَ بآياتِ الله يجحَدُونَ ﴾ في الواحدي : قال السدى : التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام . فقال الأخنس لأبي جهل . يا أبا الحكم : أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس هنا من يسمع كلامك غيرى . فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجامة والندوة والنبوة فماذ يكون لسائر قريش ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال أبو ميسرة : إن رسول الله ﷺ مر بأبي جهل وأصحابه فقالوا يا محمد : إنا والله ما نكذبك ، وإنك عندنا لصادق ، ولكن نكذب ما جئت به . فنزلت ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكنَّ الظالمينَ بآيات الله يجحَدُون ﴾ * وفي الخازن عن

علي رضي الله عنه أن أباجهل قال للنبي ﷺ : إنا لا نكذبك ولكن نكذب الذى جئت به * فأنزل الله فيهم ﴿ **فإنهم لا يكذبونك** ... ﴾ أخرجه الترمذي من طريقين ، وقال في أحدهما وهذا أصح . قلت : وفي المستدرك عن علي رضي الله عنه قال : قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : قد نعلم يا محمد إنك تصل الرحم وتصدق الحديث ولا نكذبك ولكن نكذب الذي جئت به ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **قد نَعْلَمُ إنّه ليَحْزُنُكَ الّذِي يَقُولُونَ فإنّهُمْ لَا يكذّبُونكَ ولكنَّ الظالمينَ بآياتِ الله يجحُدُون** ﴾ قال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وكذا في بقية التفاسير . وقوله تعالى : ﴿ **قَدْ** ﴾ للتحقيق ﴿ **نَعْلَمُ إنّهُ** ﴾ أي الشأن ﴿ **ليَحزُنُك الّذِي يقولُون** ﴾ لك من التكذيب وهو استئناف مسوق لتسلية النبي ﷺ عن الحزن الذي يعتريه مما حلّ عن الكفرة من الاصرار على التكذيب والمبالغة في بيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانة من الله تعالى . وأن ما يفعلون في حقه فهو راجع إليه تعالى في الحقيقة ، وأنه ينتقم منهم لا محالة أشد انتقام ، وكلمة قد للتحقيق وتأكيد العلم بما ذكر المقيد لتأكيد الوعيد كما في قوله :﴿قَدْ يَعْلَمَ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ وقوله : ﴿ **قَدْ يَعْلَمُ الله المعوّقين** ﴾ * ونحوهما بإخراجها إلى معنى التكثير ، والمراد بكثرة علمه تعالى كثرة متعلقاته . وقوله : ﴿ **فإنَّهمْ لا يُكَذِّبُونَكَ** ﴾ في السر لعلمهم أنك صادق . والفاء للتعليل ، ووجه التعليل بأن التكذيب في الحقيقة لى ، وأنا الحليم الصبور فتخلق بأخلاق ، ويحتمل أن يكون المعنى إنه يحزنك قولهم لأنه تكذيب لي ، فأنت لم تحزن لنفسك بل لما هو أهم . ﴿ **ولَكِنَّ الظّالِمينَ** ﴾ وضعه موضع المضمر ، وهم ﴿ **بآياتِ اللهِ** ﴾ القرآن ﴿ **يَجْحَدُون** ﴾ يكذبون في العلانية . والتعبير عن الكذب بالجحود للايذان بأن آياته تعالى واضحة بحيث يشاهد صدقها كل أحد ، وإن من ينكرها فإنما ينكرها بطريق الجحود الذى هو الانكار مع العلم ، والجحد والجحود نفى ما في القلب ثباته أو إثبات ما في القلب نفيه . وهو نقيض الاقرار كالانكار * وفي السمين وقيل : الجحد انكار المعرفة فليس مرادا للنفي من كل وجه * قلت : ولذا وصفهم بالظلم لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه وفي المثل : من استرعى الذئب فقد ظلم . وأصل الظلم الجور ومجاوزة الحد ، والميل عن القصد . لذا كان وصفهم بالظلم والجحود أمرا لازما .﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً﴾

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴾. في الواحدي : حدث المقداد بن شريح عن أبيه عن سعد قال : نزلت هذه الآية فيّ وفى ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال . قالت قريش لرسول الله ﷺ : إنا لا نرضى أن نكون أتباعا لهؤلاء . فأطردهم ، فدخل قلب رسول الله ﷺ من ذلك ما شاء أن يدخل ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ولا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُون رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ والعشيّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ** ﴾ الآية رواه مسلم عن زهير بن حرب ، عن عبد الرحمن عن سفيان عن المقداد . وفي رواية خباب بن الأرت قال : فينا نزلت كنا ضعفاء عند النبي ﷺ بالغداة والعشى ، فعلمنا القرآن والخير ، وكان يخوفنا بالجنة والنار ، وما ينفعنا ، والموت والبعث ، فجاء الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصين الفزاوى . فقالا : إنا من أشراف قومنا ، وإنا نكره أن يرونا معهم فاطردهم إذا جالسناك . قال : نعم قالوا : لا نرضى حتى نكتب بيننا كتابا ، فأتى بأديم ودوات ، فنزلت هؤلاء الآيات ﴿ **ولا تَطْرُدِ الَّذِينَ يدعونَ رَبَّهُمْ بالْغداةِ والعشيّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فَتَنَّا بَعْضَهُمْ ببعْضٍ** ﴾ . وفي لباب السيوطي : مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب بن الأرت وصهيب وبلال ، فقالوا يا محمد : أرضيت بهؤلاء ؟ وهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ؟ لو طردت هؤلاء لاتبعناك . فأنزل الله فيهم القرآن : ﴿ **وأَنْذِرِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا** ﴾ . إلى قوله : ﴿ **سبيل المجرمين** ﴾ * وكذا روى أحمد وابن جرير والطبراني . وعبارة الخازن : جاء الأقرع بن حابس التميمى وعتبة بن حصين الفزارى – وفى أبي السعود : وعيينة – وعباس بن مرادس : وهم المؤلفة قلوبهم . فوجودوا النبي ﷺ جالسا مع ناس من ضعفاء المؤمنين كعمار بن ياسر وصهيب وبلال ، فلما رأوهم حوله حقروهم ، وقالوا يا رسول الله : لو جلست في صدر المجلس . وأبعدت عنك هؤلاء ، ورائحة جبابهم – وكانت عليهم جبب من صوف لها رائحة كريهة

لمداومة لبسها لعدم غيرها - لجالسناك ، وأخذنا عنك ، فقال النبي : « ما أنا بطارد المؤمنين ، قالوا : فإنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا مع هؤلاء الأعبد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت . قال : نعم ، قالوا : فاكتب لنا عليك بذلك ، فأتى بالصحيفة ، ودعا علياً ليكتب فنزل جبريل بقوله : ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ** ... ﴾ الآية فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة ، ثم دعانا ، وهو يقول :«سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة» فكنا نقعد معه ، وإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ** ... ﴾ الآية فكان يقعد معنا بعد ذلك وندنو منه حتى كادت ركبنا تمس ركبته ، فإذا بلغ الساعة التى يريد أن يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم » وقال لنا : الحمد لله الذى لم يمتني حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى ، معكم المحيا ومعكم الممات» وأورد بعدها روايات كثيرة كلها في نفس المعنى . وفي مجمع الزوائد قوله تعالى : ﴿ **وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِم** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ** ﴾ عن ابن مسعود قال : مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ . وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار . فقالوا يا محمد : أرضيت بهؤلاء فنزل فيهم القرآن ﴿ **وَأَنْذِرْ به الَّذِينَ يَخَافُون أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِين** ﴾ رواه أحمد والطبراني إلا أنه قال : فقالوا يا محمد : أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا لو طردت هؤلاء لأتبعناك ، فأنزل الله : ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُون رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴾ . ورجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة . قوله تعالى ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهم** ﴾ عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلت هذه الآية على النبي ﷺ ، وهو في بعض أبياته . فخرج يتلمس ، فوجد قوما يذكرون الله : منهم ثائر الرأس وحاف الجلد ، وذو الثوب الواحد . فلما رآهم جلس معهم ، فقال : الحمد لله الذى جعل في أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم » قال الهيثمى : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح . وقد ذكر الطبراني عبد الرحمن في الصحابة » أما التفسير : ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ** ﴾ بعبادتهم ﴿ **وَجْهَهُ** ﴾ تعالى

لا شيئاً من أغراض الدنيا ، وهم الفقراء كما علمت أى ولا تطرد أيها الرسول هؤلاء المؤمنين الموحدين الصابرين على البأساء والضراء الذين يعبدون ربهم في كل الأوقات ، وخص الغداة والعشى لأنها طرفي الليل والنهار . قال ابن عباس : يعنى يعبدون ربهم بالغداة والعشى يعنى صلاة الصبح وصلاة العصر ، ويروى عنه أن المراد منه الصلوات الخمس ، وإنما ذكر هذين الوقتين تنبيها على شرفهما ، ولأنهم مواظبون عليهما مع بقية الصلوات ، ولأن الصلاة تشمل على القراءة والدعاء ، والذكر ، فعبر الدعاء عن الصلاة لهذا المعنى . قال مجاهد : صليت الصبح مع سعيد بن المسيب ، فلما سلم الإمام ابتدر الناس القاضى . فقال سعيد بن المسيب : ما أسرع الناس إلى هذا المجلس ؟ فقال مجاهد : يتأولون قوله تعالى : ﴿ **يدعُونَ ربَّهُمْ بالْغَدَاةِ والعشىّ** ﴾ قال : أو في هذا ، إنما هو في الصلاة التى انصرفنا عنها الآن * وقيل : المراد منه حقيقة الدعاء والذكر . قوله : ﴿ **مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيءٍ وما من حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شيء** ﴾ يعنى لا تكلف أمرهم ولا يكلفون أمرك . وقيل : ما عليك حساب رزقهم ، فتطردهم عنك ولا رزقهم عليك إنما هو على الله ، قوله : ﴿ **ومَا مِنْ حسابك عليهم من شيء** ﴾ هذا تتميم . ومجرد فائدة وإلا فالكلام قد تم بدونه . أويقال : إن الطرد جزاء والجزاء لا يكون إلا على سيء الأعمال ولا يثبت ذلك إلا بالحساب ، وحسابهم ليس على الرسول كما أنهم ليسوا محاسبين عن أعماله ، وكلا الحسابين مردّهُ لله تعالى ﴿ **فتكُونَ مِنَ الظّالِمِنَ** ﴾ يعنى بطردهم عنك وعن مجلسك ، وفي هذا تعريض بأولئك الذين طلبوا طردهم بأنهم ظالمون ، وقد علمت أن الظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه ، فيكون المعنى إن أولئك الفقراء الضعفاء يستحقون التعظيم والتقريب،فلا تهم بطردهم عنك ، فتضع الشيء في غير موضعه ، وذلك بأن تحرمهم من مجالستك ومحادثتك . فهو من باب ترك الأفضل والأولى لا من باب ترك الواجبات . وحاشا رسول الله ﷺ من الظلم ، وإنما ورد الخطاب على التحذير قبل الطرد فلم يطردهم لذا انتفى أن يكون ﷺ من زمرة الظالمين وإيضاحه أن تطردهم منصوب على جواب النفى بأحد معنيين فقط وهو انتفاء الطرد لانتفاء كون حسابهم عليه وحسابه عليهم لأنه ينتفى المسبب بانتفاء سببه ، ولنوضح ذلك في مثال : وهو ما تأتينا فتحدثنا بنصب فتحدثنا . وهو يحتمل

معنيين : أحدهما انتفاء الاتيان وانتفاء الحديث كأنه قيل : ما يكون منك إتيان فكيف يقع منك حديث . وهذا المعنى هو مقصود الآية الكريمة أى ما يكون مؤاخذة كل واحد بحساب صاحبه فكيف يقع طرد؟! والمعنى الثاني انتفاء الحديث ، وثبوت الاتيان كأنه قيل : ما أتأتينا محدثا بل تأتينا غير محدث ، وهذا المعنى لا يليق بالآية الكريمة * وقوله : فتكون معطوف على فتطردهم . فيكون المعنى المفهوم هو انتفاء الحساب وانتفاء الطرد والظلم المسبب عن الطرد * وبما ذكرت يرد به على الطاعنين في عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية ، فقالوا : إن النبي ﷺ لما همّ بطرد الفقراء عن مجلسه لأجل الأشراف عاتبه الله على ذلك ، ونهاه عن طردهم . وذلك يقدح في العصمة . وقد علمت كيف ترد عليهم ، وقوله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ** ﴾ أي وكذلك ابتلينا الغنى بالفقير والفقير بالغنى ، والشريف بالوضيع والوضيع بالشريف .. فكل أحد مبتلى بضده ، فكان ابتلاء الأغنياء الشرفاء حسدهم لفقراء الصحابة على كونهم سبقوهم إلى الإسلام وتقدموا عليهم فامتنعوا من الدخول في الإسلام لذلك ، فكان ذلك فتنتهم وابتلاؤهم ، وأما فتنة الفقراء بالأغنياء فلما يرون من سعة رزقهم وخصب

عيشهم فكان ذلك فتنة لهم . والكاف من كذلك في محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف،والتقدير ومثل ذلك الفتون المتقدم الذى فهم من سياق أخبار الأمم الماضية . فتنا بعض هذه الأمة ببعض والاشارة بذلك إلى الفتون المدلول عليه فتنا . ﴿ **لِيَقُولُوا** ﴾ الشرفاء والأغنياء منكرين ﴿ **أهؤلاء** ﴾؟الفقراء ، استفهام انكارى ﴿ **منَّ الله عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا** ﴾ بالهداية إلى الاسلام قبلنا . لو كان ما هم عليه هدى ما سبقونا إليه قال تعالى : ﴿ **أليْسَ الله بأعْلَمَ بالشَّاكرينَ** ﴾ له فيهديهم ؟ بلى * أي إن المستحق لمنّ الله وزيادة نعمه إنما هو من يقدرها قدرها ، ويعرف حق المنعم بها فيشكره عليها لا من سبق الانعام عليه فكفر وبطر وعتا واستكبر ، وفي الآية إيماء إلى أن ما اغتروا به من النعم لن يدوم ، ولا يبقى المؤمنون على الضعف الذى صبروا عليه ﴿ **وإذْ تأذّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزيدَنَّكُمْ ولَئِنْ كفَرْتُمْ إنَّ عذَابِى لَشَدِيدٌ** ﴾ كذلك فيها إشارة إلى أن تركهم للايمان لم يكن إلا جحودا ناشئا عن الكبر والعلو فى الأرض لا عن حجة ولا عن شبهة ، وإلى أن ضعفاء المؤمنين السابقين لم يفتنوا بغنى كُبراء المشركين وقوتهم *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وإذَا جَاءَكَ الّذِينَ يُؤمِنُونَ بآياتِنَا فَقُلْ سَلامٌ علَيْكُمْ كَتَبَ ربُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وأصْلَحَ فأنَّهُ غفُورٌ رَحيمٌ ﴾ في الواحدي : قال عكرمة : نزلت في الذين نهى الله تعالى نبيه ﷺ عن طردهم ، فكان إذ رآهم النبي ﷺ بدأهم بالسلام ، وقال : الحمد لله الذى جعل في أمتى من أمرني أن أبدأهم بالسلام ، وقد تقدم الكلام عليها ، أي وإذا جاءك القوم الذين يصدقون بكتابنا وحججنا ، ويقرون بذلك قولا وعملا ، سائلين عن ذنوبهم ، التى فرطت منهم : هل لهم منها توبة ؟ فلا تُؤيّسهم منها ، وقل لهم : سلام عليكم ، أي أمنةُ الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها لأنه تعالى أوجب على ذاته المقدسة تفضلاً منه وإحسانا . الرحمة بخلقه أنه من عمل منهم عملا تسوُء عاقبته حال كونه ملبسا بجهالة دفعته إلى ذلك السوء ، كغضب شديد حمله على السب والضرب ، أو شهوة مغتلمة قادته إلى انتهاك العرض ، ثم تاب ورجع عن ذلك السوء بعد أن علم أنه شاعرا بقبحه نادما عليه خائفا من عاقبته ، وأصلح عمله بأن اتبع ذلك العمل السيء بعمل يضاده ويذهب أثره من قلبه حتى يعود إلى النفس زكاؤها وطهارتها ، وتصير أهلا للقرب من ربها – فشأنه تعالى في معاملته أنه واسع المغفرة والرحمة ، فيغفر له ما تاب عنه ، ويتغمده برحمته وإحسانه *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ إنّى على بيّنَةٍ مِنْ رَبىّ وكَذَّبْتُمْ بِهِ مٰا عِنْدِى ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إن اَلْحُكْمُ إلاَّ لله يقُصُّ الحقَّ وهْوَ خيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ في الواحدي : قال الكلبي : نزلت في النضر بن الحارث ورؤساء قريش كانوا يقولون يا محمد : ائتنا بالعذاب الذى تعدنا به استهزاء منهم . فنزلت هذه الآية * ولم يوجد في التفاسير غير هذا القول . أما التفسير : ﴿ قُلْ إنّى علَى بيّنةٍ ﴾ بيان أي دليل وبرهان واضح وهو القرآن ﴿ مِنْ ربّى ﴾ أي منزل من عند ربّى ﴿ وَ ﴾ قد ﴿ كذبتُم به ﴾ أي بوحدانيته حيث أشركتم غيره معه ﴿ مٰا عِنْدِى مٰا تستعجلُونَ به ﴾ من العذاب وفي الخازن أن سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم ، وكانوا يستعجلون به استهزاء كما في آية الأنفال : ﴿ وإذْ قالُوا اللَّهُمَّ إنْ كانَ هَذَا هُوَ الحقَّ مِنْ عِنْدِك فأمْطِرْ عَلَيْنا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أو ائتنا بِعَذَابٍ أليِمٍ ﴾ ﴿ إنْ ﴾ ما ﴿ الْحُكْمُ ﴾ في ذلك

وغيره أي في التقديم والتأخير ﴿ **إلاَّ لله** ﴾ وحده ﴿ **يَقُصُّ** ﴾ القضاء وفي قراءة بكسر الصاد من قص الحديث ، ومن قص الأثر أي تتبعه . ﴿ **الحقَّ** ﴾ فيحكم به ﴿ **وَهُوَ خيْرُ الْفَاصِلِينَ** ﴾ الحاكمين بين الخصمين ، فلا يقع في حكمه وقضائه جور ولا حيف على أحد من خلقه *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلى أنْ يبْعَثَ عَليكُمْ عَذاباً مِنْ فوْقِكُمْ أو مِنْ تَحْتِ أرْجُلِكُمْ أوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويُذيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كيْفَ نُصرِّفُ الآياتِ لِقَوْمٍ يفْقَهُون** ﴾ في لباب السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : لما نزلت ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ على أنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ** ... ﴾ الآية قال رسول الله ﷺ « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف » قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال بعض الناس : لا يكون هذا أبدا أن يقتل بعضنا بعضا ونحن مسلمون فنزلت : ﴿ **انْظُرْ كَيْفَ نُصرِّفُ الآيات لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ * وكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وهُوَ الحَقُّ قلْ لَستُ عَلَيْكُمْ بِوَكيلٍ لِكُلِّ نَبأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلمُونَ** ﴾ * وفي ابن كثير : عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ علَى أنْ يبْعَثَ عليكُمْ عَذَاباً مِنْ فوقِكُمْ** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « **أعوذ بوجهك** » « أو من تحت أرجلكم » قال : ﴿ **أعُوذُ بوجهك** ﴾ ﴿ **أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويُذيقَ بَعْضَكُمْ بأْسَ بَعْضٍ** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هذا أهون وأيسر » قلت : رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه وفي آخره : هذا هو أو هذا أيسر . وقوله أعوذ بوجهك . أي بذاتك وقوله : ﴿ **ويُـذيـقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ** ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : يعنى يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل * وقوله : ﴿ **وهذا أهْوَنُ** ﴾ لأن الفتن من المخلوقين ، وعذابهم أهون من عذاب الله . وبالفتن ابتليت هذه الأمة وقوله : ﴿ **أوْ هذا أيْسَرُ** ﴾ شكٌّ من الراوى . ووقع في الاعتصام : هاتان أهون وأيسر . أي خصلة الالباس وخصلة إذاقة بعضهم بأس بعض * وفي مجمع الزوائد قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ القادِرُ** ﴾ عن أبى كعب في قوله تعالى ﴿ **قُلْ هُوَ القادِرُ عَـلَـى أنْ يَبْـعَـثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ**) الآية قال : «هن أربع وكلهن واقع لا محالة ،

فمضت اثنتان بعد رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة فألبسوا شيعاً . وذاق بعضهم بأس بعض ، وبقيت اثنتان واقعتان لا محالة : الخسف والرجم » قال الهيثمى ورواه أحمد ورجاله ثقات * وكذا رواه بن جرير الطبري عن أبي العالة . وفي آخره : الخسف والمسخ . بدل الرجم . وروى ما ذكره السيوطي والبخاري . وروى عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **ويُذيقَ بعْضكُمْ بأسَ بَعْضٍ** ﴾ . قال الحسن : ثم قال لمحمد ﷺ ، وهو يشهده عليهم(انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)، فقام رسول الله ﷺ فتوضأ فسأل ربه أن لا يرسل عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم ، ولا يلبس أمته شيعا ويذيق بعضهم بأسَ بعض كما أذاق بنى اسرائيل فهبط إليه جبريل عليه السلام فقال يا محمد :«إنك سألت ربك أربعا فأعطاك اثنتين ومنعك اثنتين : لن يأتيهم عذاب من فوقهم ولا من تحت أرجلهم يستأصلهم ، فإنهما عذابان لكل أمة اجتمعت على تكذيب نبيها ورد كتاب ربها ، ولكنه يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض وهذان عذابان لأهل الاقرار بالكتاب والتصديق بالأنبياء ، ولكن يعذبون بذنوبهم ، وأوحى إليَ ﴿ **فإمَّا نذْهَبَنَّ بِكَ فإنَّا مِنهُمْ مُنْتَقِمُون** ﴾ » يقول : من أمتك ، أو نريك الذي وعدناهم من العذاب وأنت حى ، فإنا عليهم مقتدرون فقام نبى الله ﷺ فراجع ربه فقال : أي مصيبة أشد من أن أرى أمتي يعذب بعضها بعضا ، وأوحى إليه ﴿ **الٓمٓ أحَسبَ النَّاسُ أن يُتْرَكُوا أن يَقولُوا آمَنا وهُمْ لا يُفتَنُون * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ فأعلمه أن أمته لم تخص دون الأمم بالفتن ، وأنها ستبلى كما ابتليت الأمم ، ثم أنزل عليه ﴿ **قُلْ رَبِّ إمَّا تُرِيَنِى مَا يُوعَدُون . رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنى فِي الْقَوْمِ الظالمِينَ** ﴾ فتعوذ في الله . فأعاذه الله لم ير من أمته إلا الجماعة والألفة والطاعة ، ثم انزل عليه آية حذر فيها أصحابه الفتنة ، فأخبره أنه إنما يخص بها ناس منهم دون ناس فقال : « واتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » . فخص بها أقواما من أصحاب محمد ﷺ بعده وعصم بها أقواما * قلت : وفي ابن كثير عن الحسن في قوله : ﴿ **قُلْ هُوَ الْقادِرُ علَى أن يبعث عليلكُمْ عَذاباً مِنْ فوْقكُمْ أوْ مِنْ تحت أرْجُلِكُمْ** ﴾ قال : هذه للمشركين . وعن مجاهد قال : لأمة محمد وعفا عنهم . قال الطبرى : والصواب من القول عندى أن يقال إن الله

تعالى توعد بهذه الآية أهل الشرك به من عبدة الأوثان وإياهم خاطب بها لأنها بين أخبار عنهم وخطاب لهم ، وذلك أنها تتلو قوله : ﴿ **قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا من هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِن الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُون** ﴾ ويتلوها قوله ﴿ **وكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وهو الحَقُّ** ﴾ وغير جائز أن يكون المؤمنون كانوا به مكذبين ، فإذا كان غير جائز أن يكون ذلك كذلك . وكانت هذه الآية بين هاتين الآيتين كان بيناً أن ذلك وعيد لمن تقدم وصف الله إياه بالشرك ، وتأخر الخبر عنه بالتكذيب لا لمن لا يجر له ذكر،غير أن ذلك ، وإن كان كذلك فإنه قد عم وعيده بذلك كل من سلك سبيلهم من أهل الخلاف على الله وعلى رسوله والتكذيب بآيات الله من هذه وغيرها . وأما عن الأخبار التى رويت عن رسول الله ﷺ أنه قال :«سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعنى واحدة»فجائزا أن هذه الآية نزلت في ذلك الوقت وعيدا لمن ذكرت من المشركين ، ومن كان على منهاجهم من المخالفين ربهم ، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يُعيذ أمته مما ابتلى به الأمم الذين استوجبوا من الله تعالى بمعصيتهم إياه هذه العقوبات فأعاذهم بدعائه إياه ، ورغبته إليه من المعاصى التى يستحقونها بها من هذه الخلال الأربع من العقوبات أغلظها ، ولم يعذهم من ذلك ما يستحقون به اثنتين منها . وقال : وأما الذين تأولوا أنه عنى بجميع ما في هذه الآية هذه الأمة ، فإني أراهم تأولوا أن في هذه الأمة من سيأتى من معاصى الله وركوب ما يسخط الله نحو الذي ركب من قبلهم من الأمم السالفة من خلافه والكفر به ، فيحل بهم مثل الذى حل بمن قبلهم من المثلات والنقمات . وكذلك قال أبو العالية ، ومن قال بقوله . جاء منهن اثنتان بعد رسول الله ﷺ . بخمس وعشرين سنة ، وبقيت اثنتان الخسف والمسخ ، وذلك أنه روى عن رسول الله ﷺ أنه قال :«سيكون في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف»، وإن قوما من أمته سيبيتون على لهو ولعب ، ثم يصبحون قردة وخنازير ، وذلك إذا كان فلاشك أنه نظير الذى في الأمم الذين عتوا على ربهم في التكذيب وجحدوا آياته * أما التفسير ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ** ﴾ استئناف مسوق لبيان أنه تعالى هو القادر على القائم في المهالك أثر بيان أنه هو المنجى لهم منها ﴿ **عَلَى أَنْ يَبعَثَ** ﴾ يرسل ﴿ **عَلَيكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ** ﴾ من السماء كالحجارة التى نزلت على أصحاب

الفيل ، والصيحة كصيحة جبريل التى صرخها على ثمود قوم صالح فتهلكوا ﴿ **أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ** ﴾ كالخسف الذى وقع بقارون وغرق فرعون . وقيل : من قبل أكابركم وسلاطينكم ، أو من جهة سفلتكم وعبيدكم قاله ابن عباس ولاشك أن لفظ العذاب نكرة مبهم قصد به الشمول ، ولا يخفى أن حروب العصر الحديث هى نوع من العذاب بما تقذفه الطائرات من الصواريخ والقنابل التى تحمل كل منها الآلاف المؤلفة من المواد المتفجرة من الحديد والمعادن الأخرى المهلكة ، ومن المواد المحرقة ، وصارت تطير آلاف الكيلو مترات لتصل إلى أهدافها المقصودة فتخرب المدن والقرى وتجعل عاليها سافليها بما تصب من عل حتى لكأنها بركان ثائر يريد أن يبتلع كل ما حوله ، وكذلك مقذوفات المدافع والألغام وصواريخ الغواصات في البحار فكم من سفينة أُحرقت بما فيها وغرقت ، وأصبح أهله وما فيها طعاما للسمك وحيوان البحر ، ولا شك أن أمم أوربا لا تزال حتى يومنا هذا وستبقى ما شاء الله شيعا متعادية يذيق بعضها بأس بعض ، وترى الناس من هول ما يصيبهم سكارى،وما هم بسكارى،ولكن عذاب الله شديد . روى أحمد والترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال : سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية - ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ** ... ﴾ الآية فقال : « **أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد** » ﴿ **أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً** ﴾ فرقا مختلفة الأهواء . وفي القاموس : وشيعة الرجل بالكسر أتباعه وأنصاره ، والفرقة على حدة ، وتقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث ، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليا وأهل بيته حتى صار اسما لهم خاصة ، والجمع أشياع وشيع كعنب . وفي الخازن : وقيل : الشيعة هم الذين يتقوى بهم الانسان . قال الزجاج في قوله : ﴿ **أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً** ﴾ يعنى يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق فيجعلكم فرقا مختلفين يقاتل بعضكم بعضا وهو معنى قوله ﴿ **وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ** ﴾ قال ابن عباس : قوله : ﴿ **أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً** ﴾ . يعنى الأهواء المختلفة ، ويذيق بعضكم بأس بعض . أنه يقتل بعضكم بيد بعض . أي ينطبق ما عليه الناس اليوم من الاختلاف والأهواء وسفك بعضهم دماء بعض . وهذا يرجح قول أبي العالية وأبي بن كعب ، وقول القائل : ﴿ **أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً** ﴾ ما كان بينهم من الفتن والاختلاق ، ويذيق بعضكم بأس بعض ، يعنى ما كان

فيهم من القتل بعد وفاة رسول الله ﷺ . ويؤيده ما رواه البخاري من قوله عليه الصلاة والسلام في آخر الحديث :«هذا أهون أو هذا أيسر» ويعنى قوله :«أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض» وعن سعد بن أبي وقاص أنه أقبل مع النبي ﷺ ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجدابن معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلا ، ثم انصرف إلينا فقال : « سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ، ومنعنى واحدة ، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته ألا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فنعنيها» أخرجه مسلم والترمذي عنه به * وقوله : ﴿ **انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ** ﴾ أي انظر يا محمد كيف نبين دلائلنا وحججنا لهؤلاء المكذبين ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ** ﴾ يعلمون أن ما هم عليه باطل * فيزجروا ويرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُون** ﴾ في لباب السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم عن عبيد الله بن زحر ، عن بكر بن سوادة . قال : حمل رجل من العدو على المسلمين فقتل رجلا ، ثم حمل فقتل آخر ، ثم حمل فقتل آخر ، ثم قال : أينفعنى الإسلام بعد هذا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم » فضرب فرسه فدخل فيهم ، ثم حمل على أصحابه ، فقتل رجلا ، ثم آخر ، ثم آخر ، ثم قتل . قال : فيرون أن هذه الآية نزلت فيه : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَٰنَهُمْ بِظُلْمٍ** ... ﴾ الآية * وفي ابن كثير : عن جرير عن عبد الله قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ . فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضح نحونا ، فقال رسول الله ﷺ : « كأن هذا الراكب إياكم يريد » فانتهى إلينا الرجل ، فسلم فرددنا عليه . فقال له النبي ﷺ : « من أين أقبلت ؟ » قال من ولدى وأهلى وعشيرتى . قال : « فأين تريد ؟ » قال : أريد رسول الله ﷺ . قال : « فقد أصبته » قال : يا رسول الله : علمنى ما الإيمان ؟ قال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة،وتؤتى الزكاة،وتصوم رمضان،وتحج البيت » قال : قد أقررت ، قال : ثم إن بعيره دخلت يده في سبكة جرذان فهوى بعيره وهوى الرجل فوقع على هامته فمات ، فقال رسول الله ﷺ : « علىَّ بالرجل » فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان ،

فأقعداه ، فقالا يا رسول الله : قبض الرجل . قال : فأعرض عنهما رسول الله ﷺ ، ثم قال لهما رسول الله ﷺ : « أما رأيتم إعراضى عن الرجل ، فإني رأيت ملكين يدسان فيه من ثمار الجنة ، فعلمت أنه مات جائعا » ثم قال رسول الله ﷺ : « هذا من الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ الآية . ثم قال : « دونكم أخاكم » فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وحنطناه وكفناه وحملناه إلى القبر ، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر فقال : « ألحدوا ولا تشقوا فإن اللحد لنا والشق لغيرنا » * اللحد : الشق في جانب القبر . وأخرج عن ابن عباس قال : كنا مع رسول الله ﷺ في مسرى ساره إذ عُرض له أعرابي . فقال يا رسول الله : والذي بعثك بالحق لقد خرجت من بلادى وتلادى - عبيدى - ومالى لأهتدى بهداك ، وآخد من قولك ، وما بلغتك حتى ما لى طعام إلا من خضر الأرض ، فأعرض علىّ ، فعرض عليه رسول الله ﷺ فقبل ، فازدحمنا حوله ، فدخل خف بكره في بيت جرذان فتردى الأعرابى فانكسرت عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق ، والذى بعثنى بالحق لقد خرج من بلاده وتلاده وما له ليهتدى بهداى ، ويأخذ من قولى ، وما بلغنى حتى ما له طعام إلا من خضر الأرض ، أسمعتم بالذى عمل قليلا وأجره كثيرا ؟ هذا منهم ، أسمعتم الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ؟ فإن هذا منهم » والمراد بالظلم الذى يلبس به المرء إيمانه بالله وغلطه به فينقص منه ، أو ينقصه هو الشرك في العقدية أو العبادة يدل على هذا التفسير ما رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم من حديث أبن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الناس ، وقالوا يا رسول الله : وأينا لا يظلم نفسه ؟ فقال ﷺ :«إنه ليس الذى تعنون . ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح (يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) إنما هو الشرك ، والمراد بالأمن من عذاب الله الذى يحل بمن لا يرضى إيمانه ولا عبادته ، والمعنى : إن الذين آمنوا بالله تعالى ، ولم يخلطوا إيمانهم بظلم عظيم وهو الشرك به سبحانه وتعالى . أولئك لهم الأمن يوم الفزع الأكبر ، « وَهُمْ فِي الغرفاتِ آمِنُونَ » ، وهم مهتدون في الدنيا إلى سبيل الهدى والرشاد قال البخاري : حدثنى محمد بن بشار حدثنا ابن أبي عدى عن شعبة ، عن سليمان عن ابراهم ، عن علقمة ، عن عبد الله رضي الله عنه

قال : لما نزلت «وَلمْ يَلْبِسُوا إيمانَهُم بِظُلْمٍ» قال أصحابه : وأينا لم يظلم ، فنزلت : ﴿ **إنّ الشّرك لظلْمٌ عظيمٌ** ﴾ روى الحاكم في مستدركه في كتاب التفسير عن زياد بن حرملة قال : سمعت علي بن أبي طالب يقرأ هذه الآية : ﴿ **الذين آمَنُوا ولم يَلْبسُوا إيمانَهُمْ بظلْمٍ** ﴾ . قال : هذه في ابراهيم وأصحابه ، وليست في هذه الأمة * قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وسكت الذهبى . وهو دليل على اقراره . نعم إن الآية وردت في وسط قصة إبراهم عليه السلام ، وهو يؤيد ما ذكره عليّ كرم الله وجهه ، فهى جواب من الله ، به فصل القضاء بين ابراهيم ومن حاجه من قومه ، وروى ابن جرير عن عكرمة ، قال هي لمن هاجر إلى المدينة . قال : وأولى القولين بالصحة في ذلك ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ وهو الخبر الذى رواه ابن مسعود عنه أنه قال : الظلم ذكره الله تعالى في هذا الموضع إنما هو الشرك . قلت : ولا مانع من كون الآية على العموم لأن الله لم يخص به معنى من معانى الظلم على التقييد في هذه الآية ولذا اختلفت أقوال المفسرين فعن مجاهد في قوله : «ولم يَلْبِسُوا إيمانَهُمْ بِظُلْمٍ» قال : عبادة الأوثان . وعن أبي عبد الرحمن : قال : بشرك . كما اختلفوا في الآية فقال بعضهم : عنى بها ابراهيم . وقال بعضهم : عنى بها المهاجرين . فلا أقل من أن تحمل على العموم وأعنى بذلك أعمال الشرك كلها تمسكاً بالحديث الصحيح وبقوله تعالى : ﴿ **وما يُؤْمِنُ أكثرُهُمْ بالله إلاَّ وهُمْ مُشْرِكُونَ** ﴾ وبقوله : ﴿ **فَمَنْ كانَ يَرْجُو لقاء رَبِهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ولاَ يُشْرِك بِعِبَادَةِ رَبّهِ أحَداً**) والعبادات معروفة في الإسلام. وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج ، فيجب أن تكون خالصة لوجه الله بريئة عن الرياء . أي لا يشرك به سواه ، لا إشراكاً جليا كما فعل الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، ولا إشراكا خفيا كما فعل أهل الرياء ممن يطلب بعمله الدنيا ، وهذا هو الشرك الأصغر كما صح في الحديث ، وروى مستفيضا في الأخبار من أن كل عمل أريد به الدنيا لا يقبل فقد أخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن ربه عز وجل قال : ﴿ **أنا خيْرُ الشُّرَكاء ، فمنْ عمل عملاً أشرك فيهِ غيْرِى ، فأنا برىء منه ، وهو للذى أشرك** ﴾ فيكون المراد بالظلم . الشرك في العقيدة والعبادة كمن يعتقد ببعض المخلوقين نفعاً وضرا بذاته ، أو بتأثيره في مشيئة الله وقدرته مسندا السبب إليه لا إلى

الله ، وهذا الشرك الأكبر . لا ظلم الانسان لنفسه أو لغيره ببعض التصرفات والأحكام ، فهو ظلم جور لا شرك * نسأل المولى العظيم الرحمن الرحيم أن يجعل عملنا خالصاً لوجه ، لأيراد به رضا أحد من خلقه *

القول في سبب نزول قوله تعالى : **﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾** قال ابن عباس في رواية الوالبي : قالت اليهود يا محمد : أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : « نعم » قالوا : والله ما أنزل الله من السماء كتاباً ، فأنزل الله تعالى : **﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الذى جَاءَ به موسى نوراً وهُدىً ... ﴾** . وقال سعيد بن جبير : جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف ، فخاصم النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ :«أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين» وكان حبراً سمينا ، فغضب ، وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقال له أصحابه الذين معه ، ويحك ولا على موسى ؟! فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وكذا في الغرائب والخازن . زادا ، فقال أصحابه الذين معه : ويحك ولا على موسى ؟! فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء ، فلما سمعت اليهود تلك المقالة عتبوا عليه ، وقالوا : أليس الله أنزل التوراة على موسى ؟ فَلِمَ قلتَ هذا ؟ قال : أغضبنى محمد فقلته ، فقالوا : وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق ، فعزلوه من الحبرية وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف * وفي ابن كثير : قال ابن عباس ومجاهد وعبد الله بن كثير : نزلت في قريش . واختاره ابن جرير . وقيل : نزلت في طائفة من اليهود . وقيل : في فنحاص رجل منهم . وقيل : في مالك الصيف . قال ابن كثير : والأول أصح لأن الآية مكية ، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ لأنه من البشر * قلت : وفي الآية يقول تعالى : **﴿ قُلْ مَنْ أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ﴾** . يحتم أن الآية نزلت في طائفة من اليهود ، ويؤكد هذا قوله : **﴿ تجعلُونه قراطيسَ ﴾** . أي يكتبونه في دفاتر مقطعة يبدون ما يحبون إبداءه منها وهم

الأحبار من اليهود بقصد إخفاء صفة النبي ﷺ وما يوافق هواهم بخلاف ما لو جمعوا الكل في مجلد واحد كالمصحف فربما اطلع غيرهم على جميع ما فيه . والقرشيّون لا يليق بهم ذلك ، والقول في أنها نزلت في اليهود هو قول سعيد بن جبير وعكرمة والسدى ومحمد بن كعب القرظى وقتادة وابن عباس . روى الطبرى في تفسيره عن سعيد بن جبير في تفسير الآية قال : جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف . وساق الحديث . وروى عكرمة في قوله : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا الله حقَّ قدْرِهِ ...** ﴾ قال نزلت في مالك بن الصيف كان من قريظة من أحبار يهود .. وعن السدى : قال : فنحاص اليهودى . وعن محمد بن كعب القرظى قال : جاء ناس من يهود إلى النبي ﷺ فقالوا يا أبا القاسم : ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحاً يحملها من عند الله ، فأنزل الله : ﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا ارنا الله جهرة** ﴾ ...الآية فجثا رجل من يهود فقال : ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئا فأنزل الله : ﴿ **وما قدرُوا الله حقَّ قدْره ...** ﴾ قال محمد بن كعب : ما علموا كيف الله إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً .. وعن قتادة : ﴿ **وما قدرُوا الله حقّ قدْرِهِ ...** ﴾ إلى قوله : ﴿ **في خوضهم يلعبون** ﴾ . هم اليهود والنصارى : قوم آتاهم الله علما فلم يهتدوا به ولم يأخذوا به . ولم يعملوا به فذمهم الله ، في عملهم ذلك .. وعن ابن عباس قوله : ﴿ **وما قدروا الله حق قدْرِهِ** ﴾ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء . يعنى من بنى اسرائيل قالت اليهود يا محمد : أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : « نعم » قالوا : والله ما أنزل الله من السماء كتابا ، قال : فأنزل الله ﴿ **قل يا محمد من أنزل الكتاب ...** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ولا آباؤكم** ﴾ . قال : الله أنزله . قال الإمام الرازى وهو يرد على ابن جرير الذى صحح القول الأول بأنها نزلت في قريش : إن كفار قريش ينكرون نبوة جميع الأنبياء فكيف يمكن إلزامهم بنبوة موسى . وأيضا فما بعد هذه الآية لا يليق بكفار قريش إنما يليق بحال اليهود . كما أن كفار قريش واليهود كانوا مشركين في إنكار نبوة محمد ﷺ لذا قيل : لا يبعد أن بعض الآية يكون خطاباً لكفار قريش وبعضها خطابا لليهود . وفي الخازن أن الآية نزلت في اليهود وهو قول

جمهور المفسرين . وهذا على قول من يقول إن هذه الآية مـدنيـة، وأنها من الآيات المدنيات التى في السور المكية . قال ابن عباس : نزلت سورة الأنعام بمكة إلا ست آيات منها قوله : ﴿ وما قَدرُوا الله حقّ قدره ﴾ فإنها نزلت بالمدينة . وبه ينحل الاشكال .

أما التفسير : ﴿ وَمَا قَدَرُوا الله حقّ قَدْرِهِ ﴾ قال ابن عباس : أي ما عظموا الله حق تعظيمه حيث أنكروا النبوة والرسالة . وقال أيضا في رواية : ما آمنوا بأن الله على كل شيء قدير . وقال أبو العالية : ما وصفوه حق صفته . وقال الأخفش : ما عرفوه حق معرفته أي في اللطف بأوليائه أو في القهر لأعدائه . وقال الجوهرى : قدر الشيء مبلغه ، وقدرت الشيء أقدره قدراً من التقدير ، أي حرره وعرف مقداره ، ثم بين سبب عدم عرفانه بقوله : ﴿ إذْ قَالُوا ما أنْزَلَ الله علَى بَشَرٍ منْ شيء ﴾ وإنما كان منكر البعث والرسالة غير عارف بالله تعالى لأنه إما أن يدعى أنه تعالى ما كلف أحدا من الخلائق تكليفا أصلا وهو باطل لأنه فتح باب المنكرات والقبائح بأسرها ، وإما أن يُسلّمَ أنه تعالى كلف الخلق بالأوامر والنواهى ، ولكن لا على ألسنة الرسل ، وهذا أيضا جهل ، فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون العقل كافيا في إيجاب الواجبات وحظر المنكرات . فالجواب : هب أن الأمر كذلك إلا أنه لا يمتنع تأكيد التصرف العقلى بل يجب تفصيل ذلك المجمل بالتصرفات المشروعة على ألسنة الرسل لأن أكثر العقول قاصرة عن إدراك مدارك الأحكام الشرعية ، كما أن نور البصر قاصر عن إدراك المبصرات إلا إذا أُعين بنور من خارج كنور الشمس أو السراج ، وأيضا تفويض مصالح العباد إلى مقتضى عقولهم يؤدى إلى التنازع والتشاجر لتصادم الأهواء وتناقض الآراء . فلابد من أن يتفقوا على واحد يصدرون عن رأيه . وتعيين ذلك الواحد من الخلق ترجيح بلا مرجح وإشراف على الضلال لاحتمال الخطأ في اجتهادهم ، فلعل الخير في نظرهم يكون شرا في نفس الأمر فلزم أن يكون التعيين من الله سبحانه بكونه أعرف بالبواطن كقوله : ﴿ الله أعْلَمُ حيْثُ يجْعَلُ رسَالَتَهُ ﴾ وإنما يعرف ذلك المعيَّن بظهور المعجزة على وفق دعواه تصديقاً له . ومن أنكر ذلك ولم يجوز خرق العادة فقد وصف الله تعالى بالعجز ونقصان القدرة *

الغرائب . وقال : وقد طعن بعض الملحدة فى الآية بأن هؤلاء القائلين إن كانوا كفار قريش أو البراهمة فهم ينكرون رسالة كل الأنبياء كما ينكرون رسالة محمد ﷺ فكيف

يمكن إبطال قولهم بقوله : ﴿ **قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الّذِى جَاءَ به مُوسى** ﴾ على أن قوله : تجعلونه قراطيس . بتاء الخطاب إنما يليق باليهود وإن كانوا أهل الكتاب فهم لا يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء ، بل يقرون بنزول التوراة على موسى والانجيل على عيسى ، وأيضا الأكثرون اتفقوا على أن السورة مكية ، وأنها نزلت دفعة واحدة ، ومناظرات اليهود مع رسول الله ﷺ كانت مدنية ، فكيف يمكن حمل الآية على تلك المناظرة ؟ والجواب : أنهم إن كانوا كفار قريش فإنهم كانوا مختلطين باليهود والنصارى ، وكانوا قد سمعوا من الفريقين على سبيل التواتر ظهور المعجزة على يد موسى كالعصا وفلق البحر وإظلال الجبل وغيرهما ، وكان جاريا مجرى ما يوجب عليهم الاعتراف بنبوة موسى ، وعلى هذا لا يبعد إيراد نبوة موسى إلزاما لهم في قولهم : ﴿ **ما أنزل الله على بشر من شيء** ﴾ . ولما كان كفار قريش مع اليهود والنصارى متشاركين في إنكار نبوة محمد ﷺ لم يبعد أن يكون الكلام الواحد خطابا لكفار قريش أولا ولأهل الكتاب آخرا . وأما إن كانوا أهل الكتاب وهو المشهور عند الجمهور فالوجه ما روى عن ابن عباس أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم ، وكان رجلا سمينا دخل على الرسول ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين فأنت الحبر السمين قد سمنت من مالك الذى يطعمك اليهود » ، فضحك القوم ، فغضب ، ثم التفت إلى عمر ، فقال : ما أنزل الله على بشر من شيء . فقال له قومه : ماهذا الذى بلغنا عنك ؟ فقال : إنه أغضبنى ، ثم إن اليهود لأجل هذا الكلام عزلوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف ، فلعل مالك بن الصيف لما تأذى من الكلام المذكور طعن في نبوة الرسول ﷺ . وأنه ما أنزل عليه شيء البتة ، فأمر أن يقول في جوابه : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى .. * وأما قول الخصم أن السورة مكية والمناظرات مدنية ، فأجيب عنه بأن السورة مكية إلا ست آيات منها هذه الآية كما علمت . وهو قول ابن عباس رضي الله عنه كما هو في الخازن وغيره ، قلت : ومما يؤيد أن الخطاب لليهود قوله تعالى : ﴿ **وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ ولا آباؤكُمْ** ﴾ أي علمتم على لسان محمد ﷺ مما أوحى إليه ما لم تعلموا أنتم .. وأنتم حملة التوراة ، ولم تعلمه آباؤكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم – إن هذا القرآن يقص

على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون . وقوله : ﴿ **قُلِ اللهُ** ﴾ أي أنزله الله ، فإنهم لا يقدرون أن يناكروك ﴿ **ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِم** ﴾ في باطلهم الذى يخوضون فيه ﴿ **يلعبونَ** ﴾ يستهزؤن ويسخرون ، وفيه وعيد وتهديد للمشركين *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلى الله كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ ولَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شيء ومَنْ قَالَ سأُنْزِلُ مِثْلَ مٰا أَنْزَلَ الله ولَوْ تَرى إِذِا الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ والملائكَةُ بَاسِطُواأَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمٰا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى الله غَيْرَ الحقّ وكُنْتُمْ عَنْ آياتِه تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ ذكر الواحدى أنها نزلت في مسيلمة الكذاب الحنفى كان يسجع ويتكهن ويدعى النبوة ، ويزعم أن الله أوحى إليه . ﴿ **ومَنْ قالَ سأُنْزِلُ مِثْلَ مٰا أَنْزَلَ الله** ﴾ نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح . كان قد تكلم بالاسلام ، فدعاه رسول الله ﷺ ذات يوم يكتب شيئا فلما نزلت الآية التى في المؤمنين - ﴿ **ولقد خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ** ﴾ - أملاها عليه ، فلما انتهى إلى قوله - ﴿ **ثم أنشأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ** ﴾ - عجب عبد الله في تفصيل خلق الانسان فقال : تبارك الله أحسن الخالقين . فقال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت علي ، فشك عبد الله حينئذ ، وقال : لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إليَّ كما أوحى إليه ، ولئن كان كاذباً لقد قلتُ كما قال . وذلك قوله - ومن قال :«سأنزل مثل مٰا أنْزَل الله - وارتد عن الإسلام ، وهذا قول ابن عباس في رواية الكلبي ، وفي رواية شرحبيل بن سعد ، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة أتى به عثمان رسول الله ﷺ فاستأمن له *

وفي اللباب : ﴿ **ومَنْ قال سأُنْزِلُ مِثْلَ مٰا أَنْزَلَ الله** ﴾ قال السيوطي : نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي ﷺ ، فيملى عليه عزيز حكيم فيكتب غفور رحيم ، ثم يقرأ عليه فيقول : نعم سواء فرجع عن الإسلام ، ولحق بقريش .. وأخرج عن السدى نحوه وزاد قال ابن سرح : إن كان محمد يوحى إليه فقد أوحى إليّ ، وإن كان الله ينزل فقد أنزلتُ مثل ما أنزل الله ، قال : محمد سميعا عليما ، فقلت أنا : عليما حكيما * وكذا في الخازن . وفيه : وقال ابن عباس : نزل قوله : ﴿ **ومَنْ قَال سأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ الله** ﴾ . في المستهزئين وهو جواب لقولهم : لو نشاء لقلنا مثل هذا * قلت : وقد دخل في حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذباً في ذلك الزمان وبعده

لأنه لا يمنع خصوص السبب من عموم الحكم بدليل ما في الكشاف . وقيل : هو النضر بن الحارث والمستهزئون * أي فقد كان النضر بن الحارث يدعى معارضة القرآن وهو قوله : ﴿ **لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذا** ﴾ * وقال المفسرون : نزلت في الكذابيْن : مسيلمة الكذاب والأسود العنسى ، كان مسيلمة يقول : محمد رسول الله في بنى قريش وأنا رسول الله في بنى حنيفة . وخصها الجلال في مسيلمة . أي أنه تارة ادعى النبوة ، وتارة ادعى الايحاء . واعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فكل من نسب إلى الله تعالى ما هو برىء إما في الذات وإما في الصفات ، وإما في الأفعال كان داخلا تحت هذا الوعيد . أما التفسير : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً** ﴾ بادعاء النبوة ولم ينبأ ﴿ **أَوْ قَالَ أوْحِىَ إلَىَّ ولَمْ يُوحَ إلَيْهِ شىء** ﴾ هو عام في كل من مسيلمة والأسود وابن سرح والنضر ومن على شاكلتهم من الذين يفترون على الله الكذب ﴿ **وَمَنْ قَالَ سأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ الله** ﴾ وهم المستهزئون قالوا : لو نشاء لقلنا مثل هذا . ويدخل فيهم مسيلمة الكذاب . فإنه لم **يُفلح** بمعارضته القرآن فافتضح أمره وأتى بمخرقة يتضاحك منها الناس إلى قيام الساعة حيث قال : يا ضفدع نقى كما تنقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الماء تكدرين ولا الشراب تمنعين . فلما سمع أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذا قال : إنه لكلام لم يخرج من (إل) قال ابن الأثير أي من ربوبية . والاءل بالكسر هو الله تعالى . وقيل : الاءل هو الأصل الجيد . أي يجىء من الأصل الذى جاء منه القرآن ، ولما سمع مسيلمة الكذاب – لعنه الله – ﴿ **والنّازعات غرقاً ...** ﴾ قال : والزارعات زرعا والحاصدات حصدا ، والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا والحافرات حفرا ، والثاردات ثردا واللاقمات لقما . لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر . إلى غير ذلك من الهذيان . وقال آخر من المستهزئين : ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى أخرج من بطنها نسمة تسعى ، من بين شراسيف وأحشى . وقال آخر : الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وثيل ، ومشفر طويل ، وإن ذلك من خلق ربنا لقليل . ففى هذا الكلام مع قلة حروفه من السخافة ما لا خفاء فيه على من لا يعلم فضلا عمن يعلم . وجزاء أمثال هؤلاء ﴿ **وَلَوْ تَرَى** ﴾ يا محمد . والرؤية بصرية ومفعولها محذوف أى ولو ترى الظالمين إذ هم ﴿ **في**

غَمَرَاتِ ﴾ سكرات ﴿ **الموت** ﴾ الغمرة هى الشدة العظيمة ، وأصلها من غمرة الماء إذا ستره كأنها تستر بغمها من تنزل به ﴿ **والملائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ** ﴾ إليهم.بالضرب والتعذيب يقولون لهم تعنيفا ﴿ **أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ** ﴾ أي أرواحكم الخبيثة لنقبضها . وفي الحديث : « إن أرواح الكفار تأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج » ، فيفيد أن أرواح الكفار لا تخرج إلا به ، أو المراد أخرجوا أنفسكم من هذه الشدائد وخلصوها من هذه الآفات والآلام ، أو هاتوا أرواحكم وأخرجوها إلينا من أجسادكم . وهذه عبارة عن العنف والتشديد في إزهاق الروح من غير تنفيس وإمهال ، وإنهم يفعلون بهم فعل الغريم الملازم الملح يبسط يده إلى من عليه الحق ، ويقول : **أخرج إليَّ** ويقول : أخرج إلى ما لى عليك ، ولا أريم مكانى حتى أنزعه من أحداقك . فهؤلاء الكفار يكرههم الملائكة على نزع الروح وعلى فراق المألوف بالضرب الشديد ، وهو أول عذاب ينزل بهم فى آخر ساعة من حياتهم الدنيوية متصلا بالعذاب الأخروى الذى لا ينتهى قائلين لهم : ﴿ **الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ** ﴾ الهوان ، وإضافة العذاب إلى الهون إيذانا بأنه متمكن فيه ، وذلك لأنه ليس كل عذاب يكون فيه هون لأنه قد يكون على سبيل الزجر والتأديب كضرب الوالد ولده ، كل ذلك بسبب ﴿ **بِمَا كُنْتُمْ تقُولُون عَلَى الله غَيْرَ الحقِّ** ﴾ بدعوى النبوة والايحاء كذباً . ﴿ **وكنتُمْ عَنْ آياتِهِ تسْتَكبرون** ﴾ أي تتكبرون عن الإيمان بها . يعنى أن هذا العذاب الشديد إنما حصل بمجموع الأمرين . الافتراء على الله والتكبر على آيات الله . وهو عدم الإيمان بها . قال الواحدي :﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾.. أي لا تُصَلُّون له . لقوله ﷺ : « من سجد لله سجدة واحدة بنية صادقة فقد برىء من التكبر » * قلت : وفي الآية دلالة على أن النفس الانسانية شيء غير هذا الهيكل المحسوس لأن المخرج يجب أن يكون مغايراً للمخرج منه *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ جِئْتُمونا فُرادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وتَركتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ الّذينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهم فِيكُمْ شركَاءُ لَقَدْ تقطَّع بَيْنكُمْ وضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعمُونَ** ﴾ في لباب السيوطي : أخرج ابن جرير وغيره عن عكرمة قال النضر بن الحارث سوف تشفع إليَّ اللّات والعزى . فنزلت هذه الآية : ﴿ **ولقدْ جِئْتُمونا فُرادى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وما نَرى معكُمْ**

شفعاءكُمْ ﴾ * ولم أعثر في التفاسير على غير هذا القول . إلا ما ذكره ابن جرير الطبري . وقيل إن ذلك كان قول كافة عبدة الأوثان * أما التفسير : ﴿ **ولَقَدْ جِئْتُمونا** ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على قول الملائكة : أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون . ويحتمل أنه في قول الله تعالى إن جوزنا أنه يتكلم مع الكفار . وقوله : ﴿ **فُرادَى** ﴾ يعنى وحدانا لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم . والأولى أن يكون هذا خبرا من الله عز وجل عن حال الكافرين يوم القيامة ، وكيف يحشرون إليه ، وماذا يقول لهم في ذلك اليوم قول تقريع وتوبيخ لهم لأنهم صرفوا هممهم في الدنيا إلى تحصيل المال والولد والجاه . وأفنوا أعمارهم في عبادة الأصنام ، فلم يغن عنهم كل ذلك شيئاً في يوم القيامة فبقوا فرادى عن كل ما حصلوه في الدنيا ﴿ **كما خلقناكُمْ أوّلَ مَرَّةٍ** ﴾ يعنى جئتمونا حفاة عراة غرلاً ، يعنى قلفا كما ولدتهم أمهاتهم في الدنيا . أي بدون طهور وقطع سُرة لا شيء عليهم ولا معهم . أخرج الشيخان عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال أيها الناس : « إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أولَ خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين » .. وأخرج الشيخان عن عائشة . قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تحشر الناس حفاة عراة غرلا » . قالت عائشة : فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » روى الطبرى بسنده عن عائشة أنها قرأت قول الله عز وجل : ﴿ **ولَقَدْ جِئْتُمونا فرادَى كما خَلَقْناكُمْ أوّلَ مرّة** ﴾ . فقالت يا رسول الله : واسوأتاه . إن الرجال والنساء يحشرون جميعاً ينظر بعضهم إلى سوأة بعض ؟! فقال رسول الله ﷺ : « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال . شغل بعضهم عن بعض » قوله : ﴿ **وَتَرَكْتُمْ ما خوَّلْناكُمْ** ﴾ أي أعطينا وتفضلنا به عليكم . ﴿ **ورَاءَ ظُهُورِكُمْ** ﴾ أي أنها كلها أصبحت كالشيء الذى يبقى وراء ظهر الانسان فلا يمكنه الانتفاع به ، وربما بقى معوج الرأس بسبب التفاته إليه ، تركوها بغير اختيارهم ﴿ **وَ** ﴾ يقال لهم توبيخا ﴿ **وما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءكُمْ** ﴾ الأصنام التى كنتم تعبدونها وادعيتم شفاعتها : ﴿ **الّذِينَ زعْمتُمْ أنهُمْ فيكُمْ** ﴾ أي في استحقاق عبادتكُمْ ﴿ **شركاء** ﴾ الله !! تعالى عن ذلك ﴿ **لَقَدْ تَقطَّعَ بَيْنَكُمْ** ﴾ وصلكم بينكم أي تشتت

جمعكم ﴿ وضَلَّ ﴾ ذهب ﴿ عَنكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمونَ ﴾ في الدنيا من شفاعتها . أي إن آمالكم قد خابت في كل ما تزعمون وتتوهمون من شفاعتها ونصرتها ودفاعها عنكم فهى حجارة لا تضر ولا تنفع . فلا فداء ولا شفاعة ولا نصرة ، ولا ما يغنى عنكم من عذاب الله من شيء *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لله شُركاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وخَرَقُوا لَهُ بَنينَ وبَنَاتٍ بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون * بَدِيعُ السَّمٰواتِ والأرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ في الواحدي : قال الكلبي : نزلت هذه الآية في الزنادقة . قالوا إن الله تعالى . وإبليس إخوان ، والله خالق الناس والدواب . وإبليس خالق الحيات والسباع والعقارب . فذلك قوله : ﴿ وجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الجنّ ... ﴾ زاد المراغي : وإبليس خلق السباع والحيات والعقارب والشر . ورجح الرازى هذا الرأى . قال : إن المراد من الزنادقة المجوس الذين قالوا : إن كل خير في العالم فهو من يزدان ، وكل شر فهو من أهر من أي إبليس . وذكر الجلال أنهم مشركوا العرب حيث أطاعوا الجن في عبادة الأوثان ، وقيل : هم طائفة من الملائكة يسمون الجن ، كان بعض العرب يعبدها . وقيل : هي في اليهود والنصارى ومشركي العرب فاليهود والنصارى اختلقوا له البنين . ومشركوا العرب اختلقوا له البنات . وعبارة الخازن : قال الحسن ﴿ وَجَعَلُوا لله شركاءَ الْجِنَّ ﴾ أطاعوا الجنَّ في عبادة الأوثان . وهو اختيار الزجاج .. وقال الكلبي : نزلت في الزنادقة أثبتوا الشرك الاثنين في الخلق . فقالوا : الله خالق النور والناس والدواب والأنعام . وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب . ونقل هذا القول ابن الجوزى عن ابن السائب ، ونقله الرازى عن ابن عباس ، قال الامام فخر الدين الرازى وهذا مذهب المجوس ، وإنما قال ابن عباس هذا قول الزقادقة لأن المجوس يتلبسون بالزندقة ، لأن الكتاب الذى زعم زردشت أنه نزل من السماء . سماه بالزند ، والمنسوب إليه زندى ، ثم عرّب فقيل : زنديق ، فإذا جمع فقيل زنادقة ، ثم إن المجوس قالوا : كل ما يكون في هذا العالم من الخير فهو من يزدان يعنى النور ، وجميع ما في العالم من الشر فهو من الظلمة يعنى إبليس ، ثم اختلف المجوس ، فالأكثرون منهم على أن إبليس محدث ، وهم

في كيفية حدوثه أقوال عجيبة ، والأقلون منهم قالوا : إنه قديم ، وعلى كلا القولين فقد اتفقوا على أنه شريك لله في تدبير هذا العالم ، فما كان من خير فمن الله ، وما كان من شر فمن إبليس * . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . قاله في التفسير الكبير : والحاصل أنهم يقولون عسكر الله تعالى هم الملائكة ، وعسكر إبليس هم الشياطين ، والملائكة فيهم كثرة عظيمة وهم أرواح طاهرة مقدسة تلهم الأرواح البشرية الطاعات ، والشياطين فيهم أيضا كثرة عظيمة يلقون الوساوس إلى الأرواح البشرية ، والله تعالى مع عسكره يحاربون إبليس مع عسكره – إلى آخر ذلك من الهذيان والكفريات .. فلهذا أثبتوا لله شركاء من الجن بلفظ الجمع ، وإن كان شريكه عندهم بالحقيقة واحداً ، وهو أهر من . أما التفسير : ﴿ **وجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ** ﴾ أي وجعلوا الجن شركاء لله ، عبارة الخازن : واختلفوا في معنى هذه الشركة . فمن قال : إن الآية في كفار العرب قال : إنهم لما أطاعوا الجن فيما أمروهم به من عبادة الأصنام فقد جعلوهم شركاء لله . ومن قال : إنها في المجوس قال : إنهم أطاعوا إلهين اثنين النور والظلمة ، وقيل : إن كفار العرب قالوا الملائكة بنات الله وهم شركاؤه . فعلى هذا القول فقد جعلوا الملائكة من الجن وذلك لأنهم مستورون عن الأعين . قوله : ﴿ **وخَلَقَهُمْ** ﴾ فيه الدليل القاطع على إبطال الشريك . والضمير في خلقهم إما أن يعود إلى الجن ، أو إلى الجاعلين ، فإن عاد إلى الجن فإن قلنا إن الآية نزلت في المجوس ، فتقريره أن الأكثرين منهم معترفون بأن إبليس محدث ، ولو لم يعترفوا بذلك ، والبرهان العقلي قائم على أن ما سوى الحق الواحد ممكن لذاته . وكل ممكن لذاته فهو محدث . فنقول حينئذ : كل محدث مخلوق وله خالق ، وما ذلك إلا الله سبحانه ، وحينئذ يلزمهم نقض قولهم لأنه ثبت أن إله الخير قد فعل أعظم الشرور وهو خلق إبليس الذى هو مادة كل شر . وإن قلنا إنها نزلت في كفار العرب القائلين الملائكة بنات الله فظاهر لأنهم يسلمون أن الملائكة مخلوقون .. وإن عاد الضمير إلى الجاعلين فالمعنى وعلموا أن الله خلقهم دون الجن . (الغرائب) وقرىء وخلقهم بسكون اللام أي اختلاقهم للافك . ثم حكى عن قوم آخرين نوعاً آخر من الشرك حيث قال : ﴿ **وخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وبَنَاتٍ** ﴾ وذلك قول أهل الكتاب في المسيح وعزير وقول قريش في الملائكة . ومعنى خرقوا ، اختلقوا . قال

الفراء : معنى خرقوا افتعلوا ذلك كذباً وكفراً . ﴿ بغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ حيث قالوا عزير ابن الله وعيسى ابن الله ، والملائكة بنات الله ﴿ سُبحَانَهُ ﴾ هذا من جانبه تعالى فنزه ذاته بنفسه تنزيها لائقا به ﴿ وتعَالَى عمَّا يَصِفُونَ ﴾ بأن له ولدا أو شريكا . وعبارة أبي السعود : تباعد عما يصفونه من أن له شريكا أو ولدا * أو هو المتعالى عن كل اعتقاد باطل وقول فاسد ﴿ بَدِيعُ السّمٰوَاتِ والْأَرْض ﴾ أي خالقها ومنشئها على غير مثال سبق ، وهذا دليل قاطع على ابطال قول من خرق له بنين وبنات . وتقرير الدليل إنكم إما أن تريدوا بكون عيسى ولدا له فقد أحدثه على سبيل الابداع من غير تقدم نطفة ولا أب وحينئذ يلزمكم القول بأنه والد السمٰوات والأرض بكونه مبدعاً لهما وهذا باطل بالاتفاق ، وإما أن تريدوا به الولادة كما هو المألوف في الحيوانات ، وهذا أيضا محال لأن تلك الولادة لا تصح إلا ممن كانت له صاحبة من جنسه وينفصل منه جزء يحتبس في رحمها ، وهذه الأحوال إنما تثبت في حق الذى يصح عليه الاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون والحد والنهاية والشهوة واللذة وكل ذلك على الله محال . وهذا معنى قوله : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ولَمْ تكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ﴾ لأن الولد لا يكون إلا من صاحبة أنثى ، ولا ينبغى أن تكون لله صاحبة لأنه ليس كمثله شيء . ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيء ﴾ على الاطلاق من شأنه أن يخلق وهذه الجملة سيقت لتحقيق ما ذكر من الاستحالة فهى مستأنفة ، أو حال مقررة لها . أي أنىَّ يكون له ولد والحال أنه خلق جميع الأشياء ، ومن جملتها ما سموه ولدا له فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً لخالقه ؟! وهذه الآية حجة قاطعة على فساد قول النصارى ﴿ وهُوَ بكُلّ شيء عَلِيمٌ ﴾ أي عالم بجميع خلقه لا يغرب عن علمه شيء ، وعلمه محيط بكل شيء * - ﴿ جلّ جلالُهُ ولا إله غيره ﴾ - *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ولا تَسُبُّوا الّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله فَيَسُبُّوا الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زيّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إلى ربّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبّئُهُمْ بما كَانُوا يَعْمَلونَ) في الواحدي: قال ابن عباس في رواية الوالبي: قالوا يا محمد: لتنتهينَّ عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك ، فنهى الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عَدْواً بغير علم * وقال قتادة: كان المسلمون يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم . فنهاهم الله عن

ذلك لئلا يسبوا الله فإنهم قوم لا علم بالله عز وجل * وقال ابن عباس : لما نزلت(إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم)قال المشركون يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك * وقال السدى : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، قالت قريش : انطلقوا بنا لندخلن على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى ابن أخيه فإنا نستحى أن نقتله بعد موته ، فتقول العرب : كان عمه يمنعه ، فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث وأمية وأبي خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، وعمرو بن العاصى والأسود بن أبي النحترى إلى أبي طالب . فقالوا يا أبا طالب : أنت كبيرنا وسيدنا ، وأن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا ، فنحب أن تدعوه ، فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلـهه، فدعاه ، فجاء النبي ﷺ ، فقال له أبو طالب : إن هؤلاء قومك وبنو عمك ، فقال رسول الله ﷺ : «وما يريدون»؟ قالوا : نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك ، فقال له أبو طالب : قد أنصفك قومك فاقبلْ منهم ، فقال النبي * :«أرأيتم إن أعطيتكم هذا ، فهل أنتم معطى كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم العجم ، وأدت لكم الخراج»؟ فقال أبو جهل : نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها ، فما هى ؟ فقال :«قولو لا إله إلا الله» فأبوا ونفروا ، فقال أبو طالب : قلْ غيرها يا ابن أخى ، فقال يا عم :«ما أنا بالذى أقول غيرها ، ولو أتونى بالشمس فوضعوها في يدى ما قلت غيرها» فقالوا : لتكفنّ عن شتمك آلهتنا ، أو لنسبنّ من يأمرك . فأنزل الله : ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ** ... ﴾ يعنى ولا تسبوا أيها المؤمنون الأصنام التى يعبدها المشركون فيسبوا الله عدوا بغير علم . لأنهم جهلة بالله عز وجل * الخازن والغرائب : رواه ابن أبي حاتم عن السدى . بطوله . قلت : وفيه تنبيه على أن خصمك إذا بادرك بالسب جهلا منه وسفاهة لا يجوز لك أن تقابل سيئة بسيئة مثلها فإن ذلك يفتح باب الجهالة بالمشاتمة والمسافهة وأنه لا يليق بالمؤمنين . قال بعض العلماء : إن القوم كانوا مقرين بوجود الله تعالى -«ولئن سألتهم من خَلَقَهُمْ ليقولن الله»- فكيف يتصور إقدامهم على شتمه ؟ أجيب لعل بعضهم كان قائلا بالدهر ونفى الصانع فما كان يبالى هذا النوع من السفاهة ، أو ربما أرادوا شتم الرسول ، فأجرى الله تعالى شتمه مجرى شتم الله كما في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ** ﴾ أو لعلهم وهو الأصح أن الشيطان يحمله على ادعاء الرسالة فأقدموا على شتمه . قال صاحب الغرائب : وهنا سؤال ، وهو

أن شتم الأصنام من أصول الطاعات فكيف يحسن من الله تعالى أن ينهى عنه ؟ والجواب : إن هذا الشتم وإن كان طاعة إلا أنه إذا وقع على وجه يستلزم منكراً وجب الاحتراز عنه لأن هذا الشتم كان يستلزم اقدامهم على شتم الله سبحانه ، وشتم رسوله ، وفتح باب السفاهة ، ويقتضى تنفيرهم عن قبول الدين وإدخال الغيظ والغضب في قلوبهم ، إلى زيادة منكر ، وغلبة الظن قائمة مقام اليقين في هذا الباب ، وفيه تأديب لمن يدعو إلى الدين كيلا يتشاغل بما لا يفيد في المطلوب ، فإن وصف الأوثان بأنها جمادات لا تنفع ولا تضر يكفى في القدح في سبها فلا حاجة مع ذلك إلى شتمها * وفي الخازن : وقال ابن الأنبارى : هذه الآية منسوخة أنزلها الله عز وجل والنبي ﷺ بمكة ، فلما قوّاه بأصحابه نسخ هذه الآية ، ونظائرها بقوله تعالى : ﴿ **اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ** ﴾ * وقال الزجاج نهوا في ذلك الوقت قبل القتال أن يلعنوا الأصنام التى كانت تعبدها المشركون * قلت : وفي قوله تعالى ﴿ **ولا تَسُبُّوا الَّذِينَ يدعُون من دُونِ اللهِ** ﴾ عامة في أهل الكتاب وكفار قريش عباد الأصنام والأوثان . فإذا قلنا إن السب منسوخ في حق الأصنام ، فهل يجرى الحكم أيضا على الصليب ؟ فظاهر الآية وإن كانت نهيا عن سب الأصنام فحقيقتها النهى عن سب الله تعالى لأن سبها سبب لسب الله تعالى لذا لا يجوز سب الصليب لئلا يجر ذلك إلى سب الرسول . وفي ذلك من الفتن والمفاسد ما لا يخفي . والسب عموما منهى عنه لأن معناه اللعن وهو مضاف إلى الله تعالى . وقوله : ﴿ **فَيَسبُوا الله** ﴾ تأكيد للنهى عن السب لأن يسبوا منصوب على جواب النهى باضمار أن بعد الفاء فيكون المعنى أنهاكم عن سب آلهتهم لما يترتب عليه ما تكرهون من سب الله ورسوله . وكذا إذا قلنا مجزوم نسقا على فعل النهى أي لا تسبوا آلهتهم فيسبوا إلهكم . ولذا لمّا نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ : « لا تسبوا آلهتهم فيسبوا ربّكم » فأمسك المسلمون عن سب آلهتهم . وقوله : ﴿ **عَدْواً** ﴾ أي اعتداء وظلماً وهو مفعول مطلق أو مفعول لأجله . أو واقع موقع الحال المؤكدة لأن السب لا يكون إلا عدوا . ﴿ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ أي جهلا منهم بالله بما يجب في حقه ويذكر به ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ أي كما زينا لهؤلاء ما هم عليه ﴿ **زَيَّنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ** ﴾ من الخير والشر فأتوه . وعبارة الخازن : كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان كذلك زينا

لكل أمة عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية . قال : وفي هذه الآية دليل على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا : لا يحسن من الله خلق الكفر وتزيينه * أي أن المراد أنه تعالى زين لهم ما ينبغى لهم أن يعملوا وهم لا يفقهون . والأحسن من هذا أن يقال خليناهم وشأنهم وأمهلناهم حتى حَسُنَ عندهم سوء عملهم ، أو أمهلنا الشيطان حتى زيّن لهم بسبب جهلهم بالله فعملوا ما أمرهم الشيطان به . وهو أصحها لقوله تعالى : ﴿ **وزيّنَ لهم الشيْطَانُ أعمالَهم** ﴾ ولقوله : ﴿ **والّذِينَ كفَرُوا أوْلياؤُهم الطَّاغُوتُ يُخرِجُونَهم من النّور إلى الظّلُماتِ** ﴾ . والخلاصة إن سننا في أعمال البشر بأن يستحسنوا ما تعودوا منها تقليدا لآبائهم أو استحداثاً بأنفسهم بدون أن نخبرهم ولا نكرههم عليها كما في قوله تعالى : ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النّجديْنِ** ﴾ أي طريق الخير والشر ﴿ **فمنْ شآءَ فلْيُؤْمِنْ ومَنْ شاء فليكْفُرْ** ﴾ ولا يجوز أن نقول : إن الله خلق في قلوب بعض الأمم تزيين الكفر والشر ، وفي قلوب بعضها تزيين الايمان والخير لأن ذلك يعد من الغرائز الخلقية التى تعد الدعوة إليها من العبث ، فكان إرسال الرسل وتأديب الناس عملا لا فائدة فيه ، وهذا هو الحق إن شاء الله تعالى . وقوله : ﴿ **ثُمَّ إلَى ربّهِمْ مَرْجِعُهُمْ** ﴾ يعنى المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ﴿ **فيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كانُوا يعلمون** ﴾ يعنى في الدنيا من أعمال الخير والشر فيجازيهم على ذلك * وفي هذا التذييل نفى لعقيدة الجبر ، وإبطال لقول الأشاعرة : إن الله تعالى هو الذي زين للكافرين الكفر وللمؤمن الايمان وللعاصى المعصية . ذكر قولهم هذا . صاحب الغرائب *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وأقْسَمُوا بالله جَهْدَ أيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيةٌ لَيُؤمِنُنَّ بِهَا قُلْ إنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ الله ومْا يُشْعِرُكُمْ أنّها إذَا جَاءَتْ لَا يؤمِنُونَ** ﴾ في الواحدي : قال محمد بن كعب : كلّمت رسول الله ﷺ قريش ، فقالوا يا محمد : تخبرنا أن موسى عليه السلام كانت معه عصا ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، وأن عيسى عليه السلام كان يحي الموتى ، وأن ثمود كانت لهم ناقة ، فأتنا ببعض تلك الآيات حتى نصدّقك . فقال رسول الله ﷺ : « أي شيء تحبون أن آتيكم به ؟ فقالوا : تجعل لنا الصفا ذهبا . قال :«فإن فعلت تصدقوني»؟ قالوا : نعم ، والله لئن فعلت لنتبعنّك أجمعين ، فقام رسول الله ﷺ يدعو ، فجاء جبريل عليه السلام . قال :

إن شئت أصبح الصفا ذهبا ولكن لم أرسل آيه فلم يصدق بها إلا أنزلت العذاب . وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم . فقال رسول الله ﷺ :«أتركهم حتى يتوب تائبهم» فأنزل الله تعالى : ﴿ **وأقسَمُوا بالله جَهْدَ أيْمَانِهِم لَئِنْ جاءتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها ...** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ما كانُوا ليؤمِنوا إلاَّ أنْ يَشَاءَ اللهُ ...** ﴾ الآية .. وكذا رواه ابن جرير أيضا عن محمد بن كعب القرظي . فأنزل الله إلى قوله : ﴿ **وَلَكِنَّ أكثرهُمْ يَجْهَلُونَ** ﴾ وكذا صاحب الغرائب والخازن وابن كثير كلهم عن محمد بن كعب به . أما التفسير : ﴿ **وأقْسَمُوا بالله جَهْدَ أيْمَانِهِمْ** ﴾ أي حلفوا بالله جهد أيمانهم أي أوكدما قدروا عليه من الايمان ، والغرض حكاية شبهة أخرى لهم . وهي أن هذا القرآن كيفما كان أمره فليس من جنس المعجزات البتة ولو أنك يا محمد جئتنا بمعجزة باهرة وبينة قاهرة لآمنا بك ، وأكدوا هذا المعنى بالايمان والأقسام . قال الواحدي : إنما اليمين بالقسم لأن اليمين موضوعة لتوكيد الخبر ، وكانت الحاجة إلى ذكر الحلف عند انقسام الناس وقت سماع الخبر إلى مصدق ومكذب . فمعنى الاقسام إزالة القسمة ، وجعل الناس كلهم مصدقين بواسطة الحلف واليمين . ﴿ **لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيةٌ** ﴾ ما تقدم ذكره من جعل الصفا ذهباً . أو يعود على طلبهم في قوله تعالى ﴿ **وقالُوا لَنْ نُؤمِنَ لَكَ حتَّى تَفْجُرَ لنا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعاً ...** ﴾ الآيات . ﴿ **قُلْ إنَّما الآياتُ عِنْدَ اللهِ** ﴾ أي أمر تنزيلها له لا إليّ ، فهو مختص بالقدرة على تنزيل أمثال الآيات التي تطلبونها . إن المعجزات على يدي الأنبياء لا تحصل إلا بتخليق الله تعالى وليس لكم أن تتحكموا في تخصيصها وإنزالها كما تشاؤن في الشكل والمكان والزمان ﴿ **ومَا يُشْعِرُكُم** ﴾ ما يكون منهم ؟ ﴿ **أنَّها إذَا جَاءتْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ أي . وأي شيء يعلمكم بإيمانهم . أي لا تعلمون ذلك : فالله هو العليم قال تعالى: (**ومَا تأتيهِمْ مِنْ آيةٍ من آياتِ ربّهِمْ إلاَّ كانُوا عنها معرضينَ**) وقال: (**وإنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يؤمنُوا بها**) وقال: (**قُلْ إنَّ الله قادِرٌ علَى أنْ يُنَزِّلَ آيةً ولكنَّ أكْثَرَهُمْ لاَ يعْلَمُونَ**) والآيات كثيرة في هذا الموضوع. أي لا يؤمنون لما سبق في علمه تعالى. فلماذا يُنزّل الآيات ؟ ويؤكد هذا بقية آيات النزول : ﴿ **ونُقَلِّبُ أفْئِدَتَهُمْ وأبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أوَّلَ مَرَّةٍ ونَذَرُهُمْ في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أنَّنا نَزَّلْنَا إلَيْهِمُ المَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيؤْمِنُوا إلاَّ أنْ يَشَاءَ اللهُ ولكِنَّ أكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ** ﴾ قوله : ﴿ **ونُقَلِّبُ أفْئِدَتَهُمْ** ﴾ أي نحول قلوبهم عن الحق

فلايفهمونه ونصرف ﴿ أَبْصَارَهُمْ ﴾ عنه فلا يبصرونه ، فلا يؤمنون ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ﴾ أي بما أنزل من الآيات ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي فلا يؤمنون ثانيا عند نزول مقترحهم لو نزل بدليل قوله ﴿ كما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مرَّةٍ ﴾ أما عند نزول الآيات السابقة على اقتراحهم كانشقاق القمر . قال ابن عباس : ﴿ ونُقَلِّبُ أفئِدَتَهُمْ وأبصارَهُمْ ﴾ يعنى ونحول بينهم وبين الايمان فلو جئناهُمْ بالآيات التى سألوها لما آمنوا بها * والتقليب هو تحويل الشيء وتحريكه عن وجهه إلى وجه آخر . قلت : ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ وَلَو فتحنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فظلُّوا فِيهِ يَعْرِجُونَ * لَقَالُوا إنَّمَا سُكِرتْ أبْصَارُنَا بَلْ نَحنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ وقوله : ﴿ ونَذَرهُمْ ﴾ نتركهم ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ ضلالهم وتكبرهم عن الايمان ﴿ يَعْمَهُون ﴾ يترددون متحيرين فيما سمعوا من الآيات ، محدثين أنفسهم أهذا هو الحق المبين أم السحر الذى يخدع عيون الناظرين ، وهل الأرجح اتباع الحق بعد ما تبين أو المكابرة والجدل كبرا وأنفة من الخضوع لما يرونه دونهم ؟ وإنما أسنده الخالق إلى نفسه جل جلاله : ﴿ ونُقَلِّبُ أفئدَتَهُمْ ... ﴾ لبيان سنته الحكيمة في ربط المسببات بأسبابها إذ أن رسوخهم في الطغيان هو غاية الكفر والعصيان ، هو سبب تقليب القلوب والأبصار . أي الختم عليها فلا تفقه ولا تبصر . كما في قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وعلَى سَمعِهِمْ وعلَى أبصَارهِمْ غشاوة ... ﴾ عقوبة لهم . ثم بين الله طغيانهم وعنادهم بقوله : ﴿ ولَو أَنَّنَا نزَّلْنَا إِلَيهِمْ المَلائِكَةَ ﴾ جميعا ﴿ وكلَّمَهُمُ الموتَىٰ ﴾ كما اقترحوا بقولهم ﴿ لولا أُنزِلَ عَلَيْنَا المَلائِكَةُ ﴾ وقولهم : ﴿ فَأتُوا بآبَائِنا ... ﴾ ﴿ وحَشَرْنَا ﴾ جمعنا ﴿ عَلَيْهِمْ كُلَّ شيءٍ قُبُلاً ﴾ جمع قبيل فوجاً فوجاً فشهدوا بصدق النبي ﷺ ﴿ مَا كانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ لما سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون ﴿ إلاَّ ﴾ لكن ﴿ أنْ يَشَاءَ الله ﴾ إيمانهم فيؤمنون . الاستثناء هنا منقطع لأن المشيئة ليست من جنس إرادتهم . ومن قال متصل على الحال . قال معناه : ما كانوا ليؤمنوا في حال من الأحوال إلا في حال مشيئته أو في سائر الأزمان إلا في زمن مشيئته . وقيل : استثناء من علة عامة أي ما كانوا ليؤمنوا لشيء من الأشياء إلا لمشيئة الله الايمان . وهو الأولى . أي لكن إن شاء الله إيمان أحدهم طالبا له مختارا قبله الله منه وشاء له . والمراد أنهم ما داموا على صفاتهم من اقتراح الآيات .. فهم لا يؤمنون لِعِلْمِ الله ذلك منهم لكن

إن شاء الله أن يزيلها فعل وهو على كل شيء قدير . والخلاصة . ما دام القوم غير مستعدين للايمان لا يشاء الله إيمانهم ، وإنما عليه أن يقيم الحجة عليهم بإرسال الرسل ﴿ وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً ﴾ ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ﴿ ولكنّ أكثرهم يجهلون ﴾ ذلك أنهم لو أوتوا بكل آية لم يؤمنوا . فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون ، ولذلك أسند الجهل إلى أكثرهم . ولعل الباقين قد آمنوا . أو لكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون فيتمنون نزول الآيات طمعاً في إيمانهم . قال ابن عباس : كان المستهزؤن بالقرآن خمسة : الوليد بن المغيرة المخزومي ، والعاصي بن وائل السهمي ، والأسود بن يغوث الزهري ، والأسود بن عبد المطلب ، والحرث بن حنظلة . أتوا رسول الله ﷺ في رهط من أهل مكة ، وقالوا : أرنا الملائكة يشهدون بأنك رسول الله ، أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم أحق ما تقول أم باطل ؟ - أو ائتنا بالله والملائكة قبيلا ، فنزلت الآية . كذا ذكره المراغي في تفسيره *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا ممّا لم يذكر اسم الله عليه وإنّه لفسقٌ وإنّ الشّياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ في الواحدي : قال المشركون يا محمد : أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها ؟ قال :«الله قتلها»، قالوا : فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال ، وما قتل الكلب والصقر حلال ، وما قتله الله حرام ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي اللباب : أتى ناس إلى النبي ﷺ ، فقالوا يا رسول الله : إنا نأكل ما نقتل ، ولا نأكل ما يقتل الله ؟ فأنزل الله : ﴿ فكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه ... ﴾ إلى قوله : ﴿ وإن أطعتموهم إنّكم لمشركون ﴾ * وفي الواحدي أيضا . وقال عكرمة : إن المجوس من أهل فارس لما أنزل الله تحريم الميتة كتبوا إلى مشركي قريش ، وكانوا أولياءهم في الجاهلية ، وكانت بينهم مكاتبة أن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ، ثم يزعمون أن ما ذبحوا فهو حلال * وما ذبح الله فهو حرام ، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي اللباب أيضا : عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ ولا تأكلوا ممّا لم يذكرُ اسمُ الله عليه ﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً فقولوا له : ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال . وما ذبح الله

بشمشار من ذهب يعني الميتة فهو حرام . فنزلت هذه الآية ﴿ **وإنّ الشياطينَ ليوحون إلى أوليائِهم ليجادِلُوكُمْ** ﴾ قال الشياطين من فارس . وأولياؤهم من قريش * ونحو الأول في الخازن ، وما بعده في الغرائب والطبرى ، وفيه : وعن عكرمة قال : كان مما أوحى الشياطين إلى أوليائهم من الانس كيف تعبدون شيئا لا تأكلون مما قتل ، وتأكلون أنتم ما قتلتم .. فروى الحديث حتى بلغ النبي ﷺ فنزلت : ﴿ **ولَا تأكُلُوا ممَّا لم يذكَرُ اسم الله عليه ...** ﴾ وقال ابن وكيع : جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : نأكل ما قتلنا ولا نأكل ما قتل الله ؟ فأنزل الله : ﴿ **ولَا تأكلوا ممَّا لَمْ يذْكَرِ اسْمُ الله عليه ...** ﴾ وهناك أقوال أخرى في نفس المعنى والموضوع .. أما التفسير : ﴿ **ولَا تأكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذكَرِ اسمُ الله عليْهِ** ﴾ بأن مات ، أو ذبح على اسم غير الله مما ذبحه المشركون لأوثانهم فإن ذلك فسق ومعصية كما جاء في الآية الأخرى ﴿ **أوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ به** ﴾ قال الامام مالك : كل ما ذبح ولم يذكر اسم الله تعالى عليه فهو حرام ترك الذكر عمداً أو سهواً * وقال أبو حنيفة : إن ترك الذكر عمدا حرم ، وإن ترك نسيانا حل * وقال الشافعي : متروك التسمية عمدا أو سهوا حلال إذا كان الذابح مسلما * قاله ابن عباس : وأخذ به الشافعي . ولعله استدل بقوله ﷺ حينما سئل عن ذبيحة المسلم فقال : « كلوا ، فإن تسمية الله في قلب كل مؤمن » . وفي حديث أيضا « ذبيحة المسلم حلال وإن لم يذكر اسم الله عليها » . قوله ﴿ **وإنَّهُ** ﴾ أي الأكل منه ﴿ **لَفِسْقٌ** ﴾ خروج عما يحل ﴿ **وإنَّ الشياطين ليوحُونَ** ﴾ المراد به إبليس وجنوده يوسوسون ﴿ **إلى أوليائِهِمْ** ﴾ الكفار . قال عكرمة : وإن الشياطين يعنى مردة المجوس ليوحون إلى أوليائهم من مشركى قريش .. وقد تقدم ذلك ﴿ **لِيُجادِلُوكم** ﴾ في تحليل الميتة ﴿ **وإنْ أَطَعْتُمُوهُمْ** ﴾ يعنى في استحلال الميتة ﴿ **إنكُمْ لَمُشرِكون** ﴾ قال الزجاج : وفيه دليل على أن كل من أحل شيئا مما حرم الله تعالى أو حرم شيئا مما أحل الله تعالى فهو مشرك ، لأنه أثبت مشرّعا سوى الله ، وهذا هو الشرك بعينه . ومما يذبح عند استقبال ملك أو أمير أو وزير أفتى بعض الحنفية بتحريم أكله ، لأنه ما أهل به لغير الله . وأباحه بعض الشافعية لانهم إنما يذبحونه استبشارا بقدومه فهو كذبح العقيقة لولادة المولود ، ومثل هذا لا يوجب التحريم ، وهذا هو الصحيح والمعول عليه ، في الخازن : قال ابن عباس : الآية في تحريم الميتة وما في معناها من المنخنقة وغيرها * وقال عطاء :

الآية في تحريم الذبائح التى كانوا يذبحونها على اسم الأصنام . إذاً فلا يدخل فيها ما يذبح عند استقبال ملك ونحوه إكراما له *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أوَ مَنْ كان ميتاً فأحْيَيْنَاهُ وجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمشْى به في النّاسِ كمنْ مَثَلُهُ في الظُّلماتِ لَيْسَ بخارج منها كَذَلِكَ زُيّنَ لِلْكَافِرين ما كانُوا يَعمَلُونَ ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : يريد حمزة بن عبدالمطلب وأبا جهل . وذلك أن أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بفرث وحمزة لم يؤمن بعد ، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه ، وبيده قوسه ، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس . وهو يتضرع إليه ويقول يا أبا يعلى : أما ترى ما جاء به ؟ سفه عقولنا وسب آلهتنا ، وخالف آباءنا ؟ قال حمزة : ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون الله ؟ أشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال زيد بن أسلم في قوله عز وجل : ﴿ أوَمَنْ كانَ ميْتاً فأحييْناهُ وجعلنَا له نوراً يمشي به في النّاس ... ﴾ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ، قال : أبو جهل بن هشام * وكذا في الخازن . وفيه وقال عكرمة والكلبي : نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل * وقال مقاتل : نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل ، وذلك أن أبا جهل ، قال : زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا نحن وهم كفرسيّ رهان ، قالوا : منا نبي يوحى إليه ، والله لا نؤمن حتى يأتينا وحى كما يأتيه . فنزلت هذه الآية * والأصح أن هذه الآية عامة في حق كل مؤمن وكافر ، لأن المعنى إذا كان حاصلاً في الكل دخل فيه كل أحد . وإنما جعل الكفر موتاً لأنه جهل والجهل الحيرة والوقفة ، فهو كالموت الذي يوجب السكون . وأيضاً الميت لا يهتدى إلى شيء ، وكذلك الجاهل . والهدى علم وبصيرة وهما يوجبان الفوز بالمطالب كالحياة والنور ، ومعنى قوله : ﴿ أوَمنْ كانَ ميْتاً فأحييْنَاهُ ﴾ أي أو من كان ميتا بالكفر فأحييناه بالايمان ، وهو تمثيل ، أي وإنما جعل الكفر والايمان حياة لأن الحي صاحب بصيرة وبصر يهتدى بهما إلى الرشد . ولما كان الايمان يهدى إلى الفوز العظيم في الحياة الأبدية شبه بحياة الجسم بعد الموت ، وقوله : ﴿ وجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشى بِهِ في الناسِ ﴾ أي وجعلنا له نورا يستضيء به في الوصول إلى الاسلام واعتناقه والاية كقوله تعالى : ﴿ اللهُ وليّ الّذِينَ آمَنُوا يُخرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَات إلى النُّورِ ﴾ . وقال قتادة : هو

كتاب الله : القرآن . لأنه بيّنة من الله مع المؤمن بما يعمله * وهو قول جمع من المفسرين . وهذا هو مثل المؤمن في الحياة ، وأما مثل الكافر فهو : ﴿ **كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا** ﴾ وفيه أن ظلمات الجهل ، والأخلاق الذميمة صارت كالصفة اللازمة لا تكاد تزول عنه ، فيبقى متحيراً فزعاً ، نعوذ بالله من هذه الحالة .
ومعنى المثل ههنا الصفة الغريبة . أي كمن صفته هذه ، والمراد كمن هو في الظلمات . جمع ظلمة ، وهى ظلمة الكفر وظلمة الجهل وظلمة عمى البصيرة .. إشارة إلى أن الكفر يدعو إلى الصفات الذميمة الكثيرة . ووحد النور وهو الاسلام ، أو القرآن لأنه يدعوا إلى الصفات الحميدة ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ كما زين للمؤمنين الايمان ﴿ **زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مٰا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ في الخازن : قال أهل السنة المزين هو الله تعالى ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ **زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ ولأن حصول الفعل يتوقف على حصول الدواعى ، وحصولها لا يكون إلا بخلق الله تعالى . فدل بذلك على أن المُزَيِّنَ هو الله تعالى . وقالت المعتزلة : المزين هو الشيطان . ومن أحب الاطلاع على حجج الطائفتين فليرجع إلى الخازن * وأنت ترى أن قوله تعالى : ﴿ **زيَّنَّا** ﴾ قد أضيف إلى الله تعالى ، فلا يمكن صرف الاضافة عن حقيقتها إلى المجاز إلا بدليل . فالشيطان يزين للكافرين أعمالهم ليرديهم في الجحيم كقوله تعالى : ﴿ **ولكنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وزَيّن لهُمُ الشيْطَان مٰا كانُوا يعملون** ﴾ ﴿ **وإذْ زَيَّن لَهُمُ الشيْطان أعْمالَهُمْ وقالَ لا غالبَ لكُمْ** ﴾ ﴿ **وجدْتُها وقوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْس مِنْ دُونِ الله وزَيّنَ لهُمُ الشيّطانُ أعْمَالَهُمْ** ... ﴾ وهل هى إضافة حقيقية إلى الشيطان . أو على المجاز ؟ فيها خلاف . والاضافة إلى الله بالحقيقة أو المجاز أولى لقوله تعالى : ﴿ **وكذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلّ قريَةٍ أكابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُو فيها ومٰا يَمْكُرُونَ إلاَّ بأنْفُسِهِمْ ومٰا يشْعُرُون** ﴾ أي وكما جعلنا في مكة صناديدها يمكروا فيها بالصد عن الايمان كذلك زينا للكافرين أعمالهم . كذلك جعلنا ﴿ **في كل قرية أكابِرَ** ﴾ فيجب أن يكون التزيين والجعل مضافين إلى الله تعالى . أي كما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها .. وقد تقدم بحث ذلك عند قوله تعالى : ﴿ **مٰا كانُوا ليؤمِنُوا إلا أن يَشَاءَ الله** *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الّذِينَ قَتَلُوا أوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وحرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ الله افْتِراءً علَى الله قَدْ ضَلُّوا ومٰا كانُوا مُهْتَدينَ ﴾ في الخازن :

قال عكرمة : نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر ، وكان الرجل يقاضى الرجل على أن يستحى جارية ويئد أخرى ، فإذا كانت الجارية التى توأد غدا الرجل ، أو راح من عند امرأته ، وقال لها : أنت عليَّ كظهر أمى إن رجعت إليك ولم تئديها فتخد لها في الأرض خدا ، وترسل إلى نسائها فيجتمعن عندها ، ثم يتداولنها بينهن حتى أبصرته راجعا دستها في حفرتها ، ثم سوت عليها التراب * وقال قتادة : هذا من صنيع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنه مخافة السبى والفاقة ، ويغذو كلبه * روى البخاري عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من الأنعام : ﴿ قد خسِرَ الّذِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وما كانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ وما نقل على ألسنة بعض الناس من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دفن ابنته فهو محض افتراء ولم يثبت عنه مثل ذلك البتة لا في سير العرب ولا في التواريخ . ومعنى الآية : قد خسر الذين قتلوا أولادهم في الدنيا باعتبار السعى في نقص عددهم ، وإزالة ما أنعم الله به عليهم ، وفي الآخرة باستحقاق العذاب الأليم . وقوله : ﴿ سَفَها بغيْر عِلْمٍ ﴾ أي جهلا منهم بغير حجة ، وما ذلك إلا لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله هو الرزاق لهم ولأولادهم ، بل قدم الله الأولاد في الرزق عليهم فقال : ﴿ ولا تَقْتُلوا أوْلَادَكُمْ خشْيَةَ إمْلاقٍ نحن نَرْزُقُهُمْ وإيّاكُمْ ﴾ خشية إملاق : خشية فقر . وقوله : ﴿ قَدْ ضَلُّوا وما كانُوا مُهْتَدينَ ﴾ أي بافترائهم على الله وذلك أنهم فعلوا تلك الأفعال المذمومة وزعموا أن الله أمرهم بها ، وهو من أعظم الجهالات لأن الجراءة على الله والكذب عليه من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر . ولذا قال : ضلوا في فعلهم عن طريق الحق ، وما كانو مهتدين إلى الصواب فى فعلهم وهو بيان أنهم لم يحصل لهم اهتداء لوصفهم أولا بالضلال ، ثم بعد ما ضلوا لم يهتَدوا مرّة أخرى . وما دام الضلال ملازما لهم فليسوا مهتدين أبداً *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وأتوا حَقَّه يَوْم حَصَادِهِ ولا تُسْرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُ المسرفين ﴾ فى اللباب : أخرج ابن جرير عن أبى العالية قال : كانو يعطون شيئا سوى الزكاه ، ثم تسارفوا . فنزلت هذه الآية . وأخرج عن ابن جريج أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جذَّ نخلة فأطعم حتى أمسى وليس له ثمرة . أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردودية عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ وآتُوا حَقَّهُ يوْمَ حصَادِهِ ﴾ قال : « ما سقط من السنبل » * وقال مجاهد فيه : إذا حصدت

فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل ، فإذا دسته فحضرك المساكين فاطرح لهم ، فإذا أدريته وجمعته وعرفت كيله فاعزل زكاته ، وإذا بلغ النخل وحضرك المساكين فاطرح لهم من التفاريق والبسر . فإذا جذذته (قطعته) فحضرك المساكين فاطرح لهم منه . فإذا جمعته وعرفت كيله فاعزل زكاته * وعن ميمون بن مهران وزيد بن الأصم أن أهل المدينة كانوا إذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيضعونه في المسجد فيجيء السائل فيضربه بالعصا فيسقط منه ، فهو قوله : ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ *

وعن سعيد بن جبير قال : كان هذا قبل أن تنزل الزكاة : الرجل يعطى من زرعه ، و يعلف الدابة و يطعم اليتامى والمساكين، و يعطى الضغث. يريد أن هذا الأمر في الصدقة المكلفة غير المعينة * وهذا هو الصحيح لأن الزكاة المحدودة فرضت بالمدينة في السنة الثانية من الهجرة وهذه السورة مكية وقوله : ﴿ **وَلَا تُسرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُ الْمُسْرِفينَ** ﴾ أي كلوا مما رزقكم الله حلالاًطيباً من غير اسراف في الأكل قال تعالى : ﴿ **وكُلُوا واشْرَبُوا ولَا تُسْرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ : ﴿ **يا أَيُّها الّذِينَ آمنُوا لَا تُحرِّمُوا طيّباتِ مٰا أَحَلَّ اللهُ لكُمْ ولَا تَعْتَدُوا إنّ اللهَ لا يُحبُّ الْمُعْتَدينَ** ﴾ والاعتداء والاسراف مجاوزة الحد . والحد الذي ينهى الله عن تجاوزه . إما شرعي كتجاوز الحلال من الطعام والشراب وما يتعلق بهما إلى الحرام وإما فطرى طبعى ، وهو تجوز حد الشبع إلى البطنة الضارة *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنَّ الّذِينَ فَرَّقُوا دينَهُمْ وكانُوا شِيعاً لَسْتَ مِنهُمْ فى شَىْء إنما أَمْرُهُمْ إلى اللهِ ثمَّ يُنبِّئُهُمْ بِمَا كانُوا يَفْعَلُون** ﴾ ذكر المراغى في تفسيره أنه ذهب بعض مفسرى السلف إلى أن الآية نزلت في أهل الكتاب إذ فرقوا دين ابراهيم وموسى وعيسى ، فجعلوه أديانا مختلفة ، ولكل منها مذاهب تتعصب لها شيع مختلفة ، يتعادون ويتقاتلون فيه * وذهب بعض آخر إلى أنها في أهل البدع والفرق الاسلامية والمذاهب التى استحدثت فمزقت وحدة الأمة . قال : ولا مانع من الجمع بين الرأيين ، فإنه تعالى ذكر أهل الكتاب وشرعهم ، وأمر من استجاب لدعوة الاسلام بالوحدة وعدم التفرق كما تفرق من قبلهم كما جاء في سورة آل عمران : ﴿ **ولا تكُونُوا كالّذِينَ تَفَرَقُوا واخْتلَفُوا مِنْ بَعْد مٰا جَاءَهُمُ البّيناتُ وأولٰئِكَ لَهمْ عَذَابٌ عظيمٌ** ﴾ ثم بين أن رسوله برىء من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كما فعل أهل الكتاب ، فهو يحذر من

صنيعهم ، وينهى عن سلوك طريقهم ، فمن اتبع سنتهم في هذا التفريق فالرسول برىء منه ، كما هو برىء من أولئك المفرقين من سالفى الأمم . أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : اختلفت اليهود والنصارى قبل أن يبعث محمد ﷺ . فلما بعث محمد أنزل عليه : ﴿ **إنَّ الّذِينَ فرَّقُوا دِينَهُمْ** ... ﴾ الآية . قال : هم في هذه الأمة * وأخرج الترمذي وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم عن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ قال لعائشة : « يا عائش : إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا . هم أصحاب البدع ، وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة ، يا عائشة : إن لكل صاحب ذنب توبة إلا أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة . أنا منهم برىء وهم مني بُرءاء » . قال : وليس المراد بنفى التوبة عنهم أنهم لا تقبل لهم توبة إذا ظهر لهم خطؤهم وعرفوا بدعتهم فرجعوا وتابوا إلى ربهم . بل المراد أنهم لا يتوبون لزعمهم أنهم على الصواب . وسواهم على الباطل * وفي الخازن قال الحسن : ﴿ **إنَّ الّذِينَ فَرَّقُوا دينَهُمْ وكانُوا شيَعاً** ﴾ هم جميع المشركين لأن بعضهم عبدوا الأصنام . وقالوا : هذه شفعاؤنا عند الله ، وبعضهم عبدوا الملائكة ، وقالوا : إنهم بنات الله ، وبعضهم عبدوا الكواكب ، فكان هذا تفريق دينهم ، وقال مجاهد : هم اليهود * وقال ابن عباس وقتادة والسدى والضحاك : هم اليهود والنصارى لأنهم تفرقوا فكانوا فرقا مختلفة * وقال أبو هريرة : هم أهل الضلالة من هذه الأمة . وروى ذلك مرفوعا قال : قال ﷺ « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء وليسوا منك ، هم أهل البدع وأهل الشبهات ، وأهل الضلالة من هذه الأمة » أسنده الطبرى قال الخازن : فعلى هذا يكون المراد من هذه الآية الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة ، وأن لا يتفرقوا في الدين ولا يبتدعوا البدع المضِلّة * قال ابن كثير : إن إسناد أبو هريرة هذا لا يصح ، فإن عباد بن كثير متروك الحديث ، ولم يختلف هذا الحديث ولكنه وهم في رفعه فإنه رواه سفيان الثورى عن ليث ، وهو ابن أبي سليم عن طاوس عن أبي هريرة في الآية . أنه قال : نزلت في هذه الأمة * وقال أبو غالب عن أبي أمامة في قوله : ﴿ **وكانُوا شيعاً** ﴾ قال هم الخوارج . وروى عنه مرفوعا ولا يصح ، وقال عن حديث عائشة : ﴿ **إن الذينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكانُواشيعاً** ﴾ قال لها النبي ﷺ :«هم أصحاب البدع». هذا رواه ابن مردوية وهو غريب أيضا ولا يصح رفعه . قال ابن كثير : والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفا له . فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق

ليظهره على الدين كله . وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق * وقوله : ﴿ **لَسْتَ مِنهُمْ في شيء** ﴾ أي إنك بعيد من أقوالهم ومذاهبهم والعقاب اللازم على تلك الأباطيل مقصور عليهم لايتعداهم إليك . وقال السدي : معناه لم تؤمر بقتالهم فلما أمر بقتالهم نسخ * أي فلا تتعرض لهم بالقتل حتى تؤمر به ، فعليك بتبليغ الرسالة وإظهار شعائر الدين الحق الذي أمرت بالدعوة إليه ﴿ **إنما أمْرُهُمْ إلى الله** ﴾ يتولاه ﴿ **ثُمَّ ينبئُهُمْ** ﴾ في الآخرة ﴿ **بما كانُوا يَفْعَلُون** ﴾ فيجازيهم به . قال الجلال : وهذا منسوخ بآية السيف * أي على القول بأن الآية نزلت في اليهود والنصارى * والخلاصة : إن المراد بالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً فرقا وأحزابا هم أهل الكتاب ، والمقصود من براءة الرسول منهم تحذير أمته من مثل فعلهم . ليعلم أن من فعل فعلهم وحذا حذوهم من هذه الأمة فالرسول منه بريء . لأن الله أمرنا بالوحدة وحذرنا من الفرقة فقال : ﴿ **ولا تكونُوا كالذينَ تفرقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بعدِ ما جَاءَهُمْ البَينات وأولئك لَهُمْ عذَابٌ عظيمٌ** ﴾ وما جرى على أحد المثلين * يجرى على الآخر ، فالتنازع على الملك والعصبية الجنسية أو المذهبية والقول في الدين بالرأى منهى عنها في الاسلام لأنها تسبب التنازع والتفريق في الدين ، وهو هدم له *

القول في سبب نزول قوله تعالى: (**واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأ الَّذِى آتَيْنَاهُ آياتِنا فَانْسَلخَ مِنْهَا فأتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * ولَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ولكنَّهُ أخْلَدَ إلَى الْأَرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كذَّبُوا بآياتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يتفكَّرُونَ** ﴾ في الواحدي : قال ابن مسعود نزلت فى بلعم بن باعوراء : رجل من بني اسرائيل * وقال الوالبى : هو رجل من مدينة الجبارين يقال له : بلعم . وكان يعلم اسم الله الأعظم ، فلما نزل بهم موسى عليه السلام أتاه بنو عمه وقومه وقالوا : إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة ، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا ، فادع الله أن يرد عنا موسى : ومن معه . قال : إنى إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي . فلم يزالوا به حتى دعا عليهم . فسلخه الله مما كان عليه . فذلك قوله : ﴿ **فانسلخ منها** ﴾ وروى عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال : هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيها : كانت له امرأة يقال لها البسوس ، وكان له منها ولد . وكانت له محبة . فقالت : اجعل لي منها دعوة واحدة .

قال : لك واحدة فماذا تأمرين . قالت : أدع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني اسرائيل . فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئا آخر . فدعا الله عليها أن يجعلها كلبة نباحة . فذهبت فيها دعوتا ن فجاء بنوها ، فقالوا : ليس لنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة نباحة يعيرنا بها الناس ، فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله فعادت كما كانت . وذهبت الدعوات الثلاث . وهي البسوس . وبها يضرب المثل في الشؤم . فيقال : أشأم من البسوس * وذكر الجلال : أنها نزلت في بلعم بن باعوراء من علماء بني إسرائيل سئل أن يدعو على موسى . وأهدى إليه شيء فدعا فانقلب عليه واندلع لسانه على صدره . وفي القرطبي : وكان بلعم من بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام . وكان بحيث إذا نظر رأى العرش . وهو المعنى بقوله : ﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُ آياتِنَا ﴾ ولم يقل آية . وكان في مجلسه اثنا عشر ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه . ثم صار بحيث كان أول من صنف كتابا أن ليس للعالم صانع . قال مالك بن دينار : بعث بلعم بن باعوراء إلى ملك مدين يدعوه إلى الإيمان فأعطاه وأقطعه فاتبع دينه ، وترك دين موسى . فنزلت هذه الآيات . وكان بلعم قد أوتى النبوة . وكان مجاب الدعوة * وفي الخطيب وقصته على ما ذكره ابن عباس وغيره : أن موسى عليه السلام لما قصد قتال الجبارين ، ونزل أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعم إليه . وكان عنده اسم الله الأعظم . فقالوا : إن موسى رجل حديد . ومعه جنود كثير ، وأن قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ، ويخليها لبني اسرائيل ، وأنت رجل مجاب الدعوة ، فاخرج فادع الله تعالى أن يردهم عنا . فقال : ويلكم نبُّى الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم ، وأنا أعلم من الله مالا تعلمون . وإني إن فعلت هذا ذهبت دنياي وآخرتي . فراجعوه وألحوا عليه ، فقال : حتى أؤامر ربي . وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمر به في المنام . فآمر ربه في الدعاء عليهم . فقيل له في المنام : لاتدع عليهم . فقال لقومه : إني قد آمرت ربي . وإني نهيت أن أدعو عليهم . فأهدوا إليه هدية فقبلها ، وراجعوه . فقال : حتى أؤامر ربي . فآمر فلم يؤمر بشيء . فقال : قد آمرت ربي فلم يأمرني بشيء ، فقالوا له : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في المرة الأولى . فلم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه ، فافتتن ، فركب أتانا له متوجها إلى جبل يطلعه على عسكر بني اسرائيل يقال له حبان ، فلما سار على أتانه غير بعيد ربضت فنزل عنها وضربها ، فقامت فركبها فلم تسر به كثيراً حتى ربضت ،

فضربها وهكذا مراراً ، فأذن الله تعالى لها في الكلام فأنطقها له . فكلمته حجة عليه . فقالت : ويحك يا بلعم أين تذهب . أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي ؟! ويحك تذهب إلى نبي الله والمؤمنين فتدعو عليهم ؟ فلم ينزجر ، فخلى الله سبيل الأتان ، فانطلقت به حتى أشرف على جبل حسبان ، فجعل يدعو عليهم ، بشر إلا صرف الله تعالى به لسانه إلى قومه . ولا يدعو بخير لقومه إلا صرف الله تعالى به لسانه إلى بني اسرائيل . فقال له قومه يا بلعم : أتدري ماتضع إنما تدعو لهم وتدعو علينا ؟! فقال : هذا مالا أملكه . هذا شيء قد غلبه الله عليه ، فاندلع لسانه فوقع على صدره ، فقال لهم : الآن قد ذهب مني الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المكر والحيلة . فأمكر لكم وأحتال . احملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع . ثم أرسلوهن إلى عسكر بني اسرائيل . يبعنها فيه . ومروهن أن لاتمنع امرأة نفسها من رجل أرادها ، فإنه إن زنى رجل بواحدة كفيتموهم ففعلوا . فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين على رجل من عظماء بني اسرائيل . وكان رأس سبط شمعون بن يعقوب ، فقام إلى المرأة وأخذ بيدها حين أعجبه جمالها . ثم أقبل بها حتى وقف على موسى ، وقال : إني أظنك أن تقول هذه حرام عليك ؟ قال : أجل هي حرام عليك لاتقربها : قال : فوالله لا نطعيك . ثم دخل بها قبته فوقع عليها . فأرسل الله تعالى عليهم الطاعون في الوقت فهلك منهم سبعون ألفاً ساعة من النهار * وفي المصباح : وربضت الدابة ربضا من باب ضرب وربوضا مثل بروك الإبل . أما التفسير : ﴿ **واتْلُ** ﴾ يا محمد ﴿ **عَلَيْهِمْ** ﴾ على اليهود ﴿ **نَبَأَ** ﴾ خبر ﴿ **الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا** ﴾ وهي علوم الكتب القديمة والتصرف بالإسم الأعظم . فكان يدعوه حيث شاء فيجاب بعين ماطلب في الحال ﴿ **فانْسَلَخَ مِنْهَا** ﴾ خرج بكفره كما تخرج الحية من جلدها ، وهو بلعم بن باعوراء كما اطلعت على قصته ﴿ **فأتْبَعَهُ الشَّيطانُ** ﴾ فأدركه فصار قرينه . أي أصبح قدوة للشيطان على سبيل المبالغة ﴿ **فكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾ أي صار من الضالين الفاسدين ﴿ **ولَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ** ﴾ إلى رتبة العلماء بسبب الآيات بأن نوفقه للعمل ﴿ **بِهَا ولٰكِنَّهُ أخْلَدَ** ﴾ سكن ﴿ **إلى الْأَرْضِ** ﴾ الدنيا ومال إليها واطمأن بها . ﴿ **واتَّبع هَوَاهُ** ﴾ في دعائه إياه أي إن الهوى دعا بلعام إلى الدنيا والميل إليها . ﴿ **فَمَثَلُهُ** ﴾ صفته ﴿ **كَمَثَلِ الْكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ** ﴾ بالطرد والزجر ﴿ **يَلْهَثْ** ﴾ يدلع لسانه أي يخرجه ﴿ **أوْ** ﴾ إن ﴿ **تَتْرُكْهُ** ﴾ بدون طرد وزجر ﴿ **يَلْهَثْ** ﴾ وليس غيره من الحيوان كذلك . وبه كان أخس الحيوانات .

والمعنى : إن هذا الرجل : بلعم بن باعوراء الإسرائيلي كالكلب في صفته الخسيسة هذه ، فكذلك حال الحريص على الدنيا إن وعظته فهو حريص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه ، وإن تركته ولم تعظه فهو حريص أيضاً لأن الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما أن اللهث طبيعة لازمة للكلب * وذلكَ كشأن عباد الأهواء . وطلاب الأموال ترى المرء منهم كاللاهث من الإعياء والتعب . وإن كان مايعني به حقيراً لا يتعب ولا يعي . وتراه كلما أصاب سعة وبسطة في الدنيا زاد طمعاً فيها .

فَمَا قَضىٰ أَحَدٌ مِنْهَا لُبانته * ولا انْتهىٰ أَربٌ إلى أَرب

﴿ ذلك ﴾ المثل ﴿ مَثَلُ الْقَوْمِ الّذِينَ كذَّبُوا بآيَاتِنَا ﴾ أي ذلك المثل البالغ الحد في الغرابة مثل هؤلاء القوم الذين جحدوا بآياتنا واستكبروا عنها جهلاً وتقليداً للآباء والأجداد والمراد منهم ﴿ فاقْصُصِ الْقصَصَ ﴾ على اليهود ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتفكَّرُونَ ﴾ يتأملون في المخلص مما هم فيه . وفيما جئتهم به من الحق فيؤمنوا . وقيل : هذا المثل لكفار مكة . وذلك أنهم كانوا يتمنّون هاديا يهديهم ويدعوهم إلى طاعة الله عز وجل فلما جاءهم محمد ﷺ يدعوهم إلى الله وإلى طاعته . وهم يعرفونه ويعرفون صدقه كذبوه ولم يقبلوا منه . ثم قال تعالى : ﴿ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ ﴾ أي مثل القوم ﴿ الّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا وأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُون ﴾ بالتكذيب بها *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ﴿ أو لم يَتفكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إنْ هُوَ إلّا نَذِيرٌ مُبين ﴾ في لباب السيوطي : أخرج أبو حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : ذكر لنا أن النبي ﷺ قام على الصفا فدعا قريشاً ، فجعل يدعوهم فخْذاً فخْذاً : يا بني فلان . يحذرهم بأس الله ووقائعه . فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا لمجنون . بات يهوت (يصيح) إلى الصباح . فأنزل الله : ﴿ أوَلَمْ يتفكَّرُوا مَا بصاحِبِهِمْ من جنّة ... ﴾ *
وكذا رواه ابن جرير وابن المنذر عن قتادة به . وكذا في الخطيب والمراغي وابن كثير والخازن وغيرها من التفاسير قوله : ﴿ أَوَ لَمْ يَتفكَّرُوا ﴾ فيعلموا ﴿ مَا بِصَاحِبِهِمْ ﴾ محمد ﷺ ﴿ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ قد جرت عادة الكفار أن يرموا رسلهم بالجنون لأنهم ادعوا أن الله خصهم برسالته ووحيه على كونهم بشراً كغيرهم لا يمتازون من سائر الناس بزعمهم فهاهم قوم نوح يرمونه بالجنون : ﴿ إنْ هُوَ إلّا رَجُلٌ به جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حتَّى

حين ﴾ وقال فرعون عن موسى : ﴿ إنَّ رَسُولَكُمْ الّذِينَ أُرْسِلَ إلَيْكُم لَمَجْنُونٌ ﴾ وحكى عنهم بوجه عام فقال : ﴿ كذَلِكَ مَا أَتَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلّا قالُوا سَاحِرٌ أوْ مَجْنُونٌ ﴾ وحكى عنهم بوجه عام فقال : ﴿ كذَلِكَ مَا أتى الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلّا قالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ وحقيقة الجنون أن رسول الله ﷺ رأى قوماً مجتمعين على إنسان : فقال : « ما هذا » ؟ فقالوا : مجنون : قال :«هذا مصاب ، إنما المجنون الذي يضرب بمنكبيه وينظر في عطفيه ويتمطى في مشيته» وحاشا رسول الله ﷺ من ذلك . وإنما نسبوه إلى الجنون لأنه ﷺ خالفهم في الأقوال والأفعال لأنه كان معرضاً عن الدنيا ولذاتها مقبلاً على الآخرة ونعيمها ، مشتغلاً بالدعاء إلى الله تعالى وإنذار بأسه ونقمته ليلاً ونهاراً من غير ملل ولا ضجر . فعند ذلك نسبوه إلى الجنون ، فبرأه الله من الجنون وهو بريء منه صلوات الله وسلامه عليه . ﴿ إنْ ﴾ ما ﴿ هُوَ إلّا نذِيرٌ مبينٌ ﴾ بين الإنذار في دعوته ، ناصح أمين ، والتعبير ﴿ بصَاحِبِهِم ﴾ تذكيرهم بأنهم يعرفونه من أول نشأته حتى تجاوز الأربعين من عمره وكانوا يلقبونه بالصادق الأمين . أي لا يكْذبُ ولا يخون الأمانات فكان ﷺ موضع ثقة الجميع كما شهد بذلك أحد زعمائهم إذ قال : إن محمداً لم يكذب قط على أحد من الناس أفيدع الكذب عليهم ويكذب على الله ؟ ومن ثم قال تعالى فى أولئك الزعماء : ﴿ فَإنَّهُمْ لَا يُكذِّبُونك ولكنَّ الظَّالِمينَ بآياتِ الله يَجْحَدُونَ ﴾ *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعةِ أيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ رَبّي لا يُجلّيهَا لِوَقْتِهَا إلّا هُوَ ثَقُلَتْ في السَّمٰوَاتِ والْأَرْضِ لَا تأتيكُمْ إلّا بَغْتَةً يسألُونَكَ كأنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ الله ولكنَّ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : قال جبل بن قشير وشموال بن زيد من اليهود يا محمد : أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً ، فإنا نعلم متى هي . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال قتادة : قالت قريش لمحمد : إن بيننا وبينك قرابة فأشر إلينا متى تكون الساعة ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عن السَّاعةِ .. ﴾ * وحدث قرظة بن حسان قال : سمعت أبا موسى في يوم جمعة على منبر البصرة يقول : سئل رسول الله ﷺ عن الساعة وأنا شاهد ، فقال : « لا يعلمها إلا الله . لا يجليها لوقتها إلا هو . ولكن سأحدثكم بأشراطها وما بين يديها . إن بين يديها ردما من الفتن وهرجا . فقيل : ما الهرج يا رسول الله :؟

قال : هو بلسان الحبشة : القتل . وأن تحصر قلوب الناس . وأن يلقى بينهم التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحداً ، ويرفع ذو الحجى . وتبقى رجاحة من الناس لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً » * وقال ابن كثير : قيل نزلت في قريش . وقيل : في نفر من اليهود . والأول أشبه لأن الآية مكية . وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها كما قال تعالى : ﴿ ويقولُون مَتَّى هَذَا الْوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صادقِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِهَا والَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ويَعْلَمُونَ أنَّها الْحَقُّ ألَا إنَّ الَّذِينَ يُمارونَ في السَّاعةِ لَفِي ضلالٍ بَعِيدٍ ﴾ قولُه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ عن القيامة وسميت ساعة لأنها تقوم في ساعة غفلة وبغتةً ، أو لأن حساب الخلائق ينقضي فيها في ساعة واحدة . وقوله : ﴿ أيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ أيان سؤال استفهام عن الوقت الذي تقوم فيه الساعة . ومعناه . متى مرساها . قال ابن عباس : يعني متى منتهاها . أي متى وقوعها . أو محطها . وكأنه شبهها بالسفينة العائمة في البحر . وقال الطيبي : الرسو إنما يستعمل في الأجسام الثقيلة وإطلاقه على الساعة تشبيه للمعاني بالأجسام * قلت مثله قوله تعالى : ﴿ والجِبَالَ أرْسَاها ﴾ أثبتها على وجه الأرض لتسكن . ومنه مرساة السفن . وفي المختار رسا الشيء ثبت ، وبابه عدا ، ورست السفينة وقفت عن الجرى . أي لكأنهم قالوا : متى وقوف العالم عن الحركة وبه خرابه . وهو قيام الساعة . ﴿ قُلْ إنَّمَا عِلْمُهَا ﴾ أي علم وقت إرسائها ﴿ عِنْدَ رَبِّي لايُجَلِّيهَا ﴾ يظهرها ﴿ لِوَقْتِها ﴾ أي في وقتها ﴿ إلَّا هُوَ ﴾ أي لا يكشف عنها ولا يظهر للناس أمرها إلا هو بالذات من غير أن يشعر به أحد من المخلوقين . قال المحققون : والسبب في إخفاء الساعة على العباد ، هو أن يكونوا على حذر . فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة . وأزجر عن المعصية . فإن متى علمها المكلف تقاصر عن التوبة . وأخرها . وكذلك أخفى الله ليلة القدر ليجتهد المكلف في كل ليالي الشهر في العبادة . وكذلك أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة ليكون المكلف مجدا في الدعاء في كل اليوم . ﴿ ثَقُلَتْ ﴾ أي عظمت على أهلها ﴿ فِي السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ ﴾ لأن فيها فناءهم . وذلك يثقل على القلوب لمصيرهم إلى البعث والحساب والسؤال والخوف ﴿ لا تأتِيكُمْ ﴾ الساعة ﴿ إلَّا بغْتةً ﴾ أي إلا فجأة على غفلة . روى الشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا

يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة ، وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومن الساعة ، وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » وعليه قول تعالى : ﴿ **ما يَنْظُرُون إلَّا صَيْحةً وَاحِدةً تأخُذُهُم وَهُمْ يَخِصِّمُونَ** ﴾ أي يتخاصمون في بيعهم وشرائهم ﴿ **فلا يستطِيعُونَ تَوْصِيَةً ولَا إلى أهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ لقحته . بفتح اللام وكسرها . الناقة القريبة العهد بالولادة . ويليط حوضه . يطينه ويصلحه . وقوله : ﴿ **يسئلُونَكَ كأنَّكَ حَفِيٌّ عنْهَا** ﴾ أي يسألونك كأنك حفي : مبالغ في سؤال ربك عنها . وقد يكون المعنى : يسألونك عنها كأنك حفي بهم . وبينك وبينهم مودة . أوكأنك صديق لهم . ويؤيد هذا ماورى عن ابن عباس قال : لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة : سألوه سؤال قوم كأن محمدا حفي بهم . فأوحى الله إليه ــ إنما علمها عنده استأثر به فلا يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا رسولاً * وتقدم ما روى قال : قالت قريش لمحمد ﷺ : إن بيننا وبينك قرابة فأشر إلينا متى الساعة ؟ فقال الله عز وجل : ﴿ **يسألُونَكَ كأنَّكَ حفيٌّ عنها** ﴾ . قلت : والحفي : المستعصى من الشيء المهتبل به المعتني بأمره . قال الأعشى : والاحفاء الاستقصاء . ومنه احفاء الشوارب . والحافي لأنه حفيت قدمه في استقصاء السير والحفاوة البر واللطف * أي كأنك كاشف بحفاوتك عنها حتى علمتها !! وقوله : ﴿ **قُلْ إنّما عِلْمُهَا عِنْدَ الله** ﴾ تأكيد لفظي للجواب السابق لأنه عينه . وقد أمر عليه الصلاة والسلام بإعادة الجواب الأول بدون زيادة أو نقص عليه تأكيداً للحكم المذكور وإشعاراً بعلته أنها باقية على نفى العلم بها . وأنها من اختصاص المولى عز وجل الآمر بإتيانها وقيامها قال تعالى: (**إليه يُردُّ عِلْمُ السَّاعةِ وما تَخرجُ مِنْ ثمراتٍ مِنْ أكمَامِها**) وقوله تعالى : (**يسألُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أيّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إلى رَبِّكَ منتهاهَا**) (**ولكنّ أكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**) أن علمها عنده*

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فاسْتمعُوا لَهُ وأنْصتُوا لَعلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ في الواحدي : قال أبو هريرة : نزلت في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله في الصلاة * وقال قتادة : كانوا يتكلمون في صلاتهم في أول ما فرضت كان الرجل يجيء فيقول لصاحبه كم صليتم ؟ فيقول : كذا وكذا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال ابن عباس : إن رسول الله ﷺ قرأ في الصلاة المكتوبة . وقرأ أصحابه وراءه رافعين أصواتهم ، فخلطُوا عليه ، فنزلت هذه الآية * وقال سعيد بن جبير ومجاهد

وعطاء وعمرو بن دينار وجماعة : نزلت في الإنصات للإمام في الخطبة يوم الجمعة * وقال الزهري : نزلت في فتى من الأنصار كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئاً قرأ هو . فنزلت هذه الآية * وفي اللباب : وقال سعيد بن منصور في سننه : حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب قال : كانوا يتلقفون من رسول الله ﷺ إذا قرأ شيئاً قرؤا معه حتى نزلت هذه الآية التي في الأعراف ﴿ **وإذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فاستَمِعُوا لَهُ وأنصتُوا** .. ﴾ وقال السيوطي : إن ظاهر الآية يدل على أنها مدنية .. ورجح الجلال أنها نزلت في ترك الكلام في الخطبة . وعبر عنها بالقرآن لاشتمالها عليه . وقيل : في قراءة القرآن مطلقاً * هذان قولان في سبب نزولها . وبقى قولان آخران . حكاهما الخازن : ونصه . واختلف العلماء في الحال التي أمر الله بالاستماع لقارىء القرآن والانصات له إذا قرىء لأن قوله : فاستمعوا له وأنصتوا أمر . وظاهر الأمر الوجوب . فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين . وللعلماء في ذلك أقوال : **القول الأول** : وهو قول الحسن . وأهل الظاهر أن فحوى هذه الآية على العموم . ففي أي وقت . وفي أي موضع قرىء القرآن يجب على كل أحد الاستماع له والسكوت * **والقول الثاني** : أنها نزلت في تحريم الكلام في الصلاة روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكوت والاستماع لقراءة القرآن . وقال عبد الله : كان يسلم بعضنا على بعض في الصلاة سلام على فلان . سلام على فلان قال : فجاء القرآن : ﴿ **وإذَا قُرِىء القرآنُ فاستَمِعُوا لَهُ وأنصتُوا** ﴾ * **القول الثالث** : أنها نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام . روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ * وعن ابن مسعود أنه سمع ناساً يقرؤن مع الإمام فلما انصرف قال : أما آن لكم أن تفقهوا : ﴿ **وإذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فاستَمِعُوا لَهُ وأنْصِتُوا** ﴾ كما أمركم الله * وقال الكلبي : كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار * **القول الرابع** : أنها نزلت في السكوت عند الخطبة يوم الجمعة — وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء * قال مجاهد : الانصات للإمام يوم الجمعة * وقال عطاء : وجب الصمت في اثنتين عند الرجل يقرأ القرآن . وعند الإمام وهو يخطب . وهذا القول قد اختاره جماعة . قال الخازن : وفيه بعد لأن الآية مكية . والخطبة إنما وجبت بالمدينة * وكذا ذكره الخطيب والقرطبي — وقال الخازن : واتفقوا على أنه يجب الانصات حال الخطبة . بدليل السنة، وهوماروى عن أبي هريرة أن إذا قلت

لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت» أخرجاه في الصحيحين * قلت : وكون الأمر بالانصات للوجوب على إرادة الخطبة لا يلاقي مذهب الشافعي الجديد لأن استماع الخطبة سنة . نعم تتمشى مع مذهبه القديم . وعبارة المنهاج مع شرحها للمحلى . وإسماع أربعين كاملين . والجديد أنه لا يحرم عليهم الكلام فيها . ويسن الانصات لها . واستدل له بقوله تعالى : ﴿ **وإذَا قُرِىءَ القرآنُ فاستَمِعُوا لَهُ وأنصِتُوا** ﴾ ذكر في التفسير أنها نزلت في الخطبة ، وسميت قرآناً لاشتمالها عليه . والأمر للوجوب . وعلى الأول الأمر في الآية للاستحباب * قال الطبري : وأولى الأقوال ذلك بالصواب قول من قال : أمروا باستماع القرآن في الصلاة إذا قرأ الإمام وكان من خلفه ممن يأتم به يسمعه وفي الخطبة . وإنما قلنا : ذلك أولى بالصواب لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ . أنه قال : إذا قرأ الإمام فأنصتوا ، وإجماع الجميع على أن من سمع خطبة الإمام ممن عليه الجمعة الاستماع والانصات لها مع تتابع الأخبار بالأمر بذلك عن رسول الله ﷺ . وأنه لا وقت يجب على أحد استماع القرآن والإنصات لسامعه من قارئه إلا في هاتين الحالتين على اختلاف في أحدهما . وهي حالة أن يكون خلف إمام مؤتم به . وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ بما ذكرنا من قوله : إذا قُرِىءَ القرآن فأنصتوا . فالإنصات خلفه لقراءته واجب على كل من كان مؤتماً به سامعاً قراءته بعموم ظاهر القرآن والخبر عن رسول الله ﷺ * قلت : وفي الآية تفسير آخر . وهو أن الخطاب في الآية مع الكفار . وذلك أن كون القرآن بصائر وهدى ورحمة لا يظهر إلا بشرط مخصوص . وهو أن النبي إذا قرأ عليهم القرآن عند نزوله . استمعوا له وأنصتوا ليقفوا على مبانيه ومعانيه ، فيعترفوا بإعجازه . ويستغنوه بذلك عن طلب سائر المعجزات . ومما يؤكد هذا التفسير قوله في آخر الآية : ﴿ **لعلَّكُمْ تُرْحمون** ﴾ والترجى إنما يناسب حال الكفار لا حال المؤمنين الذين حصل لهم الرحمة جزماً في قوله : ﴿ **ورحمة لقومٍ يؤمنون** ﴾ وقيل المراد باستماع القرآن العمل بما فيه *

سورة الأنفال وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لله والرَّسُولِ فاتَّقُوا الله وأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤمنينَ** ﴾ في الواحدي : سبب نزول هذه الآية سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم بدر قتل أخى عمير . وَقَتَلْتُ سعيد بن العاص وأخذت سيفه . وكان يسمى ذا الكتيفة ، فأتيت به النبي ﷺ . قال : اذهب فاطرحه في القبض قال : فرجعت وبي مالا يعلمه إلا الله من قتل أخي ، وأخذ سلبى ، فما جاوزت حتى نزلت سورة الأنفال . فقال رسول الله ﷺ : اذهب فخذ سيفك * وفي المراغي : نزلت هذه الآيات في غنائم غزوة بدر ، إذ تنازع فيها من حازها من الشبان وسائر المقاتلة . فقد روى أبو داود والنسائي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : «من قتل قتيلا فله كذا ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا» فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات . وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : إنا كنا لكم ردءاً ، ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا . فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لله والرَّسُولِ ..** ﴾ وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن سعد بن أبي وقاص أنه قتل سعيد بن العاص . وأخذ سيفه ، واستوهبه النبي ﷺ فمنعه إياه . وأن الآية نزلت في ذلك فأعطاه إياه لأن الأمر كله إليه ﷺ * وكذا في الواحدي . وروى الواحدي عن عبادة بن العاص : قال : لما هزم العدو يوم بدر ، وأتبعتهم طائفة يقتلونهم . وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ ، واستولت طائفة على العسكر والنهب . فلما نفى الله العدو . ورجع الذين طلبوهم . وقالوا : لنا النفل . بحسن طلبنا العدو . وبنا نفاهم وهزمهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : والله ما أنتم أحق به منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ لا ينال العدو منه غرة فهو لنا . وقال الذين استولوا على العسكر والنهب ، والله ما أنتم بأحق به منا نحن أخذناه واستولينا عليه فهو لنا . فأنزل الله تعالى : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ...** ﴾ فقسمه رسول الله ﷺ بالسوية * ونحوه ذكر السيوطي في لبابه . والهيثمي في مجمعه * وأخرج البخاري عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رضى الله عنهما سورة

الأنفال : قال : نزلت في غزوة بدر * قوله سورة الأنفال : أي ماسبب نزول سورة الأنفال . قلت : وهذا أحد قولين في الآية ، والقول الثاني : قال مقاتل : نزلت في أبي اليسر إذ قال للنبي ﷺ : أعطنا ماوعدتنا من الغنيمة ، وكان قتل رجلين وأسر رجلين العباس بن عبد المطلب . وآخر يقال له سعد بن معاذ . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة أخماس فنزلت ﴿ **يَسْأَلُونَكَ** ... ﴾ ذكره العيني في شرح صحيح البخاري قلت : وفي ذلك اليوم لم يكن فيه خمس ، وإنما كان فيه طاعة الله ورسوله وصلاح ذات البين ، وهو ماذكره الحاكم في مستدركه في آخر رواية عبادة بن الصامت . وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم . ولم يخرجاه . وأقره الذهبي . وفي مجمع الزوائد في كتاب التفسير سئل عبادة بن الصامت رحمة الله عن الأنفال . فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل ــ الغنيمة ــ وساءت فيه أخلاقنا ، فانتزعه الله من أيدينا . وجعله إلى رسول الله ﷺ . فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء ــ يقول على سواء ــ وذكر أن رجاله ثقات ــ وليس في بقية التفاسير أقوال في الآية غير الأقوال التي ذكرت . أما التفسير : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ** ﴾ . الأنفال : هي الأموال المأخوذة من الكفار قهراً . قال الأزهري : هو ماكان زيادة عن الأصل فسميت الغنائم بذلك لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم الذين لم تحل الغنائم لهم وهو الصحيح * وصلاة التطوع نافلة لأنها زائدة على الفرض . وقال تعالى : ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ نَافِلَةً** ﴾ أي زيادة على ماسأل . والضمير في يسألونك عائد إلى جمع معينين من الصحابة ، لهم تعلق بالغنائم كما ذكرت من الأقوال في سبب نزولها ذلك لدلالة الحال عليهم . والسؤال وإن كان مبهماً لكن جوابه بين أن سؤالهم كيف مصرفها ومن المستحق لها . قال الزجاج إنما سألوا عنها لأنها كانت حراماً على من كان قبلهم . وضعف بأن الآية دلت على أنها مسبوقة بالتنازع والتنافس ، فسألوا عن كيفية قسمتها لا عن حلها وحرمتها . وفي الكشاف : والنفل ماينفله الغازي . أي يعطاه زائداً على سهمه من المغنم . وهو أن يقول الإمام تحريضاً على البلاء في الحرب : من قتل قتيلاً فله سلبه .أو قال لسرية : ماأصبتم فهو لكم . أو فلكم نصفه أو ربعه . ولا يخمس النفل ، ويلزم الإمام الوفاء بما وعد منه * وذكر عن الشافعي في أحد قوليه : لايلزم . وماذكر في الكشاف يناسب خبر سعد بن أبي وقاص في إعطاء السيف إياه . وذكر صاحب الغرائب عن ابن عباس في بعض الروايات ، أن

المراد بالأنفال ما شذ عن المشركين إلى المسلمين من غير قتال من دابة أو عبد أو متاع إلى النبي ﷺ يضعه حيث يشاء * قلت : النفل بالتحريك في اللغة الغنيمة والهبة . قال لبيد :

إن تقوى ربنا خير نفل * وبإذن الله ريثي والعجل

وقال أبو ذؤيب :

فإن تك أنثى من معد كريمة * علينا فقد أعطيت نافلة الفضل

قال أبو منصور : وجماع معنى النفل والنافلة ما كان زيادة على الأصل ، وهو يرجح قول الأزهري في أول البحث : سميت الغنائم أنفالاً لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم الذي لم تحل لهم الغنائم * ثم أمر بالشروع في الجواب : فقال : ﴿ **قُلِ الأنفَالُ لله والرَّسُولِ** ﴾ أي حكمهما مختص بالله ورسوله يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ، ويمتثل الرسول أمر الله في قسمتها لا إلى رأي أحد سواه . قال مجاهد وعكرمة : إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ **واعلمُوا أنّما غـنمـتُـم** ﴾ وضعف بأن جعل أربعة أخماسها ملكاً للغانمين لا ينافي في كون الحكم فيها لله والرسول ثم أمر المسلمين بقوله : ﴿ **فاتقوا الله** ﴾ أي اجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة والتنازع والاختلاف الموجب لسخط الله ، لما فيه من المضار ، ولا سيما في حال الحرب ﴿ **وأصْلِحُوا ذاتَ بينِكُمْ** ﴾ أي وأصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق ﴿ **وأَطِيعُوا الله ورَسُولَهُ** ﴾ فيما يأمرانكم به وينهانكم عنه ﴿ **إنْ كنتُم مؤمنين** ﴾ حقا أي مصدقين بوعد الله ووعيده . أو إن كنتم كاملي الإيمان للام في قوله : ﴿ **إنّما الْمُؤمنون ...** ﴾ إشارة إليهم . أي إنما الكاملوا الإيمان من صفتهم كيت وكيت . والدليل عليه في آخر الآية : الثالثة : أولئك هم المؤمنون حقاً *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **كَمَا أخْرجَكَ رَبُّكَ مِنْ بيْتِكَ بالْحقِّ وإنَّ فريقاً مِنَ المؤمنينَ** ﴾ ... في لباب السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال : ونحن بالمدينة بلغ رسول الله ﷺ أن عير أبي سفيان قد أقبلت . فقال رسول الله ﷺ : ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا فخرجنا فسرنا يوماً أو يومين . فقال : ما ترون فيهم ؟ فقلنا يا رسول الله : ما لنا طاقة في قتال القوم إنما أخرجنا

للعير ، فقال المقداد : لا تقولوا كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ **اذْهَبْ أنت وربّكَ فقاتلا إنَّا هٰهُنا قاعِدُون** ﴾ فأنزل الله ﴿ **كَما أخرجك ربُّكَ من بيتك بالحقّ وإنّ فَرِيقاً مِنَ الْمؤمنين لكارهون** ﴾ قلت : وبيان ذلك . أن رسول الله ﷺ لما سمع بأبي سفيان مقبلا بعيره من الشام ندب المسلمين إليهم . وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها . فخف بعضهم . وثقل بعضهم ظنا منهم أن رسول الله ﷺ لا يلقي حربا — وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز من يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقى الركبان تخوفا على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك . فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري ، فبعثه إلى أهل مكة ، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أنّ محمدا قد عرض لها في أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه ، حتى بلغ وادياً يقال له : ذفران حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن مسير قريش إليهم ليمنعوا عيرهم . فأخبر رسول الله ﷺ بذلك واستشارهم ، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال فأحسن . ثم قام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو . فقال يارسول الله : امض لما أمرك الله به ، فنحن معك . والله لانقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : ﴿ اذْهَبْ أنْتَ وربُّكَ فقاتِلاً إنَّا هٰهُنا قاعِدُونَ ﴾ ولكن اذهب أنت وربك إنا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (مدينة باليمن) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال رسول الله ﷺ : خيراً ودعا له بخير ، ثم قال رسول الله ﷺ : «أشيروا علي أيها النَّاس» وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يارسول الله : إنا بُرآؤا من ذمامك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه آباءنا ونساءنا ، وكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم . فلما قال رسول الله ﷺ ذلك : قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله . قال : أجل . فقال : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدناك أن ما جئت به هو الحق . وأعطيناك على ذلك عهوداً ومواتيقاً على السمع والطاعة . فامض يارسول الله لما أمرك الله . فو الذي بعثك بالحق ، لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضاه منك . وماتخلف منا رجل واحد ، ومانكره أن تلقى بنا عدونا إنا لصبرٌ عند الحرب صدق عند اللقاء . ولعل الله يريك

ما تقر به عينك . فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله ﷺ لقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال : «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين : العير القادمة من الشام على رأسها أبو سفيان ، أو النفير الآتي من مكة لنجدتهم ، وعلى رأسهم أبو جهل . والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم» * وفي السمين في قوله : ﴿ **كَمَا أخرجك رَبُّك** ﴾ . قال : فيه عشرون وجهاً : **أحدها** : أن الكاف نعت لمصدر محذوف تقديره : الأنفال ثابتة لله ثبوتاً كما أخرجك . أي ثبوتا بالحق كإخراجك من بيتك بالحق . يعني إنه لا مرية في ذلك . **الثاني** : أن تقديره وأطيعوا الله ورسوله طاعة ثابتة محققة كما أخرجك . أي كما أن إخراج الله إياك لا مرية فيه ولا شبهة ... **الرابع** : تقديره يتوكلون توكلاً حقيقياً كما أخرجك ربك **الخامس** : تقديره هم المؤمنون كما أخرجك فهو صفة لحقاً . إلى أن قال : **الخامس عشر** : أنها في محل رفع على خبر ابتداء مضمر تقديره هذه الحال كحال اخراجك . بمعنى أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنقل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجهم للحرب . **السادس عشر** : أنها صفة لخبر مبتدأ . وقد حذف ذلك المبتدأ وخبره.

والتقدير قسمتك الغنائم حق كما كان اخراجك حقاً . **السابع عشر** : أن التشبيه بين اخراجين . أي اخراج ربك إياك من بيتك وهو مكة وأنت كاره للخروج وكان عاقبة ذلك الاخراج النصر والظفر كإخراجه إياك من المدينة وبعض المؤمنين في أنه يكون عقيب ذلك الخروج الظفر والنصر والخير كما كانت عقيب ذلك الخروج الأول * قلت : إن الكاف في (كما أخرجوك) هي بالتأكيد صفة المصدر محذوف يقدر بأن الأنفال ثابتة في تقسيمها لله كما ثبت إخراجه إياك من بيتك بالحق وما مصدرية لدخولها فعل ماض . فهي لا توصل إلا بالفعل الماضي أو المضارع . وذكر السهيلي أن شرط كون (ما) مصدرية صلاحية وقوع (ما) الموصولة موقعها . أي كالذي أخرجك من بيتك . وذكر بعضهم أن الكاف هنا بمعنى الواو . فهي مقسم بها . وضعف هذا القول . وتقدير مصدريتها : أخرجك من المدينة لتأخذوا العير التي مع أبي سفيان أي لتغنمها، فأصل خروج النبي والمؤمنين لأجل أن يغنموا القافلة فلم يكن في خروجهم كراهة . وإنما عرضت لهم الكراهة بعد الخروج قريب بدر لما أخبروا أن العير بخت منهم . وإن قريشاً أتوا إلى بدر . وأشار عليهم النبي ﷺ بأنهم يمضون إلى قتال قريش الذين خرجوا ليذبوا المسلمين عن القافلة ، فكره المسلمون القتال لا عصياناً بل بالطبع حيث خرجوا من غير

استعداد للقتال لا بعدد ولا بعدد . وإنما كان أصل خروجهم لأخذ الغنيمة فقوله : ﴿ وإنّ فريقاً مِنَ المؤمنينَ لكَارِهُونَ ﴾ حال مقدرة أن الكراهة لم تقارن الخروج . بل كانت لما عاينوا النفير . فما ذكره الجلال أن الجملة حال من كاف أخرجك . وكما خبر مبتدأ محذوف . أي هذه الحال في كراهتهم لها مثل إخراجك في حال كراهتهم * غير واضح المعنى . والحاصل أنه وقع للمسلمين في وقعة بدر كراهتان : كراهة قسمة الغنيمة على السوية ، وهي واقعة من شبابهم بسبب تأويلهم بأنهم باشروا القتال دون الشيوخ ... والكراهة الثانية : كراهية قتال قريش وعذرهم فيها أنهم خرجوا من المدينة للغنيمة لا للقتال لأنهم لم يتهيئوا له . فشبه الله تعالى إحدى الحالتين بالأخرى في مطلق الكراهية المتساوية في الحالتين . ولعل أشدها القتال لقوله : ﴿ يُجادِلُونَك في الحقِّ ﴾ أي في القتال ﴿ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ ﴾ ظهر هم ، فالكراهية الأولى أدت إلى السؤال لحل النزاع والثانية أدت إلى الجدال المنهى عنه لأنه يؤدي إلى الخصام : وشبه شدة كراهتهم للقتال بقوله : ﴿ كأنّهُمْ يُسَاقُونَ إلى الْمَوْتِ وهُمْ ينظرون ﴾ إليه عياناً . وقد كان خروجهم خيراً لهم لما ترتب عليه من النصر والظفر . والكراهية الأولى خيراً لهم لأنها أرست حكماً شرعياً في تقسيم الغنائم حتى يوم الدين *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فاسْتَجابَ لَكُمْ أنّى مُمِدُّكُمْ بألْفٍ مِنَ الْمَلائِكةِ مُرْدِفِينَ ﴾ في لباب السيوطي : روى الترمذي عن عمر بن الخطاب قال : نظر نبي الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف . وأصحابه ثلاثمائة ، وبضعة عشر رجلاً . فاستقبل القبلة ، ثم مد يديه وجعل يهتف بربه : اللهم أنجز لي ما وعدتني . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض . فمازال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه . فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه ، وألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال يانبي الله : كفاك منا شدت ربك فانه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله : ﴿ إذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فاسْتَجابَ لَكُمْ أنىّ مُمِدُّكُمْ بألْفٍ مِنَ الْمَلائِكةِ مُردِفِينَ ﴾ فأمدهم الله بالملائكة * قلت : وقد روى الحديث عن مسلم عن ابن عباس قال : حدثني عمر بن الخطاب . قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين ... وفي آخره . فأمده الله بالملائكة ، فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين * وروى البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال يوم بدر : « هذا جبريل آخذ برأس فرسه . عليه أداة الحرب : يعني آلة الحرب » وروى أنه ﷺ نام نومة وهو في العريش .

ثم انتبه . فقال يا أبا بكر : أتاك نصر الله : هذا جبريل أخذ بعنان فرسه ، يقوده على ثنايا النقع * وروى البخاري عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ يوم بدر : « اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد » فأخذا أبو بكر بيده فقال : حسبك . فخرج وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » أما التفسير : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ تطلبون منه الغوث بالنصر عليهم . وهو تذكير لهم بنعمة أخرى . فهو في المعنى معطوف على قوله : ﴿ وإِذْ يَعِدُكُم الله احدى الطائفتين ﴾ العير أو النفير . والمقام للماضي لأن الاستغاثة وقعت منهم لما توافقوا على القتال وخافوا من العدو ، فاستغاثوا الله . أي اذكروا وقت استغاثتكم ربكم قائلين ربنا انصرنا على عدوك : يا غياث المستغيثين أغثنا . وفي الخازن : إذ تستيغثون ربكم . أي تستجيرون * بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر . قال : وفي المستغثين قولان : أحدهما أنهم رسول الله ﷺ والمسلمون معه قاله الأزهري . والقول الثاني أنه رسول الله ﷺ وحده إنما ذكر بلفظ الجمع على سبيل التعظيم ، وقد تقدم حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب الذي رواه عنه مسلم في هذا الخصوص . والأمر بهذا الذكر لبيان نعمة الله عليهم حين التجائهم إليه إذ ضاقت عليهم الحيل في الخروج من المأزق الذي وقعوا فيه . فطلبوا مخلصاً منه فاستجاب دعاءهم ﴿ فاستَجابَ لكُمْ ﴾ السين والتاء في تستغيثون . للطلب زائدتان في (فاستجاب) مبالغة في إجابة الدعاء . فاستجاب أبلغ من أجاب . ووقعت الإجابة وفق الطلب فقال : ﴿ أنّي ﴾ أي بأني ﴿ مُمِدُّكُمْ ﴾ معينكم بامدادي إياكم ﴿ بألْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفينَ ﴾ متتابعين ، يردف بعضهم بعضاً ، وعدهم بها أولاً ، ثم صارت ثلاثة آلاف ، ثم خمسة آلاف كما في آل عمران . ثم بين الله تعالى علة الإمداد بقوله : ﴿ وما جَعَلَهُ الله ﴾ أي الامداد ﴿ إلّا بُشْرَى لكُمْ ﴾ أولاً بالنصر . ثانياً ﴿ ولتطْمَئنّ بِهِ قُلوبُكُمْ ﴾ أي ولتسكن به قلوبكم من الزلزال الذي عرض لكم . فكان من مجادلتكم للرسول في أمر القتال ما كان . ﴿ وما النَّصرُ إلّا مِنْ عِنْدِ الله ﴾ فلا يتوقف على التأهل والتهيء بالعدد والعدد كما تعللتم بذلك حين كرهتم القتال . ﴿ إن الله عَزِيزٌ ﴾ غالب على أمره ﴿ حَكيمٌ ﴾ في تدبير شؤن خلقه . فهو وحده بيده الظفر والاعانة ، فيجب التوكل عليه في جميع الأحوال ، وهناك روايات كثيرة تفيد أن الملائكة قد باشرت القتال يوم بدر ، وفي يوم أحد وعدهم الله وعداً معلقاً على الصبر والتقوى : « بلى إن تصبروا وتتقوا يأتوكم من فورهم هذا » ولكن الشرط الأخير قد انتفى فانتفى

ماعلق عليه . وفي بدر لم يكن نزولهم بشيء فباشروا القتال . وقيل : قد باشر بعض الملائكة بالقتال يوم أحد دفاعاً عن رسول الله ﷺ . وهو ماأوضحته في كتابي/ صحيح السيرة وفقهها *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ في الواحدي : حدث ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : أقبل أبي بن خلف يوم أحد إلى النبي ﷺ يريده . فاعترض له رجالٌ من المؤمنين . فأمرهم رسول الله ﷺ فخلوا سبيله . فاستقبله مصعب بن عمير أحد بني عبد الدار ، ورأى رسول الله ﷺ ترقوة أبي من فرجة بين سابغة البيضة والدرع . فطعنه بحربته ، فسقط أبي عن فرسه . ولم يخرج من طعنته دم . وكسر ضلعاً من أضلاعه . فأتاه أصحابه وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له : ماأعجزك إنما هو خدش ، فقال : والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين . فمات أبي إلى النار ، فسحقاً لأصحاب السعير قبل أن يقدم مكة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى ...** ﴾ قلت : هذا الحديث صحيح رواه في مستدركه ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي . وفيه : فقالوا له : ماأعجزك إنما هو خدش ـــ زاد ـــ فذكر لهم قول رسول الله ﷺ : بل أنا أقتل أبيا .. * وفي الواحدي : وروى ابن جبير أن رسول الله ﷺ يوم خيبر دعا بقوس . فأتي بقوس طويلة . فقال : جيئوني بقوس غيرها ، فجاؤه بقوس كبداء ، فرمى رسول الله ﷺ الحصن ، فأقبل السهم يهوى حتى قتل كنانة بن أبي الحقيق . وهو على فراشه فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى ...** ﴾ قال السيوطي : إن هذه الرواية مرسلة جيدة الاسناد غريبة * وأكثر المفسرين أن الآية نزلت في رمي النبي ﷺ القبضة من حصباء الوادي يوم بدر حين قال للمشركين : شاهت الوجوه . ورماهم بتلك القبضة ، فلم يبق عين مشرك إلا دخلها منه شيء . قال حكيم بن حزام : لما كان يوم بدر سمعنا صوتا وقع من السماء إلى الأرض وكأنه صوت حصاة وقع في طست ، ورمى رسول الله ﷺ تلك الحصاة فانهزمنا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى** ﴾ وهذه الرواية هي المشهورة . أخرج أبو الشيخ نحوها عن جابر وابن

عباس ، ولابن جرير من وجه آخر مرسلاً نحوه . ذكره السيوطي في لبابه . وفي الغرائب : ولما طلعت قريش قال رسول الله ﷺ : وهذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك . اللهم إني أسألك ماوعدتني . فأتاه جبرائيل عليه السلام . فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها . فقال : لما التقى الجمعان لعلى . اعطني قبضة من حصباء الوادي . فأعطاه فرمى بها في وجوههم . وقال : شاهت الوجوه . فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه . فانهزموا فنزلت : ﴿ وما رميت إذ رميت .. ﴾ ومارميت أنت يا محمد إذا رميت . ولكن الله رمى . أثبت الرمية للرسول ﷺ لأن صورتها وجدت منه عليه السلام . ونفاها عنه لأن أثرها فوق حد تأثير القوى البشرية . قال : وهذا الأصح . نعم لا يبعد أن يدخل تحته سائر الوقائع لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . أما التفسير : ﴿ وما رميت ﴾ يا محمد أعين القوم بالحصباء ﴿ إذ رميت ﴾ حين رميت بالحصى لأن كفاً من الحصى لا يملأ عيون الجيش الكثير برمى البشر ﴿ ولكنَّ الله رمى ﴾ بإيصال ذلك الحصى إلى أعينهم . فأنت ترى أن قوله تعالى : ﴿ وما رميت ﴾ نفي وقوله : ﴿ إذ رميت ﴾ إثبات على حد قولك : وماضربت وضربت . الجواب إن المنفى الرمى الذي هو إيصال الحصى لأعينهم . وهذا فعل الله تعالى . فيصدق على أن الرسول مافعله . والمثبت للرسول ﷺ . فعلى الرمى أي مباشرته بدون علم تحقيق نتائجه . فنفاه عنه باعتبار الايجاد وأثبته له باعتبار إتيانه صورة الرمى لأعلى سبيل التمثيل بل باعتبار الحقيقة والواقع . إذ الموجد له حقيقته هو الله تعالى . وقد أشكل هذا الأمر على كثير من المفسرين قوله : ﴿ وليبلى المؤمنين منه ﴾ أي الابلاء لأنه أقرب مذكور له ﴿ بلاءً ﴾ مصدر لأبلى أي عطاءً . ﴿ حسناً ﴾ هو الغنيمة * وعبارة البيضاوي . أي ولينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات * وأنت خبير بأن البلاء يقع على النعمة والمحنة لأن أصله الاختبار . فهو لفظ مشترك بالخير والشر والبلاء هنا محمول على النعمة كما ذهب إليه المفسرون . أي فكما يكون البلاء محنة لاظهار الصبر يكون نعمة أيضاً لإظهار الشكر،والاختبار من الله تعالى إظهار ماعلم كما علم لا لتحصيل علم مالم يعلم *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إنْ تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإنْ تنتهوا فهو خيرٌ لكم وإنْ تعودوا نعُد ولن تُغنيَ عنكم فئتكم شيئاً ولو كثُرت وإنَّ الله مع المؤمنين ﴾في الواحدي : قال ابن شهاب : حدثني عبد الله بن ثعلبة بن صغير ،

قال : كان المستفتح أبا جهل . وإنه قال حين التقى بالقوم : اللهم أينا كان أقطع للرحم . وأتانا بما لم نعرف . فافتح له الغداة ، وكان ذلك استفتاحه فأنزل الله تعالى : ﴿ إن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وإنَّ الله مَعَ المؤمنين ﴾ * قلت وقد رواه الحاكم في مستدركه ، فقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وأقره الذهبي . وفي الواحدي : أيضاً قال السدي والكلبي : كان المشركون حين خرجوا إلى النبي ﷺ من مكة أخذوا بأستار الكعبة . وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين : وأهدي الفئتين . وأكرم الحزبين ، وأفضل الدينين . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن عطية قال أبو جهل : اللهم انصر أعز الفئتين . وأكرم الفرقتين . فنزلت : وكذا في البيضاوي والجلال وعبارة الأول : قال أبو جهل وغيره من قريش حين أرادوا الخروج إلى بدر وتعلقوا بأستار الكعبة . وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين . وأهدي الفئتين . وأكرم الحزبين ودعوا بما ذكروا . وهو في نفس الأمر دعاء عليهم وإن أرادوا به الدعاء على محمد وحزبه * وعبارة الثاني : قال أبو جهل : اللهم أينا كان أقطع للرحم . وأتانا بما لم نعرفه . فأحنه الغداة . أى أهلكه * فأحنه الغداة . في المختار الحين بالفتح الهلاك وقد حان الرجل أى هلك وأحانه الله أهلكه وفى الطبرى عن الزهرى : إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح . قال : استفتح أبو جهل فقال : اللهم يعنى محمداً ونفسه ، أينا كان أفجر لك اللهم وأقطع للرحم ، فأحنه اليوم قال الله ﴿ إن تَسْتَفْتِحُوا فقدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ فضربه ابنا عفراء : عوف ومعوذ وأجهز عليه ابن مسعود * وعن قتادة : قوله إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح .. الآية يقول : قد كانت بدر قضاء وعبرة لمن اعتبر * وقال ابن زيد في قوله : إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، قال : إن تستفتحوا العذاب فعذبوا يوم بدر قال : وكان استفتاحهم بمكة قالوا : «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم» قال : فجاءهم العذاب يوم بدر وأخبر عن يوم احد«وإن تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولوكثرت وأن الله مع المؤمنين»* وحدث الطبرى عن يزيد بن رومان وغيره . قال أبو جهل يوم بدر : اللهم انصر أحب الدينين إليك ديننا العتيق أم دينهم الحديث . فأنزل الله ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح.إلى قوله«وأن الله مع المؤمنين * ﴾ وهكذا بقية الأقوال في التفاسير لا تخرج عما ذكرت لك . أما التفسير ﴿ إنْ تَسْتَفْتِحُوا ﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم لأنهم الذين وقع بهم الهلاك والذلة .

أى تطلبوا الفتح . أى قضاء الحكم بينكم وبين محمد بنصر المحق وخذلان المبطل وقيل : الخطاب للمؤمنين والمعنى إن تستنصروا فقد جاءكم النصر وإن تنتهوا عن التكاسل في القتال والرغبة عما يختاره الرسول فهو خير لكم . وإن تعودوا اليه نعد عليكم بالإنكار أو تهييج العدو ولن تغنى حينئذ كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر . فإنه مع الكاملين في إيمانهم ولعل هذا القول هو الأصح ويؤيده قوله بعد ذلك الخطاب الذى يليه : ﴿ ياأيّها الّذِينَ آمنُوا أَطِيعُوا الله ورسُولَه ولا تَوَلَّوْا عَنْهُ وأَنْتُمْ تَسمْعُون.ولَا تكونُوا كالّذينَ قالُوا سمعنا وهُمْ لا يَسْمَعُون ﴾ هم المنافقون أو المشركون . وقوله ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ أى القضاء بهلاك من هو كذلك . وهو أبو جهل ومن معه دون النبى ﷺ والمؤمنين هذا يؤيد ماقلته من صحة القول الثانى أن الخطاب للمؤمنين . لكن يعكر عليه قوله : ﴿ وإنْ تَنْتَهُوا ﴾ عن الكفر والحرب ﴿ فَهُوَ خيْرٌ لَكُمْ وإنْ تعُودُوا ﴾ لقتال النبى ﷺ ﴿ نعُدْ ﴾ لنصره عليكم ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ ﴾ تدفع ﴿ عنكم فئتكم ﴾ جماعاتكم ﴿ شيئاً ولَوْ كَثُرت وإنَّ الله مَعَ المؤمنين ﴾ بالنصر لهم عليكم معشر الكافرين . وفى أن الكسر على الاستناف والفتح على تقدير اللام . ففى السمين قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم بالفتح . والباقون بالكسر فالفتح من أوجه : أحدها أنها على لام العلة والمعلل تقديره ولأن الله مع المؤمنين كان كيت وكيت والثانى أن التقدير ولأن الله مع المؤمنين امتنع عنادهم والثالث أنه خبر مبدأ محذوف أى والأمرأن الله مع المؤمنين . قال : وهذا الوجه الأخير يقرب في المعنى من قراءة الكسر لأنه استئناف قلت : وقدر الزمخشرى قرءاة الفتح ولأن الله معين المؤمنين كان ذلك .

القول في سبب نزول قوله تعالى ﴿ ياأيُّها الّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا الله والرَّسُول وتَخُونُوا أماناتِكُمْ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.واعَلَمُوا أنّماَ أمْوَالكُمْ وأولَادُكُمْ فتْنَةٌ وأنَّ الله عِنْدَه أجرٌ عَظيمٌ ﴾ ذكر الواحدى أنها نزلت في أبى لبابة بن عبد المنذر الأنصارى . وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة ، فسألوا رسول الله ﷺ الصُّلح على ماصالح عليه إخوانهم من بنى النضير على أن يسيروا بإخوانهم إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام فأبى أن يعطيهم ذلك إلى أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ . فأبوا وقالوا : أرسل الينا أبا لبابة وكان مناصحا لهم ، لأن عياله وماله وولده كانت عندهم .فبعثه رسول الله ﷺ فأتاهم فقالوا ياأبا لبابة : ماترى أننزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه إنّه الذبح فلا تفعلوا قال أبو لبابة : والله

مازالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله فنزلت في هذه الآيات، فلما نزلت شد نفسه على سارية من سوارى المسجد ، وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليه . فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه ، فقيل له يا أبا لبابة : قد بتيب عليك فقال : لا والله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلنى فجاء فحله بيده ، ثم قال ابو لبابة : من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب،وأن انخلع من مالى فقال رسول الله ﷺ يجزيك الثلث أن تتصدق به * وفي لباب السيوطى : روى ابن جرير وغيره عن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة ، فأتى جبريل النبى ﷺ فقال : إن أبا سفيان بمكان كذا وكذافاخرجوا اليه،واكتموا فكتب رجل من المنافقين إلى أبى سفيان إن محمدا يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله : ﴿ **لَا تَخونُوا الله والرسُول** ﴾ الآية قال السيوطى غريب جدا في سنده وسياقة نظر.وأخرج ابن جرير عن السدى قال : كانوا يسمعون من النبى ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين * فنزلت وذكر القول الأول في الكشاف والمراغى والخازن والغرائب.وفي الغرائب زيادة على الأقوال المتقدمة : وقال الزهرى والكلبى : نزلت في حاطب بن أبى بلتعة حين كتب إلى أهل مكة بخروج النبى ﷺ اليها . حكاه الأصم . قال القاضى والأقرب أنها في الغنائم ، فالخيانة فيها خيانة لله لأنها عطيته . وخيانة للمؤمنين الغانمين فلكل منهم فيها حق قلت : والقول الأول هو المشهور في سبب نزول الآية ، ويؤيده قوله تعالى فيها : ﴿ **واعْلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ فقد كانت عيال أبى لبابة وماله وولده عند بنى قريظة وإن كان ذلك الأمر بالنسبة لحاطب بن بلتعة فقد وردت قصته في الصحيحين أن كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح فأطلع الله رسوله على ذلك فبعث في أثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطباً فأقر بما صنع واعتل بماله عند المكيّين ومافعل ذلك إلا ليتخذ يدا عندهم،فقام عمر بن الخطاب فقال يارسول الله:ألا أضرب عنقه،فإنه قد خان اللهورسولهوالمؤمنين ؟ فقال: « دعه فإنه شهد بدرا ، ومايدريك لعل الله اطّلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » والقول بأن الآية عامة في كل ماذكر هو الأصح ، لأنها وإن صحت أنها وردت في سبب خاص ، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند جماهير العلماء . أما التفسير : ﴿ **ياأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تخُونوا الله والرَّسُولَ وتَخُونُوا أماناتِكُمْ** ﴾ فاعادة النهى إشارة إلى أن المنهى عنه كل واحد

من الأمرين مستقلا ، وليست الواو للمعية ، فالثانى مجزوم نسقاً على الأول ولا يجوز أن يقال : نهى عن الجمع بينهما لأنه لا يلزم من النهى عن الجمع النهى عن كل واحد على حدة أى لا تخونوا الله فتعطلوا فرائضه ، أو تتعدوا حدوده وتنتهكوا محارمه التى بينها لكم في كتابه ولا تخونوا الرسول فترغبوا عن سنة إلى سنة آبائكم وزعمائكم ، ولا تخونوا أماناتكم فيما بين بعضكم وبعض من المعاملات المالية والودائع وغيرها من افشاء الأسرار التى أوتمنتم عليها .. ويحتمل أن يراد بالأمانة كل ما تعبد به ، وكأن معنى الأية إيجاب أداء التكاليف بأسرها في الغنيمة وغيرها على سبيل التمام والكمال من غير نقص و إخلال . ومعنى الخون النقص كما أن معنى الوفاء التمام ، فإذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه.وعبارة صاحب الغرائب : ولا تخونُوا الله بأن تعطلوا فرائضه ورسوله بأن لا تستنُّوا به ، وآماناتكم فيما بينكم بأن لا تحفظوها ، وأنتم « تعلمون » تبعة ذلك ووباله ، أو تعلمون أنكم تخونون ، يعنى أن الخيانة توجد منكم عمداً لا سهواً ثم لما كان الداعى إلى الخيانة محبة الأموال والأولاد ولعل مافرط من أبى لبابة كان بسبب ذلك ، نبه الله سبحانه على أنه يجب على العاقل أن يحترز عن المضار المتولدة من ذلك الحب فقال : ﴿ **إنّما أمْوالكُمْ وأوْلادُكُمْ فِتْنَة** ﴾ أى أنها سبب الوقوع في الفتنة وهى الإثم،أو العذاب،أو هى محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون على حدوده فى ذلك الباب ﴿ **وأنّ الله عِنْدهُ أجْرٌ عَظِيمْ** ﴾ فعليكم أن تزهدوا في الدنيا وما يتعلق بها ، وتنوطوا هممكم بما يقضى إلى السعادات الروحانية الباقية . ويمكن أن يتمسك بالآية في بيان أن الاشتغال بالنوافل لكونه مفضياً إلى الأجر العظيم عند الله هو أفضل من الاشتغال بالنكاح لأدائه إلى الفتنة * ونزل في توبة أبى لبابة : ﴿ **ياأيُّها الّذِينَ آمَنُوا إنْ تَتَّقُوا الله** ﴾ بالانابة وغيرها ﴿ **يَجْعلْ لَكُمْ فُرْقَانًا** ﴾ بينكم وبين ماتخافون فتنجون ﴿ **ويُكَفِّرْ عنكُمْ سّيئاتِكُمْ ويَغْفِرْ لكُمْ ذنُوبكم والله ذُو الْفضْلِ الْعُظيم** ﴾ لأنه هو الذى يفعل ذلك بكم فله الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خلقه * وقيل : إنه يتفضل على الطائعين بقبول الطاعات ويتفضل على العاصين بغفران السيآت وقيل : معناه إن بيده الفضل العظيم فلا يطلب من عند غيره،والفضيلة والفضل الخير *

والقول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإذْ يَمْكُرُ بِكَ الّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أوْ يَقْتُلُوكَ أوْ يُخْرِجُوكَ ويَمْكُرونَ ويَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الْماكِرِينَ** ﴾ قال السيوط في لبابه أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن نفرا من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا

ليدخلوا دار الندوة ، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمعتُ بما اجتمعتم له فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأى ونصح قالوا أجل، ادخل فدخل معهم فقال:انظروا في شأن هذا الرجل فقال قائل احبسوه في وثاق ثم تربّصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير والنابغة فإنما هو كأحدهم فقال عدو الله الشيخ النجدى : لا والله ماهذا برأى والله ليخرجن رائد من محبسه إلى أصحابه فليوشكن أنه يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ، ثم يمنعوه منكم فما آمن عليكم أن يُخرجوكم من بلادكم . فأنظروا غير هذا الرأى فقال قائل : أخرجوه من بين أظهركم واستريحوا منه فإنه إذا أخرج لن يضركم ماصنع ، فقال الشيخ النجدى : والله ماهذا لكم برأى . ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه للقلوب بما يمتع من حديث والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليسيرنّ إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم قالوا : صدق والله فأنظروا رأيا غير هذا ، فقال أبو جهل : والله لأشيرنّ عليكم برأى أراكم أبصرتموه بعد ما أرى غيره قالوا : وماهذا ؟ قال تأخذوا من كل قبيلة وسيطا شابا جلدا ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضربوه ضربة رجل واحد فإذا قتلتموه تفرق دمه في القبائل كلها فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقدرون على حرب قريش كلها ، وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل – الدية – واسترحنا وقطعنا عنا أذاه فقال الشيخ النجدى : هذا والله هو الرأى القول ماقال الفتى لا أرى غيره فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له فأتى جبريل النبى ﷺ فأمره ألا يبيت في مضجعه الذى كان يبيت،وأخبره بمكر القوم فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك في الخروج ، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة يُذكّره نعمته عليه : ﴿ **وإذْ يمكُرُ بِكَ الّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ الآية ورواه ابن سحاق في سيرته وابن كثير والخازن وغيرهم من أهل السير والمفسرين * وأخرج ابن جرير من طريق عبيد بن عمر عن المطلب بن أبى وداعة أن أبا طالب قال للنبى ﷺ : ما يأتمر بك قومك ؟ قال : يريدون أن يسجنونى أو يقتلونى ، أو يخرجونى قال : من حدثك بهذا ؟ قال : ربى قال : نعم الرب ربك فاستوصى به خيرا قال : أنا استوصى به بل هو يستوصى بى فنزلت : ﴿ **وإذْ يمكرُ بكَ الّذِينَ كفروا** ﴾ الآية قال ابن كثير : ذكر أبى طالب فيه غريب بل منكر لأن القصة ليلة الهجرة وذلك بعد موت أبى طالب بثلاث سنين.قلت وفي مجمع الزوائد عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وإذْ يمكُرُ بِكَ الّذِينَ**

كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ» قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبى ﷺ وقال بعضهم بل اقتلوه وقال بعضهم: بل أخرجوه فأطلع الله عزوجل نبيه على ذلك فبات على رضى الله عنه على فراش رسول الله ﷺ وخرج رسول الله ﷺ حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبى ﷺ فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليا ردّ الله مكرهم فقالوا أين صاحبك هذا ؟ قال لا أدرى فأقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا نسج العنكبوت على بابه فبات فيه ثلاث ليال * قال الهيثمى : رواه احمد والطبرانى وفيه عثمان بن عمرو الجزرى وثقه ابن حبان وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح * وفسر البخارى في صحيحه ﴿ لِيُثْبِتُوكَ : ليحبسُوك ﴾ وبه فسر عطاء وابن زيد وقال السدى : الاثبات هو الحبس والوثاق ، وقال ابن عباس ومجاهد وقتاده : ليثبتوك ليقيدوك وفي شرح المواهب مانصه : فقال بعضهم لبعض : والله إنها لَسُبَّةٌ – أى عارٌ – في العرب أن يتحدثوا عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا سر حرمتنا فهذا الذى أقامهم بالباب حتى أصبحوا * أما التفسير : ﴿ وَ ﴾ اذكر يا محمد ﴿ إِذْ يَمْكُرُ بكَ الَّذِينَ كفروا ﴾ المكر في اللغة : احتيال في خفية،وأصله الخداع ومكرهم اجتماعهم للمشاورة في شأن الرسول ﷺ بدار الندوة أى الدار التى تقع فيها الندوة أى الاجتماع والتحدث فالندوة مصدر .في المصباح ندا القوم ندوا من باب قتل : اجتمعوا ومنه النادى وهو مجلس القوم ومتحدثهم،ولا يقال فيه ذلك إلا والقوم مجتمعون فيه فإذا تفرقوا زالت عنه هذه الأسماء ، والندوة المرة من الفعل ، ومنه سميت دار الندوة بمكة التى بناها قصى لأنهم كانوا يندون فيها ، أى يجتمعون ثم صار مثلا لكل دار يرجع اليها ويجتمع فيها وجمع النادى أندية * وذكر الزرقانى على المواهب أنها أول دار بنيت بمكة فلما حج معاوية اشتراها من الزبير العبدرى بمائة ألف درهم ثم صارت كلها مسجد الحرام ، وهى جانبه الشمالى * ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ تقدم بيان ذلك وقوله ﴿ أَوْيَقْتُلُوكَ ﴾ كلهم قتلة رجل واحد ، إشارة لرأى أبى جهل الذى صوبه صديقه ابليس لعنهما الله ﴿ أَوْيُخْرِجُوكَ ﴾ من مكة منفيا كما أشار بذلك هشام بن عمرو ﴿ ويمْكُرُون ﴾ بك يامحمد أى يحتالون ويتدبرون في أمرك وقد تقدم معنى المكر في اللغة ﴿ ويَمْكُرُ الله ﴾ بهم بتدبير أمرك بأن أوحى إليك ما دبروه وأمرك بالخروج وحفظك حتى أبلغك مأمنك واستدرجهم إلى بدر فقلل المسلمين أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا وهذا مكر الله بهم أى جزاؤه بهم أى سُمى

باسم مكر المجازى كما قال تعالى : ﴿ وَجَزاءُ سَيِّئةٍ سَيِّئةٌ مِثْلُهاَ ﴾ فالثانية ليست بسيئة في الحقيقة بل هى مجازاة وإنما سميت سيئة لازدواج الكلام . وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عليكُمْ فاعْتَدُوا عَلَيْه ﴾ فالأول ظلم والثانى ليس بظلم ولكنه سمى باسم الذنب ليعلم أنه عقاب عليه وجزاء به . ويجرى مجرى هذا القول قوله تعالى : ﴿ يُخادِعُون الله وهُوَ خادِعُهُمْ ﴾ ﴿ والله يسْتهْزِىء بِهِمْ ﴾ يجازيهم وذلك بإيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه وقوله ﴿ والله خيْرُ ألماكِرينَ ﴾ أعلمهم به كذا قال الجلال وفيه شبهة تفضيل ولو قال : ﴿ والله خَيْرُ الماكرِينَ ﴾ لما هيأه لهم من الجزاء العادل ببدر لكان أولى إذ هو المشار اليه بقوله تعالى ﴿ وإنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرْضَ لِيَخرِجُوكَ مِنْها وإذا لا يلْبثُونَ خِلافَكَ إلَّا قليلًا ﴾ ويؤيده مارواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال : دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهى تبكى فقال : « ما يبكيك يا بنية ؟ » قالت يا أبتى : ومالى لا أبكى وهؤلاء الملأ من قريش في الحجر – حطيم مكة وهو المدار بالبيت من جهة الميزاب – يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى: لو قد رأوك لقاموا إليك فقتلونك وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك فقال : « يابنية ائتنى بوضوء » فتوضأ رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد فلما رأوه قالوا : هاهو ذا فطأطؤا رؤوسهم وسقطت رقابهم بين أيديهم فلم يرفعوا أبصارهم فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال « شاهت الوجوه » فما أصاب رجلًا منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً * قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه قال ابن كثير : ولا أعرف لهذا الحديث علة *

القول في سبب نزول قوله تعالى ﴿ وإذَا تُتْلَى عَليهِمْ آياتِنا قالُوا قد سَمِعْنَا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إنْ هَذَا إلا أساطِيرُ الأوَّلِينَ﴾ في لباب السيوطى أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : قتل النبىُّ ﷺ يوم بدر صبرا عُقبةَ بن أبى معيط وصعيمة بن عدى فقال رسول الله ﷺ إنه كان يقول في كتاب الله مايقول قال : وفيه أنزلت هذه الآية ﴿ وإذَا تُتْلَىَ عليه آياتُنا ﴾ الآية * وقد أوضح القصة بن كثير بقوله : وقد قيل إن القائل لذلك لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكهم : رستم واسفنديار ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ثم يقول : بالله أينا أحسن قصًا أنا أو محمد ؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في

الأسرفأمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبرا بين يديه ففعل ذلك ولله الحمد.وكان الذى أسره المقداد بن الأسود رضى الله عنه كما قال ابن جرير وساق الذى ذكره السيوطى * وفي الخازن : نزلت في النضر بن الحارث بن علقمة من بنى عبد الدار وذلك أنه كان يختلف إلى أرض فارس والحيرة ، ويسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وأحاديث العجم وكان يمر بالعباد من اليهود والنصارى فيراهم يقرؤن التوراة والانجيل ويركعون ويسجدون ويبكون،فلما جاء مكة وجد النبى ﷺ قد أوحى إليه وهو يقرأ ويصلى فقال النضر بن الحارث : قد سمعنا مثل هذا الذى جاء به محمد ، لو نشاء لقلنا مثل هذا فذمهم الله بدفعهم الحق الذى لا شبهة فيه بادعائهم الباطل بقولهم :«لو نشاء لقلنا مثل هذا»بعد التحدى وأبان عجزهم عن ذلك ولو قدروا ماتخلفوا عنه وهم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة،فبان بذلك كذبهم في قولهم :« لونشاء لقلنا مثل هذا» * في الكشاف وقيل : قائلة النضر بن الحارث المقتول صبرا حين سمع اقتصاص الله أحاديث القرون : لو شئت لقلت مثل هذا وهو الذى جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم واسفنديار فزعمتم أنه مثل ذاك وأنه من جملة تلك الأساطير قال : وهو القائل « إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » * وسيأتى بيان ذلك بعد هذه الآية إن شاء الله.وفي الغرائب : روى أن النضر بن الحارث خرج إلى الحيرة تاجرا واشترى أحاديث كليلة ودمنة وقصة رستم واسفنديار وكان يقعد مع المستهزئين والمقتسمين فيقرأ عليهم ويقول : هذا مثل مايذكره محمد من قصص الأولين ولو شئت لقلت مثل مقوله * ولم أر في بقية التفاسير قولا زائدا في معناه على ماذكرت بل ذكروا كلهم أنها نزلت في النضر بن الحارث ، أما التفسير : ﴿ **وإذا تُتلَى عَلَيهِمْ آياتُنا** ﴾ آيات كتاب الله الواضحة البيان لمن يشرح الله صدره للاسلام ﴿ **قالُوا** ﴾ أولئك المستهزؤن جهلا منهم وعنادا للحق وإنهم ليعلمون إنهم لكاذبون ﴿ **قَدْ سَمِعْنا** ﴾ مايتلى علينا ﴿ **لَوْ نَشاءُ** ﴾ نريد ﴿ **لَقُلْنَا مِثْلَ هذا** ﴾ الذى يتلى علينا من القرآن الذى وصفوه بأنه أساطير الأولين والتعبير بلَوْ دلالة على عجزهم وكـذبهم فهى حرف يدل على تعليق فعل بفعل فيما مضى فقوله : ﴿ **لونَشاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذا** ﴾ لم يقله لا في الماضى ولا في الحاضر ولا في المستقبل أى قصدى أقول : لم يتحقق شرطها ولا جوابها وإيضاح ذلك باختصار إن قوله ﴿ **مثل هذا** ﴾ المشار إليه وهو القرآن . وهل للقرآن مثيلة تشبهه في بلاغته وإعجازه كان النضر وامثاله على علم بها ؟ هذا مالم يأتوا به فثبت كذبهم أن ليس للقرآن

مثيلة ليتعرضوا بها ولذا عللوا دعوتهم الكاذبة بما هو أشد منها كذبا فقالوا : « إن هذا إلا أساطير الأولين » السطر والسطر : الصف من الكتاب والشجر والنخل ونحوها . وجمع ذلك أسطر وأسطار وأساطير والسطر الخط والكتابة أي أنهم يريدون ماجاء به نبينا محمد ﷺ هو مما سطره الأولون وكتبوه بأيديهم قال تعالى ﴿ **والْقَلَم وما يَسْطُرُون** ﴾ أى وما تكتب الملائكة وقال تعالى : ﴿ **وكُلُّ صَغِيرٍ وكبيرٍ مُسْتطَرٌ** ﴾ مكتوب والأساطير في أصل اللغة أحاديث لا نظام لها فهى تشبه الباطل إذ يقال هو يسطر مالا أصل له أى يؤلف وفي حديث الحسن سأله الأشعث عن شيء من القرآن فقال له : والله إنك ما تسيطر على بشيء « أى ماتروج يقال : سطر فلان على فلان إذا زخرف الأقاويل ونمقها وتلك الأقاويل الأساطير والسطر والمعنى أن أخبار القرآن عن الرسل وأقوامهم تشبه قصص أولئك الأمم فهم يستطيعون أن يأتوا بمثلها فما هى من خبر الغيب الدال على أنه وحى من عند الله قالوا هذه المقالة الشنيعة وهم يعتقدون صدق ماجاء به نبينا محمد ﷺ لأنهم يعلمون أنّه أمى لا يقرأ ولا يكتب قال تعالى : ﴿ **وما كُنْتَ تُتلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ولَا تخطُّهُ بيمينك إذا لاَرْتَابَ الْمبُطِلُون** ﴾ بل قالوا ذلك ليصدوا العرب عن القرآن وقد كذبهم الله فيه فما استطاعوا له إثباتا.روى أن النضـــر هـــو الذى أنزل فيه

﴿ **ومِنَ النَاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الحديث لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ الله بِغَيْر عِلْمٍ ويَتَخِذَهَا هُزُواً** ﴾ قد اشترى قينة جميلة تغنى الناس بأخبار الأمم لصرفهم عن سماع القرآن وهذا منتهى الجحود والعناد،وقد كان النضر نفسه وأبو جهل والوليد بن المغيرة يستمعون ليلا خفية من رسول الله ﷺ ويعجبون منه حتى قال الوليد بن المغيرة كلمته المشهورة في القرآن الكريم : إنه يعلو ولا يُعلى عليه ، وإنه يحطم ماتحته،أعلاه مثمر وأسفله مغدق وماهو من كلام البشر.فلما سمع العرب كلمته هذه خافوا أن يؤمن فألحوا عليه ليقول نقيضها فقال : **«إن هَـذَا إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثر»**

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذَا هُو الحَقَّ مِنَ عِنْدِكَ فأمْطِرْ عَلْيناَ حِجَارَةُ مِنَ السَّماَءِ أوِ ائْتِنَا بِعَذاب أليم.ومَا كَانَ الله ليعذّبَهُمْ وأنْتَ فيهِمْ وما كانَ الله معذِّبِهُمْ وهُمْ يَسْتَغْفِرُون** ﴾ قال أهل التفسير نزلت في النضر بن الحارث وهو الذى قال : إن كان مايقول محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء. ولكن في البخارى أن القائل أبو جهل أخرج عن أنس بن مالك قال أبو جهل : اللهم إن

كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم فنزل : ﴿ وماكان الله ليعذّبهم وأنت فيهم ﴾ إلى قوله : ﴿ ومالَهُمْ أنْ لَا يُعَذِّبَهُمُ الله وهُمْ يَصُدُّون عن الْمَسْجِدِ الحرام ﴾ الآية والحديث أخرجه مسلم أيضا في ذكر المنافقين والكفار عن عبيد الله عن أبيه عن شعبة وفي لباب السيوطى : وأخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قال : قالت قريش بعضها لبعض : محمد أكرمه الله من بيننا : اللهم إن كان هذا هو الحق فأنزل الله تعالى ﴿ وما كانَ الله مُعذّبهم وهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ.إلى قوله:لا يَعْلَمُون ﴾ وهكذا بقية الأقوال الأخرى في التفاسير لا تخرج عن هذه الأقوال الثلاثة : النضر – أبو جهل – قريش – روى أن معاوية قال لرجل من سبأ : ماأجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة !! فقال أجهل من قومى قومك حين قالوا: ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ ولم يقولوا : فاهدنا له قلت : ولا منافاة بين الأقوال الثلاثة لاحتمال أن يكون كل من القرشيين والنضر وأبو جهل قالوا ذلك مجتمعين أو منفردين ولا دليل على دعوى الأولوية بل لقائل أن يقول نسبته إلى أبى جهل أولى لورود ذلك في صحيح البخارى وصحيح مسلم فالأخذ بهما أولى من غيرهما وهو الحق أما التفسير ﴿ وإذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذَا ﴾ الذى يقرؤه محمد ﴿ هُوَ الحقَّ ﴾ أما المنزل العامة على نصب الحقِّ وهو خبر كان وهو فصل زائد على قول الأخفش ويرفع على أنه خبر هو والجملة خبر الكون وقوله : ﴿ مِنْ عِنْدِك فأمْطِرْ عَلَيْنَا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ ﴾ أى من سجيل لأن المطر لا يكون من السماء،وتوصيف الحجارة بقوله من السماء للدلالة على أن المراد بالحجارة السجيل وهو حجارة مسومة أى معلمة معدة لتعذيب قوم من العصاة.روى أنها حجارة من طين أحميت بنار جهنم مكتوب عليها أسماء القوم،فلا بد من ذكر السماء لتعيين أن المراد من الحجارة السجيل ، وهى التى أرسلت الى قوم لوط قال تعالى : ﴿ وأمْطَرْنا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنَ سّجيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمةً عِنْدَ ربّكَ وما هِيَ مِنَ الظّالِمين ﴾ أهل مكة ﴿ بِبَعِيدٍ ﴾ أى فإنهم بظلمهم حقيق بأن تمطر عليهم ، وفيه وعيد لكل ظالم.وعنه عليه الصلاة والسلام أنه سأل جبريل عليه السلام فقال له جبريل: يعنى ظالمي أمتك ما من ظالم منهم إلا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة * وقيل : الضمير للقرى أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون بها في أسفارهم إلى الشام وتذكير البعيد على تأويل الحجر أو المكان ذكره البيضاوى في تفسيره وقوله : ﴿ أو ائْتِنَا بِعَذَابٍ ألِيمٍ ﴾ قاله أبو جهل

أو النضر أو غيره استهزاء قال تعالى ﴿ **وما كانَ الله ليعذِّبَهَمْ** ﴾ بما سألوه ﴿ **وأنتَ** ﴾ يامحمد ﴿ **فيهِمْ** ﴾ لأن العذاب إذا أنزل عم ولم تعذب أمة إلا بعد خروج نبيها منها قال تعالى ﴿ **وكأيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أشَدُّ قوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ أهْلَكْناهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ** ﴾ أى كان إهلاك أهلها بعد خروج أنبيائها والمؤمنين منها ﴿ **وما كانَ الله مُعَذِبَهُمْ** ﴾ أى مريد تعذيبهم ﴿ **وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ حيث يقولون في طوافهم غفرانك غفرانك وقيل : هم المؤمنون المستضعفون فيهم كما قال تعالى : ﴿ **لَوْ تَزَيَلُوا** ﴾ أى المؤمنون تميزوا عن الكفار ﴿ **لَعَذَبْنَا الذِينَ كفَرُوا مِنهُمْ عذاباً أليماً** ﴾ وقوله : ﴿ **وَمَالَهُمْ أنْ لا يُعَذَبَهُمْ الله** ﴾ بالسيف بعد خروجك والمستضعفين وقد عذبهم الله ببدر وغيره ﴿ **وَهُمْ يَصُدُّونَ** ﴾ يمنعون النبى ﷺ والمسلمين ﴿ **عَنِ الْمسَجْدِ االحْرام** ﴾ أن يطوفوا به ﴿ **وما كَانُوا أوْلْياؤهُ** ﴾ آي مستحقين ولاية أمره مع شركهم وهذا رد لما كانوا يقولونه : نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء قال تعالى ﴿ **إنْ** ﴾ ما ﴿ **أوْلِيَاؤُه إلَّا المتقُونَ** ﴾ عن الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره : وقوله ﴿ **ولكنّ أكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُون** ﴾ كأنه نبه بالأكثر على أن منهم من يعلم ويعاند أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم أى لا يعلمون أن لا ولاية لهم عليه *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبيْتَ إلَّا مُكاءً وتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾ في الواحدى : حدَّث قرة عن عطية عن ابن عمر قال : كانوا يطوفون بالبيت ويصفقون ووصف التصفيق بيده ، ويصفرون ووصف صفيرهم ويضعون خدودهم بالأرض فنزلت هذه الآية * وفي لباب السيوطى : وأخرج ابن جرير عن سعيد قال : كانت قريش يعارضون النبى ﷺ في الطواف يستهزؤن به : يصفرون ويصفقون فنزلت الآية * وفي السمين : إن المشركين كانوا إذا سمعوا رسول الله ﷺ يصلى ويتلو القرآن صفقوا بأيديهم، وصفروا بأفواههم ليشغلوا عنه من يسمعه ويخلطوا عليه قراءته وهذا مناسب لقوله : ﴿ **لَا تَسْمَعُوا لِهَذا الْقَرآنَ والْغَوْا فيه** ﴾ وفي الطبرى : عن مجاهد قال : المكاء ادخال أصابعهم في أفواهم والتصدية التصفيق وهم نفر من بنى عبد الدار كانوا يخلطون بذلك كله على محمد صلاته * وفيه : وعن سعيد بن جبير في قوله وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية قال المكاء كانوا يشبكون بين أصابعهم ويصفرون بها فذلك المكاء قال : وأرانى سعيد بن جبير المكان الذى كانوا يمكون فيه نحو أبى قبيس * وعن قتادة قال : كنا نحدث أن المكاء التصفيق بالأيدى

أو النضر أو غيره استهزءً قال تعالى: «وما كانَ الله ليعذّبَهُمْ» بما سألوه «وأنتَ» يا محمد «فيهِمْ» لأنَّ العذاب إذا نزل عم. ولم تعذّب أُمّةٌ إلا بعد خروج نبيها منها، قال تعالى: «وكأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ أهلكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ» أي كان إهلاك أهلها بعد خروج أنبيائها والمؤمنين منها «وما كانَ الله مُعَذِّبَهُمْ» أي مريد تعذيبهم «وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» حيث يقولون في طوافهم غفرانك .. غفرانك. وقيل: هم المؤمنون المستضعفون فيهم كما قال تعالى: «لَوْ تَزَيَّلُوا» أي المؤمنون تميّزوا عن الكفار: «لَعَذَّبْنَا الّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عذاباً أليماً» وقوله: «وَمَالَهُمْ أَنْ لا يُعَذِبَهُمُ الله» بالسيف بعد خروجك والمستضعفين، وقد عذبهم الله ببدر وغيره: «وَهُمْ يَصُدُّونَ» يمنعون النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين «عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» أن يطوفُوا به «وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ» أي مستحقين ولاية أمره مع شركهم، وهذا ردٌّ لما كانوا يقولونه: نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء ونُدخل من نشاء قال تعالى: «إنْ» ما «أَوْلِيَاؤُه إلاَّ المتَّقونَ» عن الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره، وقوله: «ولكنَّ أكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» كأنَّه نبّه بالأكثر على أن منهم من يعلم و يعاند، أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم. أي لا يعلمون أن لا ولاية لهم عليه.

القول في سبب نزول قوله تعالى: «وَما كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إلاَّ مُكاءً وتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» في الواحدي: حدّث قُرّة عن عطية، عن ابن عمر قال: كانُوا يطوفون بالبيت و يصفقون ووصف التصفيق بيده، و يصفرون صفيرهم، و يضعون خدودهم بالأرض، فنزلت هذه الآية * وفي لباب السيوطي: وأخرج ابن جرير عن سعيد قال: كانت قريش يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف يستهزؤون به، يصفرون و يصفقون. فنزلت الآية * وفي السمين: إنَّ المشركين كانُوا إذا سمعُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي و يتلوا القرآن، صفَّقُوا بأيديهم، وصفَرُوا بأفواههم ليُشغلُوا عنه من يسمعه، ويخلطُوا عليه قراءته. وهذا مناسب لقوله: «لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرآنَ والْغَوْ فيه» وفي الطبري: عن مجاهد قال: المكاء إدخال أصابعهم في أفواههم. والتصدية: التصفيق. قال: نفر من بني عبدالدار كانُوا يخلطُون بذلك كله على محمد صلاته * وفيه: وعن سعيد بن جبير في قوله: «وما كانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيتِ إلاَّ مُكَاءً وتَصْدِيَةً» قال: المكاء: كانوا يشبكون بين أصابعهم، و يصفّرون بها، فذلك المكاء. وقال: وأراني سعيد بن جبير المكان الذي كانُوا يمكون فيه نحو أبي قبيس * وعن قتادة قال: كنّا نحدّث أن المكاء التّصفيق بالأيدي، والتصدية صياحٌ كانوا

يعارضون به القرآن * وعن السّدى المكاء الصفير على نحو صير أبيض يقال له المكاء بأرض الحجاز والتصدية التصفيق وقد قيل في التصدية أنها الصد عن بيت الله الحرام قال أبوجعفر: وذلك قول لا وجه له لأن التصدية مصدر من قول القائل صدية تصدية وأما الصد فلا يقال منه صديت إنما يقال منه: صددت ... الخ * قلت: والمكاء في اللغة فعال بوزن الثغاء والرغاء من مكا يمكوا إذا صفر ومنه المكاء كأنه سمى بذلك لكثرة مكائه والتصدية التصفيق تفعله من الصدى أو من صد يصد «**إذَا قَوْمَكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ**» قال: صدهم عن بيت الله الحرام وقال ابي يزيد: صدهم عن الصلاة وعن دين الله * وفي الخازن قال الأزهرى والمكاء والتصدية ليسا بصلاة ولكن الله سبحانه وتعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكاء والتصدية قال حسان بن ثابت: صلاتهم التصدى والمكاء، فعلى قول ابن عباس: كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم وعلى قول غيره كان نوع أذى للنبي صلى الله عليه وسلم قال الخازن: وقول ابن عباس أصح لأن الله سبحانه وتعالى سمى ذلك صلاة * أي كانوا يعتقدون أن ذلك المكاء والتصدية صلاة * وعلى القول الثالث: منع الناس من التعبد في المسجد الحرام * وهذه الآية كالتعليل لقوله في الآية قبل هذه «**وما كانُوا أوْلِيَاءَهُ..**» وقوله: «**فَذُوقُوا الْعَذَابَ**» ببدر، وهو عذاب القتل والأسر في الدنيا «**بِمَا كُنْتُمْ تكفرون**» أي بسبب كفركم. وقيل: يقال لهم في الآخرة فذوقُوا العذاب..

القول في سبب نزول قوله تعالى: «**إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ * والَّذِينَ كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**» في الواحدي: قال مقاتل والكلبي: نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانُوا اثنى عشر رجلاً: أبوجهل بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ونبيه ومنبّه ابنا حجاج، وأبوالبحترى ابن هشام، والنضر بن الحارث، وحكيم بن حزام، وأبيّ بن خلف، وزمعة بن الأسود، والحرث بن عامر بن نوفل، والعباس بن عبدالمطلب. وكلهم من قريش، وكان يطعم كل واحد كل يوم عشرة جزور * وقال سعيد بن جبير وابن أبزى: نزلت في أبي سفيان بن حرب، استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش يقاتل بهم النبي صلى الله عليه وسلم سوى من استجاب له من العرب، وفيهم يقول كعب بن مالك:

فجئنا إلى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسرٌ ومقنَّعُ
ثلاث آلاف ونحن بقيّة ثلاث مئين إن كثرن فأربع

وقال الحكم بن عتبه: أنفق أبو سفيان على المشركين يوم أحد أربعين أوقيةً من ذهب. فنزلت فيه الآية * وقال محمد بن اسحاق عن رجاله: لمَّا أصيبت قريش يوم بدر فرجع فلُّهم إلى مكة، ورجع أبوسفيان بعيره، مشى عبدالله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أميّة في رجال من قريش، أصيب أباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلّمُوا أبا سفيان بن حرب. ومن كانت له في تلك العير تجارة. فقالُوا يا معشر قريش: إنَّ محمداً قد وتركم وقتل خياركم. فأعينُونا بهذا المال الذي أفلت على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منّا. ففعلُوا، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية إلى قوله: «يُحْشَرُونَ» وهذه الأقوال كلها في الخازن والمراغي والغرائب والطبرى. وفيه بدل قول كعب. ونحن بقيّة. ونحن نَظنّه.. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي ما قلنا: وهو أن يقال إن الله أخبر عن الذين كفروا به من مشركي قريش أنهم ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله. لم يخبرنا بأىّ أولئك عنَىٰ، غير أنَّه عمّ بالخبر الذين كفروا، وجائز أن يكون عنىٰ المنفقين أموالهم لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأحد. وجائز أن يكون عنىٰ المنفقين منهم ذلك ببدر، وجائز أن يكون عنى الفريقين، وإذا كان ذلك كذلك فالصواب في ذلك أن يعمّ كما عمّ جلّ ثناؤه الذين كفروا من قريش أي أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب * وعليه ابن كثير: وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر. قال ابن كثير: وعلى كل تقدير فهي عامةٌ، وإن كان سبب نزولها خاصًا، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن اتباع طريق الحقّ، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، ثم تكون عليهم حسرة. أي ندامة حيث لم تُجد شيئاً لأنهم أرادُوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متمٌّ نُوره، ولو كره الكافرون. وناصر دينه، ومعلن كلمته، ومظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذابُ النار. فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه. ومن قُتل منهم أو مات فإلى الخزى الأبدي والعذاب السرمدي. ولهذا قال: «فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حسرةً ثم يُغلبون والّذِين كفروا إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ» وهكذا فسّرها ابن كثير إجمالاً أما تفسيرها تفصيلاً «إنَّ الّذِينَ كَفَرُوا»

كَفَروا بالله أي جحدوه وأنكروه. وأصل الكفر في اللغة: الكفر والتغطية. ومنه سمي الليل كافراً لأنه يستر الأشياء بظلمته. قال الشاعر: في ليلة كفر النجوم غمامها. أي سترها. والكفر على أربعة أضرب: كفر إنكار، وهو أن لا يعرف الله أصلاً ككفر فرعون، هو قوله: «مَا علمتُ لكُمْ من إلٰه غيرى» وكفر جحود: وهو أن يعرف الله بقلبه ولا يقرّ بلسانه ككفر إبليس. وكفر عناد: وهو أن يعرف الله بقلبه و يقرّ بلسانه ولا يدين به ككفر أميّة بن أبى الصلت وأبى طالب حيث يقول في شعر له:

ولقد علمتُ بأنّ دِينَ مُحمد مِنْ خيرْ أديان البريّة دينا

لولا الملامة أو حذار مسبّة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

وكفر نفاق: وهو أن يقر بلسانه ولا يعتقد صحة ذلك بقلبه. فجميع هذه الأنواع كفر. وحاصله: أنَّ من جحد الله، أو أنكر وحدانيّته، أو أنكر شيئاً ممّا أنزله على رسوله، أو أنكر نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، أو أحداً من الرسل فهو كافر، فإن مات على ذلك فهو في النار خالداً فيها. ولا يغفر الله له. ولفظ كفروا عام يشمل كفار مكة ومشركى أهل الكتاب، ومن على شاكلتيها من حين نزولها حتى يوم الدين، وقوله: «**ينفقُون أموالهم**» في حرب النبيّ صلى الله عليه وسلم «**ليصدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله**» أي ليصرفوا النَّاس عن الايمان بالله ورسوله. وقيل: ينفقون أموالهم على أمثالهم من المشركين ليتقوُّوا بهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. وقد وقفت على الأقوال في سبب نزول الآية «**فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ**» في عاقبة الأمر «**عليهم حَسْرَةً**» ندامةً لفواتها وفوات ما قصدوه. أي فسيعلمون عاقبة إنفاقها من الخيبة وعدم الظفر بالمقصود، فحصلت المغايرة «**ثُمَّ يُغْلَبُونَ**» في الدنيا، ولا يظفرون بما يؤملون «**والّذِين كَفَرُوا**» أي منهم لأن منهم من أسلم. ولهذا قال: والذين كفروا، يعنى المنفقين أموالهم «**إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرونَ**» أي يساقون إلى النار.

القول في سبب نزول قوله تعالى: (**وَلاَ تَكُونُوا كالّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً ورئَاءَ النَّاسِ ويصدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله والله بِمَا يَعْمَلُونَ محيطٌ**)

في لباب السيوطي: أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله «**ولا تكونُوا كالّذِين خَرَجُوا مِنْ ديارِهِمْ بطراً ورئَاءَ النَّاسِ...**» الآية * وفي البيضاوي: وذلك أنّهم لما

بلغوا الجحفة، وافاهم رسول أبي سفيان وقال لهم: إرجعوا فقد سلمت عيركم، فقال أبوجهل: لا والله حتى نقدم بدراً، ونشرب بها الخمر... ‌ه وفي الخازن: نزلت هذه الآية في كفار قريش حين خرجوُا إلى بدر، ولهم فخر وبغى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني به ‌ه قال ابن عباس: إنَّ أبا سفيان لمَّا رأى أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش إنكم إن خرجتم لتمنعُوا عيركم ورحالكم وأموالكم فقد نجاها الله، فارجعوا. فقال أبوجهل: والله لا نرجع حتى نرد بدراً، وكان في بدر موسم من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق في كل عام. قال: فنقيم عليها ثلاثاً، وننحر الجزور ونطعم الطعام. ونسقى الخمر، وتعزف عليها القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً فامضوا. زاد غيره. قال: فلمَّا وافُوا بدراً سقُوا كؤس الحمام عوضاً عن الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم ‌ه أي بطرين طربين مرائين بأعمالهم. وأن يكونُوا من أهل التقوى والكآبة والحزن من خشية الله عز وجل مخلصين أعمالهم له ‌ه وكذا في بقية التفاسير‌ه قوله: «**ولاَ تكُونُوا كالَّذِينَ خَرَجُوا من دِيَارِهِمْ**» كفار مكة ليمنعُوا عيرهم ولم يرجَعُوا بعد نجاتها خرجُوا حال كَوْنهم «**بَطَراً**» الْبَطَرُ والأشَرُ (بفتحتين) الطغيان في النعمة بترك شكرها، وجعلها وسيلة إلى ما لا يرضاه الله. وقيل: معناهما الفخر بالنعمة ومقابلتها بالتكبر والخيلاء والفخر بها (زاده وشهاب) وفي الحديث: (لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ إزاره بَطَراً) وفي الحديث: (الكِبْرُ بَطَرُ الحق) هو أن يجعل ما جعله الله حقاً من توحيده وعبادته باطلاً. وفي رواية ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الْكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ النَّاس) وحال كونهم «**وَرِئَـاءَ النَّـاسِ**» حيث قالوا: لا نرجع حتى نشرب الخمور، وننحر الجزور، وتضرب علينا القيان ببدر فيتسامع بذلك النَّاسُ فيثنُوا علينا بالشجاعة والسّماحة، وهذا هو رياؤهم «**ويصدُّونَ**» النَّاس «**عن سبيلِ الله**» أي يمنعُون الناسَ عن الدخول في دين الله «**والله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**» فيه وعيد وتهديد أي إنه تعالى عالم بجميع الأشياء لا يخفى عن علمه شيء لأنَّه محيط بأعمال العباد كلها فيجازى المحسنين و يعاقب المسيئين.

والخلاصة: وصف الله تعالى كفار مكة بثلاثة صفات:

أولاها : البطر وهو الطغيان في النعمة ، وعليه قوله تعالى : **«كلاَّ إنَّ الإنسَانَ ليطغى أنْ رآهُ استغنى»** والتحقيق أن النعم إذا كثرت من الله على العبد . فإن صرفها إلى مرضاته ، وعرف حقّ الله فيها . فذاك هو الشكر، وإن توسّل بها إلى المفاخرة على الأقران والمكاثرة على أبناء الزمان فذاك هو البطر.

وثانيها : رئاء الناس ، وهو القصد إلى إظهار الجميل مع قبح النيّة وفساد الطويّة ، أو هو إظهار الطاعة مع إبطان المعصية كالنفاق.

وثالثها : و يصدُّون النَّاس عن الدخول في دين محمد صلى الله عليه وسلم وهذه أقبحها صفة ، وأعظمها عقوبة.

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال آية (٤٩) .

فى الطبرى قال : حدثنا محمد بن المثنى . قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا داود عن عامر فى هذه الآية : ﴿ إِذْ يَقُولُ المِنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ .. ﴾ قال : كان ناس من أهل مكة ، تكلموا بالإسلام ، فخرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا قلة المسلمين . قالوا : غر هؤلاء دينهم .* وعن مجاهد قال : فئة من قريش : الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب ، وعلى بن أمية بن خلف ، والعاصى بن منبه بن الحجاج . خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب ، فحبسهم ارتيابهم ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : غر هؤلاء دينهم حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم * وذكر أقوالاً غير هذين القولين لاتخرج عن معنيهما . أى أن المنافقين الذين كانوا بالمدينة . والذين فى قلوبهم مرض ، وهم ضعفاء المسلمين الذين لم يقو إسلامهم الكائنون بمكة خرجوا مع قريش . فلما رأوا قلة المسلمين ، وكثرة الكفار ارتدوا ورجعوا إلى الكفر . وماتوا عليه ، لكن المنافقين لم يخرجوا مع النبى ﷺ إلى بدر إذ لم يحضر وقعتها منافق إلا واحد وهو عبد الله بن أبىّ على التحقيق . والذين فى قلوبهم مرض . يجوز أن يكون من صفة المنافقين . وأن يراد قوم من قريش أسلموا ، وماقوى الإسلام فى قلوبهم ، ولم يهاجروا . ثم إن قريشا لما خرجوا إلى رسول الله ﷺ . قال أولئك نخرج مع قومنا . فإن كان محمد فى كثرة خرجنا إليه . وإن كان فى قلة أقمنا فى قومنا . قال محمد بن اسحاق ، ثم قتلوا جميعا مع المشركين يوم بدر . وقوله : ﴿ غَرَّ هؤلاءِ دينُهم ﴾ قال ابن عباس : معناه أنّه خرج بثلاثمائة وثلاثة عشر إلى زهاء ألف ، وماذلك إلا أنهم اعتمدوا على دينهم * كذا فى الغرائب . وقيل : المراد إن هؤلاء يسعون فى قتل أنفسهم رجاء أن يجعلوا أحياء بعد الموت ، ثم قال جواباً لهم : ﴿ وَمَنْ يتوكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ يكل أمره إليه . ويثق بفضله ﴿ فإنَّ اللهَ عزيزٌ ﴾ غالب . يسلط الضعيف القليل على القوى الكثير ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يوصل العذاب إلى أهله والرحمة إلى أوليائه * وفى ابن كثير : قال علىٌّ وقلل المشركين فى أعين المسلمين . فقال المشركون : غرَّ هؤلاء دينهم . وإنما قالوا ذلك من قلتهم فى أعينهم . فظنوا أنهم سيهزمون لا يشكون فى ذلك * وقال قتادة : رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله . وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله

لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال : والله لا يعبد الله بعد اليوم قسْوَة وعُتُوًّا * أما التفسير ﴿ إذْ يقُول المنافقُون﴾ النِّفاق بالكسر . فعل المنافق . والنفاق : الدخول فى الإسلام من وجه والخروج من آخر . مشتق من نافقاء اليربوع ، لحجرته بابان إذا قصد من أحدهما خرج من الآخر . وكلمة منافق . إسلامية لم تكن معروفة ولا مستعملة فى الجاهلية ، وهو الذى يستر كفره ويظهر إيمانه ، وفى حديث حنظلة « نافَقَ حنظلة » أراد أنه إذا كان عند النبى ﷺ أخلص وزهد فى الدنيا . وإذا خرج عنه ترك ما كان عليه ورغب فيها ، فكأنه نوع من الظاهر والباطن ما كان يرضى أن يسامح به نفسه . وفى الحديث أكثر منافقى هذه الأمة قُرَّاؤها . أراد بالنفاق هنا الرياء لأن كليهما إظهار غير ما فى الباطن . أى ذكر قول منافقى أهل المدينة ﴿ والَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ضعف اعتقاد . يجوز أن يكون من المرض من صفة المنافقين ، وهو مرض الشك الذى دخلهم فى الإسلام . وأن يراد الذين هم على حرف ليسوا بثابتى الأقدام فى الإسلام ، وعن الحسن : المشركون . وقوله : ﴿ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ يعنون أن المسلمين اغتروا بدينهم . وأنهم يتقوون به ، وينصرون من أجله ، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف كما تقدم . دينهم فاعل غر . أى غر هؤلاء المسلمين دينهم . إذ خرجوا مع قلتهم يقاتلون الجمع الكثير توهما أنهم ينصرون بسبب دينهم . قال تعالى فى جوابهم ﴿ ومَنْ يتوكَّلْ علَى اللهِ﴾ يثق به يغلب ﴿ فإنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ﴿ حَكِيمٌ﴾ فى صنعه *

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدْتَ منهُمْ ثُمَّ ينقُضُونَ عَهْدَهُمْ فى كُلِّ مرَّةٍ وهُمْ لا يتَّقُون * فإمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُم يَذَّكَّرُونَ﴾ فى لباب السيوطى : أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : نزلت : إنّ شرت الدَّوابّ عِنْدَ الله .. فى ستة رهط من اليهود فيهم * ابن التابوت . وفى الخازن : قال المفسرون : إن رسول الله ﷺ كان عاهد يهود بنى قريظة أن لا يحاربوه ، ولا يعاونوا عليه . فنقضوا العهد . وأعانوا مشركى مكة بالسلاح على قتال رسول الله ﷺ . وأصحابه . ثم قالوا : نسينا وأخطأنا . فعاهدهم الثانية ، فنقضوا العهد أيضا . ومالؤا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق . وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله ﷺ ﴿ وهُمْ لا يَتَّقُون﴾ يعنى أنهم لا يخافون الله فى نقض العهد أى لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون ما فيه من العار والنار * وفى الغرائب قال ابن عباس : هم بنو قريظة نقضوا

عهد رسول الله ﷺ . وأعانوا عليه المشركين بالسلاح يوم بدر ، وقالوا قد نسينا . وأخطأنا ، ثم عاهدوا فنكثوا . وأعانوا عليه يوم الخندق * وقال مجاهد : نزلت فى يهود المدينة وكان زعيمهم الطاغوت كعب بن الأشرف ، وهو فيهم كأبى جهل فى مشركى مكة .* ولعل هذا القول أصحها لموافقة معناه لمدلول الآية . أما التفسير : ﴿ **إنَّ شرّ الدّواب عِنْدَ الله الّذينَ كفَرُوا** ﴾ الشر : السوء والفعل للرجل الشرير . وقوم أشرار ضد الأخيار . وفى حديث الدعاء . والخير كله بيدك والشر ليس إليك * أى لأن الشر لا يتقرب به إليك ولا يبتغى به وجهك . أو أن الشر لا يصعد إليك وإنما يصعد إليك الطيب من القول والعمل : وهذا كلام إرشاد إلى استعمال الأدب فى الثناء على الله . وفى الحديث : ولد الزناشر الثلاثة قيل : هذا جاء فى رجل بعينه كان موسوماً بالشر . قال الجوهرى : ولا يقال أشر الناس إلا فى لغة رديئة . والدابة : اسم لمادب من الحيوان على الأرض مميزة وغير مميزة . وفى التنزيل ﴿ **والله خلقَ كُلَّ دابةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنهُمْ مَنْ يمشى عَلَى بَطْنِهِ وَمِنهُمْ مَنْ يَمْشى على رجلين وَمِنهُمْ مَنْ يمْشى على أرْبَع يَخْلُقُ الله ما يشاءُ إنّ الله علَى كُلّ شيءٍ قَدِيرٌ** ﴾ أى إن شر مايدب على وجه الأرض فى حكم الله وعدله هم الكافرون الذين اجتمعت فيهم صفات :

الصفة الأولى : الإصرار على الكفر والرسوخ فيه بحيث لا يرجى إيمان جملتهم أو إيمان جمهورهم . لأنهم إما رؤساء حاسدون للرسول ﷺ معاندون له جاحدون بآياته المؤيدة لرسالته على علم منهم . وفيهم يقول سبحانه : ﴿ **يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُون أبْنَاءَهُمْ** ﴾ وإما مقلدون جاحدون لا ينظرون فى الدلائل والآيات . وقد لقبهم الله بالدواب . وهو اللفظ الذى غلب استعماله فى ذوات الأربع لافادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط . بل هم أضل من العجماوات . لأن لها منافع . وهؤلاء لا خير فيهم . ولا نفع لغيرهم منهم كما قال تعالى فى أمثالهم : ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أنَّ أكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أوْ يَعْقِلُونَ إنْ هُمْ إلّا كالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أضلُّ سبِيلاً** ﴾ لذا نفى الإيمان عنهم ﴿ **فَهُمْ لا يُؤْمِنونَ** ﴾ .

الصفة الثانية : ﴿ **الّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ..** ﴾ الآية التعبير بنقض العهد بصيغة المضارع لافادة تكرير نقض العهد منهم مرة أخرى . وقد كان النبى ﷺ عقد مع يهود المدينة عقب هجرته إليهم عهدا أقرهم فيه على دينهم ، وأمّنهم على أنفسهم وأموالهم .

فنقض كل منهم عهده وقد علمت نقض بنى قريظة العهد مرتين كما ذكره ابن عباس وغيره وقوله : ﴿ **وهُمْ لايتَّقُون** ﴾ أى لايخافون الله ولايتقونه فى نقض العهد ، ولا فيما قد يترتب عليه من قبلهم والظفر بهم . وقوله : ﴿ **فإمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ** ﴾ يعنى : فإمّا تجدن هؤلاء الذين نقضوا العهد وتظفرن بهم فى الحرب ﴿ **فَشرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ** ﴾ قال ابن عباس : معناه فنكل بهم من ورائهم * وقال سعيد بن جبير : أنذر بهم من خلفهم * وأصل التشريد فى اللغة التفريق مع اضطراب . ومعنى الآية أنك إذا ظفرت بهؤلاء الكفار الذين نقضوا العهد فافعل بهم من القتل والتنكيل ماتفرق به جمع كل ناقض للعهد حتى يخافك من وراءهم من أهل مكة واليمن ﴿ **لعلَهُمْ يذَكّرون** ﴾ أن انتقالهم ذلك يمنعهم من نقض العهد فيتعظون بما يقع لهم *

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإمّا تَخافَنّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَة فانْبِذْ إلَيْهِمْ علَى سَواءٍ إنَّ الله لَايُحبُّ الخائنين** ﴾ فى اللباب : روى أبو الشيخ عن ابن شهاب قال : دخل جبريل على رسول الله ﷺ فقال : قد وضعت السلاح . ومازلت فى طلب القوم ، فاخرج فإن الله قد أذن لك فى قريظة ، وأنزل فيهم . ﴿ **وإمَّا تَخافنَّ مِنْ قوْمٍ خيانةً ...** ﴾ الآية * وهو قول مجاهد كما فى الطبرى وغيره . ولم أر أقوالا أخرى غيره فى بقية التفاسير . ﴿ **وإمَّا تَخافَنَّ مِنْ قوْمٍ** ﴾ عاهدوك ﴿ **خِيَانَةً** ﴾ فى عهد بأمارة تلوح لك كما ظهرت من بنى قريظة والنضير ﴿ **فانْبِذْ** ﴾ اطرح عهدهم . النبذ : الطرح . وهو مجاز عن اعلامهم بأن لا عهد لهم بعد اليوم . فشبه العهد بالشيء الذى يرقى لعدم الرغبة فيه وأثبت النبذَ له تخييلاً . ومفعوله محذوف وهو عهدهم . (الشهاب) وقوله : ﴿ **على سَواءٍ** ﴾ يعنى على طريق ظاهر مستو . والمراد : لاتحاربهم قبل أن تعلمهم أنك فسخت العهد الذى بينك وبينهم حتى تكون أنت وهو فى العلم بنقض العهد سواء . فلا يتوهموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب عليهم . ﴿ **إنَّ الله لايُحبُّ الْخائنين** ﴾ إن الخيانة مبغوضة . بجميع ضروبها ، ولا وسيلة لاتقاء ضررها من الكفار إذا ظهرت أماراتها إلا بنبذ عهدهم جهرةً . روى البيهقى أن النبى ﷺ قال : «ثلاثة المسلم والكافر فيهن سواء من عاهدته فوفّى بعهده مسلما كان أو كافراً فإنما العهد لله ، ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها . مسلما كان أو كافرا . ومن ائتمنك على أمانة فأدّها إليه مسلما

كان أو كافرا » (المراغى) . وقال أهل العلم : إذا ظهرت آثار نقض العهد ممن هادنهم الإمام من المشركين بأمر ظاهر مستفيض استغنى الإمام عن نبذ العهد وإعلامهم بالحرب ، وإن ظهرت الخيانة بأمارات تلوح وتتضح له من غير أمر مستفيض فحينئذ يجب على الإمام أن ينبذ إليهم العهد ، ويعلمهم بالحرب . وذلك لأن قريظة كانوا قد عاهدوا النبى ﷺ . ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله ﷺ فحصل لرسول الله ﷺ خوْف الغدر به وبأصحابه . فههنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم على سواء ويعلمهم بالحرب . وأما إذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد ، بل يفعل كما فعل رسول الله ﷺ بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة . وهم فى ذمة رسول الله ﷺ . فلم يرعهم إلا وجيش رسول الله ﷺ بمر الظهران . وذلك على أربع فراسخ من مكة *

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها النبىُّ حَسْبُكَ الله ومَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمنينَ** ﴾ فى الواحدى : روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أسلم مع رسول الله ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً ، ثم إنَّ عمر أسلم . فصاروا أربعين ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله : ﴿ **يا أيُّها النبىُّ حَسْبُكَ الله ومَنِ اتَّبعك مِنَ المؤمنين** ﴾ وفى اللباب : وأخرج ابن أبى حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال : لما أسلم مع النبى ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة، ثم أسلم عمر نزلت ﴿ **يا أيُّها النبىُّ حَسْبُكَ الله** ... ﴾ الآية . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال : لما أسلم عمر أنزل الله فى إسلامه ﴿ **يا أيُّها النبىُّ حَسْبُكَ الله** .. ﴾ الآية * وفى مجمع الزوائد : عن ابن عباس قال : أسلم مع النبى ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة وأسلم عمر تمام الأربعين فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ **يا أيُّها النبىُّ حَسْبُكَ الله** .. ﴾ الآية قال الهيثمى : رواه الطبرانى وفيه اسحٰق بن بشر الكاهلى وهو كذاب * وعلى هذا القول فى إسلام عمر تكون الآية مكية لأنه أسلم بمكة كتبت فى سورة مدنية بأمر رسول الله ﷺ . وفى الكشاف والخازن نزلت بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال . فعلى هذا القول أراد جل جلاله بقوله : ﴿ **وَمَنِ اتّبعك من المؤمنين** ﴾ يعنى إلى غزوة بدر * وقيل : أراد بهم الأنصار . فتكون الآية نزلت بالمدينة . وقيل : أراد جميع المهاجرين والأنصار . ولا سيما من شهد منهم

بدراً أمّا التفسير: «يا أيُّها النبيُّ حَسْبُكَ الله ومَنِ اتَّبَعَك مِنَ الْمُؤْمنينَ» أي يكفيك الله ويكفى من اتبعك . أى كافيهم ما يهمهم من أمر أعدائهم وناصرهم عليهم . ونحو الآية قوله تعالى: «الّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لكُمْ فاخْشَوْهُمْ فزادَهُمْ إيماناً وقالُوا حَسْبُنَا الله ونِعْمَ الوكيلُ» وقوله تعالى: «قُلْ حَسْبِيَ الله عَلَيْهِ يتوَكّلُ الْمُتَوَكّلُون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وكَفَى بالله حَسِيباً ﴾ وإذا كان دأب المؤمنين أن يقولوا : ﴿ حَسْبُنَا الله ونِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ فأجدر بأنبيائه أن يكونوا أكمل توحيدا وتوكلا عليه من غيرهم . ولا سيما خاتم المرسلين عليه وعليهم أفضل الصلوات وأتم التسليم *

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها النبىُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ علَى الْقِتَال إنْ يكُنْ مِنكُمْ عِشْرُون صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مائتين وإنْ يكُنْ مِنكُمْ مائةٌ يغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الّذين كفَرُوا بأنّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُون * آلآنَ خَفّفَ الله عَنْكُمْ وعَلِمَ أنّ فيكُمْ ضَعْفاً فإنْ يكُنْ مِنْكُم مائةٌ صَابِرَةٌ يغْلِبُوا مائَتَيْنِ وإنْ يكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بــإذْنِ الله والله مع الصّابِرينَ ﴾

فى لباب السيوطى : أخرج اسحق بن راهوية فى مسنده عن ابن عباس قال : لما افترض عليهم أن يقاتل الواحد منهم عشرة ثقل ذلك عليهم . وشق فوضع الله عنهم إلى أن يقاتل الواحد الرجلين . فأنزل : ﴿ وإن يكُنْ منكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يغْلِبُوا مائتين .. ﴾ * قلت : وأخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لمّا نزلت «إن يكنْ منكم عِشْرون صابرونَ يغْلِبُوا مائتين» فكتُب عَلَيْهم أنْ لا يَفِرَّ واحدٌ من عشرة فقال سفيان غير مرة : أن لا يفر عشرون من مائتين ، ثم نزلت : ﴿ آلآنَ خَفّفَ الله عنكُمْ .. ﴾ الآية . فكتب أن لا يفر مائة من مائتين ، وزاد سفيان مرة . نزلت : ﴿ حرّض المؤمنين على القتال إنْ يكُنْ مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُون ﴾ قال سفيان : وقال ابن شبرمة ، وأرى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مثل هذا * سفيان : هو ابن عينية . قوله : غير مرة أراد به أن سفيان كان يرويه بالمعنى . فتارة يقول باللفظ الذى وقع فى القرآن محافظة على التلاوة وهو الأكثر وتارة يرويه بالمعنى وهو أن لا يفرَّ واحد من عشرة ، ويحتمل أن يكون اسمه باللفظين ، ويكون التأويل من غيره . وقوله : زاد

سفيان . أى أنه حدّث مرة بالزيادة ومرة بدونها . وابن شبرمة : عبد الله التابعى . قاضى الكوفة وعالمها ، مات سنة أربع وأربعين ومائة . وأخرج أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : **لما نزلت :(إنْ يكُنْ مِنكُمْ عِشْرُون صَابِرُون يغلبُوا مائِتيْن)شَقَّ ذلك على المسلمين حين فُرِضَ عليهم أنْ لا يَفِرَّ وَاحِدٌ من عشرةٍ فجاء التَّخفيف ، فقال : (الآن خفَّفَ الله عنكم وعَلِمَ أنَّ فيكم ضعْفاً فإنَّ يكن منكم مائة صابرةٌ يغلبُوا مائتينْ) قال : فلمَّا خفَّفَ الله عنهُمْ من العدّدِ نقَصَ مِنَ الصَّبْرِ بقَدْرِ ما خُفِّف عَنْهُم** ﴾ كذا روى البخارى هاتين الروايتين بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما . والآية وإن كانت بلفظ الخبر . ولكن المراد منه الأمر ، فلذلك دخلها النسخ لأنه لما شق ذلك عليهم حط الفرض إلى ثبوت الواحد للاثنين ، فهو على هذا تخفيف لا نسخ . وقال القاضى أبو بكر بن الطيب : إن الحكم إذا نسخ بعضه ، أو بعض أوصافه . أو غير عدده فجائز أن يقال إنه نسخ ، لأنه حينئذ ليس بالأول بل هو غيره * وقد نص مقاتل على أنه كان بعد بدر * والآية متعلقة بأنهم كانوا يفقهون مايقاتلون ، وهو الثواب . والكفار لا يفقهونه . وقيل : إنهم كانوا فى أول الإسلام قليلا فلما كثروا خفف . ثم هذا فى حقنا . وأما سيدنا رسول الله ﷺ فيجب عليه مصابرة العدو الكثير لأنه موعود بالنصر كامل القوة . وفى مجمع الزوائد عن ابن عباس قال : افترض عليهم أن يقاتل كل رجل منهم عشرة ، فثقل ذلك عليهم ، وشق عليهم ، فوضع عنهم إلى أن يقاتل الرجل الرجلين . فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **إنْ يكُنْ منكُمْ عِشْرون صابرون يغلبُوا مائتين** ﴾ إلى آخر الآيات . وكذا بقية الأقوال فى التفاسير لا تخرج عن هذا المعنى . أما التفسير : ﴿ **يا أيُّها النبىُّ حَرِّضَ** ﴾ التحريض فى اللغة الحث على الشىء بكثرة الترغيب وتسهيل الخطب فيه كأنه فى الأصل إزالة الحرض . وهو الهلاك . وفى المختار والتحريض على القتال الحث والاحماء عليه * أى يا أيها النبىُّ حث ﴿ **المؤمنينَ على القتال** ﴾ للكفار ورغبهم فيه وإعلاءً لكلمة الله ودفعا لعدوانهم لأن حق الدفاع عن الدين والنفس والعرض والوطن واجب قوله : ﴿ **إنْ يكُنْ مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يغلبوا مائتيْن** ﴾ منهم ، والصبر كناية عن القوة والشجاعة . أى ليصابرن الواحد العشرة ، فجماعة المؤمنين الصابرين ترجح جماعة الكافرين بهذه النسبة العشرية . سواء قلوا أو كثروا بحيث يؤمرون بقتالهم وعدم الفرار

منهم إذا بدؤهم بالقتال . والسبب فى ﴿ **ذَلِكَ بأنَّهُمْ قَوْمٌ لا يفقَهُونَ** ﴾ أى أنتم تغلبونهم بهذه النسبة . ثم نسخ لما كثروا بقوله : ﴿ **الآن خفَّفَ الله عَنكُمْ وعَلِمَ أنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً** ﴾بالضم والفتح ــ عن قتال عشرة أمثالكم ــ قال الخطيب : فإن قيل حاصل هذه العبارة المطولة أن الواحد يثبت للعشرة ، فما الفائدة فى العدول إلى هذه العبارة المطولة ؟ أجيب بأن هذا إيماء ورد على وفق الواقعة . فكان رسول الله ﷺ يبعث السّرايا . والغالب أنّ تلك السرايا ماكان ينقص عددها عن العشرين ، وماكانت تزيد على المائة . فلهذا المعنى ذكر الله هذين العددين * ﴿ **فإنْ يكُنْ مِنكُمْ مِائَةٌ صابرةٌ يغلبُوا مائتيْنِ** ﴾ منهم ﴿ **وَإنْ يكُنْ مِنكُمْ ألْفٌ يغْلِبُوا ألْفَيْنِ بإذْنِ الله** ﴾ بإرادته . وهو خبر كما تقدم بمعنى الأمر أى لتقاتلوا مثليكم ولتثبتوا لهم ﴿ **والله مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ بعونه ونصره . وبمعنى الآية قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا استعينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ إنَّ الله مع الصَّابِرينَ** ﴾ وفى هذا تحذير للمؤمنين أن يغتروا بدينهم . ويظنوا أن الإيمان وحده يقتضى النّصر والغلب ، وإن لم يقترن بالصفات اللازمة لكماله ، ومن أهمها وأعظمها الصبر المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصابروا ..** ﴾ أى كونوا أشد صبرا من عدوكم على تحمل الشدائد ، وأهوال الحرب . فإنه لا يظفر بها إلا الشجعان من الرجال المتحلين بصفتى الإيمان والصبر *

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ما كَانَ لنبيٍّ أنْ يكُونَ لَهُ أسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأرْضِ تُريدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا والله يُرِيدُ الآخِرَةَ والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلا كِتَابٌ مِنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ** ﴾ فى الواحدى : قال مجاهد : كان عمر يرى الرأى فيوافق رأيه مايجىء من السماء وإن رسول الله ﷺ استشار فى أسارى بدر ، فقال المسلمون : بنو عمك أفدهم ، قال عمر : لا يارسول الله اقتلهم . نزلت هذه الآية . ﴿ **ما كانَ لنبىّ ..** ﴾ وقال ابن عمر : استشار رسول الله ﷺ فى الأسارى أبا بكر : فقال : قومك وعشيرتك خل سبيلهم ، واستشار عمر فقال : اقتلهم ففاداهم رسول الله ﷺ . فأنزل الله تعالى : ﴿ **ما كَانَ لنبىّ أن يكُونَ لَهُ أسرى ..** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً واتَّقُوا الله إنَّ الله غَفُورٌ رحيمٌ** ﴾ * وأخرج

مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال : حدثنى عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر ، والتقوا فهزم الله المشركين ، وقتل منهم سبعون رجلاً ، وأسر سبعون رجلاً ، استشار رسول الله ﷺ أباب بكر وعمر وعلياً ، فقال أبو بكر يارسول الله : هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ماأخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله ، فيكونوا لنا عضداً ، فقال رسول الله ﷺ : ماترى ياابن الخطاب ؟ قال : قلت والله ماأرى رأى أبو بكر . ولكن أن تمكننى من ثلاثة قريب لعمر . فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان : أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله عز وجل أنه ليس فى قلوبنا موادة للمشركين . هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم ، فهوى رسول الله ﷺ ماقال أبو بكر . ولم يهو ماقلت ، فأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد قال عمر : غدوت إلى النبى ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق . وإذا هما يبكيان . فقلت يارسول الله : أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاءً بكيتُ ، وإن لم أجد بكاء تباكيت . فقال النبى ﷺ : أبكى للذى عرض على أصحابك من الفداء ، لقد عرض علىّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة : لشجرة قريبة . وأنزل الله عز وجل : **﴿ مَا كَانَ لنبىّ أنْ يكُونَ لَهُ أسْرى حتَّى يُثخن فى الْأَرضِ ... ﴾** إلى قوله : **﴿ لَوْلَا كِتابٌ مِنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فيمَا أَخذْتُمْ ـــ من الفداء ـــ عذابٌ عَظيمٌ ﴾** * وفى لباب السيوطى : وروى الإمام أحمد وغيره عن أنس قال : استشار النبى ﷺ الناس فى الأسارى يوم بدر . فقال : إن الله أمكنكم منهم ، فقام عمر بن الخطاب ، فقال يارسول الله : اضرب أعناقهم ، فأعرض ، فقام أبو بكر فقال : ترى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء ، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء فأنزل الله : **﴿ لَوْلَا كتابٌ من الله سَبَقَ لمسَّكُمْ .. ﴾** الآية * وأخرج الترمذى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : لم تحل الغنائم لأحد من قبلكم ، كانت تنزل نار من السماء فتأكلها ، فلما كان يوم بدر واختلفوا فى الغنائم قبل أن تحل لهم فأنزل الله : **﴿ لوْلَا كِتَابٌ مِنَ الله سَبَقَ لمسَّكُمْ فيمَا أخذْتُمْ عَذابٌ عظيمٌ ﴾** * وأخرج الحاكم النيسابورى فى مستدركه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : استشار رسول ﷺ فى الأسارى أبا بكر . فقال : قومك وعشيرتك

فخلّ سبيلهم ، فاستشار عمر فقال اقتلهم ، قال : ففداهم رسول الله ﷺ . فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ما كان لنبىّ أن يَكُونَ له أسرى حتَّى يثخن فى الأرض ...** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فكلُوا ممّا غنمتُمْ حلالاً طيِّباً** ﴾ قال : فلقى النبى ﷺ عمر . قال : كاد أن يصيبنا فى خلافك بلاء * قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وأقره الذهبى أنه على شرط مسلم * وفى الخازن : روى عن عبد الله بن مسعود قال : لما كان يوم بدر . وجيء بالأسرى . قال رسول الله ﷺ : ما تقولون فى هؤلاء ؟ فقال أبو بكر يارسول الله : قومك وأهلك استبقهم واستأذن بهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار ، وقال عمر يارسول الله : كذبوك وأخرجوك فدعهم نضربُ أعناقهم . مكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، ومكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، ومكن من فلان : نسيب لعمر فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وقال عبد الله بن رواحة يارسول الله : وادياً كثير الحطب ، فأدخلهم فيه ، ثم أضرمه عليهم ناراً ، فقال له العباس : قطعت رحمك . فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبهم ، ثم دخل فقال ناسٌ : يأخذ بقول أبى بكر . وقال ناس : يأخذ بقول عمر . وقال قوم : يأخذ بقول ابن رواحة ، ثم خرج رسول الله ﷺ . فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، ويشد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وأن مثلك ياأبا بكر مثل إبراهيم ، قال : فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ، ومثلك ياأبا بكر مثل عيسى قال : إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم * ومثلك ياعمر . مثل نوح . قال ربّ لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً . ومثلك ياعبد الله بن رواحة كمثل موسى قال ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . ثم قال رسول الله ﷺ : اليوم أنتم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء ، أو ضرب عنق . قال عبد الله بن مسعود : إلا سهل بن بيضاء . فإنى سمعته يذكر الإسلام فسكت رسول الله ﷺ . قال : فما أريتني في يوم أخوف أن تقع علىَّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ : إلا سهل بن بيضاء ، قال ابن عباس : قال عمر بن الخطاب فهوى رسول الله ﷺ ما قـال أبـوبكر

وأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان

يبكيان ، فقلت يارسول الله : أخبرني من أى شيء تبكي أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاءً بكيت الخ .. ماتقدم قال الخازن : أخرج هذا الحديث الترمذى مختصراً ، وقال فى الحديث قصة ، وهى هذه القصة التى ذكرها البغوى * ولاتخرج بقية الأقوال فى التفاسير عما ذكر . أما التفسير : ﴿ مَا كَانَ لنبيّ ﴾ أى ماكان ينبغى ولا يجب لنبىّ ذلك ، فلا يكون لك يامحمد ﴿ أَنْ يكون ﴾ بالتاء والياء ﴿ لَهُ أسرى ﴾ حرب ﴿ حتَّى يُثخِنَ فِي الأَرْضِ ﴾ أى يبالغ فى قتل الكفار وأنت لم تبالغ إذ ذاك فقتلهم حينئذ أولى وأليق ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ أيُّها المؤمنون ﴿ عَرَضَ الدُّنيا ﴾ حقيرها بأخذ الفداء . وسميت منافع الدنيا عرضاً لأنها لاثبات لها ، ولادوام ، فكأنها تعرض ، ثم تزول ، ولهذا سمى المتكلمون الأعراض أعراضاً لأنها لاثبات لها ، فإنها تطرأ على الأجسام ، ثم تزول عنها ﴿ والله يريدُ ﴾ لكم ﴿ الآخرةَ ﴾ أى ثوابها بقتلهم ﴿ والله عَزِيزٌ حكيمٌ ﴾ وهذا منسوخ بقوله تعالى : ﴿ فإمّا منًّا بَعْدُ وإمَّا فِداءً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا كتابٌ من الله سَبَقَ ﴾ باحلال الغنائم والأسرى لكم كما هو مكتوب ومثبت فى اللوح المحفوظ ﴿ لَمَسَّكُمْ ﴾ أصابكم ﴿ فِيمَا أَخذْتُمْ ﴾ من الفداء . فى القرطبى أنّ الفداء كان أربعين أوقية من الذهب عن كل واحد من الأسرى إلّا العباس فكان فداؤه مضاعفاً . أى ثمانين أوقية من الذهب ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً ﴾ فقد أباحها لكم خاصة ، ولم تبح إلى من كان قبلكم ... أى كلوا أكلاً حلالاً ﴿ وَاتَّقُوا الله إنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى وخافوا الله أن تعودوا ، وأن تفعلوا شيئا من قبل أنفسكم قبل أن تؤمروا به . واعلموا أن الله قد غفر لكم ماأقدمتم عليه من هذا الذنب . ورحمكم . وقيل فى قوله : ﴿ واتّقوا الله ﴾ إشارة إلى المستقبل ، وقوله : ﴿ إنَّ الله غفور رحيم ﴾ إشارة إلى الحالة الماضية .*

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها النبيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرى إنْ يَعْلَمِ الله فى قلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله غَفُورٌ رَحيمٌ)

في الواحدي: قال الكلبي: نزلت فى العباس بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبى طالب ، ونوفل بن الحرث ، وكان العباس أسر يوم بدر ، ومعه عشرون أوقية من الذهب ، كان خرج بها معه إلى بدر ليطعم بها النّاس ، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا إطعام أهل

بدر ، ولم يكن بلغته النوبة حتى أسر ، فأخذت معه ، وأخذها رسول الله ﷺ منه ، قال : فكلمت رسول الله ﷺ أن يجعل لى العشرين الأوقية الذهب التى أخذها منى من فدائى ، فأبى علىّ وقال : أما شيء خرجت تستعين به علينا فلا ، وكفلنى فداء ابن أخى عقيل بن أبى طالب عشرين أوقية من فضة ، فقلت له : تركتنى والله أسأل قريشاً بكفى ، والناس مابقيت . قال : وأين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل مخرجك إلى بدر . وقلت لها : إن حدث بى حدث فى وجهى هذا فهو لك ولعبد الله والفضل وقثم ، قال : قلت ومايدريك ؟ قال : أخبرنى الله فى ذلك . قال : أشهد أنك لصادق . وإنى قد دفعت لها ذهبا ، ولم يطلع عليه أحد إلا الله . وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، قال العباس : فأعطانى الله خيراً ممَّا أخذ منى كما قال : عشرين عبداً كلهم يضرب بمال كبير . مكان العشرين أوقية ، وأنا أرجو المغفرة من ربى * وفى المراغى : روى أبو الشيخ عن ابن عباس : أن العباس وأصحابه قالوا للنبى ﷺ : آمنا بما جئت به . ونشهد أنك رسول الله فنزل : ﴿ **إنْ يعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خيْراً** .. ﴾ الآية * وفى مجمع الزوائد : فقال العباس : فى والله نزلت حين أخبرت رسول الله ﷺ بإسلامى ، وسألته أن يحاسبنى بالعشرين الأوقية التى وجدت معى . فأعطانى بها عشرين عبداً كلهم تاجر بمال في يده مع ما أرجو من مغفرة الله جل ذكره . قال الهيثمى : فى الصحيح بعضه — رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير باختصار ، ورجال الأوسط رجال الصحيح غير ابن اسحاق وقد صرح بالسماع . وهكذا بقية الأقوال : أمّا التفسير : ﴿ **يا أيُّها النبىُّ قُلْ لِمنْ فِي أيْديكُمْ مِنَ الْأَسْرى** ﴾ وفى قراءة من الأسارى . جمع أسرى ، جمع أسير ، فهو جمع الجمع . يعنى الذين أسرتموهم يوم بدر وأخذتم منهم الفداء ، والخطاب موجه لجميعهم ﴿ **إنْ يَعْلَمِ اللهُ فِى قُلُوبِكُمْ خيْراً** ﴾ أى إيمناً وتصديقاً وإخلاصاً ﴿ **يُؤْتِكُمْ خيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ** ﴾ من الفداء ، بأن يضاعفه لكم فى الدنيا ويثيبكم في الآخرة ﴿ **ويغفِرْ لكُمْ** ﴾ ذنوبكم ﴿ **والله غَفُورٌ** ﴾ عما وقع منهم قبل إسلامهم ﴿ **رَحِيمٌ** ﴾ بهم إذ قبلهم . أو يغفر لكم ما كان من الشرك ، وما استتبعه من السيّآت والأوزار ، والله غفور لمن تاب من كفره وذنوبه ، رحيم بالمؤمنين فيشملهم بعنايته وتوفيقه ، ويعدهم للسعادة فى الدنيا والآخرة *

بِبَعْضٍ ... ﴾ الآية . وأخرج ابن سعد من طريق هشام بن عروة عن أبيه قال : أخى الرسول عليه الصلاة والسلام بين الزبير بن العوام وبين كعب بن مالك . قال الزبير : لقد رأيت كعباً أصابته الجراحة بأحد . فقلت لو مات فانقلع عن الدنيا وأهلها لورثته ، فنزلت هذه الآية . ﴿ وأولُوا الأَرْحَامِ بعضُهُمْ أوْلى بِبَعْضٍ فى كتابِ الله ﴾ فصارت المواريث بعد للأرحام والقرابات . وانقطعت تلك المواريث فى المؤاخاة * وفى الخازن : قال ابن عباس : كانوا يتوارثون بالهجرة والاخاء حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وأولُوا الأرحام .. ﴾ أى في الميراث فبيّن بهذه الآية أن سبب القرابة أقوى وأولى من سبب الهجرة والإخاء ، ونسخ بهذه الآية ذلك التوارث . وقوله : ﴿ فى كتابِ الله ﴾ فى حكم الله . وقيل : أراد به اللوح المحفوظ . وقيل : أراد به القرآن ، وهى أن قسمة المواريث مذكورة فى سورة النساء من كتاب الله ، وهو القرآن : وتمسك أبو حنيفة بهذه الآية فى توريث ذوى الأرحام . وأجاب عنه الإمام الشافعى رضى الله عنه بأنه لما قال : فى كتاب الله كان معناه فى حكم الله الذى بيَّنه فى سورة النساء ، فصارت هذه الآية مقيدة بالأحكام التى ذكرها فى سورة النساء من قسمة المواريث . وإعطاء أهل الفروض فروضهم . ومابقى فللعصبات * وفى مجمع الزوائد : عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ آخى بين أصحابه فجعلوا يتوارثون بذلك حتى نزلت : ﴿ وأولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أوْلَى ببعْضٍ ﴾ فتوارثوا بالنسب * رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح . والخلاصة : إن القريب ذا الرحم أولى من غيره من المؤمنين بولاء قريبه ، وبره ومقدم عليه فى جميع الولايات المتعلقة به كولاية النكاح وصلاة الجنازة وغيرها . وإذا وجد قريب وبعيد يستحقان البر والصلة . فالقريب أولى كما قال تعالى : ﴿ وبَالْوَالدَيْنِ إحْسَاناً وَبِذِى الْقُرْبَى والْيَتَامَى والْمسَاكِينِ ﴾ وقوله : ﴿ إنَّ الله بِكُلِّ شىءٍ عَلِيمٌ ﴾ ومنه حكمة المواريث . أى التوارث بمقتضى الإيمان والهجرة ولو بدون قرابة الذى قد نسخ بهذه الآية *

سورة براء وبيان مافيها من أسباب نزول آياتها

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وإنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وطَعَنُوا فِي دِينكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إنَّهُمْ لاأَيْمَانَ لَهُمْ لعلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ فى الواحدى : قال

ابن عباس : نزلت فى أبى سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل . وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد ، وهمُّوا بإخراج الرسول * وكذا فى الخازن . وقال مجاهد : هم فارس والروم * وقال حذيفة بن اليمان : ماقوتل أهل هذه الآية بعد ، ولم يأت أهلها * ولعل حذيفة أراد بذلك الذين يظهرون مع الدجال من اليهود ، فإنهم أئمة الكفر فى ذلك الزمان . قلت : والأول أصح أخرج الحاكم فى مستدركه عن ابن عمر رضى الله عنهما فى قوله : فقاتلوا أئمة الكفر . قال : أبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، وسهيل بن عمرو ، وهم الذين نكثوا عهد الله ، وهموا بإخراج الرسول من مكة . قال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وأقره الذهبى . وليس في التفاسير أقوال غير ماذكرت ، والأولى أن يقال إن الآية عامة لهم ولغيرهم . لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . أما التفسير : ﴿ **وإنْ نكثُوا أيْمٰانُهُمْ** ﴾ أى نقضوا عهودهم . مثل نقضهم صلح الحديبية ﴿ **من بَعْدِ عَهْدِهِمْ** ﴾ أى من بعد ماعاهدوكم عليه أن لايقاتلوكم ، ولايظاهروا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿ **وطَعَنُوا فِى دينكُمْ** ﴾ عابوه واستهزؤا به وصدوا الناس عنه . ومن ذلك الطعن فى القرآن وفى النبى ﷺ كما كان يفعل شعراؤهم الذين أهدر النبى ﷺ دماءهم ﴿ **فَقَاتِلُوا** ﴾ هم ﴿ **أئمّة الكفر** ﴾ وحملة لوائه المقدمون على غيرهم بزعمهم ، فهم الأجدر بالقتل والقتال ﴿ **إنَّهُمْ لا أيْمَانَ لَهُمْ** ﴾ أى لاعهو لهم . فهى مخادعة لسانيّة لايقصد الوفاء بها كما قال سبحانه ﴿ **يقُولُون بألسنتِهِمْ مٰاليْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾ فما أسرع ماتنقض إذا وجدت الفرصة سانحة ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُون** ﴾ عن الكفر . ومما يؤيد صحه القول الأول الآية التى تلي هذه الآية ﴿ **ألَّا تُقاتِلُونَ قَوْماً نكثُوا أيْمٰانَهُمْ وهَمُّوا بإخْرَاجِ الرَّسُولِ وهُمْ بدأوكُمْ أوّلَ مرَّة** ﴾ حيث قاتلوا خزاعة حلفاءكم مع بنى بكر فما يمنعكم أن تقاتلوهم ﴿ **أتخْشَوْنَهُمْ فالله أَحَقُّ أنْ تَخْشَوْهُ إنْ كُنْتُمْ مؤمنِين** ﴾ * وهم الذين أنزل الله فيهم ﴿ **قاتِلُوهُمْ يُعَذِبْهُمْ الله** ﴾ بقتلهم ﴿ **بأيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ** ﴾ يذلهم بالأسر والقهر ﴿ **وينْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مؤمنِينَ** ﴾ بما فعل بهم . هم بنو خزاعة . أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت فى خزاعة حين جعلوا يقتلون بنى بكر

بمكة * وأخرج عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية فى خزاعة حلفاء النبى ﷺ . يشف صدورهم من بكر . (اللباب) *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **مٰا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللهِ شاهدينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بالكُفْرِ أُولٰئِكَ حَبطَتْ أعْمالُهُمْ وفِي النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُون** ﴾ قال المفسرون : لما أسر العباس يوم بدر أقبل عليه المسلمون فعيروه بكفره بالله وقطيعته الرحم ، وأغلظ علي له القول . فقال العباس : مالكم تذكرون مساوينا ولاتذكرون محاسننا ، فقال له علي : ألكم محاسن ؟ قال : نعم . إنَّا لنعمر المسجد الحرام . ونحجب الكعبة ونسقي الحاج ، ونفك العاني . فأنزل الله عز وجل ردا على العباس : ﴿ **مٰا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أنْ يعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله** .. ﴾ الآية (الواحدي) وفي لباب السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : قال العباس حين أسر يوم بدر : إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد . لقد كنا نعمر المساجد ونسقي الحاج ونفك العاني . فأنزل الله : ﴿ **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَة الحاج** .. ﴾ الآية ومعنى نحجب الكعبة . أى نخدمها . ونفك العاني : يعني الأسير . (الخازن) وفي الغرائب : عن النعمان بن بشير ، قال كنت عند منبر رسول الله ﷺ : فقال رجل لاأبالي أن لاأعمل عملا بعد أن أسقي الحاج . وقال الآخر : ماأبالي أن أعمل عملا بعد أن أعمر المسجد الحرام ، وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم ، فزجرهم عمر . وقال : لاترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ، وذلك يوم الجمعة ، ولكني إذا صليت دخلتُ فاستفيت رسول الله ﷺ فيما اختلفتم فيه ففعل عمر فأنزل الله الآية وفيه يروى عن الحسن والشعبي أن طلحة قال : أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه . ولو أشاء بت فيه . وقال العباس وذلك بعد إسلامه : أنا صاحب السقاية والقائم عليها . وقال عليّ رضي الله عنه : ماأدري ماتقولان ! لقد صليت ستة أشهر قبل الناس ، وأنا صاحب الجهاد فنزلت : وعن ابن سيرين قال عليّ رضي الله عنه للعباس بعد أن كان أسلم : ألا تهاجر ؟ ألا تلحق بالنبي ﷺ ؟ فقال : ألست في أفضل من الهجرة. ألست اسقي حاج بيت الله واعمر المسجد الحرام . فنزلت هذه الآية . فقال العباس : ماأراني إلا تارك سقايتنا . فقال النبي ﷺ أقيموا على سقيايتكم ، فإن لكم فيها خيراً * أما

التفسير : ﴿ مٰا كَانَ للمشرِكينَ ﴾ ماصح لهم وما استقام ﴿ أنْ يَعمُروا مَسَاجِدَ الله ﴾ بالافراد والجمع : مسجد . ومساجد قراءتان سبعيتان . أى بدخوله والقعود فيه وخدمته . فإذا دخل الكافر بغير إذن مسلم عزر وإن دخل بإذنه لم يعزر لكن لابد من حاجة ، فيشترط للجواز الاذن والحاجة . ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالإذن أن النبي ﷺ شد ثمامة بن أثال إلى سارية من سواري المسجد وهو كافر ﴿ شَاهدينَ علَى أنْفُسِهِمْ بالكُفْرِ ﴾ إذ أنهم نَصبُوا أصنامهم حول البيت ، فكانُوا يطوفون عراة ، ويقولون : لا نطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصي ، وكلما طافوا بها شوطاً سجدوا لها . وقيل هو قولهم : لبيك لا شريك لك إلَّا شريك هو لك تملكه وماملك . (الكشاف) وفي الكرخي : قوله : ﴿ شاهدينَ علَى أنفسهم بالكفر ﴾ قال ابن عباس : شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام . وذلك لأن كفار قريش قد نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد ، وكانوا يطوفون بالبيت عراة كلما طافوا طوفة سجدوا للأصنام ، فلم يزدادوا بذلك إلا بعدا . وقال الحسن : إنهم لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شهادة عليهم (الخازن) زاد الكرخى : لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وماملك مع قولهم : نحن نعبد اللات والعزى * وفي الخازن : وقال السدي : شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصراني يسئل من أنت ؟ فيقول : نصراني ، واليهودي يقول يهودي ، والمشرك يقول مشرك * ﴿ أُولئكَ حَبِطَتْ أعْمَالُهُمْ ﴾ أي أعمال البر والعمارة والحجابة والسقاية وفك العناة في حال الكفر ﴿ وَفي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ ﴾ أى من مات منهم على كفره . وقوله في الآية الثانية : ﴿ أجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاج وعمَارة الْمَسْجِدِ الْحرَامِ كمَنْ آمَنَ بالله والْيَوْمِ الآخِرِ ﴾فيه حذف تقديره كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر ﴿ وجَاهَدَ فِي سبيلِ الله ﴾ أي وكجهاد من جاهد في سبيل الله : وقوله ﴿ لايَسْتَوون عِنْدَ الله ﴾ استئناف مؤكد لما علم من إبطال المساواة بالتوبيخ المستفاد بالاستفهام . أى لا يستوي الفريقان . وقوله : ﴿ والله لَايَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ تعليل في المعنى لنفى المساواة *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ياأيُّها الّذِينَ آمَنُوا لاتتَّخِذُوا آباءَكُمْ وإخوانَكُمْ أوْلِيَاءَ إنِ استحبُّوا الكُفْرَ علَى الإيمان ومَنْ يتولَّهُمْ مِنكُمْ فأُولٰئِكَ هُمُ

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **والّذِينَ كَفِرُوا بَعْضُهُمْ أوْلِيَاءُ بَعْضٍ إلَّا تَفْعَلُوهُ تكُنْ فِتْنَةٌ فى الْأَرْضِ وفَسَادٌ كبيرٌ** ﴾ فى اللباب : أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدى عن ابن مالك قال : قال رجلٌ : نورث أرْحَامَنَا المشركين ، فنزلت : ﴿ **والّذِينَ كَفَرُوا بعضُهُمْ أوْلِياءُ بَعْض** ﴾ وكذا فى الطبرى . وفيه . عن ابن عباس قال : فى مواريث مشركى أهل العهد * ولم أعثر على غير هذين القولين أما التفسير : ﴿ **والّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ** ﴾ ظاهرة لبيان الموالاة بينهم ، والغرض نهى المسلمين عن موالاتهم . وإن كانوا أقارب ، وأن يتركوا توارث بعضهم بعضا . وفيه أن المشركين واليهود والنصارى لما اشتركوا فى عداوة محمد ﷺ صارت هذه الجهة موجبة لإنضمام بعضهم إلى بعض ، وقرب بعضهم من بعض ، وإن كان كل واحد منهم فى نهاية الإنكار لصاحبه . وذلك من أدل الدلائل أن تلك العداوة ليست لأجل الدين ، ولكنها محض الحسد والعناد ، ومن جعل الولاية فى هذه الآيات بمعنى الارث استدل بذلك على أن الكفار فى التوارث على اختلاف مللهم كأهل ملة واحدة ، فالمجوسى يرث الوثنى ، والنصرانى يرث المجوسى ، واليهودى يرث النصرانى ، وبالعكس . ﴿ **بَعْضُهُمْ أوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ فى النصرة والأرث فلا إرث بينكم وبينهم ﴿ **إلّا تَفْعَلُوهُ** ﴾ أى بأن قاطعتُم المسلمين وواليتم الكفار ﴿ **تَكُنْ فِتْنَةٌ فى الأرْضِ وفَسَادٌ كبِيرٌ** ﴾ بقوة الكفر وضعف الإسلام . وعبارة المراغى : أى إن لم تفعلوا ما شرع لكم من ولاية بعضكم لبعض ، ومن تناصركم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم ، ومن الوفاء بالعهود والمواثيق مع الكفار إلى أن ينقضى عهدهم وينبذوه على سواء — يقع من الفتنة والفساد فى الأرض ما فيه أعظم الضرر عليكم بتخاذلكم الذى يقضى إلى فشلكم ، وظفر الأعداء بكم ، واضطهادكم فى دينكم بصدكم عنه كما وقع ذلك بضعفائكم بمكة قبل الهجرة *

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وأولُوا الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أوْلَى بِبَعْضٍ فى كتابِ الله إنّ الله بِكُلِّ شئٍ عليمٌ** ﴾ فى اللباب : أخرج ابن جرير عن ابن الزبير قال : كان الرجل يعاقد الرجل . ترثنى وأرثك فنزلت : ﴿ **وأولُوا الْأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أوْلى**

الظَّالمونَ ﴾ * في الواحدي : قال الكلبي : لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته : إنا قد أمرنا بالهجرة ، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه ، ومنهم من يتعلق به زوجته وعياله وولده ، فيقولون : نشدناك الله أن تدعنا إلى غير شيء فنضيع ، فيرق فيجلس معهم . ويدع الهجرة ، ونزلت فيمن تخلف بمكة ولم يهاجروا قوله تعالى : **﴿ قُلْ إنْ كانَ آباؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ وإخوانكُمْ وأزْوَاجُكُمْ وعشيرَتُكُمْ وأمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وتجارةٌ تخشوْن كَسَادَهَا ومَسَاكِنُ تَرْضوْنَها أَحَبَّ إلَيْكُمْ من الله ورسُولِهِ وجِهَادٍ في سبيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حتَّى يأتِيَ الله بأمْرِهِ والله لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾** وفي الخازن : **﴿ يا أَيُّها الّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخذُوا آباءَكُمْ وإخوانكُمْ أوْلياءَ ﴾** قال مجاهد : هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت في قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة . ثم روى ماذكره الواحدي : وفيه . وقال مقاتل : نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة . فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم . وأنزل : **﴿ يا أَيُّها الّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّخذُوا آباءَكُمْ وإخوانكُمْ أولياء ﴾** يعني بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة * وفي الكشاف : وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هي في المهاجرين خاصة . كان قبل فتح مكة ، من آمن لم يتم إيمانه إلا بأن يهاجر ويصارم أقاربه الكفرة ويقطع موالاتهم . فقالوا يارسول الله : إن نحن اعتزلنا من خالفنا فى الدين قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجارتنا . وهلكت أموالنا . وخربت ديارنا . وبقين ضائعين . فنزلت : فهاجروا . فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه ، أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق عليه ، ثم رخص لهم بعد ذلك .. وعن النبيّ ﷺ : «لا يطعم أحدكم طعم الإيمان حتى يحب فى الله ويبغض فى الله ، حتى يحب فى الله أبعد الناس ، ويبغض فى الله أقرب الناس إليه» أما التفسير : **﴿ يا أَيُّها الّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وإخْوانكُمْ أوْلياءَ ﴾** توادونهم وتنصرونهم ، في القتال ، وتظاهرون لأجهلم الكفار ، أو تطلعونهم على أسرار المؤمنين ، وما يستعدون به لقتال المشركين **﴿ إنِ اسْتَحَبُّوا ﴾** اختاروا **﴿ الكُفْرَ عَلَى الإيمانِ ﴾** فلا توالوهم فإن في ذلك قوة للمشركين على قتال المؤمنين . وكان من الموالين لهم حاطب بن بلتعة البدرى أخذته نعرة القرابة فكتب إلى مشركى مكة خفية يعلمهم بما عزم عليه النبي ﷺ من

قتالهم ليتخذ له بذلك يداً عندهم . يكافئونه عليها بحماية ما كان له عندهم من قرابة . وفى ذلك نزلت سورة الممتحنة للنهى عن موالاة أعداء الله وأعدائهم . ﴿ **وَمَنْ يتولَّهُمْ مِنْكُمْ فأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ لأنفسهم وجماعتهم المؤمنين بوضعهم الموالاة فى غير موضعها ونحو الآية قوله : ﴿ **إنّما ينهاكُمْ الله عن الّذينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وأخرجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُم وظَاهَرُوا على إخْرَاجكُمْ أنْ تولَّوْهُمْ وَمَنْ يتولَّهُمْ فأولٰئِكَ هُمُ الظَّالمونَ** ﴾ قوله : ﴿ **قُلْ إنْ كانَ آباؤُكُمْ وأبناؤُكُمْ وإخْوانكُمْ وأزْواجُكُمْ وعشيرَتُكُمْ** ﴾ أقرباؤكم . وقرىء : وعشيرتكم . وقرأ الحسن : وعشائركم ﴿ **أموالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا** ﴾ اكتسبتموها : القرفة : الكسب . وفلان يقرف لعياله : أى يكسب . والتعبير بالاقتراف يوهم التهمة باكتسابها لأن من معانى القرفة : التهمة . وفلان قرفنى أى تهمنى ، أو هو الذى أتهمه . وفي الحديث أن النبي ﷺ كان لا يأخذ بالفرق أى التهمة . وقلما يوجد كسب خال من الغش أو شبه حرام فصح عنه التعبير بالاقتراف : وقوله : ﴿ **وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا** ﴾ عدم نفادها بفراقكم لها ﴿ **وَمَساكِنُ تَرْضوْنَها** ﴾ أي تستوطنونها راضين بسكناها ﴿ **أَحَبَّ إليكُمْ مِنَ الله ورسُولِهِ** ﴾ يعني أحب إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله ﴿ **وجهادٍ في سبيله** ﴾ لإعلاء كلمته . أى إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله . ومن المجاهدة فى سبيله ﴿ **فَتَرَبَّصُوا** ﴾ أي فانتظروا ﴿ **حَتَّى يأتِيَ الله بأمْرِهِ** ﴾ يعني بقضائه ، وهذا أمر تهديد وتخويف . قال مجاهد ومقاتل : يعني بفتح مكة *

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمْ الله فِي مَواطِنَ كثيرةٍ ويَوْمَ حُنَيْنٍ إذ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ على رسُولِهِ وعلَى الْمُؤْمِنِينَ وأنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يتُوبُ الله مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ على مَنْ يَشاءُ والله غَفُورٌ رحيمٌ** ﴾ فى اللباب : أخرج البيهقي فى الدلائل عن الربيع بن أنس أنّ رجلا قال يوم حنين : لن نغلب من قلة وكانوا اثنى عشراً ألفاً . فشق ذلك على رسول الله ﷺ . فأنزل الله : ﴿ **ويَوْمَ حُنِينٍ إذْ أعجبتكُمْ كَثْرَتكُمْ ...** ﴾ وحنين وادٍ بين مكة والطائف . كانت فيه الوقعة بين المسلمين . وهم اثنا عشر ألفاً الذين حضروا

فتح مكة منضماً إليهم ألفان من الطلقاء . وبين هوزان وثقيف ، وهم أربعة آلاف فيمن ضامنهم من أمداد سائر العرب . فكانوا الجم الغفير ، فلما التقوا قال رجل من المسلمين : لن نغلب اليوم من قلة . فساءت رسول الله ﷺ . وقيل : قائلها رسول الله ﷺ . (وهذا بعيد) وقيل : أبو بكر الصديق رضي الله عنه . (الكشاف) قلت : وفي شرح المواهب، أن الكفار كانوا أكثر من عشرين ألفاً . وقتل من المسلمين أربعة . ومن المشركين أكثر من سبعين * وفى الخازن : فلما التقى الجمعان . قال رجل من الأنصار يقال له : سلمة بن سلامة بن رقيش . لن نغلب اليوم من قلة . فساء رسول الله ﷺ كلامه . ووكلوا إلى كلمة الرجل . وفي رواية : فلم يرض الله قولهم ووكلهم إلى أنفسهم . وذكر ابن الجوزي عن سعيد بن المسيب أن القائل لذلك أبو بكر الصديق . وما فى الكشاف والطبري من نسبتها إلى رسول الله ﷺ بعد لأنه ﷺ كان فى جميع أحواله متوكلًا على الله عزّ وجلّ لا يلتفت إلى كثرة عدد ، ولا إلى غيره . بل نظره إلى ما يأتي من عند الله عز وجل من النصر والمعونة . قالوا : فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم المشركون . وخلوا عن الذراري ، ثم تنادوا : ياحماة السواد اذكروا الفضائح فتراجعوا وانكشف المسلمون . أخرج الشيخان عن أبى اسحق قال : جاء رجل إلى البراء فقال : أكنتم وليتم يوم حنين ياأبا عمارة ؟ فقال : أشهد على نبى الله ﷺ ماولى ولكنه انطلق أخفاء من الناس وحسر إلى هذا الحى من هوزان ، وهم قوم رماة ، فرموهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد ، فانكشفوا فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن حرب يقود به بغلته ، فنزل ودعا واستنصر ، وهو يقول : « أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب . اللهم أنزل نصرك » * زاد أبو خيثمة ثم صفهم . قال البراء : كنا والله إذا احمر البأس نتقى به وإن الشجاع منا للذي يحاذي به . يعني النبي ﷺ (والصحيح) ولمسلم عن أبى إسحاق : قال رجل للبراء بن عازب . ياأبا عمارة : فررتم يوم حنين ؟ قال : لا والله ماولّى رسول الله ﷺ . ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفاؤهم حسراً ليس عليهم سلاح ، أو كثير سلاح . فلقوا قوماً رماةً لا يكاد يسقط لهم سهم : جمع هوازن وبنى نصر ، فرشقوهم رشقاً مايكادون يخطئون . فأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ وهو على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب

يقود به .. الحديث . أما التفسير: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمْ اللهُ فى مواطن ﴾ للحرب ﴿ كثيرةٍ ﴾ كبدر وقريظة والنضير ، وهو تذكير للمؤمنين بنعمه عليهم ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ حنيْنٍ ﴾ وادٍ بين مكة والطائف بينه وبين مكة ثمانية عشر ميلاً كما في الخازن : أي يوم قتالكم فيه ، هواذن . وذلك في شوال سنة ثمان . وهوازن هم قبيلة حليمة السعديّة ﴿ إذْ أعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ فاقتتلوا قتالاً شديداً . وأدركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة . وزلّ عنهم أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود . فانهزموا حتى بلغ فلّهم مكة ، وبقى رسول الله ﷺ وحده ، وهو ثابت في مركزه لا يتحلحل ليس معه إلّا عمه العباس رضي الله عنه آخذٌ بلجام دابته . وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب آخذ بركاب دابته . وقال ﷺ للعباس : وكان صبياً ، وهو دليل على الشجاعة . صيح بالناس . فنادى الأنصار فخذاً فخذاً ، ثم نادى ياأصحاب الشجرة : فكروا عنقاً واحداً . وهم يقولون : لبيك لبيك . ونزلت الملائكة عليهم البياض على خيل بلق . فنظر رسول الله ﷺ إلى قتال المسلمين . فقال : هذا حين حمى الوطيس ، ثم أخذ كفًّا من التراب فرماهم به . ثم قال : انهزموا ورب الكعبة . فانهزموا . قال العباس : لكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يركض خلفهم على بغلته . ويقول : أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب . وهذه شهادة صدق على تناهى شجاعته ﷺ ورباطة جأشه ، وما هي إلّا آيات بينات من آيات النبوة . وقوله : ﴿ فَلَمْ تُغنِ عنْكُمْ شَيْئاً ﴾ أى لم تدفع عنكم الكثرة شيئاً من هزيمتكم ﴿ وضَاقَتْ عليكُمْ الْأَرْضُ بمَا رَحُبَتْ ﴾ ما مصدرية . والباء بمعنى مع أي مع رحبها وسعتها . أي لا تجدون موضعاً تستصلحُونه لهربكم إليه ونجاتكم لفرط الرعب . فكأنها ضاقت عليكم ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ ﴾ منهزمين لا تلوُون على أحدٍ ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سكينَتَهُ ﴾ بعد الهزيمة . السكينة الطمأنينة والأمنة . وذلك أن الإنسان إذا خاف رجف فؤاده . فلا يزال متحركاً حتى يأمن ويطمئن فيسكن فؤاده وإنزالها « على رسوله وعلى المؤمنين » كناية عن الأمن والظفر وهى رحمة من الله تعالى ينصر بها عباده . وفى حديث عليّ رضي الله عنه وبناء الكعبة : فأرسل الله إليه — إلى ابراهيم عليه السلام — السكينة ، وهي ريحٌ خجوجٌ . أي سريعة المرّ ، وفيها أقوال كثيرة في شكلها أضربت عنها لأنها لا يطمئن إلى صحتها ، وروى عن ابن مسعود أنه قال : السكينة

مغنم ، وتركها مغرمٌ * قيل : أراد بها الرحمة . ولهذا قال بعضهم : السكينة الرحمة . وقيل : هي النصر . وقيل : هي الوقار . قال الخازن : إنما كان إنزال السكينة على المؤمنين لأنّ الرسول ﷺ كان ساكن القلب ليس عنده اضطراب كما حصل للمؤمنين من الهزيمة والاضطراب فى هذه الواقعة ، ثم منّ الله عليهم بإنزال السكينة عليهم حتى رجعوا إلى قتال عدوهم بعد الهزيمة . ورسول الله ﷺ ثابت لم يفر * قلت : ولماذا لايكون اضطراب قلب النبى ﷺ خوفا على المؤمنين لما انهزموا من إنزال العقوبة بهم ؟ كيف لاوقد توعد الله الفارين بالغضب وسوء المصير . وقد ذكر الله تعالى إنزالها على رسوله ، وعلى المؤمنين . والواو تقتضي التشريك في الحكم . ودلالته على التخصيص ، فدل على ماقلته إن شاء الله تعالى . وذكر تقديم لفظ الرسول للاعتناء به ، وعُلوّ مرتبته . فهو جدير بإنزال السكينة عليه والمؤمنون تبع له ﴿ **وما أرْسَلْنَاكَ إلَّا رحمةً لِلْعَالَمينَ** ﴾ وقيل : إنزال السكينة كانت على الرسول ﷺ وعلى من ثبت معه من المؤمنين حين وقع الهرب ﴿ **وأنزَلَ جُنُوداً** ﴾ يعني الملائكة ، وكانوا ثمانية آلاف ، وقيل خمسة آلاف . وقيل : ستة عشر ألفاً . وقد قيل : إن الكفار كانت تراهم . في المواهب ، وروى أبو جعفر بن جرير بسنده عن عبد الرحمن عن رجل كان في المشركين يوم حنين ، قال : لمّا التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاةٍ ، فلما لقيناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهيا إلى صاحب البغلة البيضاء ، فإذا هو رسول الله ﷺ . قال : فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسانٌ . فقالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا . فانهزمنا وركبوا أكتافنا * وفي سيرة الدمياطي : قال : كان سيما الملائكة يوم حنين عمائم حمر أرخوها بين أكتافهم * وروى أن رجلاً من بنى النضير قال للمؤمنين بعد القتال : أين الخيل البلق ، والرجال عليهم ثيابٌ بيضٌ ؟ ماكنا نراكم إلا كهيئة الشامة . وماقتلنا إلا بأيديهم . فأُخبروا بذلك النبي ﷺ . فقال : تلك الملائكة . (الخطيب) وفي هذا دلالة على أن الملائكة قاتلت يوم حنين كما قاتلت يوم بدر . ولا صحة لقول من قال : إن نزولهم يوم حنين كان لتقوية قلوب المسلمين ، وإن كانوا لا يرونهم . وقوله : ﴿ **وَعَذَّبَ الّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ بالقتل والأسر لستة آلاف من نسائهم وصبيانهم . ولم تقع غنيمة أعظم من غنيمتهم . فقد كان فيها من الإبل على

ماذكره أصحاب السير اثنا عشر آلفاً . ومن الغنم مالا يحصى عدداً . ومن الأسر ماسمعته ، وكان فيها غير ذلك ﴿ **وذَلِكَ جَزَاءُ الكَافرينَ** ﴾ الذي يستحقونه في الدنيا ، ثم إذا أفضوا إلى الآخرة كان عذابهم أشدُّ وأنكى . وقوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ يَتُوبُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ علَى مَنْ يَشَاءُ** ﴾ فيهديه إلى الإسلام كبقية هوازن ، أسلموا وقدموا على رسول الله ﷺ تائبين ، فمن عليهم نبي الرحمة بإطلاق سبيلهم . ﴿ **والله غَفُورٌ** ﴾ لمن تاب حتى محاربة الله ورسوله ﴿ **رَحيمٌ** ﴾ كثير الرحمة بعباده . في الكشاف والخطيب وغيرهما . روى أن أناساً منهم جاؤا فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام . وقالوا له يارسول الله : أنت خير الناس . أوبرُّ النَّاس . وقد سبى أهلونا وأولادنا . وأخذت أموالنا . فقال : إن عندي ماترون . إن خير القول أصدقه . اختاروا إما ذراريكم ونساءكم . وإما أموالكم . قالوا : ماكنا نعدل بالأحساب شيئا . والحسب مايعده الإنسان من مفاخر آبائه . كنوا بذلك عن اختيار الذرارى والنساء على استرجاع الأموال . لأن تركهم في ذل الأسر يفضي إلى الطعن في أحسابهم ، فقام رسول الله ﷺ . فقال : إنّ هؤلاء جاؤا مسلمين . وإنّا خيرناهم بين الذراري والأموال ، فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً . فمن كان بيده شيء . وطابت نفسه أن يرده . فشأنه . ومن لا . فليعطنا . وليكن قرضاً علينا . أي بمنزلة القرض حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه . فقالُوا : رضينا وسلمنا ، فقال : إني لاأدري لعلّ فيكم من لا يرضي فمروا عرفاءكم فليرفعوا إلينا أيَّ عليه رضوا ، فرفعت إليه العرفاء أنهم قد رضوا *

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّما الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هذا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان المشركون يجيئون إلى البيت . ويجيئون معهم بالطعام يتجرون فيه . فَلَمَّا نهوا عن أن يأتُوا البيْتَ قال المسلمون : أين لنا الطعام ؟ فأنزل الله ﴿ **وإنْ خفتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغنيكُمْ الله من فضلِه** .. ﴾ الآية * وفي الخطيب : ولمّا أمر رسول الله ﷺ عليًا أن يقرأ على المشركين : مشركي مكة . أوّل براءة ، وينبذ إليهم عهدهم . وأن الله برىء من المشركين ورسوله ، قال أناسٌ ياأهل مكة : ستعلمون ماتلقون من الشدة لانقطاع

السبيل ، وفقد الحمولات ، وذلك أن أهل مكة كانت معايشهم من التجارات ، وكان المشركون يأتون مكة بالطعام ، ويتجرون ، فلمّا امتنعوا من دخول الحرم خاف أهل مكة الفقر ، وضيق العيش ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ . فأنزل الله تعالى : ﴿ **وإنْ خِفْتُمْ عيلة** ﴾ أي فقر وحاجة ، بانقطاع تجارتهم عنكم ، فسوْف يغنيكم الله من فضله . أي من عطائه وتفضله من وجه آخر . وقد أنجز الله تعالى وعده بأن أرسل عليهم المطر مدراراً فكثر خيرهم ، وأسلم أهل جدة وصنعاء وتباله وجرش ــ بضم الجيم وفتح الراء ــ قريتان من قرى اليمن . وقيد ذلك بقوله : إن شاء الله ، لتنقطع الآمال إليه تعالى ، ولينبه على أنه متفضّل في ذلك ، وأن الغني الموعود به يكون لبعض دون بعض ، وفي علم دون علم * وفي الكشاف : وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف ، وقال : من أين تأكلون ؟ فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغناهم من فضله بالجزية * وفي الطبري نحو ماذكر . وفيه قال عبيدة بن سليمان : سمعت الضحاك يقول في قوله : ﴿ **وَإِنْ خِفْتُم عيْلة فَسَوْفَ يغنيكُمْ الله من فَضْلِهِ** ﴾ كان ناس من المسلمين يتألفون العير . فلما نزلت براءة بقتال المشركين حيثما ثقفوا . وأن يقعدوا لهم كل مرصد . قذف الشيطان في قلوب المؤمنين : فمن أين تعيشون ، وقد أمرتُم بقتال أهل العير . فعلم الله من ذلك ماعلم . فقال : أطيعُوني وامضوا لأمري وأطيعوا رسولي فإني سوف أغنيكم من فضلي . فتوكل الله لهم بذلك * وهكذا بقية الأقوال لاتخرج في معناها عمّا ذكرت : أما التفسير : ﴿ **يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا إنّما المشركون نَجَسٌ** ﴾ قذر لخبث باطنهم كذا قال الجلال ، **فهو** مجاز عن خبث الباطن ، وفساد العقيدة ، **فهو** استعارة لذلك . وفي الخازن : قيل : أراد بالمشركين عبدة الأصنام وغيرهم من اليهود والنصارى . والنجس الشيء القذر من الناس وغيرهم . وقيل : النجس الشيء الخبيث ، وأراد بهذه النجاسة نجاسة الحكم لانجاسة العين سموا نجسا على الذم لأن الفقهاء اتفقوا على طهارة أبدانهم : وقيل : هم أنجاس العين كالكلب والخنزير حتى قال الحسن بن صالح من مس مشركا فليتوضأ ، ويروى هذا عن الزيدية من الشيعة . قال الخازن : والقول الأول أصح ، وقال قتادة : سماهم نجساً لأنهم يجنبون فلا يغتسلون ، ويحدثون فلا يتوضئون * قلتُ والنَّجسُ والنِّجْسُ والنَّجَسُ : القذر من الناس ومن كل شيء

قذرته . ولاشك أن المشركين أنجاس أخباث ، وفي الحديث : أن النبي ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال : «اللهم إن أعوذ بك من النجس الرجس الخبيث المخبث» قال : وجارية ملبونة ومنجس * وطارقة في طرقها لم تسدد . يصف أهل الجاهلية أنهم بين متكهن وحداس ، وراق ومنجس ، ومتنجم حتى جاء النبي ﷺ ، والعامة تقول للمرائى الماكر المخادع نجس . أي لاأمانة له فيجتنبون مجالسته ومحادثته . وقوله : ﴿ **فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ** ﴾ أي يمنعون من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام ، ويؤكد هذا قوله تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الحرامِ** ﴾ أراد به الحرم لأنه أسرى به ﷺ من بيت أم هانىء . في الخطيب : قال العلماء : وجملة بلاد الإسلام في حق الكفار على ثلاثة أ قسام : أحدها : الحرم فلا يجوز للكافر أن يدخله بحال ذميًّا كان أم مستأمناً لظاهر هذه الآية . وإذا جاء رسول من دار الكفر إلى الإمام . والإمام في الحرم لايأذن له في دخول الحرم . بل يخرج إليه الإمام ، أو يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم . وجوز أبو حنيفة وأهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم . القسم الثاني من بلاد الإسلام الحجاز فيجوز للكافر دخوله بإذن . ولا يقيم فيه أكثر من ثلاثة أيام لما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لاأدع إلا مسلما وأجلاهم عمر في خلافته ، وأجله لمن قدم منهم تاجراً ثلاثة . وجزيرة العرب من أقصى عدن إلى ريف العراق في الطول . وأما في العرض فمن جدة وماوالاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام . والقسم الثالث . سائر بلاد الإسلام يجوز للكافر أن يقيم فيها بذمة . أو أمان لكن لايدخل المساجد إلا بإذن مسلم لحاجة * والمراد فلا يحجوا ولا يعتمروا كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿ **بَعْدَ عَامِهِمْ هذا** ﴾ بعد حج عامهم هذا ، وهو غام تسع من الهجرة حين أمر أبو بكر على الموسم ، ويدل عليه قول عليّ كرّم الله وجهه حين نادى ببراءة: ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك . وقد علمت مذهب أبي حنيفة . وعند الشافعي : يمنعون من المسجد الحرام خاصة . وعند مالك : يمنعون منه ومن غيره من المساجد ، وقوله : ﴿ **وإنْ خِفْتُمْ عيلةً** ﴾ أي فقراً بسبب منع المشركين من الحجّ . ماكان لكم في قدومهم عليكم من الإرفاق والمكاسب ﴿ **فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله**

مِنْ فضلِهِ ﴾ قد تقدم تفسير ذلك .. وقوله : ﴿ إنْ شاءَ ﴾الله . واشتراط المشيئة في الغنى المطلوب ليكون الإنسان دائم التضرع والابتهال إلى الله تعالى في طلب الخيرات ودفع الآفات وأن يقطع العبد أمله من كل أحد إلا من الله تعالى . وقد حقق الله عز وجل لهم مشيئته ، ونحو الآية : ﴿ لتدخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إنْ شاءَ الله آمنِين ﴾ وقد دخلوه آمنين . ﴿ إنَّ الله عَلِيمٌ ﴾ بمصالحكم فيعطيكم من الرزق مالا يطغيكم ولا يشغلكم عن واجباتكم الدينية ﴿ حكيمٌ ﴾ أي لا يفعل إلا عن حكمة وصواب فمكن حكمته أنه منع المشركين من دخول الحرم وأوجب الجزية على أهل الكتاب *

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وقَالتِ الْيَهُودُ عَزَيْرٌ ابنُ الله وقَالتِ النَّصارى الْمَسيحُ ابنُ الله ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بأفواهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ الله أنّى يُؤْفَكُونَ ﴾ في اللباب : أخرج بن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم . ونعمان بن أوفى ، وشاش بن قيس ، ومالك بن الصيف ، فقالوا : كيف نتبعك . وقد تركت قبلتنا ، وأنت لاتزعم أنّ عزيراً ابن الله ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ وقَالتِ اليهودُ ... ﴾ وكذا في الخازن وفيه قال عبيد بن عمير إنما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء ، وهو الذي قال : إن الله فقير ونحن أغنياء * ... وروى عطية العوفي عن ابن عباس أنه قال : إنما قالت اليهود ذلك من أجل أن عزيراً كان فيهم ، وكانت التوراة عندهم ، والتابوت فيهم ، فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فرفع الله سبحانه وتعالى عنهم التابوت ، وأنساهم التوراة ، ونسخها من صدورهم ، فدعا الله عزيرٌ ، وابتهل إليه أن يردّ إليه التورا ، فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله عز وجل . نزل نورٌ من السماء ، فدخل جوفه فعادت إليه ، فأذن في قومه ، وقال ياقوم : قد آتاني الله التوراة وردها إلى فعلقوا به يعلمهم ثم مكثوا ماشاء الله ، ثم إنّ التابوت نزل بعد ذهابه منهم . فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان يعلمهم عزيز على ما في التابوت فوجدوه مثله ، فقالوا : ماأوتي عزير هذا إلا لأنه ابن الله * وقال الكلبي : إن بختنصر لما عزل بيت المقدس ، وظهر على بني إسرائيل ، وقتل من قرأ التوراة كان عزير إذ ذاك صغيراً . فلم يقتله لصغره ، فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله لهم عزيراً ليجدد لهم التوراة . ويكون لهم آية بعد ماأماته الله

مائة سنة . قال : فأتى ملك بإناء فيه ماء فشرب منه فمثلت له التوراة في صدره . فلما أتاهم ، قال : أنا عزير ، فكذبوه ، قالوا : إن كنت كما تزعم فامل علينا التوراة ، فكتبها لهم من صدره . ثم إن رجلاً منهم قال : إن أبي حدثني عن جدي أن التوراة جعلت في خابية ودفنت في كرم . فانطلقوا معه حتى أخرجوها ، فعارضوها بما كتب لهم عزير . فلم يجدوه غادر حرفاً . فقالوا : إن الله لم يقذف التوراة في قلب عزير إلّا أنه ابنه . ومنذ ذلك قالت اليهود عزير ابن الله * فعلى هذين القولين . يكون هذا القول فاشياً في اليهود جميعاً . ثم إنه انقطع واندرس . فأخبر الله تعالى به عنهم . وأظهره عليهم ، ولا عبرة بإنكار اليهود ذلك . فإن خبر الله عز وجل أصدق وأثبت من إنكارهم . وأما قول النصار : المسيح ابن الله . فكان السبب فيهم أنهم كانوا على الدين الحق بعد رفع عيسى عليه السلام احدى وثمانين سنة يصلون إلى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع بينهم وبين اليهود حرب ، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له : بولص ، قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ، ثم قال بولص لليهود : إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا . فنحن مغلوبون إن دخلنا النار ودخلوا الجنة فإني سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا ، ثم إنه عمد إلى فرس كان يقاتل عليه . فعرقبه وأظهر الندامة والتوبة . ووضع التراب على رأسه . ثم أنه أتى إلى النصارى . فقالوا له : من أنت ؟ قال : أنا عدوكم بولص . فقد نوديت من السماء أنه ليس لك توبة حتى تتنصر ، وقد تبت وأتيتكم ، فأدخلوه الكنيسة ونصروه ، وأدخلوه بيتا منها لم يخرج منه سنة حتى تعلم الإنجيل ، ثم خرج وقال : قد نوديت إن الله قد قبل توبتك . فصدقوه وأحبوه ، وعلا شأنه فيهم ، ثم إنه عمد إلى ثلاثة رجال : اسم الواحد منهم نسطور ، والآخر يعقوب ، والآخر ملكان . فعلم نسطور أن عيسى ومريم (الإلٰه) ثلاثة . وعلم يعقوب أن عيسى ليس بإنسان ، ولكنه ابن الله ، وعلم ملكان أنّ عيسى هو الله لم يزل ، ولايزال ، فلما استمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم في الخلوة ، وقال له أنت خالصتي ، وادع الناس لما علمتك ، وأمره أن يذهب إلى ناحية من البلاد ، ثم قال لهم : إني رأيت عيسى في المنام وقد رضي عني ، وقال لكل واحد منهم : إني سأذبح نفسي تقربًا إلى عيسى ، ثم ذهب إلى المذبح فذبح نفسه ، وفرق أولئك الثلاثة ، فذهب واحد

إلى الروم ، وواحد إلى بيت المقدس ، والآخر إلى ناحية أخرى ، وأظهر كل واحد مقالته . ودعا الناس إليها ، فتبعه على ذلك طوائف من الناس ، فتفرقوا واختلفوا . ووقع القتال ، فكان ذلك سبب قولهم : المسيح ابن الله . وقال الإمام فخر الدين الرازي بعد أن حكى هذه الحكاية . قال : والأقرب عندي أن يقال لعله ذكر لفظ الابن في الانجيل على سبيل التشريف . كما ورد لفظ الخليل في حق ابراهيم على سبيل التشريف . فبالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية ، والجهال قبلوا ذلك منهم ، وفشا هذا المذهب الفاسد في اتباع عيسى عليه السلام . والله أعلم بحقيقة الحال . ــ نقلاً من الخازن ــ من التفسير الكبير ــ وفي الكشاف : وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام . فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم ، فخرج عزير وهو غلام يسيح في الأرض . فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال له : إلى أين تذهب ؟ قال : أطلب العلم فحفظ التوراة . فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفاً فقالوا : ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلا لأنه ابنه . قال : والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية تليت عليهم فما أنكروا ولا كذبوا مع تهالكهم على التكذيب . ثم قال : فإن قلت : كل قول يقال بالفم ، فما معنى قوله : ﴿ **ذلك قولهم بأفْواهِهِمْ** ﴾ ؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يراد أنه قول لا يعضده برهان فما هو إلا لفظ يقومون به فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم لا تدل على معانٍ . وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم . ومعناه مؤثر في القلب . ومالا معنى له بالفم لا غير . والثاني : أن يراد بالقول المذهب كقولهم قول أبي حنيفة . يريدون مذهبه . ومايقول به . كأنه قيل : ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم ، لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة في انتفاء الولد * وقوله : ﴿ **يُضَاهِئُونَ** ﴾ قال ابن عباس : يشابهون . والمضاهات المشابهة ، وقال مجاهد : يواطئون ، وقال الحسن : يوافقون ﴿ **قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ** ﴾ قال قتادة والسدى : معناه ضاهت النصارى قول اليهود من قبلهم . فقالوا : المسيح ابن الله كما قالت اليهود عزير ابن الله . وقال مجاهد معناه يضاهون قول المشركين من قبل لأن المشركين كانوا يقولون : الملائكة بنات الله . وقال الحسن : شبه الله كفر

اليهود والنصارى بكفر الذين مضوا من الأمم الخالية الكافرة * وقال القتيبي : يريد أنّ من كان في عصر النبي ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ما قال أوّلهم * وقوله : ﴿ **قَاتَلَهُمْ اللهُ** ﴾ قال ابن عباس : لعنهم الله * وقال ابن جريج : قتلهم الله * وقيل : ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى التعجب . أي حق أن يقال لهم هذا القول تعجبا من بشاعة قولهم كما يقال لمن فعل فعلا يتعجب منه . قاتله الله ما أعجب فعله . ﴿ **أَنَّى يُؤْفكُونَ** ﴾ كيف يصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل ، وإقامة الحجة بأن الله واحد أحدّ فجعلوا له ولداً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً *

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنّ كثيراً مِنَ الأَحْبَارِ والرُّهْبَان لَيَأْكُلُونَ أمْوَالَ النَّاسِ بالْبَاطِلِ ويَصُدُّونَ عن سبيلِ الله** ﴾ في الواحدي : نزلت في العلماء والقراء من أهل الكتاب كانوا يأخذون الرشا من سفلتهم ، أوهي المآكل التي كانوا يصيبونها من عوامتهم * في الخازن : واختلفوا في السبب الذي من أجله أكلوا أموال الناس بالباطل . فقيل : إنهم كانوا يأخذون الرشا من سفلتهم في تخفيف الشرائع والمسامحة في الأحكام . وقيل : إنهم كانوا يكتبون كتبا يحرفونها ويبدلونها ، ويقولون هذه من عند الله . ويأخذون بها ثمناً قليلاً . وهي المآكل التي كانوا يصيبونها من سفلتهم على تغيير نعت النبي ﷺ وصفته في كتبهم ، لأنهم كانوا يخافون لو آمنوا به وصدقوه لذهبت عنهم تلك المآكل . وقيل : إن التوراة كانت مشتملة على آيات دالة على نعت النبي ﷺ . وكان الأحبار والرهبان يذكرون في تأويلها وجوهاً فاسدة باطلة ، ويحرفون معانيها طلباً للرياسة ، وأخذ الأموال ، ومنع الناس عن الإيمان به . وذلك قوله : ﴿ **ويصدُّونَ عن سَبِيلِ الله** ﴾ يعني ويمنعون الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ . والدخول في دين الإسلام * والآية شروع في بيان حال الأحبار والرهبان في إغوائهم لأراذلهم أثر بيان سوء حال الأتباع في اتخاذهم لهم أرباباً يطيعُونهم في الأوامر والنواهي ، واتباعهم فيما يأتون ومايذرون . والأحبار من اليهود والرهبان من النّصارى . وفي قوله : ﴿ **إنَّ كثير من الأحبار والرهبان** ﴾ دليل على الأقل من الأحبار والرهبان لم يأكلوا أموال الناس بالباطل ، ولعلهم الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ . وعبر عن أخذ الأموال بالأكل في قوله : ﴿ **ليأكُلونَ أموالَ النَّاسِ بالباطِلِ** ﴾ وأن المقصود الأعظم من

جمع المال الأكل فسمى الشيء باسم ماهو أعظم مقاصده *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهبَ والْفِضَّةَ ولَا يُنْفِقُونَها فِي سبيلِ الله فبشِّرْهُمْ بعذابٍ أليم * يَوْمَ يُحمَى عَلَيْهَا فِي نَار جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بها جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظهُورُهُمْ هَذَا ماكَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ماكنْتُم تَكْنِزُونَ** ﴾ في الواحدي : قال وهب بن زيد ، مررت بالربذة فإذا أنا بأبي ذر . فقلت له : ماأنزلك منزلك هذا ؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية : ﴿ **والّذِينَ يكنزون الذهبَ والفضة ولاينفقونها في سبيل الله ..** ﴾ فقال معاوية : نزلت في أهل الكتاب . فقلت : نزلت فينا وفيهم . وكان بيني وبينه كلام في ذلك . وكتب إلى عثمان يشكوني . وكتب إلى عثمان أن أقدم المدينة . فقدمتها ، وكثر الناس عليَّ حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك . فذكرت ذلك لعثمان فقال : إن شئت تنحيْت وكنت قريبا . فذلك الذي أنزلني هذا المنزل . ولو أمروا عليَّ حبشيا لسمعت وأطعت . رواه البخاري عن قيس ، عن جرير عن حصين . قال الواحد : والمفسرون أيضاً مختلفون ، فعند بعضهم أنها في أهل الكتاب خاصة . وقال السدي : هي في أهل القبلة * وقال الضحاك : هي عامة في أهل الكتاب والمسلمين * وقال عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **والّذِينَ يكنزونَ الذَّهبَ والفضّة ..** ﴾ قال : يريد المؤمنين * وقال ثوبان : لما نزلت : ﴿ **والّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهبَ والفضّة** ﴾ قال رسول الله ﷺ : تباً للذهب والفضة . قالوا يارسول الله : فأي المال نكنز ؟ قال : « قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً ، وزوجة صالحة » . وفي وراية : «وزوجة تعين أحدكم على دينه» وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والحاكم عن ابن عباس : قال لما نزلت هذه الآية : ﴿ **والّذِينَ يكنزونَ الذَّهبَ والفضّة** ﴾ كبُر ذلك على المسلمين وقالوا : مايستطيع أحد منا ألا يبقي لولده مالاً بعده ، فقال عمر : أنا أفرج عنكم ، فانطلق وتبعه ثوبان فأتى النبي ﷺ فقال يانبي الله : إنه كبر على أصحابك هذه الآية . فقال : إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها مابقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث عن أموال تبقى بعدكم . فكبر عمر رضي الله عنه ، ثم قال له النبي ﷺ : « ألا أخبرك بخير مايكنز ؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها الرجل سرته ، وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته » أما التفسير : ﴿ **والّذِينَ**

يكنزونَ الذَّهبَ والفضّة ﴾ أصل الكنز في اللغة . جعل المال بعضه على بعض وحفظه . ومال مكنوز أي مجموع * والكنز غالباً ما يجمع من الذهب والفضة ويدفن في الأرض . والذين يكنزون الأحبار والرهبان . لما وصفهم بالحرص الشديد أراد أن يصفهم بالامتناع من إخراج الواجبات عن أموالهم هذا على قول . وقيل : المقصود مانعوا الزكاة من المسلمين . واختلف علماء الصحابة في هذا الكنز المذموم . فقال الأكثرون : هو المال الذي لم تؤد زكاته : عن عمر بن الخطاب قال : مالٌ أديت زكاته فليس بكنز * وقال ابن عمر : كل ماأديت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين . وكل مالم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض * وقال جابر : إذا أخرجت الصدقة من مالك فقد أذهبت عنه شره وليس بكنز * وقوله : **﴿ ولا ينفقونها في سبيل الله ﴾** قال ابن عباس : يريد الذين لا يؤدون زكاة أموالهم * قال القاضي : ويندرج فيه سائر الحقوق الكفارات والديون ونفقة الحج . والجهاد والانفاق على الأهل والعيال . وضمان المتلفات وأرش الجنابات * وقال الأقلون : كل مال كثير فهو مذموم سواء أديت زكاته أو لم تؤد . وحجة الأولين قوله تعالى : **﴿ لها ما كَسَبَت ولا يسألكُمْ أموالكم ﴾** ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « كل امرىء أحق بكسبه . نعم المال الصالح للرجل الصالح . ماأديت زكاته فليس بكنز . وإن كان باطناً ، ومابلغ أن يزكى ولم يزك فهو كنز وإن كان ظاهرا » * وقد كان فى عهد رسول الله ﷺ جمع من الأغنياء كعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وكان يعدهم من أكابر المؤمنين ، وقد ندب إلى اخراجَ الثلث ، أو الأقل في المرض . ولو كان جمع المال محرّما لكان يأمر المريض أن يتصدق بالكل . حجة القائلين : عموم الآية . وماروى سالم بن الجعد أنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ : تبا للذهب والفضة قالها ثلاثاً . فقالوا له . أي مال نتخذ ؟ قال لساناً ذاكراً وقلباً خاشعاً ، وزوجة تعين أحدكم على دينه . فقالوا له : من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها . وتوفى رجل فوجد في مئزره دينار ، فقال رسول الله ﷺ ترك (كية) . وتوفى آخر فوجد في مئزره ديناران . فقال : (كيتان) . وعن علي رضي الله عنه : كل مال زاد على أربعة آلاف فهو كنز أديت زكاته أو لم تؤد . وقد رام طائفة من العلماء الجمع بين القولين ، فقالوا : كان هذا قبل أن تفرض الزكاة . فأما بعد فرض الزكاة ،

فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالا من حيث أذن له فيه ، ويؤدعنه ما أوجب عليه ثم يعاقبه * وأمّا ظاهر الفتوى فهو أن صاحب المال الكثير لاعتب عليه إذا أدى منه حقوقه . هذا ومن حمل الآية على وعيد مانعى الزكاة فى النقود قاس الزكاة في المواشي عليه . أخرج الشيخان عن أبي ذر قال : انتهيت إلى النبي ﷺ ، وهو جالس في ظل الكعبة . فلما رآني قال : هم الآخرون ورب الكعبة ، قال : فجئت حتى جلست ... فقلت يارسول الله : فداك أبي وأمي من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالاً إلّا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله . وقليل ماهم مامن صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها كلما نفذت آخراها عادت عليه أولاها حتى يقضي بين الناس * هذا لفظ مسلم . وفرقه البخاري في موضعين . ولا ريب أن الأصل المعتبر في الأموال هو النقدان ، وسائر الأمتعة إنما تحصل بهما ، وتدور عليهما ، ولمن أوجب الزكاة في الحلى المباح . الاستدلال بالآية لأن الذهب والفضة يشمله ، ومن لم يوجب الزكاة فيه خصص عموم الآية بما روى أنه ﷺ قال : لازكاة في الحلى المباح . ولم يصححه أبو عيسى الترمذي . وبتقدير أن يصح حملوه على اللالىء لقوله تعالى : ﴿ **وتستخرجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها** ﴾ ولقائل أن يقول : لو حملنا الحلى في الحديث على اللالىء لم تبق لقيد المباح فائدة . وقوله : ﴿ **يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْها فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى** ﴾ تحرق ﴿ **بِهَا جِبَاهُهُمْ وجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ** ﴾ في مجمع الزوائد عن عبد الله . يعني ابن مسعود قال : « لا يكوى رجل بكنز فيمس درهم درهما ولا ديناراً يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم على حدته » رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح * وفي صحيح البخاري عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر . فقال : « هذا قبل أن تنزل الزكاة . فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال » وقد ذكر سبحانه وتعالى شيئين : الذهب والفضة . ثم قال : ﴿ **ولا يُنْفِقُونها** ﴾ فقيل الضمير عائد على المعنى . وهو الكنوز والأموال . أو لأن كل واحد منهما جملة واحدة وافية وعدة كثيرة ، ودراهم ودنانير ، فهو كقوله : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فذوقُوا** ﴾ عذاب ﴿ **مَا كنتُمْ تكنزون** ﴾ أي جزاءه إشارة إلى أن

المكنوز لايذاق . ومابمعنى الذي . والعائد محذوف . ويجوز أن تكون مصدرية . أي وبال كونكم تكنزون . والآية عامة في كل مايجب فيه الزكاة *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنَّما النّسِيءُ زِيٰادَةٌ فِي الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَه عَاماً ويُحَرِّمُونَه عَاماً لِيُواطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ الله فَيُحِلُّوا مٰاحَرَّمَ الله زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أعمالِهِمْ والله لايَهْدِي الْقَوْمَ الكافِرِينَ** ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن أبي مالك قال : كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهرا فيجعلون المحرم صفراً فيستحلون فيه الحرمات . فأنزل الله : ﴿ **إنّما النّسيىء زِيادَةٌ فِي الكُفْر** ... ﴾ الآية * وعبارة الخازن : وذلك أن العرب في الجاهلية كانت تعتقد حرمة الأشهر الحرم ، وتعظيهما ، وكانت معايش العرب من الصيد والغارة . وكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية ، وربما وقعت حروب في بعض الأشهر الحرم . فكانوا يكرهون تأخير حروبهم إلى الأشهر الحلال . فنسأوا . يعني أخروا تحريم شهر إلى شهر آخر . فكانوا يؤخرون حروبهم إلى الأشهر الحلال ،

فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر ، فيستحلون المحرم ، ويحرمون صفر ، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع الأول ، وكانوا يصنعون هكذا ، يؤخرون شهراً بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها . وكانوا يحجون في كل شهر عامين ، فحجوا في ذي الحجة عامين ، ثم حجوا في المحرم عامين ، ثم حجوا في صفر عامين . وكذلك باقي شهور السنة ، فوافقت حجة أبي بكر في السنة التاسعة قبل حجة الوداع ذا القعدة ، ثم حج رسول الله ﷺ في العام المقبل حجة الوداع فوافق حجه في شهر ذي الحجة وهو شهر الحج المشروع ، فوقف بعرفة في اليوم التاسع ، وخطب النّاس في اليوم العاشر بمنى ، وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان ، وعاد الأمر إلى ماوضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق السمٰوات والأرض ، وهو قوله ﷺ : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السمٰوات والأرض .. » وأمرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل في مستأنف الأيام * أخرج البخاري عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال : «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السمٰوات والأرض : السنة اثنا عشر شهراً : منها أربعة حرم . ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر

الذي بين جمادي وشعبان» * والمعنى : رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه ، وعاد الحج في ذي الحجة ، وبطل النسيء الذي كان في الجاهلية ، وهو تأخير شهر إلى شهر لاستباحة ما حرم الله . أما التفسير ﴿ إنّما النّسيءُ ﴾ أي التأخير لحرمة شهر إلى آخر كما كانت الجاهلية تفعله من تأخير حرمة المحرم إذا هل وهم في القتال إلى صفر ... والنسيء مصدر نسأه إذا أخره وقوله : ﴿ زيادة في الكفر ﴾لكفرهم بحكم الله فيه حيث يجحدون تحريم القتال في المحرم ويثبتونه في صفر . وفي الشهاب : أنهم لما توارثوه على أنه شريعة ، ثم استحلوه كان ذلك مما يعد كفراً * وبيان ذلك : أن العرب ورثت في ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام تحريم القتال في الأشهر الحرم لتأمين الحج وطرقه ، ولما طال عليهم الأمد غيروا وبدلوا في المناسك ، وفي تحريم الأشهر المحرم . وبه ازدادوا كفرا على كفرهم . وقوله : ﴿ يُضِلُّ ﴾ بالضم والفتح ﴿ بِهِ الّذِينَ كفَرُوا يُحِلُّونَه ﴾ أي النسيء ﴿ عَاماً ويُحرِّمُونَهُ عَاماً لِيُواطِئُوا ﴾ يوافقوا بتحليل شهر وتحريم آخر بدله ﴿ عِدَّةَ ﴾ عدد ﴿ مٰا حَرَّمَ الله ﴾ من الأشهر ، فلا يزيدون على تحريم أربعة ولا ينقصون ولا ينظرون إلى الأربعة الأشهر التي حرمها الله تعالى : ﴿ فَيُحِلُّوا مٰا حَرَّمَ الله زُينَ لَهُمْ سُوءُ أعْمَالِهِمْ ﴾ الشيطان فظنوه حسناً ﴿ والله لَايَهْدِي القَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي لا يرشد من هو كافر أثيم إلى الصواب لمعاندته له ، ولما سبق له في الأزل أنه من أهل النار * ﴿ كَيْفَ يَهْدِي الله قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إيمانِهِمْ ﴾ ؟ .

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّها الّذِينَ آمَنُوا مٰا لَكُمْ إذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبيلِ الله اثَّاقَلْتُمْ إلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بالحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنيا فِي الْآخرةِ إلَّا قَليلٌ * إلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً ويستبدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ولَاتضُرُّوهُ شيْئاً والله عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾ في الواحدي : نزلت في الحث على غزوة تبوك . وذلك أن رسول الله ﷺ لما رجع من الطائف وغزوة حنين . أمر بالجهاد لغزو الروم ، وذلك في زمن عسرة من البأس ، وجدب من البلاء وشدة من الحر ، حين أخرفت النخيل ، وطابت الثمار ، فعظم على الناس غزو الروم ، وأحبوا الظلال والمقام في المساكن والمال ، وشق عليهم الخروج إلى القتال ، فلما علم الله تثاقل الناس أنزل الله هذه الآية * وكذا في الغرائب والجلال والخازن والكشاف وبقية التفاسير : أما التفسير :

«كانت غزوة تبوك في رجب في السنة التاسعة بعد رجوعه ﷺ من الطائف وتبوك ــ مكان على طرف الشام بينه وبين المدينة أربع عشرة مرحلة ــ أمر النبي ﷺ بالخروج إلى الروم وكانوا في عسرة . أي قحط وضيق عيش . وسببها ما بلغ رسول الله ﷺ من أن هرقل جمع أهل الروم ، وأهل الشام . وأنهم قدَّموا مقدماتهم إلى البلقاء ، وكان ﷺ قليلاً ما يخرج في غزوة إلا ورَّى عنها بغيرها إلا ما كان من غزوة تبوك فقد أعلنها ، وذلك لبعد المسافة وشدة الزمان ، وكثرة العدو ليأخذوا الناس أهبتهم ، فأمرهم بالجهاد ، وبعث إلى مكة ، وقبائل العرب ، وحض أهل الغنى على النفقة والحمل في سبيل الله . وهي آخر غزواته . وأنفق عثمان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، فجهز عشرة آلاف ، وأنفق عليها عشرة آلاف دينار غير الإبل والخيل ، وهي تسعمائة بعير ومائة فرس ، وغير الزاد . وما يتعلق بذلك حتى ما تربط به الأسقية . وأنفق غيره من الأغنياء . وأول من جاء بالنفقة أبو بكر ، فجاء بجميع ماله : أربعة آلاف درهم . وجاء عمر بنصف ماله ، وجاء ابن عوف بمائة أوقية ، وجاء العباس بمال كثير ، وكذا طلحة ، وبعثت النساء بكل ما يقدرون عليه من حليهن ، فلما تجهز رسول الله ﷺ بالناس وهم ثلاثون ألفاً ، وقيل أربعون ألفاً . وقيل سبعون ألفاً ، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس . خلَّف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري . وقيل : عليَّ بن أبي طالب ، وتخلف عبد الله بن أبي ومن كان معه من المنافقين بعد أن خرجوا إلى ثنية الوداع . متوجهاً إلى تبوك ، وعقد الألوية ، والرايات فدفع لواء الأعظم لأبي بكر . ورايته العظمى للزبير ، وراية الأوس لأسيد بن حضير وراية الخزرج للحباب بن المنذر ، ودفع لكل بطن من الأنصار ، ومن قبائل العرب لواءً وراية ، ولمّا نزل بتبوك ، وجدوا عينها قليلة الماء ، فاغترف رسول الله ﷺ غرفة من مائها ، فمضمض بها فاه ، ثم بصقه فيها ، ففارت عينها حتى امتلأت ، وارتووا هم وخيلهم ، وركابهم ، وأقاموا بتبوك بضع عشرة ليلة ، وقيل عشرين ليلة فأتاه . بجنة : صاحب أيلة . وأهدى له بغلة بيضاء ، فكساه النبي رداء ، وصالحه على إعطاء الجزية بعد أن عرض عليه الإسلام فلم يسلم ، وكتب له ولأهل أيلة كتابا تركه عنده ليعملوا به . وقد استشار ﷺ أصحابه في مجاوزة تبوك . فأشاروا عليه بعدم مجاوزتها ، فانصرف هو والمسلمون راجعين إلى المدينة ، ولما دنا من المدينة تلقاه الذين

تخلفوا ، فقال لأصحابه لا تكلموا رجلاً منهم ، ولا تجالسونهم حتى آذن لكم . فأعرض عنهم والمسلمون حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه إلى آخر ما في قصة تبوك . فقوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا ما لكُمْ إذا قِيلَ لكُمْ انفِرُوا** ﴾ اخرجوا للقتال : ﴿ **في سبيلِ الله اثّا قَلْتُمْ** ﴾ تباطأتم عن الخروج وأخلدتم ﴿ **إلَى الأَرْضِ** ﴾ أي ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه . أي ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم ﴿ **أرضيتُمْ بالحياةِ الدُّنيا** ﴾ ولذاتها وهو استفهام توبيخ وتعجب ﴿ **مِنَ الآخرة** ﴾ أي بدل نعيمها ﴿ **فَمَا مَتَاعُ الْحَياةِ الدُّنْيَا فِي** ﴾ جنب متاع ﴿ **الْآخِرَةِ إلَّا قَلِيلٌ** ﴾ حقير لأن لذات الدنيا خسيسة في نفسها ومشوبة بالآفات والبليات ، ومنقطعة عن قرب لا محالة ، ومنافع الآخرة شريفة غالية خالصة عن كل الآفات دائمة أبدية سرمدية ، وذلك يوجب القطع بأن متاع الدنيا في جنب متاع الآخرة قليل . وقوله : ﴿ **إلّا تنْفِرُوا** ﴾ تخرجوا مع النبيّ ﷺ للجهاد ﴿ **يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً ألِيماً** ﴾ مؤلماً يعني في الآخرة لأن العذاب الأليم لا يكون إلا في الآخرة . وقيل : إن المراد به احتباس المطر في الدنيا قال جنادة بن نفيع : سألت ابن عباس عن هذه الآية . فقال : استنفر رسول الله ﷺ حياً من أحياء العرب فتثاقلوا فأمسك الله عنهم المطر . فكان ذلك عذابهم * وقال الحسن وعكرمة : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ **وما كانَ المؤمِنُونَ لِينْفِرُوا كافّة** ﴾ وقال الجمهور : هذه الآية محكمة لأنها خطابٌ لقوم استنفرهم رسول الله ﷺ فلم ينفروا . أي فلا نسخ . ومن إتمام العقوبة ﴿ **ويَسْتَبْدِلْ قَوْماً غيْرَكُمْ** ﴾ أي يذهبكم ويأتي بهم بدلكم فيكونوا أطوع منكم وأشد حماسة لدين الله منكم . قال سعيد بن جبير : هم أهل اليمن . وفيه تنبيه على أن الله عز وجل قد تكفل بنصرة نبيه ﷺ ، وإعزاز دينه فإن سارعوا معه إلى الخروج إلى حيث استنفروا حصلت النصرة بهم ، ووقع أجرهم على الله عز وجل ، وإن تثاقلوا وتخلفوا عنه حصلت النصرة بغيرهم وحصلت العتبى لهم ، ولئلا يتوهموا أن اعزاز رسول الله ﷺ ونصرته لا تحصل إلا بهم . وهو قوله : ﴿ **ولا تضرُّوهُ شيئاً** ﴾ أي بترك نصره ، فإن الله ناصر دينه ﴿ **والله عَلَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ** ﴾ ومنه نصر دينه ونبيه ولو من غير واسطة *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **انْفِرُوا خِفَافاً وثِقَالاً وَجَاهِدُوا بأمْوالِكُمْ**

وأنفسِكُمْ في سَبيلِ الله ذَلِكُمْ خيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ نزلت في الذين اعتذروا بالضيعة والشغل عن الجهاد .. فأبى الله تعالى أن يعذرهم دون أن ينفروا على ما كان منهم . قال أنس : قرأ أبو طلحة ـــ انفروا خفافاً وثقالاً ـــ فقال : ماأسمع الله عذر أحد فخرج إلى الشام حتى مات . وفي الواحدي : قال السدى : جاء المقداد بن الأسود إلى رسول الله ﷺ . وكان عظيماً سميناً ، فشكا إليه وسأله أن يأذن له ، فنزلت فيه : ﴿ **انفروا خِفَافاً وثقالاً** ﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتد شأنها على النّاس فنسخها الله تعالى ، وأنزل : ﴿ **ليْسَ على الضُّعَفَاءِ ولَا على المَرْضى .. حرجٌ** ﴾ الآية ثم أنزل في المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين قوله تعالى : ﴿ **لَوْ كَانَ عَرَضاً قريباً ..** ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ **لَوْ خرجُوا فيكُمْ ما زادُوكُمْ إلَّا خبالاً ...** ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ لما خرج ضرب عسكره على ثنيته الوداع ، وضرب عبد الله بن أبي عسكره على ذي حده : أسفل من ثنيه الوداع ، ولم يكن بأقل من العسكرين فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أبي بمن تخلف من المنافقين وأهل الريب ، فأنزل الله يعزى نبيه : ﴿ **لوْ خرجُوا فيكُمْ ما زادُوكُمْ إلَّا خبالاً ..** ﴾ الآية * وفي مجمع الزوائد : عن ابن راشد قال : رأيت المقداد : فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص ، قد فصل عليها من عظيمه يريد الغزو ، فقلت له : لقد أعذر الله إليك ، قال : أتت علينا سورة البعوث ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً** ﴾ رواه الطبراني وفيه بقية بن الوليد وفيه ضعف ، وقد وثق ، وبقية رجاله ثقات * الخفاف واحدهما خفيف . والثقال واحدها ثقيل . وهما يكونان في الأجسام وصفاتها من صحة ومرض . ونحافة وسمن ونشاط وكسل ، وشباب وكبر ، ويكونان في الأسباب والأحوال كالقلة والكثرة في المال ، ووجود الراحلة وعدم وجودها . ووجوه الشواغل أو انتقالها . أي انفروا على كل حال من يسر أو عسر ، وصحة أو مرض ، وغني أو فقر ، وقلة العيال أو كثرتهم ... فإذا أعلن النفير العام وجب على كل قادر على حمل السلاح أن يدفع عن دينه ووطنه وعرضه وماله .. على العموم أي على الصفة التي يخف عليكم الجهاد فيها ، وعلى الصفة التي يثقل عليكم الجهاد فيها . ومن العلماء من حمل الأمر على الوجوب . ومنهم من حمله على الندب ، ومنهم من قال الآية منسوخة بقوله : ﴿ **ليْسَ علَى الضُّعَفاء ولا**

على المرضى ... ﴾ الآية . والأصح أنه للوجوب أي إذا دخل الأعداء ديار الإسلام وجب على كل قادر على حمل السلاح أن يخرج . فعن مجاهد رضي الله عنه قال : إنّ أبا أيوب الأنصاري شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . ولم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون بعده ، فقيل له في ذلك : فقال : سمعت الله عز وجل يقول : ﴿ **انْفِرُوا خِفَافاً وثِقَالاً** ﴾ ولاأجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً * وقال الزهري : خرج ابن المسيب ، وقد ذهبت إحدى عينيه ، فقيل له : إنك عليل صاحب ضر ، فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد ، وحفظت المتاع * وقال صفوان بن عمرو : كنت والياً على حمص ، فلقيت شيخا قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت له ياعم : أنت معذور عند الله . فرفع حاجبيه ، وقال ياابن أخي : استنفرنا الله خفافا وثقالا . إلا أنه من يحبه يبتليه * ولا يستبعد أن تكون الآية منسوخة في حكم ماإذا لم يدخل الأعداء ديار الإسلام فحينئذ يكون الأمر فرض كفاية . وبه يوفق بين الأقوال التي سمعتها . وقوله تعالى : ﴿ **وجَاهِدُوا بأمْوَالِكُمْ وَأَنْفَسِكُمْ فِي سبيلِ الله** ﴾ قال الخازن : فيه قولان : الأول أن الجهاد إنما يجب على من له مال يتقوى به على تحصيل آلات الجهاد . ونفس سليمة قوية صالحة للجهاد فيجب عليه فرض الجهاد . والقول الثاني : أن من كان له مال وهو مريض . أو مقعد أو ضعيف لايصلح للحرب . فعليه الجهاد بماله بأن يعطيه غيره ممن يصلح للجهاد ، فيغزو بماله ، فيكون مجاهداً بماله دون نفسه * أي إيجاب الجهاد بهما معاً إن أمكن وهو الأفضل وأعلى درجة . أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة ، وقد فعل الأول كثير من الصحابة الكرام كأبي بكر الصديق وعثمان وعمر وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين . وقوله : ﴿ **ذَلِكُمْ** ﴾ أي ذلكم الجهاد بالمال والنفس ﴿ **خيْرٌ لكُمْ** ﴾ من القعود والتثاقل به تدفعون عن دينكم وأموالكم وأنفسكم ﴿ **إنْ كنتُمْ تعْلَمُونَ** ﴾ ذلك ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وأَنفِقُوا في سبيلِ الله ولَاتُلْقُوا بأيْدِيكُمْ إلى التهلكَةِ** ﴾ أي يهلككم العدو إذا لم تخرجوا إليه وكم من أمّة كان عددها كثير فتقاعست عن الخروج . فاستولى عليها أعداؤها ذَوُوا العدد القليل *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **عَفَا الله عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهَمْ حَتَّى يَتبيَّنَ**

لَكَ الّذِينَ صَدَّقُوا وتَعْلَمَ الْكَاذبِينَ ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون الأزدى قال : اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء : إذنه للمنافقين ، وأخذه الفداء من الأسارى . فأنزل الله ﴿ **عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أذِنْتَ لَهُمْ** .. ﴾ وكذا في الكشاف والخازن والغرائب والطبري وغيرها : أما التفسير : ﴿ **عَفَا اللهُ عَنْكَ** ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ، والعفو يستدعى سابقة ذنب . وقوله : ﴿ **لِمَ أذِنْتَ لَهُمْ** ﴾ استفهام إنكار وبيان لما كنى عنه بالعفو . وذلك عتاب على طريق الملاطفة . والذي عليه المحققون أنه جاء على عادة العرب في التعظيم والتوقير ، فيقدمون أمثال ذلك بين يدى الكلام يقولون : عفا الله عنك ما صنعت في أمري رضي الله عنك ما جوابك عن كلامي ، وعافاك الله ألا عرفت حقي ، وبعد حصول العفو من الله تعالى يستحيل أن يكون قوله : لِمَ أذنتَ لهم وارد على سبيل الذم والإنكار . بل يحمل على ترك الأكمل ، والأولى ، لاسيما وهذه الواقعة كانت من جنس ما يتعلق بالحروب ومصالح الدنيا ، قال كثير من العلماء : في الآية دلالة على جواز الاجتهاد لأنه ﷺ أذن لهم من تلقاء نفسه من غير أن يكون لله في ذلك إذن * وتقديم العفو إشارة إلى أن من عظمة نبينا محمد ﷺ عند ربه سبحانه وتعالى : أن قدم العفو على العتاب على ما كان الأولى أن لا يفعله مما هو متعلق بالمصالح الدينوية من باب التدبير في الحروب مع تلطف في الخطاب كما هو دأب الحبيب مع حبيبه مطمئنا لقلبه * وقوله تعالى : ﴿ **حَتَّى يتبيَّنَ لَكَ الّذِينَ صَدَقُوا** ﴾ في العذر . قال ابن عباس : لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذ حتى نزلت سورة براءة * ﴿ **وتَعْلَمَ الكَاذبِينَ** ﴾ فيه وعبارة الطبري في تفسير الآية : هذا عتاب من الله عز وجل . عاتب الله به نبيه محمداً ﷺ . أي في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه من المنافقين حين شخص إلى تبوك لغزو الروم ، والمعنى : عفا الله عنك يا محمد ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوا في ترك الخروج معك إلى تبوك *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي ولَا تَفْتِنِي ألَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وإنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالْكَافِرِينَ** ﴾ في الواحدي : نزلت في جد بن قيس المنافق وذلك أن رسول الله ﷺ لما تجهز لغزوة تبوك قال له : يا أبا لهب : هل لك في

جلاد بني الأصفر تتخذ منهم سراري ووصفاء ؟ فقال يارسول الله : لقد عرف قومي أني مغرم بالنساء وإني أخشى إن رأيت بنات الأصفر أن لاأصبر عنهن فلا تفتني بهن ، وائْذَنْ لي في القعود عنك ، وأعينك بمالي ، فأعرض عنه النبي ﷺ . وقال : قد أذنت لك . فأنزل الله تعالى هذه الآية . فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لبني سلمة . وكان الجد منهم . من سيدكم يابني سلمة ؟ قالوا : الجد بن قيس غير أنه بخيل جبان ، فقال النبي ﷺ : « وأي داء أدوأ من البخل !! بل سيدكم الأبيض الفتى الجعد بشر بن البراء بن معرور » * وكذا روى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه . وهو في مجمع الزوائد عن ابن عباس . وعبارته أنّ النبي ﷺ قال : اغزوا تغنموا بنات بني الأصفر ، فقال رجل من المنافقين إنه ليفتنكم بالنساء فأنزل الله عز وجل ﴿ **ومنهُمْ مَنْ يقُولُ ائذنْ لِي ولاتفتني** ﴾ رواه الطبراني ، وفيه أبو شيبة ابراهيم بن عثمان وهو ضعيف * وكذا في الكشاف والخازن . وفي آخر القصة قال ابن عباس : اعتل الجد بن قيس ولم تكن له علة إلا النفاق فأعرض عنه رسول الله ﷺ . وقال : قد أذنت . فأنزل الله عز وجل فيه . ﴿ **وَمِنهُمْ مَنْ يقُولُ ...** ﴾ وكذا في بقية التفاسير أما التفسير : ﴿ **وَمِنْهُمْ** ﴾ أي من المنافقين ﴿ **مَنْ يقُولُ** ﴾ للنبي ﷺ حين خرج إلى تبوك ﴿ **ائْذَنْ لِي** ﴾ في التخلف ﴿ **ولا تفتنّي** ﴾ وهو الجد بن قيس .. أي لاتوقعني في الفتنة والمعصية والاثم ردّ الله عليه ﴿ **ألَا فِي الْفِتْنةِ سَقَطُوا** ﴾ بالتخلف عن الخروج . ومخالفة الله ورسوله ﴿ **وإنّ جَهَنَّمَ** ﴾ على مافعلوا ﴿ **لمحيطةٌ بالْكَافِرينَ** ﴾ تحيط بهم وتجمعهم فيها *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإنْ تُصِبْكَ مُصِيبةٌ يقُولُوا قَدْ أخذْنَا أمْرنا مِنْ قَبْلُ وَيتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ** ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء ، يقولون : إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا ، فبلغهم تكذيب حديثهم ، وعافية النبي ﷺ وأصحابه . فساءهم ذلك . فأنزل الله : ﴿ **إنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تسُؤهُمْ ...** ﴾ الآية وكذا رواه المراغي ، والطبري . أما التفسير : ﴿ **إنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ** ﴾ في بعض مغازيك كنصر وغنيمة ﴿ **تَسُؤْهُمْ** ﴾ أي تحزنهم

﴿ وإنْ تُصِبْكَ مُصيبةٌ ﴾ شدة من هزيمة ونحوها ﴿ يقُولُون قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا ﴾ بالحزم حين تخلفنا . قالوا ذلك متعجبين بما صنعوا حامدين لرأيهم . قد أخذنا أمرنا أي تلافينا وأدركنا أمرنا أي ماأهمنا من الأمور يعنون به الاعتزال عن المسلمين والقعود عن الحرب . والمدارة مع الكفرة وغير ذلك من أمور الكفر والنفاق قولاً وفعلاً * وقوله ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل هذه المصيبة ﴿ ويَتوَلَّوْا وهُمْ فَرِحُونَ ﴾ بما أصابك ، وسلامتهم منهم أمر الله نبيه أن يقول لهم : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبنَا إلَّا ماكَتَبَ الله لَنَا هُوَ مَوْلَانا وعلَى الله فَلْيتوَكّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ أنْفِقُوا طَوْعاً أوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقبَّلَ مِنكُمْ إنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قال الجد بن قيس : إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن . ولكن أعينك بمالي . قال : ففيه نزلت : ﴿ أنفِقُوا طوْعاً أوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ .. ﴾ * وكذا في الكشاف والخازن والخطيب والطبري قال الخطيب : وهذه الآية وإن كانت خاصة في إنفاق المنافقين فهي عامة في حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله بل أنفقه رياء وسمعة فإنه لايقبل منه . أما التفسير : ﴿ قُلْ أنفِقُوا ﴾ في طاعة الله ﴿ طَوْعاً ﴾ من غير إلزام من جهته عليه الصلاة والسلام ﴿ أوْ كَرْهاً ﴾ أي إلزاماً من جهته . وليس المراد بالطوع الرغبة لما سيأتي من قوله : ﴿ إلَّا وهُمْ كارهُونَ ﴾ أي لا رغبة لهم ﴿ لَنْ يُتقبَّلَ مِنْكُمْ ﴾ ماأنفقتموه لأن هذا الانفاق إنما وقع لغير الله ﴿ إنَّكُمْ كُنْتُمْ فَاسِقِين ﴾ خارجين عن طاعة الله ورسوله . والأمر في قوله أنفقوا بمعنى الخبر ، فالمعنى نفقتكم غير مقبولة سواء كانت طوعاً أو كرها * وقد علل الله تعالى عدم قبولها بقوله : ﴿ ومامَنَعَهُمْ أنْ تُقبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتهُمْ إلَّا أنَّهُمْ كَفَرُوا بالله ورسُولِهِ ولايأتُونَ الصَّلاةَ إلَّا وهُمْ كُسَالَى ولَايُنفِقُونَ إلَّا وهُمْ كَارِهُونَ ﴾ * النفقة لأنهم يعدونها مغرماً لايرجون عليها ثواباً ولايخافون على تركها عقاباً ★

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُك فِي الصَّدَقَاتِ فإن أعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وإنْ لَمْ يُعطَوْ منها إذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ في الواحدي : قال أبو سعيد الخدري : بينما رسول الله ﷺ يقسم قسما إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التميمي ، وهو

حرقص بن زهير : أصل الخوارج . فقال : أعدل فينا يارسول الله . فقال : ويلك ، و من يعدل إذا لم أعدل ؟! فنزلت : ﴿ **ومنهم من يلمزك في الصدقات** ﴾ رواه البخاري عن عبيد بن محمد عن هشام عن معمر * وقال الكلبي : نزلت في المؤلفة قلوبهم وهم المنافقون . قال رجل يقال له أبو الخويصرة للنبي ﷺ : لم تقسم بالسوية . فأنزل الله تعالى : ﴿ **ومنهُمْ مَنْ يلمزك في الصدقات** ﴾ وكذا في الكشاف . وفي الطبري . عن داود بن أبي عاصم قال : أتي النبي ﷺ بصدقة فقسمها هاهنا وهاهنا حتى ذهبت ، ورأى ذلك رجل من الأنصار . فقال : ماهذا بالعدل . فنزلت هذه الآية . ومجموع الروايات يدل على أنّ أشخاصا من منافقي المدينة . قالوا ذلك لحرمانهم العطية ، ولم يقله أحد من المهاجرين ، ولا من الأنصار الأولين الذين بايعوا النبي ﷺ في منى . أما التفسير : ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ في الصَّدقاتِ** ﴾ اللمز : العيب والطعن في الوجه ، والهمز : الطعن في الغيبة . أي ومن المنافقين من يعيبك ويطعن عليك في قسمة الصدقات ، وهي أموال الزكاة المفروضة . إذ يزعمون أنك تحابى فيها ، وتؤتى من تشاء من الأقارب وأهل المودة ، ولاتراعى العدل في ذلك ، ثم بين تعالى أسباب لمزهم ﴿ **فإنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا** ﴾ ولم يلمزوا ﴿ **وإنْ لَمْ يُعطوْا منها إذَا هُمْ يسْخَطُونَ** ﴾ أي وإن لم يعطوا من الزكاة ، وهم ليسوا من أهلها فاجئوك بالسخط ، والهمز واللمز . فهم لا هم همَّ إلا المنفعة الدنيوية ، ونيل حطام الدنيا *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَمِنْهُمْ الّذِينَ يُؤْذُونَ النبيَّ ويَقُولُونَ هُوَ أُذنٌ قُلْ أُذُنُ خيْرٍ لَكُمْ يُؤمِنُ بالله ويُؤْمِنُ للمؤْمنِينَ ورَحْمَةٌ لِلّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ والّذِين يُؤْذون رسُولَ الله لَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ** ﴾ في الواحدي : نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ . ويقولون : مالا ينبغي ، قال بعضهم : لاتفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ماتقولون فيقع بنا ، فقال الجلاس بن سويد : نقول ماشئنا ، ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول . فإنما محمد أذنٌ سامعة . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال محمد بن اسحاق بن يسار وغيره : نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحارث ، وكان رجلاً أذلم أحمر العينين ، أسفح الخدين مشوه الخلقة ، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ : من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث ، وكان ينم حديث النبي ﷺ إلى

المنافقين ، فقيل له : لاتفعل . فقال : إنما محمد أذنٌ من حدثه شيئاً صدقه . نقول ما شئنا ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال السدى : اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد بن الصامت ووديعة بن ثابت ، فأرادوا أن يقعوا في النبي ﷺ . وعندهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس . فحقروه . فتكلموا وقالوا : لئن كان محمد حقا لنحن أشر من الحمير ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره . فدعاهم فسألهم ، فحلفوا أن عامراً كاذباً وحلف عامر أنهم كذبة . وقال : اللهم لاتفرق بيننا حتى تبين صدق الصادق من كذب الكاذب . فنزلت فيهم ﴿ **وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يؤذُونَ النبيَّ** .. ﴾ ونزل قوله : ﴿ **يَحْلِفُونَ باللهِ لَكُمْ لِيُرضُوكُمْ** ... ﴾ وكذا في الخازن والطبري . أما التفسير : ﴿ **وَمِنهُمْ** ﴾ أي المنافقين ﴿ **الّذِينَ يُؤْذُونَ النّبيَّ** ﴾ بعيبه وبنقل حديثه ﴿ **ويقُولُونَ** ﴾ إذا نهوا عن ذلك لئلا يبلغه ﴿ **هُوَ أُذُنٌ** ﴾ أي يسمع كل قيل ويقبله ، فإذا حلفنا له أنا لم نقل صدقنا ، وفي البيضاوي : وسمي بالجارحة للمبالغة كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة الاستماع كما سمي الجاسوس عينا لذلك . ﴿ **قُلْ** ﴾ هُوَ ﴿ **أُذُنٌ** ﴾ مستمع ﴿ **خيرٍ لَكُمْ** ﴾ كأنّه قيل سلمنا أنه أذن . أي مستمع . أي كثير الاستماع لكنه يسمع الخير فقط ، لاالخير والشر كما تقولون ﴿ **يُؤْمِنُ باللهِ** ﴾ تفسير لكونه أذن خير لهم ﴿ **ويُؤمِنُ** ﴾ يصدق ﴿ **لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي يسلم ويرضى لهم فيما أخبروه به لالغيرهم ﴿ **ورحمةٌ** ﴾ بالرفع عطفاً على خيرٍ ﴿ **لِلّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ** ﴾ أي للذين أظهروا الإيمان منكم يقبله منهم لكن لاتصديقاً لهم في ذلك بل رفقاً بهم وترحماً عليهم ، ولايكشف أسرارهم ، ولايهتك أستارهم . ﴿ **والّذِينَ يُؤْذُونَ رسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ** ﴾ مؤلم في الآخرة . وقوله : ﴿ **يَحْلِفُونَ باللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ** ﴾ في الخازن : وقال مقاتل والكلبي : نزلت في رهط من المنافقين خلفوا عن غزوة تبوك ، فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون ، ويحلفون ، فأنزل الله هذه الآية * والمعنى : يحلف لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون ليرضوكم يعني فيما بلغكم عنهم من أذى رسول الله ﷺ . وقوله : ﴿ **واللهُ ورسُولُهُ أحَقُّ أنْ يُرْضُوهُ إنْ كانُوا مؤمِنِينَ** ﴾ أي إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاء * ووحد الضمير في قوله ﴿ **يُرْضُوهُ** ﴾ لأنه لاتفاوت بين رضا الله ورضا رسوله . فكانا في حكم شيء

واحد . أو والله أحق أن يضروه ورسوله كذلك *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُل استهْزِئُوا إِنَّ الله مُخْرِجٌ مَّاتَحْذَرونَ** ﴾ في الواحدي : قال السدى : قال بعض المنافقين . والله لوددت أنى قدمت فجلدت مائة جلدة ، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا ، فأنزل الله هذه الآية * وقال مجاهد : كانوا يقولون القول بينهم . ثم يقولون عسى الله أن لا يفشى علينا سرنا * وفي الخازن : قال ابن كسيان : نزلت هذه الآية في اثنى عشر رجلاً من المنافقين وقفوا لرسول الله ﷺ على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به ، إذا علاها ، وتنكروا له في ليلة مظلمة ، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بما أضمروا له ، وأمره من يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم . وكان معه عمار بن ياسر يقود ناقة رسول الله ﷺ ، وحذيفة يسوقها ، فقال لحذيفة : اضرب وجوه رواحلهم . فضربها حذيفة حتى نحاهم عن الطريق ، فلما نزل قال لحذيفة : من عرفت من القوم ؟ قال : لم أعرف منهم أحداً يارسول الله . فقال رسول الله ﷺ : فإنهم فلان وفلان حتى عدَّهم كلهم . فقال حذيفة : هلا بعثت إليهم من يقتلهم ؟ فقال : أكره أن تقول العرب : لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم . بل يكفينا هم الله بالدبيلة * وقد أوضح رسول الله ﷺ الدبيلة في حديث مسلم عن قيس بن عبادة . قال : قلت لعمار : أرأيت قتالكم ، أرأياً رأيتموه ؟ فإن الرأى يخطيء ويصيب ، أم عهداً عهده إليكم رسول الله ﷺ ؟ فقال : ماعهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً يعهده إلى الناس كافة وقال : إن رسول الله ﷺ قال : إن في أمتي قال شعبة : وأحسبه قد حدثني حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : إن في أمتي اثنى عشر منافقاً لايدخلون الجنة . ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط ، ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة : جراح من النار يظهر في أكتافهم حتى ينجم من صدورهم * أما التفسير : ﴿ **يَحْذَرُ المنافقُونَ** ﴾ أي يخشى المنافقون . وقيل معنى يحذر : الأمر بالحذر : أي ليحذر المنافقون . ﴿ **أَنْ تُنَزَّل عَلَيْهِمْ سُورةٌ** ﴾ أي على المؤمنين ﴿ **تنبّئُهُمْ** ﴾ أي تخبر المؤمنين ﴿ **بِمَا فِي قُلوبِهِمْ** ﴾ أي بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين . وذلك أن المنافقين كانوا فيما بينهم يذكرون المؤمنين بسوء ، ويسترونه ويخافون الفضيحة ، ونزول القرآن

في شأنهم . قال قتادة : وهذه السورة كانت تسمى الفاضحة المبعثرة . يعني أنها فضحت المنافقين . وبعثرت عن أخبارهم وأثارتها ، وأسفرت عن مخازيهم ومثالبهم . وقال ابن عباس : أنزل الله ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمةً منه على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضاً لأن أولادهم كانوا مؤمنين * ﴿ قُل استهزؤا ﴾ أمر تهديد لقوله تعالى : اعملوا ما شئتم ﴿ إنَّ الله مخرِجٌ ﴾ مظهر ﴿ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ أي ما كنتم تحذرونه من إظهار نفاقكم . في الكشاف : بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه . فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه ! هيهات هيهات . فأطلع الله نبيه عليه السلام على ذلك . فقال : أحسبوا علي الركب . فأتاهم فقال : قلتم كذا وكذا . فقالوا : يانبي الله لا والله ماكنا في شيء من أمرك ، ولا من أمر أصحابك . ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر * وماأورده الكشاف هنا هو سبب لنزول الآية التالية .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سألْتَهُمْ لَيقُولُنَّ إنّما كُنّا نَخُوض ونَلْعَبُ قُلْ أَبالله وآياتِهِ ورسُولِهِ كنُتُمْ تَسْتَهْزِؤن ﴾ في الواحدي : قال قتادة : بينما رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وبين يديه ناس من المنافقين إذ قالوا : يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها ، ههيات له ذلك . فأطلع الله نبيه على ذلك ، فقال نبى الله : احسبوا على الركب فأتاهم فقال : قلتم كذا وكذا . فقالوا يارسول الله : إنا كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . وفي لباب السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً . ولا أكذب ألسنة ، ولا أجبن عند اللقاء منهم ، فقال له رجل : وهو عوف بن مالك كما في الواحدي ـــ ولكنك منافق . لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، ونزل القرآن ، قال ابن عمر : فأريته متعلقاً . بحقب رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه ، وهو يقول يارسول الله : إنما كنا نخوض ونلعب : ورسول الله ﷺ يقول : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون * ثم أخرج من وجه آخر عن ابن عمر نحوه ، وسمى الرجل . عبد الله بن أبي . ففي الخازن : قال محمد بن اسحاق : الذي قال

هذه المقالة فيما بلغني هو وديعة بن ثابت : أخو أمية بن زيد بن عمر بن عوف . وذكر الخازن القولين المتقدمين ، وفيه وقال الكلبي ومقاتل : كان رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك ، وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين : اثنان منهم يستهزئان بالقرآن والرسول . والثالث يضحك . قيل : كانوا يقولون : إن محمداً يزعم أنه أنزل في أصحابنا قرآن ، إنما هو قوله وكلامه . فأطلع الله بنية ﷺ على ذلك . فقال : أحبسوا على الركب . فدعاهم ، وقال لهم . قلتم كذا وكذا ، فقالوا : إنما كنا نخوض ونلعب . أما التفسير : ﴿ **وَلَئِن** ﴾ لام قسم ﴿ **سَأَلْتَهُمْ** ﴾ عن استهزائهم بك والقرآن وهم سائرون معك إلى تبوك ... ﴿ **ليقولُنَّ** ﴾ معتذرين لك ﴿ **إنَّما كُنَّا نخوضُ وَنَلْعَبُ** ﴾ في التحدث ولم نقصد الاستهزاء بك ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم ﴿ **أبالله** ﴾ أي بفرائض الله وحدوده وأحكامه ﴿ **وآياته** ﴾ كتابه ﴿ **ورسُولِهِ** ﴾ محمد ﷺ ﴿ **كنْتُم تَسْتهْزؤنَ** ﴾ . قال الخازن : يحتمل أن المنافقين لما قالوا كيف يقدر محمد على أخذ حصون الشام . قال بعض المسلمين : الله يعينه على ذلك . فذكر بعض المنافقين كلاماً يشعر بالقدح في قدرة الله . وإنما ذكر ذلك على طريق الاستهزاء * أي لم يعبأ باعتذارهم لأنهم كانُوا كاذبين فيه ، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم . وبأنه موجود منهم حتى وبخوا .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يَحْلفُونَ بالله ما قالُوا ولقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وكَفَرُوا بَعْدَ إسْلامِهِم وهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وما نَقَمُوا إلَّا أنْ أغْنَاهُمُ الله ورسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فإنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وإنْ يتولَّوْا يُعَذِّبْهُمُ الله عَذاباً أليماً فِي الدُّنيا والآخِرَةِ وما لَهُمْ فِي الأرْضِ مِنْ وَلِيٍّ ولَا نصيرٍ** ﴾ في الواحدى : قال الضحاك : خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك . وكانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبوا رسول الله ﷺ وأصحابه وطعنوا في الدين . فنقل ما قالوا حذيفة إلى رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ يا أهل النفاق : ما هذا الذي بلغني عنكم ، فحلفوا ما قالوا شيئاً من ذلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلين اقتتلا : رجلا من جهينة ، ورجلا من غفار . فظهر الغفاري على الجهني ، فنادى عبد الله بن أبي : يا بني الأوس انصروا أخاكم . فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما القائل : سمن كلبك يأكلك ، فوالله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فسمع بها رجل من المسلمين ، فجاء إلى رسول الله ﷺ

فأخبره ، فأرسل إليه ، فجعل يحلف بالله ما قال : وأنزل الله تعالى هذه الآية * وروى ابن جرير والطبراني وأبو الشيخ . وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة ، فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان . فإذا جاء فلا تكلموا . فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول الله . فقال له : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه . فحلفوا بالله ما قالوا ، فتجاوز عنهم ، فأنزل الله : يحلفون بالله ما قالوا ... » الآية * أما همهم بما لم ينالوا . فهو اغتيال رسول الله ﷺ في العقبة منصرفه من تبوك ـــ ذاك أنه لما رجع رسول الله ﷺ قافلاً من تبوك إلى المدينة حتى إذا كان ببعض الطريق مكر برسول الله ﷺ ناس من المنافقين . فتآمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق ، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه فلما غشيهم رسول الله ﷺ أخبر خبرهم . فقال : من شاء منكم أن يأخذ ببطن الوادي فإنه أوسع لكم . وأخذ رسول الله ﷺ العقبة ، وأخذ الناس ببطن الوادي إلا النفر الذين هموا بالمكر لرسول الله ﷺ ، فإنهم لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا ، وقد هموا بأمر عظيم ، وأمر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه ، وأمر عمارا أن يأخذ زمام الناقة . وأمر حذيفة أن يسوقها . فبينما هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه ، فغضب رسول الله ﷺ ، وأمر حذيفة أن يردهم ، وأبصر حذيفة غضب رسول الله ﷺ فرجع ومعه محجن ، واستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضربا بالمحجن ، وأبصر القوم وهم متلثمون ولا شعر إلا أن ذلك فعل المسافر ، فأرعبهم الله سبحانه حين أبصروا حذيفة وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه . فأسرعوا حتى خالطوا الناس . وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ ، فلما أدركه قال : « اضرب الراحلة ياحذيفة وامش أنت ياعمر وراءها » فأسرعوا حتى استووا بأعلاها فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس . فقال رسول الله ﷺ لحذيفة : « هل عرفت من هؤلاء الركب أحداً » ؟ قال حذيفة : عرفت راحلة فلان وفلان . وقال : كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون ، فقال رسول الله ﷺ : « هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا » ؟ قالوا : لا والله يارسول الله ، قال : « فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا طلعت في العقبة طرحوني منها » قالوا : أولا تأمر بهم يارسول الله

إذاً فنضرب أعناقهم ؟ قال : «أكره أن يتحدث الناس ويقولوا : إن محمداً قد وضع يده في أصحابه» فسماهم لهما . وقال : «اكتماهم» * (المراغي) وفي الخازن : قال عروة بن الزبير : نزلت في الجلاس بن سويد أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء ، فقال الجلاس إن كان ما جاء به محمد حقا لنحن شر من حمرنا هذه التي نحن عليها ، فقال مصعب : أما والله يا عدو الله لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت ، وخفت أن ينزل في القرآن ، أو أن تصيبني قارعة . أو أن أخلط بخطيئة ، فأتيت النبي ﷺ ، فقلت يا رسول الله : أقبلت أنا والجلاس من قباء ، فقال : كذا وكذا ، ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك ، قال : فدعا الجلاس ، فقال : يا جلاس ، أقلت ما قال مصعب ؟ فحلف ما قال : فأنزل الله عز وجل : ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا** ... ﴾ الآية : وكذا في الطبري * وذكر البغوى عن الكلبي قال : نزلت في الجلاس بن سويد ، وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك، فذكر المنافقين وسماهم رجسا وعابهم ، فقال الجلاس : لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير . فلما انصرفوا إلى المدينة أتاه عامر بن قيس ، فأخبره بما قال الجلاس ، فقال الجلاس : كذب يا رسول الله عليّ . فأمرهما رسول الله ﷺ أن يحلفا عند المنبر ، فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر ، فحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما قاله . ولقد كذب عليّ عامر ، ثم قام عامر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد قاله وما كذبت عليه ، ثم رفع عامر يده إلى السماء . فقال : اللهم أنزل على نبيك تصديق الصادق منا . فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون آمين ، فنزل جبريل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ فإن يتوبوا يك خيراً لهم . فقام الجلاس . فقال يا رسول الله : اسمع الله قد عرض عليّ التوبة . صدق عامر بن قيس فيما قاله . لقد قلته وأنا استغفر الله ، وأتوب إليه ، فقبل رسول الله ﷺ ذلك منه ، فتاب وحسنت توبته ، فذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **يَحْلِفُونَ باللهِ مَا قالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كلمة الكُفرِ وكَفَرُوا بعْدَ إسلامهم** .. ﴾ يعني أظهروا كلمة الكفر بعد إسلامهم ، وتلك الكلمة هي سب النبيّ ﷺ . فقيل : هي كلمة الجلاس بن سويد : لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير . وقيل : هي كلمة عبد الله بن أبي سلول : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ..» أما التفسير : ﴿ **يَحْلِفُونَ** ﴾ أي المنافقون ﴿ **بالله ما قَالُوا** ﴾ ما بلغك

عنهم من السب ، ويحلفون وما بعده استئناف سيق لبيان ما صدر عنهم من الجرائم الموجبة للأمر بجهادهم والغلظة عليهم ، ﴿ ولَقَدْ قَالُوا كلمةَ الكُفْرِ وكَفَرُوا بَعْدَ إسْلَامِهِمْ ﴾ أظهروا كلام الكفر بعد إظهار الإسلام ﴿ وهَمُّوا بمَا لَمْ ينالُوا ﴾ من الفتك بالنبي ليلة العقبة عند عوده من تبوك ... ﴿ وما نقَمُوا ﴾ أنكروا ﴿ إلَّا أنْ أغْنَاهُمُ اللهُ ورسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام وبعثة الرسول ﷺ فيهم شيئاً يقتضي الكراهة والهم بالانتقام ــ إلَّا إغناء الله تعالى إياهم ورسوله من فضله بالغنائم التي هي عندهم أحب الأشياء لديهم في هذه الحياة وكانوا كسائر الأنصار فقراء فأغناهم الله ببعثه الرسول ونصره ، ومن ثم قال رسول الله ﷺ للأنصار « كنتم عالة فأغناكم الله بي » والمعنى أن المنافقين عملوا بضد الواجب ، فجعلوا موضع شكر النبي ﷺ أن نقموا عليه ، وقيل : إنهم بطروا النعمة فنقموا أشراً وبطراً . قال الكلبي : كانوا قبل قدوم النبي ﷺ المدينة في ضنك من العيش . فلما قدم النبي ﷺ استغنموا بالغنائم * وقال عكرمة : إن مولى لبنى عدى قتل رجلاً من الأنصار ، فقضى له النبي ﷺ بالدية اثنى عشر ألفاً . وفيه نزلت : وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله .. فعلى هذا القول يكون الكلام عاماً . وقوله : ﴿ فإنْ يَتُوبُوا يَكُ خيراً لَهُمْ ﴾ أي فإن يتوبوا من كفرهم . ونفاقهم بك ذلك خيراً لهم في العاجل والآجل ﴿ وإن يتولَّوْا ﴾ عن الإيمان والتوبة ﴿ يعذبْهُمُ اللهُ عذاباً أليماً في الدُّنيا ﴾ بالخزى والإذلال ﴿ والآخرة ﴾ في النار ﴿ وما لَهُمْ فِي الأرْضِ مِنْ وَلِيٍّ ولَا نصِيرٍ ﴾ أي وما لهم في الأرض كلها من يتولى أمورهم . ولا من ينصرهم ويدافع عنهم . إذ من خذله الله فلا يجدر أحد أن يجيره *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحينَ * فلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فضلِهِ بَخِلُوا بِهِ وتَوَلَّوْا وهُمْ مُعرضُونَ * فأعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إلَى يوْمِ يَلْقَوْنَهُ بمَا أخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدُوهُ وَبما كانُوا يكْذِبُونَ * ألَمْ يَعْلَمُوا أنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرهُمْ ونجْوَاهُمْ وأنَّ اللهَ علامُ الْغُيُوبِ ﴾ أخرج ابن جرير وابن مردويه والبهقي عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ .. ﴾ الآية . أنَّ رجلاً من الأنصار يقال له ثعلبة أتى مجلساً فأشهدهم قال : لئن آتاني

الله من فضله آتيت كل ذي حق حقه ، وتصدقت ، وجعلت منه للقرابة ، فابتلاه الله فآتاه من فضله ، فأخلف ماوعده فأغضب الله بما أخلفه ماوعده ، فقص الله شأنه في القرآن * وفي اللباب : أخرج الطبراني وابن مردويه ، وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل بسند ضعيف . عن أبي أمامة ، أن ثعلبة بن حاطب ، قال يارسول الله : ادع الله أن يرزقني مالاً . قال : ويحك ياثعلبة ، قليل تؤدي شكره خير من كثير لاتطيقه ، قال : والله لئن آتاني الله مالاً لأوتين كل ذي حق حقه ، فدعا له فاتخذ غنماً فنمت حتى ضاقت عليه أزقة المدينة ، فتنحى بها ، وكان يشهد الصلاة ، ثم يخرج إليها ، ثم نمت حتى تعززت عليه مراعي المدينة ، فتنحى بها ، فكان يشهد الجمعة ، ثم يخرج إليها ثم نمت فتنحى بها ، فترك الجمعة والجماعات ، ثم أنزل على رسوله : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تطهّرهم وتزكيهم بها** ﴾ فاستعمل على الصدقات رجلين . وكتب لهما كتاباً ، فأتيا ثعلبة ، فأقرأه كتاب رسول الله ﷺ فقال : انطلقا إلى الناس فإذا فرغتم فمروا بي ، ففعلا ، فقال : ماهذه إلا أخت الجزية ، فانطلقا ، فأنزل الله : ﴿ **وَمِنْهُم مَنْ عاهدَ الله لئن آتانا مِنْ فضْلِه** .. ﴾ إلى قوله : ﴿ **يكذبُون** ﴾ وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفى عن ابن عباس نحوه . وكذا رواه صاحب الكشاف . وفي آخره : وقال : ارجعا حتى أرى رأيي ، فلما رجعا قال لهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه : ياويح ثعلبة مرتين ، فنزلت ، فجاء ثعلبة بالصدقة فقال : إن الله منعني أن أقبل منك ، فجعل التراب على رأسه ، فقال : هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني فقبض رسول الله ﷺ . فجاء بها إلى أبو بكر رضي الله عنه فلم يقبلها ، وجاء بها إلى عمر رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها ، وهلك في زمان عثمان بن عفان رضي الله عنه * وكذا رواه الجلال والخازن . قال الخازن : وهذا أحد قولين في سبب نزولها . والآخر أنه حاطب بن بلتعة . قال السائب : إن حاطب بن بلتعة كان له مال بالشام . فأبطأ عليه . فجهد لذلك جهداً شديداً . فحلف بالله لئن آتاني الله من فضله . يعني ذلك المال لأصدقن منه . ولأصلن قرابتي . فلما آتاه ذلك المال لم يف بما عاهد الله عليه . فأنزل الله هذه الآية وكذا بقية الأقوال في التفاسير مع بعض زيادة أو نقص في الألفاظ والمعنى واحد . أما التفسير ﴿ **ومِنْهُمْ** ﴾ أي المنافقين ، وإن كان ثعلبة صحيح الإسلام في ابتداء أمره .

لكنه صار منافقاً في آخر أمره ، فصح كونه من المنافقين . وفي الشهاب قيل : كان ثعلبة قبل ذلك ملازماً لمسجد رسول الله ﷺ حتى لقب بحمامة المسجد ، ثم رآه النبي ﷺ يسرع الخروج من المسجد عقب الصلاة ، فقال له رسول الله ﷺ : مالك تفعل فعل المنافقين فقال : إني افتقرت ولى ولامرأتي ثوب أجيء به للصلاة * ثم أذهب فأنزعه لتلبسه وتصلى به ، فادع الله أنْ يوسع في رزقي إلى آخر ما في القصة ...» ﴿ من عَاهَدَ الله ﴾ فيه معنى القسم ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ تفسير لقوله عاهد . أي من الرزق ﴿ لَنَصَدَّقَنَّ ﴾ جواب القسم . أن لنعطي كل ذي حق حقه . وفي الكرخي : ﴿ ومنهم مِنْ عاهد الله ﴾ فيه معنى القسم ، فلذلك أجيب بقوله : لنصدقن ، وحذف جواب الشرط لدلالة هذا الجواب عليه ، واللام للتوطئة ، ولا يمتنع الجمع بين القسم واللام الموطئة للقسم * ﴿ وَلَنَكونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي ولنعملنّ في ذلك المال ما يعمله أهل الصلاح بأموالهم من صلة الأرحام والانفاق في سبيل الله ، وجميع وجوه البر ، والخير . وإخراج الزكاة ، وإيصالها إلى أهلها . والصلاح ضد الفساد . والمفسد هو الذي يبخل بما يلزمه في حكم الشرع . وقيل : إن المراد بقوله لنصدقن إخراج الزكاة الواجبة ، وقوله : ولنكونن من الصالحين . إشارة إلى كل ما يفعله أهل الصلاح على الاطلاق من جميع أعمال البر والطاعة (الخازن) وقوله : ﴿ فلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وتوَلَّوْا ﴾ عما عاهدوا الله عليه حال كونهم ﴿ وهُمْ معرضُون ﴾ عن العهد ﴿ فأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً ﴾ أي فجعل الله عاقبة فعلهم ذلك نفاقاً وسوء اعتقاد ﴿ في قلوبهم إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أي الله وهو يوم القيامة . أي إنه تعالى حرمهم التوبة إلى يوم القيامة فيوافونه على النفاق فيجازيهم عليه . ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا الله ﴾ أي بسبب إخلافهم الله الوعد الذي قطعوه على أنفسهم ﴿ مَاوَعَدُوهُ وَبِمَا كانُوا يكْذِبُون ﴾ فيه ، فجاء بعد ذلك إلى النبي ﷺ بزكاته ، فقال : إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك ، فجعل يحثو على رأسه التراب . فقال له رسول الله ﷺ : هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني . فلما أبي رسول الله ﷺ أن يقبض صدقته رجع إلى منزله ، فقبض رسول الله ﷺ ، ولم يقبل منه شيئاً . ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه حين استخلف ، فقال : قد علمت منزلتي من رسول الله وموضعي من الأنصار ، فأقبل صدقتي . فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله ﷺ

وأبى أن يقبلها ، فقبض أبو بكر ولم يقبلها . فلما ولى عمر رضي الله عنه أتاه ، فقال ياأمير المؤمنين : اقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولاأبو بكر . وأنا أقبلها منك ! فقبض ولم يقبلها فلما ولى عثمان رضي الله عنه أتاه فقال : اقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولاأبو بكر ولا عمر . وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه ، فهلك ثعلبة في خلافة عثمان (ابن كثير) . وقوله : ﴿ **أَلَمْ يعْلَمُوا** ﴾ أي المنافقون مطلقاً لا بقيد كونهم الذين عاهدوا الله إذ الآيات الواردة في خصوص المعاهدين قد انقضت بقوله يكذبون . فهذا رجوع لما سبق في قوله : المنافقون والمنافقات ..» ﴿ **أنّ الله يَعْلَمُ سِرَّهمْ** ﴾ ماأسروه في أنفسهم ﴿ **وَنَجْوَاهُمْ** ﴾ ماتناجوا به بينهم أي ماتحدثوا به من الفتك بالنبي ومنع الزكاة .. ﴿ **وأنَّ الله عَلَّامُ الْغُيوبِ** ﴾ ماغاب عن العيان *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **الّذِينَ يَلْمِزُونَ المطَّوِّعِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَاقَاتِ والّذِينَ لَا يجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرونَ مِنْهُمْ سَخِرَ الله مِنْهُمْ وَلَهَمْ عَذَابٌ أليمٌ** ﴾ في الواحدي : قال ابن مسعود : لما نزلت آية الصدقة جاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لغنى عن صاع هذا ، فنزلت : ﴿ **الّذِينَ يَلْمِزُونَ المطَّوِّعينَ من المؤمنين في الصَّدَقات ..** ﴾ رواه البخاري عن أبي قدامة : عبيد الله بن سعد عن أبي النعمان وفي مجمع الزوائد في قوله : ﴿ **الّذِينَ يلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنْ الْمُؤْمنينَ** ﴾ عن أبي سلمة ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : تصدَّقوا ، فإني أريد أن أبعث بعثاً . قال : فجاء عبد الرحمن بن عوف . فقال يارسول الله : عندي أربعة آلاف : ألفان أقرضتها ربي ، وألفان لعيالي ، فقال رسول الله ﷺ : بارك الله لك فيما أمسكت ، وبات رجل من الأنصار ، فأصاب صاعين من تمر ، فقال يارسول الله : إني أصبت صاعين من تمرٍ ، صاع لربي ، وصاع لعيالي ، قال : فلمزه المنافقون . وقالوا : ماأعطى مثل الذي أعطى ابن عوف إلَّا رياء ، أو قالوا : ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا . فأنزل الله : ﴿ **الّذِينَ يلمزُون المطَّوِّعينَ مِنَ الْمُؤْمنين فِي الصَّدَقاتِ والّذِينَ لا يجِدُونَ إلّا جُهْدَهُم** ﴾ إلى آخر الآية . قال الهيثمي : رواه البزار من طريقين : إحداهما متصلة عن أبي هريرة ، والأخرى عن أبي سلمة مرسلة .. وروى عن أبي عقيل أنه بات يجر الجرير على ظهره على صاعين من تمر ، فانفلت بأحدهما إلى أهله ينتفعون

به ، وجاء بالآخر يتقرب به إلى الله عز وجل ، فأتى به رسول الله ﷺ ، فقال له : انثره في الصدقة ، فقال فيه المنافقون ، وسخروا منه : ما كان أغنى هذا أن يتقرب إلى الله بصاع من تمر ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ** ﴾ الآيتين : رواه الطبراني . ورجاله ثقات إلّا أن خالد بن يسار لم أجد من وثقه . ولا جرحه . وفي الواحدي : وقال قتادة وغيره : حث رسول الله ﷺ على الصدقة ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم ، وقال يارسول الله : مالى ثمانية آلاف جئتك بنصفها . فاجعلها في سبيل الله ، وأمسكت نصفها لعيالي ، فقال رسول الله ﷺ : بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت * فبارك الله في مال عبد الرحمن حتى أنه خلف امرأتين يوم مات . فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستون ألف درهم ، وتصدق يومئذ عاصم بن عدى بن العجلان بمائة وسق من تمر ، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما لأهلي وأتيتك بالآخرة . فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات . فلمزه المنافقون . وقالوا : ماأعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء . وإن كان الله ورسوله غنيين عن صالح أبي عقيل ، ولكنه أحب أن يزكي نفسه . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي لباب السيوطي : روى الشيخان عن ابن مسعود قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير ، فقالوا : مراءٍ ، وجاء فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لغني عن صدقته ، فنزل : ﴿ **الَّذِينَ يلمزُونَ المطَّوِّعين** .. ﴾ الآية وكذا رواه المراغي . والخازن والكشاف

والخازن . وفيه : وقا
يوماً . فنادى فيهم أن
بصاع من تمرٍ . فقال

والخازن . وفيه : وقال العوفي : عن ابن عباس : إن رسول الله ﷺ خرج إلى الناس يوماً . فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم فجمع الناس صدقاتهم ، ثم جاء رجل آخرهم بصاع من تمرٍ . فقال يارسول الله : هذا صاع من تمر بت ليلتي أجر بالجرير الماء ، حتى نلت صاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخرة . فأمره ﷺ أن ينثره في الصدقات فسخر منه رجال . وقالوا : إن الله ورسوله لغنيان عن هذا ، ومايصنعون

بصاعك من شيء ؟ ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ : هل بقى أحد من أهل الصدقات ؟ فقال رسول الله ﷺ : لم يبق أحد غيرك * فقال له عبد الرحمن بن عوف ، فإن عندي مائة أوقية من الذهب في الصدقات ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أمجنون أنت ؟ قال : ليس بي جنون . قال : أفعلت مافعلت ؟ قال : نعم ، مالي ثمانية آلاف ، أما أربعة آلاف ، فأقرضها لربي . وأما أربعة آلاف فعلي ، فقال له رسول الله ﷺ : بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت . ولمزه المنافقون ، فقالوا : والله ماأعطى عبد الرحمن عطية إلا رياءً . وهم كاذبون إنما كان به متطوعاً . فأنزل الله عز وجل عذره ، وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر ، فقال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ المطَّوِّعينَ مِنَ المُؤْمنينَ في الصَّدقات** ﴾ الآية . أما التفسير : ﴿ **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ** ﴾ يعيبون . في المصباح . لمزه لمزاً . من باب ضربه عابه . وقرأ بها السبعة . ومن باب قتل لغة ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها . ﴿ **المطَّوِّعينَ** ﴾ أصله المتطوعين . أي المتنفلين ﴿ **مِنَ الْمُؤْمنينَ في الصَّدقاتِ** ﴾ أي صدقات النفل لالغرض ﴿ **والَّذِينَ لايَجِدُونَ** ﴾ من المال ﴿ **إلَّا جُهْدَهُمْ** ﴾ طاقتهم فيأتون به . في القرطبي : الجهد شيء يسير يعيش به المقل فيأتون به أي يجهدهم . وقوله : ﴿ **فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ** ﴾ أي يستهزؤن بهم ﴿ **سَخِرَ الله مِنْهُمْ** ﴾ جازاهم على استهزائهم . ﴿ **ولَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ** ﴾ مؤلم في الدار الآخرة * وبعد هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أوْ لاتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سبْعِينَ مرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ الله لَهُمْ ذَلِكَ بأنَّهُمْ كَفَرُوا بالله ورسُولِهِ والله لايهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ قال المفسرون : لما نزلت الآيات المتقدمة في المنافقين ، وبيان نفاقهم . وظهر للمؤمنين . جاؤا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون ويقولون : استغفر لنا . فنزلت : ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ يامحمد ﴿ **أوْ لَاتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ وهذا كلام خرج مخرج الأمر . ومعناه الخبر . تقديره . استغفارك لهم وعدمه سواء . ﴿ **إنْ تَسْتَغْفِرْ لهُمْ سَبْعِينَ مرَّةٍ** ﴾ بيان لاستحالة المغفرة لهم بعد المبالغة في الاستغفار أثر بيان الاستواء بينه وبين عدمه . ﴿ **فَلَنْ يَغْفِرَ الله لَهُمْ** ﴾ وفي البخاري حديث : لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر لزدت عليها . في الخازن : قال الضحاك : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : إن الله قد رخص لي فسأزيد على السبعين لعل الله أن يغفر لهم ، فأنزل الله

تعالى : ﴿ سواءٌ عليهم استغْفَرْتَ لهم أم لم تستغفر لهم لن يغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾ أي فبيَّن لهم حسم المغفرة بآية (سواء عليهم استغْفَرْتَ لَهُمْ أم لم تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ * ﴾ ﴿ ذَلِكَ بأنَّهُمْ ﴾ أي امتناع المغفرة لهم بسبب أنهم ﴿ كفَرُوا باللهِ ورسُولِهِ واللهُ لايَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسقينَ ﴾ أي إن سنة الله قد جرت فيمن أصروا على كفرهم وتمردوا في نفاقهم وأحاطت بهم خطاياهم ــ أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والإيمان فلا يهتدون إليهما سبيلاً . ومن خرج من الطاعة وأكب على المعصية فقلما تؤثر فيه المواعظ ويرعوى عما فيه . وعلى الأخص ممن علم الله عنادهم وإصرارهم على الكفر ، فلن يهتدوا أبداً *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ فَرِحَ المخَلَّفُونَ بِمقْعَدِهُمْ خِلَافَ رَسُولِ الله وَكَرِهُوا أنْ يُجَاهِدُوا بِأمْوَالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ فِي سبيلِ الله وقالُوا لَا تَنِفْرُوا في الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهنَّمَ أشدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا معه ، وذلك في الصيف ، فقال رجال يارسول الله : الحر شديد . ولا نستطيع الخروج ، فلا ننفر في الحر . فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أشدُّ حرًّا ... ﴾ الآية . وأخرج عن محمد بن كعب القرظى : قال خرج رسول الله ﷺ في حر شديد إلى تبوك . فقال رجل من بنى سلمة :ــ لا تنفروا في الحر فأنزل الله : ﴿ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أشدُّ حرًّا .. ﴾ * وكذا في الطبري والخازن . أما التفسير : ﴿ فَرِح الْمُخَلَّفُون بمقْعَدِهِمْ خِلافَ رسُولِ الله ﴾ أي فرح المخلفون عن غزوة تبوك ، في ابى السعود : أي الذين خلفهم النبي ﷺ بالاذن لهم في القعود عند استئذانهم ، أو خلفهم الله تعالى بتثبيطه إياهم لما علم في ذلك من الحكمة الخفية ، أو خلفهم كلهم أو نفاقهم * وهو عام ﴿ خِلافَ ﴾ أي بعد ﴿ رسول الله ﴾ حيث مضى إلى الجهاد ، وتخلفوا عنه ، أو بقعودهم لمخالفتهم له . وإليه ذهب الطبري والزجاج ويؤيدهما قوله : ﴿ وكَرِهُواأنْ يُجَاهِدُوا بأموالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ فِي سبيلِ الله ﴾ قال الخازن : المعنى إنهم فرحوا بسبب التخلف وكرهوا الخروج إلى الجهاد ، وذلك أن الإنسان يميل بطبعه إلى إيثار الراحة والقعود مع الأهل والولد ويكره اتلاف النفس والمال * ﴿ وقَالُوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض . سرا أو علانية فالقول تام فيهما . ﴿ لَا تَنِفْرُوا ﴾ تخرجوا إلى الجهاد ﴿ في الحرِّ ﴾ قالوا ذلك حينما دعاهم الرسول عليه

الصلاة والسلام إلى الخروج إلى تبوك . وكانت في شدة حر وقحط . وفي ابن كثير : في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار . قال تعالى في الرد عليهم ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم ﴿ **نارُ جَهَنَّمَ** ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿ **أشَدُّ حرًّا** ﴾ مما فررتم منه من الحر بل أشد حرا من النار كما قال الإمام مالك عن أبي الزناد . عن الأعرج ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نار بنى آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » فقالوا يارسول الله : إن كانت لكافية ، فقال : « فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به . وقوله : ﴿ **لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ** ﴾ أي يعلمون ذلك ما تخلفوا *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ولَا تُصَلِّ على أحَدٍ مِنهُمْ مَاتَ أبَداً ولَا تَقُمْ علَى قَبْرِهِ إنَّهُمْ كفَرُوا بالله ورسُولِهِ ومَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ في الواحدي : قال ابن عمر : لما توفى عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ صلوات الله عليه . وقال : اعطني قميصك حتى أكفنه فيه ، وصل عليه واستغفر له ، فأعطاه قميصه ، ثم قال : آذني حتى أصلي عليه ، فآذنه ، فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر بن الخطاب . وقال : أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين ؟ فقال : أنا بين خيرتين : أستغفر لهم أو لا أستغفر لهم ، ثم نزل عليه هذه الآية : ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ـــ فترك الصلاة عليه . رواه البخاري عن مسدد ، ورواه مسلم عن أبي قدامة : عبيد الله بن أبي سعيد ، كلاهما عن يحيى بن سعيد * قلتُ : وأخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه بلفظ قال : لما توفى عبد الله بن أبي ، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ . فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلي ، فقام عمر ، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ ، فقال يارسول الله : أتصلي عليه . وقد نهاك ربك أن تصلي عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنما خيرني الله فقال : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة . وسأزيده على السبعين قال : إنه منافق قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ **ولَا تُصَلِّ علَى أحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أبَداً ولَا تَقُمْ علَى قَبْرِهِ** ﴾ وأخرج عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : « لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول دعى له رسول الله

ﷺ ليصلي عليه ، فلما قام رسول الله ﷺ ، وثبت إليه ، فقلت يارسول الله : أتصلي على ابن أبي . وقد قال يوم كذا كذا وكذا . قال : أعدد عليه قوله ، فتبسم رسول الله ﷺ ، وقال : أخر عني ياعمر . فلما أكثرت عليه . قال : إني خيرت فاخترت ، لو أعلم إني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها ، قال فصلى عليه رسول الله ﷺ ، ثم انصرف ، فلم يمكث يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة : ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ـــ إلى قوله ـــ وهم فاسقون . قال : فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ ، والله ورسوله أعلم » قوله لما توفى عبد الله . يعني ابن أبي سلول . قال الواقدي : إنه مات منصرفهم من تبوك . وذلك في ذي القعدة سنة تسع ، وكانت مدة مرضه عشرين يوماً ، وابتداؤها من ليال بقيت من شوال .. وكذا ذكره الحاكم في الإكليل ، وقالوا : وكان قد تخلف هو ومن معه عن غزوة تبوك وفيهم نزلت ﴿ **لَوْ خرجُوا فيكُمْ مازادوكم إلَّا خبالاً** ﴾ قيل : هذا يدفع قول ابن التين أن هذه القصة كانت في أول الإسلام قبل تقرير الأحكام . قوله : فأعطاه . أى أعطى النبي ﷺ قميصه عبد الله . قال الكرماني : لم أعطى قميصه المنافق ؟ ثم أجاب بقوله : أعطى لابنه . وماأعطى لأجل أبيه عبد الله بن أبى . وقيل : كان ذلك مكافأة له على ماأعطى يوم بدر قميصاً للعباس لئلا يكون للمنافق منة عليهم . قوله : ثم سأله أن يصلي عليه . إنما سأله بناءً على أنه حمل أمر أبيه على ظاهر الإسلام ، ولدفع العار عنه وعن عشيرته ، فأظهر الرغبة في صلاة النبي ﷺ . ووقعت إجابته إلى سؤاله على حسب ماظهر من حاله إلى أن كشف الله الغطاء عن ذلك . وقول عمر رضي الله عنه : نهاك ربك أن تصلي عليه . لعله استفاد النهي من قوله تعالى : « ماكان للنبي والذين آمَنوا أن يستغفروا للمشركين » أو من قوله : « إن تستغفر لهم » .. وقال القرطبي : لعل ذلك وقع في خاطر عمر رضي الله عنه : فيكون من قبيل الإلهام . هذا : وذهب بعض أهل الحديث إلى تصحيح إسلام عبد الله بن أبي بصلاة النبي عليه . وهذا ليس بصحيح لمخالفته الأحاديث الصريحة بما ينافي ذلك . أخرج الطبراني من طريق سعيد بن قتادة في هذه القصة قال : فأنزل الله : ولاتصل على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره . قال : فذكر لنا النبي ﷺ قال : ومايغني عنه قميص من الله . وإني لأرجو أن يسلم بذلك ألف من قومه : قوله : فأنزل

الله تعالى إلى آخره .. زاد مسدد في حديثه عن يحيى القطان عن عبد الله بن عمر في آخره : فترك الصلاة عليهم . وزاد ابن اسحاق في المغازي في حديث اللباب : فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله تعالى . وقد أثبت الله لهم صفتي الكفر والفسق ، وهما من صفات ابليس اللعين . أما التفسير : ﴿ **ولاتُصَلِّ على أحَدٍ مِنْهُمْ** ﴾ من المنافقين ﴿ **ماتَ أبداً ولاتَقُم على قَبْرِه** ﴾ لدفن أو زيارة وقد كان رسول الله ﷺ إذا دفن الميت وقف على قبره . ودعا له . فمنع ههنا منه . وقال الكلبي : لاتقم باصلاح مهمات قبره . وقوله : ﴿ **إنَّهُمْ كفَرُوا** ﴾ تعليل للنهي المؤبد قال في الكشاف : وإنما قيل مات وماتوا بلفظ الماضي ، والمعنى على الاستقبال . على تقدير الكون الوجود لأنه كائن موجود لامحالة ، وإنما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر . لأن الكافر قد يكون عدلا في دينه ، والكذب في النفاق والخداع والجبن والخبث مستقبح في جميع الأديان * أي أن الكافر قد يكون عدلاً في دينه بأن يوؤدي الأمانة . ولا يضمر لأحد سوءاً ، وقد يكون خبيثا في نفسه كثير الكذب والمكر والخداع ، وإظهار السوء للغير ، وهذا أمر مستقبح عند كل أحد ، ولما كان المنافق بهذه الصفة الخبيثة وصفهم الله تعالى بكونهم فاسقين بعد أن وصفهم بالكفر . فقال : ﴿ **إنَّهُمْ كَفَرُوا بالله ورسولِهِ وماتُوا وهُمْ فَاسِقُون** ﴾ . كافرون كما عبر به المفسرون . قالوا : لأن الكفر أعم من الفسق . كل كافر فاسق وليس كل فاسق كافراً ، وقد أثبت لهم صفة الكفر فتعم * قلت : ومن مات مسلماً تاركاً للصلاة كافراً بالله ورسوله باستحلال ما حرم أو بتحريم ماأحل الله فلا يصلي عليه ولا يقام على قبره ، فهو أسوأ حالاً من عبد الله بن أبي ، فهذا كان يحضر الصلاة ويخرج الزكاة مع كفره باطناً وذلك كافر ظاهراً وباطناً . والله أعلم *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ على الضُّعَفَاءِ ولاعلى الْمَرْضَى ولَاعلى الَّذِينَ لَايجِدُونَ مايُنْفِقُونَ حَرَجٌ إذا نَصَحُوا لله ورسُولِهِ مَاعلَى المُحْسِنِين من سَبِيلٍ والله غفُورٌ رحيم** ﴾ذكر السيوطي في لبابه : أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة . فإني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ماينزل عليه إذ جاءه أعمى ، فقال : كيف بي يارسول الله وأنا أعمى . فنزلت : ﴿ **لَيْسَ علَى الضُّعفاء ..** ﴾ الآية * وفي

الخازن : قال قتادة : نزلت الآية في عائذ بن عمرو وأصحابه * وقال الضحاك : نزلت في عبد الله بن أم مكتوم . وكان ضرير البصر * وقيل : هُمْ مزنية وجهنية وبنو عذرة . أما التفسير : ﴿ لَّيسَ علَى الضُّعفاءِ ﴾ كالشيوخ والنساء والولدان . ﴿ ولَا علَى الْمَرْضَى ﴾ كالعمى والزمني في المختار : الزمانة آفة في الحيوان . ورجل زمن أي مبتلى بـالزمانة . ﴿ ولَا علَى الّذِينَ لَايَجِدُونَ مايُنفقون ﴾ في الجهاد لفقرهم لجهينة ومزينة وبنى عذارة ﴿ حَرَجٌ ﴾ إثم في التخلف عن الجهاد ﴿ إذَا نصَحُوا لله ورسُولِهِ ﴾ في حال قعودهم . بعدم الارجاف وإثارة الفتن ، ويسعوا في إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا إلى الغزو ، ويقوموا بمصالح بيوتهم ، ويخلصوا الإيمان والعمل لله . ويتابعوا الرسول ، فجملة هذه الأمور تجري مجرى النصح لله ورسوله * وقوله : ﴿ ماعلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ بذلك ﴿ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ طريق بالمؤاخذة . أي ليس على من أحسن فنصح لله ورسوله في تخلفه عن الجهاد لأنه سد إحسانه طريق العقاب عن نفسه *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا علَى الَّذِينَ إذا ماأتوْك لِتَحْمِلَهُمْ قُلتَ لَاأَجِدُ ماأحملكم عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وأعْيُنُهُمْ تفيضُ من الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مايُنْفِقُونَ إنَّما السَّبِيلُ علَى الّذِينَ يَستأْذِنُونك وهُمْ أَغْنِيَاءُ رضُوا بأَنْ يكونوا معَ الْخوالِفِ وَطَبَعَ الله علَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَعْلَمُونَ ﴾ في الواحدي : نزلت في البكائين ، وكانوا سبعة : معقل بن يسار وصخر بن خنيس . وعبد الله بن كعب الأنصاري . وسالم بن عمير . وثعلبة بن غنيمة . وعبد الله بن مغفل . أتوا رسول الله ﷺ . فقالوا يا نبيّ الله : إن الله عز وجل قد ندبنا للخروج معك . فاحملنا على الجفاف والمرقوعة والنعال المخصوفة نغزوا معك . فقال : لاأجد ماأحملكم عليه . فتولوا وهم يبكون * قوله وكانوا سبعة . من الأنصار . أي من فقرائهم جاؤا للنبي ﷺ يستحملونه . أي يسألونه أن يحملهم ، فقال : لاأجد ماأحملكم عليه . وعند ذلك تولوا . وأعينهم تفيض من الدمع .. الآية . ومن ثم قيل لهم : البكاؤن . فحمل العباس منهم اثنين . وعثمان ثلاثة زيادة على الجيش الذي جهزه ، وهو ألف كما سبق . وحمل ياسين بن عمرو النضري اثنين . وفي الغرائب : قال مجاهد : هم أبناء مقرن : معقل وسويد والنعمان . وقيل أبو موسى

الأشعري وأصحابه أتوا رسول الله ﷺ يستحملونه . ووافق منه غضباً ، فقال : والله ماأحملكم ، ولاأجد ماأحملكم عليه ، فتولوا وهم مدبرون يبكون ، فدعاهم و أعطاهم ذوداً . فقال أبو موسى : ألست حلفت يارسول الله . فقال : أما إني إن شاء الله لاأحلف بيمين فأرى غيرها خيراً منها إلّا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني * وفي الطبري : وقال آخرون : بل نزلت في عرباض بن سارية . وهكذا بقية الأقوال في التفاسير لاتخرج عما ذكرت . أما التفسير : ﴿ **ولَا علَى الّذِينَ إذَا مَا آتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ** ﴾ معك إلى غزوة تبوك . وهم سبعة من الأنصار وقد تقدمت أسماؤهم . وقيل : غيرهم . وقيل هم أصحاب موسى الأشعري كما في البخاري وهو الصحيح ﴿ **قُلْتَ لَا أَجِدُ مٰاأحْمِلَكُمْ عَلَيْهِ** ﴾ في أبي السعود : في إيثار هذا التعبير على لَيْس عندي .. لطف في الكلام ، وتطييب لقلوب السائلين كأنه قال : أنا أطلب ماتسألونه . وأفتش عليه فلا أجده ، فأنا معذور . ﴿ **تَوَلَّوْا** ﴾ جواب إذا أي انصرفوا ﴿ **وأعْيُنُهُمْ تَفِيضُ** ﴾ تسيل ﴿ **من الدَّمعِ حَزَناً** ﴾ لأجل ﴿ **أنْ لَا يَجِدُوا مٰا ينفِقُونَ** ﴾ في الجهاد ﴿ **إنَّما السبيلُ** ﴾ الطريق للمعاقبة . والطريق هي الأعمال السيئة . أي حصرانه ﴿ **على الّذِينَ يستأذِنُونَكَ** ﴾ في التخلف عن الجهاد ﴿ **وَهُمْ أغْنِياءُ** ﴾ أي واجدون لأهبة الغزو مع سلامتهم من الضعف والعمى والزمانة ، لا علة لهم إلّا أنهم ﴿ **رَضُوا بأنْ يكُونُوا مَعَ الْخوالِفِ** ﴾ أي من النساء والأطفال والمعذورين ومن المنافقين المفسدين الفاسقين : ﴿ **وطبع الله علَى قُلُوبهم فهم لا يعلمونَ** ﴾ أي وأحاطت بهم خطاياهم وذنوبهم بحسب سنن الله في أمثالهم . فهم لايعلمون حقيقة أمرهم ، ولاسوء عاقبتهم . وماهو سبب ذلك من أعمالهم ، فهم قد رضوا بالمهانة في الدنيا بانتظامهم في سلك النساء والأطفال *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **الْأَعْرَابُ أشدُّ كُفْراً ونِفاقاً وأجْدَرُ ألَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ماأنزل الله على رسُولِهِ والله عليمٌ حكيمٌ** ﴾ في الواحدي : نزلت في أعاريب من أسد وغطفان . وأعاريب من أعاريب حاضري المدينة * وفي الخازن : نزلت في سكان البادية * يعني أهل البدو ، أشد كفراً ونفاقاً من أهل الحضر * أي لجفائهم وقسوة قلوبهم وتوحشهم ، ونشأتهم في معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم ، وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده كما في قوله تعالى : ﴿ **وكان الإنسانُ**

كفوراً ﴾ إذ ليس كلهم كما ذكر . أما التفسير ﴿ الأعرابُ ﴾ أهل البدو . أي سكان البادية . وهي ضد الحاضرة ، ﴿ أشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً ﴾ من أهل المدن لجفائهم وغلظ طباعهم ، وبعدهم عن سماع القرآن ﴿ وأجْدَرُ ﴾ أولى وأحق ﴿ أنْ ﴾ أي بأن ﴿ لَا يعْلَمُوا ﴾ جاهلون ﴿ حُدُدَ ما أنْزَلَ الله على رسُولِهِ ﴾ من الأحكام والشرائع ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بخلقه ﴿ حَكيمٌ ﴾ في صنعه بهم *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ومِنَ الْأَعْرَاب مَنْ يُؤْمِنُ بالله والْيَوْم الآخِر ويَتَّخِذُ مايُنْفِقُ قُرباتٍ عِنْدَ الله وصَلَواتِ الرَّسُولِ ألَا إنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمْ الله فِي رَحْمَتِهِ إنَّ الله غَفُورٌ رَحيمٌ ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن مجاهد . أنها نزلت في بني مقرن الذين نزلت فيهم : ﴿ ولَا على الّذِينَ إذَا ما أتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ .. ﴾ . وأخرج عبد الرحمن بن معقل المزني ، قال : كنا عشرة ولد مقرن فنزلت فينا هذه الآية . وكذا في الخازن والمراغي والطبري ، وقال الكلبي : هم أسلم وغفار وجهينة * وكذا في الجلال . وكذا بقية الأقوال أما التفسير ﴿ وَمِنَ الْأَعْرابِ ﴾ أي بعض الأعراب ﴿ مَنْ يُؤْمِنُ بالله والْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ كجهينة ومزينة ، وأسلم وغفار ، روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها ، زاد مسلم في رواية له : أما إني لم أقلها لكن الله قالها . وأخرج الشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قريش والأنصار وجهينة ومزنية وأسلم وأشجع وغفار موالى ليس لهم مولى إلا الله تعالى * ﴿ ويتَّخِذُ مايُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ الله ﴾ جمع قربة . أي يطلب بما ينفق القربة إلى الله تعالى . ﴿ وصَلَواتِ ﴾ دعوات ﴿ الرَّسُولِ ﴾ وذلك أنهم يرغبون في دعاء النبي ﷺ . فقد كان ﷺ يدعو للمتصدقين بالخير والبركة . ويستغفر لهم . ومنه قوله ﷺ : اللهم صل على آل أبى أوفى . ﴿ ألَا إنَّها ﴾ أي نفقتهم ﴿ قُرْبةٌ ﴾ لهم عند الله ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ الله في رَحْمَتِهِ ﴾ جنته ﴿ إنَّ الله غَفُورٌ ﴾ لأهل طاعته ﴿ رَحيمٌ ﴾ بهم *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ومِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَاب مُنَافِقُونَ وَمِنْ أهْلِ الْمَدِينَة مَرَدُوا على النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مرَّتيْنِ ثمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ في الواحدي : قال الكلبي : نزلت في جهينة ومزينة

وأشجع وأسلم وغفار من أهل المدينة . يعنى عبد الله بن أبى ، وجد بن قيس ومعتب بن بشير ، والجلاس بن سويد وأبي عامر الراهب * العبارة مقتضبة وغير ظاهرة . والآية شروع في بيان أحوال منافقي أهل المدينة ومن حولها من الأعراب بعد بيان حال أهل البادية منهم . وممن حول بلدتكم منافقون كانوا نازلين حولها . ومن تبعيضية . أي ومنافقون بعض من حولكم من القبائل : وبعض أهل المدينة . وقد علمت أن رسول الله ﷺ قد مدح جهينة وأسلم ومزينة .. نعم يستقيم القول إذا كان المراد بعض هؤلاء القبائل . أي القليل منها منافق ومدح النبي لها يحمل على الأكثر والأغلب منها . قال الخازن : ذكر جماعة من المفسرين المتأخرين كالبغوي والواحدي وابن الجوزي أنهم من أعراب مزنية وجهينة وأشجع وغفار وأسلم وكانت منازلهم حول المدينة . يعني : ومن هؤلاء الأعراب منافقون . قال : وماذكروه مشكل لأن النبي ﷺ دعا لهؤلاء القبائل ، ومدحهم فإن صح نقل المفسرين ، فيحمل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وممن حولكم من الأعراب** ﴾ منافقون على القليل لأن لفظه من للتبعيض أى وهم الذين كانوا نازلين حولها قلت : ولعلّ نزول الآية كان قبل إسلام البعض منهم . ومدح الرسول لتلك القبائل كان بعد إسلامهم لسابقة بلاء حسن لهم في الإسلام . أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : أرأيتم إن كان جهينة ومزينة وأسلم وغفار خيراً من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة أن الأقرع بن حابس قال للنبي ﷺ : إنما تابعك سراف الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال وجهينة خيراً من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان . قال : خابوا وخسروا . قال نعم * ولعل المنافقين مما ذكر من القبائل والله أعلم . «ومن أهل المدينة» عطف على خبر المبتدأ الذي هو ممن حولكم . والمبتدأ منافقون أي من الأوس والخزرج منافقون . وقوله ﴿ **مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ** ﴾ أي مرنوا عليه وتجهروا فيه . وماوصف الشيطان بالمارد إلا أنه اتخذ المعصية حرفته . ومرن وثبت عليها واعتادها ولم يتب منها . فالمنافقون أقاموا على نفاقهم . وأتقنوا صنيعه . ولم يتوبوا منه . ومما يدل على حذقهم في النفاق ومرانهم عليه ، ومهارتهم فيه قوله :﴿ **لَا تَعْلَمُهُمْ** ﴾ أي يخفون عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك لأنهم يظهرون لك الإسلام ويضمرون الكفر ، وأنت تحكم على

الظاهر ، والله يعلم الظاهر والباطن ولذا قال ﴿ نحن نَعْلَمُهُمْ ﴾ أي لا يعلمهم إلا الله . ولايطلع على سرهم غيره . وقوله ﴿ سَنُعَذِبُهُمْ مرّتيْنِ ﴾ قيل : الفضيحة وعذاب القبر . وعن ابن عباس رضي الله عنه أنهم اختلفوا في هاتين المرتين ، فقال : قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال : اخرج يافلان فإنك منافق . اخرج يافلان فإنك منافق . فأخرج ناساً وفضحهم ، فهو العذاب الأول . والثاني : عذاب القبر * وعن الحسن : أخذ الزكاة من أموالهم ونهك أبدانهم . الكشاف . وفي الطبري : قال : ثنا سعيد عن قتادة ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَرَّتيْنِ ﴾ عذاب الدنيا وعذاب القبر ، ثم يردون إلى عذاب عظيم . ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسر إلى حذيفة باثنى عِشر رجلاً من المنافقين . فقال ستة منهم تكفيهم الدبيلة : سراج من نار جهنم يأخذ في كتف أحدهم حتي يفضي إلى صدره . وستة يموتون موتاً . وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رحمه الله كان إذا مات رجل يرى أنّـه منهم نظر إلى حذيفة فإن صلى عليه صلى عليه وإلا تركه . وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة : أنشدك الله أمنهم أنا ؟ قال : لا والله ، ولا أو من منها أحداً بعدك * وقال ابن زيد : ﴿ سنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتيْنَ ﴾ قال : أما عذاب الدنيا فالأموال والأولاد . وقرأ قول الله : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أمْوَالُهُمْ ولاأوْلَادُهُمْ إنّما يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بها في الحياة الدنيا ﴾ بالمصائب فيهم ، هي لهم عذاب . وهي للمؤمنين أجر . قال : وعذاب في الآخرة في النّار ﴿ ثم يُرَدُّونَ إلى عذابَ عظيمٍ ﴾ قال النار * ولم يرجح الطبري أحد الأقوال بل قال : وليس عندنا علم بأى ذلك . على أن في قوله جل ثناؤه : ﴿ ثُمّ يُرَدُون إلى عذابِ عظيمٍ ﴾ دلالة على أن العذاب في المرتين كلتيهما قبل دخولهم النار ، والأغلب من إحدى المرتين أنها في القبر *... قلت : ويرجح قول من قال : القتل وعذاب القبر . قياساً على عذاب آل فرعون . فقد ذاقوا عذاب الغرق . وعذاب القبر قال تعالى : ﴿ النّارُ يُعْرَضُونَ عليها غدواً وعشياً ويوم تقومُ الساعة أدخلُوا آل فرعونَ أشَدَّ الْعَذاب ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل * فعند قتلهم يذوقون ألم السلاح . وسياط الملائكة . إذ يضربون وجوههم وأدبارهم في ذلك الحين . ثم يَردَوْن إلى عذاب القبر . ثم إلى العذاب العظيم يوم القيامة . في الدرك الأسفل من النار *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وآخرون اعْتَرفُوا بِذُنُوبِهِمْ خلطُوا عَمَلاً

صَالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً عسَى الله أنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إنَّ الله غَفُورٌ رحيمٌ ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : نزلت في قوم كانوا تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك . ثم ندموا على ذلك ، وقالوا : نكون في الكن والظلال مع النساء ورسول الله ﷺ وأصحابه في الجهاد . والله لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون الرسول هو يطلقها ويعذرنا . وأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد . فلما رجع رسول الله ﷺ مر بهم فرآهم . فقال : من هؤلاء ؟ قالوا هؤلاء تخلفوا عنك ، فعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى يكون أنت الذي تطلقهم ، وترضى عنهم . فقال النبي ﷺ : وأنا أقسم بالله لاأطلقهم ولاأعذرهم حتى أومر بإطلاقهم . رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين . فأنزل الله تعالى هذه الآية . فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ . وأطلقهم وعذرهم ، فلما أطلقهم قالوا يارسول الله : هذه أموالنا التي خلَّفتنا عنك . فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا . فقال : ماأمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً . فأنزل الله عز وجل : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطِّهرهم ..** ﴾ الآية . وقال ابن عباس كانوا عشرة رهط * وفي اللباب : أخرج ابن مردويه . وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال : غزا رسول الله ﷺ . فتخلف أبو لبابة وخمسة معه ، ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا وأيقنوا بالهلاك . وقالوا : نحن في الظلال والطمأنينة مع النساء ورسول الله ﷺ والمؤمنون معه في الجهاد . والله لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقها . ففعلوا . وبقى ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم . فرجع رسول الله ﷺ من غزوته فقال : من هؤلاء الموثوقون بالسواري ؟ فقال رجل : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا . فعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم ، فقال : لاأطلقهم حتى أومر بإطلاقهم ، فأنزل الله ﴿ **وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بذُنُوبِهِمْ ..** ﴾ فلما نزلت أطلقهم وعذرهم . وبقى الثلاثة الذين لم يوثقوا أنفسهم لم يذكروا بشيء وهم الذين قال الله فيهم ﴿ **وآخرَون مرجُون لأمْرِ الله** ﴾ الآية . فجعل أناس يقولون هلكوا إذ لم ينزل عذرهم ، وآخرون يقولون : ﴿ **عسَى الله أن يتوب عليهم** ﴾ حتى نزلت ﴿ **وعلَى الثّلاثةِ الّذِينَ خُلِّفُوا ...** ﴾ الآية وفي رواية قتادة : أنها نزلت في سبعة : أربعة . منهم ربطوا أنفسهم في السواري ، وهم أبو لبابة ومرداس

وأوس بن خذام وثعلبة بن وديعة * وأخرج أبو الشيخ وابن منده في الصحابة من طريق الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال : كان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في تبوك ستة : أبو لبابة وأوس بن خذام وثعلبة بن وديعة ، وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، فجاء أبو لبابة وأوس وثعلبة . فربطوا أنفسهم بالسواري ، وجاءوا بأموالهم . فقالوا يارسول الله : خذ هذا الذي حبسنا عنك . فقال : لا أحلهم حتى يكون قتال . فنزل القرآن ، ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم** ﴾ الآية قال السيوطي : اسناده قوي . وأخرج ابن مردويه بسند فيه الواقدي عن أم سلمة . قالت : إن توبة أبي لبابة نزلت في بيتي ، فسمعت رسول الله ﷺ يضحك في السحر ، فقلت : مايضحك يارسول الله ؟ قال : تيب على ابن لبابة ، فقلت : أوذنه بذلك ؟ فقال : ماشئت ، فقمت على باب الحجرة . وذلك قبل أن يضرب الحجاب ، فقلت ياأبا لباب : أبشر فقد تاب الله عليك ، فثار الناس ليطلقوه ، فقال حتى يأتي رسول الله ﷺ فيكون هو الذي يطلقني ، فلما خرج إلى الصبح أطلقه فنزلت : ﴿ **وآخرون اعترفُوا بذنوبِهِمْ** ﴾ * أما التفسير : ﴿ **وآخرون اعْتَرفُوا بذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وآخرَ سيِّئاً** ﴾ أي وقوم آخرون من المتخلفين اعترفوا بذنوبهم أي تخلفهم * خلطوا جهادهم الصالح قبل ذلك بتخلفهم السيء ﴿ **عَسَى الله أنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** ﴾ أن يقبل توبتهم المفهوم من قوله اعترفوا بذنوبهم وعبر بعسى للأشعار بأن مايفعله تعالى ليس إلا على سبيل التفضل منه حتى لا يتكل المرء بل يكون على خوف وحذر . واتفق المفسرون على أن كلمة عسى من الله واجب . قال أهل المعاني لأن لفظ عسى تفيد الأطماع . ومن أطمع إنساناً في شيء ، ثم حرمه كان عاراً عليه . والله تعالى أكرم من أن يطمع أحداً في شيء ثم لا يعطيه إياه * ﴿ **إنَّ الله غَفُور** ﴾ كثير المغفرة لذنوب عباده ﴿ **رحيمٌ** ﴾ بهم * روى البخاري عن سمرة بن جندب أن النبي ﷺ قال : «أتاني الليلة — أي في المنام — ملكان فاتبعثاني . فانتهيا بي إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، فتلقانا شطر من خلقهم كأحسن ماأنت راء . وشطر كأقبح ماأنت راء ، قال لهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر ، فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم . فصاروا في أحسن صورة ، قال لي : هذه جنة عدن . وهذا منزلك . قال : وأما القوم الذين كانوا شطرا

منهم حسن . وشطرا منهم قبيح . فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقد تجاوز الله عنهم» ولاشك أن هذا تمثيل في الرؤيا لتجميل العمل الصالح للنفس ، وتشويه العمل القبيح لها ، ولتطهيرها بالتوبة وصالح العمل حتى تكون كلها جميلة وأهلاً للكرامة بعد أن تبعث كلها في الصورة التي كانت عليها قبل التوبة * وتذييل الآية بالمغفرة والرحمة يفيد إنجاز الوعد *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ الله إمَّا يُعَذِّبُهُمْ وإمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ والله عَليمٌ حَكيمٌ** ﴾ في الواحدي : نزلت في كعب بن مالك : ومرارة بن الربيع أحد بني عمر بن عوف . وهلال من بني واقف تخلفوا عن غزوة تبوك . وهم الذين ذكروا في قوله : ﴿ **وعلى الثلاثة الّذِينَ خُلِّفُوا ..** ﴾ الآية * وكذا في الخازن . وفي المراغي : قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة : هم الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة . وهم مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية . قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الدعة والتمتح بطيب الثمار والتفيؤ بالظلال لا شكاً ولا نفاقاً ، وكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري ، كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك ، واهم هؤلاء الثلاثة المذكورون . فنزلت توبة الأولين قبل توبة هؤلاء ، وأرجئت توبة هؤلاء ، حتى نزلت آية التوبة : ﴿ **لَقَدْ تَابَ الله عَلَى النبيّ والمهاجرين ..** ﴾ والقصة مشهورة . وذلك أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك أمر أصحابه أن لا يسلَّموا عليهم ولا يكلموهم ، ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السواري . وإظهار الجزع والغم ، فلما علموا أن أحداً لا ينظر إليهم فوضوا أمرهم إلى الله تعالى . وأخلصوا لَهُ نياتهم . ونصحت توبتهم فرحمهم الله * وأنزل : ﴿ **لَقَدْ تَابَ الله عَلَى النبيّ والمهاجرينَ والأنْصَارِ الّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مٰا كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عليهم ليَتُوبُوا إنَّهُ بهم رؤف رحيمٌ** ﴾ قال الزمخشري في قوله : ﴿ **تَابَ الله عَلَى النبيّ** ﴾ كقوله : ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ الله مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبِكَ ومٰا تأخَّرَ** ﴾ ..* وهو حثُّ للمؤمنين على التوبة ، وأنه مامن مؤمن إلا وهو يحتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرين والأنصار . وقيل : تاب الله عن إذنه للمنافقين في التخلف عنه . وقوله في الآية هنا : ﴿ **في سَاعَةِ الْعُسْرَةِ** ﴾ أي

الشدة وضيق الحال . وقال جابر : عسرة الظهر ، وعسرة الزاد ، وعسرة المال . قال مجاهد وغيره ـــ كما تقدم ـــ نزلت هذه الآية في غزوة تبوك . وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة الحر في سنة مجدبة ، وعسر من الزاد والماء . وقال قتادة : ذكر أن الرجلين كانا يقتسمان التمرة بينهما . وكان النفر يتناولون التمرة بينهم يمصها هذا ، ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ، ثم يشرب عليها . فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم ﴿ **مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزيغُ** ﴾ أن تميل قلوب فريق منهم عن الحق وتشك في دين رسول الله ﷺ بالذي نالهم من المشقة والشدة : ﴿ **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي رزقهم الله الإنابة إليه والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ أي إنّ الله ﴿ **بهم رَؤُفٌ رَحيمٌ** ﴾ أخرج البخاري عن ابن شهاب قال : أخبرني عبد الرحمن بن كعبٍ . قال : أخبرني عبد الله بن كعب ، وكان قائد كعب من بنيه حين عمي ، قال سمعت كعب بن مالك في حديثه : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » قال في آخر حديثه « إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله ، فقال النبي ﷺ : أمسك بعض مالك . فهو خير لك » قلت : وأبناء كعب بن مالك ثلاثة وهم عبد الله ، وعبد الرحمن وعبيد الله . وكلهم رووا عن أبيهم * أما التفسير : ﴿ **وآخرون مُرْجَونَ لأمر الله** ﴾ أي ومن المتخلفين ناس آخرون مؤخرون لحكم الله في أمرهم ﴿ **إمَّا أنْ يُعذِّبَهُمْ وإمَّا يتُوب عليهم** ﴾ أي إن أمرهم دائر بين هذين : التعذيب والتوبة . أي إما أن يعذبهم بأن يميتهم بلا توبة . وهذا نوع من الترديد بالنظر لاعتقادنا فيهم ، وإلا فالله تعالى عالم يقين ماهو فاعله بهم . ﴿ **والله عليمٌ** ﴾ بخلقه ﴿ **حكيمٌ** ﴾ في صنعه بهم . وهم الثلاثة المذكورون *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **والّذِينَ اتَّخذُوا مَسْجداً ضِراراً وكُفْراً وتفريقاً بَيْنَ الْمُؤْمنينَ وإرْصَاداً لِمَنْ حَاربَ الله ورسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إنْ أردْنا إلَّا الحُسْنَى والله يَشْهَدُ إنَّهُمْ لَكَاذبُونَ** ﴾ في الواحدي : قال المفسرون : إن بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم ، فأتاهم فصلى فيه ، فحسدهم إخوتهم بنو عمرو ، وقالوا : نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله ﷺ ليصلى فيه كما يصلى في مسجد إخواننا . وليصل فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام . وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية وتنصر ولبس المسوح ، وأنكر دين الحنيفة لما قدم رسول

الله ﷺ المدينة ، وعاداه ، وسماه النبي ﷺ أبا عامر الفاسق ، وخرج إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح . وابنوا إلى مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر فآتى بجند الروم . فأخرج محمداً وأصحابه ، فبنوا مسجداً إلى مسجد قباء ، وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلاً . حزام بن خالد . ومن داره أخرج إلى المسجد . وثعلبة بن حاطب ، ومعتب بن قشير ، وأبو حبيبة بن الأرعد ، وعباد بن حنيف ، وحارثة وجارية وابناه : مجمع الزوائد ، ونبتل بن حارث ، ولحاد بن عثمان ، ووديعة بن ثابت . فلما فرغوا منه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : إنا بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية . وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه . فدعا بقميصه ليلبسه فيأتيهم ، فنزل عليه القرآن ، وأخبر الله عز وجل خبر مسجد الضرار ، وماهموا به . فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعين بن عدى وعامر بن شكر ، والوحشي قاتل حمزة . وقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدموه وأحرقوه ، فخرجوا فانطلق مالك وأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه النار ، ثم دخلوا المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه ، وتفرق عنه أهله ، وأمر النبي ﷺ أن يتخذ ذلك كناسة تلقى فيها الجيف والنتن والقمامة ، ومات أبو عامر بالشام وحيداً غريباً * وكذا في الخازن . ولم يذكر آخر القصة في متن واحد . بل ذكرها مفرقة في تفسير الآية . قلت : وأبو عامر الراهب هو والد حنظلة غسيل الملائكة وعبارة الخازن : فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك . فقالوا يارسول الله : إنا قد بيننا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا ، وتصلي لنا فيه وتدعو بالبركة . فقال رسول الله ﷺ : إني على جناح سفر ، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا فيه . فلما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك راجعاً ، نزل بذي أوان — وهو قريب من المدينة — فأتاه المنافقون . وسألوه أن يأتي مسجدهم . فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية . وأخبره خبر مسجد الضرار ، وماهموا به فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ... الخ ... ماذكره الواحدي * وقال ابن كثير : سبب نزول هذه الآيات الكريمات . أن كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له : أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، وقرأ علم

أهل الكتاب . وكان فيه عبادة في الجاهلية . وله شرف في الخزرج كبير . فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة . واجتمع المسلمون عليه . وصارت للإسلام كلمة عالية . وأظهرهم الله يوم بدر . شرق اللعين أبو عامر بريقة وبارز بالعداوة . وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ . فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب . وقدموا عام أحد . فكان من أمر المسلمين ما كان . وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين . وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين ، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ . وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى ، وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه ، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار . فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه . قالوا : لاأنعم الله بك عيناً يافاسق . ياعدو الله . ونالوا منه فسبوه . فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدي شر . وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره . وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد . فدعا رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً ، فنالته هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ، ورأى أمر رسول الله ﷺ في ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أن سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ . ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه . ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء . فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاؤا فسألوه رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته . وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء ... الخ .. ماتقدم ذكره في نفس السياق والمعنى . وهكذا بقية الأقوال في التفاسير ﴿ وَ ﴾ منهم ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ﴾ وهم اثنا عشر من المنافقين كانوا يصلون في مسجد قباء ، فبنوا ذلك المسجد ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك إلى اختلاف الكلمة بدليل قوله : ﴿ ضِرَاراً ﴾ أي مضارة لأهل مسجد قباء . وعلى القول بمصدرية ضراراً يكون المعنى . اتخذوه مضارين لإخوانهم

﴿ وكُفْراً ﴾ لأنهم بنوه بأمر أبي عامر الراهب ليكون معقلاً له . يقدم فيه من يأتي من عنده . وكان قد ذهب إلى الروم بالشام ليأتي بجنود من قيصر لقتال النبي ﷺ كما علمت : ﴿ وتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين يصلون بقباء بصلاة بعضهم في مسجدهم . ﴿ وإرْصَاداً ﴾ ترقباً ﴿ لِمَنْ حَارَبَ الله ورسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي قبل بنائه . وهو أبو عامر المذكور ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إنْ ﴾ ما ﴿ أردْنا ﴾ ببنائه ﴿ إلَّا ﴾ الفعلة ﴿ الْحُسْنَى ﴾ أي الخصلة الحسنى . لأن الحسنى صفة الموصوف محذوف . قال الزمخشري : ماأردنا ببناء هذا المسجد إلا الخصلة الحسنى . أو الإرادة الحسنى . وهي الصلاة * أي ماقصدوا ببنائه لشيء من الأشياء إلا الارادة الحسنى ، وذلك من الرفق بالمسكين في المطر والحر والتوسعة على المسلمين . وقد وقفت على عبارة الخازن في هذا قبل قليل : ﴿ والله يَشْهَدُ إنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في ذلك ، وكانوا سألوا النبي ﷺ أن يصلى فيه فنزلت : ﴿ لاتَقُمْ ﴾ تصل ﴿ فيهِ أبداً ﴾ فامتثل وأرسل جماعة لهدمه وتحريقه ، وجعلوا مكانه كناسة تلقى فيها الجيف . ثم مدح الله مسجد قباء بقوله : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ علَى التَّقْوى ﴾ أي أنه رسول الله ﷺ ، وصلى فيه أيام مقامه بقباء ، وهو يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس من مقدمة مهاجراً من مكة . وخرج صبيحة الجمعة فدخل المدينة . هذا على القول بأنه أقام هناك أربعة أيام . وقيل : أقام أربعة عشر . وقيل اثنين وعشرين . ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ وضع يوم حللت بدار الهجرة ، وهو مسجد قباء كما في البخاري . وقيل : هو مسجد المدينة . وعبارة الكرخي : والتحقيق أنّ رواية نزوله في مسجد قباء لاتعارض تنصيصه صلى الله عليه وسلم على أنّه مسجد المدينة . فإنها لاتدل على اختصاص أهل قباء بذلك * والحق أنه لامنافاة بين الآية ، وبين الحديث الصحيح أنه مسجد المدينة . لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم من هجرة رسول الله ﷺ مع عدم إقامته الدائمة في قباء ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى . وقوله : ﴿ أحقُّ أن تقوم فيه ﴾ أي تصلي فيه . ﴿ فيهِ رِجَالٌ ﴾ هم الأنصار من بنى عامر بن عوف الذي بنوه ﴿ يُحبُّونَ أنْ يتطهَّرُوا ﴾ أي من الأحداث والجنابات وسائر النجاسات . وهذا قول أكثر المفسرين . قال الإمام فخر الدين الرازي : المراد من هذه الطهارة الطهارة من الذنوب

والمعاصي . وعلل بعد ذلك بعدة وجوه .. ﴿ والله يحبُّ الْمُتطهِّرِينَ ﴾ أي يثيبهم . وأنت ترى أن الآية نزلت في مسجد قباء لعدة قرائن قد وقفت عليها * فقد كان أهل قباء يجمعون الحجارة والماء في غسل أدبارهم من الغائط ، فاستحقوا المدح بذلك . فالدين نظيف لاتليق به إلا النظافة . أما القذارة فمن الشيطان عدو الرحمن *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إنَّ الله اشْترى مِنَ الْمُؤْمنِينَ أنْفُسَهُمْ وأمْوَالَهُمْ بأنَّ لَهُمُ الْجنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ وعْداً عَلَيْه حقاً فِي التَّوْرَاةِ والإنْجيلِ والْقرْآنِ ومَنْ أوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ الله فاسْتَبْشِرُوا ببيْعِكُمُ الّذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ في الواحدي : قال محمد بن كعب القرظبي : لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفساً ، قال عبد الله بن رواحة يارسول الله : اشترط لربك ونفسك ماشئت : فقال : أشترط لربي أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة . قالوا : ربح البيع لانقيل ولانستقيل ، فنزلت هذه الآية * وكذا رواه ابن جرير عن عبد الله بن رواحة * وأخرج ابن سعد في طبقاته عن عباد بن الوليد بن عبادة بن الصامت . أن سعد بن زراره أخذ بيد رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، فقال ياأيها الناس : هل تدرون علام تبايعون محمداً ؟ إنكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والعجم والجن والإنس كافة ؟ فقالوا : نحن حرب لمن حارب وسلم لمن سالم . فقال يارسول الله : اشترط عليّ فقال : «تبايعوني على أن تشهدوا أن لاإله إلا الله وأني رسول الله ، وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة . ولاتنازعوا الأمر أهله . وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم» : قالوا : نعم . قال : قائل الأنصار : نعم هذا لك يارسول الله . فما لنا ؟ قال : «الجنة والنصر» . ونحوه في الخازن والكشاف وابن كثير وغيرها من التفاسير . قوله : ﴿ إنَّ الله اشْترى مِنَ الْمُؤْمنِينَ أنْفُسَهُمْ وأموالَهم ﴾ بأن يبذلوها في طاعته وعبارة أبي السعود : ترغيب للمؤمنين في الجهاد ببيان فضيلته إثر بيان حال المتخلفين عنه ، وقد بولغ في ذلك على وجه مزيد عليه حيث عبر عن قبول الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله وإثابته إياهم بمقابلتها بالجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية ، ثم جعل المبيع

الذي هو العمدة والمقصد في العقد أنفس المؤمنين وأموالهم . وجعل الثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة ، ولم يجعل الأمر على العكس . بأن يقال : إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدل على أن المقصود في العقد هو الجنة . وما بذله المؤمنون في مقابلتها وسيلة إليها إيذانا بكمال العناية بهم وبأموالهم . ثم إنه لم يقل بالجنة . بل قال : بأن لهم الجنة مبالغة في تقرير وصول الثمن إليهم ، واختصاصه بهم كأنه قيل : بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم * وقوله : ﴿ **بأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ** ﴾ متعلق باشترى . وقرأ عمر بن الخطاب . إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بالجنة . وقوله : ﴿ **يُقَاتِلُون فِي سَبِيلِ الله** ﴾ في أبي السعود : يقاتلون في سبيل الله . استئناف لكن لا لبيان نفس الاشتراء لأن قتالهم في سبيل الله ليس باشتراء من الله أنفسهم وأموالهم بل لبيان البيع الذي يستدعيه الاشتراء المذكور . كأنه قيل كيف يبيعونها بالجنة ؟ فقيل يقاتلون ..الخ ﴿ **فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ** ﴾ أي فيقتل بعضهم ويقاتل الباقي لأنه لا يمكن اجتماع الأمرين في الشخص الواحد بل يتحقق الفضل العظيم ، وإن لم يوجد واحد من الوصفين كما إذا وجدت المضاربة من غير قتل ، بل يتحقق الجهاد بمجرد العزم وتكثير السَّواد . وقوله : ﴿ **وعْداً عليه حَقاً** ﴾ أي تحقق وثبت ﴿ **في التَّوراةِ والإِنْجيلِ والقرآن** ﴾ وفي هذا دلالة على أن الوعد بالجنة لهذه الأمة مذكور في كتب الله المنزلة . ﴿ **ومَنْ أوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ الله** ﴾ أي لا أحد أوفى منه . فإن اخلاف الميعاد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع إمكان صدوره منهم فكيف بجانب الخالق أكرم الأكرمين ؟ ﴿ **فاسْتَبْشِرُوا** ﴾ الاستبشار إظهار السرور ، والسين هنا ليست للطلب فهي للمطاوعة كاستوقد . والفاء ليست للتعصب بل للترتيب أي لترتيب الاستبشار على ما قبله وما بعده وهو ﴿ **بَيْعِكُمْ الّذِي بَايَعْتُمْ به** ﴾ رسول الله ﷺ ﴿ **وذَلِكَ** ﴾ البيع ﴿ **هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ بالجنة والنعيم المقيم *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ما كَانَ للنَّبيّ والّذِينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ولَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ ما تبيَّنَ لَهُمْ أنهم أصحابُ الْجَحِيمِ** ﴾ في الواحدي : حدث سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ . وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية . فقال : أي عم . قل معي لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل ، وابن أبي أمية : يا أبا طالب ،

أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به على ملة أبي طالب . فقال النبي ﷺ : لأستغفرن لك مالم أنه عنه . نزلت : ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ رواه البخاري عن إسحاق بن إبراهيم عن عبد الرازق عن معمر ، عن الزهري . ورواه مسلم عن حرملة عن ابن وهب عن يونس كلاهما عن الزهري * وفي اللباب : وأخرج الترمذي وحسنه الحاكم عن علي قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت له : أتستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال : استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك . فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت : ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ** ﴾ الآية : وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل وغيرهما عن ابن مسعود قال : خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر فجلس إلى قبر منها . فناجاهُ طويلاً . ثم بكى فبكيت لبكائه . فقال : إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي ، وإني استأذنت في الدعاء لها فلم يأذن لي . فأنزل الله : ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ** ﴾ الآية * قال الحافظ ابن حجر : يحتمل أن يكون لنزول الآية أسباب متقدمة وهو أمر أبي طالب . ومتأخر وهو أمر آمنة وقصة عليّ . وجمع غيره بتعدد النزول * وفي رواية مسروق بن الأجدع عن عبد الله بن مسعود قال : خرج رسول الله ﷺ ينظر إلى المقابر ، وخرجنا معه فجلسنا ، ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها فناجاه مناجاة طويلاً ، ثم ارتفع ، وجئنا رسول الله ﷺ فبكينا لبكاء رسول الله ﷺ ، ثم إنه أقبل إلينا ، فتلقاه عمر بن الخطاب ، فقال يا رسول الله : ما الذي أبكاك ، فقد أبكيتنا وأفزعتنا ؟ فجاء فجلس إلينا فقال : أفزعكم بكائي ؟ فقلنا : نعم ، فقال : إن القبر الذي رأيتموني أناجي فهو قبر آمنة بنت وهب . وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي فيها ، واستأذنت ربي في الاستغفار لها فلم يأذن لي فيه — ونزل — ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ...** ﴾ حتى ختم الآية : ﴿ **وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ** ﴾ فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة ، فذلك الذي أبكاني * وليس في التفاسير زائد على ما ذكر . أما التفسير : ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ أي ما ينبغي ولا يجوز للنبي والمؤمنين ﴿ **أَنْ يَسْتَغْفِرُوا**

لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ كآزر وأبي طالب ﴿ **وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى** ﴾ ذوى قرابة كالآباء والأمهات والأعمام والعمات ﴿ **مِنْ بَعْدِ ماتبيَّنَ لَهُمْ** ﴾ بأن ماتوا على الكفر ﴿ **أنهم أصحابُ الْجَحِيمِ** ﴾ النار لموتهم على الكفر بعد أن أنذرهم النذير . وقوله : ﴿ **وما كانَ استْغْفَارُ ابْراهيم لأبيه إلّا عن موْعِدَةٍ وعدها إيَّاهُ** ﴾ بقوله : سأستغفر لك ربي رجاء أن يسلم . قال الكرخي : وجه تعلق هذه الآية بما قبلها إنه تعالى لما بالغ في وجوب الانقطاع عن المشركين الأحياء والأموات بيّن أن هذا الحكم غير مختص بدين محمد ﷺ . بل هو مشروع أيضا في دين ابراهيم عليه السلام . فتكون المبالغة في وجوب الانقطاع أكمل وأقوى * وقوله : ﴿ **فَلَمَّا تَبينَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله** ﴾ بموته على الكفر ﴿ **تَبَرَّأَ مِنْهُ** ﴾ تحلل من الاستغفار له . ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ** ﴾ كثير التضرع والدعاء ﴿ **حَلِيمٌ** ﴾ صبور على الأذى . في أبي السعود : ﴿ **إنّ إبراهيم ...** ﴾ استئناف مسوق لبيان الحامل على الاستغفار قبل التبين . فليس لغيره أن يقتدي به فيه ، إذ ليس لغيره ماله من الرأفة والرحمة ، فلابد أن يكون غيره أكثر اجتنابا وتبريا * والتأوه أن يقول الرجل عند الشكاية والتوجع آه . والأواه الكثير التأوه . قال ابن مسعود : هو المؤمن التواب * وقال الحسن وقتادة : الأواه الرحيم بعباد الله * وقال مجاهد : الأواه الموقن . (الخازن) *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ تَابَ الله علَى النبيِّ والْمُهَاجِرينَ والْأَنْصَارِ الَّذينَ اتبعُوهُ فِي سَاعةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ماكَادَ يَزيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمّ تَابَ عَلَيْهِمْ إنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ...** ﴾ قد تقدم ماوراه البخاري وغيره عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن النبي ﷺ في غزوة غزاها إلا بدراً حتى كانت غزوة تبوك ، وهي آخر غزوة غزاها . وآذن الناس بالرحيل . فذكر الحديث بطوله . وفيه . فأنزل الله توبتنا . ﴿ **لَقَدْ تَابَ الله على النبيّ والمهاجرينَ ..** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إنَّ الله هو التَّوابُ الرحيمُ** ﴾ قال : وفينا أنزل أيضاً : ﴿ **اتَّقُوا الله وكونُوا مع الصَّادقينَ** ﴾ *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائفَةٌ لِيَتفَقَّهُوا فِي الدّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذَا رَجعُوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ في الواحدي : روى الكلبي عن ابن عباس قال : لما أنزل الله تعالى عيوب المنافقين لتخلفهم عن الجهاد ، قال المؤمنون : والله لا نتخلف عن غزوة يغزوها رسول

الله ﷺ . ولا سرية أبداً . فلما أمر رسول الله ﷺ بالسرايا إلى العدو نفر المسلمون جميعاً . وتركوا رسول الله ﷺ وحده بالمدينة . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ **إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً** ﴾ وقد كان قد تخلف عنه ناس في البدو يفقهون قومهم . فقال المنافقون : قد بقي ناس في البوادي . هلك أصحاب البوادي . فنزلت هذه الآية : ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً** ... ﴾ وكذا في الخازن وابن كثير ، وعبارته عن مجاهد : نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفاً ومن الخصب ما ينتفعون به . ودعَوا من وجدوا من الناس إلى الهدى ، فقال الناس لهم : ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجا . وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ فقال الله عز وجل : ﴿ **فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ** ﴾ وليستمعوا ما في الناس ، وما أنزل الله فعذرهم * وفي ابن كثير أيضا عن ابن عباس : ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً** ﴾ إنها ليست في الجهاد . ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين أجدبت بلادهم . وكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يُحلُّوا بالمدينة من الجهد . ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون . فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ . وأجهدوهم . فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين ، فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائرهم ، وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم . فذلك قوله : ﴿ **وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ** ﴾ الآية . وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية . كان ينطلق من كل حيّ من العرب عصابة ، فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عما يريد من أمر دينهم ، ويتفقهون في دينهم . ويقولون للنبي ﷺ ما تأمرنا أن نفعله ؟ وأخبرنا بما نأمر به عشائرنا إذا قدمنا عليهم . قال : فيأمرهم نبى الله ﷺ بطاعة الله . وطاعة رسوله ، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة ، وكانوا إذا أتوا قومهم ، قالوا : إن من أسلم فهو منا ، وينذرونهم حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه ، وكان النبي ﷺ يخبرهم وينذر قومهم فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام ، وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة * فهذه ثلاثة روايات عن ابن عباس في الآية مختلفة في الألفاظ والمعاني . والظاهر قد تعددت الأسباب فنزلت الآية عامة في الجميع . وقد روى

الطبراني الروايات كلها . وقال : وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال : تأويله : وما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ، ويتركوا رسول الله وحده وأن الله نهى بهذه الآية المؤمنين أن يخرجوا في غزو وجهاد ، وغير ذلك من أمورهم ، ويدعوا رسول الله ﷺ وحيداً ، ولكن عليهم إذا أسرى رسول الله ﷺ سرية أن ينفر معه فرقة من كل قبيلة من قبائل العرب . الفرقة : الطائفة * وعبارته هنا غير مستقيمة . ولم تؤد المفهوم المراد . ﴿ **وما كانَ الْمُؤْمِنُون لِيَنْفِرُوا** ﴾ إلى الغزو ﴿ **كافَّةً** ﴾ جميعاً ﴿ **فَلَوْلَا** ﴾ هلا ﴿ **نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ** ﴾ قبيلة ﴿ **مِنهُمْ طَائِفَةٌ** ﴾ جماعة ومكث الباقي ﴿ **ليتفقَّهُوا** ﴾ أي الماكثون ﴿ **في الدّين** ﴾ يتعلموا أحكامه وشرائعه ﴿ **وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ** ﴾ من الغزو بتعليمهم ماعلموه من الأحكام ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ عقاب الله بامتثال أمره ونهيه . قال الزمخشري : ووجه آخر . وهو أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث بعثاً بعد غزوة تبوك ، وبعد ماأنزل في المتخلفين من الآيات الشداد ، استبق المؤمنون من آخرهم إلى النفير ، وانقطعوا جميعاً عن استماع الوحي ، والتفقه في الدين ، فأمروا أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ، ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر ، لأن الجدال بالحجة أعظم أثراً من الجلاد بالسيف * وقوله : ليتفقهوا : الضمير فيه للفرق الباقيةبعد الطوائف النافرة من بينهم : ﴿ **ولينذرُوا قومهم** ﴾ ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين * وقال الخازن : وأما تفسير الآية فيمكن أن يقال إنها من بقية أحكام الجهاد ، ويمكن أن يقال إنها كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد ، فعلى الاحتمال الأول ، فقد قيل : إن النبي ﷺ كان إذا خرج إلى الغزو لم يتخلف عنه إلا منافق . أو صاحب عذر ، فلما بلغ الله في الكشف عن عيوب المنافقين وفضحهم في تخلفهم عن غزوة تبوك قال المؤمنون : والله لا نتخلف عن شيء من الغزوات مع رسول الله ﷺ ، ولا عن سرية يبعثها ، فلما قدم المدينة ، وبعث السرايا نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوا رسول الله ﷺ وحده فنزلت هذه الآية . فيكون المعنى ما ينبغي للمؤمنين . ولا يجوز لهم أن ينفروا بكليتهم إلى الجهاد ، ويتركوا رسول الله ﷺ . بل يجب أن ينقسموا قسمين ، فطائفة يكونون مع رسول الله ﷺ . وطائفة ينفرون إلى الجهاد . لأن ذلك الوقت كانت الحاجة داعية إلى انقسام أصحاب رسول الله

ﷺ إلى قسمين : قسم للجهاد . وقسم لتعلم العلم ، والتفقه في الدين لأن الأحكام والشرائع كانت تتجدد شيئاً بعد شيء . فالملازمون لرسول الله ﷺ يحفظون ما نزل من الأحكام وما تجدد من الشرائع . فإذا قدم الغزاة أخبروهم بذلك * في الآية إشارة إلى وجوب التفقه في الدين ، والاستعداد لتعليمه في مواطن الاقامة . وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذي تصلح به حالهم فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التي يجب على كل مؤمن أن يتعرفها *

سورة يونس وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ منهم أن أَنْذِرِ النَّاسَ وَبشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إنَّ هَذَالَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت الكفار . وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي لباب السيوطي وأنزل : ﴿ **وما أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلَّا رِجالاً ...** ﴾ الآية ، فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا : وإذا كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة ﴿ **لَوْلَا أُنْزِلَ هَذَا القرآنُ علَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْن عظيم** ﴾ يقولون : أشرف من محمد . يعنون الوليد بن المغيرة من مكة . ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف ، فأنزل عليهم : ﴿ **أهم يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبّكَ ...** ﴾ الآية * ونحوه في الطبري والخازن وغيرهما : أما التفسير : ﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ** ﴾ أي أهل مكة وهو استفهام انكاري ﴿ **عَجَباً** ﴾ أي أن يتعجبوا من إرسال هذا الرسول لهم ، فهذا رد عليهم في قولهم : العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب ، وهو من فرط حماقتهم . وقصر نظرهم على الأمور العاجلة . وجهلهم بحقيقة الوحي مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يقصر عن عطائهم فيما يعتبرونه إلا في المال . مع أن خفة المال أليق بحاله ﷺ ، وما هو بصدده ، ولذلك كان أكثر الأنبياء عليهم السلام قبله كذلك .

والعجب : حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة ، ومجيء الرسول عليه الصلاة والسلام موافقاً لها : وما من أمة إلا خلا فيها نذير . وعبارة ابن كثير ﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً** ﴾ الآية . يقول تعالى منكراً على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون الماضين من قولهم : ﴿ **أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا** ﴾ وقال هود وصالح لقومهما ﴿ **أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُم ذِكْرٌ مِنْ رَبِكُم عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ** ﴾ وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا : ﴿ **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً إِنَّ هَذا لشيء عُجَابٌ** ﴾ ثم أورد السبب الذي ساقه الواحدي : وقوله تعالى : ﴿ **أَنْ أَوْحَيْنَا** ﴾ إي إيحاؤنا بواسطة جبريل ﴿ **إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ** ﴾ محمد ﷺ . فيكفيهم شرفاً نسبة محمد ﷺ إليهم لو كانوا يعقلون وقوله : ﴿ **أن أَنْذِر النَّاسَ** ﴾ أي خوف الكافرين بالعذاب المنتظر إذا لم يؤمنوا (**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ** ربّهم) أي أجراً حسناً بما قدموا من الأعمال الصالحة المقرونة بالإيمان . وقدم صدق . من إضافة الموصوف إلى الصفة لمسجد الجامع . وحب الحصيد ، وفائدة هذه الاضافة التنبيه على زيادة الفضل ، ومدح القدم لأن كل شيء أضيف إلى الصدق فهو ممدوح . وفي الخازن : واختلفت عبارات المفسرين . وأهل اللغة في معنى قدم صدق . فقال ابن عباس : أجراً حسناً بما قدموه من أعمالهم * وقال الضحاك : ثواب صدق * وقال مجاهد : الأعمال الصالحة : صلاتهم وصومهم وصدقهم وتسبيحهم * إلى آخر ماذكر من أقوال . وقوله : ﴿ **قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذا** ﴾ القرآن المشتمل على التوحيد والأحكام والمعاد والوعد والوعيد ﴿ **لَسِحْرٌ مبينٌ** ﴾ بين . وفي قراءة : لَسَاحِرٌ . والمشار إليه النبي ﷺ . والسحر ليس في شيء منها إذ هو طلاسيم الأولين جاء الإسلام للتنفير منه بتكفير متعاطيه إذ هو لا يضر ولا ينفع إلا بإذن الله ، وإن كانوا يعنون سحر بلاغته ، وأسره للقلوب فهو حجة بينة على صدق نبوة سيدنا محمد ﷺ * فتبين كذب مايدعون *

سورة هود وبيان مافيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ

﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ في الواحدي : نزلت في الأخنس بن شريق ، وكان رجلاً حلو الكلام . حلو المنظر . يلقى رسول الله ﷺ بما يحب ويطوي بقلبه مايكره * وقال الكلبي : كان يجالس النبي ﷺ يظهر له أمراً يسره . ويضمر في قلبه خلاف مايظهر . فأنزل الله تعالى : ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ﴾ يقول : يكتمون ما في صدورهم من العدواة لمحمد ﷺ * وفي لباب السيوطي : روى البخاري عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يثنونَ صدورهم ﴾ قال : كان أناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا بفروجهم إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء . فنزل ذلك فيهم * قلت : وقد فسر البخاري قوله ﴿ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ شك وامتراء في الحق ليستخفوا منه : من الله إن استطاعوا * قال الزمخشري : يزورون عن الحق ، وينحرفون عنه . لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدره ، ومن ازور عنه وانحرف ثنى عن صدره وطوى عن كشحه * وقيل نزلت في بعض المنافقين . وقيل في بعض المشركين كان النبي عليه السلام إذا مر عليه يثني صدره ، ويطأطيء رأسه كيلا يراه . فأخبر الله تعالى نبيه عليه السلام بما ينطوي عليه صدورهم . ويثنون : يكتمون ما فيها من العداوة . وقوله : ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ أي من الله . وقيل من الرسول . وهو من القرآن . قلت : وأخرج البخاري عن ابن عباس أنه قرأ : ألا إنهم يثنون صدورهم . قلت : أي القائل محمد بن عباد بن جعفر ــ ياأبا العباس : مايثنون صدورهم ؟ قال كان الرجل يجامع امرأته فيستحى أو يتخلى فيستحى . فنزلت : ﴿ أَلَا إنهم يثنونَ صدورهم ﴾ وفيه . عن ابن عباس : ﴿ يَسْتَغْشُون ﴾ يغطون رؤسهم . وتفسير ذلك ماوقفت عليه في رواية أبي أسامة . في عمدة القارىء : كانوا لايأتون النساء ولا الغائط إلا وقد تَغَشَّوْا بثيابهم كراهة أن يفضوا بفروجهم إلى السماء . فنزل ذلك . أي قوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يثنون .. ﴾ الآية . وهذا ماأوضحه ابن كثير في رواية ابن عباس قال رضى الله عنه : كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم . وحال وقاعهم . فأنزل الله هذه الآية . وروى عن مجاهد والحسن وغيرهما . أي أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك . فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل

﴿ **يَعْلَمُ مايُسّرون** ﴾ من القول ﴿ **ومايُعْلِنُون * إنَّهُ عَليمٌ بذاتِ الصُّدُورِ** ﴾ أي يعلم ماتكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر *.. وبقية الأقوال نحو ماذكر . أما التفسير : ﴿ **ألَا إنّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ** ﴾ يزورون عن الحق ، وينحرفون عنه ﴿ **لَيستَخْفُوا مِنْهُ** ﴾ يعني من رسول الله ﷺ ذكره الخازن . وقال مجاهد : من الله عز وجل . وهو الصحيح لأن ماقبله أي الضمير ﴿ **إلى الله مرجعكم وهو على كُلّ شيء قدير * ألَا إنَّهُم يثنُون صدورهم ليستخفوا منه** ﴾ أي ليطلبوا الخفاء من الله فلا يطلع رسوله والمؤمنين على أزوارهم ﴿ **ألَا حِينَ يَسْتَغْشونَ ثِيابَهُمْ** ﴾ يتغطون بها بقصد الاستخفاء . ومن الجائز كراهة الاستماع لكلام الله كقول نوح عليه السلام في صفة قومه : جَعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا * على الكفر ومما يؤيد كون مرجع الضمير إلى الله تعالى قوله : ﴿ **يَعْلَمُ مايُسِرُّون ومَايُعْلِنون** ﴾ أي لاتفاوت في علمه تعالى بين إسرارهم واعلانهم . فلا وجه لتوصلهم إلى مايريدون من الاستخفاء ، والله مطلع على ثنيهم صدورهم ، واستغشاهم ثيابهم ونفاقهم غير نافع عنده ، قيل نزلت في المنافقين . وهو الصحيح . ولذا قال ابن جرير : واختلف قارئوا ذلك كذلك في تأويله . فقال بعضهم : ذلك كان من فعل بعض المنافقين . كان إذا مر رسول الله ﷺ غطى وجهه وثنى ظهره وأسنده إلى عبد الله بن شداد قال : كان المنافقون إذا مروا به ثنى أحدهم صدره . ويطأطىء رأسه فقال الله : ﴿ **ألَا إنّهم يثنُون صدورهم** ﴾ وسياق الآية يدل عليه *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَلَئِنْ أخّرنا عَنهُمُ العَذابَ إلَى أُمَّةٍ مَعْدُودةٍ ليقولُنَّ مَايَحْبِسُهُ ألَا يَوْمَ يأتِيهِمْ ليْسَ مَصرُوفاً عَنهُمْ وحَاقَ بِهِمْ ماكانُوا بِهِ يستهزِؤنَ** ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : لما نزل : ﴿ **اقْتَرَبَ للنَّاسِ حِسَابَهُمْ** ﴾ قال ناس : إنَّ الساعة قد اقتربت فتناهوا ، فتناهى القوم قليلاً ، ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء ، فأنزل الله : ﴿ **ولَئِنَ أخّرْنا عَنهُمْ إلَى أُمّةٍ مَعْدُودةٍ ..** ﴾ الآية ، ولم أجد مايعضد هذا القول فيما تحت يدى من التفاسير . أما التفسير : ﴿ **وَلَئِنْ أخّرْنا عَنهُمُ العذابَ إلَى امّةٍ مَعْدُودةٍ** ﴾ أي ولئن أخرنا عنهم عذاب الآخرة ، أو عذاب يوم

بدر إلى جماعة من الأوقات معدودة : معلومة ، أو قلائل . والمعنى إلى حين معلوم في علمنا وهو مقتضي سننا في خلقنا ، وبيناه في كتابنا بقولنا : ﴿ لكل أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ استهزاءً ﴿ مايَحْبِسُهُ ﴾ ؟ أي أيُّ شيء يمنع هذا العذاب من الوقوع إن كان حقاً . ثم توعدهم بنزوله فقال : ﴿ أَلَا يَوْمَ يأتيهِمْ ﴾ في الوقت المعلوم لنا ﴿ لَيْسَ مصْرُوفاً ﴾ العذاب ﴿ عَنْهُمْ ﴾ إلى غيرهم . فلا يصرفه عنهم صارف ولا يحبسه عنهم حابس ﴿ وحاقَ بِهِمْ ماكانُوا بِهِ يسْتَهْزِؤن ﴾ أي وسيحيط بهم العذاب من كل جانب . وهو ملاقيهم أينما كانوا . ولا منجى منه ولا مهرب ، ويقال لهم : ذوقوا ما كنتم به تستعجلون *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفِى النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذَلِكَ ذِكْرىٰ لِلذَّاكِرِينَ * واصْبِرْ فإنّ الله لايُضيْعُ أجْرَ المحسنينَ ﴾ في الواجدي : عن عبد الله ابن مسعود قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : إني عالجت امرأة في أقصى المدينة . وإنى أصبت منها دون أن آتيها ، وأنا هذا فاقض في ما شئت قال : فقال عمر : لقد سترك الله لو سترت نفسك ، فلم يرد عليه النبي ﷺ . فانطلق الرجل ، فاتبعه رجل ودعاه فتلا عليه هذه الآية . فقال رجل يارسول الله : هذا له خاصة ؟ قال : لا . بل للناس كافة * رواه مسلم عن يحى ، ورواه البخاري عن طريق يزيد بن زريع ، وفي رواية أنه أصاب منها قبلة ، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له . وفي رواية موسى بن طلحة أن كنية الرجل . أبو اليسر بن عمرو . قال أبو اليسر : أتتني امرأة وزوجها بعثه النبي ﷺ في بعث . فقالت : بعنى بدرهم تمراً ، قال : فأعجبتني . فقلت : إن في البيت تمراً هو أطيب من هذا فالحقيني ، فغمزتها وقبلتها ، فأتيت النبي ﷺ

فقصصتُ عليه الأمر، فقال: خنتَ رجلاً غازياً في سبيل الله في أهله بهذا، وأطرق عنى، فظننت أنى من أهل النار، وأن الله لا يغفر لى أبداً، وأنزل الله تعالى: «وأَقِمِ الصَّلاة طرفَى النَّهارِ..» الآية. فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم فتلاها عليه * قلت: والحديث أخرجه ابن أبى خيثمة. لكن قال: إن رجلاً من الأنصار يقال له:

معتب. وقيل: اسمه نبهان التمّار. وقيل: عمرو بن غزيّة. وقيل: عامر بن قيس. وقيل: عباد بن عمرو بن داود بن غنم بن كعب الأنصاري السلمي. والله أعلم. وحديث نبهان التمار أخرجه الثعلبي وغيره من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس. أن نبهان التّمار أتته امرأة حسناء جميلة تبتاع منه تمراً فضرب على عجيزتها، ثم ندم فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إياك أن تكون امرأة غاز في سبيل الله. فذهب يبكي ويصوم ويقوم فأنزل الله: **«والّذينَ إذا فعَلُوا فَاحِشَةً أو ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ»** فأخبره، فحمد الله وقال يارسول الله: هذه توبتي قبلت، فكيف لي بأن يتقبل شكري فنزلت: **«وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ..»** الآية * قيل: إن ثبت هذا حمل على واقعة أخرى لما بيْن السياقين من المغايرة وفي رواية أحمد والطبراني من حديث ابن عبّاس، فقال يا رسول الله: إليَّ خاصة، أم للناس عامّة؟ فضرب عمر رضي الله عنه صدره، وقال: لاَ، ولا نعمة عيْن بل للناس عامّة، فقال صلى الله عليه وسلم: صدق عمر. قال هيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والطبراني في الكبير وقال فيه: فرفع عمر يده فضرب صدره فقال: لا، والله ولا كرامة، ولكن للناس عامّة، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: صدق عمر. وقال: وعن ابن عباس أن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كان تحته امرأة، فأستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة، فأذن له، فانطلق في يوم مطير، فإذا بالمرأة على غدير ماء تغتسل، فلمّا جلس منها مجلس الرجل من المرأة ذهب يحرّك ذكره، فإذا هو هدبة، فقام فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك به فقال النبي صلى الله عليه وسلم: صل أربع ركعات. فأنزل الله تبارك وتعالى: **«وأقِمِ الصَّلاةَ طرفَي النَّهارِ وزُلَفاً مِنَ الليْلِ إنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّآتِ»** الآية * قال الهيثمي: رواه البزار. ورجاله رجال الصحيح. وهكذا بقيّة الأقوال لا تخرج عما ذكرت.

أما التفسير: **«وأَقِمِ الصَّلاةَ»** داوم على إقامتها وأدها على الوجه القويم **«طَرَفَي النّهارِ»** من كل يوم والمراد: الغداة والعشيّ. أي صلاة الصبح والظهر والعصر. **«وزُلَفاً»** جمع زلفة، أي طائفه **«من اللّيْلِ»** المغرب والعشاء **«إنَّ الْحَسَنَاتِ»** كالصلوات الخمس الواجبة والمندوبة **«يُذْهِبْنَ الْسَّيِّئاتِ»** الذنوب الصغائر، وقد علمت أنها نزلت فيمن غمز أو قبلّ امرأة أجنبيّة: **«ذَلِكَ»** المذكور من الأمر بالاستقامة

في قوله قبل هذه الآية: «فاستَقِمْ كَمَا أُمِرْت وَمَنْ تابَ معك...» وما بعده «ذِكْرَى لِلـذَّاكرينَ» عظة للمتّعظين. ولا يظننّ أحد أن الشارع قد تهاون بمثل تلك الذنوب الصغيرة بتكفيرها بالصلوات ليتخذ ذلك ذريعة إلى العبث في أعراض الناس من غمز واحتكاك وقبلة، فإن الإصرار عليها كبيرة واجتناب الكبائر واجب. ثم أمر بالصبر على التكاليف المذكورة أمراً ونهياً. ونصّ على أن الإتيان بها إحسان وأن جَزاءهُ سيحصل لا محالة فقال: «واصْبِرْ فإنَّ الله لا يُضِيعُ أجْرَ الْمُحْسِنين» أي ووطّن نفسك على احتمال المشقة في سبيل ما أُمرت به، وما نهيت عنه، فإنه تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً بل يوفيه ثواب عمله من غير بخس له، وفي الآية إيماء إلى أن الصّبر من باب الإحسان.

سورة يوسف وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أوْحَيْنا إليْكَ هَـذا الْقُرْآنَ وإنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ»

في الواحدي: قال سعد بن أبي وقاص في قوله عزّ وجلّ: «نحنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أحْسَنَ الْقَصَصِ» أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتلاهُ عليهم زماناً، فقالوا يا رسول الله: لو قصصت فأنزل الله تعالى: «الـر * تلك آياتُ الكتاب المبين» إلى قوله: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أحْسَنَ الْقَصَصِ» الآية فتلاه عليهم زماناً، فقالوا يا رسول الله: لو حدّثتنا، فأنزل الله تعالى:

﴿ الله نَزَّلَ أحْسنَ الحديثِ كِتَاباً متشابهاً ﴾ قال: كل ذلك ليؤمنوا بالقرآن * رواه الحاكم أبو عبيد الله في صحيحه عن أبي بكر العنبري. وقال عوف بن عبد الله: مل أصحاب رسول الله ﷺ ملة. فقالوا يا رسول الله: حدثنا، فأنزلنا الله تعالى: ﴿ الله نَزَّلَ أحسْنَ الحديث .. ﴾ الآية قال: ثم إنهم ملوا ملة أخرى فقالوا يا رسول الله: فوق الحديث ودون القرآن. يعنون القصص. فأنزل الله تعالى: ﴿ نحن نقصُّ عَلَيْكَ أحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث. وأرادوا القصص. فدلهم على أحسن القصص * والتفسير واضح. وجميع الأقوال في التفاسير نحو ما ذكر.

سورة الرعد وبيان مافيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فيصيبُ بهَا مَنْ يَشاءُ وهُمْ يُجَادِلُونَ فِي الله وَهُوَ شديدُ الْمِحَالِ** ﴾ في الواحدي : قال أنس بن مالك : إن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب . فقال : اذهب فادعه لي ، فقال يارسول الله : إنه أعتى من ذلك . قال : اذهب فادعه لي . قال : فذهب إليه ، فقال : يدعوك رسول الله . قال : وماالله ؟ أمن ذهب هو ؟ أو من فضة ؟ أو من نحاس ؟ قال : فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره وقال : وقد أخبرتك أنه أعتى من ذلك ، فقال : كذا وكذا . فقال : ارجع إليه الثانية فادعه ، فرجع إليه ، فعاد عليه مثل الكلام الأول . فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره . فقال : ارجع إليه . فرجع الثالثة . فأعاد عليه ذلك الكلام . فبينما هو يكلمه إذ بعثت إليه سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة ، فذهبت بقحف رأسه . فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فيصيبُ بهَا مَنْ يَشاءُ وهُمْ يُجَادِلُونَ فِي الله وَهُوَ شديدُ الْمِحَالِ** ﴾ وقال ابن عباس في رواية أبي صالح وابن جرير وابن زيد : نزلت هذه الآية والتي تليها أي ﴿ **سواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أسرَّ الْقَوْلَ ومَنْ جَهَرَ به** ﴾ نزلت في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة . وذلك أنهما أقبلا يريدان رسول الله ﷺ ، فقال رجل من أصحابه يارسول الله : هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك ، فقال : دعه فإن يرد الله به خيراً يهده . فأقبل حتى قام عليه . فقال يا محمد : مالي إن أسلمت ؟ قال : لك ماللمسلمين وعليك ماعليهم . قال : تجعل لى الأمر بعدك . قال : لا ، ليس ذلك إليّ ، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء . قال : فتجعلني على الوبر ، وأنت على المدر . قال : لا . قال : فماذا تجعل لي ؟ قال : أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها . قال : أو ليس ذلك إلى اليوم ؟ وكان أوصى أربد بن ربيعة إذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه واضربه بالسيف فجعل يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه . فدار أربد خلف النبي ﷺ ليضربه ، فاخترط من سيفه شبراً ، ثم حبسه الله تعالى فلم يقدر على سله . وجعل عامر يومىء إليه ، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد

ومايصنع بسيفه ، فقال : اللهم اكفنيهما بما شئت . فأرسل الله تعالى على أربد صاعقة في يوم صائف صاح فأحرقته . وولى عمر هارباً . وقال يامحمد : دعوت ربك فقتل أربد . والله لأملأنها عليك خيلاً جُرداً وفتيا مرداً . فقال رسول الله ﷺ : يمنعك الله تعالى من ذلك . وابنا قيلة . يريد الأوس والخزرج ، فنزل عامر بيت امرأة سلولية ، فلما أصبح ضم عليه سلاحه فخرج وهو يقول : واللات لئن أصحر محمد إلى وصاحبه — يعني ملك الموت لأنفذهما برمحي . فلما رأى الله تعالى ذلك منه أرسل ملكاً فلطمه بجناحيه فأذراه في التراب ، وخرجت على ركبته غدة في الوقت كغدة البعير ، ومات في بيت السلولية . ثم مات على ظهر فرسه . وأنزل الله تعالى فيه هذه القصة . ﴿ **سَوَاءٌ مِنْكُمْ منْ أسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَر بِهِ** ﴾ الآية . حتى بلغ : ﴿ **وما دُعَاءُ الكافِرينَ إلَّا في ضلالٍ** ﴾ * وفي اللباب نحو قطعة منه وهو في الطبراني وفي الأوسط والكبير ذكروا الرواتين . ورواه أبو يعلي والبزار بنحوه ورجال البزار — رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان وهو ثقة . وكذا بقية الأقوال في التفاسير . أما التفسير : ﴿ **وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ** ﴾ هي نار تتولد من السحاب وتنزل بقوة شديدة فربما غاصت في البحر وأحرقت الحيتان قال صاحب الغرائب : ووجه الاستلال بها على الصانع أن النار حارة يابسة ، وطبيعة السحاب يغلب عليها الرطوبة والبرودة للأجزاء المائية فيه ، وحصول الضد من الضد لايكون بالطبع ، وإنما بتدبير القادر المختار وتسخيره * وقوله : ﴿ **فيصيبُ بهَا مَنْ يَشاءُ** ﴾ اصابته بها فيهلكه . ﴿ **وهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ** ﴾ أي يجادلون في شأنه تعالى ، وفيما وصفه به الرسول من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية . وإعادة الناس للجزاء على أعمالهم يوم العرض والحساب . ﴿ **وَهُوَ شديدُ الْمِحَالِ** ﴾ أي وهو سبحانه لايغالب ، فهو شديد البطش والكيد لأعدائه ﴿ **له دعْوَةَ الْحَقِ** ﴾ أي له تعالى الدعاء والتضريح الواقع حيث ينبغي أن يكون ، والمجاب حين وقوعه . أي إن إجابة ذلك له تعالى دون غيره .

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جميعاً أَفَلَمْ يَيْأسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جميعاً ولَا يَزالُ الَّذِينَ كفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قارعةٌ أوْ تَحُلُّ قَرِيباً منْ**

دَارِهِمْ حَتَّى يأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إنَّ اللهَ لايُخْلِفُ الْميعَادَ ﴾ في الواحدى : أخرج الطبرانى وغيره عن ابن عباس قال : قالوا للنبي ﷺ : إن كان كما تقول فأرنا أشياخنا الأول نكلم من الموتى . وافسح لنا هذه الجبال حيال مكة التي قد زاحمتنا . فنزلت الآية * وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن عطية العوفي قال : قالوا للنبي ﷺ : لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع ، فنحرث فيها . أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح . أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحى الموتى لقومه فأنزل الله الآية * وكذا في ابن كثير ومجمع الزوائد والطبري وفيه ألفاظ مختلفة وفي المعنى متقاربة أن كفار قريش طلبوا من محمد ﷺ دلالة على صدق نبوته أن يسيّر لهم الجبال لتتسع لهم أرض مكة ، أو يقرب لهم بلاد الشام لأنهم يتجرون إليها ، أو يحى لهم آباءهم ليكلّموهم فنزلت الآية .

أما التفسير **«ولَوْ أنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ»** عن أماكنها وأزيلت عن مستقرّها إلى مكان آخر . هذا طلب أوّل ، والثاني **«أوْ قُطِّعتْ بِهِ الأرض»** أي شقّت فجعلت أنهاراً وعيوناً من خشية الله عند قراءته . والثالث **«أوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى»** بأن يَحْيُوا بقراءته فتكلم معهم بعد لَمَا آمنوا . فرَدَّ الله عليهم بقوله : **«بَلْ لله الأمْرُ جميعاً»** أي مرجع الأمور كلها بيد الله . فهو القادر على الاتيان بما اقترحوه من الآيات ، لكنَّ الإرادة لم تتعلّق بذلك لعلمه أن قلوبهم لا تلين ، ولا يجدى هذا فائدة في إيمانهم . ونزل لما أراد الصحابة إظهار ما اقترحوه طمعاً في إيمانهم **«أفَلَمْ ييْأسِ»** يعلم **«الَّذِينَ آمَنُوا أن لَوْيَشَاءُ اللهُ لَهَدى النَّاسَ جميعاً»** ؟ إلى الإيمان من غير آية ، ولكن لم يفعل ذلك لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم ، وكلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره ، والمعنى أنَّه تعالى لم يهد جميع الناس لعدم مشيئته ذلك **«ولاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا»** من أهل مكّة **«تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا»** بصنعهم ، أي كفرهم ، ومعلوم أنَّ الباء هنا سببيّة ، وما مصدريّة **«قارِعَةٌ»** داهية تقرعُهُم بصنوف البلاء من القتل والأسر والحرب والجدب **«أوْ تَحُلُّ»** يا محمد بجيْشك **«قَريباً مِنْ دارِهِمْ»** مكّة ، وقد حلّ بالحديبية في السنة السادسة ، ومنعوه من دخول مكة ، وصالحوه على أن يمكّنوه من الدخول في السّنة التى بعدها ... **«حَتَّى يأتِيَ وَعْدُ الله»** بالنصر عليهم ، وقد جاء بحمد الله بفتح مكة **«إذا جَاءَ نَصْرُ الله والفتح»** **«إنَّ الله لا يُخْلِفُ الميعَادَ»** لما وعد ، وكان وعد الله مأتيا .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى: «**يَمْحُوا الله ما يَشَاءُ ويُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَـابِ**»

في اللبـاب: أخـرج ابـن أبي حـاتم عن مجاهد قال: قالت قريش حين أنزل «**وما كَانَ لنبيّ أنْ يأتي بآية إلاّ بإذْنِ الله**» ما نراك يا محمد تملك من شيء لقد فرغ من الأمـر. فأنـزل الله «**يَمْحُوا الله ما يَشَاءُ ويُثْبِتُ**» * وفي ابن كثير: فأنزلت هذه الآية تخـويفـاً ووعـيداً لهم: إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا * وفي الخازن: «**يَمْحُوا الله مـا يـشَـاءُ ويـثبتُ**» وذلك أنهم لما اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فـقـالوا: إن محـمداً يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمرهم بخلافه غـداً، وما سبب ذلك إلا أنـه يـقـول مـن تـلـقـاء نـفسه. فأجاب الله عن هـذا الإعتراض بقوله: «**يَمْحُوا الله ما يَشَـاءُ ويثبت**» وقال: جواب لشبهة أخرى من طرفهم. حاصلها أنهم قالوا: إن محمداً يـأمـر أصـحـابـه الـيوم بأمر كاستقبال بيت المقدس ثم يأمرهم غـداً بخلافه، كاستقبال الكعبة، وما ذلك إلا لكونه يقولُـه من تلقاء نفسـه، فأجابهم الله بقوله: «**يَمْحُوا الله ما يشَـاءُ..**» * قولـه: «**وعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَـابِ**» أصله الذي لا يتغيّر منه شيء، وهو ما كـتـبه في الأزل. والأم الأصل * وفي الكرخي عن ابن عباس: الكتاب اثنان: كتاب يمحـو الله ما يشاء فيه، وكتاب لا يغيّر، وهو علم الله، والقضاء المبرم * وأما نحو خبر: صـلـة الـرحـم تـزيـد في الـعـمـر. فمحمول على زيادة البركة، أو على زيادة ما في اللوح المحـفـوظ لا مـا في أم الـكـتـاب * وقـد أثـر عـن أئمة السلف في: «**يَمْحُوا الله ما يشاء ويُثْبِـتُ**» أقوال منها قول الحسن: يمحو الله من جاء أجله و يثبت من بقي أجله * ومنها قـول عِـكْـرمة: يمحو الله القمر و يثبتُ الشمس * ومنها قول الربيع: يقبض الله الأرواح حين النوم فيميت من يشاء ويمحوه، و يرجع من يشـاء فيثبته * ومنها قول السّـدى: مثل قـــول عكرمة، ومنها قـول سعيد بن جبير وقتادة يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فـيـنـسـخـه و يـبـدّلـه و يثبت ما يشـاء من ذلك فلا ينسخه ولا يبدلـه * ومنها قول ابن عـبـاس: يمـحو الله ما يشاء و يثبت الأرزاق والأجـل والسـعادة، والشقاوة، و يدل على صحـة هـــذا التأو يل ما روى عن حذيفة بن أسيد قال: سمعت رسـول الله صلى الله عـلـيـه وسـلم يقول: (إذا مـرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصوّرها، وخـلـق سـمـعـهـــا و بصـرها وجلدهـا ولحمها وعظامها، ثم قال يارب: أذكـر أم أنثى؟

فيقضي ربك ما يشاء، فيكتب الملك، ثم يقول يارب: أجله؟ فيقول ربّك ما يشاء، ويكتب الملك، ثم يقول الملك يارب، رزقه؟ فيقول ربك: ما يشاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك الصحيفة، فلا يزيد على أمر ولا ينقص) أخرجه مسلم ٭ وأخرج الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق (أن خلق أحدكم يجمع في بطن أُمّه نطفة أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وشقيّ أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فوالذي لا إلٰه غيره إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتى ما يكون بينه وبينها إلاَّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بنيه وبينها إلاَّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخلها) وهذه يستحيل زيادتها ونقصانها وكذلك يستحيل أن ينقلب السعيد شقيّاً أو الشقيّ سعيداً

زيادة إيضاح لمعنى قوله: يَمْحُوا الله ما يشَاءُ

يجب الاعتقاد بأن الله عز وجلّ عالم بالآجال والأرزاق والسعادة والشقاوة وحقيقة العلم: معرفة المعلوم على ما هو عليه. ومثال ذلك: فإذا علم الله أن فلان من الناس سيموت في وقت كذا فهنا يستحيل أن يموت قبله أو بعده لقوله تعالى: «**فإذا جاءَ أجَلُهُمْ لا يَسْتأخِرونَ سَاعةً ولاَ يَسْتَقْدِمونَ**» إذاً الآجال لا تزيد ولا تنقص أما زيادة العمر بصلة الرحم يجاب عنها:

١ - إما أن تكون زيادة بالبركة في عمره بالتوفيق لعمل الطاعات وعمارة وقته بما ينفعه في دنياه وآخرته.

٢ - وإمّا أن تظهر الملائكة على اللوح المحفوظ فيروه أن عمره مثلاً سبعون سنة إلاَّ أن يصل رحمه فإن وصلها زيد له عشر سنين. وقد علم الله في الأزل ما سيقع من ذلك، وهو معنى قوله: «**يَمْحُو الله ما يَشاءُ ويثبتُ**». ذلك بالنسبة لما يظهر من تصور الزيادة. ونحو هذا المفهوم من انقلاب الشقي سعيداً وبالعكس فيتصور في واقع الحال لأن الكافر الشقي قد يسلم.

فينقلب من الشقى الأبدي إلى السعادة الأبدية . ومثله العاصي فقد يتوب ويحسن العمل فينقلب من الشقاوة إلى السعادة ، وبالعكس . فقد ينقلبون ـــ والعياذ بالله ـــ من السعادة إلى الشقاوة . فيرتد المسلم ويموت مرتداً ، ويفتن الطائع في المعاصي ويموت على معصيته وذلك انقلاب من السعادة إلى الشقاوة . والأصل في هذا الاعتبار بالخاتمة عند الموت . ومايختم الله به له . وهو المراد من علم الله الأزلي الذي لا يتغير ولا يتبدل .

أقوال العلماء في معني المحو والإثبات

القول الأول : وهو حمل الآية على ظاهرها . وهي عامة في كل شيء : فيزيد الله ما يشاء في الرزق والأجل الخ ... وهو قول عمر وابن مسعود رضي الله عنهما . قالا : يمحو السعادة والشقاوة . ويمحو الرزق والأجل ويثبت ما يشاء . روى أن عمر رضي الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول : اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فاثبتني فيها . وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة ، فامحني منها . وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة . فإنك تمحو ماتشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وروى مثله عن ابن مسعود ، ورد في بعض الآثار عنه أن الرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيمتد إلى ثلاثين سنة ذكره البغوي بدون سند . وروى بسنده عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : ينزل الله تبارك وتعالى في ثلاث ساعات بقين من الليل فينظر في الساعة الأولى منهن في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره . فيمحو ما يشاءُ ويثبت *

القول الثاني : حمل بعض العلماء معنى الآية على الخصوص في بعض الأشياء دون بعض . فقالوا : المراد بالمحو والإثبات . نسخ الحكم المتقدم وإثبات حكم آخر عوضا عن الحكم المتقدم *

القول الثالث : إن الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحوا الله ما يشاء من ديوان الحفظة مما ليس فيه ثواب ولا عقاب . مثل قول القائل أكلت وشربت الخ .. وهو

قول الضحاك . وقال الكلبي يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب *

القول الرابع : لابن عباس رضي الله عنه . هو الرجل يعمل بطاعة الله ، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلاله ، فهو الذي يمحو ، والذي يثبت هو الرجل يعمل بطاعة الله ، ثم يموت وهو في طاعته ، فهو الذي يثبت *

القول الخامس : للحسن رضي الله عنه : يمحو الله ما يشاء . يعني من جاء أجله فيذهبه . ويثبت من لم يجيء أجله .

القول السادس : لسعيد بن حبير : يمحو الله ما يشاء من ذنوب عباده فيغفرها . ويثبت ما يشاء منها فلا يغفرها *

القول السابع : لعكرمة : يمحو الله ما يشاء من الذنوب بالتوبة ، ويثبت بدل الذنوب حسنات *

القول الثامن : للسدى : يمحو الله ما يشاء يعني القمر ، ويثبت الشمس *

القول التاسع : للربيع . هذا في الأرواح يقبضها الله عند النوم . فمن أراد موته محاه وأمسكه . ومن أراد بقاءه أثبته وردّه إلى صاحبه *

القول العاشر : إن الله يثبت في أول كل سنة حكمها فإذا مضت السنة محاه وأثبت حكما آخر للسنة المستقبلة *

القول الحادي عشر : هو في المحن والمصائب فهي مثبتة في الكتاب ، ثم يمحوها الدعاء والصدقة * قلت : والذي تسكن إليه النفس هو قول من قال نسخ للأحكام الشرعية كمحو استقبال بيت المقدس في الصلاة إلى استقبال الكعبة ، ومحو حكم العدة من الحول إلى أربعة أشهر وعشر . ومحو التخفيف في القتال . ونحو ذلك . فيكون المعنى : يمحو الله ما يشاء أي ينسخ ما يشاء نسخه من الأحكام لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت . ويثبت بدله ما فيه المصلحة أو يبقيه على حاله غير منسوخ . والله أعلم .

سورة إبراهيم وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

لم أجد فيها إلا ذكر سبب نزول آية واحدة وهي قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ أخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال : نزلت هذه الآية في الذين قتلوا يوم بدر . أي من المشركين * وفي ابن كثير : وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : هو جَبَلَةُ بن الأيهم . والذين اتبعوه من العرب . فلحقوا بالروم . وذكر عطاء أنه سمع ابن عباس ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً ﴾ قال : هم كفار أهل مكة . قال ابن كثير : وهو الصحيح . وإن كان المعنى يعم جميع الكفار . فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين . ونعمة للناس فمن قبلها . وقام بشكرها دخل الجنة . ومن ردها وكفر دخل النار * وفيه أن ابن الكواء سأل عليًّا عن الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومه دار البوار : قال : هم كفار قريش يوم بدر . وفي رواية عنه قال : منافقوا قريش .. وفي قول عنه . مشركو قريش أتتهم نعمة الله بالإيمان فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . وفي رواية عنه قال : هم الأفجران من قريش : بنو أمية ، وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة . فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر . أوما بنو أمية فأحلوا قومهم دار ا لبوار يوم أحد . وكان أبو جهل يوم بدر . وأبو سفيان . يوم أحد . وأما دار البوار . فهي جهنم وأما التفسير فواضح .

سورة الحجر وبيان ما فيها أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : كانت تصلي خلف النبي ﷺ امرأة حسناء في آخر النساء ، وكان بعضهم يتقدم إلى الصف الأول لئلا يراها . وكان بعضهم يتأخر في الصف الآخر . فإذا ركع قال هكذا ونظر من تحت إبطه ، فنزلت : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ قلت : ورواه الترمذي والنسائي : والحاكم وغيرهم زاد الحاكم في مستدركه : وجاء في يديه * أي ينظر من تحت

إبطه . قال الحاكم : هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وأقره الذهبي . وفي الواحدي أيضا : وقال الربيع بن أنس : حرّض رسول الله ﷺ على الصف فى الصلاة ، فازدحم الناس عليه ، وكان بنو عذرة دورهم قاصية عن المسجد ، فقالوا : نبيع دورنا ونشتري دوراً قريبة من المسجد . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي اللباب : وأخرج ابن مردويه عن داود بن صالح أنه سأل سهل بن حنيف الأنصاري : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ أنزلت هذه الآية في سبيل الله ؟ قال : لا ، ولكنها في صفوف الشام * وقد اعتبر ابن كثير أن حديث ابن عباس في الآية . فيه نكارة شديدة رغم رواية مسلم له والحاكم وغيرهما من أصحاب السنن . ونقل عن محمد بن كعب في ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمينَ مِنْكُمْ ﴾ الميت والمقتول . ﴿ والْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ من يخلق بعد * قلت : ولعله ربط الآية التي سبقتها فيها وهي قوله : ﴿ وإنَّا لَنَحْنُ نُحْيِ ونُمِيتُ ونَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمينَ مِنْكُمْ ﴾ أي من تقدم من الخلق بالموت من لدن آدم ﴿ ولَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخرِينَ ﴾ من يخلق ويقدم إلى يوم القيامة ، وهو توجيه سديد لأن الآية الثانية كالبيان للأولى لأنه لايبقى أحد سواه . فيزول ملك كل مالك . ويبقى جميع المالكين المستقدمين والمستأخرين لنا . والتفسير واضح *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وعُيُونٍ ﴾ في لباب السيوطي : أخرج الثعلبي عن سلمان الفارسي لما سمع قوله تعالى : ﴿ وإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُم أجْمَعِينَ ﴾ فر ثلاثة هارباً من الحزن لايعقل ، فجيء به للنبي ﷺ ، فسأله : فقال يارسول الله : أنزلت هذه الآية : ﴿ وإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُم أجْمَعِينَ ﴾ فوالذي بعثك بالحق ، لقد قطعت قلبي . فأنزل الله : ﴿ إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وعُيُونٍ ﴾ ولم أجد غير هذا القول في التفاسير . بل لم أجد فيها مايعضده . أما التفسير ﴿ إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وعُيُونٍ ﴾ أي مستقرون فيها خالدون لكل واحد جنة وعين . أو لكل منهم عدة منها . كقوله تعالى : ﴿ وَلِمنَ خَافَ مقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ قال ابن عباس : المراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك بالله سبحانه والكفر به * قال جمهور الصحابة والتابعين وهو الصحيح لأن المتقي هو الآتي بالتقوى ، ولو مرَّة واحدة . كما أن الضارب هو الآتي بالضرب ولو مرة واحدة . والقاتل هو الآتي بالقتل ولو مرة واحدة . فكما أنه

ليس من شرط صدق الوصف بكونه ضارباً وقاتلاً أن يكون آتياً بجميع أنواع الضرب والقتل . فكذلك ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقياً أن يكون آتياً . بجميع أنواع التقوى لأن الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتياً بالتقوى ، لأن كل فرد من أفراد الماهية يحسب كونه مشتملاً عل تلك الماهية . وبهذا التحقيق استدلوا على أن الأمر لا يفيد التكرار . وإذا ثبت ذلك فأجمعت الأمة على أن التقوى عن الكفر شرط في حصول الحكم بدخول الجنة . وقال الجبائي وجمهور المعتزلة : هم الذين اتقوا جميع المعاصي . قالوا : لأنه اسم مدح لا يتناول إلا من كان كذلك . (الكرخي) *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَنَزَعْنَا مَافِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً على سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فيهَا نَصَبٌ ومَاهُمْ بِمُخْرَجِينَ** ﴾ في الواحدي : حدث عليّ بن هشام عن كثير النوا . قال : قلت لأبي جعفر إن فلاناً حدثني عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعليّ رضي الله عنهم — ﴿ **وَنَزَعْنَا مَافِي صُدُورِهِمْ ...** ﴾ الآية ؟ قال : والله إنها لفيهم نزلت . وفيهم نزلت الآية . قلت : وأي غل هو ؟ قال : غل الجاهلية : إن بنى تيم وعدى وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية عداوة . فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا . فأخذت أبو بكر الخاصرة فجعل عليّ يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر . فنزلت الآية * وروى الطبري عن أبي موسى أنه سمع الحسن البصري يقول : قال عليٌّ : فينا نزلت والله أهل بدر : ﴿ **وَنَزَعْنَا مَافِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً على سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ** ﴾ ولم أعثر على غير ما ذكر . أما التفسير : ﴿ **وَنَزَعْنَا مَافِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ** ﴾ الغل الحقد الكامن في القلب ، ويطلق على الشحناء والعداوة والبغضاء . والحقد والحسد . فكل هذه الخصال المذمومة داخل في الغل لأنها كامنة في القلب . روى أن المؤمنين يقفون على باب الجنة وقفة بعضهم من بعض . ثم يؤمر بهم إلى الجنة . وقد نقى الله قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد . حال كونهم ﴿ **إِخْواناً على سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ** ﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسرة بهم . والسرير مشتق من السرور . فهو مجلس رفيع عال موطأ للسرور . قال ابن عباس : أي على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت ، والسرير مثل ما بين صنعاء إلى الجابية ﴿ **لَا يَمَسُّهُمْ فيهَا نَصَبٌ** ﴾تعب من كثرة التنزه

والسهر ، وليس هناك ليل ولا نهار . ﴿ وماهُمْ بِمُخْرَجِينَ ﴾ أبداً *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ نَبِّيء عِبَادِي أنّي أنا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ في الواحدي : روى ابن المبارك باسناده عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أنه قال : طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي دخل منه بنو شيبة . ونحن نضحك . فقال : لاأراكم تضحكون . ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر ، رجع إلينا القهقرى ، فقال : إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال يامحمد : يقول الله تعالى عز وجل : لِمَ تقنّطْ عبادي ؟ ﴿ نبّيء عبادِي أنّي أنا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وأنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذابُ الأَلِيمُ ﴾ * جلَّ جلاله ماألطفه وأرحمه بعباده !!! وفي لباب السيوطي : أخرج الطبراني عن عبد الله بن الزبير قال : مر رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه يضحكون . فقال : أتضحكون ؟ وذكر الجنة والنار بين أيديكم ، فنزلت هذه الآية : ﴿ نَبِيءْ عِبَادِي أَنِّي أنا الْغِفُورُ الرَّحيمُ . وأنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ * أضاف الله عباده المؤمنين إليه تشريفاً لهم . فاللهم اجعلنا منهم لننال هذا الشرف العظيم . ألا ترى أنه قال لنبيه محمد ﷺ : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا » ولما ذكر تعالى الرحمة والمغفرة بالغ في

التأكيدات بألفاظ ثلاثة أولها قوله : أني . وثانيها : أنا . وثالثها : إدخالها الألف واللام على قوله : الغفور الرحيم . ولما ذكر العذاب لم يقل إني أنا المعذب وماوصف نفسه بذلك قال : « وأن عذابي هو العذاب الأليم » . ولما أمر رسول الله ﷺ بإبلاغهم ذلك . فكأنه أشهد على نفسه في التزام المغفرة والرحمة . ولما قال : نبيء عبادي . أي أخبر عبادي . أي كل من كان معترفاً بعبوديتى وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه المؤمن العاصي . فكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة بعباده من الله تعالى .*

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي والْقُرْآنَ الْعَظِيمَ * لاتَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مٰامَتَّعْنَا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ ولَاتَحْزَنْ عَلَيْهِمْ واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمنينَ ﴾ في الواحدي : قال الحسين بن الفضل : إن سبع قوافل وافت من بصري وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد فيها أنواع من البر ــ بالفتح نوع

من الثياب ـــ وأوعية الطيب والجواهر . وأمتعة البحر . فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتوقينا بها . فأنفقناها في سبيل الله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقال : لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير لكم من هذه السبع القوافل * ويدل على صحة هذا القول : ﴿ **لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ** .. ﴾ الآية . وكذا في الخازن . وفي ابن كثير . عن أبي رافع : صاحب النبي ﷺ قال : ضاف النبي ﷺ ضيف ، ولم يكن عند النبي ﷺ أمر يصلحه ، فأرسل إلى رجل من اليهود يقول لك محمد رسول الله : أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب ، قال : لا إلَّا بِرَهْنٍ ، فأتيت النبي ﷺ ، فأخبرته ، فقال : أما والله إني لأمين من في السماء . وأمين من في الأرض ، ولئن أسلفني أو باعني لأودين إليه . فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية : ﴿ **لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ** .. ﴾ الآية . كأنه يعزيه عن الدنيا * وهكذا بقية الأقوال : أما التفسير : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ** ﴾ المراد بالسبع المثاني فاتحة الكتاب : ﴿ **الحمدُ لله ربّ الْعَالمين** .. ﴾ ، وهو قول عمر ، وعليٍّ وابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة والربيع والكلبي ، ويروى ذلك مرفوعاً أخرج البخاري عن أبي سعيد بن المعلي . قال : مربي النبي ﷺ وأنا أصلي ودعاني فلم آته حتى صليت ، ثم أتيت . فقال « مامنعك أن تأتي » ؟ فقلت كنت أصلي ، فقال « ألم يقل الله : ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسوله » ثم قال : « ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد » ؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد فذكرته . فقال : « الحمد لله رب العالمين : هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » . وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم » أم القرآن : الفاتحة . وإنا سميت بذلك لاشتمالها على المعاني التي في القرآن من الثناء على الله تعالى . ومن التعبد بالأمر والنهي ، ومن الوعد والوعيد . ولما فيها من الأصول الثلاثة : المبدأ والمعاش ، والمعاد . والقرآن العظيم عطف على أم القرآن ، وماورد في مجمع الزوائد عن واثلة بن الأسقع « ولقد آتيناك سبع من المثاني » أن رسول الله ﷺ قال : أعطيت مكان التوراة السبع الطوال .. » قال الهيثمي : رواه أحمد وفيه عمران القطان . وثقة ابن حبان ، وغيره وضعفه النسائي وغيره * قال : وعن ابن عباس في قوله : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ**

﴿ الْمَثَانِي ﴾ قال : هي السبع الطوال ..، رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح * قلت : ويعني بالسبع الطوال . السبع السور من القرآن . البقرة ومابعدها . فعن ابن عباس قال : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف قال اسرائيل وذكر السابعة فنسيتها * وعن سعيد بن جبير قال : هي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس * فهن الفرائض والحدود * وسئل : ماالمثاني ؟ قال : يثنى فيهن القضاء والقصص . وقال الطبري : حدثني سعيد بن يحى الأموي قال : ثنى أبي . قال ثنا ابن جريج . قال : أخبرنا أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : في قوله تعالى ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ قال هي فاتحة الكتاب فقرأها عليّ ستاً ، ثم قال : بسم الله الرحمن الرحيم . الآية السابعة . وقال : قد أخرجها الله لكم وماأخرجها لأحد قبلكم * قلت ومارواه البخاري هو الصحيح لأنه نص صحيح صريح في أن الفاتحة هي السبع المثاني والقرآن العظيم . ولكن لاينافي غيرها من السبع الطوال لما فيها من هذه الصفة . كما لاينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً لقوله تعالى : ﴿ **اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهَا مَثَانِي** ﴾ فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه . وهو القرآن العظيم * أما التفسير : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي** ﴾ قد علمت قوله عليه الصلاة والسلام أنها الفاتحة رواه الشيخان . وأخرج الحاكم في مستدركه عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «السبع المثاني فاتحة الكتاب» قال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم . ولم يخرجاه . قلت : وقد رواه مسلم أيضاً مرفوعاً عن أُبيّ بن كعب به . وأخرج الحاكم أيضاً عن ابن عباس قال : أُوتي رسول الله ﷺ سبعاً من المثاني والطوال .وأوتى موسى ستاً . قال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وأقره الذهبي * وروايته هنا ليست تفسيراً للسبع المثاني بل هي إخبار عن الإيتاء . وقد تقدم قبل قليل التوفيق بين الأقوال . وقوله : ﴿ **وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ** ﴾ أي وآتيناك جميع القرآن العظيم . وهو من عطف الكل على البعض إن أريد بالقرآن المجموع الشخصي . أو من عطف العام على الخاص إن أريد به القدر المشترك الصادق على الكل والبعض . وقوله : ﴿ **لَاتَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ** ﴾أي لا تطمح ببصرك طموح راغب ﴿ **إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ** ﴾ أي أصنافا من الكفار فإنه مستحقر بالإضافة

إلى ما أوتيته من السبع المثاني والقرآن العظيم . فإنه كمال مطلوب بالذات مفضٍ إلى دوام اللذات . وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه : من أوتي القرآن فرأى أنّ أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغَّر عظيماً . وعظَّم صغيراً ، قوله ﴿ **وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ** ﴾ لأجل عدم إيمانهم ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ** ﴾ ألن جانبك كناية عن الرفق بهم ، وحسن التدبير ، والشفقة من خفض الطائر جناحه على الفروخ وضمها إليه . ﴿ **وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينَ** ﴾ من عذاب الله أن ينزل بكم *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** ﴾ وفي اللباب أخرج البزار والطبراني عن أنس بن مالك . قال : مر النبي ﷺ على أناس بمكة . فجعلوا يغمزون في قفاه . ويقولون : هذا الذي يزعم أنه نبي ، ومعه جبريل ، فغمز جبريل بأصبعه . فوقع مثل الظفر في أجسادهم . فصارت قروحاً حتى نتنوا ، فلم يستطع أحد أن يدنو منهم ، فأنزل الله : ﴿ **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** ﴾ * وكذا في ابن كثير . وفي الخازن ﴿ **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** ﴾ كانوا خمسة نفر من رؤساء قريش . كانوا يستهزؤن بالنبي ﷺ وبالقرآن. وهم الوليد بن المغيرة المخزومي . وكان رأسهم . والعاص بن وائل السهمي ، والأسود بن المطلب بن الحرث بن أسد بن عبد العزى بن زمعة . وكان رسول الله ﷺ قد دعا عليه . فقال : اللهم أعم بصره ، واثكله بولده . والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة . والحرث بن قيس بن عيطلة . كذا ذكره البغوي . وقال ابن الجوزي . الحرث بن قيس بن عيطلة . وقال الزهري : عيطلة أمه . وقيس أبوه . فهو منسوب إلى أبيه وأمه . قال المفسرون أتى جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ . والمستهزؤن يطوفون بالبيت ، فقام جبريل ، وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه ، فمر به الوليد بن المغيرة ، فقال جبريل يا محمد : كيف تجد هذا ؟ قال : بئس عبد الله فقال : قد كفيته . وأومأ إلى ساق الوليد . فمر الوليد برجل من خزاعة نبال يريش نبلا له ، وعليه برد يماني ، وهو يجر إزراره ، فتعلقت شظية من النبل بإزار الوليد ، فمنعه الكبر أن يطاطىء رأسه . فينزعها وجعلت تضربه في ساقه ، فخدشته ، فمرض منها فمات ، ومر بهما العاص بن وائل السهمي . فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد ؟ فقال : بئس عبد الله فأشار جبريل إلى أخمص قدمه . وقال :

قد كفيته ، فخرج العاصى على راحلة يتنزه ، ومعه ابناه ، فنزل شعبا من تلك الشعاب فوطىء شبرقة ، فدخل منها شوكة في أخمص رجله . فقال : لدغت لدغت ، فطلبوا فلم يجدوا شيئا ، وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير ، فمات مكانه ، ومر بهما الأسود بن عبد المطلب ، فقال جبريل : كيف تجد هذا يا محمد ؟ فقال : عبد سوء ، فأشار جبريل بيده إلى عينيه ، وقال : كفيته فعمى . قال ابن عباس : رماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ، ووجعت عينه ، فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك . وفي رواية الكلبي . قال : أتاه جبريل ، وهو قاعد في أصل شجرة . ومعه غلام له . وفي رواية فجعل ينطح رأسه في الشجرة ، ويضرب وجهه بالشوك . فاستغاث بغلامه . فقال له غلامه : ماأرى أحداً يصنع بك شيئاً غيرك . فمات وهو يقول : قتلني محمد ، ومر بهما الأسود بن عبد يغوث . فقال جبريل : كيف تجد هذا يا محمد :؟ فقال : بئس عبد الله على أنه خالي . فقال جبريل : قد كفيته ، وأشار إلى بطنه . فاستسقى بطنه فمات ، وفي رواية الكلبي : أنه خرج من أهله فأصابه سموم فاسود وجهه حتى صار حبشياً ، فأتى أهله فلم يعرفوه ، وأغلقوا دونه الباب ، فمات وهو يقول : قتلني رب محمد . ومر بهما الحرث بن قيس . فقال جبريل : كيف تجد هذا يا محمد ؟ فقال : عبد سوء ، فأومأ جبريل إلى رأسه ، وقال : قد كفيته . فامتخط قيحا فقتله . وقال ابن عباس : إنه أكل حوتا مالحا فأصابه العطش . فلم يزل يشرب الماء حتى أنقد بطنه فمات . فذلك قوله : ﴿ **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** ﴾ أما التفسير فواضح *

سورة النحل وبيان مافيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ** ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : لما أنزل الله تعالى : ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ** ﴾ قال الكفار بعضهم لبعض : إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت ، فأمسكوا عن بعض ماكنتم تعملون حتى ننظر ماهو كائن . فلما رأوا أنه لاينزل شيء . قالوا : مانرى شيئاً فأنزل الله تعالى : ﴿ **اقْتَرَبَ للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ فأشفقوا

وانتظروا قرب الساعة . فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد : ما نرى شيئاً مما تخوفنا به : فأنزل الله : ﴿ **أتى أمْرُ الله** ﴾ فوثب النبي ﷺ . ورفع الناس رؤسهم . فنزلت : ﴿ **فلا تستعجلوه** ﴾ فاطمأنوا . فلما نزلت هذه الآية : قال رسول الله ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين . وأشار بأصبعه إن كادت لتسبقني » وقال الآخرون : الأمر هاهنا : العذاب بالسيف . وهنا جواب للنضر بن الحارث حين قال : اللهم إن كانا هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء» يستعجل العذاب . فأنزل الله تعالى هذه الآية * ونحوه في الخازن وغيره . والتفسير واضح *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وأقْسَمُوا بالله جَهْدَ أيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ الله مَنْ يَمُوتُ بلَى وعْداً عليْهِ حقًّا ولٰكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ في الواحدي : قال الربيع بن أنس عن أبي العالية : كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين . فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به : والذي أرجوه بعد الموت . فقال المشرك : وإنك لتزعم أنك لتبعث بعد الموت ، فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وكذا رواه الخازن . وفيه قاله أبو العالية . وكذا رواه الطبري عن أبي العالية . أما التفسير : ﴿ **وأقْسَمُوا بالله جَهْدَ أيْمَانِهِمْ** ﴾ أقسموا حلفوا . أي غاية اجتهادهم ، وسمى الحلف قسماً لأنه يكون عند انقسام الناس إلى مصدق ومكذب ﴿ **لا يَبْعَثُ الله مَنْ يَمُوتُ** ﴾ قال الخازن : تقرير الشبهة التي حصلت للمشركين في انكار البعث بعد الموت أن الإنسان ليس إلا هو هذه البنية المخصوصة . فإذا مات وتفرقت أجزاؤه ، وبلى امتنع عوده بعينه لأن الشيء إذا عدم فقد فنى ولم يبق له ذات ، ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه . فهذا هو أصل شبهتهم ، ومعتقدهم في إنكار البعث بعد الموت . فذلك قوله تعالى : ﴿ **وأقْسَمُوا بالله جَهْدَ أيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ الله مَنْ يَمُوتُ** ﴾ فرد الله عليهم ذلك وكذبهم في قولهم فقال تعالى : ﴿ **بلَى** ﴾ يعني بلى يبعثهم بعد الموت لأن لفظ بلى اثبات لما بعد النفي . والجواب عن شبهتهم . أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وأوجده من العدم ، ولم يك شيئاً فالذي أوجده بقدرته ، ثم أعدمه ، قادر على ايجاده بعد اعدامه ، لأن النشأة الثانية أهون من الأولى * وقوله : ﴿ **وعْداً عليْهِ حقًّا** ﴾ مصدران مؤكدان

منصوبان بفعلهما المقدر أي وعد ذلك وعداً ، وحق حقاً . أي ثبت ثبوتاً . لأن الحق بمعنى ثبت ووجب . والتقدير : بلى يبعثهم وعد بذلك وعداً وحقاً لا خلف فيه : ﴿ **ولٰكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُونَ** ﴾ أي لا يفهمون كيف يكون ذلك العود ، والله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **والّذِينَ هَاجَرُوا في الله من بعد ما ظُلِمُوا لنبوئنَّهُمْ في الدُّنيا حَسَنَةً ولَأَجْرُ الآخِرَةِ أكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الّذِينَ صَبَرُوا وعَلَى رَبِّهِمْ يَتوكَّلُونَ** ﴾ في الواحدي : نزلت في أصحاب النبي ﷺ بمكة . بلال وصهيب ، وخباب وعامر وجندل بن صهيب . أخذهم المشركون بمكة فعذبوهم . فبوأهم الله تعالى بعد ذلك المدينة * وكذا في الخازن قال ابن كثير : يحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم . ومن أشرافهم عثمان بن عفان ، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ . وجعفر بن أبي طالب بن عم الرسول . وأبو سلمة بن عبد الأسود في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقه رضي الله عنهم وأرضاهم * أما التفسير : ﴿ **والّذِينَ هَاجَرُوا في الله** ﴾ لاقامة دينه ﴿ **من بعد ما ظُلِمُوا** ﴾ بالأذى من أهل مكة وهم النبي ﷺ وأصحابه ﴿ **لَنبَوِّئَنَّهُمْ** ﴾ ننزلنهم ﴿ **في الدُّنيا** ﴾ داراً ﴿ **حَسَنَةً** ﴾ هي المدينة ﴿ **ولَأَجْرُ الآخِرَةِ** ﴾ أي الجنة ﴿ **أكْبَرُ** ﴾ أعظم ﴿ **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ أي الكفار ما للمهاجرين من الكرامة لوافقوهم . هم ﴿ **الّذِينَ صَبَرُوا** ﴾ على أذى المشركين والهجرة لإظهار الدين ﴿ **وعَلَى رَبِّهِمْ يَتوكَّلُونَ** ﴾ فيرزقهم من حيث لا يحتسبون . (الجلال) روى أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له : خذ هذا بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ادخر لك في الآخرة أفضل ، ثم يقول : هذه الآية أي يقرأ هذه الآية *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وما أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلّا رِجَالًا نُوحِي إلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ** ﴾ في الواحدي : نزلت في مشركي مكة . انكروا نبوة محمد ﷺ . وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً . فهلا بعثت إلينا

ملكاً ؟ فأنزل الله الآية * وكذا في الخازن وابن كثير والطبري والنهر . أما التفسير : ﴿ وما أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إلّا رِجالًا نُوحِي إلَيْهِمْ ﴾ لا ملائكة . ﴿ فاسْألُوا أهْلَ الذِّكْرِ ﴾ الخطاب لكفار مكة . والمراد بأهل الذكر العلماء بالتوراة والإنجيل ﴿ إنْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فإنهم يعلمونه. وأنتم إلى تصديقهم أقرب من تصديق المؤمنين بمحمد ﷺ . ذلك أن كفار مكة كانوا يعتقدون أن أهل الكتاب أهل علم بالكتب القديمة ، وقد أرسل الله إليهم رسلا منهم مثل موسى وعيسى وغيرهما من الرسل . وكانوا بشراً مثلهم ، فإذا سألوهم فلابد أن يجيبوا بأن الرسل الذين أرسلوا إليهم كانوا بشراً ، فإذا أخبروهم بذلك زالت الشبهة عن قلوبهم . والمعنى إذا أخبركم أهل الكتاب عن حاله ، وأخبركم المؤمنون عن حاله كنتم إلى تصديق أهل الكتاب أقرب لاشتراكهم معهم في الكفر ، فبينكم وبينهم رباطة . فاسألوهم عن حاله المقرر في كتبهم . وعن كل الرسل السابقين بشراً وملائكة وغير ذلك *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لايَقْدِرُ عَلَى شَيءٍ وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجهْراً هَلْ يَسْتَوونَ الْحَمْدُ لله بَلْ أكْثَرُهُمْ لايَعْلَمُونَ ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في هشام بن عمرو . وهو الذي ينفق ماله سرًّا وجهراً ، ومولاه أبو الجوزاء الذي كان ينهاه فنزلت . ﴿ وضَرَبَ الله مَثَلاً رجلَين .. ﴾ فالأبكم منها الكل ـــ على مولاه ـــ هذا السيد أسد بن العيص ، والذي يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم . وهو عثمان بن عفان . وذكر السيوطي في قوله : ﴿ رَجُلَيْن أحدهما أبكم ﴾ قال : نزلت في عثمان ومولى له كان يكره الإسلام ويأباه . وينهاه عن الصدقة والمعروف . فنزلت فيهما : وفي الخازن وقال عطاء في قوله : ﴿ عَبْداً مَمْلُوكاً ﴾ هو أبو جهل بن هشام ﴿ وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً ﴾ هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه * وكذا في الطبري والغرائب وغيرهما نحوه . أما التفسير : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً ﴾ أي ذكر وبين ووضح مثلا للدلالة على وحدانيته ونفي الشريك ﴿ عَبْداً مَمْلُوكاً لايَقْدِرُ على شَيءٍ ﴾ من التصرفات لعدم ملكه ﴿ وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجهْراً ﴾ أي يتصرف فيه كيف يشاء . والأول المملوك . مثل الأصنام . والثاني مثله تعالى . ومغزاه أن العبد

المملوك حيث لم يكن مثل العبد المالك فماظنك بالجماد ومالك الملك خلاق العالمين ولنا . قال : ﴿ **هَلْ يَسْتَوونَ** ﴾ في التعظيم والاجلال. الجواب . لا . ﴿ **الْحَمْدُ لله** ﴾ وحده ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ** ﴾ أي أهل مكة ﴿ **لَايَعْلَمُونَ** ﴾ مايصيرون إليه من العذاب . وحمد الله نفسه لأنه المستحق لجميع المحامد . لأنه المنعم المتفضل على عباده . وهو الخالق الرازق . لاهذه الأصنام التي عبدها هؤلاء ، فإنها لاتستحق الحمد لأنها جمادات عاجزة لايدلها على أحد ولامعروف فتحمد عليه . إنما الحمد الكامل لله تعالى لالغيره ، فيجب على جميع العباد حمد الله تعالى لأنه أهل الحمد والثناء الحسن *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ الله ثُمَّ يُنْكِرُونَها وأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُون** ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسأله : فقرأ عليه : ﴿ **والله جَعَلَ لكُمْ منْ بُيُوتِكُمْ سكناً** ﴾ قال الأعرابيُّ : نعم ، ثم قرأ عليه ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ من جُلُودِ الأَنْعَام بيوتاً تَسْتَخِفُّونَها يوْمَ ظَعنِكُمْ ويوْمَ إقَامَتِكُمْ** ﴾ قال : نعم . ثم قرأ عليه كل ذلك يقول نعم ، حتى بلغ ﴿ **كذلك يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ** ﴾ فولى الأعرابي فأنزل الله : ﴿ **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ الله ثُمَّ يُنْكِرُونَها وأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُون** ﴾ * ولم أجد غير هذا القول فيما تحت يدى من تفاسير : أما التفسير : ﴿ **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ الله** ﴾ أي يقرون بأنها من عنده ﴿ **ثُمَّ يُنْكِرُونَها** ﴾ بإشراكهم قال السدى : نعمة الله يعني محمداً ﷺ أنكروه وكذبوه . وقيل : نعمة الله هي الإسلام . وهي من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده ، ثم إن كفار مكة أنكروه وجحدوه * وقال مجاهد وقتادة : نعمة الله ماعدد عليهم في هذه السورة من النعم يقرون بأنها من عند الله ، ثم قيل صدقوا وامتثلوا أمر الله فيها ينكرونها . ويقولون : ورثناها عن آبائنا . وقال الكلبي : لما ذكر الله هذه النعم قالوا : هذه النعم كلها من الله لكنها بشفاعة آلهتنا * والمعنى : لايشكرونها بالتوحيد . وجيء بثم في قوله : ثم ينكرونها للدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة لأن من عرف النعمة حقه أن يعترف لاأن ينكرها . ﴿ **وأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُون** ﴾ بالتوحيد والنعم . أو وأقلهم الجاهلون بأنها أي النعمة منه *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنَّ الله يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإِحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنْكَرِ والْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته بمكة جالساً إذ مر به عثمان بن مظعون فكشر ــ هكذا في جميع الروايات ــ إلى رسول الله ﷺ : ألا تجلس ؟ فقال : بلى . قال : فجلس رسول الله ﷺ مستقبله ، فبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء ، فنظر ساعة إلى السماء . فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض ، فتحرف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره ، فأخذ ينفض رأسه كأنه يستفقه مايقال له ، وابن مظعون ينظر . فلما قضى حاجته واستفقه مايقال له شخص بصره رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة فأتبعه بصره حتى توارى إلى السماء . فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى فقال يا محمد : فيما كنت أجالسك مارأيتك تفعل كفعلك الغداة ؟ فقال : «ومارأيتني فعلت» ؟ قال : رأيتك شخص بصرك إلى السماء ، ثم وضعته حيث وضعه على يمينك ، فتحرفت إليه وتركتني ، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك . قال : «وفطنت لذلك» ؟ فقال عثمان : نعم ، قال رسول الله ﷺ : «أتاني رسول الله ــ أي جبريل عليه السلام ــ آنفاً وأنت جالس» قال : رسول الله ؟ قال : «نعم» قال : فما قال لك ؟ قال : «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» الآية . قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي . وأحببت محمداً ﷺ * وهو باللفظ والحرف في ابن كثير : اسناده جيد متصل حسن قد بين فيه السماع المتصل ، ورواه ابن أبي حاتم من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصراً * قلت : وقد وقفت على معنى الكشر في الحديث : وهو ظهور الأسنان للضحك وكاشره : إذا ضحك في وجهه وباسطه . والحديث رواه أحمد والطبراني . وفي مجمع الزوائد وابن كثير وعن عمرو بن أبي العاص ، قال : كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذا شخص ببصره ، ثم صوبه حتى كاد أن يلزق بالأرض قال : وشخص ببصره قال : أتاني جبريل . فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة : ﴿ **إنَّ الله يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإِحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنْكَرِ والْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ رواه أحمد واسناده حسن . أما التفسير : ﴿ **إنَّ الله**

يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ أي التوحيد أو الإنصاف . وعبارة البيضاوي : ﴿ **إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ** ﴾ أي بالتوسط في الأمور اعتقاداً كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك . والقول بالكسب المتوسط بين محض الجبر والقدر ، وعملا كالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب ، وخلقاً كالجود المتوسط بين البخل والتبذير * ﴿ **والإِحْسَانِ** ﴾ أداء الفرائض . أو أن تعبد الله كأنك تراه كما في الحديث ﴿ **وإِيتَاءِ** ﴾ إعطاء ﴿ **ذِي الْقُرْبَى** ﴾ أي التصدق على ذي القربى . فإن ايتاءهم صلة وصدقة قال عليه الصلاة والسلام : «إن أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم» ﴿ **وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ** ﴾ الزنا ﴿ **والْمُنْكَرِ** ﴾ قال : اجتمع مسروق وشتير بن شكل في المسجد ، فقال مسروق : هل سمعت عبد الله بن مسعود يقول : إن أجمع آية في القرآن حلال وحرام . وأمر ونهى ﴿ **إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإِحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنْكَرِ والْبَغِي** ﴾ إلى آخر الآية ؟ قال : نعم . وأناقد سمعته . رواه الطبراني . وقوله : ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ تتعظون . أو تتنبهون . وليس مقصودا منه الترجي والتمني . فإن ذلك محال على الله تعالى فوجب أن يكون معناه أنه تعالى يعظكم لارادة أن تذكروا طاعته *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ولَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يقُولُونَ إنّما يُعلِّمُه بشَرٌ لِسَانُ الّذِي يُلْحِدُونَ إلَيْهِ أعْجَمِيٌّ وهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مبينٌ** ﴾ في الواحدي : حدث حصين عن عبيد الله بن مسلم قال : كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر : اسم أحدهما يسار والآخر خير ، وكانا يقرآن كتباً لهم بلسانهم . وكان رسول الله ﷺ يمر بهما فيسمع قراءتهما . وكان المشركون يقولون يتكلم منهم . فأنزل الله تعالى فأكذبهم — ﴿ **ولَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يقُولُونَ إنّما يُعلِّمُه بشَرٌ لِسَانُ الّذِي يُلْحِدُونَ إلَيْهِ أعْجَمِيٌّ وهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مبينٌ** ﴾ وفي اللباب : أخرج ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعلم فيّناً بمكة اسمه بلعام . وكان أعجمي اللسان . وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا : إنما يعلمه بلعام . فأنزل الله : ﴿ **ولَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يقُولُونَ إنّما يُعلِّمُه بشَرٌ ...** ﴾ وفيه أيضاً . وأخرج ابن أبي حاتم من طريق حصين عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال : كان لنا

عبدان : أحدهما يقال له يسار والآخر جبر ، وكان صقليين ، فكانا يقرآن كتابهما ، ويعلمان علمهما ، وكان رسول الله ﷺ يمر بهما فيسمع قراءتهما . فقالوا : إنما يتعلم منهما : فنزلت * قوله : جَبْرٌ ـــ بفتح الجيم وسكون الباء الموحدة . وفي البيضاوي : وهو غلام عامر بن الحضرمي ، وقيل يعنون جبراً ويساراً كانا يصنعان السيوف بمكة . ويقرآن التوراة والإنجيل . وكان الرسول ﷺ يمر عليهما .ويسمع مايقرآنه . وقيل : يعنون عائشاً غلام وهو حويطب بن عبد العزى قد أسلم . وكان صاحب كتب . وقيل : يعنون سلمان الفارسي * وكذا في ابن كثير والطبري . وفي ابن كثير : وقال الزهري عن سعيد بن المسيب : الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فارتد بعد ذلك عن الإسلام . وافترى هذه المقالة قبحّة الله * وفي الخازن : وقال عكرمة : وكان رسول الله ﷺ يقرىء غلاماً لبني المغيرة يقال له يعيش ، فكان يقرأ الكتب ، فقالت قريش : إنما يعلمه يعيش * وذكر عدة أقوال لا تخرج عما ذكر ثم قال : والحاصل أنّ الكفار تهموا رسول الله ﷺ . وقالوا : إنما يتعلم هذه الكلمات من غيره ، ثم إنه يضيفهما لنفسه . ويزعم أنه وحي من الله عز وجل ، وهو كاذب في ذلك ، فأجاب الله عنه . وأنزل هذه الآية تكذيباً لهم فيما رموا به رسول الله ﷺ من الكذب * أما التفسير : ﴿ **ولَقَدْ** ﴾ للتحقيق أي حقيق ﴿ **نَعْلَمُ** ﴾ علماً مستمراً ﴿ **أَنَّهُمْ يقولُونَ إنّما يُعلِّمُه** ﴾ القرآن ﴿ **بشَرٌ** ﴾ إنما أداة حصر : أي لا يعلم محمداً القرآن إلا بشر أي لا جبريل كما يدعى فأكذبهم تعالى بقوله : ﴿ **لِسَانُ** ﴾ لغة ﴿ **الّذِي يُلْحِدُونَ** ﴾ يميلون ﴿ **إليْهِ** ﴾ أي يضيفونه وينسبون إليه أنه يعلمه ﴿ **أعْجَميٌّ** ﴾ الأعجمي الذي لم يتكلم بالعربية . وقال الراغب الأعجم من في لسانه عجمة عربيا كان أو غير عربي اعتباراً بقلة فهمه والأعجمي منسوب إليه ﴿ **وهذا** ﴾ القرآن الذي جاءكم به رسول الله ﷺ ﴿ **لِسَانٌ عَرَبيٌّ مبينٌ** ﴾ ذو بيان وفصاحة . والأعجمي تمنعه عجمته من الاتيان بفصيح الكلام . ومحمد ﷺ جاءكم بهذا القرآن الفصيح الذي عجزتم أنتم عنه . وأنتم أهل الفصاحة والبلاغة ، فكيف يقدر من هو أعجمي على مثله . وأين فصاحة هذا القرآن من عجمة هذا الذي تشيرون إليه . فثبت بهذا البرهان أن الذي جاء به محمد ﷺ وحي أوحاه الله إليه ، وليس هو من تعليم الذي تشيرون إليه . ولا هو أتى به من تلقاء نفسه بل هو وحي من الله عز وجل . ويروى أن الرجل الذي كانوا يشيرون إليه أسلم وحسن إسلامه . (الخازن) *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **مَنْ كفَرَ باللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بالإِيمانِ ولكِنْ مَنْ شَرَحَ بالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : نزلت في عمار بن ياسر ، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسراً ، وأن سمية وصهيباً وبلالاً وخباباً وسالماً . فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين ووجىء قبلها بحربة ، وقيل لها : إنك أسلمت من أجل الرّجال ، فقتلت ، وقتل زوجها ياسر ، وهما أول قتيلين قتلا في الإسلام ، وأما عمار فإنه أعطاهم ماأرادوا بلسانه مكرها . فأخبر النبي ﷺ بأن عماراً كفر . فقال : كلا ، إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي ، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ، وقال : إن عادوا لك فعد لهم بما قلت : فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما أراد النبي ﷺ أن يهاجر إلى المدينة أخذ المشركون بلالاً وخباباً وعمار بن ياسر . فأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقيةً ، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ حدثه ، فقال : كيف كان قلبك حين قلت ؟ أكان منشرحاً بالذي قلت ؟ قال : لا . فأنزل الله : ﴿ **إِلَّا منْ أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ** ... ﴾ الآية * وفي الواحدي والسيوطي : وأخرج عن مجاهد قال : نزلت هذه الآية في أناس من أهل مكة آمنوا . فكتب إليهم بعض الصحابة بالمدينة أن هاجروا ، فخرجوا يريدون المدينة ، فأدركتهم قريش بالطريق . ففتنوهم . فكفروا مكرهين . ففيهم نزلت هذه الآية * وعبارة الخازن : نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر . وذلك أن الكفار أخذوه وأباه ، وهو ياسر وأمه ، وهي سمية ، وأخذوا أيضاً صهيباً وبلالاً وخباباً فعذبوهم ليرجعوا عن الإيمان . فأما سمية أم عمار فربطوها بين بعيرين ، وضربها أبو جهل بحربة في فرجها ، وقتل زوجها ياسر ، وهما أول قتيلين في الإسلام ، وأما عمار فإنه أعطاهم بعض ماأرادوا بلسانه مكرهاً . فإنهم قالوا له : اكفر بمحمد . فبايعهم على ذلك ، وقلبه كاره . فأخبر النبي ﷺ أن عماراً كفر . فقال : كلا ، إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار وهو يبكي . فقال : رسول الله ﷺ : ماوراءك ؟ قال : شر يارسول الله نلت منك ماذكرت ، فقال : وكيف وجدت قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان . فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه . وقال : إن عادوا لك فقل لهم ماقلت . فنزلت هذه الآية * وفي

البيضاوى : وفيما فعله عمار دليل على جواز التكلم بالكفر عند الإكراه . وإن كان الأفضل أن يتجنب عنه اعزازاً للدين كما فعله أبواه ولما روى أن مسيلمة أخذ رجلين . فقال : لأحدهما : ماتقول في محمد ؟ قال رسول الله . قال : ماتقول فيَّ قال أنت أيضاً . فخلاه ، وقال للآخر : ماتقول في محمد ؟ قال رسول الله . قال : ماتقول فيَّ ؟ قال : أنا أصم فأعاد عليه ثلاثاً . فأعاد جوابه فقتله ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ . فقال : أما الأول فقد أخذ برخصة الله . وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له * وتفسير الشق الأول من الآية واضح . وقوله : ﴿ **ولكن مَنْ شَرَحَ بالكُفْرِ صدْراً** ﴾ له . أي فتحه ، ووسعه بمعنى طابت به نفسه ﴿ **فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ في الآخرة *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وصَبَرُوا إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رحيمٌ** ﴾ الآية متصلة بما قبلها : في الواحدي : قال قتادة : ذكر لنا أنه لما أنزل الله تعالى قبل هذه الآية أن أهل مكة لا يقبل منهم إسلامهم حتى يهاجروا ، كتب بها أهل المدينة إلى أصحابهم من أهل مكة ، فلما جاءهم ذلك خرجوا فلحقهم المشركون فردوهم فنزلت : ﴿ **الـمّ * أحسب الناس أنْ يُتركُوا أنْ يقُولُوا آمنَّا وهُمْ لايُفْتَنُونَ** ﴾ فكتبوا بها إليهم . فبايعوا بينهم على أن يخرجوا ، فإن لحقهم المشركون من أهل مكة قاتلوهم حتى ينجوا أو يلحقوا بالله . فأدركهم المشركون . فقاتلوهم فمنهم من قتل ، ومنهم من نجا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وصَبَرُوا ...** ﴾ الآية . وفي الخازن : نزلت هذه الآية في عباس بن ربيعة ، وكان أخا أبى جهل من الرضاعة ، وقيل كان أخاه من أمه ، وفي أبي جندل بن سهل بن عمرو . والوليد بن الوليد بن المغيرة ، وسلمة بن هشام ، وعبد الله بن أوس الثقفي . فتنهم المشركون وعذبوهم . فأعطوهم بعض ماأرادوا ليسلموا من شرهم ، ثم إنهم بعد ذلك هاجروا . وجاهدوا * وقال الحسن وعكرمة نزلت في عبد الله بن أبي سرح كان قد أسلم ، وكان يكتب للنبي ﷺ فاستنزله الشيطان فارتد ، ولحق بدار الحرب ، فلما كان يوم فتح مكة أمر النبي ﷺ بقتله . فاستجاره عثمان . وكان أخاه لأمه . فأجاره رسول الله ﷺ . فأتى به فأسلم وحسن إسلامه . قال : وهذا القول الصحيح إنما يصح إذا قلنا إن هذه الآية مدنية نزلت

بالمدينة . فتكون من الآيات المدنيات في السور المكيات . والله أعلم بحقيقة ذلك .
قلت : وقال قتادة : إن هذه السورة مكية إلا خمس آيات وهي قوله : ﴿ **والّذِينَ هَاجَرُوا فِي الله بَعْدَ مٰا ظلمُوا ...** ﴾ وقوله : ﴿ **ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا فُتِنُوا** ﴾ وقوله : ﴿ **وإنْ عَاقبتُم** ﴾ إلى آخر السورة . وزاد مقاتل : ﴿ **مَنْ كَفر بالله مِنْ بَعْدَ إيمانه ..** ﴾ الآية ﴿ **وضَرَبَ الله مَثَلاً قرية كانت آمنة مطمئنة** ﴾ أما التفسير : ﴿ **ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلّذِينَ هَاجَرُوا** ﴾ إلى المدينة . ﴿ **مِنْ بَعْدِ مٰا فُتِنُوا** ﴾ عذبوا ، وتلفظوا بالكفر . أو فتنوا عن الإيمان كما وقع لبعضهم أن عبده أسلم . فعذبه وعاقبه حتى رده عن الإيمان وأرجعه للكفر ففتنه عن الإيمان . أي رده عنه ﴿ **ثُمَّ جَاهَدُوا وصَبَرُوا** ﴾ على الطاعة ﴿ **إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا** ﴾ أي الفتنة ﴿ **لَغفُورٌ** ﴾ لهم ﴿ **رحيمٌ** ﴾ بهم .

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ادْع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وجَادِ لْهُمْ بالّتِي هِيَ أَحْسَنُ إنَّ ربَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وهُوَ أعْلَمُ بالْمُهْتَدِينَ . وَإنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَاعُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُم لَهُوَ خَيْرٌ لَلصَّابِرِينَ واصْبِرْ ومٰا صَبْرُكَ إلّا بالله ولَاتَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ولَاتَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرونَ** ﴾ في الواحدي : حدث مجاهد عن ابن عباس قال : لما انصرف المشركون عن قتلى أحد انصرف رسول الله ﷺ . فرأ منظرا أساءه ، فرأى حمزة قد شق بطنه . واصطلم أنفه ، وجدعت أذناه فقال : لولا أن يحزن النساء أو يكون سنة بعدي لتركته حتى يبعثه الله تعالى من بطون السباع والطير . لأقتلن مكانه سبعين رجلاً منهم . ثم دعا ببردة فغطى بها وجهه . فخرجت رجلاه ، فجعل على رجليه شيئاً من الاذخر ، ثم قدمه وكبر عليه عشراً ، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه حتى صلى عليه سبعين صلاة ، وكان القتلى سبعين ، فلما دفنوا أو فرغ منهم نزلت هذه الآية ﴿ **ادْع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ...** ﴾ إلى قوله ﴿ **واصْبِرْ ومٰا صَبْرُكَ إلّا بالله ...** ﴾ ولم يمثل بأحد . وفي رواية أبي هريرة : أشرف النبي ﷺ على حمزة فرآه صريعاً . فلم ير شيئاً كان أوجع لقلبه منه . وقال : والله ، لأقتلن بك سبعين منهم ، فنزلت — ﴿ **وإنْ عاقَبتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مٰا عُوقبتُمْ بِهِ ...** ﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ . بل نصبر يارب .
قال المفسرون : إن المسلمين لما رأوا مافعل المشركون بقتلاهم يوم أحد من تبقير البطون ، وقطع المذاكير ، والمثلة السيئة ، قالوا حين رأوا ذلك : لئن ظفرنا الله سبحانه

وتعالى عليهم لنزيدين على صنيعهم ، ولنمثلن بهم مثلةً لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط . ولنفعلن ولنفعلن ـــ وقف رسول الله ﷺ على عمه حمزة ، وقد جدعوا أنفه . وقطعوا مذاكيره . وبقروا بطنه . وأخذت هند بنت عقبة قطعة من كبده . فمضغتها ، ثم استرطنتها لتأكلها . فلم تلبث في بطنها حتى رمت بها ، فبلغ ذلك نبي الله ﷺ فقال : أما إنها لو أكلته لم تدخل النار أبداً ، حمزة أكرم على الله من أن يدخل شيئا من جسده النار . فلما نظر رسول الله ﷺ إلى حمزة . نظر إلى شيء لم ينظر إلى شيء كان أوجع لقلبه منه . فقال : « رحمة الله عليك إنك ماعلمت كنت وصولاً للرحم . فعالاً للخيرات ، ولولا حزني من بعدك عليك لسر بي أن أدعك حتى تحشر من أجواف شتى . أما والله لئن أظفرني الله تعالى بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك » . فأنزل الله تعالى : ﴿ **وإنْ عاقبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مٰا عُوقبْتُم به** .. ﴾ الآية . فقال النبي ﷺ : بلى نصبر . وأمسك عما أراد . وكفّر عن يمينه * وفي البيضاوي : وفيه دليل على أن للمقتص أن يماثل الجاني ، وليس له أن يجاوزه * ونحوه في الكرخي وابن كثير وغيرهما أما التفسير : ﴿ **ادْع** ﴾ الناس يامحمد ﴿ **إلى سَبِيلِ رَبِّكَ** ﴾ إلى دين ربك ، وهو دين الإسلام ﴿ **بِالحِكْمَةِ** ﴾ بالقرآن ، وهو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة ﴿ **والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ يعني وادعهم إلى الله بالترغيب والترهيب بحيث لا يخفي عليهم أنك تناصحهم ، وتقصد ماينفعهم ﴿ **وجَادِ لْهُمْ بالّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾يعني بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف . وقيل : إن الناس خلقوا وجبلوا على ثلاثة أقسام : **القسم الأول** : هم العلماء الكاملون : أصحاب العقول الصحيحة والبصائر الثابتة الذين يطلبون معرفة الأشياء على حقائقها ، فهؤلاء هم المشار إليهم بقوله : ادع إلى سبل ربك بالحكمة . يعني : ادعهم بالدلائل القطعية النفسية حتى يعلموا الأشياء بحقائقها حتى ينتفعوا ، وينفعوا الناس . وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم . **القسم الثاني** : وهم أصحاب النظر السليم ، والخلقة الأصلية ، وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ، ولم ينزلوا إلى حضيض النقصان ، فهم أوسط الأقسام ، وهم المشار إليهم بقوله : ﴿ **والموعظة الحسنة** ﴾ أي ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة . **والقسم الثالث** : وهم أصحاب جدال وخصام ومعاندة ، وهؤلاء المشار إليهم بقوله : ﴿ **وجَادِ لْهُمْ بالّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ يعني : حتى ينقادوا إلى الحق ويرجعوا إليه . ﴿ **إنَّ ربَّكَ هُوَ أَعْلَمُ** ﴾ أي عالم . ﴿ **بِمَنْ ضلَّ عَنْ**

سَبيلِهِ وهُوَ أعْلَمُ بالْمُهْتَدِينَ ﴾ فيجازيهم ، فما عليك إلا البلاغ . وقوله : ﴿ وإنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ ﴾ عن الانتقام . أي تركتموه بالكلية ﴿ لَهوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرينَ ﴾ فكف ﷺ وكفر عن يمينه رواه البزار ٭

سورة بني إسرائيل وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ولَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ في اللباب : أخرج ابن عبد البر بسند ضعيف عن عائشة قالت : سألت خديجة رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين . فقال : هم من آبائهم ، ثم سألته بعد ذلك فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين . ثم سألته بعد ما استحكم الإسلام . فنزلت : ﴿ ولَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ... ﴾ وقال : هم على الفطرة . أو قال : في الجنة ٭ ولم أجد غير هذا القول في التفاسير : وتفسيرها باختصار : أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى من الآثام ، ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد ، بل كل أحد مختص بذنبه . ولعل قوله عليه الصلاة والسلام : « هم من آبائهم » أي مع آبائهم . أو أن من بمعنى مع . أو قل : لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها . ويختل ما بين العامل وعمله من التلازم . بل إنما تحمل كل منهما وزرها . وهذا تحقيق لمعنى قوله تعالى : ﴿ وكُلَّ إنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ ٭

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : **﴿ وإمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً ﴾** في اللباب : أخرج سعيد بن منصور عن عطاء الخرساني . قال : جاء ناس من مزينة يستحملون رسول الله ﷺ . فقال : لا أجد ما أحملكم عليه . فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً . ظنوا ذلك من غضب رسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿ وإمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ ... ﴾ الآية ٭ وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : نزلت فيمن كان يسأل النبي ﷺ من المساكين ٭ قلت : وهو الصحيح لصلة الآية بما قبلها من قوله : **﴿ وآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ والْمِسْكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ ولَا تبذِّرْ تَبْذِيراً ٭ إنَّ المُبذِّرِينَ كَانُوا إخْوانَ الشَّيَاطِين وكانَ**

الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كفُوراً * وإمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ... ﴾ وهو خطاب للكل ، وليس خاصاً بالرسول عليه الصلاة والسلام . ومنهم من زعم ذلك ، ففي الخازن : نزلت الآية في مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب كانوا يسألون النبي ﷺ في الأحايين مايحتاجون إليه ولايجد ، فيعرض عنهم حياءً منهم ، ويمسك عن القول فنزلت هذه الآية . والمعنى : إن تعرض عن هؤلاء الذين أمرت أن تؤتيهم ﴿ **ابتغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ ربِّكَ تَرْجُوها** ﴾أي انتظار رزق من الله رجوه أن يأتيك ﴿ **فقَلْ لَهُمْ قَوْلاً ميْسُوراً** ﴾ أي ليناً جميلاً : أي عدهم وعداً طيباً تطيب به قلوبهم . وقيل هو أن يقول : رزقنا الله وإياكم من فضله *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ولَاتَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلَى عُنُقِكَ ولاتَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً** ﴾ في الواحدي حدث الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : جاء غلام إلى رسول الله ﷺ فقال : إن أمي تسألك كذا وكذا ، فقال : ماعندنا اليوم شيء . قال : فتقول لك . أكسني قميصك . قال : فخلع قميصه فدفعه إليه ، وجلس في البيت حاسراً . فأنزل الله تعالى سبحانه وتعالى : ﴿ **ولَاتَجْعَلْ يَدَكَ مغْلُولةً إلى عُنِقكَ ..** ﴾ الآية * وقال جابر بن عبد الله بينما رسول الله ﷺ قاعداً فيما بين أصحابه أتاه صبي . فقال يارسول الله أمي تستكسيك درعاً ولم يكن عند رسول الله ﷺ إلا قميصه ، فقال للصبي : من ساعة إلى ساعة * يعد وقتا آخر . فعاد إلى أمه . فقالت له : أمي تستكسيك القميص الذي عليك ، فدخل رسول الله ﷺ داره ، ونزع قميصه ، وأعطاه وقعد عرياناً ، فأذن بلال للصلاة . فانتظروه فلم يخرج . فشغل قلوب الصحابة . فدخل عليه بعضهم . فرآه عرياناً ، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية * وكذا في الخازن . وفي اللباب : وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال لعائشة : أنفقى ماعلى ظهر كتفي ، قالت : إذن لايبقى شيء . فأنزل الله : ﴿ **ولَاتَجْعَلْ يَدَكَ مغْلُولةً إلى عُنِقكَ ..** ﴾ الآية * وأخرج سعيد بن منصور عن سيار أبي الحكم قال : أتى رسول الله ﷺ بر وكان معطياً كريماً . فقسمه بين الناس ، فأتاه قوم فوجدوه قد فرغ منه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ولَاتَجْعَلْ يَدَكَ مغْلُولةً إلى عُنِقكَ ..** ﴾ أما التفسير : ﴿ **ولَاتَجْعَلْ يَدَكَ مغْلُولةً إلى عُنِقكَ ..** ﴾ أي مضمومة إليه مجموعة معه في الغل : طوق من حديد يجعل في العنق . هذا معنى اللفظ في اللغة . وقد علمت المراد منه . أي لاتمسكها عن الانفاق كل الامساك ﴿ **ولَاتَبْسُطْهَا** ﴾ في الانفاق

﴿ **كُلَّ الْبَسْطِ افَتَقْعُدَ ملوماً** ﴾ أي تصير تلوم نفسك ﴿ **مَحْسُوراً** ﴾ أي نادماً ، أو منقطعاً بك لا شيء عندك . من حسره السفر إذا بلغ منه *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وقُلْ لِعبادِي يَقُولُوا التِّي هِيَ أحْسَنُ إنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِغُ بَيْنَهُمْ إنَّ الشَّيْطَانَ كانَ للإنْسَانِ عَدُوًّا مبيناً** ﴾ في الواحدي : نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك أنّ رجلا من العرب شتمه فأمره الله تعالى بالعفو * وقال الكلبي : كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بالقول والفعل فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ . فأنزل الله تعالى هذه الآية * والأخير في الخازن . ولم أجد غيرهما في التفاسير : أما التفسير : ﴿ **وقُلْ لِعبادِي** ﴾ المؤمنين ﴿ **يَقُولُوا** ﴾ للكفار الكلمة ﴿ **التِّي هِيَ أحْسَنُ** ﴾ ولا يتخاشنوا معهم في الكلام كان يقولوا لهم : إنكم من أهل النار ، فإنه يهيجهم إلى الشر مع أن عاقبة أمرهم مغيبة عنا ﴿ **إنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِغُ** ﴾ يفسد ﴿ **بَيْنَهُمْ إنَّ الشَّيْطَانَ كانَ للإنْسَانِ عَدُوًّا مبيناً** ﴾ بين العداوة *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قُل ادْعُوا الّذِينَ زَعَمْتُهم مِنْ دُونِه فلَا يمْلِكُونَ كشْفَ الضُرِّ عَنْكُمْ ولَا تَحْويلاً أولئك الّذِينَ يدعُونَ ..** ﴾ الآية . خرج البخاري وغيره عن ابن مسعود قال : كان ناس من الإنس يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم الجنيون ، واستمسك الآخرون بعبادتهم . فأنزل الله : ﴿ **قُل ادْعُوا الّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِه** ﴾ الآية . وكذا في ابن كثير . وفيه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ **أولئك الّذِينَ يدعُونَ ..** ﴾ الآية . قال نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن . فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم ، فنزلت هذه الآية . وفي رواية عن ابن مسعود : كانوا يعبدون صنفا من الملائكة يقال لهم الجن : فذكره * وفي الخازن : وذلك أن الكفار أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف . فاستغاثوا بالنبي ﷺ ليدعو لهم . فقال الله عز وجل : ﴿ **قُل ادْعُوا الّذِينَ زَعَمْتُمْ** ﴾ أنهم آلهة من دونه . ﴿ **فلَا يمْلِكُونَ كشْفَ الضُرِّ عَنْكُمْ** ﴾ أي الجوع والقحط ﴿ **ولَا تَحْويلاً** ﴾ إلى غيركم ، أو تحويل الحال من العسر إلى اليسر . ثم ذكر رواية ابن مسعود سالفة الذكر . أما التفسير : ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم ﴿ **قُل ادْعُوا الّذِينَ زَعَمْتُمْ** ﴾ أنهم آلهة ﴿ **مِنْ دُونِه** ﴾ لطائفة من الملائكة وكعيسى بن مريم وعزيز وليس المراد بالآلهة هنا ما يشمل الأصنام . بل خصوص من له عقل لأجل قوله فيما يأتي :

﴿ أولئك الّذِينَ يدعُونَ .. ﴾ ﴿ فَلا يَمْلكُونَ كشُفَ الضُرِّ عَنْكُمْ وَلَا تحويلاً ﴾ له إلى غيركم . ﴿ أولئك الّذِينَ يدعُونَ .. ﴾ أي أولئك الأنبياء الذين يدعونهم المشركون لكشف ضرهم . أو يدعونهم آلهة . أو أولئك الأنبياء الذين يدعون ربهم ، أو الناس إلى الهدى . والمعنى : أن هؤلاء المعبودين لهم مفتقرون إلى الله . وراجون رحمته . وخائفون عذابه ، فلا يصلحون للألوهية لأن الإله يكون غنياً . الغني المطلق . وقوله : ﴿ يبتغون ﴾ يطلبون ﴿ إِلَى ربِّهِمُ الْوَسيلة ﴾ التقرب بالطاعة . ﴿ أَيُّهُمْ ﴾ بدل من واو يبتغون أي يبتغيها الذي هو ﴿ أَقْرَبُ ﴾ إليه أي إلى مناجاته ، وهم الملائكة ، فكيف بغير الأقرب كعيسى ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذَابَه ﴾ كغيرهم فكيف تدعونهم آلهة ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ أي حقيقياً بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ، ونبي مرسل ، فضلا عن غيرهم من الخلائق *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعنا أَنْ نُرْسِلَ بالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وآتَيْنا ثَمودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وما نُرْسِلُ بالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً ﴾ في الواحدي : حدث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً . وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعون . فقيل له . إن شئت أن تستأنى بهم لعلنا نجتبي منهم وإن شئت نعدهم الذي سألوا فإن كفروا هلكوا كما أهلك من قبلهم ؟ قال : لا . بل أستأنى بهم . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا مَنَعنا أَنْ نُرْسِلَ بالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ... ﴾وروى أحمد والبزار والطبراني عن جابر في الآية : ﴿ وَمَا مَنَعنا أَنْ نُرْسِلَ ... ﴾ قال : مر النبي ﷺ بالحجر . قال : لاتسألو الآيات . فقد سألها قوم صالح ، فكانت ترد من هذا الفج . فعتوا عن أمر ربهم فعقروها . فأخذتهم صيحة أخمد الله من تحت أدم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله . قيل من هو يارسول الله ؟ قال : أبو رعال — بالعين وفي رواية — بالغين — فلما خرج من الحرم أصابه ماأصاب قومه * وعن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً . وأن ينحي الجبال عنهم ليزرعوا . فقيل له إن شئت أن تستأنى بهم ، وإن شئت نؤتيهم الذي سألوا . فإن كفروا وأهلكوا كما أهلكت من قبلهم . قال : بل أستأني بهم . وأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ وَمَا مَنَعنا أَنْ نُرْسِلَ بالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وآتَيْنا ثَمودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ . وفي رواية : فدعا .

فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال : إن ربك يقرئك السلام . ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً . فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحدا من العالمين . وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال : بل باب التوبة والرحمة * قال الهيثمي : ورجال الروايتين رجال الصحيح * ورواه الحاكم في مستدركه إلا أنه قال : لعلنا نستحي منهم . فأنزل الله هذه : ﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ ...** ﴾ قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي * أما التفسير : ﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ** ﴾ أي لو أظهر تعالى تلك المعجزات التي سألوها ثم لم يؤمنوا بها لكان عذابهم محققا لا محالة كسنة الله تعالى في الأولين . أخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن أنس قال : قال الناس لرسول الله ﷺ : «لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم . فإن عصيتم هلكتم . فقالوا : لا نريدها . ثم بين تعالى أن الآيات التي التموسها هي مثل آية ثمود . وقد أوتوها واضحة بينة فكفروا بها فاستحقوا العذاب . فكيف يتمنى مثلها هؤلاء على سبيل الاقتراح فقال : ﴿ **وآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا** ﴾ والأمر واضح .. فعقروها . فأبادهم الله ﴿ **وما نُرْسِلُ بالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً** ﴾أي إن الله تعال : يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون فيرجعوا *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالنَّاسِ وما جَعَلْنَا الرُّؤيا التي أريْنَاك إلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ والشّجَرَةَ الملْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ونُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبيراً** ﴾ في الواحدي : حدث عكرمة عن ابن عباس قال : لما ذكر الله تعالى الزقوم خوف به هذا الحي من قريش ، فقال أبو جهل : هل تدرون ما هذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد ؟ قالوا : لا ، قال : الثريد بالزبد . أما والله لئن أمكننا منها لنتزقمنها تزقماً ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ **والشّجَرَةَ الملْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ...** ﴾ يقول : الزقوم . ونخوفهم فما يزيدهم إلا صغياناً كبيراً . وأنزل : ﴿ **إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُوم طعامُ الْأَثِيم ..** ﴾ * وفي اللباب أخرج أبو يعلي عن أم هانىء أنه ﷺ لما أسرى به أصبح يحدث نفراً من قريش يستهزؤن به . فطلبوا منه آية . فوصف لهم بيت المقدس . وذكر لهم قصة العير ، فقال الوليد بن المغيرة : هذا ساحر . فأنزل الله تعالى : ﴿ **وما جَعَلْنَا الرُّؤيا التي أريْنَاك إلَّا فِتْنَةً للنَّاسِ** ﴾ وفي الخازن : الأكثرون من المفسرين

على أن المراد منها ﴿ وما جعلنا الرؤيا .. ﴾ ما رأى النبي ﷺ ليلة المعراج من العجائب والآيات . قال ابن عباس : رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة المعراج ، وهي ليلة أسرى به إلى بيت المقدس . أخرجه البخاري . وهو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة ، وابن جريج وغيرهم *.. وقيل : أراد بهذه الرؤيا ما رأى ﷺ عام الحديبية أنه دخل مكة هو وأصحابه ، فعجل المسير إلى مكة قبل الأجل ، فصده المشركون ، فرجع إلى المدينة ، فكان رجوعه في ذلك العام بعد ما أخبر أنه يدخلها فتنة لبعضهم ، ثم دخل مكة في العام المقبل . وأنزل الله عز وجل : لقد صدق رسوله الرؤيا بالحق * قال ابن جرير في تفسيره : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : عنى به رؤيا رسول الله ﷺ ما رأى من الآيات والعبر في طريقه إلى بيت المقدس ليلة أسرى به . قال : وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لاجماع الحجة من أهل التأويل على أن هذه الآية إنما نزلت في ذلك وإياها عنى الله عز وجل . فإذا كان ذلك كذلك . فتأويل الكلام : وما جعلنا رؤياك التي أريناك ليلة أسرينا بك من مكة إلى بيت المقدس إلا فتنة للناس يقول : إلا بلاء للناس الذين ارتدوا عن الإسلام لما أخبروا بالرؤيا التي رآها عليه الصلاة والسلام . وللمشركين من أهل مكة الذين ازدادوا بسماعهم ذلك من رسول الله ﷺ تمادياً في غيهم ، وكفراً إلى كفرهم * قال . وأما قوله : ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن . ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا فيها . فقال بعضهم هي شجرة الزقوم . وأسند هذا القول إلى ابن عباس ومسروق . والحسن . وعبارته : كانوا يأكلون التمر والزبد ويقولون تزقموا هذا الزقوم . قال أبو رجاء حدثني عبد القدوس عن الحسن قال : فوصفها الله لهم في الصافات * وأبي مالك وسعيد بن جبير ومجاهد وابراهيم . أنه كان يحلف ما يستثنى أن الشجرة الملعونة شجرة الزقوم . وعن قتادة قوله : ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم ... ﴾ الآية . قال : وهي شجرة الزقوم خوف الله بها عباده ، فافتتنوا بذلك حتى قال قائلهم : أبو جهل بن هشام ، زعم صاحبكم هذا أن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر . وإنا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ، فتزقموا فأنزل الله تبارك وتعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجرة أنها شجرة تخرج في أصل الجحيم أعذب بها من شئت من عبادي * وأجاب ابن عباس حين سئل عن الشجرة الملعونة في القرآن . قال : هي هذه الشجرة التي تلوى على الشجرة ،

وتجعل في الماء . يعني الكشوثى * قال أبو جعفر وأولى القولين في ذلك بالصواب عندنا قول من قال عنى بها شجرة الزقوم لاجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك * ولا حاجة بعد هذا العرض إلى تفسير الآية خشية التكرار *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإنْ كادُوا لَيَفْتِنُونك عنِ الّذي أَوْحيْنَا إلْيكَ لِتفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وإذاً لاتَّخذُوك خليلاً * ولَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاك لَقَدْ كدْتَ تَرْكنُ إلَيْهِمْ شَيْئاً قليلاً** ﴾ في الواحدي : قال سعد بن جبير : قال المشركون للنبي ﷺ لانكف عنك إلا بأن تلم بآلهتنا ولو بطرف أصبعك . فقال النبي ﷺ : ماعلي لو فعلت . والله يعلم إني بارٌّ . فأنزل الله هذه الآية : ﴿ **وإنْ كادُوا لَيَفْتِنُونك عنِ الّذي أوْحيْناإلْيكَ** ... ﴾ إلى قوله : ﴿ **نصيراً** ﴾ وقال قتادة : ذكر لنا أن قريشاً خلوا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ، ويفحمونه ويسودونه ويقاربونه ، فقالوا : إنك تأتي بشيء لايأتي به أحد من الناس . وأنت سيدنا يا سيدنا . ومازالوا حتى كاد يقاربهم في بعض مايريدون ، ثم عصمه الله تعالى عن ذلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ **وإنْ كادُوا ليفتنونك** ... ﴾ وفي اللباب : أخرج ابن مردوية . وابن أبي حاتم من طريق اسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة ابن عباس . قال : خرج أمية بن خلف وأبو جهل بن هشام ورجاله من قريش . فأتوا رسول الله ﷺ . فقالوا يا محمد : تعال تمسح بآلهتنا وندخل في دينك . وكان يحب إسلام قومه . فرق لهم . فأنزل الله تعالى : ﴿ **وإنْ كادُوا لَيَفْتِنُونك عنِ الّذي أوْحيْنَا إلْيكَ** ﴾ إلى : ﴿ **نصيراً** ﴾ قال السيوطي : هذا أصح ماورد في سبب نزولها ، وهو إسناد جيد ، وله شاهد . أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : كان رسول الله ﷺ يستلم الحجر . فقالوا : لاندعك تستلم هذا حتى تلثم بآلهتنا ، فقال رسول الله ﷺ : وماعليّ لو فعلت ، والله يعلم في خلافه . فنزلت * وأخرج نحوه عن ابن شهاب . وأخرج عن جبير بن نفير أن قريشاً أتوا النبي ﷺ . فقالوا : إن كنت أرسلت إلينا . فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم ، فنكون نحن أصحابك ، فركن إليهم فنزلت الآية * وفي البيضاوي : نزلت في ثقيف قالوا له : لاندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب . لانعشر ولانحشر ولانجبي في صلاتنا . وكل رباه لنا فهو لنا . وكل ربا علينا فهو موضوع عنا ، وأن تمتعنا باللات سنة حتى نأخذ مايهدي لها . فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا ، وأن

تحرم وادينا كما حرمت مكة . فإن قالت العرب لم فعلت ذلك . فقل إن الله أمرني » * قولهم : لا نعشر . أي لا يؤخذ منا عشر أموالنا الذي هو الزكاة . وقولهم ولا نحشر . أي الانساق إلى الجهاد . ولا نجبي في صلاتنا من التجبية . وهي وضع اليد على الركبتين أو على الأرض . أو الانكباب على الأرض فهو كناية عن عدم الركوع والسجود ، والمراد لا نُصلي * وعبارة الخازن : قال ابن عباس : قدم وفد ثقيف على النبي ﷺ ، فقالوا : نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال . قال : وما هي ؟ قالوا : لا نجبي في الصلاة . أي لا ننحني . ولا تكسر أصنامنا إلا بأيدينا . وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها . فقال عليه الصلاة والسلام : لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود ، فأما أن تكسروا أصنامكم بأيديكم فذلك لكم . وأما الطاغية . يعني اللات والعزى ، فإني غير ممتعكم بها . قالوا يارسول الله : إنا نحب أن نسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعط غيرنا ، فإن خشيت أن تقول العرب أعطيتهم مالم تعطنا . فقل لهم : الله أمرني بذلك ، فسكت النبي ﷺ ، وطمع القوم في سكوته أن يعطيهم ذلك فأنزل الله : «وإن كادوا » أي هموا « ليفتنونك ..» والغريب أن ابن كثير لم يذكر حتى ولا قولاً واحداً من هذه الأقوال . أما التفسير : ﴿ **وإنْ كادُوا** ﴾ قاربوا ﴿ **لَيَفْتِنُونَكَ** ﴾ أي يطلبون نزولك ﴿ **عنِ الّذي أوْحيْنَا إليْكَ** ﴾ أي عن الحكم الذي أوحيناه إليك من الأمر والنهي ، والوعد والوعيد بأن تحكم لهم بغيره ، وهو تحريم واديهم الذي طلبوه ﴿ **لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ** ﴾ أي لتتقول وتكذب علينا غيره . أي غير الذي أوحينا إليك ﴿ **وإذاً** ﴾ لو فعلت ذلك ﴿ **لاتَّخذُوكَ خليلاً** ﴾ أن والوك ووافوك وصافوك ﴿ **ولَوْلَا أنْ ثَبَّتْنَاكَ** ﴾ على الحق بعصمتنا إياك ﴿ **لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ** ﴾ تميل ﴿ **إليْهِمْ شَيْئاً قليلاً** ﴾ أي قريب من الفعل ﴿ **إذًا** ﴾ لو ركنت إليهم وتركت حكمنا . ﴿ **لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحياةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ** ﴾ . أي ضعف عذاب الحياة ... أي ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة . ﴿ **ثُمَّ لاتَجِدُ لكَ عَلَيْنَا نَصيراً** ﴾ أي ناصراً يمنعك من عذابنا *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإنْ كادُواليَسْتِفزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وإذاً لَايَلْبثُونَ خِلافَكَ إلَّا قليلاً** ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : حسدت اليهود مقام النبي ﷺ بالمدينة . فقالوا : إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام . فإن كنت نبياً فالحق بها ، فإنك إن خرجت إليها صدقناك ، وآمنا بك ، فوقع ذلك في قلبه لما يحب

من الإسلام ، فرحل من المدينة على مرحلة . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وروى عن عثمان أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا : إن كنت صادقاً أنك نبي فالحق بالشام . فإن الشام أرض المحشر والمنشر ، وأرض الأنبياء ، فصدق ماقالوا وغزا غزوة تبوك لا يريد بذلك إلا الشام . فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى : ﴿ **وإنْ كادُوا ليسْتفِزُّونكَ مِنَ الأرْضِ** ... ﴾ وقال مجاهد وقتادة والحسن : هم أهل مكة بإخراج رسول الله ﷺ من مكة . وأمره الله تعالى بالخروج . وأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي اللباب : ذكر رواية عثمان وساقها إلى قوله : فلما بلغ تبوك أنزل الله آيات من سورة بني اسرائيل : ﴿ **وإنْ كادُوالَيستِفزُّونَكَ مِنَ الأرْضِ** ... ﴾ وأمره بالرجوع إلى المدينة . وقال له جبريل عليه السلام : سل ربك فإن لكل نبي مسألة . فقال : ماتأمرني أن أسأل ؟ قال رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً * وضعف هذه الرواية . وذكر شاهدا لها مارواه الواحدى : عن سعيد بن جبير عند أبي حاتم ولفظه . قالت المشركون للنبي ﷺ : كانت الأنبياء تسكن الشام فمالك والمدينة ، فهمَّ أن يشخص فنزلت * وقد علمت أن اليهود قالوا له ذلك * وهو الصحيح . قال الخازن : قيل هذه الآية مدنية . وذلك أن النبي ﷺ لما قدم المدينة كره اليهود مقامه بالمدينة ، وذلك حسداً ، فأتوه فقالوا ياأبا القاسم : لقد علمت ما هذه برأض الأنبياء ، وإن أرض الأنبياء بالشام . وهي الأرض المقدسة . وكان بها إبراهيم والأنبياء عليهم السلام . فإن كنت نبياً مثلهم فائت الشام . وإنما يمنعك من الخروج إليها مخافة الروم . وإن الله سيمنعك من الروم إن كنت رسوله . فعسكر النبي ﷺ على ثلاثة أميال من المدينة * وفي رواية إلى ذي الحليفة حين يجتمع إليه أصحابه فيخرج . فأنزل الله هذه الآية * وقال : فالأرض هنا أرض المدينة ، وقيل الأرض أرض مكة ، والآية مكية . والمعنى : همَّ المشركون أن يخرجوه منها ، فكفَّهم الله عنه حتى أمره بالخروج للهجرة فخرج بنفسه وهذا أليق بالآية . لأن ماقبلها خبر عن أهل مكة . والسورة مكية ، وقيل : هم المشركون كلهم ، وأرادوا أن يستفزوه من أرض العرب باجتماعهم وتظاهرهم عليه ، فمنع الله رسوله ، ولم ينالوا منه ماأملوه قال : والاستفزاز : الازعاج * وقد ضعف ابن كثير قول من قال نزلت في اليهود إذ شاروا على رسول الله ﷺ بسكنى الشام . قال : لأن هذه الآية مكية وسكنى المدينة بعد ذلك . وقيل إنها نزلت بتبوك وفي صحته نظر .

ثم ذكر رواية اليهود وخروجه إلى تبوك الخ .. وفي البيضاوي .. ولما قالت اليهود هذا القول وقع في نفسه ﷺ فخرج متوجها إلى الشام حتى قطع مرحلة ، فنزلت هذه الآية ، فرجع . ثم قتل منهم بنو قريظة وأجلى بني النضير بعد زمن قليل * أما التفسير : ﴿ **وإنْ كادُوا ليَسْتفزُّونَكَ مِنَ الأرْضِ** ﴾ أرض المدينة ﴿ **لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا** ﴾ إلى الشام بدعوى أنها أرض الأنبياء ﴿ **وإذاً** ﴾لو أخرجوك ﴿ **لا يَلْبثُونَ خِلافَكَ** ﴾ بعدك فيها ﴿ **إلَّا قليلاً** ﴾ ثم يهلكون . وقد علمت ما ذكره البيضاوي من قتله بني قريظة ...» *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وقُلْ رَبِّ أدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وأخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نصيراً** ﴾ في الواحدي : قال الحسن : إن كفار قريش لما أرادوا أن يوثقوا النبي ﷺ ويخرجوه من مكة . وخرج مهاجراً إلى المدينة أنزل قوله تعالى : ﴿ **وقُلْ رَبِّ أدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وأخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ** ﴾ .* وهذا يقضي أن الآية مكية مع أنها آخر الثمان المدنيات . وقد ذكر البيضاوي أن السورة كلها مكية ، فلا إشكال . وفي الخازن : قال إبن عباس : معناه . أدخلني مدخل صدق المدينة ، وأخرجني مخرج صدق من مكة * نزلت حين أمر رسول الله ﷺ بالهجرة * وكذا رواه ابن كثير : وقال الترمذي : حسن صحيح وفيه وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه . أو يطردوه ، أو يوثقوه ، فأراد الله قتال أهل مكة أمره أن يخرج إلى المدينة ، فهو الذي قال الله عز وجل ﴿ **وقُلْ رَبِّ أدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وأخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ** ﴾ الآية ... واختار صحة القول الأول . أما التفسير فواضح * وعبارة الخازن في قوله : ﴿ **واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نصيراً** ﴾ أي حجة بينة ، وقيل : ملكاً قوياً تنصرني به على من عاداني أو عزاً ظاهراً أقيم به دينك ، فوعده الله تعالى لينزعن ملك فارس والروم . وغيرهما ، ويجعله له . وأجاب دعاءه . وقال له : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ وقال : ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾ *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَيسْألُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أمْرِ رَبِّي وَمَا أوتيتُم مِنَ الْعِلْمِ إلَّا قليلاً** ﴾ في الواحدي : روى علقمة عن عبد الله بن مسعود قال : إني مع النبي ﷺ في حرث بالمدينة . وهو متكىء على عسيب . فمر بنا ناس من اليهود . فقالوا : سلوه عن الروح . فقال بعضهم : لا تسألوه فيستقبلكم بما

تكرهون . فأتاه نفر منهم فقالوا ياأبا القاسم : ماتقول في الروح ؟ فأنزل الله عليه : ﴿ **وَيسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ منْ أمْرِ رَبِّي وَمَا أوتيتُم مِنَ الْعِلْمِ إلَّا قليلاً** ﴾ رواه البخاري ومسلم جميعاً عن عمر بن حفص بن غياث عن أبيه عن الأعمش * وفي عمدة القاري : وعن ابن عباس : قالت اليهود للنبي ﷺ : أخبرنا عن الروح . وكيف يعذب ؟ وإنما هي من الله ؟ ولم يكن نزل عليه فيه شيء ، فلم يجر إليهم جواباً ، فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام بهذه الآية * وقال المفسرون : إن اليهود اجتمعوا فقالوا لقريش حين سألوهم عن شأن محمد وحاله : سلوا محمداً عن الروح . وعن فتية فقدوا في أول الزمان ، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها ، فإن أصاب في ذلك كله فليس نبي ، وإن لم يجد في ذلك فليس نبياً وإن أجاب في بعض ذلك . وأمسك عن بعضه فهو نبي ، فسألوه عنها . فأنزل الله في شأن الفتية ــ أم حسبت أن أصحاب الكهف ــ إلى آخر القصة . ونزل في الروح قوله تعالى : ﴿ **وَيسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ** ﴾ الآية * وكذا في الخطيب وأبى السعود والخازن : قال ابن كثير يجمع بين الحديثين بتعدد النزول . وكذا قال الحافظ بن حجر . ومن شاء الوقوف على حقيقة الروح وأقوال العلماء فيها قديماً وحديثاً فليرجع إلى كتابي ــ سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلهية ــ الجزء الأول ــ فهو بحث مهمٌّ يجب على كل مسلم الوقوف عليه *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قُلْ لَئِن اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والْجِنُّ على أنْ يأتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَايأتُونَ بِمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظهيراً** ﴾ في اللباب : اخرج ابن اسحاق وابن جرير من طريق سعيد ، أو عكرمة عن ابن عباس قال : أتى النبي ﷺ سلام بن مشكم في عامة من يهود سماهم . فقالوا : كيف نتبعك ، وقد تركت قبلتنا وإن هذا الذي جئت به لا نراه مناسقاً كما تناسق التوراة . فأنزل علينا كتاباً نعرفه ، وإلا جئناك بمثل ماتأتي به . فأنزل الله : ﴿ **قُلْ لَئِن اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والْجِنُّ** ... ﴾ الآية * وقال الجلال : نزل . أي قوله : ﴿ **لَئِن اجْتَمَعَتِ الإنْسُ** .. ﴾ الخ ... ردا لقولهم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا » وهو صريح الخازن : فكذبهم الله عز وجل ، فالقرآن معجز في النظم والتأليف والأخبار عن الغيوب . وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة ، لا يشبه كلام الخلق لأنه كلام الخالق . وهو غير مخلوق . ولو كان مخلوقاً لأتوا بمثله * أما التفسير : ﴿ **قُلْ لَئِن اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والْجِنُّ** ﴾ وكذا الملائكة .

وإنما لم يذكروا لأن التحدي ليس معهم . والتصدي لمعارضته لا يليق بشأنهم * ﴿ **على أنْ يأتوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ** ﴾ في الفصاحة والبلاغة ﴿ **لا يأتُونَ بِمِثْلِهِ ولو كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظهيراً** ﴾ معيناً في تحقيق مايتوخونه من الاتيان بمثله *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لنَا مِنَ الْأَرضِ يَنْبُوعاً** ﴾ إلى قوله : ﴿ **بشراً رسُولاً** ﴾ روى عكرمة عن ابن عباس : أنّ عتبة وشيبة وأبا سفيان ، والنضر بن الحرث وأبا البختري ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل وعبد بن أمية ، وأمية بن خلف ورؤساء قريش اجتمعوا على ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا به ، فبعثوا إليه . إنا أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم سريعاً ، وهو يظن أنه بدا أمره بدء . وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم . ويعز عليهم تعنتهم حتى جلس إليهم فقالوا : يا محمد : إنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، ومابقى أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك فإن كنت أي ما جئت به لتطلب به مالاً جعلنا لك من أموالنا تكون به أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا . وإن كان هذا الرأي الذي يأتيك نراه قد غلب عليك ــ وكانوا يسمون التابع من الجن الرأى ــ بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه . أو نعذر فيك . فقال رسول الله ﷺ : مابي ماتقولون . ماجئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ، ولا للشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله عز وجل بعثني إليكم رسولاً . وأنزل كتاباً . وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً . فبلغتكم رسالة ربي ، ونصحت لكم . فإن تقبلوا مني ماجئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم . قالوا يا محمد : فإن كنت غير قابل منا ماعرضنا فقد علمت أنه ليس أحد أضيق بلاداً ، ولا أقل مالاً ، ولا أشد عيشاً منا . سل ربك الذي بعثك بما بعثك ، فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا ، ويبسط لنا بلادنا . ويجري فيها أنهاراً كأنها الشام أو العراق ، وأن يبعث من مضى من آبائنا ، وليكن ممن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب . فإنه كان شيخاً صدوقاً ، فنسألهم عما تقول حق هو . فإن صنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلك عند الله . وأنه بعثك رسولاً

كما تقول : فقال رسول الله ﷺ : ما بهذا بعثت . إنما جئتكم من عند الله سبحانه بما بعثني به ، فقد بلغتكم ما أرسلت به ، فإن تقبلوا فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه أصبر لأمر الله . قالوا : فإن لم تفعل هذا فسل ربك أن يبعث لنا ملكاً يصدقك . وسله فيجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ، ويغنيك بها عما نراك ، فإنك تقوم في الأسواق وتلتمس المعاش . فقال رسول الله ﷺ : ما أنا بالذي ليسأل هذا ، وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله تعالى بعثني بشيراً ونذيراً . قالوا : فأسقط علينا كسفا من السماء كما زعمت إن شاء فعل ، فقال رسول الله ﷺ : ذلك إلى الله إن شاء فعل . فقال قائل منهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً . وقال عبد الله بن أمية المخزومي . وهو ابن عاتكة بن عبد المطلب . ابنة عمة النبي ﷺ : لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، وترقى فيه ، وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي بنسخة منشورة معك ، ونفر من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول . فانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً بما فاته من متابعة قومه . ولما رأى من مباعدتهم عنه . فأنزل الله تعالى : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتَّى تفجر لَنا من الْأَرْضِ ينبوعاً** ... ﴾ إلى قوله : ﴿ **بشراً رسولاً** ﴾ نقلاً عن الواحدي واللباب للسيوطي * وهو نسخة ما في الخازن وابن كثير . قال ابن كثير : وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائي عن ابن اسحاق . حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير ، وعكرمة عن ابن عباس فذكر مثله سواء * وقال ابن كثير : وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له . لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه . ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً . فقيل لرسول الله ﷺ : إن شئت أعطيناهم ما سألوا . فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين . وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة . والرحمة فقال : بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة . كما تقدم ذلك في حديثي ابن عباس والزبير بن العوام عن قوله تعالى : ﴿ **وما مَنَعَنَا أنْ نُرْسِلَ بالآياتِ إلّا أنْ كذَّبَ بِهَا الأوَّلُونَ * وآتينا ثَمُودَ النَّاقة مُبصِرَة فظلمُوا بها وما نُرْسِلُ بالآياتِ إلّا تخويفاً** ﴾ لا لما يقترحه الناس * فهو من باب التعجيز . وما هم بمعجزين من في الأرض . أما التفسير : ﴿ **وقالُوا** ﴾ عطف على قوله ﴿ **فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إلّا كفُوراً** ﴾ جحود للحق وقالوا . ﴿ **لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ** ﴾ لما تبين اعجاز القرآن . وانضمت إليه معجزات أخر . وبينات ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فقالوا : ﴿ **لَنْ نؤمنَ لَكَ حَتَّى تَفْجرَ لَنا مِنَ الأرْضِ ينبُوعاً** ﴾

عيناً لا ينضب ماؤها . أي لا يغور ولا يذهب . ﴿ **أوْ تكونَ لَكَ جَنَّةٌ** ﴾بستان ﴿ **مِنْ نَخِيلٍ وعِنَبٍ فَتُفجِّر الأنهارَ خلالَها** ﴾ وسطها ﴿ **تَفْجِيراً** ﴾ لسقيه . ﴿ **أوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً** ﴾ أي أو تسقط علينا جرم السماء إسقاطاً مماثلاً لما زعمت في قولك ﴿ **أو نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ أي قطعاً من العذاب ﴿ **أوْ تَأْتِيَ باللهِ والْمَلائِكَةِ قبيلاً** ﴾ . حال من الله والملائكة . أي حال كونها متقابلين — بفتح الباء — ومرئيين لنا . وفي البيضاوي : قبيلاً . أي كفيلاً بما تدعيه . أي شاهداً على صحته ضامناً لدركه . أو مقابلاً * ونحو الآية قولهم : ﴿ **لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أو نَرَى رَبَّنا** ﴾ ﴿ **أوْ يَكُونَ لَكَ بيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ** ﴾ ذهب . روى ابن عباس وقتادة وغيرهما ﴿ **أوْ تَرْقَى** ﴾ تصعد ﴿ **في السَّماءِ** ﴾ بسلم فترقى معارجها ﴿ **ولَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ** ﴾ لو رقيت فيها ﴿ **حتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا** ﴾ منها ﴿ **كِتَاباً** ﴾ فيه تصديقك ﴿ **نَقْرؤُهُ** ﴾ بعد إنزاله فيه تصديقك ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم : ﴿ **سُبْحَانَ رَبِّي** ﴾ تعجب من اقتراحهم . وتنزيه له تعالى عن إتيانه الذي طلبوه . أو عن أن يتحكم عليه . أو يشاركه أحد في القدرة ، فهو فعال لما يريد . لا كما يريدون ﴿ **وَلَوِ اتَّبعَ الحقُّ أهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰوَاتُ والْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **هَلْ** ﴾ ما ﴿ **كُنْتُ إلَّا بَشَراً رَسُولاً** ﴾ كسائر الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات . فليس أمر الآيات إليهم إنما هو إلى الله تعالى . واعلم أن الله تعالى قد أعطى النبي ﷺ من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر . ونبع الماء من بين أصابعه وماأشبهها من الآيات ، وليست بدون ما اقترحوه ، بل هي أعظم مما اقترحوه . والقوم عامتهم كانوا متعنتين . ولم يكن قصدهم طلب الدليل ليؤمنوا فرد الله عليهم سؤالهم *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللهَ أوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأسْمَاءُ الْحُسْنَى ولَا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ولَا تُخَافِتْ بِهَا وابْتَغِ بيْنَ ذَلكَ سبيلاً** ﴾ قال ابن عباس : تهجد رسول الله ﷺ ذات ليلة بمكة ، فجعل يقول في سجودة : يا رحمن يا رحيم . فقال المشركون : كان محمد يدعو إلها واحداً فهو الآن يدعو إلهين اثنين : الله والرحمن . ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة . يعنون مسيلمة الكذاب فأنزل الله تعالى هذه الآية . كذا في الواحدي وفي اللباب : فقال في دعائه :

﴿ **يا ألله يارَحْمٰنُ** ﴾ فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابىء ينهانا أن ندعو إلٰهين . وهو يدعو إلٰهين . فأنزل الله ﴿ **قُلِ ادْعُوا الله أوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أيًّا مَاتَدْعُوا فَلَهُ الأسْمَاءُ الْحُسْنَى** ... ﴾ وقال ابن عباس : في سبب نزول قوله : ﴿ **ولَاتَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ولَاتُخَافِتْ بِهَا** ﴾ الآية قال : نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة . وكانوا إذا سمعوا القرآن سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به . فقال الله لنبيه : ﴿ **ولَاتَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ** ﴾ أي بقراءتك ، فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿ **ولَاتُخَافِتْ بِهَا** ﴾ عن أصحابك فلا يسمعون . ﴿ **وابْتَغِ بيْنَ ذَلْكَ سبيلاً** ﴾ رواه البخاري عن مسدد ، ورواه مسلم عن عمرو الناقد ، كلاهما عن هشيم . وأخرج البخاري أيضاً عن عائشة أنها نزلت في الدعاء ... وأخرج ابن مردويه من حديث أبي هريرة قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى عند البيت رفع صوته بالدعاء . فنزلت الآية . قال ابن حجر : لكن يحتمل الجمع بينهما بأنها نزلت في الدعاء داخل الصلاة * وفي مجمع الزوائد : قوله : ﴿ **ولَاتَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ** ﴾ عن عائشة في قوله : ﴿ **ولَاتَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ولَاتُخَافِتْ بِهَا** ﴾ نزلت في الدعاء * رواه البزار ورجاله الصحيح . ونحو الذي ذكر في بقية التفاسير . أما التفسير : ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم ﴿ **ادْعُوا الله أوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ** ﴾ أي سموه بأيهما ، أو نادوه بأن تقولوا : ياالله يارحمن ﴿ **أيًّا** ﴾ شرطية ﴿ **مَا** ﴾ زائدة لتأكيد ما في أي من الابهام . أيْ أيّ هذين ﴿ **تَدْعُوا** ﴾ فهو حسن دل على هذا ﴿ **فَلَهُ** ﴾ أي لمسماهما ﴿ **الأسْمَاءُ الْحُسْنَى** ﴾ وهذان منهما *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وقُلِ الْحَمْدُ لله الّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ولَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يكَنْ لَهُ وَليٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً** ﴾ في لباب السيوطي : أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي . قال : إن اليهود والنصارى قالوا : اتخذ الله ولداً ، وقالت العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . وقال الصابئون والمجوس : لولا أولياء الله لذل . فأنزل الله : ﴿ **وقُلِ الْحَمْدُ لله الّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً** ... ﴾ الآية آخر سورة بني اسرائيل كما تسمى . وتمسى بالاسراء . وذكر السبب ابن كثير باللفظ والحرف . ولم أجد غير هذا القول في التفاسير : أما التفسير : ﴿ **وقُلِ الْحَمْدُ لله الّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً** ﴾ أمر الله نبيه ﷺ بأن يحمده على وحدانيته . وقيل : معناه الحمد لله الذي عرفني أنه لم يتخذ ولداً . وقيل : إن

كل من له ولد فهو يمسك جميع النعم لولده . وإذا لم يكن له ولد أفاض نعمه على عبيده . وقيل : إن الولد يقوم مقام والده بعد انقضائه ، والله عز وجل يتعالى عن جميع النقائص فهو المستحق لجميع المحامد . ﴿ **ولَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ** ﴾ في الألوهية : ﴿ **وَلَمْ يكُنْ لَهُ وَلِيٌّ** ﴾ ينصره ﴿ **مِنَ** ﴾ أجل ﴿ **الذُّلِّ** ﴾ أي لم يذل فيحتاج إلى ناصر ﴿ **وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً** ﴾ عظمه عظيمة تامة عن اتخاذ الولد والشريك والذل وكل مالا يليق به . وترتيب الحمد على ذلك للدلالة على أنه المستحق لجميع المامحد لكمال ذاته ، وتفرده في صفاته . وروى الإمام أحمد في مسنده عن معاذ الجهني عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول : آية العز . ﴿ **الْحَمْدُ لله الّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَريكٌ فِي الْمُلْكِ** ﴾ الآية .

سورة الكهف وبيان مافيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

في لباب السيوطي : أخرج ابن جرير من طريق ابن اسحاق ، عن شيخ من أهل مصر ، عن عكرمة عن ابن عباس : قال : بعثت قريش النضر بن الحارث . وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة . فقالوا لهم : سلوهم عن محمد . وصفوا لهم صفته . وأخبروهم بقوله . فإنهم أهل الكتاب الأول . وعندهم ماليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى أتيا المدينة ، فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفوا لهم أمره . وبعض قوله . فقالو لهم : سلوه عن ثلاثة . فإن أخبركم بهن نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ماكان أمرهم ، فإنه كان لهم أمر عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماكان نبؤه ، وسلوه عن الروح ماهو ؟ فأقبلا حتى قدما على قريش . فقالا : جئناكم بفصل مابينكم وبين محمد . فجاؤا رسول الله ﷺ فسألوه . فقال : أخبركم غداً بما سألتم عنه ولم يستثن ، فانصرفوا ، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لايحدث الله في ذلك إليه وحياً ، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة . وأحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه ، وشق عليه مايتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف ، وفيها معاتبته إياه على حزنه عليهم . وخبر ماسألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف

وقوله : ﴿ ويسألونك عن الرُّوح .. ﴾ وفي حزن رسول الله ﷺ نزل قوله : ﴿ **فَلَعَلَكَ بَاخِعٌ نَفسَكَ عَلَى آثَارِهم** ... ﴾ وفي قصة أصحاب الكهف : ﴿ **أمْ حَسِبْتَ أنّ أصْحَابَ الْكَهْفِ والرَّقِيم كِانُوا مِنْ آياتنا عَجباً** .. ﴾ وفي اللباب : وأخرج ابن مردويه أيضاً عن ابن عباس قال : أنزلت ﴿ **وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثلاثمائة** .. ﴾ فقيل يارسول الله : سنين أو شهوراً فأنزل الله ﴿ **سِنِينَ وازْدَادُوا تِسْعاً** ﴾ وأخرجه ابن جرير عن الضحاك . وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس : قال : حلف النبي ﷺ على يمين فمضى له أربعون ليلة» فأنزل : ﴿ **ولَاتَقُولَنَّ لِشَيءٍ إنّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غداً إلّا أنْ يَشَاءَ الله** ﴾ *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالْغَدَاةِ والْعَشِيّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ** .. ﴾ إلى قوله : ﴿ **إنَّا أعْتَدْنَا للظَّالِمِينَ ناراً** ... ﴾ الآية . في الواحدي : قال سلمان الفارسي : جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ : عينية بن حصن والأقرع بن حابس ، وذووهم ، فقالوا يارسول الله : إنك لو جلست في صدر المجلس ، ونحيت عنا هؤلاء ، وأرواح جبابهم . يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين . وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها . جلسنا إليك . وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **واتْلُ ماأُوحِيَ إلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لامُبَدِّلَ لكلماتِهِ ولَنْ تَجِدَ مِنْ دونهِ مُلْتَحداً * واصْبِرْ نَفْسِكَ مَعَ الّذِينَ يَدْعُونَ ربَّهُمْ** .. ﴾ حتى بلغ : ﴿ **إنَّا أعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً** ... ﴾ يتهددهم بنار ، فقام النبي ﷺ يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى . قال : الحمد ﷺ الذي لم يمتني حتى أمرت أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي . معكم المحيا ومعكم الممات * وكذا في الخازن . وفيه : وقيل نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة . وكانوا سبعمائة رجل فقراء في مسجد رسول الله ﷺ لايخرجون إلى تجارة . ولا زرع ولا ضرع . يصلون صلاة وينتظرون أخرى . فلما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ : الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم * ونحو هذا في النسفي وابن كثير وفيه عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر . فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لايجرؤن علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ، ورجلان نسيت اسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء أن يقع ، فحدث نفسه . فأنزل

الله عز وجل : ﴿ وَلَاتطرُدِ الّذِينَ يدعُونَ ربَّهُمْ بالْغداةِ والْعَشيّ يريدون وجْهَهُ ﴾ انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري . وهكذا بقية الأقوال نحو ما ذكر . أما التفسير : ﴿ وَاصْبِرْ نَفسَكَ ﴾ الصبر حبس النفس عن الجزع . أي احبسها ﴿ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أي يعبدونه ﴿ بالْغَدَاةِ والْعَشِيّ ﴾ في الصباح والمساء ، والمراد جميع الأوقات : ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ بعبادته ﴿ وجْهَهُ .. ﴾ تعالى لاشيئاً من أغراض الدنيا وهم الفقراء الذين تقدم ذكرهم ﴿ ولَاتَعْدُ ﴾ تنصرف ﴿ عيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ إلى غيرهم ﴿ تُرِيدُ زينةَ الْحَياةِ الدُّنيا ﴾ أي تريد مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا ﴿ ولاتُطعْ مَنْ أغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ أي القرآن : هو عيينة بن حصن وأصحابه . وقد أسلم رضي الله عنه وحسن إسلامه . وكان في حنين من المؤلفة قلوبهم ، فأعطاه النبي ﷺ منها مائة بعير ، وكذلك أعطى الأقرع بن حابس . وأعطى العباس بن مرادس أربعين بعيراً ... ﴿ واتَّبَعَ هَواهُ ﴾ في الشرك والتكبر عن مجالسة الفقراء ﴿ وكَانَ أمْرُهُ فُرُطاً ﴾ إسرافاً . أي فرط في أمر ربه ﴿ وقُلْ ﴾ له أي لمن أغفلنا قلبه عن ذكرنا . وهو عيينة بن حصن الفزاري الذي أمرك باجتناب الفقراء . هذا القرآن ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ﴾ به ﴿ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ به تهديداً لهم . ﴿ إنَّا اعْتَدْنَا ﴾ هيئنا ﴿ للظَّالمين ﴾ الكافرين ﴿ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ ماأحاط بها كالخيمة التي تحيط بأهلها ﴿ وإنْ يستغيثُوا ﴾ لطلب الماء ﴿ يُغَاثُوا بِماءٍ كالْمُهْلِ ﴾ كعكر الزيت المغلي . وقيل : العكر ماأذيب من الجواهر كالنحاس والرصاص . ﴿ تَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ من حره . إذا قرب إليها . والشي الانضاج بنار من غير احراق كالشواء للحم ﴿ بِئْسَ الشَّرابُ ﴾ أي قبح الشراب هو ﴿ وسَاءَتْ ﴾ النار ﴿ مُرْتَفَقاً ﴾ تمييز منقول عن الفاعل أي قبح مرتفقها . قال ابن عباس رضي الله عنهما . منزلاً . وقيل مجتمعاً *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كلماتُ رَبِّي ولَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ في الواحدي والخازن . قال ابن عباس : قالت اليهود يامحمد : تزعم أننا قد أوتينا الحكمة وفي كتابك ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، ثم تقول : وماأوتيتم من العلم إلا قليلا . فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقيل لما نزل وماأوتيتم من العلم إلا قليلاً . قالت اليهود : أوتينا علم

التوراة . وفيها علم كل شيء . فأنزل الله تعالى : ﴿ **قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي** ... ﴾ وعبارة السيوطي : أخرج الحاكم وغيره عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ؟ فقالوا : سلوه عن الروح فسألوه . فنزلت : ﴿ **ويَسْألُونَكَ عن الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ منْ أمْرِ رَبِّي وما أُوتيتُم مِنَ الْعِلْمْ إلَّا قليلاً** ﴾ قال اليهود : أوتينا علما كثيراً : أوتينا التوراة . ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً فنزلت : ﴿ **قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً** ... ﴾ ومابقى من الأقوال في التفاسير نحوها . أما التفسير : ﴿ **قُلْ** ﴾ لليهود ولكل من يسمع هذا الخطاب . ﴿ **لَوْ كانَ الْبَحْرُ** ﴾ أي ماؤه ﴿ **مِداداً** ﴾هو مايكتب به من الحبر ﴿ **لِكَلِمَاتِ رَبِّي** ﴾ الدالة على حكمه وعجائبه بأن تكتب بالحبر ﴿ **لَنَفِدَ الْبَحْرُ** ﴾ في كتابتها ﴿ **قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ** ﴾ تفرغ ﴿ **كلماتُ رَبِّي ولَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ** ﴾ أي البحر ﴿ **مَدَداً** ﴾ زيادة فيه لنفد ، ولم تفرغ هي . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **ولَوْ أَنَّ مافِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أقْلامٌ والْبَحْر يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أبْحُرٍ مانَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ** ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إنَّما أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إلَيَّ أنَّما إلٰهُكُمْ إلٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ولَايُشْرِكْ بِعَبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً** ﴾ الآية آخر سورة الكهف . في الواحدي : قال ابن عباس : نزلت في جندب بن زهير الغامدي . وذلك أنه قال : إني أعمل العمل لله . فإذا اطلّع عليه سرني . فقال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، ولا يقبل ماروئى فيه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال طاوس : قال رجل : يانبي الله : إني أحب الجهاد في سبيل الله . وأحب أن يرى مكاني ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * صحيح على شرط الشيخين * وقال مجاهد : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني أتصدق . وأصل الرحم ، ولاأصنع ذلك إلا لله سبحانه وتعالى ، فيذكر ذلك مني ، وأحمد عليه ، فيسرني ذلك . وأعجب به فسكت رسول الله ﷺ ، ولم يقل شيئاً . فأنزل الله تعالى : ﴿ **فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ** ... ﴾ الآية * وفي لباب السيوطي : وأخرج ابن عساكر في تاريخه من طريق السدى الصغير ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال : قال جندب بن زهير : إذا صلى الرجل أو صام ، أو تصدق ، فذكر به بخير ارتاح له . فزاد في ذلك لمقالة الناس له . فنزلت في ذلك : ﴿ **فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ** ... ﴾ الآية * روى

البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال : ﴿ مَنْ سمَّعَ سَمَّعَ الله به ، ومَنْ يُرائى يُرائى الله به ﴾ أي أن من عمل عملاً مراءاة للناس . وليشتهر به شهر الله به يوم القيامة * وروى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله تبارك وتعالى يقول : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه» *

سورة مريم وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ومٰا نَتَنَزَّلُ إلَّا بأمْرِ رَبِّكَ لَهُ مٰا بَيْنَ أيْدِينَا ومٰا خَلْفَنَا وَمٰا بَيْنَ ذَلِكَ ومٰا كانَ ربُّكَ نَسِيًّا ﴾ في اللباب : حدث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ياجبريل : مايمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ قال : فنزلت : ﴿ ومٰا نَتَنَزَّلُ إلَّا بأمْرِ رَبِّكَ ... ﴾ الآية قال : كان هذا الجواب لمحمد رسول الله ﷺ . رواه البخاري عن أبي نعيم . عن ذر * وقال عكرمة ومقاتل والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي : احتبس جبريل عليه السلام حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح . فلم يدر مايجيبهم ، ورجا أن يأتيه جبريل عليه السلام بجواب ، فسألوه : فأبطأ عليه فشق رسول الله ﷺ مشقة شديدة ، فلما نزل جبريل عليه السلام ، قال له : أبطأت عليّ حتى ساء ظني . واشتقت إليك . فقال جبريل عليه السلام : إني كنت إليك أشوق . ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ومٰا نَتَنَزَّلُ إلَّا بأمْرِ رَبِّكَ ... ﴾ وفي اللباب : وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : سأل النبي ﷺ جبريل : أي البقاع أحب إلى الله وأبغض إلى الله ؟ فقال : ماأدري حتى أسأل . فنزل . وكان قد أبطأ عليه . فقال : لقد أبطأت علي حتى ظننت أن قومي علي موجدة ، فقال : ﴿ ومٰا نَتَنَزَّلُ إلَّا بأمْرِ رَبِّكَ ... ﴾ * وفي الخازن أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال ياجبريل : مايمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت : ﴿ ومٰا نَتَنَزَّلُ إلَّا بأمْرِ رَبِّكَ ... ﴾ الآية قال : فكان هذا جواب جبريل لمحمد ﷺ * ثم روى سؤال اليهود عن الروح ... » أما التفسير : ﴿ ومٰا نَتَنَزَّلُ ﴾ هذا على لسان جبريل أمره الله تعالى أن يقوله لمحمد ﷺ جواباً لسؤاله المذكور . ﴿ إلَّا بأمْرِ رَبِّكَ ﴾ أي وماتنزل الملائكة

بالوحى على الرسل وقتا بعد وقت إلا بأمر الله على ماتقتضيه حكمته ، وتدعو إليه مصلحة عباده . ويكون فيه الخير لهم في دينهم ودنياهم . ثم علل ذلك جبريل عليه السلام بقوله : ﴿ **لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ** ﴾ أي إنه تعالى هو المدبر لنا في جميع الأزمنة مستقبلها وماضيها وحاضرها . أي فلا ننتقل من مكان إلى مكان ، ولا ننزل في زمان دون زمان إلا بإذنه عز وجل . ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** ﴾ أي ليست من صفاته تعالى الغفلة والنسيان . أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم وابن مردويه . والطبراني في جماعة آخرين عن أبي الدرداء مرفوعاً قال : «ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية . فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ثم تلا : ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** ﴾ . والمعنى إن عدم النزول لم يكن إلا لعدم الأمر لحكمة بالغة . ولم يكن لتركه تعالى ذلك كما زعمت الكفرة . قلاك ربك *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَ لَا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً** ﴾ في الواحدي : قال الكلبي : نزلت في أبي بن خلف حين أخذ عظماً بالية يفتها بيده ، ويقول : زعم لكم محمداً أنا نبعث بعد مانموت * وسيأتي بسط القول على هذه الآية ــ إن شاء الله تعالى في سورة يس عند قوله : ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ** .. ﴾ *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً** ﴾ في القرطبي : روى الأئمة واللفظ لمسلم عن خباب قال : كان لي على العاصي بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال لي لن أقضيك حتى تكفر بمحمد . فقلت لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث ، قال : وإني لمبعوث من بعد الموت ؟! فسوف أعطيك إذا رجعت إلى مال وولد . قال : وكيع : كذا قال الأعمش فنزلت هذه الآية * وفيه : وقال الكلبي ومقاتل : كان خباب قيناً ، فصاغ للعاصي حليا ثم تقاضاه أجرته ، فقال العاصي : ماعندي اليوم ماأقضيك فقال خباب : لست مفارقك حتى تعطيني ، فقال العاصي : ياخباب : مالك ماكنت هكذا ، وإن كنت لحسن القلب . فقال خباب : ذاك أني كنت على دينك ، فأما اليوم . فإني على دين الإسلام . مفارق لدينك . قال : أو لستم تزعمون أن في الجنة ذهباً

وفضة وحريراً ؟ قال خباب : بلى . قال : فأخرني حتى أقضيك في الجنة استهزاء ، فوالله لئن كان ماتقول حقاً . إني لأقضيك فيها . والله لاتكون أنت ياخباب وأصحابك أولى بها مني . فأنزل الله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ... ﴾ * وفي الواحدي نحوه . وفي اللباب أخرج الشيخان وغيرهما عن خباب بن الأرت قال : جئت العاصي بن وائل السهمي اتقاضاه حقاً عنده . فقال : لاأعطينك حتى تكفر بمحمد . فقلت : لا حتى تموت وتبعث . قال : فإني لميت ثم لمبعوث ! فقلت نعم ، فقال : إن لي هناك مالاً وولداً فأقضيك . فنزلت : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وقَالَ لأُوتينَّ مَالاً وولداً ﴾ رواه البخاري عن الحميدي عن سفيان . ورواه مسلم عن الأشجع عن وكيع ، كلاهما عن الأعمش . وفي التوضيح : العاص . أما التفسير : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾ العاصي بن وائل . وهو والد عمرو بن العاص الصحابي المشهور . كان له قدر في الجاهلية . ولم يوفق للإسلام . وقال الكلبي : كان من حكام قريش . وفي التوضيح : العاص بلا ياء . وليس من العصيان . إنما هو من عصي يعصو إذا ضرب بالسيف * والظاهر أنه من العصيان . وإنما حذفت الياء للتخفيف . ولذا تراه مكتوباً تارة بالياء للتخفيف . . . . وتارة بحذفها . وقوله : ﴿ وقال ﴾ لخباب بن الأرت القائل له تبعث بعد الموت . والمطالب له بمال ﴿ لَأُوتَيَنَّ ﴾ على تقدير البعث ﴿ مَالاً وَوَلداً ﴾ فأقضيك حقك . قال هذا استهزاء ونكرا لليوم الآخر . قال تعالى : ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ أي أعلمه ، وأن يؤتى ماقاله من المال والولد في الآخرة . ولما كان ما ادعاه لايحصل له العلم به إلا بأحد أمرين ــ الاطلاع على الغيب أو اتخاذ العهد . ولم يحصل له واحد منهما ، فتكون دعوى لابرهان عليها . وهذا ماعناه سبحانه بقوله : ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً ﴾ قال تعالى ردا عليه : ﴿ كَلَّا سنكتُبُ مَايَقُولُ وَنُمِدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مدّاً ﴾ أي ونعلمه أنا كتبنا أقواله هذه وغيرها . ونزيده عذاباً فوق عذاب كفره بما يقوله * كلا : كلمة ردع ورد على العاصي *

القول فى بيان سببِ نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدّاً ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن عوف : لما هاجر إلى المدينة وجد بنفسه على فراقه أصحابه بمكة ، منهم شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف ، فأنزل الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ

الرَّحْمٰنُ وُدًّا ﴾ قال محبة في قلوب المؤمنين * والمعنى : إن الذين آمنوا بالله وصدقوا برسله ، وبما جاؤهم به من عنده ، وعملوا به ، فأحلوه حلاله . وحرموا حرامه . سيجعل الله لهم محبته في قلوب عباده المؤمنين * وهذا من أسرار الله الظاهرة في محبة الناس لأوليائه وعباده الصالحين . أخرج البخاري ومسلم والترمذي في جمع كثير عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أحب الله تعالى عبداً يقول لجبريل : إني قد أحببت فلاناً فأحبه ، فينادي في السماء ، ثم تنزل المحبة في الأرض . فذلك قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... ﴾ الآية . وأخرج ابن مردويه والديلمي عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ لعلى كرم الله وجهه : «قل اللهم اجعل لي عندك عهداً ، واجعل لي في صدور المؤمنين ودا . فأنزل الله سبحانه الآية * وكان هرم بن حيان يقول : ماأقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم * أي من غير اصطناع معروف أو قرابة أو صداقة . بل إقبال الناس عليهم يكون بتحريك قلوبهم بالمودة والرحمة لهم بأمر من الله تعالى . فهنيئاً لأولئك العاملين بمحبة الله والمؤمنين لهم . وقد خصهم الله بهذه الكرامة إجلالاً لمكانهم وعلواً لشأنهم في الدنيا والآخرة . والمفهوم المخالف يعني أنه قذف الرعب في قلوب العصاة من المؤمنين والكافرين منهم فلا ينالوامنهم نيلاً يحط من كرامتهم . وعلى هذ المستوى كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين . فقد أحبهم الناس لصلاحهم . فقد كانوا رهباناً بالليل فرساناً بالنهار . فأينما توجهوا كانت وجهتهم على خير فدخل الناس في دين الله أفواجاً . ذكر قتادة أن عثمان بن عفان كان يقول : مامن الناس عبد يعمل خيراً ولا شراً إلا كساه الله رداء عمله * أي كالإشارة لإقبال الناس عليه . فأهل الخير يألفون بعضهم بعضاً . وأهل الشر يألفون بعضهم بعضاً . ﴿ قُلْ كُلٌّ يعمل على شاكلته ﴾ * فالمسلم التقى يبغضه الكفار ، والعاصي الفاجر يبغضه الصالحون الأبرار * وتفسير الآية قد توضح جلياً بهذه الأقوال *

سورة طه وبيان مافيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ طه : مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ في

الواحدي : قال مقاتل : قال أبو جهل والنضر بن الحارث للنبي ﷺ : إنك لتشقى بترك ديننا . وذلك لما رأياه من طول عبادته واجتهاده . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وكذا في الغرائب والطبري عن ابن عباس ، روى البراز عن علي قال : كان النبي ﷺ يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل حتى نزلت ﴿ **مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى** ﴾ * ولذا قيل أن « طه » فعل أمر . وأصله طأها . أي طأ الأرض بقدميك معاً . خوطب به لما كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه ويريح لأخرى من شدة التعب . وطول القيام * وفي القرطبي : وقال مجاهد : كان النبي ﷺ وأصحابه يربطون الحبال في صدورهم في الصلاة بالليل من طول القيام . ثم نسخ ذلك بالفرض ، فنزلت هذه الآية * وفيه . وقال الكلبي : لما نزل على النبي ﷺ الوحي بمكة اجتهد في العبادة ، واشتدت عبادته ، فجعل يصلي الليل كله زماناً حتى نزلت هذه الآية . فأمر الله أن يخفف عن نفسه . فيصلي وينام . فنسخت هذه الآية قيام الليل . فكان بعد هذه الآية ——— ——— يصلي وينام * والمعنى : نزلت الآية فيما كان ﷺ يتكلفه من السهر والتعب ، وقيام الليل * قال الليث : بلغنا أن موسى عليه الصلاة والسلام لما سمع كلام الرب تعالى استقره الخوف حتى قام على أصابع قدميه خوفاً . فقال عز وجل : ﴿ طَهَ ﴾ أي اطمئن * وفي تفسير ابن مردويه : قرأ رجل على ابن مسعود رضي الله عنه : طأها . فقال عبد الله : طَهَ . فقال الرجل ياأبا عبد الله الرحمن . أليس إنما أمر أن يطأ قدمه ؟ قال : فقال عبد الله : طَهَ هكذا أقرأ بنا رسول الله ﷺ وكذا نزل بها جبريل عليه الصلاة والسلام بكسر الطاء والهاء (طِهِ) قال : وكان بعض القراء يقطعها . أما التفسير فواضح *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لَاترى فيها عِوَجاً ولَا أَمْتاً** ﴾ في اللباب : أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قريش يا محمد : كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة ؟ فنزلت : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ** .. ﴾ * والظاهر أن سؤالهم على سبيل الاستهزاء ، فقالوا له : إنك تدعى أن هذه الدنيا تفنى . وأننا نبعث بعد الموت ، وأين تكون هذه الجبال ؟ فنزلت . وفي الخازن عن ابن عباس : سأل رجل من ثقيف رسول الله ﷺ . فقال : كيف تكون الجبال يوم القيامة . فأنزل الله تعالى هذه الآية . قال الخازن :

والنسف هو القطع . أي يقلعها من أصولها ، ولجعلها هباءً منثوراً * وقد فسر البخاري * صفصفاً : بقوله : والصَّفْصَفُ المستوى مِنَ الْأَرْضِ * أي كأنها من استوائها على صفة واحدة . وقيل . هي التي لا أثر للجبال فيها . والتفسير واضح *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً** ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن السدى قال : كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالقرآن أتعب نفسه في حفظه حتى يشق على نفسه فيخاف أن يصعد جبريل ولم يحفظ . فأنزل الله ﴿ **وَلَا تَعْجَلْ بِالقرآنِ ...** ﴾ الآية * أي بالقراءة ﴿ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ** ﴾ من قبل أن يفرع جبريل من الإبلاغ ﴿ **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً** ﴾ بالقرآن ومعانيه . وقلَّ أن يأمر رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم . وكان ابن مسعود إذ قرأ هذه الآية يقول : اللهم زدني علماً وإيماناً ويقيناً * وفي القرطبي : علم الله تعالى نبيه كيفية تلقى القرآن . قال ابن عباس : كان عليه الصلاة والسلام يبادر جبريل . فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً على الوحي ، وشفقة على القرآن مخافة النسيان فنهاه الله عن ذلك . وأنزل ولا تعجل بالقرآن . وهذا كقوله : ﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** ﴾ وفيه : وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : لا تتله قبل أن تتبينه ، وقيل : ولا تعجل أي لا تسأل إنزاله قبل أن يقضى أن يأتيك وحيه . وقيل المعنى . لا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله * والتفسير بين *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾ في الواحدي : حدث يزيد بن عبد الله بن فضل عن رافع مولى رسول الله ﷺ في سبب نزول هذه الآية أن ضيفاً نزل برسول الله ﷺ فدعاني . فأرسلني إلى رجل من اليهود يبيع طعاماً يقول لك محمد رسول الله ﷺ . نزل بنا ضيف ، ولم يلق عندنا بعض الذي نصلحه . فبعني كذا وكذا من الدقيق ، أو سلفني إلى هلال رجب ، فقال اليهودي : لا أبيعه ولا أسليفه إلا برهن . قال : فرجعت إليه فأخبرته . قال : والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض . ولو أسلفني أو باعني لأديت إليه ؛ اذهب بدرعي ، ونزلت هذه الآية . تعزية له عن الدنيا ، وتقدم القول فيها في سورة الحجر . ذكره الخازن وغيره . والمراد بالأزواج . في قوله : أزواجاً . أي أصنافا من البضائع التي كانت تحملها قوافل اليهود . أي ولا تطل

النظر استحساناً ورغبة فيما متع به هؤلاء المترفون من النعيم ، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة نختبرهم بها . ونعلم هل يؤدون شكرها ، أو تكون وبالاً عليهم ، ونكالاً لهم ، ولقد آتاك ربك خيراً مما أتاهم . آتاك السبع المثنى ﴿ **ولَقَدْ آتيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي والْقُرْآنَ الْعَظِيمَ** ﴾ فرضى *

سورة الأنبياء وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ من قريةٍ أهْلَكْنَاهَا أفَهُمْ يؤمنون** ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن قتادة . قال : قال أهل مكة للنبي ﷺ إن كان ما تقول حقاً ويسرك أن نؤمن . فحول لنا الصف ذهباً . فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان الذي يسألك قومك ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا . وإن شئت استأنى بقومك فأنزل الله : ﴿ **مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ من قريةٍ أهْلَكْنَاهَا أفَهُمْ يؤمنون** ﴾ * وكذا رواه المراغي . والمعنى : أن أهل القرى اقترحوا على أنبيائهم الآيات ، وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها . فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فأهلكهم الله . فلو أعطينا هؤلاء ما يقترحون لنكثوا أيضاً وهلكوا . وتقدم الكلام عليها *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِّتَ فَهُمُ الخالِدُونَ** ﴾ في لباب السيوطي : وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير . قال : نعى إلى النبي ﷺ نفسه . فقال يارب : فمن لأمتي ؟ فنزلت : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ** ... ﴾ * بمحمد ريب المنون . نشمت بموته . فنفى الله عنه الشماتة عنه بهذا . والمعنى أن الله تعالى قضى أن لا يخلد في الدنيا بشر لا أنت ولا هم فإن مت أنت أفيبقى هؤلاء ؟ قلت وما أحسن قول القائل :

تمنى رجالٌ أنْ أمـوتَ وإن مـت * فتِلْـكَ سَـبيلٌ لستُ فيها بأوحـد
فقُـلْ لِلّـذي يبغـى خـلاف الـذي مضى * تـزوَّدْ لأخـرى مثلهـا فكـأن قِدِ

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى : أنه ﷺ مر على أبي سفيان . وأبى جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك . وقال : هذا نبي بني عبد مناف ، فغضب أبو

سفيان . وقال : أتنكر أن يكون لعبد مناف نبي ؟ فسمعها النبي ﷺ فرجع إلى أبي جهل فوقع به ، وخوفه . وقال : ماأراك منتهيا حتى يصبك ماأصاب عمك الوليد بن المغيرة . وقال لأبى سفيان :أما إنك لم تقل ماقلت إلا حمية . فنزلت الآية . كذا رواه المراغي في تفسيره : وفيه قصور عن بيان المعنى المراد ، وسيأتي بيانه عن قريب ، وقوله : ﴿ أَفَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ أي يؤملون أن يعيشوا بعدك . ولا يكون هذا بل الكل إلى الفناء ، ولهذا قال بعد هذه الآية : ﴿ كُلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ونبلُوكُمْ بالْخيْرِ والشرِّ فِتْنَةً وإلَيْنا تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم . واستدل بعض العلماء من هذه الآية : وما﴿ وَما جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ أن الخضر عليه السلام مات وليس بحى إلى الآن . لأنّه بشر سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً . وهو استدلال صحيح إذ لو كان حياً لاستثناه الله تعالى . وعدم استثنائه دليل على موته *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وإذَا رآكَ الَّذِينَ كفرُوا أنْ يتّخذُونَك إلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمٰنِ هُمْ كافِرُونَ ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن السدى قال : مر النبي ﷺ على أبى جهل ، وأبى سفيان . وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك الخ ... ماذكره المراغي . وفي آخره : ماأراك منتهياً حتى يصيبك ماأصاب من غير عهده . فنزلت : ﴿ وإذَا رآكَ الَّذِينَ كفَرُوا ... ﴾ الآية . ونحوه في الخازن والنسفي والغرائب . أما التفسير : ﴿ وإذَا رآكَ الَّذِينَ كفَرُوا أنْ يتّخذُونَك ﴾ أي مايتخذونك ﴿ إلَّا هُزُواً ﴾ فسر ذلك بقوله : ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ بتقبيح أمرها وبطلان عبادتها . ثم بين تعالى جهالتهم وتعكيس قضيتهم بقوله : ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمٰنِ هُمْ كافِرُونَ ﴾ قدم الجار والمجرور (بذكر) وكرر الضمير ليفيد أنهم عاكفون على ذكر آلهتهم من كونها شفعاء وشهداء .. ولو ذكرها ذاكر بخلاف ذلك ساءهم . وأما ذكر الرحمن الذي منه جلائل النعم . ودقائقها وأصولها وفروعها . فلا يخطر منهم ببال . ولو ذكر الرحمن ذاكراً استهزؤا به حتى إن بعضهم يقولون استهزاءً : مانعرف الرحمن إلا مسيلمة أي الكذاب * وقولهم : «ومْا الرّحْمن أنسجد لما تأمرنا *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إنَّكُمْ ومْا تَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله حَصَبُ

جَهَنَّم أَنْتُمْ لَهَا وارِدُونَ ﴾ في اللباب : أخرج الحاكم عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إنَّكُمْ ومٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله ... ﴾ الآية قال ابن الزبعري : عبد الشمس والقمر والملائكة وعزير فكل هؤلاء في النار مع آلهتنا فنزلت : ﴿ إنَّ الّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ منَّا الْحُسْنَى أُوْلٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ وفي الواحدي عن ابن عباس قال : آية لا يسألني الناس عنها . ولا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها . أو جهلوها فلا يسألون عنها ؟ قال : وما هي ؟ قال : لما نزلت : ﴿ إنَّكُمْ ومٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله حَصَبُ جَهَّنَم أَنْتُمْ لَهَا وارِدُونَ ﴾ شق على قريش . فقالوا : أيشتم آلهتنا ؟ فجاء ابن الزبعري . فقال : مالكم ؟ قالوا : يشتم آلهتنا . قال : فما قال ؟ قالوا : قال : ﴿ إنَّكُمْ ومٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله حَصَبُ جَهَّنَم أَنْتُمْ لَهَا وارِدُونَ ﴾ قال : ادعوه لي ، فلما دعي النبي ﷺ قال يا محمد : هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله ؟ قال : بل لكل من عبد من دون الله . فقال ابن الزبعري : خصمت ورب هذه البنية ـــ يعني الكعبة ـــ ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون . وأن عيسى عبد صالح . وهذه بنو مليح يعبدون الملائكة . وهذه النصارى يعبدون عيسى عليه السلام ، وهذه اليهود يعبدون عزيراً . قال : فصاح أهل مكة . فأنزل الله تعالى : ﴿ إنَّ الّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ منّا الْحُسْنَى أُولٰئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ ﴾ . أي الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام . أولئك عنها مبعدون * قلت : وابن الزبعرى بكسر الزاى وفتح الباء وسكون العين وفتح الراء . ومعناه السيء الخلق ، وهو لقب والد عبد الله القرشي ، وقد أسلم بعد هذه القصة ذكره الشهاب أما التفسير : ﴿ إنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ ومٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله ﴾ أي غيره من الأوثان ، والشمس والقمر ... ﴿ حَصَبُ جَهَّنَم ﴾ أي ما يرمى به إليها وتهيج به ، ولا يقال له حصب إلا وهو في النار . فأما قبل ذلك فحطب وشجر وغير ذلك . وفي المختار : والحصب ما تحصب به النار أي ترمى . وكل ما ألقيته في النار فقد حصبها به . وأخرج البيهقي عن أبي هريرة وصح به الخبر أن الشمس والقمر يكونان ثورين عقيرين في النار . وأصله في البخاري . وقوله : ﴿ أَنْتُمْ لَهَا وارِدُونَ ﴾ أي داخلون فيها ﴿ لَوْ كانَ هَؤُلاءِ ﴾ يعني الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله ﴿ آلهَةً ﴾ أي على الحقيقة ﴿ ما ورَدُوها ﴾ أي ما دخل الأصنام النار وعابدوها ﴿ وكُلٌّ فِيها خالِدُون ﴾ يعنى العابدون والمعبودين في الخازن قال ابن مسعود في هذه الآية : إذا بقى في النار من يخلد

فيها جعلوا في توابيت من نار ، ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخرى ، ثم تلك التوابيت في توابيت أخرى ، عليها مسامير من نار ، فلا يسمعون ، ولا يرى أحد منهم أن في النار أحداً يعذب غيره * وقوله : ﴿ **لَهُمْ فِيها زفيرٌ وهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ** ﴾ شيئاً لشدة غليانها . وقوله : ﴿ **إنَّ الّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ منَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ** ﴾ تقدم أنها نزلت لما قال ابن الزبعري عبد عزير والمسيح والملائكة فهم في النار على مقتضى ماذكر في عموم مافى قوله : ﴿ **إنَّكُمْ وما تَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله حَصَبُ جَهَّنَم** ﴾ فخص هذا العموم باستخراج الذين سبقت لهم من الله الحسنى . أي الدرجة والرتبة الحسنى وهي السعادة في الدار الآخرة . فهم مبعدون عن عذاب جهنم وآلامها

سورة الحجج وبيان مافيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ منْ يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ ويتّبِع كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيد** ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ منْ يُجَادِلُ فِي الله** ﴾ قال : نزلت في النضر بن الحارث * وعبارة الخازن : نزلت في النضر بن الحرث كان كثير الجدل . وكان يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، وكان ينكر البعث . وإحياء من صار تراباً * وفي النسفي . وقال : كان يقول الملائكة بنات الله . والقرآن أساطير الأولين . وكان ينكر البعث ، وإحياء من صار تراباً * والمعنى واحد . والآية عامة في كل من تعاطى الجدال فيما لا يجوز على الله . وما لا يجوز من الصفات والأفعال ، ولا يرجع إلى علم فهو يتبع في ذلك خطوات كل شيطان عات متمرد على الله تعالى متجرد للفساد . والمراد إما رؤساء الكفرة الذين يدعون من دونهم إلى الكفر . وإما إبليس وجنوده *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله علَى حَرْفٍ فإنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمأنَّ به وإنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ علَى وجْهِهِ خسِرَ الدُّنيا والآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبينُ** ﴾ في الواحدي : قال المفسرون : نزلت في أعراب كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ المدينة مهاجرين من باديتهم ، وكان أحدهم إذا قدم المدينة فإن صح بها ونتجت فرسه مهراً حسناً . وولدت امرأته غلاماً . وكثر ماله وماشيته آمن به

واطمأن ، وقال : ماأصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً . وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية . وأجهضت رماكه ـــ الرمكة الأنثى من البراذين والجمع رماك ـــ المصباح ـــ وذهب ماله . وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال : والله ماأصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً ، فينقلب عن دينه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ومنَ النَّاسِ مَنْ يعبُدُ الله على حرف** ... ﴾ الآية * وفي لباب السيوطي : أخرج البخاري عن ابن عباس نحوه . قلت : ونص البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله علَى حَرْفٍ** ﴾ قال : كان الرجل يقدم المدينة . فإن ولدت امرأته غلاماً . ونجبت خيله قال : هذا دين صالح . وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله ، قال هذا دين سوء» وفي اللباب : وأخرج ابن مردويه من طريق عطية عن ابن مسعود قال : أسلم رجل من اليهود ، فذهب بصره وماله وولده فتشاءم بالإسلام . فأتى النبي ﷺ ، فقال : اقلني ، فقال : إن الإسلام لايقال . فقال : إني لم أصب في ديني هذا خيراً أذهب بصري ومالي وولدي . فقال : يايهودي ، إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب . قال : ونزلت : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله علَى حَرْفٍ** ... ﴾ أما التفسير : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله علَى حَرْفٍ** ﴾ أي شك في عبادته . أي متزلزلاً شبه بالحال على حرف جبل في عدم ثباته ، والمعنى : أن فيه انحرافاً عن العقيدة ، وعلى طرف من الدين إلا في وسطه وقلبه ﴿ **فإنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ** ﴾ صحة وسلامة في نفسه وماله وولده ﴿ **اطْمأنَّ به** ﴾ أي رضي به وسكن إليه ﴿ **وإنْ أصَابَتْهُ فِتْنَةٌ** ﴾ أي اختار بما يكرهه الطبع ويثقل على النفس كالجدب والمرض ، وسائر المحن ﴿ **انْقَلَبَ علَى وجْهِهِ** ﴾ رجع إلى الكفر . والعياذ بالله ﴿ **خَسِرَ الدُّنيا** ﴾ بفوات ماأمله منها . وهو كثرة ماله واجتماعه بأحبائه . قال الكرخي : ماأمله منها من العز والكرامة وإصابة الغنيمة ، وأهلية الشهادة ، والإمامة والقضاء * وخَسِرَ ﴿ **الآخِرَةَ** ﴾ بما فيها من النعيم بردته ﴿ **ذلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبينُ** ﴾ البين خسران مثله *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ به ما في بُطُونِهِمْ والجلُودُ ولَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ. كُلَّمَا أرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ**

أعيدُوا فِيهَا وذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ ﴾ في الواحدي : قال قيس بن عبادة : سمعت أبا ذر يقول : أقسم بالله : لنزلت : ﴿ هَذَانِ خصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ في هؤلاء الستة : حمزة وعبيدة ، وعلي بن أبي طالب وعتبة ، وشيبة والوليد بن عتبة . رواه الشيخان عن حجاج بن منهال * وحدث قيس بن عبادة عن عليّ قال : فينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يوم بدر ﴿ هَذَانِ خصْمَانِ اخْتَصَمُوا ... ﴾ إلى قوله : ﴿ الْحَرِيقِ ﴾ . أخرجه الشيخان * وقال ابن عباس : هم أهل الكتاب . قالوا للمؤمنين : نحن أولى بالله منكم ، وأقدم منكم كتاباً . ونبينا قبل نبيكم ـــ وقال المؤمنون . نحن أحق بالله . آمنا بمحمد عليه الصلاة والسلام . وآمنا بنبيكم ، وبما أنزل من كتاب ـــ فأنتم تعرفون نبينا ثم تركتموه ، وكفرتم به حسداً . وكانت هذه خصومتهم . فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية . وهذا قول قتادة * قال الخازن وهو ضعيف وكانت هذه خصومتهم ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية في الذين تبارزوا يوم بدر . حمزة وعلي . الخ ...« وفي تذكرة القرطبي : احتجت النار والجنة ، فقالت هذه يدخلنى الجبارون والمتكبرون ، وقالت هذه : يدخلني الضعفاء والمساكين . فقال الله تعالى لهذه : أنت عذابي أعذب بك من أشاء . وقال لهذه : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء . ولكل واحدة منكما ملؤها . وخرجه مسلم والترمذي . وقال حديث حسن صحيح ، ومعنى احتجت النار والجنة . أي حجت كل واحدة منهما صاحبتها وخاصمتها * أما التفسير : ﴿ هَذَانِ خصْمَانِ ﴾ أي المؤمنون خصم . والكفار خصم . وهو يطلق على الواحد والجماعة بأي لفظ واحدة وقد يعبر فيه بلفظ الجمع والتثنية . لأن الخصم في الأصل مصدر . ولذلك يوحد ويذكر غالباً وعليه قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نبؤ الْخَصْمِ إذ تسوَّروا المحراب ﴾ ويجوز أن يثنى ويؤنث ، وعليه هذه الآية ، ولما كان كل خصم فريقاً يجمع طوائف قال : ﴿ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ أي في دينهم : بعضهم أثبته وبعضهم أنكره . ﴿ فالّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ﴾ أي قدرت لهم على قدر جثتهم ﴿ ثِيابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ يلبسونها . أو كناية عن إحاطة النار بهم كما يحيط الثوب بلابسه ، والأول أظهر لأنه لما كان الثوب يغطي الجسد غير الرأس قال تعالى : ﴿ يُصَبُّ مِنْ فوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ الماء البالغ نهاية الحرارة ، فمن شدة حرارته أنّه ﴿ يُصْهَرُ ﴾ يذاب ﴿ به مَا في بُطُونِهِمْ ﴾ من شحوم وغيرها ﴿ وَ ﴾ تشوى به الجلود

﴿ الجلُودُ ﴾ بدون إحراقها ، أي كالشواء كما تقدم ﴿ ولَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ لضرب رؤسهم . وهي جمع مقمعة بكسر الميم لأنها آلة القمع ، وهي المطرقة . وقيل : السوط . ﴿ كُلَّمَا أرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها ﴾ أي النار ﴿ مِنْ غَمٍّ ﴾ يلحقهم بها والمراد أنها ترفعهم إلى أعلاها . فلا خروج لهم لقوله تعالى : ﴿ وما هُمْ بخارجين مِنْهَا ﴾ ولهذا قال : ﴿ أُعيدُوا فِيهَا ﴾ دون إليها . وذكر الإرادة للدلالة على رغبتهم في الخروج منها ﴿ وَ ﴾ قيل لهم : ﴿ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ ﴾ البالغ نهاية الاحراق لأن فعيلا من صيغ المبالغة * هذا الخصم الأول . وقال في المؤمنين : ﴿ إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فيهَا مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ولُؤْلؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ....*

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ في الواحدي : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : بعث النبي ﷺ عبد الله بن أنيس مع رجلين : أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار . فافتخروا في الأنساب ، فغضب عبد الله بن أنيس ، فقتل الأنصاري ، ثم ارتد عن الإسلام . وهرب إلى مكة فنزلت فيه : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ... ﴾ الآية . قلت : والآية متصلة بما في أول الآية ﴿ إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ويَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ والْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعَاكِفُ فِيهِ والباد وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ .. ﴾ روى ابن عباس رضي الله عنهما . أن الآية نزلت في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن المسجد الحرام ، وقد كره عليه الصلاة والسلام أن يقاتلهم ، وكان محرماً بعمرة ، ثم صالحوه على أن يعود في العام المقبل * المراغى . أما التفسير : ﴿ إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بما جاء به نبينا محمد ﷺ ﴿ ويَصُدُّونَ عن سَبِيلِ اللهِ ﴾ يمنعون المؤمنين من الحج والجهاد والإسلام وهو عام في كفار مكة وغيرهم إلى يوم القيامة للتعبير بالمضارع الدال على التكرير ﴿ وَ ﴾ تصدون عن ﴿ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ ﴾ قبلة لصلاتهم ومنسكاً ومتعبداً ﴿ سَواءً العاكف ﴾ أي المقيم ﴿ فيه ﴾ ويدخل فيه الغريب إذا جاور وأقام به ولزم التعبد فيه ﴿ والْبَادِ ﴾ القادم من البادية لأداء المناسك . ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ﴾ أي عدول عن القصد والاعتدال ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أي بسببه بأن ارتكب منهياً ، ولو شتم الخادم ﴿ نُذِقْهُ من عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

مؤلم أي بعضه في الدنيا قال السدى : إلا أن يتوب . وروى عن عبد الله بن عمرو أنه كان له فسطاطان : أحدهما في الحل والآخر في الحرم . فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل . فسئل عن ذلك . فقال : إن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل كلا والله . وبلى والله *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا ولا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال : كان أهل الجاهلية يضمخون البيت بلحوم الإبل ودمائها . فقال أصحاب النبي ﷺ : « فنحن أحق أن نضمخ » فأنزل الله تعالى : ﴿ **لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا ...** ﴾ * وكذا في الخازن . وفيه : يزعمون أن ذلك قربه إلى الله تعالى . فأنزل الله : ﴿ **لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا ولا دِمَاؤُهَا ...** ﴾ أي لن ترفع إلى الله لحومها ولا دماؤها . ﴿ **وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ** ﴾ أن ترفع إليه الأعمال الصالحة والإخلاص . وهو ما أريد به وجه الله . أي لا يرفع نفس اللحم والدم . والمعنى : أنه لا يثيبكم على لحمها إلا إذا وقع موقعا من وجوه الخير الخالص لوجه الله تعالى . ﴿ **كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ** ﴾ أي البدن لتأكلوا منها وتركبوها ﴿ **لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ** ﴾ وأرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه . وهو أن يقول : الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا . ﴿ **وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ قال ابن عباس الموحدين . والاحسان في اللغة ضد الإساءة . وفسر النبي ﷺ الإحسان حين سأله جبريل صلوات الله وسلامه عليهما فقال : «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهو تأويل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ . إشارة إلى المراقبة وحسن الطاعة والمراد به الإخلاص وهو شرط في صحة الإيمان والإسلام معاً . فصح تفسير ابن عباس المحسنين : الموحدين .

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وصلواتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كثيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ في الواحدي : قال

المفسرون : كان مشركوا أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ ، فلا يزالون يجيئون من مضروب ومشجوج ، فشكوهم إلى رسول الله ﷺ ، فقال لهم : اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر رسول الله ﷺ . فأنزل الله تعالى هذه الآية * أي الأولى . ولاشك أن الآية الثانية لاتنفك عن الأولى بدليل ماذكره الواحدي . وقال ابن عباس : لما أخرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر رضي الله عنه : أخرجوا نبيهم ليهلكن . فأنزل الله : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ...** ﴾ قال أبو بكر . فعرفت أنه سيكون قتال * والقول الأول في سبب نزولها في الخازن . وفيه وقيل نزلت هذه الآية في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة فاعترضهم مشركوا مكة ، فأذن الله لهم في قتال الكفار الذين يمنعوهم من الهجرة بأنهم ظلموا . أي بسبب ماظلموا واعتدوا عليهم بالإيذاء * قلت : وهي أول آية نزلت في القتال بعد ما نهي عنه في نيف وسعبين آية . كما رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما . أما التفسير : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا** ﴾ أي أبيح لهم قتال المشركين الظالمين ، وذلك بعد الهجرة ، وعلل الإذن لهم بأنهم ظلموا . أي بسبب ظلم الكافرين إياهم ﴿ **وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴾ وعد لهم بالنصر عن طريق الرمز والكناية كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم . هم ﴿ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ** ﴾ مكة ﴿ **بِغَيْرِ حَقٍّ** ﴾ في الإخراج الذي أخرجوه لالذنب ارتكبوه ﴿ **إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ** ﴾ وحده . وهذا ذنب في نظر المشركين . فالتوحيد حق والإخراج به اخراج غير حق ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ** ﴾ أي دفع الله الكافرين ﴿ **بِبَعْضٍ** ﴾ أي ببعض المؤمنين . فكأنه قال تعالى ولولا دفع الله أهل الشرك بالمؤمنين بالإذن لهم في جهادهم ﴿ **لَهُدِّمَتْ** ﴾ أماكن العبادة ﴿ **صَوَامِعُ** ﴾ بيوت الرهبان ﴿ **وَبِيَعٌ** ﴾ كنائس النصارى ﴿ **وصلواتٌ** ﴾ كنائس اليهود ، وأصلها بالعبرانية صلوثا ﴿ **وَمَسَاجِدُ** ﴾ للمسلمين ﴿ **يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً** ﴾ والمعنى : لهدم في شرع كل نبي المكان الذي يصلى فيه ، فلولا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كانوا يصلون فيها في شرعه . وفي زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفي زمن نبينا المساجد ، فعلى هذا إنما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ . وقدمت الصوامع والبيع والصلوات على مساجد المسلمين لأنها أقدم في الوجود . ﴿ **وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ** ﴾ أن ينصر دينه وأولياءه ﴿ **إِنَّ اللهَ**

لَقَوِيٌّ ﴾ على خلقه ﴿ **عَزِيزٌ** ﴾ منيع في سلطانه *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وما أرسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنَ رسُولٍ ولَا نبيٍّ إلّا إذَا تمَنَّى أَلْقىٰ الشّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ الله مَا يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ الله آياتِهِ والله عَليمٌ حكِيمٌ** ﴾ في الواحدي : قال المفسرون : لما رأى رسول الله ﷺ تولى قومه عنه ، وشق عليه مارأى من مباعدتهم عما جاءهم به ، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله مايقارب به بينه وبين قومه . وذلك لحرصه على إيمانهم ، فجلس ذات يوم في نادٍ من أندية قريش كثيراً أهله . وأحب يومئذ أن يأتيه من الله تعالى شيء ينفر عنه ، وتمنى ذلك ، فأنزل الله تعالى سورة : ﴿ **والنَّجْمِ إذَا هَوَى ..** ﴾ فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ : ﴿ **أفرأيتُمُ اللّاتَ والْعُزَّى . ومَنَاة الثّالِثَةَ الْأُخْرَى** ﴾ ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه وتمناه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجي فلما سمعت قريش ذلك فرحوا . ومضى رسول الله ﷺ في قراءته . فقرأ السورة كلها ، وسجد في آخر السورة ، فسجد المسلمون بسجوده ، وسجد جميع من في المسجد من المشركين ، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد إلا الوليد بن المغيرة وأبا أحيحه : سعيد بن العاص . فإنهما أخذا حفنة من البطحاء . ورفعاها إلى جبهتهما وسجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود ، وتفرقت قريش ، وقد سرها ماسمعوا ، وقالوا : قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر ، وقالوا قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ، ويخلق ويرزق لكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، فإن جعل لها محمد نصيباً فنحن معه ، فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فقال : ماذا صنعت ؟ تلوت على الناس مالم آتك به عن الله سبحانه وتعالى . وقلت مالم أقل لك . فحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً . وخاف من الله خوفاً كبيراً . فأنزل الله تعالى هذه الآية فقالت قريش : ندم محمد على ماذكر من منزلة آلهتنا عند الله فازدادوا شراً إلى ماكانوا عليه * وقد طعن ابن العربي وعياض في جميع طرق الرواية هذه ، وأنها روايات باطلة لا أصل لها . وذكر السيوطي في اللباب قوله : وأخرجه البزار وابن مردويه من وجه آخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسبه . وقال : لا يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد ، وتفرد بوصله أمين بن خالد وهو ثقة مشهور ، وأخرجه البخاري عن ابن عباس بسند فيه الواقدي وابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن جرير من طرق العوفى عن ابن عباس ، وأورده ابن اسحاق

في السيرة عن محمد بن كعب ، وموسى بن عقبة ابن شهاب ، وابن جرير عن محمد بن قيس ، وابن أبي حاتم عن السدى كلهم بمعنى واحد ، وكلها إما ضعيفة أو منقطعة سوى طريق سعيد بن جبير الأول الذي أوردته . وفي فتح الباري كلام طويل لابن حجر أثبت بعض طرقها ، ورد على من قال ذلك في النوم ، وقد ذكر السيوطي القصة في تكملة الجلال . والحق أنه ينبغي أن يكون للآية سبب آخر لنزولها غير قصة الغرانيق إن كان لها سبب نزول آخر . وماذهب إليه عياض وابن العربي هو الحق إن شاء الله . ويصدق قول القائل أن النبي ﷺ قال ذلك توبيخاً للكفار . وسجد شكراً لله . وهو ماجوزه القاضي عياض والباقلاني . كما يصدق قول من قال : كان النبي ﷺ يرتل القرآن في سورة النجم . فترصده الشيطان في سكته من السكتات ونطق بتلك الكلمات محاكيا صوت النبي ﷺ بحيث سمعه من دنا إليه ، فظنها من قول النبي وأشاعها . قال القاضي عياض . وهذا أحسن الوجوه . وهو الذي يظهر ترجيحه ، ويؤيده ماروى عن ابن عباس في تفسير تمنى بتلا . فيكون معنى في أمنيته : في تلاوته . فأخبر تعالى في هذه الآية أن سنة الله في رسله إذا قالوا قولاً زاد الشيطان فيه

من قبل نفسه . فهذا نص في أن الشيطان زاد في قول النبي ﷺ لا أن النبي ﷺ قال لأنه معصوم . وقد صوب هذا المعنى الطبري . قال ابن كثير رضي الله عنه قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق . وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسلة . ولم أرها مسندة من وجه صحيح * أما التفسير فواضح *

سورة المؤمنون وبيان مافيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون ... ﴾ قال عبد الرحمن بن عبد القاري ، قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول كان إذا نزل الوحي على رسول الله ﷺ يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل . مكثنا ساعة ، فاستقبل القبلة ورفع يديه . فقال : اللهم زدنا ولاتنقصنا . وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولاتحرمنا ، وآثرنا ولاتؤثر علينا ، وارض عنا ، ثم قال : لقد أنزلت علينا عشر آيات

من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ قد أفلح المؤمنون — إلى عشر آيات . رواه الحاكم أبو عبيد الله في صحيحه عن أبي بكر القطيعي ، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه . عن عبد الرازق . وكذا ذكر ابن كثير لكنه قال : رواه الترمذي في تفسيره والنسائي في الصلاة من حديث عبد الرزاق به . وقال الترمذي منكر لا نعرف أحداً رواه غير يونس بن سليم ويونس لا نعرفه . وقال الذهبي عن حديث الحاكم . سئل عبد الرزاق عن شيخه ذا . فقال : أظنه لا شيء *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾ في الواحدي : حدث ابن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزل : ﴿ **الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾ * وفي اللباب : فطأطأ رأسه . وفي الكشاف : رقى ببصره نحو مسجده * وفي الطبري : وقيل إنها نزلت من أجل أن القوم كانوا يرفعون أبصارهم فيها إلى السماء قبل نزولها فنهوا بهذه الآية عن ذلك . وروى البخاري عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم . فاشتد قوله في ذلك حتى قال : لينتهين عن ذلك . أو لتخطفن أبصارهم » وقال أبو هريرة كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة ، فلما نزل : ﴿ **الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾ رمقوا بأبصارهم إلى مواضع السجود . وقيل : الخشوع هو أن لا يعبث بشيء من جسده في الصلاة لما روى أن النبي ﷺ أبصر رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة : فقال : « لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه » ذكره البغوى بغير سند . ومعنى الآية : الذين هم مخبتون لله أذلاء منقادون له . خائفون من عذابه . والخشوع واجب على المرء في الصلاة لوجوه : ١ – التدبر فيما يقرأ ٢ – تذكر لقاء الله والخوف من وعيده ٣ – المصلى يناجي ربه فليحذر من الغفلة . قال تعالى : ﴿ **أفلا يتدبَّرون القرآن أم علَى قُلوبٍ أقفالها** ﴾ وقال : ﴿ **وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً** ﴾ أي لتقف على عجائب أسراره * ومن الخشوع أن يستعمل الاداب فيتوقى كف الثوب . والعبث بجسده وثيابه . والالتفات والتمطي . والتثاؤب والتغميض ، وتغطية الفم والسدل والفرقعة . والتشبيك والاختصار ، وتقليب الحصا ، نظر الحسن إلى رجل يعبث بالحصا . وهو يقول : اللهم زوجني الحور العين . فقال : بئس الخاطب أنت تخطب وأنت تعبث *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ في الواحدي : قال أنس بن مالك . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وافقت ربي في أربع . قلت يارسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله تعالى : ﴿ **واتَّخِذُوا مِنْ مقامِ ابراهيمَ مُصَلى** ﴾ وقلت يارسول الله : لو اتخذت على نساءك حجاباً فإنه يدخل عليهن البر والفاجر فأنزل الله تعالى ﴿ **سألتمُوهُنَّ مَتاعاً فاسلُوهُنَّ من وراء حجاب** ﴾ وقلت لأزواج النبي ﷺ

لتنتهينّ أو ليبدّلنّه الله سبحانه أزواجاً خيراً منكنّ ، فأنزل الله تعالى : «**عَسى ربُّه إن طلّقكُنَّ أنْ يُبْدِلَهُ أزْواجاً خيْراً منكُنَّ..**» الآية * ونزلت : «**ولقدْ خَلَقْنَا الإنسانَ من سلالة من طين**» إلى قوله : «**ثُمَّ أنْشأناهُ خلقاً آخر**» فقلت فتبارك الله أحسنُ الخالقين .

القول في بيان نزول قوله تعالى : «**وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بالْعَذابِ فَما استكانُوا لِرَبِّهم ومٰا يتضرّعُون**»

في الواحدي : عن ابن عباس : قال : جاء أبوسفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد : ننشدك الله والرّحم ، لقد أكلنا العلهز (يعني الوبر بالدم) فأنزل الله تعالى : «**وَلَقَدْ أخَذْنَاهُمْ بالْعَذَابِ فَما اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ ومٰا يتضرّعُون**» وكذا في البيضاوى * وفي اللباب : أتى ابن إياز الحنفى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ، وهو أسير فخلّى سبيله ، فلحق باليمامة ، فحال بين أهل مكّة وبين الميرة من يمامة ، وأخذ الله تعالى قريشاً بسنى الجدب حتى أكلوا العلهز ، فجاء أبوسفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أنشدكم الله والرحم إنك تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ، قال : بلى ، فقال : قد قتلت الآباء بالسيف ، والأ بناء بالجوع ، فأنزل الله تعالى هذه الآية «**وَلَقَدْ أخَذْنَاهُمْ بالعذاب...**» الآية * وفي الخطيب نحوه . وفيه ، والعلهز أيضاً القراد الضخم . وبقيّة الأقوال نحو ما ذكر .

أما التفسير : «**وَلَقَدْ أخَذْنَاهُمْ بالْعَذَابِ**» الجوع ، وذلك بسبب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم عليهم بقوله : (اللهمّ اشدد وطأتك على مضر ، اللهمّ اجعلها عليهم سنيناً كسني يوسف)وقد قحطوا كما علمت «**فَمَا استكانُوا**» تواضعُوا «**لربِّهِمْ ومٰا يَتَضَّرعُون**» يرغبون إلى الله بالدعاء.

سورة النور وبيان مافيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **الزَّانِي لايَنْكِحُ إِلَّا زانيةً أو مُشْرِكةً والزانيةُ لاينْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وحُرِّمَ ذَلِكَ علَى المؤمنين** ﴾ في الواحدي : قال المفسرون : قدم المهاجرون إلى المدينة ، وفيهم فقراء ليست لهم أموال . وبالمدينة نساء بغايا مسافحات يكرين أنفسهن . وهن يومئذ أخصب أهل المدينة ، فرغب فى كسبهن ناس من فقراء المهاجرين . فقالوا : لو أنا تزوجنا منهن ، فعشنا معهن إلى أن يغنينا الله تعالى عنهن . فاستأذنوا النبي ﷺ في ذلك . فنزلت هذه الآية . وحرم فيها نكاح الزانية صيانة للمؤمن عن ذلك * وقال عكرمة : نزلت في نساء بغايا متعالجات بمكة والمدينة ، وكن كثيرات ، ومنهن تسع صواحب رايات . لهن رايات كرايات البيطار يعرفونها : وهن أم مهدون جارية السائب بن أبي السائب المخزومي . وأم غليظ جارية صفوان بن أمية ، وحية القبطية جارية العاص بن وائل ، ومرية جارية ابن مالك بن عثملة بن السياق . وجلاله جارية سهيل بن عمرو . وأم سويد جارية عمرو بن عثمان المخزومي . وشريفة جارية زمعة بن الأسود . وقرينة جارية هشام بن ربيعة . وفتنا جارية هلال بن أنس . وكانت بيوتهن تسمى في الجاهلية المواخير . ولا يدخل عليهن ولا يأتيهن إلا زانٍ من أهل القبلة ، و مشرك من أهل الأوثان ، فأراد ناس من المسلمين نكاحهم ليتخذوهن مأكلة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . ونهى المؤمنين عن ذلك . وحرمه عليهم * وفي رواية القاسم بن محمد عن عبد الله بن عمر أن امرأة يقال لها أم مهدون كانت تسافح ، وكانت تشترط للذي يتزوجها أن تكفيه النفقة . وأن رجلاً من المسلمين أراد أن يتزوجها فذكر

ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية * وفي اللباب : وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رجل يقال له مزيد يحمل من الأنبار إلى مكة حتى يأتيهم ، وكانت امرأة بمكة صديقة له يقال لها عناق فاستأذن النبي ﷺ أن ينكحها فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت : ﴿ **الزَّاني لا يَنْكِحُ إلَّا زانيةً أو مُشْرِكةً** .. ﴾ الآية . فقال رسول الله ﷺ : يا مزيد : الزاني لا ينكح إلَّا زانية أو مشركة . فلا تنكحها * أي أن الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا والتقحب لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء واللاتي على خلاف صفته . وإنما يرغب في فاسقة خبيثة من شكله أو في مشركة . والفاسقة الخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **والّذِينَ يَرْمُونَ أزْواجَهُمْ ولَمْ يكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إلَّا أنفسهُمْ فَشَهَادَةُ أحَدِهِمْ أرْبَعُ شَهَاداتٍ بالله إنَّهُ مِنَ الصَّادقينَ** .. ﴾ الآيات . في الواحدي : حدث عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **والّذِينَ يرمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمّ لَمْ يأتُوا بأرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فاجْلِدُهُمْ ثمانينَ جَلْدَةً ولا تقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أبَداً وأولئك هُمُ الفاسقونَ** ﴾ . قال سعد بن عبادة : وهو سيد الأنصار . أهكذا نزلت يا رسول الله ؟! فقال رسول الله ﷺ : ألا تسمعون يا معشر الأنصار إلى ما يقول سيدكم ؟ قالوا يا رسول الله : إنه رجل غيور . والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا ، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته . فقال سعد : والله يا رسول الله !! إني لأعلم أنها حق ، وأنها من عند الله . ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه حتى آتى بأربعة شهداء فوالله إني لآاتى بهم حتى يقضي حاجته . فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشياً فوجد عند أهله رجلاً ، فرأى بعينه وسمع بأذنه ، فلم يهيجه حتى أصبح ، وغدا إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : إني جئت أهلي عشياً فوجدت عندها رجلاً ، فرأيت بعيني ، وسمعت بأذني ، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به ، واشتد عليه ، فقال سعد بن عبادة الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ، ويبطل شهادته في المسلمين . فقال هلال : والله إني لأرجو أن يجعل الله لي مخرجاً . فقال هلال يا رسول الله : قد أرى ما قد اشتد عليك مما جئتك به . والله يعلم إني لصادق . فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن

يأمر بضربه إذ نزل عليه الوحي . وكان إذا نزل عليه عرفوا ذلك في تربد جلده ، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي ، فنزلت : ﴿ **والّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ ولَمْ يكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلَّا أنفُسهُمْ** ... ﴾ الآيات كلها . فسرى عن رسول الله ﷺ فقال : أبشر ياهلال ، فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً ، فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربيّ * وفي رواية علقمة عن ابن مسعود قال : إنا ليلة الجمعة في المسجد إذ دخل رجل من الأنصار ، فقال : لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً ، فإن تكلم جلدتموه . وإن قتل قتلموه ، وإن سكت على غيظ ، فقال : اللهم افتح ، وجعل يدعو . فنزلت آية اللعان : ﴿ **والّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ ولَمْ يكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلَّا أنفُسهُمْ** ... ﴾ الآية . فابتلى به الرجل من بين الناس فجاء هو وامرأته إلى رسول الله ﷺ . فشهد الرجل أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . ثم لعن الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . فذهبت لتلتعن . فقال رسول الله ﷺ : مه . فلما أدبرت . قال : لعلها أن تجيء به أسوداً أجعداً. فجاءت به أسود جعداً . رواه مسلم عن أبي خيثمة * وفي لباب السيوطي : وأخرج الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد قال : جاء عويمر إلى عاصم بن عدي ، فقال : اسأل لي رسول الله ﷺ : أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فقتله أيقتل به ؟ أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ . فعاب رسول الله ﷺ السائل . فلقينه عويمر . فقال : ماصنعت ؟ قال : ماصنعت إنك لم تأتني بخير . سألت رسول الله ﷺ . فعاب السائل ، فقال عويمر : فوالله لآتين رسول الله ﷺ فلأسألنه . فسأله . فقال : إنهأنزل فيك وفي صاحبك ... الحديث * قال الحافظ ابن حجر : اختلف الأئمة في هذه المواضيع ، فمنهم من رجح أنها نزلت في شأن عويمر ، ومنهم من رجح أنها نزلت في شأن هلال . ومنهم من جمع بينهما بأن أول من وقع له ذلك هلال . وصادف مجيء عويمر أيضا فنزلت في شأنهما معاً . وإلى هذا جنح النووي ،

وتبعه الخطيب . فقال العلماء : اتفق لهما ذلك في وقت واحد *.. وأخرج البراز من طريق زيد بن مطيع قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بكر : لو رأيته مع أم رومان رجلاً ماكنت فاعلاً به ؟ قال : كنت فاعلاً به شراً . قال : وأنت ياعمر ؟ قال : كنت أقول لعن الله الأعجز وزانة الخبيث . فنزلت . قال ابن حجر : لامانع من تعدد الأسباب * وتفسير الآية باختصار : ﴿ **والّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ** ﴾ بالزنا ﴿ **ولَمْ يكُنْ لَهُمْ**

شُهَداءُ ﴾ عليه ﴿ **إلَّا أنفسهُمْ** ﴾ وقد علمت أين وقع قذف الزوجة بالزنا لجماعة من الصحابة كهلال بن أمية وعويمر العجلاني ، وعاصم بن عدى ، فيتلاعنان وهو ﴿ **فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَاداتٍ باللهِ إنَّهُ لَمِنَ الصَّادقينَ** .. ﴾ فيما رمى به زوجته من الزنا ، ﴿ **والخَامسةُ أنَّ لَعْنَت اللهِ عَلَيْهِ إنْ كانَ مِنَ الكَاذبينَ** ﴾ في ذلك . فيقع الحد عليها ، وتدفعه عن نفسها ﴿ **وَيَدْرأُ عَنْها الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَاداتٍ باللهِ إنَّهُ لَمِنَ الكَاذبينَ** ﴾ فيما رماها به من الزنا . ثم تقول : ﴿ **وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إنْ كانَ من الصَّادِقينَ** ﴾ في ذلك أي فيما رماها به . أي أن تحلف أربعة أيمان أن زوجها الذي رماها به من الفاحشة لمن الكاذبين فيما قال . والشهادة الخامسة أن غضب الله عليها إن كان زوجها صادقاً فيما تهمها به . وخصت الملاعنة بأن تخمس بغضب الله عليها تغليظا عليها لأنها هي سبب الفجور ومنبعه بخديعتها ، وطماعها الرجل في نفسها . ومكان الملاعنة إن كانت بمكة ، فبين الركن والمقام . وإن كانت بالمدينة فعند منبر النبي ﷺ . وفي سائر البلاد في الجامع عند المنبر . وأما الزمان فهو أن يكون بعد العصر . وأما جمع الناس فأقله أربعة . وإن لاعن الحاكم بينهما وحده جاز * وعند الشافعي : يقام الرجل قائماً حتى يشهد ، والمرأة قاعدة . وتقام المرأة والرجل قاعد حتى تشهد . وعند الشافعي تقع الفرقة بينهما بلعان الزوج ، وتكون في حكم التطليقة البائنة عند أب حنيفة ومحمد رضي الله عنهما . فإذا كذب الرجل نفسه بعد ذلك جاز أن يتزوجها في قول وعند أبي يوسف وزفر والحسن بن زياد والشافعي رضي الله عنهم هي فرقة بغير طلاق توجب تحريماً مؤبداً ليس لهما أن يجتمعا بعد ذلك بوجه *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنَّ الَّذِينَ جَاؤا بالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شراً لَكُمْ بَلْ هُوَ خيرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ والّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظيمٌ * لَوْلَا إذْ سَمِعْتُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ والْمُؤْمِنَاتُ بأنْفُسِهِمْ خيْراً وَقَالُوا هَذَا إفْكٌ مبينٌ** ﴾ إلى تتمة عشر آيات بعدها . ﴿ **وأَنَّ اللهَ رَؤفٌ رَحِيمٌ** ﴾ الآية نزلت في براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فيما رميت به ، وهو إجماع من المفسرين والمحدثين وليس فيها إلا قول واحد . وإليك تفسيرها باختصار . ﴿ **إنَّ الَّذِينَ جَاؤا بالإفْكِ** ﴾ الإفك : ابلغ مايكون من الكذب والافتراء . وأصله . الأفك وهو القلب لأنه قول مأفوك عن وجهه . والمراد ماأفك به على عائشة رضي الله

عنها في غزوة بني المصطلق . والقصة مشهورة ﴿ **عُصْبَةٌ** ﴾ جماعة منهم عبد الله بن أبي رأس النفاق وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة . وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم ﴿ **مِنْكُمْ** ﴾ من جماعة المسلمين . وهم ظنوا أن الافك وقع من الكفار دون من كان من المؤمنين ﴿ **لَا تَحْسَبُوهُ** ﴾ الافك ﴿ **شراً لَكُمْ** ﴾ عند الله ﴿ **بَلْ هُوَ خيرٌ لَكُمْ** ﴾ لأن الله يأجركم عليه ، وأنزل في البراءة ، منه ثماني عشر آية . والخطاب لرسول الله ﷺ وأبي بكر وعائشة رضوان الله عليهم ومن ساءه ذلك من المؤمنين ﴿ **لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنهُمْ ماكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ** ﴾ أي على كل امرىء من العصبة جزاء إثمة مقدار خوضه فيه ﴿ **والّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ** ﴾ أي تحمل معظمه ، وهو عبد الله بن أُبي ﴿ **لَهُ عَذَابٌ عَظيمٌ** ﴾ هو النار في الآخرة ﴿ **لَوْلَا** ﴾ هلّا ﴿ **إذْ** ﴾ حين ﴿ **سَمِعتُموهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنونَ والْمُؤْمِنَاتُ بأنْفُسِهِمْ** ﴾ أي ظن بعضهم ببعض ﴿ **خيْراً وَقَالُوا هَذَا إفْكٌ مبينٌ** ﴾ بين الكذب ﴿ **لَوْلَا** ﴾ هلا ﴿ **جَاؤُا** ﴾ أي العصبة ﴿ **عَلَيْهِ بأَرْبَعَةِ شُهَداءَ** ﴾ شاهدوه ﴿ **فإذْ لَمْ يأْتُوا بالشُّهَداءِ فأولئك عنْدَ الله** ﴾ أي في حكمه ﴿ **هُمُ الكاذِبُونَ** ﴾ فيه ﴿ **ولَوْلَا فَضْلُ الله عَلَيْكُم ورَحْمَتُهُ في الدُّنيا والآخرةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ** ﴾ أي خضتم ﴿ **فِيهِ عَذابٌ عَظيمٌ** ﴾ في الآخرة ﴿ **إذْ تَلَقَّوْنَهُ بأَلْسِنَتِكُمْ** ﴾ أي يرويه بعضكم عن بعض ﴿ **وتقولُونَ بأفْواهِكُمْ مَا لَيْسَ لكُمْ بِهِ عِلْمٌ وتَحْسَبُونَهُ هيِّناً** ﴾ لا إثم فيه ! ﴿ **وهُوَ عِنْدَ الله عَظيمٌ** ﴾ إثمة كبير عند الله فهو من الكبائر . ﴿ **ولَوْلَا** ﴾ هلا ﴿ **إذْ** ﴾ حين ﴿ **سَمِعْتُموهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ** ﴾ ما ينبغي ﴿ **لَنَا أنْ نتكلَّم بهذَا سُبْحَانَكَ** ﴾ للتعجب من عظم الأمر ﴿ **هَذَا بُهْتَانٌ** ﴾ كذب ﴿ **عظيمٌ . يَعظُكُمُ الله** ﴾ ينهاكم ﴿ **أنْ تَعودُوا لِمثْلِهِ أبَداً إنْ كنْتُمْ مُؤْمنينَ** ﴾ يتعظون بذلك ﴿ **ويُبينُ الله لَكُمُ الآيَاتِ** ﴾ في الأمر والنهي ﴿ **والله عَليمٌ** ﴾ بما يأمر به وينهى عنه ﴿ **حَكِيمٌ** ﴾ فيه ﴿ **إنَّ الّذِينَ يُحِبُونَ أنْ تشيعَ الْفَاحِشَةُ** ﴾ باللسان أي شيوع خبرها ﴿ **في الّذِينَ آمَنُوا** ﴾ بنسبتها إليهم وهما المقذوفين وهما عائشة وصفوان ﴿ **لَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ في الدُّنيا** ﴾ بالحد للقذف . فقد ثبت أن النبي ﷺ حدّ القاذفين وهم الأربعة المذكورين ﴿ **والله يَعْلَمُ** ﴾ انتفاءها عنهم ﴿ **وأَنْتُمْ** ﴾ أيها العصبة ﴿ **لا تَعْلَمُونَ** ﴾ وقوعا فيهم . ﴿ **ولَوْلَا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ** ﴾ أيها العصبة ﴿ **ورحْمَتُهُ وأَنَّ الله رؤف رَحيمٌ** ﴾ بكم لعاجلكم بالعقوبة *

هذه الآيات نزلت دفعة واحدة في براءة عائشة رضي الله عنها * وإليك قصة الحادثة كما رواها البخاري فى صحيحه . قال البخاري : حدثنا يحى بن بكير . حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب . قال أخبرني عروة بن الزبير . وسعد بن المسيب ، وعلقمة بن وقاص . وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ، ماقالوا فبرأها الله مما قالوا . كل حدثني طائفة من الحديث . وبعض حديثهم يصدق بعضاً ، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض الذي حدثني عروة عن عائشة رضي الله عنها . أن عائشة رضي الله عنها : زوج النبي ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه . فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه . قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزوة غزاها ، فخرج سهمي ، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجاب ، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه . فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك ، وقفل ، ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع . فالتمست عقدي ، وحبسني ابتغاؤه . وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لِيُ . فاحتملوا هودجي ، فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت ، وهم يحسبون أنى فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم إنما نأكل العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم ، وليس بها داع ولا مجيب . فأممت منزلي الذي كنت به ، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى ، ثم الذكواني من وراء الجيش ، فأدلج فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتاني فعرفني حين رآني ، وكان يراني قبل الحجاب . فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي ، والله ما كلمني كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك من هلك . وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أُبي ابن سلول ، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً ، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر

بشيء من ذلك ، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين اشتكى إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلم . ثم يقول . كيف تيكم ، ثم ينصرف ، فذاك الذي يريبني ، ولا أشعر بالشر حتى حرجت بعد ما نقهت ، فخرجت معي أم مسطح قبل المناصع ، وهو متبرزنا ، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العَرب الأول في التبرز قبل الغائط ، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح ، وهي بنت أبي رهم بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر : خالة أبي بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة . فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها ، فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : بئس ما قلت : أتسبين رجلاً شهد بدراً ؟! قالت : أي هنتاه . أو لم تسمعي ما قال ؟ قالت : قلت وما قال ؟ قالت : فأخبرتني بأهل الإفك ، فازددت مرضاً على مرضي ، فلما رجعت إلى بيتي ودخل علي رسول الله ﷺ . تعني سلم . ثم قال : كيف تيكم . فقلت أتأذن لي أن آتي أبوى . قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما . قالت : فأذن لي رسول الله ﷺ ، فجئت أبوى . فقلت لأمي : يا أمتاه : ما يتحدث الناس ؟ قالت : يا بنتي هوني عليك . فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل محبها ، ولها ضرائر إلا كثرت عليها ، قالت : فقلت : سبحان الله !! ولقد تحدث الناس بهذا !! قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي ، فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب . وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله . قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله . وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود ، فقال يا رسول الله : أهلك . وما نعلم إلا خيراً . وأما علي بن أبي طالب ، فقال يا رسول الله ﷺ : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك . قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة ، فقال : أي بريرة . هل رأيت من شيء يريبك ، قالت : بريرة : لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن . تنام عن عجين أهلها . فتأتي الداجن فتأكله . فقام رسول الله ﷺ . فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبيّ ابن سلول . فقال يا رسول الله ﷺ وهو على المنبر . يا معشر المسلمين من

يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ، فوالله ماعلمت أهلي إلا خيراً . ولقد ذكروا رجلاً ماعلمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي ، فقام سعد بن معاذ الأنصاري ، فقال يارسول الله : أنا أعذرك منه . وإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعد بن عبادة . وهو سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلاً صالحا ، ولكن احتملته الحمية . فقال لسعيد كذبت لعمر الله ، لاتقتله ولا تقدر على قتله * فقام أسيد بن حضير . وهو ابن عم سعيد ، فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتثاور الحيان : الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا . ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت . قالت : فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم، قالت : فأصبح أبواى عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ، ولا يرقأ لي دمع ، يظنان أن البكاء فالق كبدي . قالت : فبينما هما جالسان عندي . وأنا أبكي ، فاستأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكي معي . قالت : فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ ، فسلم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل ماقيل قبلها ، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني ، قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : أما بعد ياعائشة : فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه . فإن العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه . قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته ، قلص دمعي حتى ماأحس منه قطرة فقلت لأبي : أجب رسول الله ﷺ فيما قال : قال والله : ماأدري ماأقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لأمي : أجيبي رسول الله ﷺ . قالت : ماأدري ماأقول لرسول الله ﷺ . قالت : فقلت وأنا جارية حديثة السن لاأقرأ كثيراً من القرآن . إني والله لقد علمت . لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم ، وصدقتم به ، فلئن قلت لكم : إني بريئة والله يعلم أني بريئة لاتصدقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني . والله ماأجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف . قال : فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون . قالت : ثم تحولت . فاضطجعت على فراشي . قالت : وأنا حينئذ أعلم أني بريئة ، وأن الله يبرئني ببراءتي ، ولكن والله

ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها . قالت : فوالله مارام رسول الله ﷺ ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذاه ما كان يأخذاه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه ، قالت : فلما سرى عن رسول الله ﷺ سرى عنه وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها : ياعائشة : أما الله عز وجل فقد برأك ، فقالت أمي : قومي إليه . قالت : فقلت والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله عز وجل . وأنزل الله : ﴿ **إنَّ الّذينَ جَاؤُا بالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوه ..** ﴾ العشر الآيات كلها . فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره ـــ والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال : فأنزل الله : ﴿ **ولا يأْتَلِ أوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ والسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولى الْقُرْبَى والْمَسَاكِينَ والْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ الله ولْيَعْفُوا ولْيَصَفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكُمْ والله غَفُورٌ رحيمٌ** ﴾ قال أبو بكر بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه . وقال : والله لا أنزعها منه أبداً .فقالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري . فقال يا زينب : ماذا علمت أو رأيت ؟ فقالت يارسول الله : أحمى سمعي وبصري ما علمت إلا خيراً . قالت : وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك » قلت : وكان مسروق رضي الله عنه إذا حدث عن عائشة يقول : حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله ﷺ . المبرأة من السماء * وقول حسان في عائشة رضي الله عنهما :

حَصَانٌ رزانٌ ماتُزَنُّ بِرِيبة * وتُصبح غرثَى مِنْ لُحومِ الْغَوافِلِ

حليلة خير الناس ديناً ومَنْصِباً * نبيّ الهدى والمكرَمات الفَواضل

الحصان : المتعففة . رزان : ثابتة . ماتزن : أي ترمى . ولا تتهم بريبة : أي بأمر يريب الناس . وتصبح غرثى . أي جائعة من لحوم الغوافل . أي لا تغتاب أحداً ممن هو غافل عن مثل هذا الفعل . وكانت رضي الله عنها تستحق الثناء والمدح بما كانت عليه من

الحصانة والشرف والعقل والعلم والديانة . فمن رماها بالسوء فقد قلب الحق بالباطل ...*

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون** ﴾ في الواحدي : حدث أشعث بن سوار عن ابن ثابت قال : جاءت امرأة من الأنصار . فقالت يارسول الله : إني أكون في بيتي على حال لاأحب أن يراني عليها أحد لاوالد ولاولد . فيأتي الأب فيدخل علي ، وإنه لايزال يدخل علي رجل من أهلي . وأنا على تلك الحال فكيف أصنع ؟ فنزلت هذه الآية : ﴿ **لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم** ... ﴾ الآية * قال المفسرون : فلما نزلت هذه الآية قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه يارسول الله : أفرأيت الحانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن فأنزل الله تعالى : ﴿ **ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم** ... ﴾ * وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : لما نزلت آية الاستئذان في البيوت قال أبو بكر يارسول الله : فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام ، ولهم بيوت معلومة على الطريق فكيف يستأذنون : يسلمون وليس فيها سكان ؟ فنزلت ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة .. الآية * وكذا في القرطبي : وابن كثير وغيرهما : وقال مقاتل في الآية : كان الرجل في الجاهلية إذا لقى صاحبه لايسلم عليه ويقول : حييت صباحاً ، وحييت مساءً ، وكان ذلك تحية القوم بينهم ، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه ، فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول : قد دخلت ونحو ذلك ، فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله . فغير الله ذلك كله في ستر وعفة ، وجعله نقياً نزها من الدنس والقذر والدرن فقال تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم** .. ﴾ الآية . وهذا الذي قاله مقاتل حسن .. ولهذا قال تعالى ﴿ **ذلكم خير لكم** ﴾ أما التفسير : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا** ﴾ تستأذنوا . من الاستئناس بمعنى الاستعلام من أنس الشيء إذا أبصره ، فإن المستأذن مستعلم للحال مستكشف أنه هل يراد دخوله أو لايؤذون له ، أو من الاستئناس الذي هو خلاف الايحاش ، فإن المستأذن متوحش خائف أن لايؤذن له ، فإذا أذن له استأنس أوتتعرفوا هل ثم إنسان من الإنس . ﴿ **وتسلموا على أهلها** ﴾ أي

لا يدخلوا إلى مالا يحل النظر إليه . قال الخازن : واختلفوا في أيهما يقدم فقيل يقدم الاستئذان فيقول : أدخل السلام عليكم كما في الآية من تقديم الاستئذان قبل السلام .

وقال الأكثرون : يقدم السلام فيقول : سلام عليكم أأدخل ؟ وتقدير الآية حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا . وكذا هو في مصحف ابن مسعود ، وروى عن كند بن حنبل قال : دخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن . فقال النبي ﷺ : ارجع فقل السلام عليكم أأدخل أخرجه أبو داود والترمذي . وعن ربعي بن حراش قال : جاء رجل مع بني عامر فاستأذن على رسول الله ﷺ . وهو في البيت . فقال : ألج ؟ فقال رسول الله ﷺ لخادمه أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان . فقل له : السلام عليكم أدخل . فسمع الرجل ذلك من رسول الله ﷺ . فقال : السلام عليكم أأدخل . فأذن له رسول الله ﷺ . أخرجه أبو دادو . وأخرج الشيخان عن أبي سعيد وأبي بن كعب عن أبي موسى . قال أبو سعيد : كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور . فقال : استأذنت على عمر ثلاثاً . فلم يؤذن لي ، فرحل ، قال : مامنعك ؟ قلت : استأذنت ثلاثاً ، فلم يؤذن لي ، فرجعت ، وقد قال رسول الله ﷺ : إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع . قال : والله لتقيمن عليه بينة أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ . قال أبي بن كعب : فوالله لا يقوم معك إلا أصغر القوم ، فكنت أصغر القوم ، فقمت معه ، فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك . قال الحسن : الأول إعلام . والثاني مؤامرة ، والثالث استئذان بالرجوع * وعن عبد الله بن بسر قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول : السلام عليكم . وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور * أخرجه أبو داود وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إذا دعى أحدكم فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن . أخرجه أبو دواد * وقيل : إذا وقع بصره على إنسان قدم السلام أو قدم الاستئذان ثم يسلم * وقال أبو موسى الأشعري وحذيفة : يستأذن على المحارم . يدل عليه ماروى عن عطاء بن يسار أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ . فقال : أستأذن على أمي ؟ قال : نعم ، فقال الرجل : إني معها في البيت . فقال رسول الله ﷺ أستأذن عليها ؟ فقال الرجل : إني خادمها . فقال رسول الله ﷺ استأذن عليها . أتحب أن تراها عريانة ؟ قال : لا ، قال : فاستأذن عليها .

أخرجه مالك في الموطأ * وقوله : ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَذكَّرُونَ** ﴾ هذه الآداب التي أدب الله بها عباده المؤمنين ، فهي آداب حسنة نافعة في بقاء الود وحسن العشرة بين المؤمنين *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قُلْ لِلْمُؤْمِنينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظنَ فُرُوجَهُنَّ ولَا يُبْدِينَ زينتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ منها وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ ولَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بعُولَتِهِنَّ أو إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخواتِهِنَّ أَوْ نسائِهِنَّ أَوْ مَا ملَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أو التابِعينَ غَيْرِ أُولى الإِربَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْراتِ النِّسَاءِ ولَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخفينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وتُوبُوا إِلَى اللهِ جميعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُون لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال : بلغنا أن جابر بن عبد الله حدث أن أسماء بنت مرثد كانت في نخل لها . فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات فيبدو ما في أرجلهن . يعني الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذوائبهن . فقالت أسماء : ماأقبح هذا . فأنزل الله في ذلك : ﴿ **وقُلْ للمُؤْمناتِ ..** ﴾ وأخرج ابن جرير عن حضرمي أن امرأة اتخذت صرتين من فضة ، واتخذت جزعا ، فمرت على قوم . فضربت برجلها فوقع الخلخال على الجزع فصوت ، فأنزل الله : ﴿ **ولَا يَضْرِبْنَ بأرجلهنَّ** ﴾ الآية * وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله : **(وليضربن بِخُمُرِهِنَّ علَى جُيُوبِهِنَّ) شَقَقْنَ مُرُوطَهُنَّ فاخْتَمَرْنَ** بها مروطهن : جمع مرط وهو الإزار . فاختمرن بها . أي غطين وجوههن بالمروط التي شققنها * وروى عنها قولها : لما نزلت الآية : **وَلْيَضْرِبنَ بِخُمرِهِنَّ عَلَى جيُوبِهِنَّ أَخذْنَ أُزْرَهُنَّ فَشَقَقنها مِنْ قِبَلِ الحواشِي فاخْتَمَرْن بها * وهو طريق آخر في الحديث المذكور عنها . وكذا رواه الحاكم في مستدركه . ثم قال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقد علمت تخريج البخاري له . هذا ولم أر في التفاسير غير ماذكرت من أقوال في أسباب نزولهما ؟ أما التفسير : ﴿ وقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ** ﴾ عما لا يحل النظر إليه . وهو شروع في بيان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة . والغض إطباق الجفن بحيث يمنع الرؤية روى عن أم سلمة قالت : كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميونة بنت الحرث إذ أقبل ابن مكتوم .

فدخل عليه . وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب ، فقال رسول الله ﷺ احتجبا منه . فقلنا يارسول الله : أليس أعمى لا يبصرنا . ولا يعرفنا * فقال : رسول الله ﷺ : أفعميا وان أنتما ، ألستما تبصرانه . أخرجه الترمذي وأبو داود . ﴿ **ولَا يُبْدِينَ** ﴾ أي لا يظهرن ﴿ **زينتَهُنَّ** ﴾ أي لغير محرم . وأراد بالزينة الخفية مثل الخلخال والخضاب في الرجل والسوار في المعصم والقرط في الأذن ، والقلائد في العنق ، فلا يجوز للمرأة اظهارها ، ولا يجوز للأجنبي النظر إليها . والمراد من الزينة النظر إلى مواضعها من البدن * وعبارة السيوطي في الجلال ﴿ **ولَا يُبْدِينَ** ﴾ يظهرن ﴿ **زينتَهُنَّ إلَّا مَا ظَهَرَ مِنْها** ﴾ وهو الوجه والكفان فيجوز نظره لأجنبي إن لم يخف فتنة في أحد وجهين ، والثاني يحرم لأنه مظنه الفتنة ورجح حسما للباب * أي أن في غض البصر سداً لباب الشر ، ومنها لارتكاب المآثم والذنوب ولله در أحمد شوقي حيث يقول :

نظـرة فابتسـامة فسـلامٌ * فكـلامٌ فمـوعد فلقـاءُ

وفي الصحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ إياكم والجلوس على الطرقات . قالوا يارسول الله : لابد لنا من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال ﷺ . إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه . قالوا : وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر * وروى مسلم عن عبد الله البجلي قال : سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري * وروى أبو داود أن النبي ﷺ قال لعلي : «ياعلي لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة» وقوله : ﴿ **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ** ﴾ أي يسترن الرؤس والأعناق والصدور بالمقانع . وهي ما يغطي به الرأس ﴿ **ولَا يُبدين زِينَتَهُنَّ** ﴾ الخفية التي لم يبح لهن كشفها في الصلاة ، ولا للأجانب ، وهي ما عدا الوجه والكفين ﴿ **إلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ** ﴾ جمع بعل أي زوج . حاصل هذه المستثنيات اثنا عشر نوعاً آخرها أو الطفل فيجوز لهم نظرة إلا ما بين السرة والركبة ، فيحرم نظره لغير الأزواج . وخرج بنسائهن الكافرات . فلا يجوز للمسلمات الكشف لهن ، وشمل ما ملكت أيمانهن العبيد ﴿ **أو التابعين** ﴾ في فضول الطعام . قال ابن عباس : التابع هو الأحمق العنين ، وقيل هو الذي لا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهيهن ، وقيل هو المجبوب ، وقيل هو الشيخ الهرم الذي ذهبت شهوته . وقيل : هو المخنث . ﴿ **غَيْرِ أوْلى الإرْبَةِ** ﴾ أي أصحاب الحاجة إلى

النساء ﴿ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ بأن لم ينتشر ذكر كل ﴿ أَوِ الطِّفْلِ ﴾ بمعنى الأطفال : ﴿ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا ﴾ لم يطلعوا ﴿ عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ للجماع ، فيجوز أن يبدين لهم ماعدا مابين السرة والركبة ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ عند مشيهن ليقعقع خلخالهن ﴿ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ فإن ذلك يورث الرجال ميلاً إليهن ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ مما وقع لكم من النظر الممنوع منه ومن غيره ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تنجون من ذلك لقبول التوبة منه. وفي قوله وتوبوا تغليب للذكور على الإناث لوقوع النظر من الرجال أكثر من النساء * أخرج أحمد والبخاري والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر أنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «أيها الناس ! توبوا إلى الله ، فإني أتوب إليه كل يوم مائة مرة» * ومن شرط التوبة : الاقلاع عن الذنب ، والندم على مامضى . والعزم على ألا يعودوا إليه . ورد الحقوق إلى أهلها . لا كما يظن الناس الآن أنها كلمة تلاك باللسان دون أن يكون لها أثر في القلب ، ولا عزم على عدم العود . حتى إن كثيراً مما يزعمون أنهم تابوا من الذنب يحكون مافعلوه من الآثام على وجه الفخر والاستلذاذ بذكره . وهذا دليل على أنهم كاذبون في توبتهم مراؤن في أفعالهم *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لنزول هذه الآية سببان الأول في المكاتبة والثاني في إكراه الفتيات على الزنى . وهما : في الواحدي : نزلت في غلام الحويطب بن عبد العزى يقال له صبيح سأل مولاه أن يكاتبه . فأبى عليه . فأنزل الله تعالى هذه الآية . وكاتبه حويطب على مائة دينار ، ووهب له منها عشرين ديناراً ، فأداها . وقتل يوم حنين في الحرب * وفي لباب السيوطي : أخرج ابن المنكدر في معرفة الصحابة عن عبد الله بن صبيح عن أبيه قال : كنت مملوكاً لحويطب بن عبد العزى فسألته الكتابة فنزلت : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكتاب ... ﴾ الآية . والثاني . أخرج مسلم من طريق أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال : كان عبد الله بن أبي يقول لجارية له : اذهبي فابغينا شيئاً فأنزل الله ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ... ﴾ إلى قوله ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

وأخرج أيضاً من هذا الطريق أن جارية لعبد الله بن أبي يقال لها مسيكة ، وأخرى يقال لها أميمة فكان يكرههما على الزنى ، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله ﴿ **ولا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ على الْبِغاءِ** .... ﴾ الآية . وأخرج الحاكم من طريق أبي الزبير عن جابر قال : كانت مسيكة لبعض الأنصار ، فقالت إن سيدي يكرهني على البغاء فنزلت : ﴿ **ولَا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ علَى الْبِغاء** ... ﴾ الآية . وفي الواحدي : أن معاذة كانت مسلمة . وكان عبد الله بن أبي يستكرهها على البغاء ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ولَا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ على الْبِغَاءِ** ... ﴾ وقال المفسرون : نزلت في معاذة ومسكية : جاريتي عبد الله بن أبي المنافق كان يكرههما على الزنا لضريبة يأخذها منهما ، وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية يؤجرون إماءهم . فلما جاء الإسلام قالت معاذة لمسيكة : إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين . فإن يك خيراً فقد استكثرنا منه ، وإن يك شراً ، فقد آن لنا أن ندعه . فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقال مقاتل : نزلت في ست جوار لعبد الله بن أبي كان يكرههن على الزنا . ويأخذ أجورهن . وهن معاذة ومسكية وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة . فجاءت إحداهن ذات يوم بدينار ، وجاءت أخرى بدونه فقال لهما : ارجعا فازنيا . فقالتا : والله لا نفعل قد جاءنا الله بالإسلام . وحرم الزنا ، فأتيا رسول الله ﷺ . وشكتا إليه . فأنزل الله تعالى هذه الآية . وفي رواية معمر عن الزهري أن رجلاً من قريش أسر يوم بدر ، وكان عند عبد الله بن أبي أسيراً ، وكانت لعبد الله جارية يقال لها معاذة ، وكان القرشي الأسير يراودها عن نفسها ، وكانت تمتنع منه لإسلامها . وكان ابن أبي يكرهها على ذلك ويضربها لأجل أن تحمل من القرشي ، فيطلب فداء ولده ، فقال الله تعالى : ﴿ **ولَا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ علَى الْبِغَاءِ** ... ﴾ إلى قوله : ﴿ **غفورٌ رحيمٌ** ﴾ قال : أغفر لهن ما أكرهن عليه *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإذَا دُعُوا إلى الله ورسُولِهِ ليحكُمَ بيْنَهُمْ إذَا فريقٌ مِنهُمْ مُعْرِضُونَ * وإنْ يَكُنْ لَهُمْ الْحَقُّ يأتُوا إلَيْهِ مُذْعِنينَ** ﴾ قال المفسرون : هذه الآية والتي بعدها نزلت في بشر المنافق وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض ، فجعل اليهودي يجره إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما . وجعل المنافق يجره إلى كعب بن الأشرف . ويقول : إن محمداً يحيف علينا ، وقد مضت هذه القصة عند قوله : ﴿ **يريدُون أنْ يتحاكموا إلى الطاغوت** ﴾ (النساء) فلا حاجة لإعادة ذكرها هنا .*

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وعَدَ اللهُ الّذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كمَا اسْتَخْلَفَ الّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الّذي ارْتَضى لَهُمْ ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونني لا يُشْرِكُونَ بِي شيئاً ومَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ في الواحدي : روى الربيع بن أنس عن أبي العالية في هذه الآية قال : مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعد ماأوحى إليه خائفاً هو وأصحابه يدعون إلى الله سبحانه وتعالى سراً وعلانية ، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة . وكانوا بها خائفين يصبحون في السلاح ويمسون في السلاح فقال رجل من أصحابه يارسول الله : ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح . فقال رسول الله ﷺ : لن تلبثوا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محبباً ليست فيهم حديدة . وأنزل الله تعالى : ﴿ **وعَدَ اللهُ الّذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** .. ﴾ الآية . فأظهر الله تعالى نبيه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمنوا ، ثم قبض الله تعالى نبيه ، فكانوا آمنين . كذلك في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، حتى وقعوا فيما وقعوا فيه ، وكفروا النعم . فأدخل الله عليهم الخوف ، وغيروا فغير الله بهم * وأخرج الحاكم وصححه . والطبراني عن أبي بن كعب قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة ، وآوتهم الأنصار . رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه . فقالوا : ترون أن نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله فنزلت : ﴿ **وَعَدَ اللهُ الّذينَ آمَنُوا منكم** ... ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ **وَمَنْ كفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فأولئك هُمْ الفاسقون** ﴾ يعني بالنعم . وكذا بقية الأقوال في التفاسير :

أما التفسير : ﴿ **وَعَدَ اللهُ الّذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح . وفي الوعد معنى القسم لأن وعد الله محقق الوقوع ولذلك قال في جوابه ﴿ **لَيَسْتَخْلَفَنَّهُمْ** ﴾ أو القسم محذوف . أي أقسم ليجعلنكم خلفاء في الأرض ﴿ **كمَا اسْتَخْلَفَ الّذينَ مِنْ قبلِهِمْ** ﴾ كما فعل ببني اسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة . ما هنا مصدرية . أي استخلافا كاستخلاف الذين من قبلهم . ﴿ **وَلَيُمكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهمُ الّذينَ ارْتَضَى لَهُمْ** ﴾ وهو الإسلام بأن يظهره على جميع الأديان ، ويوسع لهم في البلاد فيملكوها . ﴿ **ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خوْفِهِمْ** ﴾ من الكفار ﴿ **أَمْناً** ﴾ وقد أنجز الله وعده لهم بما ذكر . وأثنى عليهم بقوله : ﴿ **يعْبُدونني**

لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾ أي يعبدونني موحدين ﴿ **وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ** ﴾ الإنعام منهم به ﴿ **فأولئكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ** ﴾ قال االسيوطي : وأول من كفر به قتلة عثمان رضي الله عنه فصاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخواناً * أي لم يقم بحق هذه النعم من عدم التعرض للفتن * وتلك الأنعام الجسام هي الاستخلاف في الأرض بالتمليك والأمن بعد الخوف .

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتأْذِنْكُمُ الّذِينَ مَلَكَتْ أيْمانُكُمْ والّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قبل صلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرة ومِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاء ثلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ ولَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ على بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمْ الْآيَاتِ واللهُ عَلِيمٌ حكيمٌ** ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : وجه رسول الله ﷺ غلاماً من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل فرأى عمر على حال كرهها فقال يارسول الله : لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الإستئذان . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال مقاتل : نزلت في أسماء بنت مرثدكان لها غلام كبير . فدخل عليها في وقت كرهته . فأتت رسول الله ﷺ فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها . فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية * وهل الآية منسوخة أم لا ؟ عبارة الخازن اختلف العلماء في حكم هذه الآية فقيل إنها منسوخة : حكى ذلك عن سعيد بن المسيب . وروى عكرمة أن نفراً من أهل العراق قالوا لابن عباس : كيف ترى هذه الآية التي أمرنا بها ولا يعمل بها أحد . قول الله عز وجل : ﴿ **يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم** ... ﴾ الآية . فقال ابن عباس : إن الله عليم رحيم بالمؤمنين يحب الستر . وكان الناس ليس لبيوتهم ستور . ولا حجاب فربما دخل الخادم ، أو الولد ، أو يتيم الرجل . والرجل على أهله . فأمر الله بالاستئذان في تلك العورات ، فجاءهم الله تعالى بالستور والحجب ، فلم أر أحداً يعمل بذلك بعد . أخرجه أبو داود في رواية عنه نحوه . وزاد . فرأى أن ذلك أغنى عن الاستئذان في تلك العورات * وذهب قوم إلى أنها غير منسوخة . روى سفيان عن موسى بن أبي عائشة قال : سألت الشعبي عن هذه الآيةليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم . أمنسوخة هي ؟ قال : لا والله . قلت : إن الناس لايعملون بها . قال : الله المستعان . قال سعيد بن جبير في هذه الآية إن ناساً يقولون نسخت ، والله مانسخت .

ولكنها مما تهاون بها الناس . قيل : ثلاث آيات ترك الناس العمل بهن هذه الآية . وقوله : إن أكرمكم عند الله أتقاكم . والناس يقولون أعظمكم بيتا وإذا حضر القسمة أولى القربى . الآية . أما التفسير : ﴿ **ياأيُّها الّذينَ آمَنُوا لِيَسْتأْذِنُكُمْ** ﴾ اللام لام الأمر . وفيه قولان : أحدهما أنه على الندب والاستحباب . والثاني أنه للوجوب وهو الأولى . ﴿ **الّذِينَ مَلَكَتْ أيْمانُكُمْ** ﴾ من العبيد والإماء . إن ظاهر الآية أمر المماليك والأطفال بالاستئذان ، والمقصود أمر المؤمنين بأن يمنعوا هؤلاء من الدخول عليهم في هذه الأوقات ﴿ **والّذِينَ لَمْ يبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ** ﴾ من الأحرار . وعرفوا أمر النساء . أي حكوا عورات النساء . بأن ميزوا بين الجميلة وغيرها . ليستأذنوا ﴿ **ثلاثَ مَرَّاتٍ** ﴾ في ثلاث أوقات ﴿ **مِنْ قبل صلاةِ الْفَجْرِ** ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع ، وطرح ثياب النوم ، ولبس ثياب اليقظة . هذه المرة الأولى . والثانية ﴿ **وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِرة** ﴾ أي وقت الظهر . أي تصنعونها لأجل القيلولة . والثالثة ﴿ **ومِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاء** ﴾ لأنه وقت التجرد عن اللباس والإلتحاق باللحاف . وقوله ﴿ **ثلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ** ﴾ أي هذه الثلاثة أوقات تبدو فيها العورات فأمروهم بالاستئذان فيها عند دخولهم عليكم . ومابعدها : ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ ولا عَلَيْهِمْ** ﴾ أي المماليك والصبيان ﴿ **جُنَاحٌ** ﴾ في الدخول عليكم بغير إذن ﴿ **بَعْدَهُنَّ** ﴾ أي بعد الأوقات الثلاثة هم ﴿ **طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ** ﴾ للخدمة ﴿ **بَعْضُكُمْ** ﴾ طائف ﴿ **على بَعْضٍ** ﴾ والجملة مؤكدة لما قبلها ﴿ **كَذَلِكَ يُبيّنُ الله لَكُمْ الآياتِ** ﴾ أي الأحكام ﴿ **والله عَليمٌ** ﴾ بأمور مختلفة ﴿ **حكيمٌ** ﴾ بما دبره لهم *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ على الأَعْمَى حَرَجٌ ولَا على الأَعْرَجِ حَرَجٌ ولَا على المريضِ حَرَجٌ ولَا على أَنْفُسِكُمْ أن تأكُلُوا مِنْ بيوتِكُمْ أو بيُوتِ آبائِكُمْ أوْ بيُوتِ أمَّهَاتِكُمْ أوْ بيُوتِ إخْوانِكُمْ أو بيُوتِ أخَوَاتِكُمْ أو بيُوتِ أعْمَامِكُمْ أو بيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أو بيُوتِ أخْوالِكُمْ أو بيُوتِ خالاَتِكُمْ أوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أو صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيكُمْ جُنَاحٌ أنْ تأكُلُوا جَمِيعاً أو أشْتَاتاً فإذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أنْفُسِكُمْ تَحِيَةً منْ عِنْدِ الله مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ الله لكُمُ الآياتِ لعلّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ لنزول هذه الآية سببان الأول : في الواحدي : قال ابن عباس : لما أنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكُم بالباطل** ﴾ تحرج المسلمون عن مؤاكلة

المرضى والزمني والعرج . وقالوا : الطعام أفضل الأموال . وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل . والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والمريض لا يستوفى الطعام ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال سعيد بن جبير والضحاك : كان العرجان والعميان يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء لأن الناس يتقذرونهم ويكرهون مؤاكلتهم ، وكان أهل المدينة لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا أعرج ولا مريض تقذراً ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي اللباب : قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن ابن نجيح عن مجاهد قال : كان الرجل يذهب بالأعمى والمريض إلى بيت أبيه ، أو بيت أخيه ، أو بيت أخته أو عمته أو بيت عمته أو بيت خالته فكانت الزمني يتحرجون من ذلك . يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم . فنزلت هذه الآية رخصة لهم * . وأخرج ابن جرير عن قتادة . قال نزلت في حي من العرب كان الرجل منهم لا يأكل طعامه وحده ، وكان يحمله بعض يوم حتى يجد من يأكله معه * وأخرج عن عكرمة وأبي صالح . قالا : كانت الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم فنزلت رخصة لهم * وفي أبي السعود كان فريق من المؤمنين كبني ليث بن عمرو بن كنانة يتحرجون أن يأكلوا طعامهم منفردين ، وكان الرجل منهم لا يأكل ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه . فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً ، وربما قعد الرجل والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح إلى الرواح ، وربما كانت معه الإبل الحافلات فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه . فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل * أي فنزلت الآية . وقيل : كان الغني منهم يدخل عليه الفقير من ذوى قرابته وصداقته فيدعوه إلى طعامه . فيقول : إني أتحرج أن آكل معك ، وأنا غني وأنت فقير . وفي البيضاوي : وقيل نزلت في قوم تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الآكلين في كثرة الأكل وقلته * أي فبين أنه لا حرج عليهم أن يأكلوا مجتمعين ولا متفرقين . والمقصود كما هو مفهوم ترجمة البخارى له إباحة الأكل جميعاً وإن اختلفت أحوالهم . وهو سنة سيد المرسلين ﷺ . وأكل الجماعة أعظم بركة . وأحسن أخلاقاً . وخير الطعام ما كثرت عليه الأيدى . وقوله : ﴿ **أَوْ صَدِيقِكُمْ** ﴾ وهو من صدقكم في مودته . يجوز الأكل من بيوت من ذكر ، وإن لم يحضروا أي إذا علم رضاهم به . وقوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ** ﴾ أي قولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وفي القرطبي : اختلف

المتأولون في أي البيوت أراد تعالى * فقال ابراهيم النخعي والحسن : أراد المساجد . والمعنى سلموا على من فيها . فإن لم يكن في المسجد أحدٌ . فالسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وقيل المراد بالبيوت المسكونة أي فسلموا على أنفسكم قاله جابر وعبد الله بن عباس أيضاً وعطاء بن أبي رباح . قالوا : ويدخل في ذلك البيوت غير المسكونة . ويسلم المرء فيها على نفسه بأن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . قال ابن العربي : القول بالعموم في البيوت هو الصحيح . ولا دليل على التخصيص . وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه . فإذا دخل بيتا لغيره استأذن كما تقدم . وقوله : ﴿ **تحيَّةً من عنْدِ الله** ﴾ أي ثابتة بأمره مشروعةً من لدنه *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنّما الْمُؤْمِنُونَ الّذِينَ آمَنُوا بالله ورسُولِهِ وإذا كانُوا مَعَهُ علَى أمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إنَّ الّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَك أُولٰئِكَ الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالله ورسُولِهِ فإذا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شئْتَ مِنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمُ الله إنَّ الله غَفُورٌ رحِيمٌ** ﴾ في اللباب : أخرج ابن اسحاق والبيهقي في الدلائل عن عروة ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما ، قال : أقبلت قريش عام الأحزاب ، نزلوا بجمع الأسيال من رومة : بئر بالمدينة . قائدها أبو سفيان ، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بنعمى إلى جانب أحد . وجاء رسول الله ﷺ الخبر . فضرب الخندق على المدينة ، وعمل المسلمون فيه . وأبطأ رجال من المنافقين ، وجعلوا يأتون بالضعيف من العمل ، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ . ولا إذن . وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة لابد منها ، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ . ويستأذنه في اللحوق لحاجته فيأذن له ، وإذا قضى حاجته رجع ، فأنزل الله في أولئك المؤمنين ﴿ **إنّما الْمُؤْمِنُونَ الّذِينَ آمَنُوا بالله ورسُولِهِوإذا كانُوا مَعَهُ علَى أمْرٍ جَامِعٍ ...** ﴾ وفي الجلال : نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كان يعرض بهم النبي ﷺ في مجالسه وخطبه * قوله : ﴿ **إنّما الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ أي الكاملون في الإيمان ﴿ **الّذِينَ آمَنُوا بالله ورسُولِهِوإذا كانُوا مَعَهُ** ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿ **علَى أمْرٍ جَامِعٍ** ﴾ كخطبة الجمعة والأعياد والحروب أو للتشاور في أمر ﴿ **لَمْ يَذْهَبُوا** ﴾ أي يتفرقوا عنه . ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له ﴿ **حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ** ﴾ في الخازن : قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة ، وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله ﷺ بحيث يراه ، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن

لمن شاء منهم . قال مجاهد : وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده . قال أهل العلم : وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لايخالفونه ولايرجعون عنه إلا بالإذن . وإذا استأذن الإمام إن شاء أذن له ، وإن شاء لم يأذن . فإن حدث سبب يمنعه من المقام بأن يكونوا في المسجد فتحيض امرأة منهم ، أو يجنب رجل ، أو يعرض له مرض فلا يحتاج إلى الاستئذان * وتفسير الآية واضح بقوله ﴿ **واسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللهَ** ﴾ أي لما وقع منهم من التقصير في الاستئذان وإن كان جائزاً لكن اغتنام المجالسة أولى من الاستئذان *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لاتَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً** ﴾ أخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : كانوا يقولون يامحمد ياأبا القاسم . فأنزل الله تعالى : ﴿ **لاتَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً** ﴾ * قلت : ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **ولَا تَجْهَرُوا لَهُ بالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعضِكُمْ لِبَعْضٍ أنْ تَحبْط أعْمالكُمْ وأنتم لا تَشْعُرُونَ** ﴾ الحجرات . فقولوا : يانبي الله : يارسول الله : أو المعنى : لاتجعلوا دعاء الرسول لكم كدعاء بعضكم بعضاً . أي في عدم الإجابة . أي لاتقيسوا دعاءه لكم على دعاء بعضكم بعضاً في التباطؤ . بل أجيبوه فوراً وإن كنتم في الصلاة . أو لاتجعلوا دعاء الرسول . أي سخطه عليكم . كدعاء . كغضب بعضكم على بعض * وفي الخازن : قال ابن عباس رضي الله عنهما يقول احذروا دعاء الرسول إذا أسخطمتوه ، فإن دعاءه موجب ليس كدعاء غيره * ورجحه الطبري .

سورة الفرقان وبيان مافيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي إنْ شَاءَ جَعَل لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنْهَارُ ويجْعَلْ لَكَ قُصُوراً** ﴾ في الواحدي : حدث جوهر عن الضحاك عن ابن عباس قال : لما عير المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة ، قالوا : مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق . حزن رسول الله ﷺ ، فنزل جبريل من عند ربه معزياً له . فقال : السلام عليك يارسول الله : رب العزة يقرئك

السلام ويقول لك : وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم كانوا ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق . أي يبتغون المعاش في الدنيا قال : فبينا جبريل عليه السلام والنبي ﷺ يتحدثان إذ ذاب جبريل حتى صار مثل الهدرة . قيل يارسول الله . وما الهدرة ؟ قال العدسة . فقال رسول الله ﷺ : مالك ذبت حتى صرت مثل الهدرة . قال : قال يامحمد : فتح باب من تعييرهم إياك بالفاقة . وأقبل النبي وجبريل عليهما السلام يبكيان . ثم عاد جبريل إلى حاله . فقال : أبشر يامحمد : هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك ، فأقبل رضوان حتى سلم ، ثم قال يامحمد : رب العزة يقرئك السلام ــ ومعه سفط من نور يتلألأ . ويقول لك ربك . هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع مالا ينقص لك من عنده في الآخرة مثل جناح بعوضة ، فنظر النبي ﷺ إلى جبريل عليه السلام كالمستبشر به فضرب جبريل بيده إلى الأرض ، فقال : تواضع لله . فقال يارضوان : لا حاجة لي فيها . الفقر أحب إليّ وأن أكون عبداً صابراً شكوراً . فقال رضوان عليه السلام : أصبت أصاب الله بك . وجاء نداء من السماء فرفع جبريل عليه السلام رأسه ، فإذا السموات قد فتحت أبوابها إلى العرش ، وأوحى الله إلى جنة عدن أن تدلى غصنا من أغصانها عليه عزق ، من زبر جدة خضراء لها سبعون ألف باب من ياقوتة حمراء فقال جبريل عليه السلام يامحمد : ارفع بصرك ، فرفع فرأى منازل الأنبياء وغرفهم ، فإذا منازلها فوق منازل الأنبياء فضلاً له خاصة ، ومنادٍ ينادى : أرضيت يامحمد ، فقال النبي ﷺ رضيت فاجعل ماأردت أن تعطيني في الدنيا ذخيرة عندك في الشفاعة يوم القيامة . ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي إنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جنَّاتٍ** ... ﴾ الآية وفي لباب السيوطي : أخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن جرير وابن أبي حاتم عن خثيمة قال : قيل للنبي ﷺ : إن شئت أعطيناك مفاتيح الأرض . وخزائنها لا ينقصك ذلك عندنا شيئاً في الآخرة وإن شئت جمعتها لك في الآخرة . قال : بل اجمعها . يعني في الآخرة . فنزلت : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي إنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ** ... ﴾ الآية * وهو في الطبري وابن كثير بلفظه وحرفه عن خثيمة * أما التفسير : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي إنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ** ﴾ أي من الذي قالوا وأفضل من البستان الذي ذكروا . قال ابن عباس : يعني خيراً من المشي في الأسواق والتماس المعاش . ثم بين ذلك الخير . فقال : ﴿ **جنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ويجْعَلْ لَكَ قُصُوراً** ﴾ أي بيوتاً

مشيدة . في الخازن عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال : عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً . قلت : لا يارب . ولكني أشبع يوماً وأجوع يوماً . أو قال ثلاثاً . أو نحو هذا . فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك * عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : لو شئت لسارت معي جبال مكة ذهبا . جاءني ملك إن حجزته لتساوي الكعبة . فقال يا محمد : ربك يقرئك السلام ، ويقول إن شئت نبياملكاً . فنظرت إلى جبريل ، فأشار إلى أن ضع نفسك . فقلت : نبياً عبداً . قالت : فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئاً . يقول : أنا عبد آكل كما يأكل العبد . وأجلس كما يجلس العبد ، قال الخازن : ذكر هذين الحديثين البغوي بسنده *

القول فى بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيتني اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سبيلاً** ﴾ روى عطاء الخرساني عن ابن عباس قوله : كان أبي بن خلف يحضر النبي ﷺ ويجالسه . ويستمع إلى كلامه من غير أن يؤمن به . فزجره عقبة بن أبي معيط عن ذلك فنزلت هذه الآية * وقال الشعبي : وكان عقبة خليلاً لأمية بن خلف . فأسلم عقبة . فقال أمية : وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمداً . وكفر وارتد لرضا أمية . فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية : ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ** ... ﴾ كذا في الواحدي . وفيه . وقال آخرون : إن أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط كانا متحالفين . لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا إليه أشراف قومه . وكان يكثر مجالسة النبي ﷺ ، فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً فدعا الناس ، ودعا رسول الله ﷺ إلى طعامه . فلما قرب الطعام قال رسول الله ﷺ : ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله . فقال عقبة : أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فأكل رسول الله ﷺ من طعامه . وكان أبي بن خلف غائباً ، فلما أخبر بقصته قال : صبأت يا عقبة ؟ . فقال : والله ولكن دخل علي رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له . فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم ، فشهدت فطعم . فقال أبي : ما أنا بالذي راض منك أبداً إلا أن تأتيه فتبزق فى وجهه وتطأ عنقه ، ففعل ذلك عقبة . فأخذ رحم دابة فألقاها بين كتفيه ، فقال رسول الله ﷺ : لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فقتل عقبة يوم بدر ، وأما أبي بن خلف فقتله النبي ﷺ يوم أحد في المبارزة . فأنزل الله تعالى فيها هذه الآية وقال الضحاك : لما

بن عقبة في وجه رسول الله ﷺ عاد بزاقة في وجهه فشعب شعبتين ، فأحرق خديه . وكان أثر ذلك فيه حتى الموت * ونحو الذي ذكر في الخازن بلفظه وحرفه ، أما التفسير ﴿ ويَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ ﴾ المشرك عقبة بن أبي معيط ﴿ علَى يَدَيْهِ ﴾ عض الأيدين والأكتف ، وأكل البنان ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة . قال عطاء : يأكل الظالم يديه حتى يأكل مرفقيه ثم ينبتان ، ثم يأكلهما ، وهكذا كلما نبتت أكلهما على ما فعل تحسراً . ﴿ يقُولُ ياليتني اتَّخذْتُ مَعَ الرَّسُولِ ﴾ محمد ﷺ ﴿ سبيلاً ﴾ طريقا إلى الهدى . أي صاحبته في اتخاذ سبيل الهدى ثم قال تعالى : ﴿ يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خلِيلاً. لَقَدْ أضَلّنِي عنِ الذكْرِ ﴾ أي القرآن أو ذكر الله ، أو موعظة الرسول . والنطق بالشهادة ﴿ بَعْدَ إذْ جاءَنِي وَكَانَ الشّيْطانُ ﴾ أي الخليل المضل أو إبليس ﴿ وكانَ الشّيْطانُ للإنْسانِ ﴾ الكافر ﴿ خذُولاً ﴾ أي يتركه ويتبرأ من البلاء فيترك نصرته بعد الموالاة والمعاونة *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وقال الّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلا يأتُونَكَ بِمَثَلٍ إلا جِئْنَاكَ بالْحَقِ وأحْسَنَ تفْسيراً ﴾ في لباب السيوطي : وأخرج بن أبي حاتم والحاكم وصححه ، والضياء في المختار عن ابن عباس قال : قال المشركون : إن كان محمد كما يزعم نبياً فلم يعذبه ربه ؟ ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة ، ينزل عليه الآية والآيتين فأنزل الله تعالى ﴿ وَقَالَ الّذينَ كَفرُوا لَوْلَا نُزّل عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جملة واحدةً .. ﴾ الآية وفي الطبري : عن الحسن في قوله : ورتلناه ترتيلاً . قال كان ينزل آية وآيتين وآيات جواباً لهم إذا سألوا عن شيء أنزله الله وجواباً لهم ورداً عن النبي فيما يتكلمون به ، وكان بين أوله وآخره نحو من عشرين سنة . وعن ابن جريج قوله : ورتلناه ترتيلاً . قال : كان بين ما أنزل القرآن إلى آخره . أنزل عليه لأربعين ومات النبي ﷺ لثنتين أو لثلاث وستين . قلت : والظاهر أن المراد بالكفار هنا اليهود القائلون : هلا أنزل القرآن على محمد دفعة واحدة كما أنزلت الكتب السالفة على الأنبياء كذلك . وهذا زعم باطل ، ودعوى داحضة ، وفضول من القول ومماراة بما لا طائل تحته ، لأن أمر الاعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفرقاً . وعبارة البيضاوى : وهذا اعتراض منهم لا طائل تحته لأن الاعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو متفرقاً مع أن للتفريق فوائد . منها : ما أشار إليه

بقوله : « كذلك لنثبت به فؤادك » أي كذلك أنزلناه مفرقاً لنقوى بتفريقه فؤادك على حفظه وفهمه لأن حاله يخالف حال موسى وداود وعيسى حيث كان أميا ، وكانوا يكتبون ، فلو ألقى عليه جملة لعيي بحفظه ، ولعله لم يتهيأ له ، فإن التلقن لا يأتي إلا شيئاً فشيئاً ، ولأن نزوله بحسب الوقائع يوجب مزيد بصيرة . وغوص على المعنى ، ولأنه إذا نزل منجماً ، وهو يتحدى بكل نجم فيعجزون عن معارضته زاد ذلك في قوة قلبه ، ولأنه إذا نزل به جبريل حالاً بعد حال ثبت به فؤاده . ومنها : معرفة الناسخ والمنسوخ ، ومنها : انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية ، فإنه يعين على البلاغة . وقوله : ﴿ **وقال الّذينَ كفرُوا** ﴾ اليهود ﴿ **لَوْلَا** ﴾ هلا ﴿ **نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً** ﴾ كالتوراة والإنجيل والزّبور ... ونزل هنا بمعنى أنزل كخبر بمعنى آخبر . قوله ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ أي أنزل متفرقا ﴿ **لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾ نقوى قلبك ﴿ **ورتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً** ﴾ أي أتينا به شيئاً بعد شيء بتمهل وتؤدة ليتيسر فهمه وحفظه ﴿ **ولَا يأْتُونَكَ بِمَثَلٍ** ﴾ في إبطال أمرك . وإنه مثل في البطلان . يريدون به القدح في نبوتك ﴿ **إلَّا جئناك بالحقِّ** ﴾ الدافع له . ﴿ **وأحْسَنَ تفْسيراً** ﴾ بيانا وتفصيلا .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **والَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلَّا بالْحَقِّ ولَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أثَاماً** ﴾. في الواحدى : حدث سعيد بن جبير عن ابن عباس أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتو محمداً عليه الصلاة والسلام . فقالوا : إن الذي تقول ، وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أنا لما عملنا كفارة : فنزلت - ﴿ **والّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلٰهاً آخر ...** ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿ **غَفُوراً رحيماً** ﴾ رواه مسلم عن ابراهيم بن دينار عن حجاج . وفي رواية أبي ميسرة عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أي الذنب أعظم ؟ . قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قال : قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال : قلت ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك . فأنزل الله تعالى تصديقاً لذلك : ﴿ **والّذين لايَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلٰهاً آخَرَ ...** ﴾ إلى : ﴿ **ولَا يقتُلُونَ النَّفْسَ الّتِي حَرَّمَ اللهُ إلَّا بالحقِّ** ﴾ رواه البخاري . الند : بكسر النون وتشديد الدّل . أي نظيراً . وقوله في الحديث : خشية أن يطعم معك . أي لأجل خشية اطعامك . وكانت عادتهم قتل الأولاد لخشيتهم ذلك . وقوله : بحليلة جارك . أي بامرأة

جارك . وسميت حليلة لأنها لا تحل له . وللبخاري روايات في الباب غير ما ذكر . وأخرج ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحشى إلى النبي ﷺ فقال يا محمد : أتيتك مستجيراً فأجرني حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله ﷺ : قد كنت أحب أن أراك على غير جوار . فإذا أتيتنى مستجيراً فأنت في جوارى حتى تسمع كلام الله . قال : فإني أشركت بالله ، وقتلت النفس التي حرم الله تعالى . وزنيت . هل يقبل الله مني توبة ؟ فصمت رسول الله ﷺ حتى نزل ﴿ **والّذينَ لَا يَدْعُون مَعَ الله إلٰهاً آخَرَ** ... ﴾ فتلاها عليه . فقال : أرى شرطاً فلعلى لا أعمل صالحاً أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله فنزلت : ﴿ **إنَّ الله لَا يَغْفِرُ أنْ يُشْرِكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دُونَ ذٰلِكَ لمن يشاء** ... ﴾ فدعا به فتلاها عليه . فقال : ولعلي ممن لا يشاء أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله تعالى فنزلت : ﴿ **قُلْ يٰا عِبَادِى الَّذِينَ أسْرَفُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رحمَة الله إنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً** ﴾ فقال : نعم الآن لا أرى شرطاً فأسلم . ونحوه في بقية التفاسير مع بعض اختلاف في التعبير . أما التفسير : ﴿ **والّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ الله إلٰهاً آخَرَ** ﴾ هذا شروع في بيان اجتنابهم للمعاصى بعد بيان اتيانهم بالطاعات . ﴿ **وَلَا يَقْتُلُونَ النّفْسَ الَّتى حَرَّمَ الله** ﴾ قتلها ﴿ **إلّا بالْحَقِّ** ﴾ أي لا يقتلونها إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وسمعتها . وفي الحديث : لا يحل دم أمرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث . الثيب الزاني . والتارك لدينه المفارق للجماعة . وقاتل النفس عمداً . وقوله : ﴿ **وَلَا يَزْنُون** ﴾ أي يرتكبون الفاحشة أى استحلال الأعراض على وجه غير مشروع ﴿ **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ** ﴾ أي واحداً من الثلاثة ﴿ **يَلْقَ أثَاماً** ﴾ أي عقوبة . قال ابن عباس : إنما يريد جزاء الاثم . وقيل الآثام وادٍ في جهنم . ويروى في الحديث أن الغى والآثام بئران في جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار . ﴿ **يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يوْمَ الْقيامَةِ** ﴾ قال الخازن : وسبب تضعيف العذاب أن المشرك إذا ارتكب المعاصى مع الشرك يضاعف له العذاب على شركه ومعصيته * أي أنه يعذب على الشرك وعلى المعاصى جميعا . فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه . ﴿ **وَيَخْلُدْ فيهِ** ﴾ في العذاب ﴿ **مُهَاناً** ﴾ ذليلاً محتقرا جامعا للعذاب الجماعي والروحاني ثم استثنى بقوله : ﴿ **إلّا مَنْ تَابَ وآمَنَ وعمل عملاً صالحاً** ﴾ منهم . لأن الاستثناء متصل من الضمير المستتر في يلق . أي إلا من تاب فلا يلق الآثام بل يزاد له في الاكرام المشار إليه ﴿ **فأولئك يُبدِّلُ الله سيِّئَاتِهِمْ** ﴾ المذكورة

وهى الثلاثة ﴿ **حَسَنَاتٍ** ﴾ في الآخرة ﴿ **وكانَ الله غَفُوراً رحيماً** ﴾ أي لم يزل منصفاً بذلك ..

سورة الشعراء وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أفَرَأيْتَ إنْ مَتعْناهُمْ سنينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مٰا أغْنَى عَنهُمْ مٰا كَانُوا يُمتّعُونَ** ﴾ في لباب السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جهضم : قال : رؤى النبي ﷺ كأنه متحيرا ، فسألوه عن ذلك . فقال : وَلِمَ ؟! ورأيت عدوى يكون من أمتى بعدى . فنزلت : ﴿ **أفرأيْتَ إنْ متّعناهم** ﴾ إلى ﴿ **مٰا كانُوا يُمتّعُون** ﴾ فطابت نفسه * ولم أعثر على ما يقصده قوله : ﴿ **أفَرأيْتَ** ﴾ أخبرني ﴿ **إنْ متَّعْنَاهُمْ** ﴾ المتاع في اللغة كل ما ينتفع به كالطعام والبز وأثاث البيت .. وأصل المتاع ما يتبلغ به من الزاد . وهو اسم متعته بالتقيل إذا أعطيته ذلك . والجمع أمتعة . وقوله ﴿ **سِنِينَ** ﴾ أي طوالاً . والمخاطبون في ذلك كفار مكة . أي متعناهم في الدنيا ولم نهلكهم كمن سبقهم ﴿ **ثُمْ جَاءَهُمْ مٰا كانُوا يُوعَدُون** ﴾ به . أي أي شيء أغنى عنهم ما كانوا يمتعون به من متاع الحياة الدنيا ؟ والاستفهام انكار . والمعنى : أنهم وإن طال تمتعهم بنعيم الدنيا . فإذا أتاهم العذاب لم يغن عنهم طول التمتع شيئاً ويكونوا كأنهم لم يكونوا في نعيم قط .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وأنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِينَ * واخفِضْ حَنَاحَكَ لمَن اتْبعكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ في الباب : وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : لما نزلت : ﴿ **وأنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأقْرَبِين** ﴾ بدأ بأهل بيته وفصيلته . فشق ذلك على المسلمين فأنزل الله : ﴿ **واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَن اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمنينَ** ﴾ * روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أنزل الله ﴿ **وأنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِينَ** ﴾ أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ، ثم نادى يا صباحاه ، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه ورجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : يا بني عبد المطلب . يا بني فهر ، يا بني لؤى ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير

عليكم صدقتمونى ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم . أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله تعالى : ﴿ **تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وتَبَّ** ﴾ ... وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ قال يا معشر قريش . أو كلمة نحوها « اشتروا أنفسكم لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا بني عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً . ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغنى عنك من الله شيئاً . ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئاً * » وهكذا بقية الأقوال أما التفسير : ﴿ **وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب وقد أنذرهم جهاراً كما علمت ﴿ **واخْفِضْ جَنَاحَكَ** ﴾ ألن جانبك . كناية عن التواضع واللطف بالمؤمنين أي بعد إنذار من آمن منهم تواضع له . ومن خالفك فتبرأ منه ومن عمله وهذا معنى قوله ﴿ **لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ الموحدين * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **والشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ * وأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لَا يَفْعَلُونَ** ... ﴾ في اللباب وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ : أحدهما من الأنصار ، والآخر من قوم آخرين ، وكان مع كل واحد مهما غواة من قومه ، وهم السفهاء . فأنزل الله تعالى : ﴿ **والشعراء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوون** ... ﴾ الآيات * وفي الخازن : قال أهل التفسير : أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ : منهم عبد الله بن الزبعرى السهيمى ، وهبيرة بن وهب المخزومى ، ومسافح بن عبد مناف ، وأبو عزة : عمرو بن عبد الله الجمحى ، وأمية بن أبي الصلت الثقفى . تكلموا بالكذب والباطل . وقالوا : نحن نقول مثل ما يقول محمد ، وقالوا الشعر ، واجتمع إليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين يهجون النبي ﷺ وأصحابه . ويروون عنهم قولهم . فذلك قوله تعالى : ﴿ **يَتَّبِعُهُمُ الغاوون** ﴾ . أي الرواة الذين يروون هجاء المسلمين . وقيل الغاوون هم الشياطين . وقيل : هم السفهاء الضالون * وقوله : ﴿ **أَلَمْ تَر** ﴾ تعلم ﴿ **أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ** ﴾ من أودية الكلام وفنونه . أي

فنون القول وطرقه . وهو تمثيل . وقوله : ﴿ **يَهِيمُون** ﴾ يمضون فيجاوزون الحد مدحاً وهجاء ﴿ **وأنَّهُمْ يقولُون** ﴾ فعلنا ﴿ **ما لا يَفْعَلُونَ** ﴾ أي يكذبون *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كثيراً وانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ** ﴾ في اللباب : وأخرج عن عروة قال : لما نزلت : والشعراء .. إلى قوله ما لا يفعلون * قال عبد الله بن رواحة قد علم الله أني منهم ، فأنزل الله إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... إلى آخر السورة * وأخرج ابن جرير والحاكم عن أبي الحسن البراد قال : لما نزلت : والشعراء . الآية جاء عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك وحسان بن ثابت ، فقالوا يا رسول الله : والله لقد أنزل الله هذه الآية ، وهو يعلمُ أنا شعراء . هلكنا . فأنزل الله تعالى : ﴿ **إلَّا الّذينَ آمَنُوا ...** ﴾ الآية * وروى ابن جرير عن محمد بن اسحاق « أنه لما نزلت هذه الآية جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون . قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء » ، فتلا النبي ﷺ ﴿ **إلا الّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحات** ﴾ قال : أنتم ﴿ **وذكرُوا اللهَ كثيراً** ﴾ قال : أنتم ﴿ **وانْتَصَرُوا مَنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا** ﴾ قال : أنتم – أي بالرد على المشركين – ثم قال النبي ﷺ : « انتصروا ولا تقولوا إلا حقا ، ولا تذكروا الآباء والأمهات » فقال حسان لأبي سفيان :

هجوتَ محمّداً فأجبْتُ عنه * وعنْدَ اللهِ في ذاك الْجزاءُ
وإنّ أبي ووالدى وعرضى * لِعرْض محمّد منكم وِقاء
أتشْمه وَلَسْتَ لَهُ بكفء * فَشَرُّكُما لِخَيْركُما الْفِداءُ
لِسَانِي صارِمٌ لَا عيْبَ فيه * وَبَحْرِي لا تُكَدّرهُ الدِّلاءُ

وقال كعب : يا رسول الله . إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت ، فكيف ترى فيه ؟ فقال النبي ﷺ : « إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل » وقال كعب :

جاءت سخينة كي تغالب ربّها * ولَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغلاَّب .

فقال النبي ﷺ : « لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا : وقوله : ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الّذينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون** ﴾ أي وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم

وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات كفراً بها وعناداً أي مرجع يرجعون إلى الله بعد الموت ، وأي معاد يعودون إليه ؟ إنهم ليصيرون إلى نار لا يطفأ سعيرها ، ولا يسكن لهيبها . (المراغى) * والمنقلب : الانتقال إلى ضد ما هو فيه ، والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها ، فصار كل مرجع منقلبا . وليس كل منقلب مرجعاً . ذكره الماوردى . قال ابن عباس : إلى جهنم وبئس المصير * .

سورة القصص وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُون** ﴾

« ملاحظة »

طلباً للاختصار ولبهاظة الطباعة بغلو الأسعار سأكتفى من هنا فصاعداً بذكر الأقوال

في لباب السيوطى : أخرج ابن جرير والطبراني عن رفاعة القرظي قال : نزلت : ﴿ **ولقد وَصَّلْنَا لَهُمُ القَوْلَ** ﴾ في عشرة : أنا أحدهم . وأخرج ابن جرير عن علي بن رفاعة قال : خرج عشرة رهط من أهل الكتاب : منهم رفاعة يعنى أباه إلى النبي ﷺ فآمنوا . فأوذوا فنزلت ﴿ **الّذِينَ آتيناَهم الكتاب** ... ﴾ * وفي المراغي : قال سعيد بن جبير : نزلت هذه الآية في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ . فلما قدموا عليه قرأ عليهم ﴿ **يسٓ والقرآن الحكيم** ﴾ حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا * ونحوها في الطبري * وفي الجلال : نزلت في جماعة من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره من النصارى قدموا من الحبشة ومن الشام * وعبارة الخازن : نزلت في مؤمنى أهل الكتاب : عبد الله بن سلام وأصحابه . وقيل بل هم أهل الانجيل الدين قدموا من الحبشة ، وآمنوا بالنبي ﷺ : وهم أربعون رجلاً قدموا مع جعفر بن أبي طالب ، فلما رأوا ما بالمسلمين من الحاجة والخصاصة قالوا يا رسول الله : إن لنا أموالاً فإن أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا بها المسلمين ، فأذن لهم فانصرفوا ، فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين ، فنزلت هذه الآيات إلى قوله : ومما رزقناهم ينفقون * وقال ابن عباس : نزلت في ثمانين من أهل الكتاب أربعون من نجران ، واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام * والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ ولكنَّ الله يَهْدِى مَنْ يَشَاء** ﴾ فى الواحدى : أخبر سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضر أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية . فقال رسول الله ﷺ يا عم . قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله سبحانه وتعالى . فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرض عليه ويعاودانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم به : أنا على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : والله لأستغفرن لك ما لم أنه منك فأنزل الله عز وجل – ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى ... الآية . وأنزل فى أبي طالب : ﴿ **إنَّك لا تهدِى مَنْ أحْبَبْتَ ...** ﴾ الآية . رواه مسلم عن محمد بن حاتم عن يحيى بن سعيد * وأجمع المفسرون كما ذكره الزجاج أنها نزلت هذه الآية في أبي طالب . أخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لعمه : « قل لا إله إلا الله أشهد لك يوم القيامة » . قال : لولا أن تعيرني نساء قريش يقلن إنه حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك . فأنزل الله تعالى : ﴿ **إنَّكَ لا تهدى مَنْ أحببت ولكن الله يَهْدِى من يشاء** ﴾ . وهكذا بقية الأقوال * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وقالُوا إنْ نَتَّبِع الهُدىَ مَعَك نُتَخطَّفْ مِنْ أرْضِنَا أوَلَمْ نُمكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبىَ إلَيْهِ ثمرات كُلِّ شيءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا ولكنَّ أكْثَرَهُمْ لَا يعلَمُونَ** ﴾ في الواحدى : نزلت في الحارث بن عثمان بن عبد مناف ، وذلك أنه قال للنبي ﷺ : إنا لنعلم أن الذي تقول حق . ولكن يمنعنا من اتباعك أن العرب تخطفنا من أرضنا لاجماعهم على خلافنا ، ولا طاقة لنا بهم . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفى السيوطى : أن الذى قال ذلك : هو الحارث بن عامر بن نوفل * وكذا في الخازن وغيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ متَّعْنَاهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنيا ثُمَّ هُوَ يَومَ القيَامَةِ مَنْ الْمُحْضَرِينَ** ﴾ في الواحدى : قال مجاهد : نزلت هذه الآية في علي وحمزة وأبي طالب * وقال السديُّ : نزلت في عمار

والوليد بن المغيرة * وقيل نزلت في النبيْ ﷺ وأبي جهل * والمقصود إنكار التساوى بين أهل الدنيا وأهل الآخرة * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مٰا يشَاءُ ويختارُ مٰا كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ الله وتعالَى عماً يُشْرِكونَ** ﴾ في الواحدي : قال أهل التفسير : نزلت جواباً للوليد بن المغيرة حين قال : فيما أخبر الله تعالى عنه ، أنه لا يبعث الرسل باختياره * وعبارة الخازن ﴿ **وربَك يخلُقُ مٰا يشَاءُ ويختار** ﴾ نزلت هذه الآية جواباً للمشركين حين قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . يعني الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفي . أخبر الله تعالى أنه لا يبعث الرسل باختيارهم لأنه المالك المطلق ، وله أن يخص من يشاء بما يشاء لا اعتراض عليه البتة * أي وربك يخلق ما يشاء خلقه وهو وحده سبحانه دون غيره يصطفى ما يريد أن يصطفى ويختاره ، فيختار أقواماً لأداء الرسالة وهداية الخلق . ونحو الآية ﴿ **ومٰا كانَ لمؤمن ولَا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسولُه أمْراً أن يكونَ لَهُم الخيرة مَنْ أمْرِهم** ﴾ * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إن الّذي فرضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لرادُّكَ إلى مَعَادٍ** ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **إنَّ الَّذي فَرضَ عَلَيْكَ القرآنَ لرٰادُّكَ إلَى مَعَادٍ** ﴾ * وعبارة المراغي : روى مقاتل أنه عليه الصلاة والسلام خرج من الغار – حين الهجرة – وسار في غير الطريق مخافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ، ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة ، وعرف الطريق إلى مكة ، واشتاق إليها ، وذكر مولده ومولد أبيه ، فنزل جبريل عليه السلام . وقال له : أتشاق إلى بلدك ومولدك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : نعم فقال جبريل : فإن الله يقول : ﴿ **إنّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرآنَ لرٰادُّكَ إلى معادٍ** ﴾ * ونحوه في ابن كثير . وفي الخازن : قال ابن عباس : إلى مكة أخرجه البخاري عنه . ثم أورد ما ذكره السيوطى . وكذا في تفسير زاده * .

سورة العنكبوت وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * ولَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ في الواحدي : نزلت في أناس كانو بمكة قد أقروا بالاسلام ، فكتب إليهم أصحاب النبي ﷺ من المدينة أنه لا يقبل منكم اقرار ولا إسلام حتى تهاجرو ، فخرجوا عامدين إلى المدينة فأتبعهم المشركون فآذوهم ، فنزلت هذه الآية . وكتبوا إليهم أن قد نزلت فيكم آية كذا وكذا . فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ **ثُمّ إنَّ رَبك لِلّذينَ هاجَرُوا من بعْدِ ما فُتِنُوا** ... ﴾ الآية * وقال مقاتل : نزلت في مهجع مولى عمر بن الخطاب ، كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر . رماه عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله ، فقال النبي ﷺ : « سيد الشهداء مهجع وهو أول من بدى إلى باب الجنة من هذه الأمة » ، فجزع عليه أبواه وامرأته ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية . وأخبر أنه لابد من البلادء والمشقة في ذات الله تعالى * وفي لباب السيوطي : وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: أنزلت (**الٓمٓ .أحَسِبَ النَّاسُ أن يُتْرَكُوا أن يَقُولُوا آمنَّا وهُمْ لا يُفْتَنُونَ**) في أناس من أهل مكة خرجوا يريدون النبي ﷺ فعرض لهم المشركون فرجعوا ، فكتب لهم اخوانهم بما نزل فيهم ، فخرجوا فقتل من قتل ، وخلص من خلص ، فنزل القرآن : ﴿ **والّذِينَ جَاهَدُوا فينا لنهدينّهم سُبُلَنا** ... ﴾ * وأخرج ابن سعد عن عبيد الله بن عبيد عن ابن عمر قال : نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله : ﴿ **أَحَسِبَ النّاسُ أنْ يُتْرَكُوا** ... ﴾ الآية . وهكذا الأقوال في بقية التفاسير * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإنْسَانَ بوالِدَيْهِ حُسْناً وإنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطعهما إلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فأُنَبِّئكُمْ بِما كنتُم تعْلَمُون** ﴾ في الواحدي : قال المفسرون : نزلت في سعد بن أبي وقاص . وذلك أنه لما أسلم قالت له أمه جميلة يا سعد : بلغني أنك صبوت ، فوالله لا يظلني سقف بيت من الفح والريح ، ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر . بمحمد ﷺ وترجع إلى ما كنت

عليه . وكان أحب ولدها إليها . فأبى سعد ، فصبرت هي ثلاثة أيام لا تأكل ولم تشرب . ولم تستظل بظل حتى اغشى عليها فأتى سعد النبي ﷺ ، وشكا ذلك إليه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية في لقمان وفي الأحقاف * وفي مسلم عن أبي خيثمة عن الحسن عن زهير عن سماك بن حرب عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه ، قال : نزلت هذه الآية فيَّ . قال : حلفت أم سعد لا تكلم أبداً حتى يكفر بدينه ، ولا تأكل ولا تشرب . ومكث ثلاثة أيام حتى غشى عليها من الجهد . فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإنْسانَ بِوَالديْهِ حُسْنَاً** ... ﴾ أي وأمرناه بتعهدهما والبر بهما والإحسان إليهما كما قال في آية أخرى : ﴿ **وَقَضَى رَبُكَ ألَّا تَعْبُدُوا إلا إيَّاهُ وبالوالديْنِ إحْسَاناً إمّا يبلغنَّ عِنْدَك الْكِبَرَ أحَدُهُمَا أو كِلاهُما فلَا تَقُلْ لَهُمْا أف ولَا تَنْهَرْهُما وقُلْ لَهُمَا قوْلاً كريماً * واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُلّ مِنَ الرَّحْمَةِ وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا ربيَّاني صَغِيراً** ﴾ وفي شطر الآية : ﴿ **وَإنْ جَاهَدَاك** ... ﴾ في الواحدي : أخبر داود بن أبي هند عن أبي عثمان النهدي أن سعد بن مالك قال : أنزلت فيَّ هذه الآية : ﴿ **وإنْ جَاهَدَاك لِتُشْرِك بِي مَا لَيسَ لكَ بِهِ عِلْمٌ** ... ﴾ الآية قال : كنت رجلاً براً بأمي . فلما أسلمت قالت يا سعد : ما هذا الذي قد أحدثت لتدعن دينك هذا . أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي . فيقال : يا قاتل أمه . قلت : لا تفعلي يا أمّهْ ، فإني لا أدع ديني هذا لشيء . قال : فمكثت يوما لا تأكل فأصبحت قد جهدت قال : فمكثت يوما آخر وليلة لا تأكل فأصبحت وقد اشتد جهدها . قال : فلما رأيت ذلك . قلت : تعلمين والله ياأمّهْ لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء . إن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي . فلما رأت ذلك أكلت ، فأنزلت هذه الآية – ﴿ **وإنْ جَاهَدَاك** ... ﴾ الآية .. وكذا في القرطبي والخازن .. وفي الحديث : لا طاعة لمخلوق في معصية الله . وفي أبن كثير : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها . فنزلت : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإنسان** ... ﴾ .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَمِن النَّاس مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بالله فإذا أُوذِي في الله جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ الله وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ ربّكَ لَيَقُولُنَّ إنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أوَ لَيْسَ الله بأعْلَمَ بِمَا في صُدُورِ الْعَالِمِينَ** ﴾ في الواحدي : قال مجاهد : نزلت في أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الله ومصيبة فى أنفسهم افتتنوا * وقال

الضحاك : نزلت في أناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون . فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك * وقال عكرمة عن ابن عباس : نزلت في المؤمنين الذين أخرجهم المشركون عن الدين فارتدوا وهم الذين أنزل الله فيهم : ﴿ **إنَّ الّذِينَ توفَّاهُم الملائكةُ ظالمي أنفسهم ...** ﴾ الآية وما ذكر في الخازن وغيره * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يَكْفِيهِمْ أَنَّ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ** ﴾ في لباب السيوطي : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارمى في مسنده . من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال : جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود . فقال النبي ﷺ كفي بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم . فنزلت : ﴿ **أَوَ لَمْ يكْفِهِمْ أَنّا أَنْزلْناه عَلَيْكَ الكتاب يُتلى عليهم ...** ﴾ ولم أجد ما يعضده ، ومعناه موافق لمدلول التنزيل .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا الله يَرزُقُهَا وإيَّاكُمْ وهو السَّمِيعُ العليمُ** ﴾ في الواحدى : حدث عطاء عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلقط من التمر ويأكل . فقال يا عمر : ما لك لا تأكل : فقال لا أشتهيه يا رسول الله . فقال : لكني أشتهيه . وهذه صبيحة رابعة ما ذقت طعاماً . ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل كسرى وقيصر . فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ، ويضعف اليقين ؟ قال : فوالله ما برحنا حتى نزلت : ﴿ **وكَأَيِّنْ مِنْ دابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقها الله يرزقها وَإيّاكُم ...** ﴾ الآية * وفي لباب السيوطي في بقية سبب نزولها . فقال رسول الله ﷺ : « إني لم يأمرني بكنز الدنيا ، ولا باتباع الشهوات ألا وإني لا أكثر ديناراً ولا درهما ولا أخبأ رزقاً لغد » . قال السيوطي : وسنده ضعيف . وعبارة ابن كثير : فقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإنَّ الحياة بيد الله ، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا أخبأ رزقاً لغدٍ » قال ابن كثير : هذا حديث غريب . وأبو العطوف الجزرى ضعيف * . وقد ذكروا أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض خرجوا وهم بيض ، فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهم أياماً حتى يسود الريش ، فيظل الفرخ فاتحاً فاه يتفقد أبويه ،

فيقيض الله تعالى طيرا صغاراً كالبراغيث فيغشاه ، فتفوت به تلك الأيام حتى يسود ريشه ، والأبوان يتفقدانه كل وقت ، فكلما رأوه أبيض الريش نفرا عنه . فإذا رأوه قد اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة والرزق ولهذا قال الشاعر :

يا رازق النّعاب في عشّه * وجابر العظم الكسير المهيض *

وفي الخازن : وذلك أن النبي ﷺ قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة ، وقد آذاهم المشركون هاجروا إلى المدينة ، فقالوا : كيف نخرج إلى المدينة ، وليس لنا بها دار ولا مال ، فمن يطعمنا بها ، ويسقينا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وكَأَيِّنْ مِنْ دابَّةٍ** ... ﴾ * وكذا نحوها بقية الأقوال * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَما آمِناً وَيُتَخطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ الله يكْفُرُونَ** ﴾ في لباب السيوطي : أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنهم قالوا يا محمد : ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لتقتلنا ، والأعراب أكثر منا ، فمتى يبلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنا أكلة رأس . فأنزل الله : ﴿ **أوَ لم يَرَوْا أنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً** .. ﴾ ولم أعثر على غيره * .

سورة الروم وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وهُمْ مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُون * فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الْأَمْرُ مَنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ في الواحدي : قال المفسرون : بعث كسرى جيشا إلى الروم ، واستعمل عليهم رجلا يسمى شهريران . فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم ، فقتلهم وخرب مدائنهم . وقطع زيتونهم . وكان قيصر بعث رجلا يدعى بخين ، فالتقى شهريران بأذرعات في بصرى . وهى أدنى الشام إلى أرض العرب . فغلب فارس الروم ، وبلغ ذلك النبي ﷺ وأصحابه بمكة ، فشق ذلك عليهم ، وكان النبي ﷺ يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم ، وفرح كفار مكة وشمتوا . فلقوا أصحاب النبي ﷺ فقالوا : إنكم أهل الكتاب ، والنصارى أهل كتاب ونحن

أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، وإنكم وإن قاتلتمونا لنظهرن عليكم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * غُلِبَت الرُّوم * في أدْنَى الأرض** ﴾ – إلى آخر الآيات * وفي اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب قال : بلغنا أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين وهم بمكة قبل أن يخرج رسول الله ﷺ ، فيقولون : الروم يشهدون أنهم أهل كتاب ، وقد غلبتهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذى أنزل على نبيكم ، فكيف غلب المجوس وهم أهل كتاب فسنغلبكم كما غلب فارس الروم . فأنزل الله : ﴿ **الٓمٓ * غُلِبَت الرُّوم * في أدنى الأرض ...** ﴾ وقد أطال المفسرون في سرد هذه القصة مطولة تارة ومختصرة أخرى ، وكلها تدور حول المعنى الذى ذكر . وفي بعضها فلما نزلت هذه الآيات خرج أبو بكر الصديق إلى كفار مكة ، فقال : فرحتم بظهور إخوانكم فلا تفرحوا . فوالله ليظهرن الروم على فارس . أخبرنا بذلك نبينا محمد ﷺ ، فقام إليه أبى بن خلف الجمحي . فقال : كذبت . فقال : أنت أكذب يا عدو الله ، فقال : اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه – والمناحبة بالحاء المهملة . القمار . والمراهنة أى أراهنك على عشرة قلائص منى ، وعشر قلائص منك ، فإذا ظهرت فارس على الروم غرمت وإذا ظهرت الروم على فارس غرمت ، ففعلوا ، وجعلوا الأجل ثلاث سنين ، فجاء النبي ﷺ وأخبره بذلك قبل تحريم القمار ، فقال النبي ﷺ ما هكذا إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده فى الخطر وماده في الأجل ، فاجعلها مائة قلوص ومائة قلوص إلى تسع سنين ، فقال : قد فعلت . فلما خشى أبى بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه ولزمه . وقال : إني أخاف أن تخرج من مكة فأقم لي ضامنا كفيلا ، فكفله ابنه عبد الله بن أبي بكر . فلما أراد أبى بن خلف أن يخرج إلى أحد . أتاه عبد الله بن أبي بكر فلزمه وقال : والله لا أدعك حتى تعطينى كفيلا ، فأعطاه كفيلا ، ثم خرج إلى أحد ، قال : ثم رجع أبى بن خلف إلى مكة ومات بها من جراحته التى جرحه النبي ﷺ حين بارزه ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية . وذلك على رأس سبع سنين من مناحبتهم ، وقيل : كان يوم بدر ، وربطت الروم خيولهم بالمدائن . وبنوا بالعراق مدينة وسموها رومية ، فقمر أبو بكر أبياً ، وأخذ مال الحظر من ورثته ، وجاء به للنبي ﷺ . وذلك قبل أن يحرم القمار . فقال النبي ﷺ تصدق به ... * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الّذِي يَبدَأُ الْخلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ولَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السّمٰوَاتِ والأَرْضِ وهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : تعجب الكفار من إحياء الله الموتى . فنزلت ﴿ **وهُوَ الّذِي يبدأ الْخَلَقَ** ... ﴾ * وكذا في الطبرى ، ولا يوجد غيره * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِنْ شُرَكَاءَ فيمَا رَزَقْنَاكُمْ فأَنْتُمْ فيهِ سَواءٌ تخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كذَلِكَ نُفصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يعقلُونَ** ﴾ في اللباب : وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال : كان يلبى أهل الشرك : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك . فأنزل الله : ﴿ **هَلْ لَكُمْ مِمَّا ملكت أيمانكُمْ مِنْ شركاءَ فيما رزقْناكُمْ** ... ﴾ * وهذا مثل ضربه الله للمشركين به . العابدين معه غيره .. وخلاصته إن أحدكم يأنف أن يساويه عبيده في التصرف في أمواله فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ؟! * .

سورة لقمان وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَمِنْ النّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيث لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ الله بغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**... ﴾ في الواحدي : قال الكلبي ومقاتل : نزلت في النضر بن الحارث . وذلك أنه كان يخرج تاجرا إلى فارس فيشترى أخبار الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشا ، ويقول لهم : إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود . وأنا أحدثكم . بحديث رستم واسفنديار . وأخبار الأكاسرة فيستملحون حديثه . ويتركون استماع القرآن . فنزلت فيه هذه الآية * وقال مجاهد : نزلت في شراء القيان والمغنيات . حدث علي بن يزيد عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن ، وأثمانهن حرام » . وفي هذا نزلت هذه الآية : ﴿ **وَمِنْ النّاسِ منْ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيث ليضلَّ عَن سَبِيلِ الله** ... ﴾ إلى آخر الآية * وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله تعالى

عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب ، والآخر على هذا المنكب . فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت * وقال ثور بن أبي فاخته عن أبيه عن ابن عباس : نزلت هذه الآية في رجل اشترى جارية تغنيه ليلا ونهارا * وفي اللباب : وأخرج جويبر عن ابن عباس قال : نزلت في النضر بن الحارث : اشترى قينةً ؟ وكان لا يسمع بأحد يريد الاسلام إلا انطلق إلى قينته فيقول : أطعميه وغنيه ، هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام . وأن تقاتل بين يديه * وهكذا بقية الأقوال * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ مٰا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سبعةُ أَبْحُرٍ مٰا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ في الواحدي : قال المفسرون : سألت اليهود رسول الله ﷺ عن الروح . فأنزل الله : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمٰا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَليلاً** ﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، أتاه أحبار اليهود ، فقالوا يا محمد : بلغنا عنك أنك تقول : « ومٰا أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، أفتعنينا أم قومك ؟ فقال : كلاًّ ، قد عنيت . قالوا : ألست تتلو فيما جاءك إنا قد أوتينا التوراة . وفيها علم كل شيء ، فقال رسول الله ﷺ . هي في علم الله سبحانه قليل . ولقد آتاكم الله تعالى ما إن عملتم به انتفعتم به . فقالوا يا محمد : كيف تزعم هذا وأنت تقول : ﴿ **وَمَنْ يؤْتَ الحكمة فقد أُوتِيَ خيْراً كثيراً** ﴾ وكيف يجتمع هذا . علم قليل وخير كثير . فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ ما في الأَرْضِ منْ شجرة أقلام ...** ﴾ الآية * وكذا في المراغي ونحوه في القرطبي وابن كثير وبقية التفاسير * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ويُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مٰا فِي الْأَرْحَامِ ومٰا تَدْرِي نَفْسٌ مٰاذَا تَكْسِبُ غَداً ومٰا تَدْرِي نَفْسٌ بأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خبيرٌ** ﴾ في الواحدي : نزلت في الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة من أهل البادية . أتى النبي ﷺ فسأل عن الساعة ووقتها . وقال : إن أرضنا أجدبت ، فمتى ينزل الغيث ؟ وتركت امرأتي حبلى فماذا تلد ؟ وقد علمت أين ولدت فبأي أرض أموت . فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية * وكذا في الطبري * وعن المنصور أنه همه معرفة مدة عمره ، فرأى في منامه كأن خيالا أخرج يده من البحر . وأشار إليه بالأصابع الخمس . فاستفتى العلماء في ذلك . فتأولوها . بخمس

سنين ، وبخمسة أشهر . وبغير ذلك حتى قال أبو حنيفة : تأويلها أن مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه * .

سورة السجدة وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خوفاً وطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم ينفقُون** ﴾ في الواحدي : قال مالك بن دينار : سألت أنس بن مالك عن هذه الآية فيمن نزلت؟ فقال : كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون من المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية * وحدث قتادة عن أنس بن مالك قال : فينا نزلت معشر الأنصار : ﴿ **تتجافى جنُوبُهُمْ عَنْ المضاجع ...** ﴾ الآية * كنا نصلى المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبي ﷺ * وقال الحسن ومجاهد : نزلت في المتهجدين الذين يقومون الليل إلى الصلاة * وفي حديث معاذ ما يدل عليه . قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وقد أصابنا الحر ، فتفرق القوم ، فنظرت فإذا رسول الله ﷺ أقربهم مني . فقلت يا رسول الله : انبئني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار ؟ قال : لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه . تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقم الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، وإن شئت أنبأتك بأبواب الخير ؟ فقال : قلت أجل يا رسول الله : قال : الصوم جنة ، والصدقة تكفر الخطيئة ، وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله تعالى قال : ثم قرأ هذه الآية : ﴿ **تَتَجَافَى جنُوبُهِمْ ...** ﴾ الآية * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فاسِقاً لَا يَسْتَوُون** ﴾ في الواحدي : نزلت الآية في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة . حدث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنا أحدُّ منك سناً ، وأبسط منك لسانا ، وأملأ للكتيبة منك . فقال علي : اسكت فإنما أنت فاسق – فنزل : ﴿ **أفمن كان مؤمناً كمن كانَ فَاسقاً ...** ﴾ يعنى بالمؤمن علي وبالفاسق الوليد بن عقبة * وكذا أخرجه ابن جرير عن عطاء بن يسار . ورواه الخازن مرسلا * .

سورة الأحزاب وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها النَّبيُّ اتّق الله ولا تُطِع الكَافِرِينَ والْمُنَافِقِينَ إن الله كانَ عَليماً حكيماً** ﴾ في الواحدي : نزلت في أبي سفيان وعكرمة بن أبيّ جهل وأبي الأعور السلمي . قدموا المدينة بعد قتال أحد . فنزلوا على عبد الله بن أبي . وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه ، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق . فقالو للنبي ﷺ وعنده عمر بن الخطاب : ارفض ذكر آلهتنا : اللات والعزى ومنات ، وقل إن لها شفاعة ومنفعة لمن عبدها ، وندعك وربك ، فشق على النبي ﷺ قولهم . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ائذن لنا يا رسول الله في قتلهم . فقال : إني قد أعطيتهم الأمان . فقال عمر : اخرجوا في لعنة الله وغضبه . فأمر رسول الله ﷺ أن يخرجهم من المدينة . فأنزل الله عز وجل هذه الآية * وكذا في الخازن وغيره وفي لباب السيوطي : أخرج ابن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي ﷺ أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم . وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه . فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ **يا أيُّها النّبي اتّق الله ولَا تطع الكافرينَ والمنافقين ...** ﴾ الآية * وكذا في المراغي .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ما جعل الله لِرَجُلٍ من قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ وما جَعَلَ أزْوَاجَكُمْ الّائي تُظَاهِرُونَ مِنهُنَّ أُمّهاتِكُمْ ...** ﴾ الآية * في الواحدي : نزلت في جميل بن معمر الفهرى . وكان رجلا لبيبا حافظا لما يسمع . فقالت قريش : ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان وكان يقول : إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ﷺ . فلما كان يوم بدر ، وهزم المشركون وفيهم جميل بن معمر . تلقاه أبو سفيان وهو معلق احدى نعليه بيده والأخرى في رجله . فقال له : يا أبا معمر : ما حال الناس ؟ قال : انهزموا . قال : فما بالك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما في رجلي ، وعرفوا يومئذ أن لو كان له قلبان لما نسى نعله في يده * وفي اللباب : أخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال : قام النبي ﷺ

يوما يصلي ، فخطره خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألاترى أن له قلبين : قلبا معكم ، وقلبا معه ، فأنزل الله ﴿ **ما جَعَلَ الله لِرَجُلٍ من قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ** ... ﴾ * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ادْعُوهُمْ لآبائِهِمْ هُو أقْسَطُ عِنْدَ الله فَإنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فإخوانُكُمْ في الدِّينِ** ... ﴾ الآية * روى الشيخان والترمذي والنسائي في جماعة آخرين عن ابن عمر رضي الله عنهما : « أن زيد بن حارثة : مولى رسول الله ﷺ . ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد » حتى نزل القرآن ﴿ **ادْعُوهُمْ لِآبائِهِم** ... ﴾ الآية * فقال النبي ﷺ أنت زيد بن حارثة * وكذا ذكره السيوطي : وعبارة الواحدي : نزلت في زيد بن حارثة . كان عند الرسول فأعتقه وتبناه قبل الوحي ، فلما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش ، وكانت تحت زيد بن حارثة ، قالت اليهود والمنافقون تزوج محمد امرأة ابنه ، وهو ينهى الناس عنها . فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ **وما جَعَلَ أدْعِياءَكُمْ أبنائَكُمْ** ... ﴾ * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الّذين آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عليكُمْ إذْ جاءَتكُمْ جنُودٌ فأرْسَلْنا عَلَيهِمْ رِيحاً وجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وكان الله بِما تعْملونَ بصيراً * إذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أسْفَلَ مِنْكُمْ** ... ﴾ في اللباب : أخرج البيهقي في الدلائل عن حذيفة ، قال : لقد رأيتنا ليلة الأحزاب صامتون قعوداً ، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقريظة أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتت قط ليلة أشد ظلمة ، ولا أشد ريحا منها ، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ يقولون : إن بيوتنا عورة وما هي بعورة ، فما يستأذن أحد إلا أذن له فيتسللون . إذا استقبلنا النبي ﷺ رجلا رجلا حتى أتى علي ، فقال : ائتني بخبر القوم ، فجئت فإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شيئا ، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفروشهم الريح تضربهم بها ، وهم يقولون : الرحيل الرحيل ، فجئته فأخبرته خبر القوم وأنزل الله :﴿ **يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا اذكرُوا نعمة الله عليكم** ... ﴾ الآيات * وجميع أقوال التفاسير نحو هذا * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمنينَ رِجَالٌ صَدقُوا ما عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ فَمِنهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنهُمْ مَنْ يَنْتظِرُ وما بَدَّلُواتبْدِيلاً** ﴾ في الواحدي : أخبر سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال : غاب عمي أنس بن النضر وبه سميت أنا عن

قتال بدر ، فشق عليه لما قدم ، وقال : غبت عن أول مشهد شهده رسول الله ﷺ : والله لئن أشهدني الله سبحانه قتالا ليرين الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المشركون . وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعنى المسلمين . ثم مشى بسيفه فلقيه سعد بن معاذ . فقال : أي سعد : وّالذي نفسى بيده إني لأجد ريح الجنة دون أحد ، فقاتلهم حتى قتل ، قال أنس ، فوجدناه بين القتلى به بضع وثمانون جراحة من بين ضربة بالسيف ، وطعنة بالرمح ، ورمية بالسهم ، وقد مثلوا به ، وما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه ، ونزلت هذه الآية : ﴿ **من المُؤمنين رِجَالٌ صَدَقُوا مٰا عاهَدُوا اللهَ عَلَيهِ** ﴾ – قال : وكنا نقول أنزلت هذه الآية فيه وفي أصحابه. رواه مسلم عن محمد بن حاتم عن بهز بن أسد . ورواه البخاري عن بندار قال : نزلت هذه الآية في أنس بن النضر – ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ...** ﴾ * وفي الواحدي في قوله : ﴿ **فمنْهُمْ مَنْ قضى نَحْبَهُ ...** ﴾ الآية نزلت في طلحة بن عبيد الله ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد حتى أصيبت يده ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم أوجب لطلحة الجنة » * وحدث الضحاك عن النزال بن سبره عن علي قال : قالوا : أخبرنا عن طلحة ، قال ذلك امرؤ نزلت فيه آية من كتاب الله : ﴿ **فَمِنْهُمْ مَنْ قضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ...** ﴾ طلحة ممن قضى نحبه لا حساب عليه فيما يستقبل ، وفي رواية عيسى بن طلحة أن النبي ﷺ مر على طلحة فقال : « هذا ممن قضى نحبه » * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لأَزْواجِك إِنْ كُنْتُنْ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدنيا وزينتها ...** ﴾ الآية * في اللباب : أخرج مسلم . وأحمد والنسائي من طريق ابن الزبير عن جابر قال : أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لهما فدخلا ، والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه ، وهو ساكت ، فقال عمر : لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك . فقال عمر يا رسول الله : لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتنى النفقة ، آنفا فوجأت عنقها ، فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذه ، وقال : هن حولي يسألننى النفقة ، فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة . كلاهما يقول : تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده . وأنزل الله الخيار ، فبدأ بعائشة . فقال : إني ذاكر لك أمرا ما أحب أن تعجلى

فيه حتى تستأمرى أبويك . قالت : ما هو ؟ فتلا عليها : ﴿ **يا أيها النبيُّ قُلْ لأزْواجكَ** ... ﴾ الآية . قالت عائشة : أفيك أستأمر أبوى ، بل أختار الله ورسوله * زاد المفسرون : قولها : وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال ﷺ : « إن الله تعالى لم يبعثني مُعَنَّفاً ولكن بعثني مُعَلِّماً ميسراً ، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » رواه مسلم والنسائي * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ومٰا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولَا مُؤْمِنَةٍ إذا قضَى الله ورسُولُه أمْراً أنْ يكُونَ لَهُمْ الخِيَرَةُ مِنْ أمْرِهم ومَنْ يَعْصِ الله ورَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلٰالاً مُبيناً** ﴾ في اللباب أخرج الطبراني بسند صحيح عن قتادة . قال : خطب رسول الله ﷺ زينب وهو يريدها لزيد فظنت أنه يريدها لنفسه . فلما علمت أنه يريدها لزيد أبت فأنزل الله ﴿ **ومٰا كانَ لمؤمنٍ ولا مُؤْمنةٍ إذا قضى الله ورسُولُه أمْراً** ... ﴾ فرضيت وسلمت * وفي رواية عكرمة عن ابن عباس . خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ، فاستنكفت منه . وقالت : أنا خير منه حسباً . فأنزل الله تعالى : ﴿ **ومٰا كانَ لمؤمنٍ** ... ﴾ الآية * وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وكانت أول امرأة هاجرت من النساء ، فوهبت نفسها للنبي ﷺ ، فزوجها زيد بن حارثة ، فسخطت هي وأخوها . قالا : إنما أردنا رسول الله ﷺ ، فزوجنا عبده ، فنزلت الآية * وبقية الأقوال لا تخرج عن هذين القولين *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإذْ تقُولُ لِلّذِي أنْعَمَ الله عليه وأنْعَمْتَ عَلَيْه أمْسِكْ عَلَيْكَ زوْجَكَ واتَّقِ الله وَتُخْفِي في نَفسكَ ما الله مُبديهِ وتخْشَى النَاسَ والله أحَقُّ أنْ تخْشَاهُ فَلمَّا قضَى زيْدٌ منها وَطَراً زوّجنَاكَهَا لِكَيْلاٰ يكُونَ على المؤمنينَ حَرَجٌ في أزواجِ أدْعِيَائِهِمْ إذَا قَضَوا مِنْهُنَّ وطَراً وكانَ أمْرُ الله مفعُولاً** ﴾ في لباب السيوطي : أخرج البخاري عن أنس أن هذه الآية : ﴿ **وتُخْفِي في نَفْسِكَ مٰا الله مُبْديه** ﴾ نزلت في زينب بنت جحش وزيد بن حارثة * وأخرج الحاكم عن أنس قال : جاء زيد بن حارثة يشكو إلى رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش ، فقال النبي ﷺ : أمسك عليك أهلك . فنزلت : ﴿ **وتُخْفِي مٰا في نَفْسِكَ مٰا الله مُبْديه** ﴾ * وأخرج مسلم وأحمد والنسائي . قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ

لزيد : اذهب فاذكرها علي ، فانطلق فأخبرها ، فقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي ، فقامت إلى مسجدها . ونزل القرآن . وجاء رسول الله ﷺ . أطعمنا على الخبز واللحم ، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام . فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتبع حجر نسائه ، ثم أخبر أن القوم قد خرجوا ، فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه ، فألقى الستر بيني وبينه ، ونزل الحجاب ، ووعظ القوم بما وعظوا به : ﴿ **لَا تَدْخُلُوا بيوت النَّبِي إلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لكم** ... ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **تُرجِى مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وتُؤْى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُناحَ عَلَيْكَ** ﴾ قال المفسرون : حين غار بعض نساء النبي ﷺ وآذينه بالغيرة ، وطلبن زيادة النفقة ، فهجرهن رسول الله ﷺ شهراً حتى نزلت آية التخيير ، وأمر الله تعالى ان يخيرهن بين الدنيا والآخرة . وأن يخلى سبيل من اختارت الدنيا ، ويمسك من اختارت الله سبحانه ورسوله على أنهن أمهات المؤمنين ، ولا ينحكن أبدا ، وعلى أن يؤى إليه من يشاء ويرجى منهن من يشاء ، فرضين به قسم لهن أو لم يقسم ، أو فضل بعضهن على بعض في النفقة والقسمة والعشرة ، ويكون الأمر في ذلك إليه يفعل ما يشاء . فرضين بذلك كله . فكان رسول الله ﷺ مع ما جعل الله تعالى له من التوسعة يسوى بينهن في القسمة * وروى البخاري عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ بعد ما نزلت ــ تُرْجِي مِنْ تَشاَءُ مِنْهُنَّ وتُؤى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ــ يستأذننا إذا كان في يوم المرأة منا ، قالت معاذة : ما كنت تقولين ؟ قالت : كنت أقول : إن كان ذلك إلي لم أوثر أحدا على نفسي *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بيُوتَ النّبي إلاَّ أنْ يُؤذن لكُمْ إلى طَعَامٍ غَيْرَ ناظِرينَ إنَاهُ** ... ﴾ الآية . قال أكثر المفسرين : لما بنا رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش أو لم عليها بتمر وسويق وذبح شاة . قال أنس : وبعثت إليه أمي : أم سليم بحيس في تور من حجارة ، فأمرني النبي ﷺ أن أدعوا أصحابه إلى الطعام ، فجعل القوم يجيئون فيأكلون فيخرجون ، ثم يجيء القوم ويأكلون ويخرجون ، فقلت يا نبي الله : قد دعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه ، فقال : ارفعوا طعامكم ، فرفعوا ، وخرج القوم ، وبقى ثلاثة أنفار يتحدثون في البيت ، فأطالوا

المكث . فتأذى منهم رسول الله ﷺ . وكان شديد الحياء فنزلت هذه الآية ، وضرب رسول الله ﷺ بينى وبينه سترا . وهناك روايات أخرى في المعنى نفسه *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ولا تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِه أَبَداً ...** ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس في رواية عطاء : قال رجل من سادة قريش : لو توفى رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة . فأنزل الله تعالى ما أنزل *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنَّ الله ومَلائكتهُ يُصَلُّونَ علَى النبي يَا أَيُّها الّذِينَ آمَنُوا صلُّوا عليه وسلّمُوا تسليماً** ﴾ في الواحدي : قال كعب بن عجرة قيل للنبي ﷺ قد عرفنا السلام عليك ، وكيف الصلاة عليك ، فنزلت : ﴿ **إنّ الله وملائكته يُصَلُّون على النبيّ ...** ﴾ * وقال الأصمعى : سمعت المهدى على منبر البصرة يقول : إن الله أمركم بأمر بدا به بنفسه ، وثنى بملائكته . فقال : إن الله وملائكته يصلون على النبي .. آثر ﷺ بها من بين الرسل ، واختصكم بها من بين الأنام ، فقابلوا نعمة الله بالشكر *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الّذِي يُصلّى عَلَيْكُمْ وَمْلائكتُه ...** ﴾ قال مجاهد : لما نزلت - ﴿ **إنَّ الله ومَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ علَى النّبيّ ...** ﴾ قال أبو بكر : ما أعطاك الله من خير إلا أشركنا فيه فنزلت - ﴿ **هُوَ الّذِي يُصَلّى عليكم وملائكته ...** ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **والّذِين يؤذُون المُؤْمِنِينَ والمؤْمنَاتِ بغيْر ما اكتسبُوا ...** ﴾ في الواحدي : قال عطاء عن ابن عباس : رأى عمر جارية من الأنصار متبرجة فضربها ، وكره ما رأى من زينتها ، فذهبت إلى أهلها تشكو عمر ، فخرجوا إليه فاذوه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي الخازن وغيره . قيل إنها نزلت في علي ابن أبي طالب كانوا يؤذونه ويسمعونه * وفيه : وقيل نزلت في شأن عائشة . وقيل نزلت في الزناة الذين كانوا يمشون فى طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن ، فيتبعون المرأة ، فإن سكتت تبعوها ، وإن زجرتهم انتهوا عنها ، ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء . ولكن كانوا لا يعرفون الحرة من الآمة لأن زى الكل كان واحد . تخرج الحرة والآمة في درع وخمار . فشكوا ذلك إلى أزواجهن ، فذكرو ذلك لرسول

الله ﷺ . فنزلت : ﴿ **والذِينَ يؤذُونَ المؤمنين والمؤمنات ...** ﴾ الآية وكذا في الواحدي *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها النبيُّ إنا أحْلَلْنَا لَكَ أزْواجَكَ اللاَّتي أتيْتَ أجُورَهُنَّ ومٰا مَلكتْ يَمِنُكَ .** ﴾ الآية في اللباب أخرج الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه من طريق السدى عن أبي صالح عن ابن عباس عن أم هانىء بنت أبي طالب قالت : خطبنى رسول الله ﷺ . فاعتذرت إليه فعذرني ، فأنزل الله : ﴿ **إنّا أحْلَلنَا لَكَ .. إلى قوله : اللاّتي هاجرن معك ...** ﴾ فلم أكن أحل له لأني لم أهاجر وأخرج ابن أبي حاتم من طريق اسماعيل بن أبي خالد ، عن أبي صالح عن أم هانىء قالت : نزلت في هذه الآية : ﴿ **وبَنَاتِ عمِّكَ وبناتِ عمّاتِكَ وبناتِ خالِكَ وبناتِ خالاتِكَ اللاَّتي هَاجَرْنَ مَعَكَ ...** ﴾ أي أحللنا لك ذلك زائدا على الأزواج اللاتى أتيت أجورهن . على قول الجمهور *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ولَا أنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أزْواجٍ ولَو أعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إلا مٰا مَلكتْ يمينَك ...** ﴾ * في اللباب : أخرج ابن سعد عن عكرمة قال : خير رسول الله ﷺ أزواجه فاخترن الله ورسوله فأنزل الله : ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ النّساء ...** ﴾ الآية . وكذا في الخازن وغيره قولا واحدا *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنّ الّذِينَ يُؤْذُونَ الله ورَسُولَهُ لَعَنَهُم الله في الدّنْيَا والآخِرَةِ وأعدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهيناً** ﴾ أخرج ابن ابي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ **إنّ الّذِينَ يُؤْذُون الله ورسُولَه** ﴾ الآية . قال نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي * وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس : أنزلت في عبد الله بن أبي وناسٍ معه . قذفوا عائشة . فخطب النبي ﷺ وقال : « من يعذرني من رجل يؤذيني . ويجمع في بيته من يؤذينى » فنزلت *

سورة سبأ وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ كانَ لِسَبَأٍ في مَسْكَنِهِمْ آيةٌ ...** ﴾ في

اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن رباح قال : حدثني فلان أن فروة بن مسيك الغطفانى قدم على رسول الله ﷺ فقال يا نبي الله : إن سبأ قوم كان لهم في الجاهلية عز ، وإني أخشى أن يرتدوا عن الاسلام أفأقاتلهم ؟ فقال : ما أمرت فيهم بشيء بعد فأنزلت هذه الآية : ﴿ **لَقَد كانَ لِسَبأٍ في مَسكَنِهِمْ آية ...** ﴾ ولم أجد غيره .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وما أرسَلْنا في قَريَةٍ منْ نَذيرٍ إلاَّ قال مُتْرَفُوهَا إنَّا بما أرْسِلْتُمْ به كَافِرون** ﴾ في اللباب : وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سفيان عن عاصم عن ابن رزين قال : كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الشام وبقى الآخر ، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما عمل ؟ فكتب إليه أنه يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم ، فترك تجارته ، ثم أتى صاحبه . فقال : دُلّني عليه ، وكان يقرأ بعض الكتب ، فأتى النبي ﷺ فقال : إلام تدعو ؟ فقال : إلى كذا وكذا . فقال : أشهد أنك رسول الله ، فقال : وما علمك بذلك ؟ قال : إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم ، فنزلت هذه الآية . ولم أجد ما يعضده في التفاسير *

سورة فاطر وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أفَمَنْ زُيّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فإنَّ الله يُضِلُ مَنْ يشاءُ ...** ﴾ الآية : في اللباب : أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : أنزلت هذه الآية حيث قال النبي ﷺ : اللهم أعز دينك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام ، فهدى الله عمر . وأضل أبا جهل . ففيها أنزلت * وفي الخازن : قال ابن عباس : نزلت في أبي جهل ومشركى مكة * وقيل : نزلت في أصحاب الأموال والبدع * ولا مانع من حملها على العموم .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنَّ الّذينَ يتلُونَ كتاب الله وأقامُوا الصلاة وأنْفقُوا مَماّ رزقْناهُمْ ...** ﴾ في اللباب : وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس : أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي نزل فيه : ﴿ **إنّ الّذينَ يتلُونَ كتاب الله وأقامُوا الصلاة** ﴾ الآية . ولم أجد غيره في التفاسير

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **الّذي أحَلَّنا دارَ المُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يمسُّنا فيها لُغوبٌ** ﴾ في اللباب : وأخرج البيهقي في البعث وابن أبي حاتم من طريق نفيح بن الحارث ، عن عبد الله بن أبي أوفى . قال : قال رجل للنبي ﷺ يا رسول الله : إنّ النوم ممّا يقرّ الله به أعيننا في الدنيا ، فهل في الجنّة من نوم ؟ قال : لا ، إن النوم شريك الموت ، وليس في الجنة موت ، قال : فما راحتهم ؟ فأعظم ذلك رسول الله ﷺ وقال : ليس فيها لغوب . كل أمرهم راحة . فنزلت : ﴿ **لا يَمسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يمسُّنا فيها لُغوبٌ** ﴾ * أي لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء الموجبة للنوم *

سورة يٰسٓ وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يٰسٓ * إلى قوله : أمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُون ﴾ في اللباب : أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ في السجدة ، فيجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش ، حتى قاموا ليأخذوه ، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، وإذا بهم عمى لا يبصرون ، فجاؤا إلى النبي ﷺ فقالوا : ننشدك الله والرحم يا محمد : فدعا حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت : يٰسٓ * والقرآن الحكيم . إلى قوله : أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، قال : فلم يؤمن من ذلك النفر أحد * ولم يذكره أحد من المفسرين *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنّا جَعَلْنا في أعْناقِهِمْ أغلالاً فَهيَ إلى الأذْقَانِ فهُمْ مُقحَمُون** ﴾ في اللباب : وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : قال أبو جهل لئن رأيت محمداً لأفعلنّ ولأفعلن ، فأنزل الله : ﴿ **إنّا جَعَلْنا في أعْناقِهم** ... ﴾ إلى قوله : ﴿ **لا يبصرُون** ﴾ * وعبارة الخازن : نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزومين . وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً ﷺ يصلى ليرضخن رأسه بالحجارة ، فأتاه وهو يصلى ، ومعه حجر ليدفقه به ، فلما رفعه انثنت يده إلى عنقه ، ولزق الحجر بيده ، فلما رجع إلى أصحابه وأخبرهم بما رأى سقط الحجر ، فقال له رجل من بني مخزوم : أنا أقتله بهذا الحجر ، فأتاه وهو يصلي ليرميه بالحجر فأعمى الله تعالى بصره ،

فجعل يسمع صوته ولا يراه . فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه ، فقالوا له : ما صنعت ؟ فقال : ما رأيته ولقد سمعت صوته ، وحال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه ، لو دنوت منه لأكلني ، فأنزل الله تعالى ﴿ **إنا جَعَلْنا في أعناقِهِمْ أغلالاً** ... ﴾ * وكذا في القرطبي بحرفه ولفظه . *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنا نَحْنُ نُحْيِ المَوْتَى ونَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وآثارَهُمْ** ... ﴾ الآية . في الواحدي : قال أبو سعيد الخدرى : كان بنو سلمة في ناحية من المدينة ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فنزلت الآية : ﴿ **إنّا نَحنُ نُحْيِ المَوْتَى نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وآثَارَهُمْ** ... ﴾ فقال النبي ﷺ : إن آثاركم تكتب فلم تنتقلون ؟ وفي رواية . عليكم منازلكم ، فإنما نكتب آثاركم * وكذا في الخازن عن أبي سعيد الخدري به . قال : أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب . وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد فكره رسول الله ﷺ أن تعرى المدينة ، فقال يا بني سلمة : ألا تحتسبون آثاركم فأقاموا * ولم يذكر النزول *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنسيَ خلْقَهُ قال مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهيَ رَميمٌ** ... ﴾ في الواحدي : إن أبي بن خلف أتى النبي ﷺ بعظم حائل فقال يا محمد : أترى الله يحي هذا بعد ما قد رم ؟ فقال : نعم ويبعثك ويدخلك في النار . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وكذا رواه الحاكم وصححه . قال : فنزلت الآيات : ﴿ **أو لم ير الإنسانُ إناً خلقناه من نطفة فإذا هو خصيمُ مبين * وضَربَ لنا مثلاً وَنسيَ خِلقه** ... ﴾ إلى آخر السورة * وأخرج ابن أبي حاتم من طرق عن مجاهد ، وعكرمة ، وعروة بن الزبير والسدى نحوه ، وسموا الإنسان أبي بن خلف . وكذا في الخازن وابن كثير وغيرهما .

سورة الصّافات وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنّها شَجَرَةٌ تخْرُجُ في أصْلِ الجحيم * طلْعُها كأنّه رُؤُسُ الشّياطين** ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن قتادة قال : قال أبو جهل : يزعم صاحبكم هذا أن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر ، وإنا والله ما نعلم

الزقوم إلا التمر والزبد ، فأنزل الله حين عجبوا أن يكون في النار شجرة ﴿ **إنّها تَخْرُجُ في أصْلِ الجحيم** ... ﴾ * أي أنهم لما سمعوا أنها في النار قالوا كيف ذلك . والنار تحرق الشجر ، ولم يعلموا أن من يقدر على خلق حيوان وهو السمندل يعيش في النار ، ويتلذذ بها يقدر على خلق الشجر في النار وحفظه منها *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وجَعَلُوا بَيْنَهُ وبَيْنَ الْجِنَّةِ نسباً** ﴾ وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد قال : قال كبار قريش : الملائكة بنات الله ، فقال أبو بكر الصديق : فمن أمهاتهم ؟ قالوا : بنات سراة الجن فأنزل الله تعالى : ﴿ **ولَقَدْ عَلِمَت الجنُّ إنّهم لمُحْضَرون** ﴾ أي للنار . *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أفَبِعَذَابِنَا يستعجلُون** ﴾ في اللباب : وأخرج ابن جويبر عن ابن عباس قال : قالوا يا محمد : أرنا العذاب الذي تخوفنا به ؟ عجله لنا . فنزلت : ﴿ **أفَبِعَذَابنَا يستعجلُون** ﴾ * ولم أعثر على غيره .

سورة صٓ وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **صٓ * والْقُرآنِ ذِي الذِّكرِ . إلى قوله : إن هذا اختلاق** ﴾ في الواحدي : حدث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مرض أبو طالب ، فجاءت قريش ، وجاء النبي ﷺ ، وعند رأس أبي طالب مجلس رجل ، فقام أبو جهل كي يمنعه من ذلك . فشكوه إلى أبي طالب ، فقال يا ابن أخي : ما تريد من قومك ؟ قال يا عم : إنما أريد منهم كلمة تذل لهم بها العرب ، وتؤدى لهم الجزيه بها العجم ، قال : كلمة واحدة ؟! قال : ما هى ؟ قال : لا إله إلا الله . فقالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً . قال : فنزل فيهم القرآن : ﴿ **صٓ . والقرآن ذى الذكر بلِ الّذينَ كفَرُوا في عزّةٍ وشقاق** ﴾ . حتى بلغ : ﴿ **إن هَذَا إلاَّ اختلاق** ﴾ وفي اللباب : إلى قوله : ﴿ **بل لمَّا يذوقُوا عذاب** ﴾ . وفي الواحدي : قال المفسرون : لما أسلم عمر بن الخطاب شق ذلك على قريش ، وفرح المؤمنون ، قال الوليد بن المغيرة لخلاص قريش . هم الصناديد والأشراف . امشوا إلى أبي طالب . فأتوه ، فقالوا له : أنت شيخنا

وكبيرنا ، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ، وإنا أتيناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك ، فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ ، فدعاه ، فقال يا بن أخي : هؤلاء قومك يسألونك ذا السؤال فلا تمل كل الميل على قومك . قال : وماذا يسألوني ؟ قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال النبي ﷺ : أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب ، وتدين كلم بها العجم : فقال أبو جهل : لله أبوك لنعطيكنها وعشر أمثالها . فقال النبي ﷺ : قولوا لا إله إلا الله ، فنفروا من ذلك ، فقاموا . فقالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً . كيف يسع الخلق إله واحد فأنزل الله فيهم هذه الآية : ﴿ **كذّبت قبلهم قَوْمُ نوح ...** ﴾ *

سورة الزمر وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **والَّذِينَ اتّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلى الله زُلْفَى ...** ﴾ في اللباب : أخرج ابن جويبر عن ابن عباس قال في سبب نزول هذه الآية . أنزلت في ثلاثة أحياء : عامر وكنانة وبني سلمة . كانُوا يعبدُون الأوثان . ويقولون : الملائكة بنات الله . فقالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى * ولم أجد غيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آناءَ اللَّيْل سَاجداً وقائِماً يَحْذَرُ الآخرة ويَرْجُو رَحْمَةَ رّبه ...** ﴾ الآية في الواحدي : قال ابن عباس في رواية عطاء : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه * وقال ابن عمر : نزلت في عثمان بن عفان * وقال مقاتل : نزلت في عمار بن ياسر * وفي اللباب : وأخرج ابن جويبر عن ابن عباس قال : نزلت في ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة * ولا مانع من نزولها في الكل . لأنها عامة في كل قانت . وهذه الأقوال مذكورة في الخازن بحروفها . وفي معناها في ابن كثير *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **والّذِينَ اجْتَنَبُوا الطّاغُوتَ أنْ يَعْبُدُوها وأَنَابُوا إِلَى الله لَهُمُ الْبُشْرَى ...** ﴾ قال ابن زيد : نزلت في ثلاثة أنفار كانوا في الجاهلية يقولون : لا إله إلا الله . وهم : زيد بن عمرو وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي * وفي

القرطبي : روى أنها نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد وسعيد وطلحة والزبير رضي الله عنهم سألوا أبا بكر رضي الله عنه ، فأخبرهم بإيمانه فآمنوا * وفيه : وقيل نزلت في عمرو بن نفيل وأبي ذر وغيرهما فمن وحد الله تعالى قبل مبعث النبي ﷺ * وكذا القول في بقية التفاسير *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهم وقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ ...** ﴾ في الواحدي : حدّث مصعب بن سعد عن سعد قالوا يا رسول الله : لو حدثتنا ؟ فأنزل الله : ﴿ **اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ...** ﴾ الآية . ولم أجد غيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عبده وَيُخَوِّفُونَكَ بالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ...** ﴾ الآية . في اللباب : أخرج عبد الرازق عن معمر قال لي رجل : قالوا للنبي ﷺ : لتكفن عن شتم آلهتنا ، أو لنأمرنها فلتخبلنك : فنزلت ﴿ **ويُخَوِّفُونكَ بالَّذِينَ مَنْ دونه ...** ﴾ وكذا في الجلال *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قُلْ يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رحمة الله ...** ﴾ الآية . قال ابن عباس : نزلت في أهل مكة . قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان ، وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له . فكيف نهاجر ونسلم ، وقد عبدنا مع الله إلها آخر . وقتلنا النفس التى حرم الله . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وحدث يعلى بن مسلم أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذي تدعوا إليه لحسن أن تخبرنا لما عملناه كفارة . فنزلت هذه الآية : ﴿ **يا عبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَافُوا على أَنْفُسِهِمْ ...** ﴾ الآية . ويروى أنها نزلت في وحشى قاتل حمزة . وتقدم ذكر ذلك في آخر سورة الفرقان *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تأمُرُونِّى أعْبُدُ أَيُّها الْجَاهِلُونَ** ﴾ في اللباب : وأخرج البيهقي في الدلائل عن الحسن البصرى قال : قال المشركون للنبي ﷺ : أتضلل آباءك وأجدادك يا محمد ؟ فأنزل الله ﴿ **قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تأمرونّى أعْبُدُ ...** ﴾ الآية . وسيأتي الكلام عليها في سورة الكافرون إن شاء الله تعالى *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وما قَدَرُوا الله حق قَدْرِهِ والأَرْضُ جميعاً قَبْضتُه يَوْمَ القيامة ... ﴾ الآية في الواحدي : حدث الأعمش عن علقمة عن عبد الله قال : أتى النبي ﷺ رجل من أهل الكتاب . فقال يا أبا القاسم : بلغك أن الله يحمل الخلائق على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والثرى على أصبع ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَما قَدَرُوا الله حق قَدْرِهِ ... ﴾ الآية * وفي اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : غدت اليهود فنظروا في خلق السموات والأرض والملائكة ، فلما فرغوا أخذو يقدرونه . فأنزل الله تعالى ﴿ وما قَدَرُوا الله حقّ قَدْرِه ... ﴾ * وأخرج عن سعيد بن جبير قال : تكلمت اليهود في صفة الرب ، فقالوا بما لم يعلموا ، ولم يروا . فأنزل الله الآية * وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس قال : لما نزلت : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّموٰاتِ والأَرْضِ ... ﴾ قالوا يا رسول الله : هذا الكرسى هكذا فكيف العرش ؟ فأنزل الله : ﴿ وما قَدَرُوا الله حَقَّ قدْرِهِ ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ما يُجَادِلُ في آيَاتِ الله إلاَّ الَّذِينَ كفَرُوا ... ﴾ الآية . في اللباب أخرج ابن أبي حاتم عن السدي ، عن مالك في قوله : ﴿ مَا يُجَادِلُ في آياتِ الله إلاَّ الَّذِينَ كفَرُوا ... ﴾ قال : نزلت في الحارث بن قيس السهمي * وأخرج عن أبي العالية قال : جاءت اليهود إلى رسول الله ﷺ فذكروا الدَّجال ، فقالوا يكون منا في آخر الزمان ، فعظموا أمره ، وقالوا : يضع كذا ، فأنزل الله ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ في آياتِ الله بغيرْ سُلْطَانٍ ... ﴾ فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال : ﴿ لخَلْقُ السّموٰاتِ والأرض أكْبَرُ مِنْ خَلِقِ النّاسِ ﴾ قال : من خلق الدجال*

سورة السجدة - فُصِّلَتْ - وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وما كنتُمْ تَسْتَتِرونَ أنْ يَشْهَد عليكُمْ سَمْعُكُمْ ... ﴾ الآية في الواحدي : حدّث مجاهد عن أبي معمر ، عن ابن مسعود في هذه الآية قال : كان رجلان من ثقيف وختن لهما من قريش . أو رجلان من قريش وختن لهما من ثقيف في بيت ، فقال بعضهم : أترانا الله يسمع نجوانا أو حديثنا ؟ فقال

بعضهم : قد سمع بعضه ، ولم يسمع بعضه ، قالوا : لئن كان يسمع بعضه لقد سمع كله . فنزلت هذه الآية - ﴿ وما كنتُمْ تستترون أنْ يَشْهَدَ عليكُمْ .. ﴾ رواه البخاري عن الحميدي ، ورواه مسلم عن أبي عمر وفي اللباب : أخرج الشيْخان والترمذي وأحمد وغيرهم عن ابن مسعود قال : اختصم عند البيت ثلاثة نفر قرشيون ، وثقفي أو ثقفيان وقرشي ، فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما نقول ؟ فقال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا . فأنزل الله : ﴿ وما كُنْتُمْ تَسْتَتِرون ﴾ الآية *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إنَّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ... ﴾ الآية . قال عطاء عن ابن عباس : نزلت هذه الآية في أبي بكر رضي الله عنه ، وذلك أن المشركين قالوا : ربنا الله والملائكة بناته ، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله فلم يستقيموا . وقالت اليهود : ربنا الله : وعزير ابنه ، ومحمد ﷺ ليس بنبي ، فلم يستقيموا . وقال أبو بكر رضي الله عنه : ربنا الله وحده لا شريك له ، ومحمد ﷺ عبده ورسوله واستقام *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأتِي آمِناً يَومَ الْقِيامَةِ ... ﴾ في اللباب : وأخرج ابن المنذر عن بشير بن فتح قال : نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمار بن ياسر * وفي الخازن : وأخرج ابن المنذر عن بشير بن فتح قال : نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمار بن ياسر *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ولَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أعْجَمِيّاً لَقَالُوا لوْلاَ فُصِّلَتْ آياتُه أَأَعْجَمِيٌّ وعَرَبيٌّ ... ﴾ الآية . في اللباب : وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : قالت قريش : لولا أنزل هذا القرآن أعجميا وعربيا فأنزل الله ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آياتُه ... ﴾ *

سورة الشُّورى وبيانُ ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ والَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ ... ﴾ الآية في اللباب : أخرج ابن

المنذر عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ إذا جَاءَ نَصرُ الله والفَتْحُ ... ﴾ قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين : قد دخل الناس في دين الله أفواجا ، فأخرجوا من بين أظهرنا ، فعلام تقيمون بين أظهرنا ؟ فنزلت : ﴿ والَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي الله مِنْ بَعدِ ما استجيب له ... ﴾ الآية *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ لا أسْألُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلاَّ الْمَوَدَّةَ في الْقُرْبَى ... ﴾ قال ابن عباس : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق وليس في يده لذلك سعة ، فقال الأنصار : إن هذا الرجل قد هداكم الله به . وهو ابن اختكم ، وتنوبه نوائب وحقوق ، وليس في يده لذلك سعة فأجمعوا له من أموالكم ما لا يضركم ، فأتوه به ليعينه على ما ينوبه ، ففعلوا ، ثم أتوا به ، فقالوا يا رسول الله : إنك ابن أختنا ، وقد هدانا الله تعالى على يديك وتنوبك نوائب وحقوق ، وليست لك عندنا سعة ، فرأينا أن نجمع لك من أموالنا فنأتيك به فتستعين على ما ينوبك ، وهو هذا . فنزلت هذه الآية : ﴿ قل لا أسألكُمْ عليه أجراً ... ﴾ وضعّفه السيوطي في لبابه * وفي الخازن : وقيل إن هذه الآية منسوخة . وذلك لأنها نزلت بمكة ، وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فأمرهم فيها بمودة رسول الله ﷺ وصلة ورحمة ، فلما هاجر إلى المدينة ، وآواه الأنصار ونصروه أحب الله تعالى أن يلحقه بإخوانه من النبيين ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ ما سَألْتُكُمْ مِنْ أجْرٍ فهو لكم ... ﴾ فصارت هذه الآية ناسخة لقوله : ﴿ قُلْ لا أسألكُمْ عليه أجراً إلاَّ المودّةَ في القربى ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ولَوْ بَسَطَ الله الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغُوا فِي الأرْضِ ... ﴾ الآية . وذلك أنا نظرنا إلى أحوال قريظة والنضير فتمنيناها ، فأنزل الله تبارك وتعالى : هذه الآية . وكذا في الخازن وغيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ومَا كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ الله إلاَّ وحْياً ... ﴾ الآية . في الواحدي : وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيا كما كلم الله موسى ونظر إليه ، فإنا لن نؤمن بك حتى تفعل ذلك ، فقال : لم ينظر موسى إلى الله . وأنزلت هذه الآية * وكذا في الخازن *

سورة الزخرف وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إنَاثًا أشَهِدُوا خَلْقَهَمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهم وَهُمُ يُسئلونَ** ﴾ في اللباب : أخرج إبن المنذر عن قتادة . قال : قال ناس من المنافقين : إن الله صاهر الجن ، فخرجت من بينهم الملائكة فنزل فيهم : ﴿ **وجَعَلُوا الملائكة الذين هُمْ عبَادُ الرحمن إناثاً ...** ﴾ * وفي الخطيب : قال الكلبي ومقاتل : لما قالوا هذا القول . سألهم النبي ﷺ فقال : ما يدريكم أنهم إناث ؟ قالوا سمعنا من آبائنا ، ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا . فقال تعالى : ﴿ **ستكتب شهادتهم ويُسئلون** ﴾ * وكذا في الخازن *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وقالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرآنُ على رَجُلٍ مِنَ القريتيْنِ عظيمٌ** ﴾ في اللباب : وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال : قال الوليد بن المغيرة : لو كان ما يقول محمد حقا أنزل عليَّ هذا القرآن ، أو على مسعود الثقفى . فنزلت * ومعناه في ابن كثير والخطيب : يعنون الوليد بن المغيرة بمكة وعروة بن مسعود بالطائف . قاله قتادة . وفي الخازن . وقيل : عتبة بن ربيعة من مكة ، وكنانة بن عبد ياليل الثقفي من الطائف *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ومَنْ يَعْشُ عَنْ ذكر الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قرينٌ** ﴾ في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي أن قريشا قالت : قيضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلا يأخذه ، فقيضوا لأبي بكر طلحة ، فأتاه وهو في القوة ، فقال أبو بكر : إلام تدعوني ؟ قال : أدعوك إلى عبادة اللات والعزى . قال أبو بكر : وما اللات ، قال : ربنا . قال : وما العزى ؟ قال :بنات الله . قال أبو بكر : فمن أمهم ؟ فسكت طلحة فلم يجبه ؛ فقال طلحة لأصحابه : أجيبوا الرجل ، فسكت القوم ، فقال طلحة : قم يا أبا بكر . أشهد ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله . فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقيضْ لَهُ شيطاناً فهو لَهُ قرين** ﴾ * ولم أجد غيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ولمّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذا قوْمَكَ مِنْهُ**

يَصُدُّون ﴾ في الواحدي : حدث ابن رزين عن أبي يحيى مولى ابن عفراء عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لقريش : يا معشر قريش لا خير في أحد يعبد من دون الله .. قالوا : أليس تزعم أن عيسى كان عبدا نبيا وعبدا صالحا ، فإن كان كما تزعم فهو كآلهتهم . فأنزل تعالى : ﴿ **وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مريم مثلاً** ... ﴾ وتقدم نظير هذا في آخر سورة الأنبياء عند قوله : ﴿ **إنكُمْ وما تعبُدونَ مِنْ دونِ الله حَصَبُ جَهنّم** ... ﴾ والقصة في ابن كثير جـ ٤ ص ١٣١ *

سورة الدخان وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **فارْتَقِبْ يَوْمَ تأتِي السَّمَاءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ** ﴾ في اللباب : أخرج البخاري عن ابن مسعود قال : إن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسنى يوسف . فأصابهم قحط حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تأتِي السَّمَاءُ بِدُخانٍ مبينٍ** ... ﴾ فأتي رسول الله ﷺ فقيل يارسول الله : استسق الله لمضر فإنها قد هلكت فسقوا : فنزلت : ﴿ **إنكُمْ عائدون** ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﴿ **يَومَ نبطشُ البطشة الكُبْرىَ إنَّا منتقمُون** ﴾ . يعنى يوم بدر * ونحوه في الخازن بدون ذكر النزول . وكذا في بقية التفاسير *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الأثيم** . ﴾ في لباب السيوطي : أخرج سعيد بن منصور عن أبي مالك قال : إن أبا جهل كان يأتي التمر والزبد فيقول : تزقموا فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد فنزلت : ﴿ **إنّ شجرة الزَّقُو طعام الأثيم** ... ﴾ * ولم أجد غيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ذُقْ إنّك أنْتَ العَزيزُ الكريمُ** ﴾ في اللباب : وأخرج الأموى في مغازيه عن عكرمة قال : لقى رسول الله ﷺ أبا جهل فقال : إن الله أمرني أن أقول لك : أوْلى لك فأولى ثم أولى لك فأولى . قال : فنزع ثوبه

من يده ، فقال : ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء . لقد علمت أني أمنع أهل البطحاء . وأنا العزيز الكريم . فقتله الله يوم بدر ، وأذله وعيره بكلمته ، ونزل فيه : ﴿ ذقْ إنّك أنت العزيزُ الكريم . ﴾ * وكذا معناه في التفاسير *

سورة الجاثية وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قُلْ لِلّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيّامَ الله ...** ﴾ الآية . قال ابن عباس : يريد عمر بن الخطاب خاصة . وأراد بالذين لا يرجون أيام الله عبد الله بن أبي . وذلك أنهم نزلوا في غزاة بني المصطلق على بئر يقال له المريسيع فأرسل عبد الله غلامه ليستقي الماء فأبطأ عليه ، فلما أتاه . قال : ما حسبك ؟ قال : غلام عمر قعد على قف البئر فما ترك أحدا يستقي حتى ملأ قرب النبي وقرب أبي بكر ، وملأ لمولاه . فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سمن كلبك يأكلك . فبلغ قوله عمر رضي الله عنه ، فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي الخازن : قال ابن عباس : نزلت في عمر بن الخطاب . وذلك أن رجلا من بنى غفار شتمه بمكة ، فهمَّ عمر أن يبطش به . فأنزل الله هذه الآية . وأمره أن يعفو عنه * وقيل : نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة ، كانوا في أذى شديد من المشركين ، قبل أن يؤمروا بالقتال فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية . ثم نسخها بآية القتال *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أفرأيْتَ مَن اتّخَذَ إلٰهَهُ هَواهُ وأضَلّهُ الله علَى عِلْمٍ** ﴾ في اللباب : أخرج ابن المنذر وابن جرير عن سعيد بن جبير قال : كانت قريش تعبد الحجر حينا من الدهر فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الآخر . فأنزل الله تعالى : ﴿ **أفرأيْتَ مَنِ اتّخَذَ إلٰهَهُ هَواهُ ...** ﴾ الآية * وكذا في الخازن بدون ذكر النزول *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وقَالُوا مَا هِيَ إلاّ حَيَاتُنَا الدُّنيا نَمُوتُ ونَحْيَا ومَا يُهْلِكُنَا إلاّ الدَّهْرُ ...** ﴾ . في اللباب : وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة

قال : كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الدهر : الليل والنهار . فأنزل الله : ﴿ **وقالوا ما هِىَ إلاَّ حياتُنا الدنيا نموت ونحيا ومٰا يهلكنا إلاَّ الدهر** ... ﴾ * وكذا فى القرطبي وغايره من التفاسير *

سورة الأحقاف وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قُلْ مٰا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ ومٰا أدْرِى مٰا يُفْعَلُ بِي ولا بِكُمْ إنْ أتَّبِعُ إلاَّ مٰا يُوحى إليَّ** ... ﴾ قال الثعلبي عن أبي صالح عن ابن عباس : لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصها على أصحابه ، فاستشيروا بذلك ، ورأوا فيها فرجا مما هم فيه من أذى المشركين ، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك ، فقالوا يا رسول الله : متى نهاجر إلى الأرض التى رأيت ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى ﴿ **وَمٰا أدْرِى ما يُفْعَلُ بِي ولآ بكُمْ** ... ﴾ يعنى لا أدرى أخرج إلى الموضع الذي رأيته في منامى أولا ، ثم قال : إنما هو شيء رأيته في منامى ما أتبع إلا ما يوحى إلي * وفي القرطبي : ﴿ **وما أدْرِى مٰا يُفعَلُ بِي ولا بكُمْ** ﴾ يريد يوم القيامة . ولما نزلت فرح المشركون واليهود والمنافقون . وقالوا كيف نتبع نبيا لا يدرى ما يفعل به ولا بنا ، وأنه لا فضل له علينا ، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعله به . فنزلت : ﴿ **ليغفرلك الله مٰا تقدَّم مِنْ ذنْبِكَ ومٰا تأخّر** ﴾ . فنسخت هذه الآية ، وأرغم الله أنف الكفار . وقالت الصحابة هنيئا لك يا رسول الله . لقد بين الله لك ما يفعل بك ، فليت شعرنا ما هو فاعل بنا ، فنزلت ﴿ **لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ جنّاتٍ تَّجْرِى مِنْ تَّحْتِها الأنْهارُ** ... ﴾ الآية . ونزلت : ﴿ **وبَشِّرِ الْمُؤْمنينَ بأنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فضلاً كبيراً** ﴾ قاله أنس وابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أرأيْتُمْ إنْ كانَ مِنْ عنْدِ اللهِ وكَفَرتُم بِهِ وشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بنى إسرائيلَ علَى مِثْلِهِ** ... ﴾ الآية . في لباب السيوطي : أخرج الطبراني بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال : انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم فقال لهم رسول الله ﷺ

يا معشر اليهود : أروني اثنى عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحط عن كل يهودى تحت أديم السماء الغضب الذي حل عليه . فسكتوا ، فما أجاب منهم أحد ، ثم انصرف ، فإذا رجل من خلفه ، فقال : كما أنت يا محمد ، فاقبل ، فقال : أي رجل تعلموني منكم يا معشر اليهود . قالوا : والله ما نعلم فينا رجلا كان أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ، ولا من أبيك قبلك ، ولا من جدك قبل أبيك ، قال : فإني أشهد أنه النبي الذي تجدون في التوراة ، قالوا : كذبت ، ثم ردوا عليه ، وقالوا فيه شراً فأنزل الله ﴿ **قُلْ أرأيْتُمْ إنْ كانَ مِنْ عِنْدِ الله وكفرتُم به** ... ﴾ الآية * وأخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص قال : في عبد الله بن سلام نزلت : ﴿ **وشَهد شاهد من بني إسرائيل على مِثْلِهِ** ... ﴾ وكذا في ابن كثير . وغيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الّذِينَ كفَرُوا لِلّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً مَا سَبَقُونا إليه** ... ﴾ . في اللباب : قال ناس من المشركين نحن أعز . ونحن ونحن ، فلو كان خيرا ما سبقنا إليه فلان وفلان . فنزل : ﴿ **وقالَ الّذِينَ كفَرُوا** ... ﴾ * وقد سماهم ابن كثير . فقال : يعنون بلالا وعمارا وصهيبا وخبابا رضي الله عنهم وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء ، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية * وفي اللباب أيضا : وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد ، قال : كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله ، يقال لها زنين . فكان عمر يضربها على إسلامها حتى يفتر ، وكان كفار قريش يقولون : لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زنين . فأنزل الله في شأنها : ﴿ **وقَالَ الّذينَ كفروا لِلّذِينَ آمنُوا لو كانَ خيراً ما سبقُونا إليه** ... ﴾ والحمل على العموم أولى *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **حتّى إذَا بَلغَ أشُدّهُ وبلغَ أرْبَعِينَ سَنَةَ قال رَبّ أوْزِعنى أنْ أشكرَ نعمَتكَ التى أنْعَمْتَ عَلَيَّ** ... ﴾ . قال ابن عباس في رواية عطاء : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وذلك أنه صحب رسول الله ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة ، ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة ، وهم يريدون الشام في التجارةفنزلا منزلا فيه سدرة فقعد رسول الله ﷺ ، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين ، فقال له : من الرجل الذي في ظل السدرة ؟ فقال : ذاك محمد بن عبد الله

بن عبد المطلب . قال : هذا والله نبي . وما استظل تحتها أحد بعد عيسى ابن مريم إلا محمد نبي الله ، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق ، وكان لا يفارق رسول الله ﷺ في أسفاره وحضوره . فلما نبيء رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة ، وأبو بكر بن ثمان وثلاثين سنة . أسلم وصدق رسول الله ﷺ . فلما بلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي ... * وفي الخازنْ : قيل نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص . وقد تقدمت القصة . وقيل : إنها على العموم . قال الخازن : والأصح أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وساق الذي ذكر *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **والّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍ لكُمَا أتَعِدانِنِي أنْ أخْرجَ وقَدْ خلَتِ القرُونُ من قَبْلِي ...** ﴾ الآية . في اللباب : نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر ، قال لأبويه . وكانا قد أسلما وأبىَ هو أن يسلم ، فكانا يأمرانه بالاسلام ، فيرد عليهما ويكذبهما ويقول : فأين فلان وأين فلان ؟ يعنى مشايخ قريش ممن قد مات ، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه ، فنزل في توبته في هذه الآية : ﴿ **ولكُلٍ درجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفِّيَنَّهُمْ أعمالهم وهُمْ لا يُظلمون** ﴾ * لكن في البخاري من طريق يوسف بن ماهان . قال : قال مروان في عبد الرحمن بن أبي بكر . إن هذا الذي أنزل فيه ﴿ **والّذي قَالَ لِوالدَيْه أُفٍ لَكُمَا** ﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذرى . وأخرج عبد الرزاق من طريق مكى . أنه سمع عائشة تنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر . وقالت : إنما نزلت في فلان سمت رجلا . قال الحافظ ابن حجر : ونفى عائشة أصح إسنادا وأولى بالقبول * والحق أن الآية لم ترد في شخص معين . بل المراد كل شخص يقول أمثال هذه المقالة فيدعوه أبواه إلى الايمان بالبعث وإلى الدين الصحيح فيأبى وينكر *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَإذْ صَرَفْنَا إليْكَ نفراً مِنَ الْجنّ يستمعُون القرآن ...** ﴾ الآية في اللباب : وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : إن الجن هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخل فلما سمعوه قالوا : انصتوا وكانوا تسعة ؛ أحدهم : زوبعة . فأنزل الله ﴿ **وإذْ صَرَفنا إلَيْكَ نَفراً مِنَ الجنّ ...** ﴾ إلى قوله : ضلال مبين * وكذا في الجلال وابن كثير وغيرهما *

سورة محمد عليه الصلاة والسلام وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سبيلِ الله أضلَّ أعْمَالَهُمْ** ... ﴾ في لباب السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم عن عباس في الآية . قال : هم أهل مكة نزلت فيهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات . قال : هم الأنصار *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **والّذِينَ قُتِلوا في سبيلِ الله فَلَنْ يُضلَّ أعْمَالَهُمْ** ... ﴾ في الواحدي : ذكر ابن عباس أن هذه الآية نزلت يوم أحد ، ورسول الله ﷺ في الشعب ، وقد نشبت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون يومئذ : اعل هبل . ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل ، فقال المشركون : إن لنا العزى ولا عز لكم . فقال رسول الله ﷺ : قولوا الله مولانا ولا مولى لكم *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وكأيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هيَ أشدُّ قوّةً مِنْ قَريَتِكَ التى أخرَجَتْكَ أهْلَكْنَاهُمْ فلاَ ناصِرَ لَهُم** ﴾ في اللباب : وأخرج أبو يعلى عن ان عباس قال : لما خرج رسول الله ﷺ تلقاء الغار نظر إلى مكة فقال : أنت أحب بلاد الله إليَّ ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج عنك ، فأنزل الله ﴿ **وكأين مِنْ قريةٍ** ... ﴾ الآية . وكذا في الخطيب وابن كثير . وبقية التفاسير *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إلَيْكَ حتَّى إذا خرجُوا من عِنْدِكَ قالُوا لِلّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ماذا قال آنفا** ... ﴾ الآية . في اللباب كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبي ﷺ فيسمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه . ويسمعه المنافقون فلا يعونه ، فإذا خرجوا سألوا المؤمنين ماذا قال آنفا فنزلت : ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يستمع إليك** ... ﴾ الآية . وفي الخطيب : روى مقاتل أن النبي ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين ، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود استهزاء ماذا قال محمد آنفا * أي الساعة الماضية القريبة . وكذا بقية الأقوال *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيّها الّذِينَ آمنُوا أطِيعُوا الله وأطِيعُوا الرسُولَ ولا تبطِلُوا أعمالكم** ... ﴾ في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر

المروزى في كتاب الصلاة عن أبي للعالية قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب ، كما لا ينفع من الشرك عمل . فنزل : ﴿ **أطيعُوا الله وأطيعُوا الرسولَ ولا تبطلُوا أعمالكم** ﴾ فخافوا أي يبطل الذنب العمل * وكذا في ابن كثير والخطيب وغيرهما .

سورة الفتح وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

أخرج الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قال : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلي آخرها *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنّا فتحنا لَكَ فتحاً مبيناً** ﴾ في الواحدي : حدث قتادة عن أنس قال : لما رجعنا من غزوة الحديبية ، وقد حيل بيننا وبين نسكنا ، فنحن بين الحزن والكآبة ، أنزل الله عز وجل – : ﴿ **إنّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحَاً مُبيناً** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا وما فيها كلها * وقال عطاء عن ابن عباس : إن اليهود شمتوا بالنبي ﷺ والمسلمين لما أنزل قوله : ﴿ **ومَا أدْرِى ما يُفعَلُ بِي ولاَ بكُم** ﴾ وقالوا : كيف نتبع رجلا لا يدرى ما يفعل به ، فاشتد ذلك على النبي ﷺ فأنزل الله تعالى : ﴿ **إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ الله ما تقدم من ذنبك ومَا تأخّر** ﴾ * وفي اللباب : وأخرج الشيخان والترمذي والحاكم عن أنس قال : أنزلت على النبي ﷺ : ﴿ **ليغفر لكَ الله ما تقدَم من ذنبكَ وما تأخّر** ﴾ مرجعه من الحديبية ، فقال النبي ﷺ : لقد أنزلت على آية أحب إلي مما على الأرض ، ثم قرأها عليهم ، فقالوا : هنيئاً لك يا رسول الله قد بين الله لك ماذا يفعل إلخ ... *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ رَضيَ اللهُ عن المؤمنينَ إذْ يُبايُعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَة فَعَلِمَ اللهُ مَا في قلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكينةَ عَلَيْهِمْ وأَثَابَهُمْ فتحاً قريباً** ﴾ في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع قال : بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ : البيعة البيعة . نزل روح القدس ، فسرنا إلى رسول الله ﷺ ، وهو تحت الشجرة سمرة فبايعناه ، فأنزل الله ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين ...** ﴾

الآية . وسبب البيعة مشهور . روى البخاري من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيب : كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشر مائة . والمشهور الذي رواه غير واحد أنهم كانو أربع عشر مائة *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّة بَعْدَ أَنْ أظْفَرَكم عليهم** ... ﴾ الآية في الواحدي : حدث أحمد بن سلمة عن ثابت عن أنس ، أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه . فأخذهم أسراء فاستحياهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وهُوَ الّذِي كف أَيْدِيَهُمْ عنكم** ... ﴾ الآية . وقال عبد الله مغفل الهوني : كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن ، فبينما نحن كذلك . إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم النبي ﷺ . فأخذ الله تعالى أبصارهم ، وقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ هل جئتم في عهد أحد ؟ وهل جعل لكم أحد أمانا ؟ فقالوا : اللهم ، لا ، فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى : ﴿ **وهُوَ الذِي كفّ أيديَهُم عنكم** ... ﴾ الآية . ونحوه روى أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والنسائي في آخرين عن أنس *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ ونِسَاءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ** ... ﴾ . في اللباب : وأخرج الطبراني وأبو يعلي عن أبي جمعة : جنبد بن سبع قال : قاتلت النبي ﷺ أول النهار كافرا ، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً ، وكنا ثلاثة رجال ، وسبع نسوة ، وفينا نزلت : ﴿ **ولَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونْ ونِسَاءٌ مؤمناتٌ** ... ﴾ . وكذا في المراغي وابن كثير وغيرهما *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ صَدَقَ الله رسُولَهُ الرُّؤْيَا بالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إنْ شَاءَ اللهُ آمِنينَ** ... ﴾ الآية . في اللباب : وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال : أرى النبي ﷺ وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤسهم ومقصرين . فلما نحر الهدى

بالحديبية . قال أصحابه : أين رؤياك يا رسول الله ؟ فنزلت : ﴿ **لقدْ صَدَقَ الله رسُولَهُ الرؤيا بالحق** ... ﴾ وكذا في التفاسير *

سورة الحجرات وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ياأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تُقدِّمُوا بَيْنَ يَدَي الله ورسُولِهِ ... ﴾ في الواحدي : حدث ابن جرير عن ابن أبي مليكة . أن عبد الله بن الزبير . أخبره . أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله ﷺ . فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد . وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي . وقال عمر : ما أردتُ خلافك . فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما . فنزل في ذلك قوله : ﴿ **ياأيها الّذِينَ آمنُوا لاَ تقدمُوا بين يدي الله ورسوله** ... ﴾إلى قوله : ﴿ **ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم** ... ﴾ رواه البخاري عن الحسن بن محمد الصباح * وفي اللباب : وأخرج ابن المنذر عن الحسن . أن ناسا ذبحوا قبل رسول الله ﷺ يوم النحر ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح ، فأنزل الله : ﴿ **لا تُقَدِّمُوا بين يَدى الله ورسُولِهِ** ... ﴾ * وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الأضاحي بلفظ : ﴿ **ذبح رجُلً قبْلَ الصَّلاَةِ** ... ﴾ فنزلت . * وأخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة : أن ناسا كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبي ﷺ فأنزل الله : ﴿ **ياأيها الّذِينَ آمَنُوا لا تقدّمُوا بيْنَ يَدىِ الله ورسُولِهِ** ... ﴾ * وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون لو أنزل كذا وكذا في كذا ، فأنزل الله : ﴿ **لا تقدّمُوا بيْنَ يَدَيِ الله ورسُولَهَ** ﴾

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيّهَا الّذِينَ آمنُوا لا تَرفعُو أصْواتكُمْ فَوقَ صَوتِ النّبىَ** ... ﴾ . نزلت في ثابت بن قيس بن شماس . كان في أذنه وقر ، وكان جهورى الصوت ، وكان إذا كلم اناسا جهر بصوته . فربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته . فأنزل الله تعالى هذه الآية * . وفي رواية جعفر بن سليمان الضبعى قال : أخبرنا ثابت عن أنس لما نزلت هذه الآية : ﴿ **لا تَرفعُوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾ . قال ثابت بن قيس : أنا الذي كنت أرفع صوتى فوق صوت النبي ،

وأنا من أهل النار ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « هو في الجنة » رواه مسلم عن قطر بن نسير . وقال ابن أبي مليكلة : كاد الخيران أن يهلكا : أبو بكر وعمر . رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم – وقد تقدم قبل أسطر – فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس ، وأشار الآخر برجل آخر – وقد علمت من هم – فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي ، وقال عمر : ما أردت خلافك ، وارتفعت أصواتهما في ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **لا ترفعُوا أصواتكم** ... ﴾ الآية . وقال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه * وفي رواية أبن عباس : كان أبو بكر يكلم رسول الله كأخي السرار . أي من شدة خفض صوته للنبي ﷺ .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إن الّذينَ يُنادُونك مِن وراءِ الحجرَاتِ أكثَرهُمْ لاَ يَعْقِلُون** ... ﴾ هناك روايات كثيرة عن ابن اسحاق في الموضوع . وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمى رضي الله عنه فيما أورده غير واحد . ففى رواية أحمد أنه نادى رسول الله ﷺ فقال يا محمد : يامحمد : وفي رواية يا رسول الله . فلم يجبه ، فقال يا رسول الله : إن حمدي لزين وإن ذمى لشين . فأنزل الله الآية . كذا في ابن كثير . وفي القرطبي : قال مجاهد وغيره : نزلت في أعراب بني تميم ، قدم وفد منهم على النبي ﷺ فدخلوا المسجد ، ونادوا النبي ﷺ من وراء الحجرات أن اخرج إلينا ، فإن مدحنا زين وذمنا شين ، وكانوا سبعين رجلا ، قدموا لفداء ذرارى لهم ، وكان النبي ﷺ نام للقائلة * وفيه : وقال مقاتل : كانو تسعة نفر : قيس بن عاصم ، والزبرقان بن بدر ، والأقرع بن حابس ، وسويد بن هاشم ، وخالد بن مالك ، وعطاء بن حابس والقعقاع بن معبد ووكيع بن وكيع ، وعيينة بن حصن ، وهو الأحمق المطاع * وفي الخازن في رواية ابن عباس : فقدموا وقت الظهيرة ، ووافقوا رسول الله ﷺ قائلا في أهله . فلما رأتهم الذرارى اجهضوا إلى آبائهم يبكون ، وكان لكل امرأة من نساء رسول الله ﷺ حجرة ، فعجلوا أن يخرج إليهم رسول الله ﷺ فجعلوا ينادون الخ .. وهذا أصح ما ورد فيها *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الّذينَ آمنُوا إن جَاءَكُمْ فاسِقٌ بنَبأ فَتَبَيَّنُوا أنْ تصيبُوا قَوماً بجَهالةٍ فَتصبِحُوا علَى مَا فَعَلْتُمْ نادِمين** ﴾ * في ابن كثير : ذكر

كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حيث بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق قال : وقد روى ذلك من طرق ومن أحسنها ما رواه الامام أحمد في مسنده من رواية ملك بنى المصطلق . وهو الحارث بن ضرار بن أبي ضرار ، والد ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها . قال الامام أحمد : حدثنا محمد بن أبي سابق ، حدثنا عيسى بن دينار حدثني أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعى رضي الله عنه يقول : قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الاسلام ، فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت يا رسول الله : أرجع إليهم فأدعوهم إلى الاسلام وأداء الزكاة ، فمن استجاب لي دفعت زكاته ، وترسل إلي يا رسول الله رسولا إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة استجاب له ، وبلغ الابان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول ولم يأته ، وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطه من الله تعالى ورسوله ، فدعا سروات قومه ، فقال لهم : إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم كان قد وقت لي وقتا يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه ، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ . وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق . أي خاف ، فرجع حتى أتي رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله : إن الحارث قد منعني الزكاة ، وأراد قتلي ، فغضب رسول الله ﷺ ، وبعث البعث إلى الحارث رضي الله عنه ، وأقبل الحارث بأصحابه حتى استقبل البعث ، وفصل عن المدينة لقيهم الحارث ، فقالوا : هذا الحارث ، فلما غشيهم ، قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك ، قال : ولم ؟ قالوا إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعته الزكاة ، وأردت قتله ، قال رضي الله عنه : لا والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما رأيته بتة ، ولا أتاني فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : « منعت الزكاة وأردت قتل رسولي » ؟ قال : لا ، والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني ، وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول رسول الله ﷺ خشية أن يكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله : قال : فنزلت الحجرات : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن جاءَكُمْ فاسِقٌ بنبأ ...** ﴾ إلى قوله حكيم * وكذا في الواحدي في بعض رواياته *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإن طائِفَتان مِنَ المؤمِنِينَ اقتتلُوا فأصلحُوا بينهما** ... ﴾ في الواحدي : حدث اسحاق بن اسرائيل عن معتمر بن سليمان قال : سمعت أبي يحدث عن أنس قال : يا نبي الله : لو أتيت عبد الله بن أبي ، فانطلق إليه النبي ﷺ . قال : إليك عني . فوالله لقد آذاني نتن حمارك ، فقال رجل من الأنصار : لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحا منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ، وكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فبلغنا أنه أنزلت فيهم - ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقْتتلُوا** ... ﴾ الآية رواه البخاري عن مسدد ، ورواه مسلم عن محمد بن عبد الأعلى كلاهما عن المعتمر * وفي اللباب : وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن السدى قال : كان رجل من الأنصار يقال له عمران تحبه امرأة يقال لها أم زيد . وأن المرأة أرادت أن تزور أهلها ، فحبسها زوجها ، وجعلها في علية له ، وأن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها ، وكان الرجل قد خرج فاستعان بأهله ، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها ، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال فنزلت فيهم هذه الآية : ﴿ **وإن طَائِفتان من المؤمنين اقتتلُوا** ... ﴾ * وأخرج عن قتادة قال : ذكر لنا أن هذه الآية : نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مداراة في حق بينهما ، فقال أحدهما للآخر : لآخذن عنوة . لكثرة عشيرته . وإن الآخر دعاه إلى النبي ﷺ فأبي فلم يزل الأمر حتى تدافعوا ، وحتى تناول بعضهم بعضا بالأيدى والنعال ، ولم يكن قتال بالسيوف * والأول أصح ، وأصح منه القول بالعموم . للقاعدة : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها الذِينَ آمنُوا لاَ يَسْخَرْ قوْمٌ مِنْ قوْم عَسىٰ أن يَكُونُوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نِساءٍ عَسى أن يَكنّ خيْراً منهنّ** ... ﴾ . لنزول هذه الآية سببان : الأول : ﴿ **يا أيُّها الّذينَ آمنُوا لا يَسْخَر قوم من قومٍ** ... ﴾ نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس ، وذلك أنه كان في أذنه وقر فكان إذا أتي رسول الله ﷺ أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول . فجاء يوما وقد أخذ الناس مجالسهم ، فجعل يتخطى رقاب الناس . ويقول : تفسحوا تفسحوا . فقال له رجل : قد أصبت مجلسا فاجلس ، فجلس ثابت مغضبا ، فغمز الرجل فقال من هذا ؟ فقال : أنا فلان . فقال ثابت : ابن فلانة . وذكر أما كانت له يعير بها في الجاهلية . فنكس

الرجل رأسه استحياء * فأنزل الله تعالى هذه الآية : والثاني : نزلت في امرأتين من أزواج النبي ﷺ سخرتا من أم سلمة ، وذلك أنها ربطت حقويها بسبنية ، وهي ثوب أبيض ، وسدلت طرفها خلفها ، فكانت تجره ، فقالت عائشة لحفصة انظرى ما تجر خلفها كأنه لسان كلب ، فهذا كان سخريتهما * وقال انس : نزلت في نساء النبي ﷺ : عيرن أم سلمة بالقصر * وقال عكرمة عن ابن عباس : إن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت : إن النساء يعيرننى ويقلن يا يهودية بنت يهوديين ، فقال رسول الله ﷺ : هلا قلت : إن أبي هارون وإن عمي موسى ، وإن زوجي محمد . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ولاَ تنابزُوا بالألْقَابِ** ﴾ * في الواحدي : حدث الشعبي عن أبي جبيرة عن الضحاك عن أبيه وعمومته قالوا : قدم علينا النبي ﷺ ، فجعل الرجل يدعو للرجل ينبزه ، فيقال يا رسول الله إنه يكرهه فنزلت : ﴿ **ولا تنابَزُوا بالألقاب** .. ﴾ وفي اللباب : أخرج أصحاب السنن الأربعة عن أبي جبير بن الضحاك قال : كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة فيدعى ببعضها فعسى أي يكره فنزلت : ﴿ **ولا تنابَزُوا بالألقاب** ... ﴾ وكذا في المراغي والخازن . قال الترمذي حديث حسن . وفي ابن كثير : ورواه أبو داود عن موسى بن اسماعيل عن وهيب عن داود به *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ولا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً** ﴾ * في لباب السيوطي : أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : زعموا أنها نزلت في سلمان الفارسي ، أكل ، ثم رقد فنفخ ، فذكر رجل أكله ورقاده . فنزلت . ولم أجد غيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها النّاسُ إنّا خلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى** ... ﴾ الآية : في الواحدي : قال ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس . وقوله في الرجل الذي لم يفسح له ابن فلانة . فقال رسول الله ﷺ : من الذاكر فلانة ؟ فقام ثابت ، فقال : أنا يا رسول الله . فقال : انظر في وجوه القوم ، فنظر فقال : ما رأيت ياثابت ؟ فقال : رأيت أبيض وأحمر وأسود . قال : فإنك لا تفضلهم إلا في الدين والتقوى . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفيه . وقال مقاتل : لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالا حتى أذن على ظهر الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد بن أبي

العيص : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً ؟ وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئاً يغيره * وقال أبو سفيان : إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء . فأتى جبريل عليه السلام النبي ﷺ . وأخبره بما قالوا . فدعاهم وسألهم عما قالوا : فأقروا . فأنزل الله تعالى هذه الآية : وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال . والازدراء بالفقراء . وللواحدي أقوال غير ما ذكر . وفي اللباب : نزلت في أبي هند . أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجوه امرأة منهم ، فقالوا يا رسول الله : نزوج بناتنا موالينا . فنزلت الآية . وما ذكر في الخازن والقرطبي وغيرهما *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قَالَتِ الأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ولَمَّا يَدْخُلِ الإِيمٰانُ في قُلوبِكم** ... ﴾ . في الواحدي : نزلت في أعراب من بني أسد ابن خزيمة . قدموا على رسول الله ﷺ المدينة في سنة جدبة ، وأظهروا الشاهدتين ، ولم يكونوا مؤمنين في السر . وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات ، وأغلوا أسعارها ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأعطنا من الصدقة ، وجعلوا يمنون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية إلى قوله : ﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيكَ أَنْ أَسْلَمُوا** ... ﴾ وكذا في الخازن . وفي ابن كثير : عن ابن عباس رضي الله عنهما : قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله : أسلمنا وقاتلتك العرب ، ولم نقاتلك ، فقال رسول الله ﷺ : إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم ، ونزلت هذه الآية : ﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا** ... ﴾ الآية *

سورة قٓ وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ولقد خَلَقْنَا السَّمٰوٰاتِ والأَرْضَ ومٰا بيْنَهُما في سِتَّةِ أَيَّامٍ ومٰا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ** ﴾ * في الواحدي : حدث أبو بكر ابن عياش عن أبي سعد البقال عن عكرمة عن ابن عباس : أن اليهود أتت النبي ﷺ ، فسألت عن خلق السمٰوات والأرض ، فقال : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال

يوم الثلاثاء ، وخلق السموات يوم الأربعاء والخميس ، وخلق يوم الجمعة الشمس والقمر . قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد ؟ قال : ثم استوى على العرش ، قالوا : قد أصبت لو تممت ثم استراح ، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ، فنزلت — ﴿ **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسَّنا مِنْ لُغُوبٍ . فاصبِرْ علىَ ما يقُولُون** ... ﴾ ونحوه في ابن كثير عن قتادة ، وهو قول المفسرين كما في

سورة الذاريات وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وفَي أمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ والْمَحْرومِ** ﴾ . في لباب السيوطي : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الحنفية أن رسول الله ﷺ بعث سرية فأصابوا عيرا فجاء قوم بعد ما فرغوا فنزلت : ﴿ **وفي أموالهم حقٌّ لِلسائل والمحروم** ﴾ ولم يوجد غيره .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وذَكّرْ فإنَّ الذِّكْرَى تنْفَعُ الْمُؤْمِنين** ﴾ في اللباب : أخرج ابن منيع وابن راهويه والهيثم بن كليب في مسانيدهم من طريق مجاهد عن علي قال : لما نزلت ﴿ **فَتولَّ عنهم فَمَا أنتَ بملوم** ﴾ ولم يبق منا أحد إلا أيقن بالحكمة إذا أمر النبي ﷺ أن يتولى عنا فنزلت : ﴿ **وذكرْ فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ فطابت أنفسنا * وكذا في الخازن وهو قول المفسرين * وعبارتهم . لما نزلت هذه الآية — ﴿ **فتولّ عَنْهُمْ** ... ﴾ حزن رسول الله ﷺ واشتد ذلك على أصحابه ، وظنوا أن الوحي قد انقطع ، وأن العذاب قد حضر . إذ أمر النبي ﷺ أن يتولى عنهم فأنزل الله ﴿ **وذكر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ فطابت نفوسهم بذلك *

سورة الطور وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أمْ يقولُون شاعِرٌ نَترَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُوبِ** ﴾ * في اللباب : أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن قريشا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ . قال قائل منهم : احبسوه في وثاق . ثم تربصوا به المنون حتى

يهلك كما هلك من قبل من الشعراء : زهير والنابغة ، فإنما هو كأحدهم فأنزل الله في ذلك ﴿ **أم يقولون شاعر نتربّصُ به رَيْبَ المنون** ﴾ *

سورة النّجم وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **هُوَ أعْلَمُ بِكُمْ إذْ أنْشَأكَم مِنَ الْأرْض** ﴾ الآية . حدث الحارث بن زيد عن ثابت بن الحارث الأنصاري . قال : كانت اليهود تقول : إذ اهلك لهم صبى صغير : هو صديق . فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فقال : كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد ، فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية ﴿ **هُوَ أعْلَمُ بِكُمْ إذْ أنْشَأكُمْ من الْأرْضِ وإذْ أنْتُمْ أجِنَّةٌ في بطونِ أمهاتِكم ...** ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أفرأيتَ الّذِي تولّى وأعْطَى قليلاً وأكْدَى ...** ﴾ إلى آخر الآيات . في الواحدي : قال ابن عباس والسدى والكلبي والمسيب بن شريك : نزلت في عثمان بن عفان ، كان يتصدق وينفق بالخير . فقال له أخوه من الرضاعة : عبد الله بن أبي سرح : ما هذا الذي تصنع ؟! يوشك ألا يبقى لك شيء فقال عثمان : إن لي ذنوباً وخطايا ، وإني أطلب بما أصنع رضا الله سبحانه وتعالى ، وأرجوا عفوه ، فقال له عبد الله : أعطني ناقتك برحلها وأنا أحمل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه ، وأشهد عليه ، وأمسك على بعض ما كان يصنع من الصدقة فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ **أفرأيْتَ الّذِي تولّى ...** ﴾ إلى قوله : « يجزاه الجزاء الأوفى » . فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله * وقال مجاهد نزلت في الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه ، فعيره بعض المشركين ، وقال : لم تركت دين الأشياخ ، وضللتهم وزعمت أنهم في النار ؟ قال : إني خشيت عذاب الله . فضمن له إن هو أعطاه شيئا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله سبحانه وتعالى ، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان له ، ثم بخل ومنعه فأنزل الله تعالى هذه الآية * وبقية الأقوال نحو ما ذكر *

سورة القمر وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَت السَّاعةُ وانْشَقَّ الْقَمْرُ ﴾ . في الواحدي : قال عبد الله بن مسعود : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ . فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة سحركم . فاسألوه السفار . فسألوهم فقالوا : نعم ، قد رأينا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **اقتربتِ السَّاعةُ وانْشَقَّ القمر . وإن يَروْا آية يعرضُوا ويقُولُوا سِحر مستمر** ﴾ وأخرج الشيخان والحاكم واللفظ له عن ابن مسعود قال : رأيت القمر منشقاً شقتين بمكة قبل مخرج النبي ﷺ ، فقالوا : سَحر القمر . فنزلت ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ويُولُّونَ الدُّبرَ** ﴾ في اللباب : وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قالوا يوم بدر : نحن جمع فننتصر . فنزلت : ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنَّ الْمُجرمينَ في ضلالٍ وَسُعُرٍ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إنّا كل شيء خلقناهُ بِقَدرٍ** ﴾ قال أبو هريرة : جاءت قريش يختصمون في

٥ـــ ٢٠

القدر فأنزل الله تعالى - ﴿ **إنّ المجرمين في ضلالٍ وسُعر** ... ﴾رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن سفيان . وقال عطاء : جاء أسقف نجران إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد : تزعم أن المعاصي بقدر ، والبحار بقدر ، والسماء بقدر ، وهذه الأمور تجرى بقدر ، فأما المعاصى فلا . فقال رسول الله ﷺ : أنتما خصماء الله . فأنزل الله تعالى :﴿ **إنّ المجرمين في ضلال وسُعُر** ﴾ . إلى قوله : ﴿ **إن كُلّ شيء خلقناهُ بقدر** ﴾ *

سورة الرحمن وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** ﴾ * في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ . في كتاب العظمة عن عطاء . أن أبا بكر الصديق . ذكر ذات يوم القيامة والموازين والجنة والنار ، فقال : وددت أني كنت خضرا من هذه الخضر تأتي على بهيمة تأكلني ، وإني لم أخلق فنزلت : ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** ﴾ * . وهناك روايات تدل على أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه * وهي عامة في كل من يخاف قيامه بين يديه للحساب فترك معصيته *

سورة الواقعة وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **فلا أقسِمُ بِمَواقِعِ النُّجومِ ...** ﴾ . أخرج مسلم عن ابن عباس قال : أمطر الناس على عهد رسول الله ﷺ – فقال رسول الله ﷺ : أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر . قالوا : هذه رحمة وضعها الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نؤ كذا . فنزلت هذه الآيات : ﴿ **فَلاَ أُقْسِمُ بِمواقع النجوم** ﴾ . حتى بلغ : ﴿ **وتَجْعَلُون رزقكُم أنكم تكذبون** ﴾ .

سورة الحديد وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لا يستوى منكُمْ منْ أنفق منْ قبْلِ الْفَتْح ...** ﴾ * في الواحدي : قال ابن عمر بينما النبي ﷺ جالس وعنده أبو بكر الصديق ، وعليه عباءة قد خلها على صدره بخلال إذ نزل عليه جبريل عليه السلام . فأقرأه من الله السلام . وقال يا محمد : مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلها على صدره بخلال ، فال يا جبريل أنفق ماله قبل الفتح علي . قال : فأقرئه من الله سبحانه وتعالى السلام ، وقل له : يقول لك ربك : أراض أنت في مقرك هذا أم ساخط ؟ فالتفت النبي

ﷺ إلى أبي بكر فقال : يا أبا بكر : هذا جبريل يقرئك مِنَ الله سبحانه السلام ، ويقول لك ربك : أراضٍ أنت في مقرك هذا أم ساخط ؟ فبكى أبو بكر ، وقال : على ربي أغضب ؟ أنا عن ربي راضٍ ، أنا عن ربي راضٍ * ولم أجد غيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يأْنِ لِلّذِينَ آمنُوا أن تخشَعَ قلُوبُهُم لِذَكْرِ الله ...** ﴾ . في الواحدي : قال الكلبي ومقاتل : نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة ، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا : حدثنا عما في التوراة ، فإن فيها العجائب . فنزلت هذه الآية * وقال غيرهما نزلت في المؤمنين * وفي اللباب : أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد العزيز عن ابن رواد ، عن أصحاب النبي ﷺ : ظهر فيهم المزاح والضحك فنزلت : ﴿ **أَلَمْ يأْنِ لِلّذِينَ آمَنُوا أَنْ تخشع قُلُوبُهُمْ لِذكر الله ...** ﴾ وفي المراغي : روى ابن مسعود أنه قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعد أن كانوا في جهد جهيد ، فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه ، فعوتبوا فنزلت * وفيه : وعن ابن عباس أنه قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن : فقال : ﴿ **أَلَمْ يأنِ لِلّذينَ آمنُوا ...** ﴾ الآية أي ألم يأت وقته ؟

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أَيُّها الّذينَ آمنُوا اتّقوا الله وامِنُوا بِرَسُولِهِ يؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ...** ﴾ * في لباب السيوطي : وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال : لما نزلت : ﴿ **أولئك يؤتون أَجْرَهُمْ مرّتين بما صَبَروا ...** ﴾ الآية . ففخر مؤمنوا أهل الكتاب على أصحاب النبي ﷺ . فقالوا : لنا أجران ولكم أجر ، فاشتد ذلك على الصحابة ، فأنزل الله ﴿ **يا أيها الّذِينَ آمَنُوا اتقُوا الله ...** ﴾ الآية * . ولم أجد غيره وهو في المراغي بحرفه ولفظه .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لئلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ألاَّ يقْدِرُونَ على شيء ...** ﴾ . الآية . في اللباب : وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : بلغنا أنه لما نزلت : ﴿ **يُؤْتِكُم كفلَيْن مِنْ رحمته ...** ﴾ حسد أهل الكتاب المسلمين عليها ، فأنزل الله : ﴿ **لئلا يَعْلَمَ أهل الكتاب ...** ﴾ الآية . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : قالت اليهود : يوشك أن يخرج منا نبي فيقطع الأيدي والأرجل . فلما خرج من العرب كفروا . فأنزل الله : ﴿ **لئلا يعلم أهل الكتاب ...** ﴾ يعنى بالفضل والنبوة * ونحوه في الخازن *

سورة المجادلة وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وتشتكى إلى الله ...** ﴾ الآيات : في الواحدي : حدث عروة عن عائشة قالت : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء . إني لأسمع فكلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى علي بعضه ، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهي تقول يا رسول الله : أبلى شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى إذ كبر سني ، وانقطع ولدى ظاهر مني : اللهم إني أشكو إليك. قال : فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات ﴿ **قد سَمِعَ الله قَوْلَ الّتي تجادِلُكَ في زوجها وتشتكى إلى الله ...** ﴾ الآية . وقصتها في القرطبي والخازن بطولها فمن أحب الاطلاع عليها فليرجع إلى أحدهما *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ألم تَرَ إلى الّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجوىَ ثمَّ يَعُودُونَ لما نُهُوا عنه ...** ﴾ في الآية . في الواحدي : قال ابن عباس ومجاهد : نزلت في اليهود والمنافقين ، وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين ، ويتغامزون بأعينهم ، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا : ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السريا قتل أو موت ، أو مصيبة أو هزيمة ، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم ، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم . فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ ، فأمرهم أن يتناجوا دون المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك ، وعادوا إلى مناجاتهم فأنزل الله تعالى هذه الآيات * وفي اللباب : وأخرج أبي حاتم عن مقاتل بن حبان قال : كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة ، فكانوا إذا مر بهم رجل من أصحابه جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله ، أو ربما يكرهه، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا فأنزل الله : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إلى الدين نُهو عن النجوى ...** ﴾ وهكذا بقية الأقوال في التفاسير مع اختلاف أحيانا في التعبير *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإذَا جَاؤُكَ حيّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيكَ به الله ...** ﴾ الآية . في الواحدي : حدث مسروق عن عائشة قالت : جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : السَّام عليك يا أبا القاسم – يعنون الموت – فقلت : السام

عليكم . وفعل الله بكم فقال رسول الله ﷺ : مه يا عائشة فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش ، فقلت يا رسول الله : ألست تدرى ما يقولون ؟ قال : ألست ترين أرد عليهم ما يقولون . أقول وعليكم ، ونزلت هذه الآية في ذلك . ﴿ **وإذا جاؤك حيُّوك بما لَمْ يحيّك به الله** ... ﴾ الآية . وهكذا بقية الأقوال *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذِينَ آمَنوا إذا قِيلَ لكُمْ تَفسَّحُوا في الْمجَالِس** ... ﴾ الآية في اللباب والمراغي والكرخي والخازن ... * أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان قال : كان رسول الله ﷺ يوم جمعة في الصفة . وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار . فجاء ناس منهم ثابت بن قيس ، وقد سبقوا إلى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله ﷺ ، فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي ﷺ ، ثم سلموا على القوم فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فقال لبعض من حوله : قم يا فلان ، قم يا فلان ، فأقام نفراً بمقدار من قدم ، فشق ذلك عليهم ، وعرفت كراهيته في وجوههم ، وطعن المنافقون وقالوا : والله ما عدل على هؤلاء ، إن قوما أخذوا مجالسهم وأحبوا القربى منه أقامهم وأجلس من أبطأ عنه فنزلت الآية *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا إذا ناجَيْتُم الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بين يَدَيْ نجواكُمْ صدقةً** ... ﴾ الآية : في الواحدي : قال مقاتل بن حبان : نزلت الآية في الأغنياء ، وذلك أنهم كانوا يأتون النبي ﷺ فيكثرون مناجاته ، ويغلبون الفقراء على المجالس حتى مل رسول الله ﷺ ذلك من طول جلوسهم ومناجاتهم فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية ، وأمر بالصدقة عند المناجاة ، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئا وأما أهل الميسرة فبخلوا واشتد ذلك على أصحاب النبي ﷺ ، فنزلت الرخصة . وقال على ابن أبي طالب رضي الله عنه : إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيْتُم الرَّسُولَ** ... ﴾ كان لي دينار فبعته ، وكنت إذا ناجيت الرسول تصدقت بدرهم حتى نفذ ، فنسخت بالآية الأخرى : ﴿ **أأشفقْتُم أن تقدّمُوا بيْنَ يَدَىْ نجواكُم صَدَقَاتٍ فإذْ لم تفعلُوا وتاب الله عليكم فأقيمُوا الصلاة** ... ﴾ وفي اللباب : وأخرج من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه ، فأراد

الله أن يخفف عن نبيه فأنزل ﴿ **إذا ناجيتم الرَّسُول فَقَدِّمُوا بيْنَ يَدَىْ نجْواكُم صدقة ...** ﴾ الآية . وهناك أحاديث كثيرة في الموضوع منها الصحيحة والحسنة . وأكتفى بما ذكرت ففيه الكفاية في الفهم والدراية *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إلى الّلذينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ الله عَلَيهِمْ ...** ﴾ الآيات : إلى قوله : ﴿ **ويَحْسَبُونَ أنهُمْ على شئٍ إلاَ إنَّهُمْ هُمْ الكاذبُون** ﴾ في الواحدي : قال السدى ومقاتل : نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس النبي ﷺ ، ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، فبينما رسول الله ﷺ في جحره إذ قال : يدخل الآن عليكم رجل قلبه قلب جبار ، وينظر بعين شيطان ، فدخل عبد الله بن نبتل ، وكان أزرق ، فقال له رسول الله ﷺ : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ذلك . فقال النبي ﷺ : فعلت ، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . وكذا في الخازن ، وفي رواية ابن عباس : فقال رسول الله ﷺ : علام تشتمني أنت وفلان وفلان . نفر دعا بأسمائهم ، فانطلق الرجل فدعاهم ، فحلفوا بالله واعتذروا إليه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفُون لَهُ كما يحلفُون لكم ويحسبُون أنّهم على شيء ألا إنّهم هم الكاذبون** ﴾ * رواه الحاكم في صحيحه عن الأصم عن أبي عفان عن عمرو العنصرى عن إسرائل ، عن سماك *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُون بالله والْيَوْمَ الْآخِرِ يُوادُّون مَنْ حَادَّ الله ورسُوله ...** ﴾ * في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال : نزلت هذه الآية في ابي عبيدة بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر : ﴿ **لا تَّجدُ قوماً ...** ﴾ الآية . وفي الواحدي : وروى عن ابن مسعود أنه قال : نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجرَاح يوم أحد . وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز ، فقال يا رسول الله : دعنى أكن في الرعلة الأولى . فقال رسول الله ﷺ : متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري . وفي مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد ، وفي عمر قتل خاله العاصى بن هشام بن المغيرة يوم بدر ، وفي عليْ وحمزة قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر ، وذلك قوله : ﴿ **ولو كانُوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم** ﴾ *

سورة الحشر وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكتاب** ... ﴾ الآية في الواحدي : قال المفسرون : نزلت الآية في بني النضير ، وذلك أن النبي ﷺ لما قدم المدينة صالح بنو النضير على أن لا يقاتلوه ، ولا يقاتلوا معه ، وقبل رسول الله ﷺ منهم ، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرا وظهر على المشركين . قالت بنو النضير : والله إنه لنبي الذي وجدنا نعته في التوراة لا ترد له راية ، فلما غزا أحد وهزم المسلمون نقضوا العهد ، وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ والمؤمنين ، فحاصرهم رسول الله ﷺ ، ثم صالحهم عن الجلاء من المدينة ، وهناك روايات كثيرة في كتب التفسير والسير . أكتفى بما ذكرت للاختصار .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ** ... ﴾ الآية * لما نزل بنو النضير ، وتحصنوا في حصونهم أمر بقطع نخيلهم وإحراقها ، فجزع أعداء الله عند ذلك ، وقالوا : زعمت يا محمد أنك تريد الصلاح ، أفمن الصلاح عقر الشجر المثمر وقطع النخيل ؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض ؟ فشق ذلك على النبي ﷺ ، فوجد المسلمون في أنفسهم من قولهم ، وخشوا أن يكون ذلك فسادا في ذلك ، فقال بعضهم : لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا ، وقال بعضهم : بل اقطعوا فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ **ما قطعتُم من لِينةٍ أو تركتُموهَا قائمة علَى أصُولِها فبإذْن الله** ... ﴾ تصديقاً لمن نهى عن قطعه ، وتحليلا لمن قطعه ، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله * وفي رواية للشيخين عن قتيبة أن رسول الله ﷺ حرق نخل النضير وقطع ، وهي البويرة ، فأنزل الله - ﴿ **ما قَطَعْتُم مِنْ لِينَةٍ أو تركْتُموها** ... ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ** ... ﴾ الآية . في الواحدي : روى جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم أن الأنصار قالوا يا رسول الله : اقسم الثمرة بيننا وبين إخواننا من المهاجرين والأرض

نصفين . قال : ولكنهم يكفونكم المؤونة . وتقاسمونهم الثمرة ، والأرض أرضكم . قالوا : رضينا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **والذين تبوَّؤا الدَّار والإيمان مِنْ قَبْلِهِمْ يحبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إليهم ...** ﴾ الآية .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ويُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِمْ ولَوْ كانَ بِهِمْ خَصَاصة ...** ﴾ * في الواحدي : حدث فضيل بن غزوان بن أبي حازم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ دفع إلى رجل من الأنصار رجلا من أهل الصفة ، فذهب به الأنصاري إلى أهله . فقال للمرأة : هل من شيء ؟ قالت : لا ، إلا قوت الصيبية . قال : فنوميهم ، فإذا ناموا فأتيني ، فإذا وضعت فاطفيء السراج . قال : ففعلت ، وجعل الأنصاري يقدم إلى ضيفه ما بين يديه ، ثم غدا به إلى رسول الله ﷺ . فقال : لقد عجب من فعالكما أهل السماء . ونزلت : ﴿ **ويُؤْثِرُونَ علَى أَنْفُسِهِمْ ولَو كانَ بِهِمْ خَصَاصة ...** ﴾ رواه البخاري عن مسدد عن عبد الله بن داود . ورواه مسلم عن أبي كريب عن وكيع ، فكلاهما عن فضيل بن غزوان . وفي رواية عبد الله بن الوليد عن محارب بن دثار ، عن عبد الله بن عمر قال : أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة ، فقال : إن أخى فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا ، فبعث به إليه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداوله سبعة أهل أبيات حتى رجعت إلى أولئك قال : فنزلت : ﴿ **ويؤثرون علَى أَنْفُسِهِمْ ...** ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإخوانِهِمْ الّذِينَ كَفَرُوا ...** ﴾ الآية : في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى قال : أسلم ناس من أهل قريظة ، وكان فيهم منافقون ، وكانوا يقولون لأهل النضير : لئن أخرجتم لنخرجن معكم .. فنزلت الآية فيهم *

سورة الممتحنة وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أَيُّها الّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتخِذُوا عَدُوِّى وعَدُوَّكم أولياء ...** ﴾ . الآية . قال جماعة من المفسرين : نزلت في حاطب بن بلتعة ، وذلك أن سارة مولاة بن أبي صهيب بن هشام بن عبد مناف . أتت رسول الله ﷺ من

مكة إلى المدينة ورسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة ، فقال لها : أمسلمة جئت ؟ قالت : لا ، قال : فما جاء بك ؟ قالت : أنتم الأهل والعشيرة والموالي ، وقد احتجت حاجة شديدة ، فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني . قال لها : فأين أنت من شباب أهل مكة ؟ وكانت مغنيةً . قالت : ما طلب مني شيء بعد وقعت بدر . فحث رسول الله ﷺ بني عبد المطلب فكسوها وحملوها وأعطوها . فأتاها حاطب بن أبي بلتعة ، وكتب معها إلى أهل مكة ، وأعطاها عشرة دنانير على أن توصله لأهل مكة ، وكتب في الكتاب : من حاطب إلى أهل مكة . إن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم ، فخرجت سارة . ونزل جبريل عليه السلام . فأخبر النبي ﷺ بما فعل حاطب ، فبعث رسول الله ﷺ عليا وعمارا والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود ، وأبو مرثد ، وكانوا كلهم فرسانا ، وقال لهم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن فيها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها وخلوا سبيلها ، فإن لم تدفعه فاضربوا عنقها ، فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان ، فقالو لها : أين الكتاب ؟ فحلفت بالله ما معها كتاب ، ففتشوا متاعها ، فلم يجدوا معها كتاباً ، فهموا بالرجوع ، فقال علي : والله ما كذبنا ولا كذبنا رسول الله ، وسل سيفه ، وقال : اخرجي الكتاب وإلا والله لأجزرنك ولأضربن عنقك . فلما رأت الجد أخرجته من زؤابتها قد خبأته في شعرها . فخلوا سبيلها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ . فأرسل رسول الله ﷺ إلى حاطب فأتاه . فقال : هل تعرف الكتاب ؟ قال : نعم ، قال : فما حملك على

ما صنعت ؟ فقال يا رسول الله : والله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتُك ، ولا أجبتهم منذ فارقتهم ، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشريته ، وكنت غريباً فيهم ، وكان أهلي بين ظهرانيهم ، فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يداً ، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه ، وكتابي لا يغني عنهم شيئاً فصدقه رسول الله ﷺ وعذره . فنزلت هذه السورة : ﴿ **يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أوْلِيَاءَ** ... ﴾ ..فقام عمر بن الخطاب فقال : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . رواه البخاري ومسلم بألفاظ تقارب هذه الرواية * وكذا في القرطبي والخازن بحرفه ولفظه *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قَدْ كانتْ لكُمْ أسْوَةٌ حسَنَةٌ في ابْرَاهيمَ والَّذِينَ مَعَهُ إذْ قَالُوا لِقَومِهِمْ إنّا بُرَآؤا مِنْكُمْ وَمِمّا تَعْبُدُون مِنْ دُون الله ...** ﴾ إلى قوله : ﴿ **مودّة** ﴾ قال الواحدي : لما نزلت هذه الآية عاد المؤمنون أقرباءهم المشركين في الله وأظهروا لهم العداوة والبراءة ، وعلم الله تعالى شدة وجد المؤمنين بذلك ، فأنزل الله- ﴿ **عَسَى الله أنْ يَجْعَلَ بيْنكمْ وبيْنَ الّذِينَ عاديْتُم مِنهُمْ مودّة ...** ﴾ ثم فعل ذلك بأن أسلم كثير منهم ، وصاروا لهم أولياء وإخوانا ، وخالطوهم ، وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، فلان لهم أبو سفيان ، وبلغه ذلك الفحل لا يقرع أنفه *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لاَ يَنْهَاكُمْ الله عَن الّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِيَ الدِّينِ ولَمْ يُخرِجُوكُمْ مِنْ دِيٰارِكُمْ أنْ تَبَرُّوهُمْ وتُقْسِطُوا إليهم ...** ﴾ * في الواحدي : روى عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا وضباب وسمن وأقط ، فلم تقبل هداياها ولم تدخلها منزلها ، فسألت لها عائشة النبي ﷺ عن ذلك ، فقال : ﴿ **لا يَنْهٰاكُمْ الله عَنِ الّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ في الدِّين ولَمْ يُخرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أنْ تبرُّوهُمْ وتُقْسِطُوا إليهم إنَّ الله يُحبُّ المقسطينَ** ﴾ * فأذن في برهم حكاه المفسرون . وهل هى منسوخة أو محكمة ؟ قال أكثر أهل التأويل : هي محكمة واحتجوا بما ذكر ، أن أسماء بنت أبي بكر الصديق سألت النبي ﷺ هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة . قال : نعم ، خرجه البخاري ومسلم * وكذا في اللباب . والقرطبي *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا إذاجاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهاجراتٍ فَامْتحِنُوهُنَّ الله أعْلَمُ بإيمٰانِهِنّ ...** ﴾ الآية . في الواحدي : قال ابن عباس : إن مشركي مكة صالحوا رسول الله ﷺ عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم ، ومن أتى من أهل مكة من أصحابه فهو لهم . وكتبوا بذلك الكتاب وختموه ، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبي ﷺ بالحديبية ، فأقبل زوجها وكان كافراً ، فقال يا محمد : رد علي امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا ، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد . فأنزل الله تعالى هذه الآية . وهكذا فحوى الأقوال في التفاسير وهو بلفظه وحرفه في الخطيب . وفي البيضاوى :

فاستحلفها رسول الله ﷺ فحلفت ، فأعطى زوجها ما أنفق ، وتزوجها عمر بن الخطاب *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ولَا تُمْسكُوا بِعِصَمِ الكَوافِرِ ﴾ . في اللباب : وأخرج ابن منيع من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : أسلم عمر بن الخطاب ، فتأخرت امرأته في المشركين ، فأنزل الله : ﴿ ولاَ تُمْسِكُوا بِعِصمِ الكَوافِرِ ﴾ * أي زوجاتكم لقطع إسلامكم لها هذا إذا كانت مشركة تعبد الأصنام .. أما إذا كانت كتابية لا ينقطع نكاحها *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قوماً غَضِبَ الله عَلَيهِمْ قد يئسُوا مِنَ الآخرة كما يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ أصحْابِ القُبُور ﴾ * في اللباب : وأخرج ابن المنذر عن طريق ابن اسحاق عن محمد عن عكرمة ، وأبو سعيد عن ابن عباس قال : كان عبد الله بن عمر وزيد بن الحارث يودون رجالا من اليهود ، فأنزل الله : ﴿ يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا لاَ تَتولَّوْا قَوْماً غضِبَ الله عَلَيْهِمْ ... ﴾ * وفي الكرخي سبب نزولها . أن ناسا من فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود بأخبار المسلمين ليصيبوا من ثمارهم * وكذا في الخازن *

سورة الصف وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لله ما في السَّمٰوات ومٰا في الْأَرْضِ وهُوَ الْعَزيزُ الحكيمُ ﴾ * . في الواحدي : عن عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفر من أصحاب النبي ﷺ ، وقلنا : لو نعلم أي أحب إلى الله تبارك وتعالى عملناه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لله مَا في السَّمٰوات ومٰا في الْأَرْضِ وهُوَ العَزيزُ الحكيمُ ﴾ إلى قوله — ﴿ إنّ الله يُحبُّ الّذينَ يُقَاتلُونَ في سبيلِهِ صفّاً ﴾ — إلى آخر السورة . فقرأها علينا رسول الله ﷺ . وفي الخازن : قال المفسرون : لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناه ، ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إنَّ الله يُحبُّ الّذِينَ يقاتِلُوْنَ في سبيلِهِ صفاً ﴾ وأنزل : ﴿ هَلْ أدُلُّكُمْ على تجارة ... ﴾ الآية فاختبرو بذلك

يوم أحد فولوا مدبرين . وكرهوا الموت ، وأحبوا الحياة فأنزل الله تعالى : ﴿ **لِمَ تقُولُونَ ما لاَ تفعَلُون** ﴾ ونحوه في القرطبي * وهي في اللباب *

سورة الجمعة وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإذَا رأوْا تِجَارَةْ أوْ لَهْوا انْفضُّوا إليْهَا وَتَرَكُوكَ قائِماً ...** ﴾ في الواحدي : روى حصين بن عبد الرحمن عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الرحمن قال : كان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذا أقبلت عير قدمت ، فخرجوا إليها حتى لم يبق معه إلا اثنا عشر رجلا فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ **وإذا رأوْا تجارة ...** ﴾ الآية رواه البخاري عن حفص بن عمر عن خالد بن عبد الله عن حصين * وقال المفسرون : أصاب أهل المدينة أصحاب الضرار جوع وغلاء سعر ، فقدم دحية بن خليفة الكلبي في تجارة من الشام ، وضرب لها طبل يؤذن الناس بقدومه ، ورسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة ، فخرج إليه الناس فلم يبق في المسجد إلا إثنا عشر رجلا منهم أبو بكر وعمر ، فنزلت الآية . فقال النبي ﷺ : والذي نفسى بيده لو تتابعتم حتى لم يبق أحد منكم لسال بكم الوادى ناراً . رواه البخاري في كتاب الجمعة عن معاوية بن عمر ، وعن زائدة كلاهما عن حصين . وفي اللباب : وأخرج ابن جرير قال : كان الجوارى إذا نكحو كانوا يمرون بالكير والمزامير ، ويتركون النبي ﷺ . قائما على المنبر ، وينفضون إليها فنزلت : قال السيوطي : وكأنها نزلت في الأمرين معاً ، وقال : ثم رأيت ابن المنذر أخرجه عن جابر لقصة النكاح ، وقدوم العير معاً من طريق واحد . وأنها نزلت في الأمرين *

سورة المنافِقُون وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر أهل التفسير والسير غزا رسول الله ﷺ بني المصطلِق، فنزل على ماء من مياههم يقال له الْمُرَيْسيع ، فوردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير من بني

غفار يقال له.جهجاه بن سعيد يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان الجهني حليف بن العوف من الخزرج على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهني يا معشر الأنصار : وصرخ الغفاري يا معشر المهاجرين فلما أن جاء عبد الله بن أبي قال ابنه : وراءك . قال : مالك ويلك . قال : لا والله لا تدخلها أبداً إلا بإذن رسول الله ﷺ ما صنع ابنه ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ . فدخل ونزلت هذه وبان كذبه . قيل له : يا أبا حباب إنه قد نزلت فيك آى شداد ، فاذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لك ، فلوى رأسه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيلَ لَهُمْ تعالُوا يَسْتَغفر لكُمْ رسولُ الله لَوَّوْا رؤسهم ...** ﴾ الآية * . وفي القرطبي روى زيد بن أرقم قال : كنت مع عمي ، فسمعت عبد الله بن أبي بن سلول يقول : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فذكرت ذلك لعمي ، فذكر ذلك عمى لرسول الله ﷺ ، فأرسل رسولاً إلى عبد الله بن أبي وأصحابه ، فحلفوا ما قالوا فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبني ، فأصابني هم لم يصبني مثله . فجلست في بيتى فأنزل الله عز وجل : ﴿ **إذا جاءَكَ المنافقُون قالوا نشهَدُ إنكَ رسولُ الله** ﴾ إلى قوله : ﴿ **هُمْ الّذِينَ يَقُولُون لا تُنفِقُوا علَى مَنْ عِنْدَ رسولَ الله حتّى ينفضُّوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ليخرجنّ الأعزّ منها الأذَلّ** ﴾ . فأرسل إلي رسول الله ﷺ ، ثم قال : إن الله قد صدقك . خرجه الترمذي . وقال : حديث حسن صحيح *

سورة التغابن وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أَيُّها الّذِينَ آمَنُوا إنَّ مِنْ أزواجِكُمْ وأولادِكُمْ عدّواً لكُمْ ...** ﴾ الآية . في الواحدي : قال ابن عباس : كان الرجل يسلم فإذا أراد أن يهاجر منعه أهله وولده . وقالوا :ننشدك الله أن تذهب فتدع أهلك وعشيرتك وتصير إلى المدينة بلا أهل ولا مال ، فمنهم من يرق لهم ويقيم ولا يهاجر . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي الخازن عن ابن عباس أن رجالا أسلموا من أهل مكة ، وأرادوا أن يهاجروا إلى النبي ﷺ فمنعهم أزواجهم وأولادهم . وقالوا لهم . صبرنا على إسلامكم فلا صبر لنا على فراقكم فأطاعوهم وتركوا الهجرة * وفيه . وقال عطاء بن

يسار : نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد . فأراد أن يغزو . فبكوا إليه ورفقوه ، وقالوا له إلى من تدعنا فرق عليهم وأقام عن الغزو *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإنْ تُعفُوا وَتصفحُوا فإنَّ الله غفُورٌ رحيمٌ** ﴾ * في الواحدي : قال عكرمة عن ابن عباس : وهؤلاء الذين منعهم أهلهم عن الهجرة لما هاجروا . ورأوا الناس قد فقهوا في الدين . هموا أن يعاقبوا أهليهم الذين منعوهم فأنزل الله تعالى : ﴿ **وإن تعفُوا وتصفْحُوا** ... ﴾ الآية . أي يعاقبوا أهليهم بترك الانفاق عليهم *

سورة الطلاق وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها النبيُّ إذَا طَلَّقتُمْ النسَاءَ فطلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ** . ﴾ الآية . في الواحدي : والقرطبي روى قتادة عن ابن عباس قال : طلق رسول الله ﷺ حفصة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقيل له راجعها فإنها صوامة قوامة ، وهي من إحدي أزواجك ونسائك في الجنة * وقال السدى : نزلت في عبد الله بن عمر . ذلك أنه طلق امرأته حائضا . فأمره رسول الله ﷺ أن يراجعها ويمسكها حتى تطهر ثم تحيض حيضة أخرى ، فإذا طهرت طلقها إن شاء . قبل أن يجامعها . فإنها العدة التى أمر الله بها *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاًوَيَرْزُقْهُ مِنْ حيْثُ لا يَحْتَسبُ** ... ﴾ * في الواحدي وفي الخطيب : قال أكثر المفسرين : نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأشجعي . أسر المشركون ابنا له يسمى سالما ، فأتي عوف إلى رسول الله ﷺ يشتكي إليه الفاقة . وقال : إن العدو أسر ابني وجزعت الأم فما تأمرني . فقال رسول الله ﷺ : اتق الله واصبر . وآمرك وإياها أن تستكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله . فعاد إلى بيته ، وقال لامرأته : إن رسول الله ﷺ أمرني وإياك أن نكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . فقالت : نعم ما أمر به ، فجعلا يقولان ، فغفل العدو عن ابنه فساق غنمهم ، وجاء بها إلى المدينة ، وهي أربعة آلاف شاة ، فنزلت الآية ، وجعل النبي ﷺ تلك الأغنام له *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **والّائي يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِنَ نِسَاءِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهنَّ ثلاثة أشهر** ﴾ الآية. في الكرخي: لما نزل بيان عدة ذوات الأقراء في سورة البقرة . قال بعض الصحابة : قد بقى الكبار ، والصغار لا يدرى كم عدتهن فنزلت هذه الآية على هذا السبب * وفي الواحدي : قال مقاتل : لما نزلت : ﴿ **والمطلقات يتربصْنَ بأنفسِهِن** ﴾ الآية قال خلاد بن النعمان بن قيس الأنصاري يا رسول الله : فما عدة التى تحيض وعدة التى لم تحض ، وعدة الحبلى ، فأنزل الله تعالى هذه الآية *

سورة التحريم وبيان ما فيها من سبب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها النبيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مٰا أحلَّ الله لك تَبْغِتَى مَرْضاتَ أَزْواجِكَ والله غفورٌ رحيمٌ ...** ﴾ . في الخطيب : أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه ، فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبويها ، فأذن لها ، فلما خرجت أرسل إلى جاريته مارية القبطية التى أهداها له المقوقس ملك مصر . فأدخلها بيت حفصة فوقع عليها ، فلما رجعت حفصة ، وجدت الباب مغلقاً ، فجلست عند الباب فخرج النبي ﷺ ووجهه يقطر عرقا وحفصة تبكى ، فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : إنما أذنت لي من أجل ذلك !! أدخلت أمتك بيتى ، ثم وقعت عليها في يومي على فراشي . أما رأيت لي حرمة وحقاً . فقال .: أليست هي جاريتى قد أحلها الله لي . وهي حرام علي . ألتمس بذلك رضاك . ولا تخبرى امرأة منهن ، فلما خرج قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة ، فقالت : ألا أبشرك أن رسول الله قد حرم عليه أمته مارية ، وأن الله قد أراحنا منها . وأخبرتها بما رأت ، وكانت متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي ﷺ . فنزلت الآية . وهناك روايات كثيرة متفقة المعنى متقاربة اللفظ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنْ تَتُوبَا إلى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ...** ﴾ الآية * في الواحدي : حدث الزهري عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : وجدت رسول الله ﷺ مع أم ابراهيم في يوم عائشة ، فقالت لأخبرنها ،

فقال رسول الله ﷺ هي علي حرام إن قربتها ، فأخبرت عائشة بذلك ، فأعلم الله رسوله ذلك . فعرّف حفصة بعض ما قالت ، فقالت له : من أخبرك ؟ قال : نبأني العليم الخبير . فآلى رسول الله ﷺ من نسائه شهراً . فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ **إنْ تتُوبا إلى الله فقد صَغَتْ قلُوبكما** ... ﴾ الآية * أي مالت إلى تحريم مارية . أي سرَّكما ذلك مع كراهة النبي ﷺ له ، وذلك ذنب أمرها الله بالتوبة منه *

سورة الملك وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وأسِرُوا قوْلكُمْ أو اجهَرُوا بِهِ** ... ﴾ الآية * في الواحدي : قال ابن عباس : نزلت في المشركين ، كانوا ينالون من رسول الله ﷺ ، فخبره جبريل عليه السلام بما قالوا فيه ، ونالوا منه ، فيقول بعضهم لبعض : أسروا قولكم لئلا يسمع محمد ، فنزلت الآية * وكذا رواه الجلال والخازن وغيرهما *

سورة القلم وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **مَا أنْتَ بنعْمةِ ربِّكَ بمجنُون** ... ﴾ في لباب السيوطي : أخرج ابن المنذر عن ابي جريج قال : كانوا يقولون للنبي ﷺ إنه مجنون . فنزلت : ﴿ **ما أنتَ بنعمة ربّك بمجنون** ﴾ وهي واضحة المعني *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ولاتُطِعْ كُل حلاَّفٍ مَهين** ﴾ في اللباب : نزلت في الأخنس بن شريق * وقال مجاهد : نزلت في الأسود بن عبد يغوث *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإنْ يكادُ الّذِينَ كفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بأبْصَارِهِمْ** ... ﴾ الآية نزلت حين أراد الكفار أن يعينوا رسول الله ﷺ يالعين ، فنظر إليه قوم من قريش ، فقالوا : ما رأينا مثله ، ولا مثل حججه ، وكانت العين في بني أسد حتى أن كانت الناقة السمينة والبقرة السمينة تمر بأحدها فيعينها ، ثم يقول : يا جارية خذي المكتل والدرهم فأتينا بلحم من لحم هذه ، فما تبرح حتى تقع بالموت فتنحر *

وقال الكلبى : كان رجل يمكث لا يأكل يومين أو ثلاثة ، ثم يرفع جانب خبائه ، فتمر به النعم فيقول : ما رؤى اليوم إبل ولا غنم أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قريبا حتى يسقط منها طائفة وعدة ، فسأل الكفار هذا الرجل يصيب رسول الله ﷺ بالعين ، ويفعل به مثل ذلك ، فعصم الله تعالى بنبيه وأنزل هذه الآية . ونحوه في الخطيب ذكره الماوردى * وقال الحسن البصرى : دواء الاصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية على المعيون * ولا يوجد في الحاقة إلا قول ضعيف لم أذكره .

سورة المعارج وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **سَأَلَ سائِل بِعَذٰبِ واقِع** ... ﴾ الآيات * في الواحدي والجلال نزلت في النضر بن الحارث حين قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء . فدعا على نفسه وسأل العذاب ، فنزل به ما سأل يوم بدر فقتل صبراً . ونزل فيه : ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع** ﴾ وفي الخطيب أقوال غير هذا : وقيل هو الحارث بن النعمان ، وذلك أنه لما بلغه قول النبي ﷺ لعلي : من كنت مولاه فعلي مولاه ، ركب ناقته فجاء حتى أناخ راحلته بالأبطح ، ثم قال يا محمد : أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقبلناه منك وأن نحج فقبلناه منك ، وأن نصوم شهر رمضان في كل عام فقبلناه منك ، ثم لم ترض حتى فضلت ابن عمك علينا ، أفهذا شيء منك أم من عند الله تعالى : فقال النبي ﷺ : والذى لا إله إلا هو ، ما هو إلا من الله ، فولى الحارث وهو يقول : اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء . فوالله ما وصل إلى ناقته حتى رماه الله بحجر فوقع على دماغه فخرج من دبره فقتله فنزلت * وقال الربيع : هو أبو جهل * وقيل : إنها نزلت في جماعة من كفار قريش * وقيل : هو نوح عليه السلام سأل العذاب على الكافرين *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَيَطْمَعُ كُلُّ امرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخل جنّة نَعِيم** ﴾ * قال المفسرون : كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه

ولا ينتفعون به ، بل يكذبون به ، ويستهزؤن ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم ، وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم . فأنزل الله تعالى هذه الآية *

سورة الجنّ وبيان ما فيها من سبب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ** ... ﴾ الآيات * في اللباب : وأخرج البخاري والترمذي وغيرهما عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم ، ولكنه انطلق في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب فرجعوا إلى قومهم فقالوا : ما هذا إلا لشيء قد حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فأنظروا هذا الذي حدث ، فانطلقوا ، فانصرف النفر الذي توجهوا نحو تهامه إلى رسول الله ﷺ ، وهو بنخلة يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم . فقالوا : يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا . فأنزل الله على نبيه : ﴿ **قُلْ أوحِيَ إليَّ** ... ﴾ الآيات ، وإنما أوحى إليه قول الجن *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وأنَّهُ كانَ رِجَالٌ مِنَ الإنْسِ يعُوذُونَ بِرجَالٍ مِنَ الْجِن فَزادُوهُم رهقاً** ﴾ . في اللباب : وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عن كرزم بن أبي السائب الأنصارى قال : خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ ، فآوانا المبيت إلى راعى غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم ، فوثب الراعى ، فقال : عامر الوادى جارك ، فنادى مناد لا نراه : يا سرحان ، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم وأنزل على رسول بمكة : ﴿ **وأنّه كان رجالٌ مِنَ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الجنِّ** ... ﴾ ونحو هذا بقية الأقوال *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وأنْ لَو اسْتَقَامُوا علَى الطّرِيقة لأسْقينَاهُمْ مَاءً غَدَقا** ﴾ * في اللباب : نزلت في كفار قريش حين منع المطر سبع سنين *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وأنّ الْمَسَاجِدَ لله فَلا تدعُوا مَعَ الله**

أحداً ﴾ في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي صالح عن ابن عباس قال : قالت الجن يا رسول الله : ائذن لنا نشهد معك الصلوات في مسجدك فأنزل الله تعالى : ﴿ **وأنّ المساجدَ لله فلا تدعُوا مَعَ الله أحداً** ﴾ وفي ابن كثير بعد أن أورده عن الأعمش يقول : صلوا لا تخالطوا الناس . وفيه وعن سعيد بن جبير قال : قالت الجن للنبي ﷺ : كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن ناؤن ؟ أي بعيدون عنك : وكيف نشهد الصلاة ونحن ناؤن عنك . فنزلت الآية *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إني لَنْ يُجِيرني من الله أحدٌ** ... ﴾ في اللباب : وأخرج ابن جرير عن حضرمى أنه ذكر له . أن جنيا من الجن من أشرافهم ذا تبع قال : إنما يريد محمد أن يجيره الله وأنا أجيره . فأنزل الله الآية *

سورة المزمّل وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها المزَّمِّلُ** ... ﴾ * في اللباب : أخرج البزار والطبراني بسند رواه عن جابر . قال : اجتمعت قريش في دار الندوة . فقالت : سموا هذا الرجل اسما يصدر عنه الناس . قالوا : كاهن ، قالوا : ليس بكاهن ، قالوا : مجنون ، قالوا : ليس بمجنون . قالوا : ساحر . قالوا : ليس بساحر ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فتزمل في ثيابه ، فتدثر فيها ، فأتاه جبريل فقال : ﴿ **يا أيُّها المزّمِّلُ – يا أيُّها المدّثر** ﴾ * قلت : والمعروف أن نزول هذا كان في ابتداء ما أوحى إليه ، فإنه ﷺ لما جاءه الوحى في غار حراء ، رجع إلى خديجة : زوجه ، يرجف فؤاده ، فقال : زملوني زملوني . لقد خشيت على نفسى أن يكون هذا مبادى شعر أو كهانة ، وكل ذلك من الشيطان . وأن يكون الذي ظهر بالوحى ليس الملك . وكان ﷺ يبغض الشعر والكهانة غاية البغض ، فقالت له خديجة ؛ وكانت وزيرة صدق رضى الله تعالى عنها : كلا والله لا يخزيك الله أبدا إنك تصل الرحم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق . ونحو هذا فأنزل الله تعالى الآية * هذا هو المشهور من أقوال المفسرين *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **فاقرؤا ما تيسّر منه** ﴾ الآية * في اللباب : وأخرج الحاكم عن عائشة قالت : لما نزلت : ﴿ **يا أيُّها المزّمِّلُ قُمِ اللّيْلَ إلا**

قليلاً ﴾ قاموا سنة حتى ورمت أقدامهم فأنزلت : ﴿ فاقرؤا ما تيسَّر منهُ ﴾ * أي بأن تصلوا ما تيسر . أي فالمراد بالقراءة الصلاة نفسها من اطلاق الجزء على الكل *

سورة المدثر وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها المدّثر قمْ فأنْذِرْ * وربَّكَ فكبّرْ * وثيابَكَ فطَهّرْ ﴾ * في الواحدي : روى أبو سلمة عن جابر قال : حدثنا رسول الله ﷺ فقال : جاورت بحراء شهراً ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادى ، فنوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالى فلم أر أحداً ، ثم نوديت فرفعت رأسى ، فإذا هو على العرش في الهواء : يعنى جبريل عليه السلام ، فقلت : دثرونى دثرونى ، فصبوا علي ماء . فأنزل الله عز وجل - ﴿ يا أيُّها المدّثّر قَمْ فأنْذِرْ * وربَّكَ فكبّرْ * وثيابَكَ فطهّرْ ... ﴾ رواه زهير بن حرب ، عن الوليد بن مسلم عن الأوزاعى *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ذرْنِي ومَنْ خلَقْتُ وحيداً ... ﴾ الآيات : في الواحدي : روى عكرمة عن ابن عباس قال : إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن ، كأن رق له ، فبلغ ذلك أبو جهل ، فأتاه . فقال يا عم : إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه . فإنك أتيت محمداً لتتعرض لنا قبله ؟ قال : لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً . قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له ، وأنك كاره له ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده . ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ووالله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمنير أعلاه مشرق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته ، قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعنى حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر بأثره عن غيره فنزلت :

﴿ ذرْني ومَنْ خلَقْتُ وحيداً ﴾ الآية . اسناده صحيح على شرط البخاري . وفي الواحدي : قال مجاهد : إن الوليد بن المغيرة كان يغشى النبي ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه حتى حسبت قريش أنه يسلم ، فقال له أبو جهل : إن قريش تزعم أنك إنما تأتي

محمداً وابن أبي قحافة تصيب من طعامهما ، فقال الوليد لقريْش : إنكم ذو أحساب وأحلام ، وأنكم تزعمون أن محمداً مجنون ، وهل رأيتموه يتكهن قط ؟ قالوا : اللهم لا . قال : تزعمون أنه شاعر ، هل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا : لا ، قال : فتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ قالوا : لا ، قالت قريش للوليد : فما هو ؟ قال : فما هو إلا ساحر ، وما يقوله سحر . فذلك قوله تعالى ﴿ **إنّه فكَّرّ وقَدر** ﴾ . إلى قوله : ﴿ **إنْ هذا إلاَّ سِحْرٌ يؤثر** ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **عليها تسعةَ عَشَرَ** ﴾ * في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن البراء أن رهطا من اليهود سألوا رجلا من أصحاب النبي ﷺ عن خزنة جهنم ، فجاء فأخبر النبي ﷺ فنزلت عليه ساعتئذ ﴿ **عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** ﴾ الآية . أي ملكاً ، أو نقيبا ، وقيل : تسعة عشر ألف ملك . وفي القرطبي : قلت والصحيح إن شاء الله إن هؤلاء التسعة عشر هم الرؤساء والنقباء *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وما جَعَلْنَا أصْحَابَ النَّار إلاَّ ملائكةً وما جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كفَرُوا** ﴾ في اللباب : وأخرج عن ابن اسحاق قال : قال أبو جهل يوما : يا معشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عدداً ،أفيعجز مائة رجل منكم عن رجل منهم . فأنزل الله : ﴿ **وما جَعَلْنَا أصْحَابَ النَّار ...** ﴾ الآية . وأخرج عن السدى قال : لما نزلت : ﴿ **عليها تسعة عشر** ﴾ قال رجل من قريش ؛ يدعى أبا الأشد يا معشر قريش : لا يهولنكم التسعة عشر ؛ أنا أرفع عنكم بمنكبى الأيمن عشرة ، وبمنكبى الأيسر التسعة ، فأنزل الله ﴿ **وما جَعَلْنَا أصحابَ النَّارِ إلاَّ ملائكة ...** ﴾ الآية .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **بَلْ يُريدُ كُلُّ امْرِيءٍ منْهُمْ أنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً** ﴾ * في اللباب : وأخرج ابن المنذر عن السدى قال : قالوا : لئن كان محمد صادقاً فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة وأمنة من النار . فنزلت : ﴿ **بل يريدُ كُلُّ امْرِيءٍ مِنهم أنْ يؤْتى صحفاً منشَّرة** ﴾ *وفي الخطيب : أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا يا محمد : لن نؤمن بك حتى تأتى كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه من ربِّ العالمين إلى فلان بن فلان ، ونؤمر فيه باتباعك * ونحو الآية قولهم : ﴿ **لن نؤمن لك حتّى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه** ﴾ . وقال الكلبي : إن المشركين

قالوا يا محمد : بلغنا أن الرجل من بنى إسرائيل كان يصبح مكتوبا عند رأسه ذنبه وكفارته ، فأتنا بمثل ذلك ، وقالوا : إذا كانت ذنوب الانسان تكتب عليه فما لنا لا نرى ذلك ؟ *

سورة القيامة وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَنْ نَجمَعَ عِظَامَهُ** ﴾ * نزلت الآية في عمر بن ربيعة وذلك أنه أتى النبي ﷺ ، فقال : حدثنى عن يوم القيامة متى يكون ، وكيف أمرها وحالها ، فأخبره النبي ﷺ بذلك ، فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ، ولم أؤمن به . أو يجمع الله هذه العظام . فأنزل الله تعالى هذه الآية *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ...** ﴾ * أخرج البخاري عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى يحرك به لسانه يريد أن يحفظه ، فأنزل الله : ﴿ **لا تُحَرِّكْ به لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴾ . وروى مسلم عن ابن جبير عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة بتحريك شفتيه ، فقال لى ابن عباس : أنا أحركهما كما كان رسول الله ﷺ يحركهما ، فحرك شفتيه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **لَا تُحرِّك بِهِ لِسَانَكَ** ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَوْلَىَ لَكَ فأَوْلَى * ثُمْ أوْلَى لَكَ فأَوْلَى** ﴾ في اللباب : وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** ﴾ قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم . يخبركم ابن أبي كبشة ، أن خزنة جهنم تسعة عشر ، وأنتم الدهر ، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم ، فأوحى الله إلى رسوله أن يأتى أبا جهل فيقول له : ﴿ **أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى** ﴾ * وأخرج النسائي عن سعيد بن جبير أنه سأل ابن عباس عن قوله : ﴿ **أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى** ﴾ أشىء قاله رسول الله ﷺ من قبل نفسه ؟ أم أمره الله به ؟ قال : بل قاله من قبل نفسه ثم أنزله الله *

سورة الإنسان وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ويُطْعِمُونَ الطَّعَامَ على حُبِّهِ مِسْكِيناً ويتيماً وأسِيرا** ﴾ * روى عطاء عن ابن عباس قال : وذلك أن عليا بن أبي طالب رضي الله عنه نوبة أجر نفسه يسقى نخلا بشيء من شعير ليلة حتى أصبح وقبض الشعير وطحن ثلثه . فجعلوا منه شيئا ليأكلوا يقال له الخزيرة ، فلما أتم انضاجه أتى مسكين فسأله فأطعموه ، ثم عمل الثلث الباقي ، فلما تم انضاجه أتى يتيم فسأله فأطعموه ، ثم عمل الثلث الباقي ، فلما تم انضاجه أتاه أسير من المشركين فأطعموه ، وطووا يومهم ذلك ، فأنزلت فيه هذه الآية * وهو قول عطاء ، وفي الخازن : واختلفوا في سبب نزول هذه الآية ، فقيل نزلت في رجل من الأنصار يقال له أبو الدحداح ، صام يوما فلما كان وقت الافطار جاءه مسكين ويتيم وأسير فأطعمهم ثلاثة أرغفة . وبقى له ولأهله رغيف واحد فنزلت هذه الآية فيه * ثم أورد السبب الذي ذكر *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإذا رأيْتَ ثَمَّ رأيْتَ نعيماً ومُلكاً كبيرا** ﴾ * في اللباب : وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ وهو راقد على حصير من جريد ، وقد أثر في جنبه ، فبكى عمر ، فقال له مايبكيك ؟ قال : ذكرت كسر وملكه ، وهرمز وملكه ، وصاحب الحبشة وملكه وأنت يا رسول الله صلى الله عليك وسلم على حصير من جريد . فقال رسول الله ﷺ : أم ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ فأنزل الله : ﴿ **وإذا رأيْتَ ثَمَّ رأيْتَ نعيماً ومُلكَاً كبيراً** ﴾ * ولم أجد غيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ولاَ تطْعْ مِنهُمْ آثِماً أوْ كفُوراً** ﴾ . في اللباب : وأخرج عبد الرزاق وابن جرير ، وابن المنذر عن قتادة أنه بلغه أن أبا جهل قال : لئن رأيت محمداًيصلى لأطأن عنقه . فأنزل الله ﴿ **ولاَ تُطِعْ مِنهُمْ آثِماً أوْ كفوراً** ﴾ * وهو بعيد الارتباط جداً . ففى الخازن : قيل أراد به أبا جهل . وذلك أنه لما فرضت الصلاة على النبي ﷺ نهاه أبو جهل عنها ، وقال : لئن رأيت محمداً يصلي .. وهنا تم احكام الصلة بين المعنى والسبب . أى لا تطيعه : وقيل : إن عتبة بن ربيعة قال

للنبي ﷺ : اترك الصلاة وأنا أزوجك ابنتي وأسوقها إليك بلا مهر . وقيل : قال له الوليد بن المغيرة : أنا أعطيك من المال حتى ترضى إذا رجعت عن هذا الأمر . أى فلا تطع واحداً منهما ولا من غيرهما .

سورة المرسلات وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لَهُمُ اركعوا لا يركعُون** ﴾ في اللباب . اخرج ابن المنذر عن مجاهد في الآية . ﴿ **وإذا قيل لَهُمُ ارْكعُوا لا يَرْكعُونَ** ﴾ قال : نزلت في ثقيف * أي لا يصلون . ولم أجد غيره *

سورة النبأ وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النّبإِ الْعَظِيمِ** ﴾ * في الواحدي : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال : لما بعث النبي ﷺ جعلوا يتساءلون بينهم فنزلت : ﴿ **عمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النّبإِ الْعَظِيم** ﴾ * وكذا في النهر *

سورة النازعات وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قالُوا تِلْكَ إذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ** ﴾ في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس : أن مشركى أهل مكة سألوا النبي ﷺ ، فقالوا : متى تقوم الساعة استهزاء منهم : فأنزلَ الله : ﴿ **يسألُونَكَ عَنِ السَّاعَةَ أيان مُرْساها ...** ﴾ وأخرج الطبراني وابن جرير عن طريق بن شهاب قال : كان رسول الله ﷺ يكثر ذكر الساعة حتى نزلت : ﴿ **فِيمَ أنْتَ مِنْ ذاكْراهَا إلى ربّك منتهاهَا** ﴾ *

سورة عَبَسَ وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **عَبَسَ وتَوَلَّى أنْ جاءَهُ الأعْمى** ... ﴾ الآيات . هو ابن مكتوم ، وذلك أنه أتى النبي ﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة ، وأبا جهل بن هشام ، وعباس بن عبد المطلب ، وأبيا وأمية ابنى خلف . ويدعوهم إلى الله تعالى ، ويرجو إسلامهم ، فقام ابن مكتوم . وقال يا رسول الله : علمنى مما علمك الله ، وجعل يناديه ويكرر النداء ، ولا يدرى أنه مشتغل مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه ، وقال في نفسه : يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد ، فعبس رسول الله ﷺ ، وأعرض عنه ، وأقبل على القوم الذين يكلمهم ، فأنزل الله تعالى الآيات : فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه ، وإذا رآه يقول : مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى . وهو قول واحد .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قُتِلَ الإنسانُ ما أكْفَرَهُ** ﴾ في اللباب : أخرج ابن المنذر عن عكرمة في الآية قال : نزلت عتبة بن أبي لهب حين قال : كفرت برب النجم * وكذا في الخازن . وفيه : وقيل في أمية بن خلف . وقيل : في الذين قتلوا يوم بدر . وقيل الآية عامة في كل كافر * وهو الأصح لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . والمراد بالانسان هنا جنس الكافر والمراد بالقتل اللعن . أي لعن الكافر *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لِكُلِّ امْرِيءٍ منهُمْ يومَئِذٍ شأنٌ يُغنِيه** ﴾ . روى عائذ بن شريح الكندى قال : سمعت أنس بن مالك قال : قالت عائشة للنبي ﷺ : أنحشر عراة ؟ قال : نعم قالت : واسوأتاه !! فأنزل الله : ﴿ **لِكُلِّ امْرِيءٍ مِنهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنيه** ﴾ * وعبارة الخازن : عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : تحشرون حفاة عراة غرلاً ، فقالت امرأة : أيبصر أحدنا ، أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال يا فلانة : لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . أخرجه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

سورة الانفطار ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها الإنسانُ ما غرَّك بِرَبّكَ الكريم** ... ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية : قال نزلت في أبي بن خلف * وفي الخازن : وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة . وقيل : في أبي الشريف ، واسمه أسيد بن كلدة ، وقيل : كلدة بن خلف وكان كافراً ضرب النبي ﷺ فلم يعاقبه الله ، وأنزل الله هذه الآية ، وقيل الآية عامة في كل كافر وعاص . وهو الأصح .

سورة التكوير وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وما تَشَاؤنَ إلاَ أنْ يَشَاءَ الله ربُّ العالمين** ﴾ . في الواحدي : روى سعيد بن عبد العزيز عن سلمان بن موسى قال : لما أنزل الله عز وجل : ﴿ **وما تشاؤن إلاَّ أنْ يَشَاءَ الله** ... ﴾ وفي اللباب : أن القائل أبو جهل * ولم أجد غيره .

سورة المطفّفين ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَيْلٌ للمطفّفين** ... ﴾ روى عكرمة عن ابن عباس قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَيْلٌ للمطفّفين** ... ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك * قال القرطبي : كان بالمدينة تجار يطففون ، وكانت بيعاتهم تشبه القمار . المنابذة والملامسة والمخاطرة . فأنزل الله تعالى هذه الآية . فخرج رسول الله ﷺ إلى السوق وقرأها * وقال السدي : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وبها رجل يقال له أبو جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ، ويكتال بالآخر * فأنزل الله تعالى هذه الآيات *

سورة الطارق ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ والسَّمَاءِ والطَّارِق * ومَا أدْرَاك مَا الطَّارِق ﴾ * في الواحدي : نزلت في أبي طالب ، وذلك أنه أتى النبي ﷺ بخبز ولبن ، فبينما هو جالس إذا انحط نجم فامتلأ ما ثم نارا ، ففزع أبو طالب ، وقال : أي شيء هذا ؟ فقال : هذا نجم رمى به ، وهو آية من آيات الله . فعجب أبو طالب . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وكذا في الخازن *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ فلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ... ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية : قال : نزلت في أبي الأشد ، كان يقوم على الأديم ، فيقول يا معشر قريش : من أزالني عنه فله كذا ، ويقول : إن محمداً يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر . فأنا أكفيكم وحدي عشرة ، واكفوني أنتم تسعة *

سورة الأعلى ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ سنُقْرِئُكَ فلَا تَنْسَى ﴾ في اللباب : أخرج الطبراني عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ إذا أتاه جبريل بالوحى لم يفرغ جبريل من الوحى حتى يتكلم النبي ﷺ بأوله مخافة أن ينساه ، فأنزل الله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فلاَ تَنْسَى ﴾ قال السيوطي : في إسناده جويبر ضعيف جداً . والقول في الخازن *

سورة الغاشية ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أفَلاَ يَنْظُرُونَ إلَى الإبِلِ كَيفَ خُلِقَتْ ... ﴾ والآيات في اللباب : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : لما نعت الله ما في الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة فأنزل الله : ﴿ أفَلاَ ينظرونَ إلى الإبِلِ كيْفَ خلِقَت ... ؟ ﴾ . وكذا في الخازن *

سورة الفجر ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ** ... ﴾ الآيات . في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن بريدة في الآية .. قال : نزلت في حمزة * وأخرج من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : من يشترى بئر رومة يستعذب بها غفر الله له . فاشتراها عثمان ، فقال : هل لك أن تجعلها سقاية للناس ؟ قال : نعم ، فأنزل الله في عثمان : ﴿ **يا أيتها النّفسُ الْمُطْمَئِنَّةُ** ... ﴾ * والأصح أنها عامة في كل مؤمن اطمأن قلبه بلقاء الله ، وأخلص عمله لله *

سورة اللّيل ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى** ... ﴾ * في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة . أن أبا بكر أعتق سبعة كلهم يعذب في الله . وفيه نزلت * إلى آخر السورة * وأخرج الحاكم عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : قال أبو قحافة لأبي بكر : أراك تعتق رقابا ضعافا ، فلو أنك أعتقت رجالا جلدا يمنعونك و يقومون دونك يا بني ، فقال : إنما أريد ما عند الله ، فنزلت هذه الآية فيه . ﴿ **فأمّا مَن أعطَى واتّقَى** ... ﴾ إلى آخر السورة . وأخرج البزار عن ابن الزبير قال : نزلت هذه الآية ﴿ **وما لِأحَدٍ عنده من نِعْمةٍ تُجزىٰ** ... ﴾ إلى آخرها في أبي بكر الصديق ، وفي الواحدي : روى عطاء عن ابن عباس أن بلالا لما أسلم ذهب إلى الأصنام فسلح عليها ، وكان عبداً لعبد الله بن جدعان ، فشكى إليه المشركون ما فعل ، فوهبه لهم ومائة من الإبل ينحرونها لآلهتهم ، فأخذوه وجعلوا يعذبونه في الرمضاء وهو يقول : أحد أحد ، فمر به رسول الله ﷺ فقال : ينجيك أحد أحد ، ثم أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر أن بلالا يعذب في الله ، فحمل أبو بكر رطلا من ذهب . فابتاعه به ، فقال المشركون : ما فعل أبو بكر ذلك إلا ليد كانت لبلال عنده ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وما لأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمةٍ تُجزى** ... ﴾ إلى آخر السورة .

سورة الضُحى ...

بسم الله الرحمن الرحيم

في الواحدي . روى الأسود بن قيس عن جندب قال : قالت امرأة من قريش للنبي ﷺ : ما أرى شيطانك إلا ودعك ، فنزل : ﴿ **والضحى** ﴾ إلى ﴿ **وما قلَى** ﴾ * رواه البخاري عن أحمد بن يونس عن زهير عن الأسود . ورواه مسلم عن محمد بن رافع عن يحيى بن آدم عن زهير * وفي رواية هشام بن عروة عن أبيه قال : أبطأ جبريل عليه السلام على النبي ﷺ ، فجزع جزعاً شديداً ، فقالت خديجة : قد قلاك ربك لما يرى من جزعك ، فأنزل : والضحى والليل إذا سجَى * ما وَدّعَكَ ربُّك وما قلَى * قلت : والمشهور أن هذا قول أم جميل زوجة أبي لهب . ويمكن الجمع بينهما بأن خديجة أم المؤمنين قالت ذلك توجعا ، وأم جميل شماتة . والله أعلم . وحدث أبو النعيم عن حفص بن سعيد القرشي قال: حدثتني أمي عن أمها خولة ، وكانت خادمة رسول الله ﷺ أن جرواً دخل البيت ، فدخل تحت السرير فمات ، فمكث رسول الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه الوحي . فقال يا خولة : ما حدث في بيتي ، جبريل عليه السلام لا يأتيني ؟ قالت خولة : لو هيأت البيت وكنسته تحت السرير ، فإذا بشيء ثقيل ، فلم أزل حتى أخرجته فإذا جروٌ ميت ، فأخذته فألقيته خلف الجدار ، فجاء نبي الله ﷺ ترعد لحياه ، وكان إذا نزل الوحي استقبلته الرعدة ، فقال يا خولة دثريني . فأنزل الله تعالى : ﴿ **والضحى والليلِ إذا سَجَى . ما ودَّعَك ربُّك وما قلَى** ﴾ * وفي اللباب : قال الحافظ ابن حجر : قصة ابطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب لنزول الآية غريب بل شاذ مردود بما في الصحيح *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وللآخِرَة خيْرٌ لك مِنَ الأُولى * ولَسَوْف يُعْطِيك ربُّك فَتَرْضى** ﴾ * في الواحدي : روى علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال : رأى رسول الله ﷺ ما يفتح على أمته من بعده ، فسر بذلك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **وللآخِرَةُ خيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولى * ولَسَوف يُعْطِيكَ رَبُكَ فَترضَى** ﴾ قال فأعطاه ألف قصر في الجنة من لؤلؤ ترابه مسك في كل قصر منها ما ينبغي له * وفي اللباب : وأخرج

الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : عرض علي ما هو مفتوح لأمتي بعدي فسرني ، فأنزل : ﴿ **وللآخِرَة خير لك من الأولى** ... ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يتيماً فآوى** ... ﴾ * روى عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ إنه قد كانت الأنبياء قبلي منهم من سخرت له الريح ، وذكر سليمان وداود ، ومنهم من كان يحيي الموتى ، وذكر عيسى ابن مريم ومنهم ومنهم ، قال : قال : ألم أجدك يتيما فآويتك ؟ قال : قلت بلى . قال : ألم أجدك ضالا فهديتك ؟ قال : قلت بلى يارب . قال : ألم أجدك عائلا فأغنيتك . قال : قلت بلى يارب . قال : ألم أشرح لك صدرك ؟ ووضعت عنك وزرك ؟ قال : قلت بلى يارب *

سورة ألم نشرح ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **فإنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً** ... ﴾ * في اللباب : قال : نزلت سورة ألم نشرح لما عير المشركون المسلمين بالفقر * وأخرج عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **إنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً** ﴾ قال رسول الله ﷺ : أبشروا أتاكم اليسر لن يغلب عسرٌ يسرين *

سورة التين ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ** ﴾ * في اللباب : أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس في الآية : قال : هم نفر ردُّوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله ﷺ ، فسئل عنهم حين سفهت عقولهم ، فأنزل الله عذرهم أن لهم أجرهم الذى عملوا قبل أن تذهب عقولهم . وفي القرطبي : وقيل : إلاَّ الذينَ آمَنُوا وعملُوا الصالحات فإنهم لا يحزنون ولا تذهب عقولهم * اللهم اجعلنا منهم ياحيي ياقيوم *

سورة العلق ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **كلاً إنّ الإنسَانَ لَيطْغَى** ... ﴾ الآيات .
في اللباب : أخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ فقيل : نعم ، فقال :واللات والعزى لئن رأيته يفعل لأطأن على رقبته ، ولأعفرن وجهه في التراب فأنزل الله : ﴿ **كلاً إنَّ الإنسانَ لَيطْغَى** ... ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **فليَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدعُ الزَّبَانِيَةْ** ... ﴾ إلى آخر السورة . في الواحدي : روى أبو خالد : عبد العزيز بن هندٍ عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يصلى فجاء أبو جهل فقال : ألم أنهك عن هذا التصرف ؟ فانصرف إليه النبي ﷺ فزبره فقال أبو جهل : والله إنك لتعلم ما بها ناد أكثر منى ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **فَلْيَدْعُ نادَيَه * سَنَدعُ الزبانية** ﴾ * قال ابن عباس : والله لو دعا ناديه لأخذه زبانية الله تبارك وتعالى . وفي اللباب : قال الترمذي : حسن صحيح .

سورة القدر ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنّا أنزَلْنَاهُ فيَ لَيلَةِ الْقَدرِ** ... ﴾ إلى آخر السورة * في الواحدي : قال مجاهد : ذكر النبي ﷺ رجلا من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر ، فتعجب المسلمون من ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **إنّا أنزلناهُ في لَيلَةْ القدر** ... ﴾ * وفي اللباب : أخرج الترمذي والحاكم وابن جرير عن الحسن بن علي قال : إن النبي ﷺ رأى بني أمية على منبر فساءه ذلك ، فنزلت : ﴿ **إنّا أعْطيناك الكوثر** ﴾ . ونزلت : ﴿ **إنّا أنزلناه في ليلة القدر** ... ﴾ ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ . يحكمها بعدك بنو أمية . قال القاسم الحرانى : فعددنا وإذا هي ألف شهر لاتزيد ولا تنقص . قال الترمذي غريب . وقال المزني وابن كثير : منكر جداً *

سورة إذا زلزلت ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إذا زُلْزِلَةِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ...** ﴾ روى أبو عبد الرحمن الجيلي ، عن عبد الله بن عمر قال : نزلت : إذا زلزلة الأرض زلزالها . وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد فبكى أبو بكر . فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك يا أبا بكر ؟ قال : أبكاني هذه السورة ، فقال رسول الله ﷺ : لو أنكم لا تخطئون ولا تذنبون لخلق الله أمة من بعدكم يخطئون ويذنبون فيغفر لهم .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذرّةٍ خيْراً يَره ...** ﴾ إلى آخر السورة . قال : مقاتل نزلت في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل ، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ، ويقول : ما هذا شيء ، وإنما نؤجر على ما نعطى وعن ما نحبه . وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير : الكذبة والغيبة والنميمة ، والنظرة ، ويقول ليس علي من هذا شيء إنما أوعد الله النار على الكبائر ، فأنزل الله عز وجل يرغبهم في القليل من الخير ، فإنه يوشك أن يكثر ويحذرهم اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكثر فنزل : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومَنْ يعمل مثقال ذرّة شراً يره** ﴾ * كذا في الخطيب والواحدي .

سورة العاديات ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **والْعَادِيَاتِ ضبحاً ...** ﴾ في الواحدي : قال مقاتل : بعث رسول الله ﷺ سرية إلى حي كنانة ، واستعمل عليهم المنذر بن عمرو والأنصارى ، فتأخر خبرهم ، فقال المنافقون : قتلوا جميعا ، فأخبر الله تعالى عنها ، فأنزل : ﴿ **والْعَادِياتِ ضبحاً** ﴾ – يعنى تلك الخيل * وفي اللباب : أخرج البزار وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ خيلا ولبثت شهرا لا يأتيه منها خبَر فنزلت : ﴿ **والعاديات ضبحاً** ﴾ أي هم في حالة غزو ويغيرون على الأعداء في الصباح بعد أن يبيتوهم في المساء *

سورة التكاثر ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ...** ﴾ في الواحدي : قال مقاتل والكلبي : نزلت في حيين من قريش : بني عبد مناف ، وبني سهم كان بينهم لحا ، فتعاندوا السادة والأشراف أيهم أكثر ، فقال بنو عبد مناف : نحن أكثر سيداً وعزا وعزيزا وأعظم نفرا ، وقال بنو سهم مثل ذلك ، فكثرهم بنو سهم لأنهم كانوا أكبر عددا في الجاهلية * وقال قتادة : نزلت في اليهود . قالوا : نحن أكثر من بنى فلان وبنو فلان أكثر من بنى فلان ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلالا . وكذا بقية الأقوال نحو ما ذكر ، أي في تفاخر الناس وتكاثر بعضهم على بعض وهو مذموم في الشرع .

سورة الهمز ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة ...** ﴾ * في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم ، عن عثمان وابن عمر قال : مازلنا نسمع أنه : ﴿ **وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ ...** ﴾ نزلت في أبي بن خلف * وأخرج ابن المنذر عن ابن اسحاق قال : كان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه ، فأنزل الله : ﴿ **ويْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ ...** ﴾ السورة كلها *

سورة الفيل ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ** ﴾ * إلى آخر السورة . نزلت في قصة أبرهة ملك اليمن وجيشه بنى بصنعاء كنيسة ليصرف إليها الحجاج عن مكة ، فأحدث رجل من كنانة فيها ، ولطخ قبلتها بالعذرة احتقارا بها فحلف ابرهة ليهدمن الكعبة ، فجاء مكة بجيشه على أفيال مقدمها محمود ،

فحين توجهوا لهدم الكعبة أرسل الله عليهم ما في السورة ، والقصة مشهورة .

سورة قريش ...

بسم الله الرحمن الرحيم

سبب نزول هذه السورة أنها نزلت في قريش : قال عليه الصلاة والسلام والسلام : إن الله فضل قريشا بسبع خصال لم يعطها قبلهم أحد ، ولا يعطها أحداً بعدهم . أن الخلافة فيهم ، والحجابة فيهم ، وأن السقاية فيهم ، ونصروا على الفيل ، وعبدوا الله سبع سنين لم يعبده أحدا غيرهم ، فنزلت فيهم سورة لم يذكر فيها أحد غيرهم ﴿ **لإيلاف قريش** ... ﴾ رواه عمرو بن جعدة عن أبيه ، عن جدته أم هانىء بنت أبي طالب ، في السمين : سأل معاوية ابن عباس : لم سميت قريش قريشا ، فقال : سميت بدابة في البحر يقال لها القرش تأكل ولا تؤكل ، وتعلوا ولاتعلى * وقريش هم ولد النضر بن كنانة ، فكل من ولده النضر فهو من قريش ، ومن لم يلده النضر فليس بقرشى .

سورة الماعون - أرأيت ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أرأيتَ الّذِى يُكَذِبُ بالدِّين** ... ﴾ * في الواحدي : قال مقاتل والكلبي : نزلت في العاصي بن وائل السهمي . وقال ابن جرير : كان أبو سفيان بن حرب ينحر كل يوم جزورين ، فأتاه يتيم فسأله شيئا فقرعه بعصا ،فأنزل الله تعالى : ﴿ **أرأيتَ الّذِى يُكَذِبُ بالدّين** ... ﴾ . وفي الخازن : وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقيل : في عمرو بن عائذ المخزومي . وفي رواية ابن عباس أنها في رجل من المنافقين *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِلمُصَلِّينَ الّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُون** ... ﴾ إلى آخر السورة . في اللباب : أخرج ابن المنذر عن طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ **فَويْلٌ لِلْمُصَلِّينَ** ﴾ الآية . قال : نزلت في المنافقين كانوا يراؤن المؤمنين بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارية *

سورة الكوثر ...

بسم الله الرحمن الرحيم

نزلت سورة الكوثر ، في العاصي . قاله ابن عباس . وذلك أنه رأى رسول الله ﷺ يخرج من المسجد وهو يدخل . فالتقيا عند باب بنى سهم ، وتحدثا . وأناس من صناديد قريش في المسجد جلوس ، فلما دخل العاص ، قالوا : من الذي كنت تحدث ؟ قال : ذلك الأبتر . يعنى النبي ﷺ ، وكان توفى قبل ذلك عبد الله بن رسول الله ﷺ ، وكان من خديجة ، وكانوا يسمون من ليس له ابن ابن ابتر فأنزل الله تعالى هذه السورة ، وفي اللباب : أخرج البزار وغيره بسند صحيح عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة ، فقالت له قريش : أنت سيدهم . ألا ترى إلى هذا المتبصر المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج . وأهل السقاية ، وأهل السدانة ، قال : أنتم خير منه . فنزلت : ﴿ **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ** ﴾ وفي الواحدي : وقال عطاء عن ابن عباس : كان العاصى بن وائل يمر بمحمد ﷺ ويقول : إنى لأشنئوك – لأبغضك – وإنك لأبتر من الرجال . فأنزل الله تعالى : ﴿ **إنّ شانئك هو الأبتر** ... ﴾ من خير الدنيا والآخرة . ونحوها بقية الأقوال ،

سورة الكافرون ...

بسم الله الرحمن الرحيم

نزلت السورة ﴿ **يا أيُّها الكافِرُونَ** * **لا أعْبُدُ مَا تَعبُدُون** ... ﴾ إلى آخر السورة . نزلت في رهط من قريش ، قالوا يا محمد : هلم – اتبع ديننا ونتبع دينك – تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيراً من ديننا قد شركناك فيه ، وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك قد شركت في أمرنا ، وأخذتَ بحظك ، فقال معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **قُلْ يا أيُّها الْكَافِرون** ... ﴾ إلى آخر السورة . فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام ، وفيه الملأ من قريش ، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك * وهو أصح الأقوال . وكذا في القرطبي عن ابن اسحاق وغيره . وفي ابن كثير ، بعد قوله : معاذ

الله أن أشرك به غيره ، قالوا : فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك . قال : حتى أنظر ما يأتي من ربي فأنزل الله : ﴿ **قُلْ يا أيُّها الكَافِرُون** ... ﴾ إلى آخر السورة .. وقيل : إنهم لقوا العباس فقالوا يا أبا الفضل : لو أن ابن أخيك استلم بعض آلهتنا لصدقناه فيما يقول ، ولآمنا بإلهه ، فأتاه العباس فأخبره بقولهم : فنزلت هذه السورة * . وقيل نزلت في أبي جهل والمستهزئين ومن لم يؤمن منهم *

سورة تبّت- المســد

بسم الله الرحمن الرحيم

في الواحدي : سبب نزول السورة : ﴿ **تبّتْ يَدا أبي لَهَبٍ وتبّ** ... ﴾ إلى آخر السورة . روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : صعد رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا . فقال يا صباحاه ! فأجتمعت إليه قريش . فقالوا له ! مالك ؟ قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقون ؟ قالوا : بلى . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ . فقال أبو لهب : **تبًّا** لك ألهذا دعوتنا جميعا . فأنزل الله عز وجل : ﴿ **تَبّتْ يدا أبي لهبٍ وتبَّ** ... ﴾ . وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أنزل الله تعالى - ﴿ **وأنذر عَشِيرَتَكَ الأقربينَ** ﴾ . أتى رسول الله ﷺ الصفا فصعد عليه ، ثم نادى يا صباحاه . فاجتمع إليه الناس من بين رجل يجيء ، ورجل يبعث رسوله ، فقال يا بني عبد المطلب : يا بني فهر : يا بني لؤى : لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟ قالوا : نعم . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ما دعوتنا إلا لهذا . فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ **تبّتْ يدا أبى لَهَبٍ وتبَّ** ... ﴾ وفي اللباب : وأخرج ابن جرير من طريق اسرائيل عن ابن اسحاق عن رجل من همدان يقال له يزيد بن زيد أن امرأة أبي لهب كانت تلقى في طريق النبي ﷺ الشوك فنزلت ﴿ **تبّتْ يَدا أبى لَهَبٍ** ﴾- إلى - ﴿ **وامرأتُه حَمالَة الْحَطَب** ... ﴾ وكذا في القرطبي . وفيه : زاد الحميدى وغيره . فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، وفي يدها فهر من حجارة ، فلما وقفت عليه * أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ ، فلم تر إلا أبا بكر ، فقالت يا أبا بكر : إن صاحبك قد بلغنا أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا

الفهر فاه ، والله إني لقائلة : مذمّما عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا . ثم انصرفت . فقال أبو بكر يا رسول الله : أما تراها رأتك ؟ قال : ما رأتنى . لقد أخذ الله بصرها عني *

سورة الاخلاص ...

بسم الله الرحمن الرحيم

في الواحدي : قال قتادة والضحاك ومقاتل : جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ ، فقالوا : صف لنا ربّك فإن الله أنزل نعمته في التوراة ، فأخبرنا من أي شيء هو ؟ ومن أي جنس هو ؟ أذهب هو أم نحاس ، أم فضة ؟ وهل يأكل ويشرب ؟ وممن ورث الدنيا ، ومن يورثها . فأنزل الله تبارك وتعالى هذه السورة . وهي نسب الله خاصة . وفي رواية الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : انسب لنا ربّك . فأنزل الله : ﴿ **قُلْ هُوَ اللهُ أحد** ... ﴾ . وفي اللباب : أخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة من طريق أبان عن أنس قال : أتت يهود خيبر إلى النبي ﷺ ، فقالوا يا أبا القاسم : خلق الله الملائكة من نور الحجاب ، وآدم من حمأ مسنون . وإبليس من لهب النار . والسماء من دخان . والأرض من زبد الماء ، فأخبرنا عن ربك فلم يجبهم ، فأتاه جبريل في هذه السورة : ﴿ **قُلْ هُوَ اللهُ أحد** ... ﴾ . وكذا في البحر والبيضاوى ، والخازن وغيرهما .

سورة المعوذتين ...

بسم الله الرحمن الرحيم

قال المفسرون : كان غلام من اليهود يخدم النبي ﷺ . فأتت إليه اليهود ولم يزالوا به حتى أخذ مشاطة النبي ﷺ ، وعدة أسنان من مشطه . فأعطاها اليهود فسحروه فيها ، وكان الذي تولى ذلك لبيد بن أعصم اليهودي ، ثم دسها في بئر لبنى زريق . يقال لها دروان ، فمرض رسول الله ﷺ ، وانتثر شعر رأسه ، ويرى أنه يأتى نساءه ولا يأتيهن ، وجعل يدور ولا يدرى ما عراه . فبينما هو قائم ذات يوم أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجليه ، فقال الذي عند رأسه : ما بال الرجل ؟ قال : طب .

قال : وما طب ؟ قال : سحر . قال : ومن سحره ؟ قال : لبيد بن أعصم اليهودي . قال : وبم طبه ؟ قال : بمشط ومشاطة . قال : وأين هو ؟ قال : في جف طلعة تحت راعوفة في بئر ذروان – والجف : قشر الطلع . والراعوفة : حجر في أسفل البئر يقوم عليه المائح . فانتبه رسول الله ﷺ فقال يا عائشة : ما شعرت أن الله أخبرني بدائي ؟ ثم بعث عليا والزبير وعمار بن ياسر فنزحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء ، ثم رفعوا الصخرة ، وأخرجوا الجف ، فإذا هو مشاطة رأسه وأسنان مشطه ، وإذا وتر معقد فيه أحد عشر عقدة مغروزة بالابر ، فأنزل الله : سورة المعوذتين . فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد رسول الله ﷺ عليه خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة ، فقام كأنما نشط من عقال ، وجعل جبريل عليه السلام يقول : بسم الله أرقيكَ . من كل شيء يؤذيك ، ومن حاسد وعين الله يشفيك . فقالوا يا رسول الله : أولا نأخذ الخبيث فنقتله ؟ فقال : أما أنا فقد شافاني الله ، وأكره أن أثير على الناس شراً . وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : سحر النبي ﷺ حتى أنه ليتخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله حتى إذا كان يوم وهو عندى دعا الله ودعا ، ثم قال : أشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيه فيه ؟ قلت : وما ذاك يا رسول الله : قال : أتاني ملكان . وذكر القصة بطولها رواه البخاري عن عبيد بن اسماعيل عن أبي أسامة . وكذا في الخطيب والمواهب وغيرهما : قال الراغب تأثير السحر في النبي ﷺ لم يكن من حيث أنه نبي ، وإنما كان في بدنه من حيث أنه إنسان أو بشر كما كان يأكل ويتغوط ويغضب ، ويشتهي ويحرض ، فتأثيره فيه من حيث هو بشر لا من حيث هو نبي . وإنما يكون ذلك قادحاً في النبوة لو وجد للسحر تأثير في أمر يرجع للنبوة ، كما أن جرحه وكسر ثنيته يوم أحد لم يقدح فيما ضمن الله له من عصمته في قوله : ﴿ **والله يَعْصِمُكَ مِنَ النّاس** ﴾ وكما لا إعتداد بما يقع في الإسلام من غلبة بعض المشركين على بعض النواحي فيما ذكر من كمال الإسلام في قوله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أكملتُ لكُمْ دينكُمْ** ﴾ الكرخى * وعند البيهقي عن ابن عباس : مرض رسول الله ﷺ . وحبس عن النساء والطعام والشراب * فدلت هذه الطرق على ما قاله الراغب . أن السحر إنما تسلط على ظاهر جسده لا على عقله .

وهل للسحر تأثير ؟ مذهب أهل السنة أنه حق وله حقيقة ، ويكون بالقول والفعل . ويؤلم ويمرض ويقتل ويفرق بين الزوجين – بإذن الله – وقالت المعتزلة وأبو جعفر من الشافعية . وأبو بكر الرازي من الحنفية : إن السحر لا حقيقة له إنما هو تخيل . وبه قال البغوى . واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ **يُخيَّلُ إلَيْهِ من سِحْرِهم أنّها تَسْعَى** ﴾ وذهب قوم إلى أن الساحر قد يقلب بسحره الأعيان ، ويجعل الإنسان حماراً بحسب قوة السحر . وهذا واضح البطلان لأنه لو قدر على هذا لقدر أن يرد نفسه إلى الشباب بعد الهرم . وأن يمنع نفسه من الموت . وهو محال * * * وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين *

إلى هنا تم بعونه تعالى كتاب جامع النقول في
أسباب النزول وكان الانتهاء منه يوم الاثنين الموافق لليوم الثاني
من شهر شعبان عام ١٤٠١ هجرى (٤) حزيران
١٩٨١ ميلادى

الفهـــــرس

الموضــــــوع	الصفحة

سورة الأنعام وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

ســورة الأنفـــــال

الموضـــــوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

ســورة يــونس

ســورة هـود وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

ســورة يوسف وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

الموضـــوع — الصفحة

سـورة الرعـد

أقوال العلماء في المحو والإثبات

سـورة إبراهيم

سـورة الحجـر

سـورة النحـل

سورة بنى إسرائيل وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

الموضــــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

ســورة الحــــج

ســورة المؤمنـــون

ســورة النـــور

ســورة الفرقـــان

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

سـورة ص

سـورة الزمـر

سـورة السجـدة ـ فصـلت

سـورة الشـورى

سـورة الزخـرف

سـورة الـدخان

سـورة الجـاثيـة

سـورة الأحقـاف

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع — الصفحة

سـورة النجـــم

سـورة القمـــر

سـورة الرحمٰـن

سـورة الواقعـة

سـورة الحديـد

سـورة المجـادلـة

سـورة الحشـر

سـورة الممتحنـة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

جامع النقول في أسباب النزول

صـــدر الإذن بطباعة هذا الكتاب من :

١ ــ الإدارة العامة لشئون المصاحف ومراقبة المطبوعات برئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد برقم ٥/٧٩١٠ وتاريخ ١٤٠٤/٥/٧هـ.

٢ ــ ومن المديرية العامة للمطبوعات بوزارة الاعلام برقم ٥٥٨٠م وتاريخ ١٤٠٤/٨/١٤هـ.

مطابع الإشعاع الصناعية : ٤٤٨٦٣٥٨ الريل : ٤٠٤١٣٦٦

المملكة العربية السعودية ـ الرياض تلفون شارع الريل ٤٠٤١٣٦٦ ـ الصناعية ٤٤٨٦٣٥٨

Saudi Arabia - Riyadh Tel. Rael Street 4041366 - Industrial Area 4486358